الجزائر 2007
عاصمة الثقافة العربية

الدكتور أبو القاسم سعد الله

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الأول

دار البصائر
الجزائر

الدكتور أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الأول

عاصمة الثقافة العربية

دار البصائر
الجزائر

طبعة خاصة
دار البصـــائـر
2007

ردمك : 1 - 30 - 887 - 9961 - 978
الايداع القانوني : 2007 - 3315

دار البصــــائـــر
للنشر والتوزيـــع
50 شارع طرابلس ـ حسين داي ـ الجزائـــر
الهاتف/فاكس : 27/25 – 36 – 77- 021

أبحاث وآراء
في تاريخ الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

عندما صدر الجزء الأول من موسوعة (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) منذ أكثر من عشر سنوات ، لم أكن أتوقع أن العمر سيمتد بي إلى أن يصدر الجزء الثالث ، وربما الرابع ـ ان شاء الله ـ . كنت أقوم بأبحاثي ثم ألقيها أو أنشرها ، ثم أجمعها في كتاب لكي ينتفع بها من لم يسمعها ملقاة أو يقرأها في جريدة أو مجلة . ولذلك يصدر الآن الجزء الأول في طبعته الثالثة ، والجزء الثاني في طبعته الثانية ، والجزء الثالث في طبعته الأولى . وقد سبق طبع الأول والثاني في الجزائر ، أما الثالث فيطبع في المشرق لأول مرة . واني سعيد الآن بطبع الأجزاء الثلاثة ونشرها في الساحة العربية التي طالما حرمت من الانتاج الجزائري ، تاريخاً وأدباً وفناً .

سيلاحظ القارىء العربي أن اهتمامنا بقضايا التاريخ قد لا يكون هو نفس اهتمامات المثقفين في المشرق . ويرجع ذلك إلى أن تاريخ الجزائر قد تعرض الى تشويه فظيع على أيدي كتاب (المدرسة الاستعمارية) في غياب (مدرسة وطنية) موازية . وحين حصلنا على استقلالنا كان علينا أن نصفي تاريخنا من روح الاستعمار وأن نلجأ في ذلك الى العلم والمنهجية واللغات الأخرى ، لأن مؤرخي الاستعمار قد استعملوا كل ذلك ضدنا .

كما سيلاحظ القارىء العربي أن هناك اهتماماً في هذه الموسوعة

بالتراث العربي الاسلامي للجزائر . ذلك أن من سيئات العهد الاستعماري هو اهمال الرصيد الثقافي الذي أسهم فيه كل الجزائريين عبر العصور . وهو الرصيد الذي يشهد على تواصل الرسالة الحضارية للأمة العربية ـ الاسلامية . وان بعث هذا الرصيد اليوم يدخل في نظرنا ضمن تأصيل مستقبل الجزائر الذي تذهب بعض المذاهب الى أنه مستقبل يقوم على التعددية اللغوية والثقافية ، ومن ثمة نفي الأصالة العربية والاسلامية للجزائر كلها .

وما دام لكل جزء من الموسوعة مقدمة خاصة به ، فلأكتف هنا بدعوة المؤرخين العرب ، ولا سيما طلاب التاريخ في المعاهد والجامعات ، الى الاهتمام بتاريخ الأمة العربية ـ الإسلامية في شموليته ، وإلى اعادة النظر في المعطيات التاريخية التي يقدمها الآخرون عنا ، وإلى التسلح بالمناهج العلمية لمواجهة تحديات المرحلة . وإذا كان من حسن حظ القارىء العربي في المشرق أنه لا يقرأ عادة الا ما كتبه علماء بلاده ، فانه من سوء حظ القارىء المغاربي عموماً ، والجزائري خصوصاً ، أنه قلما يقرأ التاريخ بأقلام علماء بلاده ، فمدرسة التاريخ المكتوب بالعربية في الجُزائر ، مثلاً ، ما تزال في طور التكوين . ولكن هذا ليس دعوة مني لغلق الأبواب على ما كتبه الآخرون عنا ، ولا احتكار التاريخ من قبل فرد أو فئة ، ولكنها فقط دعوة إلى أن يتحصن القارىء العربي ـ في المشرق وفي الجزائر على السواء ـ بشخصيته الحضارية ثم ينطلق في ميدان المعرفة الرحب ، دون عقدة .

ولا يسعني الا أن أهدي هذه الطبعة بالذات التي تضم لأول مرة أجزاء الموسوعة الثلاثة في طبعة واحدة ، الى كل الباحثين العاملين على ترسيخ تقاليد التواصل الحضاري بين المغرب العربي والمشرق ، والى الناشرين الذين يساعدونهم على أداء هذه الرسالة المقدسة . وفق الله الجميع .

أبو القاسم سعد الله

الجزائر في 19 فبراير 1990

مقدمـــة الطبعـة الأولى

هناك مواقف وتفاسير كثيرة فى تاريخ المغرب العربي تحتاج الى تصحيح واعادة نظر . فمن الشائع عندنا مثلا أن البربر قد قاوموا « العــرب » مقاومة شديدة أيام الفتح الاسلامي . وقد روج لهذه الفكرة الجهلة من المؤرخين الأولين وتناقلتها الرواة بدون تساؤل أو تمحيص . وعندما جاءنا الاستعمار الأروبي الحديث (حديث بالنسبة للاستعمار الأروبي القديم أو الروماني والبيزنطي والوندالي) وجد فى تلك الرواية مادة خصبة فراح مؤرخوه يضخمونها ويزيدون عليها وينسجون من حولها الأساطير ، مستهدفين احداث الشقاق بين أبناء البلــد الــواحد لكي يستريحوا هم ويطول بهم المقام .

وقد آن الأوان لتصحيح هذا الخطأ الشائع ودحض الروايات المغرضة . ذلك أن الصراع لم يكن بين « بربر » و « عرب » ولكن بين البيزنطيين والمسلمين . وقد ابتدأ الصدام بين الطرفين لا فى شمال افريقية ولكن فى الشام ثم امتد الى مصر فليبيا فبقية افريقية الشمالية . وكان ذلك الصدام صداما « دوليا » بكل ما فى هذا التعبير من معنى بمفهومنا الحديث . فالدولة البيزنطية ، التي كانت تستعمر شمال افريقية أيضا كانت تمثل القوة القديمة التي بدأها الضعف بينما الدولة الاسلامية الفتية كانت تمثل القوة الجديدة المنافسة . وكان لابد من تصفية الحساب بين القوتين لأن البحر الأبيض والمنطقة الجغرافية الممتدة من الشام الى جبل طارق لا تتسع لهما معا . فالحروب التي جرت على الساحة المذكورة لم تكن

بين الفاتحين المسلمين وأهل تلك البلاد ولكنها كانت بين الفاتحين المسلمين والقوة البيزنطية المتسلطة على تلك البلاد والتي كانت تخشى ضياع نفوذها الاقتصادي (الاستعمار) والمدني (المسيحي) اذا انتصر المسلمون .

حقا ان سكان الشام الأصليين وسكان مصر وسكان شمال افريقية قد أبدوا مقاومة لطلائع الفتح الاسلامي ولكن مقاومتهم كانت بالتبعية لارادة بيزنطة وليست مقاومة ذاتية . ولو كان الامر يتعلق بمقاومة ذاتية (أو دفاعية وطنية) لكان على هؤلاء السكان أن يحاربوا قبل كل شيء بيزنطة نفسها باعتبارها الدولة المستعمرة المتسلطة عليهم لا أن يحاربوا الى جانبها. ثم انهم ما داموا قد حاربوا الى جانبها فلا يمكن أن تسمى حربهم حربا وطنية أو تحريرية. ويذكرني موقف سكان بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية من القوتين الاسلامية والبيزنطية بموقف أهالي مصر من الصراع الذي كان بين الانكليز وفرنسا النابوليونية ، اذ لا يمكن أن يقال ان المصريين عندئذ كانوا يحاربون الفرنسيين باسم الوطنية والتحرير ، ذلك أنهم في الواقع قد وجدوا أنفسهم في صراع دولي لا ناقة لهم فيه ولا جمل. ونفس الشيء يقال على موقف أهالي شمال افريقية أثناء الحربين العالميتين عندما حاربوا الى جانب فرنسا ضد ألمانيا . فهل يمكن أن يقال مثلا أن الجزائريين قد حاربوا عندئذ باسم الوطنية أو التحرير ضد ألمانيا ؟ لا أظن أن أحدا يقول بذلك ، اذ من المعروف للجميع أن فرنسا قد أجبرتهم على الدخول معها في حرب ضد أعدائها تماما كما حارب بعض أجداد الجزائريين الفاتحين المسلمين بالأمس تبعا لبيزنطة .

ومن جهة أخرى تؤكد الروايات والأبحاث الجديدة أن البربر ليسوا جنسا أو أمة خاصة وان العبارة في حد ذاتها لا تعني شرفا يعتزون به ولا حضارة ينتمون اليها بل تعني الضعة والمرتبة الدنيا بالقياس الى الرومان الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ممتازين . فعبارة (البربر) على هذا النحو لا تعني سكان شمال افريقية فحسب بل تعني كل الشعوب ذات الدرجة

الثانية فى الحضارة ، انها تعني الوحشية فى التصرف والسلوك والعجمة فىاللسان والمنطق.وقد تخلص منها الاروبيون الذين وصفوا بها فأصبحوا « ألمانا » و « فرنسيين » و « سويديين » ونحو ذلك ، وتخلص منها الشرقيون فأصبحوا « فرسا » و « هنودا » و « ومصريين » ونحو ذلك ، ولكنها لصقت بأهالي شمال افريقية حتى كأنها ظلت علما عليهم . لماذا ؟ هل لأن كل الشعوب المذكورة قد اسست حضارة خاصة بها ما عدا أهل شمال افريقيه ؟

وان المرء ليستغرب عندما يقارن بين ما اعتاد الباحثون أن يصفوا به « الانسان العربي » « والانسان الأمازيغي » فالأوصاف هنا وهناك تكاد تنطبق . فكلاهما حسب الروايات محب للحرية الى حد كبير ، وكلاهما ديموقراطي فى أحكامه ، وكلاهما يكره السلطة والتسلط ، وكلاهما أناني الى حد المبالغة . فاذا ما أضيفت هذه الأوصاف الى ما يوجد فى لهجات الأمازيغ من ألفاظ عربية كثيرة (قبل الاسلام وبعده) واذا ما أضيف كل ذلك الى كثير من الأوصاف والسمات الخلقية والخلقية ، ألا يكون كل ذلك مدعاة الى التأكيد من جديد على النظرية القائلة بأن الأمازيغ هم عرب متقدمون فى نزوحهم الى شمال افريقية وان موجة الفتح الاسلامي العربي كانت فرصة التقى بها أبناء العمومة على أرض افريقية بعد أن كانوا قد التقوا على أرض الشام على بعض الروايات او على أرض اليمن على بعض الروايات الأخرى ؟

ولعل ما يؤكد هذا سرعة اعتناق الأمازيغ للاسلام وتبنيهم لغة القرآن الكريم ، ذلك ان الاسلام قد حرر الأمازيغ من الاستعمار البيزنطي وأعطاهم لأول مرة فى تاريخهم الطويل حكم أنفسهم بأنفسهم.فمنذدخول الاسلام أصبحوا « أحرارا » لفظا ومعنى . فالامارات الاسلامية التي ظهرت عندئذ كانت امارات محلية يرأسها أمراء من أهل البلاد . وقد أصبحوا يديرون شؤون أنفسهم بأنفسهم فى السياسة والاقتصاد داخل

الحضارة العربية التي ترمز اليها اللغة ويباركها القرآن . ومعنى هذا أن الاسلام قد منح الاستقلال والحرية لشعب هذه المنطقة ، ومن ثمة تسقط حجة من يدعي ان العرب قد « استعمروا » شمال افريقية اذ لا يكاد يوجد من الحكام الذين تعاقبوا على امارات الجزائر والمغرب وتونس من يمكن أن نجزم بأنه « عربي » بالمعنى الذي يقصدونه . كما تسقط حجة من يزعم ان « الاسلام » قد غزا أهل هذه البلاد لأننا رأينا أن هؤلاء لم يتمتعوا بنعمة الحرية والاستقلال والاسهام الحضاري الا في ظل الاسلام فلا الرومانيون ولا الونداليون ولا البيزنطيون قد سمحوا لأهل البلاد بتطوير حضارتهم وشخصيتهم السياسية أو بظهور كيانهم الدولي .

ومن الأخطاء الشائعة أيضا ما يتناقله الناقلون عن بني هلال . فهم يروون الأخبار بل الأساطير عن همجيتهم ووحشيتهم . فمن قائل انهم كالجراد الذي أكل الأخضر واليابس . ومن قائل انهم كالبرابر الشمالية الذين خربوا العمران وشوهوا الحضارة . لماذا ؟ لأنهم عرب أو أعراب ؛ ولأنهم جاءوا من الشرق لا من الغرب،ولأنهم اختلطوا بالسكان وتزاوجوا معهم ونشروا بينهم اللغة العربية والعادات الشرقية . وقد قال عنهم ابن خلدون كلاما ما يزال محل نظر ولكن الذين يهمهم الأمر من الباحثين على الدس للعرب ومن الشعوبيين والمستعمرين تبنوا هذه الرواية وراحوا يروجون لها ويبثونها في كتبهم ومؤتمراتهم كأنها وحي منزل . والواقع أن مساهمة بني هلال في تاريخ المغرب العربي ، بقطع النظر عن وجهها السياسي ، كانت خيرا وبركة على المنطقة . فقد أفادتها ودعمت فيها الوجود العربي بالمفهوم الحضاري . ولم يكن وجود بني هلال وجودا سياسيا ولا عسكريا لأننا نعرف أنهم قد اختلطوا بالسكان في يسر وسهولة . واذا كانت هناك حروب فهي حروب انتقامية ذات هدف محدود ، وهو هنا السلطة الرافضة لحكم الفاطميين وليس سكان البلاد ولا حضارتهم

وعمرانهم ، ولم يكن هدفهم تأسيس دولة على حساب شعب البلاد التي حلوا بهـا .

وان الدعوى القائلة بأن بني هلال قد قوضوا أركان العمران فى شمال افريقية غير صحيحة تاريخيا . ذلك أن الحضارة الاسلامية كانت تتهاوى فى كل مكان وتظهر عليها علامات الشيخوخة . فوجود بني هلال كان ظاهرة من ظواهر التدهور الحضاري خلال العصور الوسطى . وقـد سبقتهم فى فعل ذلك عوامل كثيرة خارجية وداخلية ، سياسية واقتصادية، فلماذا يتحملون وحدهم ذنب ما حدث ؟

ويتتابع التدهور الحضاري فى العالم الاسلامي عبر القرون حتى نصل الى فاتح القرن السادس عشر فاذا بالجزائر (والمغرب العربي) فريسة للطمع الاسباني والبرتغالي والايطالي ــ وفريسة أيضا للتنافـس الداخلي . واذا بعامل جديد يتدخل فى الموضوع وهو الوجود العثماني على المسرح. فقد غزا آل عثمان القسطنطينية وفتحوها وافتكوا بذلك آخر معقـل لبيزنطة طالما هدد الدولة الاسلامية منذ نشأتها . وجرفت موجة فتوحات آل عثمان بعد ذلك بلاد الشام ومصر ، ونقلوا مركز الخلافة الاسلامية الى اسطانبول وأنجدوا الجزائريين ضد الاسبان ، وضموا فى طريقهم تونس وليبيا . وأصبحت كل هذه الأقطار التي كانت تخضع لامارات محلية متطاحنة ، تدين بالولاء للخلافة الاسلامية والسلطان العثماني .

ولكن عندما يدرس المؤرخون اليوم ما حدث عندئذ يقفون متسائلين : هل جاء العثمانيون الى الجزائر غازين أو منقذين ؟ وهل كان وجودهم خيرا وبركة على البلاد وأهلها أو كان شرا ونقمة عليها ؟ وهل كانت الجزائر فى عهدهم مستقلة أو تابعة ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التي ما زالت لم تنته ولا نتوقع انها ستنتهي ذات يوم . وقد ساعد على تعميـق هـذه التساؤلات وتشعبها ما أثاره الفرنسيون من مقارنات بين أنواع الاستعمار

التي تعاقبت على الجزائر . فهذه فى نظرهم لم تكن فى يوم من الأيـام «أمة» أو حتى «شعبا» يمارس حريته ويتحكم فى مصيره وانما هي أرض مفتوحة تتعاقب عليها الدول الغالبة ابتداء من الفنيقيين والرومان الى الترك والفرنسيين .

ونتيجة لهذا الخلط غير التاريخي ، ظهر تيار حديث فى الجزائر يريد أن يثبت صفة « الامة الجزائرية » منذ العهد الروماني مستدلين على ذلك بمحاولات ماسينيسا ويوغرطة بناء كيان أهلي.وما درى هؤلاء الجزائريون انه لا يضيرهم أن لا يكونوا أمة قبل ألفي سنة ولا حتى بعدها لأن فكرة الأمة نفسها حديثة العهد تعود فقط الى حوالي قرن من الزمان ، ولأن الفرنسيين أنفسهم الذين انكروا عليهم حق تكوين أمة لم يكونوا هم كذلك الا بعد قيام الثورة الفرنسية . وهكذا أصبح المؤرخون الجزائريون اليوم اما أن يزوروا التاريخ ليثبتوا أنهم كانوا أمة قبل الأمم جميعا واما أن يكونوا متواضعين ، لكن صادقين ، فيتحدثون عن وجود شعب جزائري تكون منذ الفتح الاسلامي وانتمى الى الأمة الاسلامية يوم أن كانت هذه الأمة لها رابطة ووحدة حضارية ، وهم اليوم ينتمون الى الأمة العربية ذات العراقة والمجد وهي الأمة التي ساهموا من قبل فى صنع ماضيها وهم يساهمون اليوم فى صنع مصيرها .

وتتعدد القضايا التاريخية منذ الاستقلال . فهناك قضية تثار حول مدى اعتمادنا على ما كتبه المؤرخون الأجانب عنا . وهناك أخرى حول كتابة تاريخ الثورة الجزائرية . وهناك ثالثة عن أهمية المصادر وموقفنا منها ، ورابعة عن قيمة التراث الوطني ، وخامسة عن مواقف الرجال والزعماء كيف يمجدون اذا عملوا وكيف يجرمون اذا انحرفوا . وهكذا .

والواقع أن هذه المقالات فيها الشيء الكثير مما قد أشرت اليه منذ البداية ، ولكنها لا تجيب على كل النقط بطريقة منظمة . فهي تركز خاصة

على العصور الحديثة وتتناول مسائل تكاد تكون مطروقة بكثرة اليوم، ولكنها ما تزال معلقة . وهي لا تدعى انها تقدم الجواب الكافي الشافي على ما طرح ويطرح من أفكار حول المشاكل التاريخية . ولكنها تسلط الأضواء على جوانب من هذه المشاكل . وقد كنت كتبت هذه المقالات فى فترات متباعدة يعود بعضها الى بداية الستينات ويعود آخرها الى الشهور القريبة . وسيلاحظ القاريء أن بعضها عبارة عن أبحاث طويلة وان بعضها عبارة عن اجابات سريعة لبعض السائلين أو تعاليق قصيرة على بعض المواقف . كما انه سيلاحظ انها تضم آراء مترجمة أيضا . وفيها الأبحاث الشخصية المضنية وفيها التعاريف بالكتب،وفيها مايتناول قضايا مجردة وما يتناول القضايا من خلال أشخاص لهم دور في تاريخ البلاد. وقد أشفقت على هذه الأبحاث والمقالات أن تظل متفرقة رغم شدة الحاجة اليها أحيانا فجمعتها على هذا النحو وقدمتها للمطبعة عسى أن يعود اليها الباحثون فى تاريخ الجزائر والدارسون لتاريخ المغرب العربي عامة . ولعلني قد وفقت فى ذلك .

الجزائر ، ماي 1976

أبو القاسم سعد الله
معهد العلوم الاجتماعية ــ جامعة الجزائر

منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر

يذكر السيد بيربروجر ، أول رئيس (للجمعية التاريخية الجزائرية)، أن الفرنسيين قد شرعوا فى ادخال نظمهم العلمية والأدبية والفنية الى الجزائر منذ 1830 ، وتروي الصحيفة الرسمية (المرشد الجزائري Moniteur algérien التي أسسها الفرنسيون سنة 1832 ، انه قد وجدت آنئذ مدرسة للطب ، وجمعية خيرية تقوم بنشاطها فى (جامع السيدة) ، كما شرع فى انشاء مكتبة عمومية ، ومن بين هذه النظم العلمية أيضا الدراسات التاريخية . ففي سنة 1831 أذن بيرتزين ، قائد الجيش الفرنسي ، للسيد شيافى الذي كان عالما أثريا ، بالتنقيب عن الآثار في المنازل والحدائق العامة (1) .

وفى دراستنا لمنهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر سنقصر حديثنا على الفترة الواقعة بين 1830 — 1954 مع بعض الاشارات للعهد العثماني (1500 — 1830) كلما اقتضى الأمر ذلك .

مجالات البحث عند الفرنسيين :

ورغم جهل الفرنسيين أول الأمر بواقع الجزائر وتاريخها ، ورغم انشغالهم بعمليات الحملة والاحتلال وافتقارهم فى البداية الى الذوق الثقافي ، فانهم اتجهوا فى البحث ثلاثة مجالات فى نفس الوقت :

---

1 — بيربروجر فى مقدمة المجلة الافريقية (1856—1857) ، ص 4 .

1 ــ نشر الآثار القديمة عن الجزائر .

2 ــ انشاء اللجان « العلمية » ومنح الرخص للأفراد للقيام بعمليات البحث والجمع والتعريف بالآثار التاريخية في البلاد .

3 ــ تكوين الجمعيات المختصة ، والصحف والدوريات التي تحفظ المكتشفات التاريخية وتعتني وتعرف بها المهتمين .

وفي نطاق المجال الأول نشروا منذ 1830 كتب الرحلات والانطباعات التي كتبها الأوروبيون عن الجزائر خلال العهد العثماني ، مثل شيلروشو وباناتني ورونودو وهايدو وفانتوردي بارادي ، كما نشروا غزوات عروج وخير الدين مترجمة عن النسخة العربية واهتموا (بالزهرة النيرة) وبالوثائق العربية لحملة شارل الخامس على الجزائر . وعادوا الى كتب المؤرخين والرحالة العرب وشرعوا أيضا في نشرها ، جزئيا أو كليا كابن خلدون ، والبكري والعياشي وحسن الوزان (ليون الأفريقي) ، وغيرهم . ومن جهة أخرى نشروا مراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا ، ومذكرات وتقارير القناصل والجواسيس الفرنسيين أمثال دوبوا ــ تانفيل ، وبوتان وكيرسي . واهتموا بأرشيف الغرفة التجارية بمرسيليا وبتقارير الشركات الفرنسية التي توالت على ما كان يسمى (بحصن فرنسا) . وبالاضافة الى ذلك أبدوا عناية بالوثائق العثمانية التي وجدوها في الجزائر والتي ضاع كثير منها ساعة الفوضى التي سادت دخولهم الجزائر (2) .

وبخصوص المجال الثاني (انشاء اللجان العلمية) ، نجد أن اللجنة الأفريقية (3) ، التي زارت الجزائر سنة 1833 بقصد التحقيق في مصير الجزائر ، تنهي أعمالها بتقارير ومحاضر غنية عن الجزائر في مختلف المجالات ، ولا سيما الاقتصادية والاجتماعية ، وفي سنة 1837 أنشأت

2 ــ وليام مارسي في كتاب « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ، باريس ، 1931 ، ص 136 .
3 ــ انظر عنها كتابي « تاريخ الجزائر الحديث ــ بداية الاحتلال » ، القاهرة ، 1970 (معهد البحوث والدراسات العربية) .

وزارة الحربية لجنة باسم (اكتشاف الجزائر العلمي) . وقد قامت بنشر دراسات هامة فى عدة أجزاء عن الآثار والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات . وكذلك قام العديد من الأفـراد يبحثون وينشرون أعمالهم فى التاريخ المحلي ، عن اللهجات ، والطرق والنظم ، وطبائع السكان ، والزوايا ، والحياة القبلية والمدن الخ . وقد ظهرت من ذلك مجموعة من الدراسات والانطباعات التي كتبها عسكريون سنتحدث عن دورهم بعد قليل (4) .

أما المجال الثالث (الجمعيات والصحف) فقد ظهر هو الآخر منذ بداية الاحتلال . فمنذ 26 جوان 1830 ولدت الصحافة بالجزائر فى سيدي فرج . ولعلها لم تكن صحافة بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأن أول جريدة حقيقية أسسها الفرنسيون فى الجزائر هي « المرشد الجزائري » وكانت تهتم بالاضافة الى القرارات والاعلانات الرسمية ، بالتاريـخ المحلي وأخبار المسلمين وحركات الأهالي ، وكان على رأسها السيـد بيربروجر الذي كان له دور فى ادخال كثير من عوامـل الحضـارة الأوروبية الى الجزائر . ثم صدرت جريدة (الأخبار) سنة 1839 ، وكانت هي الأخرى تهتم بالأبحاث التاريخية الى جانب كونها جريدة سياسية اخبارية . وقد اهتمت أيضا (المبشر) التي ظهرت سنة 1847 بالأخبار المحلية وان كانت قليلة ،ولا سيما فى عهدها الأول .

غير أن تأسيس (جمعية قسنطينة للآثار) (5) سنة 1852 قد أدى الى ظهور الدوريات المتخصصة فى الدراسات التاريخية والأثرية . فقد

---

4 ـ ستيفان غزال فى كتاب « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ، ص 7 ـ 8 .

5 ـ يعود الفضل فى تأسيسها الى الضابط كروللي ، والضابط بروسلار ، وشيربونو ، أستاذ العربية .

كانت هذه الجمعية تصدر منذ عامها الأول (تقويما Annuaire تحول فيما بعد الى (مجموعة Recueil) من الدراسات والملاحظات المتعلقة بتاريخ المنطقة . وبوحي من الحاكم العام راندون ظهرت فى مدينة الجزائر سنة 1856 (الجمعية التاريخية الجزائرية) (6) التي أصدرت المجلة الأفريقية (R.A.) وهي المجلة التي أصبحت بعد مائة سنة ونيف مرجعا لا غنى عنه للباحثين فى تاريخ الجزائر فى مختلف عصوره ، ولم تحن سنة 1878 حتى ظهرت فى وهران أيضا (جمعية وهران الأثرية) . وقد أصدرت بدورها (نشرة Bulletin) تضم أبحاث أعضائها ومراسليها عن تاريخ المنطقة . وكل هذه الدوريات استمرت طويلا وأثرت البحث التاريخي فى الجزائر وظهر على صفحاتها جم من العلماء الذين كرسوا أوقاتهم لجمع المعلومات عن التاريخ المحلي .

والى جانب هذه الدوريات والجمعيات ظهرت مكتبة ومتحف الجزائر فقد ظهرت أول نواة (مكتبة مدينة الجزائر) سنة 1835 ولم تبدأ فى العمل فعلا الا خلال سنة 1838 . وبوحي من بريسون المتصرف المدني ، أضيف الى المكتبة (متحف أثري) . وأصبحت المكتبة والمتحف منطلقا للباحثين فى تاريخ الجزائر يجدون فيهما المخطوطات العربية والمطبوعات والآثار التي هي عدة المؤرخ ، والملاحظ أن أول مقر للمكتبة والمتحف هو (دار الحاج عمر) ، صهر الداي حسن باشا وكانت هذه الدار على الطراز الأندلسي الجزائري الجميل . وكانت تتكون من طابقين خصص الطابق الثاني للمكتبة ، وكان يضم أربع قاعات ثلاث منها للكتب والرابعة للمطالعة . والقاعة الأخيرة مقسمة الى جناحين واحد للمطالعين الأوروبيين والثاني للمطالعين الجزائريين .

---

6 — اول مكتب لها كان يتكون من بيربروجر (رئيسا) وعضوية دي سلان ، ودونوفو (كلاهما عسكري) وبريسني (كاتب عام) أستاذ اللغة العربية .

والملاحظ أن الجناح الأول كان يحتوي على الكتب المتعلقة بالجزائر والتي كانت مطلوبة أكثر من غيرها .

أما المتحف فكان فى الطابق الأول من الدار وكان يضم أيضا أربع قاعات ، خصصت ثلاث منها لعرض وحفظ التحف والأشياء الثمينة والخطوط والآلات والآثار والأسلحة والحيوانات الخ .. أما القاعة الرابعة منه فقد خصصت لدرس اللغة العربية الذي كان يقوم به السيد بريسني . وبالاضافة الى مكتبة ومتحف مدينة الجزائر توسعت المكتبات العسكرية التي كانت تتبع الحاميات فى المدن التي وقع احتلالها ، كما تكونت متاحف أخرى مثل متحف شرشال الذي تكون فى الشهور الأولى للاحتلال والذي تخصص تقريبا فى حفظ الآثار الرومانية التي أولاها الفرنسيون اهتماما خاصا (7) .

دوافع البحث فى تاريخ الجزائر :

انطلق الفرنسيون فى كتابتهم تاريخ الجزائر من عدة معطيات أهمها: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة ، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا ، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم . وهذه المعطيات ، متفرقة ومجتمعة ، هي التي قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم ، وهي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين . ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم فى الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم .

وكانت هناك دوافع كثيرة دفعت الفرنسيين الى الاهتمام بالتاريخ الجزائري . فهناك أولا الرغبة فى التعرف على شعب وقع فى قبضة

7 – بيربروجر فى مقدمة « المجلة الافريقية » (1856 – 1857) ، ص 4 – 6 ، أنظر كذلك « لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية » (مجلد 1846–1849) ص 196–197 « مترجمو الجيش الافريقي » وكذلك هنري ماسي « الدراسات العربية فى الجزائر » (1830 – 1930) فاصلة من« المجلة الافريقية » 356 – 357 (1933) ، ص 1 – 3 .

الحضارة الأوروبية . وكانت هذه الحضارة تحمل معها الى الجـزائر كل أدوات الغزو الفكري . فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة،وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الاسلام وتاريخه ، وبالتراجمة الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الأوروبية أو من الذين جاءوا من الشام ومصر بعد أن ارتبطوا بالحضارة الأوروبية عقب حملة نابليون (8) .

وهناك ثانيا دافع السيطرة والاحتلال ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها . ومن أجل ذلك استعان الفرنسيـون أيضا بالـكتـاب الجزائريين ونذكر على سبيل المثال ما كتبه العنتري وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة بوحي من بواسوني ، وما كتبه محمد بن على التلمساني عن علماء وهران وتلمسان بوحي من عامل وهران الفرنسي . ومـا ترجمه ونشره ابن أبي شنب والحفناوي وغيرهما بتحريض من الحاكم العام جونار وجملة من الباحثين الفرنسيين .

وهناك ثالثا دافع الفضول العلمي . فقد احتلت الجزائر فى وقت كان فيه العقل الأروبي (الديكارتي) جامحا يتطفل على ميـادين المعرفـة ويجوب آفاق الحياة يكتشف أسرارها ويذوق لذاتها ويحاول السيطرة على المجهول والمخيف منها . بينما العقل الشرقي (الجزائري) كان ما يزال راكدا قابعا . ومع سيادة العقل الأروبي ظهرت فكرة التمايز والتفاضل بين الشعوب فأصبح هناك علماء يؤمنون بأفضلية الشعوب الأوروبية على الشعوب غير الأروبية ، وينادون بضرورة « تمدين » هذه الأخيرة بواسطة الأولى ، وهم يطالبون بذلك لا على أنه تمنيات وأمل ولكن على أنه (رسالة حضارية) لا بد من القيام بها والعمل

8 — مثل جورج غروي وجوني فرعون . أنظر شارل فيرو « مترجمو الجيش الافريقي » وكذلك هنري ماسي « الدراسات العربية فى الجزائر » (1830 — 1930) فاصلة من « المجلة الافريقية » 356 — 357 (1933 ص 1-3)

من أجلها . وسنرى أن كتاب التاريخ الجزائري من الفرنسيين كانو من دعاة هذا المذهب .

وهناك أخيرا دافع الدين فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين أوروبا المسيحية دام ثلاثة قرون . والأوروبيون يطلقون على ذلك عهد القرصنة (9) ، وهو فى الواقع كان الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية . ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر أولا لمعرفة أسرار العهد المشار اليه ، وثانيا لتحطيم المعنويات التي قد تحدث تغييرا جذريا بعد نجاح الاحتلال . وسنرى أنهم اهتموا بالدراسات الاسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوي النفوذ الروحي ، تمشيا مع هذا الاتجاه . كما شاركت الكنيسة ، بواسطة رجال التبشير ووسائلها المعنوية والمادية فى تبني هذا الاتجاه (10) .

ويمكن أن نقسم فترات البحث فى تاريخ الجزائر الى عهدين كبيرين هما : عهد المؤرخين العسكريين وعهد المؤرخين المختصين أو الجامعيين . وسندرس فيما يلي أهم ما تميز به كل عهد من الاهتمامات وأشهر رجال كل عهد .

عهد المؤرخين العسكريين 1830 — 1880 :

يطلق المؤرخ ستيفان غزال على هذا العهد اسم (المدرسة الجزائرية القديمة) (11) فى كتابة التاريخ . ذلك أن الذين تولوا كتابة تاريخ

---

9 — يقول الفريد بيل ان حكومة الاتراك فى الجزائر كانت حكومة قراصنة ، جعلت القرصنة البحرية نظاما لها . وكان أعضاؤها أتراكا أو مرتدين مسيحيين . وكان اسلامهم « خفيفا » . انظر « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ص 194 .

10 — منذ السنوات الاولى للاحتلال كانت صحيفة (المرشد الجزائري) تتحدث عن تأثير الكنيسة على الجزائريين . وسنة 1841 كون (دوبوش) رئيس كنيسة الجزائر جمعية باسم (جمعية سان أوغسطين) .

11 — انظر « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ص 7 — 8 .

الجزائر ، الاقتصادي والسياسي والاداري خلال هذا العهد هم كتاب عسكريون بالمهنة أو تراجمة عسكريون وقد ظلت الادارة الفرنسية فى الجزائر عسكرية من 1830 الى 1871 (باستثناء سنتي 1858 — 1860) . وان هناك مناطق من الجزائر ظلت عسكرية الى قيام الثورة. ولذلك فانه يمكن أن يقال بأن الحكم الفرنسي فى الجزائر كان حكما عسكريا بالنسبة للجزائريين حتى عندما كان حكما مدنيا بالنسبة للأوروبيين المقيمين بالجزائر . ذلك أن الادارة الفرنسية قد اعتمدت فى (الشؤون الأهلية) على ضباط كانوا يتكونون تكوينا خاصا ثم تسند اليهم وظيفة محلية محددة كان يطلق عليها اسم (المكتب العربي) . وشيئا فشيئا أصبحت (المكاتب العربية) هي فى الواقع الحكومة المحلية التي تباشر تسيير شؤون الجزائريين . وقد اختلفت ادارة شؤون الأروبيين من عهد الى عهد . ولكنها بالنسبة للجزائريين ظلت تعتمد على (المكاتب العربية) حتى 1871 . وعندما تحولت الادارة العليا الى ادارة مدنية فى عهد الجمهورية الثالثة أصبح الجزائريون خاضعين لاجراءات لا تختلف عن مزيج من الادارة العسكرية والبوليسية .

ومن هنا لا نستغرب أن يتولى العسكريون وهم الذين كانوا على صلة مباشرة بالجزائريين كتابة تاريخ محكوميهم . فخلال العشر سنوات الأولى من الاحتلال ظهر كتاب عسكريون أمثال كاريت ، وبيليسي وهانوتو ، وديلامار ، وغيرهم . وقد شارك هؤلاء فى « اللجنة العلمية » التي أشرنا اليها (1837) والتي كونتها وزارة الحربية لاكتشاف الجزائر ومعرفة أحوال أهلها الماضين . وهكذا كتب كاريت عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها ، وكتب بيليسي دي رينو كتابه (أخبار الجزائر) الذي أرخ فيه للثماني عشرة سنة الأولى من الاحتلال . كما كتب هانوتو عن لهجات ونظم الجزائريين ، وجمع

دي سلان الذي ترجم تاريخ ابن خلدون وجغرافية البكري وغيرهما ، واختص الضابط بروسلار بالخط العربي . وقام فورنيل بكتابة تاريخ شمال أفريقية فى العصور الوسطى أما لاكروا فقد نشر دراسات عن الاستعمار والادارة الرومانية فى أفريقية . ومن كتاب هذا العهد أيضا بيربروجر الذي ملأ (المجلة الأفريقية) بمقالاته عن أخبار الجزائر سواء التي جمعها مباشرة أو التي ترجمها عن كتاب مسلمين مثلما فعل مع رحلة العياشي .

واذا كان هؤلاء قد التفوا حول (اللجنة العلمية) فان هناك جماعة أخرى من الباحثين العسكريين قد التفوا حول مشروع (لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية فى الجزائر) وقد ظهر من هذا المشروع الضخم سبعة عشر مجلدا ، بين سنوات 1843 — 1864 . وفيه دراسات احصائية وغوص فى حياة السكان . ورغم قدم العهد فان هذه المجلدات ما تزال مرجعا للباحثين . ومن كتاب هذا العهد شارل فيرو ، والاسكندر بيلامار ، وارنو ، وولسن ايسترهازي ، وروبان ، وترملي ولويس رين ، وغيرهم . وبالاضافة الى مشروع (اللوحة) تجمع هؤلاء حول (جمعية قسنطينة للآثار) و (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتيهما . وقد أمدوا هذه المنشآت بالدراسات والمذكرات عن القبائل وزعمائها والطرق والآثار والتواريخ المحلية ، واللهجات والنظم والشخصيات السياسية التي لعبت دورا فى تاريخ الجزائر كالأمير عبد القادر ، والحاج أحمد وبومعزة ، وبوبغلة ، والحوادث الهامة كالمعارك والثورات ، ودور بعض العائلات والطرق الصوفية ، ولا نكاد نجد تاريخا لحروب الأمير ، ونزاع الحاج أحمد مع خصومه فى الزيبان وحوادث جرجرة ، وثورات أولاد سيدي الشيخ وثورة

1871 ونحوها الا بالعودة الى كتابات بيلامار ، وزيروكا ، وروباذ ، ورين ، وتروملي ، دوماس ، دونوفو ، واضرابهم (12) .

وقد اعتمد هؤلاء فى كتاباتهم على المصادر الأهلية فى غالب الأحيان. وهذه المصادر على نوعين مكتوبة وشفوية . ومن المصادر المكتوبة وثائق العائلات الكبيرة ، وعقود الملكية ، ومذكرات رجال العلم الجزائريين . أما المصادر الشفوية التي اعتمدوا عليها أكثر من الأولى ، فقد جعلتهم يسجلون قصصا وأحداثا من مختلف المشارب والأنواع (13) ، وقد ساعدت الادارة هؤلاء الباحثين بجمع ما تفرق من الوثائق العربية والتركية التي وجدها الفرنسيون ساعة دخولهم الجزائر ، وفى هذه الوثائق معاهدات ، ودفاتر حساب ، وسجلات عسكرية ، وعقود وأوراق ادارية ، فقد أنشئت (ادارة الدومين) ووضعت تلك الوثائق فى قسمها العربي الذي أسندت ادارته الى السيد ديفو وظل ديفو 25 سنة كمحافظ للأرشيف العربي ، ونشر خلال ذلك وثائق هامة عن تاريخ الجزائر الديني ، والعسكري ، والبحري (14) . ورغم أن أعمال هؤلاء الباحثين العسكريين كانت تعتمد الجمع ، ولا سيما من المصادر الشفوية والمشاهدات الشخصية، فانها قد تركت للمؤرخين اللاحقين أرضية يبدأون منها ومنافذ يطلون منها على أحوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم الا القليل .

---

12 ـ بالاضافة الى أنهم عسكريون فانهم أصلا لم يكونوا مهتمين بالدراسات الجزائرية ، غير أن وحدة الهدف ووحدة العمل ، وكذلك الزمالة ، جعلتهم يتكاتفون وينتجون . أنظر غبريال اسكير ، « الجمعية التاريخية الجزائرية » فى « المجلة الافريقية » (1856 – 1956) ، ص 198 .

13 ـ وليام مارسي « التاريخ ومؤرخو الجزائر » ، ص 166 . ينتقد الكاتب المصادر الاهلية بأنها تفتقر الىالضبط التاريخي ، فهي حسب رأيه تصف أحداثا مضى عليها من 50 الى 250 سنة .

14 ـ نفس المصدر ، ص 163 . يقول الكاتب ان ديفو لم يكن فوق النقد وان بعض الوثائق التي كان شرف عليها وجدت تباع أثناء حياته .

عهد المؤرخين الاختصاصيين 1880 ــ 1954 :

بتأسيس جامعة الجزائر يبدأ عهد جديد من كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين . ففي سنة 1880 صدر قانون بانشاء (المدارس العليا) فى الجزائر ، وهي التي أصبحت بعد حوالي ثلاثين سنة (1909) جامعة الجزائر ، وكانت المدارس العليا تضم مدرسة الآداب ، ومدرسة الطب ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة العلوم ، وقد تكاتفت جهود أساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والأثرية التي سبق ذكرها ، وكتاب الدوريات العلمية ، وأساتذة التاريخ فى الثانويات ونتج عن هذا التكاتف اهتمام خاص بتاريخ الجزائر . ولكن ميلاد المدارس العليا تصادف مع موجة الاستعمار العنيفة التي بلغت ذروتها بالنسبة للجزائر فى الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال . وتعكس الدراسات التي ظهرت خلال هذا العهد مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار ، أو مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنه ويضحى فى سبيل ذلك بقيم البحث وأخلاق العلم ، ذلك أن كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتأريخ له . وتعمل فى النهاية على انجاحه واستمراره (15) .

وتصادف ميلاد جامعة الجزائر ايضا مع احتلال فرنسا لتونس واهتمامها بقضية المغرب الأقصى ، وبذلك اتسعت رقعة البحث لدي مؤرخي هذا العهد وأصبحوا يتناولون فى كثير من الأحيان تاريخ شمال أفريقية بصفة عامة ، ويربطون بين مصالح فرنسا فى الأقطار

15 ـ بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال (1930) انعقد فى الجزائر المؤتمر الوطني الثاني للعلوم التاريخية . وكان ذلك بتأييد من الحكومة العامة بالجزائر . وقد تراسه السيد كوفيل رئيس اللجنة الفرنسية للعلوم التاريخية . وكان المؤتمر الوطني الاول قد انعقد فى باريس سنة 1927 . وفى خطبة الافتتاح التي حضرها الحاكم العام السيد بورد ، قال كوفيل ان انعقاد المؤتمر بالجزائر لا يعني فقط الاحتفال بحادث عسكري مجيد (يعني نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر) ولكنه يعني أيضا الاعتراف بما قامت به فرنسا فى الجزائر منذ مائة سنة انظر « المؤتمر الوطني الثاني للعلوم التاريخية » (الجزائر 1932) ، ص 8 .

الثلاثة ، ويضاف الى ذلك منطقة الصحراء التي دخلت اهتمامات الأبحاث الفرنسية خلال هذا العهد أيضا ، ولا غرابة أن تجد بعض التراجمة والباحثين الذين (تدربوا) فى الجزائر قد أصبحوا عاملين فى تونس والمغرب أيضا ، ولا غرابة أيضا أن تتكون سنة 1935 (اتحادية الجمعيات العلمية لشمال أفريقية) وقد أصبحت تجتمع كل سنة فى احدى مدن المغرب العربي لتنسق جهودها وتتذاكر فى خططها وتتبادل الخبرات والمعلومات وتلقى خلال ذلك الأبحاث والدراسات ، وخلال هذا العهد ولد أيضا (معهد الدراسات الشرقية بالجزائر) 1933 الذي أخذ على عاتقه الاهتمام بالحياة العربية الاسلامية لماضي الجزائر بالذات وقد تولى كبر أموره السيد جورج مارسي ثم هنري بيريس المعروف بتعصبه ضد الجزائريين ، كما ولد سنة 1940 (معهد الأبحاث الصحراوية) .

بدأ اذن العهد الجديد من اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر خاصة وماضي شمال أفريقية عامة (بعد احتلال تونس والاستعداد للمغرب) عندما فتحت مدرسة الآداب العليا (كلية الآداب فيما بعد) مجال التدريس والبحث فى تاريخ المغرب العربي وافريقية ، ولما كانت الأبحاث تهدف الى خدمة الادارة الاستعمارية سواء فى الجزائر أو فى غيرها من أجزاء أفريقية ، فان تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية قد توفرت للأساتذة سواء أثناء وجودهم على كرسي التدريس أو أثناء تنقلاتهم بحثا عن المعارف والمصادر ، وتذكر المصادر أن هؤلاء الأساتذة قد تنقلوا كثيرا وبعيدا وركبوا فى سبيل هدفهم الأحصنة والبغال وحتى الجمال (16) . ومن الأساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال هذا العهد انسيد ماسكري ، الذي لم يختص بموضوع بعينه وريني باسي الذي اختص بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية ، ودوتي الذي كرس

16 ـ انظر غزال (تاريخ ومؤرخو الجزائر) ، 9 .

جهوده للأبحاث الاجتماعية ،وجورج ايفير الذي اهتم بتاريخ الاحتلال ، وستيفان غزال الذي تخصص فى تاريخ شمال أفريقية القديم،ومارسيل ايسريت الذي اهتم بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية للأهالي خلال العهد الفرنسي ، وياكونو الذي تناول قضايا الاستعمار والمكاتب العربية ، ويضاف الى هؤلاء عدد من المهتمين بتاريخ شمال أفريقيه فى فرنسا نفسها أمثال شارل أندري جوليان (تاريخ شمال أفريقية) ومانصو (التاريخ الأدبي لأفريقية المسيحية) ، وكانيا(الجيش الروماني الأفريقي) وديل (أفريقية البيزنطية) .

وخلال هذا العهد أنشئت عدة مصالح ساعدت هؤلاء المؤرخين الاختصاصيين على أداء مهمتهم ففي سنة 1880 تأسست (مصلحة الآثار التاريخية) بالجزائر ، وهي التي قامت ببعث مدينتي جميلة وتيمقاد الرومانيتين ، وفى باريس تأسست سنة 1883 (لجنة أفريقية الشمالية) التي كانت مهمتها بعث الوثائق والخطوط والنقوش الأثرية . وفى عهد جونار تأسست سنة 1910 لجنة بالجزائر عهد اليها بنشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسي فى الجزائر وعلاقات الأهالي معهم ، وضمن هذا المشروع صدرت مراسلات كلوزيل وروفيقو وفوارول وديرلون وآثار بوتان كما صدر كتاب (الجزائر فى عهد الأمير عبد القادر) لايسريت ، وفى عهد جونار أيضا أعطيت الاشارة لتشجيع الدراسات الاسلامية فقام محمد بن أبي شنب بنشر رحلتي ابن عمار والورتلاني ، وتحقيق كتب قديمة كعنوان الدراية للغبريني ، والبستان لابن مريم ، وبغية الرواد ليحي بن خلدون ، وقام الحفناوي بوضع قاموس تراجمه (تعريف الخلف برجال السلف) وتولى لوسياني (الذي كان مسؤول الشؤون الأهلية فى نفس الفترة) التعريف بآثار رجال الدين المسلمين كالسنوسي وعبد الرحمن الاخضري .

وعندما حان الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون فى اللجان التي كونتها (الحكومة العامة) عندئذ أوضع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار فى الجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية فيها ، مع نظرة نقدية شاملة لما تحقق فى ميدان الكتابة التاريخية حتى ذلك العهد . وقد خرجت من هذا الجهد مجموعة من الأبحاث أصبحت تعرف (بمجموعة المائة سنة) وهي تشمل ميادين التاريخ ، والآثار والجغرافية ، والفنون ، وغيرها ، وهذا اللقاء بين المؤرخين الفرنسيين فى جامعة الجزائر وبين الحكومة العامة يبرهن من جديد على مدى تواطؤ هؤلاء المؤرخين مع الادارة الاستعمارية وخدمتهم لأغراضها .

وبحلول سنة 1956 احتفلت (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتها (المجلة الافريقية) بمرور مائة سنة أيضا على ميلادها . وقد قدم عدد من المؤرخين الجامعيين والباحثين دراسات هامة عن تقدم الكتابة التاريخية خلال سنوات 1930 ـ 1956 . ونذكر من بين هذه الدراسات عن الفترة التي نكتب عنها مقالة ياكونو التي تناول فيها تقييم ما كتب منذ الاحتلال ، وجزءا من مقالة روجي لوتورنو عن (العصور الوسطى والعهود الحديثة) ، وهما بحثان غنيان بالآراء والملاحظات والمراجع ، وفى نفس الوقت يبرهنان على مدى ما وصلت اليه الكتابة التاريخية الفرنسية عن الجزائر ، ومن جهة أخرى نلاحظ أن البحثين كتبا فى بداية أحداث الثورة الجزائرية ولذلك لا نستغرب أن ينتهي لوتورنو الى القول بأن « البحث التاريخي عن الجزائر المسلمة ما يزال بعيدا عن الانتهاء (17) » وأن ينتهي زميله ياكونو الى القول بأنه لا توجد دراسة شاملة عن سياسة فرنسا الاسلامية فى الجزائر ولا عن التحول الذي أصاب الأهالي بتأثير الاستعمار (18) . والواقع أن المؤرخين الفرنسيين

17 ـ لوتورنو (المجلة الافريقية) 1856 ـ 1956) ، ص 143 .
18 ـ ياكونو ـ نفس المصدر ، ص 183 .

في الجزائر قد درسوا تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار ، ولكنهم لم يدرسوا تطور المجتمع الجزائري ولا سياسة بلادهم نحو الجزائريين .

مواقف المؤرخين الفرنسيين من قضايا التاريخ الجزائري :

رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الأهلية فانهم كثيرا ما شككوا في قيمتها واتهموها بالتجريدية والمبالغة ، بل نادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها ، فقد ادعى وليام مارسي أنه يجب الاعتماد في كتابة تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني على المصادر الأوروبية ووثائق الأرشيف الرسمية والتجارية (19) ، وهو في هذا يقتدي برأي دي سلان الذي شك في صحة أخبار العرب عن المغرب (20) . ووافقه في هذا الادعاء استيفان غزال حيث قال عن العهد الاسلامي (من الفتح العربي الى 1500) أن الباحث فيه يدخل في « ظلام دامس » لعدم وجود الوثائق الصحيحة والمعاصرة ، وقال أن الباحث لا يجد سوى بعض الحوادث المتأخرة وغير المنقودة وبعض التسجيلات للأحداث لكنها تسجيلات مرتبطة بالنظم العسكرية وغير نزيهة ، ولم يستثن غزال من هذا الحكم سوى ابن خلدون ، لذلك نادى أيضا بالاعتماد على رحلات الأوروبيين وأرشيف الدول الأوروبية ، وقد وقف نفس الموقف من المصادر الأهلية خلال العهد العثماني ، فقال ان المؤلفين العرب لم يكتبوا عن انسادة (يعني الأتراك) وعلاقاتهم بالأوروبيين والسلطان ، لذلك رأى أيضا الاعتماد ، لدراسة هذا العهد ، على الأرشيفات الأوروبية ، والأرشيف التركي ، والرحلات الأوروبية (21) ، والواقع أن الذي سبق الى هذا الرأي هو دي غرامون الذي رفض في كتابه عن تاريخ الجزائر العثمانية الاعتماد على المصادر الأهلية لعدم الثقة فيها .

19 — وليام مارسي ، « تاريخ ومؤرخو الجزائر » ، ص 161 .
20 — نفس المصدر ، ص 174 .
21 — غزال ، نفس المصدر ، ص 6 — 7 .

ومع هذا الموقف المجحف من المصادر الأهلية ، فان الفرنسيين قد عملوا كما لاحظنا سابقا على ترجمة الآثار العربية عن الجزائر فى شتى العصور ، ولا يكاد يوجد مخطوط رحلة أو وثيقة أو مجموعة رسائل أو سجلات حكومية الا ترجموها كاملة أو مجزأة ، ويطول بنا الحديث لو استعرضنا هنا كل الأعمال التي قاموا بها فى هذا الصدد ، ويكفي أن نحيل القارىء الى الدراسة القصيرة ، لكنها مفيدة ، التى قام بها السيد هنري ماسي بعنوان (الدراسات العربية فى الجزائر من 1830 — 1930) وهي الدراسة التي أخرجها بمناسبة الاحتفال المئوي بالاحتلال، وكذلك الدراسة التي قام بها السيد كور بعنوان (ملاحظات عن كراسي اللغة العربية) فى الجزائر . ونود أن نلاحظ أن الفرنسيين لم يكتفوا بما قام به مترجموهم فى نشر الدراسات الاسلامية العربية عن الجزائر ، بل استعملوا ، كما أسلفنا ، بعض المثقفين الجزائريين لنفس الغـرض أيضا . ومن هؤلاء محمد بن أبي شنب ، والعنتري ، والحاج صادق ، وصوالح ، واسماعيل حامد . ويكفي أن نذكر فى هذا الصدد ترجمات الفرنسيين للكتب التالية : (تاريخ باشوات الجزائر) لابن المفتي ، و (الزهرة النيرة) للتلمساني . و (غزوات عروج وخير الدين) لمجهول و (الحلل السندسية) و (عجائب الأسفار) لأبي رأس النـاصري ، و (بهجة الناظر) للمشرفى ، و (رحلة الباى محمد الكبير) لابن هطال ، و (رحلة الورتلاني) ، و (رحلة ابن عمار) ، و (كشف الرموز) لابن حمادوش ، و (تاريخ قسنطينة) لابن المبارك ، و (مذكرات) حمدان خوجة ، و (مذكرات بوضربة) و (مذكرات) سي عزيز بن الشيخ الحداد ، و (مذكرات) الحاج أحمد باى قسنطينة ، و (تاريخ بني زيان) للتنسي ، و(تاريخ العدواني) ، و(الفارسية) لابن قنفذ وغيرها . بالاضافة الى العديد من الوثائق والرسائل والشعر الملحون ، وكتب الفقه والنحو والأصول .

واذا كان هؤلاء المؤرخون قد اهتموا بالطرق الصوفية ورجالها وبكتب الفقه والأصول كمصادر للتفكير الأهلي ، فانهم وقفوا موقفا مشبوها من الاسلام ، ذلك أننا لا نجدهم يعترضون على استيلاء الادارة الاستعمارية على ضم الأوقاف الى الدولة (الدومين) ولا على تحويل المساجد الى كنائس ، ولا على تهديم بعضها ، حتى باسم الآثار والحرص على (الوجه الافريقي) للجزائر ، وقد أكثروا فى كتاباتهم من استعمال عبارات «الاسلام الجزائري» و «الاسلام الجزائري الجديد » وهم يعنون بذلك الاسلام كما يمارسه الجزائريون الذين يتهمونهم بأنهم لم يعتنقوه عن وعي ولم يمارسوه عن عقيدة ، وانما هو عندهم نوع من التقاليد الموروثة والفولكلور الذي يظهر فى المناسبات ، ويتجلى هذا الموقف من نعت الفتح العربي (بالغزو العربي) ، ومن التركيز على أحداث تاريخية خاصة كحادثة الكاهنة مع حسان بن النعمان ، وحادثة كسيلة وعقبة بن نافع . وعندما تحدثوا عن هجرة بني هلال تحدثوا عنها « كغارة ذئاب » ، حسب تعبير ستيفان غزال ، على المغرب قصد فرض لغتهم ودينهم على السكان ، وقد تأسف هذا الكاتب على أن الرومان قد أخطأوا عندما لم يحولوا السكان فى شمال أفريقيا الى « مسيحيين لاتينيين » (22) .

ويعزو هؤلاء المؤرخون شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي لا الى الروح الوطنية والنفور من حكم الأجنبي وانما لضيق الأفق والتعصب الديني (23) ، أما ايميل قوتي فقد أطلق اسم « القرون الغامضة » على عهد الامارات الاسلامية فى الجزائر والمغرب من الفتح العربي الى مجيء العثمانيين ، ويتصل بهذه النقطة اعتناؤهم « بقديسي الاسلام » فى الجزائر فقد نشر دوتي كتابا بعنوان (الاسلام الجزائري)

---

22 ــ نفس المصدر ، ص 5 .

23 ــ الفريد بيل ، نفس المصدر ، ص 196 .

ونشر تروملي كتابا بعنوان (قديسو الاسلام الجزائري) واهتم دونوفو ولويس رين وكوبلاني (بالمرابطين والاخوان) ودرس أغسطين بيرك (المرابطين والعلماء) ، وأخرج مارسيل بودان دراسة عن أحمد بن يوسف المليانى ، وهلم جرا .

والكتابات التي كتبها الفرنسيون عن الامير عبد القادر تتميز ، ولكنها لا تخرج فى أغلبها عن الحط من دوره الوطني ، وجعله شخصا متعصبا دينيا فى البداية وصديقا لفرنسا فى النهاية ، وهذا الموقف يلخصه بصراحة كتاب بول أزان المسمى (الأمير عبد القادر من التعصب الاسلامي الى القومية الفرنسية) ذلك ان اسناد دور المدافع الوطني للأمير يبطل عمل فرنسا فى الجزائر ، والغريب أن مؤرخا مختصا مثل جورج ايفير الذي تناول الأمير وعصره فى عدة مناسبات يقول عن الأمير انه لم يكن بطل جنسية عربية فى الجزائر لأنها لم توجد . ولم يكن سياسيا مجددا يهدف الى ادخال الحضارة الأوروبية على مواطنيه الذين كانوا (نصف برابر) ولكنه كان مرابطا طموحا أراد أن يحل نفسه محل الأتراك . واستغل لتحقيق ذلك الهدف غفلة الفرنسيين ونسبه الشريف وشجاعته الشخصية ، ويضيف ايفير أن الامير قلد الاتراك فى ادارتهم لأنها كانت للأهالي . فملأ خزانته بالمال مثلهم (الأتراك) واعتمد على حكم القوة ، وقد أخذت فرنسا هذا النظام أيضا وطبقته على الأهالي ولكنها جعلته (أكثر انسانية) وينهى ايفير حكمه على الامير بقوله انه لم يأخذ من الحضارة الأوروبية الوسائل المادية التي تجعله يتخلص بسهولة من أعدائه المسلمين والمسيحيين على السواء (24) ولم يكن بول أزان ، وأندري جوليان (25) أقل قسوة فى الحكم على الأمير من ايفير . ونفس الموقف فى الواقع يقفه

24 – جورج ايفير ، نفس المصدر ، ص 290 .

25 – انظر مقال « الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائري » ص 59 من هذا الكتاب .

الكتابات التاريخية الموضوعية قليلة وسطحية ، وكثير منها عبارة عن نقل عما سبقها (29) . غير أن ستيفان غزال الذي كان يكتب فى نفس السنة تمنى أنْ يرى علماء يكتبون تاريخا عن الاسلام فى شمال افريقيا ، وتاريخا عن المنشآت الاسبانية والبرتغالية فى شمال افريقيا أيضا . وتاريخا كاملا عن الاحتلال الفرنسي ، وتاريخا عن الاستعمار الفرنسي فى الجزائر (30) . هذه اذن هي تمنيات المؤرخ الفرنسي بعد مائة سنة من الاحتلال . الذي يلاحظ على هذه التمنيات ان صاحبها لم يقترح كتابة تاريخ أي جانب من جوانب المجتمع الجزائري (سياسيا ، اقتصاديا . ثقافيا) . ولكن الذين واصلوا الرسالة بعد 1930 لم يخرجوا عن هذا الاطار الذي تمناه لهم ستيفان غزال .

بعض الاستنتاجات :

ومما سبق يتضح أن الفرنسيين قد كتبوا الكثير عن الجزائر وتناولوا تقريبا كل فرع من فروع المعرفة الخاصة بها . كما أنهم أدخلوا تكنيكا جديدا فى البحث ، واستعملوا طريقة النقد الحديثة للمصادر ، وتوصلوا الى جمع آثار ومخطوطات ووثائق كثيرة عن الجزائر وحفظوها فى المتاحف والمكتبات والارشيفات وأنشأوا الجمعيات العلمية ، وعقدوا اللقاءات والمؤتمرات التي يكشفون خلالها عن اكتشافاتهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات ويوثقون الصلات فيما بينهم . وبالاضافة الى ذلك أسسوا الصحف والدوريات التي كانت تنشر ما توصلوا اليه من نتائج وما جمعوه من مواد . وكانت الادارة العامة للجزائر تمدهم بالمال وتوفر لهم امكانيات الانتقال والاتصال والاطلاع ، وتساهم فى تجمعاتهم وفى جمعياتهم وفى طبع انتاجهم . كما كانت الجامعات والمعاهد الفرنسية فى فرنسا تساهم هي الاخرى بامكانياتها البشرية والعلمية والمعنوية فى دفع عجلة البحث

---

29 — جورج ايفير « التاريخ ومؤرخو الجزائر » . ص 267 .

30 — غزال . نفس المصدر ، ص 16 .

الذي يقوم به الفرنسيون بالجزائر . وكانت الحكومة الفرنسية أيضا تغطي نشاطهم وتفتح أمامهم مجالات العمل وتشجع على عمل اللجان وتحيي مغامرات الافراد من أجل البحث لأنها فى الواقع هي المستفيدة فى نهاية المطاف .

ولكن هؤلاء الكتاب والباحثين لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الاختصاصي الدقيق للكلمة . كان معظمهم من الهواة ومن كتاب الثقافة العامة والانطباعات والمذكرات ، والتقارير الرسمية . وقد رأينا انهم فى الفترة الأولى كانوا ضباطا عسكريين يجمعون بحماس شديد كل ما تقع عليه أيديهم من مصادر مكتوبة أو شفوية ، ومن آثار قديمة وحديثة . وهدفهم من ذلك الوصول الى فهم السكان الذين يحكمونهم وليس هدفا علميا . وكانوا يحصلون على تلك المصادر بالاغراء تارة وبالقوة تارة أخرى وبالضغط مرة ثالثة . وتذكر الكتابات أن بيربروجر كان يتبع الجيش حيثما توجه ، وعندما تحتل مدينة يأخذ هو المخطوطات العربية من الزوايا والجوامع والمكتبات الخاصة ويعود بها الى العاصمة (31) . كما تذكر المصادر أن الجزائريين كانوا يضطرون الى بيع مخطوطاتهم وآثارهم وتحفهم أثناء شهر رمضان الذي تكثر فيه المطالب الاقتصادية (32) .

وكان بعض الباحثين الفرنسيين قد حصل على جواز مرور من الحاكم العام ليجمع المعلومات والكتب من مكتبات الزوايا فى الصحراء . وكان الأهالي يخافون فيقدمون ما عندهم عندما تطلب منهم سلطات المكاتب العربية ذلك . ولعل بعضهم كان يفعل ذلك تملقا وتقربا أيضا ، وهكذا توفرت للباحثين الفرنسيين العسكريين مصادر أهلية استفادوا منها كثيرا فى حكمهم للشعب الجزائري .

31 ـ انظر « المجلة الافريقية » (1856 ـ 1956) ، ص 195 وما بعدها .
32 ـ انظر « لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية فى الجزائر » ، سنوات 1846 ـ 1849 ، ص 196 .

ونفس الظاهرة تنطلق على كتاب العهد الثاني . فاذا استثنينا بعض المؤرخين الاختصاصيين الذين تميزت كتاباتهم بالتحليل والنقد والمقارنة . فان معظم الذين يطلق عليهم (مؤرخو الجزائر) لم يكونوا فى الواقع مؤرخين وان كانوا باحثين بالمعنى الواسع للكلمة . خذ مثلا ايميل قوتيي الذي كتب (القرون الغامضة) والذي كتب تاريخ الاستعمار الفرنسي حتى سنة 1930 . انه لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق . بل كان كاتبا عاما فى قضايا الاستعمار والمستعمرات . وكان أساس اهتمامه الجغرافية وطبقات الارض ونحو ذلك . وخذ مثلا آخر جوزيف ديبارمي الذي كتب الكثير عن عادات وتقاليد الشعب الجزائري ، أنه لم يكن مؤرخا هكذا أيضا وانما اهتم أثناء تدريسه بالبليدة ، بالنواحي الفولكلورية الجزائرية ، فركز على هذا الجانب وجمع منه مواد كثيرة فى العقائد الشعبية والخرافات ونحوها . وقد كان هدف هؤلاء ، كما كان هدف أولئك ، هو مساعدة الادارة الاستعمارية الفرنسية فى الجزائر لكي تسيطر على مقاليد الجزائريين وبالطبع الدعاية للثقافة والوجود الفرنسي بين الجزائريين من جهة وبين الأجانب من جهة أخرى .

ويمكننا تلخيص النواحي الايجابية فى أعمال المؤرخين الفرنسيين بالجزائر فى النقاط التالية :

1 ــ جمعهم المصادر والآثار وحفظها فى المكتبات والمتاحف والسهر عليها والاستفادة منها .

2 ــ نشر كثير من الآثار العربية الاسلامية فى لغتهم ، وأحيانا فى نصها الأصلي ، وبذلك ساعدوا على بقائها ومكنوا الباحثين منها .

3 ــ استخدام التقنية الحديثة فى البحث كتصنيف المواد حسب الاختصاص ، وتنظيم الفهارس ، والكاتالوق ، والتنظيم الأبجدي ، ومصطلح الفترات الزمنية والتصوير ، وما الى ذلك .

4 ــ استعمال وسائل البحث وتشجيع الباحثين ، وشيوع التضامن العلمي بينهم وتبادل الخبرات عن طريق نشر الدوريات والكتب وعقد الملتقيات والمؤتمرات ، وتبادل الزيارات ، وتوفير المادة الضرورية بجمع المعلومات ونشرها بأقرب الطرق .

5 ــ وأخيرا نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ وهذه النقطة وان كانت ايجابية اذا نظرنا اليها كظاهرة من ظواهر البحث الحديث الا أنهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية ــ الاسلامية. فأصبحت وكأنها ظاهرة غير علمية في هدفها رغم ان أساسها علمي واضح .

أما النواحي السلبية عندهم فيمكن حصرها أيضا في النقاط التالية :

1 ــ اهمالهم للشعب الجزائري في تناولهم لتاريخ الجزائر . لقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفنيقيين حتى الفرنسيين . وليس هناك في نظرهم « شعب » أو « أمة » أو « كيان » أو « مجتمع متماسك » وانما هناك قبائل متنافرةمتنابزة تخوض حروبا مستمرة . ولا تخضعها الا القوى كالرومان والأتراك والفرنسيين . هذه هي « فلسفة » الفرنسيين في كتابتهم تاريخ الجزائر وهم لم يطبقوا هذه « النظرية » على عهدهم الذي يبدأ من سنة 1830 ، ولكن على جميع عهود تاريخ الجزائر تبريرا لوجودهم .

2 ــ مجاراة المؤرخين ، عسكريين واختصاصيين ، للسلطة ، ولا سيما الادارةالاستعمارية ووزارةالحربية التي كانت مسؤولة عن الجزائر، وخضوعهم لالحاح وضغط المعمرين ، ونستطيع القول ان هؤلاء المؤرخين كانوا « أصوات » السلطة العسكرية في الفترة من 1830 الى 1871 و « أسواط » الادارة خلال الفترة المدنية الممتدة من 1871 ــ 1954 . وهذه (التبعية) للسلطة قد أعمتهم عن الحقيقة

وجعلت أعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد ، وأصبحت تتميز « بالطابع الرسمي » الضيق .

3 ـ وهذه الظاهرة جعلتهم يركزون في كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والاداري والعسكري جريا وراء الاستعمار والادارة (عسكرية ومدنية) وتحركات الجيش وقواده . فاذا ما تناولوا قضية دينية أو قبلية أو نحو ذلك فانما ذلك من أجل محاولة السيطرة على أصحابها كما فعل دونوفو بالنسبة للطرق الصوفية مثلا . وبذلك أهمل تاريخ الجزائريين السياسي والثقافي والاجتماعي .

4 ـ اهتم الفرنسيون بالعهد 1830 ـ 1954 وكتبوا عن رجاله وسياستهم وتغير الحكومات الفرنسية واثر ذلك على الجزائر . وعن الهجرات الاروبية الخ . ويأتي في المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان في الجزائر وتاريخ المسيحية فيها . وأخيرا تاريخ البيزنطيين فيها أيضا ، أما تاريخ العرب والمسلمين . تاريخ العهد الذي تحرر فيه السكان من القيود الأجنبية وأصبحوا فيه أحرارا يؤسسون اماراتهم ويديرون شؤونهم بأنفسهم فقد ظل عندهم « عهدا غامضا » ، حسب تعبير قوتي . وكذلك فعلوا مع العهد العثماني في الجزائر . وهو العهد الذي قويت فيه شوكة الجزائر وتوحدت فيه جغرافيا وسياسيا وتمركزت ادارتها .

هذه ، اذن بعض نقاط القوة وبعض نقاط الضعف التي تميزت بها الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر خلال الفترة من 1830 الى 1954 . واني أعترف بأن هذه دراسة تفتقر الى مزيد من التعميق ، لأنها في الواقع أقرب الى المدخل منها الى الدراسة الكثيفة المركزة .

ملحـق (1)

اللجان والجمعيات التي اهتمت بتاريخ الجزائر

1 ـ لجنة التحقيق المعروفة باسم (اللجنة الافريقية) سنة 1833 .

2 ـ لجنة اكتشاف الجزائر العلمي (أصدرت 17 مجلدا) سنة 1838 .

3 ـ جمعية قسنطينة الاثرية (لها مجلة) سنة 1852 .

4 ـ المفتشية العامة للاثار التاريخية والمتاحف الاثرية سنة 1854 .

5 ـ الجمعية التاريخية الجزائرية (لها مجلة) سنة 1856 .

6 ـ أكاديمية هيبون (عنابة) (لها مجلة) سنة 1863 .

7 ـ جمعية وهران الاثرية (لها مجلة) سنة 1878 .

8 ـ مصلحة الآثار التاريخية بالجزائر سنة 1880 .

9 ـ المدارس العليا (منها مدرسة الآداب العليا) سنة 1880 .

10 ـ الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وشمال افريقيا (لها مجلة) سنة 1896 .

11 ـ جامعة الجزائر (منها كلية الاداب) سنة 1909 .

12 ـ لجنة جونار لنشرالوثائق التاريخية (نشرت مراسلات ووثائق) سنة 1910 .

13 ـ لجنة التحضير للاحتفال المئوي بالاحتلال (نشرت المجموعة المئوية) سنة 1925 .

14 ـ معهد الدراسات الشرقية بالجزائر (له مجلة) سنة 1933 .

15 ـ اتحادية الجمعيات العلمية فى شمال افريقية (نشرت أبحاثها السنوية) سنة 1935 .

16 ـ معهد الابحاث الصحراوية بالجزائر (له مجلة) سنة 1940 .

17 ـ جمعية أصدقاء تلمسان القديمة .

18 ـ جمعية تبسة لما قبل التاريخ والاثار .

19 ـ الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف .

ملحـــق (2)

الجمعيات العضوة فى « اتحادية الجمعيات العلمية بشمال افريقية » عام تاسيسها سنة 1935 بالجزائر .

عن الجزائر :

- أكاديميــة هيبون (عنابة)
- مركز دراسات الاستعمار المقارن .
- معهد الدراسات الشرقية .
- جمعية قسنطينة الاثرية .
- الفرع الجزائري للجمعية الفرنسية الفزيائية .
- الجمعية الاثرية والسياحية لتفاست (سوق اهراس) .
- جمعية جغرافية مدينة الجزائر .
- جمعية التاريخ الطبيعي لمدينة الجزائر .
- الجمعية التاريخية الجزائرية .
- الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف .
- جمعية أصدقاء تلمسان القديمة .
- جمعية وهران للجغرافية والآثار .

عن تونس :

- معهد قرطـاج .
- جمعية سوسة الاثريـة .

عن المغـرب :

- مركز الدراسات القضائية المغربية .
- لجنة دراسات المياه الجوفية .
- جمعية الدراسات الاقتصادية والاحصائية .
- جمعية المغرب الجغرافية .
- جمعية التاريخ الطبيعي بالمغرب .

ملحق (3)

الاسماء الاجنبية الواردة في البحث

ملاحظة : تسهيلا للباحثين الذين يريدون الاهتداء بهذا البحث ، أضع هنا قائمة بالاسماء الاجنبية بالحروف اللاتينية حسب الترتيب الابجدي ، ولم اشأ أن أثقل البحث بذكر الاسماء بالحرفين العربي واللاتيني في ثناياه .

ARNAUD	أرنـــو
AZAN, P.	أزان
BASSET, R.	باسى
BERTHEZENE	بيرتزين (قائد عام الجيش)
BERQUE, A.	بيرك
BELLEMARE	بيلمار
BERBRUGGER	بيربرجر
BRESNIER	بريسنيي
BRESSON	بريسون
BROSSELARD	بروسلار
BODIN	بودان
BOISSONNET	بواسوني
BOUTIN	بوتـــان
CAGNAT	كانيـــا
CARETTE	كاريت
CHARLES, V.	شـــارل 5
CLAUZEL	كلوزيل (قائد عام الجيش وحاكم عام)
COPPOLANI	كوبلاني
COUR, A.	كـــور

DAUMAS	دوماس
D'ERLON	ديرلون (حاكم عام)
DELAMARE	ديلامار
DE NEVEU	دونوفو
DE SLANE	دي سلان
DIEHL	ديــل
DESPARMET, J.	ديبارمي
DEVOULX	دوفــو
DUBOIS-THANVILLE	ديبوا ـ تانفيل
EMERIT, M.	ايميريت
FERAUD, CH.	فــيرو
FOURNEL	فورنيــل
GAUTIER, E.F.	قوتــي
GRAMMONT (DE)	غرامــون
GSELL	غــزال
HANOTEAU	هانوتو
HAEDO	هايدو
JONNART	جونار (حاكم عام)
JULIEN CH. A.	جوليان
LACROIX, N.	لاكروا
LETOURNOU	لوتورنو
LUCIANI	لوسياني
MARÇAIS, G.	مارسي ، جورج
MARCAIS, W.	مارسي ويليام
MARSQUARY	ماسكاري
MASSET, H.	ماسي
MONCEAUX	مونصو
KERCY	كيرسي
PANNANTI	باناني
PELLISSIER (DE REYNAUD)	بيليســي

PERES, H.	بيريس
RANDON	راندون (حاكم عام)
RENAUDOT	رونودو
RINN, L.	ريــن
ROBIN	روبــان
ROVIGO	روفيقو
SCIAVI	شيافي
SEROKA	سيروكــا
SHALER	شيلــر
SHAW	شـــو
TRUMELET	ترملــي
VENTURE DE PARADIS	فانتور دي بارادي
VOIROL	فوارول (حاكم عام)
W. ESTERHAZY	ويلسن ـ ايسترهازي
YACONO, X.	ياكونو
YVER, G.	ايفــير

* نشر هذا البحث في مجلة (الأصالة) ، العددان 14 ، 15 سنة 1973 .

عن تدوين تاريخ الثورة وتنظيرها

أحب فى البداية أن أبرز أهمية هذه الأسئلة . فالنقط الثلاث التي ذكرتموها وهي تدوين تاريخ الثورة ، وقضية تنظير الثورة ، والفصل بين قدرة المثقف وتجربة المناضل ، اعتبرها فى صميم المشاكل الفكرية التي تعيشها ثورتنا بشجاعة ، كما أحب أن أنبه الى أن اجابتي لن تكون سوى محاولة لمعالجة هذه النقاط ، ولا تطمح أبدا أن تكون قد وضعت الحل النهائي أمام كل نقطة .

أ ــ ضرورة تدوين تاريخ الثورة

يمكن القول وبلا مبالغة بأن الثورة الجزائرية هي أعظم ثورة قام بها انسان العالم الثالث ، وهي فى نفس الوقت من أعظم ثورات العصر الحديث ، ولكن هذا القول سيظل مجرد ادعاء اذا لم تدعمه الوثائق والوقائع . ومن هنا تبرز أهمية تدوين تاريخ الثورة . حقا أن بعض الأجانب قد استغل الفراغ فى هذا الميدان وراح ينشر ما يزعم أنه تاريخ الثورة الجزائرية ، ولكن نظرة بسيطة الى هذا الانتاج تفند هذا الزعم . وقد أتيح لي أن أطلع حديثا على بعض هذا الانتاج

1 ــ جواب المؤلف على اسئلة طرحتها عليه مجلة (الجيش) بمناسبة الذكرى العاشرة لاستقلال الجزائر ، وقد نشرت المجلة الجواب فى عدد نوفمبر 1972 ، ثم ترجم ونشر فى نسخة اللغة الفرنسية من المجلة ، عدد جوان 1973 .

فوجدته الى الهراء أقرب منه الى التاريخ ، والى الدعاية المضادة أقرب منه الى الحقيقة .

ولكن السؤال هو عن دور الجزائريين فى تدوين تاريخ ثورتهم . وهنا أود أن أبدى بعض الملاحظات أولها ، أن الجزائريين عامة قليلو الكتابة اذا قيسوا بالشعوب الأخرى . وهذه ملاحظة أبداها ابن خلدون عند حديثه عن أهل المغرب العربي بالمقارنة الى أهل المشرق . ثانيها روح الحذر والحساسية التي تميز الجزائري ، فهو عادة يريد أن يتأكد مما يقول أو يكتب ، وكما هو قليل الكلام كذلك هو قليل الكتابة حذر فى أحكامه شديد الحساسية نحو الآخرين . ثالثها حداثة الثورة نفسها ، فبالرغم من أنه قد مضى عليها ثمانية عشر عاما فان هذه الفترة لا تعتبر فى نظر التاريخ سوى ثانية فى ساعة الزمن الأبدية . رابعها ما تمتاز به حياتنا الحاضرة من مجاملات فى مختلف المجالات ، ولا سيما فى مجال الفكر . ألا ترى ركود الحركة الأدبية ؟ ألا ترى ركود الحركة الفنية ؟ ألا ترى خمول التفكير السياسي ؟ كل ذلك فى نظري نتيجة لروح المجاملة والمراعاة والحذر التي تطبع علاقتنا ببعضنا . وليس العزوف عن تدوين التاريخ ، وتاريخ الثورة بالذات ، سوى جزء من هذه الظاهرة . أليس تدوين تاريخ الثورة يعني الحكم على أناس وأحزاب ومنظمات ومواقف ؟ .

والواقع أنه يجب التفريق بين عدة أنواع من الكتابة التاريخية . ومن الممكن حصر هذه الأنواع فى ثلاثة : الكتابة الرسمية ، والكتابة الشعبية ، والكتابة العلمية .

1 ــ الكتابة الرسمية :

ونعني بها قيام الدولة نفسها بالعناية بتراث الثورة ونشره وتفسيره تفسيرا يحمل فلسفتها (الدولة) ويظهر مواقفها الايديولوجية واتجاهها

نحو المستقبل على ضوء فلسفة الثورة نفسها . وقد فعلت ذلك روسيا مع ثورتها فقامت أجهزة الدولة ، كل فى ميدانه ، بتأليف الكتب ووضع دوائر المعارف وتاريخ الثورة بالمفهوم الذي تراه هي . وأصبح الناس يقرأون تاريخ الثورة الروسية من هذه المصادر ، ولكن على أنه يحمل وجهة النظر الرسمية . والمهم هو أن الدولة لم تترك الفراغ الذي يدخل منه الأجانب ، أو حتى أبناؤها المنحرفون ، لاستغلاله ، وتشويه مبادىء الثورة من خلاله .

2 ـ الكتابة الشعبية :

ونعني بها قيام الكتاب عامة ، أي غير الاختصاصيين ، أمثال علماء السياسة ، والصحافيين ، والأدباء ، وكتاب الوقائع الراغبين ، بكتابة تاريخ الثورة الجزائرية والاشادة بمواقفها ، واظهار أصالتها وسمو أهدافها ، وبذلك تغزر المادة ويقرأ الناس تاريخ الثورة بأقلام أبنائها ، وينسد الفراغ فى وجه الأجانب والموتورين ضد الثورة الحاقدين من نجاحها . وقد أنتجت الثورة الفرنسية أعدادا ضخمة من الكتاب الذين ينتمون الى هذا الصنف من كتاب الرومانتيكية والليبرالية الذين لم يكونوا أبدا مؤرخين بالمعنى العلمي الاختصاصي للكلمة ، ولكنهم مع ذلك أنتجوا مئات الكتب والروايات والوثائق التي خلدت الثورة وكشفت عن حقيقتها من وجهة نظر شعبية عامة ، ومثل ذلك يقال فى كتابات أنصار الثورة الروسية .. من أعضاء الأحزاب الشيوعية فى العالم (حركة الكومنتيرن) .

3 ـ الكتابة العامية :

ونعني بها البحث الاختصاصي المجرد القائم على دراسة الوثائق والحكم من خلالها على سير الأحداث التاريخية . وهذا النوع ما زال فى نظري لم يحن وقته بعد . وذلك لعدم توفر المادة التاريخية اللازمة للحكم فالوثائق ما زالت مخزنة أو بعيدة المنال على المؤرخ .

والأشخاص الذين مثلوا الثورة وعاشوها مازالوا أحياء يرزقون . وكل واحد منهم يعتقد أنه يملك مفتاح التاريخ وأن ما فعله هو عين الصواب ، ومثل ذلك يقال فى الأحزاب والتجمعات . بالاضافة الى أن المؤرخ نفسه سيكون متأثرا بالأحداث التي عاشها ، لأنه يفتقر الى البعد الزمني الكافى الذي يجعله يحكم بتجرد وببرودة هادفا الى الوصول الى الحقيقة العلمية .

غير أنه يمكن ، أمام الفراغ الحالي ، القيام بحركتين فى هذا الميدان: الأولى جمع مادة تاريخ الثورة من مختلف المصادر (الشفوية ، والمكتوبة) وتصنيفها وتهيئتها للاستغلال من جانب الباحثين ، والثانية الشروع فيما يمكن أن نسميه بوضع « تاريخ شعبي » للثورة الجزائرية يحمل الى القارىء الحقائق الكبرى للثورة لكن فى قالب عاطفي أو سياسي وليس فى قالب علمي جاف .

ب ـ قضية تنظير الثورة

تنظير ثورة ما ، بمعنى وضع نظرية فلسفية لها ، عملية عفوية تنبع من تطورات اجتماعية واقتصادية معينة . ولا يمكن أن تتفق جماعة أو فرد مع نفسه على وضع أسس نظرية لثورة من الثورات . ذلك أن الثورة فى الواقع هي تقمص وبلورة لفكرة أو لمجموعة من الأفكار كانت فى وقت من الأوقات ضائعة أو مضطهدة ، فتأتي الثورة وتتبناها وتبعث فيها الحياة وتعطيها قوة الحركة ، وحتى قوة الاعتداء والتسلط. وهذا ما حدث بالنسبة للمذاهب الكبرى التي أصبحت ممثلة فى ثورة من الثورات . وعلى سبيل المثال نذكر أن الثورة الفرنسية كانت نقطة تجسيع الأفكار البرجوازية والطبقات الوسطى منذ بدأت فى الظهور

أثناء النهضة الأروبية . كما أن الثورة الروسية (أو الصينية أيضا) كانت تتويجا وتطبيقا لمجموعة من الأفكار والمواقف التاريخية التي تعكس ، فى نظر أصحابها ، آمال الجماهير الكادحة من عهد الرومان الى القرن العشرين ، والتي فلسفها الاشتراكيون خلال القرن التاسع عشر ملتفين حول زعيمهم ماركس . ان زرع الفكرة عمل فردى وليس جماعيا . وتظل الفكرة الصالحة حية خامدة فى تربتها الى أن تجد من يتعهدها فتنمو وتزدهر وتظهر فى شكل مذهب اه قوة المقاومة وآحيانا فى شكل ثورة دموية .

وليس من الضروري أن تسبق النظريات الثورة . فقد يحدث أن يقوم شعب من الشعوب بثورة ليس لها فلسفة واضحة وبعد أن تهدأ الثورة يشرع فى فلسفة مواقفه واعطائها تفسيرات تصبح على مر الزمن نظريات عميقة تستوحي منها الأجيال اللاحقة مواقفها وسلوكها . وقد حدث هذا للثورة الأمريكية . فهذه الثورة لم تكن فى البداية قائمة على أسس نظرية بارزة لا دينية ولا دنيوية ، ولكن أصحابها قد حاولوا ، ولا سيما بعد أن ظهرت آمريكا كدولة كبرى ، أن يضعوا لها نظريات وأن يقرنوها بالديمقراطية والحرية الفردية وغيرها لكي تستطيع الوقوف فى وجه تيار الشيوعية والاشتراكية المقابل . ونحسب أن الثورة الصينية تحاول من خلال ثورتها الثقافية وغيرها صيننة نفسها ، أي وضع نظريات صينية (ماوية مثلا) محضة .

ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ بأن المعاصرة قد تحجب الوجه النظري لثورة من الثورات ، فالأسس النظرية للثورة الفرنسية مثلا لم يضعها المعاصرون لها ، ولكن وضعتها الأجيال اللاحقة . كما تجدر الملاحظة الى أن أية ثورة كبرى ، يجب ، لكي لا تنطوي على نفسها وتذبل ، أن تخرج من اقليميتها ووطنيتها الضيقة ، فالثورة هي قبل كل شيء فكرة ، والفكرة يجب أن تنتشر وتعم اذا كان أصحابها يؤمنون

بأنها صالحة أكثر من غيرها لتقدم الانسان . والفكرة الصالحة لا تعترف بالحدود الجغرافية ، فاذا لم تجتز هي الحدود غزتها فكرة أخرى فى عقر دارها .

وقد عبرت الثورة الجزائرية حتى الآن عن آمال الانسان المضطهد فى كل مكان . ووضعت لنفسها مبادىء مستوحاة من التاريخ الجزائري ومن نضال الانسان ، تقوم على التحرير عن طريق القوة والعقيدة معا ، والقيادة المشتركة . والتحول الاجتماعي المادي دون التضحية بالعوامل الروحية ، وتحقيق العدالة الاجتماعية دون الدخول فى متاهات الصراع الطبقي . ولكن هذه (المبادىء) ما زالت محلية خاصة بنا . ولم تصبح بعد (نظريات) يستلهمها ويقتدي بها غيرنا . وأعتقد أن نجاح الثورة هو الكفيل بتحويل الخاص الى عام والمبادىء الى نظريات . وعلى الثورة أن تقنع الكتاب وأرباب الفكر بأهمية مبادئها وفعاليتها وانسانيتها أيضا ، ذلك أنهم هم الذين يصنعونها فى قوالب نظرية خالدة سواء فى ديوان شعر حالم ، أو فى كتاب فلسفي جاف ، أو فى رسالة سياسية ثائرة . وهذا يقودنا حتما الى السؤال الثالث . وهو دور المثقف .

ت ـ قدرة المثقف وتجربة المناضل

تختلف الثورة الجزائرية عن بعض الثورات الأخرى فى أنها ثورة جماهيرية . فقادة الثورة الفرنسية كانوا من البرجوازية الساخطة على الاقطاع ، وقادة الثورة الروسية كانوا « نخبة » مثقفة مفكرة هالها انغماس الارستقراطية الروسية والبرجوازية الأوروبية فى العفونات الاجتماعية والفساد السياسي . أما قادة الثورة الجزائرية فقد كانوا فى معظمهم من عناصر الفلاحين والعمال الذين أصبحوا وطنيين ثائرين على الظلم والاضطهاد تحت النظام الاستعماري ، والمثقفون القليلون الذين

صعدوا الى مركز القيادة فى الثورة قد انضموا اليها انضماما بعد أن رأوا اتجاه التيار الثوري . بعضهم عن اقتناع لكن بعد تردد . وبعضهم عن خوف . وقليل هم أولئك المثقفون الذين عاشوا الثورة ومارسوها نظريا أو فى ميدان القتال . وقد نتج عن هذا التوازن بين العمل والفكر بالنسبة للثورة الجزائرية أو بين النظرية والتطبيق . أو بعبارة أخرى أن العمل أثناء الثورة كان يقود الفكر وليس العكس .

هذا زمن الثورة نفسها . أما الآن فأعتقد أن هناك جيلا صاعدا من المثقفين قادرا على تمثل التجربة الثورية للمناضل والتعبير عنها عمليا ونظريا معا . وليس من الضروري أن يكون المثقف قد عاش الحدث جسميا لكي يتمثله ويصوغه . ولو كان الأمر كذلك لما استطاع أن يكتب تاريخ فترة من الفترات الا الذين عاشوها وتفاعلوا معها ، مع أن الأمر ليس كذلك . فالتاريخ الحق هو الذي تكتبه الأجيال اللاحقة وليس ذلك الذي يكتبه بعض المعاصرين المتأثرين بالعلاقات الشخصية والايديولوجية والحزبية .

على أن هناك عملية مزدوجة يجب أن تكون متكاملة . وهي أن يجمع المثقف من أفواه المناضلين المجربين تجاربهم وأن يصوغها صياغة نابضة بالحياة كأنها تجاربه الذاتية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى على الثورة أن لا تعزل المثقفين وتجعلهم يعيشون على هامشها . فالعملية أولا وقبل كل شيء هي عملية اقتناع بالثورة وولاء لها ، وهذا لا يكون عن طريق العزل أو القهر . اذ تبني المثقف للثورة هو الذي سيجعله قادرا على ملء الفراغ الذي يعاني منه تاريخ الثورة ، على الأقل الشعبي منه ، كما يجعله قادرا على هضم المبادىء الأساسية للثورة وصياغتها فى قوالب نظرية قد تكون أساسا لانطلاقة فكرية جديدة للثورة . واذا كان للفصل بين قدرة المثقف وحرارة تجربة المناضل مبررات أثناء الثورة ، فلم يعد له اليوم فى نظري مبرر . ففي مقدور الشاعر الثوري أن يعيش

تجارب المناضلين بالأمس واليوم ، وفى مقدور القصاص الثوري أيضا أن يختلط بالجماهير وأن يعرف عن كثب نبض حياتها ماضيا وحاضرا ، وكذلك فى مقدور الفنان ونحوه من المثقفين المبدعين .

لكن يلاحظ أنه بالرغم من الحديث الكثير عن الثورة الثقافية فى بلادنا ، فان التركيز واقع اليوم على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية أما الجوانب الفكرية والثقافية فتكاد تكون مهملة . لذلك لا نستغرب أن يقع الخلل بين تجارب الجماهير وبين تعبير المثقفين ، وأن نشكو من كثرة العمل وقلة الفكر ، وأن يظل تاريخ الثورة بدون تدوين ، بل أن تظل الثورة نفسها بدون نظريات فلسفية . ولا يكفي فى هذا المجال انشاء الوزارات ، وخلق المراكز ، بل يجب تهيئة الجو وايجاد الامكانيات ووضع برنامج عمل .

في التجربـــة التاريخيـــة

حضرة الكاتب العام لوزارة التربية :

زملائي الأساتذة :

سيداتي سادتي :

كأني بالأصدقاء المشرفين على هذا اللقاء قد اختاروا هذه العشية بالذات ، عشية الخامس من جويلية ، التي تجمع بين ترحـة الاحتلال وفرحة الاستقلال ، لتكون هي المناسبة التي يحتفـون فيها بكتـاب « الحركة الوطنية الجزائرية » الذي يتخذ ، في الواقع ، نقطة انطلاقه من هذا اليوم التاريخي .

واذا جاز لي أن أربط الماضي بالحاضر فيجب علي أن أعترف بأن الكتاب المحتفى به مدين لشهداء 1830 وشهداء 1954 . فأولئك أمدوه بالمادة وهؤلاء أمدوه بالحيوية . ذلك أنه اذا كانت التجربة الانسانية في أوسع معانيها هي حقل المؤرخ فان النضال من أجل الحرية هو أخصب حقل لهذه التجربة . ورغم أن الكتاب لم يتناول الحاضر هكذا ، فان مؤلفه كان يشعر أن عليه واجبا نحو الثورة التي كانت عندئذ في قمتها ،

1 ـ نشرت في (المجاهد الثقافي) عدد 9 ، 1969 ، وقد ألقيت هذه الكلمة أثر حفلة تكريم أقامها لي نخبة من الأصدقاء بتاريخ الرابع من يوليو سنة 1969 بمناسبة صدور كتابي (الحركة الوطنية الجزائرية) ، وقد تحدث خلالها زملائي الدكتور عبد الله ركيبي ، والدكتور أبو العيد دودو ، والاستاذ محمد الميلي ، بالاضافة الى الاستاذ عبد الرحمن شريط بصفته أمينا عاما لوزارة التربية عندئذ ، فلهم جميعا أكرر شكري وامتناني .

لا فى الدعاية الحاضرة لها ، لكن فى البحث عن أصولها والتعرف على آثارها فى الماضي . ولكيلا تختلط العاطفة الذاتية بالحقيقة التاريخية وقف الكتاب عند سنة 1930 .

ومثل ملايين الجزائريين فى عهد الاحتلال لم أدرس تاريخ الجزائر فى المدرسة . فلم أتأثر مسبقا بنظريات أو فلسفة معينة نحو هذا التاريخ .

ثم جاءت الثورة فأذكت فى النفوس الرغبة فى التعرف على الماضي ، على أساس أن أية ثورة عظيمة لا يمكن أن تقوم بدون أبعاد تاريخية . وظلت نفس الفكرة تنعكس على انتاجي الأدبي ، الى أن لـوحت بي الأقدار فى بلاد بعيدة عن الجزائر وعن مراكز الثقافة العربية الاسلامية التي كان المرء يحس بالانتماء اليها والدفء فيها . فازداد عندي الشعور بالغربة والحنين الى الوطن ، ونمت لدي المعارف التاريخية بالدراسة والمخالطة واتقان لغات أجنبية ، والتعرف على أحوال الأمم الأخرى . وارتبط كل ذلك بما كان يجري عندئذ فى الجزائر .

ولكن ظاهرة الجهل بتاريخ الجزائر بقيت . فأساتذتي كانوا يدرسون لى تاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ أروبا ونهضتها وثوراتها العلمية والسياسية ، والقومية والاقتصادية ، بل كان يخيـل الي أنهم كانـوا يدرسون لي كل بلد ما عدا الجزائر . وكنت أتساءل مع نفسي : لماذا ذلك ؟ أليس للجزائر تاريخ يستحق الذكر ؟ هل أنساب أنا أيضا مع التيار فأكتب رسالة عن موضوع جاهز مكرر ؟ وبعد تجربة قاسية على النفس قررت أن أختار موضوع رسالتي عن تاريخ « الحركة الوطنية الجزائرية» رغم بعد الدار وقلة المراجع وجدة البحث فى الموضوع .

طالما تحدث المؤرخون عن الموضوعية . وطالبوا بأن يكون المؤرخ متجردا فى أحكامه ، بعيدا عن الأهواء والتأثيرات الخارجية . باحثـا عن الحقيقة حيثما وجدها ، مصدرا أحكامه مهما كانت قاسيـة ضـد

الذين يكتب عنهم أو ينتسي اليهم مستخرجا حججه من النصوص والوثائق والآثار . مستخدما فى ذلك ولذلك كل ما لديه من شروط ووسائل العلم والنقد الداخلي والخارجي . هذا هو مبدأ علم التاريخ كما تطور من هيرودوت الى توينبي مارا بابن خلدون : اعادة بناء واحياء الماضي كما كان لا كما يريده الفرد أن يكون .

ولكن كيف تطبق هذه الطريقة على الجزائر ؟ ان المؤرخ هنا فى حيرة فاذا استثنينا بعض المحاولات العابرة فانه يمكن القول بأن الجزائر بلاد بلا مؤرخين . والذين تناولوا تاريخها كانوا فى الغالب غير مرتبطين بها تاريخيا ، بل كانوا أعداء لها سياسيا أو ثقافيا . ومن سوء حظ الجزائر الماضية أن أبناءها لم يسجلوا احداثها الا قليلا ولم يهتموا بدراسة تاريخها . ومن هنا جاءت مشكلة الوثائق وندرة المراجع عن هذه البلاد . ولذلك أيضا كان على الباحث فى تاريخ الجزائر أن يعود ، ولا سيما فى فترة القرون الأربعة السابقة الى ما كتبه الأجانب من ملاحظات ورحلات ورسائل ومذكرات ، رغم ما فيها أحيانا من نقص واجحاف .

أصدقائي الأعزاء . .

ليس من هدفي أن أحاضركم عن تجربتي مع التاريخ أو عن تطور الدراسات التاريخية فى الجزائر . ان العمل الصحيح هو الذي تثبته الأيام . والتجربة الصادقة هي التي تستهدف الحقيقة مهما كانت الظروف . ولقد تفضلتم بالتكريم فأفضتم ، فوجب علي الشكر الخالص والاعتراف بالجميل . واني أعتبر هذه اللفتة منكم تنويها بكل الجهود المخلصة التي تهدف الى الكشف عن ماضي هذه البلاد ، وتقديرا منكم للبحث العلمي النزيه الذي هو ضالة كل مثقف شريف .

واسمحوا لي أن أختم كلمتي عن كتابي تاريخ « الحركة الوطنية الجزائرية » بما قدم به المؤرخ الألماني ليوبولد رانكي كتابه « تاريخ

الأمم اللاتينية والألمانية » حين قال : انه « يظهر لي (يعني كتابه) أكثر كمالا قبل طبعه منه الآن بعد طبعه . ومع ذلك فاني معتمد على القراء الذين سيغضون النظر عن نقائصه أكثر من اعتمـــادي على امكانيـــة فضائله .. انني أعرف الى أي مدى عجزت دون تحقيق هدفي . ولكن على المرء أن يسعى وأن يناضل ، وليس عليه أن يحقق هدفه . ويجب أن لا يصطدم أحد بذلك ، لأن أهم شيء هو دائما الموضوع الذي نتناوله .. وهو الانسانية كما هي ، ممثلة في حياة الأفراد والأجيال والأمم ، وفي بعض الأحيان ممثلة في قدرة الله التي هي فوق الجميع . » (ص 55 ، 57 — 58) .

والسلام عليكم ..

بعد ظهر يوم 4 جويلية 1969 .

الحركة الوطنية الجزائرية : 1900 — 1930

هناك سببان جعلاني أختار هذا الموضوع كرسالة دكتوراه ※ ، الأول هو احتكار الفرنسيين ، منذ أكثر من قرن ، لكتابة وتفسير تاريخ الجزائر ، والثاني هو عدم وجود أية دراسة جادة للحركة الوطنية الجزائرية حتى الآن .

وقد اخترت بالذات هذه الفترة (1900 — 1930) لأنها من ناحية كانت دائما مهملة من طرف من أرخوا للجزائر ، ولأنها من ناحية أخرى قد مثلت مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة الوطنية . لقد بدأت بحملة من أجل اليقظة والمحافظة على الخصائص الذاتية للجزائر وانتهت بظهور الاتجاه الانفصالي الذي رفض كل مساومة مع الفرنسيين .

وقد اتبعت فى كتابة هذه الأطروحة قاعدة ثابتة . فكل فصل يبدأ عادة بمدخل عن السياسة الفرنسية خلال المرحلة المدروسة ، ويتلو ذلك بحث مفصل عن رد الفعل الوطني لهذه السياسة ، ثم خلاصة . وعلى هذا الأساس درست الأطروحة الحركة الوطنية من خلال مظاهرها الثقافية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والعسكرية المختلفة . كما أنها قد احتوت على تراجم شخصية مختصرة للأفراد الذين أثروا فى هذه الحركة .

※ خلاصة أطروحة دكتوراه نشرت فى « ديسيرتيشن أبستراكتز » م 27 ، عدد 3 ، 1966 ، ثم ترجمت ونشرت فى « المجاهد » الجزائرية ، عدد 300 (19 فيفري 1967) ، وفى (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) عدد 4 ، يناير 1968 .

وبالاضافة الى علاقة الجزائر بفرنسا ، فان الأطروحة قد درست علاقة الحركة الوطنية بعدة ايديولوجيات وقوى معاصرة ، من ذلك علاقتها بحركة الجامعة الاسلامية ، والشيوعية ، والديمقراطية ، والقومية العربية ، والقوات المركزية (ألمانيا والامبراطورية العثمانية خلال الحرب الأولى) .

ونظرا الى انعدام البحث التاريخي فى الفترة المشار اليها ، فقد عولت فى دراستي ، فى معظم الأحيان ، على مصادر أولية (خام) كتبها ملاحظون معاصرون للحركة الوطنية . ولكي أملأ الفراغ ، ترجمت عدة وثائق هامة عن الحركة الوطنية من العربية والفرنسية الى الانكليزية . وقد وضعت هذه الوثائق فى شكل ملحقات للأطروحة . كما دونت معجما بالكلمات العربية الواردة فى الأطروحة ، وعلاوة على ذلك فان الأطروحة قد اشتملت على بعض الاحصائيات الهامة الخاصة بالحركة الوطنية .

وبعد اختبار جميع الوثائق الموجودة ، انتهت الأطروحة الى النتائج التالية :

1 ــ خلال الفترة المدروسة (1900 ــ 1930) كانت الجزائر فى غليان دائم ظهر فى التمردات العسكرية والاضطرابات السياسية ، والنشاطات الثقافية .

2 ــ ان الاحتلال الفرنسي لم يخلق الوطنية الجزائرية ولكنه أيقظها وقواها فقط .

3 ــ لقد قامت هذه الوطنية برد فعل عنيف ضد الاحتلال الأجنبي . ورغم أن الاجراءات المضادة التي اتخذها الاحتلال ضدها قد أضعفتها حقبة ، فانها قد ظهرت مرة أخرى فى آخر القرن الماضي مستعملة تكنيكا جديدا وضغطا قويا ضد الاحتلال .

4 ــ لقد كان الحاق الجزائر بفرنسا سنة 1834 . واصدار قانون مجلس الشيوخ (ساناتو كونسيلت) سنة 1865 ، وقانون الأهالي (كود دي لانديجينا) سنة 1881 ، وانشاء محاكم الاضطهاد (تريبينو ريبريسيف) سنة 1902 . والتجنيد الاجباري سنة 1912 ــ لقد كان ذلك كله خرقا للاتفاق المبرم سنة 1830 بين الجزائر وفرنسا . كما كان خرقا لجميع المبادىء الديمقراطية .

5 ــ من الممكن أن يقال بأن أصول حركة الجامعة الاسلامية والقومية العربية تعود الى الحركة الوطنية الجزائرية .

6 ــ ان الحكم الفرنسي في الجزائر كان فذا ، متناقضا ، اضطهاديا ، سلبيا .

7 ــ لم يكن المعمرون الفرنسيون (الكولون) هم وحدهم المسؤولين على فشل السياسة الفرنسية في الجزائر . ان الفرنسيين الآخرين يتحملون مسؤولية ذلك الفشل أيضا .

8 ــ كانت مساعدة القوات والايدولوجيات الأجنبية للحركة الوطنية الجزائرية ضئيلة وغير حاسمة .

9 ــ ان طلب الجزائريين للمساواة مع الفرنسيين لم يكن ضد الوطنية . لقد كان مجرد وسيلة لحماية حركتهم من القوانين الاستثنائية. فاذا أخذنا في الاعتبار الشكل الفذ للحكم الفرنسي في الجزائر . نجد أن ذلك الطلب كان خطوة منطقية ، في تطور الحركة الوطنية .

10 ــ ان مقاومة الجزائريين للاندماج بمحافظتهم على قوانينهم الشخصية يجب تفسيرها على أنها . في حد ذاتها ، موقف وطني ايجابي .

11 — لم يكن وجود الثقافة الفرنسية فى الجزائر مصدر انعاش وترقية للثقافة الوطنية ، بالعكس ، لقد تسبب ذلك فى اضطهادها .

12 — ان غياب أية قوة تتنافس مع فرنسا على الجزائر ، والاعتقاد بأن الأخيرة كانت مقاطعة فرنسية ، قد ساعدا على عزلة الحركة الوطنية .

ولكن المؤلف لا يدعى بأنه قد طور موضوعه نهائيا . ان هذا الموضوع ما يزال فى حاجة أكيدة الى أبحاث اضافية . واذا كانت هناك أية مساهمة قامت بها الأطروحة ، فهي القاؤها بعض الضوء على فترة كانت الي الآن غامضة ، وعلى بلاد ظلت طيلة أكثر من قرن فى عزلة مفروضة .

الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائري *

لا شك أن مؤلف كتاب « تاريخ الجزائر المعاصرة » (1) الأستاذ شارل أندري جوليان معروف لدي عدد كبير من المثقفين الجزائريين والعرب . فهو من بين المؤرخين الذين حاولوا أن ينصفوا الجزائريين فى كفاحهم ضد الاستعمار الفرنسي . وهو معروف بالاتجاه الاشتراكي والاطلاع الواسع والصراحة فى الرأى والاهتمام بقضايا شمال افريقية (2) . والظاهر أن « تاريخ الجزائر المعاصرة » هو أول عمل لجوليان بعد استقلال الجزائر . وقد استقبل الجزائريون هذا الكتاب استقبالا يليق بسمعة المؤلف وضخامة العمل . فأعلنت عنه الصحافة الوطنية (3) . وراجعه بعض الكتاب الجزائريين (4) . ومن المؤكد أن بعض الأساتذة قد أوصوا به الى طلابهم .

1 ـ تاريخ الجزائر والاسلام :

كل جزائري وكل مؤرخ منصف يعتقد أن دخول الاسلام الى الجزائر كان عامل وحدة خالدة . فقد منح الاسلام للجزائريين العقيدة التي وحدت سلوكهم واتجاههم ، واللغة التي وحدت تفكيرهم

---

* بحث نشرته مجلة « المعرفة » الجزائرية ، عدد 19 (ماي ـ جوان ، 1965 ، السنة الثانية ص 10ـ23 .

1 ـ نشر صحافة فرنسا الجامعية (باريس ، 1964) 632 صفحة ، الجزء الاول 1827 ـ 1871 .

2 ـ من أهم كتبه فى هذا الموضوع « افريقية الشمالية الزاحفة » (باريس ، جوليارد ، 1952) 416 صفحة .

3 ـ أنظر مجلة « ريفولوسيون أفريكان » (19 ديسمبر 1964) رقم 99 .

4 ـ المصدر السابق (26 ديسمبر 1964) رقم 100 .

شعورهم ، والايمان الذي وحد حركتهم وانفعالهم . كما غرس فيهم مبادىء الحرية والتضحية والايثار . وبالتالي فقد أعطى الاسلام للجزائريين حضارة كاملة تقوم على العربية كوسيلة تفكير وتعبير ، وعلى الدين كطريقة حياة وسلوك . ولم يتقبل الجزائريون هذه الحضارة فقط ، بل ساهموا مساهمة فعالة فى تقويتها وتمكينها . ولذلك فان كل من يؤرخ للجزائريين دون أن يشير الى دورهم العملاق فى التشييد والدفاع عن الحضارة العربية ــ الاسلامية فانه يغمطهم حقهم .

ولكن المؤرخين الاستعماريين قد حاولوا أن ينالوا من رسالة الاسلام فى الجزائر . فقد وصفوا حامليه بالعدوان . واتهموا معتنقيه بالتعصب . وحاولوا خلق العنصرية والطائفية لذبذبة الأفكار وضعضعة الوحدة . وجوليان ، كما سترى ، لم يسلم من الانجراف فى هذا التيار .

خلال فترة الاحتلال الفرنسي اعتاد المؤرخون الاستعماريون أن يكتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية وليس عن الجزائريين كسكان لهذه المنطقة . ومن الواضح أن هناك فرقا كبيرا بين التناولين . فالذين يؤرخون للجزائر كمنطقة جغرافية يتناولونها على أنها جزء من العالم تداولت عليه الأمم وتعاقبت عليه الحضارات ، وهي لذلك ، فى نظرهم ، بلاد مفتوحة لكل من يريد التوسع والاستعمار . ومن أجل ذلك اعتادوا أن يؤرخوا للفنيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين والأتراك والفرنسيين فى الجزائر دون اهتمام بالجزائريين أنفسهم كقوة فعالة تؤثر وتتأثر .

وقد اتبع جوليان هذا الطريق ، فمما لا ريب فيه أن هناك طريقتين لدراسة تاريخ الجزائر فى عهد الاستعمار الفرنسي (1830 ــ 1962) . الأولى هي تناوله على أنه جزء من تاريخ فرنسا نفسها . والثانية هي

تناوله على أنه جزء من تاريخ الجزائريين • وقد سار جوليان فى كتابه « تاريخ الجزائر المعاصرة » على الطريقة الأولى • فهو لم يؤرخ للجزائريين وانما للقوة الاستعمارية التى احتلت الجزائر • وما دام جوليان قد كرس كل كتابه تقريبا لدراسة الشخصيات والنظم والقوانين الفرنسية فى الجزائر فقد كان الأولى به أن يسمى كتابه « تاريخ فرنسا فى الجزائر » بدل « تاريخ الجزائر المعاصرة » •

2 ـ الحكم الوطني أو التركي :

تمشيا مع الطريقة الاستعمارية يطلق جوليان على النفوذ الروحي للخلافة الاسلامية فى الجزائر « الاستعمار التركي » • فهو يقول « ان النظام الاستعماري الذي طبقه الأتراك بكل حزم لم يسمح للجزائر أن تتقدم نحو الوحدة » (ص 19) ومن المعروف أن بيت آل عثمان كان يطلق على عائلة وليس على جنسية • وجوليان نفسه يعرف أن عائلة الهابسبورغ النمساوية ، والبوربون الفرنسية ، والرومانوف الروسية ، والهوهانزولرن البروسية كانت ، قبل عصر القوميات ، ترمز لوحدة عائلية أو دينية لا لوحدة قومية أو سياسية بالمفهوم الحديث •

ويجب أن يكون واضحا ان هذا لا يعني تبرير استلام آل عثمان مقاليد الخلافة الاسلامية • ولكن الهدف من اثارة هذه النقطة هو التنبيه الى أن بيت آل عثمان كان ، على الاقل فى نظر أغلب المسلمين [illegible] لوحدة العالم الاسلامي قبل ظهور القوميات • ولذلك فانه [illegible] أو المغالطة أن يوصف النفوذ الروحي للخلافة الاسلامية [illegible] « استعمار تركي » ومن اليقين أن جوليان يدرك ان هذا [illegible] تاريخي لأنه يعطي عصرا ما (مثلا عصر التحالف العا[illegible] عصر آخر (مثلا عصر التحالف القومي والسياسي [illegible]

ومن الثابت تاريخيا ان الجزائريين انفسهم هم الذين طلبوا التحالف مع الخلافة الاسلامية فى أوائل القرن السادس عشر . وكان ذلك الطلب يستهدف التعاون مع الخلافة لطرد الغزاة الاسبان والبرتغال الذين احتلوا شطرا من سواحل الجزائر وهددوا جميع افريقية الشمالية بالاحتلال . وهكذا ، فان نزول الاسطول العثماني مياه الجزائر ، بناء على رغبة الجزائريين أنفسهم ، لم يكن « للاستعمار » كما يزعم جوليان ولكن لانجاد جزء من العالم الاسلامي كان مهددا بالخطر .

وبفضل التحالف الارادي بين الجزائريين والخلافة الاسلامية توحدت الجزائر جغرافيا وسياسيا وعسكريا بعد ان كانت موحدة روحيا وفكريا تحت عدة عائلات محلية . وقد ادى الشعور بالخطر والحروب ضد العدو المشترك الى ظهور « الضمير الوطني » الجزائري الذي اكتسب صلابة على مر السنين ، والذي عبر عن وجوده فى شكل مقاومة دائمة وعنيفة للاستعمار الفرنسي منذ اللحظة الأولى . غير ان جوليان . كما سترى ، ينكروجود « ضمير وطني » جزائري قبل الاحتلال الفرنسي .

ان تحالف الجزائريين مع الخلافة قد انتهى تدريجيا وتلقائيا . ذلك أن الخلافة ، بعد ظهور المسألة الشرقية ، قد وجدت نفسها فى حالة خطر دائم ولا سيما من روسيا وبريطانيا والنمسا . ولم يعد فى استطاعة الخلافة أن تساعد الجزائر ماديا منذ أوائل القرن الثامن عشر . وبالاضافة الى ذلك فان الجزائر نفسها لم تعد فى حاجة الى هذا التحالف . ذلك انها قد أخذت شيئا فشيئا تبني اسطولها وتحصن سواحلها وتنظم اقتصادها وتثبت كيانها السياسي وعلاقاتها الدبلوماسية . ورغم ذلك فان الجزائر قد ابقت على علاقتها الروحية بالخلافة والفكرية بالوطن العربي .

والنظرية التي بنى عليها المؤرخون الاستعماريون محاربة الوطنية الجزائرية كانت تقوم على الادعاء بأن الجزائر بلد مخلوق للاستعمار . وجوليان قد قبل هذه النظرية خصوصا فى كتابه « تاريخ افريقية

الشمالية . » وقد كان هناك سببان واضحان لهذه النظرية الأول هو انها كانت تحاول « تبرير » الاستعمار الفرنسي فى الجزائر . ألم يكن سوى حلقة فى سلسلة الاستعمارات التي سبقته ومن بينها « الاحتلال العربي » و « الاستعمار التركي » ؟ والثاني هو انها كانت تحاول فصل الجزائريين عن حضارتهم العربية ـ الاسلامية . وأصحاب هذه النظرية لا يطعنون فى هذه الحضارة مباشرة لأنهم متيقنون بأن الجزائريين لن يتسامحوا معهم ، ولكنهم يطعنون فيها بطريقة غير مباشرة وذلك بنعت من جاؤوا بها أو دافعوا عنها بالاعتداء والتوسع الاستعماري .

وهذا بلا شك لا يعني المدافعة عن الأخطاء والمظالم التي وقعت أثناء تحالف الجزائر مع الخلافة الاسلامية . فقد كانت هناك آخطاء ومظالم ارتكبها جهلة وحمقى وانتهازيون ومغامرون.ولكن الذي يجب رفضه تماما هو أن تكون هذه الأخطاء والمظالم قد وقعت باسم القومية ، أي ارتكبها « أتراك » مستعمرون ضد « جزائريين » محتلين . ولاشك أن أصحاب النظرية الاستعمارية يدركون أن سوء الحكم العثماني لم يكن مقصورا فى ذلك الوقت على الجزائريين ، ولكن كان شاملا لجميع آنحاء الخلافة بما فى ذلك « الاتراك » آنفسهم ، . فاسطانبول فى عهد الجنود الانكشارية والسلاطين الفاسدين لم تكن اكثر حرية وديمقراطية ورخاء من الجزائر فى عهد الباشوات والدايات ، فقضية الاخطاء والمظالم ، حينئذ ، يجب تناولها على أساس انها « ظاهرة سلطة » وليست « ظاهرة قومية » .

ومع ذلك فان جوليان نفسه يعترف بأن « الداي كان لا يحكم بصفة نافذة ومؤكدة سوى قسم صغير من الجزائر . » (ص 5) . وهو يقر بأن « الثورات التي كانت تقع فى الجزائر قد تسببت للادارة التركية فى عدم الاستقرار تحت حكمها الأجنبي ، خصوصا ضد سوء الادارة والتصرف (ص 19) . كما يعترف فى مكان آخر بأن الجزائريين كانوا لا يؤيدونهم (أي الاتراك) الا قليلا (ص 2) . ونحن نفهم من هذا ان

الجزائريين كانوا غير راضين وغير مستقرين فى عهد التحالف مع الخلافة الاسلاميـــة .

فاذا كان ذلك صحيحا ، فانه يبرهن على أنه قد كان بين الجزائريين كره مشترك ضد الأجانب فى بلادهم ، أي أنه قد كان بينهم « ضمير وطني » قبل الاحتلال الفرنسي (قبل عصر القوميات) كما يبرهن ذلك على أن الجزائريين كانوا سيثورون ضد أولئك الأجانب ، طال الزمان أو قصر ، لتحقيق حكم وطني ، لو لم تتدخل فرنسا فى الموضوع . ولكن جوليان ينكر وجود « ضمير وطني » لدى الجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي . فهو يصر على أن التحالف مع الخلافة الاسلامية « لم يسمح للجزائر أن تتقدم نحو الوحدة » (ص 19) .

3 ـ خصائص الدولة الجزائرية : 1516 ـ 1830 :

يرى جوليان بأن « الدولة الجزائرية لم تكن الا بالاسم » (ص 2) . وقبل مناقشة هذا الرأي يجب توضيح معنى « الجزائرية . » خلال الفترة 1516 ـ 1830 ظهرت الى الوجود دولة جزائرية تقوم على الوحـــدة الجغرافية والسياسية والاقتصادية للبلاد ، بالاضافة الى الوحدة الفكرية والروحية التي قامت منذ الفتح الاسلامي . كما كانت هذه الدولة مؤيدة من طرف أغلب سكان الجزائر ومعززة بجيش بري وأسطول بحري وذات علم وبرلمان ونقد وعاصمة . وفى نفس الوقت كان للدولـــة الجزائريـــة تقاليدها العرفية والديبلوماسية حسب القانون الدولي المعمول به آنذاك .

ولم تكن هذه الدولة تعمل أو تمثل مصلحة « دولة أجنبية » كما يزعم أصحاب النظرية الاستعمارية ، وعلى فرض انها كانت على علاقة مـــع الخلافة فان هذه العلاقة لم تكن سياسية أو قومية ولكنها كانت روحية فقط . ومع ذلك ، فهل كان يجوز فى عقل مسلم فى ذلك الحين أن يعتبر

الخلافة الاسلامية « دولة أجنبية » بالمعنى الذي يطلقه عليها جوليان فى القرن العشرين ؟

ومن الواضح اذ هذه الدولة كانت تعمل لمصلحة الجزائريين . فقد أخذت على عاتقها الدفاع عن ترابهم الوطني وممتلكاتهم ونظمهم السياسية. وكانت ، الى جانب ذلك ، تعقد الصفقات والمعاهدات الدولية باسمهم وتسن القوانين والتشريعات بارادتهم . ذلك أن هذه الدولة كانت فى الحقيقة موجودة باسمهم . واذن فقد كانت « جزائرية » بكل معنى لهذه الكلمة ، على الأقل فى لغة العصر الذي كانت فيه . والمؤرخ المنصف يجب أن يعترف بأن هذه الدولة لم تخل من الفساد والتعفن . ولكن متى كان التعفن والفساد مقصورين على النظام « الاجنبي » وحده ؟ ان العالم يشهد اليوم حكومات تزعم انها « قومية » ، ومع ذلك فهي على غاية من التعفن والفساد والاستبداد والرجعية .

على أن هناك نقطة كان من المفروض أن لا تفوت جوليان وهي ما يعرف فى التاريخ بالمشاكل الداخلية أو الخاصة بين الشعوب التي تربطها حضارة واحدة . وكثيرا ما ينزلق المؤرخون على هذه المشاكل لانها لا تخضع لقوانين التاريخ العامة . من هذه المشاكل فى أوربا علاقة فرنسا واسبانيا تحت عائلة البوربون ، وعلاقة النمسا واسبانيا أيضا تحت حكم الهابسبورغ . وعلاقة الدويلات الالمانية مع بعضها أثناء الحركة البروتستانية .

أما فى الشرق فتظهر هذه المشاكل الخاصة فى علاقة العالم الاسلامي مع بعضه تحت الخلافة الاسلامية العثمانية . فمعظم مناطق الخلافة قد خضعت حينئذ الى حكم محلي أو اقليمي يرتكز فى معظم الاحيان فى أسرة معينة ، رغم اعتراف هذه العائلات الحاكمة بالنفوذ الروحي للخلافة . وقد امتازت الجزائر بأنها لم تكن محكومة بأسرة معينة بل بنظام برلماني كان يحتوي على بذور صالحة للديمقراطية . فالدايات فى

الجزائر كانوا يتولون الحكم بطريقة الانتخاب لا الوراثة ، على عكس مصر تحت أسرة محمد علي ، وتونس تحت الأسرة الحسينية ، وطرابلس (ليبيا) تحت أسرة الكرمنلي . والخطر هو أن بعض المؤرخين الأجانب يدخلون أنوفهم في هذه المشاكل الخاصة لا خدمة للحقيقة ولكن لاغراض سياسيـــة .

من هذا التدخل الخطير محاولة تشجيع القوميات الضيقة وخلق صراع قومي بين أصحاب الحضارة الواحدة . وقد اتبع جوليان رأي المؤرخين الاستعماريين أمثال غوتي وبوسكي وبرنارد الذين يصفون علاقة الجزائر بالثقافة العربية بأنها علاقة المعتدي (العربي) بالمعتدى عليه (الجزائري .) وعلاقتها بالخلافة بأنها علاقة المستعمر الأجنبي (الخليفة) بالمستعمر الوطني (المسلم الجزائري) . والطريقة التي يسير عليها هؤلاء مغرية وخداعه . فهم يستغلون ثورتنا على الاستعمار باسم الوطنية ليوجهوا طاقتنا الثورية ضد بعضنا ، أي نحن أصحاب الحضارة الواحدة ، باسم القومية الاقليمية .

وحين يصر جوليان بأن « النظام الاستعماري » الذي طبقته الخلافة « لم يسمح للجزائر أن تتقدم نحو الوحدة » (ص 19) ، فانه لا يسع الباحث الا أن يسأله ماذا يعني بهذه « الوحدة » الجزائرية . ان جوليان بلاشك يدرك أن الجزائر كانت قد توحدت فكريا وروحيا قبل أن تظهر فرنسا نفسها الى الوجود ، أي منذ القرن الثامن الميلادي . كما يدرك أيضا أن الجزائريين كانوا قد توحدوا سياسيا حين كان الفرنسيون ما يزالون يبحثون عن كيانهم بـــين الأمم ، أي منذ القرن السادس عشر الميلادي . غير انه من الواضح أن جوليان هنا يعني « الوحدة الانفصالية » أي فصل الجزائريين عن الحضارة العربية ــ الاسلامية . وهذه هي نفسها الفكرة التي طالما روجها المؤرخون الاستعماريون وحاولوا تدعيمها بشتى طاقتنا الثورية ضد بعضنا ، أي نحن أصحاب الحضارة الواحدة باسم

الوسائل . فلكي تكون الجزائر حقا متحدة ومستقلة ، فى نظرهم ، كان عليها أن تعلن الانفصال ، باسم القومية الاقليمية ، عن الحضارة العربية الاسلامية .

4 ـ ظهور الوطنية الجزائرية :

واذا كان منطق جوليان غريبا فيما يتعلق « بجزائريــة » الدولــة الجزائرية ، فان منطقه يظهر أكثر غرابة حين يتناول فكرة ظهور الوطنية الجزائرية . فهو يقول بأن الثورات التي كانت تقع فى عهد التحالف بين الجزائريين والخلافة كانت تساعد على تقريب الجزائريين من بعضهــم « ولكن هذه العاطفة الذاتية لم تتخذ فى وقت من الأوقات شكلا قوميا » (ص 19) . ومن الواضح أن جوليان يتحدث هنا عن الفكرة القومية فى الفترة 1516 ـ 1830 . ولكن المعروف ان القومية بمعناها الحديث لم تظهر الا فى القرن الماضي .

والحقيقة ان « العاطفة الذاتية » التي يتحدث عنها جوليان كانت قد توطدت بين الجزائريين نتيجة للوحدة الفكرية والروحية التي ترعرعت فيهم منذ الفتح العربي ـ الاسلامي فى الجزائر . وعدم اتخاذ هذه العاطفة « شكلا قوميا » أي انفصاليا اقليميا ، كان يرجع الى عاملين أساسيين : الأول أن الجزائريين كانوا ، وما زالوا ، عربا مسلمين . وهم يعرفون انه لا قومية فى الاسلام ولا اقليمية فى العروبة . والثاني ان التجربة العالمية للقومية بمفهومها الحديث برهنت على انها لم تتخذ « الشكل القومي » الا اذا كان هناك خطر خارجي على « العاطفة الذاتيــة » لشعب مــن الشعوب . وكون العاطفة الذاتية الجزائرية لم تتحول الى شكل قومي فى عهد تحالف الجزائر مع الخلافة دليلا على أن الجزائريين لم يشعروا بخطر خارجي على ذاتيتهم وعلى مقوماتهم الوطنية .

ومن الانصاف القول بأن جوليان نفسه يعترف بهذه الحقيقة . فهو يقر بأن العاطفة الذاتية لدى الجزائريين قد تحولت « بعد زمن طويل من النضج الى ضمير قومي » (ص 20) . وقد كان ذلك ، بناء على رأيه ، نتيجة للاستعمار الفرنسي الذي كان يشكل في نظر الجزائريين خطرا خارجيا على ذاتيتهم . لقد كان أولئك الجزائريون آمنين مطمئنين في عهد تحالفهم مع الخلافة فلم يشعروا بضرورة تحويل عاطفتهم الذاتية الى قومية انفصالية اقليمية لأنه لم يكن هناك ، في نظرهم ، خطر خارجي على ذاتيتهم . ولكنهم قد شعروا ، مع الاستعمار الفرنسي ، بخطر خارجي محقق على هذه الذاتية ، ولذلك أظهروها في « شكل قومي » عنيف ثائر ، أي حركة انفصالية عن فرنسا الاجنبية لا عن الحضارة العربية الاسلامية التي لا تنفصل أبدا عن مفهوم أهل الجزائر .

غير أن جوليان قد انكر وجود « شعب » أو « أمة » جزائرية قبل الاحتلال الفرنسي . وهو في هذا قد اتبع أيضا منطق المؤرخين الاستعماريين الذين زعموا أن فرنسا لم تجد شعبا أو أمة في الجزائر وانما وجدت قبائل متناثرة متنافرة ، وانها لم تجد أرضا معمورة مدافعا عنها ولكنها وجدت أرضا سائبة من حق كل أمة أجنبية أن تحتلها اذا كان لها العتاد والسلاح والرجال . فجوليان يقول بأن هذه القبائل الجزائرية أو الاتحادات (الفيدراليات) القبلية لم تكن تعرف « فكرة القطر الواحد التي تشكل قاعدة الأمة . » وهو يزعم بأن فكرة « الضمير المشترك » بين الجزائريين كانت « مفقودة » (ص 20) في عهد تحالفهم مع الخلافة .

5 ــ معنى الوطنية والقومية :

قبل مناقشة هذه القضية يجب توضيح الفرق بين مفهوم معنيين كثيرا ما يقع فيه الغلط والأشكال ولا سيما في ترجمته من اللغات الأجنبية . الأول هو مفهوم الوطنية (Patriotism) التي تعني حب الانسان لوطنه

الذي ولد فيه وتربى فيه ، واستعداده للدفاع عنه والموت في سبيله . مفهوم هذا المعنى كان موجودا ومشتركا بين جميع الجزائريين . وهذا لا يتفق مع رأي جوليان لأنه ينكر وجود فكرة « القطر الواحد » في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي .

الثاني هو مفهوم القومية (Nationalism) التي تعني الشعور المشترك بين جماعة معينة تنتمي الى حضارة واحدة ، ولها حدود جغرافية معينة ، وتشترك في التاريخ والمصير . وبناء على المعنى الأخير ، فان الجزائريين ، بالاضافة الى اشتراكهم في « الضمير الوطني » ، كانوا ومازالوا ، يؤمنون بالأمة العربية التي يتقاسمون معها التاريخ والثقافة والمصير والحدود الجغرافية (أي الحدود الطبيعية لا المصطنعة) كما أن لدى الجزائريين « شعورا قوميا » يربطهم بتلك الأمة ارتباطا عقائديا راسخا ، ومن المؤكد أن جوليان كان يقصد المفهوم الثاني (القومية) حين أنكر وجود فكرة القطر الواحد وفكرة الضمير الوطني بين الجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي ، ولكنه نسي أن ذلك غير ممكن حضاريا لأن الجزائريين لا يستطيعون أن يتنكروا لذاتهم فيعلنوا الانفصال عن الأمة العربية بدافع « قومي » اقليمي .

ومع ذلك فقد كان للجزائر كل شروط ومقومات الكيان المستقل قبل الاحتلال الفرنسي . فقد كان لها جنسيتها وشخصيتها المتمثلة في الجيش والعلم والبرلمان والدولة والحدود بناء على المفاهيم الدولية المعمول بها في ذلك الحين . كما كان لها تقاليدها الشعبية من معتقدات وعادات وآداب وأنظمة ، ويقينا أن الجزائري في عهد التحالف مع الخلافة كان يدافع عن فكرتين لا تنفصلان في نظره : القومية (فكرة الانتماء الى الأمة العربية) والوطنية (فكرة الانتماء الى الجزائر) . وقد استمر في هذا التقليد الشريف الى ثورة نوفمبر العظيمة .

6 ـ حمدان خوجة :

من أغرب ما يجده القارىء فى كتاب « تاريخ الجزائر المعاصرة » هو شك المؤلف فى أن حمدان خوجة ، أحد رواد الحركة الوطنية الجزائرية والقومية العربية الاسلامية ، قد كتب كتابه المعروف « بالمرآة » وجوليان يستشهد لذلك بعدة أمور : منها أن فرنسيا يدعى دي بوسي (R. De Bussy) قد زعم بأنه أملى الكتاب على خوجة (ص 74) ومنها أنه « لا شيء يدل على أنه (أي المرآة) قد ترجم » من العربية الى الفرنسية (ص 74) ومنها أن (المرآة) قد احتوى على تراكيب قومية واشارات الى كونستانت وغروتيس وتاسيت لم تكن معروفة عند المسلمين فى ذلك الوقت ، ولكنها (أي التراكيب) كانت رائجة عند الأوروبيين الليبراليين الذين كانوا يعيشون حوادث اليونان وبولندا وبلجيكا (ص 74) .

ان غرابة هذا الرأي تظهر من الأمور التالية . فجوليان لم يذكر من هو دي بوسي ولا ما هي علاقته بخوجة ولا المصدر الذي نقل منه رأيه المزعوم من أنه (دي بوسي) قد أملى « المرآة » على خوجة حتى يكون فى استطاعته أن يملى كتابا «كالمرآة» مليئا بالاحصاءات والأسماء والدقائق التي لا يعرفها الا خبير شاهد عيان لتطوارت الجزائر فى ذلك الوقت .

ومن ناحية أخرى فان جوليان نفسه يعترف بأن «المرآة» كان قد ترجم الى الفرنسية بعناية السيد دغيس الطرابلسي ، والمعروف أن خوجة لم يكتب «المرآة» فقط ولكنه كتب أيضا «المذكرات» وعدة رسائل مطولة الى الملك الفرنسي لويس فيليب والى اللجنة الأفريقية التي عينتها الحكومة الفرنسية عام 1833 لتبحث الوضع فى الجزائر . فهل كانت كتابات خوجة الأخرى ، التي كانت شبيهة « بالمرآة » فى روحها ، قد أمليت عليه أيضا من طرف دي بوسي ؟ واذا كان يجوز أن خوجة قد

كتب المذكرات والرسائل المذكورة ، فلماذا لا يجوز له أن يكتب «المرآة» أيضا ؟

أما كون «المرآة» قد احتوى على تراكيب قومية وأسماء بعض المفكرين الاوروبيين الذين لم يكونوا معروفين فى العالم الاسلامي عندئذ ، فليس له أساس تاريخي . فجوليان قد قرأ بلا شك الدراسة التي كتبها جورج افير (G. Yver) عن حمدان خوجة لأنه (أي جوليان) قد وضعها ضمن مراجع كتابه . وقد أثبت افير أن خوجة كان يتحدث الفرنسية وأنه قد قضى أكثر من عشر سنوات خارج الجزائر دارسا متنقلا بين المشرق وبين أوروبا ، بما فى ذلك البلقان وفرنسا . وقد كانت تنقلات خوجة خلال عنفوان الثورات اليونانية والبولندية والبلجيكية . فما الذي كان يمنعه (أي خوجة) من التقاط التراكيب القومية والشعارات الثورية وأسماء بعض المفكرين أمثال تاسيت وغروتيس وكونستانت ؟

ومن جهة أخرى فان ثورة اليونان بالذات كانت ضد الخلافة الاسلامية ، وأن الأسطول الجزائري قد اشترك ضد هذه الثورة ، فهل كان غير متوقع أن يهتم الجزائريون ، بما فيهم حمدان خوجة ، بحوادث اليونان التي كانت تستنزف دماءهم وأموالهم وسلاحهم ، والتي كانت تمس كيان الخلافة الاسلامية فى الصميم ؟ وبالاضافة الى ذلك فان الذي يطالع كتابات خوجة يجد أنه كان يقص تجربته الشخصية ومشاهدته الذاتية بحرارة خاصة مما يدل على أنه لم يكن يستمع الى أحد يملي عليه أفكاره كما يزعم دي بوسي ويروي عنه جوليان .

ولم يكتف جوليان بمحاولة الحط من قيمة أحد مآثر خوجة التاريخية ، ولكنه حاول التشكيك فى وطنيته أيضا . فقد اتهمه ، مع أحمد بوضربة ، بالتعاون مع الجيش الفرنسي فى الجزائر (ص 74) . وليس هناك نية الآن لعرض حياة ونضال هذين الرجلين اللذين لعبا

دورا رائدا في معارضة الاحتلال الفرنسي . وكل ما نرغب فيه هنا هو ملاحظة أن جوليان لم يكن منصفا في معالجته لهذه القضية .

فالاتفاق الذي وقعه الداي باسم الجزائر ودي بورمونت باسم فرنسا في الخامس من جويلية عام 1830 قد نص على احترام جميع الحريات الفردية والمدنية وحرمة المساجد والنساء والأملاك ، وعلى عدم تدخل الفرنسيين في الشؤون الدينية والثقافية والاقتصادية في الجزائر ، الخ . كما أن البيان الذي وزعه الفرنسيون على الجزائريين قبل ذلك قد وعد بأنهم (الفرنسيين) كانوا قادمين « لتحرير » الجزائر من « الأتراك » أي من حكم الداي الطاغية ، كما وعد بأنهم سيخرجون حالما يحققون هذه المهمة .

وحين قبل خوجة وبوضربة وغيرهما بعض المسؤوليات مع الفرنسيين لم يفعلوا ذلك خدمة لفرنسا ، كما يزعم جوليان ، بل خدمة لشعبهم الذي لم يبق من يمثله سواهم بعد سقوط الحكومة الجزائرية . والحق أن أولئك الجزائريين قد انخدعوا . فقد ظنوا أن الفرنسيين سيحترمون وعودهم ويوفون بالتزاماتهم ، ولكنهم شيئا فشيئا بدأوا يتبينون خطأهم حين ثبت لهم أن الفرنسيين قد جاءوا ليبقوا ، وأنهم لم يحترموا لا بنود الاتفاق ولا نصوص البيان ، وهنا لم يسع خوجة وبوضربة وحمدان آغة وعمر بن مصطفى وغيرهم الا أن أعلنوا معارضتهم المفتوحة للاحتلال . ولذلك كان جزاؤهم ، كما يشهد جوليان نفسه ، النفي والتشريد والمحاكمة ومصادرة الأملاك والسجن .

فلو كان جوليان منصفا لذكر بأن هؤلاء الجزائريين كانوا ضحية الثقة في وعود فرنسا . وقد كان عليه ، بدل أن يرميهم بالتعاون ، أن يتهم هذا العدو بأنه كان خداعا ومنافقا ، وذلك انصافا للتاريخ والحقيقة، ولا شك أن جوليان يعرف انه لو أراد أولئك الجزائريون أن يتعاونوا

حقا وباخلاص مع فرنسا لوجدوا العيش الرغد والحياة السهلة .ولكنهم، وفاء لمبادئهم وشعبهم ، قرروا أن يسلكوا الطريق الصـــعب ، وأن يناضلوا من أجل تحرير وطنهم مهما كلفهم ذلك من تضحيات .

ومؤلف « تاريخ الجزائر المعاصرة » يدرك يقينا أن خوجة ، الذي يتهمه بالتعاون ، هو نفسه الذي حاكمه الفرنسيون مرتين بسبب آرائه ونضاله فى سبيل القضية الوطنية . كما صادروا أملاكه ثم نفوه مـــن أرض آبائه وأجداده حيث مات فى اسطانبول شهيد الوطنية والعروبة والاسلام . ولم يكتف الاستعمار الفرنسي بذلك بل نفى ابنيه الحسن وعلي من الجزائر أيضا .

7 ــ الأمير عبد القادر :

رغم الصفحات القيمة التي كتبها جوليان عن الأمير عبد القادر فان تناوله لهذه الشخصية الوطنية العربية لم يسلم من الهنات . والحق أن جوليان قد سار فى نفس الخط الذي انتهى به الى التشكيك فى وطنية خوجة وبو ضربة وغيرهما . غير أنه لم يتهم الأمير مباشرة بأنه كان عميلا لفرنسا ولكنه نسب اليه ما ينتهي الى نفس النتيجة . فهو يزعم بأن الأمير قد وعد فرنسا بعدم رفع السلاح ضدها ، وأنه (الأمير) قد خاب أمله فى المغرب العربي حتى أنه حين أعلن الجزائريون الثورة مرة أخرى بقيادة المقراني طلب الأمير منهم أن يلقوا السلاح (209) . والغريب أن جوليان لم يذكر المصدر الـــذي جاء منه بهـــذا الرأي الخطير .

على أن كتابا ضخما كالذي بين أيدينا كان يجب أن يحتـــوي على دراسة أعمق لحياة وأعمال الأمير . فقد أهمل جوليان الحديث عـــن مساهمة الأمير فى انشاء أول حكومة ديمقراطية جزائرية ، وعن دوره السياسي والدبلوماسي ، مكتفيا بالتركيز على الجانب العسكري مـــن

نضال الأمير . ثم أن جوليان قد ترك الأمير منذ 1847 ، فلم يتتبع حياته داخل سجون فرنسا ولا نشاطه وتأثيره فى الحياة العربية الاسلامية فى الشرق ، فكأن علاقة الأمير بالجزائر قد انتهت بالقائه السلاح . غير أننا نعرف أن الأمير كان مؤلفا وسياسيا ومفكرا ، وكان محل اهتمام الساسة والمفكرين المسلمين والأروبيين الى وفاته عام 1883 ، ولا شك أن الحركة الوطنية الجزائرية قد استفادت من جهاد الأمير العسكري كما غنمت من نشاطه السياسي والفكري فى أوروبا والمشرق .

8 ـ الثقافة ومشاريع نابوليون الثالث :

ان جوليان لم يهمل فقط الحركة الوطنية الجزائرية بل أهمل أيضا كل حديث عن الحياة الثقافية والروحية للجزائريين فى الفترة التى غطاها فى كتابه ، وضرورة الحديث عن هذه الموضوعات تظهر فى أن الكتاب يتناول الجزائر المعاصرة ، وقد اشترك فى مقاومة الاستعمار كل من السلاح والقلم والتنظيمات السياسية والفنون الشعبية والجمعيات السريه الدينية (الطرقية) . ولو أن جوليان لم يهتم فى كتابه بالناحية الاجتماعية على الاطلاق لما توقعنا منه ذلك ، ولكنه قد كتب باسهاب عن الحياة الفنية والثقافية والتعليمية للفرنسيين . كما خصص فى كتابه قسما لنواحي لا تهم الجزائريين فى قليل أو كثير مثل الانتخابات الفرنسية فى الجزائر واستفتاءات نابوليون الثالث ، ومن المعروف أن الجزائريين لم يشاركوا فى هذه الأعمال لا من قريب ولا من بعيد ، وهي بالتالي أعمال تدخل فى تاريخ فرنسا وليس فى تاريخ الجزائر .

وقد وجد نابوليون الثالث كل تمجيد وثناء من جوليان بسبب بعض آرائه تجاه الجزائر . غير أن الحقيقة هي أن نابوليون كان غير مخلص فى مشاريعه المسماة بالليبرالية فى الجزائر . فقد بقى فى الحكم أكثر من عشرين سنة (1848 ـ 1870) ، ومع ذلك لم يحقق شيئا من هذه

المشاريع . حقا لقد أشار فى رسائله الى بعض ممثليه بالجزائر بأنه كان يرغب فى اقامة « مملكة عربية » فى الجزائر أو « جنسية جزائرية » .

غير أن نابوليون لم يكن جادا فى اقتراحاته . فمن المعروف أن أسوأ قانون ضد الجزائريين قد صدر فى عهده . ذلك هو القانون المعروف باسم ساناتو ـ كونسولت (1865) الخاص بالأحوال المدنية . وقد استمر هذا القانون ، مع بعض التعديلات عام 1919 و 1947 ، الى استقلال الجزائر ، وينص ذلك على أن الجزائريين يعتبرون رعايا فرنسيين ، وليس لهم الحق فى الجنسية الفرنسية الا اذا تخلوا عن حالتهم الشخصية كمسلمين .

ومن ناحية أخرى فان نابوليون كان يعرف فى عصره بزعيم القوميات لأنه أيد أثناء حكمه القومية الرومانية والايطالية ، وكان الاستفتاء فى نظره هو الوسيلة التي تعبر بها الأقليات المضطهدة عن نفسها . وعلى هذا الأساس أجرى استفتاء فى نيس وصافوي لهذا الغرض . فاذا كان نابوليون حقا يريد من وراء مشاريعه فى الجزائر انشاء « مملكة عربية » أو « جنسية جزائرية » ، فلماذا لم يستعمل الاستفتاء وتقرير المصير لمعرفة ارادة الجزائريين الحقيقية ؟ وبالاضافة الى ذلك . فان نابوليون كان ، كما يشهد جوليان نفسه ، يشجع الكنيسة ويعارض تعليم الدين الاسلامي واللغة العربية فى الجزائر (ص 436) ، فكيف يتفق مبدأ « الجنسية الجزائرية » مع اضطهاد الدين واللغة اللذين كانا من المفروض يمثلان حجر الزاوية لهذه الجنسية ؟

9 ـ تعصب او وطنية :

فى أكثر من موضع ينسب جوليان الحركات الثورية الجزائرية ضد الاستعمار الى الجهاد الديني لا الى الوطنية . وهذا فى الحقيقة تفسير غير تاريخي . فالمبدأ كان قبل وبعد كل شيء مبدأ معتد ومعتدى عليه ، أي

الأجنبي والمواطن . والجزائريون الذين رفعوا السلاح لمقاومة العدوان الأجنبي لم يفعلوا ذلك باسم التعصب الديني (رغم أن معظم قوادهم كانوا من المرابطين) ولكن باسم الشرف الذي أهين والأملاك التي اغتصبت والمساجد التي ديست والثقافة التي انتهكت . وبالتالي فان أولئك الجزائريين كانوا يحاربون باسم الوطنية لأن هذه فى حقيقتها هي الشرف والملكية والدين والثقافة .

ولو فرضنا أن الفرنسيين المعتدين قد اعتنقوا الاسلام ، فهل كان الجزائريون سيكفون عن محاربتهم ؟ بالطبع لا . ذلك أنهم (الفرنسيين) لم يجيئوا مسالمين بل معتدين . ومن هنا كانوا فى نظر الجزائريين أجانب لا مواطنين . والمؤرخ المنصف لا يسعه الا أن يعترف بأن الدين قد لعب دورا هاما فى حياة الحركة الوطنية الجزائرية ، ولكن الذي لا يسعه الاعتراف به هو تفسير هذه الحركة على أنها كانت تعصبا دينيا أو « مرابطية » . ومع ذلك ، فجوليان يقينا يدرك أن الدين كان لا ينفصل عن القومية فى ثورة اليونان ضد الخلافة ، وثورة بولندا ضد روسيا ، وثورة بلجيكا ضد هولاندا ، وثورة ايرلاندا ضد بريطانيا . فهل يجوز تفسير هذه الثورات بأنها كانت باسم التعصب الديني لا باسم القومية ؟ لا نظن أن هناك من يقول بذلك .

10 ـ خاتمة :

فى نهاية كتابه (ص 517) ينصح جوليان الجزائريين ، نقلا عن جاك بيرك ، بأن يتجنبوا كتابة تاريخهم على فكرة « الاستنكار » . ليكن جوليان متأكدا من أن الجزائريين يقدرون نصيحته ، ولكنهم فى نفس الوقت يرفضون فكرة « الاستسلام » . فالتاريخ الذي كتبه آباؤه وأجداده عن الجزائر والذي أكثر هو من النقل عنه فى كتابه ، كان محشوا بالكراهية والعنجهية وحب التسلط والتعالي ضد عرب الجزائر . ولا يمكن للجزائريين فى فترة استعادة حريتهم وحضارتهم أن

يتقبلوا ذلك التاريخ بلا استنكار وأن يمنحوا الثقة الفكـرية لوثائق كتبها أمثال بوجو وبيليسي وراندون وغوتي وبوسكي وأضرابهم من الذين لم يكتفوا بمحاربة الجزائريين فى ديارهـم بل حاولوا تشـويه ارادتهم وتزوير تاريخهم . ولينتأكد جـوليان من أن « الاسـتنكار » الجزائري لذلك التراث الاستعماري لن يقوم على الحقد والارتجال ولكن على المنطق والتمحيص .

لم يكن هدف هذه المناقشة هو الحط من قيمة كتاب جـوليان . فالمؤلف صديق للجزائريين منذ قبل الاستقلال . وقد بذل فى كتـابه جهدا لا يقدره عليه الا الذين عانوا مشقة الدراسة العميقة وتعب البحث على الوثائق والمراجع ومحاولة استخلاص الحقيقة التي هي هدف كل مؤرخ شريف ، والقراء ، بلا شك ، يعرفون أن التأليف الذي لا يستحق المناقشة لا يستحق القراءة أيضا . ومن حسن الحظ أن « تاريخ الجزائر المعاصرة » يستحق كثيرا من المناقشات . وهو محلى بالصور والخرائط النادرة ، ويحتوي على قائمة طويلة ومشروحة بالمراجع الهامة ، وعلى فهارس وملحقات ومعجم بالكلمات المحلية . والكتاب الى جانب ذلك ضخم الحجم أنيق الطباعة مما يبرهن على أن دار (صحـافة فرنسـا الجامعية) قد بذلت جهدا عظيما فى اخراجه .

ان هدف هذه المناقشة يتلخص فى الجملة التالية : تنبيه القارىء الى أن هذا الكتاب لا يؤرخ للجـزائريين ولكن للاحتـلال الفرنسي فى الجزائر .

انغيلـز واحتـلال الجـزائر

1 ـ تقـــــديم :

فريدريك انغيلز(1)(1820 ــ 1895) كان صديقا شخصيا ورفيقا فكريا وخليفة لكارل ماركس (1818 ــ 1883) . وقد حررا معا « البيان الشيوعي » المشهور سنة 1848 . وخلال نفس العام كان انغيلز مراسلا فى باريس لصحيفة « ذي نورثرن ستار » الناطقة عندئذ بلسان الطبقة العاملة فى بريطانيا . وفى الثاني والعشرين من جانفي (1848) بعث انغيلز الى جريدته تعليقا على استسلام الأمير عبد القادر وصداه فى الأوساط الفرنسية ، ثم عبر عن رأيه فى الاحتلال الفرنسي للجزائر وعواقبه .

وقد رأينا ترجمة هذا الرأي الى العربية نقلا عن المصدر المذكور ، وذلك لأهميته التاريخية والأيديولوجية . ونود أن ننبه هنا الى نقطتين :

1 ــ أن رأي انغيلز فى أن الفرنسيين سيطلقون سراح الأمير عبد القادر كان متفائلا وسابقا لأوانه .

2 ــ ان هذا الرأي كان قد نشر قبل شهر واحد من ثورة البورجوازية الفرنسية (1848) التي أطاحت بحكم الملك لويس فيليب وأقامت على أنقاضه الجمهورية الثانية . ومن المعروف أن هذه الجمهورية هي التي قررت نهائيا الاحتفاظ بالأمير . كمـــا أعلنت رسميـــا فى

---

1 ـ كنت قد ترجمت هذه المقالة عن الانكليزية وأرسلتها من أمريكا الى جريدة « الشعب » لنشرها ، ولكني لا أدري الآن هل نشرتها أم لا .

دستورها ان الجزائر « مقاطعة فرنسية » . وهكذا خيبت الجمهورية الثانية ظن انغيلز بخصوص اطلاق سراح الأمير ، ولكنها حققت رغبته فى تسلط « البورجوازية المتحضرة » على الجزائريين الذين يقول عنهم بأنهم كانوا « لصوصا واقطاعيين ـ . » والى القاريء الآن رأي انغيلز .

2 ـ انغيلز وقضية الأمير عبد القادر :

« أما الموضوع الذي يشغل الصحافة الفرنسية هذه الايام فهو القاء القبض على الأمير عبد القادر وموقف الحكومة الفرنسية الذي ينتظر أن تتخذه من مستقبله . وليس هناك شك فى أن هذا الموقف سيكون فى صالح وعد الدوك دومال وهو السماح للأمير بالذهاب الى مصر .

ولكن من الغرابة أن نجد كل صحف المعارضة تقريبا ـ من «ناسيونال» الى «كونستيتوسيونيل» ـ قد نادت بنقض هذا الوعد والاحتفاظ بالأمير . اننا لانشك فى أن هذا الوعد قد منح مشروطا بموافقة الحكومة الفرنسية . فعدم الوفاء به لا يعني مباشرة أن فرنسا ستسيء الى سمعتها ، كما اعتقدت جريدة « سان » الانكليزية ، ولكننا لا نشك أيضا فى أن أية حكومة تتنكر لما وعدت به ، ولا سيما أنكلترا ، سوف تتهم بأكبر خيانة للعهد من نفس الجرائد الفرنسية التي تنادي الآن بنقض العهد .

ومن الواضح أنه ليس فى الامكان اعادة الأمور الى ما كانت عليه عندما سلم الأمير بشرط . ان الموافقة الآن على ذلك الشرط تقتضي كرما من الدرجة الأولى . ولكننا نعلم أن هذه الجرائد « القومية » تصبح عمياء فيما يتعلق بهذه الأمور . فهي مستعدة أن ترتكب نفس الأعمال التي تلوم عنها الآخرين .

والصحيفتان الوحيدتان اللتان كتبتا فى صالح الموافقة على المعاهدة مع الأمير عبد القـــادر هما «بريس» و «ريفــورم» فالأولى ، وهي صحيفة ملكية ، قدطالبتبالوفاء بالوعد لأن الحكومة الفرنسية فى نظرها لا يمكن أن تكذب على ابن الملك الفرنسي ، أي ابن فرنسا نفسها . وهكذا أرادت هذه الصحيفة أن تحي لقب الأمراء القديم الذي كان شائعا قبل الثورة الفرنسية . أما الصحيفة الثانية « ريفورم » فقد قالت لا ، ان القضية تبدو أكثر تعقيدا مما تتصور لأن شرف بلادنا قد أصبح فى حرج . لذلك فانه من الأفضل أن نكون أسخياء على أن نكون ضيقي الأفق . فلنوافق اذن على كلمتنا حتى ولو كانت من أمير . وهكذا تكون هذه هي الصحيفة الوحيدة التي اتخذت موقفا حقا ازاء هذا الموضوع .

3 ـ انغيلز والاستعمار الفرنسي :

وعلى أية حال فان من رأينا انه لحسن الحظ ان هذا الزعيم العربي قد قبض عليه . ذلك ان نضال أهل البدو كان بلا جـدوى . ورغم أن الطريقة التعسفية التي اتبعها الجنود الفرنسيون ، مثل بوجو ، فى جربهم جديرة بكل لوم ، فان احتلال الجزائر عمل مهم نعتبره فى صالح التقدم الحضاري . ذلك أنه لا يمكن وقف نشاط قراصنة دول افريقية الشمالية الا باحتلال احدى هذه الدول . على أننا نلاحظ أن أنكلترا لم تتدخل فى شؤون هذه الدول طالما احترم أولئك القراصنة سفنها .

وهكذا نجد أن احتلال الجزائر قد أرغم بايات تونس وطرابلس بل حتى سلطان المغرب على الدخول فى طريق الحضارة . فقد ارغموا على أن يجدوا وظائف أخرى لشعوبهم بدل القرصنة ، وعلى أن يبحثوا على وسائل أخرى لملء خزائنهم بدل الجزيات التي كانت تدفعها لهم دول أروبا الصغيرة .

واذا كنا نأسف على أن بدو الصحراء قد فقدوا حريتهم ، فانه يجب أن لا ننسى ان هؤلاء البدو كانوا أمة من اللصوص . ذلك ان وسائل عيشهم كانت فى شن غارات اما على بعضهم بعضا واما على القرى الآهلة المجاورة. وخلال هذه الغارات يأخذون معهم ما وجدوا ، ويقتلون كل الذين قاوموهم ، ثم يبيعون الباقين من المساجين فى سوق الرقيق .

فهذه الأمم من الهمج الأحرار تبدو من بعيد فخورة ، شريفة ، ماجدة، ولكنك لن تكتشف حقيقتها الا عندما تقترب منها . عندئذ ستجدها ، كأكثر الأمم حضارة ، محكومة بالرغبة فى الربح ، مستعملة لذلك أقسى وأغلظ الوسائل . لذلك فان البورجوازي (الفرنسي) الحديث مزودا بالحضارة والصناعة والنظام وبعض الثقافة ، سيكون أفضل لهذا المجتمع الهمجي من السيد (الجزائري) الاقطاعي أو اللص قاطع الطريق . »

مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي : أبو راس الناصر

رأيت أن أسهم فى ندوة الجبرتي ببحث عن مؤرخ جزائري معاصر له ، وهو الشيخ أبو راس الناصر فكلاهما عاش فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر الميلادي . وقد مات أبو راس الناصر سنة 1823 عن عمر يناهز التسعين سنة ، بينما مات الجبرتي سنة 1825 وقد تجاوز السبعين سنة . ومن جهة أخرى سمى الجبرتي كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) وأطلق أبو راس الناصر على كتابه اسم (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) . وكتب الجبرتي كتابا آخر هو (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) بينما كتب معاصره أبو راس كتابا بعنوان (أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس) . وكلا المؤرخين تتلمذ على الشيخ مرتضى الزبيدي وأرخ لوفاته ، والتقى ودرس أبو راس فى مصر على عدد من العلماء كانوا موضوع عناية الجبرتي . ومع ذلك فاننا لا نجد اسم أبي راس فى كتاب الجبرتي . ولا اسم هذا فى كتاب أبي راس .

فهل التقى المؤرخان شخصيا وتعارفا ؟ ذلك ما لا نستطيع تأكيده الآن . ومهما يكن الأمر فان أهمية الرجلين فى بلديهما تفرض علينا معالجة الموضوع هنا ولو بشيء من الاختصار (1) .

(*) قدم هذا البحث الى (ندوة الجبرتي) التي انعقدت بالقاهرة فى ربيع سنة 1974 ونشر فى (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) عدد 12 ، سنة 1974 ، كما نشر فى وقائع الندوة بالقاهرة سنة 1976 .

1 ـ وفي كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) جـ 2 يحتل أبو راس الناصر مكانا بارزا .

عاش أبو راس فترة قلقة شبيهة بالفترة التي عاشها معاصره الجبرتي . فقد حضر فتح وهران الثاني واستعادة هذه المدينة من الاحتلال الاسباني . وكان لهذا الحادث أثر كبير فى نفسه فألف فيه كتابه (عجائب الأسفار) ،ولم تلبث الجزائر أن شهدت ثورة الطريقة الدرقاوية على الحكم العثماني ، وكانت هذه الحادثة سببا فى أزمة اقتصادية حلت بالبلاد ولا سيما المنطقة التي كان فيها أبو راس . وقد خص هذه الثورة بتأليف سنذكره فيما بعد . وتجول فى المغرب وتونس ، وكان كلاهما غير مستقر سياسيا ، فتأثر بذلك . وقد خص المغرب بعدة تآليف أيضا . وحج مرتين ، وشهد فى المشرق حدثين بارزين ، الأول أنه دخل مصر قبل الحملة الفرنسية فى الحجة الأولى ودخلها بعد هذه الحملة فىالحجة الثانية ، والتقى بعلمائها ورأى آثار الحملة ، ولعله قد تأثر بها ، ولعل كتابه (أقوال التأسيس) مستوحى من هذه التجارب . أما الحادث الثاني فهو الحركة الوهابية التي روى عنها أشياء فى رحلاته وتناظر مع بعض مؤيديها وعرض بهم . والشخصية السياسية التي أخذت بلب أبي راس الناصر هو محمد الكبير ، باي مدينة معسكر ثم مدينة وهران بعد فتحها . فقد أنعم هذا الباي عليه وقدر علمه ، وخصه أبو راس من جهته بالشعر والدعاء والتأليف . وكان ضياع الاندلس جرحا فى قلب أبي راس الى أن استعاد الجزائريون وهران من الاسبان فاعتبر أبو راس ذلك فتحا مبينا ، وتمنى أن تستمر موجة الفتح حتى استعادة الأندلس .

ورغم شكوى أبي راس من تدهور العلم فى عصره ، فان كتاب هذه الفترة يذكرون شواهد كثيرة على تقدم المعارف وعناية السلف بها ، ولا سيما الباي محمد الكبير . فقد شكا أبو راس من ضعف الحياة العلميه على عهده بقوله : « اني فى زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده ، وقلبت دياره ومراسمه ، وعفت أطلاله ومعالمه ، لا سيما فن التاريخ والأدب ، وأخبار الأوائل والنسب ، قد طرحت فى

زوايا الهجران ، ونسجت عليها عناكب النسيان ، وأشرفت شمسها على الأفول ، واستوطن فحولها زوايا الخمول ، يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل . ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل .. (2) » .

غير أن معاصريه يتحدثون عن ازدهار الحياة العلمية على يد الباي محمد الكبير . فهذا الرجل كان يشجع العلماء بعطاياه ويجيزهم بالمال ونحوه . ولم يقتصر ذلك على علماء الجزائر كأبي راس نفسه ، ولكن تجاوزهم الى علماء المغرب والحرمين ومصر وحتى علماء آل عثمان . ومن علماء مصر الذين نالوا احسان الباي محمد الكبير الشيخ مرتضى الزبيدي ومحمد الأمير ، وكلاهما آستاذ لأبي راس كما سنرى .

لذلك لا نستغرب أن يكون الشيخ مرتضى من بين مادحي هذا الباي سنة 1201 هـ (3) . وكان الباي يكرم العلماء والمدرسين والايمة والأدباء والمؤدبين . ومن بين هؤلاء أبو راس الذي يذكر أن الباي قد شمله بعطفه وعينه في وظيف ثابت وأعطاه مالا بلغ سنة 1227 هـ ، اثر عودته من الحجة الثانية ، مائة محبوب (4) . ويذكر آبو راس مدرستين على الأقل للتعليم العالي فيعهده احداهما المدرسة القشاشية بمدينة الجزائر ، وثانيهما المدرسة المحمديه في الغرب ، بالاضافة الى المساجد التي لم تكن تخلو منها مدينة ، باستثناء مدينة وهران التي لام أبو راس الأسبان على طمس معالم مساجدها بقوله : « درسها الكفرة وعفوا رسمها » (5) ، ومع ذلك كانت اللغة العربية ضعيفة فلم تكن لغة رسمية يحفظها الأمراء والحاشية ، وظلت محصورة في دوائر الدرس والقضاء . لذلك شاع اللحن حتى بين الأدباء والنحاة . وقد اعترف أبو راس بأنه كان يلحن في

2 ـ عجائب الاسفار . محطوط المكتبة الوطنية ، الجزائر ، ورقة 2 .

3 ـ ابن سحنون الراشدي : (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) مخطوط باريس ، ورقة 16 ، وفيه رسالة الشيخ مرتضى الى الباي محمد الكبير وهي من النثر المسجوع ، ومعها بعض الابيات .

4 ـ أبو راس (فتح الاله ومنته) مخطوط ، ص 61 .

5 ـ أبو راس (عجائب الاسفار) ، ورقة 78 ـ 79 ، مخطوط .

درسه فى النحو حتى حتج عسه حده مجلسه (6) . وقال عن الشعر الملحون : « وما فى الشعر الملحون من بأس . فانه فى هذا العصر لسان الكثير من الناس » (7) .

ولد محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بنأحمد بن الناصر الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس الناصر فى بيئة فقيرة وظل الفقر يطارده حتى قضى نحبه بعد عمر طويل . فقد ولد حوالي منتصف القرن الثاني عشر للهجرة قرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري . ثم توجه به والده الى سهل متيجة قرب عاصمة الجزائر . وهناك فقد والدته وهو صغير . فعاد والده الى حوز مجاجة واشتغل هناك بقراءة القرآن وتعليم الصبيان وتزوج عدة نساء حتى وافاه الأجل فدفن بمكان يعرف بأم الدروع . وبذلك فقد أبو راس والده وهو طفل . وقد كفله أخوه عبد القادر الذي توجه به الى المغرب حيث حفظ أبو راس القرآن الكريم ويروي عن نفسه انه كان وهو فى حدود العاشرة حافي القدمين عاري الجسم الا من أسمال بالية . وكانت له أخت تدعى حليمة ، روى عنها بعض الأخبار ، أما والدته فتدعى زولة ؛ وكانت ــ حسب وصفه لها ــ كرابعة العدوية من بيت علم وصلاح . ولكن أبا راس لم يلبث أن عاد الى معسكر ، وكان لا يملك شيئا من المالفالتقى هناك بالشيخ عبد القادر المشرفي الذي كانت شهرته العلمية واسعة ، فتتلمذ عليه أبو راس ، وكان يغسل ثيابه وثياب أهله ويكويها . وعندما شعر بشيء من الاستقلال العلمي خرج الى جوار معسكر عند أخيه وتزوج واشتغل بالتدريس وتولى القضاء .

واستمر على هذه الحال حوالي سنتين ، الى أن أحس بضعف معلوماته وتيقن أن البادية تضعف العلم . فغادرها الى معسكر حيث مكث ستا وثلاثين سنة ، وهو يمارس مهنة التدريس . وقد اشتهر أمره بين الناس

---

6 ــ أبو راس (فتح الاله ومنته) ، مخطوط ، ص 61 .

7 ــ أبو راس (شرح العقيقة) ، مخطوط ، ص 2 .

لا فى الجزائر فحسب ولكن فى أقطار المغرب والمشرق أيضا . وبلغ من شهرته أن اجتمع عليه أحيانا أكثر من 780 طالبا . وهذا ما جعل « أمراء بلادنا » يخصصون له كرسيا يستعين به على الدرس ، لازدحام الناس عليه . وقد رشحه شيخه ، عبد القادر المشرفي ليكون خليفة له فى الدرس . وكفوه حاجاته من القمح والشعير واللحم والزيت والدراهم .

وفى سنة 1204 ه ذهب للحج لأول مرة ، والتقى فى طريقه بعلماء الجزائر وقسنطينة وتونس ومصر ، والحرمين والشام . وأثناء عودته سنة 1205 ه سمع وهو فى تونس بالحرب بين المسلمين والأسبان على وهران فأسرع بالعودة والاشتراك فى الجهاد . وبدأ فى أثناء ذلك يؤلف كتابه (عجائب الأسفار) الذي انتهى منه فى السنة الموالية (1206) . وقد تقلد بعدها وظائف الفتيا والقضاء والخطابة ، ولكنه عزل منها لأسباب نجهلها حتى الآن ، سنة 1211 فاشتغل بالتأليف . ثم توجه الى المغرب ووفد على السلطان مولاي سليمان واشتهر أمره بفاس ولقبه علماؤها بالحافظ ، وقد رغبه السلطان فى البقاء هناك ولكنه اعتذر . ولم يكد يطمئن حتى وقعت حروب درقاوة وحل بالجزائر الطاعون ، فعانى أبو راس من الجوع والنكبات ما ظهر على صحته ونفسه فاعتزل الناس وترك الكتب والتأليف . وقال بهذا الصدد : « ولو لم يكن الا سكني حاضرة كبادية ، فناهيك من معذرة بادية ، ولا سيما من اشتد فيها عسره ، ولم يساعفه دهره ، فكيف يرتفع ذهنه الى التصنيف ، أو أمله الى وضع تأليف » . وضاق بالناس حتى قال فيهم : « الناس داء عضال ، لا يتخلص منهم على كل حال ، سهامهم مسمومة ، وخلق أكثرهم مذمومة ، لا ينظرون بعين الانصاف ، ولا يملون من الانتقاد والخلاف ، يسقون من أفواههم العسل ، وفى قلوبهم السم الزعاف » (8) . ولكن أبا راس لم يستطع الابتعاد عن التأليف والتدريس . وتاقت نفسه الى الحج مرة أخرى لعله

8 — ابو راس (شرح العقيقة) ، ص 62 .

يتنفس من الضيق الذي كان فيه ، ويعرف مدى شهرته التي قال أنها قد سبقته فى بلاد المشرق . فحج سنة 1226 هـ ، ولم يعد الا فى السنة الموالية . ولاشك أن هذه الحجة كانت قد عادت عليه بفائدة علمية كبيرة بعد عشرين سنة قضاها بعيدا عن الاتصال بعلماء المشرق ، وفيهم علماء مصر وتونس (9) .

وبالاضافة الى الشيخ عبد القادر المشرفي درس أبو راس فى الجزائر على مشائخ كثيرين ، كما التقى وتذاكر مع عدد آخر منهم ، ومن هؤلاء محمد الصادق آفغول « شيخ الاسلام الحافظ الزاهد » ، وأحمد بن نافلة ، ومحمد بن جعدون . قاضي مدينة الجزائر ، والقاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني ، والمفتي أحمد بن عمار . وعبد القادر ابن السنوسي بن دحو الملقب بالحافظ ، والقاضي محمد بن مالك ، والحاج علي ابن الأمين مفتي مدينة الجزائر ، والمفتي محمد بن الحفاف ، والحاج محمد بن الشاهد « عالم الجزائر وقطب رحاها .. فقيها علامة حافظا بارعا نظارا مفتيا مدرسا محققا .. » ومحمد بن انفقون . والحاج على الونيسي الشهير بالحفظ والفقه والتدريس ، ومشى مع الشيخ أحمد العباسي الذي كان « واسع العلم فصيح القلم .. أرق الناس طبعا » ، ولقي بتونس محمد بن المحجوب ، وصالح الكواش ، وابراهيم الرياحي . وأحمد بيرم . ومن علماء مصر خاصة ، يذكر الشيخ مرتضى الزبيدي ، وعبد الله الشرقاوي ، ومحمد الأمير ، وقد ذكر عددا آخر من علماء المشرق والمغرب منهم : عبد الرحمن التادلي ، وعثمان الحنبلي ، وعبد الملك القلعي ، وعصمان الشامي .

---

9 ــ ترجم أبو راس لنفسه فى كتابه (فتح الاله) ، مخطوط ، ترجمة وافية ، ولكنه يصل فيه الى حجته الثانية ، أي قبل وفاته بحوالي عشر سنوات . وكان فى ذلك متأثرا بالسيوطي الذي ترجم لنفسه أيضا فى كتاب سماه (نزول الرحمة فى التحدث بالنعمة)، وكان مثله يتيما وكثير التآليف .

وممن أجازه من علماء مصر خاصة الشيخ مرتضى الذي وصفه بالحافظ ، وقد جمع أبو راس ما درسه على الشيخ مرتضى، فى كتاب بعنوان « السيف المنتضي فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى » . وأجازه عبد الله الشرقاوي وأطلق عليه اسم « شيخ الاسلام » . كما أجازه الشيخ محمد الأمير الذي قال عنه أبو راس أنه كان « مازونيا نجارا مصريا منشأ ودارا » . وفى الاسكندرية زار أبا العباس المرسي . وتحادث مع أديب الاسكندرية وشاعرها محمد المسيري . ويبدو أن الشيخ مرتضى كانت له مكانة بارزة لدى أبي راس . فقد درس عليه أثناء ذهابه الى الحج ثم درس عليه عند عودته من الحج سنة 1205 هـ ، أي قبل وفاته بخمسة أشهر ، وكتب الى باي السويس فى شأن أبي راس . وروى هذا أنه جرى بينه وبين شيخه مرتضى « حكايات ونوادر ، ومفاكهة ، ومباحث فى علوم الحديث والتاريخ وغير ذلك » . وكان ذلك قبل الاجازة التي تحدثنا عنها (10) .

وكان أبو راس يساجل العلماء ويناظرهم ويجيب على أسئلتهم . وقد ذكر فى ذلك وقائع ومباحث جرت له معهم سواء فى الجزائر أو فى تونس أو فى مصر أو غيرها من البلاد التي زارها . وله كتاب سماه (لب أفياخي فى عدة أشياخي) ذكر فيه شيوخه ومن أجازه منهم والألقاب التي حصل عليها منهم ، والمناظرات التي جرت مع بعضهم ، وقد سار فى نفس تيار العصر فذكر أنه شريف الأصل . ولكن اذا كنا لا نشك فى موهبته كنسابة فاننا نشك فى نسبته الى الشرف . والأسئلة التي وجهت الى أبي راس وأجوبته عليها تدل على أهميته لدى معاصريه من جهة وشهرته وكفاءته الفقهية من جهة أخرى .

10 — انظر عجائب الاسفار ، ورقة 108 — 110 . وفتح الاله ، ص 27 ، 43 ، 61 ، — 73 . انظر ايضا فهرس الكتاني ، ج 1 ، ص 104 — 105 .

فقد ذكر أنه سئل بتبسة عن قول الغزالي : ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وسئل بالشام عن أصعب مسألة فى التوحيد ، وبسكة عن أصل كل علم وما سبب تدوينه ، وسئل بمصر عن التكوين ، وبالقدس عن الوحدانية والتوحيد ، وبالمدينة عن العقائد . وبغزة عمن تكلم فيه العلماء من الكفر الى القطبانية . وسئل بتونس عمن انتقل من مذهب الى مذهب آخر ومن انتقل الى الاجتهاد ، وبقسنطينة عن قول الحسن بن زياد اني واكل الميتة وأحب الفتنة وأكره الحق وأشهد بعالم أراه . وسئل بمجلس علماء الجزائر فى الجامع الأعظم عن حكم القهوة والدخان ، وسئل بفاس عن قول صح للشارب فى مأدبة عظيمة حضرها العلماء . وبتطوان عن قوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه) ، وبتلمسان عن نطق كلمة (رشد) بكسر الشين أو فتحها .

وقد كانت اجابته تعتمد على العقل والنقل . وروي أنه خلال حجه الثاني (1226 هـ) لقى علماء الوهابية فى الحجاز وتناظر معهم وحكم عليهم حكما قاسيا ، فقال : « ظني أنهم حنابلة المذهب » ، ولكنه بعد أن تناظر معهم قال : « علمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة فى الفروع وأما فى العقائد فهم على ما عليه الامام أحمد » (11) .

ومن أخبار أبي راس مع علماء مصر أنه كان بحضرة شيخ الأزهر أثناء حجه الثاني وكان بالمجلس جماعة من العلماء فجرى بينهم ذكر الأندلس وما جرى لأهلها . فقال شيخ الأزهر الحمد لله الذي عوضنا عنها بالقسطنطينية . فأجاب أبو راس بأنه كذلك يحمد الله ، ولكنه علق على ذلك قائلا : « ان لم تكن ابل فمعز » مشيرا الى أنه مهما كان العوض فلن يغني عن الأندلس شيئا فى نظره (12) .

---

11 ــ فتح الاله ، ص 94 .

12 ــ أبو راس ، شرح الحلل السندسية ، مخطوط ، ورقة 77 .

ولأبي راس كتب كثيرة فى التاريخ وغيره بعضها موجود وبعضها مفقود . وقد ذكر بعضهم أن تآليفه تكاذ تزيد على عدد أيامه ، وحددها أحد تلاميذه بأنها تزيد على الخمسين كتابا (13) . ويهمنا من هذه التآليف أعماله التاريخية ، ومن هذه الأعمال كتب فى التراجم وأخرى فى التاريخ العام وثالثة فى الرحلات ، ونحو ذلك . وقد ذكر هو بعضها فى كتابه (فتح الاله) تحت باب « التاريخ » واعترف بأن أحدا لم يفقه فى كثرة التأليف سوى السيوطي . وهذه قائمة بأعماله التاريخية سواء ما ذكره هو أو ما نسب اليه :

1) زهرة الشماريخ فى علم التاريخ .

2) در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة (14) .

3) درء الشقاوة فى حروب درقاوة .

4) الوسائل الى معرفة القبائل .

5) الحلل السندسية فى شأن وهران والجزيرة الأندلسية . . وهو أصلا قصيدة تاريخية (15) .

6) ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون .

7) حلتي ونحلتي فى تعداد رحلتي .

8) فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربي ونعمته .

9) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار (16) .

---

13 ـ الكتاني ، الفهرس ، ج 1 ، ص 105 . نقلا عن ابن السنوسي ، أحد تلاميذ أبي راس . أما أبو حامد المشرفي فقد قال ان تآليفه أوشكت أن تزيد على عدد أيامه ، انظر (ذخيرة الاواخر والاول) ، مخطوط ، ص 8 .

14 ـ هكذا ذكره المؤلف ، لكن ابن سودة فى دليل مؤرخ المغرب ذكره هكذا (الاصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة) ، ص 488 .

15 ـ ترجمها ونشرها الجنرال فور بيغي بعنوان :
Les vêtements de soie fine, Alger, 1903.

16 ـ نشرت بعضه جريدة (المبشر) بالعربية ، مثلا تاريخ أول يناير سنة 1881 وما يليه ، ترجمه ونشره السيد أرنو بعنوان : Voyages extraordinaires sur l'Afrique. Septentrionale Alger 1885.

10) ذيل القرطاس فى ملوك بني وطاس .

11) الزمردة الوردية فى الملوك السعدية .

12) مروج الذهب فى نبذة من النسب ومن الى الشرف انتمى وذهب .

13) الخبر المعلوم فى كل من اخترع نوعا من أنواع العلوم .

14) الغرض (أو الخبر) المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب ، وهو الشرح الثاني للحلل السندسية .

15) روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان ، وهو الشرح الأول للحلل السندسية .

16) تحفة الاخوان فى ارهاط وقبائل الجان (17) .

17) القصص الفتاتة فى ذكر البربر وزناتة (18) .

18) الزهرة السموية (؟) فى أخبار الملوك العلوية .

19) العز المتين فى ذكر ملوك بني مرين .

20) أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس (19) .

21) ايضاح الغميس وأنوار البرجيس بشرح عقد الجمان النفيس(20) (عن علماء أغريس) .

ولا شك أن بعض هذه الكتب مطول وبعضها مقصر . وقد وقفنا على بعضها مخطوطا مثل (فتح الاله) الذي رأينا منه نسختين . و (عجائب الأسفار) الذي رأينا منه عدة نسخ ، وكذلك (الحلل السندسية)

---

17 – نسب اليه فى (المجلة الافريقية) ، سنة 1925 ، ص 146

18 – نسبه اليه ابن سودة فى دليل مؤرخ المغرب ، ص 140 .

19 – نسبه اليه نفس المصدر ، ص 490 . عن (أقوال التأسيس انظر ايضا ما كتبه عنه الشيخ المهدي البوعبدلي فى مقدمة تحقيقه لكتاب (دليل الحيران) نشر المكتبة الوطنية بالجزائر ، سنة 1978 ، ص 14–

20 – نسبه اليه السيد فان L. GUIN فى (المجلة الافريقية) R.A. سنة 1887 ، ص 72 – 80 . وذكره المؤلف نفسه فى (فتح الاله) ولكنه عده من كتب التصوف .

وشروحها . كما رأينا بعض كتبه فى الأدب مخطوطا أيضا (كشرح العقيقة) و (اسماع الاصم). وأبو راس كان كثير الاطلاع ويعتبر من أهم المؤلفين فى الجزائر العثمانية . وأن تنوع موضوعات كتبه يدل على تنوع ثقافته وغزارة مادته . ولكنها فى عصر التخصص قد تدل على ثقافة عامة فقط قوامها الفقه والأخبار والتراجم . وأن استعراض مؤلفات أبي راس فى الفنون الأخرى يبرهن على ما تقول فقد كتب فى التفسير والأسانيد والمذاهب والتوحيد والتصوف والنحو والبيان والمنطق واللغة والأدب ، وله قصائد فى أغراض شتى أهمها التاريخ والمدح . وكان أبو راس يمتاز بالحافظة القوية حتى لقبه معاصروه (بالحافظ) وأطلق عليه مجيزوه اسم حافظ المغرب الأوسط (الجزائر) ، وقال عنه تلميذه ابن السنوسي بأنه كان متقنا « لجميع العلوم عارفا بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن مسألة الا يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه » وقال عنه أيضا بأنه كان لا يراجع الدرس سوى مرة واحدة (21) . أما أبوحامد المشرفي فقد شبهه بأسد ابن الفرات فى المذهب المالكي . وقال عنه أنه ألف فى سائر الفنون (22) .

والى جانب الفقه والأخبار يعتبر أبو راس من كبار النسابة . وقد رأينا أنه ألف فى الأنساب بعض الكتب . ورأيت له مادة غزيرة فى أنساب قبائل المغرب العربي ومواطن كل قبيلة وأصلها وفروعها . وقد لاحظ هو فى مقدمة كتابه (عجائب الأسفار) ضعف اهتمام علماء عصره بالنسب فقال : « ان امتياز النسب اندرس فى هذا الزمان ، فلا يكاد يتفق فيه اثنان ، حتى يقع اختلافا كثيرا (كذا) فى الأمة الواحدة لاختلاط الأنساب وتباين الدعاوي » لذلك ركز فى كتابه المذكور على أحوال النسب « على حسب ما اتفق لي من العجم والعرب » (23) .

---

21 — الكتاني ، الفهرس ، ج 1 ، ص 105 ، نقلا عن ابن السنوسي .
22 — المشرفي ، (ذخيرة الاواخر والاول) ص 8 ، مخطوط .
23 — أبو راس ، (عجائب الاسفار) ، مخطوط ، ورقة 3 ، 4 .

وأعتنى أبو راس أيضا بعلم التاريخ عنايته بعلم الأنساب . ولا شك أن الصلة وطيدة بين العلمين . ورغم أننا لم نعثر على كتابه (زهـرة الشماريخ فى علم التاريخ) الذي يدل عنوانه على تخصصه بما يسمى اليوم (بالأستوريوغرافيا) ، فان ما ذكره فى مقدمة كتابه (عجـائب الأسفار) يبرهن على فهمه لدور التاريخ بين العلوم الأخرى ودور المؤرخ بين الكتاب الآخرين . فقد ذكر هناك ما يلي : « ان البحث من علـم التاريخ ممن تقدم شأن الأدباء الأفاضل من أولى بصيرته ، وقد اعتنى به أهل كل طبقة وجهابذة كل ملة من صلحاء السلف وحذاق الخلف فى كل عصر عصابة ، هم أهل الاصابة ، فألفـوا وأفـادوا وصنفـوا وأجادوا » ، واستعرض بعد ذلك أسماء من اهتم أو كتب فى التاريخ من علماء المسلمين كأبي نعيم ، والبلاذري ، والذهبي ، والمسعودي ، وابن الخطيب ، والمقري ، وابن خلدون ، والسيوطي « ممن لا يحصى ويعد ولا يدخل تحت حصر واحد » وذكر أيضا أسماء من ألف فى التاريخ قبل الاسلام مثل داهر الفارسي ، وابن كريون الاسرائيلي ، وهرشيوس الرومي ، وسابق بن سليمان المطماطي البربري (24) . ويبدو أن أبا راس كان مقلدا فى ذكر هذه السلسلة من المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو من أمم أخرى .

ومن كتب أبي راس التي وقفنا عليها والتي تدخل باب التاريخ رحلته المسماة (فتح الاله ومنته) ، وقد سبق أن قلنا أننا رأينا نسختين من هذه الرحلة الهامة ، وقسمها أبو راس الى خمسة أبواب تحدث فى الأول عن ابتداء أمره من طفولة وتعلم وحالة الأسرة وزواجه وحجاته . وتحدث فى الباب الثاني عن شيوخه والعلماء الذين ناظـرهم أو التقى بهـم أو

24 ـ نفس المصدر ، المقدمة ، ومدح علم التاريخ والاخبار فى مقدمة شرحه للحلل السندسية بقوله انه « زهر الشماريخ .. تحفة المجالس ، المغني عن الانيس والمجالس » وبين خطأ من ادعى بأن على التاريخ علم لا ينفع وجهالة لا تضر ، وكذلك خطأ من قـال « كذب النسابون » .

أجازوه ، ابتداء من والده ومرورا بعلماء الجزائر والمغرب وتونس ومصر والحجاز والشام . وخص الباب الثالث برحلته الى المشرق وغيره ، ولعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه أحيانا اسم (حلتي ونحلتي فى تعداد رحلتي) مما جعل بعضهم يذكره وكأنه كتاب خاص برحلات أبي راس . وتناول فى الباب الرابع الأسئلة التي وردت اليه أو ألقيت عليه أثناء تنقلاته كما ذكر الأجوبة عليها . أما فى الباب الخامس فقد ذكر فيه تآليفه مرتبة حسب موضوعاتها ومادتها .

وقد جاء فى آخر الكتاب ما يدل على كبر سنه حيث قال أن الساعة أزفت وأن أطيب العمر قد ولى ، ولكن ليس هناك ما يدل على تاريخ تأليفه . ومهما يكن من أمر فان أبا راس قد ألف كتبا أخرى بعد (فتح الاله) مثل (اسماع الأصم) الذي لم يذكره فى تآليفه ، والذي انتهى منه سنة 1234 هـ ، أي حوالي خمس سنوات فقط ، قبل وفاته ، غير أننا نجد أن آخر تاريخ أشار اليه أبو راس فى (فتح الاله) هو سنة 1227 هـ وهي السنة التي عاد فيها من الحج للمرة الثانية . والواقع أن كتاب (فتح الاله) يعد ترجمة شخصية وافية لأبي راس . فمنه نعرف أشياء كثيرة عن نفسه وأحوال عصره وتراجم عدد من العلماء المعاصرين له سواء كانوا أساتذة له أو زملاء ، هو كتاب غني بالأخبار لا عن الجزائر وحسب ولكن عن المغرب العربي والمشرق أيضا . وهو من الكتب الضرورية لفهم شخصية وثقافة أبي راس الناصر . وقد ذكر أنه سار فيه على نهج السيوطي الذي ألف كتابا ترجم فيه لنفسه . كما اقتدى فى رحلاته بالرحالة المغاربة أمثال ابن رشيد وابن مرزوق الخطيب ، والعياشي ، ومحمد بن ناصر الدرعي (25) .

والكتاب الذي اشتهر به أبو راس لدي الباحثين حتى الآن هو (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) . وأصل هذا الكتاب قصيدة تاريخية نظمها

25 — ابو راس ، فتح الاله ، ص 61 وما بعدها .

أبو راس بمناسبة فتح وهران الثاني على يد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير ، وسماها (نفيسة الجمان فى فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان) . وقدمها للباي المذكور فاستحسنها ولكنه طلب منه أن يشرحها شرحا « يظهر لباب تراكيبها الضافية » ويوضح ما جاء فيها من اشارات تاريخية وأخبار فى الانساب ووقائع وأسماء . وقد ذكر أبو راس فى البداية أنه اختار لقصيدته قافية السين لأن معظم الأمراء والأدباء يفضلونها . والغالب أن أبا راس نظم القصيدة سنة 1205 هـ أثناء حروب الجزائر وأسبانيا على وهران . وهو يذكر أنه بينما كان عائدا من حجته الأولى عن طريق البحر ، سمع ، وهو بجزيرة جربة قرب تونس بخبر الجهاد فأسرع بالعودة الى مركز القتال ليشارك فى الجهاد بنفسه . واهتزت عاطفته بما رأى من نصر للمسلمين بعد أن مكث الأسبان فى ثغر وهران قرابة ثلاثة قرون . وعادت له ذكريات ضياع الأندلس . فتمنى لو أن النصر شمل الجزيرة الأندلسية أيضا . ولكن ما تحقق للمسلمين على يد الباي محمد الكبير جعله يسجل الأحداث التي جرت أمام عينيه فى قصيدة ثم يعود اليها بالشرح ، حتى اكتمل لديه كتاب ضخم فى حوالي 187 ورقة .

ولم تكن هذه هي أول مرة يكتب فيها أبو راس فى التاريخ . فقد كان كثير الحفظ لأخبار السابقين وشديد الولع بتسجيل الحوادث الماضية . وكان ولوعا بالقراءة فى تاريخ الاسلام والأندلس والمغرب . وكان أستاذه عبد القادر المشرفي ممن شهد عودة الاسبان الى وهران بعد أن كان المسلمون قد استعادوها لفترة قصيرة على يد الداي محمد بقطاش والباي مصطفى بوشلاغم . ولا شك أنه روى له ما شاهده كما روى له والده وشيوخ مازونة ومعسكر الذين تتلمذ عليهم . وكلهم قد تأثروا بحوادث القرن الثامن عشر الميلادي والثاني عشر للهجرة . وكان الباي محمد الكبير نفسه قد جمع حوله العلماء والشعراء كما سبق أن

أشرنا . ومن هؤلاء من كان كثير الاهتمام بحوادث العصر كابن سحنون الراشدي الذي سجل فى كتابه (الثغر الجماني) أخبار الثورة الفرنسية ونحوها . ويذكر أبو راس أنه كان قد خاض فى علم التاريخ ولكنه لم يجد الفرصة المواتية فخمدت قريحته وضعفت عزيمته . فهو يقول : « واني قد خضت فى هذا الفن (التاريخ) قديما وضقت به أديما ، ولم أزل فى خدمته مستديما ، حتى كثرت عندي رقاعه ، وامتلأت بقاعه ، وصارت نفسي تحدثني بالتدوين ، والانخراط فىسلك المؤلفين » (26) . ويظهر هذا النص أن أبا راس لم يكن دخيلا على الكتابة التاريخية ، فقد كان جماعا للأخبار والوثائق ، كثير الخوض فى مسائل التاريخ وحوادثه ورجاله ونصوصه .

وحانت فرصة التدوين التاريخي عند أبي راس عندما حركه صوت الجهاد الذي قال أن الناس كانوا يتحدثون عنه طول الطريق من تونس حتى وهران . وقد أنهى كتابه (عجائب الأسفار) فى سنة واحدة ، لأننا نجد فى نهاية المخطوط أن المؤلف فرغ منه سنة 1206 هـ . والكتاب فى جزأين ، يبدأ الجزء الاول من الورقة الاولى الى ورقة 80 ، ويبدأ الجزء الثاني من ورقة 81 الى نهاية الكتاب وهو ورقة 187 حسب مخطوطة الجزائر (27) . والكتاب غير مقسم الى أجزاء أو أبواب ، أو فصول ولكنه يخضع لتقسيم الأفكار أو الموضوعات التي يعبر عنها كل بيت من أبيات القصيدة ، فكأن كل بيت عنوان لفصل ، وهذه الطريقة قديمة لدى الشراح ، وقد اتبعها أبو راس نفسه فى كتبه الاخرى التي رأيناها مثل (شرح العقيقة) و (اسماع الأصم) ، ولكنه لم يتبعها فى كتابه (فتح الاله) الذي قسمه الى أبواب كما سبق أن ذكرنا . وقد قدم المؤلف لكتابه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة علم التاريخ وتاريخ التدوين التاريخي

26 ـ أبو راس ، عجائب الاسفار ، مقدمة مخطوطة باريس .
27 ـ أما نسخة باريس فتقع فى 194 ورقة .

عند المسلمين وغيرهم ، وعن الدافع الى التأليف وهو عودة وهران الى الجزائريين على يد الباي محمد الكبير ، وعن الغرض من الكتاب وهو تسجيل فتح وهران ومدح من فتحها ، وعن العنوان الذي اختاره للكتاب وهو (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) ثم ذكر أنه قسمه الى جزأين « تكلمنا فى هذا الجزء الأول على انشاء وهران وما تداولها من الدول وما دهاها من الأمور العظام الطوام . والنوائب العظام . ومدة الكفر وأهل الاسلام » أما الجزء الثاني فهو « المشتمل على الفتح العظيم . والفخر الجسيم ، ومدح من فتحها . الباي سيدي محمد بن عثمان » . وقد انتهى الكتاب بتاريخ فتح وهران . وهو سنة 1206 هـ .

وطريقة أبي راس فى (العجائب) أنه يورد البيت الذي يحتوي على الفكرة الرئيسية ثم يشرع فى تفسير ألفاظه لغويا وأدبيا . ثم يشرحه تاريخيا . وهو يروي عن كل فكرة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والنوادر واللطائف والأخبار . فكأنه يريد أن يبرهن على مدى حفظه والمامه من كل علم بطرف كما يقول القدماء . ويكثر أبو راس أيضا من الاستطرادات بايراد عناوين لأفكار جانبية مثل (فائدة) و (نادرة) و (لطيفة) و (تنبيه) و (تتمة) و (غريبة) . ونحو ذلك . ويختلف الجزء الأول عن الثاني فى أن الأول يحتوي على معلومات تاريخية أكثر . لأنه حتى فى نقوله عن القدماء ينقل عن المؤرخين كابن خلدون والتنسي وابن خلكان وغيرهم ، أما فى الثاني فيكثر من النقول الأدبية كالنقل عن الجاحظ والمتنبي وأبي فراس الحمداني ، وابن عبد ربه ، ولعله أراد أن يكون فى الجزء الأول مؤرخا بينما أراد أن يكون فى الجزء الثاني مادحا لمحمد الكبير على مواقفه فأسعفته فى الأول الأخبار والذاكرة والنقول ، أما فى الثاني فقد أسعفته الأشعار والعواطف والقلب المعجب .

أهم ما تناوله أبو راس فى الجزء الأول أخبار المغرب العربي وأخبار برقة وفزان ومصر ، وأنساب الأولين وأخبارهم ، وبالأخص قبائل وهران وما جرى للمسلمين فيها أيام حكم النصارى . ويذكر بايات أقليم الغرب الجزائري الذين كافحوا من أجل استرداد وهران مثل ابراهيم باشا وعثمان باي ، ويخص قبيلة مغراوة بحديث طويل فيذكر علماءها وصلحاءها ، كما يذكر علماء وهران ، ويأتي بأخبار الجزائر فى العصور الاسلامية وذكر القبائل التي استوطنتها ويظهر براعته فى حفظ الأنساب. ويطيل الحديث عن تاريخ وهران فى عهد الأمارات الاسلامية وكيف دخلها الأسبان والنزاع بين هؤلاء وبني زيان ملوك تلمسان ، والصراع الاسلامي الأسباني فى الأندلس وشواطىء البحر الأبيض . وقد مدح الأتراك على مواقفهم فى الدفاع عن الاسلام ، ولا سيما خير الدين بربروس ، وتكلم عن دخول الترك للجزائر سنة 915 هـ ، وخصص له ورقات 62—80 ، وتحدث عن عهد محمد عثمان باشا ، والصلح مع أسبانيا وعن غزوات الأجانب ضد الجزائر ووهران .

وتعرض فى الجزء الثاني لتعريف المغرب الأوسط والأقصى ، وجاء بأخبار بلاد السودان القديم والحياة التجارية ، وبعض عادات وتقاليد أهل الطوارق وواحات الصحراء وأصل سكانها ، وينقل فى هذا الموضوع عن أخيه عبد القادر ، وعن المؤرخ البكري وعن المازوني صاحب (النوازل) . ثم يعود للحديث عن تاريخ تلمسان وأمراء الثعالبة بسهل متيجة الذي عاش فيه . ويستطرد فى الموضوع فيذكر قصة الشيخ المغيلي مع السيوطي ومع يهود توات . ويلم بأخبار رحلته الأولى للحج ويصف الأماكن التي تنقل فيها منذ سمع بالحرب بين الجزائريين والأسبان ، أي من جزيرة جربة . وينتقل الى الحديث عن الأندلس ويذكر مدنها . ثم يفيض فى الحديث عن فاتح وهران الباي محمد بن عثمان وينعته « بأبي الفتوحات المنصور بالله » . وفى الجزأين نقول وأشعار عن الشاعر التونسي السيد علي الغراب السفاقصي فى غير مناسبة .

ان ما نلاحظه هو أن أبا راس يتبع طريقة الشرح المعهودة فى عصره . فهو ينقل من الماضين ما يوافق المعنى ويبرهن بذلك على حفظه ومهارته الأدبية والتاريخية . ويتبع الأسلوب الأدبي فى شرح الألفاظ والمعاني لغويا ونحويا وبيانيا وتاريخيا .

ويبدو أنه اختلط عليه . كما فعل بعض السابقين . التاريخ والأدب . رغم أنه عرف الأول بما يدل على تمييزه عن الأدب كفن أو علم قائم بذاته ، وهو يستطرد الى درجة الحشو . ويتناول موضوعا ما ثم يعود اليه فى أماكن أخرى . ولعل هذا يعود الى أنه لم يسلك طريقة منظمة من البداية . ومصادره كثيرة منها القديم والمعاصر ، والمكتوب والشفوي، والمنقول ، والشخصي . ولكنه قلما ينقد المصادر أو يقف عندها بالمقارنة، وتغلب عليه العاطفة الدينية فى سرد الأحداث ووصف النزاع الاسلامي — الأسباني . ولا غرابة فى ذلك فقد كان متأثرا بما جرى للمسلمين منذ ضياع الأندلس ومحاولة الغزو الأسباني (المسيحي) لشمال أفريقية . ومن جهة أخرى فانه كان يكتب عن حادثة تجري أمام عينيه . بل كان مشاركا فيها . وهي حادثة أججت العواطف وأثارت الحماس الديني . ورغم شيوع السجع والصناعة اللفظية فى العصر العثماني فان أبا راس لم يلتزم بالسجع الا فى مقدمة الكتاب أو اذا جاء عفوا فى ثناياه . أما سائر الكتاب فمكتوب بنثر بسيط يكاد يقرب من العامية أحيانا .

وللكتاب قيمة بارزة الى جانب ما ذكرنا من الأخبار . فهو يحتوي على معلومات قيمة عن أنساب القبائل ومواقعها فى شمال أفريقية . وهو لذلك ما يزال مرجعا للباحثين . وفيه أيضا وفرة من الأخبار عن أحوال شمال أفريقية خلال العصر العثماني قلما نجدها فى غيره . بالاضافة الى تأسيس المدن ومد الطرق وتواريخها فى المنطقة المذكورة . والكتاب يكشف عن موقف مؤيد للعثمانيين عامة والترك خاصة فى الجزائر . فصاحبه يشيد بهم ويذكر شجاعتهم ومواقفهم فى سبيل الدين ، رغم أنه لم يكن

منهم . وفى الكتاب معلومات اضافية عن الاندلس (وقد توسع فيها فى كتابه الآخر الحلل السندسية) وهو يكشف عن كره صاحبه للنصارى عامة والأسبان خاصة لاخراجهم المسلمين من الأندلس ومطاردتهم لهم فى المغرب العربي . وفيه أيضا أخبار عن حياة أبي راس الشخصية وأخبار رحلته الأولى (سنة 1204 ـ 1205 هـ) عن طريق البحر فى سبيل الحج .

ولأبي راس كتب أخرى كثيرة فى التاريخ لا نعرف عنها الا القليل ، بعضها مفقود فى الوقت الراهن ، وبعضها معروف لكن لم نتمكن من الاطلاع عليه . من ذلك (ذيل القرطاس) الذي قيل أنه يقع فى مجلد(28)، و (ايضاح الغميس) الذي تناوله أحد الكتاب الفرنسيين (29) و (در السحابة) الذي قيل أنه يقع فى حوالي كراستين ويوجد عند بعضهم فى مكناس بالمغرب (30) ، وكذلك (الحلل السندسية) الذي ترجم ونشر كما سبق أن أشرنا (31) . ومهما يكن من أمر فان الكتاب الأخير قد وضع أصلا قصيدة تاريخية ثم قام المؤلف بشرحها شرحا واسعا على الاقل مرتين : الشرح الأول قام به عندما كان فى تطوان وسماه (روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان) . فقد ذهب الى المغرب بعد عزله من وظائفه سنة 1211 هـ (32) ، واستقبله السلطان مولاي سليمان بفاس ، وعرض عليه بعض الوظائف ولكن أبا راس اعتذر بثقله ، فأرسله السلطان الى مرسى تطوان للركوب من هناك الى الجزائر . وقد أحس أبو راس بالامن والهدوء فكتب ذلك الشرح . لذلك وصف تطوان بأنها بلد « الأمن

28 ـ ابن سودة ، دليل مؤرخ المغرب ، ص 177 .

29 ـ L. Guin R.A. (1887) pp. 72-80.

30 ـ ابن سودة دليل مؤرخ المغرب ، ص 488 .

31 ـ نفس المصدر ، ص 428 : ويذكر أن الشرح الثاني لقصيدة (الحلل السندسية) وهو المسمى (بالقصد المعرب ..) توجد منه نسخة بمدينة تلمسان .

32 ـ يذكر نفس المصدر أن أبا راس رحل الى المغرب سنة 1218 (1803) ، ص 390ـ 391 .

الايمان » . ولما كان متأثرا بفتح وهران دعا الى السلطان سليمان باستردا سبتة وبريرا وثغر ابن عكاشة من الاسبان أيضا . أما الشرح الثاني فقد سماه (الخبر المعرب عن الامر المغرب ، الحال بالاندلس وثغور المغرب) وقد أضاف اليه « لطائف .. كأنها عقود جمان أو قلائد عقيان » . حسب تعبيره . ويبلغ شرح الحلل السندسية 98 ورقة .

واذا كان دافع أبي راس فى كتابة (العجائب) هو فتح وهران فان دافعه فى كتابة (الحلل) هو ما جرى فى الأندلس بين المسلمين والأسبان . وعلى كل حال فان الذي أوحى له الكتابة فى هذا الموضوع هو انتصار المسلمين فى وهران . وكان وجوده فى تطوان والسواحل المغربية الشمالية محركا لذكرى الأندلس فى نفسه وأشجان الماضي الذي يربط أهل المغرب بأهل الأندلس القدماء . بالاضافة الى أنه وجد ، كما قال ، الأمن والايمان فى تطوان ، كما وجد احسانا وعطاء من السلطان المغربي مولاي سليمان . ومن ثمة كانت (الحلل السندسية) تاريخا مفصلا لبلاد الاندلس وذكر علمائها ومدنها ووقائعها ، مع تعرض بالمناسبة الى قبائل المغرب العربي التي يتصل نسبها بسكان الأندلس موضوع الكتاب ، وشيء من الحديث أيضا عن الوجود العثماني فى شمال افريقية واستعادة وهران . ولعل المؤلف الذي خص وهران (بالعجائب) أراد أن يكمل موضوعه ، وهو العلاقات الاسلامية ـ الاسبانية فكتب (الحلل) عن الأندلس وثغور المغرب .

والواقع أن هذه الدراسة القصيرة لا يمكن أن تفي بحق ولا بمكانة أبي راس الناصري بين المؤرخين ، فهو ـ لسعة اطلاعه وكثرة معارفه وحيوية وقائعه ـ يستحق اهتماما أكثر ودراسة أشمل . ولكن كتبه ما زالت غير معروفة كلها أو جلها وعصره ما زال غير مدروس . ولذلك فمن الصعب اعطاء صورة كاملة عنه وعن مساهمته فى الحركة الثقافية عامة والكتابة التاريخية بوجه خاص . ولكن تسليط الضوء على شخصية معاصرة له كعبد الرحمن الجبرتي جعلني أحاول أن أقدم ما أمكنني العثور عليه من مؤلفاته

ومساهمته الى الباحثين لعلهم يجدون فى الرجلين بعض أوجه الشبه وبعض أوجه الاختلاف ، ليس فى روح العصر فحسب ولكن فى المنبع والمصب الثقافي أيضا . ولم يكن هدف هذه الدراسة عقد مقارنة بين الرجلين لأن المقارنة لن تكون ناجحة الا اذا توفرت عناصرها وهي العثور على مؤلفات وآثار كل منهما . واذا كان البحث قد كشف عن آثار الجبرتي فما يزال لم يكشف بعد عن آثار أبي راس . ولعل الجزائريين يقتدون بالمصريين فى العناية برجالهم فيقيمون ندوة لأبي راس كما أقام المصريون ندوة للجبرتي . وعندئذ تكثر العناية بالرجلين وتتاح المقارنة بينهما . ولاشك أن كليهما خدم العلم والتاريخ ، ومن ثمة خدم الحضارة العربية الاسلامية فى أوسع معانيها .

الجزائر فى 15 أبريل 1974

* ـ بعد كتابة هذا البحث عثرت على نسخة من كتاب آخر لأبي راس وهو (الشقائق النعمانية فى شرح الروضة السلوانية) وهي قصيدة ابراهيم بن عبد الجبار الفجيجي فى الصيد . واسمه فى هذه المخطوطة هو محمد أبو راس الناصر . ويقع الشرح فى حوالي 150 صفحة .

وثائق جديدة عن ثورة الامير عبد المالك الجزائري بالمغرب

أجريت فى صيف 1968 بدمشق مقابلة مع الأمير حسن بن الأمير عبد المالك الجزائري وطلبت منه أن يحدثني عن ثورة والده فى المغرب (1914 ـ 1924) ، وعن ذكرياته عنه . وكانت المقابلة فى منزل الأمير حسن الواقع بأحد أحياء دمشق المشهورة بالمغاربة . وكانت القاعة التي جلسنا فيها محلاة بصور أبيه الأمير عبد المالك وصور جده الأمير عبد القادر . فهناك صورة للأول باللباس العسكري العثماني ، وأخرى يظهر فيها لابسا برنسا فى هيئة شبيهة بهيئة والده (الأمير عبد القادر) . وثالثة يظهر فيها ممتطئا صهوة فرس تذكر أيضا بالصورة المعروفة للأمير عبد القادر يحيط به عدد من المغاربة راجلين تماما كما تظهر صورة أبيه وهو محاط بأتباعه الجزائريين .

وقد تحدث الي الأمير حسن بصراحة عن والده ، فكان يتكلم وأنا أكتب طيلة بضع ساعات . وبعد أن انتهى من حديثه وجهت اليه بعض الاسئلة عن موضوعات رأيت انها ما زالت غامضة . فأجابني عنها أيضا بصراحة . كان الأمير يتمتع بذاكرة قوية . ويحتفظ بصور كثيرة عن تاريخ والده وجده ، كما يحتفظ بوثائق هامة تفضل بتسليمها الي فى أصولها .

ويمكننا أن نعيد بناء احداث ثورة الأمير عبد المالك بالمغرب بالاعتماد على هذه المعلومات الجديدة المتمثلة فى المحادثة التي أجريناها مع ابنه ،

---

* نشر فى المجلة التاريخية المغربية عدد 1 ـ 1974 .

1 ـ لكنه استعاد مني الوثائق فأعدتها اليه بعد أن احتفظت بصور منها .

وفى الوثائق والصور التي تفضل بالكشف عنها ، وفى مقال هام ظهر فى جريدة (الأحرار) البيروتية ، بالاضافة الى ما استقيناه من معلومات حول هذه الثورة فى مناسبات متعددة منذ صدور كتابنا « الحركة الوطنية الجزائرية » (1) الذي خصصنا فيه فصلا عن ثورة الأمير عبد المالك .

والوثائق المشار اليها هي ما يلي مرتبة حسب تواريخها :

الوثيقة رقم 1 : رسالة من الأمير عبد المالك الى أخيه الأمير علي بتاريخ 16 نوفمبر 1914 ، بالعربية .

الوثيقة رقم 2 : رسالة من الأمير عبد المالك الى ابن أخته سيدي مصطفى بتاريخ 4 صفر 1334 هـ (1915 م) ، بالعربية .

الوثيقة رقم 3 : رسالة من ممثلي الدولتين العثمانية والألمانية بمدريد بتاريخ 25 مايو 1916 بالعربية .

الوثيقة رقم 4 : شعر للأمير عبد المالك الى أسرة الأمير عبد القادر بالشام بتاريخ 14 ربيع الثاني 1338 هـ (1919 م) ، بالعربية .

الوثيقة رقم 5 : رسالة الى الأمير عبد المالك من مجهول ، بتاريخ 26 سبتمبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 6 : رسالة من الأمير عبد المالك الى الجنرال موريال ، بتاريخ 7 أكتوبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 7 : رسالة من خليل حقي قائم بأعمال الدولة العثمانية بمدريد الى الأمير عبد المالك ، بتاريخ 10 ديسمبر 1920 ، بالفرنسية .

---

1 — دار الآداب ، بيروت 1969 ، ص 257 — 265 ، لم أحاول فى هذه الدراسة أن أوفق بين ما ذكرته فى (الحركة الوطنية الجزائرية) وبين ما ورد فى الوثائق الحالية عن الأمير عبد المالك .

وقبل استعراضنا لهذه الوثائق نود أن نكشف عن بعض الجوانب الشخصية والعائلية للامير عبد المالك ، معتمدين فى ذلك بالدرجة الاولى على حديث ابنه الامير حسن . فعبد المالك هو الابن الثاني قبل الأخير من أبناء الأمير عبد القادر ، اذ لا يصغره الا أخوه عبد الرزاق . وقد ولد الأمير عبد المالك بدمشق سنة 1285 هـ (1868 م) . وهناك تعلم وتأثر بحركة الجامعة الاسلامية . وكان يحسن الى جانب العربية اللغه التركية والفرنسية . وكان خطيبا وشاعرا آيضا . وكان قد سمع بثورة الشيخ بوعمامة فى الجنوب الجزائري فأخذ بها . وقد غادر دمشق سنة 1903 ، ولا ندري أين توجه بالضبط ، ولكننا نعلم انه عين سنة 1906 قائدا للشرطة الدولية فى طنجة . واجتمع سنة 1912 بأسرته فى طنجة . وكانت هذه الأسرة تتكون من زوجته وبنتين وابنيه الأميرين محي الدين وحسن (2) .

التحق الأمير عبد المالك بالشيخ بوعمامة (3) وحارب معه الفرنسيين . وعندما ألقى بوعمامة السلاح سنة 1904 انضم الامير الى الثائر المغربي بوحماره وحارب معه أيضا فترة . ولكنه اكتشف ان حركة هذين الثائرين كانت فردية فانضم الى السلطان مولاي عبد العزيز الذي عينه قائد جيوشه فى منطقة القصر الكبير . وأثناء حروبه لصالح السلطان عبد العزيز ضد مولاي عبد الحفيظ ، الذي كان يسانده الفرنسيون ، ألقى عليه القبض فى فاس . ثم أطلق سراحه وعين نائبا لوزير الحربية المغربي ثم قائدا للشرطة الدولية فى طنجة .

وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى كان الأمير عبد المالك فى فيشي بفرنسا يتداوى من مرض الربو . كما زار اسبانيا فى نفس العام . وعندما

---

2 ـ انتحر الامير محي الدين بعد خلاف مع والده فى بداية الحركة ، اما حسن فهو الأمير الذي اجرينا معه المقابلة .

3 ـ رغم تأكيد الأمير حسن على علاقة والده بثورة بو عمامة فاننا ما نزال غير مطمئنين اليها .

13

تأكد موقف الأمير عبد المالك المعادي للفرنسيين اتصل به سفير ألمانيا فى مدريد ، الكونت دي راتبور ، وطلب منه ارسال مندوب عنه الى مدريد للاتفاق على خطة مشتركة . فأرسل الأمير عبد المالك ابنه محي الدين الى مدريد لذلك الغرض . وقد وقع الاتفاق على فتح جبهة ضد الفرنسيين فى المغرب . ومحتوى هـذه الخطة أن ألمانيا والدولة العثمانية تتعهـدان بالمساعدة ، اذا نجحت الخطة ، على اقامة مملكة واحدة تضم المغـرب والجزائـر .

وفى آخر سنة 1914 ترك الأمير عبد المالك طنجة (4) ، بناء عـلى الاتفاق ، وتوجه الى داخل المغرب لتنظيم قواته وفتح الجبهة المذكورة . وقد توجه أولا الى جبالة حيث ألقي عليه القبض وكاد يقع فى قبضـة الفرنسيين لولا تدخل قائد بني منصور العياشي القلال (5) (؟) الذي حماه من الشيخ الريسوني (الذي كان ضده) واتباعه ، وسهل له الخروج من المنطقة الاسبانية .

وفى بني مستارة ألف الأمير عبد المالك أول قوة لمقاومة الفرنسيين فى المغرب الخاضع للادارة الفرنسية . وكان جيشه يتألف عندئذ من فرق نظامية وأخرى شعبية . وكان يعمل فى معسكره ضباط ألمان وأتراك . وكان رئيس البعثة الألمانية لديه هو السيد هيرمان . أما رئيس البعثة العثمانية لديه فان الأمير حسن لم يتذكر اسمه . وكان فى معسكر الأمير عبد المالك أيضا بعض الهاربين من فرقة اللفيف الأجنبي الفرنسية .

كان الأتراك والألمان يعملون معه كمستشارين . وكان الألمان بالذات يقدمون مساعدة لأسرته التي كانت تعيش فى مدينة تطوان . كما كانوا

4 ـ تدل الوثيقة الاولى على أن الأمير قد بدأ حركته فى أول سبتمبر 1914 .
5 ـ لم أستطع أن أقرأ خطي الذي كتبت به هذا الاسم أثناء مقابلتي مع الامير حسن ، ولذلك فأنا غير متأكد من نطق الاسم .

يقدمون اليه الأسلحة والعتاد ، ولكن بكمية غير كافية . وكانوا أحيانا لا يوفون له بوعودهم ، مثل ما حدث عندما دخل الأمير عبد المالك مدينة فاس ، فقد ظل هناك ينتظر المدد من القوات المركزية لكي ينطلق الى جهات أخرى ولكن بدون جدوى .

وعند وقوع الهدنة بين القوات المركزية والحلفاء سنة 1918 بدأ الأمير عبد المالك عهدا جديدا كان أقسى تجربة عليه من العهد الأول . فقد تخلى عنه جميع الأتراك والألمان وانسحب من عنده 500 فارس من بني زناسن ، وذهبوا بأسلحتهم وأموالهم الى مليلية بالمنطقة الاسبانية . وهكذا بقى الأمير عبد المالك وحده فى الميدان فالتجأ الى قبيلة غمارة . وقد التجأ أيضا الى زاوية سيدي علي بن داود حيث بقى مدة مع قوة صغيرة من أتباعه . وخلال ذلك كان يجري سلسلة من المفاوضات مع الفرنسيين لم تؤد الى نتيجة . غير أن الأمور بدأت تأخذ شكلا جديدا سنة 1923 عندما اندلعت حرب الريف بقيادة الامير الخطابي . وكانت هذه الحرب فى البداية ضد الاسبان . وقد أرسل الأمير الخطابي أخاه الى فرنسا يطلب مساعدتها ، غير أن هذه اشترطت عليه ، لكي تقدم له المساعدة ، أن يحارب الأمير عبد المالك ويخرجه .

وبناء على ذلك جاء الأمير الخطابي بقوة كبيرة وحاصر الأمير عبد المالك وطلب منه التسليم . لكن الأخير فضل الحرب على التسليم . وجرت معركة بين الطرفين دامت خمسة عشر يوما انكسر اثرها الخطابي وعاد الى موطنه وبدأ يعد العدة لجولة ثانية أكبر من الأولى . غير أن الأمير عبد المالك لم يكن يملك قوةكبيرة فالتجأ الى المنطقة الاسبانية وطلب مساعدة اسبانيا . وقد جرى اتفاق بين الطرفين تعهدت بمقتضاه اسبانيا بتقديم المساعدة المادية للأمير عبد المالك ، على أن يكون من حق الأمير تجنيد الجنود ليحرر بهم ما يشاء من البلاد ، فاذا احتل أي جزء منها فانه يصبح مستقلا ولا يدخله الأسبان .

وقد حضر الأمير حسن المعركة الأخيرة التي قتل فيها والده . فقد خرجوا على الساعة الرابعة صباحا وبدأ القتال الذي دام حتى العاشرة حين انتهت المعركة . وعلى اثر ذلك مباشرة أصابت طلقات قلب الأمير عبد المالك . وجرى ذلك فى شهر أغسطس سنة 1924 . وقد ادعى الريفيون أن الأسبان هم الذين قتلوه بينما ادعى هؤلاء أن الريفيين هم الذين فعلوا به ذلك . وعلى كل حال فان الأمير عبد المالك قد خرج للحرب تحدوه الرغبة فى تحرير المغرب من الأسبان وثوار الريف معا .

وتؤكد الوثائق الجديدة علاقة الأمير عبد المالك بكل من أخيه الأمير علي وابن أخيه الأمير خالد . فقد كان الأول هو المتحدث باسم حركته فى المشرق وموضع سره هناك ، كما تشهد بذلك الوثيقة رقم 1 . وفى سنة 1916 طلب الأمير عبد المالك من الأمير خالد أن يشرع فى تهيئة الجو فى الجزائر للقيام بحركة مساندة لحركته فى المغرب . وقد أرسل اليه من أجل ذلك الأموال والمناشير . ولكن ظروف الأمير خالد لم تسمح له بهذه المهمة . وتؤكد جريدة (الاحرار) هذه العلاقة بين الأميرين (6) . ومهما يكن الأمر فمما لاشك فيه هو أن الأمير خالد قد استفاد من حركة عمه فى المغرب عندما بدأ هو حركته السياسية فى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى .

حارب الأمير عبد المالك فرنسا اقتداء بوالده الأمير عبد القادر . وكان هدفه تحرير الجزائر . ولكنه لم يبدأ من الجزائر لأن جذور فرنسا فيها كانت قوية . وقد اختار بدلا منها المغرب كمنطلق لأن مجال العمل فيه أوسع حيث توجد سلطتان من جهة وحيث المغرب كان حديث العهد بالاستعمار من جهة أخرى . وكان العدو الأول للأمير عبد المالك هو المارشال ليوتي . وكانت للأمير أهداف دينية ووطنية من تحرير المغرب

---

6 – القصاصة التي عندنا من هذه الجريدة تحمل رقم 1930 ، لكن تاريخ الجريدة منزوع .

والجزائر ، شبيهة بالأهداف التي حارب من أجلها الأمير عبد القادر . ورغم ذلك فان الأمير عبد المالك لم يدخل الجزائر قط ، لا قبل الحرب العالمية الأولى ولا بعدها . وأقرب نقطة اقترب فيها من الجزائر هي مدينة وجـــدة .

* * *

تكشف الوثائق السبع التي بحوزتنا عن مدى ايمان الأمير عبد المالك بالجامعة الاسلامية وبفكرة الجهاد وتعلقه الشديد بفعائل أجداده . كما تكشف عن ترفعه واعتزازه بنفسه ، سواء فى حروبه أو فى مفاوضاته مع الفرنسيين . ومن جهة أخرى تكشف عن علاقاته بأصدقائه (العثمانيين والألمان) وبأعدائه (الفرنسيين) .

فاذا نظرنا الى هذه الوثائق واحدة واحدة فان الوثيقة الأولى عبارة عن رسالة كان قد وجهها الأمير عبد المالك الى أخيه وممثله الأمير علي فى اسطانبول . والظاهر أنها مترجمة لأن جريدة (الأحرار) قد نشرتها ضمن مقال موقع بامضاء السيد فؤاد ميداني وبجانبه عبارة « تعريب » (7) . بالاضافة الى أن الأسلوب لا يدل على أنها قد نشرت بنصها العربـــي الأصلي . وعلى كل حال فالرسالة اخبارية وهي مؤرخة بـــ 14 نوفمبر 1914 ، أي بعد بضعة شهور فقط من بداية الحرب العالمية . وقد عدد فيها انتصاراته على العدو فى المغرب ، وأشار الى أنه أرسل دعاته أيضا الى الجزائر وتونس . وهذا يؤيد صحة ما ذكره الأمير حسن من أن والده قد كاتب ابن أخيه الأمير خالد فى الجزائر ، والرسالة بالاضافة الى ذلك تكشف عن ثقته بنفسه وربطه الجهاد الذي يخوضه بحركة الجامعـــة

7 ــ جريدة (الاحرار) عدد 1930 . لكن التاريخ منزوع من القصاصة التي عندي . وفى المقال أخبار أخرى عن حوادث أفريقية الشمالية خلال الحرب العالمية الاولى وموقف الدولة العثمانية منها .







الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر

الاسلامية . وفى الرسالة أيضا اشارة الى بدء ثورته حين ذكر أنه استولى على بطارية للعدو قبل شهرين من تاريخه .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة (8) مفصلة أرسلها الأمير عبد المالك سنة 1915 الى ابن أخته السيد مصطفى الذي لا نعرف عنه الآن أكثر من هذا . وهذه الرسالة المكتوبة بخط مغربي وموقعة من قبل الأمير عبد المالك نفسه بخطه المشرقي ، تتلخص فى نقطتين : الأولى وصفه للمعارك التي خاضها هو وأتباعه ضد الفرنسيين وحلفائهم أولاد بكار ، والثانية طلبه النقود من جهة مجهولة أشير اليها باسم « الطبيب » فقط ، ثم انذار هذه الجهة بأن الأمور ستسوء اذا لم ترسل بالمال المطلوب عاجلا . وقد ذيل الأمير عبد المالك هذه الرسالة بكلمة طلب فيها من ابن أخته أن يطلع ابنه الأمير حسن على فحواها مع توجيهات خاصة به . ومن الاسف اننا لم نستطع أن نتعرف على شخصية ولا مهمة الرجلين المشار اليهما فى هذا الذيل وهما حميدة الوزاني والبشير بن السفاح (؟) ، كما لم نعرف هوية بوغابسن .

والوثيقة الثالثة وردت الى الأمير عبد المالك من سفير دولة المانيا بمدريد ونائب الدولة العثمانية بمدريد أيضا ، وهي بتاريخ 25 مايو 1916 (9) . وهي مكتوبة بخط عربي مقبول وأسلوب رديء . ولعل الذي كتبها أحد موظفي السفارتين المذكورتين . وفى أسفل الوثيقة ختم كل دولة بالشمع الأحمر ، ويظهر عليه النسر الألماني تحت عبارة « سفير دولة الألمانية بمدريد » و « دولة الخلافة العلية » تحت عبارة « نائب دولة العثمانية بمدريد » . والوثيقة تؤكد صداقة الدولة العثمانية والألمانية للامير عبد المالك ، وتبعد الشائعات التي شاعت عندئذ من أن انسحاب

8 — مقاس 27×21 ، 31 سطرا ، بالاضافة الى 15 سطرا مكتوبة على أطراف الرسالة .

9 — مقاس 33×5 ، 20 ، 21 سطرا ، وقد نقلتها كما هي دون أن أنبه الى مافيها من أخطاء لكثرتها .

الضباط العثمانيين من صفوفه تعني التخلي عنه وعن المغرب . وتكشف هذه الوثيقة من جهة أخرى عن دور الخلافة العثمانية والمانيا فى تلك الأحداث .

كل الوثائق السابقة كانت خـلال الحرب العالمية الاولى . وتـأتي **الوثيقة الرابعة** سنة 1919 حين كتب الأمير عبد المالك عشرة أبيات من الشعر بخط يده وبقلم الرصاص وموقعه بقلمه أيضا (10) . وقد وجهها الى آل الامير عبد القادر عامة . والظاهر أنه لام فيها بعض آفراد هذه العائلة الذين ربطوا مصيرهم بفرنسا عدوته وعدوة والده ، ناسين أيادي السلطان عبد المجيد الذي كفل والده مما تسبب فى اطلاق سراحه من سجن الفرنسيين . وقد عاب عليهم الفرقة بعد الوحدة والهوان بعد العزة . ومما يلاحظ أن البيت الاخير مكسور . ولم يفصح الامير عبد المالك عن الدافع الذي دفعه الى قول هذا الشعر . غير أن ابنه الأمير حسن ذكر لي أثناء المقابلة بأن والده قد رد بهذا الشعر على آل الأمير عبد القادر عندما طلبوا منه أن يقبل عرض فرنسا الذي يقضي بتخليه عن ثورته ضدها فى المغرب وتنصيبه ملكا على سوريا بدل الأمير فيصل . غير أننا لم نجد فى الوثائق ما يشير الى هذه القضية .

والوثيقة الخامسة عبارة عن رسالة غامضة وجهها مسؤول ، يبدو أنه فرنسي ، سنة 1920 الى الأمير عبد المالك (11) . وهي مكتوبة بالفرنسية ولا تحمل توقيعا ولا جهة ارسال . وتتحدث عن خطة سفره من المكان الذي كان يوجد فيه ، وهو غير مذكور ، ولكن الظاهر أنه كان قريبا من فاس . وهي تدل على أن هناك مفاوضات كانت تجري بينه وبين الفرنسيين . وكانت نقطة الخلاف فيها حول الطريق الذي يجتازه بعد انتهاء

---

10 – مقاس 27×5،20،12 سطرا .

11 – مقاس 20×5،15 ، 14 سطرا للصفحة (من صفحتين)

العمليات العسكرية ، هل يتوجه رأسا الى تطوان لرؤية أهله قبل التوجه الى الرباط لزيارة الجنرال ليوتي أو يؤدي الزيارة الى ليوتي قبل التوجه الى عائلته ؟

وكانت **الوثيقة السادسة** (12) التي وجهها الأمير عبد المالك الى الجنرال موريال الفرنسي ، مدير الشؤون الأهلية ومصالح الاستخبارات بالمغرب ، تجيب على ماغمض فى الوثيقة الخامسة . فالرسالة الرسمية التي قيل له انها آتية اليه كانت تحمل شروط الفرنسيين لاستسلامه . وهي الرسالة التي حملها اليه أحد الضباط السامين . وقد وجد الأمير أن هذه الشروط مهينة لشرفه ومقيدة لحريته فرفضها . ولذلك قدم بدلها شروطه الخاصة الموضحة فى الوثيقة ، وهي من ثلاث نقاط ، مضيفا اليها شرطا رابعا ، وهو حصوله على رخصة لمغادرة التراب المغربي من المقيم العام (الجنرال ليوتي) نفسه . وفى هذه الوثيقة كشف الأمير عن أهداف كفاحه خلال خمس سنوات . وقد سخر من التسامح والاريحية الفرنسية . ومن الملاحظ أن هذه الوثيقة المكتوبة بالفرنسية كأنها كانت مسودة لما فيها من شطب وتعديل . ثم أن تحديد مكان الجهة التي يطلبها بعد خروجه من المغرب غير واضحة . فقد وجدت كلمة اسطانبول مشطوبة ومكتوبا فوقها رومة . والملاحظ كذلك أن الوثيقة بدون توقيع . وهي بتاريخ سنة 1920 .

أما الوثيقة السابعة والأخيرة فهي من السيد خليل حقي القائم بأعمال سفارة الدولة العثمانية بمدريد الى الأمير عبد المالك (13) . وهي أيضا بتاريخ 1920 . وقد أجاب بها الأمير على رسالة كان هذا قد كتبها اليه بمناسبة تعيينه فى منصب القائم بالأعمال . وتكشف الوثيقة أن الأمير قد التجأ الى سفارة الدولة العثمانية بعد فشل مفاوضاته مع الفرنسيين .

---

12 – مقاس 36×26،28 سطرا للصفحة ؛ وهي فى صفحتين وربع .
13 – مقاس 34×21،40 سطرا .

لذلك بادر القائم بالأعمال العثماني الى عرض خدماته عليه وفتح مراسلات الامير السابقة مع سلفه . وفى الوثيقة عبارات تطمينية كثيرة ودغدغات دينية واضحة ، ووعود ووصف لحالة الدولة العثمانية الدولية . وهذه الوثيقة مكتوبة أصلا بالفرنسية ، ولكن تتخللها بعض العبارات العربية ذات المحتوى الديني (كالجهاد) والآية الكريمة (ولا تقنطوا من رحمة الله) ، الخ . ولكي أميز بين المترجم والأصل العربي وضعت العبارات العربية أصلا داخل قوسين هكذا ( ) .

* * *

وتنقطع عنا أخبار الأمير عبد المالك ابتداء من سنة 1921 . والمعروف انه ظل فى حالة حرب مع أعدائه حتى صيف سنة 1924 حين قتل كما أسلفنا . ولو عثرنا على وثائق عن هذه الفترة أيضا ، ولا سيما مراسلاته مع الأسبان ومع الأمير عبد الكريم الخطابي ، لاتضحت لنا معالم الطريق الذي سلكه وجوانب شخصيته الخفية . ولكن التاريخ ما زال ، فى نظرنا ، يخبيء لهذه الشخصية أسرارا لن يبوح بها كلها دفعة واحدة . وحسبنا منه الآن هذه الوثائق التي نوردها بنصوصها ، موضوعة أو مترجمة ، مر تبينها تاريخيا . وعسى أن يجد فيها الباحثون بعض ضالتهم عن شخصية الأمير عبد المالك وعن تاريخ المغرب الحديث .

الوثيقة 1 :

رسالة من الامير عبد المالك الى اخيه الامير علي

فى الوقت (14) الذي كان يتخيل فيه أمام ناظري الحروب والفتوحات التي كان يشنها أجدادنا العظام(15)،كنت أحيى الليالي حتى الصباح مفكرا،

14 ـ تاريخ الرسالة 28 ذي الحجة سنة 1333 هـ : 16 تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1914 .
عن جريدة (الاحرار) البيروتية عدد 1930 السنة التاسعة ، لكن التاريخ منزوع من القصاصة .

15 ـ يعني الأمير عبد القادر ، والوثيقة مليئة بالأخطاء التي ليست فى حاجة الى تنبيه .

تلك التصورات والأفكار التي كنت أعتبرها أنها فاتحة آمال ذلك اليوم المقدس الذي نقوم به الى الجهاد .

فالشكر لله أن ذلك النور قد بدأ ينشق عن فجر للأمة الاسلامية وأخذ فى تنوير الظلمات التي كانت تكتنف الأمة .

ان أول فوز أدركناه كان منذ شهرين عندما تمكنا من الاستيلاء على بطارية من العدو على اثر معركة شديدة دارت بيننا وبينه وكتب الله لنا الفوز عليه .

لقد كنت أشعر بعذاب شديد فى ضميري عندما أرى العدو يطأ فى قدميه الملوثة أراضي وطني المحبوب .

وعلى اثر قيام قبائلي ورجالي الفدائيين باعلان الجهاد المقدس ضد العدو ، مستمدين القوة من العزة الالهية وروحانية سيدنا محمد (صلعم)، هاجمنا بنفوس تستحقر الموت مراكز العدو وتمكنا من احتلال (كازبلانكا)، ذلك المركز الحربي الخطير الذي يحرص عليه العدو شديد الحرص حيث استولينا فيه على عشرات الرشاشات المدفعية ومئات البنادق والعتاد الحربية .

انني لا أترك العدو الذي يتراجع الى الوراء يرتاح دقيقة واحدة ، وعلى الاخص فان الفرنسيين الذين فقدوا معنوياتهم بعد هذه المعركة باتو (كذا) يقومون بمقاومة تستحق الذكر .

وقد ارسلنا الرسل والمناشير الى الجزائر وجنوبي تونس لاخبار أهلها بالجهاد المقدس . وبات اليوم المنتظر قريبا جدا . وسنظل ثابتين على خطتنا الى آخر نقطة نريقها من دمائنا . ومن الله التوفيق .

وليعلم أعداء الاسلامية فى العالم ان قلوب الملايين من المسلمين تخفق اليوم بكلمة الجهاد المقدس ، وأن المظالم والاضطهادات التي ارتكبوها ضدنا فى الامكان احتمالها قط .

ونحن نتمنى أن يحذو المسلمون فى سائر العالم حذونا ، ويلبوا داعي الجهاد ليتسنى لهم الحصول على الفوز العظيم .

والمعارك الأخيرة التي نشبت بيننا وبين الافرنسيين أسقطنا منهم 700 قتيل وجريح . ان معنويات المجاهدين قوية جدا ، وعند سنوح الفرص سأنقل اليكم أخبارا جديدة . والله جل جلاله عون للمدافعين عن حقوقهم .

الامضاء : الأمير عبد المالك

الوثيقة رقم 2 :

رسالة من الامير عبد المالك الى ابن أخته سيدي مصطفى

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

ابن أختنا الشريف الأجل النزيه الأفضل سيدي مصطفى رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله . وبعد فلا زائد على ما قدمناه لكم سوى اننا بعد الاسترعاء (؟) التام على قبيلة أولاد بكار الداخلة تحت حكم الفرنسيس لم يرد الله بها خيرا فركبنا اليها صبيحة يوم الثلاثاء متم الشهر الفارط فى وسط محلتنا السعيدة . ولما أشرفنا على أول بلادهم تلقانا أولاد علي بن منصور منهم متضرعين صاغرين وعرقبوا علينا فعفونا عنهم رعيا لضعفائهم وحريمهم وصبيانهم . ودخل بقية قبيلتهم طيش كبير . وقابلونا بالبارود فأطلقنا اليد للمحلة فيهم فلم يكن الا كلمح البصر أو هو أقرب

حتى صارت بلادهم حصيدا كأن لم تغن بالأمس . واستولت جنود الله على سائر أموالهم وماشيتهم وسائر ما يملكون على اختلاف أنواعه وحرقت دورهم على الوفاء والتمام . ورجعنا ولله الحمد سالمين ، والعناية الالهية تحفنا . ولم يصب منا ولا من خيلنا الا فرسين (كذا) أحدهما قتل والآخر جرح .

وفى مغرب الغد وردت علينا الأنباء بنزول العدو بعين بوقلال بين أولاد بكار والبرانيص ومكناسة . فنهضنا فجر يوم الخميس معتصمين بحبل الله الذي لا ينفصم . وغيرنا الطريق الأول فتوجهنا على قبيلة مغراوة ، ولما أشرفنا على وادي أولاد بكار ظهرت لنا المحلة المذكورة وعلى أطرافها جيش العدو يرعد ويبرق فتوكلنا على الله سبحانه واستنصرناه فنصرنا واستوهبنا منه المعونة فأعاننا . واشتد القتال بيننا وبينه . وغدر أولاد على بن منصور المذكورين (كذا) فحمى الوطيس وشمر المجاهدون عن ساعد الجد والاجتهاد واحتلوا قصبة أولاد على بن منصور ، فجعلها العدو أمامه ودفع طالعا اليها فتقهقر المجاهدون عنها . ولما رأينا الأمر كذلك وجهنا مودا كبيرا تحت رئاسة القائد عزوز المركاتي الغياثي لافتتاحها والاستيلاء عليها . ونزلنا بمن معنا من أنصار دين الله على رتبة مقابلة لها . وشمرنا بمن بقى معنا على ساعد الجد لنجد عن المود المذكور من يقابله حتى يصل الى جوار القصبة . فتمم الله العمل وأنجحه . وفى ظرف عشرين دقيقة كان المود المذكور بوسط القصبة فاقتفينا أثره بمن معنا فوصلنا اليها وشب الحريق فيها . واحتوى المسلمون على جميع ما احتوت عليه بسائر أنواعه رغما عن حماية العدو لها بعدده وعدده .

ولما تم الاستيلاء عليها خرجنا منها وحمى الوطيس واشتب القتال . وفى عشية النهار انكسر العدو الى خزاينه . ولم يصب من حزبنا الا رجل

غياثي استشهد . وقتل أربعة أفراس وجرح غياثي آخر . فتعين علينا المبيت بتلك النواحي فبتنا متفرقين شذر مذر بقبيلة مغراوة .

وفى فجر يوم الجمعة نهض العدو قبل اجتماع المحلة وطلع على وادي اولاد بكار وحرق بعض دور قبيلة مغراوة لان افرغها أهلها فى اليوم السابق فتسابقت اليه الرجال من الشعاب والا ٍكام ، واشتب القتال بيننا وبينه . وكان اليوم مهيبا والموت رهيبا . ووهب الله المسلمين الثبات وصبروا صبر أولى العزم الكرام . وتلقو (كذا) قنابله وصواعقه بقلوب ملئها (كذا) الايمان بالملك العلام . وفى آخر النهار وهبوا نصرا باهراء واشتد القتال فلم يكن من العدو الا أن فعل فعلته فى اليوم السابق من الانكسار الشنيع . فحينئذ قوى الايمان فى صدور المسلمين وصاروا يطاردونه مطاردة الكرة بين الصبيان ، الى ان آسـدل الظلام رداءه ووصل العدو الى مقره فافترق الجمع على عشرة من القتلى ونيف سبقت لهم من الله العناية . وجرح رجل واحد مغراوي ، أما جهة الظلمة فتحقق لدينا يوم تاريخه موت القبطان كودير حاكم عسة باب المروج وسبعين عسكريا فرانسويا ، زيادة على قتلى المتنصرة من أولاد بكار ومكناسة. ونرى على الحضيض أربعين فرسا . وقد خلفنا باكام الموقعة عسسا . ورجعنا الى المحلة فى منتصف ليل يوم الجمعة . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

أما العدو فلم يبد حراكا يوم تاريخه من جهتنا ولكن ظل يكابد الأهوال مع قبيلة غياثة التي أنجدتنا من وادي بولجراف (؟) بين قصبة مسرة وتازة . ومن جهة أخرى على بني بويعلي الذين أنجدونا من ناحية سيدي أحمد زروق .

وفى هذه الساعة التي هي العاشرة من الليل ، يوم السبت وردت علينا الأنباء باستعداده للقتال معنا صبيحة الغد . ونحن مصممون على الركوب لملقاته ، والنصر من الله .

وعليه فلا بد أعلم الطبيب بذلك كله . وقل له اننا فى غاية العجب من عدم ارساله الدراهم لنا فى هذا الوقت الحرج . وطالما كتبنا لكم فى شأن ذلك وشرحنا لكم الحال على وجهه . وملخصه أن هذا الأمر أوله الدراهم وآخره الدراهم . ومع ذلك لم تعيرونا التفاتا . وقل له اياكم أن تتركونا غارقين فى هذا البحر الذي أركبتمونا اياه ، بل داوموا لنا مساعدتكم حتى نبلغ الى شاطىء النجاة بحول الله ، والمعتقد فيكم هو النظر لهذا الأمر بعين العناية والاهتمام . فالعجل العجل ! الغوث الغوث! فان فى تأخيركم ذلك الغرض مضرة كبرى ومفسدة عظمى . وما على الرسول الا البلاغ . ومن أنذر فقد أعذر ، والله يوفق الجميع لما فيه رضاه ، والسلام .

فى 4 صفر الخير عام 1334 هـ
عبد المالك بن الأمير عبد القادر

(النص أعلاه مكتوب بخط مغربي ، لكن بتوقيع الأمير عبد المالك ، وقد ذيله الأمير بكلمة مع توقيعه . وهذه الكلمة بخطه خلافا للنص أعلاه ، وهي هذه :)

أطلع ولدنا العزيز الأمير حسن على هذا الكتاب . واني أهديه وكافة الأهل سلامي واحترامي الأبوي ، وأرجو الله أن يكونوا جميعهم بخير وعافية ، ولا شك أنهم يطلبون لنا النصر من الله سبحانه فى كل وقت وعند كل صلاة . والرجاء فى الله جل جلاله أن نتلاقى ونحن واياهم على الحالة التي نتمناها ، والله يحفظكم جميعا .

وليداوم ولدنا على دروسه ، ولا يبقى يرسل لنا شيء (كذا) على يد السيد حميدة الوزاني ، بل اذا أراد أن يرسل شيئا يرسله بواسطة القائد البشير بن السناح (؟) أو من جهة بوغابسن . والسلام على الجميع .

عبد المالك

الوثيقة رقم 3 :

رسالة من ممثلي الدولتين الالمانية والعثمانية بمدريد الى الامير عبد المالك

« الحمد لله وحده

دامت سعادة الارضى ، الشريف البركة الاعز الأحضى ، المجاهد فى سبيل الله سيدي عبد المالك بن الامير عبد المالك (16) محي الديـن نصركم الله على عدوكم ، وسلام عليكم لا يعد ولا يحصى .

وبعد قد وصل لعلمنا أن فى المغرب صار الخبر أن خروج الضباط العثمانيون من خدمتهم فى المغرب قد سببه تبريد المعاهدة والصحبة بين الدولتين العثمانية والألمانية ، والآن نعلمكم أن كل ذلك هو أكاذب وان الدولتين المذكورتين يجتهدون الآن كما فعلوا فى الماضي جميع جهدهما لينصروا على أعداء الاسلام ، وكذلك أنهما شددوا معاهدتهما وصحبتهما بعاهد جديد قد فرزوا فيه ما يكون فى المستقبل ، يعني بعد كمـال الحرب .

أما سبب خروج الضباط العثمانيون من المغرب هو أمر نفسيا ولم هو شهادة أن خليفة المعظم يسمح فى اعانته لاستقلال المغرب ، ولنظهر لسادتكم أن المخزن العثماني لا زال على فكره فى استقلال المغرب . نعلمكم أن الوزير الحربي العثماني سعادة وحضرة انفر باشا يرسـل فى المواجهة الأولى ضباط عثمانيون جدود الذين بصحبـة الألمانيـون يعونون المسلمين ليحررهم من يد الفرنسيون دمرهم الله .

16 – يعني الامير عبد القادر ، والوثيقة مليئة بأخطاء لا تحتاج الى تنبيه .

والآن جميع الأخبار الذين يصدرون فى صورة سمح المخزن العثماني فى اعانته للمغربيون أوجب الدولة الالمانية أن يتملك المغرب الاقصى يكونون أخبار غير حقيقيين ، ولا يخفى على سيداتكم أن كل ذلك يصدر من أعداء المسلمين ليبردوا نفوس المغربيون الذين يجاهدون لاستقلال وطنهم ولشرف دينهم .

أما نحن فعندنا الأمر من مخزننا أن نتوقفوا جميع الوقوف من المغرب لأن المغربيون ينضربون أيضا (كلمة غير مقروءة) أعداءالاسلام وأعداء الألمانيون . فالمطلوب من سيداتكم أن تعلموا المسلمين بكل ذلك . جزكم الله بخيره . ودمتم فى هناء وسرور وعلى المحبة . والسلام .

مدريد فى 25 مايو عام 1916 .

سفير دولة الألمانية بمدريد — نائب دولة العثمانية بمدريد

(ختم الدولة الألمانية بالشمع الأحمر) — (ختم دولة الخلافة العلية بالشمع الأحمر)

الوثيقة رقم 4 :

بالشـــام

شعر من الامير عبد المالك الى اسرة الامير عبد القادر

عهدي بكم آل الأمير كواكبا نشرت أشعتها على الأكوان

علم وحكم والشجاعة والندى رفعت منازلكم على كيوان

ومناقب وشمائل ومكارم وهبت لكم من غابر الأزمان

والكل يرجوكم لدفع ملمة هدمت عماد الدين والأوطان

فصرفتم تلك المكارم كلها ... في غير ما نفع ولا احسان
ضحيتم أقماركم وشموسكم ... أسد الحروب وقاهري الاقران
في نفع من أضحى لكم في فعله ... أعدى عدو من بني الانسان
ونسيتم عبد المجيد وفضله ... وضمانه ذاك الأسير العاني
لولاه لم يطلق سراح سبيله ... وبقى لديهم في نوى وهوان
الفرقة هدمت شوامخ مجدكم ... هذا لعمري غاية الخسران

عن قبيلة غمارة .

لست من أهل هذا الشأن ولكنها نفثة مصدور . والسلام عليكم

14 ربيع ثاني 1338
عبد المالك

الوثيقة رقم 5 :

الى الامير عبد المالك من مجهول

انني مكلف أن أحيطكم علما بأن مطالبك مقبولة ما عدا تعديلا واحدا يبدو ضروريا يتعلق بنقطة خاصة ، وهي خطة سفرك .

ان الشخصية السامية التي تعرفونها والتي جاءت حديثا تلح على أنكم تمرون بفاس والرباط حتى يمكنكم تقديم تحياتكم الى المخزن بدون تأخير . ثم ان كل التسهيلات ستكون متوفرة لديكم لزيارة أسرتكم في تطوان .

وان الموظف الذي طلبتم حضوره كواسطة هو في الطريق . ويجب عليه أن يمر بالرباط لأخذ تعليمات من المخزن . وخلال أيام سيكون في

فاس . وبمجرد وصوله الى هنا سيحمل اليكم الرسالة الحقيقية والرسمية التي تطلبونها .

أبعث اليكم مبعوثنا العادي لكي يطلعكم على الحوادث . وسيخبركم بأن تنتظروا بعض الأيام الأخرى . وأتمنى أن يحل المشكل قريبا برضى الجميع .

16 سبتمبر ، 1920 (بدون امضاء ولا جهة ارسال)

الوثيقة رقم 6 :

من الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر محي الدين
الى الجنرال موريال مدير الشؤون الاهلية ومصالح الاستخبارات

الاربعـــاء 7 أكتوبـــر 1920

اتصلت بالرسالة الرسمية باللغتين العربية والفرنسية التي سلمها الي الضابط كانوت الذي يتولى بالنيابة ملحقة الحياينية فى غياب الضابط المسؤول ، وهي الرسالة التي تحتوي على توضيحات عن الشروط التي بمقتضاها ستقبل السلطات العليا الفرنسية فى المغرب ليس استسلامي ، وهي الكلمة التي أرفض قبولها بكل تقدير ، ولكن اذا شئتم من الناحية اللغوية ، التوقف النهائي للوضع الحالي الموجود بيننا .

ان قراءة هذه الرسالة الرسمية قد أقلقتني لأنني لم أكن أتوقع أبدا أن تصلني مثل هذه الشروط . فالمفاوضات العادية التي بادر بها الضابط دي تيسة جعلتني أتوقع مزيدا من اللطف ، كما جعلتني أعتقد فى مفاوضات ذات لهجة مجردة من كل دافع تحكمي ، زيادة على أن الفشل الذي يكاد يكون خياليا للجهود التي بذلها الضابط المسؤول فى الدائرة وخلفـه المؤقت الضابط كانوت قد سبب لي أسفا مريرا .

ان الشرط الذي بمقتضاه سأجبر على تحديد اقامتي فى مدينة تقع فى المنطقة الفرنسية ستحدد لي فيما بعد ، والذي بمقتضاه أيضا سوف لا يسمح لي بتغيير الاقامة بدون اذن خاص ، يمس بشدة من حريتي ، فأنا لا أرضى أن أعيش حياة أسير ولو معنويا .

وبالاضافة الى ذلك ، فان عزمي علىمغادرة التراب المغربي أمر لا رجوع فيـــه .

أما عن دخولي من نقطة ما فى المنطقة الفرنسية فانه أمر يستحيل تحقيقه ماديا ، كما أن حياتي ستكون مهددة بأخطار جسيمة . لذلك فانه من الحكمة والحذر تفاديه .

واما عن تلميحكم الى موضوع هذه الشروط التي هي فى نظركم سهلة المنال ، ما دمتم قد ذكرتم لي بأنها لا تمنح لي الا بدافع التسامح المتناهي ، فانني أعتقد كما يعتقدالجميع ، أن التسامح والاريحية هما بصفة استثنائية من شيم الجنس الفرنسي . وقد أثبتهما التاريخ مرارا .

لكن الذي مس كرامتي بشدة والذي أرفضه ترفعا واشمئزازا هو كلمة « تمرد » التي لعلكم قصدتم بها وصف الدور النبيل والفروسي الذي لعبته ببطولة خلال الخمس (سنوات) الماضية من أجل قضية عزيزة على نفس متحمسة ومصممة ومتلهفة للحرية والعظمة . واذا كان الحظ قد خانني بعقوق فانني لا آسف ولن آسف أبدا على ما فات . ولو كنتم مكاني حضرة الجنرال لن تتصرفوا بغير ما تصرفت . (؟)

لذلك أرجوكم ، حضرة الجنرال ، أن تسجلوا حالا الشروط التي سبق أن قدمت لكم والتي سأعددها لكم مضيفا اليها شرطا سيكون مقبولا بدون صعوبات جديدة ، وهو الحصول على رخصة من السيد المقيم العام

بمغادرة التراب المغربي والاقامة فى اسطانبول (رومة ؟) ، وهذه الشروط هــي :

1) العفو التام عني بغض الطرف عن الماضي

2) اعادة املاكي التي صودرت فى طنجة ، كما سبق لي أن ذكرت لكم •

3) سفري الى الرباط لابد أن يكون عن طريق تطوان ، أي لرؤية عائلتي هناك قبل القيام بزيارتكم •

أرجو منكم أن تحيلوا من جديد ما ذكرته لكم الى السيد الجنرال ليوتي لموافقته وأن تخبروني فى أقرب وقت ممكن بقراره الأخير بواسطة قائد دائرة الحياينية •

وتفضلوا ، حضرة الجنرال ، بقبول تقديري •

(بدون توقيع)

الوثيقة رقم 7 :

رسالة من القائم بالاعمال العثماني فى مدريد الى الامير عبد المالك

مدريد ، 10 ديسمبر 1920 •

(العــاقبــة للمتقــين)

عزيزي المحترم ، الأمير عبد المالك :

لقد غمرتني السعادة بتلقي الرسالة اللطيفة التي تفضل جنابكم بتوجيهها أي بتاريخ السابع الجاري • وقد تأثرت كثيرا بالعبارات الرقيقة التي عبرتم بها نحوي بمناسبة تسميتي قائما بالأعمال بمدريد ، وهي العبارات التي لست أهلا لها مطلقا (أنا ــ عبارة غير مقروءة ــ) • ولكن باعتباري ممثلا متواضعا لصاحب السيادة أمير المؤمنين فاني أضع نفسي فى خدمتكم اذا كنت فعلا أفيد جنابكم •

ان الفرحة التي غمرتني نتيجة تلقي رسالة أخ فى الدين قد دفعتني الى دراسة ملف مراسلاتكم مع سلفي . وقد اقتنعت عند قراءة رسائلكم ، بالعظمة والنبل والتجرد ، هذه الصفات التي جابهتم بها لهيب المعركة خلال سنوات (الجهاد) .

واسمحوا لي أن أهنئكم بدوري من أعماق قلبي على المواقف الشجاعة التي وقفتموها كقائد مسلم وجندي عظيم من جنود الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

واليوم أسجل بارتياح أن فرنسا واطاليا تسعيان الى ابطال « معاهدة سيفر » التي كانتا قد وافقتا عليها وستفعلان ذلك قريبا لصالحنا لأن مصالحهما قد تضررت فى الشرق نتيجة توسع اليونان . وانني واثق من أن الله سيرزقنا أياما طيبة نحن المسلمين (ولا تقنطوا من رحمة الله) .

أما الآن ، يا حضرة الأمير ، فانني فى خدمتكم . فمنذ حلولي بمدريد ، أي منذ أكثر من شهرين ، وأنا أتراسل مباشرة ، برعاية الله (الحفيظ) مع حكومتي ، والى الآن لم تواجهنا عقبات . وسوف لا أتردد فى ابلاغها كل ما يرغب فيه جنابكم مني .

واني اذ أقدم لكم مرة أخرى أقصى عبارات الاعتراف باخلاصكم النبيل الذي برهنتم عليه بخدمة الاسلام ، أغتنم الفرصة لأقبل الأيدي التي قادت الى اعلاء (كلمة الله) .

أخوكم المخلص المتواضع

خليل حقي

ميزات بارزة من حياة الامير عبد القادر

كل من يريد أن يتصدى لدراسة الأمير عبد القادر وفهم شخصيته عليه أن يأخذ فى اعتباره عدة عوامل ومواقف فى حياته ، هي فى الواقع مفاتيح لشخصيته فى أغنى مجالاتها . وهذه العوامل والمواقف هي :

(1)

البيئة : الطبيعية التي ولد فيها الأمير وتربى فيها بيئة غنية ومتنوعة أيضا . فمنطقة القيطنة ، حيث ولد ، الواقعة على وادي الحمام الجميل المحاط بالأشجار الباسقة والجبال الشاهقة الخضراء والأجواء الواسعة والسماء الصافية فى الصيف والخريف والثائرة الغاضبة فى الشتاء والربيع، يضاف الى ذلك قطعان الماشية المنتشرة هنا وهناك ، والشمس المحرقة فى الصيف والذليلة فى الشتاء ، كلها قد تركت طابعها على شخصيته وانعكست على تصرفاته .

وبالاضافة الى ذلك ، فان نسب الأمير وارتباطه بالتاريخ العربي الاسلامي ومكانة أسرته بين بني وطنه ــ قد جعلته فخورا معتزا بأصله وشرفه ، مادحا فى أشعاره ونثره لأمته العربية الاسلامية . وهذه النخوة هي التي دفعته فى الحقيقة الى حمل السلاح والدفاع عن الوطن والأرض والعرض . وكان فى كل أعماله ومواقفه يتمثل بأبطال العرب والاسلام ويستوحي سيرتهم ومثالهم .

(2)

وتتميز حياة الأمير بعدة خصال ، منها : لقد كان منذ شبابه ولوعا بالصيد وركوب الخيل وحب الطبيعة . وهي خصائل عربية صميمة . فكان يحذق ركوب الخيل ويتفنن فيه ، كما شهد بذلك جميع الذين ترجموا حياته . وكان يختار فرسه ويحبه كأعز شيء لديه . والى جانب ذلك كان ولوعا بالقراءة والتأمل ، لذلك اشتهر بجمع الكتب والحرص عليها ومكافأة من يحفظها ، وكان يحترم العلماء ويجلهم ، حتى أنه كان ينقد حياتهم اذا ثبت عليهم ما يوجب قتلهم . وكانت مكتبته من أغنى المكتبات كثرة وتنوعا . واشتهر كذلك بالولاء التام لوالده ، وهو الولاء الذي كان فى الحقيقة دينيا . فقد أطاعه عندما أمره بالتوجه معه الى الحج ، وعندما أمره بالجهاد ضد العدو وقبل المبايعه ، وعندما أمره بقبول مبايعة المسلمين له بدلا عنه ، ان هذا الولاء الكامل للأب هو ظاهرة دينية كما هو ظاهرة اجتماعية . ذلك أن ابن الأسرة الكريمة لا يعارض والده ، وهو تقليد عربي اسلامي فى نفس الوقت . ومن ميزات الأمير البارزة التدين والورع، الذي بلغ أحيانا حد الصوفية . وهذه لم تظهر فى أخريات أيامه فقط . بل كانت تشيع فى كل تصرفاته حتى عندما كان فى قمة مجده الدنيوي ، أي عندما كان على رأس دولة وطنية . فقد كان حرفيا فى تطبيقه لأوامر الدين ونواهيه ،وكان سنيا محافظا فى أفكاره وتصرفاته .

(3)

ويرتبط بحب الأمير للفروسية حبه للجهاد بمعناه الديني والسياسي ، ان المفهوم الديني للجهاد قد اتضح عند الأمير فى ربطه بين جهاده وجهاد الصحابة والخلفاء فى سبيل الدعوة الاسلامية . وان المرء الدارس الفاحص، لسلوك الأمير من هذه الزاوية ليشعر أن الأمير كان حقا (صحابيا) متأخرا أو كما يقال « بقية السلف الصالح . » أما الجهاد بالمفهوم السياسي

فقد اتضح عند الأمير فى صبره على المكاره ، وفى ثباته أمام العدو ، وفى مجالدة الفرنسيين حتى عندما لا يبقى الا هو فى الميدان أو عندما يكبو به جواده . كذلك ظهر هذا النوع من الجهاد فى جمع كلمة القبائل ، والذب عن المحارم ، وانقاذ العديد من الأهالي بعد أن وقعوا فى قبضة العدو .

ولاشك أن الوطنية قد تطورت بسرعة نتيجة تصرفات الأمير . وهذا موقف لابد أن يذكر له . فهو الذي أخرج الوطنية من ميدان النظرية التي نادى بها خوجة مثلا الى ميدان التطبيق ، فالوطنية فى مفهوم الأمير هي القوى المحاربة ضد العدو الأجنبي . وبفضله تد عم التفكير الوطني الجزائري كما تدعم الفكر القومي العربي . فقد بذل الأمير جهوده فى توحيد القبائل المتنافرة وكون منهم دولة حديثة ، ودعا زعماء البلاد المعاصرين له الى الوحدة الوطنية ، فكان هذا هو موقفه من الحاج أحمد باي قسنطينة ، وفرحات بن سعيد شيخ العرب الخ .

(4)

والى جانب ذلك عرف الأمير بالمهارة الدبلوماسية وبالذكاء وسعة الاطلاع على أحوال العصر ، وتثبت المعاهدتان اللتان وقعهما مع فرنسا حقا براعته وحنكته . فهو ، سواء فى معاهدة ديميشال (1834) أو معاهدة التافنة (1837) كان الرجل الذي يدافع عن مبادىء واضحة ويهدف الى أبعد من نظرته كما يقولون . كان هدفه بالدرجة الأولى اعتراف العدو به ممثلا للشعب الجزائري فى أحلك الظروف وكان هدفه الثاني منع الفرنسيين من الاستقرار فى الجزائر مهما كان الثمن ، وهو لذلك رفض كل الرفض الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر ، وهو الأمر الذي كان الفرنسيون حريصين عليه الى أقصى الحدود . وقد بلغ الأمير أوج قوته وسمعته السياسية بعد معاهدة التافنة التي اعترفت به فى الواقع السيد غير المنازع فى البلاد .

ولكن الأمير كان لا يتوانى عن الحرب اذا ما رآها الحل الوحيد . وهو لذلك فضل الحرب على الاهانة بعد 1839 عندما تحداه الفرنسيون ومشوا فى أرضه دون اذنه وبدأوا يتحايلون على خـــرق المعاهدة التي وقعوها معه عندما شعروا انهم قد أصبحوا فى مكان القوى . ولكن الأمير ، حتى فى حروبه ، كان يسير على مباديء واضحة ، فهو شهم صريح كريم عفيف . وقد انتصر على عدوه فى معارك كثيرة . واعترف له أعداؤه بأنه كان السبب فى ترقيتهم الى درجات عليا فى الجيش لأنهم كانوا يحاربون فارسا مغوارا وبطلا شجاعا ، ولولاه لظلوا دون مجـــد عسكري .

ولكن أعظم ما يميز الأمير كانسان وكوطني روحه التقدمية وحبـــه للنظام . فقد آمن ايمانا عميقا بضرورة تطوير وطنه ، وكان يعرف مدى الهوة التي كانت تفصله عن التقدم الحضاري الذي كان العدو يتمتع به . وللخروج من ذلك كون الأمير جيشا حديثا سلحه بأحدث الأسلحة ووضع على رأسه مدربين عصريين ، فى الغالب من الأجانب . كما أقام دعائم دولة حديثة عمادها سلم اداري تصاعدي مسؤول قاعدته الشيخ وقمته الخليفة الذي هو مسؤول مباشرة للأمير نفسه ، وساند ذلك النظام الاداري بنظام محكم يوفر التموين والتعليم والقضاء والمواصلات والتسليـــح والمخابرات الخ .

ولعل أهم من ذلك كله ما اشتهر به الأمير من اعجابه بالتقدم الانساني وأخذه بأسباب الحضارة الحديثة . ويمكننا أن نقول بسهولة انه كان مجددا متسامحا ، فقد استعان بالأجانب ، والمتعاونين كما نسميهم اليوم ، لتطوير البلاد فى النواحي التي شعر بأن امكانياته لا تمده بما يريد : كاستغلال المعادن ، وضرب السكة ، وصناعة الأسلحة ، والنسيج ،

وتدريب الجيش ، الخ . ورغم شدة تدينه فانه لم يكن متعصبا ، بل كان متسامحا مع من خالفه فى الدين . وقد اشتهر بالمعاملة الانسانية لأسرى الحرب الذين كانوا يقعون فى قبضته ، فكان يرفق بهم ويؤانسهم ، وكثير منهم فروا اليه بعد اطلاق سراحهم .

(6)

واذا كانت تلك هي مواقف الأمير الوطنية والدينية والعسكرية ، فان له مواقف أخرى لا تقل أهمية عن هذه عندما كان فى السجن أو عندما كان فى الشام ، ففي سجون فرنسا ثبت الأمير على مبدئه ولم يتزحزح عن ذلك رغم الحاحات فرنسا عليه لتغيير رأيه واعلان رضاه بالعيش فى فرنسا . ولكنه فى نفس الوقت لم يحقد على أحد ، بل ظل متساميا كريما سمحا نحو أعدائه السابقين ، وظل أيضا وفيا لمباديء دينه وتقاليد أسرته ووطنه ، فكان يقوم الليل ويعلم أبناءه على طريقة أبناء وطنه ويكثر من المطالعة . وكان أيضا مثالا لكل من رآه فى سجنه من رجال السياسة والعسكرية والدين والفكرة . فجميعهم كانوا يخرجون من عنده مبهورين بشخصيته معجبين بعلمه ، مقدرين لتسامحه وسماحته .

وعندما أطلق الفرنسيون سراحه حظي بما يحظى به الملوك والأمراء من التبجيل والتعظيم . فقد أعدت له الاستعراضات الضخمة والاحتفالات الرائعة والحفلات الموسيقية والدينية ، والعاب الفروسية ونحو ذلك مما أعد تقديرا لشخصه واعترافا بمواقفه التي كان دائما يقول عنها انها كانت فى خدمة دينه ووطنه . وكانسان وفي لم ينس هو هذه المعاملة الطيبة فظل يحفظ لأهلها أبقى الذكريات .

وفى الشام كان الأمير (الذي سبقته سمعته الى المشرق كمجاهد وبطل اسلامي وسجين فى أيدي أعدائه) محل احترام وتقدير من معاصريه . فالتف حوله أهل البلاد وأخذوا عنه كل فى ميدانه . فهذا يأخذ علما ، وهذا

يأخذ حكمة ونصيحة سياسية ، وهذا يأخذ صدقة ، وبذلك أصبح مركز اشعاع ونقطة لقاء للسياسيين والمفكرين والعلماء بالاضافة الى الفقراء والمعوزين . وهذه المكانة للأمير هي التي جعلته يقف ذلك الموقف الانساني الرائع من الخصومة التي نشبت بين الطوائف في الشام . فقد أدى تدخله الشخصي الى حقن الدماء وانقاذ الآف كان هلاكهم محققا .

وهذا التدخل منه قد جعله محل أنظار العالم وجلب له المدح والثناء من ملوك ورؤساء الدول آنذاك ، على اختلاف نزعاتهم ودرجاتهم فالعالم كله ، والعرب منه ، أصبح ينظر اليه على أنه لم يعد بطل الجزائر فقط ولا رافع لواء الجهاد في سبيل الله فقط ، بل رمز القومية العربية والتسامح الاسلامي .

هذه بعض المواقف الشخصية والوطنية والدينية والقومية والانسانية للأمير . وهي مواقف جديرة بأن تجعل منه رجلا غير عادي ، رجلا هو مفخرة لوطنه وقومه ، وهي أيضا المواقف التي يجب على كل دارس أو ممثل لشخصيته أن يعرفها ويعيشها لأنها هي أيضا غير عادية . (1)

الجزائر العاصمة 4 / 1 / 1972

1 ـ كان السيد مدير الاذاعة والتلفزيون الجزائرية قد طلب مني وضع خطوط عريضة لحياة الامير عبد القادر لكي يهتدي بها من يرغب في اخراج مسلسل عنه ، فأرسلت الى السيد المذكور هذا الملخص .

اول اتصال للامير عبد القادر بالبريطانيين والامريكيين 1835 – 1836

1 ـ مقدمة المترجم :

نشرت (مجلة الغرب الاسلامي والبحر الأبيض) (1) بحثا للأستاذ Raphaël Danziger بعنوان أول اتصال لعبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين (1835 – 1836) ونظرا لأهمية الوثائق رأينا ترجمة البحث ليتابع القارىء العربي تطورات الكتابة عن الأمير عبد القادر ولاسيما لدى غير الفرنسيين .

وكان الموضوع الذي اختاره السيد رافائيل دانزيقر لأطروحة الدكتوراه هو (عبد القادر والجزائريون : البناء الداخلي والمقاومة ضد الفرنسيين 1832 – 1839) وقد حصل على درجته العلمية من جامعة برنستون .

وأثناء اعداد البحث عثر السيد دانزيقر على مجموعة من الوثائق المتعلقة باتصالات الأمير عبد القادر المبكرة بالبريطانيين والأمريكيين ، والبحث الذي نقدمه للقراء قائم على هذه الوثائق . والواقع أن السيد دانزيقر ليس أول من اكتشف هذه الوثائق ، (2) ولكنه أول من

1 — R.O.M. : Revue de l'Occident musulman, n° 18, 1974, pp. 45-63.

2 ـ يشهد المؤلف نفسه على ذلك في هامش 3 من مقاله المترجم ، انظر ايضا عبد الجليل التميمي (بحوث ووثائق عن التاريخ المغربي 1816 – 1871) تونس 1971 ص 213 – 214 – 215 – 216 .

أفردها بالدراسة والتحليل والخروج منها بنتائج هامة سيلاحظها القارىء .

وقد مهد الكاتب لبحثه بخلاصة عامة عن تاريخ العلاقة بين الأمير والفرنسيين وتحدث عن معاهدة ديميشال وظروفها (26 فبراير 1834) وعن حلول تريزل محل ديميشال (7 فبراير 1835) حاكما عاما على أقليم وهران الى سنة 1836 . فأعطى نبذة عن حياة الأمير قبل مبايعته فى 22 نوفمبر 1832 ، وعن استئناف المعارك بين الأمير والفرنسيين (26 جوان 1835) ، وعن استدعاء تريزل من حكومته بعد أن هزمه الامير (12 يوليو من نفس العام) ، وعن تعيين كلوزيل حاكما عاما على الجزائر ليأخذ بالثأر بعد الهزيمة (10 يوليو 1835) وعن دخول كلوزيل والدوق دورليان مدينة معسكر (6 ديسمبر من نفس العام) واحتلالهما لتلمسان (13 يناير 1836) وعن استمرار المعارك بين الطرفين فى اقليمي وهران والتيطرى سنتي 1836 و 1837 ، وهي المعارك التي لم تنته الا فى 30 مايو 1837 بتوقيع معاهدة التافنة (الأمير — بوجو) والمعروف أن هذه المعاهدة ظلت تمنع الحرب بين الطرفين الى سنة 1839 ، تاريخ استئناف الحرب .

ونحن لم نترجم هذه الخلاصة لأنها ، كما لاحظنا ، عامة تذكر حقائق تكاد تكون معروفة للجميع . ولعل الكاتب ذكرها ليربط بين الأحداث المذكورة وبين الاتصالات الدبلوماسية التي درسها من خلال الوثائق . ومن جهة أخرى فان الكاتب قد فصل القول فى الأحداث المذكوره فى الخلاصة فى رسالته للدكتوراه (3) . ولذلك لم نر داعيا لترجمتها هنا ، واكتفينا بترجمة المقال ابتداء من معالجة موضوع الاتصالات التي وقعت بين الأمير والانكليز والأمريكان .

3 — ذكر الكاتب ، فى رسالة بعث بها الى المترجم (23 يوليو 1975) أن رسالته للدكتوراه ستنشر منقحة قريبا فى الولايات المتحدة .

ذلك أنه الى وقت قريب كان يعتقد أن صلات الأمير كانت مع الفرنسيين بالمعاهدتين المعروفتين (ديسيشال والتافنة) والمفاوضة على الاستسلام (لاموريسيير) أما علاقته مع الانكليز فالمعروف أنها بدأت بعد سنة 1840 وليس قبل هذا التاريخ . ولكن الأستاذ دانزيقر في هذه الدراسة كشف عن اتصالاته المبكرة مع الانكليز أيضا . كما كشف لأول مرة فيما نعلم عن اتصالاته المبكرة بالأمريكيين أيضا . ولأهمية هذا البحث . والوثائق التي احتوى عليها . رأينا نقله الى قراء العربية ليطلعوا على دبلوماسية الأمير في مراحلها الأولى . مضيفين هذه الصفحة الى ترجمتنا لكتاب العقيد شارل هنري تشرشل عن حياة الأمير . (4)

ونبه الى أننا ترجمنا النص والتعاليق أيضا لأهمية المصادر التي يشير اليها المؤلف ، كما صورنا من نفس البحث الوثائق العربية الثلاث التي اعتمدها الكاتب وترجمها الى الانكليزية مع التعليق عليها . ولم نر حاجة الى نقل ترجمة المؤلف الى العربية ما دام النص الأصلي موجودا . وقد استخدم الكاتب مصطلحا استخدمناه بدورنا . ولذلك نرى ضرورة التنبيه عليه هنا . وهو هكذا : ف . أ = F.O. (وزارة الخارجية البريطانية) . ر . ج = R.G. (المراسلات القنصلية بواشنطن — مجموعة السجل) .

أما السيد ابن قللة الذي ورد ذكره في النص كمبعوث خاص للأمير لدى قنصلي بريطانيا وأمريكا بطنجة فليس هناك أخبار واضحة عن شخصيته وصلته بالأمير . غير اننا أثناء البحث في مادة كتابنا (تاريخ

4 — انظر (حياة الامير عبد القادر) ترجمة أبو القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر . تونس 1974 .

الجزائر الثقافي) عثرنا على اسمه مكتوبا هكذا (ابن قللة ـ بالقاف المعقوفة) فى أرجوزة ابن حواء المستغانمي المسماة (سبيكة العقيان) • (5)

أ • سعد الله

* * *

2) نص المقـال :

أولا ـ اتصاله بالبريطانيين :

فى 11 يناير 1836 وصل محمد بن قللة مبعوث الأمير عبد القادر ، الى القنصلية البريطانية فى طنجة حاملا (6) رسالتين كتبهما الأمير عبد القادر فى سبتمبر أو فى أكتوبر 1835 • وكانت الرسالة الأولى موجهة الى القنصل البريطاني العام فى طنجة ، وهو السيد درومان هاي (7) • أما الرسالة الثانية فكانت موجهة الى ملك أنكلترا ، وليام الرابع (8) • فكانت هذه هي أول مرة يتصل فيها الأمير عبد القادر بدولة أوربية غير فرنسـا •

وأثناء الحديث الذي أجراه القنصل مع ابن قللة استطاع أن يتعرف على ظروف ومحتوى العرض الذي تقدم به عبد القادر • فبعد أن كان المبعوث

5 ـ مخطوطة (سبيكة العقيان) نسخة منقولة سنة 1911 ، الخزانة العامة ، الرباط ، ك 1233 •

6 ـ كل ما يتعلق بمهمة ابن قللة نحو القنصل البريطاني فى طنجة يوجد فى تقرير القنصل السري البالغ 50 صفحة الذي وجهه الى وزير المستعمرات السيد قلينليق ، 13 يناير 1836 (ف•ا• 40/52) •

7 ـ انظر صورة لاصل النص العربي وترجمته فى الملحق (1) • وقد كان السيد أدوارد ويليام أوديول درومون هاي وكيلا سياسيا وقنصلا عاما فى المغرب من 1829 الى وفاته سنة 1845 •

8 ـ انظر صورة لاصل النص العربي وترجمته فى الملحق (2)• أما ويليام الرابع (1765ـ1837) فقد كان ملك انكلترا من 1830 ـ 1837 •

قد جاء بالرسالتين المذكورتين فى سبتمبر أو فى أكتوبر سنة 1835 توقف فى طريقه ، حسب تقرير القنصل . ولعل ذلك الايقاف كان نتيجة أفكار جديدة طرأت على عبد القادر حول الحكمة من طلب مساندة بريطانية قبل التأكد من أن الفرنسيين كانوا فعلا سيجمعون أمرهم ويسخرون كل تحضيراتهم الطويلة فى حملة ضده . ومن المحتمل انه عندما تأكدت هذه الحملة لديه أمر ابن قللة أن ينتظر أخبار نتيجتها ، فتوجه المبعوث الى تطوان (وهي تقع على أقل من ثلاثين ميلا من طنجة) حيث اتصل برسالة من عبد القادر فى 21ديسمبر 1835 تحتوي على تعليمات جديدة منه . وبعد ذلك بقليل توجه ابن قللة الى القنصلية البريطانية لانجاز مهمته .

وهاتان الرسالتان نفسهما تحتويان على عناصر متعددة جديرة بالاهتمام، ففي رسالته الموجهة الى القنصل البريطاني أطلق عبد القادر على نفسه لقب « السلطان » وهي المرة الوحيدة التي فعل فيها ذلك فى أية رسالة رسمية رأيتها صدرت منه . وعلى أية حال فان هذه ليست هي المرة الأولى التي يستعمل فيها حاكم جزائري هذ االلقب العالي ، وهو اللقب الذي كانت الدول تعترف به لحاكم الدولة العثمانية وحاكم المغرب فقط . ففي رسالة بتاريخ 12 أغسطس 1802 من داي الجزائر الى نابليون أطلق الداي فيها على نفسه اسم مصطفى سلطان الجزائر (ناسيا أنه فى رسالة سابقة الى نابليون أيضا ، استعمل معه لقبه الرسمي الأكثر تواضعا وهو داي وحاكم الجزائر .. باسم .. السلطان — يعني سلطان الدولة العثمانية) . (9)

وهذه هي أول مرة أيضا أعرف فيها ان عبد القادر يقول بأنه حاكم « اقليم وهران والجزائر والجهات التابعة لهما حتى حدود تونس » فى الوقت الذي كانت سلطته ما زالت لم تمتد الى أبعد من اقليم التيطري الواقع فى الوسط . وبينما نجد عبد القادر يحاول بدون شك أن يقدم

9 — توجد نصوص هذه الرسائل فى (مراسلات دايات الجزائر مع بلاط فرنسا 1579 — 1833) تحرير يوجين بلانتيه — باريس ، ف. الكاف ؛ 1889 . جـ 2 ص 504 — 507 ، 489 — 491 .

نفسه الى البريطانيين على أنه حاكم كبير جديد بالتفاوض معه ، فان دعواه المبالغ فيها تمثل دليلا على أنه كان يحكم ثلثي البلاد .

وبعد أن عبر عبد القادر عن فشل (معاهدة ديميشال) نتيجة « خديعة » الفرنسيين وصل الى الغرض الأساسي من رسالتيه . ففي مقابل صداقة الانكليز عرض عليهم استعمال احدى المراسي الجزائرية لتجارتهم وتمويل هذه المراسي من مناطق نفوذه داخل البلاد . وقد قال ابن قللة فى حديثه مع القنصل البريطاني انه يملك كل الصلاحيات ليعلن أن عبد القادر « سيتخلى عن أي مرسى فى البلاد يقع تحت نفوذه (وقد يقع تحت نفوذه بعد ذلك) .. يستعمل خاصة للتجارة البريطانية اذا رأت حكومة صاحب الجلالة انه من المناسب الدخول معه فى معاهدة . فاذا كانت حكومته غير قادرة فى الوقت الراهن أو كانت لا ترغب الآن فى الدخول فى أية معاهدة فان عبد القادر يأمل أن يقبل الملك ، باسم الانسانية فقط ، استعمال وساطته الملكية بينه (الأمير) وبين ملك الفرنسيين . » وقد عبر المبعوث على أنه مكلف أيضا أن يعلن صراحة عن عدم رغبة عبد القادر « فى اراقة دماء أخرى هدرا » .

ان الغرض من توقيع معاهدة كان حركة مدروسة من جانب عبد القادر ، فرغم علاقة الانكليز الجيدة بصفة عامة مع فرنسا فانهم قد رفضوا الاعتراف بالاحتلال الفرنسي للجزائر . وكان من المتصور أنهم قد يهتمون بتدعيم أقوى خصوم فرنسا فى تلك البلاد . فعرض الامتيازات التجارية بالاضافة الى المزايا الاستراتيجية الواضحة كان خطوة اضافية فى تقديرات عبد القادر . وليس هناك حاجة الى القول بأنه لو حصل عبد القادر على معاهدة مع الانكليز لتعزز موقفه تعززا كبيرا .

أما طلب التوسط البريطاني بين عبد القادر والفرنسيين فى حالة عدم قبول معاهدة معه ، فانه من الواضح أنه قد أضيف اضافة الى تعليمات

عبد القادر لمبعوثه فى 21 ديسمبر 1835 . وهذه هي أول اشارة الى أن عبد القادر قد اتخذ الاجراءات ، بعد سقوط مدينة معسكر . لاعـادة العلاقات السلمية مع الفرنسيين . فالتوسط الأجنبي فى نظر عبد القادر له مزية أعظم مما لو أخذ هو زمام المبادرة المباشرة للتوصل الى السلام ، لأن هذا التوسط سيحميه من الحرج عندما يظهر أمام مواطنيه فى موقف الضعف بطلبه السلام من عدوه . وأخيرا فقد فهم عبد القادر ان حركته لن يكتب لها النجاح « الا اذا ظلت فى سرية مطلقة » وخاصة من أعين الفرنسيين . ولذلك دخل ابن قللة الى القنصلية البريطانية فى ثياب فلاح بسيط ، ومن ثمة فالقنصل الفرنسي فى طنجة لم يتوصل أبدا رغم يقظته المعتادة ، الى التعرف على مهمة ابن قللة . (10) .

أما الرد البريطاني على عرض عبد القادر فقد جاء على خطوات . فقد قال القنصل البريطاني فى حديثه مع ابن قللة ، فى 11 يناير 1836 انه (القنصل) لم يكن سوى قناة موصلة وانه لذلك لا يستطيع شخصيا أن يجيب عبد القادر وبدلا من الجواب أعطى القنصل الـى ابـن قللـة « وصلا » (11) الى عبد القادر اعترف له فيه باستلام الرسالتين ووعد بتوجيههما الى الملك . وامتنع القنصل من مخاطبة عبد القادر كسلطان . وقد شرح لوزير المستعمرات قلينليق فكرته فى تسليم الوصل . فهو من جهة لا يريد أن يهين عبد القادر ومن جهة أخرى يريد أن يتأكد من أن الفرنسيين لا يتهمونه بمراسلات ضدهم مع عبد القادر فى حالة وقوع المبعوث فى قبضتهم (12) . وقد أجاب عبد القادر على هذا الوصل برسالة

10 – لقد قرأت كل بريد القنصل الفرنسي العام فى طنجة الموجه الى وزير الخارجية فى باريس من 1830 الى 1839 (وثائق الشئون الخارجية – باريس ، المراسلات السياسية – قسم المغرب ، مجلدات 3 – 5) ولم أجد اية اشارة الى العلم بذلك .

11 – ضمن درومان هاي نسخة مصدقة وترجمة لهذا الوصل فى بريده السري الى قلينليق بتاريخ طنجة 13 يناير 1836 . (ف.ا. 40/52) .

12 – درومان هاي الى قلينليق ، 13 يناير 1836 (ف.ا. 40/52) .

مؤرخة فى 28 مارس 1836 (13) شكر فيها القنصل على توجيه رسالة الى الملك . كما طلب منه فيها أن ينقل اليه جواب الملك .

وفى رسالة بتاريخ 27 فبراير 1836 (14) أخبر قلينليق دورمان هاي بأن يجيب عبدالقادر بدلا من أن يوجه اليه هو جوابا رسميا من الحكومة وكانت تعليمات قلينليق بخصوص محتوى جواب دورمان هاي نتيجة ترجمة مزيفة جرت فى لندن لرسالة عبد القادر الموجهة الى الملك . ولأسباب لا نعرفها أخذت الحكومة البريطانية علما فقط بهذه الرسالة ، متجاهلة كلا من رسالة عبد القادر الموجهة الى دورمان هاي والمترجمة ترجمة صحيحة وبريد هاي نفسه الى لندن . وحسب تعليمات قلينليق فان على القنصل أن يخبر عبد القادر بأن « ظروف مملكة صاحب الجلالة لا تترك مجالا للملك أن يستجيب لطلب عبد القادر » وهو الطلب الذي فهم منه على أنه ذريعة عابثة لوقوع اجتماع بين عبد القادر وملك أنكلترا فى مرسى جزائري بدلا من عرض التجارة فى مثل هذا المرسى كما كان الحال فعلا ــ كما أعلمه قلينليق بأخبار عبد القادر « بأن الملك لا يعتقد أنه فى امكانه التوسط بينه وبين سلطان المغرب » ــ وهذا أيضا جواب مزيف تماما لنص رسالة عبد القادر ، وهو عمل قام به أحد المترجمين فى لندن .

وللمرء أن يفكر فى أنه لو ترجمت الرسالة ترجمة أمينة الى الملك لكان من المحتمل أن يرد البريطانيون ردا ايجابيا على نداء عبد القادر للتوسط بينه وبين الفرنسيين ولوضع حد لاراقة الدماء فى الجزائر . (ومن المحتمل أن يكونوا قد كسبوا بعض النفوذ هناك نتيجة الوساطة) ذلك أن هذا النداء كان معقولا وكان من المحتمل أن يتحرك الانكليز فى ذلك الاتجاه بدل أن تتعرض بالضرورة علاقاتهم مع الفرنسيين للخطر . ومن المؤكد أن سير التاريخ الجزائري سيكون مختلفا لو انعقد السلام بين عبد القادر

13 ــ ضمن دورمان هاي ، نسخة مصدقة وترجمة لرسالة الامير عبد القادر مع رسالته السرية الى بالميرستون ، المؤرخة ، طنجة 14 مايو 1836 (ف.أ. 40/52) .

14 ــ نسخة من هذه الرسالة ، عليها ملاحظة منفصلة توجد فى (ف.أ. 40/52) .

والفرنسيين في شهر مايو 1836 بدلا من مايو 1837 • وفوق ذلك كله فانه لو تحقق السلام لما كان هناك داع لارسال الجنرال بوجو الى الجزائر في سنة 1836 وانتصاره على عبد القادر في يوليو من نفس العام ، وهو الانتصار الذي لولاه لما أصبح بوجو حاكما عاما على الجزائر خلال الأربعينات •

ولما رأى درومان هاي تلك اللهجة الباردة التي استعملها قلينليق في جوابه . تأكد من عدم جدوى أية محاولة فى لندن لصالح القائد الجزائري • فكتب في 30 مارس 1836 رسالة قصيرة الى عبد القادر (15) أعلمه فيها أن حكومة صاحب الجلالة قد أمرته أن يخبره بأن الملك لا يستطيع أن يستجيب لطلبه ، كما أنه لا يستطيع أن يستعمل مساعيه للوساطة • وأرسل هاي رسالة مع ابن قللة الذي كان ينتظر الجواب البريطاني (16)• وعندما حضر لديه في 22 أبريل سنة 1836 مبعوث جديد يحمل جواب عبد القادر على وصل الرسالتين السابقتين أرسل معه هاي نسخة أخرى من نفس رسالته المؤرخة في 30 مارس (17) • ومنذئذ لم يسمع القنصل البريطاني في المغرب أي شيء آخر من عبد القادر الى سنة 1840 • (18)

وتجدر الملاحظة الى أن الخوف من تعريض العلاقات الانكليزية الفرنسية للخطر هو الذي جعل درومان هاي مهتما بالمحافظة على سرية اتصالاته مع عبد القادر ، كما كان عبد القادر نفسه • ففي رسالته الى قلينليق المؤرخة في 11 يناير 1836 أوضح هاي أن رسالة عبد القادر اليه

15 – ضمن دروماند هاي نسخة مصدقة وترجمة لهذه الرسالة في بريده الى قلينليق ، بتاريخ ، طنجة 31 مارس 1836 ، وملاحظا عليها « منفصلة » (ف.أ. 40/52) •

16 – دروماند هاي الى قلينليق 31 مارس 1836 (ف.أ. 40/52) •

17 – توجد نسخة في (ف.أ. 40/52)

18 – لمعرفة بريد عبد القادر الى دروماند هاي سنة 1840 و1841 ، انظر التميمي (بحوث ووثائق..) ص 173 – 202 • (وهذا الفصل يتناول بريد عبد القادر الى الباب العالي أكثر منه الى البريطانيين) •

ترجمها ابنه ، جون دروماي هاي ، (19) الذي كان يشغل وظيفة نائب فنصل ، تفاديا لاستعمال طالب مغربي قد يذيع السر . وفى 31 مارس 1836 عبر هاي عن سعادته فى أن أحدا خارج عائلته لم يعرف أي شيء عن اتصالاته مع عبد القادر .

ثانيا ـ اتصاله مع الأمريكيين :

استطاع دروماني هاي أن يكتشف أن نفس المبعوث الذي جاءه يوم 22 أبريل 1836 برد عبد القادر على الوصل قد سلم رسالة أخرى مكتوبة فى حوالي مارس 1836 (20) من عبد القادر أيضا الى القنصل الأمريكي فى طنجة ، جيمس ر . ليب (21) . وكان هذا القنصل عندئذ فى جبل طارق لذلك وجهت اليه رسالة عبد القادر الى هناك من طرف نائب القنصل . وقد انتظر المبعوث الجواب حتى أول مايو . ثم رجع بدون جواب لأن المعتمد السري لعبد القادر فى طنجة قد أمر المبعوث بالعودة فورا الى تلمسان . ولم يكن القنصل الامريكي يعرف أي شيء عن مراسلة عبد القادر مع البريطانيين كما أنه لم يكن يعلم أن دروماي هاي كان يعرف عن مراسلته هو . فمبعوث عبد القادر لم يخبر أبدا هاي عن الرسالة التي حملها الى القنصل الامريكي . وهي الرسالة التي عرف عنها القنصل الانكليزي بطريق الصدفة (22) . ومن جهة أخرى فان القنصل ليب قد اتخذ خطوات لحماية سرية الاتصال بينه وبين عبد القادر (23) .

19 ـ كان السيرجون دروماي هاي (1816 ـ 1893) على التوالي منصلا عاما ، وقائما بالاعمال ووزيرا بطنجة من 1845 الى 1886 . وقد لعب دورا هاما جدا فى تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر . (انظر ، ل.أ.ى. بروكس ، ناشر مذكرات السيرجون دروماي هاي ، لندن ، ج. موري 1896) .

20 ـ انظر نسخة من الاصل العربي وترجمة له فى الملحق رقم «3» .

21 ـ كان جيمس ر. ليب قنصل أمريكا العام فى طنجة من 1832 الى 1838 . وللاطلاع على فترة تولية القنصلية انظر هول (الولايات المتحدة والمغرب ، ص 110 ـ 114) .

22 ـ كل القضية مثبتة فى بريد دروماي ماي السريّ الى بالميرستون طنجة ، 14 مايو 1836 (ف . ا 52 ـ 40) .

23 ـ ليب الى وزير الخارجية فورسيث ، جبل طارق ، 30 ابريل 1836 (ر.ج 78/59) طنجة ، مجلد 5

وقد قدم عبد القادر فى رسالته الى القنصل الامريكي عرضا مشابها لذلك الذي كان قد تقدم به الى البريطانيين ، ولكن مع اختلاف واحد جذري . ففي مقابل المعاهدة عرض عبد القادر على الامريكيين « أن يمتلكوا » مرسى جزائريا (بالاضافة الى تموينه من داخل البلاد) — بينما لم يعرض على البريطانيين سوى التجارة فى أحد المراسي . ويبدو أن هذا الاختلاف له أكثر من دلالة ، ذلك انه من المحتمل أن يكون عبد القادر ، رغم تطلعه الى الدخول فى معاهدة مع بريطانيا العظمى ، يخشى من أن تمركزا بريطانيا دائما على الساحل الجزائري قد ينشأ عنه وجود يزداد توسعا على مر الأيام بنفس الطريقة التي توسعت بها فرنسا نفسها . ولا شك انه كان يعتقد من جهة أخرى أن الولايات المتحدة الواقعة على مسافة بعيدة هي بلاد لا تشكل خطرا . وفى نفس الوقت فلابد أن عبد القادر قد قدر أن معاهدة مع الولايـــات المتحدة ، رغم أنها لن تكون هامة مثل معاهدة مع البريطانيين ، ستدعم مع ذلك موقفه أمام الفرنسيين .

ان العرض الذي تقدم به عبد القادر الى الأمريكيين له أهمية أخرى ، وهي أهمية ليست بالتحديد مرتبطة بعلاقات عبد القادر مع الولايات المتحدة . وهنا يكمن الدليل على أن عبد القادر كان مستعدا أن يتخلى عن مرسى جزائري لتملكه دولة مسيحية رغم مبادئه الاسلامية . ان هذا يشكل دليلا قويا على أن عبد القادر كان سيتسامح مع وجود فرنسي دائم فى شكل مستوطنات تشبه الحاميات على طول الساحل الجزائري طالما كانت غير هجومية (مثل ما كانت المغرب متسامحة مع المستوطنات الاسبانية على سواحلها منذ قرون) . ذلك أن كفاحه كان ضد التوسع الفرنسي داخل البلاد وليس ضد الوجود الفرنسي على السواحل .

وقد كشف عبد القادر فى رسالته الى القنصل الامريكي عن اطلاع جيد علىأحوال العالم.ففي حديثه الى القنصل عن السببالذي دفعه لأن يتقدم بعرضه الى الولايات المتحدة أشار عبد القادر الى « معاهدة » والى

« خديعة » الفرنسيين . ان هذه القضية كانت حقا أبعد ما تكون عن نطاق شمال افريقيا وحتى عن البحر الابيض المتوسط . ففي 4 يوليو سنة 1831 وقعت معاهدة (24) وافقت بمقتضاها فرنسا على أن تدفع الى الولايات المتحدة 25 مليون فرنك على ست حصص مقابل نهب السفن الامريكية أثناء الحرب النابليونية . وهذه المعاهدة صادقت عليها فرنسا فى أغسطس سنة 1831 . وكان أول مشروع حصة قدم خلال فبراير سنة 1833 لم يقع الوفاء به ، وفى أبريل 1834 رفض البرلمان الفرنسي التطبيق المالي لمعاهدة 1831 (ومن ثمة كانت « الخديعة » الفرنسية) . وفى بيانه السنوي خلال ديسمبر 1834 أوصى الرئيس جاكسون بالانتقام من الفرنسيين اذا لم يخطوا أي خطوة للدفع . وقد استدعى سفيرا البلدين ، ودار الحديث عن الحرب من الطرفين . وفى أبريل 1835 وافق البرلمان الفرنسي على التخصصات المالية بشرط أن يعتذر جاكسون عن بعض التعابير التي وردت فى بيانه . غير أنه رفض الاعتذار فى بيانه السنوي فى ديسمبر 1835 . وقد وصلت الأزمة قمتها فى بداية سنة1836 ، عندما قطعت العلاقات الدبلوماسية تماما بين البلدين .

ومن سوء حظ عبد القادر أن المسألة قد انتهت وديا فى نفس الوقت الذي كان فيه يكتب رسالته الى الأمريكيين . فبفضل التوسط البريطاني وقع التوصل الى حل . وفى 9 مارس سنة 1836 صدرت الأوامر بدفع أربع حصص من التعويضات الى الولايات المتحدة . وبعد هذا الحل لم يعد لرسالة عبد القادر ، فى نظر الأمريكيين « قيمة أكثر من مجرد كونها شيئا يثير الفضول » . (25)

---

24 — النص فى (المعاهدات والقوانين الدولية للولايات المتحدة الامريكية) ، واشنطون ، مطبعة حكومة الولايات المتحدة ، 1933 ، ، مجلد 3 ، 641 — 651 .

25 — ليب الى فورسيث ، جبل طارق ، 30 ابريل 1836 (ر.ج 78/59 ، طنجة مجلد 5).

ولو أن الأزمة استمرت لكان عرض عبد القادر له أهمية أكبر بالنسبة للأمريكيين . وقد قال القنصل الأمريكي بأن رسالة عبد القادر قد أظهرت « انه لو كان سوء تفاهمنا مع فرنسا قد انتهى الى نزاع لوجدنا أصدقاء لنا فى الجزائر . »

وما دام الأمر لم يكن كذلك فان رد القنصل سيكون بالضرورة سلبيا . وكان القنصل يعتزم أن يرد بأنه ما دامت المسألة مع فرنسا قد انتهت بطريقة ودية فان الأمريكيين لا يميلون الى اغتنام فرصة العرض الذي تقدم به عبد القادر أو يشجعون على نزاع ضد فرنسا . (26) وقد أشرنا من قبل الى أن مبعوث عبد القادر قد غادر طنجة قبل وصول الرد الأمريكي اليه .

الخاتمة :

فما حظوظ نجاح عبد القادر فى طلبه تأييد البريطانيين أو الامريكيين فى نضاله ضد الفرنسيين ؟ انها تبدو للوهلة الاولى حظوظ ضعيفة . ذلك أن مشكله الرئيسي هو انه لم يكن معروفا معرفة واسعة فى سنتي 1835 و 1836 خارج الجزائر وفرنسا . ولم يكن معتبرا من أي جهة من الجهات، ما عدا الفرنسيين ، قوة يقرأ لها حساب . وكما لاحظ درومان هاي الى مبعوث عبد القادر « فان صاحب الجلالة لم يعلمني بوجود عبد القادر ». وأكثر من ذلك ، « فان عبد القادر لم يكن صاحب سيادة معترفا بها على أية منطقة » . (27) ومن الطبيعي أن تكون واشنطن أقل معرفة بعبد القادر من لندن . ذلك أن سيطرة الفرنسيين على المدن الساحلية الرئيسية للجزائر قد منعت فعلا عبد القادر من الظهور على الخريطة الدبلوماسية لأوروبا على عكس محمد علي الذي كان قادرا على ذلك ،

26 — نفس المصدر .
27 — درومان هاي الى قلينليق ، بريد سري . طنجة ، 13 يناير 1836 (ف.أ. 40/52) .

بل على عكس حكام فى درجة أقل مثل سلطان المغرب وباي تونس وداي ايالة الجزائر السابقة . ففي الثلاثينات من القرن الماضي لا يمكن لدولة كبيرة أن تعتبر زعيم قبيلة مجهولا (عبد القادر لم يصبح مشهورا حقا الا فى الاربعينات) طرفا جديرا بالدخول معه فى معاهدة .

وبالاضافة الى ذلك هناك سذاجة واضحة فى ادعاء عبد القادر انه يستطيع أن يكسب التأييد البريطاني أو الامريكي باثـــارة موضـــوع خديعـــة الفرنسيين . فليس ذلك هو الوجه الذي كانت الدول تمارس به أعمالها الدبلوماسية . كما أن طلبه أن يرسل له الامريكيون « تقريرا وافيا عن علاقتهم مع فرنسا » لا ينسجم مع ممارسات الدبلوماسية الغربية . ومن الواضح أن عبد القادر ، بينما كان ماهرا فى تصرفه مع القبائل الجزائرية وأيضا مع الجنرالات الفرنسيين فى الجزائر ، كان أقل مهارة فى الطرق الدبلوماسية الغربية من حكام الجزائر الأتراك الذين سبقوه (28) .

وبينما عروض عبد القادر الى البريطانيين والامريكيين غير هامة اذن فى اللعبة الدبلوماسية لأروبا فانها مفيدة فى دراسة عبد القادر نفسه . فهي تظهره زعيما عمليا (براغماتيا) لم يقصر نضاله حتى خلال السنوات الأولى من حكمه ضد الهيمنة الفرنسية على ميدان المعركة ولا عـــلى الشؤون السياسية فى الجزائر وفى جيرانها ، ولكنه تمطى الى عالم أبعد من ذلك . وقد لاحظنا من قبل أن محاولته السياسية أخذت هنا بوضوح الاولوية على مبادئه الدينية .

واذا تجاوزنا أهميتها بالنســـبة للتاريخ الجـــزائري ، فان عروض عبد القادر تعتبر مثالا مبكرا لزعيم مقاومة أهلي كان يحاول أن يستعمل التنافس بين الدول الكبرى كسلاح ضد دولة كانت تمد سلطانها على

28 ـ للاطلاع على المراسلات الدبلوماسية بين دايات الجزائر والبلاط الفرنسي ، انظر بلانتيه (مراسلات دايات الجزائر) .

بلاده . ان هذا التكتيك طالما استعملته الحركات القومية فيما بعد خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ثم اتقنته الحكومات المستقلة التي جاءت بعدها ؛ ولعله لا يخلو من الأهمية أن نلاحظ أن هذا التكتيك قد سبق استعماله منذ مائة وأربعين سنة خلت .

الجزائر ، صيف 1975

الملحق الاول :

رسالة من الامير عبد القادر الى قنصل بريطانيا فى طنجة

الحمد للــه وحده   صلى اللــه على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين سلطان النواحي الجزائرية الوهرانية والتلمسانية الى طاعة أفريقية ، مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي الدين نصره الله آمين ، الى قنصو الانكليز القاطن بتيطوان ، السلام على من اتبع الحق ورحمة الله . وبعد .

فلا يخفى عليك انا كنا تعاقدنا معجنس الفرنصيص عقدا وثيقا وتعاهدنا فى الصلح والمهادنة على شروط منا ومنهم ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه من تسواقهم . وبقينا على تمام الكلمة نحوا من سنة . ثم ابتدوا التخليط والتلبيس والخدعة ، فخادعونا مرارا بنقض الميثاق ولم تختلف كلمتنامعهم فى شيء الى أن أدى بهم عماهم وطغيانهم لجمع جيوشهم وفق حروبهم وخرجوا لبرنا غير مظهرين الشر ووكيلنا عندهم وقونصهم عندنا وجيوشنا متفرقة . فحيث شرع فى نهب الحب وعلمنا منه قصد الشر خرجنا للقائه بما حضر من جنودنا ، ولقيناه فنصرنا الله عليه وصار به ما بلغك من الخذلان والذل والقتل لما أتي به من الغدر والمخادعة .

ولان (كذا) سمعنا أن جنسكم من بيوت الملوك وأن كلمة ريكم وافية وانه لا غدر فيه ولا خداع بعد العقد والميثاق . فبعثنا لك مكتوبا ترسله له صحبة مكتوبك . ولما يأتيك الجواب تبعثه لنا . ومضمن ما فى المكتوب

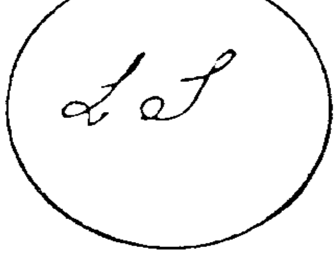
أنكم اذا أردتم المزية الظاهرة التي تفوزون بها على كل الجنوس وتمتازون عن غيركم تلافوننا فى أي مرسى تريدونها من مراسي الجزائر الى طاعة مولانا أمير المؤمنين عبد الرحمن نصره الله ، ونلتزم لكم من جانب البر أفضل ما التزمناه قبل للفرنصيص ، وننزلكم فى منزلة أعلى من منزلهم لكونهم خادعين وأنتم لم تبلغنا عنكم خدعة . ولا شك أنكم لو أردتم منا هذا يحصل من الالفة والمودة بيننا وبينكم ما يسركم ويقويكم ويرفعكم على سائر الاجناس .

وها هو صاحبنا رجل كيس فاضل ذو سياسة وعقل يصلك بالمكتوبين فاستوص به وجد له فى قضاء ما يريده من مصالحنا وتكون لك حرمة كبيرة بسبب معرفتك معنا . وتعزم بالبحث على رد الجواب من عندك ومن عند الري .

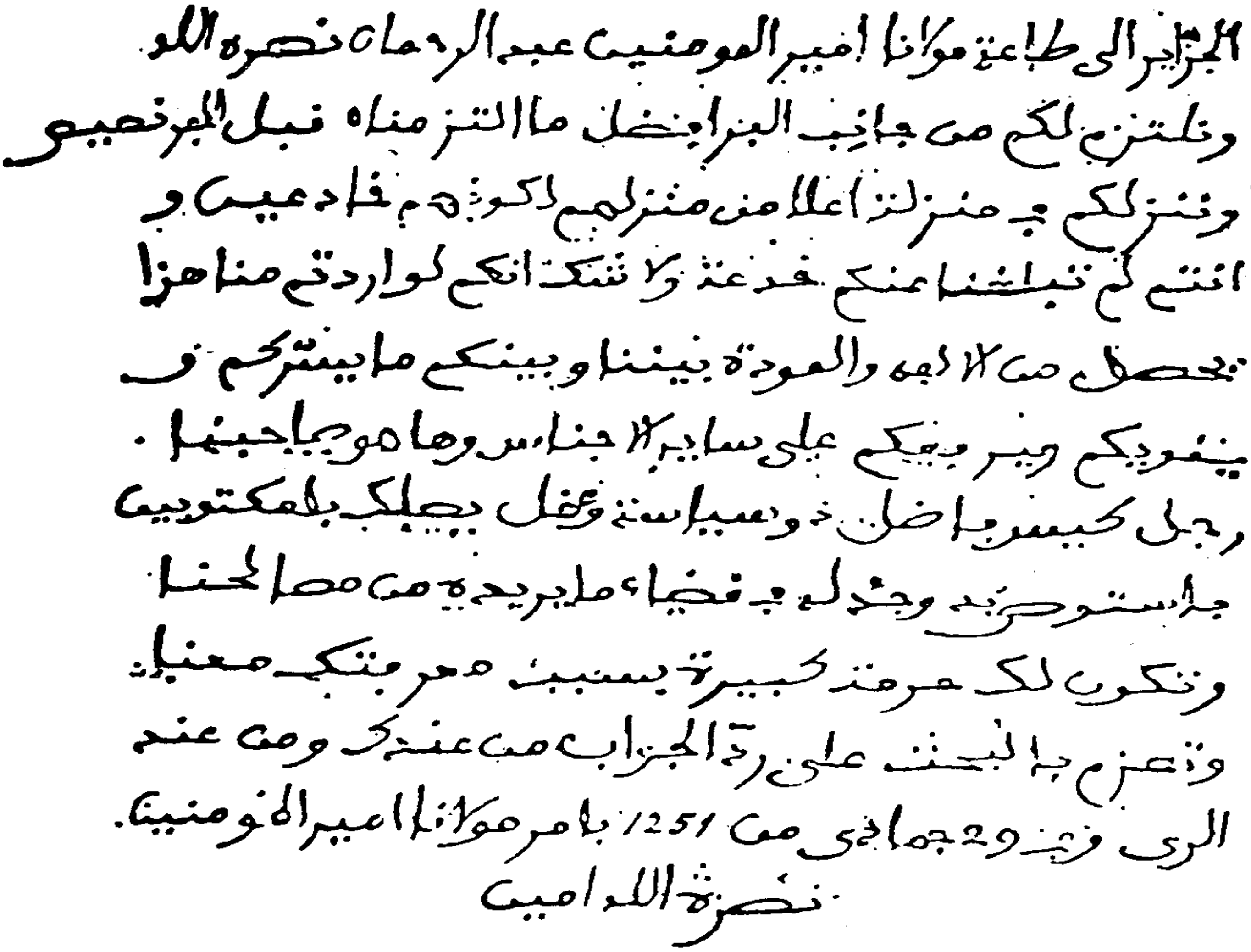
فى 29 جمادى من 1251 بأمر مولانا أمير المؤمنين نصره الله آمين .

Abd al-Qadir to Drummond Hay,
received 11 January 1836 (F.O. 52/40)

الحمد لله وحده   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله



من امير المومنين سلطان النواحي الجزايرية والوهرانية والتلمسانية ،
الى طا عنزا افريقية :. مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي
الدين نصره الله امين الى قونصو الانجليز القاطن بتيطوان السلام
على من اتبع الهدى ورحمة الله وبعد فلا يخفى عليك انا كنا نعاهدنا
مع جنس الفرنصيص عهدا وثيقا وتعاهدنا معهم على الصلح والمهادنة على
شروط منا ومنهم ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه من شروطهم و
بقينا على تمام الكلمة نحو امن سنة ثم ابتدوا التخليط والتلبيس و
الخديعة فسامحناهم مرارا بنقض الميثاق ولم تختلف كلمتنا معهم في
شيء الى ان ادى بهم عماهم وطغيانهم لجمع جيوشهم ووقعت
حروبهم وخرجوا للبر غير مظهرين الشر وقبلنا جنودهم وفرنصيصهم
عنودنا وبيوتنا مفترقة بحيث شرع في ذهب الخبث وعلمنا منه
قصد الشر خرجنا الى لقائهم بما حضر من جنودنا لا غيرها فنصرنا الله
عليهم وجرى بهم ما بلغك من الخذلان والذل والقتل لما اتى به
من الغدر والمخادعة والان سمعنا ان جنسكم من بيوت الملوك
وان كلمة دينكم واحدة وانه لا غدر عندهم ولا خداع بعد العقد والميثاق
فبعثنا لك مكتوبا ترسله لحضرة مكتوبك ولما ياتيك
الجواب تبعثه لنا وتضمن ما في المكتوب انكم اذا اردتم
المزية الظاهرة التي تجوزون بها على كل الجنوس وتمتازون
عن غيركم فلاتفتك اي مرسى تريد وتعطا من مراسي


الجزاير الى طاعة مولانا امير المومنين عبد الرحمان نصره الله.
ونلتزم لكم من جانب البر افضل ما التزمناه قبل الفرنصيص
وننزلكم في منزلة اعلا من منزلتهم لكونهم فادعين و
انتم لم نبلغنا منكم خدعة ولا نشك انكم لو اردتم منا هذا
نحصل من الاجابة والمودة بيننا وبينكم ما ينشرحكم و
ينفعكم ويبر يدكم على ساير الاجناس وها هو حاجبنا .
رجل لبيب فاضل ذو سياسة وعقل يصلك بالمكتوبين
فاستوضح منه وخذ له في قضاء ما يريده من مصالحنا
ونكون لك حرمة كبيرة بسبب هو حرمتك معنا
وتعزم بالبحث على رد الجواب من عندك ومن عند
الري وفي ٢٩ جمادى من 1251 بامر مولانا امير المومنين.
نصره الله امين

صورة من رسالة الامير عبد القادر الى القنصل الانكليزي بطنجة ، دروماند هاي

(ملحق 1)

الملحق الثاني :

رسالة من الامير عبد القادر الى ملك انكلترا

الحمد للــه وحده   صلى اللــه على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين بالنواحي الوهرانية والجزائرية وما والاها الى طاعة تونس مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي الدين نصره الله آمين الى عظيم الجيوش الانجليــزية ريهم الاكبر ورئيس ملوكهم الافخر ، السلام على من اتبع رضى الحق (أو الحي ؟) وبعد :

فانا كنا تعاقدنا مع كبير الفرنصيص على الصلح والمهادنة وتعاهدنا بمواثيق عــلى شروط اشترطناها وقبلوها وأمور اشترطوها فقبلناهــا وحصلت (كذا) أمن الطرق والاسواق بيننا وبينهم حتى صار الواحد منهم يمشي فى طاعتنا باليل (كذا) والنهار ولا يخشى بأسا ، وتآلفنا فى قضاء المصالح منا ومنهم . وبقينا على ذلك مدة من عام . ثم شرعوا فى الخداع والغدر ونقض العهد مرة بعد مرة ، ونحن واقفون عند الكلمة ما قدرنا نجتازها ونخلف عقودنا ، الى أن جمعوا جيوشهم وقوة حربهم وقونصهم عندنا ووكيلنا عندهم وجيوشنا متفرقة فقطع من بلادنا ثلاثة مراحل ولاقيناه بما حضر من الجيش فنصرنا الله عليه . وكان من أمره ما بلغكم.

واليوم تحققنا من أخبار الذين خالطوكم انكم أهل ميثاق وكلمة وافية وانكم من بيوت الملوك فان أردتم المصلحة العامة وتكون لكم المودة زيادة على الفرنصيص تتفق على التسوبق فى أي مرسى أردتم من مراسي

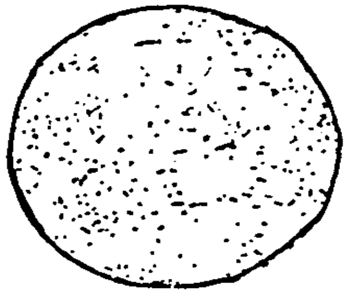
الجزائر الى طاعة مولانا أمير المؤمنين عبد الرحمن عزه (كذا) الله ، وانا ملتزمون لك من جانب البر بما تريدونه لأنا لم نسمع عنكم خدعة ، ونرجو (كذا) أن تكون لك مزية فينا ورفعة على سائر الجنوس . وترد الجواب لقونصك وهو يبعثه لنا .

وفى جمادى الاولى من 1251 (كلمات غير مقروءة) نصره الله آمين .

received in Tangier 11 January 1836 (F.O. 52/40)

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

[illegible]



من أمير المؤمنين بالمواطن الغربية والجزائرية وما لازمها الى الطاعة

نصره الله مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي الدين

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

صورة من رسالة الامير عبد القادر الى ملك انكلترا ويليام الرابع

(ملحق 2)

(ملحق 3)

رسالة من الامير عبد القادر الى قنصل أمريكا بطنجة

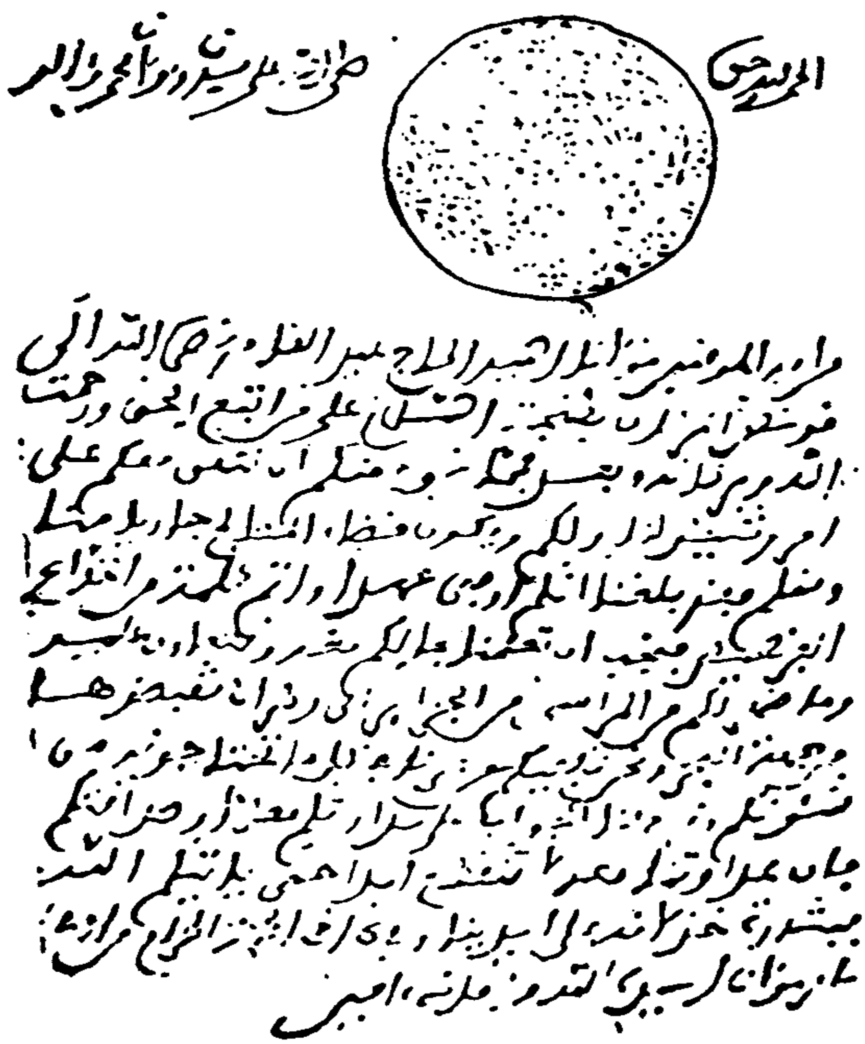
الحمد للـــه وحده صلى اللـــه على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين مولانا السيد الحاج عبد القادر نصره الله الى قنصو المركان بطنجة السلام على اتبع الحق ورحمة الله وبركاته ، وبعد .

فمما نود منكم أن تتفق معكم على أمر رشيد لنا ولكم ، ويكون قضاء المصالح جاريا منا ومنكم . فقد بلغنا انكم أوفى عهدا وأتم كلمة من الخداع الفرنصيص . فنحب أن تعلمنا بحالكم معه ونتعاون عليه . وما ظهر لكم من المراسي من الجزائر الى وهران تقبضوها (كذا) من جهة البحر ونحن نكفيكم من برنا ف كل ما تحتاجونه من شؤونكم . وترد لنا الجواب على عداوتكم معنا أو صداقتكم . فان عداوتنا معه لا تنقطع أبدا حتى يأتيكم الله ببشارة خذلانه على أيدينا .

وف 16 من المحرم الحرام من 1251 بأمر مولانا أيده الله وأعانه آمين .

Abd al-Qadir to James R. Leib,
received 30 April 1836 (R.G. 59/78, Tangier, vol. 5).



الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

صورة من رسالة الامير عبد القادر الى القنصل الامريكي بطنجة ، جيمس ليب

(ملحق 3)

الجزائر فى القرن الحادي عشر (17 م)
حسب مخطوط (كعبة الطائفين)

تكشف الأبحاث من آن لآخر عن مخطوط يضيف الى معلوماتنا عن الجزائر خلال العهد العثماني . وقد قادني البحث فى مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافى) الى العثور على مخطوط ضخم بعنوان (كعبة الطائفين، وبهجة العاكفين ، فى الكلام على قصيدة حزب العارفين) فرأيت أن أقدمه الى القراء . والمخطوط موضوع فى قسم التصوف كما يدل عنوانه ولكن قراءتنا له جعلتنا نتأكد من انه يحتوي على أمور كثيرة أخرى غير التصوف ففيه أخبار سياسية واجتماعية وجغرافية وعلمية عن الجزائر ، ولا سيما غربها ، فى القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري . ومؤلفه ذكي مثقف له عين فاحصة وقلم نابه ، فسجل لنا أمورا عن عصره ما أحوجنا الى معرفتها الآن .

ومنطلق الكتاب قصيدة ملحونة ، ولكن الذي يهمنا هو شرح القصيدة ، وهو شرح مكتوب بلغة سليمة وعبارة أنيقة وطريقة غريبة . أما الناظم فهو ، كما جاء فى المخطوط ، الشيخ موسى بن علي بن موسى الملالتي وهو حسني النسب وتلمساني الدار والمنشأ . وكان من شيوخ العلم والورع . وقد وصفه الشارح ، وهو تلميذ له ، بأوصاف تدل على الصلاح بقوله « الشيخ العارف بالله وبرسوله شيخنا وبركتنا وسندنا الخ » (المقدمة) وكان التلميذ يلازم شيخه منذ صباه . فقد روى انه كان يستدعيه ليبيت عنده فى حرم أبي مدين أو فى سيدي

والدرج [illegible]

[illegible] الرحيم [illegible]

[illegible] بعد [illegible]

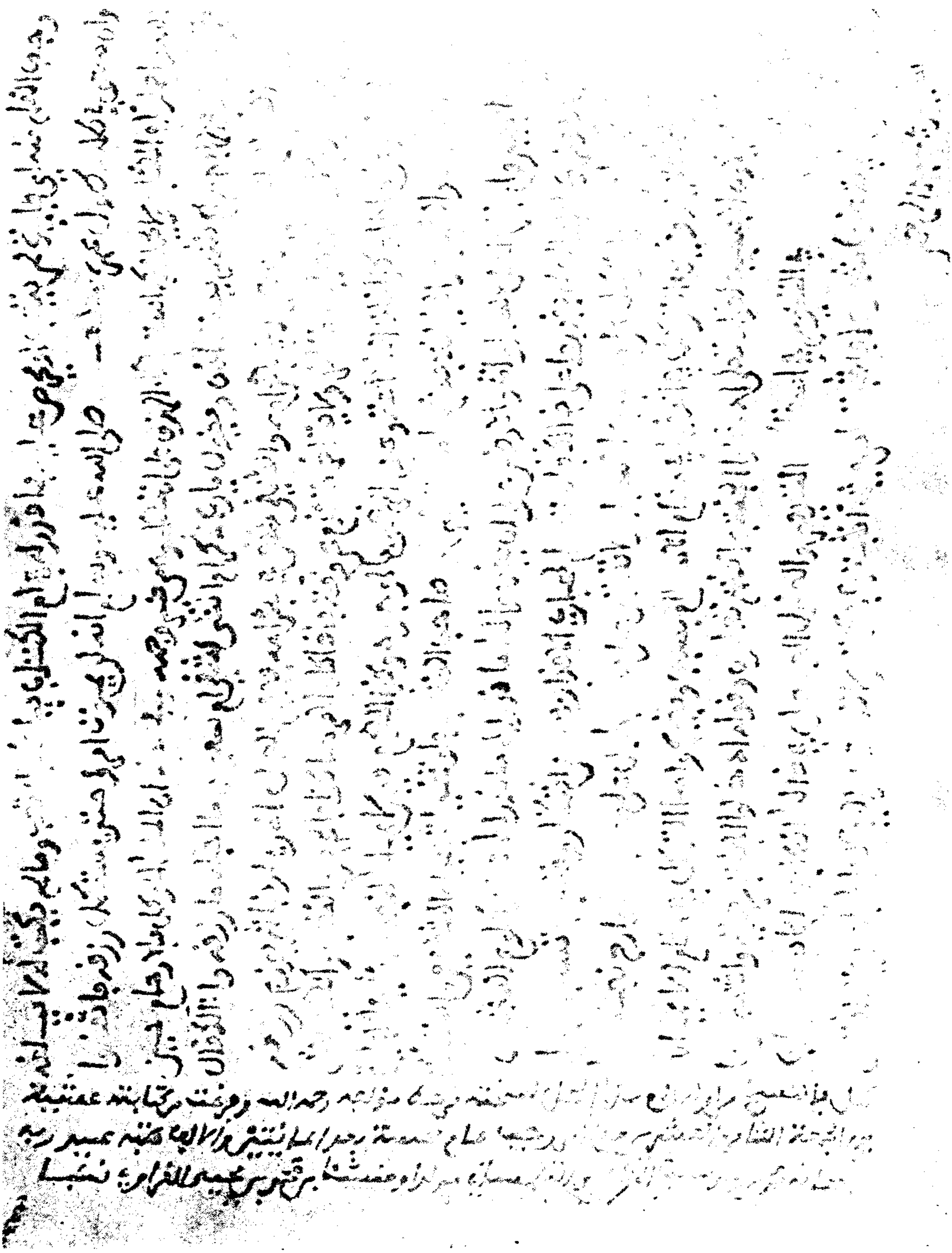
[illegible]

[illegible] الحمد لله [illegible]

[illegible]

[illegible] الاسلام [illegible]

[illegible]



الصفحة الأخيرة من مخطوط (كعبة الطائفين)

أبي العلاء أو في سيدي يعقوب ليقرأ معه كتب الصوفية « ثم يسمعنا من بنيات طره حتى يصبح » ولكن الشارح كان عندئذ صغير السن فلم يستطع أن يحتمل طول السهر ، فاشتكى لشيخه من ذلك فاذن له بعدم المجيء ، وقد أخبر الشارح انه ندم على عدم ملازمة شيخه واحتمال السهر معه . (ورقة 37) . وكان الشيخ موسى قد نظم قصيدة في التصوف سماها (قصيدة حزب العارفين) وطلب من تلميذه شرحها وأوصاه حولها وصايا سنعرض لها .

وأما الشارح للقصيدة المذكورة فهو الشيخ محمد ابن سليمان ، وهو اسم مختصر لا يدلنا كثيرا عن أصله وأصل عائلته . غير انه ذكر أثناء شرحه انه سمي « العارف بالله محمد بن سليمان الجزولي » واذا كنا لا نعرف الآن كثيرا عن الشارح وعائلته فانه قد ذكر أخبارا طيبة في كتابه تجعلنا نستكمل الصورة عنه . فقد تحدث عن والده . كما ذكر عددا من شيوخه بتلمسان وبعض المشاهد والأحداث هناك . فعن والده ، قال انه كان رجلا صالحا رغم انه كان من الأثرياء . وأخبر عنه أنه حج البيت الحرام وجاور به وانه قد أخذ العلم عن بعض الشيوخ (ورقة 134) وكان الشارح ينقل كثيرا عن والده فيما يتعلق بأذواق أهل التصوف وسلوك الطريقة عندهم . فالشارح اذن قد جمع . من هذه الناحية ، بين صلاح والده وصلاح شيخه (الناظم) .

وتدل الاخبار التي أوردها عن بعض شيوخه والمشاهد التي رواها والأحداث التي وقعت له انه كان من مدينة تلمسان أيضا. فقد عرفنا الاماكن التي كان يسهر فيها مع شيخه بهذه المدينة ، ومن جهة أخرى روى أنه كان ملازما لشيخ آخر من أهل الصلاح وهو الشيخ العبدلي وانه دخل على القائد التركي حين تقاتل الترك مع أهالي تلمسان (ورقة 114) وسنتحدث عن هذه القصة ، وكذلك روى أنه كان مع الشيخ العبدلي في داره حين كان الشيخ ينجد المسلمين من ظلم الاتراك بتلمسان ، وكانت دار الشيخ العبدلي ، كما ذكرها ، تقع بباب الجياد (ورقة 102) .

ومع ذلك فاننا لا نجد الشارح ينتسب الى تلمسان . فلم يضف أمام اسمه عبارة « التلمساني » الموجودة أمام اسم الناظم . وحين ورد اسم مدينة « تلمسان » فى قصيدة الناظم وأراد هو شرح معنى الاسم قال عنها انها بلد الناظم ولم يقل انها بلده هو أيضا . كما انه لم يذكر مسقط رأس والده ولم ينسبه الى تلمسان . فهل كان الشارح من بلد آخر . رغم انه عاش فى تلمسان منذ صباه كما جاء فى كلامه ؟ هذا ما لا نستطيع تأكيده الآن .

وبالاضافة الى ذلك فاننا لا نعرف بالضبط لا متى ولد ومات الناظم ولا متى ولد ومات الشارح . ولكن هناك عدة علامات يمكن الاستدلال منها على عصر الرجلين أو على الأقل عصر المخطوط . ومن هذه العلامات قول الشارح ، فى كلام سنذكره بالتفصيل ، انه كان يكتب شرحه فى آخر القرن الحادي عشر للهجرة . وثانيها معاصرة الشارح للشيخ العبدلي وعدد آخر من العلماء الذين أورد أسماءهم ، وسنذكر بعضهم بعد قليل ، مما يمكن الاستدلال به ، بعد التعرف على عصرهم ، على زمن الشارح على الاقل . ونفس الشيء يقال عن الأحداث التي أوردها فى الكتاب كالاشارة الى اقتتال أهالي تلمسان مع الاتراك ودعائه بأن يعيد الله وهران « للاسلام والايمان » (ورقة 110) مما يدل على أنها ، عند كتابة الكتاب ، كانت فى يد الاسبان . أي قبل الفتح الأول . ومادامت المخطوطة التي اطلعنا عليها ناقصة فى آخرها كما سنذكر ، فانه لا يمكن معرفة تاريخ التأليف اذا كان المؤلف قد انتهى منه فعلا . ومن الملاحظ أن النسخة التي رأيناها من المخطوطة مضاف اليها ما يدل على انها قد ألفت فى القرن الثاني عشر للهجرة . غير أنه لا يوجد فى نص المخطوط ما يدل على ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن ناسخ المخطوطة هو السيد محمد بن يوسف المناري التلمساني . وقد نسخها من خط المؤلف عام 1205 هـ وهو تاريخ فتح وهران الثاني على يد الباي محمد الكبير . فلعل الناسخ قام بهذا

العمل وقدمه للباي المذكور الذي كان معروفا بتشجيعه للعلماء والنساخ . وقد جاء في آخر الكتاب قول الناسخ «كمل بالنسخ من أوله الى هذا المحل . نسخته من خط مؤلفه رحمه الله ... » (ورقة 146) وخط الناسخ رقيق جدا وبالحبر الاسود ما عدا بعض العبارات الانتقالية مثل « قلت » و « قال فلان » . وبعض الابيات فانها بحبر ملون أغلبه أحمر وسطور المخطوطة متراصة والحروف صغيرة . لذلك يجد قارئه صعوبة كبيرة في مطالعته . وهو في الجملة في حالة جيدة ويقع ضمن مجموع . وتبلغ صفحات (كعبة الطائفين) وحده 146 ورقة . وبدايته هكذا : « الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات الى متاع الدنيا .. » ونهايته هكذا « وقال سيدي عبد الرحمن .. » قبل عبارة الناسخ المشار اليها . وبذلك يظهر جليا أن المخطوطة مبتورة الآخر .

وقد كان الكتاب في حوزة المفتي الحنفي الجزائري المعروف بابن العنابي قبل انتقاله الى المكتبة التي اطلعنا عليه فيها . وعليه عبارات التملك من المفتي المذكور . وثمن شرائه بنقود جزائرية مما يدل على أنه تملك به في الجزائر . وعليه تاريخ التملك وهو سنة 1234 هـ . كما توجد بعض التعاليق القصيرة على النسخة من المفني المذكور .

***

بين المؤلف أهمية كتابه وحالة التأليف في وقته وعلاقته بالعصر وأهله فقال ، بعد أن نقل كلاما عن الغزالي ، ما نصه : « قلت لو لم يكن في كتبنا لهذا التقييدعلى كلام هذا الشيخ ، أعني الناظم . الا هذا الكلام الموصل الى معرفة الواحد الحق ، لكان كافيا لذوي الهمم . فكيف ينبغي لعاقل أن يزهد في مطالعة الكتب المشحونة بنقل العلوم النافعة بعد أن أتته عفوا صفوا ولم يدر المسكين ما نال مؤلفيها من التعب في جمع دررها المنثورة من معادنها واستخراج كنوزها المكنونة من خزائنها . ونيتهم مع هذا وجدوا زمانا هنيا ، أو مساعدا مرضيا ، أو خلا وفيا ،

بل لم نجد نحن فى هذا الاخير من القرن الحادي عشر الا العقارب واللفاع، والشقاق والنزاع ، وظهور الهمج الرعاع، المؤثرين سبل الشر والابتداع، وما لنا عن دفع ما نزل بنا من قدرة ولا حول ، ولا قوة لنا على التحول عن أهل هذا الحال ولا طول ، ولا يجمل بالعاجز الضعيف المتألم، الا أن يبتهل ويقول اللهم سلم اللهم سلم » . (ورقة 78) .

وقد نقلنا هذه الفقرة على طولها لعدة أسباب ، منها أن المؤلف يذكر بالضبط تاريخ التأليف ، وهو كما جاء بالنص أواخر القرن الحادي عشر للهجرة . والثاني الاشارة الى دافع التأليف وهو المتعة بكلام أهل الصوفية مثل الناظم والغزالي وغيرهما . والثالث تعقيب المؤلف على الزاهدين فى المطالعة حتى بعد أن يبذل المؤلفون الجهد فى جمع المعارف من مختلف مصادرها لافادتهم . والرابع شكوى المؤلف بمرارة من أهل عصره الذين لم يجد فيهم الا الهمج والأشرار ولم ير فى عصره الا المنازعات والفوضى. وسيؤكد هذا المعنى فى عدة مناسبات خلال النص .

كان ناظم القصيدة قد جعل قصيدته ثلاثة أقسام ، القسم الاول فى أهل الصلاح ، والقسم الثاني فى أهل الفساد ، والقسم الاخير لا ندري ما عنوانه لكون الكتاب مبتورا كما عرفنا . وقد أوصى الناظم تلميذه بشرح القصيدة وجوز له الحديث عن القسم الاول والاخير من القصيدة ، ولكنه أوصاه بعدم الحديث عن وسطها « لابناء الدنيا » ومن الطبيعي أن نفهم من هذه الوصية أن الناظم قد خص القسم الثاني بأهل الطلاح فى زمانه من حكام ظالمين وعلماء منافقين الى غير ذلك .

ومن الطبيعي كذلك أن يقسم الشارح شرحه حسب أقسام القصيدة . فبدأ بالقسم الاول منها واستغرق فى شرحه مائة وعشر صفحات من مجموع 146 . وعند الانتهاء من ذلك القسم قال « فهذا ما يسر الله علينا من الكتب على هذا الثلث الاول من قصيدة هذا الشيخ الفاضل ويتلوه ... كلامنا عن الثلث الثاني منها » . (ورقة 110) وقد افتتح الشارح هذا

القسم (الثاني) بقوله « لما ان فرغ الشيخ رحمه الله من ذكر السلف الصالح عقبه بذكر الخلف الطالح ترغيبا فى الاقتداء بالمنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (ورقة 111) وقد برر الشارح حديثه عن وسط القصيدة ، رغم نهي شيخه له عن ذلك ، بقوله « ان النهي كان أثناء حياة الناظم ، آما وقد توفاه الله فلم يعد لكتمان ذلك مبرر » . وسنلاحظ أن الشارح ، تبعا للناظم ، قد تحدث عن قضايا معاصرة وعن أشخاص معاصرين ولكن الأمر ما يزال محيرا ، وجدنا بقية هذا الجزء مفقودا ، كما أن القسم الثالث مفقود أيضا . ولو اننا اطلعنا على باقي الكتاب لوجدنا فيه ، كما نتوقع ، أمورا كثيرة تتعلق بأحوال العصر ، ولاسيما السياسية والاجتماعية منها . (1)

* * *

ورغم ذلك فان ما وجدناه منثورا من الاخبار فى شرح القسم الاول من القصيدة وفى الجزء الصغير من القسم التالي منها يعتبر هاما بالنسبة لوقتنا .. فنحن الآن فى حاجة شديدة الى مصادر معاصرة عن العصر العثماني . ولعل هذا الكتاب ، وهو كما سبق فى التصوف ، ينضاف الى كتاب ابن مريم المعروف (بالبستان) فى أوائل القرن الحادي عشر ، وكتاب عبد الكريم الفكون المعروف (بمنشور الهداية) فى أواخر القرن الحادي عشر أيضا ، فيؤلف الثلاثة سلسلة هامة عن أحوال الجزائر الدينية والاجتماعية وحتى السياسية فى فترة هامة من تاريخها .

ففى (كعبة الطائفين) أخبار هامة عن علماء وصلحاء الجزائر . ومنهم محمد بن افغول ، وابراهيم التازي ، وأحمد البوني صاحب شمس المعارف ، ومحمد السنوسي ، ومحمد الهواري ، وبو عبدل المغوفل ، وأبو مدين شعيب ، ومحمد التواتي ، وعبد الرحمن الثعالبي ، وأحمد بن

1 ـ اطلعنا من هذا الكتاب على نسخة القاهرة . وتوجد منه نسخة كاملة فى باريس اطلعنا عليها بسرعة ، وأخرى فى المغرب لم نطلع عليها .

يوسف الملياني ، ومحمد بن علي الخروبي ، وبوعمران الهواري ، والشيخ السجراري ، وغيرهم . كما ينقل عن عدد من علماء الاسلام أمثال الغزالي، وابن الفارض، وعبد القادر الجيلاني (والظاهر أن المؤلف قادري الطريقة).

وكما يحتوي الكتاب على آخبار العلماء والصالحين كذلك يضم طائفة من الاخبار عن بعض المدن الجزائرية وغيرها، وعن بعض المناطق الجغرافية. والمؤلف يصف، كل مدينة بما لديه من معلومات عنها ، ومن هذه المدن شرشال ، ومستغانم ، وتلمسان ، وتونس ، والقسطنطينية ، والقاهرة ، وفاس ، ومدينة الجزائر ، وعنابة ، ووهران . ومن المناطق الجغرافية التي وردت فى الكتاب زواوة والشلف وتوات ونحوها . وهو يذكر معلومات جغرافية وحضارية عن كل مدينة ومنطقة مما يضفي على الكتاب أهمية خاصة . والملاحظ انه لم يخصص لذلك فصلا أو نحوه ولكنه جاء به عرضا لأن الناظم ذكر تلك الاماكن فى قصيدته .

ومما قاله عن تلمسان ، بعد أن ذكر معناها الجامعة بين التل والصحراء، انها « تعمل الشان لمن لا له شان ، ويكفيك منها ماؤها وهواها ، كما قال فيها واصفها ، وهي ذات أنهار وأشجار وفواكه وثمار ، وخصها الله بحب الملوك ، حتى صارت مطمعة للملوك ، وهي غاية للصالحين ، لأنها بلد ذل وخمول، والعلم فيها يفور ويغور، وهي قرية الجدار على ما قيل » (ورقة 15) . ولعل الجمل الاخيرة توضح رأي المؤلف فى تلمسان فى العهد العثماني ، فهي موئل الصالحين ويعني بهم الأولياء الذين كثروا كثرة ملحوظة خلال هذا العهد ، كما أن العلم فى تلمسان كان ينبع من حين لآخر ويجف أحيانا ، وهذا الحكم على تلمسان العثمانية ، من مؤلف (كعبة الطائفين) يذكرنا بحكم مؤلف (منشور الهداية) على مدينة قسنطينة العثمانية أيضا .

وعندما ورد ذكر بلاد زواوة فى القصيدة التي يشرحها قال الشارح عنها انها قرى كثيرة فى جبل شرقي الجزائر . وأهلها علماء فى فروع الدين .

وقال ان علماءها موجودون فيها وفي غيرها (يعني خارج بلاد زواوة) وهو لا يعني مطلق العلماء ولكنه يعني العلماء العارفين بالله وبنبيه معرفة خاصة زائدة على القدر الواجب فى حق كل أحد (ورقة 15) وهذا وصف تصدقه المصادر الاخرى ، لان علماء زواوة كانوا يقصدون المدن المجاورة كمدينة الجزائر وقسنطينة وبجاية وتونس . وكثير منهم كان يرحل الى المشرق . واكتفى الشارح عن عنابة بقوله ان بلد العناب مدينة على ساحل البحر . ولا شك أن هذا وصف غير كاف لمدينة كبيرة وشهيرة مثل عنابة خلال القرن السابع عشر الميلادي . فقد أعطانا فكرة عن بلاد توات أكثر وضوحا من فكرته عن عنابة . ومما جاء فى وصفه بانها « بلدان طيبة وأهلها مباركون وعنيها يضرب المثل اليوم — عليك باتوات لاتفات » (ورقة 17) .

وقد أشاد المؤلف كثيرا بمدن فاس والقاهرة والقسطنطينية . ونود أن نذكر رأيه فى الاخيرة لأن رأيه فى الاتراك فى الجزائر يخالف رأيه فى وصف عاصمتهم وسلطانهم فيها . فقد وصفها بقوله ان القسطنطينية « هي دار ملك الترك الاعظم اليوم، وهو الخليفة الاكبر، ملك البرين والبحرين، ومصر والشام والعراقين ، خديم الحرمين الشريفين ، أصلح الله حاله وحال جيشه ورعيته واقليمها هو بر الترك . ومنه تخرج الامراء والقضاة لجميع عمالاتها المذكورة . ودار ملكها كمصر أو أعظم فى الكبر. وتسميتها بالتركية وتفسيرها (اسلام عريض) ، أقامها الله دار اسلام الى يوم القيامة » . (ورقة 17) .

وهذا الوصف يلفت نظرنا من عدة نواح . فالمؤلف لا يذكر فيه شيئا ضد الترك بخلاف ما سيأتي فى الحديث عنهم فى الجزائر . ومن ناحية أخرى عدد مناطق نفوذ السلطان العثماني أو أجزاء الدولة ولكنه لم يذكر الجزائر من بين هذه المناطق أو الاجزاء . فهل هذا دليل آخر على استقلال الجزائر خلال هذه الفترة وعدم تبعيتها المباشرة للسلطان ؟ وماذا يريد

المؤلف من وراء سكوته يا ترى ؟ . ومن ناحية ثالثة ذكر أن الامراء والقضاة تخرج من القسطنطينية الى أجزاء الدولة المذكورة ، ولكنه لم يذكر أي أمير أو قاض خرج منها الى الجزائر ، رغم أن الامر كان كذلك ، على الاقل أثناء العهد العثماني الاول فى الجزائر . ومهما يكن الامر فان موقف المؤلف من هذا الموضوع يسترعي الانتباه .

وبالاضافة الى ما ذكرنا يشتمل الكتاب على معارف عامة حول السكان والاشخاص والقرى والمصطلحات اللغوية ونحو ذلك . فعندما ورد اسم الولي أحمد بن عثمان قال المؤلف عنه انه من صلحاء بني قومي . وعرفهم بانهم مداشر بالصحراء ، بلد الجريد ، وقال أيضا أن ابن الولي المذكور ، وهو ابراهيم بونقاب « من أهل عصرنا » واستطرد بهذه المناسبة ليذكر كيفية نطق القاف فى « بني قومي وأمثالها كفقيق » فقال والقاف فى بني قومي وفقيق ومثلهما تكتب قافا أو جيما أو كافا ويعجم من أسفله . وعندما ورد اسم هوارة ذكر طرفا من أخبارها وبعض صلاحها كالسجراري والهواري وبوعمران . وهكذا يستخرج الدارس من الكتاب معلومات طيبة أخرى غير التصوف الذي هو الموضوع الرئيسي فيه .

* * *

وقد شكا المؤلف من الظلم السياسي فى عدة مناسبات . فبعد التعريض الذي ذكرناه له عن أحوال العصر وأهله ، اغتنم فرصة قول الناظم « يا رب من صاب بطل اشديد من نسل اعلي ثم فاطم » فعلق عليه بقوله : « تمنى رضي الله عنه وجود امام عدل يجتمع عليه المؤمنون ، ويتبعه المجاهدون وتنتظم به كلمة الخلق بالحق ، لأن الاجتماع رحمة والفرقة عذاب » . وواضح وجه التعريض هنا أيضا ، ان لم نقل وجه الصراحة . ذلك ان كلا من الناظم والشارح يتفقان على أنه لا وجود « لامام عدل

يجتمع عليه المؤمنون ويتبعه المجاهدون » فى وقتهما . وهذا موقفسياسي واضح . وقد تمنى كل منهما اجتماع كلمة المسلمين ونهاية ما هم فيه من فرقة وعذاب .

ولعل المؤلف يشير بعذاب الفرقة ما شاهده هو بنفسه . بل عاشه . فقد سجل فى كتابه عدة حوادث عن ظلم الاتراك فى الجزائر ، وخاصة فى تلمسان . وروى أنه كان ذات يوم مع شيخه ، سيدي العبدلي ، فى داره الواقعة بخبارة باب الجياد فشاهد بالدار خلقا كبيرا ، مسلمين وذميين ، هاربين من جور الاتراك « وكان الشيخ العبدلي يطعم ويسقي هؤلاء الفارين اليه ويتشفع ، كل وقت فيهم فيقضي الله الحوائج على يديه » . (ورقة 102) اذن هناك مظالم كان يرتكبها الأتراك بتلمسان تضطر الناس الى الهروب الى الصالحين والشفاعة بهم . والمؤلف شاهد عيان على ذلك ، لأنه يقول « ما رأيته وسمعته من الشيخ البركة سيدي العبدلي » . بل ان المؤلف كان يقرأ بعض التعاويذ « لتدمير الظالم وقطع الجبابرة والفساق » (ورقة 105) ولا شك أن غيره كثير ممن كانوا يلتجئون الى هذه الطريقة ، وهي طبعا سلاح العاجزين عن دفع الظلم بالقوة .

وللمؤلف موقف آخر أكثر صراحة مما سبق . فقد نظم قصيدة سياسية أثناء حروب الاتراك ضد تلمسان . ودخل بها ، رفقة الشيخ العبدلي المذكور ، على القائد التركي بتلمسان . وهو محمد بن سوري ، فى محلته « حين تقاتل الترك مع أهل تلمسان . فوعظه الشيخ . ورأيت من قوة محلة الجزائر وسطوتها ما أوجب ما ذكرناه ، واياه عنيت بفلان ، وكلنا فلان ، لأن كل نفس تدعي ما ادعاه فرعون ، ولكن من وجد سعة أظهر ما أضمرته نفسه حتى فى عياله وخدمه . وأشرت بقولي — ولا تستهدفن — الابيات الى أنك لا تجعل نفسك هدفا للنصال ، ولا تنصبها غرضا لرمي النبال ، باعد البلاء يباعدك البلاء » (ورقة 114) . أما القصيدة فقد بدأها بقوله :

ترقب يوم موتك يا فــلان   ورافقك (؟) الرحيل من الديار

والنص السابق يكشف عن موقف واضح من المؤلف . فهو يسجل ثورة أهل تلمسان على الترك في وقته ، والانتقام الاتراك منهم ، على يد القائد محمد بن سوري الذي جاء على رأس الحملة التركية من الجزائر . وموقف الشيخ العبدلي ازاء ما حدث ، ودور المؤلف الذي رافق الشيخ المذكور عند دخوله على القائد التركي . ورؤيته لطغيان وجبروت الأتراك ، فتوعد القائد بسغبة الامور عند الله وفي الدنيا أيضا ، ولم يذكره صراحة وانما استعمل التورية والكناية فعبر عنه « بفلان » و « بفرعون » ولعله استعمل عبارة الرحيل من الديار بمعناها الديني ومعناها السياسي . فقد تعني الموت وقد تعني الخروج من الجزائر . ولا شك أن هذا الموقف يكشف أيضا عن أهمية المؤلف في قومه عندئذ . ولو لم يكن كذلك فمن هو حتى يدخل على قائد الحملة يتوعده ويهدده ويرافق الشيخ العبدلي الذي جاء يعظ ويذكر ؟ ولا شك أيضا انه لم يكن هو والشيخ فقط في هذه الحادثة ، بل لعله كان ضمن وفد من علماء البلاد وأعيانها وصلحائها الذين تولوا الوساطة بين السكان الثائرين والاتراك المغيرين . ومهما يكن من أمر فان القصيدة ، فيما يبدو ، طويلة ولكنه اجتزأ منها بأبيات جاء بها في الكتاب ، وهي قصيدة سياسية في ثورة تلمسان عندئذ . وهي رائية وضعيفة النسج ، ولكنها قوية الروح .

* * *

وكما احتلت الأحداث السياسية في تلمسان مكانا بارزا في الكتاب كذلك احتلت مكانا بارزا بالنسبة لمدينة وهران . فقد كانت هذه المدينة ما تزال تحت حكم الاسبان زمن تأليف الكتاب . وهذا واضح من ترديد المؤلف نفسه قوله كلما ذكرها « أعادها الله للاسلام والايمان » . وقد

ساق قصة تروى عن محمد الهواري وهي انه هو سبب هلاكها أي وقوعها بأيدي الكفار . وهي لا شك قصة خرافية . فهو (الهواري) الذي دعا عليها لأن أهلها تركوا حكم الشريعة وصاروا يحكمون بحكم العامة فآثروا العوائد المضلة ، وان أهلها قد أهانوا الشيخ الهواري وآذوه فى أهله وجيرانه حتى روى أنهم قتلوا ولده « فدعا عليهم وباع بلدهم للكفار بيعا بتا بلا استثناء ولا اقالة الا من اشترى نفسه منه سلمه الله من الكفار . فيؤخذ من هذا جواز الدعاء على الظالم ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .... ولاكنهم رخصوا (بتشديد الخاء) حتى رخصوا ، واستهانوا ، فهانوا وأذلوا فذلوا ، والا فالاسلام لا يعادله شيء حتى يباع به » (ورقة 110) .

وهناك أيضا أمور تلفت النظر فى النص السابق ، فالمؤلف يسوق القصة ، رغم انها خرافية ، لأن احتلال الاسبان لوهران جاء نتيجة أمور سياسيه واقتصادية معروفة . ومن ناحية أخرى تدخل المؤلف الذي كان يعاين الظلم والطغيان فاستنتج من القصة « جواز الدعاء على الظالم » محتجا بالآية المذكورة ، والظالم هنا هم الاتراك بدون شك . ووجه المقارنة بين موقف الهواري بالنسبة لوهران وموقف المؤلف بالنسبة لتلمسان واضح . وأخيرا نلاحظ أن المؤلف لم يشأ أن يكتفي بايراد القصة دون التعليق عليها . اذ ليس هناك فى نظره ، شيء يعادل الاسلام حتى يباع به ، فكيف يبيع الهواري أهل وهران ؟ بأي شيء ؟ وكأن المؤلف أراد ان يبرر ما حدث باعادة ذلك الى طبيعة النفس لدى سكان وهران،وليس الى دعاء الهوارى . وذلك هو ماعناه بقوله انهم «رخصوا حتى رخصوا ، واستهانوا ، فهانوا ، وأذلوا فذلوا . » فالتأثير ليس خارجيا عن النفس (كالدعاء) ولكنه من داخلها « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وفى هذا النطاق (الحديث عن وهران) أورد المؤلف فيها قصيدة مؤثرة « للعارف سيدي محمد التواتي » الذي تفرس أمرها وأنذر أهلها قبل أن يحل بهم ما حلها . « وقد بدأ التواتي القصيدة بقوله :

أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة لبلدتكم من قبل ان تـــــردت
وقبل مجـيء المنشـآت ببحرهـا وأي قلـوب عندها مستقـــرت
ولا تكلـوها غيركم ولئـن يكن فما غائب مثل المقيم ببلـــدة

ومنها قولـه

فجودوا بفضل المال فى حفظ كله وأهل وجيران وشيخ وصبيـــة
وما يغني عنكم مالكم ان أتـاكم عـدو بنيـل أو بسـدفة سحرة
وقد عظم الله الديـار خروجهـا فحـذرتكم ، والله يعلم نيتـــي
فان لم يكن فى الغرب أكبر غيرة وفى الأندلوس (كذا) فجعة أي فجعة

وبعد ان عدد التواتي البلدان التي أخذها النصارى على ســواحل المغرب ، قال :

فيا مقلتي فابكي لما نالهم دمـــا ويا كبدي احرا (كذا) عليهم تفتت
فهذا نذيري ان تكونوا ذوي حجا وهل تقبل الاعذار بعد النــذارة
فما البرتقال الآن يطلـب غيركم ومرسـاكم ، لا قال منها بنيـــة
وقد هال أمـر البرتقالي وحـده فكيف وذو الفنشي له فى الحميـــة
فلا تهملـوا أمر الاعـادي فانـه بحال اجتمـاع واتفـاق وشـــدة
وقد قطعوا قطعا متى ظفروا بكـم فقد ظفروا طرا بأهل الجزيـــرة
وكانت بـلاد الغرب تحمي ديارهم وتنجدهم بالعـون فى كل وجهـــة

ومما جاء فيها أيضا مخاطبا أهل وهران قولـه :

وان ضـاع مرساكـم فان ضياعـه ضيـاع بـلاد الله شرقـا وقبلـــة
ولا يحم مرساكم ضعاف رجالكـم ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة

فان لهـــم بالضرب والطعن خبــرة   وكم فتكوا بالكفر أكبـــر فتكـــة
عليكم بهم فاستعملوا فى وصولهـــم   اليكم ذكا عقـــل وألطـــف حيلـــة
أ اخـــوانـــا فى الله ألقوا مسامعا   ولا تهملوا مما أبرزته قريحة (كذا)

ومن الواضح أن القصيدة قيلت قبيل احتلال وهران من الأسبان وساعة ان كان أهل الأندلس فى صراع مع الأسبان . ولسنا نريد أن نشرحها ولا أن نبرز ما فيها من أفكار ، فليس ذلك من هدف هذه العجالة الخاصة بتقديم كتاب (كعبة الطائفين) . ولكن لا بد لنا من القول هنا أن المؤلف قد أوردها متأثرا بما فيها من أفكار وكأنه كان يدعو الى ما دعا اليه الشيخ التواتي قبله بقرنين أو يزيد . ومن جهة أخرى نلاحظ أن القصيدة طويلة فنحن لم نورد كل ما أورده المؤلف منها ، كما أن المؤلف لم يأت بها كاملة . فهل كان غرض المؤلف من ذكرها عندئذ معاتبة الأتراك على عدم تحرير وهران من الأسبان ؟ ومن الجدير بالذكر أن هذه القصيدة تذكر الدارسين بفتوى الونشريسي فى قضية الهجرة من البلاد الاسلامية التى استولى عليها الكفار ، كما تذكرهم برسالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي فى الجهاد الموجهة الى أهل بجاية ، حوالي نفس الوقت .

* * *

ومع ذلك ، فان كتاب (كعبة الطائفين) يظل بالدرجة الأولى كتابا فى التصوف . فصاحبه قد حشاه بأخبار المتصوفين والأولياء والصالحين فى تاريخ الاسلام ، وكان يكثر من النقل عن فلان وعن فلان لتأييد رأيه ، كما أنه كان يعود باستمرار الى القرآن والحديث . وتمشيـــا مع هذا أورد قصصا وكرامات وأخبارا تعتبر اليوم محل نظر . وقد أشرنا الى أنه كان قد جرب قراءة جدول البسملة « لتدمير الظـــالم وقطع الجبابرة والفساق . » (ورقة 105) . وجاء أيضا بكرامات

نسبها الى الشيخ أبي مدين تتعلق فى جملتها بحرب النصارى (مثلا ورقة 108) • وقد عرفنا روايته لقصة دعاء الشيخ الهواري على أهل وهران ، رغم أنه علق عليها تعليقا سليما • على أنه ليس من غرضنا التعرض هنا بالتفصيل لجانب التصوف من الكتاب • وكل ما أردناه الآن هو تقديم الكتاب من جهة وبيان ما يحتوي عليه من مسائل تاريخية عن الجزائر فى العهد العثماني من جهة أخرى • ولا شك أننا لو عثرنا على بقية الكتاب ، اذا كان صاحبه قد انتهى منه فعلا ، لاستفدنا منه فوائد أخرى جمة عن ذلك العهد ولأضفنا الى مصادر الجزائر العثمانية مصدرا آخر هاما ، فهل يتحقق ذلك ذات يوم ؟

* نشرنا هذا البحث فى المجلة التاريخية المغربية عدد 7 — 8 (يناير 1977) •

الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني

ترك العهد العثماني فى الجزائر عدة رحلات حجازية كتبها أصحابها بعد أدائهم لفريضة الحج . ولكن مصير هذه الرحلات يختلف . فمنها ما فقد تماما ولا نعرفه الا بالاسم ضمن مؤلفات أصحابه . ومنها ما بقي سليما نعود اليه كلما دعت الحاجة . ومنها قسم آخر بين هذا وذاك حيث أن بعضه مفقود وبعضه موجود . وسنتحدث عن كل قسم من هذه الرحلات . وبالاضافة الى ذلك فان الرحلات الجزائرية الحجازية لم تكن كلها نثرية . حقا ان معظمها كذلك ، ولكن هناك نوع من الرحلات المنظومة أيضا وهي تلك التي اكتفى أصحابها بنظم رحلتهم فى قصيدة مطولة أو نحو ذلك من أشكال الشعر . وسنذكر أيضا نموذجا أو أكثر من هذه الرحلات الشعرية .

ان الجزائريين الذين توجهوا الى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا اليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سواح . وانما توجهوا اليها حجاجا يؤدون الفريضة ويزورون الحرم الآمن ، لذلك كانت قلوبهم الى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم وأشواقهم اليها تنسيهم آلام الطريق ووعثاء السفر . ومن ثم كان هنالك جزائريون قد كتبوا رحلات حجازية خيالية دون أن يرحلوا بأجسامهم فكتبوا قصائد طوالا يمدحون فيها الرسول الأعظم ويصفون وصفا حيا كل شبر من تراب الجزيرة . ولاشك ان هذا النوع لا يدخل ضمن الرحلات التي تقصدها فى هذا المجال ، غير انه نوع يستحق الدراسة فى مناسبة أخرى .

---

* بحث القى فى الندوة العالمية الاولى لتاريخ الجزيرة العربية التي انعقدت بالرياض (أبريل 1977) ، وقد طبع ضمن وقائع الندوة بالعربية وغيرها .

لقد دخلت الجزائر ، كمعظم أجزاء الوطن العربي ، فى الدولة العثمانية منذ أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر ميلادي) . واستغرق هذا العهد ثلاثة قرون ، أي الى سنة 1246 هـ (1830 م) حين احتل الفرنسيون الجزائر ، ولا نريد ان نتعرض هنا الى المراحل والتطورات السياسية والاقتصادية لهذا العهد (1) . وحسبنا ان نذكر منه نقطتين تتعلقان بموضوعنا . الأولى تقلص الحياة العلميه بما فيها بدائية التعليم ونقص المدارس وقلة التأليف وعدم الاهتمام بالعلماء والمثقفين (2) . ومما يلفت النظر أن الجزائر العثمانية لم تكن تتوفر على مؤسسة للتعليم العالي مما ترتب عليه هجرة الراغبين منهم فى طلب العلم . ولكن كثيرا منهم كانوا يعودون الى وطنهم . ومعظم هؤلاء كان يقصد مصر والحرمين الشريفين . وهناك قائمة طويلة من العلماء الجزائريين الذين هاجروا ولم يعودوا أصلا ، كأحمد المقري صاحب (نفح الطيب) ، وعيسى الثعالبي ويحي الشاوي وبعض هؤلاء العلماء قد عاد ولكن بعد ان أطال الاقامة أو جاور بالحرمين الشريفين ، ومن هؤلاء المفتي أحمد بن عمار ، وحمودة المقايسي ومحمد بن العنابي . ولا يخفى أن هجرة هؤلاء العلماء التي تدخل فيما نسميه اليوم هجرة العقول ، قد أثرت على مستوى الحياة الثقافية فى الجزائر .

أما النقطة الثانية التي نود أن نتعرض لها لأهيمتها فيما نحن بصدده . فهي انتشار البدع وشيوع حلقات الذكر والاوراد وتعدد الطرق الصوفية وتطرفها فى عقائدها ، وقد كان بعضها يعمل بتشجيع واضح من الحكام العثمانيين (3) . والذي يقرأ كتبا مؤلفة خلال هذا العهد مثل البستان (4) لابن مريم ، و (منشور الهداية) (5) لابن الفكون ، وكعبة الطائفين(6) لابن سليمان ، ورحلة الورتلاني (7) يدرك ما وصلت اليه الحالة العقلية فى الجزائر العثمانية . وما دمت سأتعرض بعد قليل للكتاب الاخير ، باعتباره رحلة حجازية ، فانني اكتفي هنا بالاشارة اليه فى مجال التصوف والعقائد الخرافية التي احتوى عليها .

ومن الواضح أن تكون صورة الجزيرة العربية فى نظر الجزائريين (سواء كانوا من الصنف الاول ــ العلماء ــ أو من الصنف الثاني ــ المتصوفة ــ أو من الصنفين معا) مرتبطة قبل كل شيء بالدين وشعائره، وبسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وكفاحه وبحياة الصحابة رضوان الله عليهم . أنها صورة روحانية متألقة بالقلب والروح يتخيلها المتخيلون فتسيل عبراتهم شوقا وحرقة ويرسمها الراسمون بالكلمات فاذا هي ، مهما بالغوا ، فوق الوصف والرسم . ان تراب الجزيرة العربية فى نظرهم تراب طاهر مقدس لأن الرسول قد مشى عليه ، وماءها عذب زلال ولو كان ملحا أجاجا لأن الرسول قد شرب منه أو تغسل فيه ، وهواءها نقي منعش ولو كان حارا كلهيب النار ، لأن الرسول قد استنشقه وتنفسه . وكل بئر أو صخرة أو جبل فيها يحمل فى نظرهم ذكرى عطرة وصوتا واعظا ومشهدا حيا لن يموت . ومن الواضح أيضا أن هذه الصور تخص مكة المكرمة والمدينة المنورة وما جاورهما من الاماكن التي اختلف اليها الرسول وجرت فيها معارك الجهاد والنصر للدين الحنيف . ولم يكن العالم أو المتصوف الجزائري يهتم ببقية الجزيرة العربية فى الاطراف والحواشي أو المنازل الاخرى التي لا ترتبط بالاسلام والداعين الاولين اليه. كما أن الصورة المادية للجزيرة العربية قلما تهمه . فما دام يجد قوت يومه فيها فان كل شيء من أجل الصورة الاخرى يهون .

وبالمقارنة مع بعض الاقطار العربية والاسلامية الاخرى كالمغرب ، فان ما وصل الينا من الرحلات الجزائرية الحجازية يعتبر قليلا ، وأغلب ما وصل الينا مكتوب خلال القرن الثاني عشر للهجرة ــ الثامن عشر الميلادي . فلماذا لم يحفظ لنا القرنان السابقان رحلات حجازية أيضا ؟ ذلك ما لا نستطيع الجواب عليه الآن .

والرحلات الأخرى بعضها مكتوب بالشعر وبعضها مكتوب بالنثر . وسنهتم بطبيعة الحال بالقسم الأخير ، غير انه لابد من كلمة قصيرة عن القسم الأول أيضا .

بعض الرحلات المنظومة :

من ذلك القصيدة الطويلة التي نظمها شاعر الفصيح والملحون سعيد المنداسي والتي تعرف (بالعقيقة) وقد نظمها سنة 1088 هـ (1677 م) وموضوعها هو مدح الرسول ووصف البقاع المقدسة وآثار الحجاز ومنازله وذكرياته الدينية الغابرة . وقد تولى شرحها والتعليق عليها عدد من المؤلفين فأضافوا اليها معلومات غزيرة وأصبحت شروحهم وتعليقاتهم عليها وكأنها رحلات مستقلة وكلها تتناول تاريخ وجغرافية الجزيرة العربية بطريقة قد يعجز عنها الشعر . ومن هذه الشروح شرح محمد بوراس الناصر الذي سماه (الدرة الانيفة) (8) . وشرح آخر يسمى (الازهار الشقيقة المتضوعة بعرف العقيقة) (9) . وقد طبعت العقيقة وترجمت الى اللغة الفرنسية (10) وتقع فى 303 بيتا ، وتتضمن كثيرا من المحسنات البديعة والتفنن فى أوجه البلاغة رغم انها مكتوبة بالشعر الملحون .

ومن هذا النوع رحلة محمد بن مسائب الشعرية أيضا خلال القرن الثاني عشر للهجرة . وقد سجل فيها مراحل تنقلاته من مدينة تلمسان الى مكة المكرمة . ووصف فيها عواطفه نحو الرسول . كما وصف الاماكن التي مر بها سواء المؤدية الى الحجاز أو داخل الجزيرة العربية نفسها وهي أيضا من الشعر الملحون الذي اشتهر به ابن مسائب ، وتناول به موضوعات عديدة أخرى ، غير الدين والحج . وقد قام المرحوم محمد بن أبي شنب بنشر النص العربي وترجمته الى الفرنسية لهذه الرحلة (11). وبهذا الصدد نذكر أن هناك شاعرين آخرين من تلمسان اشتهرا أيضا بنظم الرحلات الشعرية بالملحون وهما ابن التريكي والزناقي وكلاهما معاصر لابن مسائب (12) .

ويمكن أن ندخل فى هذا الباب كل القصائد المديحية التي يتوجه بها أصحابها الى الرسول والديار الشريفة حتى ولو لم يزرها أصحابها ، أو

زاروها قبل أو بعد قرض هذا الشعر . وفى هذا الصدد نظم الشيخ عبد الكريم بن الفكون ، الذي زار الحجاز مرارا كأمير لركب الحجاج الجزائريين ، ديوانا كاملا فى المديح النبوي رتبه على حروف المعجم ، وكان ذلك سنة 1031 هـ . وقد تحدث الرحالة المغربي أبو سالم العياشي فى رحلته عن هذا الديوان وعن صاحبه (13) . وجاء فى رحلة ابن عمار الجزائري التي سنتحدث عنها (14) ان الشاعر المفتي ابن علي والعالم أحمد المانجلاني يعتبران طراز وحدهما فى المدائح النبوية ولا يستوي معهما فى ذلك سوى البوصيري . وابن عمار نفسه كان من هذه الطائفة كما تشهد القصائد والموشحات التي أوردها لنفسه فى رحلته (15) .

غير ان هذا النوع لا يدخل فى صميم الرحلات التي نحن بصدد الحديث عنها ، ذلك ان الذي يهمنا هنا بالدرجة الاولى هو الرحلات الحجازية المصطلح عليها والتي ينتقل صاحبها بدنيا لا روحيا أو خياليا من موطنه الى الحجاز وغيره من مناطق الجزيرة العربية ثم يصف لنا الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية فى مزاره أو يكتفي بوصف بعض المظاهر من ذلك . ومن المصطلح عليه أيضا أن تكون هذه الرحلات نثرية ، يتحدث فيها أصحابها عن مشاهداتهم وملاحظاتهم بلغة واقعية أو قريبة من الواقع .

ولا يوجد من هذا النوع الا عدد قليل . كما أشرنا . من الرحلات الجزائرية الحجازية ولسوء الحظ انها على قلتها لا تكاد توجد كاملة مخطوطة ، فما بالك بها مطبوعة . وسنعرف انه لا يوجد من الرحلات الجزائرية الكاملة والمطبوعة سوى رحلة الورتلاني . ولكن قبل التعرض لها نذكر الرحلات الاخرى معلقين عليهما بما يناسب أو يساعد المهتمين على الاستفادة منها . وسنحاول ترتيبها زمنيا .

رحلة البوني :

وصاحبها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (نسبة الى بونة المعروفة اليوم باسم عنابة بالجزائر) ولد بعنابة سنة 1063 وتوفي بها أيضا سنة 1139 . وله تآليف عديدة ذكرها فى اجازته (16) . ويعتبر فى الجزائر من أهل الرأي والصلاح بالاضافة الى العلم خلال القرن الثامن عشر الميلادي ولا نريد الآن أن نترجم له لأن ذلك يخرجنا عن نطاقنا ، وكل ما نريده هو رحلته . فمن المعروف أن له رحلة حجازية سماها (الروضة الشهية فى الرحلة الحجازية) . وقد ذكر ولده المعروف بأحمد الزروق البوني أنه ذكر فيها شيوخه ونصح هو القارىء بقراءتها بقوله « فعليك به (يعني التأليف) فان فيه طرفا وظرفا » وتعتبر هذه الرحلة مفقودة اليوم (17) . والذي لا شك فيه هو أن البوني قد حج وتجول فى المشرق كما نعرف ذلك من مصادر أخرى . كما أنه لم يكتف فيها بذكر شيوخه المكيين والمدنيين ، بل لا بد أن يكون قد وصف فيها الحياة وأنماطها هناك كما شاهدها بنفسه . ولكن يد الضياع قد حرمتنا الآن من معرفة ما احتوت عليه بالضبط .

رحلة ابن حمادوش :

لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري رحلة تسمى (لسان المقال فى النبأ عن النسب والحسب والآل) ، وهي فى عدة أجزاء . ولكن الموجود منها حتى الآن هو الجزء الثاني ، وهو بدوره مبتور . وكان ابن حمادوش قد أدى فريضة الحج سنة 1125 هـ ثم كرر ذلك ولكن الجزء الذي عثرنا عليه من رحلته لا يعرض لحياة الجزيرة العربية ، بل يعرض الى حياة المغرب الأقصى ، فرحلته من هذه الناحية ليست حجازية ، ولكن ابن حمادوش الذي اشتهر بتسجيل دقائق الامور وصغيراتها فى الجزء الثاني لا نخاله الا أن يكون قد سجل تفاصيل كثيرة عن أوضاع الجزيرة العربية أثناء حجاته ، ولكن أين بقية أجزاء الرحلة ؟ ان ذلك

ما يزال فى عالم الغيب فابن حمادوش الذي ولد سنة 1107 وتوفي كما قيل على أكثر من تسعين سنة لا يسكنه الا أن يكون قد أكمل رحلته (18) •

رحلـة ابن عمـار :

وهناك رحلة أخرى كتبها مفتي المالكية فى وقته أحمد بن عمار الجزائري ولا نعرف الآن متى ولد ولا متى توفي ابن عمار • ويغلب على الظن أن وفاته كانت فى العقد الأول من القرن الثاني عشر ، ومن الأكيد أن ابن عمار قد حج البيت فى سنة 1166 وأنه قد جاور بمكة مدة طويلة وصلت به الى سنة 1172 • وهذه الاقامة الطويلة فى الجزيرة العربية قد جعلته يتعرف على أمور كثيرة لا يهتدي اليها الحجاج العاديون •

وقد كان ابن عمار شاعرا فحلا وناثرا مجيدا حتى لقد اشتهر بين معاصريه بأنه محي طريقة الفتح ابن خاقان ولسان الدين بن الخطيب(19) وكان مفتيا صاحب رأي واجتهاد فى الدين والاجتماع • وله تآليف أهمها (لواء النصر فى فضلاء العصر) الذي ترجم فيه . كما أخبر بنفسه . لعلماء القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر (20) • ولكن ابن عمار اشتهر برحلته المسماة (نحلة اللبيب فى أخبار الرحلة الى الحبيب) •

قسم ابن عمار رحلته الى ثلاثة أقسام : القسم الأول جعل عنوانه مقدمة ويبدو أنه كان يريد أن يجعل من هذا القسم خزانة أدب يجمع فيها النوادر والأشعار والأخبار المتفرقة عن مولد الرسول والأشواق الى البقاع الطاهرة • لذلك أظهر فى المقدمة محفوظه ومختاراته من الشعر والنثر حتى لقد بلغت المقدمة وحدها حين طبعت 254 صفحة من الحجم المتوسط ، وهذا القسم هو الموجود الآن من رحلة ابن عمار • وقد تحدث فيه عن الداعي الى تأليف الرحلة وسبب تسميتها « بنحلة اللبيب »

وبين ضرورة الحج شرعا مستشهدا على ذلك بالآيات والأحاديث ومأثور القول شعرا ونثرا . وعبر فى المقدمة أيضا عن عزمه على الحج أوائل سنة 1166 وعن شوقه الحارق الى الحجاز وعن تأزمه الروحي عند استحضار الذكريات التاريخية . ولكنه بدل أن يستمر فى رحلته ماديا وروحيا نحو الغرض الأساسي وهو أداء الفريضة ووصف المنازل والديار والأصدقاء والأساتذة ، كما فعل الرحالة الآخرون ، عمد ابن عمار الى الاستطراد فملأ المقدمة بأخبار الاحتفال بالمولد النبوي فى الجزائر قديما وحديثا وعادة الأندلسيين فى ذلك أيضا ثم ترجم لعدد من الأدباء والشعراء من أهل بلاده وغيرهم ، وأخيرا جاء بقطع شعرية من مختلف شعراء المشرق والمغرب فى الورد والنرجس والخمر ونحو ذلك . ولكن هذا القسم ينتهي فجأة ، وبذلك لا ندري كيف كان ابن عمار سيعود الى الربط بين هذه المقدمة وموضوعه الأساسي وهو الرحلة الى الحبيب .

ومهما يكن الامر فان القسم الثاني الذي سماه « الغرض المقصود » والقسم الثالث الذي سماه « خاتمة » مفقودان الآن . ولا شك أن القسم الثاني هو أساس الرحلة وهدفها والمؤلف نفسه يذكر بأنه تناول فيه « ما يحدثه السفر الى الاياب وحط الرحال » ومعنى هذا أنه قد خصصه لكل ما حدث له أثناء الرحلة ، وما دام المؤلف قد جعل « المقدمة » فى الحجم الذي ذكرناه فمن المفروض أن يكون (الغرض المقصود) فى حجم أكبر ان لم يكن مضاعفا . ولا شك فى أنه قد جعل هذا القسم فصولا أو أبوابا أو نحو ذلك من أنواع التقسيم التقليدية غير أنه ما دام لم يصل الينا فمن الصعب علينا أن نتحدث عن محتواه وقيمته التاريخية والأدبية . أما القسم الثالث (أو الخاتمة) فقد خصصه للحديث عما (نشأ عن ذلك (يعني السفر) بعد السكون وما انضم اليه) (21) . ويبدو أن ابن عمار قد أطال الحديث فى الخاتمة أيضا على غرار ما فعل مع المقدمة . فهو ولوع بالاستطراد كما لاحظنا .

ويغلب على الظن أن ابن عمار قد انتهى من كتابة رحلته . ذلك أنه قد عاش مدة طويلة (أكثر من ثلاثين سنة) بعد الحجة المذكورة وبعد أن جاور بالحرمين ما يقرب من اثنى عشر سنة وقد أورد معاصره أبو راس الناصري ما يفيد بأن ابن عمار قد انتهى من رحلته ، كما يفيد كلامه عنه أنه قد اشتهر بهذه الرحلة حتى أصبح اسمه لا يذكر الا ملتصقا بها . وقد مر أبو راس بمدينة الجزائر وهو فى طريقه الى الحج سنة 1204 وسجل فى مذكراته أنه قد التقى فيها بعالمها أحمد بن عمار (مؤلف الرحلة) ولا ريب أن أبا راس لا يمكن أن يقول العبارة المذكورة لو لم يكن ابن عمار قد انتهى منها وعرف بها (22) . ومن جهة أخرى ذكر ناشر (المقدمة) الرحلة التي تحدثنا عنها أن الاحتمال قوى فى أن يكون ابن عمار قد أكمل رحلته وأن نسخها (توجد كاملة بالحرمين الشريفين والقاهرة وتونس لأن مؤلفه أقام فى كل منها عدة سنين) (23).

رحلة ابي راس الناصر :

من العلماء الجزائريين الذين أكثروا من الترحال والكتابة أبو راس الناصر وقد كنا تناولنا حياته وبعض آثاره . ولا سيما التاريخية . فى مناسبة أخرى وحسبنا أن نقول الآن أنه من أهل القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الهجريين . وكان أبو راس قد حج مرتين على الأقل ، الأولى سنة 1204 والثانية سنة 1226 . ويهمنا من تآليفه الكثيرة رحلته التي أطلق عليها عدة أسماء منها (عدتي ونحلتي فى تعداد رحلتي) ومنها (فتح الآله ومنته فى التحدث بفضل ربي ونعمته) . ومهما كان اسم هذه الرحلة فان صاحبها قد ضمنها أخبار من لقيه وأخبار شيوخه بالمشرق والمغرب ، ولعله قد ضمنها أيضا حديثا عن مشاهداته ومعايشاته فى الجزيرة العربية . ونحن نقول (لعل) لأننا كنا اطلعنا على هذه الرحلة مخطوطة فى المغرب الاقصى (24) وأخذنا منها ، أثناء زيارة

قصيرة ، ما يتعلق بالجزائر ، ولكننا غير واثقين الآن من محتواها المتعلق بالجزيرة العربية وأخبار الحج عامة ، لبعدها عنا في الوقت الراهن .

واقتداء بابن رشيد والخطيب ابن مرزوق والعياشي والدرعي ، رحل أبو راس الناصر الى الحجاز قاصدا الحج ، عازما على أن يكتب مثلهم رحلة يسجل فيها مشاهداته وانطباعاته وأخباره ، ولكن ما وجدناه من رحلته لا ينطبق عليه ما عزم هو على تحقيقه . وهو في (فتح الاله) كان متأثرا بالسيوطي أكثر من تأثره بالعياشي ، كما صرح هو بذلك عند تبريره تسمية كتابه (25) . ويبدو أن أبا راس كان مهتما بالحديث عن العلماء الذين كانوا يجادلونه ويجادلهم ويجيزونه ويجيزهم أكثر من اهتمامه بالمعاهد والديار ، والمشاهدات والاخبار ، كما فعل العياشي والدرعي أو الورتلاني ، ولذلك لاحظ بعضهم أن رحلة أبي راس لا تتحدث عن البلدان وانما تتحدث عن الشيوخ الذين درس عليهم أو الذين لقيهم صاحبها ، فهي بناء على رأي هذا الباحث غير مهمة (26).

وهذا الاهتمام يظهر في تقسيم أبي راس للرحلة ، فقد جعلها خمسة أبواب ، فتحدث في الباب الاول عن ابتداء أمره ، كما قال ، ويعني به طفولته وشبابه ، وتعلمه وتدربه ، وزواجه وأهله ويعنينا منه هنا حديثه فيه عن حجاته ، وفي الباب الثاني عدد شيوخه سواء في الجزائر وبلدان المغرب العربي الأخرى أو المشرق ، بما في ذلك شيوخه في الحجاز ، وقد خصص الباب الثالث للحديث عن رحلته الى المشرق وغيره ، وتناول الباب الرابع أجوبة على مسائل عرضت عليه أو وردت اليه من مختلف البلدان ، أما الباب الأخير فقد خصصه للحديث عن تآليفه .

وقد سلك أبو راس طريق الحج العادي ، فيما يبدو ، غير أنه قد ذهب بحرا خلافا لمواطنه الورتلاني . ومن مصر ركب الى ينبع

ومنها الى مكة المكرمة فالمدينة المنورة ، ويبدو أن هذا هو طريقه فى كلتا الحجتين .. وقد سجل فى حجته الثانية (1226 — 1227) انه التقى فى مكـــة بالعلماء الوهابيين ، دون أن يذكر واحدا منهم بالاسم وقال انه تناظر معهم وعقب على ذلك بقوله « ظني انهم حنابلة المذهب » ثم أضاف قوله « علمت انهم خارجون عن المذاهب الاربعة فى الفروع وأما العقائد فهم على ما عليه الامام أحمد » . كما انه التقى بعلماء المدينة . وسجل أنه سئل فى مكـــة عن أصل كل علم وسبب تدوينه . وفى المدينة عن العقائد . ولو كانت رحلة أبي راس قريبة منا لعدنا اليها . واستفدنا منها أخباره عن الجزيرة العربية وأهلها وظروفها وعلمائهـــا وحوادثها ولكن قاتل الله البعد . بالاضافة الى ذلك فالرحلة ما تزال مخطوطة ولا نعرف أحدا تناولها بالنشر باستثناء الدراسة التي كتبهـــا حولها الجنرال فور ببقي المشار اليه وهو قد أخذ منها ما يتعلق بحياة أبي راس ولم يدرس محتواها العام (27) .

رحلـــة الورتـــلانـــي :

أخرنا الحديث عن رحلة الورتلاني رغم أن مكانها فى الترتيب الزمني . قبل رحلة أبي راس ، لعدة أسباب . منها انها الوحيدة المطبوعة فى شكلها الكامل ، خلافا لرحلة ابن عمار التي لم يطبع منها سوى مقدمتها كما عرفنا ، ومنها أيضا انها الوحيدة فيما وصل الينا . التي تتحدث باسهاب عن أحوال الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر الميلادي (12 هـ) . ولهذه الاعتبارات وغيرها أردنا أن نقف عندها وقفة أطول مما سبقها .

ولد الحسين بن محمد السعيد الورتلاني (نسبة الى بني ورتلان بالجزائر) فى الجزائر سنة 1125 هـ وتوفي بها أيضا سنة 1193 هـ . وهو من أسرة مرابطين (أهل الطرق) تدعى الشرف . وقد تثقف فى وطنه ثقافة عصره واختلف الى الزوايا الموجودة بمنطقته . وكان يكثر من الزيارات وأخذ طريق القوم . الى أن أصبح هو مرابطا (شيخ

الطريقة الشاذلية) وأصبح الناس ينظرون اليه نظرة احترام واجلال حسب مفاهيم ذلك الوقت ، وقد تزوج عدة مرات وأنجب أولادا ، غير انه كان فقيرا ويعيش عيشة تقشف وزهد . وحج الورتلاني ثلاث مرات على الاقل ، الاولى كانت سنة 1153 هـ والثانية سنة 1166 هـ . والثالثة 1179 هـ . ويبدو انه كان يجمع أخبار الحجاز فى كل مرة ، غير أن الحجة الاخيرة هي التي حملته على كتابة رحلته التي سنتحدث عنها . وفى الحجات الثلاث أيضا كان يتوقف فى مدن وزوايا وطنه ويزور ويأخذ الطريقة والعلم على مشائخها ، وعلمائها . كما فعل نفس الشيء فى تونس ومصر والحجاز ، وقد سجل ذلك فى رحلته .

ولم يكتب الورتلاني رحلته بيده ولكنه أملاها املاءا على تلاميذه ، كما جرت عادة المشائخ عندئذ ولذلك تعددت نسخها وكثر فيها الخطأ ، كما افتقرت الى المنهج القويم . وامتلأت بالاستطرادات والتكرار .

حقا ان هناك ما يدل على انه كان يكتب مذكرات أثناء الحج لكي يستعملها فى الرحلة بعد عودته ، ولكنه يخبر عن نفسه انه قد أضاع دفتره وهو فى الطريق كما أخبر انه قد أملى جزءا على أحد علماء جزيرة جربة وانه كان يغتنم فرصة استراحة القافلة ويجلس للكتابة ، غير أن الظاهر أن ذلك كان مجرد كتابة مذكرات وملاحظات من وحي المناسبة ، ومهما يكن الامر فانه قد ذكر منذ البداية انه بعد زيارة آثار الرسول الاعظم وأداء مناسك الحج والتعرف على (الرباع والقفار والديار والمناطق والمياه والبساتين والارياف والقرى والمزارع والامصار والعلماء والفضلاء والنجباء والادباء من كل مكان ... أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي ، فانها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الاخبار ...) (28) .

وقد اعتمد الورتلاني فى رحلته على مصادر كثيرة بعضها يتعلق بالجزائر والمغرب العربي عموما (29) وبعضها يتعلق بالمشرق ، ولاسيما الجزيرة

العربية وتهمنا الآن مصادره الثانية وأهمها ، بعد المشاهدة الشخصية ، رحلة العياشي ورحلة الدرعي ، والسمهودي ، والمقريزي ، وابن فرحون ، والبكري والعبدري ، والسيوطي ، وابن رشيد . وكان الورتلاني كثيرا ما يعتمد كليا على هذه المصادر حتى انه كان ينقل منها نقلا حرفيا طويلا تارة منسوبا الى صاحبه وتارة غير منسوب . وأكثر ما يكون ذلك فى وصف جبال الجزيرة العربية ، ووديانها ، وطرقها . ومدنها ، وآثارها . وعادات أهلها ، وآبارها ، ومياهها ، ومساجدها ، وأخبارها ، كما سنعرف . وكان جل اعتماده من هذه المصادر على الرحلتين الاوليين .

الورتلاني وامراء مكة :

حكم الورتلاني حكما قاسيا على النظام السياسي فى الجزيرة العربية فى وقته ، وقال أن الاوضاع فيها كانت تسير من سيء الى أسوأ حتى أن الحج كاد يسقط فى نظره أمام تلك الاوضاع . فقد أدى فريضة الحج الاولى فى عهد الامير مسعود بن سعيد الذي توفي سنة 1165 هـ (30) . أما حجتاه الثانية والثالثة فقد كانتا فى عهد الامير مساعد بن سعيد ، أخ مسعود المذكور ، الذي توفي سنة 1183 هـ ، ويلاحظ أن الامور قد ساءت كثيرا بين الحجة الاولى والثالثة ، ذلك أن الظلم قد كثر وانتشر الاعتداء ، ولم يعد المرء آمنا على نفسه فى الحجاز . ولم يكن الامر مقصورا على ظلم الناس بعضهم لبعض بل أصبح يصدر عن الولاة أيضا . وبعد أن قارن الورتلاني بين عهد الامير مسعود والامير مساعد قال : (وهذا كله يرشد الى أن الزمان قد زاد فى الظلم والتعدي) مضيفا بأن الحج كاد أن يكون ساقطا من ظلم الولاة وأصحابهم (31) .

ولم يكن هذا التدهور قد أصاب الاوضاع السياسية فحسب بل تجاوزها فى نظر الورتلاني الى الاوضاع الدينية أيضا . فقد ذكر أنه رأى فى خليص مسجدا ينسب الى الرسول (قد تهدم وامتلأ أوساخا وصار اصطبلا للدواب) ، وعلق على ذلك تعليقا قويا مستنتجا بأنه يدل على

ضعف الاهتمام بالدين وعلى همود الوازع الخير لدى الولاة عندئذ ، فقال : (لقد ضعف الدين ، وقلت الرغبة في الخير حتى يكون بهذه المثابة المكان الذي دخله سيد الاولين والآخرين) (32) . ولم يسعه هو الا أن ينبه أمير الركب المصري الذي وعده باصلاح المسجد .

وروى الورتلاني قصة دخوله على أمير مكة عندئذ في داره ويسميه (السلطان) مساعد . ذلك أن اللصوص قد أغاروا على ابل للركب الجزائري فأوفد الحجاج الورتلاني الذي كان من أهل العلم والصلاح كما عرفنا ، وجماعة آخرين ليخاطبوا الامير في ذلك الامر . وقال الورتلاني ان الامير قد أذن له وحده بالدخول أما زملاؤه فقد ظلوا بالباب ينتظرون عودته . فدخل على الامير وقبل كتفه فقبل الامير كتفه أيضا . وسأله حاجته فأجابه عنها ، وذكره الورتلاني بالحديث الشريف (كلكم راع ...) فأكمل الامير الحديث ، حسب رواية الورتلاني . وقال ان الامير قد سر به لما (علم اني صاحب علم) . واعتذر له ووعده برد الابل المسروقة . ونقل الورتلاني عن الامير قوله : (ما ضيع الأحكام الا الأشراف فان أمرهم قد قوي علي وعلى غيري . أو كلاما هذا معناه) (33) . ويبرهن هذا على أن الامير كان يشكو خروج الامر عن يده ، وان السيطرة على الموقف كانت صعبة . ومهما كان الامر فان الامير قد سأل الورتلاني عن وطنه ونسبه ، وودعه بحرارة وسأله الدعاء له ولذريته .

الامــن العــــام :

ويكاد يطغى على رحلة الورتلاني موضوع واحد هو الامن العام . ذلك انه كلما تحدث عن قافلة أشار الى اللصوص الذين كانوا يتربصون بها أو أخبار الاعتداءات التي وقعت على القوافل السابقة وهكذا . ولم يكن الحاج ، حسب أخباره آمنا على نفسه في الطريق فسواء كان رحيله بالليل أو بالنهار في جماعة أو مفردا في الخلاء أو وسط العمران فهو معرض للاعتداء أو السرقة ونحو ذلك من أنواع الخوف وعدم

الاطمئنان ، مما أثر على معنويات الحاج وجعل الحج نفسه يكاد يكون ساقطا حسب تعبيره ، كما اشتكى الورتلاني من شيوع الرشوة والفساد بين الشيالين ، كما يسميهم ، وهم الذين كانوا يرشون الحكام الظالمين ويشتكون اليهم . والضحية فى ذلك هو الحاج . وهناك أخبار كثيرة رواها الورتلاني عن هذه الامور نكتفي بايراد بعضها .

ومن ذلك انه روى أن الحجاج فى وقته لم يعودوا ينزلون الى المحصب طبقا للسنة (لكثرة الاذاية والخوف من اللصوص) . وقد زاد الفساد والظلم والتعدي من الأشراف وغيرهم من أصحابهم فلا يكادون يرجعون عن التعدي . وأضاف بأنهم يقتلون الانسان على أتفه شيء وقد قتلوا صاحب صديقه سيدي محمد بن قسوم الريغي على شربه الماء (34) .

وعندما كانوا فى منى قال ان الحجاج تحملوا متاعب كثيرة من أجل أن يتقوا شر اللصوص والاعتداء فقد نزلوا بالقرب من جبل ثبير تقية من اذى السراق حيث يستجير الناس بعضهم ببعض (... ولا يبالون فى ذلك وطء الأقدام أو تقطيع الحبال ، وكثرة الزحام وتعفن الأرجاء واستنشاق الروائح الكريهة ..) غير انه لاحظ انه هو وأصحابه لم يتحملوا هذه المضار قائلا وكذلك فعلنا فى كل ما مضى من الحجات (35).

وبالقرب من عسفان كانوا يمشون (متقلدين بالحديد نحو الاثنتي عشر بندقية) ورأوا هناك جموعا من العرب أصابهم منها خوف شديد لأنهم لا يغادرون أحدا الا قتلوه وأخذوا ماله ، وذلك معلوم ضرورة (36) . وقد سيطر عليه الخوف عدة مرات ، أحيانا على نفسه وأحيانا على ولده وعياله الذين كانوا معه . فعند خروجهم من المدينة سمع الناس يقولون لهم (ان العرب يضرونكم ويؤذونكم) وقد خاف على نفسه لأنه تخلف عن الركب ، كما أصابه الخوف فى أبيار علي التي قال عنها انهم خرجوا منها (مع الخوف والحرامية يتبعون وراءنا الى أن وصلنا الى الركب)(37). وفى الطريق وصف موضعا آخر لم يحدده ، فقال عنه (تكثر فيه فساق

العرب ومحاربوهم قل أن يخرج الركب سالمين منه) (38) . وفى المدينة أيضا خاف على ولده محمد الذي تخلف وراءهم من أن يأخذه اللصوص (39) .

ولكن خوف الورتلاني لم يكن دائما فى محله . فالى جانب الشر الذي كان يصفه هناك الخير الذي كان يظهر من وقت الى آخر . وقد ذكر بعد الخوف الذي أصابهم فى عسفان ، أن رجلا قد انفصل عن الأعراب وجاء الى الركب وأنذرهم بأن الأعراب يستعدون لشرهم ، فكان هذا رجلا صالحا فى نظر الورتلاني (40) . وهناك حادثة أخرى يظهر فيها الخير أيضا . فقد روي انهم مرة أوشكوا على الهلاك عطشا بالقرب من النبط فاذا بعربي (لقينا بقربة من الماء فأسقى جميعنا) فوجدوه ماء حلوا كالعسل حسب تعبير الورتلاني وظنوا أن الرجل لا يريد الا النقود ، فاذا به لا يتكلم أبدا ولم يطلب دراهم كما هي عادة أهل الحجاز ، بل أخذ قربته وغاب فوقع فى قلوبهم انه رجل من أهل الله (41) .

ولا يمكن أن تتهم الورتلاني بالتحامل . ذلك انه بقدر ما كان قاسيا على أهل الحجاز أحيانا كان قاسيا أيضا على المصريين والتونسيين ، بل حتى على أهل بلاده ، فقد جاء فى الرحلة عن الركب الجزائري فى الحجاز قوله (أهل وطننا فيهم الغلظة والجفاء وسوء الادب ، وعدم اذعانهم للحكم) ، وفى مكان آخر قال عنهم (وأما الركب الجزائري فلا حكم عندهم أصلا ، ولا يتفقون عند الامر والنهي) (42) وكرر هذا المعنى فى عدة مناسبات (43) وبلغ به الأمر ذات مرة انه انفصل عن ركب أهل بلاده غاضبا وانضم الى الركب المصري . لذلك فاننا نعزو ملاحظات الورتلاني المتعلقة بالأمن والفساد فى الحجاز وغيره الى ضميره الخير الذي كان لا يرضى على رؤية الاعوجاج فى الطبيعة الانسانية . ولاشك أن دافعه فى ذلك حب الخير والصلاح ، فهو كما عرفنا من أهل العلم وأهل الطريق ، وكان عمره أثناء الحجة أربعا وخمسين سنة .

وصفه المدن والقرى ونحوهـا :

وقد احتل وصف المدن والقرى والآبار ونحو ذلك مكانا بارزا في رحلة الورتلاني وكانت بعض أخبار هذه الامور منقولة عن مصادر أخرى ، وبعضها من مشاهداته الخاصة . وسنحاول هنا أن نذكر نماذج من القسم الاخير ، ذلك اننا نود أن نعرف رأي الورتلاني الشخصي في الموضوع . أما نقوله فرغم أنها تعبر عن مواقفه وهواه ، فانها لا تدل على نفس الحرارة التي يحدثها الحكم الشخصي .

فعن (سبع وعرات) قال انها أول بلاد الحجاز بالعمارة (وأن الحجاج قد استبشروا بوصولهم اليها لأنها آخر موضع وصله الرسول . ولأن أخبار المدينة توجد فيها) . ووصفها بأنها (روضة من رياض الله تعالى تصلح للمنقطعة وللغرباء والمساكين) وانها مرسى هام يمثل مفترق الطرق بين المشرق والمغرب وأن فيه أسواقا نافقة وفواكه عديدة ، وأهم من ذلك قال عنها ان فيها (قرى كثيرة ومزارع ونخل وعيون جارية) (44) .

وتحدث أيضا عن كل من بدر ورابغ وقال عن الاولى بأنها (قريه عظيمة طيبة روضة من رياض البلدان) وربط بينها وبين ما وقع فيها من انتصارات تاريخية . مضيفا بأن الرسول كأنه ما يزال فيها وأن العارفين بالله تنفتح أمامهم هناك الأسرار وتهبط الأنوار . أما في وقته فقد كانت بدر ذات مياه غزيرة تكفي خلقا كثيرا وفيها بساتين ونخل ، كما كانت النيران توقد فيها بكثرة ، وآكد انه سمع فيها أثناء حجاته الثلاث صوت الطبل الذي وقع به النصر للرسول ، وانه لا يسمعه الا من خصه الله بتلك المزية العظمى . وقد رد الورتلاني على من يرى غير ذلك ، واعتبر هو ذلك الصوت من معجزات الرسول الباقية (45) .

أما عن رابغ التي أحرموا منها ، فقد وصفها بأنها (قرية عظيمة كثيرة المزارع والمقاثي والنخل والمياه وسوقها عظيمة (46) . ووصف الورتلاني أيضا قديدا وعقبة السكر ، وخليصا ، وعسفان ، ووادي فاطمة ، والتنعيم

الخ .. ولا نريد أن نأتي على كل ذلك ، وحسبنا أن نشير الى أن قديدا لا ماء فيها الا ما يجلب اليها من بعيد (47) . وقال عن عقبة السكـــر أن (الانسان يغيب عن حسه) فيها لقربها من مكة . ويكثر الماء فى خليص وفرة عظيمة وقال ان فيها بركة ماء كبيرة يغرق فيها من لا يحسن السباحة ومنها تخرج السواقي للأرض المحروثة (48) ووصف ماء عسفان بأنه عذب ولكنه ساخن (49) . وقال عن وادي فاطمة بأنه (نهاية سير البوادي) كما وصفه بكثرة المياه والبساتين .

ويطول بنا الحديث لو ذكرنا كل ما جاء فى الرحلة من أخبار عن مكة والمدينة ولكننا أشرنا من قبل الى أن الورتلاني قد نقل أغلب أخباره عن تقاليد أهل هذين الموضعين الشريفين من غيره . ولا نرى داعيا لنسبة تلك الاخبار اليه هو ما دام لا يسجل فيها عواطفه وأحكامه الخاصة غير أن هناك أمورا قد وقعت له هو فى كلتيهما ، من ذلك ما ذكره من أنه كان يعلم بعض أهل بلاده مناسك الحج ويطيف بهم فلما رأى أهل مكة ذلك اعترضوا عليه وقالوا له (ألم تعلم ان أهل مكة لا ينتظرون الا هذا الموسم طف لنفسك واترك الناس) ، وبعد المفاوضات اتفقوا على أن يستمر هو على ما كان فيه ويأخذوا هم الأجرة من الحجاج (50) . ولاحظ أيضا انهم عند دخولهم مكة أخذوا الثنية العليا التي دخل منها الرسول . وذكر أن الولاة قد بالغوا فى حفر هذه الثنية وفى تنقيتها حتى صـــارت كأحـــد الأزقـــة (51) .

وفى المدينة ، عدد المشاهد والآثار والآبار وغيرها التي كانت فى نظره جديرة بالزيارة وأضاف انه كان قد زار المدينة ثلاث مرات ، ولكنه لضيق الوقت (لم يستطع أن يؤدي حق الزيارة لكل منها لأن المسافر فى نظره لا يمكنه تنظيم الزيارات وهو على سفر (52) . لذلك عزم على المجاورة فيها ، غير أن زوجه المريضة والحاح الركب عليه بالعودة معهم وقولهم له بأنهم سيبقون أيضا اذا بقي وعرضهم المال عليه اذا كان فى حاجـــة

الى مال كل ذلك جعله يغير رأيه ويفارقها رغما عنه (53) . ذلك أن المدينة قد ارتبطت بها نفسه الزاهدة منذ كان فى خليص ، فقد شاهدوا من هناك أنوارا من جهة المدينة فتأكدوا وانه نور الرسول وأنه لا يمكن أن يكون فى نظره برقا لأن البروق تغير مكانها ولأن الليلة كانت صحوا . وهكذا اندفع الرجال فى التلبية والذكر واندفعت النساء فى الزغاريد (54) . وقد أكد هذا المعنى عندما قال انه شاهد أنوار الرسول من المدينة عندما كانوا فى بدر ونفى أيضا أن تكون تلك الانوار بروقا (55) .

الحيــاة العلميــة :

أما الحياة العلمية فقد اهتم بها الورتلاني أيضا ، ولكنه لم يسجل أخبارها بنفس التفصيل الذي سجل به مثلا تقاليد وعادات أهل مكة والمدينة ، أو أحوال المدن والقرى والمياه والطرق لتي مروا بها ، والغريب انه كان فى مصر يذكر العلماء الذين أخذ عنهم الطريق أو درس عليهم أو أجازوه أو تناقش معهم فى مسائل علمية كثيرة ، ولكنه بالنسبة الى الجزيرة العربية لم يذكر من ذلك الا القليل بل لا نكاد نجد له شيئا من ذلك . حقا انه نقل عن الدرعي والعياشي عددا من أسماء العلماء وسيرهم وبعض أخبارهم فى كل من مكة والمدينة ، وعندما وصل الى دوره هو أجاب اجابة اجمالية لا تفيد الباحثين كثيرا . فقد قال بعد أن نقل أخبار العلماء والمفتيين الذين لقيهم الدرعي فى مكة وأما من فيها (يعني مكة) فقد لقيت كثيرا من الفضلاء الأجلة والبدور الأهلة (56) . هكذا بدون تحديد . فمن هم هؤلاء ؟ ذلك ما لا تفصح عنه الرحلة .

وقد التقى بأحد علماء البحرين أثناء ذهابه الى عرفات وروى ما دار بينهما فقال ان الرجل كان ضريرا وانه كان من فقهاء المالكية ، ووصفه بالعظمة فى الفقه وانه كان يحفظ أكثر الشراح ، وان مسائل الفقه كلها على طرف لسانه . ويبدو أن ما عدا الحجاز فى نظر الورتلاني هو جزيرة العرب ، فقد قال ان الرجل (وهو لم يذكره بالاسم) كان من جزيرة

العرب ، ثم وضح فقال (أي من البحرين) وقد سأله الورتلاني عن أهل البحرين فقال الرجل ان أكثرهم مالكيون (57) . وقد اتفق معه على اللقاء فى المسجد الحرام ، ولكن الورتلاني لم يعد الى الموضوع فى الرحلة ولا ندري ماذا دار بينهما ان كانا قد تلاقيا من جديد .

والظاهر أن الورتلاني كان مهتما بالمذاهب والملل . فهو كرجل مالكي المذهب ، حسني النسب ، حسب دعواه ، طرقي السلوك ، كان لا ينفك يبحث عن الأنساب ورجال الصلاح ، وأصحاب الكرامات والولايات ، وكان ذلك واضحا من حديثه عن هؤلاء فى بلاده وفى مصر وطرابلس والحجاز وغيرها . وكان ينقل الكثير من ذلك عن المصادر التي أشرنا اليها . وعندما مر هو ببدر قال عنها (قد توطنها الأشراف ونزلوا بها من قديم الزمان وفيها أهل السنة ، وكذا الزيدية ، أعني الخوارج الظاهرية ، وهم فى الاعتقاد قدرية) (58) .

أما فى المدينة فقد ربط علاقة ودية وعلمية مع أحد العلماء هناك ، وهو الشيخ السمان القرشي المدني فقد دخل عليه الورتلاني فى داره التي كانت بالبقيع ووجد عنده مجلسا من العلماء فأطعمه طعاما شهيا قال عنه الورتلاني انه لم يذق مثله من قبل . وكان للشيخ السمان « صلاة عظيمة تكاد أن تكون كصلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش » وقد طلب من الورتلاني وضع شرح على الصلاة المذكورة المنسوبة اليه ، فتواضع الورتلاني وقال انه ليس أهلا لشرحها ، ولكنه عندما تأكد من أن الشيخ قد « لاحظه بخاطره » لم يسعه الا القبول . وأخبر الورتلاني انه قام فعلا بهذه المهمة وأدعى انه قد جاء فيه بعلوم شتى وأن الله قد وفقه الى ذلك فهو الذي (فتح .. بعلوم لا تكاد توجد فى عصرنا) عند شرحها (59) . واذا أخذنا بالمثل القائل (الطيور على أشكالها تقع) فاننا لا نستغرب أن يلتقي الورتلاني بالشيخ السمان الذي يبدو وأنه كان من صنفه هو . فقد وصفه الورتلاني بأنه (الصفي الودود التقي ، ذي الاحوال الصادقة

والأنفاس الطيبة ، والأعمال الزكية والمواجد الالهية ، والمعارف الربانيه والعلوم الدينية ، صاحب الأوراد والمريدين (60) .

* * *

ويظهر بوضوح مما سبق أن الرحلات الجزائرية الحجازية ، على قلتها، وضياع بعضها ، تعتبر مصدرا هاما من مصادر تاريخ الجزيرة العربية . فالبحث عن الضائع منها ودرس الموجود وتقييمه واجب علمي فى هــذه المرحلة من تطور الأمة العربية ونهضة العالم الاسلامي . وليس هذا البحث الذي قمنا به سوى بداية فى هذا الطريق الصعب .

الحــــــواشي

1 ـ انظر تفاصيل ذلك فى كتابنا (تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1970 .

2 ـ نعالج هذه النقطة فى كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافى) الذي هو بصدد الاعداد ، كما عالجناه باختصار فى دراستنا عن ابن العنابي ، وأبي راس الناصر وابن حمادوش التي سياتي ذكرها .

3 ـ أنظر الدراسة التي كتبها السيد بيير بواييه فى مجلة (الغرب الاسلامي عن (السياسة الدينية للعثمانيين فى الجزائر) .

4 ـ طبع الجزائر حوالي 1910 نشر محمد بن أبي شنب .

5 ـ ما زال مخطوطا وتوجد منه نسخة لدى الشيخ المهدي البوعبدلي ، وقد اهدى منها صورة مصورة الى المكتبة الوطنية الجزائرية .

6 ـ تناولناه فى دراسة خاصة نشرت فى (المجلة التاريخية المغربية) تونس عدد يناير 1977 .

7 ـ طبع الجزائر 1908 ، نشر محمد بن أبي شنب ، وسياتي الحديث عليها .

8 ـ أنظر دراستنا عن أبي راس الناصر فى مجلة (تاريخ وحضارة المغرب) عدد 12 ، الجزائر 1974 ، وهو البحث الذي ساهمت به فى ندوة عن عبد الرحمن الجبرتي ، القاهرة ، 1974 .

9 ـ وهو شرح أدبي بلاغي كبير رأيت نسخة منه فى دار الكتب المصرية ولا يحضرني الآن رقمها .

10 ـ الجزائر ، 1901 قام بترجمتها ونشر نصها العربي والفرنسي الجنرال فور بيقي .

11 ـ النص العربي والفرنسي فى المجلة الافريقية سنة 1900 ، 259 ـ 282 بعنوان (رحلة من تلمسان الى مكة) .

12 ـ جاء فى كتاب (دليل مؤرخ المغرب) لابن سودة ، ص 482 ان عالما تلمسانيا من القرن 18 قد نظم رحلة حجازية همزية بداها من تازة بالمغرب الاقصى الى الحجاز فالشام ومطلعها :

ازمــع الســير ان دهــت أدواء   لشفيــع الانام فهــو الــدواء

وفى المكتبة الوطنية الجزائرية قصيدة طويلة فصيحة تقع فى أحد عشر ورقة نظمها الشيخ عبد الرحمن المجاجي ، وهي مفهرسة بعنوان (رحلة الى مكة) ولها أرقام عديدة منها 1264 .

13 ـ رحلة العياشي المعروفة (بماء الموائد) طبع فاس على الحجر .

14 ـ بعنوان (نحلة اللبيب فى أخبار الرحلة الى الحبيب) ، الجزائر ، 1902 .

15 ـ أنظر الدراسة التي كتبها بالفرنسية السيد الحاج صادق بعنوان (المولد النبوي) عند ابن عمار ، طبع المعهد الفرنسي بدمشق حوالى 1957 .

16 ـ له أجازة أجاز بها ابنه أحمد الزروق وأحد علماء قسنطينة ، وقد أطلعنا على نسخة مخطوطة منها في احدى المكتبات الخاصة بالجزائر وقد ذكر فيها على الاقل عشرين شيخا من شيوخه .

17 ـ أنظر مخطوط رقم 2160 بالمكتبة الوطنية الجزائرية .

18 ـ تناولت حياة ابن حمادوش ورحلته في دراسة قدمتها الى المؤتمر الاول لتاريخ وحضارة المغرب المنعقد بتونس (ديسمبر 1974) ، وقد نشرت هذه الدراسة (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق) (عدد أبريل 1975) ثم نقلتها عنها مجلة (الاصالة الجزائرية عدد أكتوبر 1976) .

19 ـ أنظر دراسة الحاج صادق المشار اليها ، وكذلك (فهرس الفهارس) ص 83 للكتاني .

20 ـ يقول الكتاني أن ابن عمار قد ترجم في هذا الكتاب الى حوالي مائتي عالم ، نفس المصدر .

21 ـ ابن عمار ، نحلة اللبيب ، ص 4 .

22 ـ الجنرال فور ـ بيقي ، عن فتح الاله (المجلة الآسيوية) 1899 .

23 ـ النحلة ، ص 254 .

24 ـ كان ذلك في صيف 1973 .

25 ـ للسيوطي كتاب يحمل عنوانا شبيها بالعنوان الذي اختاره أبو راس ، أنظر دراستنا عن هذا الاخير .

26 ـ الجنرال فور ـ بيقي ، (المجلة الاسيوية) ، 1899 ، ص 316 .

27 ـ أبو راس الناصري (فتح الاله) مخطوط رقم ك 2322 و ك 2263 الخزانة العامة بالرباط ، أنظر أيضا فور ـ بيقي (المجلة الاسيوية) ، 1899 ، ص 392 .

28 ـ رحلة الورتلاني ، المعروفة (بنزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار) تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب ، طبع الجزائر ، 1908 ، ص 3 .

29 ـ كتب الحاج صادق خلاصة لرحلة الورتلاني بالفرنسية للجزء الخاص بشمال افريقية كما حللها واستنتج منها عدة استنتاجات قد لا نوافقه عليها ولكنها هامة ، وقد نشر هذه الدراسة في (المجلة الافريقية) بتـــــاريخ لا يحضرني الآن وعنوان الدراسة (رحلة عبر شمال افريقية) .

30 ـ أنظر أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ج 2 ، ط 2 .

31 ـ رحلة الورتلاني ، ص 42 ـ 422 .

32 ـ نفس المصدر ، ص 360 ـ 361 .

33 ـ نفس المصدر ، ص 421 .

34 ـ نفس المصدر .

35 ـ نفس المصدر ، ص 399 .

36 ـ نفس المصدر ، ص 449 ـ 450 .

37 ـ نفس المصدر ، ص 531 .

38 ـ نفس المصدر ، ص 536 .

39 ـ نفس المصدر ، ص 456 .

40 ـ نفس المصدر ص 449 ـ 450 .

41 ـ نفس المصدر ، ص 542 ـ 543 .

42 ـ نفس المصدر ، ص 542 .

43 ـ نفس المصدر ، ص 542 .

44 ـ نفس المصدر ، ص 374 .

45 ـ نفس المصدر ، ص 365 .

46 ـ نفس المصدر ، ص 378 .

47 ـ نفس المصدر ، ص 380 .

48 ـ نفس المصدر .

49 ـ نفس المصدر ، ص 381 .

50 ـ نفس المصدر ، ص 387 .

51 ـ نفس المصدر ، ص 384 .

52 ـ نفس المصدر ، ص 498 .

53 ـ نفس المصدر ، ص 530 .

54 ـ نفس المصدر ، ص 381 ـ 382 .

55 ـ نفس المصدر ، ص 376 .

56 ـ نفس المصدر ، ص 425 .

57 ـ نفس المصدر ، ص 389 .

58 ـ نفس المصدر ، ص 376 .

59 ـ نفس المصدر ، ص 530 .

60 ـ نفس المصدر .

رسالة عبد الرحمن الثعالبي فى الجهاد

أثناء تصفحي لمخطوط جزائري قديم وجدت رسالة لعبد الرحمن الثعالبي ، دفين مدينة الجزائر الشهير ، موجهة الى أحد تلاميذه فى نواحي بجاية . ولأهمية موضوع الرسالة ولكونها غير معروفة حتى الآن حسب علمنا رأينا أن نقدمها للقراء المهتمين بانتاج القرن الخامس عشر الميلادي المكتوب ضد الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا يهددون سواحل شمال أفريقية بالغزو . وقد كان دافعي لنشر هذه الرسالة ما نكاد نعرفه جميعا من أن عبد الرحمن الثعالبي قد اشتهر كعالم وزاهد وليس كداعية جهاد أو زعيم سياسي . ولكن هذه الرسالة تغير من نظرتنا اليه وهي لذلك فى نظرنا جديرة بالنشر .

والواقع أن شهرة الثعالبي قد غطت الآفاق ودرسه أكثر من واحد ، ولا تكاد تجد كتابا فى التراجم لا يتعرض للثعالبي بالقليل أو الكثير ، فحياته اذن معروفة ، وعصره مدروس الى حد كبير ، وبعض تآليفه متداول بين الناس ، وضريحه حجة للزائرين فى مدينة الجزائر الى اليوم ، فلو ترجمنا له هنا باختصار ظلمناه ولو ترجمنا له بالتفصيل خرجنا عن الموضوع . لذلك نكتفي فى هذا المجال بما يساعد على فهم الرسالة التي نرغب فى تقديمها الى القارىء .

فقد ولد الثعالبي سنة 786 (1384) بمنطقة وادي يسر بالقرب من مدينة الجزائر ، وهو ينتمي الى قبيلة الثعالبة العربية التي كـان لها

سلطان وفروع حول ساحل مدينة الجزائر وجبالها . ثم انتقل الى بجاية فتلقى العلم على مشائخها الذين ذكر بعضهم فى ثبته ؛ ومنهم النقاوسي والمانجلاتي والمشدالي ، وظل فى بجاية حوالي سبع سنوات ، ثم تحول الى تونس فلقى علماءها وأخذ عنهم . وبعد اقامة طويلة هناك توجه الى الحج وأخذ فى طريقه العلم عن علماء مصر وتركيا والحجاز ، وبعد حوالي سنتين فى المشرق عاد الى تونس ومنها الى الجزائر حيث توفي سنة 875 (1471) .

وقد كان عصره عصر اضطراب سياسي واجتماعي . فكانت الجزائر على عهده مقسمة بين بني حفص فى الشرق (قسنطينة ، بجاية ، عنابة) وبني زيان فى الغرب (تلمسان ، وهران ، ومليانة) . وكانت مدينة الجزائر وما جاورها من مناطق الوسط ميدان نزاع بين الدولتين المذكورتين . وكانت الامارات المحلية فى هذه المناطق توالي القوي من السلطتين، ومن بين هذه الامارات امارة الثعالبة بسهل متيجة وما جاوره الى وادي يسر ، حيث ولد الثعالبي . وقد زاد من الاضطرابات المذكورة تهديد الاسبان والبرتغاليين والايطاليين لسواحل شمال أفريقية واستغلالهم لنقاط الضعف فى الدويلات الاسلامية وانقضاضهم عليها . ومن بين النقط التي كانت مهددة فى وقت الثعالبي بجاية ، والجزائر ، ووهران ، وعنابة ، وجيجل وغيرها من المدن الساحلية ، وكانت بجاية خاصة موطن الذكريات للثعالبي لأنه فيها درس وتربى وتوسع أفقه العلمي على يد علماء بارزين . لذلك لا نستغرب أن يحرص على الدفاع عنها والجهاد فى سبيلها بنفس الحماس الذي أظهره فى الدفاع عن مدينة الجزائر وغيرها .

وقد كتب الثعالبي كتبا كثيرة ، معظمها فى الزهد والدين والتفسير والسيرة والتوحيد . وبعض هذه الكتب مطبوع مثل تفسيره المعروف (بالجواهر الحسان) . وتنسب اليه كرامات كثيرة ، ورسائل واجازات

وأدعية وأذكار ومنامات . بعضها مكذوب قطعا وبعضها صحيح . ولكن شهرة الرجل فى عصر ساد فيه الجهل والفقر والاضطراب والعجز عن دفع الظلم ــ كل ذلك جعل الناس ينسبون اليه آحيانا ما لم يقله ، أو قاله ولكنه لم يقصد به ما قصدوا اليه .

واذا كان دور الثعالبي فى الزهد والتصوف والاعتناء بأحوال الآخرة قد أصبح معروفا لكل دارس لحياته فان دوره « السياسي » فى التحريض على الجهاد ، والوقوف ضد الأعداء المغيرين ، ودعوة الناس للتسلح ضدهم بكل أنواع الأسلحة ، والاستعانة على ذلك بمختلف الوسائل الشرعية ، هذا الدور غير معروف فى نظرنا . ولكن الرسالة التي بين أيدينا تبرز هذا الدور . وبعبارة آخرى فان الثعالبي قبل هذه الرسالة كان فى نظرنا رجلا سلبيا متفرجا على الأحداث التي كانت تجري فى عصره ، أما بعد هذه الرسالة فقد أصبح فى نظرنا رجلا ايجابيا داعية خير وجهاد عمليا فى أفكاره وتصرفاته ، بالاضافة الى كونه رجل دين وصلاح وزهد وتصوف .

التعريف بالرسالة :

عثرنا على رسالة الثعالبي فى الجهاد ضمن مخطوط جزائري يعود تاريخ نسخه الى القرن الثامن عشر الميلادي . وقد وجدنا المخطوط بأحدى المكتبات العامة خارج الجزائر ، فنقلنا منه الرسالة المذكورة بخط اليد . وهي تقع فى ورقتين ، ضمن مجموع . (1) واسم الثعالبي فيها مكتوب هكذا : عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ، والرسالة موجهة منه الى محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف الذي كان حسب سياق النص ــ بمكان قريب من بجاية . وكان المكتوب اليه ، على ما يظهر ، تلميذا للثعالبي أو واحدا من أتباعه المقربين لأن الثعالبي قد دعاه فى الرسالة « مقام

1 ــ دار الكتب المصرية ، 15 مجاميع .

الولد » والرسالة فى الحقيقة كتبها الثعالبي ردا على رسالة وصلته من الشخص المذكور الذي استشار الثعالبي فى نقل كتبه الى زواوة (دون أن يقول من أين) فوافقه على ذلك بشرط أن لا تحمل الكتب بعيدا عن المكان المنقولة منه ، معللا ذلك بكون الأعداء يقصدون المدن ، فمن الحرص على الكتب ابعادها عن أماكن الخطر .

ثم اغتنم الثعالبي الفرصه وأضاف الى الرسالة حديثا طويلا عن الجهاد سنعرض اليه . أما اسم الناسخ للرسالة فهو سيدي يخلف ابن محمد الذي نقل ، حسب تعبيره ، من خط الثعالبي نفسه . فقد جاء فى آخر الرسالة ما يلي : « كملت من خط الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي » لكن تاريخ النسخ غير معروف ، كما لا يعرف مكانه ، غير أن الخط مغربي ، جزائري .

خلاصة الرسالـة :

كانت المراسلات تدور بين الشيخ عبد الرحمن الثعالبي ، من مدينة الجزائر ، وبين الشيخ أحمد الكفيف وولده محمد اللذين لا نعرف مكانهما بالضبط ، ولكن يغلب على الظن انهما كانا فى نواحي بجاية . وكان موضوع المراسلات ، فى أغلب الظن ، فى شؤون العصر من جهاد وجمع لكلمة المسلمين ، والمحافظة على الدين ، والمذاكرات العلمية . والرسالة التي بين أيدينا تجمع شيئا من كل ذلك . وهي موجهة من الثعالبي الى « مقام الولد » محمد بن أحمد الكفيف الذي استنصح شيخه فى نقل كتبه (وقد اصبح الخطر داهما) من بلدته (؟) الى جبال زواوة . فنصحه الثعالبي بذلك لأن الأعداء انما يقصدون المدن .

وعبر له الثعالبي أيضا عن فرحته من كون أهل بلد الشيخ الكفيف قد أخذوا يستعدون للجهاد بصنع درق العود الذي لا تنفذ منه السهام والسيوف بدل درق الجلد الذي لا يكاد يمنع نفاذها . وأضاف الثعالبي

بأنه قد جرب ذلك بنفسه . ذلك ان أهل مدينة الجزائر — وباديتها — قد قاموا هم أيضا يستعدون للجهاد ، بعد أن حرضهم هو عليه ، وصنعوا من أجل ذلك درق العود من الصفصاف ، وعندما أعوزهم الصفصاف صنعوا الدرق من الفرنان . وكان لتحريض الثعالبي أثر كبير على السكان، نساء ورجالا ، حاضرة وبادية ، علماء وعامة . وقد اطمأن الثعالبي نفسا على أهل بلاد الشيخ محمد الكفيف لأن والده الشيخ أحمد الكفيف قد اخبر الثعالبي انهم قرروا اخراج الأطفال والنساء والمال من المدينة ، اذا رأوا غلبة العدو ، وأنهم عازمون على أن لا يبقوا فيها سوى المقاتلين .

غير أن الثعالبي لم يكن مرتاحا من موقف أهل بجاية بالذات ذلك أن الخطر كان يتهددهم من جهة آمسيوين . وكان قد طلب من فقهائهم النهوض للجهاد ، والدعوة اليه فلم يعبأوا بكلامه . لذلك طلب من الشيخ الكفيف أن يكتب هو اليهم وأن ينبههم الى واجب القيام للجهاد واتخاذ الدرق بكثرة ، سواء فى البادية أو الحاضرة . ذلك ان كل عاقل ، حسب رأيه ، يتوقع هجوم الروم على بجاية والسواحل الاسلامية . فقد أصيب الروم فى القسطنطينية وفى غيرها بالهزائم ، وهم يتحمسون لمبدئهم ، متعصبون . وسوف لن يهدأ لهم بال حتى يهجموا على سواحل شمال افريقية . ورغم أن وقت هجومهم غير معروف، فان الدلائل تدل على أنه قد اصبح قريبا جدا . لذلك فان الاستعداد لهم ، فى نظره ، من الحزم ، بدليل ما رآه الثعالبي فى المنام من حث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، له على تحريض المسلمين على الجهاد فلو اطاع أهل بجاية على ما جاء فى هذه الرؤيا لما تخلوا أو تكاسلوا أو تقاعسوا عن الجهاد ، ولاعتمدوا على صنع الدرق الواقي بدل الأسوار العالية ولوفروا كل نوع من أنواع الأسلحة ، بما فى ذلك المكاحل .

أهمية الرسالة :

تكشف رسالة الثعالبي فى الجهاد على أمور هامة تستحق الدرس والاعتبار . فقد كشفت عن نظرة عبد الرحمن الثعالبي الدولية واطلاعه الواسع على أحوال العالم عندئذ بالاضافة الى معرفته الدقيقة بأحوال بلاده ، فهو من جهة يتحدث عن الروم فى المشرق (القسطنطينية التي ضاعت من الروم منذ 1453 م — 857 هـ) ويربط بين ما حدث لهم هناك وبين وشوك هجومهم على سواحل المغرب العربي . ولم يكن الأسبان والبرتغاليون الا فرعا آخر من فروع بني الأصفر (الروم) . وهو يتحدث أيضا عن دراية عن طبائعهم وترابطهم وحماسهم الشديد لدينهم وكرههم للمسلمين . وقد استعمل الثعالبي هذه النقاط لاثارة حماس قومه وايقاظ مشاعرهم الدينية والرجولية للدفاع عن دينهم ووطنهم .

والرؤى الصوفية كثيرة لدى العلماء فى ذلك الوقت . وتنسب الى الثعالبي منها رؤى كثيرة . ونحن نجد فى هذه الرسالة اعتماد الثعالبي على منامة أو رؤيا . واذا كنا الآن لا نستطيع أن نتهم الثعالبي باختلاق هذه الرؤيا لغرض نبيل وهو الحث على الجهاد ، فان غيره قد استعمل هذه الرؤى لأغراض غير نبيلة او على الأقل لاغراض غير سياسية أو جهادية ، فهم يستعملونها لتنويم العامة واستغلال ما عندها من مال ونحوه . أما الثعالبي فقد استعمل رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم لاقناع العوام وأشباههم بوجوب الاستعداد لمقاتلة المعتدين على أوطانهم ، وهو رجل تشهد الروايات وسيرته ومؤلفاته على زهده الحقيقي وتجرده من الهوى الشخصي وغيرته على الدين وحرصه على المصلحة العامة . فزهده حينئذ لم يمنعه من الاهتمام بالسياسة وعلمه لم يحل بينه وبين الدعوة الى الجهاد فى سبيل الله . وقليل من العلماء كانوا على شاكلته .

وقد دق الثعالبي ناقوس الخطر فى الوقت المناسب ، ولكن المنصتين له كانوا قلة . فهو لم يكتف بحث العامة وتنبيهها الى الخطر المحدق بها

ولكنه وجه رسائله وخطابه ، المباشر وغير المباشر ، الى الفقهاء (العلماء) أيضا ، ومن هؤلاء فقهاء بجاية التي كان قلب الثعالبي يتحرق خوفا عليها ومن الغريب أن الثعالبي لم يشر الى اسم أي حاكم أو أمير فى تلك الأثناء ، فكأن نضاله كان نضالا « شعبيا » ولم يكن يعتمد لا على قوة أميرية ولا على قوة خارجية ، وانما كان اعتماده على الشعب نفسه ، مستعملا فى ذلك علمه ونصحه وسمعته وحتى الرؤيا النبوية ، لدفع الشعب للجهاد والتحرك السياسي . ومن ثمة نفهم لماذا كان غير راض على فقهاء بجاية لعدم ايجابيتهم فى الوقت الحرج ولأنهم بذلك قد حالوا بينه وبين الشعب الذي وجه اليه خطابه ، على نحو ما فعل مع أهل مدينة الجزائر ونواحيها . وما دام موضوع الثعالبي هو الشعب نفسه ، فانه كان لا يفرق بين أهل الحاضرة والبادية ، فالجميع قد وجه اليهم الخطاب والجميع قد استجابوا له فى نواحي الجزائر ولكنه لم يستطع أن يصل اليهم فى نواحي بجاية . وعدم تعرض الثعالبي لرجال السياسة يدل مرة أخرى على الفراغ السياسي وانعدام القيادة الحكيمة عندئذ فى بلاد الجزائر عامة ، فالناس قد تركوا لانفسهم يدبرون أمرهم ويدافعون عن حريمهم وأموالهم وأوطانهم ، وكأنه لا وجود للسلطان أصلا .

ومن جهة أخرى تكشف هذه الرسالة عن خبرة الثعالبي الدقيقة بشؤون الأسلحة الموجودة فى عصره ، وعن طرق الدفاع الحكيمة . فهو يذكر من أنواع الأسلحة السيوف ، والنشاب ، وأنواع الدرق ، والمكاحل ، بالاضافة الى الأسوار ، كما يذكر أنواع الشجر الصالح للدرق وغير الصالح . ويشير الى زهيد الثمن منها وما يكلف أموالا طائلة ويتحدث فى ذلك عن تجربته وليس عن أمور نظرية أو فرضية . وهو ينصح بما هو موجود بكثرة ونافع فى بلاده وليس بذلك الذي لا يوجد الا فى أماكن بعيدة أو يوجد ولكنه قليل .

ولهذه الأسباب اعتبرنا هذه الرسالة هامة وجديرة بالدرس ، لا لأنها فقط تضيف الجديد عن شخصية الثعالبي ودوره العلمي والسياسي ، ولكن لأنها أيضا تسلط بعض الأضواء على عصره من الوجهة السياسية والاجتماعية فالعلماء والفقهاء كانوا يتنبأون بأمور ستحدث ، وكانوا يعتمدون التصوف والزهد والرؤى النبوية ، وكانوا أحيانا يدعون الولاية ويتصنعون الورع ، ولكنهم كانوا ، ولا سيما عند انعدام السلطة السياسية الوطنية ودهامة الخطر الخارجي ، يصبحون قوة دافعة نحو الصلاح والخير ، ونحو جمع الكلمة ووحدة البلاد ، ونحو التسلح والجهاد . ومن هؤلاء كان الثعالبي . ومن هنا جاءت أهمية رسالته التي نحن بصددها .

نص رسالة الثعالبي في الجهاد

من عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ، لطف الله به ، الى مقام الولد الفقيه الخير أبي عبد الله محمد بن أخينا في الله سبحانه سيدي أحمد ابن سيدي يوسف الكفيف ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فقد وفقني الله واياكم لمرضاته ، وأنعم علينا وعليكم بجزيل فضله وعميم خيراته . فقد وقفت على كتابكم وأنتم تستشيروني (كذا) في نقل كتبكم الى زواوة خوفا من عدو الدين أن ينزل بساحة المسلمين ، فاعلم رحمك الله أن نقلها من الحزم ولكن الى ما قرب منكم من الأماكن لأن العدو ، دمرهم الله ، انما مقصدهم المدن .

وفرحت بحمد الله باشتغالكم بدرق العود فما يوجد أنفع للنشاب ولا لدفع مضرته من درق العود ، فمن كانت بيده درقة عند لقاء العدو يشفي ويستشفي ويبلغ غرضه بحول الله تعالى وقوته . وأما درق الجلد من لمط أو غيره فلا يغتربها لأن السهام تنفدها (كذا) وتتجاوزها الى

ممسكها . هذا مع القرب جربناه مرارا . ودرق العود لا تنفد (كذا) فيها مع القرب فأحرى مع البعد فاختبروا ما ذكرناه لكم يبين لكم الصواب .

ولست أخاف على بلدكم لأن والدكم ، رحمنا الله واياه ، أخبرني انكم أن رأيتم ما لا تطيقون من كثرة العدو تخلون من أجله ولا يبقى في البلد الا المقاتلة ، ونصر الله تعالى معكم مأمول ، ولأن العدو اذا علم أن الذرية والحريم وما عز من المال قد فاته فت ذلك في عضده ولم يقتحم كل الاقتحام لفوات غرضه .

وأهل بلدنا وما قرب منها بل وما بعد عنهم لما أن حرضتهم على درق العود اجتهدوا في ذلك حاضرة وبادية ففرحت بحمد الله تعالى بامتثالهم ما أمروا به . وقد قدمت إلى فضلائهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أكد وأكد كثيرا فحرضت الناس جهدي ، ورأيت اثر ذلك في الناس بحمد الله تعالى فانهم سارعوا وصدقوا وامتثلوا وقد وعدنا النصر ، بحمد الله تعالى ، وقد تكرر علي التحريض نحو سبع مرات وفي بعضها شد روحك يعني في التحريض ، وفي بعضها وأنتم منصورين ، (هكذا بالياء) . والذي آمركم به ، وفقكم الله تعالى ، ان تكثروا من درق العود كثرة تعمكم وتعم من يصرخكم .

وقد جاءني بعض اخواني من أهل الفضل فقال رأيت كأن فارسا وبيده درقة وهو يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الدرق والرماح . وفي رؤيا عنه ، صلى الله عليه وسلم ، قال من عمل درقة يعني للجهاد فانها تحول بينه وبين النار . لما اخبرتهم بهذه الرؤيا زادهم ذلك رغبة حتى أن جماعة من النساء اشترين الدرق لأجل وعده الصادق صلى الله عليه وسلم .

وأعلم يا أخي أن قلبي متألم من أهل بجاية وخفت عيهم كثيرا من جهة آمسيوين . وقد بعثت الى بعض الفقهاء ، منهم بالتحريض من غير كتب فما رأيت لكلامي عندهم تأثيرا كما أثر هنا ، واذا أراد الله بأمر فلا محيد عنه ، وان هم قبلوا نصحي كانوا ممتثلين لتحريض النبي صلى الله عليه وسلم فان كلامه حق يقظة ومناما ورؤيته حق فان الشيطان لا يتمثل بصورته أي مطلقا .

والذي أحبه منهم أن ينهضوا ويسرعوا فى عمل الدرق من الصفصاف وتكون كاسية ولا يتكلوا على الطوارق ولا على درق اللمط كما اخبرتك فاكتب اليهم بالتحريض فى عمل الدرق ويكثروا كثرة تعمهم وتعم من يصرخهم وأهل بواديهم أعلمهم قديما عراة لا درق معهم الا نادرا . وقد انتهى حال أهل جبالنا الى أن اتخذوا الدرق من الفرنان ، وكذلك أنتم فافعلوا بمن أعوزه درق العود فليصنعه من الفرنان الغليظ طبقين طبقين فان كل عاقل يستشعر قتال بني الاصفر فانهم قد أصيبوا فى القسطنطينية (كذا) وغيرها . وقد علمتم أن أخذها من الأشراط . وان لبني الأصفر حمية فى النصرة لصليبهم .

فاكتب رحمك الله لاخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا اليه من الدرق على الوجه الذي أشرنا اليه فهي أقرب مراما وأقل كلفة من بناء الأصوار (كذا) التي لا يرفها (أو يرفعها) الا المال الكثير فى الزمان الطويل ، ويخاف أن الأمر أعجل . اللهم اني قد بلغت ! اللهم اني قد بلغت ! اللهم اني قد بلغت ! اللهم آشهد ! اللهم أشهد : اللهم أشهد ! واذا وصل اليك هذا الكتاب فأقرأه على جميع أصحابنا ثم ابعث به الى بجاية لمن يعلن به ويشيعه .

ولو أطلعتم على ما أطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء من أمور مهماتكم بعد الصلاة الا بآلة الجهاد . والله والله لو لم

يكونوا (كذا) بنوا الأصفر على وجه الارض لخلت أن ينبعوا من تحت الارض لما رأيت من التحريض والتحذير منهم من قبل النبي صلى اللـه عليه وسلم ، ومن يحب تصديقه ولا يسكنني التصريح به لضعيف الايمان. وقد سئل بعض الأولياء عن مسألة فسكت وقال للسائل أن ايمانك لا يحتمل هذا وبالجملة الحذر الحذر مما حذرتم .

وأما تعيين وقتهم فذالك الى الله ، هو أعلم . نعم قراين الحال وماشوهد من تحريض النبي صلى الله عليه وسلم يؤذن بالقرب . ومما ينبغي أن تكثروا منه المكاحل كثرة تعمكم وتعم من يريد صرختكم .

كملت من خط الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي . وكتب سيدي يخلف ابن محمد أصلحه الله » .

قصيدة سياسية لابن ميمون الجزائري (1)

كثيرا ما تقع بين يدي وثائق نادرة فى موضوعات تاريخية أدبية . وبعد أن أعجب باكتشافها وأتصفح محتواها تنثال علي مشاكل الحياة اليومية فتصبح الوثيقة فى الدرجة الثانية من الاهتمام ، وبمرور الأيام تنام فى مكان ما من أدراج مكتبتي وتظل تنتظر فرصة النشر . وبذلك يحرم الباحثون من الاستفادة منها .

وقد اقتنعت أنني لو ظللت أنتظر الفرصة التي أدرس فيها الوثيقة دراسة علمية دقيقة لطال الأمد بل لاستحال الأمر لكثرة هموم الحياة . لذلك عزمت على نشر ما تيسر لي من وثائق مكتفيا بتعليق بسيط وتقديم قصير ، تاركا فهم العصر ودراسة المؤلف وتحليل النص واصدار الأحكام الى وقت أكثر مناسبة . وحسبي أن أضع بين يدي الباحثين ، وخصوصا طلاب الدراسات العليا فى الجامعات وأساتذة التاريخ والآداب ، وثائق ينطلقون منها ويعتمدون عليها فى أبحاثهم .

وقد رأيت أن أقدم فى هذه المرة ، قصيدة ابن ميمون فى الحاج محمد خوجة ابن الداي عبدي باشا (1724 ـ 1732) ، فى التهنئة بعودته منتصرا اثر حملة عسكرية قام بها فى الغرب الجزائري ضد بعض الثوار . وقد وجدت هذه القصيدة فى مكتبة الأمير عبد القادر التي وقعت أثناء سقوط الزمالة فى يد الدوق دومال سنة 1843 . وهي مكتوبة بخط مغربي

---

1 ـ نشرت فى مجلة (الثقافة) عدد 15 ، 1973 .

جزائري جيد ، وكاملة . وقد نسخها أحدهم دون أن يذكر اسمه وقدم لها بعدة سطور قائلا : (ومما قاله شيخنا الخ ..) وهذه العبارة تدل على أن الناسخ قد يكون من تلاميذ ابن ميمون صاحب القصيدة .

ثم يورد الناسخ مقدمة نثرية مسجعة كتبها ابن ميمون نفسه لقصيدته . والمقدمة تدل على براعة ابن ميمون فى الوصف الأدبي الذي اشتهر به هو وطائفة من أدباء الجزائر فى القرن الثامن عشر كابن عمار وابن سحنون . ويشير ابن ميمون فى المقدمة الى أنه نظم القصيدة سنة 1141 هـ ، 1728م وقد كانت الجزائر فى هذا التاريخ موحدة قوية . فوهران استردها الباي مصطفى بوشلاغم على عهد الداي محمد بكداش (1707 — 1710) من الأسبان والعلاقات مع المغرب وتونس كانت تشهد تطورات جديدة تلعب فيها الجزائر دورا رئيسيا . والثورات الداخلية قليلة .

وكان ابن ميمون ، الذي لا نعرف تاريخ ميلاده ومكانه ، معاصرا لهذه الأحداث . فقد عاش حادث استعادة وهران من الأسبان وسجله فى كتابه (التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية (2) .

وحضر كذلك سقوط وهران من جديد فى يد الأسبان فى عهد الداي عبدي باشا . ويذكر أحد معاصريه ، وهو عبد الرزاق بن حمادوش أنه كان متوليا قضاء المواريث زمن الداي ابراهيم باشا (1745 — 1748) وأن ابن حمادوش كان يدرس معه مجموعة من الكتب الأدبية والتاريخية والدينية مثل مسائل ابن حجة فى الأدب ، والقلصادي فى الحساب والفرائض وتاريخ الكردبوس ، وصحيح البخاري ، الخ (3) .

---

2 ـ هذا الكتاب عبارة عن قطع ادبية فى شكل مقامات (16 مقامة) تروي سيرة الداي محمد بكداش . وفيه أخبار كثيرة عن الحياة الادبية فى الجزائر آنذاك . نشرة محمد بن عبد الكريم ، سنة 1972 .

3 ـ أنظر دراستنا عن « عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته لسان المقال » فى هذا الكتاب .

واذا كنا حتى الآن لا نعرف تاريخ ميلاد ابن ميمون فاننا لا نعرف تاريخ وفاته ولا مكانه أيضا ، ولعل دراسة الأرشيف الجزائري فى العهد العثماني تكشف لنا عن الغامض من حياته وتآليفه .

ورغم انعدام الدراسات الأولى لأدب ابن ميمون فانه يمكننا أن نعتبره على رأس ممثلي المدرسة الأندلسية فى الجزائر ، بعد المقري ، وهي المدرسة التي كان مثالها الفتح ابن خاقان وابن الخطيب وأضرابهما. ويشارك ابن ميمون فى النسج على منوال هذه المدرسة ابن عمار فى (نحلة اللبيب) و (لواء النصر) وابن سحنون فى (عقود المحاسن) و (الثغر الجماني) .

وقد حاول ابن حمادوش أن يرقي اليهم فى هذا اللون فى بعض مقاماته فلم يستطع لأنه كان عالما أكثر منه أديبا . أما ابن علي فقد برز فى هذه المدرسة ، ولكن فى ميدان الشعر . وقد كلفت المدرسة الأندلسية بالسجع ، وتفننت فى المحسنات البديعية ، واعتنت بالألفاظ ذات الدلالات الموسيقية . أما أغراضها فالوصف ، ولا سيما وصف الرياض ومحاسن الطبيعة ، وكذلك الاخوانيات والمدائح والغزل الخ . وفى الوثيقة التي سنوردها بيان لذلك ، سواء فى جزئها النثري أو الشعري .

وللقصيدة قيمة تاريخية أيضا غير خافية . فهي تكشف على عدم الاستقرار السياسي فى الغرب الجزائري خلال عهد عبدي باشا ، مما جعله يوجه حملة بقيادة ابنه ، وكان انتصار محمد خوجة باعثا للشاعر على أن يكرر فى التهنئة فكرة (الهدوء) والاستقرار . ورغم أننا لانعرف الآن ضد من وجهت الحملة ، فان فى القصيدة اسم رئيس الثوار ، وهو المسمى (بوزيد) بالاضافة الى أن القصيدة تصف بالتفصيل العادات الاجتماعية عند وقوع مثل هذا الانتصار . والظاهر أن ابن

ميمون كان (شاعر بلاط) غير رسمي ، فهو بشعره كان يتقرب الى السلطة ، ولكن بلا تذلل ، وينسب اليهم الشرف (الهاشمي) بدون حق ، ولكنه يلصق بهم الجهاد وهو وصف صادق اذا أخذنا فى الاعتبار استرداد وهران ومواجهة الأسبان المستمرة .

ولا شك أن هذه القصيدة تمتاز بقوتها ، وتكشف عن قدرة ابن ميمون الشعرية . فبحرها ونغمتها وجوها النفسي وقافيتها واختيار ألفاظها كلها تلائم المناسبة التي قيلت فيها . غير أن الغرض الذي عبرت عنه قد يكون محل خلاف . ذلك أن ابن ميمون قد انتصر للسلطة ضد الثوار ، ولا ندري ان كان يعرف شره هذه السلطة فى جمع المال وشراء الاستقرار بأيّ ثمن ، أو أنه لم يكن يعرف من ذلك سوى الجهاد والهدوء والطاعة للحكام . وعلى كل حال فان الذي يهمنا الآن ليس غرض القصيدة ولكن اكتشاف الوثيقة وأهميتها الأدبية والتاريخية بالنسبة لتراث الجزائر العربي . ونعتقد أنها تدل على أن الشعر فى ظل الحكم العثماني فى الجزائر لم يكن كله شعر مدائح نبوية ، وغزل متصنع ، ومتون وأراجيز جافة .

السبت 9 جوان 1973

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم

ومما قاله شيخنا العالم العلامة ، البحر الفهامة ، أبو عبد الله سيدي محمد ابن السيد عبد الله بن ميمون ، نجل الشيخ البركة القطب الرباني سيدي أحمد بن عبد الله (4) فى تهنئة المعظم الاجل ، الزكي الأفضل ، الشاب الأمجد ، الفارس الأنجد ، أبي عبد الله السيد الحاج

4 — عاش 1398–1479 م ، وهو صاحب المنظومة المعروفة بالجزائرية فى العقائد .

محمد خوجه ابن الأمير الهمام ، فخر الأمراء العظام ، مولانا السيد عبدي باشا (5) حين قدومه من المحلة (6) ، نظما ونثرا ، ونصه :

الحمد لله ، وهذه القصيدة قلتها عام ، أحد وأربعين ومائة وألف فى ربيع الأول النبوي الأنور فى السلطان أبى عبد الله السيد الحاج محمد خوجة ابن السلطان السيد عبدي باشا حين خروجه بالمحلة ورجوعه الى الجزائر (7) ، سالما غانما بالمواشي والذخائر — شرف باذخ ، ومجد شامخ ، عقد بالنجوم دوائبه (كذا) ، وأوخز فى مفرق النسر ركائبه ، استفتح الأوطان ، وانبلج صبح النصر وبان ، وقفل وألوية النصر عليه خافقة ، وألسنة الشكر والحمد ناطقة ، فاجتمعت الخلائق من كل فج عميق لميعاد لقائه ، وبرزت المخدرات لزينة صعوده فى سماء الفتح وارتقائه ، فلا تسمع الا زعيق المدافع ، مالها من مدافع ، ونقر الطبول فى الجو تجول ، وربات الخدور ، من شموس وبدور ، فلا تسمع الا غانية وغانيا ، ومثالثا ومثانيا ، والخيل كرادس ، والجنة فرادس ، ناهيك من مهرجان كبير ، أزرى بعرس (بوران) (8) وأيام (يزد شير) . فكان يوم عيد ، وسرور جديد ، فلله الحمد وله المنة ، سبحانه وتعالى ما أمنه :

بشرى كما انبلج الصباح البادي ... بقدوم مولانا ضحى الميلاد
فى ساعة بركاتها فاضت على ... كل الورى من حاضر أو بادي
بالطالع الميمون فى يوم بدا ... فى مثله وجه الرسول الهادي
أعملت رحلتك السعيدة قاصدا ... فى نظم شمل فى سبيل جهاد
تبغى رضى الرحمن فى صلة السَّرى ... بالسير والتأويب بالإسئاد(9)

5 — حكم 1724—1732 م ، وفى عهده سقطت وهران من جديد فى يد الاسبان .
6 — المراد حملة عسكرية أو غزوة داخلية »
7 — يعني الجزائر العاصمة .
8 — الاقواس مضافة الى النص . وقارن العبارات السالفة بما كتبه ابن ميمون فى (التحفة المرضية) ص 233 من النسخة المطبوعة .
9 ـ ذكر لي الشيخ محمد الطاهر التليلي ان من معاني التأويب السير في النهار ومن معاني الإسئاد السير في الليل مستدلا بقول الحريري في مقدمته الشتوية «وأدلجي وأوبي واسئدي» .

حتى بلغت القصـــد فى اللقيا التي مهدت فيها الخـــلق خـــير مهـــاد
جمعت على التقوى القلوب وشيدت مبنى السكون على الرضى ووداد
فالغرب (10) أطلعمنك شمسا نورها بـاد عـــلى الأغـــوار والأنجـــاد
هي آية للنصـــر فـــارقب بطشـــة فى الحرب تأخذهم كأخذة عاد (11)
تستل (سيفا) من عزيمتـــك التي تكفي العدا وتفت فى الاعضاد (12)
قولوا (لبوزيد) (13) رئيسهم الذي قد لج (14) فى الأبراق والأرعـــاد
اخسأ فهذا سيف عبد (15) صاديا ودم الأعـــادي ري ذاك الصـــاد
ولئـــن تخطـــاه الحمـــام فـــانـــه لا بـــد أن ينقـــاد فى الأقيـــاد
فـــاذا بجثـــة جيشـــــه مشروعة مطـــروحـــة فى جمـــلة الأجســـاد
وعساكر المولى تحكـــم حكمهـــا بالمشرفيـــة والقنـــا الميـــــاد
واذا بأحزاب العـــدو قـــد هووا فى بحـــر حـــرب دائـــم الازبـــاد
ويد الـــدمار تحكمت فيهـــم وفي ما جمعوا مـــن طـــارف وتـــلاد
فالله ينجـــــز وعـــده ويمـــدنـــا بجنـــوده المنصــــورة الأمـــداد
يا أيهـــا المـــولى الـــذي أعمـــاله أحيـــت سبيـــل أبيـــه والأجداد
جود يفيض عـــلى البلاد وأهلهـــا يقضي بأنـــك واحـــد الأجـــواد
وبسالة تمحـــو العـــدا فتكاتهـــا مثل الظبا ســـلت مـــن الأغمـــاد

10 ـ بهذا يفهم أن الحملة وجهت نحو الغرب الجزائري .
11 ـ يدل البيت على أن الانتصار لم يكن كاملا ، وبقية المعنى من الأبيات التالية .
12 ـ فى الأصل «تسل» وهو صحيح أيضا .
13 ـ اسم رئيس الثوار ، ولا نعرف الآن عنه أكثر من هذا .
14 ـ فى الأصل«لح» ولعل النقطة قد سقطت عند النسخ
15 ـ هكذا فى الاصل ، ولعل الصواب «عبدي» وهو الداي عبدي باشا .

فحمى عرينك مربض الآساد ونـدى يمينك مشرع الـوراد

ومكارم آثارها مأثورة برزت فيها سابق الآماد

من هاشم (16) الفخـر الأولى أخبارهم موصولة الاسناد بالاسناد

قاموا بنصر الدين اذ لا ناصر والخلق فى ظلم من الالحاد

حتى أقاموا دينه رغم العدا بعزائم مثل السيوف حداد

يا وجهة أبدت لمن لا قاك ما أوتيت من فضل ونور رشاد

راق المحاسن والمكارم كلها مجموعة فى واحد الآحاد

واستعظموا الأخبار حتى شاهدوا فرأوك سابق حلبة الأمجاد

رأوا العدالة والبسالة والنهى نيطت بنور جبينك الوقاد

وحضرت حضرتك العلية (17) آيبا بالعز والاسعاف والاسعاد

لتقيم منها للهدوء مواسما منصورة الاصدار والايراد

أبشر فملكك لا تزال سعوده تأتيك بالآمال طوع قياد

واهنأ بمقدمك السعيد مبلغا أقصى المنافي مبدأ ومعاد

ماذا أقول ولا بلاغة لي تفي بمكارم أربت على التعداد

فصفات مجدك أعجزت من رامها ولو استعان لسان (قس اياد)

لا زلت تبلغ كل ما أملته فى النفس والسلطان والأولاد

تمت بحمد الله تعالى وحسن عونه

---

16 – نفهم من هذا ان الشاعر ينسب ممدوحه الى بني هاشم ، وهو نسب مشكوك فيه .
17 – يعني مدينة الجزائر .

عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري
ورحلته « لسان المقال »

من المخطوطات النادرة عن الجزائر والمغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة (لسان المقال ، فى النبأ عن الحسب والنسب والآل) . وقد رأيت من المناسب أن أقدم عنها وعن مؤلفها خلاصة لهذا المؤتمر الذي خصص لتاريخ المغرب العربي وحضارته (*) . وأقول «خلاصة» لأنني فى الواقع قد أنجزت دراسة مطولة عن حياة ابن حمادوش ورحلته وأعماله الأخرى قد أنشرها قريبا . ولنبدأ بحياة المؤلف .

أ ـ حياة ابن حمادوش :

والظاهر أن أول من اكتشف ابن حمادوش هو الدكتور لوسيان ليكليرك الذي ترجم له كتابه (كشف الرموز) الى الفرنسية (1) . كما أشار فى نهاية الترجمة الى كتاب آخر لابن حمادوش وهو (تعديل

(*) ألقي هذا البحث فى المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته الذي انعقد بتونس بين 24 ـ 29 ديسمبر 1974 ونشر فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج 2 ، م 50 ، أبريل ، 1975 .

1 ـ باريس ، 1874 . والكتاب غير كامل ، وبعد اكتشاف الرحلة يظهر أنه القسم الرابع من كتاب (الجوهر المكنون فى بحر القانون) الذي ألفه ابن حمادوش . والمراد بالقانون هو كتاب القانون لابن سينا . وقد طبع (كشف الرموز) ناقصا بالعربية أيضا عدة طبعات على يد ردوسي قدور ، أولهما بالجزائر سنة 1903 . وقد أشرف على هذه الطبعة السيد عبد الرزاق الاشرف .

المزاج) (2) ولكن الدكتور ليكليرك لم يطلع على رحلة ابن حمادوش التي نحن بصدد التعريف بها . ولذلك كان حديثه عن حياة المؤلف مختصرا مبنيا على الظن لا على اليقين .

وفى سنة 1886 ذكر المؤلف الاسباني قونزاليز فى كتابه (مشاهير مسلمي مدينة الجزائر) (3) حوالي ثلاثة أسطر عن ابن حمادوش ، ضمنها تاريخ ميلاده الصحيح ، وهو تاريخ لم يهتد اليه ليكليرك ولم يرد الا فى (لسان المقال) مما جعلنا نرجح أن قونزاليز قد اطلع على الرحلة (4) . أما الدكتور غبريال كولان (5) فقد اعتمد فى كتابه على ليكليرك ولم يأت بجديد عن حياة المؤلف . وعندما أصدر أبو القاسم الحفناوي كتابه أورد كلام قونزاليز عن حياة ابن حمادوش دون ذكر اسمه مشيرا اليه فقط باسم « مؤلف أوروباوي » (6) . وهكذا يتضح أن حياة ابن حمادوش ظلت مجهولة ، لأن جزءا كبيرا من ترجمته الشخصية يوجد فى رحلته التي لم يطلع عليها — حسبما نعتقد — سوى السيد قونزاليز . أما المتأخرون فقد اعتمدوا على هذا مثل السيد نور الدين عبد القادر (7) ، أو نقلوا عن الرحلة مباشرة دون ترجمة لمؤلفها مثل السيد محمد داود (8) .

---

2 — كتيب فى كراسة أو نحوها وصفه الدكتور ليكليرك وصفا قصيرا فى آخر ترجمته (لكشف الرموز) ص 380 . والظاهر أن ابن حمادوش قد ألفه بمدينة رشيد بمصر ، لأن الكتاب يحمل هذه الاشارة ، وكان ذلك سنة 1161 هـ 1748 م .

3 — الجزائر ، 1886 . والكتاب عبارة عن رسالة صغيرة ضمنها النص العربي مع ترجمته بالفرنسية . وقد قدمه له بالعربية مفتي الحنفية بالجزائر عندئذ الشيخ احمد بوقندورة .

4 — ذكر السيد قونزاليز فى بداية كتابه ان ابن حمادوش من مصادره الأساسية وأشار اليه باسم « عبد الرزاق » فقط ودون ذكر اسم الكتاب ، ويغلب على الظن أنه نقل من (لسان المقال) . وقد نقل عنه أيضا أسماء ولاة الجزائر وبعض علمائها .

5 — كتب رسالة دكتوراه فى الطب عن « الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري » وطبعها بالجزائر سنة 1905 .

6 — (تعريف الخلف برجال السلف) ، الجزء 2 — الجزائر ، 1907 ، ص 471 .

7 — (صفحات من تاريخ مدينة الجزائر) ، الجزائر ، 1964 ، ص 194 ، وقد نقل عبارة قونزاليز حرفيا دون ذكر اسمه .

8 — (تاريخ تطوان) ، القسم الاول ، المجلد 3 ، تطوان ، 1962 ، ص 148 — 152 ، وقد لخص ما كتبه ابن حمادوش عن المغرب وخصوصا مدينة تطوان وعلماءها .

ولد عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش سنة 1107 هـ ، 1695 م في مدينة الجزائر على الأرجح ومن ثمة نسبته اليها « الجزائري » ، وكانت أسرته من طبقة الحرفيين التي كانت تمارس التجارة ولا تهتم بالسياسة والرياسة الا قليلا . وكانت حرفة أسرته هي الدباغة حسبما فهمنا من رحلته ، لأنه ذكر والده وعمه في بعض العقود موصوفين بكلمة «الدباغ» . وعند زواجه الأول صاهر ابن حمادوش عمه الذي زوجه ابنته البكر وأسكنه في داره . أما في زواجه الثاني فقد تزوج ثيبا هي ابنة أمين الصفارين (النحاسين) . وكان لابن حمادوش ولدان على الأقل من زوجه الثانية مات أحدهما صغيرا . ولا ندري ما اذا كان له أطفال من زواجه الأول . ولم يكن ابن حمادوش سعيدا مع زوجه الثانية ولا مع أسرته الباقية كأمه وأخته لانشغاله بالكتب والعلم من جهة ولفقره من جهة أخرى . ولا ندري الى الآن متى ولا أين توفي ابن حمادوش ، لكن بعض المراجع تشير ظنيا الى أنه قد تجاوز التسعين سنة (9) .

عاصر ابن حمادوش أحداثا وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية . فقد دون في رحلته أنه عاصر عهد الباشوات الذين استبدوا بالحكم في الجزائر عن السلطان العثماني ، وكان ما يزال طفلا عندما استعاد الجزائريون مدينة وهران من يد الأسبان (10) ، ولكنه كان واعيا لاحتلال أسبانيا لها من جديد (11) . وذكر في رحلته بعض الثورات الداخلية مثل ثورة أهل زواوة على قائد سباو ، وتحدث عن توقيع الصلح بين الجزائر والدانمارك ، كما سجل فيها حادثة فرار ابن أحمد

9 — كولان ، ص 35 ، ضبط هو اسمه (حمادوش) دون أن نعرف ما اذا كانت الميم مخففة او مشددة .

10 — كان ذلك على يد الباشا محمد بقطاش (بكداش) ، سنة 1119 هـ 1708 م ،وهو الباشا الذي الف فيه محمد بن ميمون ، أستاذ ابن حمادوش ، كتابه (التحفة المرضية في الدولة البكداشية) تمجيدا له . وقد نشر هذا الكتاب السيد محمد بن عبد الكريم ، الجزائر 1972 .

11 — احتلوها من جديد سنة 1145 هـ — 1732 م ، وظلوا فيها الى سنة 1205 هـ 1791 م حينما افتتحها الباي محمد الكبير وأعادها للدولة الجزائرية .

الريفي المغربي ومحمد باي التونسي الى الجزائر فى وقت واحد واجتماعهما مع داي الجزائر عندئذ ، ابراهيم باشا . أما فى المغرب فقد شاهد عيانا ثورة أحمد الريفي ، حاكم اقليم تطوان ، على السلطان مولاي عبد الله ، وروى أحداثها بشيء من التفصيل والتأثر ، ووصف آثار هذه الثورة على الحياة المغربية سياسيا واقتصاديا (12) . ولا شك أن ابن حمادوش قد عاصر أحداثا أخرى فى تونس ومصر وبلدان الشرق الأخرى التي زارها أو أقام فيها أثناء حجه وأسفاره ، ولكنه على كل حال لم يذكرها فى الجزء الذي بين أيدينا من الرحلة .

كما عاصر ابن حمادوش تطورات اجتماعية وثقافية لا شك أنها أثرت على مجرى حياته . فحديثه عن عقود الزواج فى وقته (وهي عقود كانت تختلف مهورها من طبقة الى أخرى) ومعاناته فى البحث عن موارد للرزق سواء فى الجزائر أو فى المغرب ، واحتماؤه بالشرف والعلم بدل الجاه والسياسة والمال ، وكثرة تعرضه للأسعار فى أسواق الجزائر والمغرب ، كلها تعكس الجو الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يعيشه ، ومما لا ريب فيه أن أسفاره الأخرى قد أمدته بتجارب أخرى فى هذا الميدان ، ولكننا على كل حال لا نملك الآن دليلا عليها .

وتثقف ابن حمادوش على شيوخ بلاده وعلماء المغرب وتونس ، والمشرق ، كما قرأ عددا كبيرا من الكتب فى مختلف العلوم والفنون (13) . ولئن كنا لا نجد أثرا لشيوخه الأولين لفقدان الجزء الأول من رحلته فى الوقت الحاضر ، فاننا نعرف من الجزء الثاني منها

---

12 ـ سنفصل القول فى هذه المسائل ، وكذلك المسائل الاجتماعية والثقافية فىنهاية البحث .

13 ـ ذكر المؤلف فى الجزء الذي ندرسه من الرحلة الكتب التي قرأها واقتناها ، وجميعها تعكس اتجاهه العلمي أكثر من غيره .

أنه قرأ فى الجزائر على الشيخ محمد بن ميمون (14) ، كما عاصر فيها علماء وأدباء ما تزال أسماؤهم وبعض أعمالهم تشهد لهم بالحذق والمكانة فى مجتمع عصرهم ، أمثال أحمد بن عمار صاحب (نحلة اللبيب) ، والمفتي الشاعر ابن علي ، وعبد الرحمن الشارف ، وأحمد الزروق البوني ، وعدد آخر من المفتين وأصحاب الجاه كمحمد ابن حسين ، والحاج محيي الدين الزروق ، وعبد الرحمن المرتضى ، ومحمد المسيسني ، وممن قرأ عليهم ابن حمادوش فى المغرب وأجازوه محمد بن عبد السلام البناني الفاسي ، وأحمد الورززي التيطواني ، وأحمد السرائري ، وأحمد بن المبارك (15) . أما من تونس فلم يذكر فيما بين أيدينا من وثائق سوى الشيخ محمد زيتونة (16) الذى يسميه « شيخنا » ، والشيخ محمد الشافعي الذي التقى به فى الجزائر يوم جاء هاربا من حاشية محمد باي المذكور .

ورغم أن ابن حمادوش قد درس على طريقة عصره فان اهتمامه كان منصبا خاصة على الكتب العلمية . ولذلك نجده قد درس ابن سينا ، واقليدس ، والقلصادي ، والانطاكي ، وابن البيطار ، وغيرهم من علماء المسلمين واليونان ، وكان لا يقرأ نظريا بل يحاول أن يطبق ما قرأه ويؤلف فيه ، ويجري التجارب الشخصية عليه ، وهكذا وجدناه يجري تجارب على النباتات ويركب المعاجين الطبية ، ويختبر موازين المياه ، ويرسم الرخامة الظلية ، ويضع دائرة لبيان اتجاه الرياح ، وغير ذلك من التجارب التي لم تكن محل اهتمام من علماء عصره عامة ،

---

14 — نحيل الى المقدمة التي كتبناها للقصيدة السياسية — الادبية التي عثرنا عليها والتي هي من نظم ابن ميمون فى هذا الكتاب .

15 — سنذكر بعض التفاصيل عن علاقته بعلماء المغرب .

16 — الظاهر انه قرا عليه فى تونس أو فى المشرق . ولعل ذلك كان أثناء حجته الاولى سنة 1130 هـ — 1718 م . وقد توفي الشيخ زيتونة بتونس سنة 1138 هـ — 1725 م .

وعلماء بلاده خاصة . وقد لخص هو اهتمامه عندما قال فى رحلته انه أصبح عشابا وصيدليا وطبيبا فى بعض الأمراض (17) .

***

وهذا الاهتمام هو الذي جعل مؤلفات ابن حمادوش يغلب عليها الطابع العلمي أكثر من الطابع الفقهي أو الأدبي الذي شاع لدى علماء عصره . ولنذكر الآن بعض مؤلفاته فى هذا الميدان (18) :

1 ـ شرح على قصيدة الربع على كردفر .

2 ـ تأليف على الروزنامة .

3 ـ تأليف فى الأعشاب (لعله هو كشف الرموز المطبوع) .

4 ـ تأليف فى علم الفلك (ذكر فيه سبعة تواريخ تعلمها جميعا) .

5 ـ تأليف فى الاسطرلاب والربع المقنطر .

6 ـ تأليف فى القوس لرصد الشمس .

7 ـ تأليف عن الرخامة الظلية بالحساب .

8 ـ تأليف فى صورة الكرة الأرضية .

9 ـ تأليف فى علم البلوط (معرفة الطرق البحرية) .

10 ـ الجوهر المكنون (فى الطب) .

---

17 ـ التجارب المشار اليها مفصلة فى الرحلة . ولعل هذا الاهتمام بالتجارب العلمية ، والطب خاصة ، هو الذي جعل الدكتور ليكيرك ينعته بآخر ممثل للطب العربي . انظر كتابه (تاريخ الطب العربي) ج 2 ، باريس ، 1876 ص 310 وقد اعتبره الدكتور كولان صاحب عقلية بعيدة عن الخرافات فى عصر سادت فيه الشعوذة وضعف استخدام العقل ، انظر كولان ، ص 39 .

18 ـ هذه الكتب مذكورة كلها فى الرحلة ، ما عدا الثالث عشر والرابع عشر . وقد ذكر عناوين بعضها ، ولكنه أهمل عناوين الباقي مشيرا الى موضوعه فقط فيقول مثلا بعد ذكر الفرع العلمي المقصود « ولي تأليف فيه » ص

11 ـ بغية الأديب من علم التكعيب واسمه أيضا فتح المجيب فى علم التكعيب .

12 ـ تأليف فى علم البونبة .

13 ـ تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج .

14 ـ تأليف فى الطاعون .

ولابن حمادوش تآليف أخرى فى المنطق مثل (الدرر على المختصر) الذي تحدث فيه على مختصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، وهو الكتاب الذي وافقه عليه وأطراه كل من الشيخ أحمد الورززي المغربي (19) والشيخ أحمد بن عمار الجزائري ، وفى النحو مثل (السانح) وهو شرح على ألفية ابن مالك ، وفى الأدب (ديوان) شعر ، قال انه بناه على الغزل والنسيب والمراثي ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم . كما ترك ابن حمادوش بعض المقامات الأدبية (20) . وهو فى أشعاره وأدبه لا يرقي الى مصاف أدباء بلاده المعاصرين له كابن ميمون وابن عمار وابن علي. وقد أشرنا الى ان الجزء الذي سنتحدث عنهمن الرحلة هو الجزء الثاني ، ومعنى هذا ان له جزءا أول لهذه الرحلة التي قد يكون لها جزء ثالث أو أكثر . ونحن لا نشك فى أن تآليف ابن حمادوش أغلبها ضائع . وان معظمها صغير الحجم ، بالاضافة الى أنها فى جملتها كتب علمية . وليس معنى هذا انه لم يؤلف فى الفقه ونحوه ، ولكن غلب عليه الاتجاه الاول كما لاحظنا .

---

19 ـ كان الشيخ الورززي يتردد على الجزائر ، وقد صحح عليه ابن حمادوش الكتاب المذكور أثناء زيارته للجزائر سنة 1159 هـ ـ 1746 م ، ويبدو أنه زارها مرة أخرى على الأقل سنة 1162 هـ ـ 1749 م ، وخلالها مدحه المفتي الشاعر ابن علي بقصيدة ، انظر محمد داود (تاريخ تطوان) القسم الاول ، المجلد 3 ، تطوان 1962 ، ص 90 ، وقد ترجم محمد داود ترجمة وافية للشيخ الورززي فى المصدر نفسه ، ص 85 ـ 92 ، وذكر انه توفي سنة 1179 هـ ـ 1765 م .

20 ـ ذكر منها ثلاثا فى الرحلة ، اثنتان منها عن افكار عرضت له فى المغرب أما الثالثة فالظاهر أنه ألفها فى الجزائر .

وقد تجول ابن حمادوش فى العالم الاسلامي من تطوان الى الحجاز . واذا كنا نعرف من الرحلة بعض التفاصيل عن تجـواله فى المغرب فاننا لا نعرف عن تجواله فى الأقطار الأخرى سوى اشارات طفيفة . جاء فى رحلته أنه كان بتونس حاجا عام 1130 هـ – 1718 م . ووجـد بعض الباحثين ان ابن حمادوش كان فى مدينة رشيد بمصر سنـة 1161 هـ 1748 م وأخبر هو فى رحلته أيضا انه زار بلاد العرب والعجم والترك بدون تحديد . ومما وصل الينا من آثاره رحلته التي نحـن بصـدد التعريف بها .

ب – الرحـلة :

ويغلب على الظن، كما أشرنا، ان اول من نقل عن رحلة ابن حمادوش دون ذكر اسمها هو السيد قونزاليز . فهو أول من أرخ لميـلاد المؤلف بالتاريخ الذي ورد فى الرحلة ، ونقل عنه قـائمة ولاة الجزائر . وفى سنة 1935 كتب الشيخ عبد الحي الكتاني عن الرحلات المغربية (21) وذكر اسم رحلة ابن حمادوش ، ثم جاء السيد محمد داود ونقل عنهـا بعض الفقرات فى وصف ثورة الريفي التي كان ابن حمادوش شـاهد عيان لها (22) وأكد الشيخ الكتـاني أهمية رحلة ابن حمـادوش فى رسالة بعث فيها الى السيد الحاج صادق أثناء كتابة هذا بحثا عن المولد النبوي فى (نحلة اللبيب) لابن عمار (23) . ومنذئذ بدأ اهتمامي بهذه الرحلة . فقد كنت أعد مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) وأصبحت هذه الرحلة تشكل احدى المخطوطات الاساسية التي كان علي ان أطلع

---

21 – انظر تقريظه لكتاب (دليل الحج والسياحة) تأليف أحمد بن محمد الهواري ، الرباط ، 1935 ص 295 .

22 – (تاريخ تطوان) القسم الثاني ، المجلد الثاني ، تطوان ، 1963 ، ص 224 – 226 .

23 – (المولد النبوي عند ابن عمار مفتي مدينة الجزائر وشاعرها) مقتطف من (الابحاث المقدمة الى لويس ماسينيون) نشر المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1957 ، ص 270 – 292 ، والدراسة بالفرنسية .

عليها لمعرفة أحوال القرن الثامن عشر فى الجزائر . وسعيت للحصــول على نسخة منها فأسعفني صديق مغربي كريم (24) بمصــورة منهــا . وخلال رحلتي الى المغرب فى صيف 1973 اطلعت بنفسي على الاصل فى الخزانة العامة بالرباط ، وهي ضمن مكتبــة الشــيخ الكتــاني رقم 463 (25) .

وتقع مخطوطة الرحلة فى 387 صفحة من حجم المتــوسط (26) ، ومسطرتها 16×12 وتحتوي كل صفحة على حوالي 22 سطرا . ويبدو لي بعد البحث أن عبارة ابن حمادوش فيها تنتهي عند الصفحة 226 ، أما الباقي فلا نقطع الآن بنسبته اليه . وتدل افتتاحية الصفحة الأولى على أن المخطوطة تمثل بداية الجزء الثاني . فهي تبدأ بعد الحمدلــة والبسملة والتصلية وذكر اسم المؤلف هكذا : « الجزء الثاني مــن رحلته ... » ولم يرد اسم الرحلة فى المتن وانما أضيف فى الحاشيــة وكتب هكذا : « لسان المقال فى النبأ عن النسب والحسب والآل » (27) . وبداية تاريخ هذا الجزء هو غرة عام 1156 هـ الموافق 14 فبراير سنة 1743 م ، ويمثل التاريخ المذكور بداية رحلته الى المغرب ، وآخر تاريخ مذكور فيها (على فرض صحة القسم الذي لم نقطع بنسبته اليه) هو سنة 1160 هـ ــ 1747 م ، ذلك أننا نجده فى السنة الموالية بمصر .

24 ــ هو الدكتور عباس الجراري الذي يجب علي أن أسجل هنا اعترافي له بالجميل .

25 ــ رغم حرصنا فاننا لم نهتد الى وجود نسخة أخرى من رحلة ابن حمادوش . واذا ثبت أن السيد قونزاليز قد استعمل الرحلة كما أشرنا فمن المحتمل أن يكون قد اطلع على نسخة اخرى منها .

26 ــ أرقام الصفحات مضافة بقلم الرصاص ، وهي المعروفة بالأرقام العربية .

27 ــ الكلمة الاخيرة غير واضحة فى الرسم ، وقد اثبتناها «الآل» لمناسبة معناها الى ما قبلها ، ومن الممكن قراءة رسمها « المال » وبه أخذ محمد داود (تاريخ تطوان) القسم الاول ، المجلد 3 ، تطوان 1962 ، ص 148 ، وقد رأى محمد داود ، كما رأى الكتاني من قبل ، بأن الرحلة مكتوبة بخط مؤلفها الذي وصفه هكذا « الفقيه المدرس المؤلف المشارك التاجر المتجول » . ويمكن قراءة الكلمة أيضا الحال .

وعلى أية حال فان الرحلة مبتورة الآخر ، ومن ثمة لا نعرف بالتدقيق اسم كاتبها أو ناسخها ولا مكان ذلك .

و (لسان المقال) مكتوبة بخط واضح وحبر أسود باستثناء بعض العناوين والأسماء فانها كتبت بالحبر الأحمر ، وهي مكتوبة بأسلوب بسيط غير مسجوع ، ما عدا المقامات المشار اليها . وقد رتبها المؤلف على السنوات والشهور والأيام . ومن الطبيعي أن تظل بعض الأيام والشهور أحيانا غير واردة في الرحلة ، وهي في شكل مذكرات أو يوميات كان المؤلف يسجل فيها الأحداث والمشاهدات بصيغة الماضي في غالب الأحيان . وقد أكثر فيها الحشو والاستطراد والنقول من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين . والغالب على الظن أن الرحلة ما تزال بخط مؤلفها (28) وأنها كذلك ما تزال في شكل مسودة . ولا ندري الى الآن متى ولا أين كتب ابن حمادوش هذا الجزء . وتوجد تعاليق على المخطوطة يعود بعضها الى منتصف القرن الماضي (29) ، وتدل بعض هذه التعاليق على أن المخطوطة كانت عندئذ في الجزائر قبل انتقالها الى المغرب . كما يوجد على صفحتها الأولى اسم مالكها الأول ، على ما يظهر لنا ، وهو السيد « الحاج علي بن الحاج سعيد » الذي لا نعرف الآن من أمره شيئا .

ويمكن تقسيم المحتوى العام للرحلة الى ثلاثة أقسام هي :

1 ـ قسم المغرب وهو من صفحة 2 ـ 75 ، وهذا القسم هو الذي يصح أن نسميه « رحلة » .

---

28 ـ بذلك قطع عبد الحي الكتاني ، أنظر (دليل الحج والسياحة) ، ص 295 .

29 ـ آخر تاريخ مذكور في التعاليق بالنسبة للجزائر هو سنة 1233 هـ 1817 ـ 1818 م عن وفاة الداي علي باشا ، وبالنسبة للدولة العثمانية عند وفاة السلطان محمود الثاني سنة 1255 هـ ـ 1839 م ، وتولية ابنه عبد المجيد في العام نفسه ، أما بالنسبة لروسيا .فقد ذكر المعلق أن نقولا الاول (سماه نكول راى الموسك) قد توفى سنة 1271 هـ ـ 1855 م .

2 ـــ قسم عن المؤلف نفسه فى الجزائر ، وهذا القسم ترد أخباره مفرقة ضمن قصص واستطرادات ، وهو عبارة عن مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته ونشاطه .

3 ـــ قسم يتضمن نقولا كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين : مثل الاكتفاء لابن الكردبوس ، وكتاب تاريخ الدول للملطي وأنس الجليل للعليمي ، بالاضافة الى مجموعة من عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر . وكذلك مجموعة من الأسانيد والاجازات والقصص العامة كقصة الفيل وقصة العنقاء .

والمنهج الذي سار عليه ابن حمادوش يجعل عمله غير منسجم وغير متماسك . ذلك أنه لا يكاد يربط بين أجزاء الرحلة سوى الترتيب الزمني . وقد لاحظنا أنه قد اتبع طريقة السنوات . واذا أخذنا بالنص الموجود عندنا فالرحلة لا تكاد تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف الطويل الذي تجاوز بحسب بعض الاراء ، تسعين سنة . وعلى كل حال فانه كان يحشو كل سنة بأخبار ووقائع تتعلق بشخصه فى الغالب ، واذا ما أفاض فى الحديث عن قضايا أخرى فانه يفعل ذلك اما عن طريق المصادفة كما فعل بذكره أسماء ولاة الجزائر وأسماء سلاطين آل عثمان ، واما لعلاقتها بشخصه كحديثه عن ثورة أحمد الريفي التي كانت لها عواقب على سير رحلته ، فالمحور اذن هو شخص المؤلف .

وقد اعتاد ابن حمادوش أن يؤرخ بالتاريخين الهجري الذي يسميه العربي ، والميلادي (الشرقي أو الفلاحي) . وكان يؤرخ نادرا بالتاريخ الاسكندري . ولكن سنوات الانتقال التي تشكل فى الواقع أبواب الرحلة أو فصولها ، كانت بالتاريخ العربي . ويجهد المؤلف نفسه فى الأمانة والدقة ، واذا أعوزه ذلك يذكره هكذا « وجدته مقيدا » ، واذا نقل ونسي العبارات المنقولة قال « هذا ما تعلق بذهني وان كان

عبرت بعبارة غير عبارة المؤلف » ، واذا كان غير متأكد من خبر سمعه عن فلان سجل ذلك بأمانة قائلا : « ولم أدر كيف كتب ولا ما صنع انما بلغني » . وحين عجز عن أن يأتي بجواب لاحدى المسائل ترك بياضا في النص مضيفا « فمن وجده (يعني الجواب) فليلحقه هنا في هذا البياض ، وما تركته بياضا الا لأجله » ومع ذلك فان ابن حمادوش كان يفتخر أحيانا بمعارفه وشرفه على معاصريه . فكثيرا ما كان يذكر النوازل التي شارك فيها برأيه ، وينتهي فيها بتسجيل انتصاره على مخالفه بشيء من الزهو ، واصفا مخالفه بادعاء العلم وضعف العارضة وقصر النظر . وكان يذكر مناظرته ومناقشته لشيوخ عصره حتى الذين أجازوه منهم . وقد بالغ في الافتخار بشرفه أمام المفتي الحنفي ابن علي ، مخاطبا له بشعر ركيك لا يرقى أبدا الى مكانة شعر خصمه البليغ .

ومصادر ابن حمادوش نوعان : التجربة الشخصية والنقل ، وقد غلب عليه الأول . ذلك أن أكثر ما روى من أحداث في رحلته قد شاهده عيانا أو عاشه . فالتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية التي تُحدث عنها في المغرب والجزائر كان مصدرها بالدرجة الأولى التجربة الشخصية . أما النقل فان ابن حمادوش كان يأخذ بالمشافهة والسماع أو بالاعتماد على الوثائق المكتوبة . فهو كثيرا ما يقول عن أخباره انها بلغته أو سمعها . وقد أكثر من النقل عن صحيح البخاري ، وتاريخ ابن الكردبوس ، وتاريخ العليمي ، والقانون لابن سينا ، وتاريخ الملطي ، ومقالات اقليدس ، ومنطق السنوسي وغيرها . كما نقل كثيرا من فهرس البناني المغربي ، ومن أسانيد الصباغ الاسكندري (اذا صحت نسبتها الى الرحلة) ، ومن عقود النكاح التي كتبها علماء الجزائر .

* * *

وبالاضافة الى الأضواء التي تلقيها الرحلة على حياة المؤلف فان الجزائر والمغرب تحتلان فيها مكانا بارزا . وقد سبق لنا أن ذكرنا شيئا

منها بخصوص النقطة الأولى (حياة المؤلف) ، وبقي علينا أن نفصل الحديث قليلا عن النقطة الثانية . ولنبدأ بالجزائر .

أورد ابن حمادوش مجموعة من الأخبار الهامة عنها ، تساعد الباحثين فى أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية خلال القرن الثامن عشر . من ذلك ما أورده من أن النصارى (دون تحديد ، ولعله يقصد الاسبان) رفضوا قبول فدية المسلمين الذين كانوا أسرى عندهم ، ولا سيما مشاهير الرياس مثل ابن الحاج موسى ، وأدى هذا الموقف الى غضب الباشا الذي قرر غلق كنيستهم وهدد بهدمها ان لم يقبلوا بالصلح . ولم يخبر ابن حمادوش بما وقع بعد ذلك ، واكتفى بالقول : « وها نحن منتظرون ما يقع » . ومما رواه بشأن علاقة باشوات الجزائر بالسلطان العثماني أن الأخير قد أرسل مندوبا عنه الى الجزائر ، فلم يرحب به المسؤولون ولم يستقبلوه فبات ليلته فى المرسى ثم دخل المدينة وحده . ورغم أن الباشوات قد استبدوا بالحكم ، كما ذكر ابن حمادوش ، فانهم ظلوا يهادون السلطان ويسترضونه . وآخر من فعل ذلك هو ابراهيم باشا المعاصر للمؤلف ، فهو الذي أرسل سنة 1158 هـ (1745) الى السلطان أربعين نصرانيا وثمانية مكاحل وأشياء أخرى ثمينة انتظارا أن يرسل له السلطان بالفرمان .

وابراهيم باشا هو آخر سبعين باشا من الولاة العثمانيين بالجزائر الذين أورد ابن حمادوش قائمة بأسمائهم ، مبتدئا باسحاق باشا سنة 915 هـ 1509 م مرورا بعبد الله بيلك باش الذي قال عنه انه أول من استبد بالملك سنة 1064 هـ (1653) . ومن أخبار هؤلاء الباشوات فى الرحلة : رفع الأعلام الخضر على الصوامع عند تولية أحدهم ، وحمل جثمان الميت منهم الى الجامع الكبير للصلاة عليه وقراءة القرآن ، وشيوع الفساد بينهم حتى ان ابراهيم باشا المذكور كان مع أهله على سفاح قبل التولية ، وبعدها نصحه مستشاروه بافشائه مخافة اشاعة الفسوق بين

الناس ، وأتباعهم قاعدة الحجر الصحي على الحجاج ، وتوقيعهم الصلح مع الدانمارك سنة 1159 (1746) ووقوع ثورة ضدهم فى بلاد زواوة سنة 1158 (1745) ، وفرار باي معسكر الى الاسبان بوهران سنة 1159 (1746) بتوريط من أحد أثرياء اليهود بمدينة الجزائر ، ولجوء بن الثائر أحمد الريفي ومحمد باي ومحمود باي التونسيين الى الداي براهيم باشا .

ويمكن للباحث الاجتماعي أن يجد فى الرحلة مادة ثرية أيضا . فقد ذكر المؤلف صيغة صلوات وأدعية معهودة عند أهل الجزائر عند ختم صحيح البخاري ، يرش أثناءها الخدم ماء الورد على الحاضرين بالجامع الكبير ، كما ذكر عاداتهم ليلة القدر وليلة المولد النبوي . فقد كان متولي الجامع الكبير يفرغ ليلة القدر قنطارا أو أكثر من الشمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضراء ، ثم يطاف بهذه الشموع فى اتجاه دار المنفي أو الوكيل . ومنها الى دار الامارة عبر الشوارع المزينة ، وهم يرفعون أصواتهم بالأناشيد الدينية ، ثم يعودون الى الجامع من طريق أخرى . وكان يقام مثل ذلك فى ضريح عبد الرحمن الثعالبي أيضا . وعقد المؤلف مقارنة بين عادات المولد النبوي فى الجزائر والمغرب . ومن العقود التي أوردها نعرف نوع العملة السائدة عندئذ ، ونوع الصداق ، وامكانيات كل طبقة فى ذلك . ويجد دارسو الحياة النسوية والمنزلية ضالتهم فى القفاطين الملفية أو الأطلسية وأنواع الجواهر ، واماء السودان ، وقناطر الصوف ، وغيرها مما كان يقدم صداقا للزوج حسب حالها الاجتماعي ، وحسب سنها أيضا بكرا أو ثيبا . وهذه الجوانب من الحياة الاجتماعية هي التي ما يزال يفتقدها الباحثون فى تاريخ الجزائر .

وقد تكون أخبار ابن حمادوش الثقافية أكثر أهمية من أخباره لسياسية والاجتماعية . ومن حسن الحظ أن المؤلف قد أورد طائفة منها حول هذا الموضوع تعتبر نادرة فى بابها لأنه المصدر الوحيد الذي يكشف عنها . ومن العلماء الذين أطال ابن حمادوش الجلوس اليهم

وأكثر من القراءة عليهم محمد بن ميمون قاضي المواريث فى وقته ، وهو الذي كان ، حسب رأي تلميذه ، يتقرب الى السلطة الحاكمة ، ويجعل من داره منتدى يجتمع فيه العلماء والأدباء (30) .

وقد أشرنا الى الخصومة التي وقعت بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي . ولم نذكر أن الأول قد يكون افتخر بشرفه عليه لأن ابن علي كان من أصل كرغلي . وسبب الخصومة على ما يذكر ابن حمادوش غضب ابن علي من عدم قيام ابن حمادوش احتراما له .

وبينما كانت علاقة ابن حمادوش بابن علي غير حسنة كانت علاقته بالأديب الشاعر أحمد بن عمار جيدة . فهذا هو الذي كتب له تقريظا ، نثرا وشعرا ، لكتابه (الدرر على المختصر) ، كما كانت علاقة ابن حمادوش حسنة مع العالم عبد الرحمن الشارف الذي كتب له (لابن حمادوش) شهادة على تصحيحه الكتاب المذكور على الشيخ أحمد الورززي المغربي (31) . ولا نريد هنا أن نطيل فى أخبار علماء عصره الذين وردت أسماؤهم فى الرحلة ، وحسبنا ذكر بعضهم سريعا ، فمنهم : المفتي محمد ابن حسين (32) ، وقاضي قسنطينة محمد الحنفي (33) . والمفتي عبد الرحمن المرتضى (34) ، والمفتي الحاج محي الدين الزروق (35) ، (وهو آخر المفتين المالكية الذين يرد اسمهم فى الرحلة) .

---

30 ـ ابن ميمون هو الذي أشهر زواج الباشا ابراهيم بعد أن كان سريا ، وكان عندئذ قاضي المواريث ، فكان الأمر لا يعنيه لأنه ليس من اختصاصه بل من اختصاص قاضي القضاة . وقد أعلن ابن حمادوش بعد هذه القصة بأن شيخه ابن ميمون أراد بذلك التقرب من الباشا . وكانت دار ابن ميمون هي التي وقعت فيها الخصومة بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي .

31 ـ صححه عليه أثناء زيارة الورززي الاولى لمدينة الجزائر سنة 1159 .

32 ـ هو الذي كتب لابن حمادوش رسالة تعزية فى ولده ، وقد أوردها ابن حمادوش حرفيا فى الرحلة ، وهي من جيد الرسائل فى بابها .

33 ـ جاء مدينة الجزائر وقرأ على ابن حمادوش شرح الحباك فى الاسطرلاب للسنوسي .

34 ـ كان صهرا للمفتي سعيد قدورة ، وقد أورد ابن حمادوش نص عقد زواجه كنموذج لما كتب الشيخ العالم الاديب محمد بن عبد المؤمن سنة 1087 هـ ـ 1676 م .

35 ـ من الذين سمعوا (بتشديد الميم) ابن حمادوش صحيح البخاري بالجامع الكبير .

والقاضي ابن المسيسني ، وهناك بالاضافة الى ذلك عدد آخر من القراء والأدباء الذين لم يكونوا عندئذ أصحاب مناصب . ولكن كانوا من رجال العلم ، نذكر منهم : أحمد العمالي ، ومحمد بن سيدي الهادي ، وأحمد البوني ، وابنه أحمد الزروق ، ومحمد بن المسيسني (أخو القاضي المذكور) وأبو القاسم بن يوسف الحسني ، وعبد الملك بن ابراهيم ، والحاج أحمد بن مسعود . وكان ابن حمادوش يقرأ مع بعض هؤلاء ، ويتراسل مع آخرين منهم ، وكانوا جميعا يكونون فى الواقع نوعا من الطبقة المثقفة التي تتعايش وتتصاهر وتتنافس طموحا الى السلطة والجاه .

* * *

واحتل المغرب كذلك مكانا بارزا فى رحلة ابن حمادوش . فقد سجل فيها بعض نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية . والظاهر أن المؤلف كان يتردد على المغرب للتجارة وطلب العلم . فقد أشار فى رحلته الحالية التي بدأها سنة 1156 هـ 1743 م الى أنه كان فى المغرب سنة 1145 هـ (36) ، — 1732 م . ونحن هنا تهمنا الرحلة الثانية لأنها هي التي ترك لنا فيها وصفا حيا لأحوال المغرب . والظاهر أن اقامته هناك لم تكن رغدة هنية ، فقد سجل بعد عودته الى الجزائر ما يلي : « وكنت تعبت .. فى المغرب من مرض وخسارة وضيق ، ولم أر قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة ، والعياذ بالله ، حتى أيقنت الهلاك » (37) . ولعل من أسباب ضيقه وخسران تجارته انتظاره أكثر من أربعة أشهر لاحدى السفن التي تقله الى الجزائر (38) .

36 — أشار الى ذلك أثناء حديثه عن سوء معاملة حرس السلطان مولاي عبد الله له (فى ولايته الاولى) عندما أراد أن يتقدم بين يديه بقصيدة مدح ، فعدل عن ذلك .

37 — الرحلة 76 .

38 — فى كل مرة تصل السفينة التي ستقلهم تتحطم . وقد ذكر أن ميناء تطوان عندئذ مشهور بحوادث تحطم السفن . ومما يذكر أن ابن حمادوش قد ذهب الى المغرب وعاد منه فى سفينة فرنسية كان قد اكتراها التجار الجزائريون .

وأهم حادث سياسي ضعي على قلم ابن حمادوش في المغرب هو ثورة أحمد الريفي ، باشا تطوان ، على مولاي عبد الله سنة 1156 هـ 1743 م ويعود اهتمامه بهذه الثورة الى سوء معاملة رجال الريفي له عند نزوله بمرسى تطوان . فقد اشتطوا ، في نظره ، في طلب المكوس منه على سلعته التي جاء بها من الجزائر . كما يعود اهتمامه بها الى أنه عانى من آثارها أثناء مروره في الطريق من تطوان الى مكناس ، ثم من هذه الى فاس والعودة . وهناك سبب آخر يعود الى أن الريفي قد ادعى الشرف ،

وثار على شريف آصيل ، في نظر ابن حمادوش ، وهو السلطان الشرعي ، بينما هو (ابن حمادوش) كان يتمسك كثيرا بالشرف . كما مر بنا . ولما كان ابن حمادوش شاهد عيان لأحداث ثورة الريفي (أسبابها ، ومراحلها ، ونتائجها ، وآثارها) فقد وصفها وصفا دقيقا مفصلا ، وكانت عواطفه في أحكامه ضد أحمد الريفي . فقد وصفه « بالنطفة الفاجرة المفسدة في الأرض » ، واعتبر هزيمته ومقتله من الألطاف (التي حلت) بهذه البلاد . وقد تضمن وصفه أيضا الحديث عن جيش مولاي عبد الله وأنصار الفريقين ، والغنائم التي حصل عليها السلطان بعد مقتل الثائر الريفي .

وتحدث ابن حمادوش عن بعض العادات والتقاليد التي شاهدها بالمغرب . من ذلك عادة المكس بميناء تطوان التي اعتبرها عادة قبيحة ، وتحدث عن زيارته لقبر سيدي الريفي وأخذه العهد من خادم الضريح ، ووصف الطريق من تطوان الى فاس عبر مكناس ، وشاهد هناك الطيور التي لا تلد الا فوق الماء ، وحصاد الشعير في شهر أبريل . واستعمال قوارب البردي للنقل النهري ، وسجل اعجابه بنظام توزيع مياه مدينة فاس وجمال بساتينها ودورها ، وقارن بين عادات الفاسيين وعادات الجزائريين في الاحتفال بالمولد النبوي كاستعمال قباب الشمع ، وتحدث عن عادة أهل فاس يوم العنصرة بأكلهم ألية الضأن بالقرفة

و الكسكسي ، وعن لباس النساء والرجال هناك أثناء الاحتفال ، كما وصف لباس السلطان الذي قال انه كلباس أهل مكة . ولم يخل حديثه من نقد لاذع لبعض العادات التي كانت فى نظره غير مستحسنة .

وتضم الرحلة أسماء وأعمال مجموعة من علماء المغرب : بعضهم التقى بهم وقرأ عليهم وأجازوه ، وبعضهم سمع بهم أو أخذ عنهم بطريق غير مباشر . وفى طليعة هؤلاء محمد بن عبد السلام البناني . فقد حمل اليه ابن حمادوش أمانة (لم يكشف عنها) من الجزائر وحضر دروسه وخاطبه بقصيدة ، وحصل منه على اجازة . ودرس كذلك على الشيخ أحمد الورززي فى تطوان والجزائر وأجازه هذا فى المدينة الأولى . والظاهر أن الشيخ الورززي كان يتردد على الجزائر . كما كان ابن حمادوش يتردد على المغرب ، وقد أثبت ابن حمادوش أن الورززي كان معتزليا ، تقليدا لرأي البناني فى مواطنه . وقد تدخل الشيخ الورززي لصالح ابن حمادوش لدى سلطات الميناء عند مغادرته تطوان (39) .

وممن أجازوه أيضا أحمد السرائري (40) الذي نزل ابن حمادوش بفندقه . وأقرأ ابن حمادوش فى تطوان الشيخ عبد الله جنان . أما فى مكناس فقد التقى بالشيخ عبد السلام القباب والشيخ عبد القادر الفاسي ، لكن خاب ظنه فى علم الاثنين فلم يحصل منهما ، حسب رأيه ، على طائل ، غير أنه قد أعجب ببعض علماء فاس ومن هؤلاء الحكيم عبد الوهاب أدراق (41) ، طبيب مولاي اسماعيل وأولاده . وأثنى على الشيخ أحمد المبارك واستجازه ففعل . وعندما توفي ابن المبارك رثاه ابن حمادوش بقصيدة ضعيفة لكن صادقة ، وقد اعتبر نفسه أول من

39 ــ بفضل تدخل الورززي اعفيت سلعة ابن حمادوش من الضرائب .

40 ــ وجده ابن حمادوش قد توفي اثر عودته من فاس الى تطوان .

41 ــ حضر ابن حمادوش مجلسه الذي قال عنه انه يشبه مجالس الملوك ، وقدم له قصيدتين من سخيف الشعر .

رثاه . وشهد له على اجازة ابن المبارك له الشيخ القاضي عبد الهادي ابن العربي بوخريص . ولا نشك فى أن ابن حمادوش قد التقى ببعض آخرين من المغرب واستفاد منهم سواء فى رحلته التي نحن بصدد الحديث عنها أو رحلاته الأخرى .

* * *

واذا كانت أخبار الرحلة تكاد تقتصر على الجزائر والمغرب وشخص المؤلف فانها لا تخلو من معلومات أخرى عامة ومن ذلك نقوله عن المتقدمين فى تاريخ الاسلام وتاريخ القدس وتاريخ الأطباء والقصص الطريفة التي جاء بها عرضا . ومنه أيضا ما جاء فى الرحلة عن فرار محمد باي من ابن عمه صاحب تونس ، وحديثه عن امام أحد مساجد سوسة وهو يشرح لصاحبه أصل اختراع العود والنغمات الموسيقية (42) . واستطرد أثناء الحديث عن ولاة الجزائر فذكر أيضا « ملوك آل عثمان » مبتدئا بعثمان خان سنة 641 هـ — 1243 م ، ومنتهيا بمحمود خان عام 1143 هـ — 1730 م مشيرا الى أنه « باق الى الآن » ، وهو يعني بذلك سنة 1158 هـ — 1745 م .

* * *

ان أهمية رحلة ابن حمادوش لا تحتاج الى طول نظر . فهي أولا جزء هام من تراث الجزائر العربي الاسلامي الذي طالما نفاه الدارسون الأجانب و شككوا فى قيمته . وهناك علماء جزائريون آخرون عاصروا ابن حمادوش قد تركوا رحلات ، مثل ابن عمار صاحب (نحلة اللبيب) (43) والورثلاني صاحب (نزهة الأنظار) (44) ، ولكن رحلة

42 — بناء عليه ان أصله يعود الى ان ساقا لشخص آدمي قد توفي وظل بالعراء ، فيبست الساق وتلاشى اللحم منها لكن بقيت العروق فهبت نسمة فحركت العروق فأحدثت نغمات موسيقية .

43 — طبع فى الجزائر ، سنة 1904 .

44 — حققها ونشرها محمد بن أبي شنب ، الجزائر 1908 .

ابن حمادوش تمتاز بأنها رحلة مغربية لا مشرقية ، وهي خالية من الصنعة الأدبية التي لجأ اليها ابن عمار والخرافة والكرامات التي امتلأت بها رحلة الورثلاني . كما أن ابن حمادوش كتب بأسلوب سهل بسيط يكاد يقترب من أسلوبنا اليوم ، وقلما التجأ الى التصنع ، ومع ذلك فهو لم يسف أسفاف ابن المفتي فى (تقييداته) (45) ، ولم يبالغ مبالغة ابن سحنون فى الثغر الجماني (46) ولم يتأنق تأنق ابن ميمون فى (تحفته) . وكل هؤلاء كانوا معاصرين له .

ورغم ضعف المنهج الذي اتبعه ابن حمادوش وكثرة الحشو والاستطراد فى الرحلة ، فان عمله سيظل مصدرا لا غنى عنه لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية فى مجتمع الجزائر والمغرب خلال القرن الثامن عشر . وقد تعرضنا الى نماذج من هذه النواحي فى الرحلة . وتزداد قيمة الرحلة عند الباحثين باعتبارها أيضا مصدرا من مصادر حياة المؤلف ، بل لعلها المصدر الوحيد المعروف عنه الى الآن وقد ظلت حياته مجهولة قبل اكتشاف هذه الرحلة . ولو أمكن الاطلاع على الأجزاء المفقودة منها لعرفنا ، لا الجوانب المجهولة من حياة المؤلف فقط ، ولكن تفاصيل اضافية عن تطورات المغرب العربي والمشرق أيضا خلال القرن الثامن عشر . وتضم الرحلة بالاضافة الى ذلك مادة كبيرة من أسماء الأماكن وبعض التراكيب العامية ، كما تحفل بأخبار العلماء الذين لا نجد عنهم فى غيرها سوى النزر اليسير مثل ابن عمار وابن ميمون ، ولعل منهم بعض علماء المغرب أيضا . وستظل النقول والاجازات

---

45 – صاحب هذه التقييدات مجهول الاسم ، ويعرف فقط بابن المفتي (وكان والده مفتيا وهو حسين بن رجب شاوش) . وهي مكتوبة بلغة هي الى الدارجة أقرب منها الى الفصحى حسب الذين اطلعوا على نصها . أنظر نور الدين عبد القادر (صفحات) ص 274 – 286 وقد ترجمها الى الفرنسية السيد ج . ديلفان ونشرها فى (المجلة الآسيوية) المجلد 19 (أبريل–جوان 1922) ، ص 116 – 233 . انظر ايضا السيد ديفوكس (المجلة الافريقية) (1869) ص 459 – 460 .

46 – نشره الشيخ المهدي البوعبدلي باشراف وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، 1973 .

والعقود والأسانيد التي أوردها ابن حمادوش في الرحلة مصدرا كبيرا
الأهمية لدراسة الأدب والتاريخ وتراجم الرجال ، كما ستظل مـــادة
للمقارنة والدرس .

وهذه الأهمية لرحلة ابن حمادوش هي التي جعلتنا نقدم على دراستها
وتحقيقها . كما جعلتنا نسهم بهذا المختصر عنها وعن حياة صاحبها في
هذا المؤتمر .

الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830

مقـــدمة : *

خلال أكثر من ثلاثة قرون ظلت الجزائر قوة بحرية تسيطر على غربي البحر الأبيض المتوسط وعلى أجزاء مختلفة من شواطىء المخيط الأطلسي ، وفى سنة 1830 بعثت فرنسا بحملة عسكرية ضدها تنتج عنها استيلاء الجيش الفرنسي على مدينة الجزائر ، ثم واصل حروبه الى أن أعلنت الجزائر جزءا من فرنسا .

وقد ساهم فى أسباب هذه الحملة كل من الظروف العالمية والحالة الداخلية فى فرنسا والجزائر معا . وسواء كانت هذه المساهمة مباشرة أو غير مباشرة فانها قد أدت بالملك الفرنسي الى أن يخطط الحملة ضد دولة مستقلة تقع على الشاطىء الآخر من البحر الأبيض .

ومن الطبيعي أن تكون أسباب الحملة الفرنسية محل نقاش وجدل. والى حد الآن فان تفسير تلك الأسباب يبدو واضحا من وجهة نظر المصالح القومية ووجهة النظر الشخصية للمؤلف الذي يتناول الموضوع . وليس هناك مؤلف ، حسب علمي ، قد تناول الموضوع بموضوعية وبدون محاباة .

---

* كتب هذا البحث بالانكليزية سنة 1962 اثناء وجودي بامريكا كجزء من واجبات الحصول على الماجستير فى التاريخ والعلوم السياسية . وقد قدمته الى الاستاذ الدكتور توم ب . جونز الاستاذ بجامعة منيسوتا . ثم ترجمته الى العربية ونشرته مجلة (الجيش) عدد اكتوبر ونوفمبر 1970 — فى حلقتين — .

فالمؤرخون ، والسياسيون ، والاستعماريون كانوا ، طبيعيا ، أكثر الناس اهتماما بالشؤون الجزائرية . ولعل هذا راجع الى أن الدساتير الفرنسية قد أعلنت بطريقة اعتباطية أن « الجزائر جزء لا يتجزأ من الوطن الفرنسي » . وقد نقل الكتاب الآخرون ، ولا سيما البريطانيون، وجهات النظر الفرنسية دون مناقشة . أما الكتاب الجزائريون فهم قسمان : قسم قد اتبع وجهة النظر الفرنسية ، لكي تنشر وتقرأ الكتب التي يؤلفها ، وقسم كان شجاعا فتناول الموضوع من وجهة نظر وطنية وقد كان هذا القسم محابيا أيضا لأنه لم يدرس القضية بموضوعية .

ولكي أدرس الوضع وأفهم الظروف التي أدت الى القيام بعمل هام مثل الحملة الفرنسية ، كتبت هذا البحث ، أما البيبلوغرافية فهي فرنسية فى أكثرها ، ولكنها تحتوي على بعض المراجع بالانكليزية والعربية . وقد وضعت التعاليق والملاحق فى آخر البحث .

منيسوتا ، أبريل 1962

1 ـ ملامـــح الجــزائر

كانت ملامح الجزائر ، من 1516 الى الاحتلال الفرنسي 1830 ، متشابهة على العموم ، فالمجتمع القديم ، أو ما يسمى فى أوروبا بالعهد القديم كان مطبقا فى الجزائر بطريقة كادت تكون كاملة . ولعل الفرق الوحيد هو أن الجزائر تقع فى أفريقيا وليست فى أوروبا ، وقد سمع الجزائريون بالثورة الفرنسية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا لتطبيق مبادئها فى وطنهم . فقد أقرضوا نابليون النقود ومونوه لكي يواصل حروبه فى أوروبا أما نابليون نفسه فقد كان يخطط لاحتلال الجزائر وبسط دولته على شمال أفريقيا (1) .

ان المؤرخين لا يتفقون على نوع الحكومة التي كانت تحكم الجزائر خلال الثلاثة قرون المشار اليها ، فقد قال بعضهم بأنه كان لها حكومة أو جمهورية عسكرية (2) . وقال آخرون بأنه كان لها نظام ملكي ، وتحدثوا فى كتبهم عن مملكة الجزائر ، ومهما كانت العبـــارة التي استعملها أولئك وهؤلاء فان الجزائر كانت محكومة بشخص هو الداي الذي كان منتخبا من الديوان (البرلمان) مدى الحياة . وكان الداى يحكم بواسطة وزراء معينين تعيينا ، بما فى ذلك المراكز التالية : وزارة البحرية والشؤون الخارجية ، ووزارة الحرب ، ووزارة المـــاليـــة

1 ـ انظر رسالة نابليون الى أمير أسطوله (1808) فى كتاب « الجزائر وماضيها » ، ص 184.

2 ـ من هؤلاء ويليام شيلر الذي قال : « انها فى الحقيقة جمهورية عسكرية على رأسها حاكم منتخب مدى الحياة وعلى نحو شبيه بالامبراطورية الرومانية بعد موت كومودوس » ، انظر كتابه « مختصر الجزائر » ، ص 16 .

والداخلية ، ووزارة الاوقاف والبريد (3) . وكان الداي يعين أيضا ولاة الأقاليم الثلاثة التي كانت تتكون منها الجزائر فى ذلك الوقت ، وهي : اقليم قسنطينة ، اقليم وهران ، واقليم التيطري .. وبالاضافة الى ذلك فقد كانت هناك مراكز أخرى أقل أهمية ، مثل القضاء ، والافتاء ، ومندوبيات مختلف النواحي .

وقد كانت السلطة عموما فى أيدي تركية من الداي الى الجندي ، وكان الجزائريون يجندون ليخدموا فى الجيش ويعينون فى المراكز الدينية . وكان عليهم أن يدفعوا الضرائب وأن يؤيدوا الدولة . وكانت التزامات اعترافهم بالخلافة باسم الدين تمنعهم من الثورة (4) . وكانوا يعرفون أن الأتراك قد ساعدوهم ضد الأسبان فى القرن السادس عشر . ورغم الالتزامات الدينية والحقائق التاريخية بخصوص الأتراك، فان الجزائريين لم يثوروا ضد السلطة التركية بسبب الاجحاف والظلم والفساد التي كان الأتراك يقومون بها . حقا أن السخط كان شائعا كثيرا ، وسنرى كيف استغل الفرنسيون هذا العمل النفساني ضد الجزائر . وهناك عوامل أخرى منعت الجزائريين من القيام بحركة قوية ناجحة ضد الأتراك ، منها الخوف من المطامح الأوروبية التي كانت غالبا ما تهددهم ، ومنها فقدان الضمير الاجتماعي الذي تحركه طبقة وسطى قوية .

ان الحكم المطلق وتأثير الدين فى كل مظاهر الحياة ، وعدم الوحدة الاجتماعية ــ هذه كلها كانت ملامح مشتركة « للعهد القديم » الجزائري . وقد كان هناك احترام كبير للتعليم ولكنه كان تعليما

3 ــ قال بعضهم لقد كان هناك ثمانية مراكز . انظر ج . كلوزيل « تاريخ الفتح الفرنسي فى الجزائر » ج 1 ، ص 158 .

4 ــ من وقت لآخر كانت هناك بعض الثورات . انظر الفصل الاخير من هذا البحث ، والى جانب ذلك ، فان الشعور الوطني ، بل الفكرة القومية عامة لم تكن قد استيقظت بعد ، ذلك أن الشعور الديني كان عندئذ أقوى .

مقتصرا على الدراسات الدينية الخاضعة بدورها الى سلطة الطبقة المتدينة ، وكانت العربية هي لغة الجمهور ، والتركية هي اللغة الحكومية ، أما الفرنسية فقد كانت شائعة بين القناصل الأجنبية ، ولعلها بين النخبة الجزائرية أيضا . وكان الاسلام هو الدين الرسمي والغالب فى البلاد . وكان هناك بالطبع يهود ومسيحيون .

ان المؤرخين الأوروبيين يتحدثون على أن الرق كان مطبقا فى الجزائر على المسيحيين خلال ثلاثة قرون . حتى فرنسا قد استعملت هذه القضية عذرا لحملتها ضد الجزائر ، بل أن كثيرا من المحاولات الأوروبية ضد الجزائر قيل أن هدفها كان تحرير المسيحيين من العبودية ووضع حد لنظام الرق (5) . وسأناقش هذا المشكل فيما بعد حين أتحدث عن علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية . وكل ما أريد أن أقول هنا هو أنه يبدو أن المؤرخين الأروبيين لم يفهموا العلاقة بين الدين والسياسة بخصوص نظام الرق ، لأنهم متفقون على أن الجزائر لم تستعمل أبدا الرق ضد أمة صديقة .

فالمجتمع الجزائري كان شبيها جدا بمجتمع جنوب أوروبا ، باستثناء فرنسا ربما . فقد كان هناك الارستقراطيون فى القمة والفلاحون فى الحضيض . وبين القمة والحضيض هناك قلة فى الوسط، ولكن تأثيرها ضعيف أو لا يكاد يذكر . فتأثير الدين كان أقوى بكثير من أي تأثير آخر . فمجتمع الجزائر كان على غرار مجتمع فرنسا فى العهد القديم ، دون أفكار تنويرية .

---

5 ـ انظر بخصوص الجزائر وموقف مؤتمر فيينا منها كتاب الكولونيل ر.ل. بليفير ، القنصل البريطاني العام فى مدينة الجزائر « جلادة المسيحية » ، ص 253 . انظر كذلك « بروتوكول مؤتمر ايكس ـ لاشابيل » فى كتاب ويليام شيلر « مختصر الجزائر » ، ملحق حرف هـ ، ص 301 .

اذن فقد كانت الجزائر دولة مستقلة ، وكان لها علـم ، وعملة ، وجيش ، وعلاقات دبلوماسية مع الدول الأخرى ولكنها كانت تعترف بالباب العالي أو الخلافة الاسلامية التي كانت تحت السلطة العثمانية ، لأسباب دينية وكانت ترسل هدية الى الخليفة فى اسطنبول فى كل ثلاث سنوات ولكن هذه الهدية لم تكن ضرورية . وبالاضافة الى ذلك فان العلم العثماني لم يكن دائما محل احترام من الجزائر (6) .

2 ـ الجزائر والدول الاوروبية

لقد كان للجزائر أسطول بحري قوي خلال الثلاثة قرون . وكان هذا الأسطول مسيطرا على كامل غرب البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطىء الأطلسي الأفريقية حتى انكلترا . وهذه السلطة البحرية قد فرضت نفسها على الدول الاوروبية بما فى ذلك الولايات المتحدة الامريكية عدة سنين (7) . وكانت الدول الاوروبية الصغيرة (مثل ايطاليا والأراضي المنخفضة ، والبلاد الاسكندنافية) تدفع الجزية للجزائر سنويا وتقدم لها مختلف الهدايا لكي تشيد معها صداقة دائمة وتحافظ على تجارتها نشيطة . أما تلك الدول القوية التي كانت تتحرر من السلطة الاستعمارية ومن حروب المنافسة فى أجزاء كثيرة من العالم ، فقد دفعت هي أيضا الجزية للجزائر فى كثير من الأحيان ولكنها قد دخلت معها أحيانا فى حروب . وقد كانت الجزائر هي المنتصرة دائما خلال هذا الصراع الى الحملة الفرنسية 1830 .

---

6 ـ انظر شيلر ، « مختصر الجزائر » ، ص 18 .

7 ـ كتب شيلر عن هذا العهد (1810 ـ 1812) قائلا ان الجزائريين « كانوا فى أوج القوة والاعتبار . وكانت أعظم الدول البحرية تخطب ودهم وقد كانوا يفخرون بكبرياء بأن قوتهم البحرية لا تفوقها الا قوة بريطانيا العظمى » . انظر كتابه « مختصر الجزائر » ، ص 119 .

ولكي نوضح الصورة حول السياسة الخارجية للجزائر ، نذكر باختصار كيف طبقت هذه السياسة على كل دولة أوروبية على حدة . وسنذكر فى هذا المجال الولايات المتحدة الأمريكية ، ونستثني فرنسا التي سنخصص لها قسما من هذا البحث لأنها تحتاج الى تركيز أكثر فى علاقتها مع الجزائر .

1 ـ الجزائر وامريكا :

ارتبطت العلاقات بين أمريكا والجزائر قبل 1783 . فقد كان لأمريكا مشاكلها الخاصة فى نهاية القرن الثامن عشر . ورغم ذلك فقد بدأت تتاجر مع العالم الخارجي وكانت تريد أن تمد منطقة حركتها الى البحر الأبيض المتوسط . وقد أعلنت الجزائر الحرب ضدها ، وهكذا حجز الأسطول الجزائري سنة 1785 سفينتين أمريكيتين فى عرض المحيط . ونظرا الى أنه لم يكن لأمريكا من الوسائل ما تعالج به هذا الوضع فقد أضافت مادة فى معاهدتها مع فرنسا تقوم بمقتضاها الأخيرة بمساعدتها .

وكل من ج . آدامز ، و ب . فرنكلين و ت . جيفرسن ، الذين كانوا فى أوروبا فى ذلك الوقت ، أعطيت لهم تفويضات من حكومتهم لكي يفاوضوا على معاهدة مع الجزائر . وفى 1793 حجز الجزائريون ، احدى عشرة سفينة أمريكية أخرى فى عرض المحيط وجاءوا بها الى الجزائر العاصمة . وخلال هذه الأثناء كان هناك أكثر من مائة أسير أمريكي فى الجزائر .

وفى سبتمبر 1795 أمضيت معاهدة سلام بين الجزائر والولايات المتحدة اتفقت الأخيرة بمقتضاها على أن تدفع حوالي سبعمائة وخمسة وعشرين دولارا . أما داي الجزائر فقد وافق من جهته على أن يساعد على ابرام معاهدات سلام بين الولايات المتحدة وكل من تونس

وطرابلس . وقد قال بعضهم « ان معاهدة السلام مع الداي قد قبلت بالحفاوة والتهاني فى أمريكا ، لأنها أدت الى اطلاق سراح الأسرى وأمنت التجارة ، ولكنها كانت معاهدة مهينة كثيرا (لأمريكا) لأنها قد كلفت كثيرا من النقود ونصت على جزية سنوية » .

ونظرا الى حربها مع بريطانيا سنة 1812 فان مدخرات أمريكا البحرية قد عانت كثيرا . وعندما عرضت على الداي أن تدفع له النقود بدلا من المعدات العسكرية ، رفض وأعلن الحرب عليها من جديد ، ولكنها بعد أن وقعت السلام مع بريطانيا (1815) ظهرت أمريكا بقوة بحرية جيدة وأرسلت أسطولها أمام مدينة الجزائر لكي يفرض السلام على الداي . وهكذا أبرمت بين الطرفين معاهدة سلام فى مدينة الجزائر سنة 1815 . وقد جددت هذه المعاهدة عدة مرات ، ومنذئذ أصبحت العلاقات الجزائرية ــ الأمريكية عادية وبقيت كذلك الى الاحتلال الفرنسي (8).

2 ـ الجزائر وبريطانيا العظمى :

أما العلاقات بين الجزائر وبريطانيا العظمى فهي أقدم وأكثر تأثيرا من تلك التي كانت بينها وبين أمريكا . ومن جهة أخرى كانت هذه العلاقات أكثر تعقيدا لأن كلا من الدولتين كان قوة بحرية ، وليس هدف هذا البحث متابعة كل التفاصيل المتعلقة بالعلاقات الجزائرية البريطانية ولكن هدفه هو أن يعطي فكرة عن أهمية الجزائر فى هذه الفترة التاريخية ، ولا سيما فى العقلية الأوروبية .

---

8 ــ لزيادة المعلومات عن العلاقات الجزائرية ــ الامريكية ، انظر وليام شيلر ، (الذي كان ، خلال سنوات طويلة ، القنصل الامريكي العام فى الجزائر) ، « مختصر الجزائر » انظر كذلك « المعاهدات ، والاتفاقات » ، والوثائق الدولية ، والبروتوكولات ، والمواثيق المبرمة بين الولايات المتحدة الامريكية والدول الاخرى من 1776 الى 1909 » ج 1 ، ص 1 ــ 17 . انظر أيضا مجلة « ذي أميريكان ويغ « The Amirican whig » سنة 1851 .

ان الجزائر قد أقامت علاقات ودية مع بريطانيا حتى قبل مجيء الأتراك في أوائل القرن السادس عشر . فأهمية الجزائر الجغرافية والسياسية والتجارية ، قد جعلت بريطانيا وفرنسا تتنافسان بشأنها ولكن الجزائر قد تعاملت مع كليهما واستفادت من هذه المنافسة ، وسأناقش في القسم التالي من البحث ردود الفعل البريطانية من الاستعدادات الفرنسية الهجوم على الجزائر .

لقد تمتعت بريطانيا بامتيازات خاصة لم تتمتع بها الا فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر ، وعلى أية حال ، فانه بينما كانت فرنسا في حرب في أوروبا تحت نابوليون ، أعطت الجزائر تلك الامتيازات الى بريطانيا سنة 1806 بنفس المعاملة التي كانت لفرنسا . وبعد مؤتمر فيينا خرجت بريطانيا منتصرة وهاجم أسطولها في البحر الأبيض المتوسط الجزائر ، دون استشارة الحكومة ، لكي يجبر الجزائريين على اطلاق سراح الأسرى البريطانيين والمالطيين والايطاليين ، ان معركة الجزائر التي جرت سنة 1816 مشهورة في تاريخ البحرية لأن البريطانيين كانوا قد تحالفوا مع هولاندا ومع بعض الأساطيل الايطالية (9) وقد ساومت وناورت في هذه الأثناء دون أن تخسر كثيرا . وفي معاهدة 26 أوت 1817 استرجعت فرنسا امتيازاتها في الجزائر عن طريق المساومة . وسأناقش في القسم التالي من البحث العلاقات الفرنسية ـــ الجزائرية بتفصيل أكثر .

وقد استأنف البريطانيون علاقاتهم مع الجزائر وواصلوا تأييدهم القوي لها ضد فرنسا . وبتعاقب الأيام واتتهم فرصة ذهبية حين تصدعت العلاقات الفرنسية الجزائرية في 1827 ، قبل ثلاث سنوات من الحملة . وسنرى كيف وقف البريطانيون من هذا الحادث .

---

9 ـ لزيادة المعرفة بخصوص معركة الجزائر ، انظر ر.ل. بيليفير « جلادة المسيحية » ، ص 258 ـ 277 .

3 ــ الجزائر والدول الاروبية الصغيرة

أما العلاقات بين الجــزائر والدول الأوروبية الصغــيرة فقد كانت مختلفة نوعا ما . فبعض هذه الدول كانت تدفع الجزية الى الجزائر ، بحيث تدفع لها كمية معينة من النقود أو تتعهد بحماية السفن الجزائرية فى موانيها لكي تقوم بأعمالها التجارية بحرية ، وتؤمن خطوط مواصلاتها لبحرية ، ومن هذه الدول الدانمارك ، والسويد ، وسردينيا ، ونابولي، وغيرها . وقد كان هناك على العموم سلام دائم بين الجزائر وهــذه الدول ، أما المجموعة الأخرى من الدول الأوروبيـــة فتشمل أسبانيــا والبرتغال وهولاندا ، فهذه الدول كانت تدفع الجزية الى الجزائر فى أغلب الأحيان ولكنها أحيانا كانت تدخل فى حرب معها بطريقة فردية كما فعلت أسبانيا والبرتغال ، أو بطريقة التحالف مع دولة أخرى كما فعلت هولاندا حين دخلت فى الحرب ضد الجزائر بالتحالف مع بريطانيا العظمى سنة 1816 .

1 ــ اسبـانيـــا :

كانت أسبانيا هي أكثر الدول المغضوب عليها من الجزائريين . فكثير منهم كانوا معروفين بالمور : أهالي أفريقيا الشمالية الذين عاشــوا فى الأندلس عدة قرون والذين طردهم الصليبيون الاسبانيون أثناء وبعــد الحكم الاسلامي فى أسبانيا . وبالاضافة الى ذلك فان الاسبانيين قــد طاردوا أولئك المسلمين الفارين فى بداية القرن السادس عشر حين احتلوا وهران ، وبجاية ، وهددوا مدينة الجزائر نفسها .

وعلى أية حال فان العلاقات الجزائرية الاسبانية لم تصل أبدا الى درجة التفاهم . وقد فرضت الجزائر شروطا على أسبانيا مدة حوالي ثلاثة قرون رغم تدخل بريطانيا العظمى ، ونابوليون ، ورغم المحاولات الاسبانية لمحاصرة الجزائر بل حتى مهاجمتها بيأس ، مثلما وقع فى حملة أوريلي سنة 1775 ، والحق أن بريطانيا العظمى قد قدمت مساعدتها لاسبانيا بخصوص وضع الأخيرة مع الجزائر (10) .

2 ـ البرتغال :

لم تكن البرتغال تختلف كثيرا عن اسبانيا باستثناء أن الأولى كانت أضعف ، وأقل ، وأكثر تبعية فى معظم الأحيان لصديقها أو حليفها ، وبهذه الطريقة اضطرت الى دفع جزية سنوية الى الجزائر ، وفى سنة 1810 كان هناك 615 برتغاليا سجينا فى الجزائر .

وقد توسطت بريطانيا العظمى فعمدت الى وضع خطة لتحرير هؤلاء الأسرى ، وذلك بأن تدفع البرتغال الى الجزائر مبلغ 690337 دولارا فدية . وقد نجحت هذه الخطة ، فدفعت البرتغال وأطلق سراح أسراها . لقد كانت البرتغال « تصارع من أجل وجودها السياسي ، وكانت اما تحت رحمة أعدائها الفرنسيين واما تحت السلطة العسكرية لحليفتها » (بريطانيا) .

3 ـ هولندا :

ان العلاقات بين هولندا ودول شمال أوروبا من جهة وبين الجزائر من جهة أخرى لها تاريخ سلمي طويل . فقد دفعت تلك الدول جزياتها الى الجزائر دون خرق للمعاهدات . وقد احترم الجزائريون تلك الدول بعمق نظرا لسياستها السلمية وطابعها الدولي المرموق .

---

10 ـ انظر ج . فاكتون ، ج « الوثائق الاسبانية لحكومة الجزائر العامة » ، ص 1894 .

ونذكر هنا بعض الاحصاءات التي تبين الموارد التي اتصلت بهـا الخزينة الجزائرية سنويا من بعض الدول الأوروبية ولا سيما فرنسا :

ـ فرنسا (من حق صيد المرجان ، واحتكار الصوف ، والشمع والجلود)	70000	دولارا
ـ ملك نابولي	24000	
ـ ملك السويد	24000	
ـ ملك الدانمارك	24000	
ـ ملك البرتغال	24000	

4 ـ الجزائر وفرنسا :

ان العلاقات الفرنسية ـ الجزائرية كانت قديمة الى حد كبير يسمح باقامة صداقة قوية وتعاون دائم . وقد ظهر هذا التعاون والصداقة فى شكل امتيازات ، وقروض ، ومعاهدات سلام بين البلدين . فمن أوائل القرن السادس عشر أعطيت فرنسا امتيازات فى الجـزائر بممارسـة التجارة واستغلال بعض المنافع عـلى الساحل . وقـد تولت الشركة الافريقية هذه المسؤولية .

وأثناء الثورة الفرنسية كادت هذه الصداقة بين البلدين أن تتوقف . ولكن الجزائر قد واصلت منح فرنسا مساعدات اقتصادية وبالأخص النقود والحبوب . وعندما هاجم نابوليون مصر اضطرت الجزائر (نظرا لالتزاماتها نحو الباب العالي) أن تعلن الحرب ضد فرنسا . وتحت تأثير وترغيب بريطانيا بل لعله نظرا الى تفوق بريطانيا فى البحر جردت الجزائر فرنسـا من امتيـازاتها على السـاحـل الجـزائري ومنحتها (الامتيازات) الى بريطانيا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا . وقد أشرت من قبل الى أن بريطانيا قد هاجمت الجزائر سنة 1816 . ونتيجة لهـذا

الحادث ، استرجعت فرنسا فى الحال الامتيازات بمعاهدة 1817 . وبعد ثلاث سنوات أصرت الجزائر على أنه يجب على فرنسا أن تجدد المعاهدة لاعادة النظر فى طريقة الدفع . وقد توترت العلاقات بين البلدين حتى كادت أن تنقطع . وكان داى الجزائر يواصل سؤاله للقنصل الفرنسي بخصوص الدين الذي كانت فرنسا مدينة به للجزائر .

وفى 1827 ، وأثناء حفلة دينية ، وأمام القناصل الأجنبية والهيئات الدبلوماسية المعتمدة جدد الداي سؤاله الى القنصل الفرنسي . ولكن جواب الأخير كان غير مهذب ، فما كان من الداى الا أن فقد توازنه وضرب القنصل على وجهه بمروحة من الريش وأمره بمغادرة المكان (11) وقد اعتبرت فرنسا هذا التصرف من الداى اهانة لشرفها وطالبت بالمبررات والتعويضات . وعندما لم تقتنع بالجواب أعلنت حصارا كاملا ضد الجزائر .
ولكن هذا الحصار لم يكن فعالا ، وقد دام ثلاث سنوات بدون نتيجة . وهنا بدأت فرنسا تعد حملتها العسكرية ضد الجزائر . وفى 14 جوان 1830 نزلت القوات الفرنسية هناك .

هذا هو ملخص العلاقات الفرنسية ـ الجزائرية الذي قد يظهر كيف حولت فرنسا معاملاتها السلمية مع الجزائر الى حرب وحملات عسكرية.

ولكن فرنسا فى الحقيقة كانت تعد حملتها ضد الجزائر منذ قبل الثورة الفرنسية . فقد اكتشف فى الوثائق الفرنسية أن هناك مشروعا غريبا قدم سنة 1729 الى الملك الفرنسي عندئذ بهدف احتلال الجزائر . وفى سنة 1791 كان هناك مشروع غريب آخر يستهدف احتلال الجزائر

11 ـ لقد كذب بعضهم أن يكون الداي قد ضرب القنصل الفرنسي . وهناك آخرون قد اتهموا القنصل نفسه بخلق جو من التوتر بين البلدين .

ويشير بارسال حملة عسكرية الى سيدي فرج على الساحل الجزائري (12) وبعد حوالي 17 سنة (1808) أعطى نابوليون نفسه أمرا الى أميره البحري ، ديكري ، لاعداد مشروع لمهاجمة الجزائر وتونس وفى رسالته الى هذا الامير ذكر نابوليون بأهمية الساحل الجزائري وطلب معلومات كاملة عن الجزائر قبل أن يشرع فعلا فى احتلالها وقد أشار نابوليون فى رسالته أيضا الى الاخطار التي يمكن ان تكون فى جزيرتي صقلية ومالطة اذا عزم على احتلال الجزائر (13) .

وعلى أية حال فان فرنسا قد استمرت فى علاقتها «العادية» مع الجزائر، وكان هناك تبادل الرسائل والمراسلات بين حكام الجزائر وحكام فرنسا فى مختلف المناسبات . ومن بين حكام فرنسا نابوليون الذي طلب من الجزائر فى أوائل القرن التاسع عشر أن تحترم رعاياه فى ايطاليا . وقد فعلت الجزائر ذلك (14) .

وهنا يمكن أن يتساءل المرء : لماذا غيرت فرنسا سياستها وقررت أن تستعمل القوة ضد الجزائر بدلا من الاحتفاظ بالعلاقات الودية معها ؟ ان الأسباب التي بررت بها فرنسا خطتها ضد الجزائر ستناقش فيمابعد . أما الآن فدعنا ندرس بعض مظاهر الوضع الداخلي فى فرنسا الذي جعل الحكومة الفرنسية ترسل الجيش ضد الجزائر بدلا من ارسال الهدايا والاعترافات بالجميل .

5 ــ الوضع الداخلي فى فرنسا :

لقد أعاد مؤتمر فيينا أسرة البوربون الى عرش فرنسا سنة 1815 ورغم أن الشعب الفرنسي كان قد تعب من الحرب فان أفكار الاصلاح ،

12 ــ انظر « الجزائر وماضيها » ، ص 183 .
13 ــ نفس المصدر ، ص 184 .
14 ــ انظر يوجين بلانتي ، « مراسلات دايات الجزائر مع ملوك فرنسا ، 1579 ــ 1833 » ج 2، سنة 1889 .

والحرية ، والدستور قد بقيت حية . وقد انتصرت فكرة التهدئة والاستسلام بفضل حماية القوة الرجعية فى أوروبا التي كان على رأسها مترنيخ ، والاسكندر الأول (فيما بعد) وبعض الزعماء البريطانيين .

ولكن لويس الثامن عشر قد تبنى كثيرا من الاصلاحات النابوليونية التي من بينها الدستور واتجاهات ليبرالية أخرى بخصوص الكنيسة ، والصحافة ، والفلاحين . وقد كان حزب الملكيين المتطرفين يتقدم تدريجيا . لذلك فانه عندما مات لويس الثامن عشر سنة 1824 كانت الحكومة فى فرنسا فى أيدي الملكيين المتطرفين .

وكان الملك الجديد ، شارل العاشر ، أولا فى تعاطف مع الملكيين ثم أيدهم فى النهاية بصفة كاملة . وقد كانت هناك علامات سخط فى شعبه . فنمو الاتجاهات الليبرالية فى فرنسا ثم الافكار الجمهورية ، والاشتراكية ، والبونابيرتية .. الخ، قد جعلت الملك يتحول الى الملكيين والى الجماعات الرجعية . فقد أعاد شارل العاشر « كثيرا من الامتيازات الى طبقة رجال الدين وأعطى طبقة الاشراف مليونا من الفرنكات كتعويض عما فقدوه أثناء الثورة . وقد ألغى حرية الصحافة وجرد معظم الطبقة الوسطى من حق الانتخاب . » (15) .

وعندما شعر شارل العاشر وجماعته الرجعية أن تيار الشعب الفرنسي بسير ضدهم رأوا أن يعدوا حملة ضد الجزائر للنفخ فى الروح الوطنية ولمنع ، أو على الأقل ، لتأجيل الثورة التي كان يتوقعها كل أحد .

فالملك الرجعي ووزراؤه قد قاموا أيضا بمهمات أخرى ، وهي حل مجلس النواب حين فاز الليبراليون بالأغلبية فى الانتخابات العامة . وفى يوم الاثنين 17 ماي 1830 أصدر شارل العاشر أمرا ملكيا . بحل مجلس

15 ـ انظر ف « أ . ريكاردو البيرهيما ، « التاريخ الوسيط والحديث » ، ص 199 .

النواب وبدعوة المجالس الانتخابية للاجتماع فى شهري جوان وجويلية واجراء انتخاب مجلس الشيوخ والنواب فى الثالث من أوت . (16)

وكان هؤلاء الفرنسيون يأملون أن الحملة ضد الجزائر قد تغير نتيجة الانتخابات السابقة وتجعلهم يفوزون بالأغلبية وبنجاح فائق فى مجلس النواب الجديد . ولكن ما نتيجة مثل هذه الجهود المعتوهة ؟ وقبل شهر واحد من ثورة جويلية التي نجحت فى اسقاط الملك الرجعي ، كتب محررو مجلة غلوب Globe : « ان الازمة التي تتخبط فيها فرنسا الآن تمثل منظرا مرعبا . انه المنظر المرعب للفوضى التي طالما لطخت مكانتها بالدم والتي هزت كيان أوروبا كالزلزال يبدو أنها على وشك العودة من جديد .. » (17) لقد كان حقا أن فرنسا كانت على وشك ثورة جديدة فى جوان 1830 ، ولكن الثورة التي حدثت أثناء أقل من شهر واحد لم تكن زلزالا فى أوروبا ولا فى فرنسا نفسها . فثورة جويلية قد أسقطت شارل العاشر وجاءت بلويس فيليب وقد استمر هذا فى تطبيق نفس السياسة سواء فى الداخل أو فى الجزائر .

6) ـ أسباب الحملة :

بعد أن درسنا الوضع الداخلي فى فرنسا ، الذي نعتقد أنه سيضيء الظروف التي أدت الى الحملة الفرنسية ، دعنا نرجع لنرى ما هي الأسباب التي تذرع بها الرسميون الفرنسيون لتبرير عملهم ضد الجزائر .

ان الرسميين الفرنسيين لم يذكروا أي سبب يتعلق بالمصاعب الداخلية فى بلادهم . ولكنهم كانوا يعلمون أن شعبهم سيطيع ويتحمس اذا تحدثوا اليه عن شرف الأمة الفرنسية الذي أهانه الجزائريون . فرجال الأعمال والتجار كانوا سيهللون لهذه الخطوة لأن الجزائر ، كما ادعى الرسميون

---

16 ـ انظر جريدة « ذي ليفربول ميركوري » ، 21 ماي 1830 .

17 ـ نفس المصدر .

الفرنسيون ، قد صادرت « الممتلكات » الفرنسية على الساحل الجزائري . وقد ظنوا أن مثل هذه النغمة ستجعل هؤلاء يسرعون الى تأييد الحكومة ويباركون حركتها العادلة والقومية . (18)

ومن جهة أخرى فان الجيش الفرنسي قد بقي مدة طويلة فى سلام . فمنذ نابليون وفترة الاسترجاع التي تلته لم يكن « للجيش الأعظم » أي شيء يعمله ، أما أوروبا عامة فقد كانت فى سلام تحت الحكومات الرجعية مترنيخ ، وليفربول ، والأسكندر الأول ، ثم بالطبع شارل العاشر . وبدلا من أن يترك الجيش يتقدم نحو باريس لاسقاط النظام وتأييد الليبراليين ، دبر شارل العاشر ارسال الجيش الى طولون استعدادا « للمعركة المجيدة » على الساحل الآخر على البحر الأبيض المتوسط .

ولكن ماذا عن بريطانيا العظمى وأوروبا كلها ؟ هل أخذ الرسميون الفرنسيون ذلك فى الاعتبار قبل أن يبادروا فى تنظيم الحملة ؟ نعم لقد فعلوا واختلقوا أسبابا ومبررات . فقد قالوا أن الجزائر لم تطع أمر المبعوثين البريطانيين والفرنسيين بالغاء نظام الرق وقالوا أيضا بأنها قد استرقت ضباطا كانوا قد أسروا على بواخر تحمل علم روما التي كانت عندئذ تحت الحماية الفرنسية .. الخ .

غير أن بريطانيا لم تكن مقتنعة بهذه الادعاءات ، وأصرت على أنه يجب على فرنسا أن تقدم تفسيرات وافية حول مصير الجزائر اذا نجحت الحملة، وقد رد ملك فرنسا شارل العاشر على السفير البريطاني فى باريس ، عن طريق رئيس وزرائه دي بولنياك (De Polignac) ، أنه اذا نجحت الحملة فان فرنسا ستتشاور مع حلفائها . ولكن شارل العاشر قد أضاف على

18 ـ كل المؤرخين الفرنسيين يستعملون كلمة « الممتلكات » أو « المنشآت الفرنسية » ، بل حتى كلمة « ملكية » التي لها بالطبع ، أصول الامبريالية وفكرة الاعتداء من أجل المصالح الاقتصادية .

لسان رئيس وزرائه بأن احتلال الجزائر فى حد ذاته يجب أن يباركه كل المسيحيين وكل العالم المتحضر .

وقد جاء فى كلامه : « اذا كان فى الصراع الذي أوشك أن يبدأ نتيجة هامة فان الملك فى تلك الحالة سيأخذ فى الاعتبار أهمية هذه المسألة لاقرار ما يجب أن تكون عليه الأشياء أمام الوضع الجديد ، التي يجب أن تسجل أكبر ربح للمسيحية . » (19) .

أما الجريدة لومنيتور Le Moniteur شبه الرسمية فقد نشرت أهم النقط التي اعتبرتها فرنسا العناصر الأساسية التي أدت الى حملتها ضد الجزائر . وبناء على هذه الجريدة فان أسباب الحملة هي ما يلي :

1 ــ لقد استرجعت فرنسا ، بمقتضى معاهدة 1817 ، ممتلكاتها لبعض المؤسسات التجارية التي توقف استعمالها أثناء الثورة . ولكن الداي قرر أنه لا يسمح بامتيازات لفرنسا لا تتمتع بها الدول الأخرى . ولذلك هدم كل الحصون والمؤسسات وتوابعها التي كانت لفرنسا .

2 ــ وبمقتضى نفس المعاهدة كان لفرنسا امتياز صيد المرجان على الساحل الجزائري بشرط أن تدفع هي 60 ألف فرنك سنويا مقابل ذلك . وبعد سنتين من المعاهدة طلب الداي من الفرنسيين 200 ألف فرنك ففعلوا . وفى سنة 1826 أصدر الداي قرارا يمنح بمقتضاه الحرية لكل الدول فى صيد المرجان .

3 ــ وفى سنة 1814 أجبر القنصل الفرنسي ، ديبوي ثانفيل D. Thainville على مغادرة مدينة الجزائر لأنه رفض أن يعوض بعض الجزائريين عما أقرضوه لبعض الرعايا الفرنسيين قبل أن يستشير حكومته .

19 ــ انظر وزارة الخارجية البريطانية « مراسلات واتصالات مع سفير فرنسا فى لندن سنة 1830 » ، 1833 ، ص 18 .

4 ــ ان الداي قد رفض أن يعطي اجابات مرضية على حجز والاستيلاء على الباخرة الفرتسية لافورتون La Fortune فى عنابة .

5 ــ فى سنة 1818 أجاب الداي كلا من أمير البحر البريطاني والفرنسي بأنه سيواصل نظام الاسترقاق ضد رعايا الدول التي لم توقع معاهدات معها .

6 ــ وفى سنتي 1826 و 1827 كان هناك خرق للمعاهدات من الداي ، فهناك بواخر ترفع علم روما قد صودمت رغم انها كانت تحت الحماية الفرنسية . كما أن هناك بواخر فرنسية قد نهبت وأرغم ربانوها على أن يصعدوا بواخر القراصنة الجزائريين بهدف الاستظهار بأوراقهم .

7 ــ تصرف الداي نحو يهوديين . فبناء على اتفاقية 1818 كان اليهوديان سيعوضان ، مع الاحتفاظ ببعض النقود لاجابة مطالب بعض الفرنسيين ضدهما . ولكن الداي طلب أن يدفع اليه شخصيا كل القرض الذي يصل الى (000 700 فرنك) وأن على الرعايا الفرنسيين أن يلتجئوا الى الحكومة الجزائرية لاجابة مطالبهم . وقد أضاف الى هذا الموقف الذي يثير السخط (اشارة الى ضرب الداي للقنصل الفرنسي) تهديم المؤسسات الفرنسية . لذلك أصبح حصار مدينة الجزائر أمرا لا مناص منه . وبعد أن كلف هذا الحصار فرنسا حوالي 20 مليون من الفرنكات حاولت فرنسا فى جويلية 1829 أن تفتح المفاوضات ولكنها فشلت . وقد وصف البيان الفرنسي هذا الموقف من الداي بأنه قد جعل كل محاولة أخرى للتفاهم من جانب فرنسا غير متناسبة مع شرف الأمة . (20)

---

20 ــ مجلة « ذي ليفيربول ميركوري » (14 ماي 1830) .

وهنا نرى أن البيان الفرنسي الذي نشرته جريدة « لومنيتور » قد استعمل نفس النغمة التي استعملها هتلر قبل أن يهجم على ضحيته : الاتهام بخرق المعاهدات ، والادعاء بامتلاك بعض المؤسسات والممتلكات فى بلد أجنبي ، واهانة شرف الأمة ، وغير ذلك .

وقد قدر المؤرخ الفرنسي أرسن برتاي (Arsene Bertueil) مؤلف كتاب « الجزائر الفرنسية » ان فرنسا قد خسرت حوالي 7 ملايين فرنك نتيجة للحصار ، وأنها تعتبر نفسها صاحبة الحق فى الممتلكات التي أسستها منذ القرن الخامس عشر . ولكن أكثر من ذلك أهمية هو أن المؤلف قد ذكر أحد الأسباب التي أشير اليها فى البيان الفرنسي ، وهو ، غيرة فرنسا من أنكلترا لأن الداي قد أعطى الحقوق التجارية الى التجار الأنكليز . فهذا التصرف ، بناء على رأيه ، قد أغضب فرنسا بالطبع . (21)

وبعد قتال مرير وخسائر كبيرة دخل الفرنسيون مدينة الجزائر فى 5 جويليه من نفس العام ، ولكن القتال فى الشوارع وفى الضواحي قد استمر . ومن تلك اللحظة بدأ تاريخ المقاومة الجزائرية .

هذا وقد أبيحت مدينة الجزائر الى الجنود خلال أكثر من أربعة أيام . وقد سجل المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بخجل انتهاك الحرمات والفظائع التي أصبحت هي قانون المدينة .

واستحوذ الفرنسيون على خزينة الجزائر . وتؤكد وثائقهم بأن الخزينة التي تقع فى القصبة كانت تحتوي على حوالي 000 400 2 جنيه استرليني ذهبا ، بينما قدرت مصاريف الحملة بـ 000 000 4 فقط . ولكن المؤرخين يذكرون أن الداي علي خوجة قد استعمل سنة 1817 ، 50 بغلا كل ليلة لمدة خمسة عشر ليلة لنقل محتوى الخزانة . (فقد نقل الخزانة

21 ـ انظر كتاب برتاي ، « الجزائر الفرنسية » ، ص 87 .

والحكومة من مقرهما العادي الى القصبة) . وقد قدر عندئذ (1817) أن الخزانة لم تكن تحتوي على أقل من 50 مليون دولار ذهبا . (22)

وهكذا انتهى وجود الجزائر كدولة مستقلة . ورغم البيان الفرنسي فان الجزائر قد ألحقت بفرنسا مباشرة . أما شارل العاشر فقد أسقطته ثورة جويلية التي جاءت الى الحكم بلويس فيليب ، الذي واصل نفس السياسة فى الجزائر . ولم تستشر فرنسا حلفاءها كما وعدت من قبل . أما منافستها بريطانيا فقد كانت مشتغلة بأزمتها الداخلية وبسوت ملكها . لقد كانت فرصة ذهبية لفرنسا أن تضع قدمها على الشطر الآخر من البحر الأبيض المتوسط وأن تبدأ عهدا جديدا يعرف بعهد الامبراطورية الثانية الذي يمثل احتلال الجزائر فاتحة له .

7) ـ الحملة بين المؤيدين والمعارضين :

ـ ان الحرب ضد الجزائر سنة 1830 كانت أعظم عمل مهين وعنيف ترتكبه أمة ضد أخرى . فقد استغل ملك فرنسا العواطف الدينية للمواطنين الفرنسيين والأوروبيين طلبا لتأييد الكنيسة . ولكن كان هناك معارضون كثيرون لهذه الحرب من الشعب الفرنسي ، ومن بريطانيا ، ومن الباب العالي . فالمعارضة فى البرلمان الفرنسي قد عارضت الحرب ونادت بالسلام . وقد قام بهذا الدور الجمهوريون ، والاشتراكيون ، والليبراليون عموما . وقد قال مؤلف « الجزائر وماضيها » بأن الرأي العام الفرنسي كان قد تأثر بالأفكار الباريسية ، وبالذات منذ أدب فولتير . (23)

ولكن الذين أيدوا الاستعمار كانوا أهل النخبة الذين كانوا واعين لعظمة فرنسا ، وتقاليدها الاجتماعية . وبالاضافة الى ذلك كان هناك

---

22 ـ بليفير ، « جلادة المسيحية » ص 281 .
23 ـ برتاى ، « الجزائر الفرنسية » ص 184 .

التجار ورجال الأعمال فى الأقاليم ، ولا سيما بمرسيليا . وبالطبع كان هناك الجيش أيضا الذي أثارته اهانة الجزائر للشرف الفرنسي ، كما كان يشـــاع .

أما بريطانيا فقد كانت ضد الحملة كما سبقت الاشارة . وقد أصرت على أن تقدم فرنسا مبررات وضمانات على القيام بالحملة . وقد نشرت جريدة « ليفربول ميركيري » (the Liverpool Mercury) رسالة من مدينة ميسينا (تاريخها 28 ماي 1830) جاء فيها أن « كامل الأسطول البريطاني باستثناء الباخرة » « بريطانيا » ، قد أبحر نحو الجزائر .... ولكن يشاع بأن هناك سوء تفاهم بين القنصل الانكليزي وأمير البحر الفرنسي فى الجزائر . » وقد أشارت الرسالة أيضا الى أن « قطعة من الأسطــول الروسي ستتبع » متجهة نحو الجزائر .

وعلى أية حال فان فرنسا قد بدأت الحملة ضد الجزائر منذ 1827 ، ولكن لم تأت بنتيجة عندئذ . وقبل بداية 1830 كانت مدينة طولــون مشغولة . فقد نودي على الجيش الفرنسي من مختلف أقاليم البلاد ، كما أن البحرية كانت على استعداد أيضا . وقد وفرت الدولة لذلك أسلحة ومناورات جديدة . وكان العملاء والجواسيس الفرنسيون يعملون فى مختلف الاتجاهات ، من مصر الى المغرب الأقصى ثم طولون . وكانت هناك اتصالات سرية مع الحلفاء والأصدقاء ، وبينما كان ملك فرنسا الكاثوليكي المتحمس يتآمر ضد حرية شعبه وضد ديموقراطية الدستور الفرنسي ، كان داي الجزائر يواجه ثورة فى بلاده (ربما مـــن وحـــي المخبرين الفرنسيين) ، وفى نفس الوقت اكتشفت مؤامرة هدفها اغتيال الداي مما أدى الى قتل كثير من المتآمرين ، قبل أربعة عشر يوما فقط من دخول الفرنسيين

وكانت هناك بعض المصاعب للحصول على الأسلحة ، وفى بناء خطوط دفاعية ، قوية وفى اعداد بحرية ضخمة لتدافع عن كامل الساحل الجزائري الطويـــل .

ومن جهة أخرى كان الفرنسيون يحاولون اضعاف معنويات أهالي الجزائر بواسطة عملائهم ومنشوراتهم السرية . فقبل أن يغادروا طولون متجهين الى الجزائر أعلنوا بيانا طبعوه بالعربية وأرسلوا منه 400 نسخة الى قنصلهم فى تونس لتوزيعها فى الجزائر .

وفى هذا البيان ادعى الفرنسيون ما يلي :

1 ــ انهم قادمون الى الجزائر لمحاربة الأتراك وليس الأهالي .

2 ــ انهم سيحمون الأهالي ولا يحكمونهم .

3 ــ أنهم سيحترمون دين الأهالي ، ونساءهم ، وأملاكهم ، الخ. (لأن ملك فرنسا ، حامي وطننا المحبوب ، يحمي كل دين) .

4 ــ تذكير الأهالي بأن مصر قد قبلت صداقة الفرنسيين (30 سنة مضت على حملة نابليون على مصر) وان هؤلاء سيعاملون الجزائريين بنفس المعاملة التي عاملوا بها المصريين .

5 ــ طلبوا من الأهالي أن يتعاونوا معهم ضد الأتراك أو على الأقل أن يبتعدوا الى الريف (ان الفرنسيين ليسوا فى حاجة الى مساعدة لهزيمة وطرد الأتراك) .

ونظرا لأهمية هذا البيان ، أو هذه الوثيقة التاريخية ، فاني سأذكرها كاملة فى الملحق . (24) وقد قاد دي بورمون De Bourmont الذي كان

24 ــ انظر ملحق « أ » .

قد فر من جيش نابليون أثناء اللحظة الحاسمة فى معركة (واترلو) ، والذي كان وزيرا للحربية فى وزارة بولينياك ، قاد الجيش والأسطول الفرنسيين الى الجزائر ، ونزل الفرنسيون فى سيدي فرج ، وهو مكان لم يتوقع الجزائريون الهجوم منه ، يوم الرابع عشر من جوان 1830 .

ملحق (1)

البيان الفرنسي الى الشعب الجزائري

فيما يلي نسخة من البيان الفرنسي الذي أعد فى طولون بالعربية والموجه الى الجزائريين عشية اقلاع الأسطول الفرنسي نحو الجزائر .

(الى الكولوغلي ، أبناء الأتراك والعرب المقاومين فى اقليم الجزائر)

اننا نحن أصدقاءكم الفرنسيين نتوجه الآن نحو مدينة الجزائر . اننا داهبون لكي نطرد الأتراك من هناك . ان الأتراك هم أعداؤكم وطغاتكم الذين يتجبرون عليكم ويضطهدونكم والذين يسرقون أملاككم وانتاج ارضكم ، والذين يهددون حياتكم باستمرار . اننا لن نأخذ المدينة منهم لكي نكون سادة عليها . اننا نقسم على ذلك بدمائنا واذا انضممتم الينا ، واذا برهنتم على أنكم جديرون بحمايتنا ، فسيكون الحكم فى أيديكم كما كان فى السابق ، وستكونون سادة مستقلين على وطنكم .

ان الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين،اخوانكم الأعزاء، الذين لم يفتأوا يفكرون فينا ويتأسفون على فراقنا طيلة الثلاثين سنة الماضية ، منذ خروجنا من بلادهم ، والذين ما يزالون يرسلون أبناءهم الى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وكل فن وحرفة مفيدة . ونحن نعدكم باحترام

نقودكم وبضائعكم ودينكم المقدس ، لأن ملك فرنسا المعظم حامي وطننا المحبوب ، يحمي كل دين .

فاذا كنتم لا تثقون فى كلمتنا وفى قوة سلاحنا ، فابتعدوا عن طريقنا ولا تنضموا الى الأتراك الذين هم أعداؤنا وأعداؤكم . فابقوا هادئين . ان الفرنسيين ليسوا فى حاجة الى مساعدة لضرب وطرد الأتراك . ان الفرنسيين هم ، وسيظلون ، أصدقاؤكم المخلصون . فتعالوا الينا وسنكون مسرورين بكم وسيكون ذلك فرصة لكم . واذا أحضرتم الينا الأطعمة والأغذية ، والأبقار والأغنام فسندفع ثمن ذلك بسعر السوق . واذا كنتم خائفين من سلاحنا فأشيروا علينا بالمكان الذي يقابلكم فيه جنودنا المخلصون دون سلاح مزودين بالنقود فى مقابل التموين الذي تأتون به .

وهكذا يحل السلام بينكم وبيننا لمصلحتكم ومصلحتنا .

عن « ذي ليفربول ميركوري The Liverpool Mercury » 18 جوان 1830 .

ملحق (2)

رسالة بولنياك ، رئيس الوزراء الفرنسي

الى الدوق دي لافال

السفير الفرنسي فى لندن .

سيدي الدوق ،

فى اللحظة التي يغادر فرنسا فيها الأسطول الذي يحمل جيشنا الى افريقيا ، يشعر الملك بضرورة اعلام حلفائه بشعوره العميق بعلامات

الاهتمام والصداقة التي تلقاها منهم أثناء المنعرج الهام للظروف التي سبقت اقلاع الحملة الموجهة ضد الجزائر . ان جلالته قد طلب موافقتهم بثقة كاملة ، وقد يقال أمام الرأي العام بأنه قد عالج مشكلة كان يعتقد أنه من المناسب أن يجعلها معروفةلكل أوروبا . وقد استجاب حلفاؤه بثقة ومنحوه رضاهم وتشجيعهم وهي حقيقة ستجعله يتذكر موقفهم مـا دام حيـا .

ولكي يرد على هذه المعاملة المخلصة والصديقة ، رغب جلالته الآن فى طرح الباعث والهدف الى الحملة التي يعدها ضد ولاية الجزائر ، أمام حلفائه مرة ثانية فى اللحظة التي يقلع فيها الأسطول الفرنسي .

ان هناك مصلحتين متمايزتين بطبعهما ، ولكنهما متصلتان اتصـالا وثيقا ، قد أدتا الى الاستعدادات التي جرت فى موانينا . احداهما تخص فرنسا بالدرجة الأولى : وهي الثأر لشرف رايتنا ، والحصول على تصحيح الأخطاء التي كانت السبب المباشر فى النزاع ، والمحافظة على ممتلكاتنا من الاعتداءات وأعمال العنف التي تعرضت لها فى كثير من الأحيان . ثم الحصول على تعويض مالي ، بالقدر الذي تسمح به دولة الجزائر ، على مصاريف الحرب التي لم نتسبب فيها . أما المصلحة الثانية ، التي تهم البلاد المسيحية عامة ، فهي الغاء نظام الرق ، والقرصنة ، ودفع الجزية التي ما زالت أوروبا تدفعها الى ولاية الجزائر .

باريس 12 ماي 1830

ببليوغرافية مختارة

1. — PANANTI (Signor) — *Narrative of a Residence in Algiers*. End édition, London, 1830.

2. — SHALER (William) — *sketches of Algiers*. Boston, 1826.

3. — CLANSEL (G.) — *Histoire des conquêtes des Français en Algérie*. Vol 1, Paris, 1846.

4. — GREAT BRITAIN FOREIGN OFFICE — *Correspondances and communications on the French Ambassador in London in* 1830 Britain, 1833.

5. — FACQUETON (G.) — *Les Archives espagnoles*. Alger, 1894, Paris.

6. — DEVOULX (Albert) — *Les Archives du Consul général de France à Alger*, Alger, 1865.

7. — PLAYFAIR (R.L.) — *The Scourge of christendom*, London, 1884.

8. — BERTHIER (André) — *L'Algérie et son passé*, Paris, 1951.

9. — BERTEREIL (Arsene) — *L'Algérie française*. Vol. 1, Paris, 1856.

10. — BROCKLEMANN (Carl.) — *History of the Islamic peoples*, América, 1960

11. — PLANTET (Eugène) — *Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France* 1579-1833. Vol. 2, Paris, 1889.

12. — DE GRAMONT (H.D.) — *Histoire des Deys d'Alger*, Alger, 1881.

13. — GALIBERT (M. Dion) — *L'Algérie ancienne et moderne*, Paris, 1844.

14. — *The Liverpool Mercury*, London, 1830.

15. — *American Whig Review*, Aemerica, 1851.

اول بيان فرنسي الى الجزائريين
ظروفه ونصه 1830

1 ـ الثورة الفرنسية واحتلال الجزائر : *

المؤرخون المؤمنون بنظرية « الحتمية » يعتقدون أن الثورة الفرنسية البورجوازية كانت ضرورة تاريخيـــة . كما يعتقـــدون أنها والثـــورة الصناعية التي سبقتها بعدة عقود فى بريطانيا قد أدتا الى الثورة الروسية البروليتارية . ولكن الذين يرفضون هذه النظرية يصرون على أنها تقوم أساسا على « التفسير الاقتصادي » للتاريخ ، وهي لذلك تجعل مـــن الانسان حيوانا اقتصاديا مكرسا كل جهده لبطنه ومهملا كل شيء يطهر روحه ويصقل عقله . وبين هاتين الفكرتين المتعارضتين يقف الســـؤال التالي : هل كان احتلال الجزائر من طرف فرنسا « ضرورة تاريخية » ؟

ومهما يكن من شيء فان الثورة الفرنسية قد قامت لتحرير الانسان الفرنسي من تحكم الاقطاع وتعسف الرجعية . وكان انتصارها بلا شك يتمثل فى « اعلان حقوق الانسان » الذي جعل من الرعية مواطنا ومن الحاكم خادما للشعب ، والمهم هنا هو أن هذا الاعلان قد أثـــار تخوفات الحكام الأوروبيين الذين كانوا ما يزالون يحكمون باسم «الحق الالهي » مؤيدين من طرف الاقطاع والبيروقراطية والكنيسة .

وقد كان رأي أوروبا الرجعية والأوتوقراطية هو أن تسبق العاصفة قبل أن تصل اليها ، وأن تقضي على هذه الثورة فى مهدها قبل أن

* بحث نشر فى « المعرفة » الجزائرية ، السنة الثانية ، العدد 17 (مارس ، 1965) .

يتسرب شعارها التحرري الى الرعايا فيثيرهم على النظام الاستبدادي الذي يعانون تحته ، وكان على الثورة ، حينئذ ، أن تحارب أعداءها فى الداخل والخارج أو تموت . لذلك حملت الأمة الفرنسية جمعاء السلاح للدفاع عن نفسها . وكانت هذه ظاهرة جديدة فى التاريخ يسميها المؤرخون الأوروبيون ظاهرة « أمة فى السلاح » التي كان من نتائجها الأولى ظهور القومية الفرنسية ، ولكن هذه القومية لم تلبث أن بدأت تهاجم القوميات الأخرى التي استيقظت هي الأخرى للدفاع عن نفسها ، ونحن نعرف أن الثورة الفرنسية قد غيرت خريطة أوروبا تغييرا لم تشهده الا فى عهد الرومان والاسلام والاصلاح الديني ، وحين وصل نابوليون الى الحكم (1800) كان الجيش الفرنسي قد اجتاز الراين شرقا والالب جنوبا ، بل واجتاز البحر الابيض المتوسط الى مصر والشام ، كما كان يخطط فى حملة ضد الهند وأخرى ضد الجزائر (1) .

ولكن الشعوب التي أيقظتها نداءات الحرية وحروب نابوليون قامت لتحارب لا الاستبداد والرجعية فقط ولكن الاستعمار الفرنسي أيضا الذي كان يمثله جيش نابوليون الكبير والعلم المثلث . وهكذا ثارت الشعوب ضد حكامها من ناحية وضد الجيش الفرنسي الاجنبي من ناحية أخرى فى كل من ايطاليا وروسيا والمانيا واسبانيا بل حتى فى الشرق . ومن هنا تبدأ قصة « القومية » بمعناها الحديث .

وقد أدى تحالف أوروبا وظهور القوميات الى هزيمة نابوليون فى واترلو، وبالتالي هزيمة فرنسا عسكريا وسياسيا . ثم وضع مؤتمر فينا الخاتمة لمغامرات الجيش الفرنسي فى أوروبا . وهنا ظن الرجعيون بقيادة ميترنيخ

---

1 — فكر الفرنسيون فى حملة ضد الجزائر قبل حملتهم على مصر . وحين فشل نابوليون فى مصر أمر باعداد خطة الحملة ضد الجزائر ، غير أنه ، لاسباب ما زلنا نجهلها ، لم ينفذ هذه الخطة ، ويذكر الفرنسيون أن مشروعه كان القاعدة لحملتهم على الجزائر عام 1830 ، أنظر فيكتور بيكي V. Picquet « الاستعمار الفرنسي في شمال افريقية » ، ط . كولين ، باريس ، 1914 ، ص 28 .

النمساوي والقيصر الاسكندر الاول الروسي أن حكم الاستبداد والاقطاع قد تأمن . فنفوا نابوليون الى جزيرة هيلينا وأعادوا الى فرنسا لويس الثامن عشر الذي حكم الى موته (1824) ، ثم خلفه أخوه شارل العاشر الذي كان رجعيا الى أقصى حد والذي كان مسؤولا على الحملة الفرنسية ضد الجزائر ، وهو نفسه الذي ثار عليه الشعب الفرنسي في ذات الشهر الذي نزل فيه جيشه أرض الجزائر (جويلية 1830) .

غير أن رد الفعل على هذه السياسة كان عظيما . فالشعوب التي سمعت أصوات الحرية لم تهدأ ولم يخفها حكم الارهاب الذي سنه ميترنيخ والقيصر . فقد ظهر مازيني ليقود القومية الايطالية ، وثارت اسبانيا عام 1822 . وتمرد الجيش الروسي عام 1825 . ونهضت شعوب البلقان على الحكم العثماني . فاستقلت اليونان عام 1830 . واشتعلت الثورة في صربيا (نواة يوغسلافيا الحديثة) . كما استقلت بلجيكا عام 1830 ، وثارت بولندا على روسيا ، والمجر على النمسا .

2 ـ عصر القومية وقصة المروحة :

ان هذه المقدمة القصيرة ضرورية لادراك روح العصر الذي تمت فيه الحملة الفرنسية ضد الجزائر ، انه عصر القوميات وهزيمة فرنسا في القارة الأروبية بعد أن أيقظت هي نفسها الشعوب لكي تدافع عن حريتها المهددة . ونتيجة لذلك أصبح الجيش الفرنسي سجين ثكناته رغم أسلحته الحديثة ، وتجاربه العسكرية على يد نابوليون ، والمبادىء التي زرعتها فيه الثورة . وكان لا بد لشارل العاشر ، رمز الرجعية المتطرفة ، والخائف من ثورة الجيش عليه ، أن يجد أرضا يطلق فيها سراح جيشه السجين و « ينفيه » فيها لكي يبعده عن خطر الثورة ضده .

وهنا بدأت قصة المروحة المشهورة . فكان الحصار الاقتصادي ضد الجزائر الذي استمر ثلاثة أعوام (1827 — 1830) . وكان تدخل فرنسا فى حرب اليونان التي أدت الى تحطيم الأسطول العثماني — الجزائري — المصري . وكانت مغامرات محمد علي فى المشرق « مؤيدا من فرنسا » التي شغلت الدولة العثمانية عن مساعدة الجزائر حين هاجمتها فرنسا . كل هذه المناورات كانت تهدف الى عزل الجزائر عزلة يائسة . ولذلك فحين هاجم الجيش الفرنسي ، أكبر وأكفأ جيش أروبي فى عصره ، وجد شعبا معزولا بلا أسطول ، وبلا سلاح ، وبلا مساعدة خارجية ، ومع ذلك فقد كان على هذا الجيش أن يحارب فى الجزائر من شارع الى شارع ومن دار الى دار .

ليس هدفي أن أقص قصة الاحتلال والمقاومة الشعبية التي تلته . ذلك أن هذه القصة ما زالت تنتظر القلم الكفء والنزيه الذي سيسجل اروع ملحمة مقاومة وطنية عربية كانت فى القرن التاسع عشر ، قام بها شعب كانوا يسمونه متأخرا وجاهلا وصغيرا ضد جيش كانوا يصفونه بالعظمة والتقدم والخبرة . دع اذن هذه القصة الى وقت آخر . ودعني الآن ألق فقط الضوء على البيان الأول الذي وجهته فرنسا الى الجزائريين فى الوقت الذي كانت تتآمر على احتلالهم .

3 — ظروف البيان :

على طريقتهم فى أروبا والشرق زعم الفرنسيون للجزائريين أنهم قادمون « لتحريرهم » من الاستعمار التركي (2) . وقد طلبوا من

2 — باسم التضليل التاريخي يستعمل الفرنسيون كلمة « تركي » بدل « عثماني » . والمعروف أن « بيت آل عثمان » كان ، عن حق أو عن باطل ، رمزا للخلافة الاسلامية ووحدة العالم الاسلامي ، ولا يحمل أي معنى « قومي » وهو الذي تشير اليه كلمة « تركي » . ولا شك أن ولاء المسلمين ، قبل عصر القوميات ، كان لآل عثمان رمز الخلافة وليس لتركيا (التي لا وجود لها قبل 1924) رمز القومية ، ومن هنا يتضح أن الجزائر لم تكن تحت حكم « الاتراك » ولكنها كانت تعترف بالخلافة « العثمانية » .

الجزائريين أن يساعدوهم لتحرير أنفسهم،وادعوا بأنهم لن يبقوا فى الجزائر أسيادا عليها بل سيكون الجزائريون أسياد أرضهم • ووعدوا باحترام الدين والتقاليد والممتلكات (3) • وزعموا أن ملك فرنسا يحترم جميع الأديان • ثم أقسموا على ذلك بشرفهم (؟) وجميعنا يدرك الآن كيف بدأت القصة وكيف انتهت ، فاذا كان كاتب فصلها الأول هو شارل العاشر فان كاتب فصلها الأخير هو شارل دي غول ، وبين هذين (الشارلين) وقف الجزائريون عمالقة لم يركعوا لأجنبي مهما طغى وتجبر •

نشر النص العربي لهذا البيان لأول مرة فى المجلة الافريقية (4) بصحبة ترجمة حرفية فرنسية قام بها السيد بريسني ، وتذكر المجلة بأنها قد حصلت على النص العربي الكامل من الدكتور ليكليرك الذي حصل عليه بدوره من مدير مكتبة أميان (فرنسا) السيد غارني • وينص الدكتور ليكليرك بأن مكتبة أميان قد حصلت على النسخة العربية من العقيد المركيز دي كليرمونت — تونير الذي كلفته وزارة الحربية الفرنسية باعداد خطة الحملة ضد الجزائر • ويثبت الدكتور ليكليرك بأنه لا وجود لنسخة فرنسية من هذا البيان ، ويشير الى أن مطبعة انجلمان هى التي قامت بطبعه (5) •

3 — يذكر حمدان خوجة السياسي الجزائري الذي عارض الاحتلال الفرنسي أنه حين احتج لدى القائد الفرنسي العام كلوزيل على خرق اتفاق 1830 مع الجزائر رد عليه هذا بقوله « ان فرنسا غير ملزمة باحترام هذا الاتفاق لأنه لم يكن فى نظرها سوى لعبة حرب » . انظر « مذكرات حمدان خوجة » التي نشرها السيد جورج ايفير فى « المجلة الافريقية » ، المجلد 57 ، عام 1913 ، ص 138 •

4 — أنظر المرجع السابق ، المجلد 6 ، عام 1862 ، ص 153 — 156 •

5 — يبدو أن هناك بعض التضارب فى نسخة البيان بالفرنسية والانكليزية ، فقد ترجمته من الفرنسية كل من « ذي ليفيربول ميركوري » البريطانية (جوان 18 ، 1830) و « ذي سكرايب » المصرية (ماي — جوان 1961) • ويبدو أن كلتيهما قد نقلتا عن جريدة « لومونيتور » الفرنسية (جوان 2 ، 1830) ففي المصدرين الأولين توجد الفقرة التالية المفقودة من النص العربي وهي : « ان الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا اخوانكم المصريين الذين يفكرون فينا دائما ويأسفون على مغادرتنا لهم منذ ثلاثين عاما ، وما زالوا يبعثون أبناءهم الى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وغيرهما من المهن المفيدة » . ولا أعلم الآن سبب هذا الحذف والزيادة •

4 ـ اعداد البيان وتجهيز الحملة :

كلفت وزارة الحربية الفرنسية العقيد تونير عضو القيادة العامة باعداد الخطوات الضرورية لتنفيذ الحملة على الجزائر . ويذكر الفرنسيون بأن اتقان العقيد تونير للعربية قد جعل مهمته سهلة . كما يعترفون بأنه كان على اتصال دائم بالسواح والديبلوماسيين الأجانب الذين لهم خبرة بالجزائر والذين زودوه بمعلومات هامة سهلت عليه دراسته للأرض الجزائرية وسكانها .

وفى شهر جانفي (يناير) 1830 كلفت الوزارة المذكورة نفس العقيد تجهيز مكتب خاص لتنفيذ الحملة (اعداد الخرائط ونحوها) . وقد عين الضابط فولتز الذي كان أيضا عضوا فى القيادة العامة مديرا لهذا المكتب . وفى نهاية شهر ماي من نفس العام انتدب الكونت دي بورمونت (6) العقيد تونير لكتابة بيان بالعربية موجها الى الجزائريين . وحين انتهى تونير من كتابة البيان أعطاه الى المستشرق دي ساسي لكي يصوغه باللهجة العربية الجزائرية .

ويذكر السيد نيتمونت الذي ألف كتابا عن الاحتلال الفرنسي للجزائر والذي كان معاصرا للحملة ، أن هذا البيان قد وزع فى جميع أنحاء الجزائر بعناية دي ليسيبس المبعوث الفرنسي بتونس ، ورينبير .

6 ـ كان دى بورمونت القائد العام للجيش الفرنسي فى الجزائر ابان الاحتلال ، وقد كان من طراز سيده شارل العاشر محافظا رجعيا ، غير أنه لم يتمتع بانتصاره فى الجزائر ، فحين ثار الفرنسيون ضد ملكهم استدعت الحكومة الجديدة دي بورمونت من الجزائر بتاريخ 18 أوت 1830 ، ثم عينت مكانه اللواء كلوزيل المذكور سابقا الذي كان يسمى « صاحب الوجهين » : الوجه الليبرالي فى البرلمان الفرنسي والوجه الرجعي الاستعماري فى الجزائر ، ومن الجدير بالذكر أن كلا من دي بورمونت وكلوزيل كانا من جنود نابوليون ساعة هزيمته فى واترلو المشهورة .

ودوبينيوز (7) وجيراردان الذين بعثتهم المخابرات الفرنسية الى الجزائر ليقوموا بهذا الدور . كما وزعت المخابرات الفرنسية هذا البيان فى تونس والمغرب ولعل ليبيا أيضا . وكان هدف الحكومة الفرنسية من ذلك هو عزل الجزائريين عن حكومتهم من ناحية ، وضمان حياد كل من تونس والمغرب حين تبدأ الحملة من ناحية أخرى .

5 ـ نص البيـــان :

« هذه مناداة من سار عسكر أمير الجيوش الفرانساوية الى سكـــان الجزائر وأهالي القبائل » (8) .

« باسم الله المبدىء المعيد وبه نستعين ..

« يا أيها ساداتي القضـــاة والأشراف والعلمـــاء وأكابر المشـــائـــخ والاختيارية اقبلوا مني أكمل السلام وأشمل أشواق قلبي بمزيد العز والاكرام . أما بعد اعلموا هداكم الله الى الرشد والصواب أن سعادة سلطان فرانسه (الملك شارل العاشر) مخدومي وعزة جنابه الأعلى عز نصره قد أنعم على بتوليته أياى (الكونت دي بورمونت) منصـــب سار عسكر (القائد العام) . ويا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي اليكم من شعب المغاربة (أهل المغرب العربي) ان الباشا حاكمكم (الداي حسين) من حيث أنه تجراء على بهدلة بيرق فرانسه (العلم الفرنسي) المستحق كل الاعتبار وأقدم على اهانته فقد سبب بجهله هذا (ضرب القنصل الفرنسي دوفال بالمروحة) كل ما هو عتيد أن يحل بكم من الكوارث والمضرات لكونه دعى عليكم الحرب من

---

7 ـ من سوء حظ الجزائر أن هذا المغامر (دو بينيوز) قد أصبح رئيسا للشرطة الفرنسـه فى الجزائر بعد الاحتلال ، وقد تعاون مع سيده كلوزيل المـــذكور على اضطهاد الجزائريين الذين حاولوا تنظيم المقاومة الشعبية ضد فرنسا فكان جزاؤهم النفي والسجن والتغريم ومصادرة الاملاك ، انظر بهذا الموضوع كتاب « المرآة » و « المذكرات » لحمدان خوجة .

8 ـ كل كلام بين قوسين فهو من عندي ، أما النص نفسه فاني أنقله عن « المجـــلة الافريقية المذكورة من غير حذف أو زيادة أو تعديل .

قبلنا فان عزة اقتدار سلطان فرانسه دام ملكه نزع الله من قلبه مرحمته المعهودة ورأفته المعروفة المشهورة فلا بد أن هذا الباشا حاكمكم من قلة بصيرته وعماوة قلبه قد جذت (جذب ؟) على نفسه الانتقام المهول وقد دنا منه القدر المقدر عليه وعن قريب يحل به ما استحقه من العذاب المهين . »

« أما أنتم يا شعب المغاربة (أهل المغرب العربي) اعلموا وتأكدوا يقينا اني لست آتيا لأجل محاربتكم فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم وتعملوا أشغالكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة سر . ثم اني أحقق لكم (أعدكم) أنه ليس فينا من يريد يضركم لا في مالكم ولا في أعيالكم . ومما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان أو كبيرا فيبقى على ما هو عليه ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه أحد من قومنا بل يكون في أيديكم دائما . فآمنوا بصدق كلامي . ثم اننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا حقيقيا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الآن عايه وأكثر وأنه لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم فان حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم وانما قصدنا محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء » .

« ومما لا يخفى عليكم غاية تحكمه وقبح طبعه المشوم ولا ينبغي لنا أن نطلعكم على أخلاقه الذميمة وأعماله الرذيلة فانه واضح لديكم انه لا يسعى الا على خراب بلادكم ودثارها وتضييع أموالكم وأعماركم . ومن المعلوم أنه انما يريد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدلين الخاسرين أكثر من المسخط عليهم ، فمن أعجب الأمور كيف يغبى (يخفى) عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير الا لذاته . والدليل كون أحسن العمارات والأراضي والخيل والسلاح واللبس والحلى وما أشبه ذلك كله من شأنه وحده » .

« فيا أيها أحبابنا سكان المغرب أنه عز وجل ما سمح بأن يصدر من باشتكم الظالم ما فعله من أعمال الخبث والردى الا انعاما منه سبحانه وتعالى عليكم حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطنته على كل خير ويفرج عنكم ما أنتم فيه من الغم والشدة ، واذ والحل هذه أسرعوا واغتنموا الفرصة ولا تعمى أبصاركم عما أشرقه الله عليكم من نور اليسر والخلاص ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم بل استيقظوا لكي تتركوا بأشتكم هذا وتتبعوا شورنا (طريقنا) الذي يؤول الى خيركم وصلاحكم . وتحققوا أنه تعالى لا يبغى قط ضرر خليقته بل يريد أن كل واحد من براياه يحوز ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها على سكان أرضه » .

« يا أيها (الجزائريون) أهل الاسلام ان كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل وأنه مشتمل على الصلح والمودة ، وأنتم اذا شيعتم (بعثتم) مراسيلكم الى أوردينا (مراكزنا ؟) حينئذ تتكلم واياهم والمرجو من الله تعالى أن محادثتنا مع بعضنا بعض يؤول الى ما فيه منافعكم وصلاحكم . وعشمنا بالله انكم بعد ما تحققتم أن متاصدنا وغايتنا الفريدة ليست هي سوى خيركم ومنفعتكم تشيعوا لنا صحبة مراسيلكم كل ما يحتاج اليه عسكرنا المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبهه . وحين وصلت مرسلاتكم هذه الينا فحالا ندفع الثمن فلوسا نقدية على ما تريدون وأكثر » .

« هذا واما ان كان منكم معاذ الله خلاف ذلك حتى تختاروا محاربتنا ومقاومتنا اعلموا أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر انما يكون سببه من جهتكم فلا تلوموا الا أنفسكم فأيقنوا أنه ضد ارادتنا فليكن عندكم محققا ان عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب وأن الله يسلطها عليكم فانه تعالى كما أنه يأمر من يجعل لكم النصر

والظفر بالمرحمة والمسامحة على الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم بأشد انعذاب على المفسدين فى الأرض العائثين على البلاد والعباد فلا بد أنكم ان تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكتم عن آخركم » .

« هذا أيها السادة ما بدا لي أن أكلمكم به فهو نصيحة مني اليكم فلا تغفلوا عنه واعلموا بأن صلاحكم انما فى قبوله والعمل عليه وان هلاككم لا يرده منكم أحد ان عرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم به وأيقنوا يقينا مؤكدا أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله تعالى غير ممكن تغييره لأنه مقدر والمقدر لا بد أن يكون . السلام على من سمع وأطاع (9) » .

9 ــ يستغل الاستعمار أبشع الأساليب لاصطياد ضحاياه ، والتدجيل باسم الدين كان من بين هذه الأساليب التي ساعد عليها جهل الجماهير وعزلتها واستسلامها «للقدر» ؛ والقارىء يلاحظ بسهولة التركيز فى هذا البيان على فكرة القدر مثل « القدر المقدر » و « يسلطها الله عليكم » و « المقدر لا بد أن يكون » ، والذي يطلع على « فتاوي » الاستعمار للجزائريين أثناء الثورات والتمردات يدرك الى أي مدى ينحط العقل البشري فى استغلال الانسان للانسان .

العلاقات الجزائرية ـ الامريكية
1776 – 1830

فى مطلع القرن التاسع عشر * وصف الدبلوماسي الأمريكي ويليم شيلر قوة الجزائر البحرية بقوله : « لقد كان الجزائريون فى أوج قوتهم وسمعتهم حتى أن أعظم الدول البحرية كانت تطلب صداقتهم .... انهم اليوم يتباهون بأن عظمتهم البحرية لا تماثلها غير بحرية بريطانيا العظمى . (1) »

1 ـ عظمة الجزائر البحرية :

والحقيقة ان عظمة الجزائر البحرية قد بلغت أوجها فى النصف الأخير من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر . ويتفق الكتاب الأوروبيون أنفسهم على ان نفوذ الجزائر البحري والسياسي قد امتد الى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط من ناحية، والى شواطىء

---

* بحث نشر فى « المعرفة » الجزائرية ، السنة الثانية ، العدد 15 (سبتمبر ـ أكتوبر ، 1964) والعدد 16 (نوفمبر 1964) .

1 ـ أنظر ويليم شيلر W. Shaler « مختصر الجزائر « Sketches of Algiers » المطبوع سنة 1826 فى بوسطن ، ص 119 ، كان شيلر قنصلا عاما لبلاده فى الجزائر من 1815 الى حوالي 1824 ، وقد اقترح فى كتابه المذكور استعمار الجزائر من طرف أروبا قائلا أن بريطانيا « يجب أن تعزم على احتلال واستعمار هذا القسم من أفريقيا » . وأوضح بأن أية مصاريف ستكلفها الحملة على الجزائر ستعوضها الخزينة الجزائرية التي قال عنها بأنها تحتوي على مبلغ خمسين مليون دولار ، وقد ترجم كتابه فى الحال الى الفرنسية بعنوان Aperçu historique sur l'état d'Alger ثم وضع فى متناول وزارة الحربية الفرنسية ، وبعد عام واحد من صدور هذا الكتاب اعلنت فرنسا الحصارة على الجزائر ، ان هذا التسلسل فى الاحداث يثير شك المؤرخ ، أنظر كذلك الوثائق التي نشرتها وزارة الخارجية البريطانية عام 1833 بعنوان « مراسلات واتصالات مع السفير الفرنسي فى لندن ، 1830 » حول احتلال فرنسا للجزائر وموقف الدبلوماسية البريطانية منه .

أروبا الغربية من ناحية أخرى . فقد كان الأسطول الجزائري يجوب المحيط الأطلنطي من بريطانيا وايسلندا الى جزر الكناري والآزورس .

ويجب ان نؤكد بأن هدف الأسطول الجزائري لم يكن عدوانيا . فقد كانت غايته هي حماية الاستقلال الوطني والدفاع عن الاسلام ضد الصليبية التي هددت كل شمال افريقية وقتها بالاحتلال . ذلك انه بعد سقوط الأندلس (1492) . الذي يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الاسلام . اعلنت اسبانيا والبرتغال . تحت تأثير الكنيسة . حرب الأبادة على افريقيا الشمالية استمرارا لما كان يسمى الفتح الجديد (ريكونكويستا) الذي كان يعنى لا افتكاك الأندلس فحسب من أيدي المسلمين ولكن احتلال المغرب العربي أيضا . ولما كان الشرق عندئذ غير قادر على المساهمة فى صد هذا الزحف الصليبي الجديد ، فقد كان على الجزائر ان تلعب دورا تاريخيا حاسما ضد هذه الصليبية لا يشابهه الا دورها البطولي الحديث ضد الاستعمار (2) .

ومن هنا يتضح أن هدف الجزائر من بناء الأسطول كان دفاعيا محضا . ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا وفرنسا وهولاندا وأسبانيا والبرتغال تقوم بعمليات القرصنة ضد بعضها من جهة . وضد الشعوب الأخرى من جهة ثانية ، كانت الجزائر تستخدم قوتها البحرية لغرضين : الأول هو حماية حدودها من العدوان المحقق . والثاني هو الدفاع عن الاسلام من الصليبية المتعصبة . ومع ذلك فالكتب الاروبية مشحونة بالدعاية المغرضة ضد الجزائر حيث تتهمها بالقرصنة والهمجية وعدم مراعاة

---

2 ــ من ذلك انتصارها التاريخي عام 1541 على القوات الاروبية المتحالفة بقيادة شارل الخامس امبراطور « الامبراطورية الرومانية المقدسة » التي كانت تضم النمسا ، المجر ، ألمانيا ، هولاندا ، بلجيكا ، اسبانيا ، والبرتغال ، ومعظم الدويلات الايطالية القديمة ، ويذكر هاملتون كيري « H. Curry » أن قوة شارل الخامس كانت تتكون من 516 سفينة ومن 35ر730 محاربا أنظر كتابه « ذئاب البحر » ط. الثانية ، لندن ، 1928 ، صص 49–50 .

القوانين الدولية . والقاريء يجد فى الكتب الأروبية مثل هذه التعبيرات فى وصف الجزائر : « عش القرصنة » ، « مركز الرعب » ، « جلادة المسيحية » ونحوها .

حقا ان هدف هذا البحث هو مناقشة العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وأمريكا . ولكن قبل أن أدخل فى تفاصيل الأحداث دعني أوضح نقطة أراها جديرة بهذا المكان . ان الدبلوماسية الجزائرية ، بناء على المحتوى التاريخي الذي ذكرته من قبل ، كانت تقوم على مبدأين أساسين : الاول هو ان كل دولة تعتبر محاربة حتى توقع معاهدة صداقة وسلام مع الجزائر . والثاني هو أن كل معاهدة لا تعترف بتفوق الجزائر البحري فى البحر الأبيض المتوسط لا يمكن قبولها من طرف الجزائر . وقد تبعت الجزائر هذا التقليد طيلة القرون الثلاثة السابقة للاحتلال . ولكن حين اختل هذا التوازن فى مطلع القرن الماضي سقطت الجزائر ضحية للاستعمار الفرنسي .

هناك أربع مراحل مرت بها العلاقات بين الجزائر وأمريكا :

1 ــ من الثورة الامريكية سنة 1775 الى اعلان الجزائر الحرب على أمريكا سنة 1785 .

2 ــ من سنة 1785 الى معاهدة الصلح الأولى بين البلدين سنة 1795 .

3 ــ من سنه 1795 الى مفاوضات الصلح الثانية سنة 1815 .

4 ــ من سنة 1815 الى الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 .

2 ــ المحاولات الاولى للعلاقات الجزائرية ــ الامريكية :

حين كانت أمريكا ما تزال مجموعة من المستعمرات تخضع للنفوذ البريطاني والفرنسي أو الأسباني كانت الجزائر تعامل السفن الامريكية طبقا لعلم الدولة المعنية وبناء على العلاقات التي تربط بين الجزائر وبين

تلك الدولة . ولما كانت العلاقات بين الجزائر وبريطانيا فى آخر القرن الثامن عشر ودية فقد تمتعت السفن الامريكية فى هذا الوقت بحماية الجزائر لها ومنحها جميع الاعتبارات . ويشهد الأمريكان أنفسهم بأن تجارتهم قد تقدمت خلال هذه الفترة ، وأن بلادهم قد بدأت تتعرف على أحوال الشرق أو « العالم القديم » بفضل معاملة الجزائر لها .

غير أن اعلان الثورة الأمريكية قد جعل بريطانيا تسحب حمايتها من مستعمراتها القديمة . وهكذا أصبحت الجزائر حرة فى معاملة السفن أمريكا الجديدة ، لكي تحمي سفنها وتجارتها ومواطنيها . أما أن توقع معاهدة صداقة مع الجزائر أو تواجه الحرب . ونظرا لمشاكلها الداخلية ولقوة الجزائر العسكرية فان أمريكا قررت أن تنشد السلام مع الجزائر . غير انها لم تسلك طريقا مباشرا لذلك . لقد التجأت الى أصدقائها الأروبيين ليساعدوها على تحقيق ذلك الهدف . ويعلل الأمريكان لذلك بأن تجربتهم مع الجزائر كانت محدودة وأن خبرتهم فى شؤون البحر الأبيض المتوسط كانت ضعيفة .

فالمعاهدة التي وقعتها أمريكا مع فرنسا عام 1778 احتوت على مادة يتعهد بموجبها ملك فرنسا باستعمال وساطته لدى الجزائر لحماية وراحة أمريكا . وفى معاهدة أخرى مع كل من هولاندا عام 1782 وبريطانيا عام 1783 حاولت أمريكا أن تضيف نفس المادة . ولكن الدول الأروبية ، بما فى ذلك فرنسا صديقة أمريكا فى ذلك الوقت ، رفضت أن تطبق تعهداتها . أما بريطانيا فقد رفضت اضافة المادة أصلا . وكان هذا الموقف الأروبي يقوم على مبررين الأول أن معاهدات هذه الدول مع الجزائر لا تحتوي على تعهد بحماية أو تدخل بشأن أمريكا . والثاني عدم الرغبة فى اضافة منافس جديد لدى الجزائر والشرق (3) .

---

3 ـ انظر بشأن هذا الموضوع أروين « Irwin » فى كتابه « العلاقات الدبلوماسية » صص 21ـ23 ، انظر أيضا ديبوي Dupuy « أمريكان وبرابرة » . ص 16 .

3 ـ الجزائر تعلن الحرب على أمريكا :

ولما فشلت المساعي لدى الدول الأروبية بدأت أمريكا حملة دبلوماسية ضد الجزائر . كان هدف هذه الحملة هو تكوين تحالف أروبي ـ أمريكي لمحاربة الجزائر . ففي سنة 1783 عبر بنجامين فرانكلين عن عجبه من تخلف الأروبيين على مواجهة الخطر الجزائري متحدين . غير أن رأيه هذا قد برهن على ضعفين الأول جهل الأمريكان في ذلك الوقت بدبلوماسية البحر الأبيض المتوسط . والثاني هو عدم قدرة أمريكا على مواجهة الجزائر وحدها عسكريا .

ومهما كان الأمر فانه بينما كان الأمريكان في حيرتهم جاءتهم الأنباء بأن الجزائر قد وقعت معاهدة سلام مع أسبانيا سنة 1785 ، وانها (الجزائر) قد اعلنت الحرب على أمريكا ، وان أسطولها قد قبض على سفينتين أمريكيتين هما « ماريا » و « دوفين » في عرض المحيط الأطلنطي . وهنا لم يجد الأمريكان بدا من فتح المفاوضات المباشرة مع الجزائر . فقد ارسلوا السيد جون لامب (J. Lamb) الى الجزائر لهذا الغرض . ولكنهم استمروا في نفس الوقت على تأليب الدول الأروبية لتتحالف معهم ضد الجزائر .

لقد كان جيفرسون الذي أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ورئيسا للجمهورية هو زعيم فكرة الحلف ضد الجزائر . ففي عام 1785 اقترح على فيرجين (Vergennes) سفير فرنسا في أمريكا تعاون بلديهما على حرب الجزائر ، غير أن هذا الاقتراح فيما يبدو لم يعجب فيرجين . كما أن فرنسا قد رفضت هذا التعاون رسميا . ولكن جيفرسون لم يفشل واستمر في محاولاته بمساعدة المغامر الفرنسي ـ الأمريكي لافاييت . ففي عام

1786 تقدم جيفرسون بمشروع يتكون من احدى عشر نقطة لتكوين ذلك الحلف وبعث به الى الدول الأروبية ، وقد وافقت عليه كل من البرتغال ، نابل ، البندقية ، صقلية ، مالطا ، الدانمارك ، السويد . ويلاحظ على هذه القائمة ان الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا رفضت هذا المشروع . ولكن المشروع قد فشل لسببين الأول ان هذه الدول الصغيرة لم تكن متأكدة عندئذ من قوة أمريكا على حمايتها فى حالة حرب ضد الجزائر . والثاني ، وهو نتيجة للأول . أن الكونغرس الأمريكي رفض تمويل المشروع . (4)

وفى نفس الوقت فشل السيد لامب فى مفاوضاته مع الجزائر . فقد جاء ليفاوض على اطلاق سراح الأسرى الأمريكان الذين اعتقلوا مع السفينتين المذكورتين . ولكن الجزائر اشترطت أن تدفع أمريكا 59ر496 دولارا مقابل واحد وعشرين معتقلا .

غير ان لامب لم يستطع توفير هذا المبلغ . وبعد أن كتب الى رؤسائه بالقضية طلبوا منه العودة الى أمريكا (سبتمبر 1786) . والحق أن المؤرخين الأمريكان أنفسهم يلومون لامب على فشل المفاوضات . فقد كان فى رأيهم قليل الخبرة . وهم يستشهدون لذلك بأنه كان لا يحسن غير الانكليزية ، وأنه قد هدد مرة القنصل الأسباني فى الجزائر بأنه اذا لم تتدخل أسبانيا لدى الجزائر لمصلحة أمريكا فان هذه الأخيرة ستأخذ مستعمرات اسبانيا فى أمريكا .

4 ـ انظر تفاصيل مشروع جيفرسون فى أروين « العلاقات الدبلوماسية » صص 48 ـ 50 .

ورغم فشل بعثة لامب الى الجزائر فانها تعتبر أول اتصال مباشر بين الجزائر وأمريكا . وقد بعث لامب عدة تقارير الى حكومته يصف فيها الجزائر وأسطولها وعاداتها وعلاقاتها الدبلوماسية . كما بعث الأسرى الأمريكان بتقاريرهم ورسائلهم الى بلادهم . وقد اقترح بعضهم فى هذه المراسلات أن تتبع بلادهم نفس طريقة الدول الأوروبية مع الجزائر وذلك بالاعتراف بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط . فقد جاء فى رسالة بعث بها أحد المعتقلين الى جيفرسون سنة 1786 أن « كل الدول تدفع لهم الجزية » (5) (أي الى الجزائريين) . وجاء فى تقرير بعث به لامب نفسه الى حكومته «انه لا طاقة للولايات المتحدة الأمريكية على فرض السلام على الجزائر » (6) . أما جون آدمز الذي كان حينئذ يقود سياسة بلاده بعد جيفرسون فقد فضل السلام مع الجزائر قائلا بأن الحرب ستؤدي الى تخريب الاقتصاد وانها ليست خطوة حكيمة . وقد وافقه على رأيه هذا جورج واشنطن الذي كان عندئذ رئيسا للجمهورية .

ولكن كيف سيتحقق السلام بين الدولتين ؟ عن طريق التفاوض غير المباشر من جديد . فقد وصلت الأخبار الى البعثة الدبلوماسية الأمريكية فى أوروبا بأن القنصل الأسباني فى الجزائر قد اقترح على أمريكا أن تدخل فى مفاوضات مع تركيا أولا ، فاذا نجحت هذه المحاولة فان السلام سيتحقق تلقائيا مع الجزائر . وللتحقق من الأمر سأل جيفرسون السفير الفرنسي فيرجين عن رأيه فى الموضوع ولكن هذا أكد له بأنه لا علاقة بين الجزائر وتركيا وأن أية معاهدة مع تركيا فى هذا الوقت ستكلف الخزينة الامريكية أموالا طائلة . ومرة أخرى فشلت محاولات المفاوضة والسلام .

5 ـ المرجع السابق ص 12 ، ومما يذكر أن أحد المعتقلين الامريكان وهو المسمى جيمس كاثكارت « J. Cathcart » قد أصبح أحد كتاب الداي الجزائري مدة عشر سنوات ، ثم أصبح بعد اطلاق سراحه قنصلا عاما لبلاده فى تونس وطرابلس .

6 ـ المصدر السابق ص 47 .

ويبدو أن جيفرسون لم يجد بدأ من الاستسلام فى النهاية . غير انه أمام ضغط الرأي العام الأمريكي الذي أثارته الصحافة بنشر رسائل المعتقلين الأمريكان فى الجزائر ، وبنشر الدعاية المغرضة التي كانت تروجها الكنيسة ضد الجزائر ـ حاولت هذه المحاولة عن طريق نظام ديني فى فرنسا يسمى الماثورين (Mathurins) الذي كان له مركز فى مرسيليا اشتهر بافتداء المسيحيين الذين يقعون أسرى لدى الجزائر . وقد قبل الماثورين هذه المهمة سريا مع بعض الشروط . ولكن بينما كان الطرفان يعدان الخطة انفجرت الثورة الفرنسية التي وضعت حدا نهائيا للنظام الماثورني نفسه . وبذلك فشلت خطة الفدية أيضا .

4 ـ امريكا تطلب المفاوضات مع الجزائر :

تغيرت الحكومة الجزائرية عام 1791 بعد وفاة الداي محمد باشا وتولي الداي حسن باشا مكانه . كما أن الأخبار التي وصلت البعثة الأمريكيه فى أوروبا كانت تشير الى مواتاة الظروف لافتتاح مفاوضات جديدة مع الجزائر لأنهاء الحرب واطلاق سراح الأسرى . ويبدو أن من أهم العوامل على مواتاة هذه الظروف هو اشتغال أروبا عندئذ بالثورة الفرنسية وعزم الجزائر على بداية عهد جديد لكسب صداقة أمريكا ، ولا سيما بعد توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا .

والواقع أن هذا الاتجاه الجزائري الجديد قد بدأ بتوقيع هدنة مع البرتغال . ومعنى هذه الهدنة حرية حركة الأسطول الجزائري فى المحيط الأطلنطي . غير أن الهدنة نفسها لم تكن فى صالح أمريكا . فبعد أسابيع قليلة من توقيعها قبض الأسطول الجزائري على احدى عشر سفينة أمريكية ومعها مائة وتسعة عشر أسيرا . وحين وصلت هذه الأنباء الى أمريكا أسرع الرئيس جورج واشنطن باعتماد مبلغ أربعين ألف دولار لفدية الأسرى . كما اعتمد مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار كجزية سنوية

للجزائر . وبعد ذلك عينت الحكومة الأمريكية وزيرها فى لشبونة السيد داود همفريز (D. Humphreys) ليقوم بالمفاوضات مع الجزائر . ولما لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين البلدين فقد قدم همفريز أوراق اعتماده الى الداي عن طريق قنصل السويد فى الجزائر . ولكن همفريز قد فشل فى مهمته أيضا . (7)

ورغم المناداة بالحرب ضد الجزائر ، وضد بريطانيا أيضا التي اتهمها بعض الأمريكان وقتها بالتآمر مع الجزائر عليهم ، فان الحزب الأمريكي الذي كان ينادي بالسلام مع الجزائر قد انتصر فى النهاية . وقد كان شعار هذا الحزب هو « السلام بأي ثمن » . وكان ماديسون الذي تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد هو زعيم هذا الحزب . وهكذا اضطرت أمريكا الى ارسال بعثة أخرى الى الجزائر للمفاوضة (1795) تحت مسؤولية همفريز أيضا . وبعد مفاوضات شاقة انتهى الطرفان الى توقيع أول معاهدة سلام وصداقة بين البلدين بتاريخ 5 سبتمبر 1795 (21 صفر 1210 هـ) . (8)

5 ـ المعاهدة الجزائرية ـ الأمريكية الأولى :

نصت المعاهدة الجزائرية ـ الأمريكية الأولى على أن تدفع أمريكا ما يعادل حوالي مليون دولار ، منها واحد وعشرون ألفا وستمائة دولار جزية سنوية تدفع كمعدات بحرية الى الجزائر . وفى مقابل ذلك تعهدت

---

7 ـ تذكر المصادر الامريكية أن فشل السيد همفريز يرجع الى أن الجزائر كانت ما زالت لم تعترف باستقلال أمريكا ، ولذلك فانه حين قدم أوراق اعتماده رفض الداي أن يستقبله الا بعد موافقة بريطانيا على ذلك ، أنظر بهذا الصدد أروين « العلاقات الدبلوماسية » ص 61 ، انظر كذلك رود « F. Rodd » فى كتابه « جنرال ويليم ايتن » ص 31 .

8 ـ كانت البعثة هذه المرة تحت اشراف همفريز باعتباره وزيرا مفوضا لبلاده فى البرتغال ، ولكن الذي جاء الى الجزائر للتفاوض هو السيد دونالدسون (J. Donaldson) وقد وافق الكونغرس الامريكي على المعاهدة المذكورة بتاريخ 2 مارس 1796 ، وبذلك أصبحت ملزمة للطرفين .

الجزائر بحماية التجارة الأمريكية فى البحر الأبيض المتوسط والقيام بمساعيها الحميدة لدى باشا طرابلس لتحقيق السلام بين بلاده وأمريكا . وبناء على ذلك أصبحت الجزائر طرفا ثالثا ضمينا للسلام حين وقعت معاهدة طرابلس — أمريكا . كما تعهدت الجزائر أيضا بالقيام بنفس المساعي لدى باشا تونس لصالح أمريكا . وقد جاء فى ديباجة هذه المعاهدة ما ترجمته :

« من تاريخ ابرام هذه المعاهدة سيحل السلام الدائم والصداقة المخلصه بين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ومواطنيها وبين حسن باشا داي الجزائر وديوانه ورعاياه . وان سفن ورعايا الأمتين سيتعاملون بكل شرف واحترام . » (9)

وقد احتوت هذه المعاهدة على اثنين وعشرين مادة . وكلها تتعلق بشروط وتنظيم التعامل بين البلدين فى التجارة ، وجوازات السفر ، والعلاقات الدولية فى حالة الحرب والسلام ، وشؤون الملكية ، ونحو ذلك . وتطبيقا للمعاهدة أطلقت الجزائر سراح الأسرى الأمريكان فى شهر جوان 1796 . أما أمريكا ، التي تعهدت ببناء السفن للجزائر ، فقد بنت فعلا وقدمت لها السفن التالية : « الهلال » ، « حسن باشا » ، « لا للا عائشة » ، « حمدا لله » وأخيرا « سكجولدبراند » . (10) تم ذلك خلال سنتي 1798 — 1799 .

ويبدو أن هذه المعاهدة كانت انتصارا دبلوماسيا وماديا كبيرا للجزائر . فرغم أن أمريكا قد حاولت أن تتهرب بشتى الوسائل ، مدة عشر سنوات ،

9 — أنظر « الوثائق البحرية » المجلد الاول ص 107 ، اعداد وزارة البحرية الامريكية ، طبع واشنطن عام 1939 ، أما النسخة الجزائرية من المعاهدة فهي باللغة التركية وتوجد فى « معاهدات واتفاقات دولية أخرى للولايات المتحدة الامريكية » اشراف السيد ميلر (H. Miller) المجلد الثاني .

10 — الاسم Skjöldebrand كان اسم قنصل السويد فى الجزائر ، وقد قام بدور الوساطة فى المفاوضات الجزائرية — الامريكية ، واعترافا بذلك أطلق اسمه على هذه السفينة .

من توقيع معاهدة كهذه فانها في النهاية لم تجد بدا من ذلك . وقد كان انتصار الجزائر يتمثل في عزل أمريكا عن أصدقائها الذين كان يمكنهم أن يقوموا بدور الحليف ضد الجزائر . أما الانتصار المادي فيتمثل في دفع أمريكا لجزية سنوية ومبلغ كبير من المال نقدا ، وتعهدها ببناء السفن للجزائر . ومعنى هذا أن الجزائر قد حصلت على المال والسمعة معا .

والواقع أن هذا هو ما جعل الامريكان أنفسهم يعترفون بأن الرعب قد انتشر في الدول الأوروبية ، وخصوصا الدول الصغرى ، بعد توقيع هذه المعاهدة . أما من وجهة النظر الأمريكية فان المؤرخين المحدثين يصرون على أن هذه المعاهدة كانت اهانة بالغة لشرف بلادهم . ولكن معظم المؤرخين المعاصرين للمعاهدة قد اعتبروها انتصارا لبلادهم لأنها قد وقعتها مع أعظم دول شمال افريقية ، ولأن المعاهدة نفسها قد انهت الحرب وفتحت الطريق التجاري لأمريكا في البحر الأبيض المتوسط وأدت الى اطلاق سراح الأسرى الذين قد مضى على بعضهم أكثر من عشر سنوات . (11) .

ومهما كان الأمر ، فان هذه المرحلة من العلاقات الجزائرية ــ الأمريكية قد تميزت بخاصتين هامتين : الأولى تأخر أمريكا وتماطلها في تطبيق شروط المعاهدة . والثاني حروب نابليون في الشرق وتدخل الجزائر في الموضوع . فقد مر على توقيع المعاهدة ثمانية أشهر دون أن تصل المعدات البحرية المتفق عليها من أمريكا . ويبدو أنه كان في استطاعة الجزائر عندئذ أن تتنكر للمعاهدة وتعلن الحرب من جديد على أمريكا ولكنها فضلت أن تحاول طريق السلام أولا .

ففي الخامس من ماي 1796 بعث داي الجزائر حسن باشا رسالة الى الرئيس جورج واشنطن ينبهه فيها الى هذا التأخير ويطلب منه الاسراع

11 ـ انظر السيد بيكسلر (R. Bixler) «الباب المفتوح على الشاطىء البربري القديم » ص 21 ، طبع نيويورك .

في تطبيق المعاهدة محافظة على السلام بين البلدين • ولكي يبرهن الداي علي حسن نيته بعث تلك الرسالة مع كاتبه الأمريكي كاثكارت السابق الذكر . وقد زوده بجواز سفر جزائري صالح لمدة سنة • (12) وبعد انتظار طويل وصلت الى الجزائر رسالة من الرئيس الأمريكي الجديد جون آدمز بتاريخ 25 ديسمبر 1797 • وقد جاء في هذه الرسالة أن أمريكا قد عينت السيد أوبريان ، (R. Obrien) قنصلا عاما لها في الجزائر • كما طلب آدمز من الداي تسهيل مهمة هذا القنصل . واعتذر له فيها على تأخر وصول المواد التي نصت عليها المعاهدة لظروف لا ترجع الى نقضان العهد ولكن الى عقبات أخرى تقف في طريق التنفيذ • (13)

ورغم هذا التأخير من طرف أمريكا فان الجزائر قد قامت بكل ما تعهدت به • فقد بذل الداي مساعيه لدى باشا طرابلس ليدخل في مفاوضات للسلام مع أمريكا • وحين نجحت هذه المساعي كان الداي من الموقعين على المعاهدة كضمين للسلام بين الطرفين • ومن ناحية أخرى ، فانه عندما توفي الداي حسن باشا سنة 1798 وخلفه الداي مصطفى باشا كان أول ما قام به هذا هو تجديد التزامات الجزائر نحو ما جاء في معاهدة الصلح مع أمريكا • غير أنه يبدو أن صبر الجزائر قد بدأ ينفد • وهكذا أوشكت العلاقات بين البلدين على التصدع في أواخر القرن الثامن عشر •

6 ـ نابليون يطلب صداقة الجزائر :

وبينما كانت العلاقات الجزائرية ـ الأمريكية تتعثر كانت الأحداث الدولية تجري بسرعة في أوروبا والمشرق ، وقد كان من الطبيعي أن تصل أصداء هذه الأحداث الى الجزائر • ففي هذه الأثناء كان نابليون يقوم بحملته على مصر والشرق ، وكان خصمه هناك هو بريطانيا والدولة

12 ـ أنظر رسالة الداي الى واشنطن في « الوثائق البحرية » المجلد الاول ، ص 155 .
13 ـ أنظر رسالة آدمز الى الداى في المرجع السابق . صص 230 ـ 231 .

العثمانية . وهنا حاولت الدبلوماسية الفرنسية أن تكسب صداقة الجزائر ، أو على الأقل أن تجعل الجزائر تقف على الحياد في هذا النزاع الدولي تأمينا لظهر الجيش الفرنسي .

ومن أجل ذلك قام نابليون بحركتين لكسب صداقة أو حياد الجزائر . الحركة الأولى اطلاق سراح الأسرى الجزائريين في جزيرة مالطا ، وكان عددهم يبلغ ألفي شخص (14) . وفي مقابل ذلك قامت الجزائر باعادة العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا بعد أن كانت قد توترت نتيجة للثورة الفرنسية . أما الحركة الثانية التي قام بها نابليون فهي طلبه من وزير خارجيته آنذاك السيد تاليراند أن يؤمن حياد الجزائر . وتحقيقا لهذا الغرض أرسل تاليراند الى الجزائر مندوبا باسم ديبوا — تانفيل (Dubois Thainville) . ورغم أن هذا المندوب قد وقع في قبضة الأنكليز فانه قد فر من سجنه وسلم رسالة نابليون الى الداي بتاريخ 13 ماي ، 1800 . (15)

رغم أن الجزائر كانت تقدر علاقتها بالدولة العثمانية في ذلك الوقت العصيب فانها كانت تريد أن تبقى على الحياد . ذلك أن الجزائر قد شعرت بأن النزاع كان في الحقيقة بين فرنسا وبريطانيا وليس بين فرنسا والدولة العثمانية . ولكن السلطان لم يقتنع بهذه الوجهة . فقد أصر على جر الجزائر الى النزاع فبعث الى الداي رسالة (فرمان) يطلب منه التحالف مع الخلافة وبريطانيا واعلان الحرب على فرنسا . كما أصر على أن تسهل الجزائر عمليات التموين لبريطانيا . ورغم أن الجزائر لم ترفض طلب السلطان فانها قد أصرت على موقفها الحيادي . على أن بعض المؤرخين يذكر أن الجزائر قد اعلنت الحرب على فرنسا نزولا عند رغبة

14 — انظر السيد باربور (N. Barbour) « مدخل الى شمال — غرب أفريقية » الطبعة الثانية ، لندن ، 1962 ، ص 39 .

15 — انظر السيد ديبوي « امريكان وبرابرة » ص 123 .

السلطان العثماني . ومهما يكن الأمر فان السلطان قد غضب من موقف الجزائر . وقد كان من الطبيعي أن تحاول الجزائر أن تحافظ على الصداقة التقليدية بينها وبين الدولة العثمانية . (16)

وهنا تدخلت العلاقات الجزائرية ـ الأمريكية فى الموضوع من جديد . فحين أرست الباخرة الأمريكية « جورج واشنطن » فى ميناء الجزائر طلب الداي من القنصل الأمريكي ومن ربان السفينة أن تحمل « جورج واشنطن » بعثة جزائرية الى اسطانبول (1801) ، ويذكر المؤرخون الأمريكان أن القنصل والربان قد رفضا أولا طلب الداي ، ولكن تحت الضغط والتهديد باعلان الحرب رضخا . والواقع أنه كان للجزائر مبرراتها فى اتخاذ هذا الموقف . فهي الى الآن (1801) لم تتلق من أمريكا كل الالتزامات التي ارتبطت بها فى المعاهدة السابقة . وهكذا يمكن القول بأن فى اصرار الجزائر على ذلك الموقف يكمن هدفان : الأول تعويضها عن بعض ما التزمت به أمريكا فى المعاهدة . والثاني اشعار أمريكا بأن الجزائر تستطيع أن تنال حقها بطرقها الخاصة .

وعلى أية حال فان « جورج واشنطن » قد حملت البعثة الجزائرية الى اسطانبول تحت العلم الجزائري . ويذكر بعض الكتاب الأمريكان أن ذلك كان اهانة بالغة لشرف بلادهم خصوصا حين وقف الجميع يحيون العلم الجزائري على باخرة كانت تحمل اسم مؤسس الدولة الأمريكية . ولكن بعضهم يعترف بأن ذلك كان ، بالرغم من الاهانة ، فرصة فى صالح أمريكا . فقد كانت هذه الباخرة هي أول سفينة أمريكية تدخل القرن الذهبي وتعبر الدردنيل الى بحر مرمرة ثم الى اسطانبول عاصمة الشرق فى ذلك الحين . ومن جهة أخرى فان هذه الحادثة قد

16 ـ فى الحقيقة توترت العلاقات بين الجزائر والخلافة قبل حروب نابوليون ، كان ذلك عندما قبضت الجزائر على سفن وأسرى عثمانيين ويونان وبنادقة (تابعين للعلم العثماني) وقد قبل السلطان حينئذ من الجزائر أن تدفع مقابل ذلك تعويضا قدره أكثر من ثلاثة ملايين دولار ، أنظر « الوثائق البحرية » صص 413-414 .

فتحت أول اتصال بين أمريكا والدولة العثمانية . على أن بعض الأمريكان يعترف بالخطأ ويلوم حكومته على تماطلها فى دفع التزاماتها مما جعل الداي يتخذ هذا الموقف المتحدى (17) .

7 ــ توتر العلاقات بين الجزائر وامريكا :

أثناء سنة 1805 وقع تغيير جديد فى الحكومة الجزائرية . فقد تولى الداي أحمد باشا مكان الداي مصطفى باشا . وكان من أول ما قام به الداي الجديد مطالبة أمريكا بدفع التزاماتها . (وكانت بعض المعدات المتفق عليها قد تأخرت سنتين على الموعد المحدد) وكان ذلك يعني أن أمريكا تتحمل وحدها نتائج أي تسويف جديد . وحين أعلن القنصل العام الأمريكي الجديد فى الجزائر السيد لير (Lear) بأنه لايستطيع أن ينفذ طلب الداي أعلنت الجزائر الحرب على أمريكا مرة أخرى سنة 1807 .

وكانت أولى نتائج هذه الحرب هو القاء القبض على ثلاث سفن أمريكية مع حمولاتها وربانيها ، وهنا لم يسع القنصل الأمريكي الا أن يعجل باقتراض النقود من اليهودي الجزائري بكري ودفعها الى الحكومة الجزائرية على أن يحصل بكري على أرباح كبيرة كتعويض من الحكومة الأمريكية ، وما دامت الجزائر قد حصلت على ما تريد فان العلاقات بين البلدين قد عادت الى مجراها رغم بعض البرود الذي استمر مدة أربع سنوات (1808 ــ 1812) ومن الواضح أن هدف الجزائر كان المحافظة على السلام وعلى العلاقات الودية بين الطرفين التي قامت المعاهدة المشتركة بتحديدها .

17 ــ أنظر « جنرال ويليم ايتن » ، صص 44-45 .

وعلى كل فان سنة 1812 قد شهدت ثلاثة أحداث هامة أثرت فى انهاية على مجرى العلاقات بين الجزائر وأمريكا . الأول كان اعلان الحرب بين بريطانيا وأمريكا . والثاني هجوم نابوليون على روسيا واشتداد حروبه على القارة الأروبية . الثالث تقارب الجزائر وبريطانيا .

والذي يهمنا بالدرجة الأولى هنا هو الأخير . فقد كانت الدبلوماسية البريطانيه فى هذا العهد تقوم بنشاط كبير لعزل نابوليون عن أصدقائه . وكانت بريطانيا حينئذ تعتمد فى ذلك على سياسة حفظ التوازن فى البحر الأبيض المتوسط بابقاء ما يسمى بالحالة الراهنة . وقد كان البريطانيون يعتقدون أنهم بكسب صداقة الدولة العثمانية فى الشرق والجزائر فى الغرب يستطيعون تأمين خطوط مواصلاتهم فى البحر الأحمر والدردنيل وجبل طارق . وهكذا يضعون حدا لخطر نابوليون فى المنطقه . وتمشيا مع هذا المبدأ اعتقدت بريطانيا أنها بكسب صداقة الجزائر تستطيع أن تعزل لا نابوليون فقط ولكن أمريكا أيضا .

كان القنصل البريطاني فى الجزائر عندئذ يعرف مدى برودة العلاقات بين الجزائر وأمريكا . وقد استغل ذلك ولعب دورا هاما لكي يغري الجزائر باعلان الحرب على أمريكا . والظاهر أن الجزائر كانت مستعدة لتقوم بهذه الخطوة ولكن بعد التأكد من اخلاص بريطانيا . ولكي تتأكد الجزائر من ذلك بعث الداي سفيره الحاج حسن الى لندن برسالة الى ملك بريطانيا تخص موضوع العلاقات بين البلدين . وقد كان رد ملك بريطانيا مشجعا . فقد قال فى رسالته الى الداي بأن الصداقة بين البلدين وطيدة وأن التعاون بينهما ضرري . وألح الملك البريطاني على الداى الجزائري بأن لا يستمع الى دعايات الأعداء وأن يحافظ على العلاقات الودية بينهما . كما أخبره بأن السفير الحاج حسن سيطلعه على الحفاوة التي وجدها فى بريطانيا . وأخيرا ذكر بأنه قد بعث مع السفير بعض

الهدايا من مصنوعات بريطانيا الى الداى (18) • ومن ناحية أخرى فان المخابرات الجزائرية قد اكتشفت بأن نابوليون كان يضع خطة حملة على الجزائر (19) • ويضاف الى ذلك برودة العلاقات الجزائرية ــ الأمريكية عندئذ • وبعد هذه المناورات والضغوط الدبلوماسية قامت الجزائر بتشديد علاقاتها مع أمريكا سنة 1812 •

8 ـ بين حميدو وديكاتور :

غير أن عام 1814 قد شهد حادثين هامين كان لهما صدى بعيد فى العلاقات الجزائرية ــ الامريكية • الاول هزيمة نابوليون على يد بريطانيا وحلفائها • الثاني توقيع الصلح بين أمريكا وبريطانيا • ومعنى ذلك أن بريطانيا قد خرجت منتصرة من المعركة التي جندت لها كل قواها العسكرية والدبلوماسية • وتتيجة لذلك لم تعد فى حاجة الى صداقة الجزائر كما كانت فى بداية القرن • ومن ناحية أخرى فان أمريكا التي وقعت السلام مع بريطانيا قد أصبحت حرة لكي تجند كل قواتها ضد الجزائر ، والنتيجة النهائية لكل هذه التطورات هي أن الجزائر قد وجدت نفسها فى عزلة دبلوماسية رهيبة عشية مؤتمر فيينا • ورغم أنها قد بذلت جهدها فى حفظ التوازن وابقاء الحالة الراهنة فان الأحداث التاريخية كانت تسير فى اتجاه الريح المعاكسة •

ومهما كان الأمر فان أمريكا قد استغلت هذه الفرصة لكي تتهرب من التزاماتها فى معاهدة سنة 1795 • ويبدو أن موقف أمريكا من الجزائر كان عندئذ ضعيفا لأسباب ثلاثة :

18 ـ معظم نص هذه الرسالة فى شيلر « مختصر الجزائر » صص 118 ـ 119 ، تاريخ الرسالة هو 4ـ1ـ1812 ، ولما كان الملك جورج الثالث مريضا فقد كتب الرسالة الى الداي ولي العهد باسم والده .

19 ـ انظر بيرثيي (A. Berthier) « الجزائر وماضيها » ص 183 ، أنظر أيضا برنارد « الجزائر » فى « تاريخ المستعمرات الفرنسية » اشراف هانوتو ومارتينو ، الجزء الثاني ، طبع باريس 1930 ، صص 86 ـ 89 .

1 ـ انها (أمريكا) قد اختارت غياب الأسطول الجزائري من الميناء لتفرض شروطها .

2 ـ انها هي التي تماطلت فى تطبيق شروط المعاهدة المشتركة . وقبل أن تطلب مراجعة هذه المعاهدة بعثت أسطولها ليملي حلا جديدا بالقوة .

3 ـ انها لم تعلن الحرب رسميا على الجزائر وانما فاجأتها مفاجأة . وكان ذلك يتنافى مع القوانين الدولية كما يتنافى مع بنود المعاهدة المذكورة التي وقعها الطرفان (20) . ومن جهة أخرى فاننا نعلم أن الجزائر لم تعلن الحرب رسميا على أمريكا عام 1812 وانما قامت بحركة ضغط ضد سفنها وتجارتها لتحملها على القيام بالتزاماتها . ومما زاد الأمر سوءا بالنسبة للجزائر أن بريطانيا لم تكتف بتغيير سياستها نحوها بل قامت باعتداء عليها بالتحالف مع هولاندا سنة 1816 .

وهكذا ، فبينما كانت الجزائر فى حالة حرب عنيفة مع دويلات ايطاليا ، وأسبانيا ، وهولاندا ، وبروسيا . والدانمارك ، وروسيا . . هاجمتها أمريكا (21) . فقد بعثت فصيلتين من أسطولها الى البحر الأبيض المتوسط: الأولى تحت قيادة الضابط بينبريدج (W. Bainbridge) والثانية تحت قيادة الضابط ديكاتور (S. Decatur) الذي أصبح فيما بعد بطلا أسطوريا فى بلاده لنشاطاته فى شمال أفريقيا . وبعد أن اجتاز ديكاتور جبل طارق التقى بالسفينة الجزائرية « مجحودة » التي كانت تحت قيادة الضابط الشهير الرئيس حميدو . ويذكر المؤرخون أن الفصيلة الأمريكية التي طاردت « مجحودة » كانت تتكون من عشر سفن . وكانت النتيجة معروفة مقدما . فقد حاربت السفينة الجزائرية بشجاعة فائقة الى أن استشهد . بناء على المصادر

20 ـ نصت معاهدة 1795 على أن كلا من الدولتين يلتزم بعدم الالتجاء الى الحرب فى صورة وقوع خلاف ؛ وبناء على ذلك قامت الجزائر بكل حركات الضغط على أمريكا قبل أن تتخذ منها موقفا معاديا .

21 ـ أنظر اروين « العلاقات الدبلوماسية » ص 176 .

الأمريكية نفسها، أكثر من ثلاثين جزائريا من بينهم الرئيس حميدو (22). وأخيرا طاردت الفصيلة الأمريكية سفينة جزائرية أخرى تدعى « استيديو » . ولكن السلطات الاسبانية حجزت هذه السفينة بدعوى أنها كانت فى المياه الاسبانية .

9 ـ الجزائر ترفض الشروط الامريكية :

وبعد ذلك تقدم الأمريكان الى ميناء الجزائر وطلبوا من الداي توقيع معاهدة جديدة على شروطهم . وقد كان ويليم شيلر مؤلف كتاب «مختصر الجزائر » هو القنصل الأمريكي العام عندئذ . وخلال ذلك كان مع الفصيلة البحرية ينتظر رد الداى على مسودة المعاهدة الجديدة . غير أن الجزائر قد أصرت على ضرورة استعادة السفينتين الجزائريتين : « مجحودة » و « استيديو » قبل الدخول فى أية مفاوضات . وحين وافق الأمريكان على هذا الشرط بدأت المفاوضات بين الطرفين . وكان من شروط الجزائر آنذاك أن على أمريكا أن تدفع جزية سنوية ولكن هذه رفضت . وهكذا كادت المفاوضات تنقطع لولا تدخل حادث غريب فى الموضوع .

فبينما كانت المفاوضات الجزائرية ـ الأمريكية تتعثر ظهر فجأة فى ميناء الجزائر الأسطولان البريطاني والهولاندي . وقد شكل ظهور هذين الأسطولين . بالاضافة الى الفصيلتين الأمريكيتين ، مظاهرة عدوانية شاذة جعلت كل جزائري وقتها يعتقد أن هناك مؤامرة لاحتلال الجزائر وأن ذلك المظهر كان بداية الحصار . وهنا لم يجد الداي بدا من المناورة . غير أنه رفض باصرار شروط الوفد الأمريكي التي رآها لا تتلاءم مع سيادة البلاد .

22 ـ أنظر المرجع السابق . ص 177 . ويقول شيلر فى « مختصر الجزائر » ص 26 أن الرئيس حميدو كان من الوطنيين الجزائريين القلائل الذين تقلدوا هذا المنصب لذكائه الخارق وشجاعته النادرة .

وعلى أية حال فان الوثائق الامريكية تذكر أن الداي قد وقع المعاهدة المملاة عليه تحت التهديد بالحرب . ولكن الحوادث التالية تثير الشك فى صحة هذا الادعاء خصوصا ونحن لا نملك الآن الوثائق الجزائرية حول هذا الموضوع ، من ذلك أن الوثائق الأمريكية تنص على أن السفينة التي كانت تحمل « المعاهدة » المزعومة الى أمريكا للموافقة عليها قد ضاعت فى المحيط بسبب عاصفة هوجاء ولم يسمع بها أحد بعد ذلك . ومن ذلك أن المصادر نفسها تذكر أن الكونغرس الأمريكي لم يصدق على هذه « المعاهدة » الا فى عام 1822 ، أي بعد أكثر من سبع سنوات من توقيعها من طرف داى الجزائر . ولكننا نعرف أن كل معاهدة لا تصبح ملزمة الا بعد التصديق عليها واعلانها رسميا من الطرفين .

ومع ذلك لنفرض أن هذه « المعاهدة » كانت صحيحة (23).فما الذي مع أمريكا اذن من التصديق عليها وتنفيذها ؟ ومما يساعدنا على الادعاء بأن الجزائر لم تلتزم بهذه المعاهدة رسالة الداي الى الرئيس الأمريكي ماديسون المؤرخة فى 24 ابريل ، 1816.فقد كتب فيها الداي ماخلاصته: انكم ترغبون فى السلام معنا على النحو الذي تتمتع به فرنسا وبريطانيا (اللتان كانتا تدفعان الجزية الى الجزائر) ، ولذلك أجبت طلبكم على شرط استعادة السفينتين الجزائريتين . ولكن ما دام مبعوثكم قد أخل بهذا الشرط فانه لا يسعني الا أن أعرض عليكم فرصة أخيرة للسلام وهي العودة الى العمل بمعاهدة سنة 1795 ، فاذا لم تقبلوا بذلك فانكم تكونون قد وقفتم ضد الواجب المقدس للانسان وضد القانون الدولى. وقد رد الرئيس الأمريكي بقوله اننا قد أعدنا اليكم احدى السفينتين ،

23 ــ نصت هذه المعاهدة المشكوك فيها على محو الجزية بالنسبة الى أمريكا ، تسريح الاسرى ومعاملتهم كأسرى حرب ، دفع تعويض الى امريكا مقداره عشرة آلاف دولار مقابل السفينة « ادوين » ، نص هذه المعاهدة فى ديبوي « أمريكان وبرابرة » ص 346 .

أما الأخرى فقد حجزتها أسبانيا . وسترد اليكم . واننا ننشد السلام على قاعدة المساواة بين البلدين . واننا نرجو أن لا تلجأ الجزائر الى الحرب ، الخ (24) .

10 — التحالف الأروبي — الأمريكي ضد الجزائر :

ومما زاد فى تعقيد العلاقات بين الجزائر وأمريكا محاولة الأروبيين التدخل فى شؤون الجزائر الداخلية وتحالفهم عسكريا ضدها . ففي هذه الأثناء كان مؤتمر فيينا (1814 — 1815) منعقدا . وهذا المؤتمر فى معناه الواسع كان انتصارا للرجعية والملكية والمحافظية فى أوروبا . والذي يهمنا منه هنا هو أن المؤتمرين قد ناقشوا . فيما ناقشوا . وضع حد لتجارة الرقيق فى شمال أفريقية . ومطالبة الجزائر بالذات بالكف عن محاربة جيرانها . ورغم أن مؤتمر فيينا لم يتخذ قرارا حاسما فى هذا الصدد فانه قد مهد الطريق لمؤتمر ايكس لاشابيل الذي ناقش الموضوع بدوره ثم بعث وفدا عام 1818 يتألف من ممثلين عن بريطانيا وفرنسا الى الجزائر حاملا عدة مطالب تعد فى جملتها تدخلا مكشوفا فى شؤون الجزائر الداخلية (25) . ومما يلاحظ بهذا الصدد أن هذه الجوقة الأروبية كانت تتجاوب مع بعضها فى انسجام غريب بخصوص الجزائر .

وهنا تبرز الى المسرح عملية العدوان التاريخي الذي قامت به بريطانيا وهولاندا ضد الجزائر فى صيف 1816 . فبينما كانت المفاوضات الجزائرية — الأمريكية تتعثر ظهر الأسطول البريطاني بقيادة اللورد

---

24 — أنظر رسالتي الداي وماديسون فى شيلر « مختصر الجزائر » الاولى صص 276 — 278 والثانية صص 295—297 ، غير أنه من العجب أن الرئيس ماديسون يحتج بمعاهدة — على فرض صحتها — لم يوافق عليها الكونجرس الا بعد سبع سنوات .

25 — أنظر هذه المطالب فى نصها الفرنسي والانكليزي فى المرجع السابق . صص 303 — 306 .

اكسموث Exmouth والأسطول الهولاندي بقيادة الضابط فان كابلن (Van Çapellan) وقد أضيف الى ذلك سفينة فرنسية كانت راسية فى الميناء ! والذي يهمنا الآن ليس المعركة التي جرت فى حد ذاتها ولكن أبعادها وآثارها الدبلوماسية . ذلك أن الأمريكان قد اغتنموا هذه الفرصة واستعرضوا هم أيضا عضلات أسطولهم أمام الجزائر بقيادة الضابط شونسي (Chauncey).

وقد قاومت الجزائر هذا التحالف الغريب مقاومة تاريخية اعترف بها أعداؤها أنفسهم . فقد اتفقوا على أن المدينة كانت على وشك الخراب بسبب القنابل من البحر . ويذكر شيلر الذي كان شاهد عيان لهذه المعركة أن حوالي ستمائة جزائري قد استشهدوا ، وأن العدو قد تكبد حوالي تسعمائة شخص بين قتيل وجريح . ومع ذلك رفضت الجزائر التوقيع على وثيقة « السلام » المفروض . ولم تقبل فى النهاية غير اطلاق سراح بعض الأسرى على أساس انساني فقط .

من الواجب أن أعترف بأنه ليس لدي من الوثائق ما يقنع بوجود اتفاق بين أمريكا وبين القوات الأروبية المتحالفة ازاء الجزائر خلال صيف 1815 . وكل ما يمكن الجزم به هنا هو أن أمريكا قد وجدت فى التدخل الأروبي فرصة ذهبية فزادت من ضغطها على الجزائر لتقبل شروطها . ومهما كان الأمر فقد استؤنفت المفاوضات بين الجزائر وأمريكا فى شهر ديسمبر من نفس العام ولكن يبدو أن هذه المفاوضات قد انتهت بالفشل . وتذكر الوثائق الأمريكية بأنه من تاريخ هذه المفاوضات الى سنة 1830 لم يطرأ على العلاقات بين البلدين ما يستحق الذكر . كما تذكر المصادر نفسها بأن أمريكا قد استمرت فى دفع الجزية السنوية الى الجزائر بعد 1816 .

11 ـ خاتمـــة :

وفى الختام أحب أن أسجل بعض الملاحظات حول هذا الموضوع :

1 ــ أول ما يسترعي الانتباه هنا هو تطور العلاقات بين الجزائر وأمريكا تطورا غير متوازن ، ففي الفترة التي تبدأ من 1785 وتستمر الى عام 1815 كانت الظروف فى صالح الجـزائريين . غـير أن كفة السياسة الدولية قد رجحت فى صالح أمريكا بعد ذلك ، خصوصا بعد انتصار الرجعية الأوروبية فى مؤتمر فيينا ، والتحـالف الأوروبي ـ الأمريكي الغريب ضد الجزائر .

2 ــ ان كلا من الدولتين كان يجهل شؤون الآخـر فى البداية . فأمريكا كانت مجموعة من المستعمرات تحت النفوذ البريطاني . وكانت علاقة الجزائر بها تتم عن طريق بريطانيا . كما أن أمريكا كانت تجهل كل شيء تقريبا عن الجزائر ولا تعرف عنها الا من الدعاية التى يصفها بها المساجين والقسس مما جعل العلاقات بينهما تبدأ بالشـك وسوء التفاهم .

3 ــ لعبت الجغرافية دورا هاما فى العلاقات بين البلدين . فالجزائر جزء من العالم القديم بينما كانت أمريكا جزءا من العالم الجديد . يضاف الى ذلك أن الجزائر عريقة الاستقلال خبيرة بالتعقيدات الدولية وتوازن القوى فى المنطقة التي ترجع اليها ، بينما كانت أمريكا حديثة الاستقلال قليلة التجربة بعيدة عن مسرح المناورات الذي كـان الشرق وأوروبا يمتلان خشبته الكلاسيكية .

4 ــ كان هدف أمريكا من ربط علاقات ودية مع الجزائر هو تسويق تجارتها وتأمين مواطنيها ، بينما كان هدف الجزائر من ربط علاقات ودية مع أمريكا استراتيجيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا . ولم يكن

اصرار الجزائر على أن تدفع أمريكا الجزية والمدخرات البحرية بدل النقد وأن نبنى لها السفن ، الا جزءا من هذه السياسة .

5 ـ كانت الجزائر منطقية فى علاقتها مع أمريكا . فقد عاملتها على قدم المساواة مع الدول الأخرى ، وتمشيا مع هذا المنطق تمسكت الجزائر بشروطها مهما كانت الصعوبات . أما أمريكا فقد حاولت أولا أن تتزعم تحالفا ضد الجزائر ، وحين اضطرت الى توقيع الصلح استمرت فى تماطلها فى تحقيق التزاماتها .

6 ـ لعبت السياسة الدولية دورا هاما فى تبعيد الشقة بين الطرفين . وكانت الثورة الفرنسية وحروب نابوليون من جهة ، وحرب أمريكا مع بريطانيا من جهة أخرى هما حجر الزاوية فى هذا الموضوع ، ويبدو أن بريطانيا كانت مسؤولة على برودة العلاقات بين الجزائر وأمريكا فترة غير قصيرة .

7 ـ بينما كانت أمريكا تبني بحريتها وتوسع تجارتها وتكسب أصدقاء جددا ، كانت الجزائر هدفا لهجمات خارجية وجمود داخلي مما سبب أضطرابا فى الميزانية ، وشل من نشاط وقوة الأسطول ، وأدى فى النهاية الى سقوط الجزائر ضحية للاستعمار الفرنسي عام 1830 .

العلاقات الدبلوماسية بين امريكا ودول المغرب العربي

(1776 – 1816)

(هذه مراجعة لكتاب الدكتور ري و • ارفينغ (W. Irving) « العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة ودول افريقية الشمالية ، 1776 – 1816 • » وقد كتبتها كجزء من برنامج اطروحة الدكتوراه فى مادة العلوم السياسية أثناء خريف 1963 ، وقدمتها الى البروفيســور شارل هـ • ماكلافلن ، أستاذ المادة ورئيس دائرة العلوم السياسية فى جامعة مينيسوتا • وقد رأيت ترجمة هذه المراجعة عن الأصل الانكليزي اعتقادا مني بأن ذلك قد يؤدي الى زيادة فهم التطورات التاريخية لهذه المنطقة •)

* * *

خلال أكثر من ثلاثة قرون اتبعت دول المغرب العربي التي كان يطلق عليها اسم (The Barbary States) نوعا من السياسة الدولية التي أصبحت تعرف عند الكتاب الأروبيين بأنها سياسة قرصنة وغير متحضرة • ويبدو أنه من الصعب أن يحكم المرء من وجهة نظر واحدة فقط • أن التفسير الحقيقي لسياسة « القرصنة » يجب البحث عنه فى المحتــوى التاريخي والظروف العالمية التي قادت الى ذلك العمل الدبلوماسي والممارسة التجارية التي تستنكرها مقاييس العلاقات الدولية الحديثة •

وقبل أن نتحدث عن قدوم أمريكا الى حوض البحر الأبيض المتوسط دعنا نذكر بعض النقاط التي توضح تفسيراتنا للحوادث فيما بعد • أن الوضع الجغرافي لافريقية الشمالية وجنوب أوربا فى غرب البحر الأبيض قد جعل من المحتم أن تدخل هذه المنطقة فى صراع عنيف من أجل السيطرة

والنفوذ فى مضايق جبل طارق وصقلية ولم يحن منتصف القرن الخامس عشر حتى أصبح واضحا ان ميزان القوى كان قد أصبح يرجح نحو جهة جديدة : ففي غرب البحر الأبيض رجح لصالح أسبانيا والبرتغال ضد الاندلسيين (المور) ، وفى شرقه رجح لصالح العثمانيين ضد النمساويين .

ذلك انه بنهاية القرن 15 نجح الأسبانيون (أو البرتغاليون) فى طرد الأندلسيين من شبه جزيرة ايبيريا واضطروهم الى النزوح الى افريقية الشمالية . ولكن الأسبانيين لم يتوقفوا عند ذلك ، بل استهدفوا احتلال افريقية الشمالية أيضا . فمواني ومدن سبتة ، ووهران ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، كانت كلها مهددة من التوسع الأسباني . ثم ان الأسبان لم يكونوا وحدهم فى هذا الصراع . فقد كانوا مؤيدين من البرتغاليين ، وأهالي جنوا ، ونابولي ، وسردينيا ، و « فرق » أخرى من الامبراطورية المقدسة لذلك كان الوضع يبدو ميؤوسا منه فى نظر أهالي افريقية الشمالية . وفى النهاية طلبوا من الدولة العثمانية أن تتحالف معهم لطرد الأجانب من بلادهم . وهكذا تحالفت الجزائر مع الدولة العثمانية سنة 1516 ، ثم لحقت تونس وطرابلس . أما المغرب فلم تدخل فى تحالف رسمي ، ولكنها تعاونت ، بدلا من ذلك ، مع جيرانها .

ان قصة السياسة المعروفة بسياسة القرصنة لدول افريقية الشمالية (المغرب ، الجزائر ، تونس ، ليبيا) تبتديء من سنة 1516 . وهي السياسة التي اتبعها أهالي المنطقة للدفاع عن حقوقهم حفظا لتوازن القوى ، والتي أسماها الكتاب الأروبيون (والأمريكيون) بالقرصنة واستنكروها ، كما سبقت الاشارة ، على أنها عمل غير متحضر . ولكن هؤلاء الكتاب بما فيهم السيد ارفنغ، ينسون أن معظم الدول الاوروبية فى ذلك الوقت كانت تتبع نفس السياسة فى العالم الجديد ، وفى جنوب شرق آسيا ، وفى البحر الأبيض ، ولم تتغير سياسة هذه الدول فى الحقيقة

سوى بعد مؤتمر فيينا سنة 1815 ، وهو التاريخ الذي ينتهي عنده الكتاب الذي نراجعه .

وهناك عوامل كثيرة ساهمت فى خلق الصراع فى غرب البحر الأبيض خلال أكثر من ثلاثة قرون . ولعل العامل الديني كان أقواها جميعا . فالأندلسيون كانوا قد طردوا من الأندلس باسم قضية دينية . ولاشك أن الكنيسة فى بلد لاتيني قد لعبت دورا هاما فى استمرار الصراع من الطرفين . وقد كانت النمسا أيضا تعلن شبه حرب مقدسة ضد تقدم العثمانيين في وسط أروبا ، حيث أظهرت الكنيسة هناك أيضا تأثيرها فى توجيه ميزان القوى .

وبالاضافة الى العامل الديني كانت هناك المنافسات التجارية بين الدول المعنية ، وقد كانت مضايق جبل طارق وصقلية مركزا للنزاع . فكل من يبسط نفوذه على هذه المضايق يضمن لنفسه السلطة فى المنطقة . وبالاضافة الى ذلك فان موانيء الجزائر ، وطنجة ، وتونس ، ومارسيليا ، وجنوا كانت هامة بدرجة كبيرة . أما فى شرق البحر الأبيض فان مضايق الدردنيل، وجزر البحر الادرياتيكي ، والخليج الفارسي كانت كلها أسبابا أخرى للنزاع . وتظهر المنافسات التجارية فى عدة أشكال ، ولكن أكثرها وضوحا هو (التنازلات) أو الاتفاق بين فرنسا وتركيا ، والشركات الشرقية ، ثم هناك عدد آخر من المشاريع التجارية التي كونتها الدول الأروبية فى منطقة افريقية الشمالية .

أما الولايات المتحدة فانها لم تشارك فى هذا الصراع الا مؤخرا . فعندما كانت بريطانيا هي السيدة فى أمريكا الشمالية كانت هي التي تحمي المصالح التجارية فى منطقة البحر الأبيض . وقد كانت بريطانيا ، عموما ، فى تفاهم مع دول افريقية الشمالية وكانت تتمتع بامتيازات عظيمة . ولكن بعد سنة 1776 كان على الولايات المتحدة أن تتولى مسؤوليتها بنفسها

في حماية مصالحها في منطقة البحر الأبيض . وقد عانت من جراء عدم وجود أسطول بحري قوي ، ومن جراء فقدان المعلومات عن هذه المنطقة وعن شعوبها . أما الدول الأوروبية فقد قدمت ، باستثناء بريطانيا وهولاندا، بعض المساعدات للولايات المتحدة ولكنها (الدول الأوروبية) كانت تحت ضغط مصالحها الاقتصادية والديبلوماسية الخاصة .

وان المرء ليجد في كتاب السيد ارفينغ عدة أمثلة عن التقاليد الديبلوماسية الايطالية القديمة ، رغم ان الكتاب هو عن علاقات الولايات المتحدة ودول افريقية الشمالية . فالرشوة ، وتقديم الهدايا ، والجوسسة ، والفساد ، كثيرا ما ذكرت في الكتاب .

ثم ان شخصية وملامح القناصل قد لعبت دورا هاما في العلاقات بين الأمم . ومن أمثلة ذلك أن الجزائر قد رفضت أن تستقبل القنصل الأمريكي بحجة أن ملامحه لا تناسب مسؤوليته . ولكن المرء لا يستطيع أن يلوم دول افريقية الشمالية لأنها لم تغير تقاليد الديبلوماسية لأن هذه قضية تتحملها كل الدول .

ومن السهل أن يحكم المرء ، اذا أخذ في اعتباره تلك العوامل التي أشرت اليها ، على رأي السيد ارفينغ الخالي من الدليل حين يقول : ان مسؤولي دول افريقية الشمالية لم يتصلوا بمعظم مواردهم الهامة من ممارسة التجارة سلميا .. ان القرصنة كانت هي أساس نظامهم الاقتصادي، بل نظامهم السياسي أيضا . » (ص 8) . ولكنه لم يزد على ذلك . فهو لم يقل كيف كانت « القرصنة » نظاما لهم سياسيا واقتصاديا مدة أكثر من ثلاثة قرون . ويبدو لي أن السيد ارفينغ قد اكتفى بنقل ما كتبه الآخرون عن الموضوع دون وضع كل المشكلة تحت النقد .

ان الحقيقة هي ان دول افريقية الشمالية قد اتبعت مبدأ سياسة الحرب ضد كل الدول التي لم تعترف بتفوقها في غرب البحر الأبيض . ويظهر هذا من

ان معظم الدول الأروبية قد تمتعت بعلاقات ودية مع دول افريقيه الشمالية ، ولا سيما بريطانيا ، وفرنسا ، وهولاندا ، والدول الاسكنديناڤية . ويكتب السيد ارفينغ نفسه عن علاقة بريطانيا بكل من مستعمراتها فى أمريكا الشمالية ودول افريقية الشمالية فيقول :

« ان سياسة بريطانيا فى غرب البحر الأبيض ... كانت بشكل واضح فى صالح مستعمراتها (يقصد الولايات المتحدة) . فقد أعطتها (الى المستعمرات) قاعدة سياسية لتجارة مربحة . كما انها قد سمحت لها بالحرية من الجزية ، ثم انها قد أمنتها وحمتها وجعلتها تتمتع بوضع لا تتمتع به الا الأمم الأروبية ذات الامتيازات الخاصة . » (ص 19) .

واذا كانت هذه هي حالة بريطانيا فى علاقتها مع دول افريقية الشمالية ، فكيف يفهم المرء قول السيد ارفينغ ان « القرصنة كانت هي أساس النظام الاقتصادي ، بل النظام السياسي » لدول افريقية الشمالية . حقا ان هذه الدول كانت فى نزاع طويل مع بعض الدول الأروبية ، ولكن هذه كانت هي الدول التي حاولت أن تؤسس لا علاقات اقتصادية وتجارية فقط ، ولكن علاقات سياسية وثقافية (ولا سيما الدين) أيضا . وهذه الدول هي اسبانيا ، والبرتغال ، والدويلات الايطالية .

أما بصدد المفاوضات المباشرة بين أمريكا ودول افريقية الشمالية ، فان الأخيرة قد بذلت جهدها لكي تحافظ على علاقات ودية مع العضو الجديد فى مسرح النزاع . ولكن نتيجة لعوامل أخرى ، اعترف بها السيد ارفينغ نفسه ، ظهرت الصعوبات على السطح وأصبح النزاع ضروريا . وهذه العوامل هي :

1 — بطء اتخاذ القرارات الأمريكية (مثلا أن المعاهدة التي جرت المفاوضة بشأنها فى الجزائر سنة 1815 لم تصادق عليها الولايات المتحدة سوى سنة 1822 (ص 186) .

2 ـ النقص فى تنسيق الاتصالات . فالرسالة قد تأخذ شهرين قبل أن تصل الطرف الآخر ، بل ان بعض الرسائل قد ضاعت نتيجة لضياع احدى السفن أو القاء القبض على حامل الرسائل .

3 ـ نقص المعلومات عن الشعوب والبلاد المعنية . فهناك رجل مغربي متدين قد اقنع رئيس دولته ، لكي يوقع معاهدة مع وفد أمريكي ، بأن الدين فى الولايات المتحدة كان هو نفس الدين فى المغرب . (ص 34) . وقد اعتاد حكام الجزائر أن يشيروا الى الرئيس الأمريكي على أنه أمبراطور أمريكا (أنظر شيلر Shaler فى كتابه (مختصر تاريخ الجزائر) (ص 276) . وبالاضافة الى ذلك فان الممثلين (الأمريكيين ولا سيما خلال العقدين التاليين لاستقلال الولايات المتحدة ، لم يكونوا مطلعين على الوجهة الثقافية والتجارية والسياسية لدول افريقية الشمالية .

ولكن الدول الأروبية لم تكن مستعدة لمساعدة الولايات المتحدة فى علاقاتها مع دول افريقية الشمالية . فقد رفضت بريطانيا أن تحمي مصالح أمريكا أثناء حرب 1812 التي جعلت بريطانيا تقف ضد الولايات المتحدة فى منطقة البحر الأبيض . ورغم أن فرنسا قد قدمت لأمريكا بعض المساعدات أثناء حرب الاستقلال فانها قد أصبحت فيما بعد غير مبالية ، بل أصبحت أحيانا تشك ، وحتى تعمل ضد الولايات المتحدة . (ص 195)

كذلك كانت اسبانيا على علاقة غير ودية مع دول افريقية الشمالية ولا تستطيع أن تساعد الولايات المتحدة بل ان أسبانيا كانت قد اتهمت ، خلال حرب طرابلس ـ أمريكا ، بمساعدة الاولى . (ص 196 ـ 7) . وقد كانت البرتغالهي البلاد الأروبية الوحيدة التي قدمت مساعدة لأمريكا . حتى لقد فكر الكونغرس الأمريكي فى مساعدة البرتغال بدل ارسال أسطول بحري ضد الجزائر . (ص 197) . ومن جهة أخرى

ساعدت كل من السويد ، والدانمارك ، وسردينيا الولايات المتحدة ؛ ولكنها لم تفعل ذلك الا اذا كانت هذه الدول هي نفسها في حرب مع واحدة أو أكثر من دول افريقية الشمالية . أما الهولنديون فقد تفاوضوا مع الأمريكان على المساعدة ، ولكنهم رفضوا في النهاية أن يطبقوا ذلك . (ص 197 — 8) .

وقد أشار السيد ارفينغ الى الصعوبات التي واجهت الأمريكان في مفاوضتهم مع دول افريقية الشمالية . وأهم الصعوبات هي :

1 — قلة معلومات المفاوضين الأمريكان عن افريقية الشمالية .

2 — عدم الثبات على قرار بالنسبة لحكام افريقية الشمالية .

3 — ضآلة الرصيد المالي الذي كان تحت تصرف المفاوضين .

4 — ضعف فهم الأوضاع عند المفاوضين الأمريكان . (مثلا كانوا يتهمون بعضهم البعض بالجهل والتزوير ، وفتح الرسائل ..) (ص 198 — 202) .

ولكن أمريكا قد استفادت كثيرا من تجربتها مع دول افريقية الشمالية . فقد تعلمت أن تعتمد على نفسها . وكان مساجينها قد عوضوا بمبالغ طائلة « في طول البلاد وعرضها » . وقد نجحت في خلق أسطول بحري وانجاب أبطال مثل ايتون وديكاتور . ويقول السيد ارفينغ انه « من ظاهرة كهذه تتطور وحدة شعب ما » . (ص 204) . (1)

الجزائر 13 جوان 1968

1 — نشرت في (المجاهد الثقافي) عدد 9 ، سنة 1969 ثم ترجمها السيد كاوش الى الفرنسية ونشرتها جريدة (الجمهورية) ، وهران ، 17 يناير 1970 .

الجزائر فى مؤلف انكليزي قديم ، 1731

من الكتب القديمة عن الجزائر كتاب ضخم بالانكليزية طبع فى لندن سنة 1731 ، وعنوانه (الكامل فى تاريخ الجزائر) تأليف السيد جوزيف مورقان ، ويقع فى أكثر من 700 صفحة من الحجم الكبير . وهو فى مجلدين : مجلد فى تاريخ شمال افريقية عامة (بربارية (Barbary من أقدم العصور حتى بداية القرن السادس عشر ، والمجلد الثاني وهو فى تاريخ الجزائر خاصة ، من بداية العهد العثماني حتى زمن طبع الكتاب (1731) ، ويحتوي على جزئين : الأول من قدوم العثمانيين حتى تولى نحاج باشا (1545) والثاني منه الى بداية القرن الثامن عشر . وليس هذا أول كتاب بالانكليزية عن الجزائر ، ولكني لا أعرف انه ترجم كاملا أو ملخصا ، الى العربية .

ومؤلف هذا الكتاب عاش سنوات طويلة فى الجزائر ، وتولى فيها بعض المهام فى قنصلية بلاده عندنا فى عهد القنصل البريطاني العام ، السيد روبير كول (R. Cole) الذي أقام فى مدينة الجزائر أكثر من أربعين سنة . وكان على اطلاع واسع بأحوال البلاد عامة فى ذلك الحين ، فقد كان يحسن ، كما يظهر من الكتاب ، اللغة العربية ويعرف التقاليد الاسلامية . وكان كثير التجوال فى مختلف أجزاء الجزائر يريد التعرف على أهلها وتقاليدهم . وقد ذكر انه زار الجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر عدة مرات ، وزار قسنطينة وغيرها . وكان يتصل بالمرابطين ويستمع الى أقوالهم ويتعرف على علاقاتهم بالشعب . وله كتاب عن الاسلام : أشار الى الجزء

الثاني منه فى الكتاب الذي تتناوله (ص 487) وسماه « التعريف الاسلام » Mohamatisme Explained وانتقد دي تاسي ، الذي كتب أيضا عن الجزائر ، بأنه لا يعرف عادات المسلمين . (239) . ونشر عملا آخر عن الجزائر فى لندن سنة 1680 .

وكثير ما كان يصحح نطق وأخطاء المؤرخين الآخرين عندما يتعرض الى أسماء القبائل والأشخاص المحليين . ورغم اننا عدنا الى بعض المظان التي تحتوي على تراجم الانكليز فاننا لم نستطع أن نعرف عن حياته أكثر من هذا القدر ، فلم نعرف مثلا متى ولد أو توفي . وكل ما نستطيع الجزم به الآن هو انه قد عاش فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي .

وهناك عدة أسباب دفعته الى الكتابة عن الجزائر . أولها وجود لذة شخصية فى كتابه تاريخ بلاد وشعب قضى بينه كثيرا من سنوات حياته . ويتضح من هذا انه كان يكتب عن تجربة ذاتية ، وانه كان يكتب نوعا من الذكريات والانطباعات . وسنرى ان هذا غير صحيح . وثانيها اقتناعه بأنه فى استطاعته أن يكتب تاريخا عن الجزائر أكثر وضوحا وأوسع دائرة من أي تاريخ آخر كتب عن نفس الموضوع . فهو يعرف البلاد عن كثب ويعرف حياة المسلمين عامة ، ويريد أن تكون بلاده على علاقات طيبة مع هذه الجزائر القوية ذات الأسطول العظيم والسمعة الواسعة والامكانيات الكبيرة . وهو رأي نجده فى ثنايا الكتاب وسنتعرض اليه . وثالثها ، كثرة الأخطاء الفاحشة السائدة فى بلاده عمن يسمونهم « بالبرابرة » ، وعن أهمية الجالية التركية فى « بربارية » (شمال افريقية) ، وبالأخص عن قراصنة الجزائر وأسطولها . وهو لذلك يريد أن يصحح الأخطاء وأن يساهم فى ازالة العراقيل وسوء التفاهم القائم بين مواطنيه وسكان شمال افريقية .

ومصادر مورقان كثيرة متنوعة . حقا انه اعتمد كثيرا على بعض المؤلفين الأسبانيين مثل ف . ديقو هايدو ، ولويس مرمول ، ولكنه كان دائما يحتفظ لنفسه بالرأي النهائي . كذلك اعتمد على لوجي دي تاسي الذي كان ممثل ملك انكلترا للشؤون البحرية فى هولاندا . وأخذ عن الكاتب الديني الاسباني الدكتور بيرناردو الدريتي صاحب « اسبانيا وافريقية فى القديم » ولم يأخذ كثيرا عن ليون الافريقي (الحسن الوزان) لأن مرمول استعار منه كثيرا ولأن وجه بربارية قد تغير منذ عصره . وأخذ مورقان أيضا عن مؤلفين آخرين أمثال ب . دان ، قرامبي (Gramaye) ودافيتي (Davity) ودابر (Dapper) وهكليت Haklyyt ، وكان ينقل أيضا عن ابن الرقيق القيرواني وغيره من كتاب المغرب فى العصر الوسيط ، ولكنه يبدو كان يأخذ بطريقة غير مباشرة . وقد رجع أيضا الى بعض الموسوعات التاريخية واللغوية . ولم يخل الكتاب من الاستفادة من كتب القدماء أمثال مؤلفات العهد الروماني (سالوست وسترابو ، الخ) .

ولكن مورقان كان كثير النقد لمصادره . وكان يشعر أن الأروبيين الذين سبقوه بالتأليف كانوا مدفوعين بروح الجهل والحقد الديني والأحكام المسبقة . لذلك انتقد هايدو ، رغم انه يعترف له بالفضل وقد أسماه مرشده فى عمله ، فقال ان كتابه (هايدو) يقوم على فكرة ثلاثية هي الأسر والشهداء والمرابطون (أسر المسيحيين من طرف الجزائريين وموتهم شهداء فى أيدي المسلمين ودور رجال الدين المسلمين فى الجهاد) ، وهي فكرة حسب رأيه ، تافهة ، واتهمه بضيق الأفق والمحاباة الدينية والكتابة وبكثرة موجه .كذلك انتقد مرمول وأتهمه بعدم التجرد من الهوى الديني وبكثرة الأخطاء ولا سيما عندما يتحدث عن السكان والبلاد . وانتقد ليون الافريقي بأنه ، رغم ان كتابه قد طبع سنة 1525 وترجم الى عدة لغات (منها الانكليزية سنة 1600) ، فانه قد تجاوزه الزمن ، ومن جهة أخرى قال عنه ان شهرته قد جعلت الناس يعتقدون خطأ انه المصدر الأساسي

الوحيد عن تاريخ بربارية ، واتهم لوجي دي تاسي بأنه كان يجهل أحوال وعادات المسلمين . وقال عن الجميع بأن لهم أفكارا مسبقة خاطئة عن عن الأتراك والمسلمين ، وانهم يستعملون ضد الجزائريين خاصة والمسلمين عامة عبارات جارحة قاسية متأثرين فى ذلك بأقوال ودعايات الكهنة الأسبان المغرضين الذين كانوا يشيعون آلاف الحكايات الخرافية لكي يحصلوا على المساعدات المالية والسياسية لتخليص الأسرى المسيحيين من أيدي المسلمين .

وحاول مورقان أن يصحح هذه الصورة الخاطئة عن الجزائر . فقال انه كان فى امكانه أن يأخذ عن تلك المصادر ويكتب تأليفا كالآخرين ، ولكنه شعر أن له أشياء كثيرة خاصة يريد أن يقولها ، ولذلك عزم على تأليف يحمل شخصيته وآراءه ويقدم تاريخ الجزائر ، شاملا كاملا ، الى مواطنيه والى الاروبيين عامة لكي يعرفوا الحقيقة . وقد استجاب لرغبة بعض أصدقائه فكتب قسما مدخليا للكتاب تناول فيه التاريخ العام لبربارية منذ القديم حتى بداية القرن السادس عشر .

وافتتح كتابه بمحاولة تصحيح الصورة التي رسمها رجال الدين فى أروبا عن الجزائر . فقال فى المقدمة ان الجزائر مشهورة بحكومتها القوية ، وانها قد وقفت أكثر من قرنين ضد هجومات كثيرة وانه ليس هناك اليوم ما يجعلها فى خطر من تلك الهجومات ، وقال ان من حق الجزائريين أن يكونوا شعبا بحريا قويا ، أليس كل قادة اروبا ينشدون صداقتهم ويتوددون اليهم ؟ « فهم شعب يعقد السلام ويعلن الحرب مثل الامم الاخرى ، وهم دائما فى وضع يفرض على غيرهم احترامهم وتقديرهم » . (ص 4) .

وعاب مورقان على من يقول ان الجزائريين عبارة عن عصابة من القراصنة الجبناء تكفى ست سفن لتخريب مدينتهم عليهم ، وقال ان أمثال هؤلاء لا يعرفون ان أرمادة (أسطول) فيليب الثاني الاسباني ضد بريطانيا

(سنة 1588) لم تكن شيئا يذكر بالمقارنة الى أرمادة شارل الخامس الذي تحطم أمام مدينة الجزائر سنة 1541 ، أو الى الاساطيل الاخرى الاسبانية والانكليزية التي تحطمت أمام هذه المدينة التي لا تقهر . وقد ضرب مثالا على ذلك بتغلب الجزائريين على الاسبان فى مستغانم حينما أسروا منهم 12.000 من أصل 16.000 ، من بينهم ابن حاكم وهران الاسباني ، وحملوهم الى مدينة الجزائر . وضرب مثلا آخر على قــوة الجزائريين باخراجهم الاسبان من وهران سنة 1708 بعد أن ظلوا بها قرنا وبعد أن كانت محروسة بحوالي عشر قلاع ، وبحماية قوية .

وقد قسم المدخل (أو المجلد الاول) الى ستة أقسام ، نوجز عناوينها فيما يلي :

القسم الاول : عن أصل سكان البلاد (شمال افريقية) .

القسم الثاني : عن قرطاجنة وامبراطوريتها .

القسم الثالث : عن الاقاليم الرومانية فى شمال افريقية الى الهجوم الوندالي .

القسم الرابع : تاريخ بربارية من الوندال الى الفتح الاسلامي .

القسم الخامس : شهادات عن استبداد وظلم الرومان وشرور المسيحيين الافريقيين التي أدت الى سقوط تلك الاقاليم .

القسم السادس : تاريخ بربارية الى بداية القرن السادس عشر ، عندما أصبحت الجزائر تحت النفوذ التركي . ويحتوى هذا المدخل على 207 صفحات وتظهر فيه أيضا شخصية المؤلف بنقده للمصادر ودراسته لتاريخ الاسلام ومعرفته لتقاليد السكان .

ويأتي بعد ذلك المجلد الثاني ، وهو خاص بالجزائر ، وعنــوانه (الكامل فى تاريخ الجزائر والاقاليم التابعة لها منذ استيلاء الاتراك عليها).

ويقع في جزئين كما سبق أن أشرنا . الجزء الاول يضم ستة فصول نوجزها فيما يلي :

الفصل الاول : الجزائر في القديم ، أسماؤها ، الثورات التي وقعت فيها ، أوضاعها العامة .

الفصل الثاني : معلومات عن القرصان الشهير عروج باربروسة قبل استيلائه على الجزائر .

الفصل الثالث : تاريخ عروج باربروسة الى وفاته ، وكيف وقعت الجزائر في يد الاتراك .

الفصل الرابع : خير الدين باشا ، والي الجزائر الاول باسم السلطان العثماني .

الفصل الخامس : حسن آغـا ، خليفة خير الدين باشا .

الفصل السادس : عهد الحاج باشا (يدعى كذلك واسمه الحاج بشير ـــ أو بشير بن عطيلة ـــ أو عطاء الله) .

وهو جزء صغير الحجم اذا قيس بالجزء اللاحق أو حتى بالمدخل . اذ تبلغ صفحاته حوالي 59) ص 211 ـــ 252 (. أما الجزء الثاني فضخم وفيه تفاصيل أكثر وهو يبتدىء بالفصل السابع :

الفصل السابع : حسن باشا ابن خير الدين (العهد الاول) .

الفصل الثامن : صالح رايس ، أول عربي يحكم الجزائر .

الفصل التاسع : الباشوات : حسن قورصو وتاكارلي ، ويوسف ، والقائد يحيى .

الفصل العاشر : الباشوات حسن ابن خير الدين (العهد الثاني) ، وحسن آغا ، ومحمد خوجة ، وأحمد . والقائد يحيى (العهد الثاني) .

الفصل الحادي عشر : حسن باشا (العهد الثالث) الجزائريون وحصار مالطة .

الفصل الثاني عشر : محمد باشا ابن صالح رايس ، علي باشا الفرطاس.

الفصل الثالث عشر : عرب أحمد ، رمضان باشا .

الفصل الرابع عشر : حسن باشا (العهد الاول) جعفر آغا .

الفصل الخامس عشر : حسن باشا (العهد الثاني) ، مامي باشا الارناووطي .

الفصل السادس عشر : أحمد باشا ، خضر باشا (العهد الاول) .

الفصل السابع عشر : شعبان باشا ، مصطفى باشا (العهد الاول) ، خضر باشا (العهد الثاني) .

الفصل الثامن عشر : عن القراصنة الجزائريين وقوتهم البحرية .

الفصل التاسع عشر : شؤونهم البحرية الى فشل حملة السير روبيرت مانسيل (الانكليزية) .

الفصل العشرون : مقتطفات من يوميات الحملة الانكليزية الفاشلة ضد الجزائر بقيادة السير روبيرت مانسيل .

وينتهي الكتاب بملحق طويل (12 صفحة) يضم معاهدة الصلح والتجارة التي أبرمت بين الجزائر وأنكلترا سنة 1682 وجددت سنوات 1686 ، 1700 ، 1703 ، 1716 . وبملحق آخر في نفس الموضوع بين انكلترا وتونس من جهة وانكلترا وطرابلس من جهة أخرى . ويحتوي هذا الجزء على حوالي 340 صفحة . ولا يكتفي مورقان بذكر أسماء الباشوات ولكنه يتحدث عن أعمالهم خلال ولايتهم ومنشآتهم وعلاقاتهم الخارجية وصلاتهم بالسكان والوجق العثماني ، كما يتتبعهم في مختلف

مراحل حياتهم حتى بعد أن يتركوا الحكم ، ولا يهمل جانب السكان أثناء حديثه عن الولاة ، غير أن كتابه يظل كتابا سياسيا بالدرجة الأولى .

وهناك حادثتان هامتان ذكرهما مورقان تتعلقان بالتاريخ البحري للجزائريين ، أولاهما حادثة غريبة تستحق الوقوف والدرس والبرهان وهي ان بعض الجزائريين كانوا مزارعين فى أمريكا ، لهم أملاك زراعية ضخمة ولهم خدم من الزنوج يعملون فى مزارعهم (ص 517) وهو يستغرب من ذلك ، رغم انه كثيرا ما سمع عنه لأن الجزائريين لم يكونوا يملكون عندئذ السفن القادرة على قطع المحيط . والحادثة الثانية أقل غرابة لأنها ليست جديدة فى حد ذاتها ولكن المؤلف قد أعطاها كثيرا من الاهتمام وتتبع صاحبها بتفصيل خاص . وهي دخول مراد رايس المحيط لأول مرة ووصوله الى جزر الكناري ، سنة 1585 ، ويتحدث مورقان عن ذلك فيقول انه أول جزائري دخل المحيط وأغار على هذه الجزر وان رحلته قد استغرقت أكثر من أربعة أشهر ، وانه غنم غنائم ضخمة وأسر فيها أكثر من 300 أسباني بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر ، وان الجزائريين قد احتفلوا احتفالا عظيما بعودة مراد رايس سالما غانما وانهم كانوا يلقبونه « بالكبير » لأنه أول من دخل منهم المحيط . هذا فى القرن السادس عشر ، أما اليوم ، (زمن المؤلف) فان دخول الجزائريين المحيط أصبح أمرا عاديا . (ص 289) ولا نظن أن مورقان أول من أشار الى هذه القصة ، فقديكون ناقلا عن هايدو ، ولكنه يرويها بشيء من العطف والاعجاب ببطلها خلافا للمؤلفين الآخرين الذين أعماهم التعصب الديني ، كما يقول ، عن رؤية الحقيقة .

***

وتحتل مدينة الجزائر ، كما يلاحظ المرء من الفصول ، جزءا ضئيلا من هذا الكتاب الضخم ، ولكن المؤلف يتحدث عنها حديثا جديرا بالوقوف . ويبدأ بذكر الاقوال الشائعة عنها عندئذ لدى مواطنيه الانكليز خاصة

والاروبيين عامة . فهي عندهم مدينة الرعب ، وملاذ قطاع الطريق وطلاب الغنائم الذين لا يكتفون بارهاب جيرانهم ، بل هم الاعـــداء الالداء للمسيحيين وتجارتهم . انها حسب رأي البعض « عش العفاريت » ولكن المؤلف ، الذي أخذ على عاتقه تصحيح الاخطاء الشائعة عن الجزائريين بحكم تجربته الطويلة معهم ، يجيب هؤلاء بانه من حق الجزائر أن تدعي لقدم والشرف معا ، ومن حقها أن تحتل مكانة بارزة بين أنبل مدن العالم . أليست هي قائمة على أنقاض (قيصرية) الرومانية .

ان هناك عدة آراء حول أصل مدينة الجزائر ، فبعضهم يدعي أنها مبنية على انقاض قيصرية الرومانية وبعضهم يدعي ان قيصرية هذه تقع في مكان آخر من الساحل غير مكان الجزائر الحالي . بل ان آخرين يذهبون ، جهلا منهم حسب رأي المؤلف ، الى أن قيصرية مدينة داخلية . ناسين انها كانت ساحلية ، غير أن الناظر المدقق في موقع وشكل مدينة الجزائر الحاليه يذهب الى ما ذهب اليه مرمول وهو أن قيصرية القديمة تقع غرب مدينة الجزائر الآن وان اسمها الافريقي هو (تاكدامت) ، وانها هي كل ما بقي من تلك المدينة الشهيرة التي اختارها الملك يوبا الثاني عاصمته رغم اتساع مملكته وان الملك يوبا الثاني هو الذي أعاد بناءها ونبلها وأطلق عليها اسم ولي نعمته يوليس قيصر . أما ابن الرقيق فيؤكد أن اسمها القديم هو قيصر (أو قيسرة ؟) ولكن المؤلف الانكليزي يقول انه لم يسمع بأن أحدا غير ابن الرقيق قد أخذ بهذا الرأي . وعلى أية حال فان آثار تلك المدينة (تاكدامت) تشهد على عظمتها ، ويبلغ محيطها حوالي اثنى عشر ميلا .

ولكن ليس هناك ما يشير بالتأكيد الى أن مدينة الجزائر الحديثة قائمة على أنقاض قيصرية العتيقة التي كانت ذات يوم مقرا لملـــك عظيـــم ، وعاصمة لأقاليمه الواسعة ، والتي كانت خلال قرون مستعمرة رومانية تمثل رأس اقليم شاسع مزدهر . والواقع ان في مدينة الجزائر الحالية

(زمن المؤلف) بعض الآثار القديمة ، ولكنها ليست بشيء هام اذا ما قورنت بآثار المدن القديمة الاخرى فى العالم . واذا كانت مدينة قيصرية قائمة فيما هو الآن مدينة الجزائر ، فكيف نفعل مع كاتب آخر ، يعتبر عمدة فى آرائه ، وهو سترابو Strabo الذي يؤكد ان الملك يوبا الثاني قد أعاد بناء مدينة يول Jol وأطلق عليها اسم قيصرية ؟ ويؤكد سترابو كذلك انه كان أمام قيصرية جزيرة صغيرة . وقد لاحظ المؤلف أن مدينة الجزائر الحالية تقع أمامها هذه الجزيرة الصغيرة ، بينما لا يوجد مثلها أمام تاكدامت أو أمام أي مكان آخر على الساحل تحدث عنه الجغرافيون .

ورغم شهرة مدينة الجزائر وعظمتها اليوم (القرن 18) عند الاروبيين، فانه من الغريب حقا أن لا يعثر فيها الباحث على أي رسوم خطية أو تمثال ، أو حتى آثار باقية من قوس نصر ، أو شيء يشبهه . ذلك أن المؤلف كان كثير الاهتمام بهذا الموضوع والبحث عنه ولكنه لم يستطع خلال اقامته الطويلة بمدينة الجزائر أن يرى أو يسمع عن وجود آثار قديمة عثر عليها أثناء وضع أسس البنايات أو حفر الآبار ، أو نحو ذلك من أعمال التنقيب . وقد استنتج من ذلك أن ما وقع لقيصرية القديمة لم يكن مجرد تخريب جزئي ، ولكنه كان تخريبا كاملا ، مع حقد شديد ! ويبدو أن مدينة الجزائر القديمة قد عانت من ظلم الحكام الطغاة مما أدى الى تخريبها وافراغها من سكانها وسلبها من ماضيها العظيم . ولكن مظهرها اليوم وهو مظهر حديث ، لا يدل على أنها قد ظلت فارغة من السكان فترة طويلة . وعلى كل حال فان اعترافنا بشرف وقيمة الآثار القديمة التي كانت قيصرية تحتويها يجعل من الظلم والاجحاف أن ننازع مدينة الجزائر اليوم (القرن 18) هذه العظمة الموروثة . « ذلك انني (المؤلف) أرى أن نحارب العدو بكرم ، وأن نعمل على هدى المثل القائل : اعط الشيطان حقه ! » . وما دامت المصادر تثبت أن قيصرية

قد بنيت على أنقاض يــول القديمة ، فان ذلك يكفي دليلا على شرف وقيمة وعظمة مدينة الجزائر الحالية .

أما اسم مدينة الجزائر فى التواريخ الافريقية (الاسلامية) ، فهو مزغنة ، وهو الاسم الشائع اليوم لدى السكان . ولكنهم يستعملونه بشيء من المضض لأنهم يعرفون انهم ينطقون اسما أقل أهمية من اسمها القديم (قيصرية) . وكل من ليون الافريقي ومرمول استعمل اسم مزغنة لمدينة الجزائر ، ولكنهما لم يتفقا على شكل كتابته . وقد قلدهما الكتاب الآخرون . ويؤكد الافريقيون (المسلمون) . أن المدينة كانت أصلا لبني مزغنة (يكتبها مورقان هكذا : Muzgunna مزقنة ــ بضم الميم والقاف المعقوفة) ، وهم شعب ليبي قديم ، ولا يعرف من أي قبيلة هم . وقد أنشأوا المدينة (لا يذكر تاريخ الانشاء) وسكنوها قبل أن يأتي الرومان هناك بعهد طويل ، وأطلق عليها العرب اسم جزيرة (هكذا بالمفرد) بني مزغنة . أما اسمها الحالي فهو الجزيرة (بالمفرد أيضا) . وهو اسم محرف حتى عند الذين يعطونها هذا الاسم . فالعرب (البدو) وأهل الحضر يسمونها (تزير) ، والترك غيروا المفرد العربي الى جمع ، فهم يسمونها (الجزائر) . ولكن الافريقيين (أهل المغرب الاقصى ؟) قلبوا الجيم الخفيفة (ج J) الى جيم ثقيلة (ج G على عاداتهم فى ذلك ، فهم ينطقونها جزائر Gezeïr . وللاروبيين أسماء مختلفة يطلقونها على مدينة الجزائر فهي عندهم ألجــي Alger وألجيري Algieri وأرجيير Argier. والاسبان خصيصا يطلقون عليها اسم أرخيل Argel وأرجير Arjel ونكن الانكليز والهولانديين فقط هم الذين يطلقون عليها اسم الجيرز (Algiers).

ومن جهة أخرى يطلق الترك عبارة مغربلي (مغربي) على كل السكان الواقعين غرب الحدود المصرية ، وعبارة جزايرلي (جزائري) على سكان الجزائر . بينما ينسب المغاربة الى الجزائر هكذا : جزيري Gezeiri.

أما بقية الحضر والعرب الافريقيين فيقولون تزيري Tzeiri أو زيري Zeiri وهو نفس الاسم الذي أطلق على أسرة بني زيري (الدولة الزيرية) . وقد أغامر (المؤلف) فأقول أنه يبدو أن اسم المدينة المحرف اليوم قد استعير من اسم هذه الاسرة ، بدل أن يكون مأخوذا من اسم الصخرة (الجزيرة) المواجهة لها ، بل من الممكن أن يكون الاسم الشائع اليوم (القرن 18) محرفا عن (قيصرية) . أما الذين يزعمون انها سميت (الجزائر) لأنها تقع تقريبا فى مواجهة (جزر الباليار) ، فانني (المؤلف) أرى أن رأيهم سخيف ولا أساس له على الاطلاق .

وبعد هذا الحديث الطويل عن أصل اسم مدينة الجزائر ومشتقاته يتحدث المؤلف عن بعض الثورات والاضطرابات التي شهدتها المدينة منذ القديم حتى القرن السادس عشر . فقد ذكر أن الثائر فيرموس ، وهو من السكان الاصليين ، قدخرب قيصرية (ص 215) . واستعرض الامراء والحكام الذين يسميهم « طغاة » والذين تداولوا على حكم الجزائر كالوندال والفاطميين والمرابطين والموحدين الخ .. وتعجب كيف يخربون المدن بعد أن أوقعها السيف تحت سيطرتهم . ولكن المؤلف ، الذي أكد أنه لم يعثر على مصدر ، يقول بأن مدينة الجزائر ، منذ قيصرية ، قد خلت من سكانها فترة طويلة . غير انه يرى انها منذ العهد الروماني ، لم تزدهر كعاصمة لأية مملكة أو حتى لاقليم كبير . وما غامر به أن اسمها قد يكون مشتقا من اسم الزيريين مؤسسي بجاية ، ومن أنها ربما كانت عاصمة لهم ، هو مجرد تخمين قائم على التشابه فى الاسم وليس له مصادر على ذلك (ص 172) .

وقد استنتج من ذلك أن مدينة الجزائر كانت مسرحا لعدة ثورات واضطرابات منذ العهد الروماني حتى ثورة (هكذا يسميها) القرصان عروج باربروسة سنة 1516 (ص 216) . ثم صور مورقان الصراع الثلاثي على مدينة الجزائر فى بداية القرن السادس عشر . فهؤلاء

الجزائريون الذين يريدون الحفاظ على سيادتهم واستقلالهم فى مدينتهم بعد أن استولى الاسبان على بجاية وطردوا ملكها الذي كانت له السيادة على مدينة الجزائر . ولم يتوانوا (الجزائريون) ، من أجل ذلك الهدف ، فى دعوة الشيخ سليم ابن التومي (هكذا يذكره) زعيم قبيلة التاتيجي Tatije (هكذا أيضا) فى متيجة ليكون سيدا عليهم ، وعندما قبل استقبلوه بفرح وغبطة وقرروا قطع الجزية التي فرضها عليهم الاسبان منذ 1509 . ومن جهة أخرى هناك الاسبان الذين ذهب بهم الطموح كل مذهب وقادهم الحقد الديني الى طرد المسلمين من بلادهم ، ثم احتلوا المدن والمراكز الساحلية فى بربارية ، بما فى ذلك بجاية ووهران والصخور (الجزر) التي كانت أمام مدينة الجزائر ، وفرضوا على أهل هذه المدينة جزية ثقيلة ، وأقاموا أمامها حصنا قويا يحميه مائتا جندي ، فكانت فى الحقيقة محاصرة لا يدخلها الداخل أو يخرج منها الخارج الا برضى الأسبان . وأخيرا هناك القراصنة الأتراك بقيادة الأخوين بربروسة يجوبون غرب البحر الابيض . وقد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى جزيرة جربة وفى مدينة جيجل وغيرهما ، وأن يكسبوا عدة جولات ضد الاسبان . وبذلك جعلوا أنفسهم قوة ثالثة يلتجىء اليها : المغلوبون والضعفاء . ولم يتردد سليم ابن التومي ان يستنجد باسم سكان مدينة الجزائر ، بهؤلاء المسلمين الاتراك الذين جعلوا همهم ملاحقة الكفار الاسبان . فانجدوه وتعاون الطرفان ضد العدو المشترك ، ولكن الاتراك جعلوا من مدينة الجزائر مركزا لنشاطهم وعاصمة لأقاليمهم وتخلصوا من كل من وقف ضد هذا التيار . واستمر الأمر كذلك الى زمن المؤلف .

وشكل مدينة الجزائر اليوم (زمن المؤلف) هو بالتقريب شكلها فى بداية القرن السادس عشر . فاسوارها ظلت كما كانت ، ولكن أضيف اليها تحصينات جديدة . غير ان ضواحيها القديمة الكثيرة قد اختفت الآن . وكان ملوك تلمسان هم الذين بنوا قصبة مدينة الجزائر لكي يقيم

فيها ولاتهم ، وعندما أصبح سليم ابن التومي زعيم المدينة جعل قصره في هذه القصبة ولكنه لم يتمتع طويلا بزعامته . وتقع المدينة في خليج واسع

وقد بني جزء منها على أرض منبسطة تنتهي بالبحر عند سفح الجبل . أما الجزء الآخر فمبني على منحدر يبتدىء حيث ينتهي الأول ويمتد على 21 درجة و 20 دقيقة طولا ، و 36 درجة ، و 30 دقيقة عرضا . وهذا طبقا لآخر المعلومات لأن بعض المؤرخين والجغرافيين يختلفون في درجة أو أكثر أو أقل . (ص 220) .

ويسير مورقان على منهجه الذي رسمه لنفسه فيذكر لنا أهم الاعمال التي قام بها كل باشا في مدينة الجزائر . فهذا حسن باشا ابن خير الدين بنى سنة 1550 قلعة عظيمة في المكان الذي نصب فيه شارل الخامس (1541) خيمته ، وبنى ما يشبه المستشفى لمداواة الجرحى والمرضى من الجيش ، كما بنى بها حماما عاما فخما على غرار ما فعل والده في مدينة اسطانبول . (ص 368) . كما ترك في المدينة زوجته الجزائرية وابنها ، وترك لهما عدداكبيرا من العبيد والثروات . (ص 475) . وهذا مثلا عرب أحمد باشا الذي بنى برجا وأصلح من شأن سور باب عزون ، وأقام عينا جارية تجتمع فيها العيون القريبة ، كما بنى برج المنار على الجزيرة التي كانت خارج المدينة ، وأنشأ عينا أخرى كبيرة أمام باب الواد . وكان يقف على هذه الاعمال بنفسه . وهكذا ، الى أن يأتي المؤلف علىذكر الباشوات الذين اشرنا اليهم في الفصول. وبذلك اصبحت مدينة الجزائر لا تطاول ثروة وشهرة وعظمة . ويؤكد مورقان (نقلا عن هايدو) انها قد اصبحت مطمح انظار المشارقة الذين كانوا يقصدونها لثروتها وجمالها الطبيعي ، كما كانت امريكا بثروتها وجمالها تحمل الاسبان على قطع المحيطات (ص 354) .

ولعله من الواضح ان هذا الكتاب ، بما فيه من معلــومات سياسية واقتصادية ، وبما يحتويه من آراء غير متعصبة نحو البلاد وسكانها ، خلافا لما جرت به العادة عندئذ ، جدير بالترجمة كاملا رغم ضخامة حجمه وصعوبة لغته . وعسى ان يوفقنا الله الى ذلك اما الآن فحسبنا منه هذه المعلــومات عن محتــواه العام وعن رأي المــؤلف فى مدينة الجزائر بالذات (1).

1 ـ اكتفينا بعرض آراء المؤلف دون التعليق عليها ، لأن التعليق عليها يجعلنا فى الواقع نعيد كتابة تاريخ الفترة كلها . وقد نشر هذا العرض فى مجلة الأصالة عدد 8 ، مايو ـ يونيو 1972 ، ثم نشره الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فى المجموعة التي اصدرها بعنوان (تاريخ المدن الثلاث ـ الجزائر ، مليانة ، المدية) ، الجزائر ، 1973 .

كتاب « علاج السفينة فى بحر قسنطينة » *

رغم عناية الكتاب الفرنسيين بترجمة آثار ابن المبارك وابن العنتري والعدواني عن تاريخ قسنطينة فانهم لم يترجموا كتاب « علاج السفينة فى بحر قسنطينة » الذي نقدمه اليوم . ولعل ذلك راجع الى ضخامة الكتاب ، أو الى أن مؤلفه غير جزائري ، أو الى أسباب أخرى نجهلها . ولكن هذا لا يعني انهم لميلتفتوا اليه أبدا . فقد أشار اليه بعضهم (1) فى معرض الكتابة عن الآثار السابقة ، ولعل بعضهم قد ترجمه ولم ينشره أو نشره ولم نطلع عليه .

يقع المخطوط « علاج السفينة » فى حوالي 700 صفحة من الحجم الكبير (357 ورقة) وهو مكتوب بخط أسود جميل ، ولكن العناوين وأسماء الولاة مكتوبة باللون الأحمر أو الأزرق وأحيانا الأخضر . وقد ذكر المؤلف فى المقدمة أنه بدأ فى كتابته سنة 1276 هـ ولكنه ذكر فى مكان آخر من الكتاب (ورقة 23) أن « عامنا هذا وهو 1277 » أثناء حديثه عن احدى قناطر قسنطينة . وقد يكون التاريخ الأول يشير به الى وقت الشروع فى الكتاب ، بينما الثاني يشير به الى مرحلة أخرى من تقدم

---

* دراسة منشورة فى مجلة كلية الآداب (الجزائر) عدد 2 ، 1970 .

1 ــ أشار اليه شارل سان كالبر C. Saint Calbre فى مقاله عن « قسنطينة وبعض المؤلفين القسنطينيين » وأطلق عليه اسم « تاريخ قسنطينة » . انظر (المجلة الافريقية) 288 (1913) ص 74 ، هامش 2 . وقال ان مؤلفه هو السيد الانبيري . ترجم هذا المقال الى العربية الاستاذ محمد المهدي سنة 1966 ، وهو محفوظ فى مكتبتي .
وأشار اليه أيضا دورنون A. Dournon فى مقدمة ترجمته لكتاب ابن العنتري « الفريدة المؤنسة » عن تاريخ بايات قسنطينة . أنظر « مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية لولاية قسنطينة (Recueil de notes et mémoires; 59 ، 1928 – 1929) .

العمل فيه . وأغلب أسلوب الكتاب عامي ركيك . وفيه كثير من الاغلاط الاملائية . وتشيع فيه الألفاظ التركية وأحيانا الافرنجية . وهناك ألفاظ وتعبيرات غير كاملة فى الكتابة أو النقط . لذلك نتصور ان من سيحاول تحقيقه سيجد صعوبة كبيرة . وأحيانا يترك الكاتب فراغات لأسماء لا يعرفها أو احصاءات غير متأكد منها ، (مثلا ورقة 24 ، 25) . وهناك أحيانا توقف مفاجيء لبعض الأحداث كما وقع فى الحديث عن غارة شارل الخامس على الجزائر (1541 م) . وقد أكمل بعضهم الحديث عن الغارة على ورقة منفصلة بخط جميل وعبارة فصيحة تدل على أنها ليست للكاتب الأصلي . أما ترقيم الأوراق فهو بالأرقام العربية التي يبدو أن بعضهم ، ولعله أجنبي ، قد أضافها اليه ، بينما الأرقام التي استعملها المؤلف فى تواريخه هندية ، وكانت بالتاريخ الهجري الا ما كان منها الحديث عما قبل الاسلام أو بعد دخول الفرنسيين الى الجزائر . وتفتقر النسخة التي عندنا الى الورقة أو الأوراق الأولى . ويقع العنوان على الورقة الثالثة من النسخة . ورغم ان الكتاب ينتهي ضمن الأوراق الموجودة ، فانه يبدو أن أكثر من ورقة مفقودة من نهايته أيضا .

ولكن من هو مؤلف « علاج السفينة » ؟ ليس لدينا الآن الدليل القاطع لأننا لا نعرف من حياته الا القليل . فالمؤلفان الفرنسيان السابقان ذكراه باسم الانبيري . وحدثني الأستاذ سليمان الصيد بأن اسم المؤلف الكامل هو أحمد الانبيري . وأضاف بأنه كان يوناني الأصل ونصرانيا ، دخل تونس وأقام فيها مترجما ، وهناك اعتنق الاسلام . ثم جاء الى قسنطينة بعد استيلاء الفرنسيين عليها حيث واصل عمله كمترجم لدى السلطات الفرنسية . (2) وهناك معلومات فى الكتاب نفسه تؤكد هذا

2 ـ ويضيف الاستاذ الصيد بأنه قد اطلع على « علاج السفينة » واستفاد منه . ويرى الاستاذ المهدي ان أسمه هو علي اللنبيري ، انظر المصدر السابق . أما ارنست ميرسي E. Mercier فيقول فى كتابه « تاريخ قسنطينة » (قسنطينة 1906) ص 518 ان الانبيري كان قد عين مترجما محلفا فى قسنطينة بتاريخ 30 يناير ، 1847 وانه كان من أصل « شرقي » ، وأنه كان قد عاش طويلا فى تونس « حيث ارتدى الملابس المحلية بل قيل عنه انه اعتنق الاسلام أيضا » .

الرأي وتوضحه . فقد ذكر مؤلفه مرتين على الأقل انه أقام فى قسنطينة خمس عشرة سنة قبل أن يبدأ تأليفه ، الاولى فى المقدمة حين يقول (ورقة 3) « وما لاح فى فكري هذا المضمون التاريخي الا بعد ما مضى خمسة عشر عاما وأنا قائم بها » (يعني قسنطينة) . والمرة الثانية أثناء اثبات تاريخ دخول قسنطينة تحت الأتراك حين يقول (ورقة 242 ـــ 243) « فقد اكتشفت وعلمت دخول الأتراك بقسنطينة من شيء ثابت لا ريب فيه كون منذ خمس عشرة سنة وأنا فيها ترجمان محلف ومكلف بترجيم الرسوم الشرعية والوثائق فى اللغتين » ومن هذا النص ندرك على الأقل مهنة المؤلف فى قسنطينة والمدة التي قضاها بها قبل تأليف كتابه ، ولعل مراجعة وثائق بلدية قسنطينة القديمة تكشف لنا عن تفاصيل أكثر دقة عن حياة المؤلف .

وفى وثيقة بعث بها الي الأستاذ محمد المهدي من قسنطينة أن « علاج السفينة » يضم فى آخره كتاب ابن العنتري . ويرجح هذا شيئان : أولهما ان وصف دورنون وسان كالبر لمحتوى كتاب ابن العنتري يؤكد ما وجدته فى آخر كتاب « علاج السفينة . » (3) وثانيهما حديث ابن العنتري عن نفسه (بضمير المتكلم) أثناء وصفه لما جرى لأبيه على يد الحاج أحمد وأعوانه . فقد جاء فى كتاب « علاج السفينة » ما نصه (ورقة 318 ـــ 319) «ولما مات ... ترك أولادا منهم العبد الفقير الى رب الارباب محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب . (4) واني الآن كاتب بالبيرو (5) بالدرب (6) وكان الذي ولاني القبطان بوسنة (7) المتولي أمور العرب .

3 ـ مثلا الموقف ازاء الحاج أحمد باي قسنطينة ، ومرور الدوق دومال بالمدينة وايراد قصيدتي ابن القاضي ومحمد الشاذلي فى مدحه ، الخ .

4 ـ هل عبارة « هذا الكتاب » تعني نسخه « لعلاج السفينة » كاملا أو كتابه هو المضاف اليه ؟

5 ـ يعني مكتب الشؤون العربية الذي انشأه الفرنسيون اثر استيلائهم على قسنطينة .

6 ـ مقر ولاية الحاج أحمد سابقا الذي اتخذه الفرنسيون مركزا اداريا لهم بعد الاحتلال .

7 ـ يعني Boissonnet الذي كان أول من تولى مكتب الشؤون العربية عند انشائه فى قسنطينة . وقد أشاع المؤلفون الفرنسيون ان العرب كانوا يقولون فى عهده « هذا زمان القبطان بوسنى ، كل كسيرتك وتهنى »

واني أقول أن أبي (8) تكلم الحق ونصح حاج أحمد .. واني لا أنساه أبدا ، وأخدم الدولة (9) بنية صالحة لما علمت من حب أبي لها لأنه لو عاش لكان أول من سارع الى خدمتها بنصح وجد .. » (10) ويظهر من النص ان هذا الجزء من « علاج السفينة » هو من تأليف « أو نسخ » ابن العنتري . (11)

وصاحب « علاج السفينة » يذكر ابن العنتري من بين مصادره . فقد ذكره في الورقة الرابعة أثناء ذكر المصادر . وذكره في الورقة 244 أثناء ابدء في تاريخ بايات قسنطينة وقال عندئذ « ونستفاد من كلام ابن العنتري في بعضهم . » وذكره في الورقة 242 عند تحديد تاريخ دخول قسنطينة تحت طاعة الأتراك في الجزائر ، وناقشه قائلا ما نصه : « واما ما ادعه ابن العنتري في كتابه ان دخول الترك في قسنطينة في سنة 1052 فهو غلط .. » ثم أثبت بالوثائق الكثيرة التي عثر عليها ، منسوبة الى قضاة قسنطينة ، (12) أثناء عمله كمترجم ، ان التاريخ الصحيح هو 935 هـ (1526 م) خلافا لابن العنتري .

8 — ملخص قصة محمد بن العنتري ، والد المؤرخ ، ان الحاج أحمد بعثه رسولا الى المعسكر الفرنسي في مجاز عمار ليفاوضهم ويعرف قوتهم . ولما رجع الى الباي هول عليه قوة الفرنسيين ونصحه بقبول الصلح معهم وعدم محاربتهم . فشك فيه ابن عيسى ، مساعد الحاج أحمد ، واتهمه بقبول النقود من الفرنسيين لكي يقوم بدور المثبط للروح المعنوية . ونصح ابن عيسى الباي بالتخلص منه . وبعد أيام مات محمد بن العنتري مسموما . وقيل ان الحاج أحمد هو الذي أمر له بذلك . وقد وقع الحادث أثناء الحملة الثانية على قسنطينة (1837) .

9 — يعني الدولة الفرنسية .

10 — ألفت النظر الى أن النقط والفواصل داخل النصوص الواردة في هذا البحث هي من وضعي الخاص . أما الأخطاء اللغوية والاملائية فقد تركتها كما هي .

11 — لابن العنتري ، عدا كتاب التاريخ المذكور الذي طبعه سنة 1262 — 1846 م ، رسالة عن سنوات القحط في أواخر الحكم العثماني وأوائل الحكم الفرنسي في اقليم قسنطينة وهي رسالة هامة من الوجهة الاقتصادية . (ولعل الكتاب الفرنسيين لم يعتنوا بها لانها تمس سياسة حكامهم الاقتصادية) وهي تقع في 28 ورقة بخط جميل جدا . وقد انتهى صاحبها من تأليفها بتاريخ 1286 هـ = 1870 م . وقد اطلعت عليها . ولعلني أوفق الى نشرها قريبا .

12 — ذكر منهم حوالي سبعة بأسمائهم مع ذكر التواريخ التي جاءت في وثائقهم . ويمكننا أن نستدل بذلك على أن صاحب « علاج السفينة » كان حقا على صلة واطلاع واسع بالوثائق العربية الجزائرية قبل ان يضع الفرنسيون أيديهم عليها أو تضيع .

تبدأ النسخة الوحيدة التي عندنا بما نصه « وأنعم النعام بالاحسان والصلاة والسلام على نبيه المصطفى الكريم . الخالص فى مستقل ارادته بلا حدود . والمنفرد بلا انقسام فى رفع دعويه . أما بعد .. » ويعرف المؤلف التاريخ بأنه « مرى الأمم » لأنه بالتاريخ « لا تموت الأمم ولا يفنوا الملوك ولا يندثروا العلماء واجتهادهم فى صنع الجميل » أما عن المؤرخ فيقول بأن عليه أن يأخذ المبادرة ويتحرى « جميع الوقائع والعبارات ولو كانوا ناقصات والمتفرقات فى تواليف المؤلفين الأقدمين والمحدثين . وبعد أن يوفقهم لبعضهم يعطي لهم ثباته مصنف سنوي ومنظوم بقياس تاريخي عقلي .. » (13)

ولم يقدم المؤلف على التأليف الا بعد أن قضى فى قسنطينة خمسة عشر سنة جامعا دارسا متثبتا ، ثم « حملت ملاطي ومهيآتي وآلات البناء بلا عون وبلا فعالة وحدي فريد منفرد عرجت على سريري وأبديت بناء هذا القصر العجيب ، وسميته « بعلاج السفينة فى بحر قسنطينة . » (14) ومصادر الكتاب غنية . فالمؤلف يذكر حوالي أربعة عشر مصدرا أجنبيا (يونانيا ورومانيا وافرنجيا وفرنسيا ونمساويا) . كما يذكر أكثر من سبعة وعشرين مصدرا اسلاميا فمن مصادره الأجنبية سترابون وابيانوس وسالوست ومانيرت ومرتوس وافزاق . ومن مصادره الاسلامية أبو الفداء والعبدري وابن فرحون وابن مسكين وابن الرقيق وابن أبي دينار وابن العنتري وابن قنفذ والبكري . (15)

أما خطة الكتاب فيمكن تلخيصها كما يلي : فى المدخل الذي يبلغ 50 ورقة يتعرض المؤلف الى تاريخ لفظة « قسنطينة » عند اليونان واللاتين

---

13 ـ انظر ورقة 2 .

14 ـ انظر ورقة 3 . ونلاحظ أن عنوان الكتاب مكتوب فى الاصل باللون الازرق .

15 ـ نلاحظ ان هناك سوء تهجية لكتابة الاسماء فى المصادر سواء كانت اجنبية او عربية . مثلا ابن قنفذ يكتبه ابن قنفود ، والواقدي يكتبه الوقادي .

والعبرانيين والعرب ، ويذكر جغرافية الاقليم الطبيعية والبشرية ، وصناعة لسكان ونحو ذلك الى دخول الفرنسيين ، وابتداء من ورقة 51 يدخل فى مراحل تاريخية يمكننا ترتيبها على النحو التالي :

1 ــ نبذة من تاريخ قسنطينة قبل الفتح الاسلامي	51 ــ 88
2 ــ دخول الاسلام الى افريقية والمغرب	88 ــ 126
3 ــ قسنطينة فى العهود الاسلامية	126 ــ 198
4 ــ الجزائر تحت العثمانيين	198 ــ 239
5 ــ قسنطينة تحت العثمانيين	239 ــ 243
6 ــ سيرة بايات قسنطينة	243 ــ 322
7 ــ قسنطينة تحت الفرنسيين	322 ــ 355 (16)

وينتهي الكتاب بورقة 355 بالعبارة التالية « ومن لم يعلم ذلك يسئل العارفين . وقد تم وكمل وانتهى . » وفى الورقتين الاخيرتين ، 356 ــ 357 ، يذكر المؤلف ملحقا عن اتفاق الحاج أحمد مع علماء وأعيان قسنطينة على محاربة الفرنسيين عنوانه « ذكر المكتوب المسطر فيه توافق الحاج أحمد باي مع أرباب دولته العلماء وغيرهم وكبار البلد على ما تراضوا عليه ووضعوا فيه خواتمهم المذكورة وهو هذا .. » ولكن الورقة (أو الأوراق) الأخيرة من النسخة التي لدي مفقودة . لذلك لم نعثر على « خواتمهم المذكورة » كما جاء فى النص . غير أن أسماء المعنيين موجودة فى النص . (17) وآخر عبارة فى نص الملحق هي « والقصد من ذلك ادخال السرور على المسلمين ، والجريان على سنن سبيل المهتدين ، وعمارة الناس ، واذهاب الالباس ... »

16 ــ تجدر الاشارة الى أن هذه الخطة على النحو المذكور هي من وضعي الخاص . أما المؤلف فقد استعمل عناوين مكتوبة بالحبر الازرق أو الاحمر للفترة التي يؤرخ لها ، دون تبويب بالمعنى الحديث .

17 ــ منهم أحمد العباسي القاضي المالكي ، والسيد مصطفى القاضي الحنفي ، والسيد عمار المفتي المالكي ، والسيد مصطفى المفتي الحنفي ، ومحمد العربي ناظر الاوقاف ، ومحمد بن الحاج شيخ العرب ، الخ .

وكتاب « علاج السفينة » ليس مجرد سرد للأحداث والبايات . فهو ، بالرغم من رداءة أسلوبه ، يحتوي على ملاحظات ومعلومات تاريخية هامة . وكثيرا ما يذكر المؤلف الوقائع ويعلق عليها . ويبدو أن له اطلاعا واسعا بأحوال العصر ، وله معرفة باللغات الحديثة والقديمة . (18) وبخصوص قسنطينة بالذات يجد المؤرخ فى هذا الكتاب عرضا للحالة الاقتصادية ، وتفاصيل عن الحرف المحلية ، ووصفا لأعمال البايات الهامة ، وأدوار بعض العلماء والقضاة فى المجتمع والسياسة . كما أن الكتاب ليس اقليميا بالمعنى التقليدي ، بل يؤرخ فى الواقع لجميع الأحداث البارزة التي مرت بالجزائر .

وما دمنا لا نملك الآن سوى نسخة واحدة من هذا الكتاب الضخم فاننا نكتفي بلفت أنظار الباحثين اليه . وعسى أن يعثر المهتمون على نسخة أخرى فى مكتبة المدرسة القديمة (19) أو لدى بعض العائلات أو الشخصيات القسنطينية فيتيحون لنا فرصة المقارنة واصدار أحكام أكثر موضوعية . كما أن مقارنة « علاج السفينة » بكتاب ابن العنتري عن تاريخ بايات قسنطينة يساعد على اصدار حكم نهائي حول العلاقة بين الكتابين وبين المؤلفين أيضا . (20)

الجزائر 1970/7/27

18 ـ قال عنه ميرسي انه كان « أصيل الشخصية .. متفتح الروح ، لكنه كان قليل الخبرة .. وكان يعتقد انه أستاذ فى كل شيء . » وقال عن أعماله ، دون أن يذكر كتابه «علاج السفينة » ، انها « جميعا ليست بذات قيمة كبيرة . »

19 ـ نرجح أن يكون لهذا الكتاب أكثر من نسخة لان النسخة التي لدينا قد لا تكون هي الأصلية .

20 ـ لاشك أن المهنة كانت تجمع بين الرجاين المتعاصرين فكلاهما كان موظفا رسميا وكلاهما اهتم وكتب عن تاريخ قسنطينة .

ملاحظة : بعد تسليم هذا المقال الى المطبعة ، استطعت أن أقارن بين « علاج السفينة » وتاريخ ابن العنتري ، وقد وجدت أن الاول فعلا يحتوي على الثاني ، وأن وجه ورقة 240 من « علاج السفينة » هو بداية تاريخ ابن العنتري ، وان هذه البداية توافق الصفحة رقم 8 من كتاب ابن العنتري المطبوع . ولما كانت نهاية « علاج السفينة » مفقودة الآن فاننا لا نستطيع أن نحكم هنا على اتفاق الكتابين أو اختلافهما . ولكن الملاحظ هو أن آخر عبارة فى « علاج السفينة » مدرجة أيضا فى كتاب ابن العنتري . ويجب التنبيه الى أن هناك اختلافات بسيطة بين نص ابن العنتري المطبوع ونصه المدرج فى كتاب « علاج السفينة » .

السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1)

خلال رحلتي الى اسطانبول فى الصيف الماضي كنت أسائل أصحاب المكتبات عن الكتب التي لديهم عن الجزائر ، وكان ما أدهشني حقا هو خلو هذه المكتبات تقريبا مما أطلب ، سواء كان قديما أو حديثا ، تركيا أو أجنبيا . غير أن ما كان يخفف أسفي أن بعضهم كان يضع أمامي رسالة صغيرة بالتركية (2) فأأخذها بقوة وأتصفحها بدقة فيبدو لي عملا طيبا جديرا بالمطالعة ، ولكن عدم معرفتي بالتركية كان يحول بيني وبين الوصول الى الاستفادة الكاملة منها . وقد اكتفيت عندئذ بكتابة عنوانها ضمن أوراقي فى انتظار أن تحين الفرصة للوصول الى محتواها . وكم كانت فرحتي كبيرة عندما حمل الي بريد تونس هذه الأيام نفس الكتاب مترجما الى العربية بقلم صديقي الأستاذ عبد الجليل التميمي .

وقد بين المترجم هدفه من نقل الرسالة الى العربية فقال « يحدوني الى ترجمة هاته الأطروحة ... شعوري العميق بأنها عمل علمي نزيه ، اذ اتخذ مؤلفها الارشيف التركي مصدرا أساسيا للبحث .. ان من كتب عنا من قبل المؤرخين الغربيين ، قد اتخذ من أرشيف بلاده مصدرا للبحث ، وأهمل بقية دور الوثائق خاصة التركي والتونسي والجزائري والليبي ، عن قصد أو غير قصد ، فوقع بعضهم بذلك فى أخطاء كثيرة وخطيرة . » (ص 13) . والأستاذ التميمي خير مؤهل لأن يقوم بهذه المهمة فقد عرف

---

1 – تأليف ارجمنت كوران ، ترجمة عبد الجليل التميمي . منشورات الجامعة التونسية 1970 – 125 ص .

2 – منشورات كلية الآداب ، جامعة اسطانبول 1957 .

بأبحاثه عن أصول التاريخ العثماني فى المغرب العربي ، وهو الآن يعد بحثا عن الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة ، وكان قد أجرى أبحاثا فى أرشيفات اسطانبول وباريس ولندن ، وزار الجزائر فى العام الماضي واشتغل فى أرشيفاتها ، وعثر خلال ذلك ، كما يقول ، على وثائق هامة . وأن التعليقات التي أضافها الى الترجمة تبرهن على تمكنه وسيطرته على مواد الكتاب . بل أن القاريء للترجمة يشعر أن شخصية المترجم تكاد تطغى على شخصية المؤلف الأصلي .

ورغم أن المترجم لم يقدم لنا حياة المؤلف فانه يبدو أن الأخير موجود الآن فى جامعة تورانتو (كندا) ، وانه متخرج من كلية آداب جامعة اسطانبول ، وانه كان قد نشر عدة أبحاث عن المسألة الجزائرية وعلاقة كل من فرنسا والدولة العثمانية بها . ونعلم من الرسالة انه قد حصل بها على الدكتوراه فى التاريخ من جامعة اسطانبول سنة 1953 . وكان يحدوه الى تأليفها عدة عوامل منها موقف الباب العالي من قضية الجزائر خلال سنوات 1827 — 1847 ومن ثمة أهمية هذه القضية بالنسبة الى التاريخ التركي ، واغتصاب فرنسا بالذات للجزائر (رغم علاقة فرنسا الودية تاريخيا مع الدولة العثمانية) . وكون اغتصاب الجزائر يشكل مرحلة هامة فى تاريخ الاستعمار الحديث ، وأخيرا انحياز المؤلفين الذين درسوا هذه المشكلة وعدم استعمالهم للارشيف التركي .

والرسالة عبارة عن تتبع دقيق لموقف الدولة العثمانية من قضية الجزائر منذ ابتداء الأزمة سنة 1827 الى 1847 التي تمثل نهاية مقاومة الأمير عبد القادر واستسلام الحاج أحمد باي (1848) واعتراف الدولة العثمانية بالأمر الواقع ، أي بسيادة فرنسا على الجزائر . وهكذا يبدأ العمل بمدخل عن العلاقة التاريخية بين الجزائر والدولة العثمانية منذ خير الدين بربروس الى حسين باشا ، ثم ينتقل الى « السياسة العثمانية تجاه احتلال الجزائر » دارسا بالتفصيل موقف الدولة العثمانية من ابتداء

الأزمة . ومحاولتها وقف الحملة الفرنسية . واسترداد الجزائر بعد استيلاء فرنسا عليها . واستعانتها بأنكلترا لذلك . وتأكيد سيادتها على الجزائر رغم احتلال فرنسا لها . وجهودها لدى الدول الأروبية لاسترداد الجزائر ، وتصرفها فى طرابلس وتونس لنفس الغرض . وعلاقتها بالحاج أحمد سواء قبل احتلال قسنطينة أو بعده . وموقفها من الأمير عبد القادر . ثم انتهت الرسالة باعتراف الباب العالي بسيادة فرنسا على الجزائر وتقييم لسياسة الدولة العثمانية نحو قضية الجزائر . وللرسالة ، كما هو متوقع . هوامش ومصادر وفهارس طيبة . وكانت فى الأصل تحتوي أيضا على خريطة ولكن المترجم رأى عدم ايرادها .

وتكشف الرسالة عن مواقف تاريخية ما تزال غامضة حتى عندالمختصين من ذلك معارضة الباب العالي لظهور شخصية عربية فى الجزائر كالامير عبد القادر (ص 103) . وعرقلة التفاهم بين الامير وبين فرنسا لأنه مناف لمصلحة الدولة العثمانية . (ص 100) . ومن المفهوم أن الدولة العثمانية كانت تميل الى الحاج أحمد الذي كان يعلن فى صراحة انه يحكم ويقاوم باسم السلطان . وهناك شخصيات لعبت أدوارا أثناء الفترة الاولى للاحتلال تلقي الرسالة عليها أضواء : أمثال حمدان بن عثمان خوجة ، وطاهر باشا ، وحسونة دغيس الطرابلسي ، وابراهيم بن مصطفى باشا . ورغم أن الدراسة تحاول أن تثبت جهود الباب العالي للاحتفاظ بالجزائر منذ بداية الازمة بين هذه وفرنسا ، فانه من الواضح أن ضعف الدولة العثمانية جعلها لا تستطيع أن تحقق أهدافها ، فحروب محمد علي ، وخضوعها للدول الاروبية الكبرى ، وضعف ساستها ، وتفككها الداخلي كل ذلك جعل موقفها من قضية الجزائر موقف المتردد الخائف . ولعل ما اصطلح عليه كتاب التاريخ الحديث من وصف الدولة العثمانية « بالرجل المريض » يصدق أحسن ما يصدق على موقفها من قضية الجزائر .

ومع ذلك فان وضع هذه الرسالة بالعربية بين أيدي الباحثين سيساعد بلا شك على توضيح موقف الطرف الثالث (الدولة العثمانية) أثنا احتلال الجزائر . وهو موقف لابد من الرجوع اليه للوصول الى حكم موضوعي لحادثة 1830 . (1)

1 ـ نشر فى مجلة كلية الاداب (الجزائر) ، عدد 2 ، سنة 1970 .

كتاب جغرافية الجزائر

خلال صيف 1966 اجتمعت بالاستاذ حليمي عبد القادر (*) فأراني مخطوطة كتابه « جغرافية الجزائر » ثم سألني رأيي في نشر الكتاب وامكانيات النشر . وبعد استعراض الكتب الخاصة بجغرافية الجزائر بالعربية قلت له رأيي أن تسارع بتقديم الكتاب الى المطبعة . ولكن بقي السؤال الآخر (امكانيات النشر) بدون جواب حاسم . فقد تذاكرنا في وسائل الطباعة في الجزائر وفي المشرق وانتهينا الى صعوبة المشروع ماديا على الاقل . ولكن بعد أقل من سنتين صدر كتاب « جغرافية الجزائر» (1) بطريقة عصامية . فقد بذل كل من مؤلفه الاستاذ حليمي عبد القادر وناشره جهودا كبيرة في اخراجه ماديا وفنيا. « وكتاب جغرافية الجزائر » عمل ضخم وجاد اعتمد فيه المؤلف على مذكراته كأستاذ كما اعتمد فيه على دراساته الاكاديمية واطلاعاته الشخصية والمؤلف ليس من هواة الجغرافية فقط بل من الذين اتخذوها مهنة . وهو يصر على أن القرن التاسع عشر كان نقطة تحول في تطور هذا العلم . فقد أصبح منذئذ « يقتصر على دراسة سطح الارض وما عليه من مظاهر بشرية مع العناية بتفاعل الكائن الحي مع البيئة ومدى تأثير كل واحد منهما في الآخر» كما «أصبح ... يقوم على السببية والعمومية ثم التوزيع» (ص3).

---

* نشرت في (المجاهد الثقافي) عدد 7 ، سنة 1968 .

1 – نشر مكتبة الشركة الجزائرية – مرازقة بوداود وشركاؤهما ، 1967 ، 366 صفحة .

وقد شكا المؤلف من قلة المراجع بالعربية عن جغرافية الجزائر ، كما تشكا من معرفة الجزائريين « عن البلاد الفرنسية أكثر مما يعرفون عن بلادهم » ويرجع ذلك فى نظره الى السياسة الاستعمارية التي استهدفت القضاء على الشخصية الوطنية . كما يرجع الى اهمال الجغرافيين العرب الذين « لا يتعرضون الا نادرا الى اقليم الجزائر » (ص 4) وكان هذا دافعا كافيا للأستاذ عبد القادر على أن يقوم بعمله تعريفا بجغرافية الجزائر وخدمة لأولائك الذين يرغبون فى دراسة جغرافية بلادهم ولكنهم لم يجدوها بلغتهم الوطنية .

قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أبواب : فتناول فى أولها المظاهر الطبيعية من جيولوجيا ومناخ ونباتات ونحوها ، ودرس الباب الثاني المظاهر البشرية كأنماط السكان وتوزيعهم ومشاكلهم الديموغرافية ، وقضية الهجرة الاروبية ، وغيرها . أما الباب الثالث (والاطول) فقد بحث الاقتصاد كالثروات النباتية ، والحيوانية ، والمعدنية ، والمواصلات ، والطاقات ، والتصنيع ، والتجارة .

ويحتوي الكتاب أيضا على 19 خريطة، وعلى ورق جيد وحرف واضح ولكنه لم يسلم من بعض الاخطاء المطبعية (كعادة المطبوعات الجزائرية اليوم) رغم وضع قائمة تصويب الخطأ فى نهاية الكتاب .

ومهما كان رأي الباحثين المختصين فى قيمة كتاب « جغرافية الجزائر » فالذي لا شك فيه هو ان الاستاذ حليمي عبد القادر قد ضرب بعمله مثلا لا فى الانتاج الفكري فقط بل فى التضحية المادية من أجله أيضا . وهو لذلك يستحق تقدير الباحثين والمواطنين (2) .

(2) منذئذ ظهر للاستاذ حليمي عبد القادر عدة تآليف أخرى أهمها (مدينة الجزائر ، نشأتها وتطورها قبل 1830) ، الجزائر ، 1972 .

عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وافريقيا السوداء *

ظهرت الطبعة الاولى من « عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وافريقيا السوداء » منذ عقد ، حين كانت الدراسات الافريقية ما تزال فى بدايتها . وكانت هذه الطبعة الاولى هي نفسها نسخة منقحة لكتاب المؤلف المسمى ، « قوافل الصحراء القديمة »الذي ظهر سنة 1933والذي جاء نتيجة لأبحاث قام بها المؤلف فى غرب افريقيا عندما كان ما يزال جنديا بريطانيا ملحقا بما هو الآن نيجيريا . وقد شعر بوفيل ان « القوافل » قد فاتته مادة غزيرة وانه احتوى على أشياء ما كان يحسن به أن يحتوي عليها لذلك قرر طبعه سنة 1958 تحت عنوان « عصر التجـارة الذهبي بين المغرب العربي وافريقيا السوداء » فى الوقت الذي ظهرت فيه موجـة التحرير الافريقي وبدأت اهتمامات كثير من العلماء والمعاهد بالدراسات الافريقية .

والواقع أن موضوع « القوافل » الذي أكده المؤلف فى الطبعـة الأولى من « العصر الذهبي » هو بيان أن الطرق العابرة للصحراء قد نسجت ووطدت علاقة الدم والثقافة بين شعـوب شمـال وجنـوب الصحراء » . وقد ركز فيه على تأثير شعب المغرب العربي على بقية القارة الأفريقية ، وخاصة المنطقة الواقعة تحت الحزام السوداني الممتد من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر . وكان هدف بوفيل أن يكشف

---

* تأليف أ. و. بوفيل. وقد نشرت هذه الكلمة فى (المجاهد الثقافي) عدد 8، يونيو، 1969.

كيف لعبت الصحراء دورا تاريخيا هاما ، فأغنت القرطاجنيين ، وحيرت الرومانيين ، ثم أصبحت معبرا رئيسيا للقوافل رابطة مدن الشمال المتمدنة بأسواق ومراكز الجنوب الكثيرة .

أما الطبعة الجديدة من « العصر الذهبي » فقد نقحت وزيد عليها بفضل جهود الأستاذ روبين هالليت الذي أضاف فصولا هامة للكتاب كما كتب له مدخلا . ومن المعلومات التي زادها هالليت مواد جديدة عما قبل التاريخ فى الصحراء ، ورحلة هانو ، وعن الطوارق والتاريخ القديم لشعوب منطقة السودان . وعن ظهور الحكم الروماني فى افريقية الشمالية ، وغير ذلك من المواد الحيوية التي ما زال البحث العلمي يلقي عليها أضواء جديدة بين الحين والآخر .

ورغم أن بوفيل لم يكن مؤرخا بالمهنة فقد قام بعمل هام جعله ، كما يقول هالليت ، من أكبر الباحثين الهواة على الطريقة التقليدية الشريفة . فقد زار المغرب العربي عدة مرات ، وكان جنديا باحثا فى غرب أفريقية ، ثم شغل منصب مدير شركة أعمال فى لندن ، ولكنه لم ينفك عن البحث التاريخي الذي كان يخصص له كل أوقات فراغه . ومما يلفت النظر اهتمام بوفيل بالتطور التاريخي للمغرب العربي من ناحية وعلاقة هذه المنطقة بأفريقية من ناحية أخرى ، مما جعله غير مقتنع ببعض النتائج التي توصل اليها بعض من سبقه من الباحثين فى هذا الميدان .

ويتابع بوفيل تاريخ المغرب العربي من وجهة نظر اقتصادية ــ ثقافية من عصر الرومان الى عصر الاستعمار الحديث ، وهو يجد لذة فى تتبع آثار الأمازيغ عبر الصحراء وحول السواحل الافريقية مستكشفين وتجارا ومبشرين ومحاربين . فيتحدث عن شعوب الصحراء من طوارق وسودانيين وعربان ، وعن ممالك العصور الوسطى التي قامت شمال وجنوب الصحراء ، وعن العلاقات التجارية التي قامت وازدهرت بين

الشمال والجنوب ، وعن رجال لعبوا أدوارا هامة فى تاريخ المنطقة سواء فى تكييف الأحداث أو فى تسجيل هذه لأحداث ـــ أمثال مانزا موسى ومولاى أحمد المنصور ، وعسقية محمد وابن بطوطة ، والذهبي ، وليو الأفريقي . كما يعيد الى الأذهان حياة وأدوار المدن التي تميزت بطابع خاص أمثال غانا ، وغينيا ، وونغارا ، وتغازا ، وسقوطو ، وتمبكتو ، ومن الجانب الثقافى يركز بوفيل على دور الاسلام واللغة العربية فى نشر الحضارة بين ربوع السودان القديم .

ويشعر كل باحث فى تاريخ شمال أفريقية أن بوفيل قد قام بعمل تاريخي قيم وانه قد قدم للدراسات الافريقية المعاصرة مساعدة كبيرة ، وأن الأستاذ هالليت يستحق تقديرا خاصا على الاضافات التي أغنى بها الكتاب فى طبعته الجديدة . وأن عملا من هذا النوع جدير بالترجمة الى العربية (1) حتى يستفيد منه من كتب عنهم الى جانب من كتب لهم .

(1) ترجم هذا الكتاب الى العربية ، وقد علمنا بذلك بعد نشرنا هذه الكلمة عنه .

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا *
1492 – 1792

مؤلف هذا الكتاب غير دخيل على التاريخ ، فقد عرف بأبحاثه التي تناولت حياة المغرب العربي والجزائر بالذات ، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، غير أن المرء يحس بأن أحمد توفيق المدني قد التزم بمبادىء (كليو) فى هذا الكتاب أكثر منه فى كتبه السابقة . ولعل ذلك يعود الى السن والى طبيعة الموضوع ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن المدني يجد نفسه هنا متمرسا ، مطلعا ناضجا فى (ملحمة) تاريخية دامت ثلاثة قرون بين منطقتين يفصلهما أكثر من حاجز ومع ذلك يربطهما أكثر من تاريخ . وهنا يجد المدني ضالته فيكتب التاريخ لا على أنه شيء بارد بعيد ماض ولكن على أنه قطعة من وجوده تنتفض بالحرارة والآنية .

وقبل أن يكون « حرب الثلاثمائة سنة » كتابا فى التاريخ فهو عمل تقدمت به صناعة التاريخ الجزائرى أشواطا ، فالمؤلف يعرف التاريخ بأنه « عرض وتحليل ، وتعليل وحكم » ويعرف المؤرخ الحق بأنه «حاكم نزيه حر الضمير ، يدرس الوثائق والمستندات ، ويستخرج الحقائق من بين النصوص ، ويستمع بامعان الى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء .. فاذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعا ، أصدر حكمه عادلا ، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة » بتعبير آخر ان المؤلف يلح ، نظريا على الأقل ، على الموضوعية التي هي طريقة المؤرخ الكفء فى رحلته عبر

---

* بقلم احمد توفيق المدني ، ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1968 ، بيبلوغرافية خرائط ، 533 ص + ج .

النصوص والوثائق والبيئة والملابسات الشخصية والسياسية والاجتماعية لموضوعه . بل يتوسع المدني فيرى « العالم وحدة » ويرى ضرورة دراسة العصر كله لفهم الحادث الصغير الذي يتناوله المؤرخ .

من عنوان الكتاب ندرك أن موضوعه عسكرى ـ دبلوماسي ـ سياسي ، ومع ذلك فان المدني يلخص الأسباب التي دفعته لكتابة مؤلفه فى ثلاثة : ان الفترة التي يغطيها شهدت « ميلاد الدولة الجزائرية الحقيقية ، لأول مرة فى تاريخنا » ، ولأن هذه الدولة جاءت « نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء » ، ثم لتصحيح الفكرة الخاصة «بتدخل الأتراك فى هذه المعركة الحاسمة » .

وفى هذا الصدد يؤكد « انني لست متعصبا للأتراك ، ولا أنا متعصب ضدهم حسبما جرت به تقاليد الكتاب العرب فى العصر الحديث » كما يؤكد « انني لست متحاملا على الأسبان » ولكن هناك فرق بين التخطيط والتطبيق ، ورغم أن المؤلف يبدي شجاعة فائقة فى العمل بهذا الرأى فانه يبدو أنه لم يستطع أن يتخلص من شيء كان قد نما معه ، وهو روحه الثائرة ، وأسلوبه السياسي ـ الصحفي وأحكامه الواثقة من نفسها . « فالتاريخ لهذه المعمعة (الصراع بين الجزائر وأسبانيا) القاسية الطويلة بأكثر ما يمكن من الصراحة ومن التفصيل ، انما هو واجب مفروض » (صص 7ـ8) .

وان نظرة الى محتوى « حرب الثلاثمائة » ستعطي فكرة كافية عن اهتمامات المؤلف ، فبعد تمهيد طويل عن الثلاثة قرون التي سبقت صلة الجزائر بالعثمانيين يقسم بقية الكتاب الى 19 فصلا تتناول أسباب وصبغة العدوان الأسباني ، وحالة هذا العدوان قبل ظهور العثمانيين ثم بعد ظهورهم ، ورد الفعل للعدوان ، وشخصية خير الدين ، وعلاقة لأسبان بدولة بني زيان ، وحملة شارل الخامس (شارلكان) ضد

الجزائر ، ودور حسن بن خير الدين وشخصية صالح رايس ، وجهاد قلش علي ، وموقف الشعر الجزائري والنظام الأسباني فى وهران ، وانقاذ وهران من الأسبان ، ثم عودة الأسبان ثانية وانتصار الجزائر الكبير ، وتحت كل فصل عناوين فرعية نظمت بطريقة مدرسية تساعد القارىء المتسرع على العثور على ما يريد .

ولكن ضخامة العمل والاخلاص فى البحث لا يكفيان لكتابة التاريخ، اذ لا بد للمؤرخ من وسائل تساعده وتضىء له الطريق ، وهناك مراجع تخص الفترة التي تناولها الكتاب غير مذكورة ضمن مراجعه مثل « غزوات عروج وخير الدين » و « الزهرة النيرة » و « رحلة محمد الكبير » و « التحفة المرضية » . ونلاحظ كذلك أن ذكر المراجع لم يكن منظما بطريقة مفيدة . فقد جرت العادة أن تذكر المخطوطات مصحوبة باسم المكتبة أو المكان الذي توجد فيه وتاريخها ونحو ذلك مما يساعد الباحثين الآخرين ، ولكن المؤلف لم يتبع ذلك . ففي ذكر « تاريخ باشوات وعلماء الجزائر » لحسين بن المفتي يكتفي بالقول بأن مسيو دلفان قد ترجمه للفرنسية ونشره بالمجلة الآسيوية ، دون ذكر رقم ولا تاريخ ولا مكان المخطوطة ، ودون الاشارة الى تاريخ وعدد وصفحة المجلة الآسيوية ، ورغم أن المراجع الفرنسية أكثر عددا من المراجع العربية فانها أيضا تفتقر الى التنظيم . ولعل أهمية الكتاب تجعل استعمال الهوامش شيئا ضروريا . فهناك نقول وآراء للغير ، ومناقشات ، وكلها تحتم الاشارة الى المصادر التي أخذت عنها ، ولكن المؤلف قد استغنى تقريبا عن استعمال الهوامش .

ولكن « حرب الثلاثمائة » سيظل عمدة فى ميدانه الى وقت غير قصير ، فقد استعمل فيه المؤلف وثائق هامة ، وبوبه تبويبا سهلا ، ووحد فيه بين روح مؤرخ يبحث عن الحقيقة وروح سياسي وطني واثق من أنه وجد الحقيقة . فجاء الكتاب قطعة عمل هامة يجد فيها الباحث

المتخصص آراء مضيئة ويجد فيها الطالب والمثقف العادي مادة تستثير الذهن وتلهب العاطفة وترسم الاتجاه (1) •

1 ــ هذه الكلمة منشورة فى (المجاهد الثقافى) عدد 8 ، جوان 1969 .

حول مذكرات الحاج احمد ، باي قسنطينة

خلال سنة 1968 عثرت فى الارشيف الوطني الفرنسي على النسخة الفرنسية الخطية « لمذكرات » الحاج أحمد ، باي قسنطينة . ففرحت أشد الفرح وتفاءلت أحر التفاؤل . ومما زاد فى فرحي وتفاؤلي اني وجدت فيها عبارة « مترجمة عن العربية » وقلت فى نفسي لو أواصل البحث لعلني أجد النص العربي الاصلي لهذه المذكرات ، فتابعت بحثي فى المظان المختلفة ولكن بلا طائل . وكنت أعرف أن الأستاذ مارسيل ايمريت كان قد نشر هذه المذكرات بالفرنسية منذ 1949 ، فعدت الى ما نشره وقرأت مقدمته فوجدته يرجح أن المذكرات لم تكتب بالعربية أصلا ، وانما أملاها صاحبها املاء بالعربية على المترجم الفرنسي الذي كان يرافقه ويراقبه . ولكني لم أيأس . فتجولت فى قسنطينة وسألت عنها فى مدينة الجزائر ، ورغم اني لم أعثر لها على أثر حتى الآن ، فما زلت أظن أن أصلها العربي موجود فى مكان ما ، قد يكون صعب المنال ، غريب الدار ، ولكنه يغلب على الظن انه موجود على أية حال . وقلت فى نفسي أيضا هل من الحكمة انتظار العثور على المذكرات الأصلية بينما القراء العرب محرومون من الاستفادة منها بلغة عربية . ثم وسعت السؤال حتى تجاوز هذه المذكرات الى جميع الآثار المماثلة ، وهي تلك التي كتبها أو أملاها أصحابها بالعربية، وضاعت أو فقدت أوزج بها فى غياهب الكتمان .

وقد اهتممنا منذ الاستقلال بشخصيات تاريخية كالأمير عبد القادر وابن باديس والمقراني والحداد ، وظلت شخصية الحاج أحمد تكاد تكون

مجهولة ، رغم ما قام به من نضال ، وما شاده من نظام ، ورغم مواقفه فى سبيل الاسلام والخلافة . لماذا هذا الاهمال ؟ هل لأن الحاج أحمد كان كرغليا ؟ أو هل لأنه حارب الفرنسيين باسم الخلافة الاسلامية لا باسم الشعب الجزائري أي باسم الدين لا الوطنية ؟ أو هل لأنه رفض التحالف مع الأمير عبد القادر ؟ الجواب على هذه الاسئلة يحتاج الى مجلد .

ومهما يكن الأمر فان الحاج أحمد قد اعترف له أعداؤه ومعاصروه بالحنكة السياسية ، والمواقف البطولية ، وغيرته الدينية ، وكرهه الشديد للأجانب، وبنجاحه فى كسب قلوب رعاياه، ومهارته فى تنظيم الجند ووضع الخطط العسكرية . وهذه جميعا خصال تميز الحاكم القدير . فمنذ أن تولى اقليم قسنطينة فى عهد الداي حسين عمل على تنظيمه واستتباب الأمن فيه . وقد تحالف لتحقيق ذلك مع العائلات الكبيرة فى المدينة نفسها وربط علاقات مع أصهاره فى الزيبان وأوراس ، وجعل مجلس الشورى من أعيان الاقليم وحكم البلاد بالشدة تارة واللين تارة أخرى ، ولذلك لم تؤثر فيه الهزات التي أعقبت احتلال الجزائر .

وبعد أن تغلب عليه الفرنسيون سنة 1837 ، ظل يقاوم الى سنة 1848 . ورغم نهاية أنصاره كابن عيسى وابن الحملاوي ، ووقوع الخلل فى صفوف أصهاره وأتباعه . فانه قد دوخ الفرنسيين فى عدة مناسبات ، محاربا فى عدة جبهات : باي تونس الذي كان يطمع فى خلافته ، وفرحات بن سعيد ثم ابن قانة ، والفرنسيين ، والأمير عبد القادر ، وكان يعتمد فى مقاومته الطويلة على صلاته العربية وعلى مهارته الشخصية وشجاعته النادرة . ولم يسعه ، وقد اصبح شيخا وحيدا ، ووضع الأمير عبد القادر السلاح ، واستحوذت فرنسا على مناطق الزاب وأبواب الصحراء ومداخل الأوراس ، الا أن وضع هو الآخر سلاحه ، مستسلما للأمر الواقع مشترطا الأمان والاذن له بالتوجه الى المشرق حيث يقضي بقية أيامه ، لكن الفرنسيين الذين وعدوه بذلك خانوا عهدهم كما فعلوا مع الأمير من

قبله ، فحملوه بدلا من ذلك الى عاصمته القديمة قسنطينة ومنها الى مدينة الجزائر حيث ظل سجينا تحت رقابة شديدة الى أن مات هناك قتيلا أو طبيعيا ، لا أحد يدري بالضبط ، سنة 1850 .

وخلال هذه الاقامة القصيرة فى السجن بالجزائر كتب أو أملى على ما يظهر ، هذه المذكرات . والمذكرات عبارة عن سرد للأحداث التي جرت بين الجزائريين والفرنسيين من 1830 الى 1848 . وهي تحتوي ، الى جانب ذلك ، على آراء الحاج أحمد فى سياسة الحكم ، وفى مفاوضاته مع الفرنسيين ، وفى علاقاته الداخلية مع زعماء المعارضة ، ومع اليهود ، وفى موقفه من باي تونس والسلطان العثماني . حقا انه يظهر فيها معتذرا لنفسه أمام الفرنسيين الذين كان أسيرا لديهم ، ولكنه اعتذار له مبرراته أمام تهجماتهم عليه ورميهم له بالمعاندة وبالجبروت .

وقيمة هذه المذكرات تظهر فى تعبيرها عن وجهة النظر المحلية أمام طغيان الوثائق الأجنبية على التاريخ الجزائري . ان لدينا آثارا هامة كان أصحابها قد كتبوها فى ظروف استثنائية (عدم الاستقرار ، المطاردة ، عدم توفر وسائل الطبع ، عدم اتقان لغة الأجنبي) هادفين من ورائها الى شرح موقف ، أو التنديد بأعمال ظالمة ، أو التعبير عن مطامح ومصالح وطنية ، فاكتفوا تحت ضغط الظروف بكتابتها بسرعة أو تهريبها أو املائها على أشخاص قد يكونون يمثلون السلطة المستعمرة نفسها وعندما حصل هؤلاء على هذه الآثار استأثروا بها فضاعت معهم ، أو عملت فيها أقلامهم وأهواؤهم فحرفوها عن أصلها وعن هدفها ، أو أبقوها فى طي الكتمان حتى أتى عليها النسيان . من هذه الآثار ، « المرآة » و « مذكرة » حمدان بن عثمان خوجة ، « ومذكرة » أحمد بوضربة ، و « رسائل » ابراهيم بن مصطفى باشا ، و « مذكرات » سي عزيز بن الشيخ الحداد ، والعديد من عرائض ومذكرات ورسائل الوطنيين .

وقد سبق لي أن وجهت أنظار زملائي وطلابي الى العناية بهذه الآثار الوطنية التي هي جزء من تراثنا الفكري وصورة لحياة أجدادنا وتفكيرهم ومواقفهم . ويكون ذلك باحدى طريقتين : اما البحث عن أصول هذه الآثار في لغتها العربية الأصلية ونشرها ، واما ، وهذا أضعف الايمان ، بترجمتها من اللغة الأجنبية واعادتها الى لغتها الأصلية مع التعليق على ما فيها من تحريف وتشويه مقصودين أو غير مقصودين . ولو تم هذا لتكونت لنا مكتبة تاريخية عربية يفيد منها الباحثون فائدة جليلة ، ولسقط هذا الستار بيننا وبين تراثنا الذي حجبته عنا ألسنة غريبة وظروف قاسية .

ومن حسن الحظ أنه استجاب لهذه الدعوة المخلصة الاستاذ العربي الزبيري وهو من التراجمة المجيدين الذين يملكون ناصية العربية والفرنسية معا ، والذين نعلق عليهم أملا كبيرا في نقل جزء كبير من تراثنا الى اللغة الوطنية . ولم يكتف بترجمة مذكرات الحاج أحمد بل ترجم « مذكرة » حمدان خوجة و « مذكرة » أحمد بوضربة الى اللجنة الافريقية (1833)، وشرع في ترجمة « المرآة » لخوجة أيضا . ولغة الاستاذ الزبيري ، وان لم تبلغ الحد الأدبي الرفيع ، فهي لغة صافية سهلة أمينة المعنى واضحة التعبير . وقد أضاف اليها بعض التآليف المفيدة التي تساعد القراء على فهم النص . وزاد من فهم وتعمق المترجم لموضوعه انه قد درس الفترة التي تتحدث عنها المذكرات وعاشها بقراءاته وتنقلاته . فهو يقف فوق أرض صلبة لموضوعه .

ولكن اعادة الآثار الوطنية الى لغتها الأصلية لا تكفي ، بل لابد من خطوة أخرى لا تقل فائدة ولا أهمية من الأولى ، وهي ترجمة الآثار الأجنبية العلمية الى اللغة الوطنية أيضا . ونذكر من هذه الآثار ، على سبيل المثال ، « تاريخ ملوك الجزائر » لهايدو الأسباني ، « ورحلة شو» الانكليزي ، «والجزائر في القرن 18» «لفانتوردي بارادي الفرنسي» و « وصف المدن والحصون الجزائرية » لبوتان الفرنسي ، و « خلاصة

تاريخ الجزائر » لشيلر الامريكي ، و « حياة الأمير عبد القادر » لتشرشل الانكليزي ، (1) « وحياة الأمير عبد القادر السياسية والعسكرية » لبليمار الفرنسي . وبهذا الصدد لا يسعنا الا أن نشكر الجهود التي يقوم بها زميلنا الدكتور أبو العيد دودو فى نقل بعض الآثار الالمانية عن الجزائر مثل بفايفر ومالتزان . ولنا أمل وطيد فى أن الأستاذ العربي الزبيري سيواصل هذه التجربة فيعمل على نقل أهم الآثار الفرنسية عن الجزائر الى اللغة الوطنية ، وبذلك يؤدي خدمة لا تقدر لوطنه ولغته وللتاريخ . وما ترجمته لمذكرات الحاج أحمد الا بداية فى هذا الطريق . (2)

1 ـ وقد وفقنا الى ترجمة هذا الكتاب ونشره عن الدار التونسية للنشر ، تونس 1974 .

2 ـ كتبت هذه الكلمة مقدمة للمذكرات المذكورة ، ولكن لم تنشر معها . وقد أضاف الاستاذ الزبيري الى مذكرات الحاج احمد مذكرة حمدان خوجة الى اللجنة الافريقية واخرى لبوضربة ونشر الجميع فى كتاب صدر عن الشركة الوطنية الجزائرية ، الجزائر 1973 .

عن رحلة محمد الكبير ، باي وهران

تحقيق مخطوط قديم عمل فني وهادف في نفس الوقت . فهو عمل فني لأنه يقوم على قواعد أساسية ويتطلب مهارة واخلاصا وتجردا . وقليل من الناس فقط في كل أمة وكل جيل يستطيعون القيام بهذه المهمة الشاقة الدقيقة . أما كونه عملا هادفا فلأن بعث المخطوط يخدم فكرة ، وبالتالي مصلحة وطنية وانسانية . ولعل هذه من الحالات النادرة التي يجمع فيها المرء بين اخلاصه لفنه واخلاصه لهدفه الانساني . وان ظاهرة العصر الذي نعيشه ، ظاهرة التحرر من الاستعمار ، تبرر الجمع بين هذين الاخلاصين .

والذين عرفوا الاستـاذ محمد بن عبد الكريم ، محقـق مخطوطة « رحلة الباي محمد الكبير » يدركون ما أعني . فهو يبدي كثيرا من الاهتمام بالمخطوطات ، ولا سيما تلك التي تتناول حياة الجزائر عبر القرون الاربعة الماضية ، وقد اطلعني على عدد من الاعمال التي قام بتحقيقها كما اطلعني على عدد من المشاريع التي يعتزم بعث الحياة فيها . وقد وجدت من خلال ذلك كله انسانا دؤوبا مخلصا لمهنته الثقافية . واذا كان العلماء قد لا يتفقون مع أسلوب تحقيقه فانهم لاشك سيجدون ما يقوم به من نشر الآثار عملا انسانيا هاما يخدم الفكرة الثقافية المشار اليها.

وان نظرة سريعة الى المؤلف وموضوعه تؤكد ذلك . فابن هطال شخصية هامة في تاريخ الجزائر ولكنها مغمورة . فهو كمستشار وكاتب

وديبلوماسي ومحارب قد عاش فترة خصبة من تطور هذه البلاد جديرة بالتسجيل والبعث . أليس ابن هطال نفسه هو الذي يعرف التاريخ بأنه « من أجل العلوم قدرا وأكملها محاسن وفخرا ... اذ به عرفت قدماء الامم ... » ؟ وقد سجل فى كتابه رحلة محمد الكبير باي وهران الى الجنوب « مقدرا » ، كما يقول : « بانسوائع مراحله ومبينا منازله ومناهله » واذا كانت شخصية ابن هطال هامة ثقافيا فان موضوعه هام من عدة جوانب . فان الرحلة تتضمن أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية لا يستغنى عنها أي دارس للجزائر خلال القرنين الماضيين وبالاضافة الى ذلك فان محمد الكبير ، الذي كان سببا فى تأليف الكتاب ، كان شخصية جديرة بتسليط الاضواء لأنه تقلب فى مناصب مختلفة وشهد تطورات كثيرة وساهم هو بقسط وفير فى خلق تلك المناصب وتوجيه تلك التطورات . فقد شغل منصب باي ، واشترك فى الحرب ضد الاسبان وقاد بنفسه حملة ضد الصحراء لاخضاع أهلها الى سلطة الداي ، كما عرف عنه انه قد شجع العلماء والادباء والطلبة وأقام المدارس والعمارة .

ولعلنا ندرك ، من ذلك كله ، أهمية هذا الكتاب وقيمة العمل الذي قام به الاستاذ محمد بن عبد الكريم . واننا نأمل أن يوفق فى أداء رسالته بنفض الغبار عن الآثار التي ظن البعض انها قد دفنت بينما هي فى الواقع ما تزال حية غنية لا تحتاج الا الى يد مخلصة وقلم شريف وقلب ملىء بحب الانسان .

---

1 ـ كتبت هذه الكلمة تصديرا لكتاب (رحلة محمد الكبير ، باي الغرب الجزائري) الذي ألفه أحمد بن هطال وحققه محمد بن عبد الكريم ، القاهرة ، 1969 .

عن كتاب (المغرب العربي : تاريخه وثقافته)

العناية بالتراث القومي هي احدى الخصائص البارزة لعهد ما بعد الاستقلال لدى شعوب العالم الثالث . فكل أمة استقلت حديثا جعلت همها محاولة اكتشاف نفسها من خلال تراثها الذي ساهمت فيه أجيالها الغابرة فى الحضارة الانسانية . وقد ساعد على هذا التيار من ناحية ان المستعمرين قد حاولوا جهدهم طمس ما أنتجته تلك الشعوب من آثار ومعالم ، ومن ناحية أخرى ان فى احياء التراث القومي تعميقا لأسس الوحدة بين عناصر الشعب المتساكنة ودفعا لقواه الانتاجية الحية .

ويقف أهل المغرب العربي من بين شعوب العالم الثالث التي ساهمت بغزارة فى التاريخ الانساني ، ولكن تطور الأحداث خلال القرنين الماضيين قد حال دون تعرف أبنائهم على حقيقة وقيمة تلك المساهمة . ورغم أن الجزائر ما زالت متأخرة فى العناية بالتراث القومي ، فان هناك بوادر طيبة تحملنا على الاعتقاد بأنها ، على الاقل ، تسير فى الاتجاه الصحيح . والبوادر ، ككل الافعال الرائدة ، قد تكون فجة ، أو حتى غير صحيحة ، ولكنها على أية حال علامة خصب وحيوية من الشعب الذي تصدر عنه ودليل جد وايمان من الفرد الذي يقوم بها .

والاستاذ رابح بونار قد أخذ البادرة وأقدم على عمل ضخم لا تقوم به عادة فى الشعوب المتقدمة سوى اللجان والمؤسسات . وكتابه « المغرب العربي : تاريخه وثقافته » سيصدر ، بناء على قوله ، فى عدة أجزاء

تتناول حياة هذه المنطقة من دخول الاسلام الى الوقت الحاضر . وهو يخص الجزائر في كتابه بالقسط الوفير ، كما يدرس التيارات السياسية والاقتصادية والثقافية التي جعلت من المغرب العربي ما هو عبر العصور ، بالاضافة الى تراجم للاشخاص الذين تفاعلوا أو قادوا تلك التيارات مع نصوص مختلفة من انتاجهم . وقد حمله على هذا التأليف رغبة الوفاء بحق التراث الثقافي الجزائري الذي أغفله مؤرخو الحضارة ، وبالتالي بقاؤه مجهولا .

والتأريخ للثقافة لا يخلو من المزالق . فمهما اجتهد المؤلف في توخي منهج معين ، فانه قد يجد نفسه ضحية عصر أو ظاهرة أو شخصية ، ولا سيما حين يتعلق ذلك بتاريخ ما زال غير مكتوب بطريقة علمية كتاريخ المغرب العربي . وقد غامر الاستاذ بونار فقسم الاربعة عشر قرنا الماضية الى فترات : النشوء الثقافي ، والنهضة الثقافية ، والازدهار الثقافي ، والنضج الثقافي ، ثم الانحطاط الثقافي . كما غامر باعتبار المثقف الجزائري هو كل من ولد أو عاش في الجزائر وأثر فيها سواء أقام بها أو خرج منها . ولا نشك في أن هذا التصميم ، بالاضافة الى أسلوب التأليف واختيار النصوص ووضع المراجع ، سيكون محل مناقشة بين المهتمين بموضوع التطور الثقافي للمغرب العربي .

ولكنهم مهما تناقشوا فانهم سيجدون في كتاب « المغرب العربي : تاريخه وثقافته » متعة قد لا تعادلها متعة أخرى . كما أن الجيل الطالع في الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة سيجد في هذا الكتاب قصة ماضيه الذي كان حلقة وصل بين الاندلس غربا وبغداد شرقا . وانه لا يسعنا

الا أن نتمنى للاستـــاذ رابـــح بونـــار كل التوفيق فى انهاء مشروعه الطموح • (1)

1 — كان المرحوم الاستاذ رابح بونار قد طلب مني أن أكتب له تصديرا لكتابه (المغرب العربي : تاريخه وثقافته) ، الجزائر ، 1968 . فكتبت اليه هذه الكلمة ، ودفعتها اليه ، ولكن الكتاب قد صدر بدونها . ولعل المرحوم بونار قد وجدها متحفظة من طريقة تأليفه فأهملها .

الدولة والمجتمع فى افريقية الشمالية *

بالرغم من الاساطير الشائعة فى أوروبا عن قراصنه افريقية الشمالية فان المغرب العربي قد دخل « عصور الظلام » منذ سقوط غرناطة عام 1492 • ويشهد تاريخ هذه المنطقة بأن شعبها كان يمكن أن يعيش فى سلام مثالي لو أنه ترك وحده ، وقد شارك المغـــرب العـــربي فى القرن العشرين بثلاثة أحداث عالمية : أولها أزمات المغرب (1905 — 1911) ، وثانيها نزول الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، وثالثها حرب استقلال الجزائر •

ونتيجة لذلك بقيت الدراسات المتعلقة بهذه المنطقة ضئيلة وسطحية مكونة فقط من بعض الفصول بل الحواشي لكتب مخصصة أساسا للاستعمار ، الاسلام ، افريقية ، انتاج النفط ، ونحو ذلك •

ولكن المغرب العربي قد قلب أخيرا صفحة ذلك الغموض الغريب ، فالبحث الحديث قد بدأ يلقي الضوء على الدور الذي قام به سكان هذه المنطقة فى كل من افريقية الغربية والوسطى خلال الخمسة قرون الماضية •

كما أن سياسة الجزائر العربية والافريقية قد أصبحت عاملا آخر فى الاهتمام المتزايد بشؤون المغرب العربي • ونتيجة لذلك أنشأت عدة مؤسسات أكاديمية برامج خاصة بالمغرب العربي ، كما ظهرت عنه بعض المجلات المتخصصة والمطبوعات العامة • وآخر هذه التطورات فى الاهتمام

* تحرير الدكتور ليون س • براون •

بالمغرب العربي ظهور كتاب « الدولة والمجتمع فى افريقية الشمـــالية المستقلة » الذي كان موضوع المؤتمر الثامن عشر لمعهد الشرق الاوسط ، الذي انعقد تحت اسم « افريقية الشمالية دولة ومجتمعا ، 1964 » . ذلك آن معظم الابحاث التي قدمت فى هذه الندوة قد حررت ونقحت وزيد عليها ثم ظهرت فى هذا الكتاب الذي هو أول جزء من سلسلة بنشرها المعهد المذكور على شرف رئيسه السابق جيمس ت . دوس .

وهدف هذا الكتاب هو سد الفراغ الذي تعانيه المكتبة ذات اللسان الانكليزي عن المغرب العربي ومحاولة فهم أوضاع ما بعد الاستقلال فى هذه المنطقة . ومحرر الكتاب نفسه يقول أن الغرض منه هو محاولة « طرح الاسئلة الصحيحة » و « وصف الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي وبحثه » من خلال تجربة جيل ما بعد الاستقلال فى المغرب العربي . ويبلغ عدد المؤلفين المساهمين فى هذا الكتاب ثلاثة عشر ، منهم المؤرخون وعلماء السياسة والاقتصاديون وعلماء الاجتمـــاع . ولكن أكثرهم من الامريكيين الذين اهتموا بشؤون المغـــرب العربـــي منـــذ الحرب العالمية الثانية ، يضاف اليهم فرنسيان ، وبريطاني ، وباكستاني . ومن بينهم خمسة على الاقل لهم صلة بجامعة هارفارد ، كما أن بعضهم قد نال سمعة واسعة من قبل فى الموضوع الذي تناوله .

ويغطي الكتاب موضوعات مختلفة يمكن تبويبها تحت أربعة عناوين : فمن الناحية السياسية يناقش العلاقات الخارجية ، والمنظمات الحزبية ، وموضوع الوحدة بين دول المغرب العربي . ومن الوجهة الثقافية يتناول مشكلة اللغة العربية أمام مزاحمة الفرنسية لها ، ورد فعل الاسلام لتحدي التجديد . ومن الزاوية الاجتماعية يتحدث عن مشاكل حياة المدينة ، وتطوير الريف ، وتأثيرات الاستعمـــار ، ووقع التطور الحديث . أما بخصوص الاقتصاد فيعالج التخطيط ، وانتاج النفط ، واتحادات العمال .

ولكي يعطى للكتاب طابع الوحدة الموضوعية طلب من المؤلفين أن يتناولوا دول المغرب العربي الاربع ، وأن يستعملوا طريقة الدراسة الداخلية من غير أن يضحوا « بمؤهلاتهم ومواهبهم ووجهات نظرهم الخاصة » .

ولكن من الممكن توجيه النقد الى « المجتمع والدولة » . أولا للقارىء أن يتساءل عن سبب حذف موريطانيا من اطار المغرب العربي . ثانيا أن القول بأن المغرب العربي « ما هو الا جزء منفصل من العالم العربي له مصالح منفصلة ، وآراء منفصلة » لا يخلو من مبالغة وتركيز على الخصوصية . ثالثا أن القارىء يتوقع أن يجد على الاقل فصلا عن الادب والفن فى هذا الكتاب . رابعا لعله من سوء الحظ أن لا يوجد مساهم واحد ضمن المؤلفين من المغرب العربي . خامسا ان نغمة الكتاب العامة تذكر الانسان بكتابات الفرنسيين العاطفين على قضايا المغرب العربي أمثال جوليان ، وبيرك .

ومع ذلك فان « الدولة والمجتمع » كتاب ضروري . فرغم أن معظم مصادره فرنسية فانها غنية ، منظمة ، وتعطي صورة واضحة عن جهود البحث العلمي . ومن جهة آخرى فان الكتاب يوضح ويحلل قدرات المغرب العربي على الصعيد الداخلي والخارجي . كما يناقش بتصور فائق دور النخبة التي تتولى الآن شؤون هذه المنطقة رغم كثرة المشاكل الداخلية وضغط الايديولوجيات العالمية . وهكذا يتضح بأن « الدولة والمجتمع » يسلط الضوء على المغرب العربي ، ويضطر قراء الانكليزية المهتمين بأحوال العالم الثالث أن يستعملوه كدليل هام . (1)

1 ــ كنت نشرت هذه الكلمة بالانكليزية فى (مجلة الدراسات الافريقية الحديثة) التي تصدر ببريطانيا (عدد 4 ، م 4 ، 1967) ثم ترجمتها الى العربية ونشرتها فى (المجاهد الثقافي) عدد 4 يناير 1968 .

فرنسا وبريطانيا واحتلال الجزائر : 1830 — 1848

كتبت هذه المراجعة للكتاب المذكور أدناه في شهر فيفري سنه 1963 كجزء من واجبات الاعداد للدكتوراه في مادة التاريخ الاروبي ، وقدمتها الى الدكتور ثيوفاني ج ستافرو ، أستاذ المادة بجامعة مينيسوتا . وقد رايت ترجمة النص من الانكليزية أملا في أن يؤدي ذلك الى افادة القراء في التعرف على فترة دقيقة مرت بها الجزائر خاصة ومنطقة البحر الأبيض المتوسط عامة .

* * *

كان السيد جيمس سوين يشغل منصب استاذ التاريخ الاروبي في معهد موليربيرغ عندما صدر كتابه (*) . والواقع ان كتابه هذا قائم على دراسة أخرى بعنوان « معارضة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، 1830 — 1834 » التي كانت عنوان اطروحته للدكتوراه ، وموضوع الكتاب هو الصراع بين فرنسا وبريطانيا بخصوص النفوذ على البحر الأبيض المتوسط اثناء الفترة المذكورة . وهكذا فان المؤلف لم يهتم بسياسة روسيا او تركيا او غيرهما من الدول الا اذا كان ذلك ضروريا .

* اسم الكتاب الكامل هو « الصراع من أجل السيطرة على البحر الابيض المتوسط قبل 1848 — دراسة في العلاقات الانغلو — فرنسية » بقلم جيمس ابلدان سوين J. Swain نشر شركة سترانفرد (أمريكا) 1933 .

وقد تنازعت فرنسا وبريطانيا حول المنطقة المذكورة ، ولاسيما مراكزها الهامة ، مثل جبل طارق ، وايطاليا ، وافريقية الشمالية ، وتركيا . وكانت هذه الاخيرة أكثر أهمية نظرا لسلطتها على مضايق الدردنيل . فبريطانيا كانت تريد بسط نفوذها على هذه المضايق لتأمين مستعمراتها فى الشرق الاقصى . ولكن فرنسا كانت لاترى البحر الابيض المتوسط بنفس النظرة التي تراه بها بريطانيا ، فهي (فرنسا) تراه ميدانا لمغامراتها فقط . وقد اعتادت بريطانيا ان تضرب فرنسا بروسيا والعكس . ذلك ان روسيا كانت تعتبر مضايق الدردنيل مناطق حيوية لها وكانت مستعدة للتضحية للحصول عليها . وبناء على رأي المؤلف فان الحملة الفرنسية ضد الجزائر التي ابتدأت بحصار 1827 قد سجلت بداية سياسة فرنسا الاندفاعية فى البحر الابيض التي لم تعرف منذ عهد نابوليون .

ان ثورة 1830 فى فرنسا قد جاءت بالملك لويس فليب الى الحكم . وكان هذا الملك لا يريدتغيير سياسة فرنسا الخارجية . كما كان يريد ان يحافظ على السلام مع بريطانيا . وكاشارة لذلكعين الملك فيليب تاليراند سفيرا له الى بريطانيا لكي يحاول تحقيق تحالف معها . ولكن سفارة تاليراند قد واجهت بعض الصعوبات ، ولاسيما حين انفجرت الثورات فى البلجيك وبولاندا . وكان ذلك فى نفس الوقت الذي كان فيه حكام روسيا ، وبروسيا ، والنمسا مشتغلين بقمع الاتجاه الليبرالي .

وبين سنوات 1830 و 1834 حاولت فرنسا وبريطانيا ان تحل مشاكلهما سلميا فى البحر الابيض المتوسط . ونظرا الى ان السلطان العثماني كان فى حرب مع محمد علي والي مصر ، فانه قد طلب من بريطانيا ان تساعده . ولكن هذه فضلت عدم التدخل مباشرة لكي تتقي الصدام مع فرنسا التي كانت تساند محمد علي . اما قيصر (تزار) روسيا. نيقولا الاول ، فقد أرسل مبعوثه أورلوف الى السلطان

العثماني مع تعليمات مفادها ان خلاصه يتوقف على روسيا . وقد نجح اورلوف في بعثته ، وبذلك ظهر الاسطول الروسي في مضايق الدردنيل كما دخلت فرقة عسكرية روسية مدينة اسطنبول . ونتيجة لمعاهدة انكيار سكيلاسي (1834) بين روسيا والدولة العثمانية حصلت الاولى على حرية استعمال مضايق الدردنيل وعلى مكانة هامة في العاصمة اسطنبول .

وهناك صعوبات اخرى بين فرنسا وبريطانيا جاءت نتيجة لثورتي اسبانيا والبرتغال . ولكن التحالف الرباعي (بريطانيا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا) تدخل (22 أبريل . 1834) وانهى الخلاف مؤقتا على الاقل . وقد كان تالليراند مقتنعا بأن معاهدة تفاهم مع بريطانيا كانت غير ممكنة. وعوضا عن ذلك التفت الى النمسا .

ويستطيع المرء ان يقول ان بريطانيا ،قبل 1834 كانت تضع مسألة الدولة العثمانية في مكان ثانوي بالنسبة لمشكلة بلجيكا . ولكن في هذه الاثناء كانت فرنسا وروسيا تسلكان سياسة نشيطة لبسط نفوذهما في البحر الابيض المتوسط . لذلك كان بالميرستون الانكليزي مقتنعا بأنه يجب على بريطانيا ان تبقى على الدولة العثمانية حية وبدون تجزئة . كما أقنع بالميرستون محمد علي بأن الاستقلال الكامل غير ممكن .

وبعد ظهور تيير سنة 1836 على رأس السياسة الفرنسية ، حاولت بريطانيا ايضا ان تربح روسيا الى جانبها لان تيير كان في صالح سياسة فرنسية حركية بأي ثمن . وكان قوميا مندفعا في تأييد نفس السياسة التي اتبعها نابوليون في افريقية الشمالية (ولاسيما في الجزائر) وكان تيير يرى ان « روسيا وبريطانيا كانتا قوتين بارزتين في شرق البحر الأبيض ، ولكن غربه يجب ان يكون ميدانا للاستعمار الفرنسي » .

(ص 105) . وفي نفس الوقت اتهمت فرنسا بريطانيا بمد الامير عبد القادر الجزائري بالمساعدة . أما بريطانيا فقد كانت تخشى حكما فرنسيا دائما في افريقية الشمالية . لذلك اقلقها سقوط قسنطينة في ايدي الفرنسيين (1837) وجعلها تدعو السلطان العثماني الى التدخل ضد فرنسا في الجزائر .

والحق ان بريطانيا قد فشلت في برنامجها الذي كان يهدف الى انعاش الدولة العثمانية لان كلا من السلطان ومحمد علي كان مقتنعا ان احدى الدول الاروبية كانت الى جانبه ، ولكن هناك عاملين جعلا بريطانيا تغير سياستها في البحر الابيض المتوسط حوالي 1837 . الاول هو ان المصالح التجارية للشعب الانكليزي في البحر الابيض قد ادت الى انتقاد سياسة الحكومة في المنطقة . أما الثاني فهو انفصال محمد على عن السلطان العثماني . وهنا ظهر الخلاف في العلاقات الانغلو — فرنسية بوضوح . فبريطانيا كانت تريد حماية محمد على ضد السلطان ، بينما غيرت سياستها نحو الباب العالي . فقد كانت (روسيا) مقتنعة بأن فرنسا لم تكن جديرة بالثقة وكانت تعرف أنها تستطيع أن تتعامل وحدها مع الباب العالي .

أما فرنسا فقد حاولت أن تتوسط بين الباب العالي ومحمد علي . وكانت تريد أن يحصل الأخير على سورية ، وكريت ، ومصر ، ولكن جهودها كانت بلا جدوى لأن بريطانيا ، والنمسا ، وبروسيا قد أمضت في غياب رئيس الوزارة الفرنسية غيزو « اتفاقا لتهدئة الشرق الأدنى » في 15 جويلية ، 1840 ، وقد احتجت فرنسا الى الحكومة البريطانية على ذلك وعرضت اقتراحات أخرى لحل أزمة الشرق الأدنى ، ونظرا لأن محمد علي لم يوافق على الاتفاق المذكور . فانه قد وجد نفسه يواجه أسطول الحلفاء كما أمر السلطان العثماني بخلعه .

ولكن تغيير الوزارة الفرنسية تحت غيزو قد أدى الى درجة من التفاهم بين بريطانيا وفرنسا . فقد دعيت فرنسا لحضور الحل الأخير للأزمة بين السلطان ومحمد على . غير أن أمل روسيا قد خاب . فقد حاول قيصرها أن يقنع السفير البريطاني فى اسطانبول بأهمية خطته ، التي تضمنت الاقتراح بالتعاون الوثيق بين بلاده وبريطانيا ضد فرنسا لمنع هذه الأخيرة من تنشيط الحركات الثورية . وحين سمع بالميرستون بهذه الخطة لم يغير رأيه فقد كان يريد أن تدخل فرنسا فى الاتفاق الرباعي . « وكان غير متحمس أن يرى روسيا تبسط نفوذها فى الدولة العثمانية بنفس الدرجة التي كان يرى بها فرنسا » .

وقد بعث غيزو خطة من خمس نقط الى سفيره فى لندن :

1 ــ فتح مضايق الدردنيل والبوسفور .

2 ــ تأمين وتأكيد الحالة الراهنة فى الدولة العثمانية .

3 ــ حماية الأقليات المسيحية فى الدولة المذكورة .

4 ــ تحديد وضع خاص لمدينة القدس .

5 ــ ابقاء الطرق التجارية مفتوحة .

وهكذا أمضى « اتفاق المضايق » 16 جويلية ، 1841 ،وكان يتناول حل المشكلة العثمانية ــ المصرية واعادة التفاهم بين فرنسا والجوقة الأروبية . وكان هذا الاتفاق يعتبر انتصارا لبريطانيا ، لذلك شعرت فرنسا أنها طعنت فى سمعتها به . ولكي تعوض فرنسا خسارتها فى شرق البحر الأبيض المتوسط نتيجة لذلك الاتفاق استمرت وزادت من قوتها ونفوذها فى الجزائر ، كما وسعت نفوذها ليشمل تونس والمغرب حتى تقلق النفوذ البريطاني هناك .

ان بريطانيا كانت حريصة على الحالة الراهنة فى الدولة العثمانية . فعندما أرسل السلطان أسطوله ضد تونس سألت بريطانيا فرنسا أن تشترك معها فى الاحتجاج ضد موقف السلطان . كما أنذرت السلطان بخصوص التدخل لدى الامير عبد القادر فى الجزائر ضد فرنسا . وكان هدف السياسة البريطانية هو منع اعطاء فرنسا أي عذر لتوسيع تدخلاتها . أما روسيا فقد اغتنمت فرصة التوتر بين فرنسا وبريطانيا وعرضت على الأخيرة أن تدخل معها فى تحالف ضد فرنسا . ولكن بريطانيا فضلت مرة أخرى أن تستمر فى السير وسط الطريق .

وقد استمر التنافس بين بريطانيا وفرنسا حول اليونان ، وايطاليا ، وأسبانيا ، ومصر . مثلا ، لقد كانت بريطانيا غاضبة من فرنسا لانشائها مدرسة فرنسية فى أثينا . كما أرسلت عملاءها الى ايطاليا لبث الدعاية ضد فرنسا هناك . ومن جهة أخرى وجهت اهتماما جديدا الى خطوط مواصلاتها بين الهند والبحر الأبيض . وقد ظهرت من جديد خلال هذه الاثناء فكرة حفر قناة فى المنطقة . غير أن ثورة 1848 قد أدت الى وقف تقدم بريطانيا فى الشرق الأدنى . وقد كان بالميرستون هو سيد الديبلوماسية خلال هذه الأثناء . فقد أبقى كلا من فرنسا ، وروسيا ، والسلطان ، ومحمد علي تحت أصبعه . وقد نجح فى جميع ذلك ، ما عدا قضية الجزائر التي كان الفرنسيون قد احتلوها قبل أن يأتي هو الى الحكم . ومما ساعده على نجاح سياسته فى البحر الأبيض النظام السياسي فى كل من فرنسا وبريطانيا خلال ذلك العهد .

ان الكتاب ، كما أشرت ، كان قد وسع حتى يشمل كل مظاهر العلاقات الفرنسية البريطانية فى منطقة البحر الأبيض خلال النصف الأول من القرن 19 . ورغم أنه لا يتضمن النشاطات الدبلوماسية لروسيا ، وأنه لا يعطي بالتفصيل النزاعات البريطانية ـ الفرنسية

بخصوص الأزمة المصرية ، فانه ما يزال مصدرا معتمدا فى ميدانه ، وهو ، بالاضافة الى ذلك يحتوى على بيبلوغرافية جيدة كما كتب بلغة جذابة ، لذلك فهو كتاب جدير بالقراءة (1) .

1 - منشورة فى مجلة (الجيش) عدد 52 ، يوليو (جويلية) 1968 .

الفهـــارس

ـ قسمنا الفهارس الى :

1 ـ فهرس الأشخاص .

2 ـ فهرس الأماكن .

ـ نظرا لكثرة ورود الأسماء الآتية فقد حذفناها من الفهرس وهي : الجزائر ـ المغرب العربي ـ شمال افريقية ـ المشرق ـ الدولة العثمانية ـ افريقية ـ فرنسا ـ اروبا .

ـ لم نراع في الفهرس (ابن) و (أبو) .

ـ الأرقام داخل القوسين (   ) تعني استمرار الحديث عن نفس الاسم .

ا ــ فهرس الأشخاص

ــ ا ــ

ـ ت ـ

ــ ج ــ

- ح -

— خ —

— د —

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

– ز –

– س –

– ش –

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

– ق –

– ك –

– ل –

– م –

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

— و —

— ي —

ب ـ فهرس الأماكـــن

ـ ا ـ

- ت -

- ث -

- ج -

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

- ل -

- م -

– ي –

محتـــوى الــكتـــاب

الجزائر 2007
عاصمة الثقافة العربية

الدكتور أبو القاسم سعد الله

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الثاني

دار البصائر
الجزائر

أبحاث وآراء

في تاريخ الجزائر

الدكتور أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الثاني

دار البصائر
الجزائر

طبعة خاصة

دار البصائر

2007

ردمك : 1 - 30 - 887 - 9961 - 978

الايداع القانوني : 2007 - 3315

دار البصائر

للنشر والتوزيع

50 شارع طرابلس – حسين داي- الجزائر

الهاتف/فاكس : 25/27 – 36 – 77- 021

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا هو الجزء الثاني من (ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، مشتملا على أربعة وعشرين موضوعا تتوزع على مراحل التاريخ الوطني في العصور الحديثة . وبعض هذه الموضوعات مطول ومعمق ، وبعضها قصير لا يعدو ان يكون رأيا في كتاب او استنباطات من وثيقة . وقد اثبتنا تواريخ كتابة ونشر هذه الموضوعات ، وهي في الجملة قريبة العهد اذ انها جميعا ، باستثناء القليل ، لا تذهب الى أبعد من سنة 1980 . ولم نراع في ترتيب الموضوعات ايه طريقة ، باستثناء القصيرة منها فقد تعمدنا وضعها في القسم الأخير من الكتاب ، وسيكون لهذا الجزء رفيق آخر عندما نصدر الجزء الثالث ان شاء الله .

وهناك ملاحظة أود ان أعلنها بهذه المناسبة ، وهي ان العناية بموضوعات هذا الكتاب وبأمثالها هي التي عاقتني عن متابعة واكمال المشروعين الكبيرين المفضلين وهما : الحركة الوطنية بأجزائها وتاريخ الجزائر الثقافي بأجزائه ايضا . وتتمحور تلك الاعاقة في انعدام الظروف الملائمة للتاليف الضخم الذي يحتاج ، بدون شك ، الى نشر الأوراق وتصنيف المواد والاختلاء الكامل . فلا المنزل ولا الجامعة قد توفرت على الشروط الأولية للبحث . ولذلك فان القارىء سيلاحظ ان معظم موضوعات هذا الكتاب كتبته أثناء العطل الصيفية في بلاد اجنبية حيث كنت احمل أوراقي وبطاقاتي الى مكتبة جامعة اجنبية واستغرق حوالي خمسين يوما في التحرير والتسويد ، تاركا المراجعة لحين عودتي الى الجزائر ، لأن المراجعة لا تتطلب تفرغا ذهنيا ولا خلوة مطلقة كالتاليف .

ان بعض الناس يكتب التاريخ اليوم من وجهة نظر حزبية ، وبعضهم يكتبه بمنظار الطرقية ، وبعضهم يكتبه بلون الحركة الاصلاحية ، وبعضهم يكتبه في ضوء الايديولوجيات العالمية ... واود ان اقول هنا باني ، في اعتقادي ، لست من هؤلاء ولا من أولئك . والمؤرخ الحق ، في نظري ،

هو الذي يفرق بين ميوله الشخصية ومهمته الوطنية والقومية والانسانية. اننا لا نكتب التاريخ حسب اهوائنا وميولنا ولكن حسب منطوق ومفهوم الوثائق ، مع الأخذ في الاعتبار جميع معطيات القضية التي نعالجها . ورائدنا في كل ذلك خدمة التاريخ نفسه وخدمة الأجيال في ضوء العلم الحديث والتقدم البشري ، ومع اخضاع جميع الأبحاث الى تحكيم العقل الواعي . ذلك أن تاريخنا العربي والاسلامي ، والجزائري على الخصوص ، مليىء بالخرافات الفليظة التي لا يقبلها العقل ولا العلم ولا نظرية التقدم في اوسع معانيها .

واني لأتمنى أن يكون هذا الجزء مفيدا كسابقه .

ابو القاسم سعد الله

الجزائر (ابن عكنون) ، 25 نوفمبر 1985 .

(*) – ننبه القارىء الى أنه لأسباب فنية وضعت الصور في آخر الكتاب . وقد حاولنا أن نحيل كل صورة على مكانها من الكتاب .

عن الكتابة التاريخية

الكتابة هواية وصنعة (*) . وهي على كل حال تبدأ كهواية فردية ، فاذا تكاثر أصحابها في المجتمع الواحد تصبح هواية جماعيـــة ــ او اجتماعية . لذلك فان بعض الشعوب هوت الكتابة وبرزت فيها فخلفت آثارها ، غثة وسمينة ، وبعض الشعوب عزفت عن الكتابة فأهملت آثارها وذرت الضباب على نفسها .

والجزائريون من الشعوب التي عزفت عن الكتابة كهواية ، ومن ثمة لم يحذقوها صنعة . ولا نستثني من ذلك عصرا من عصور تاريخهم . فبينما نجد لهم مواقف بارزة في البطولة والدفاع عن النفس وأدوارا في الحضارة ، فانهم لم يكونوا يهتمون بتسجيل ذلك لأحفادهم فيضيع خبرهم ويدركه النسيان ويتراكم عليه الضباب وتعمل فيه يد المسخ والتشويه من طرف أعدائهم .

ويعود سبب هذا العزوف عن الكتابة كهواية وصنعة الى عدة أسباب . منها في نظرنا الحساسية المفرطة عند الفرد الجزائري . فهو لا يقبل أن يطعن في كفاءته أو ينتقد في سلوكه . والأولى له في هذا المجال أن لا يقال فيه شيء البتة من أن يقال فيه أنه غير مجيد أو غير كفء . وهو يفضل أن يتواضع لدرجة أن يعدم نفسه ويهمل آثاره التي قد تكون محل نقد أو انتقاص . وبناء عليه فان كل ناقد له يعتبره خصما : والنقد ، مهما كان نزيها ، هو في نظره نوع من السباب والشتم . والجزائري يفضل ان لا يكون ناقدا حتى لا يكون منقودا .

ان ما يقال عن حرية التعبير وحرية النشر اليوم هو تعلة فقط ، في نظرنا ، يتعلل بها العازفون عن الكتابة . ذلك أن الحرية ، كما قلت في غير ما مرة ، تؤخذ ولا تعطي . فاذا كانت موجودة فهي نعمة على الشعب عموما والكاتب خصوصا ، واذا لم تكن متوفرة فما على أنصارها وعشاقهاالا

---

* ــ نشر في مجلة (الثقافة) عدد 66 ، نوفمبر ــ ديسمبر 1981 .

أن يعملوا من أجلها ضد السلطة المستبدة الظالمة سواء كانت هذه السلطة استعمارية او غير استعمارية . ومن جهة أخرى فان الكتابة كهواية ، تمارس ولو على أسنة الرماح وفي غياهب السجون وأمام كل صنوف الحرمان والارهاق . أما نشر المكتوب في هذه الظروف فليس بالضرورة آنيا ، فقد يتأخر بعض الوقت أو حتى بعض السنين . ذلك أن المهم هو تسجيل الرأي والموقف للأجيال القادمة . وذلك هو فخر الفرد وفخر الشعب .

هذا عن ممارسة الكتابة عموما . ولا نعتقد أن الكتابة التاريخية تختلف كثيرا عما كنا نقول . فقد وجدنا الجزائريين ، بالقياس الى شعوب أخرى ، مقلين في تسجيل حوادثهم واخبارهم ، وهذا في جميع العصور كما لاحظنا . فبينما تكتب بعض الشعوب الأخرى عن الحادثة الصغيرة في بلادها فتضخمها وتعظمها حتى تصبح حادثة دولية أو قضية انسانية لا تنسى ، نجد الأحداث الجسام في الجزائر تهمل فتتضاءل حتى تضيع من ذاكرة الشعب الذي صنعها فما بالك بذواكر الآخرين . وبينما تخلد بعض الشعوب الأخرى زعماءها (في العلم والسياسة والحرب والفن .. الخ) فتجعل من القائد الصغير بطلا مغوارا ومن العالم المتواضع مخترعا بارعا ، وهلم جرا بالنسبة لرجل السياسة والفن وغيره — نجد الجزائريين لا يحتفون بأبطالهم العظام ولا برجال العلم والسياسة والفن عندهم . فلا تعرف الأحفاد ما صنع الأجداد ، ولا تطلع الشعوب الأخرى على مساهمتهم في الحضارة ورقي الانسانية .

واذا كان هذا الاهمال الفاضح ينطبق على مراحل التاريخ عندنا فانه بالنسبة لتاريخ الثورة أكثر وضوحا واشد الحاحا . ودعنا نقل انه لو حدثت ثورة كثورة الجزائر في بلد آخر يهوى أهله الكتابة لكتب عنها اهلها (وليس الاجانب) المجلدات ، ولفاخروا بها الشعوب الأخرى كتابة وليس قولا ، ولساهمت في الكتابة عنها كل الفئات المثقفة ، كل في ميدانه واختصاصه ، من مؤرخين وسياسيين وصحافيين وفنانين واجتماعيين وادباء .. الخ . ولكن ثورة الجزائر عند الجزائريين ما تزال حادثة تتردد حولها الشعارات فقط مثل « ثورة المليون شهيد » و «الثورة من الشعب وللشعب » و « ثورة تحرير العالم الثالث » . واذا لم تساند الكتابة هذا الادعاء فستبقى شعارات جوفاء لا حياة فيها .

والكتابة عن تاريخ الثورة — بل وعن التاريخ الوطني عموما — ليست مهمة المؤرخ وحده . فكما أن المؤرخ بالأمس يرجع الى المذكرات والاشعار وكتب التراجم والروايات ونحو ذلك من المواد التاريخية ، كذلك يستلزم تاريخ اليوم مساهمة جميع العناصر المنتجة ثقافيا كمذكرات رجال الدولة ،

والمناضلين القدماء في الحركة الوطنيـــــة ، والعسكريين والصحافيين والكتاب وأساتذة العلوم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية واضرابهم . ذلك أن أعمال هؤلاء جميعا ستصبح ذات يوم مادة تاريخية هامة . فالقول بأن كتابة التاريخ من عمل المؤرخين وحدهم هو قول خاطىء في نظري . ان الكتابة التاريخية قدر مشترك بين جميع المواطنين ، ولكن كل فئة منهم لها دورها وتفسيرها وموقفها من الأحداث . وهذا هو الفرق بين المؤرخ وغيره .

وعندي أن الدولة ومؤسساتها لها مهمة خطيرة في جمع مادة تاريخ الثورة والحفاظ عليها وتوفيرها للباحثين والاشراف على فريق منهم ليقوم بوضع اطار عام لهذا التاريخ . وهذا ما دعوناه في احدى المناسبات بالكتابات الرسمية . ان هذه الطريقة معمول بها اليوم في معظم الدول المتقدمة . والمعروف أن التاريخ في الأزمنة السابقة كان تاريخا رسميا ، أو هو تاريخ سير الملوك والوزراء ومؤسسات الدولة . ونحن لا ندعو اليوم الى هذا النوع من التاريخ . فالثورة الجزائرية ليست من عمل بطـل واحد ولا هيئة واحدة ولا مؤسسة واجدة . والفريق الذي سيكلف بكتابة تاريخها رسميا يجب أن يأخذ في اعتباره كل هذه المعطيات حتى لا يتحول تاريخ الثورة الى تاريخ (أو تقراطية) معينة أو (أو ليقاركية) بعينها ، أو سيرة لزعيم من الزعماء .

وبالاضافة الى الدولة ومؤسساتها الخاصة ، هنالك الفئات الاجتماعية المثقفة التي أشرنا اليها . ان كل المثقفين يمكنهم ، بل الواجب عليهم ، الاسهام في كتابة تاريخ الجزائر ، كل في ميدانه واختصاصه . فعلى المناضلين أن يسجلوا مذكراتهم وانطباعاتهم عن الأحزاب التي كانوا فيها ، وسير الثورة التي اشتركوا فيها ، ودورهم فيها ، والمشـــاكل التي تعرضت لها . وعلى السياسيين والصحافيين من الجيل المخضرم أن يؤلفوا أعمالا توضح مواقفهم وتوقعاتهم ومكانتهم في الأحداث التي عاشوها . وعلى رجال الدين ، مصلحين وتقليديين ، أن يصفوا علاقتهم بالشعب وبالسلطة الحاكمة ومدى استجابة الناس للثورة ، وتفسيرهم لانفعالاتهم. وعلى الأدباء كتابة الروايات والأشعار المستمدة من واقع التـاريخ المليء بالنماذج الحية من بطولات وأحداث بارزة ومواقف انسانية وتضحيات في سبيل الوطن أو الدين أو الحب . بل أن من الأدباء من يكتب تاريخ الأدب فيدرس فيه مدى ارتباط الأدب بالشعب وعلاقة الأديب بأحداث بلاده . وهكذا بقية الفئات المثقفة . ان أعمال هؤلاء جميعا جزء لا يتجزأ من عملية الكتابة في التاريخ عموما وكتابة الثورة خصوصا . وهي الأعمال التي أطلقنا عليها الكتابة الشعبية ..

ومن الطبيعي أن يبقى للمؤرخ مكانه البارز في هذا التصنيف . فهو المؤهل وظيفيا ومنهجيا وعلميا لكتابة التاريخ . واذا كانت هذه هي مؤهلات المؤرخ فانها في نفس الوقت تصبح حواجز أحيانا دون اقدامه على عملية الكتابة . فالمؤرخ يحرص على وضع قدميه على أرض صلبة وعلى عدم اصدار أحكامه قبل توفر شروط معينة ، كالحرية والوثيقة والموضوعية ، وهو يشعرأنه اذا أخل بأحد هذه الشروط فانه يكون قد أخل بأبسط قواعد البحث العلمي ، ومن ثمة يكون ذيلا لحاكم ظالم أو لحزب معين أو لدولة أجنبية . ان المؤرخ يريد أن يصدع بالحقيقة متى اقتنع أنه وجدها عن طريق البحث في الوثائق والمصادر المتنوعة ، سواء كانت هذه الحقيقة حلوة أو مرة ، مفيدة أو مؤذية . وكلما اقترب المؤرخ من أحداث عصره كلما تضببت أمامه الحقائق ، ولذلك يريد أن يبقى على مسافة معينة بينه وبين العصر الذي يكتب عنه .

ونحن لا ندعي أن جميع الامكانيات قد توفرت الآن أمام المؤرخ ليكتب حسب القواعد التي وصفنا . ولكن هذا لا يمنع في نظرنا من البداية . أن الجامعات الجزائرية أصبحت تتوفر على نخبة طيبة من الباحثين في هذا الميدان ، وأن جيلا من طلاب الدراسات العليا اخذ يتخرج كل عام . وجميع هؤلاء ، باحثين وطلابا ، مطالبون بالكتابة عن تاريخ بلادهم ، في مختلف العصور ، واذا وجدوا صعوبة في الاصداع بالرأي فليبقوا آراءهم محفوظة ، ولكن مكتوبة ، لكي يطلع عليها الجيل اللاحق . اننا نخشى أن يكون صمت بعض المؤرخين الآن عن الكتابة في انتظار توفر الشروط هو تغطية فقط للظاهرة التي انطلقنا منها ، وهي الحساسية المفرطة ، والكسل العقلي في ميدان الكتابة ، وجزء من المرض الذي يصيب بعض الشعوب وهو العزوف عن الكتابة كهواية وصنعة .

قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843
موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف واللغة

القضايا الثقافية بين الجزائر وفرنسا كثيرة ، ومنها ، بدون شك ، قضية الدين واللغة • وقد يعتقد البعض ان هذه القضية وليدة النهضة السياسية أو الحركة الاصلاحية أو حتى وليدة الاستقلال • والواقع انها (أي قضية الدين واللغة) قديمة قدم الاستعمار فى بلادنا ، فهي تعود الى أوائل سنوات الاحتلال • واذا كان الاصطدام السياسي والعسكري قد أخذ حظه خلال العشرية الأولى للاحتلال وكان واضحا للعيان فان الاصطدام الثقافي (الديني واللغوي) قد أخذ شكلا رسميا واضحا منذ 1843 ، حين وقف المفتي المالكي مصطفى بن الكبابطي ، مؤيدا من أهل البلاد ، ضد قرارين رسميين فرنسيين ، الأول ضم الأوقاف الاسلامية الى أملاك الدولة ، والثاني ادخال اللغة الفرنسية فى المدارس القرآنية • واذا كان الطغيان الاستعماري قد تغلب فى النهاية فحكم بالنفي على المفتى المذكور وضم الأوقاف (الأحباس) الى أملاك الدولة وفرض لغته على الجزائريين (ولكن فى غير المدارس القرآنية) ، فان موقف المفتي والأهالي عندئذ بقى رمزا للتحدي الوطني ورغبة شعبية لم تبرزها من جديد الا نصوص الحركة الوطنية ومواثيق الثورة •

وفى هذه المقالة نود أن نلقي الضوء على هذه القضية من خلال النصوص التاريخية التي عثرنا عليها فى المدة الأخيرة • وكل من ألم بتاريخ الجزائر يعرف أن فرنسا عزمت ، منذ 1841 ، على بسط نفوذها على الجزائر بالقوة ، بل بجميع الوسائل الشرعية وغير الشرعية ، بعد أن اعجزتها ، حتى الى ذلك الحين ، المقاومة الوطنية ، وفى مقدمتها مقاومة

---

* نشرت فى مجلة (عالم الفكر) بالكويت ، المجلد 16 ، العدد الاول ، (أبريل – مايو – يونيو 1985) •

الأمير عبد القادر • ولتحقيق ذلك الهدف أرسلت فرنسا الجنرال بيجو سنة 1841 الذي اصطحب معه جيشا جرارا ومعدات متفوقة وتبنى سياسة « الأرض المحروقة » التي لا تبقى ولا تذر للعدو ما يمكن أن يأكل منه أو يحتمي به • وهكذا أخذ جيشه يطارد قوات الأمير ، وفى أثناء ذلك كان يحرق المحاصيل ، ويتلف مطامير الزرع ، ويثير الرعب في الأهالي فيأسر ويقتل وينفي بدون الرجوع الى قانون عرفي أو دولي • كما كان يجمع الناس فى محتشدات وتجمعات يجعلها تحت وصاية جيشه ويعزلها عن الثوار وعن بعضها حتى لا تعود خطرا عليه •

هذا بالنسبة لأهل الريف حيث كانت المقاومة مشتعلة • اما فى المدن فقد سلك بيجو سياسة تجعل كل شيء تحت الرقابة الفرنسية ولفائدة الاستعمار الاقتصادي والاستيطاني • وفى هـذا الصدد نظم الادارة تنظيما جديدا يجعل « الشؤون العربية » كلها تحت أنظاره ، وأراد أن يوفر لخزانة الدولة الفرنسية (التي اقتطعت نصيبا كبيرا لجهود الحرب الدائرة) رصيدا جديدا تعوض به ما تقدمه للجيش ، وكانت ميزانية الأوقاف الاسلامية ، ولا سيما أوقاف مكة والمدينة ، كبيرة يسيل لها لعاب الطامعين ، فأمر بيجو بقرار صادر فى 23 مارس سنة 1843 ، بضم هذه الأوقاف الى ادارة الدومين لكي تكون تحت سيطرة موظف فرنسي سام • ولم يكن الهدف من ضم الأوقاف ماديا فقط بل كان ايضا سياسيا ذلك ان قطاعا كبيرا من العلماء ورجال الدين والمثقفين كانوا يعيشون من الأوقاف وبعيدين عن أعين السلطة فى تفكيرهم وتصوراتهم للحياة ، وبعبارة أخرى فقد كانت مؤسسات الأوقاف خلايا سياسية وثقافية ودينية وقلاعا تضم أصحاب الرأي المعادي للفرنسيين • فكان قرار بيجو بضم الأوقاف الى أملاك الدولة يخدم هدفين معا : اقتصادي وهو الزيادة فى رصيد الميزانية الفرنسية ، وسياسي وهو السيطرة على أصحاب الرأي المضاد للوجود الفرنسي •

ولكن الجزائريين قاوموا هذا القرار الجائر ، وكانت مقاومتهم تمثل أولا صطدام ثقافي (ديني ولغوي) بينهم وبين الفرنسيين • وكانت هذه المقاومة تعتمد على ركيزتين : الأولى ان القرار كان ضد مباديء

الدين الاسلامي ، الذي يجعل حرمة خاصة للوقف ، والثانية ان القرار كان يشكل انتهاكا لاتفاقية الجزائر سنة 1830 التي التزم فيها الفرنسيون بعدم المس بمقدسات الدين الاسلامي ، ولا شك ان القرار كان يمس أيضا باستقلال العلماء ورجال الدين وبحرية آرائهم •

ولكن بيجو لم يتوقف عند ضم الأوقاف الى أملاك الدولة ، بل تجاوزه الى محاولة فرض اللغة الفرنسية على الصبيان المسلمين فى الكتاتيب (المدارس القرآنية) بحيث يأتي أحد المعلمين الفرنسيين الى الكتاب (المدرسة) ويعلم اللغة الفرنسية والرياضيات للصبيان مدة ساعة • وكما وقف الجزائريون ضد القرار الأول للأسباب المذكورة وقفوا أيضا ضد القرار الثاني • فقد رأوا فى هذا مسا بمقدساتهم الدينية ، لأن أغلب الكتاتيب متصلة بالمساجد ، ومسا بشخصيتهم الوطنية ، لأن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة فى نظرهم التي يجب أن يتعلم بها الصبي القرآن الكريم فى هذه المرحلة ، ولا تزاحمه فيها أية لغة أخرى • كما فسروا تعليم أحد الفرنسيين لأولادهم الرياضيات بأنه وسيلة لتحريف شخصية الأطفال وتوجيه التعليم نحو حضارة الغالب التي يرفضونها • وهكذا وقع التصادم حول قرار تعليم اللغة والرياضيات الفرنسية في المدارس القرآنية مثل ما وقع التصادم حول ضم الأوقاف الاسلامية الى أملاك الدولة الفرنسية •

وقد كان رمز هذه المقاومة والمتحدث باسم الجزائريين فى هذه القضية الثقافية الهامة هو مصطفى بن الكبابطي ، مفتي المالكية عندئذ • فهو الذي كان الواسطة بين الفرنسيين والأهالي اذ كان الفرنسيون يبلغونه بأوامرهم وهو يبلغها للأهالي ثم يقوم هو بتبليغ رأي الأهالي الى الفرنسيين مع ابداء رأيه طبعا أمام هؤلاء وأولئك • ورأيه هو ليس رأيا بسيطا ، ولكنه رأي يمثل وجهة نظر الدين فى جميع القضايا المعروضة • فما رآه متماشيا مع التعاليم الدينية قبله وحاول اقناع غيره بقبوله وما رآه مخالفا للتعاليم الدينية رفضه وحاول اقناع غيره برفضه • ولكن ليس كل الناس كانوا يرضون أو يرضخون لقبوله أو رفضه • ومن هنا بدأ التصادم بين الطرفين • وبالنسبة لقضيتنا فان المفتي الكبابطي

كان غير مقتنع بالقرار الفرنسي فى الحالتين ولذلك عارضه أشد المعارضة على أسس دينية ووطنية ، ورأى فيه جورا وتعديا على حرمة الدين ورجاله (الأوقاف) وعلى لغة القرآن والكرامة الثقافية (التعليم الفرنسي) . ولكن ما دامت المسألة عندئذ كانت مسألة قوة وجبروت وتعسف فان الفرنسيين حكموا بعزل المفتي الكبابطي وسجنه ثم نفيه من الجزائر . ثم خلا لهم الجو بعده فتصرفوا كيف شاؤوا .

* * *

فلنتتبع اذن بشيء من التفصيل حياة المفتي الكبابطي ومن خلالها نلقي الضوء على هذه القضية الثقافية الهامة . ان النصوص التي تجمعت لدينا الآن تساعدنا على فهم حياته أوضح مما كتبناه عنه سابقا (1) . تعود عائلة ابن الكبابطي الى أصول أندلسية . ولعلها كانت عائلة غنية جاءت بثروتها من الأندلس (2). فقد كان الكبابطي يملك دارا بمدينة الجزائر تسمى « دار الكبابطي » ، ولكنها خربت بعد الاحتلال (3) . وولد مصطفى بن محمد بن عبد الرحمن المشهور بابن الكبابطي ، فى مدينة الجزائر فى شهر شوال من سنة 1189 هجرية . وقد نشأ بهذه المدينة فى وقت كانت تشهد فيه تكالب الدول الأوروبية على تجارتها وموانيها . ولكنها من الناحية الثقافية كانت تظل علماء بارزين من أمثال أحمد بن عمار ، ومحمد بن الشاهد ، وكان فى أطراف القطر أسماء لامعة من أمثال أبي راس الناصر

---

1 ــ أنظر : مقالتنا عنه (قصيدة في رثاء المفتي الكبابطي) ، الثقافة ، عدد 44 سنة 1978 .

2 ــ أقدم اشارة الى أسرة الكبابطي وجدناها في وثيقة تتحدث عن أن سليمان الكبابطي قد ولاه خضر باشا أوقاف الجامع الذي بناء أواخر القرن العاشر (16 م) . والمعروف أن خضر باشا هذا تولى الحكم في الجزائر عدة مرات أولاها سنة 997 ، وآخرها سنة 1013 . أنظر (رحلة ابن حمادوش) وهي بتحقيقنا نشرت سنة 1983 ، ص229 . وتذكر بعض المصادر أن أسرة الكبابطي كانت من غرناطة وهاجرت الى الجزائر بثروة طائلة .
أنظر : بول أوديل (المصوغات الجزائرية والتونسية) ، ص 350 ــ 351 . وكان للاندلسيين بالجزائر جمعية خاصة بهم تعتني بفقرائهم تأسست سنة 1033 (1623) ، أنظر ديفوكس (المجلة الافريقية) ، 1868 ، ص 279 .

3 ــ أقدم اشارة الى هذه الدار كانت سنة 1185 ، وكانت تسمى (دار أولاد الكبابطي) ، أنظر الأرشيف الوطني الفرنسي (168) 31 ــ 228 MI . أنظـر كذلك بول أوديل المشار اليه .

فى الغرب وأحمد العباسي فى الشرق • وكانت حلقات درس الجامع الكبير والجامع الجديد وجامع سفير وجامع سيدي رمضان هي التي يقصدها الطلاب بعد أن ينهلوا من الزوايا ومن المدارس القرآنية •

ومن أشهر شيوخ مصطفى بن الكبابطي بمدينة الجزائر نذكر علي بن عبد القادر المعروف بابن الأمين ، الذي تولى فتوى المالكية مدة طويلة بالمدينة المذكورة والذي كان قد حصل على ثقافة واسعة بالأزهر الشريف وتتلمذ هناك على شيوخ مصريين ومشارقة وأدى فريضة الحج ، ومنهم بالجزائر علي المانجلاتي ، الذي تولى أيضا فتوى المالكية بمدينة الجزائر وكان من عائلة قدمت للبلاد علماء وشعراء عرفهم العهد العثماني أمثال عمر المانجلاتي وأحمد المانجلاتي • وقد رثى الكبابطي شيخه علي المانجلاتي بشعر سنذكره فى آخر هذا البحث • كما درس الكبابطي على محمد بن موسى الذي تولى أيضا الفتوى المالكية بالجزائر ، وعلى محمد المعروف بأخو السفار فى الجزائر أيضا • وكان محمد أخو السفار هذا من العلماء المعتدين بأنفسهم والمتمسكين بالدين حتى انه رفض القضاء حين عرض عليه ، وقال حين هدد بغضب الباشا عنه « غضبه أهون علي من غضب الله » •

ونجد فى ترجمة الكبابطي انه تتلمذ أيضا على محمد الزرواري الفاسي الذي كان يدرس فى جامع القرويين • فالظاهر ان الكبابطي قصد أيضا فاس للتعلم لأننا لا نعرف ان الزرواري قد جاء الجزائر أو درس بها • ولعل الكبابطي قد أخذ العلم أيضا على أحمد بن عمار ، ولا سيما الحديث الشريف • ومهما كان الأمر فالظاهر ان الكبابطي انتهى من تعليمه حوالي سنة 1227 بعد أن حصل من شيوخه على علوم « المعقول والمنقول » كما يقول بعض مترجميه ، وأخذ الكبابطي بعد ذلك يستعد لبث العلم هو أيضا • وقبل أن نتركه تلميذا وطالبا نذكر انه تتلمذ أيضا ، وهو بالاسكندرية ، على الشيخ محمد الرضوى البخاري (4) الذي جاب

4 — عن حياة محمد الرضوي ورحلته الى الجزائر والمغرب ، أنظر (تاريخ عبد الحميد بك) مخطوط ، وكان عبد الحميد بك من تلاميذ مصطفى الكبابطي في الاسكندرية ، وقد نوه بشيخه وترجم له في كتابه المذكور . ولعل ما جاء به من أخبار عن الكبابطي في الجزائر قد أملاها عليه الشيخ الكبابطي نفسه .

المشرق والمغرب وزار الجزائر ، ولكن بعد نفى الكبابطي منها • ونحن نعرف أن الرضوي قد أجاز الكبابطي في المصافحة والسبحة وغيرهما من الأمور الصوفية المشتهرة عند علماء الوقت •

تشير أقدم وثيقة لدينا الى أن الكبابطي كان متوليا للتدريس فى الجامع الأعظم (الكبير) سنة 1240 • ويبدو انه كان قد مارس التدريس قبل ذلك أيضا ، ابتداء من سنة 1227 ، سنة تخرجه ، ولكن ليس فى الجامع الكبير بل فى مساجد أخرى أصغر منه ، كما جرت العادة • ويذكر مترجموه انه كان يدرس لتلاميذه العلوم الآتية : الفقه والحديث والنحو والمنطق وبعض المتون ، وبعبارة أخرى فقد كان يجمع بين تدريس العلوم المعقلية (النحو والمنطق) والنقلية (الحديث والفقه) • وقد اشتهر ، كما سنرى ، بين معاصريه برواية حديث الصحاح ، ولا سيما البخاري • وقد تخرج عليه تلاميذ كثيرون ما دام قد أفنى عمره كله تقريبا فى التدريس ، سواء فى الجزائر أو فى الأسكندرية • ونذكر من تلاميذه الجزائريين حميدة العمالي المتوفى سنة 1273 بعد توليه فتوى المالكية بالجزائر ، وله اجازة منه • ومصطفى الحرار ، وعبد الرحمن الامام (ت 1292) الذي حضر الكبابطي درس ختمه لعقيدة السنوسي ونوه به (5) • أما فى الأسكندرية فيقول مترجمه وتلميذه عبد الحميد بك بأن أغلب علماء الاسكندرية رووا عنه صحيح البخاري ومسلم • ومن تلاميذه المغاربة أحمد بن الطالب ابن سودة المري الذي أخذ عنه العلم بالاسكندرية وأجازه (6) • ولا شك أن هناك آخرين •

وتبدأ حياة الكبابطي فى الوظائف الادارية منذ سنة 1243 هجرية • ففي هذه السنة تولى القضاء على المذهب المالكي بتعيين من الداي حسين باشا ، آخر دايات الجزائر • ولم يكن هذا المنصب سهلا ، ولا سيما فى

5 — عن تلاميذ الكبابطي في الجزائر أنظر الحفناوي (تعريف الخلف) 123/2 ، 538 ، 548 •

6 — أنظر عبد الرحمن بن زيدان ، (تحاف أعلام الناس) 461/1 •

تلك السنوات التي بدأ فيها حصار فرنسا للجزائر تمهيدا للاحتلال (7) • وقد استمر الكبابطي في منصب القضاء خلال السنة الاولى من الاحتلال أيضا (أي سنة 1246 هـ) • واذن فقد شهد كقاض ، هذا التحول الاداري الخطير ، وكانت الأوامر تصدر له من جهة اسلامية ، فها هي الآن تصدر له من جهة فرنسية محتلة • وقد كثرت الدعاوى والقضايا المعقدة خلال سنة الاحتلال الأولى ، وكثر فيها الظلم والتعسف ولم يعد للقاضي الا شكل رمزي • وغادر عدد من رجال العلم والدين مدينة الجزائر اثر الاحتلال هروبا بدينهم ظنا منهم أن الموقف سينجلي لصالحهم بعد وقت قصير • وحكمت السلطات الفرنسية خلال السنة الأولى أيضا بالنفي على المفتي الحنفي ، محمد ابن العنابي ، الذي سينزل الكبابطي عنده بالاسكندرية بعد أن يدور القدر دورته ، ويحكم الفرنسيون عليه هو أيضا بالنفي ، كما سنرى •

بعد سنة اذن في القضاء تحت الحكم الفرنسي طلب ابن الكبابطي اعفاءه منه • ويبدو ان طلب الاعفاء منه كان للأسباب التي ذكرناها ، وهي صعوبة الجمع بين مباديء القضاء الاسلامي والأسلوب الاداري التعسفي الذي جاء به الفرنسيون • فقد كانوا يريدون من القضاة أن يكونوا أدوات لهم على تنفيذ رغائبهم الاستعمارية ولو كانت ضد دين القضاة وضمائرهم • ولم يكن الكبابطي من هؤلاء فاستعفى • غير ان الفرنسيين رفضوا طلبه وأجبروه على البقاء في وظيفته الا اذا وجد لهم بديلا عنه • ولم يكن الفرنسيون عاجزين عن ايجاد هذا البديل بأنفسهم لو أرادوا ولكنهم لم يشاؤوا أن يجعلوا ذلك سابقة للقضاة فيقبلون الوظيف ويستعفون منه متى شاؤوا ، كما انهم بدون شك أرادوا توريط الكبابطي أكثر فأكثر معهم واختبار نواياه نحوهم • ولذلك قبلوا الشخص الذي

---

7 ـ يذكر السيد بول أوديل المشار اليه ، أن الكبابطي تولى أيضا منصب « الأمور الخارجية » في حكومة حسين باشا ، وأنه شارك في معركة سيدي فرج ضد الفرنسيين ثم انضم اليهم . ونحن نشك في هذه الأخبار لأن الشؤون الخارجية كان لا يتولاها العرب ، ولم تجر العادة أن القضاة يخوضون المعارك ، والصحيح أن الفرنسيين وجدوا الكبابطي في وظيفة القضاء فأبقوه فيها حوالي سنة ، كما جاء في ترجمته في (تاريخ عبد الحميد بك) ، انظر ما سيأتي .

اقترحه عليهم ، وهو الشيخ عبد العزيز (7) الذي كان أحد علماء الوقت بالجزائر ، بينما ولوا الكبابطي نفسه منصبا أعلى وهو منصب الفتوى • واذن فان الكبابطي بقى فى هذا المنصب من حوالي 1247 الى عزله منه ونفيه من الجزائر سنة 1259 • فكيف كانت علاقته مع الفرنسيين أثناء هذه الفترة الحرجة من الاحتلال ؟ وكيف استطاع أن يجمع بين روح الشريعة الاسلامية « والولاء » للسلطات الفرنسية ؟

يمكن أن نقسم الفترة التي بقيها الكبابطي مفتيا الى مرحلتين : الأولى من 1831 الى 1841 والثانية من 1841 الى 1843 • ففي المرحلة الأولى كان المفتي الكبابطي يمارس سلطته على الشؤون الدينية بما فى ذلك الأوقاف والمساجد والأضرحة والتعليم وموظفي هذه المؤسسات على اختلاف مستوياتهم • وكان على صلة بادارة المكتب العربي (8) فى الشؤون الاهلية يتراسل معهد فى كل ما يتعلق بمهمته • وكان لا يقبل هو من مقترحاتها وتدخلاتها الا ما لا يمس القيم المتوارثة وتعاليم الشريعة ومصالح المسلمين • وكان الفرنسيون فى هذه المرحلة لم يهتدوا بعد الى أهمية الأوقاف المالية ولا دورها السياسي والديني كما لم تكن لهم سياسة تعليمية واضحة نحو الأهالي • فقد مضت العشرية الأولى للاحتلال فيما سمي بسياسة التردد وفى الرد على المقاومة السياسية (لجنة المغاربة) والعسكرية بشقيها الرسمي (خصوصا) الحاج أحمد باي قسنطينة) والشعبي (خصوصا مقاومة الأمير عبد القادر) • ونحن وان كنا لا نملك وثائق عن دور المفتي الكبابطي فى هذه الأحداث فالذي لا شك فيه انه لم يكن

7 (كرر) — لم نجد نسبة أو لقبا لهذا الشيخ ، وقد بقى في وظيفة القضاء الى ان وقعت (حادثة عائشة) سنة 1834 ، وهي المرأة المسلمة التي اعتنقت المسيحية وطلبت حماية القانون الفرنسي بعد أن طلقها زوجها ، عندئذ عارض هذا القاضي وكذلك المفتي الكبابطي ما حدث واتهما الكنيسة والسلطة الفرنسية بالتواطؤ والتورط في القضية ، فاستقالا ، واذا كان الكبابطى قد رجع عن استقالته خوفا فان القاضي عبد العزيز قد هاجر الى المغرب ساخطا . أنظر تفاصيل ذلك في مراسلات الجنرال فورول ، ص 788 ، ومراسلات الجنرال الكونت ديرلون ، ص 122 — 128 .

8 — (المكتب العربي) مؤسسة فرنسية كانت تقوم بدور البلدية اليوم كما كانت لها سلطات قضائية وكان على رأسها عقيد له معاونون وتراجمة وشواش الخ . وكانت (المكاتب العربية) منتشرة في كامل القطر الجزائري ودام العمل بها في اناطق المدنية الى حوالي سنة 1870 . أما في المناطق العسكرية فقد بقيت الى حوالي 1947 .

بعيدا عنها ، وان كان غير ممثل رئيسي فيها (9) • وتذكر تقارير الفرنسيين عنه ان مقاومته لهم وعداءه نحوهم كان قديما وانما أخذ شكل تأزم حاد فى المرحلة الثانية فقط •

وتبدأ المرحلة الثانية بتولي الجنرال بيجو الولاية العامة فى الجزائر ، وافتتاحه عهدا جديدا للسياسة الفرنسية شعاره قطع دابر المقاومة ضد الوجود الفرنسي وتثبيت قواعد السيادة الفرنسية فى الجزائر مهما كان الثمن والوسائل • وقد شملت هذه السياسة السيطرة على الشؤون الدينية الاسلامية بالاستيلاء على مصدرها المالي الرئيسي وهو الأوقاف ، وبذلك تمتد السيطرة أيضا الى جميع المستفدين منها والعاملين باسمها ، ولا سيما رجال الدين والعلماء والقضاة والمفتيون والمعلمون والمؤسسات التابعة لهم • وهذا الموقف من الأوقاف هو الذي فجر الوضع وكشف عن نوايا الطرفين • وقبل أن نذكر ذلك بالتفصيل نشير الى أن تطور الأحداث الوطنية شجع المفتى الكبابطي على موقفه • فالجزائر سنة 1842 — 1843 كانت فى غليان كبير ، فكانت المقاومة فى الغرب والوسط على أشدها ، وكانت بلاد القبائل (زواوة) ما تزال غير محتلة وكانت أنظار الفرنسيين قد أخذت تتوجه نحوها ، بينما زارها الأمير عبد القادر زيارته الثانية لتجنيدها الى جانبه • وأما فى الشرق فان مقاومة الحاج أحمد وان انتهت رسميا بسقوط قسنطينة سنة 1837 الا أنه كان ما يزال طليقا في مناطق الأوراس وكان وجوده هناك يثير الرعب فى قلوب الفرنسيين • ومن جهة أخرى فان الباب العالي كان ما يزال لم يعترف بالسيادة الفرنسية على الجزائر ، وكان حمدان خوجة وأضرابه من المطرودين الجزائريين يقومون بنشاطهم من أجل استعادة الحكم الاسلامي فى الجزائر • فلماذا لا يكون المفتي الكبابطي جزءا من هذه الصورة الكبيرة للمقاومة

9 ـ ظهر الكبابطي سنة 1833 أمام اللجنة الافريقية التي أرسلتها الحكومة الفرنسية الى الجزائر للتحقيق ، وقد أدلى برأيه بخصوص الأحوال الشخصية والقضاء . أنظر كتابنا (**محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث**) ط 3 ، ص 102 ، وقد أخبر عنه الجنرال **فوارول في مراسلاته** ، ص 788 أن الكبابطي « رجل يضمر نحونا حقدا عنيفا » واقترح على وزير الحربية التخلص منه .

الوطنية ؟ألم يختلف مع قدور بن رويلة (10) ، كاتب الأمير عبد القادر ، فى الهجرة عندما رأى ابن رويلة (على لسان الأمير طبعا) ان الواجب على المسلمين الجزائريين الهجرة من الجزائر بعد أن تغلب عليها الكافر الفرنسي ، بينما أفتى الكبابطي بوجوب البقاء مع ذلك ؟

ومهما كان الأمر ، فان الأزمة بين المفتي الكبابطي والفرنسيين تفجرت على جبهتين ، جبهة دينية (الأوقاف) وجبهة علمية (اللغة) . ولنعالجهما الواحدة بعد الأخرى .

ا ـ الجبهة الدينية :

لقد بدأ تدخل الفرنسيين فى الشؤون الدينية الاسلامية منذ 1830 حين أصدر كلوزيل بعض الاجراءات فى ذلك . ولكن عهد كلوزيل لم يطل (سنة واحدة) ولم يحسم من جاء بعده فى الموضوع الى أن جاء بيجو ، كما أسلفنا (11) .

يقول السيد أوميرا Aumerat أن قرار بيجو بضم مؤسسات الوقف الى أملاك الدولة صدر في 23 مارس سنة 1843 ، وأن الكبابطي عارضه عندئذ (12) . والظاهر أن التحضير لهذا الضم قد بدأ منذ مجيء بيجو وان الاتصالات مع المفتي بشأن هذا الموضوع قديمة وان رأيه معروف من قبل السلطات الفرنسية ، وان اصدار القرار فى مارس 1843 ، انما

10 ـ رسالة قدور بن رويلة الى علماء الجزائر (سنة 1834؟) توجد مخطوطة في المكتبة الوطنية بالجزائر ، رقم 2083 ، وقد نحى فيها باللائمة على المفتي الكبابطي . انظر أيضا (حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية) تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ، 1981 . فقد رأى بعض العلماء أن الجزائر بعد استيلاء الفرنسيين (الكفار) عليها أصبحت «دار كفر» تجب الهجرة منها ، بينما رأى آخرون (ومنهم الكبابطي) أن الجزائر ما تزال ، رغم ذلك ، «دار اسلام» ومن ثمة لا تجب منها الهجرة ، وكان لكل فريق حججه التاريخية والدينية . انظر كذلك فتوى أحمد الونشريسي (أسنى المتاجر) التي نشرها حسين مؤنس في (صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية) ج 5 ، ص 129–191 مع تحليل ونقد ودراسة .

11 ـ يشير ايمرت أن المفتي الكبابطي كتب مذكرة سرية عن الأوقاف وجهها الى القائد العام الفرنسي بالجزائر . ولكنه لم يذكر تاريخها ولا اسم القائد . ويقول ايمريت أن المذكرة موجودة بالأرشيف الوطني رقم F. 80/1672 انظر : مقالته (الحالة العقلية والمعنوية في الجزائر سنة 1830) في R.H.M.C. (1954 ، ص 199 ، هامش 1) .

12 ـ انظر المجلة الافريقية ، 1899 ، ص 189 .

هو نوع من التحدي لارادة المفتي وارادة من يمثلهم (الأهالي) ، حتى تثبت عنه تهمة المقاومة للوجود الفرنسي وتصبح القضية سياسية بكل وضوح • ويقول السيد ديفوكس Devaulx أن الكبابطي كان « متهما بالمقاومة المكشوفة لأوامر الحكومة (13) » ويضيف ان الادارة الفرنسية بالجزائر اغتنمت هذه الفرصة وأخضعت الاوقاف والموظفين بالجامع الكبير الى التنظيمات العامة (الفرنسية) ، وكان ذلك بقرار صدر في 4 يونيو (جوان) 1843 • وفي مكان آخر يذكر نفس المصدر أن الحكومة الفرنسية استولت على ارشيف الجامع الكبير (أي ادارة المفتي الكبابطي) وعزلت وطردت المفتي المالكي الذي كان فيه (14) •

ويبدو أن الفرنسيين كانوا يخشون عواقب هذه العملية ، ولذلك كانوا يتقدمون نحوها بحذر وبالتدرج • وقد اختلقوا للمفتي ظروفا جعلته يظهر في موقف العصيان والتمرد • وبذلك خاف من كان الى جانبه ، وطمع في منصبه ضعاف النفوس ، ودس له الفرنسيون من يتجسس عليه وينقل اليهم أخباره وآراءه • وقد صدر اعلان (منشور) من مطبعة الحكومة بالجزائر يعلن للناس ان المفتي قد عصى أمر وزير الحربية ، وهو الأمر الذي لم يكن الا في منفعة المسلمين (15) • ويقول السيد أوميرا ان بيجو قد أصدر بعد نفي المفتي ، اجراء سياسيا جاء فيه : « ان الاملاك التابعة للجامع الكبير ، وكل الموظفين التابعين له ، هم تحت سلطة (الدومين) ، وان كل المدخولات والمصاريف التابعة لهذه المؤسسة أصبحت ملحقة بالميزانية الاستعمارية ، وان كل المصاريف المتعلقة بموظفي الجامع ، والصيانة ، والشؤون الدينية ، وكذلك كل المساعدات والصدقات التي تقوم بها هذه المؤسسة ستصبح من اختصاص الادارة • ويرى أوميرا ان أوقاف الجامع الكبير كانت المؤسسة الوحيدة التي ضمت الى (الدومين) قبل سنة 1848 » (16) •

---

13 ـ المجلة الافريقية ، 1866 ، ص 381 .

14 ـ المجلة الافريقية ، 1863 ، ص 104 .

15 ـ صورنا هذا المنشور من أرشيف ايكس رقم 1 H 1

16 ـ أوميرا ، المجلة الافريقية ، 1899 ، ص 139 ، والمعروف أن قرار ضم بقية الأوقاف صدر سنة 1848 في عهد الجنرال شارون . انظر أيضا ديفوكس ، المجلة الافريقية ، 1863 ، ص 183-187 .

ويثبت مترجم المفتي الكبابطي ان سبب نفيه من الجزائر يعود الى أنه « كان يعظم أمر المسلمين ويخالف ما يأمره به الفرنسيون مما هو مخالف للشرع . » (17) أما السلطات الفرنسية فقد فسرت هذا الموقف بأنه تمرد وعصيان ومقاومة وعداء لها . فالتقرير الذي رفعه رئيس مكتب الولاية العامة الى وزير الحربية يؤكد ذلك بقوله ان المفتي الكبابطي : « كان يواجه باذن صماء كل الاجراءات التي اتخذها الحاكم العام ومساعدوه ، وكان يعارض « الاصلاحات » التي كانت لها صلة به ، وكذلك معارضته فى ادارة الشؤون الدينية (الأوقاف) . » (18) ولذلك اقترح التقرير على الوزير « تأديب » الكبابطي بعزله ثم طرده من الجزائر خوفا من شغبه واثارة المسلمين .

ب ــ الجبهة العلمية (اللغة) :

والظاهر ان الفرنسيين قد اختلقوا هذه القضية لتغطية نواياهم حول القضية الأولى (الأوقاف) ، ذلك أن الجزائريين لم يعترضوا في الماضي على تعليم أبنائهم اللغة الفرنسية فى مدارسها . ولكن اعتراضهم كان منصبا على تعليمها أولا في المدارس القرآنية الملحقة عادة بالمساجد ، وثانيا تعليمها على يد معلم فرنسي بالذات ، كما أوصى بذلك المفتش ارتو Artaud . ذلك أن اختلاق هذه القضية هو الذي أدى الى رفض المفتى الكبابطي وجماعة المعلمين والأهالي لتعليمة وزير الحربية والتي كانت القشة التي حطمت ظهر البعير ، كما يقولون . ونحن نرجح (الاختلاق) لأن غرض الفرنسيين الأساسي هو ضم الأوقاف لما لها من أهمية سياسية ودينية ومالية أكثر من اهتمامهم بتعليم أطفال المسلمين اللغة الفرنسية . والدليل على ذلك أن هؤلاء الأطفال بقوا حتى بعد نفي المفتي الكبابطي على جهلهم بهذه اللغة وبمعارفها ، بينما ازدهر الاقتصاد الاستعماري وسيطرت الادارة على مصائر رجال الدين بعد الاستيلاء على الأوقاف . ومن جهة أخرى فان موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف

---

17 ــ تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط .

18 ــ تقرير مرفوع الى وزير الحربية بشأن الكبابطي بتاريخ 13 مايو ، 1843 ، أرشيف ايكس رقم 1 H 1

يعود الى بداية الاحتلال بينما موقفه من اللغة الفرنسية يعود الى أواخر سنة 1842 فقط •

وعلى أية حال ، فان مترجم المفتي الكبابطي يقول (وربما كان قوله من املاء الكبابطي نفسه ، كما أشرنا) : ان الفرنسيين أمروه أن ينبه على مؤدبي (يسميهم فقهاء) المدارس القرآنية الأهلية بأن يرسلوا أولادهم الى المدارس الفرنسية ليتعلموا لغة الفرنسيين هناك والرياضيات • فصار المفتي الكبابطي يعد الفرنسيين فى ذلك ويخلف وعده معهم « خوفا على ذهان الأطفال من الرياضيات وخروجهم عن الاسلام • » ولما علم الفرنسيون منه المالطة واعيته هو الحيلة فى التخلص من هذا المشكل ، « رضي بقضاء الله » واستدعى الناس في مشهد عام وعرض عليهم الموضوع فلم يقبلوه وقالوا له : « نحن رعاياهم في المعاش لا في الديانة • » وعاد المفتي الكبابطي الى الفرنسيين وأخبرهم بنتيجة الاجتماع فقالوا له : ان هدفنا هو تعليم الأطفال اللغة الفرنسية وليس الديانة المسيحية وفى هذه الحالة يمكن لمعلمي اللغة الفرنسية أن يتوجهوا الى المدارس القرآنية لتعليم الأطفال المسلمين حصة معلومة كل يوم • وأخبر الكبابطي مؤدبي الصبيان برأي الفرنسيين فرفضوه ، ولكنهم لم يكونوا يملكون حولا ولا قوة فى ذلك ، فسألوا المفتي أن يقترح عليهم حيلة فأشار عليهم بأن يسمحوا للمعلمين الفرنسيين بالمجيء الى الكتاتيب وعندما يحضرون يأمرون الأولاد بالمغادرة دون اشعار المعلمين الفرنسيين بذلك • وهكذا كان الاتفاق • غير أن الفرنسيين علموا ، عن طريق الوشاية ، بهذا الاتفاق والتحايل ، فألقوا القبض على المفتي الكبابطي وزجوا به في السجن واسترخصوا وزيرهم للحربية في عزله وطرده فأذن لهم (19) •

ولكن رأى المفتي الكبابطي الأكثر وضوحا هو ذلك الذي أبداه فى رسالته التي وجهها الى وزير الحربية عند تأزم الوضع بينه وبين السلطات الفرنسية فى الجزائر • والرسالة بتاريخ 1843 (بدون تحديد اليوم والشهر) ، ومنها نعرف أنه ، بناء على الأوامر ، طلب مهلة لعرض

19 ـ تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط .

الموضوع على المؤدبين والآباء والتلاميذ • وأراد الفرنسيون الضغط عليه وتخويفه فزجوا بابن أخيه (أحمد بن عاشور) فى السجن لأنه كان يدير مدرسة الجامع الكبير ، وكان قد أهان المعلم الفرنسي الذي جاء لزيارته فى المدرسة بل أهان (كما يقول أحد التقارير) السلطة الفرنسية نفسها • ومع ذلك استمر المفتي الكبابطي فى مهمته ، فاستدعى المعلمين (المؤدبين) وابلغهم نوايا الوزير وأوامره ، وهو تعليم اللغة الفرنسية مدة ساعة فى مدارسهم القرآنية • ولكن المعلمين رفضوا ، ونقل المفتي الكبابطي الى الوزير أن الآباء لا يرغبون فى تعليم أطفالهم سوى القرآن الذي لا يتماشى تعليمه مع أي تعليم آخر ، ذلك أن الأطفال فى هذه السن (الابتدائي) ما يزالون لا يعرفون العربية التي هي الوحيدة المفيدة لهم في دينهم ، فكيف تضاف اليهم الفرنسية التي هي ليست فقط غير مفيدةلهم بل هي مضرة • واقترح المفتي الكبابطي ضمنيا أن يفتح الفرنسيون المدارس ، اذا شاؤوا ، لتعليم لغتهم : فمن شاء من المسلمين ارسال أولاده اليها فلا مانع من ذلك • وأخبره أنه مفتي فقط لا يستطيع أن يجبر أحدا على تعليم أبنائه الفرنسية • ثم أن سجن قريبه قد حطم قيمته المعنوية فى أعين الناس وأضر بسمعته • أما رأيه الشخصي فهو المعارضة التامة لأي اجراء يشغل أطفال المسلمين عن تعليم القرآن والاعتراض على أي تعليم غير التعليم العربي (20) •

بهذا يتضح أن الفرنسيين قد وجهوا حملة من الضغط على المفتي الكبابطي لكي يضعف ويلين لا بالنسبة لقضية التعليم فقط ولكن بالنسبة لقضية الأوقاف التي قلنا انها أكثر أهمية في نظرهم • فقد زار المعلم الفرنسي مدرسة الجامع الكبير بدون انتظار ، ولما سمع ما لا يرضيه جعلت السلطة من ذلك حادثة وموقفا سياسيا أبلغته الى الوزير فى تقريرها كما سجنوا قريب المفتي تهديدا له وارعابا ، واهانة أمام الناس • ثم نصبوا له الوشاة لمعرفة ما يدور فى مجالسه واتصالاته • وبذلك مهدوا الطريق للحكم عليه بالعصيان والتمرد والمقاومة السياسية ثم بالعزل من منصبه والطرد من البلاد •

---

20 — خلاصة رسالة المفتي الكبابطي الى وزير الحربية ، ارشيف ايكس 1 H 1 وسنذكر ترجمتها •

وتبدأ قضية التعليم هذه منذ أكتوبر 1842 • ففي 24 من هذا الشهر أصدر وزير الحربية أمرا بتعليم اللغة الفرنسية للأطفال العرب فى المدارس الأهلية (21) وكان ذلك القرار وليد اقتراح تقدم به السيد ارتو المفتش العام للدراسات والمكلف بمهمة تتعلق بالتعليم العمومي فى الجزائر • وتشير التقارير ان هدف الوزير من القرار هو استفادة الأطفال العرب من الحضارة الفرنسية • وكان هدف الحاكم العام (وهو بيجو) من وراء نشر « لغتنا » اللغة الفرنسية ، بين الأطفال العرب هو استفادة فرنسا منهم واستفادتهم من معارفها • ولكن القرار الوزاري المذكور لم ينفذ • وذلك راجع الى المعارضة الشديدة التي بدأها ضده المفتي الكبابطي • وتؤكد ذلك برقية مدير الداخلية المؤرخة فى 15 أبريل 1843 وبرقية الضابط مسؤول اقليم الجزائر بتاريخ 30 أبريل 1843 •

وهذا العصيان يجب أن يقابل بردع شديد لأنه لو بقى صاحبه بدون عقوبة لترتب على ذلك عواقب وخيمة • فبعد أن أشار التقرير الى أن معارضة المفتي الكبابطي للقرار الوزاري تجبر الولاية العامة فى الجزائر اما على التخلي تماما عن تنفيذ أوامره ، واما على تأجيلها الى أجل غير مسمى (وفى كلتا الحالتين تراجع لا يليق بكرامة السلطة الحاكمة) — طلب من الوزير الموافقة على المقترحات المقدمة اليه بردع المفتي وتلقين غيره ، من خلاله هو ، درسا قاسيا ، ذلك « اننا لو تركنا هذه المعارضة للقرار الوزاري بدون عقوبة لترتب على ذلك نتائج وخيمة » ، ولكان المفتي مثالا لغيره فى العصيان والتمرد على السلطة الفرنسية • وأضاف التقرير « ان الظروف التي أحاطت بعصيان المفتي وأتباعه تجعل من الضروري اتخاذ ردع فوري ضده • » ذلك ان المفتي كان دائما « يصر على رفض المحاولات التي قدمت له » كما أن قريبه ، مدير مدرسة الجامع الكبير ، قد أهان شخص المفتش الذي ذهب لتنصيب معلم اللغة الفرنسية فيها ، وهو فى الواقع انما أهان بذلك السلطة الفرنسية نفسها لأنه تفوه ضدها بعبارات مهينة • وأخيرا فان المفتي كتب رسالة الى الوزير « عبر

21 — في تقرير آخر بتاريخ 13—5—1843 ، ان تاريخ القرار الوزاري هو 24 ديسمبر 1842 .

فيها بكل صراحة عن نواياه السيئة (ضد الفرنسيين) ومعارضته المعادية لهـم » .

ولذلك اقترح التقرير على الوزير الأخذ برأي الجنـرال دي بـار De Bar ، الذي أيده المجلس الاداري فى الجزائر بالاجماع ، وهو الاقتراح الذي يقضي بعزل المفتي الكبابطي من منصبه . ثم أن « مواصلة هذا المفتي الاقامة فى الجزائر ، بعد عزله ، من طبيعتها أن تثير شغبا لدى المسلمين ضد الفرنسيين . ومن الأحسن أن تتفادى ذلك » . وتتضح نوايا أصحاب التقرير عندما اقترحوا على الوزير ، من بين ما اقترحوا ، أن يأذن للحاكم العام «بافتعال» أمر يجعل المفتي الكبابطي يغادر الجزائر من تلقاء نفسه . ولا ندري ما الذي كان يدور فى رؤوس أصحاب التقرير عندئذ ، ولكن يبدو أنهم كانوا سيلصقون به تهمة ما يحبكون خيوطها ، وقد يحضرونه للمحاكمة ، وقد يصدرون ضده حكما مزورا يجعله يطلب العفو والخروج من بلاده . وقد يفعلون به غير ذلك ، وما أكثر ما فى جعبة الاستعمار عندئذ من حبائل ومكائد يعجز عنها الشيطان . وكم قاسى أبناء الجزائر المخلصين من هذه التهم «المفتعلة» فذهبوا ضحية الواجب والاخلاص لوطنهم ودينهم (22) .

ويبدو أن أصحاب التقرير أحسوا بأن اقتراحهم قد يعارضه الوزير ، لأسباب سياسية ، ولذلك قدموا له اقتراحا بديلا ، اذا أراد ، وهو أنه « اذا رأى من اللياقة السياسية توجيه المفتي ومعلم المدرسة الذي شاركه فى الرفض ، الى جزيرة سانت مارغريت ، فله ذلك . والمهم هو أن يوجه الوزير الى الحاكم العام تعليماته بذلك . وتدلنا الوثائق ان الوزير وافق على الاقتراح الأخير ، كما وافق بالطبع على عزل المفتي . وترك لبيجو حرية التصرف فى ارساله الى جزيرة سانت مارغريت لمدة محددة ، اذا رأى ان اقامته فى الجزائر لا تخدم المصلحة الفرنسية (23) .

---

22 ـ من ضحايا هذه التهم المفتعلة ابن العنابي في بداية الاحتلال والطيب العقبي سنة 1936 .

23 ـ أنظر : هذا التقرير في أرشيف ايكس ، رقم . وقد وقعه هيلمان (؟) Helleman رئيس المكتب ، وكذلك شاهده ووقعه المتصرف العسكري . وفي نهايته موافقة وزير الحربية المنفصلة .

وبناء على ذلك ، أصدر بيجو الأمر بعزل الكبابطي من منصبه كمفتي المذهب المالكي . وقد ألقى عليه القبض وزج به فى السجن ، ثم صدر قرار نفيه الى جزيرة سانت مارغريت خوفا من أن ابقاءه في الجزائر معزولا يثير الاضطراب ، ولا سيما انه ثبت ان له أتباعا من بين الأهالي ، وان السلطات كانت تشتبه فى اتصالاته بالأمير عبد القادر (24) . فقد قال تقرير قنصلية فرنسا بالاسكندرية ان المفتي الكبابطي قد نفى أن تكون له علاقة بحركة الأمير عبد القادر التي كانت عندئذ على أشدها . ومع قرار العزل طبعت السلطات الفرنسية منشورا جاء فيه بلغة المستشرقين الركيكة « اعلم ان الشيخ المفتي المالكية بمدينة الجزائر قد انعزل من وضيفته ومنتفى بامر الحاكم بجزيرة يقالها سانت ماركريت ، وهي من بلد فرنصة وبقرب مدينت طلون ... وكذلك انعزل وانتفا الشيخ المسيد امتاع الجامع الكبير ... فالاجل ذلك الحكام ينطرون بالحين فى واحد الراجل طالب وعالم ليتسمى فى منصب مفتي سادات المالكية .. (25) » .

وفى الحين اجتمع مجلس من بعض ضعاف النفوس ، تحت المظلة الفرنسية ، واختاروا لمنصب مفتي المالكية ، بطريقة أصبحنا نعرفها من ممارسات النظام الاستعماري فى الجزائر بعد ذلك ، شيخا هرما قارب الثمانين من عمره يقال له مصطفى القديري ، خلفا للمفتي مصطفى بن الكبابطي ، وذلك سنة 1259 للهجرة . وقدمت ادارة بيجو هذا الاختيار الى وزير الحربية فوافق عليه بقرار صادر فى 26 يونيو سنة 1843 . كان راتب الشيخ القديري ستة آلاف فرنك سنويا . وأعطى ختما مؤرخا بسنة 1259 هـ ، ولكبر سنه وعجزه الجسماني طلب تعيين ابنه ، الذي كان يتكلم اللغة الفرنسية ، وزار باريس ، خوجة (مساعدا) له ، فوافقت الادارة على ذلك بعد أقل من شهرين من تنصيبه مفتي المالكية (26) . وكان راتبه 360 فرنكا . وقد وصف السيد ديموراينكور (27) فى تقريره

24 – أنظر : تقرير قنصل فرنسا في الاسكندرية الى وزارة الخارجية ، بتاريخ 4 أغسطس 1843 ، أرشيف ايكس ، رقم 1 H 1

25 – أرشيف ايكس ، رقم 1 H 1

26 – صدر قرار تعيين ولده في شهر اغسطس ، 1843 .

27 – أرشيف ايكس ، 1571 ، F 80 صاحب التقرير هو Demoyencour وهو الذي عينه وزير الحربية للاشراف على التلاميذ العرب (الجزائريين) الذين جيىء بهم الى فرنسا .

لسنة 1843 الشيخ القديري الذي رآه رأي العين ، بقوله : انه كان كبير السن يعاني الضعف ولا يستطيع المشي الا بصعوبة ، ولذلك كلف أحد أبنائه بالجولان به فى الجامع الكبير ، فأخذه هذا الابن الى الصومعة . وأخبر عنه انه كان زار باريس ويعرف شيئا من الفرنسية ، وان والده قد عبر له عن رغبته فى أن يذهب ابنه من جديد الى باريس ، وانه لا يمانع من تعليم أطفال المسلمين على يد الفرنسيين وأنه ممنون للوزير على موقفه من التعليم الخ . وماذا يريد الفرنسيون عندئذ أكثر من ذلك ؟ ان كل « الافتعالات » التي اختلقوها للكبابطي كانت تهدف الى الوصول الى هذه النتيجة .

وقد اطلعنا على عدة رسائل مكتوبة على لسان المفتي الجديد (القديري) تدل على ضعف فى اللغة والتعبير . وهي رسائل ذات موضوعات دينية تخص مهمة المفتي المالكي مثل قضايا الوقف وعزل بعض الموظفين وتعيين البعض وتحديد الرواتب ، ونحو ذلك . وكان المفتي المالكي يوجه رسائله الى السيد مدير الداخلية بالادارة العامة التابعة للوالي العام بالجزائر ، وهي نفس الجهة التي كان يتراسل معها المفتي الكبابطي أيضا قبل عزله (28) .

* * *

وتنفيذا لأمر بيجو نفي الكبابطي وولده وابن أخيه من الجزائر وحملوا على ظهر باخرة الى مرسيليا تمهيدا لنقلهم منها الى منفاهم ، جزيرة سانت مارغريت التي تقع بالقرب من طولون . ولم نستطع الآن ضبط تاريخ خروج الكبابطي من الجزائر ولكنه على أية حال كان في آخر شهر مايو 1843 . وعند نزولهم في مرسيليا في أول يونيو ، سلموا الى الشرطة كما يفعل بالمجرمين ، وشددت عليهم الرقابة ، وكان مرافقهم ومترجمهم هو السيد بالير Ballir ، وكان مصروفهم أثناء ذلك 336 فرنكا . ويبدو أن المراسلات بين المصالح الفرنسية انتهت الى أنه من الأفضل للمصلحة الفرنسية عدم توجيه المفتي السابق الى الجزيرة المذكورة ، بل الأولى تركه يذهب الى المشرق بناء على طلبه . وفى هذا المعنى يقول عبد

---

28 ـ عن هذه الرسائل أنظر أرشيف ايكس ، رقم 1 I 22

الحميد بك عنه « واستأذنوا (أي السلطات الفرنسية في الجزائر) عنه سلطات باريس فأخبرتهم بتوجيهه حيث يريد فاختار الاسكندرية فحضر اليها فى السنة المذكورة (1259 هـ) • » وقد وجدنا نحن ثلاث رسائل يبدو أنها جميعا بخط الكبابطي ، موجهة الى وزير الحربية الفرنسي من مرسيليا ، تستعطف وتلح فى الاستعطاف، لكي يسمح الوزير لــه بالتوجه الى المشرق بدل النفي الى سانت مارغريت • واثنتان من الرسائل مؤرختان بـ 5 يونيو و 11 منه ، أما الثالثة فليس عليها تاريخ ولكن يبدو أنها كتبت فى أول يونيو ، من نفس السنة •

في الرسالة الأولى (مجهولة التاريخ) يخبر الكبابطي وزير الحربية بوصوله الى مرسيلية منفيا من الجزائر ، حسب أوامره ، ويطلب منه السماح له بالتوجه الى بلد من بلاد المسلمين ،مثل اسكندرية أو اطلابس (طرابلس) أو تونس لكي يقدم عليه أولاده ويتوجه معهم ، من هناك ، الى الحجاز لأداء فريضة الحج التي لم يؤدها رغم كبــر سنه • وهذه في الواقع رغبة معظم الجزائريين الذين وقعوا فى قبضة الفرنسيين خلال عهد الاحتلال ، بما فى ذلك الأمير عبد القــادر والحاج أحمد ، بــاي قسنطينة • وفي نفس الرسالة يطلب الكبابطي بطاقة تعريف يتقدم بها الى القناصل فى البلدان التي سيمر بها حتى لا يواجه مشاكل السؤال عن هويته ومصيره • ويبدو من الرسالة أن الكبابطي لم يكن على علم بما كان يدور بشأنه من مراسلات في الدوائر الفرسية • ولعل المترجم بالير هو الذي كان يحثه على استعطاف الوزير باطلاق سراحه الى المشرق • ومهما كان الأمر فان بالير هو الذي كان ينقــل رغبات الكبابطي الى السلطات الفرنسية ويترجم رسائله ويراقبه باسمها • ولعل ما فيها من مبالغة فى الاستعطاف كان أيضا من وحي هذا المترجم امتحانا لصدق الكبابطي •

أما الرسالة الثانية (5 يونيو ، 1843) فلا تختلف عن الأولى سوى فيالمبالغة في الاستعطاف،والشعور بالقلق منغضبالفرنسيينوالخوفمن المصير المجهول • ذلك أن الكبابطي لم يكن يعرف حتى الى ذلك الحين ماذا سيفعلون به بعد أن عزلوه ونفوه من الجزائر • وقد كرر الطلب من الوزير « بالتسريح الى بلد من بلاد الاسلام غير الجزائر » والتوجه

بعائلته ، بعد أن تلتحق به ، نحو المشرق (وهو يعني الحجاز فيما يبدو) واخباره بأنه كثير الأولاد وكبير السن ، فمثله من يستحق العفو والشفقة. كما طلب منه أنه ، فى حالة الموافقة ، يرسل بذلك الى حاكم مرسيليا (المسمي دوبول) .

وليس فى الرسالة الثالثة (11 يونيو ، 1843) سوى شكر الوزير على استجابته لطلبه وتسريحه الى الشرق ، « حيث سرحتنا وأذنت بذهابنا الى الاسكندرية لنجتمع مع أولادنا هناك . » ولم يكن الكبابطي يعلم أن الوزير قد سرحه لأن سجنه ونفيه ـ حسب اقتراح فرنسي ـ لا يخدم المصلحة الفرنسية ، وأن الأفضل تسريحه الى مصر ، وليس لأن وزير الحربية الفرنسي قد فعل ما فعله معه « شأن الملوك والوزراء الذين ينتظم بحسن سياستهم العالم » كما كان الكبابطي يعتقد خطأ (29) .

وبذلك انفرج جزء من هموم الكبابطي فغادر مرسيليا فى نفس اليوم (11 يونيو) على باخرة تابعة لشركة المشرق Levant الفرنسية كانت متوجهة الى الاسكندرية . وكان يرافقه فيها ابنه (الذي لا نعرف اسمه) وابن أخيه (أحمد بن عاشور) الذي كان معلم أولاده ومدير مدرسة الجامع الكبير والذي عامله الفرنسيون بقسوة لاهاناته لهم ، كما سبق . ولكن قبل اطلاق سراح الكبابطي أخذوا عليه تعهدا بأن لا يعود الى الجزائر أبدا (30) .

وصل الكبابطي الاسكندرية يوم 24 يونيو 1843 ، ونزل ضيفا على مواطنه ورفيقه في المحنة محمد ابن العنابي ، الذي كان الجنرال كلوزيل قد نفاه من الجزائر بعد شهور فقط من الاحتلال ، وكان ابن العنابي حينئذ يشغل وظيفة مفتي الحنفية بالاسكندرية بتعيين من محمد علي والي مصر . وسرعان ما أرسل قنصل فرنسا بالاسكندرية برقية الى الخارجية

29 ـ أنظر الرسائل الثلاث في أرشيف ايكس رقم 1 H 1 . وسنوردها بنصوصها
30 ـ أنظر أرشيف ايكس رقم 1 H 1 في آخر البحث .

الفرنسية (أول يوليو،1843) يخبر فيها بوصول الكبابطي ونزوله عند ابن العنابي الجزائري ونفيه أن تكون له علاقة بحركة الأمير عبد القادر ورغبته في التوجه ، بعد وصول عائلته ، الى الحج .

* * *

استقر الكبابطي اذن فى الاسكندرية بعد امتحان عسير ورحلة مثيرة . ومنذ هذا التاريخ (24 يونيو ، 1843) بدأ ، فى الواقع ، حياة جديدة وقديمة فى نفس الوقت ، حياة المهاجرين المنقطعين عن أوطانهم ظلما وعدوانا . ومن سخريات القدر أن الكبابطي هو الذي كان قد افتى بعدم الهجرة من البلاد الاسلامية اذا تغلب عليها الكفر ، فاذا به يجد نفسه مهاجرا مراغما الى قطعة أخرى من أرض الاسلام بارادة الكافر الذي رفض الهروب منه .

ومن حسن حظه انه وجد فى ابن العنابي صديقا وفيا جرب النفي والهجرة والغربة (31) . فقد سعى لدى محمد علي من أجله لكي يجري عليه معاشا ويحسن مقامه . ويقول عبد الحميد بك عن هذه الظروف : عندما جاء الكبابطي الى الاسكندرية اجتمع بمفتيها محمد الجزائري (ابن العنابي) وأخبره بما حصل له ، فأخبر هذا محمد علي باشا بذلك فرتب له رزقا كافيا ، وأقام فى الاسكندرية مشتغلا برواية الحديث فى جميع الأوقات . وكان فى كل سنة يروى البخاري ومسلما فى جامع تربانة الواقع على الميناء الشرقي . وقد روت عنه الحديث أغلب علماء الاسكندرية . وكان الكبابطي كثير الفتوى على مذهب مالك (32) .

ورغم ترجمة عبد الحميد بك لحياة الكبابطي فى المشرق باختصار ، فان هناك جوانب كثيرة ما تزال غير معروفة من حياته . فقد أقام فى الاسكندرية حوالي ثماني عشرة سنة ، كلها فى سن النضج ، بل الهرم . فماذا فعل ؟ وماذا ترك ؟ وهل تكفي عبارة وكان « مشتغلا برواية الحديث

31 ـ انظر عنه كتابنا : المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي ، الجزائر ، 1978 .

32 ـ تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط .

فى جميع الأوقات » لتغطية كل نشاطه البدني والعقلي ؟ كيف وصلت عائلته وأولاده الكثيرون اليه من الجزائر ؟ وهل أدى فريضة الحج كما وعد ؟ وأي البلدان زار غير الاسكندرية ؟ وهل فكر فى الجزائر وأهلها بعد هجرته منها ؟ وهل كان لقنصلية فرنسا فى الاسكندرية عين ساهرة عليه ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها تظل بدون جواب .

ان جالية المهاجرين الجزائريين بالاسكندرية كانت تكبر وتتفرع . فبالاضافة الى ابن العنابي وابن الكبابطي نعرف ان بعض أعيان الجزائر قد توجه اليها بعد الاحتلال طوعا أو كرها . ومن أولئك حسين باشا ، آخر دايات الجزائر ، وحسن باي ، آخر بايات وهران ، ومصطفى بومزراق ، آخر بايات التيطري . ولا شك ان هناك غيرهم ممن لا نعرفهم اليوم ، وقد ترك هؤلاء أبناء وأحفادا اختلطوا بأبناء وأحفاد ابن العنابي والكبابطي . وكان هؤلاء يتجاوبون مع عائلة الامير عبد القادر التي اختارت دمشق ، وعائلة ابن رويلة التي اختارت الحجاز وعائلة حمدان خوجة التي اختارت اسطانبول وعائلة بوضربة التي اختارت المغرب الأقصى ، وهكذا توزع أعيان الجزائر ومثقفوها على خريطة العالم الاسلامي . فما مكانة الكبابطي بين هؤلاء ؟

فنحن لا نتصور ان الكبابطي قد حصر كل نشاطه فى رواية الحديث الشريف ، كما يقول تلميذه عبد الحميد بك . اذ لا نشك فى أنه كانت له نشاطات أخرى أدبية ودينية واجتماعية لم يذكرها المترجم له . فالانسان يعيش فى دنياه كأنه لن يموت أبدا ، كما يقول الحديث . ومهما كان الأمر فان تلميذه الآخر ، وهو محمد عاقل ، يتفق مع زميله فى أن الكبابطي كان متفرغا لرواية الحديث حتى اشتهر فى ذلك بين الناس . ولما عجز عن الخروج الى الجامع المذكور (جامع تربانة) اعتكف فى داره ابتداء من سنة 1270 هـ ، ولكنه بقى يروي الحديث فى بيته لمن حضر اليه . وقبل وفاته بحوالي ثلاث سنوات اجتمع به ، عبد الحميد بك (سنة 1274) فى بيته وأخذ عنه حديث المسلسل بالأولية ، كما أخذ عنه حديث المصافحة . وكان الكبابطي قد أخذ هذا عن شيخه محمد الرضوى البخاري عند مرور هذا بالاسكندرية . وممن أخذ عنه

الحميد بك عنه « واستاذنوا (أي سلطات فرنسا فى الجزائر) عنه العلم أيضا بعض علماء الاسكندرية وأدبائها ، ومنهم الشاعر محمد عاقل صاحب ديوان (لسان الشباب) الذي خص شيخه بمرثية مناسبة اثر وفاته وقرأها على جثمانه المسجي . كما أخذ عن الكبابطي العلم بعض علماء المغرب ، كما سبق . وقد توفي الكبابطي عن سن متقدم ، سنة 1277 هـ ودفن بمقبرة أبي العباس أحمد المرسي (33) .

* * *

ذلك هو مصطفى الكبابطي العالم الديني الذي شغل وظائف القضاء والفتوى والتدريس فى الجزائر والاسكندرية . وذلك هو الرجل صاحب الموقف الذي هز الادارة الاستعمارية بتصلبه فى رفض ضم الأوقاف الاسلامية الى أملاك الدولة الفرنسية وفرض اللغة الفرنسية على الأطفال المسلمين فى مدارسهم بدل لغة القرآن ، والذي رفع مبكرا شعار الثقافة الوطنية وهو استقلال الدين الاسلامي عن فرنسا وتعريب التعليم فى الجزائر ، قبل أن ترفعه الحركة الوطنية الجديدة بأكثر من سبعين سنة .
فمن هو الكبابطي الأديب والمؤلف ؟

ان الذين تحدثوا عنه لم يذكروا له تآليف معينة في أي فرع من فروع المعرفة . فلم ترد فى قصيدة محمد عاقل فى رثائه الا اشارة الى أنه ألف : « ولكم أجاد بما أفاد وألفا . » أما عبد الحميد بك فلم يذكر انه كان من المؤلفين وانما ركز على وصفه بأنه كان « راوية » للحديث الشريف . ونحن لا نتصور الكبابطي الا أنه ترك « تقاييد » على الأقل فى الحديث وغيره من العلوم التي كان يدرسها فى الجزائر وفى الاسكندرية ، وقد وصف نفسه ذات مرة للفرنسيين بأنه مشتغل بالفتوى وبالتعليم العالي . ولكن تآليف الكبابطي ، اذا كانت ، لم تصل الينا ولم يذكرها أحد بالاسم حتى الآن .

---

33 ـ أنظر تاريخ عبد الحميد بك ، مخطوط ، وفيه أن وفاة الكبابطي كانت سنة 1278 . وديوان لسان الشباب لمحمد عاقل ، مخطوط رقم تيمور / شعر 1264 ، وفيه ان الوفاة كانت سنة 1277 ، وقد رجحناه لأنه أرخ ذلك بحساب الجمل وحضر الجنازة ، أنظر كذلك مقالتنا : قصيدة في رثاء المفتي الكبابطي ، في مجلة الثقافة ، عدد 44 ، سنة 1978 .

أما الشعر فيبدو أنه ترك منه مجموعة في أغراض شتى • وهو وان لم يكن من فحول الشعراء أمثال محمد بن الشاهد ، وأحمد بن عمار ، فانه كان يقول القريض سجية ، وكان يجيد بحوره وقوافيه ، ألم يكن هو من نسل أولئك الأندلسيين الذين ملأوا الدنيا أشعارا وموشحات ؟ وقد عثرنا له حتى الآن على قطع هنا وهناك ، ولا نعتقد أن شعره مجموع فى مكان ما ، اللهم الا أن يكون فى مكتبات الاسكندرية وعند خاصتها • وقد أورد له عبد الحميد بك بعض القطع من شعره الذي قال عنه : « ان المقام لا يتسع لذكره » • ويا ليت المقام سمح لعبد الحميد بك بايراد الكثير من شعر الكبابطي حتى لا يضيع هدرا ، فهو ثروة أدبية للجيل المعاصر الذي يبحث بشغف عن آثار قومه • وأما قول عبد الحميد بك عن الكبابطي « وله شعر لا بأس به » فلا يعتد به ، لأن عبد الحميد بك هنا ليس من نقاد الشعر الذين يحتكم الى آرائهم فيه • ومع ذلك فهو صادق اذا كان يقصد انه شعر متوسط الجودة • أما أغراض شعر الكبابطي المذكور ، فى القطع التي اجتمعت لدينا فهي : الشكوى ، والغزل ، والرثاء ، والاخوانيات • وسنورد هذه القطع بعد قليل •

أما النثر الأدبي فليس لدينا منه له سوى الرسائل الثلاث التي وجهها لوزير الحربية الفرنسي فى شأن اطلاق سراحه • وهناك الرسالة التي وجهها الى الوزير نفسه عن طريق مدير الداخلية فى الجزائر • ولكننا لم نجد منها سوى ترجمتها الفرنسية ، أما نصها العربي فغير مذكور معها • وقد ذكر ايمريت ان الكبابطي كتب مذكرة عن الأوقاف الاسلامية الى السلطات الفرنسية وحدد ايمريت موقع هذه المذكرة وهو الارشيف الوطني الفرنسي ، ونحن فى الواقع لم نطلع عليها • ومما لاشك فيه ان سنوات وظيفة القضاء والفتوى والغربة والتدريس قد انتجت عددا من التقارير والرسائل والمحاضر ونحوها مما يكون الكبابطي قد صاغه فى الأغراض المختلفة المذكورة • كما أن العلاقات الشخصية والانسانية تحمل صاحبها على كتابة الرسائل وغيرها • ومن الصعب أن نحكم مثلا على أسلوب الكبابطي النثري من الرسائل الثلاث التي بين أيدينا • فهي رسائل رسمية جدا ، وفى غرض محدد وهو الاستعطاف • ولذلك لا نجد فيها السجع الذي اشتهر به أدباء ذلك الوقت ولا طول الديباجة ، بل هي

رسائل مختصرة ومباشرة ، تشبه الرسائل الادارية المعاصرة • ونحن نورد هذه الرسائل الثلاث ، ونضيف اليها ترجمة رسالته الرابعة ، كوثيقة •

وكم نكون سعداء لو عثر الباحثون بعدنا على آثار هذا الرجل الأخرى لتضيء جوانب حياته التي ما تزال خفية • أما الآن فحسبنا أن نقول ان الكبابطي كان بموقفه ذلك شمعة فى ليل الاستعمار الدامس المهول ، وقد ترك للجيل الحاضر مثلا يحتذى به فى قول الحق أمام الجبارين ولو كانوا هم بيجو وزبانيته •

جامعة ميشيقان (آن آربر) امريكـا
يوم 26 يوليو 1984

أ ـ اللاحق الشعرية

ـ وصف حالته في السجن .

ـ وصف محنته .

ـ رثاء شيخه علي المانجلاتي .

ـ في زواج ابن صديق له .

ـ تعاريف المنطق .

ـ من غزله .

ـ في التوسل .

وصف حالته في السجن :

حصرت رجائي في الخبير بحــالتي   ولذت بخير الخلق فهو وسيلتي (1)
غرست بقــاع القلب شوق أحبتــي   ولا زلت اسقيــه بوابل عبـــــرتي
فان قــدر المولى جنيت ثمـــــاره   وحزت بفضل الله افضـــــل لـــذة
فمن ذا الذي يقضي ســواه تفضلا   بيســــر قــريب بعــد عســـر ومحنة
فـــان الهي عـــــالــم بســــريــرتي   غيــور قــدير فهــو سؤلي وعمدتي

وصف محنته :

اشاب عذارى حيث شبت صبابتــي   صروف الليالي باعتقــال مطيتي (2)
وكلن غزير الـــــدمع يهمي بمقلتي   فصبــر جميــل لا وثــوق بحــالتي
صـــرفت عنـــاني للخبير بحــالتي   حليــم كــريم لا يبــالي بذلتــــــي
ولذت بخــير الخلــق فهو وسيلتــي   عليه ســـلام الله في كل لحظـــــة
وكنا عـــلى الآل الكـــرام احبتي   بحبهمـــو أرجـــو وفـــور شفاعتي

رثاء شيخه علي المانجلاتي :

سهام المنايا علام تميل عن الغــرض   فلو تقبل الابدال كنت آنا العوض (3)
ولكنها تجني نفـــوســـا زكيـــة   فلــم يثنها عنهــا بديل اذا افترض

---

1 ــ من (تاريخ عبد الحميد بك) ــ مخطوط ، وكذلك القطع الثلاث التالية . وقد قدم له بقوله : « ومن قوله وهو في الحبس » .

2 ــ نفس المصدر ، وقد قدم لها بقوله « وقال في حال محنته » .

3 ــ نفس المصدر ، وقدم لها بقوله : « وقال يرثي شيخه على الجلاسي » وهو يعني المانجلاتي ، لانه ذكره كذلك في مكان آخر . ووردت كلمة مربع «أربع» ، وكلمــة اتمظ «اتمض» ، وكلمة فاله (من اللهو) «فالهي» .

فكم اقفرت من مربع بات أهله، … على الأمن ثم اصبحوا مع ما انقرض
هو الموت فاحذر نبله متفوقا … فوجدانه وعظ كفى لمن اتعظ
وقل للذي أضحى المشيب نذيره … لقد حان منك الأمر فاله عن العرض

في زواج ابن صديق له :

لقد لاح فجر السعد غر نجومه … فتحرسه رجما على كل شيطان (4)
فماست غصون الروض في حسن بهجة … مفتحة الأزهار تزهو بألوان
تزخرفت الألوان والطير أفصحت … بصوت رخيم من غريب وزيدان
يفوق ربابا بين عودين عندما … يحركه قوس بجس بنان
فاكرم به سعد بشير شفاؤه … تملكه (؟) لمن يسمى بحمدان

تعاريف المنطق :

أيا معشر الخلان جولوا بفكركم … نهيب اشتياقي هل يرى فصل حده (5)
فان حبيبي قد شجاني بصده … وما جاد لي يوما بطيف خياله
سروري جزئي لكلي وصله … أيدرك سلواني بلا جنس قربه
قضية صبري بالضروري توجهت … وعكس انتظاري قد مضى لي بنقضه
فلا زلت أحيي الليل بالدمع والبكا … لعلي أرى صبحا يضيء بوجهه
فتنبسط الأفراح كالشمس بيننا … وتفنى ظلال البين خوفا لحسنه
هو الحسن الاسنى سمي محاسن … وقاه الاله من حسود وشره

من غزله :

سقاني مدام الحب ساحر لحظه … أراني ورود الروض تندا بخده (6)
يفوق على الياقوت باسم ثغره … حلا جيده مسك تراه بنحره
دوائي برقي ريقه عند مزه … مليح جميل الفعل حتى بشجره
يمين علي لا أزال بحبه … دنيف ، ولو جاد الحكيم بطبه

---

4 — نفس المصدر ، وقد قدم لها بقوله : « ومنه هذا الشعر الذي أرسله الى صاحب له يريد زواج ابن له يسمى حمدان » . كما وجدنا معه تعليقا عن عبارتي غريب وزيدان ، نصه هكذا « الغريب في اصطلاح أهل المغرب نغم يشبه الحسيني ، والزيدان يشبه الحجازي » هذا ولم نستطع قراءة كلمة «تملكه» أو نحوها ، فهي غير واضحة في النص .

5 — يقول عبد الحميد بك الذي أورد هذه الأبيات « ومنه (أي الكبابطي) هذا الشعر الذي ذكر فيه تعاريف المنطق » ، أنظر : (تاريخ عبد الحميد بك) — مخطوط .

6 — وجدنا هذه الأبيات في كناش لمجهول ، رقم 16511 بالمكتبة الوطنية التونسية ،ص13. ومعها هذه المقدمة « وللشيخ مصطفى بن الكبابطي القاضي بالجزائر كان ، يتغزل فيمن يستخرج اسمه من الحرف الأول من مصارع الأبيات » . — أي سيدي أحمد —

في التوســـل :

هـــال النوى كل قلب كان يأنســـه والصبر شـــرده مر الفراق جلى(7)

ما مثلها دهشـــة قد فتتت كبدي وفجعة القبـــر هالتني من الوجل

والعبد ان يرتجي مـــن الكـــريم قرى حاشا الكريم بأن يكون ذا بخـــل

هو الحكيم الكـــريم الوافي بما يعد سبحانه غـــافـــر للذنب والزلـــل

يا رب حقق لنـــا الرجاء واغفر لنا بجـــاه من جـــاءنـــا بأفضل الملـــل

هـــو الشفيـــع غـــدا في كل امتـــه صـــلى عليـــه المجيب في كل محتفل

7 ـ عثرنا على هذه الأبيات في مجموع رقم ك 1233 بالخزانة العامة بالرباط ـ المغرب ، ص 425 ، وأولها «من كلام الشيخ مصطفى بن الكبابطي » مع ملاحظة أن الوجل مكتوبة « الوجلي » وأن بخل مكتوبة « بخلي » .

ب ـ الملاحق النثرية

ـ رسائل الكبابطي الى وزير الحربية الفرنسي :

1 ـ رسالة أولى .

2 ـ رسالة ثانية .

3 ـ رسالة ثالثة .

ـ اعلان الحاكم العام عن عزل المفتي الكبابطي وشغور منصب .

ـ رسالة الكبابطي الى وزير الحربية (مترجمة) .

ـ تقرير عن موقف الكبابطي (مترجم) .

رسالة من الكبابطي الى وزير الحربية

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين •

الى سعادة الوزير الأعظم الحليم الأفخم سنيور منيشطروا (1) الدولة الفرانسوية أدام الله حياته •

بعد السلام التام عليك والتكريم العام

فهذا كتاب من الفقير مصطفى بن محمد الذي أمرت باخراجه من الجزائر فتراه وصل الى مرسيليه وهو يطلب فضلك وجودك واحسانك أن تمن عليه وتأذن له أن يذهب الى بلد من بلاد المسلمين مثل اسكندرية أو اطلابس أو تونس ليسهل عليه قدوم أولاده وعياله ليذهب بهم معه الى أرض الحجاز مكة والمدينة لأني كبير السن ولم أحج • وان زاد فضلك علي وانعامك تكتب لي ورقة الى قناصر (كذا) البلد الذي أذنت لي فيها ليكونوا في عوني ، والله يعينك ويزيد في عمرك ولا زائد الا طلب فضلك•

---

1 ـ هو وزير الحربية الذي كان المسؤول على الجزائر في الحكومة الفرنسية • وكلمة (سينيور) معناها السيد • ويبدو التأثر بالاسبانية واضحا ، أما كلمة (منيشطروا) فتعني الوزير (مينيستر) ، وهكذا في الرسائل الثلاث ، وقد كان الكبابطي يوقع اسمه : مصطفى بن محمد ، كما هو الرسمي أيضا • واطلابس (طرابلس) ، وقناصر (قناصل) •

رسالة أخرى منه الى الوزير المذكور

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

الى سعادة الجناب الأعظم وزير الدولة الفرانسوية سنيور المانيشطروا ذي القرة (1) الافخم أدام الله مسرته وأطال حياته •

وبعد السلام التام الائق (كذا) بالمقام والاستعطاف والاعظام المبلغ للمرام فهذه ورقة من الحقير الضعيف مصطفى بن محمد ، كان مفتي مالكي بالجزائر ، واليوم تحت قهرك بمرسيليه يستعطفك ويطلب حنانك وشفقتك وعفوك وسماحتك فان شان الملوك اذا غضبوا سمحوا واذا استعطفوا فرحوا وسرحوا •

وانا نطلب من جودك واحسانك وسطوتك وامانك ان تجود علي بالتسريح الى بلد من بلاد الاسلام غير الجزائر لنبعث الى أهلي وأولادي يأتونني ونجتمع معهم ونذهب بهم الى ناحية المشرق ويزول حزنهم ، فاني كثير الاولاد وأنا شيخ كبير قريب الى الموت والنفاد ، وهذه مزية عظيمة لا يفعلها الا من هو مثلك •

واذا انعمت علينا بالتسريح ، ومثلك من يرجى منه ذلك ، نطلب من فضلك جوابا يصل الى يد مسيو ليوتنان جنيرالن دوبول حاكم مرسيليا ودمتم في سعادة وسرور •

في خامس يونيو سنة 1843

1 — (ذي القرة) أي الحرب بالفرنسية ، وهي كلمة شائعة في اللهجة العامية ، وتنطق القاف فيها معقوفة .

رسالة اخرى منه الى الوزير المذكور

الحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله

حضرة سعادة صدر الدولة الفرانسوية الاعظم سنيور المنيشطروا ، صانه الله وأيده وأطال عمره وأيده ءامين •

والسلام التام عليه وعلى أهل حضرته

وهذا كتاب مني اليك نشكر مزيتك بعفوك واحسانك حيث سرحتنا واذنت بذهابنا الى بلد الاسكندرية لنجتمع مع أولادنا هناك ، فالله يجمع شملك ويعلى شانك وينفذ أمرك ، فهذا شأن الملوك والوزراء الذين ينتظم بحسن سياستهم العالم ، وهذا ما يمكن من العبد الحقير مصطفى بن محمد مفتي كان بالجزائر •

11 يونيو سنة 1843

نسخة من الرسالة التي كتبها المفتي المالكي الى ادارة الداخلية بالجزائر

رسالة الكبابطي الى مدير الداخلية بالجزائر

لقد طلبت مني أن آمر التلاميذ المسلمين بتعلم اللغـة الفرنسيـة فى مدارسهم خلال ساعة • وقد قبلت ذلك وطلبت الوقت للتفاهم مع المعلمين والآباء والتلاميذ • ولم يكد يحين الوقت الذي أوفي فيه بوعدي حتى سارعتم بسجن قريب لي ، وهو معلم أولادي والذي يقوم الى جانبي فى الجامع الاعظم ، بل انكم أوصيتم الحارس بوضعه فى السجن المضيق • وأنا أشكرك على ذلك •

لقد اجتمعنا عدة مرات ، وطلبنا منك العفو عنه ، فأجبتني بقولك : انني سأطلق سراحه هذا المساء •

ومع ذلك فانك لم تطلقه الا صباح اليوم التالي • وأنا أشكرك مرة أخـرى •

ثم انني استدعيت المدرسين وبلغتهم نواياك وأوامرك • وكلهم رفضوا قائلين : اذا تحققت هذه الاجراءات بطاعتنا ورضانا وبقبولنا ، فانه لا أحد منا يقبلها • واذا كان العكس ، وهو اعتمادهـا عـلى القـوة والعنف والاحتقار ، فان السيد المدير له حق فى أن يفعل ما يشاء •

ان الآباء يرغبون فى تعليم أبنائهم القرآن ، وتعليم القرآن لا يتماشى مع تعليم آخر • فاذا كان أطفالنا ما يزالون لا يعرفون العربية التي هي

الوحيدة التي تفيدهم فى دينهم ، فكيف يمكنهم تعلم الفرنسية التي هي أبعد من أن تكون مفيدة لهم بل هي مضرة لهم . وقد لاحظت ان أغلب من يعرف الفرنسية كانوا فى أغلب الاحيان مخمورين ، ولا يؤدون الصلاة ولا يصومون . ومن الواضح أن هذا شر جد محسوس . ولا يريد حضرة الوزير أن يسيء الى أحد . واذا اتخذ اجراء فلكي يكون فى صالح رعاياه وبرضاهم حتى يجلب مودتهم ـ أطال الله فى عمره .

ان من يرغب فى تعليم أطفال المسلمين يجب عليه أن يبقى فى مكانه . فالذين يحبونه يذهبون اليه ، والذين لا يحبونه يبتعدون عنه . أما أنا فليس لي الحق ولا القدرة على اجبار أي أحد . فأنا مفتي وليس لي قوة الا فى الأحكام المستمدة من الشريعة والمسائل الدينية والتعليم العالي . ومن جهة أخرى فان نفوذي قد انهار الآن وليس لكلمتي وزن بعد سجن قريبي الذي يدرس لأطفالي بحضوري .

وأخيرا فاني أول من يعارض أي اجراء يشغل الاطفال عن تعليم القرآن . وأعترض على أي تعليم الا التعليم العربي . وأما الآخرون فلا أمنعهم ولا آمرهم بالتعلم .

لقد هددتموني بابلاغ كلامي الى السيد الوزير . فها أنا أقدمه مكتوبا بخط يدي فارسلوه اليه كما هو بدون زيادة ولا نقصان .

وانا العبد الضعيف

التوقيع : مصطفى المفتي المالكي

سنة 1843

ترجمة طبق الأصل : الكاتب ترجمان ادارة الداخلية

التوقيع : دو لا بورت Delaporte

نسخة طبق الأصل : مدير الداخلية ـ التوقيع

قرار عــزل المفتي الـكبابطي

اعلم ان الشيخ المفتي المالكية بمدينة الجزائر قد انعزل من وضيفته ومنتفى بامر الحاكم بجزيرة يقالها سانت ماركريت وهي من بلد فرنصه وبقرب مدينت طلون •

وسبب ذلك القضية هو ان الشيخ المفتي المزكور قد عصا عن امر الذي كان اعطاه له سعادة وزير الحرب وهذا الامر ما كان الا فى منفعت ساير المسلمين •

وكذلك انعزل واتنفا الشيخ المسيد امتاع الجامع الكبير بحيث ان كمثل الشيخ المفتي المذكور عصا عن أمر سعادة وزير الحرب •

واما البايلك لا يريد الا حسنة ومنفعت دين الاسلام • فالاجل ذلك الحكام ينطرون بالحين فى واحد الراجل طالب وعالم ليتسمى فى منصب مفتي سادات المالكية ويعينوا له شهريت تكون مناسبة مع الفضل وتكريم الوضيفــة •

(*) ـ تركنا هذا النص كما هو بصيغته التي وجدناه بها مطبوعا •

تقرير الى وزير الحربية بتاريخ 13-5-43

مصلحة شؤون الجزائر

اقتراح للوزير بالترخيص بطرد المفتي المالكي لمدينة الجزائر وذهابه من الجزائر ، وربما حتى ارساله الى جزيرة سانت مارغريت .

1842/12/24 قرر الوزير تعليم اللغة الفرنسية للتلاميذ الأهالي فى المدارس الأهلية فى مدينة الجزائر . ولكن برقية مدير الداخلية المؤرخة فى 43/4/25 ، وكذلك برقية الضابط مسؤول اقليم الجزائر بتاريخ 1843/4/30 اثبتتا ان ذلك القرار الوزاري قد واجه مقاومة شديدة من جانب المفتي المالكي لهذه المدينة ولذلك فان القرار المذكور لم يطبق الى حد الآن .

كان ذلك القرار الوزاري قد تم بناء على اقتراح السيد ارتو Artaud المفتش العام للدراسات المكلف بمهمة التعليم العمومي فى الجزائر ، لقد كان هدف الوزير من ذلك القرار هو فائدة هؤلاء الشبان لصالحهم وللاستفادة من الحضارة الفرنسية .

وكان الحاكم العام يأمل فى أن التلاميذ الأهليين ، بعد تعرفهم على « لغتنا » يمكن ، فيما بعد ، أن تستفيد منهم فرنسا وأن يستفيدوا هم أيضا من المعارف .

وهذه المعارضة تجبرهم اما على التخلي تماما على تنفيذ القرار ، واما تاجيله الى أجل غير مسمى . ولو تركنا هذه المعارضة للقرار الوزاري بدون عقوبة لترتبت عليها نتائج وخيمة .

والمحرك الرئيسي لهذه المعارضة هو المفتي المالكي مصطفى الكبابطي ، الذي كان يواجه بأذن صماء كل الاجراءات التي اتخذها الحاكم العام ومساعدوه ، وكان يعارض الاصلاحات التي كانت لها صلة به ، وكذلك معارضته فى ادارة الشؤون الدينية (الأوقاف) .

هذه المرة كان الكبابطي قد عصا أمر الوزير ، الذي كان قد قبله في أول الأمر ، وهو الأمر الذي كان الهدف منه تحسين أوضاع مواطنيه • ان الظروف التي أحاطت بعصيان المفتي وأتباعه تجعل من الضرورة اتخاذ ردع فوري • ان المفتش المذكور الذي ذهب لتنصيب معلم اللغة الفرنسية ، ذهب حتى الى باب المدرسة (باجامع الكبير) وقد استقبل من طرف معلم العربية ليس فقط بعبارات الرفض ولكن بعبارات مهينة للسلطة نفسها أيضا • وأثناء مقابلته لمدير الداخلية حول نفس الموضوع كان المفتي دائما يصر على رفض المحاولات التي قدمت له • وأخيرا كتب المفتي نفسه رسالة الى مدير الداخلية موجهة الى الوزير أكدت نواياه السيئة ومواقفه المعادية •

وأمام هذا الوضع فانه يبدو وأنه لا يمكن عدم متابعة اقتراح الجنرال دي بار De Bar وهو الاقتراح المدعم بالرأي الجماعي للمجلس الاداري والذي يقضي بعزل الكبابطي • ونقترح اذن الى الوزير بالسماح للحاكم العام فى الجزائر باصدار هذا العزل •

وان مواصلة هذا المفتي الاقامة فى الجزائر بعد عزله من طبيعتها أن تثير شغبا لدى المسلمين ضد الفرنسيين • ومن الأحسن أن تتفادى ذلك •

ونقترح على الوزير أيضا أن يأذن للحاكم العام اما أن يفتعل ما يجعله (المفتي) يغادر الجزائر ، واما اذا رأى من اللياقة السياسية ، أن يوجهه هو ومعلم المدرسة الذي شاركه في الرفض ، الى جزيرة سانت مارغريت واذا رأى الوزير ذلك فما عليه الا أن يوجه تعليماته الى الحاكم العام •

رئيس المكتب هيلمان (؟) Helleman

شوهد من قبل المتصرف العسكري

(توقيع)

(رأي الوزير)

ان عزل المفتي قد صودق عليه وكذلك معلم المدرسة • اذا كان الحاكم العام يرى عدم اقامتهما فليوجههما الى جزيرة سانت ماغريت لمدة محددة•

عريضة الأمير خالد الى الرئيس الأمريكي ويلسون 1919

نقدم فيما يلي ترجمة كاملة للعريضة التي قدمها وفد جزائري برئاسة الأمير خالد الى الرئيس وودرو ويلسون الأمريكي سنة 1919 (*)•وقد صورنا هذه العريضة من الميكروفيلم المأخوذ عن الأصل الموجود فى أوراق الرئيس ويلسون المحفوظة بمكتبة الكونغرس الأمريكي •

فقد صورنا تلك الوثيقة من مكتبة جامعة ميشيقان بآن آربر ، ميكرو فيلم رقم 18232 ، بكرة رقم 407 • وكان الأستاذ شارل روبير آجرون قد نشر الوثيقة من نسخة قدمها له أحد أصدقائه الفرنسيين كما قدم لها بدراسة حول ردود الفعل التي لقيتها الوثيقة من قبل الفرنسيين والجزائريين (1) ، ولكن الأستاذ آجرون لم يصف الوثيقة ذاتها ولا كيف وصلت الى الرئيس ويلسون ، وقد عثرنا على الوثائق الأخرى التي تولدت عليها وهي :

1 — رسالة من نوبل Noble الضابط الأمريكي الذي قدم اليه **الأمير خالد العريضة ، الى كلوز** Close

2 — رسالة من كلوز ، كاتب سر الرئيس ويلسون — الى نوبل •

3 — رسالة من كلوز أيضا الى الأمير خالد •

وقد رأينا ترجمة هذه الرسائل الثلاث عن الانكليزية لأنها تؤكد تقديم العريضة وتوضح طريقة وصولها الى السلطات الأمريكية

(*) — نشرت فى (مجلة التاريخ) — النصف الثاني من سنة 1981 . انظر الصور فى آخر الكتاب .

1 — المجلة التاريخية المغربية 19—20 ، اكتوبر 1980 ، ص 199—206 .

ففي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر مايو 1919 ، قدم وفد جزائري من خمسة أعضاء برئاسة الأمير خالد الحسني الى باريس ، واتصلوا (باللجنة الأمريكية للمفاوضة على السلام) بفندق كريون Corillon وهناك تقدموا بالعريضة الى الملازم جورج ب نوبل ، ضابط المشاة باللجنة ، وقد امتنعوا من توقيع العريضة ومن ذكر أسمائهم خوفا من متابعة السلطات الفرنسية لهم ، الا الأمير خالد فانه أعلن اسمه للضابط الأمريكي ، وطلب منه توصيل العريضة الى الرئيس ويلسون ومنحه وصلا يثبت اتصال الرئيس بها قبل مغادرة الوفد باريس يوم السبت بعد الظهر .

وفعلا قام الضابط نوبل بارسال العريضة الى السيد كلوز كاتب سر الرئيس ويلسون رفقة خطاب (انظر الرسالة الأولى) شرح له فيه ظروف العريضة وحالة الوفد ومطلبه ، فما كان من السيد كلوز الا أن كتب فى اليوم التالي (السبت) رسالتين قصيرتين احداهما موجهة الى الضابط نوبل يخبره أنه كتب حسب طلبه الى الأمير خالد عن طريقه (انظر الرسالة الثانية) والثانية الى الأمير خالد الحسني ، بناء على طلبه ، يخبره أنه اتصل بالعريضة وأنه سيطلع عليها الرئيس ويلسون (انظر الرسالة الثالثة) ولم نجد نحن ، رغم تتبعنا للمجلدات التي تضم أوراق الرئيس ويلسون ، ما يدل على رأي الرئيس ويلسون نفسه فى العريضة ولا على ما يدل على موقف الوفد الأمريكي من قضية تطبيق تقرير المصير على الجزائر ولا نعتقد — كما أننا لم نجد ما يدل عليه — ان الوفد الأمريكي سلم العريضة أو نسخة منها الى الوفد الفرنسي فى مؤتمر الصلح ، ولكن هذا لا يمنع من معرفة المخابرات الفرنسية للاتصال الذي تم بين الوفد الجزائري والأمريكي . غير أن هذه المعرفة ليست بالضرورة من الوفد الأمريكي ، فقد تكون من مصادر أخرى .

أما الوفد الجزائري الذي قدم العريضة فلا نعرف عن تركيبه الآن أي شيء . ويبدو من وصف نوبل أن الوفد قد حضر بين يديه بكامل أعضائه الخمسة . ولكن أربعة منه امتنعوا عن تقديم أسمائهم للسبب الذي ذكرناه . وقد رجح الأستاذ آجرون أن يكون من بين الأربعة قايد

حمود (2) ، أما الأسماء الأخرى فلا نعرف عنها في الوقت الراهن شيئا. وعلى كل حال فان تزعم الأمير خالد للوفد واضح ، وأن التصريح باسمه الى الضابط الأمريكي يدل على جرأة قوية فى تلك الظروف لأنه يعلم أن الفرنسيين لن يرفقوا به اذا ما أطلعوا على محاولته . فقد حدث ذلك فعلا يوم أن قرروا نفيه سنة 1923 ، وسلطت عليه صحافة اليمين وصحافة الكولون جام غضبها لموقفه المعادي لفرنسا ، ولا ندري الآن أيضا كيف ولماذا جاء الوفد الى باريس ما دام تقديم العريضة والاتصال بالوفد الأمريكي ليس من أغراضه المعلنة .

أما العريضة نفسها فيغلب على الظن أنها من تحرير الأمير خالد نفسه لأنها تتفق مع روح كتاباته الأخرى (3) ، وهي مكتوبة بالفرنسية على الآلة الراقنة ، وتقع فى أربع صفحات كاملة . وفيها بعض السطور مضيقة فى آخر الصفحة الرابعة حتى لا تضاف صفحة خامسة . كما وجدنا عليها بعض الشطب والاضافة بالقلم ، وهو قليل . وذلك مثل اضافة عبارة « وأبقاها المحتلون الجدد » فى الصفحة الثانية . وتشطيب كلمتين فى الصفحة الثالثة ، ومثل وضع سطر تحت عبارة « الرجوع القهقري » فى الصفحة الثالثة أيضا . كما أن عبارة « احترامنا » فى آخر الصفحة الرابعة مضافة بالقلم .

وبعد أن ذكرت العريضة بالمقاومة الجزائرية للاحتلال طيلة سبع عشرة سنة (لاحظ أن ذلك هو تاريخ مقاومة الأمير عبد القادر) واستعرضت العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال 89 سنة ، وهي علاقات تتميز بعدم الوفاء بالوعود من جانب الفرنسيين ، واجلاء السكان عن الأراضي الخصبة ، واستيلاء الفرنسيين على الأحباس ، واهانتهم للمقدسات ، واثقال كاهل السكان بالضرائب والقوانين الاستثنائية ، واهمال حاجاتهم ، وفرض التجنيد الاجباري عليهم ، وهبوط الأخلاق

---

2 ـ كان قائد حمود فعلا مع الوفد وقد أكد لي ذلك شخصيا (هذا التعليق وضعه الشيخ أحمد توفيق المدني رحمه الله عندما كان مسؤولا على مجلة التاريخ التي نشرنا فيها هذه المقالة لأول مرة .)

3 ـ عبارات كاملة منها توجد في La situation des Musulmans en Algérie الذي حرره الأمير خالد من منفاه سنة 1924 ، طبع بالجزائر 1924 .

العامة فيهم ، بعد ذلك طالبت العريضة « بارسال نواب مختارين بحرية من طرفنا لتقرير مصير مستقبلنا تحت اشراف عصبة الأمم » وذلك بناء على التصريح الذي أعلنه الرئيس ويلسون نفسه فى مايو 1917 والذي جاء فيه أنه « لا يجبر شعب من الشعوب على العيش تحت سيادة لا يرضي بها » وقد أشارت العريضة الى أن الوفد الجزائري قد جاء يستنجد بالمشاعر النبيلة للرئيس ويلسون « باسم مواطنينا » الذين كمت الادارة الفرنسية أفواههم وجعلتهم يعيشون فى حالة بائسة من الذل والفقر ، كما أصبحوا عاجزين عن المطالبة بحقوقهم نتيجة للخوف والقهر •

ان العريضة تعتبر ادانة للاحتلال الفرنسي وربطا لحاضر المقاومة الجزائرية بماضيها ، وفتحا في تطور الشعور الوطني • فالوفد وان لم يذكر كلمة الاستقلال بالحرف فانه ذكر معانيها ، كما طالب بتطبيق حق تقرير المصير على الجزائر تحت اشراف عصبة الأمم ، وتطبيق مبدأ عدم اجبار الشعوب على العيش تحت سيادة لا ترضى بها • ان موقف الأمير خالد الجرىء هو الذي جلب عليه نقمة الفرنسيين ولكنه جلب له احترام وتقدير الشعب الجزائري الذي رفع صوته بعد أن حرمته السلطات الاستعمارية من التعبير عن نفسه •

ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت الحرب سنة 1917 اثر انسحاب روسيا منها ، وكان دخولها قد قلب ميزان الحرب لصالح الحلفاء ، وكان الرئيس ويلسون قد أعلن نقاطه الأربع عشرة الشهيرة • ومنها نقطة تتعلق بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وقد فهمت شعوب أوربا وغيرها أن ذلك التصريح يعنيها جميعا ، ولذلك تقدم زعماء من شعوب آسياوافريقيا يطالبون بتطبيق هذا الحق على شعوبهم، ومن هؤلاء زعماء المغرب العربي الملتفين حول (مجلة المغرب) التي كانت تصدر بالفرنسية بجنيف • ولكن الرئيس ويلسون وجد معارضة شديدة لمبادئه ، وخصوصا مبدأ حق تقرير المصير ، من زعماء الدول الاستعمارية مثل بريطانيا وفرنسا — ومن بينهم جورج كليمنصو الفرنسي ولويد جورج الانكليزي • كما أن الرئيس ويلسون نفسه قد هزم فى الانتخابات

الرئاسية فى بلاده ومات بعد ذلك بقليل (4) • وقد خاب أمل العديد من زعماء شعوب آسيا وأفريقيا فى عدالة الأقوياء وفى مؤتمر الصلح الذي انعقد بفرنسا • ومن بين من خاب أملهم سعد زغلول من مصر والأمير فيصل بن الحسين من الجزيرة العربية ثم الشام ، والأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر من الجزائر ، وتمتلىء أوراق الرئيس ويلسون بالعرائض والرسائل والبرقيات والكتيبات وغيرها التي تقدمت بها الشعوب الى ذلك الرجل الذي حرك الآمال فى الحرية والاستقلال ولكنها آمال سرعان ما تبخرت •

وفيما يلي نص العريضة والمراسلات المصاحبة لها :

الجزائر فى 25 مايو 1981

4 ـ كان الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية ، أصيب في سبتمبر 1919 بشلل نصفي ، وانتهت رئاسته سنة 1921 ، وتوفى سنة 1924 .

نص الوثيقة الجزائرية التي قدمها الأمير خالد

الى السيد ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

السيد الرئيس :

يشرفنا أن نقدم الى انصافكم السامي والى روح العدل فيكم عرضا موجزا عن الوضع الحالي للجزائر الناتج عن احتلال فرنسا لها منذ 1830 .

فأثناء معركة غير متساوية ، ولكنها رغم ذلك كانت مشرفة لآبائنا ، ناضل الجزائريون طيلة سبعة عشر عاما بمثابرة وقوة لا مثيل لهما بهدف رد المعتدي والعيش فى استقلال ، ولكن حظوظ السلاح لم تكن ، للأسف ، فى صالحهم .

ومنذ الـ 89 سنة التي عشناها تحت السلطة الفرنسية ازددنا فقرا بينما ازداد المنتصرون غنى على حسابنا .

ان الاتفاق الموقع فى 5 يوليو 1830 بين الجنرال دوبورمون وداي الجزائر قد ضمن لنا احترام قوانينا وعاداتنا ودينا . وان قانون 1851 (1) قد اعترف بحق الملكية والتمتع بها كما كانت ابان الاحتلال .

وقد أعلن نابليون الثالث (2) عند نزوله بالجزائر فى 5 مايو 1865 بيانا موجها الى السكان المسلمين « ان فرنسا عندما وضعت قدمها على

---

1 — هو قانون 16 جوان 1851 حول الأملاك العقارية . فقد أعلن عن ضرورة احترام الملكية سواء كانت أهلية أو فرنسية أو غيرها .

2 — زار نابليون الثالث الجزائر مرتين الأولى في سبتمبر 1860 والثانية هي التي تشير اليها العريضة .

الأرض الافريقية منذ 35 سنة ، لم تأت لتدمير جنسية شعب ، ولكنها بالعكس جاءت لتحرير هذا الشعب من قهر طويل المدى ، انها أبدلت السلطة التركية بحكم أكثر لينا وعدلا وتنويرا ••• »

اننا كنا نتوقع أن نعيش فى سلم جنبا الى جنب وبالاشتراك مع المحتلين الجدد ، معتمدين على هذه التصريحات الرسمية المهيبة •

ولكن تبين لنا فيما بعد — ويا للأسف — أن تلك الوعود المعسولة لم تكن سوى كلام أجوف ، والواقع أن الفرنسيين أجلوا المهزومين تدريجيا ، كما فعل الرومان قبلهم ، وامتلكوا هم الأراضي الخصبة وأغنى المناطق • وهم الى يومنا هذا مستمرون على انشاء مراكز جديدة باغتصاب الأراضي الجيدة التي بقيت عند الأهالي ، تحت غطاء « المصادرة لفائدة الصالح العام » •

كما استولى الفرنسيون على الأحباس التي تقدر بمآت الملايين من الفرنكات والتي كانت تستعمل فى صيانة المؤسسات الدينية وتساعد الفقراء ، ووزعوها على الأوروبيين • وهذا أمر في أقصى الخطورة نظرا الى الغرض الديني والبين الذي نص عليه المحبسون لهذه الأملاك •

والى الآن ورغم قانون فصل الدين عن الدولة فان البقية القليلة من هذه الأحباس مسيرة من طرف الادارة الفرنسية تحت ستار هيئة دينية اختير أعضاؤها الطيعون من طرف الادارة الفرنسية نفسها ، ولا حاجة الى الاضافة الى أنه ليس لأولئك الأعضاء سلطة •

والادارة الفرنسية تغتنم كل فرصة ، وخصوصا أثناء هذه الحرب لتنظيم مظاهرات سياسية فى مساجدنا ومن أماكننا المقدسة الأخرى ، خلافا لتعاليم ديننا ، بحضور جماهير مكونة خصوصا من موظفين • وفى تلك المظاهرات تلقى خطب أعدت مسبقا للمناسبة من رجال الدين ، ويتمادى هذا التعدي على الحرمات الدينية لدرجة اشراك الموسيقى العسكرية فى هذه المظاهرات المهينة للروح الدينية عند المسلمين •

ذلك هو ما أصبحت عليه تصريحات القائد بورمون فى 5 يولية 1830 وقانون 1851 •

وقد أثقل كاهل الانسان الأهلي مدة 89 سنة باحمال الضرائب : ضرائب فرنسية وضرائب عربية كانت موجودة قبل الاحتلال وأبقى عليها المحتلون الجدد •

واذا قابلنا ميزان الدخل والخرج فاننا نرى بسهولة أن الأهالي قد أرهقوا بضرائب فوق طاقتهم • كما أن توزيع الميزانية لا يأخذ فى الاعتبار متطلباتهم الخاصة • وكثير من الأعراش بدون طرق مواصلات وأغلبية أطفالنا بدون مدارس •

وبفضل تضحياتنا ، استطاع الفرنسيون أن يوجدوا جزائر فرنسية مزدهرة حيث زراعة الكروم تمتد على مدى البصر • وقد مدت عبر البلاد السكك الحديدية والطرق بين القرى الأروبية • وغير بعيد عن العاصمة نجد أعراشا بأكملها تعيش على أراضي آهلة بالسكان ، وفقيرة ووعرة المسالك ، وليس لهذه الأعراش طرق مواصلات ، وهناك تجمعات سكنية هامة محرومة من كل شيء ، وما يزال السقي عند هؤلاء بالقرب وبطريق الأحواض والآبار غير المصونة مثلما كان الحال فى عهد ابراهيم (عليه السلام) ، وخلاصة القول أن حصة الأغلبية هي الأضعف وأن حمل الأشد فقرا هو الأثقل •

وتحت نظام يسمى جمهوريا يخضع أغلبية السكان الى قوانين خاصة يندى لها جبين البرابرة أنفسهم • وان من ميزات هذه القوانين أن بعضها قد نص على المحاكم الاستثنائية (مثل المحاكم الزجرية والمجالس الجنائية) الصادرة فى 29 مارس 1902 ، و 30 ديسمبر 1902 • فنحن نرى الرجوع القهقري نحو الحريات (3) • (التسيطر موجود فى الأصل) •

ولكي لا نتهم بالمبالغة نرفق بهذه العريضة كتيبين كتبهما فرنسيان من الجزائر وهما السيد فرنسوا مارنار F. Marneur المحامي بمجلس الاستئناف بمدينة الجزائر ، والسيد شارل ميشيل Ch. Michel المستشار العام وشيخ بلدية تبسة • فهما مؤلفان مبنيان على فظاعة وظلم هذه القوانين •

3 ـ هذه العبارة موجودة برمتها في كتيب الأمير خالد الذي سبق ذكره .

وهنالك مثال آخر يدل على عدم الوفاء بالعهد وهو :

كان الجنود الأهالي قبل 1912 يلتحقون بالجيش الفرنسي عن طريق التطوع مقابل بعض المنافع للمتطوعين • ولكن هذه المنافع قد ألغيت بالتدرج ، وبدخول 1912 أصبح التجنيد الاجباري في أول الأمر جزئيا (وهو 10 ٪ من مجموع الجيش) ، ثم أصبح شاملا ، وهذا رغم الاحتجاجات الصارخة من الأهالي •

ان ضريبة الدم قد طبقت علينا خرقا للمباديء الأولية للعدالة • ورغم فقرنا وذلنا واهاتتنا بحكم قانون الحق للأقوى ، فاننا لم نكن تتصور أبدا أن عبئا كهذا — وهو خاص بالمواطنين الفرنسيين المتمتعين بجميع الحقوق — يقع ذات يوم على كاهلنا •

ان مئات الآلاف قد سقطوا منا فى مختلف ميادين القتال ، محاربين رغم أنوفهم ، ضد شعوب لا مطمح لهم فيها ولا فى أموالها •

ان الأرامل واليتامى ومعطوبي هذه الحرب يتلقون أجورا أو معونات أقل مما يعطي للفرنسيين الجدد • وكثير من الجرحى الذين أصبحوا عاجزين على العمل انضموا الى صفوف البؤساء الذين تضج بهم المدن والأرياف •

ومن السهل على الملاحظ المنصف أن يرى البؤس القطيع الذي يعيشه الأهالي ، ففي مدينة الجزائر نفسها يجر مئات الأطفال من الجنسين بؤسهم في الشوارع وهم في أسمال بالية وكسحاء يتسولون من العامة•

وأمام هذه الأوضاع المؤسفة بقيت الولاية العامة للجزائر فى حالة مطلقة من اللامبالاة •

وأمام التمويه بعدم التدخل فى الحريات ، فان الموقف العام هو ترك الحبل على الغارب • كما أن المشروبات الكحولية قد أصبحت تغدق فى المقاهي على الأهالي •

وقد تحملنا هذه المآسي ، كمهزومين مستسلمين ، منتظرين وآملين أن تشرق علينا أيام أسعد مما نحن فيه •

ان التصريح الرسمي التالي والقائل بأنه « لا يجبر شعب من الشعوب على العيش تحت سيادة لا يرضى بها » والذي صرحتم به أنتم فى مايو 1917 ، فى كلمتكم الموجهة الى روسيا ، يجعلنا نأمل بأن هذه الأيام قد أقبلت فى النهاية

ولكن الأهالي ، تحت الوصاية الجائرة للادارة الجزائرية قد أصبحوا على حالة من الاذلال بحيث أصبحوا عاجزين عن المطالبة ... ان الخوف من القهر الذي لا يرحم يكم كل الأفواه .

ورغم هذا فاننا جئنا باسم مواطنينا نستنجد بالمشاعر النبيلة لسيادة رئيس أمريكا الحرة ، اننا نطالب بارسال نواب مختارين بحرية من طرفنا لتقرير مصير مستقبلنا تحت اشراف عصبة الأمم .

يا سيادة الرئيس : ان نقاطكم الأربع عشرة للسلام العالمي المقبولة من طرف الحلفاء والقوات المركزية يجب أن تؤخذ كقاعـدة لتحرير الشعوب المستضعفة المقهورة دون تمييز عرقي أو ديني .

انكم تمثلون فى نظر العالم بأكمله الانسان الشريف الحامل للواء الحق والعدالة ، فأنتم لم تدخلوا هذه الحرب الضخمة الا لتعمم تلك المبادىء على جميع الشعوب . ولنا ايمان عميق فى كلمتكم المقدسة . ان هذه العريضة قد كتبت لتنوير عقيدتكم والفات نظركم الكريم الى وضعنا الشـاذ .

وتقبلوا ، سيادة الرئيس ، فائق احترامنا (*) .

(*) ـ جاء في تقرير كتبه السيد بارون Baron عن الوضع في تونس أن الآتية أسماؤهم قدموا أيضا الى الرئيس الامريكي ويلسون عريضة بتاريخ 2 يناير (جانفي) 1919 ، تتضمن مطالب الشعبين الجزائري والتونسي ، وقد طبعوا العريضة في جنيف :

الشيخ صالح الشريف التونسي ـ الشيخ محمد الخضر بن الحسين ـ الشيخ محمد مزيان التلمساني ـ محمد الشيبي التونسي ـ محمد بيراز الجزائري ـ حمدان بن علي الجزائري ـ محمد باش حانبه .

أنظر : (المجلة التاريخية المغربية) عدد 27ـ28 (ديسمبر 1982) ص 336 .

اللجنة الأمريكية للمفاوضة على السلام

23 مايو 1919 :

عزيزي السيد كلوز ...

انني أرسل اليكم العريضة التي قدمها الي خمسة ممثلين لعرب الجزائر ، وقد طلبوا مني أن أقدمها مباشرة الى الرئيس ، وأن أحصل على اعتراف باستلامها (منه) .

انهم يخشون الاشهار ، ولم يجرؤوا على وضع توقيعاتهم على الوثيقة ، ولكن زعيم الوفد ـ وهو الأمير خالد الحسني ـ قد كشف لي عن اسمه ، وطلب أن يرسل اليه اعتراف بالاستلام بواسطتي .

وهو (الأمير خالد الحسني) يغادر المدينة غدا بعد الظهر ، وهو يرغب فى الحصول على هذا الاعتراف قبل المغادرة ، وبناء عليه اذا كنتم تستطيعون توجيه رسالة فى هذا المعنى ـ تخبرون فيها أن العريضة قد قدمت فعلا الى الرئيس ، فان ذلك سيكون موضوع تقدير عظيم .

واني أرجو أن يكون فى امكانكم ارسالها الي غدا (السبت) صباحا .

وتقبلوا فائق احترامي .

جورج ب . نوبل (والتوقيع)
ملازم أول مشاة
الولايات المتحدة الامريكية
فندق كريون (باريس)

باريس ، 24 مايو ، 1919 :

عزيزي الملازم نوبل :

ها أنا أضمن هذه الرسالة كلمة (Note) للأمير خالد الحسني كما طلبتم فى رسالتكم المؤرخة فى 23 مايو .

المخلص
كاتب سر الرئيس

الى الملازم جورج ب . نوبل
فندق كريون ــ باريس

(التوقيع في أعلى الورقة)

باريس : 24 مايو 1919 :

سيدي العزيز :

انني أكتب اليكم لأعترف باستلامي العريضة المقدمة من قبل ممثلي عرب الجزائر الخمسة ، هذه العريضة التي أرسلت الي من قبلكم بواسطة الملازم نوبل ، واني سأكون سعيدا أن ألفت اليها نظر الرئيس •

المخلص

كاتب سر الرئيس

الى الأمير خالد الحسني

عن طريق الملازم جورج ب • نوبل

فندق كريون (باريس)

(التوقيع في أعلى الورقة)

أزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سبتمبر 1954

عن طريق الصدفة عثرت على وثيقة هامة من وثائق الجزائر المعاصرة ، وهي محضر الجلسة وخلاصة المقررات التي اتخذها المجلس الاداري (لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين) فى الجلسة التي عقدها بمدينة الجزائر فى نهاية سبتمبر 1954 ، أي قبل شهر واحد من اندلاع الثورة • وقد عثرت على هذه الوثيقة طي كتاب من بقايا مكتبة المرحوم الفضيل الورتلاني ، عضو جمعية العلماء ، بالقاهرة • وكانت الوثيقة موجهة في شكل خطاب ، من قبل أحمد توفيق المدني ، الكاتب العام لجمعية العلماء الى المرحوم محمد البشير الابراهيمي ، رئيس الجمعية ، الذي كان عندئذ مقيما فى القاهرة • وهي مكتوبة بخط أحمد توفيق المدني فى الثاني من أكتوبر سنة 1954 ، ومرسلة بالطائرة ومسجلة برقم 8741 ، وعليها علامة البريد المستعجل ، ويحمل تاريخ الظرف 7 أكتوبر 1954 ، أما مطار القاهرة فقد أرخها 9 أكتوبر 1954 • ولكن طوابع البريد منزوعة من قبل أحد هواة الطوابع • وعلى الظرف عنوان الابراهيمي بالقاهرة ، وهو نفسه عنوان المكتب الرسمي لجمعية العلماء بهذه المدينة : شارع شريف رقم 36 الدور 7 شقة 51 • والعنوان مكتوب بالعربية والحروف اللاتينية بخط أحمد توفيق المدني أيضا • وكان يوجد على الغلاف ختم جريدة البصائر • (أنظر صورة الظرف) • وفى المكتب المذكور التقيت شخصيا ولأول مرة بالابراهيمي أواخر أكتوبر 1955 (1) •

(*) — نشر في (مجلة التاريخ) ، النصف الأول من سنة 1980 . أنظر الصور فى آخر الكتاب .

1 — وكان أحمد توفيق المدني قد حملني من الجزائر رسالة الى الابراهيمي بالقاهرة . ولكن الشرطة الفرنسية قد نزعتها مني في مطار تونس .

ويبدو أن الوثيقة قد انتقلت من مكتبة الابراهيمي بالقاهرة الى مكتبة الورتلاني للصلة الوطيدة التي كانت بين الرجلين ، ولأن الموضوع يهمهما معا، حيث جاء فيها اسم الورتلاني أيضا • وقد يكون الابراهيمي سلمها الى الورتلاني للاطلاع عليها فوضعها هذا فى طيات أحد كتبه ونسيت هناك ، وهو الكتاب الذي وجدتها أنا فيه • وما أكثر ما تضم طيات الكتب من أسرار يعتقد أصحابها أنها قد ضاعت منهم ! ورغم أنني خرجت من القاهرة فى بعثة سنة 1960 ، فقد حاولت المحافظة على الوثيقة الى هذه الساعة ، لاعتقادي فى أهميتها التاريخية • غير أنني أصبحت أشعر بالخشية عليها من الضياع • فالعمر يتقدم وايدي العبث قد تمتد اليها فيحرم منها المهتمون بتاريخ الجزائر المعاصر • وهذا الشعور هو الذي حملني على نشرها ، رغم ما فيها من حديث عن بعض الأحياء بشيء قد لا يحبونه ، وعن بعض الأموات الذين قد لا يحب أبناؤهم وأحفادهم نشر ما جاء فيها •

ولكن قبل الاقدام على نشرها شافهت ، حوالي سنة 1975 ، أحمد توفيق المدني أستأذنه فى نشرها ، باعتباره هو الذي حررها ووقعها باسمه ، فاذن لي مشافهة • ثم كاتبته فى نفس الموضوع للتأكد فاذن لي كتابة أيضا • ومما جاء فى رسالته (انظر صورة الرسالة) بعد الديباجة : « تلقيت اليوم رسالتكم الكريمة المتعلقة بنشر الوثيقة التي تحمل امضائي ، وفيها بيان الاصلاح الذي أدخلناه على منهاج سير جمعية العلماء المسلمين • ولقد كنت أذنت لكم شفوبا ، والآن آذن لكم كتابيا فى نشرها كما تشاؤون » • وهذه الرسالة غير مؤرخة ، ولكن ختم البريد عليها هو الثاني من مارس سنة 1976 • ومع ذلك فان ظروفي الخاصة لم تسمح لي بنشرها الا فى هذه السنة (2) •

والوثيقة ، كما ذكرت ، مكتوبة بخط أحمد توفيق المدني على الورق الرسمي لجمعية العلماء (انظر صورة الصفحة الأولى للوثيقة) ، وهو

2 ــ كانت بعض المجلات الاجنبية قد رغبت مني نشر الوثيقة فأبيت ، وقلت في نفسي أن هذه وثيقة وطنية فلا تنشر الا في مجلة وطنية .

خط نسخي متطور وواضح وبمداد أسود • والأرقام التي فيها هي الأرقام العربية الهندية • وتغطي أربع ورقات فى ثماني صفحات مركزة • وفيها بعض الكلمات المشطوبة • وقد وضعت كلمة (كذا) أمام الكلمات التي تحتاج الى تنبيه • وتوجد فيها سطور سوداء للفصل بين عنوان وآخر ، وسطور حمراء تحت العناوين الرئيسية ، وتحت الفقرة (ج) من رقم 15 فى (مقررات عامة تتعلق بالنظم واللجان الخ) ، وهي الفقرة التي طالب فيها المجتمعون الابراهيمي بتقديم بيانات عن « الاشاعات الكاذبة » التي نسبت اليه • فالخطوط الحمراء هنا لتأكيد أهمية القرار الذي اتخذه المجلس وابرازه • وفى هذا النطاق نود أن نقف قليلا عند تطور جمعية العلماء فى بداية الخمسينات •

لقد أصاب جمعية العلماء فى هذه الفتره ما أصاب حـزب الشعب الجزائري من خصومة على الزعامة ومزاحمة الجيل الجديد للجيل القديم وركود فى الهياكل والتوجيه العام • غير ان انقسام حزب الشعب أصبح معلنا عنه ومعروفا ، بينما ظل ما أصاب جمعية العلماء فى الخفاء لانه لم يصل الى درجة الانقسام العلني • ولولا الثورة التي لم تسمح ظروفها بعودة الابراهيمي من مصر ، ولا بعقد الاجتماع العام المشار اليه فى الوثيقة ، لكان من الممكن أن يحدث للجمعية ما حدث لحزب الشعب • وانعقاد المجلس الاداري ، الذي نقدم اليوم محضر جلسته ، يعد خطوة فى هذه الطريق • حقا ان أعضاء جمعية العلماء ، ولا سيما الجيل القديم منهم ، كانوا ما يزالون يشعرون بالولاء لبعضهم ، وبالتضامن الديني والعقائدي ، وبنوع من الحذر الأخلاقي ازاء ما يمكن أن يصيب الجمعية فى علاقتها مع الشعب الذي كان غالبه ينظر اليهم نظرة احترام ديـنـي وأخلاقي • ولم يكن الحال كذلك مع أعضاء حزب الشعب الجزائري الذين كان العامل السياسي هو المحرك لهم بالدرجة الأولى فى علاقتهم مع بعضهم وفى علاقتهم مع الشعب •

وأول ما نلاحظه هو انعقاد المجلس الاداري (أو اللجنة المركزية) في ظروف خاصة ، رغم ان الجلسة كانت معلنة على انها جلسة سنوية عادية •

فالابراهيمي كان متغيبا عن الجزائر منذ سنة 1952 (3) • وكان من المفروض انه ذهب الى فرنسا والمشرق فى جولة لصالح الجمعية ثم يعود لقيادتها فى ظروف صعبة فرضتها حوادث المغرب وتونس وثورة مصر والتوتر الداخلي الذي كانت تعيشه الجزائر منذ فشل العمل « بالدستور الجزائري » • ولكن الابراهيمي لم يعد الى الجزائر • وبدأت الاشاعات تحوم • فمن قائل انه قرر ادارة الجمعية من الخارج لأنه فى المشرق يجد لصوته وحركته التأييد والدعاية ، ولأنه سيفيدها بذلك أكثر مما يفيدها فى الداخل • ومن قائل انه قد دخل (مكتب المغرب العربي) بالقاهرة وأصبح نشاطه فيه وعلاقته بعبد الكريم الخطابي وأمثاله ستجعل فرنسا تلقي عليه القبض لو رجع الى الجزائر • ومن قائل انه قد دخل ، بتأثير من الفضيل الورتلاني ، فى بعض الجمعيات الاسلامية بالمشرق ، وان بعض هذه الجمعيات كانت ، سياسيا ، مشبوهة فى بلادها ، وانه بدخوله فيها جلب على نفسه نقمة بعض النظم السياسية العربية والاسلامية التي لا تتعايش مع تلك الجمعيات • بل ان هناك من قال عندئذ ان الابراهيمي قد « عاد الى أصله » فاستمرأ الحياة الشرقية وجعل مكتب جمعية العلماء ملتقى زعماء الحركات السياسية والدينية والأدبية فى العالم العربي والاسلامي • وبذلك ابتعد عن واقع الجزائر ابتعاد مصالي الحاج ، مع اصرار كليهما على قيادة حركته من المنفى أو من الخارج • ومن الذين صرحوا لي شخصيا بمؤاخذة الابراهيمي على بقائه فى المشرق واهماله شؤون الجمعية المرحوم العربي التبسي ، النائب الأول لرئيس جمعية العلماء (4) •

والعربي التبسي ، رغم تدينه واخلاصه لفكرة جمعية العلماء ، لم يكن محل تقدير كل أعضاء الجمعية • فقد كان شديد الغيرة على اختصاصاته وشديد الحساسية لشخصه • ولم يكن يتمتع لا بأدب الابراهيمي ولا بدبلوماسية خير الدين • وكان له مع الجيل القديم للجمعية حرمة لاخلاصه وتفانيه وتدينه ، ولكن الجمعية قد دخلها جيل جديد من الشبان المتفتحين

3 — كتبت هذا التمهيد وأنا خارج الجزائر فلم اتمكن من مراجعة التواريخ وضبطها .

4 — لدي منه رسالتان في هذا المعنى وسأنشرهما ان شاء الله في وقت لاحق .

العصريين فكان التبسي لا يقنع أكثرهم لقيادتها • وكانوا يرون فيه « شيخا » فوضويا فى عمله ، مع شيء من الغفلة والدروشة فى تصرفه • ذلك ان اتساع رقعة عمل الجمعية وتشابك القضايا التي أصبحت تعالجها ، سياسيا وتربويا واجتماعيا ، لم يعد يكفيها الرجل المخلص المتدين فقط • وفى هذه الأثناء (سنة 1954) سافر التبسي أيضا لأداء فريضة الحج والتجول فى المشرق ولقاء الابراهيمي ، كما سافر لنفس الغرض أحمد بوشمال أحد أعضاء الجمعية العاملين غير الظاهرين • وهكذا أصبح أربعة رجال من قادة الجمعية في المشرق ، وهم الابراهيمي ، والورتلاني، والتبسي ، وبوشمال ، كل ذلك والجزائر تعيش فى الظروف الصعبة التي أشرنا اليها •

وبذلك خلا الجو لنائب الرئيس الثاني ، وهو محمد خير الدين ، لقيادة الجمعية • والظاهر ان خير الدين ، الذي لم يكن يصرح بنواياه وخططه ، قد شعر بأن الجمعية سيصلها الانقسام والفشل اذا لم يتداركها رجالها المخلصون بعملية حقن دم واجراء تعديلات واصلاحات فى نظمها وهياكلها • وقد استجابت هذه الخطة لتساؤل الكثير من أعضاء الجمعية عن مصيرها ، ولا سيما الشبان ، اذا لم تجر عملية لانقاذها • وأمام تغيب الابراهيمي الذي طال ، وتغيب التبسي الذي كان فرصة لتفادي المواجهة بينه وبين زميله من جهة وبينه وبين الجيل الجديد من أعضاء الجمعية من جهة أخرى ، قام خير الدين فى السنة المذكورة بما أسماه بعضهم عندئذ « بانقلاب » داخل الجمعية • فعلى خلاف عادته قام بجولات فى أنحاء القطر يخطب ويعظ ويزور ويتفقد ويفتتح المؤسسات ، ثم توج كل ذلك بدعوة المجلس الاداري للجمعية للانعقاد أواخر سبتمبر فى غياب الرئيس ونائبه الأول ، وفى غياب عشرة أعضاء من أصل سبعة وعشرين عضوا (5) • ونلاحظ من الوثيقة انه رغم التعديلات الجذرية التي أدخلها المجلس الاداري على هياكل الجمعية فانه لم يضف أعضاء جددا من الشبان الذين كانوا يشكون من احتكار الرغيل الأول لشؤون الجمعية ، مكتفيا بالدعوة العاجلة والملحة لعقد الاجتماع العام وصياغة دستور جديد للجمعية •

5 ــ لاحظ من الوثيقة أن الغائبين عن الاجتماع كانوا بأعذار ما عدا أربعة •

ونلاحظ من الوثيقة أيضا مدى التوتر الذي كان سائدا عندئذ والذي أشرنا الى بعضه (مع ملاحظة ان الوثيقة لا تمثل سوى خلاصة المحضر) • من ذلك تألم المجتمعين « الألم العميق من حديث الافك » المنقول الى الابراهيمي من الشيخين (6) ، وتذمر المجتمعين أيضا « التذمر المر عن اشاعات ومفتريات » جاءت فى تقرير الابراهيمي • ومن ذلك « مطالبة الرئيس ••• باعطاء بيانات عن هذه الاشاعات الكاذبة ••• وعن ناقليها ، بالتدقيق ، ومع بيان سائر الأسماء ليتخذ المجلس موقفه من محاكمة هؤلاء الكاذبين ••• » والنص على « وجوب » رجوع الابراهيمي الى الجزائر • ونلاحظ أيضا من صيغة المحضر الاتجاه الى التشدد والصرامة من المجلس• فبالاضافة الى وقف الجيلالي الفارسي عن العمل تقرر تكليف المكتب الدائم (الهيئة العليا للجمعية) « بارسال لوم وتوبيخ الى المقصرين من أعضاء الجمعية » ، مع ملاحظة ترداد عبارة التأديب والمحاكمة والمراقبة ونحوها فى المحضر • وعلى كل حال فان التركيز على ضرورة عقد الاجتماع العام وصياغة قانون أساسي جديد ومطالبة الابراهيمي بالعودة والطعن فى بعض ما جاء في تقريره واعادة تنظيم هياكل الجمعية — كل ذلك بداية ثورة داخل الجمعية قام بها الجناح الشاب بزعامة محمد خير الدين • وهذا الوضع هو الذي جعلنا نشير الى المقارنة بين ما وقع فى حزب الشعب وما وقع فى جمعية العلماء من تحولات داخلية •

وعلى المستوى الشخصي نلاحظ عد مالاشارة الى قيام الابراهيمي بأي عمل فى نطاق الجمعية ، ما عدا تسميته من بين المقترحين لصياغة القانون الأساسي الجديد • وكان من المفروض أن شيد رئيس الجلسة بدور الابراهيمي لصالح جمعية العلماء فى المشرق وتحيته على مواقفه ، كما جرت العادة ، ولكن ذلك لم يشر اليه المحضر الذي ننشره اليوم الا اشارة عابرة • وكان التقرير الذي بعث به الابراهيمي حول البعثات مثار تعليقات أيضا ، لأن الابراهيمي ، ربما بتدخل من الفضيل الورتلاني (7) ، حاول

---

6 — الغالب أن المقصود بهما العربي التبسي واحمد بوشمال .

توجيه البعثات توجيها دينيا عقائديا تحت رعاية بعض الجمعيات والمنظمات الاسلامية الشرقية التي تتعاطف مع جمعية العلماء ، بينما نظام تعليم جمعية العلماء فى الجزائر كان يسير على قاعدة دينية علمانية أو على الأقل كان لا يخضع لعقيدة اسلامية بعينها وانما يتبع أصول تعاليم ابن باديس والطريقة السلفية • وهذا التوجيه الجديد هو الذي سبب توترات فى المشرق بين طلاب البعثات ورئيس الجمعية (الظاهر أن ذلك كان أيضا بتصرف من الورتلاني) • وكان لهذه التوترات صداها فى الجزائر أيضا • ومن جهة أخرى نلاحظ أن المحضر قد أشار الى أن المكتب الدائم هو الذي يتولى العلاقات الخارجية ، بما فيها من اتصال بالجمعيات الاسلامية الكبرى ، وتوحيد الحركة الاسلامية • ولم يشر فى هذا الصدد الى دور الابراهيمي الذي ذهب الى المشرق ، كما سبق أن قلنا ، لنفس الغرض •

ونكاد نلاحظ غياب التبسي من ميدان العمل أيضا • فهو لم يذكر فى ذلك الا مرة واحدة ، وهي رئاسته للجنة ادارة معهد ابن باديس • غير أنه ، خلافا لرؤساء جميع اللجان الأخرى ، نص هناك بأن رئاسة اللجنة يتولاها أيضا نائبه ، محمد خير الدين ، فى حالة غيابه ، وتكون قراراتها « نافذة حالا بمجرد اتخاذها ، أيا كان الرئيس • » وفى ذلك اشارة الى أن العمل فى المعهد لا يتوقف على حضور التبسي • كما نلاحظ عدم تكليف الفضيل الورتلاني بأي عمل ، ما عدا المشاركة فى صياغة القانون الأساسي المقترح • وفى ذلك دعوة غير مباشرة له بالعودة أيضا الى الجزائر التي كان قد غادرها منذ أمد بعيد •

ونود أن نلاحظ فى النهاية اهتمام المجتمعين ببعض القضايا المحلية فى التنظيم الجديد • من ذلك اعطاء لجنة الدعاية والتنظيم أهمية خاصة ولا سيما فى تنظيم « حركة الشبان » وفى القيام بالوعظ والارشاد ، وفى مقاومة « خصوم » الجمعية • والتركيز على معهد ابن باديس معنويا وبشريا • والنص على الاتصال بالأحزاب والمنظمات والجهات المسؤولة • ومن جهة أخرى نرى المركزية الادارية تظهر واضحة كجزء من الصرامة والشدة التي تميز بها الاجتماع • ذلك أن كل اللجان (وعددها ست)

كان مقرها العاصمة ما عدا واحدة (لجنة ادارة المعهد) • كما أن أهمية خاصة أعطيت للجنة المالية سواء في ابتكار « الطرق التي تنمي موارد الجمعية علاوة على الميزانية المقررة» أو في تفاصيل توزيع المرتبات وزيادتها • ولا شك أن لجنة التعليم قد حظيت أيضا بأهمية خاصة • ولا غرابة في ذلك ما دام نشر التعليم هو مبدأ أساسي من مبادىء الجمعية • وقد أعطيت لجنة الطبع والنشر أيضا امتيازات وصلاحيات كبيرة رغم نشاطها مع اللجنة المالية •

ولاعتقادنا فى أهمية هذه الوثيقة فى تاريخ الجزائر المعاصر قدمناها للنشر • ولعل غيرنا واجد فيها من الأفكار ما لم نهتد اليه منها •

5 نوفمبر 1978

جامعة ميشيقان (امريكا)

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص المحضر (*)ومقررات المجلس الاداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بالجزائر أيام 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 29 سبتامبر 1954 (1) •

باستدعاء شخصي من الكاتب العام (2) لسائر الشيوخ أعضاء المجلس الاداري (3) ، وباستدعاء عمومي نشر على صحيفة البصائر (4) ، عقد المجلس الاداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين جلسته السنوية العادية بمركز الجمعية (5) أيام 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 29 سبتامبر 1954 تحت رئاسة الشيخ محمد خير الدين ، النائب الثاني للرئاسة •

الحضور ، الشيوخ السادة : محمد خير الدين ، أحمد توفيق المدني ، عبد اللطيف سلطاني ، حمزة بوكوشة ، أحمد حماني ، أحمد سحنون ، العباس بن الشيخ الحسين ، أحمد حسين ، نعيم النعيمي (6) ، باعزيز بن عمر ، علي بن المغربي ، محمد الشبوكي ، المولود النجار ، الهبري المجاوي ، السعيد صالحي ، عبد القادر الياجوري ، محمد الصالح بن عتيق •

الغائبون فى سفر ، الشيوخ السادة : محمد البشير الابراهيمي ، العربي التبسي ، أحمد بوشمال •

المعتذرون ، الشيوخ السادة : عبد الوهاب بن المنصور (مسافر) ، السعيد الزموشي (جريح) •

المتخلفون دون عذر : أبو بكر الأغواطي ، الجيلالي الفارسي ، عبد القادر محداد ، محمد الطاهر الجيجلي •

(*) ــ أنظر التعاليق في آخر التقرير •

مستقيل : عبد الرحمن اليعلاوي •

على الساعة التاسعة والنصف افتتح الشيخ محمد خير الدين الجلسة بخطاب مسهب عن أعمال الجمعية وآمالها ، وحيى الرئيسين المتغيبين عن الجلسة (7) ، وقال ان أمامنا أعمالا عظيمة يجب أن نتمها فى صبر وحكمة وسداد • ثم أقسم سائر الحاضرين على حفظ أسرار الجلسات •

ثم أعطى الكلمة للكاتب العام فتلى (كذا!) تقريره المفصل عن حالة الجمعية من ناحيتها الأدبية وما قامت به من أعمال فى سائر الميادين خلال السنة وما تريد أن تقوم به خلال السنة المقبلة •

وبعد الانتهاء اقترح الكاتب العام أن يشكل المجلس لجانا تبحث كل لجنة مسألة من المسائل الهامة الموضوعة على بساط البحث ، ثم تقرر فى شأنها قرارا يعرض على المجلس لمناقشته والمصادقة عليه أو رفضه • وبعد مذاكرة فى الموضوع قبلت الفكرة وانتخب المجلس من بين أعضائه هذه اللجان :

اللجنة الأولى : لجنة اطار الموظفين والوظائف فى الجمعية : رئيسها الشيخ السعيد صالحي ـ المقرران : حمزة بوكوشة وأحمد حماني ـ الأعضاء الشيوخ : النعيمي ، علي بن المغربي ، المولود النجار ، أحمد حسين •

اللجنة الثانية (تحديد المسؤوليات والاعمال) الرئيس : خير الدين ـ المقرر : محمد الشبوكي ـ أعضاء : عبد القادر الياجوري ، العباس بن الشيخ الحسين ، محمد الصالح بن عتيق ، الهبري المجاوي ، أحمد توفيق المـدني •

اللجنة الثالثة (الطباعة والنشر) رئيس : أحمد توفيق المدني ـ مقرر : باعزيز ـ أعضاء : أحمد سحنون وعبد اللطيف •

ثم اشتغلت كل لجنة بمناقشة المواضيع المعروضة عليها واعتكف على دراستها • وحرر كل مقرر تقريره وعرضه على المجلس • فنوقشت التقارير جملة وتفصيلا مناقشات عميقة ونقح بعضها وقبل بعضها الآخر • وأخيرا صودق عليها فى النص النهائي كما يلي :

المقررات المأخوذة من تقرير لجنة الاطار (الكادر) المصادق عليه

(بعــد المقــــدمة) :

1 ـ المعلمــون :

أ ـ يجب أن يكون المعلم فى المعهد محصلا على شهادة العالمية مــن الزيتونة أو ما يعادلها من القرويين أو معاهد الشرق ، بشرط مباشرة التدريس أو الادارة أو العمل فى سلك جمعية العلماء مدة عامين قبل المناظرة ـ أو محصلا على شهادة التحصيل من الزيتونة أو ما يعادلها • ويشترط فى الأخير أن يكون قد علم أو أدار مدرسة تابعة للجمعية أو عمل فى سلك الجمعية مدة لا تقل عن 4 سنوات • ويشترط فى الجميع أن يكونوا ممن انخرط فى سلك الجمعية من قبل وكافح فى سبيلها مستقيما فى سيرته الدينية والاخلاقية •

ب ـ انما يكون الدخول للتدريس بالمعهد ، بمناظرة بين من توفرت فيهم الشروط السابقة • يعلن عن موادها وتاريخ وقوعها قبل مدة لا تقل عن شهرين •

ج ـ لا يرتقي معلم من درجة الى أعلى منها الا بمناظــرة بالشروط السابقة • ولا يرتقي من درجة الا الى التي تليها • ولا يجوز ذلك الا بعد قضاء ثلاثة أعوام فى الرتبة •

د ـ يثبت كل المعلمين الحاليين فى درجته (كذا)المعينة • ولا يطبق عليه ما سبق من اشتراط المناظرة الا من فقد شرط الشهادة العلمية مع سنتين أو التحصيل مع الأربع سنوات ، وثبت قصوره بتقرير من اللجنة العلمية فعندئذ يحال على المناظرة (8) •

2 ـ الـدرجات :

أ ـ يحصل على الدرجة الأولى من سبق له التعليم بالمعهد مدة لا تقل بحال عن ست سنوات وفاز فى مناظرة على أقرانه • ولا تسوغ المشاركة فى المناظرة الا لأهل الدرجة الثانية •

ب ـ الدرجة الثانية ، يحصل عليها من سبق له التعليم بالمعهد مدة لا تقل عن ثلاث سنوات • وفاز فى المناظرة • ويشترط أن يكون من أهل الدرجة الثالثة •

ج ـ الدرجة الثالثة ، يحصل عليها كل من فاز فى منـاظرة التدريس وتوفرت فيه الشروط المبينة فى البند الأول من الفصل الأول •

3 ـ المعـاونون :

أ ـ تستعين ادارة المعهد ـ اذا اضطرت للاستعانة ـ بمن لم يشارك فى مناظرة ، وتوفرت فيه الشروط السابقة ، فى البند 1 من الفصل الأول ولا يجوز بحال أبقاؤه بعد سنتين دون مناظرة ـ وللادارة أن تستغني عنه قبل ذلك متى شاءت •

ب ـ وللادارة أن تستعين فى تعليم بعض الفنون كالرياضيات أو اللغات الأجنبية ، حسب اتفاقات خاصة •

4 ـ الموظفون بالادارات التي تشرف عليها الجمعية مباشرة :

أ ـ لما كان للمعهد هيكل أقرب الى النظام القار تقرر تنظير الموظفين فى غير التدريس بالمدرسين في الطبقات •

ب ـ يسوي بأهل الدرجة الأولى من مدرسي المعهد كل من توفرت فيه شروط المعلم بالمعهد ، من الشيوخ موظفي ادارة المعهد ولجنـة التعليم ، والمركز (9) ، ومحرري البصائر وادارة المطبعـة (10) بشرط أن يكون الموظف قد سبق له الانخراط فى الجمعية والثبات على مبدئها والعمل لها مدة لا تقل عن عشر سنوات ورشحه المجلس الاداري ووافق عليه •

ج ــ المدرسون من الطبقة الأولى فى المعهد حالا ، هم الشيوخ السادة : العباس بن الشيخ الحسين ، عبد القادر الياجوري ، نعيم النعيمي ، أحمد حسين ، عبد الرحمن شيبان ، أحمد حماني ، جغري •

د ــ المدرسون حاليا من الدرجة الثانية فى المعهد هم الشيوخ السادة : أحمد بوروح ، الطاهر السعدي ، محمد الابراهيمي الميلي ، أحمد بن ذياب ، محمد العدوي •

هـ ــ المدرسون من الدرجة الثالثة حاليا هم الشيوخ السادة : محمد الحفناوي ، علي الساسي ، محمد الزاهي •

و ــ المعاونون حاليا هم الشيوخ السادة : سليمان بشنون ، مصطفى بوغابة ، أحمد زوزو •

ز ــ يلحق بمدرسي الدرجة الأولى من المعهد الشيوخ السادة : عبد اللطيف سلطاني ، السعيد صالحي ، أحمد توفيق المدني ، باعزيز بن عمر ، حمزة بوكوشة ، السعيد الزموشي ، محمد الصالح بن عتيق ، علي بن المغربي •

ح ــ يلحق بمدرسي الدرجة الثانية الشيوخ السادة : الحفناوي هالي ، ابراهيم مزهودي ،محمد الصالح رمضان ، أحمد رضا حوحو ، عبد الحفيظ الجنان ، أحمد بوشمال •

5 ــ المرتبــات :

أ ــ خارج الاطار من حيث المرتبات : الأستاذ الأكبر الرئيس الشيخ محمد البشير الابراهيمي 100 000 فرنك شهريا ، الأستاذ الشيخ محمد العربي التبسي 60 000 فرنك ، الأستاذ الشيخ محمد خير الدين 50 000 فرنك • وتدخل فى هذه المرتبات منحة السكني •

ب ــ الدرجة الأولى ــ مرتبها : 40 000 شهريا مع منحــة السكني 3000 المجموع 43000

ج ــ الدرجة الثانية ــ مرتبها : 35000 شهريا مع منحة السكني 3000 المجموع 38000

د ــ الدرجة الثالثة ــ مرتبها : 000 30 شهريا مع منحة السكني 3000 المجموع 000 33

هـ ــ درجة المعاونين ــ مرتبها : 000 26 شهريا مع منحة السكنى 3000 المجموع 000 29 •

و ــ ويزاد كل من رئيس لجنة الدعاية ورئيس لجنة المالية ، ورئيس لجنة الطبع والنشر مبلغ 000 15 فرنك شهريا على المرتب الأصلي • داخل فيها منحة السكنى •

ز ــ يفوض للمكتب الدائم (11) أن يعطى منحة خاصة لكل شخص يرى وجوب مكافأته عما قام به من عمل عظيم لفائدة الجمعية أو مؤسساتها داخل القطر أو خارجه •

المقررات المأخوذة من لجنة تحديد المسؤوليات والأعمال :

1 ــ تتشكل من أعضاء المجلس الاداري ست لجان ، تختص كل لجنة منها بشعبة من شعب نشاط الجمعية :

وهي أولا : لجنة التعليم ــ ثانيا : الطباعة والنشر ــ ثالثا : المالية ــ رابعا : الدعاية والتنظيم ــ خامسا : الاتصالات الخارجية ــ سادسا التأديب والمراقبة • ولا يجوز أن يقع أي عمل في الجمعية الا بعد مصادقة اللجنة المختصة عليه •

2 ــ وظائف لجنة التعليم :

تباشر هذه اللجنة وضع برامج التعليم والاشراف على تنفيذها • وترشح المفتشين لمصادقة المكتب الدائم حسب الشروط المنصوص عليها في الفصل 3 الموالي • وتباشر تسميات المعلمين والاشراف على مناظراتهم • وتعيين أوقات الراحة والعطل • وبداية السنة الدراسية ونهايتها • وتصادق على الاحتفالات المدرسية وتأذن ــ حسب المناسبة ــ في الاحتفالات المدرسية الغير العادية التي قد تدخل على برنامج الدراسة خلالها ــ وتشرف على اجراء امتحانات الشهادة الابتدائية العربية • وتباشر تهيئة البعثات الى الخارج بالاشتراك مع ادارة المعهد • وتباشر عقد المؤتمرات التعليمية للمعلمين • وتتصل

بهم وبالجمعيات المحلية بواسطة المفتشين والرسائل والمنشورات الدورية ــ وتقوم بالدفاع عن المدارس المحلية والمعلمين والجمعيات المحلية كلما طرأ عليها طارىء من المضايقات والمظالم (12) ، والمشاكل الداخلية ، باحالتها الى المكتب الدائم •

3 ــ يشترط في المفتش نفس الشروط التي تشترط فيمن تقدم لمناظرة التدريس بالمعهد :

انما يزاد على المفتش أن يكون قد باشر التعليم أو الادارة لمدرسة تابعة لجمعية العلماء مدة لا تقل بحال عن ستة أعوام • ويستثني من هذه الشروط كل من باشر التفتيش بالفعل قبل هذا التاريخ بتكليف من لجنة التعليم •

4 ــ وظائف لجنة ادارة المعهد :

تشرف هذه اللجنة على كل ما له علاقة بالمعهد من كتب وبرامج وتعيين ابتداء السنة الدراسية فيه وانتهائها • وتحديد المواسم والعطل واسكان واطعام التلاميذ ــ وتشكل اللجان الفرعية التي تحتاج اليها • وتضع النظم والقوانين اللازمة لتسيير نظام المعهد ــ وترشيح الشيوخ لمناظرة التدريس وترشح الموظفين ــ وتعلن عن شروط المسابقة ــ ولها مطلق النظر فى كل ما له اتصال بتسيير المعهد • والمكتب الدائم هو الذي يملك وحده حق المصادقة على الترشيحات أو رفضها •

5 ــ وظائف لجنة الطبع والنشر :

تباشر ادارة صحف الجمعية وطبع نشرياتها باللسانين ــ وتسيير المطبعة حسب القوانين المتعلقة بنظام الطباعة • وتتولى توظيف العمال ، وعزلهم ، وتعين أجورهم • ولهذه اللجنة عقد الاتفاقات التجارية كالمطبوعات والاعلانات ، وما شاكل ذلك • وعليها شراء ما يلزم للمطبعة من ورق وأدوات مختلفة ، وعليها أن تضع ما تقبضه من مال فى حساب الجمعية الجاري بالبريد • ولها أن تأخذ ما تحتاجه منه من اللجنة المالية • وعليها أن تقدم حساباتها شهريا الى اللجنة المالية •

6 ـ وظائف لجنة الدعاية والتنظيم :

تتولى هذه اللجنة فى صحف الجمعية وغيرها نشر وتحرير المقالات ، والكتب ، والرسائل والنشريات التي تخدم الجمعية ومصالحها فى الداخل والخارج ـ وتتولى تنظيم الشعب ، وتحديد أعمالها ، ومراقبة سيرها ، وتتولى أيضا تنظيم حركة الشبان وتسييرها ، وتنتقي الرجال الأكفاء ذوي المواهب الصالحة لتدريبهم واعدادهم اعدادا خاصا لتحمل أمانة جمعية العلماء ـ وترشح المعتمدين للوعظ والارشاد للموافقة من طرف المجلس الاداري ـ وتراقب الناحية الاخلاقية لكافة المعلمين ورجال الشعب وسائر العناصر الاصلاحية ـ وتكل الحكم فى ذلك الى المكتب الدائم ـ وتتصدى لتوزيع الوعاظ والمرشدين فى شهر رمضان مع وضع برنامج محكم يشتمل على توصيات وتوجيهات تساعد على توحيد موضوعات وأساليب الوعظ لمقاومة خصوم الجمعية ، وتمثيلها فى الاحتفالات والاجتماعات ، وتصلح ذات البين بين الناس •

7 ـ وظائف لجنة المالية :

تتولى ايجاد الوسائل لجمع الميزانية ، وتراقب صرفها دخلا وخرجا ـ وتبتكر الطرق التي تنمي موارد الجمعية علاوة على الميزانية المقررة • وذلك بانشاء مشاريع اقتصادية كنشر وطبع الكتب والكراريس والدفاتر وسائر المواد الكتابية التي تحتاج اليها المدارس ـ وتتصل بالشعب والجمعيات المحلية من الناحية المالية •

8 ـ وظائف لجنة الشؤون الخارجية والمراقبة والتاديب :

تقرر أن تكون هي نفس المكتب الدائم الذي يتولى الاتصال بالرسميين (13) والهيئات والاحزاب والمنظمات والجمعيات الاسلامية الكبرى ، فيما يتعلق بمباديء الجمعية وتحقيق أغراضها • ويتولى مراقبة البعثات (14) ، والسعي فى توحيد الحركة الاسلامية العامة بين سائر أقطار العالم الاسلامي • ويضطلع بمهمة النظر فيما يرفع ويحال اليه من المخالفات التي تصدر عن رجال الجمعية من معلمين وأعضاء

عاملين واداريين ومسؤولين ، وينظر فى قضاياهم ويصدر أحكامه بما يراه صالحا من نقل أو توبيخ أو ايفاف أو عزل •

9 ــ وعلى المكتب الدائم حين نظره فى المخالفات أن يشكل لجنة تتولى بحث حالة المتهم وتبدي رأيها فى محاكمته ان رأت وجوب ذلك •

10 ــ (أ) جميع اللجان المتقدمة مسؤولة لدى المكتب الدائم ، يراقبها ويحاسبها على أعمالها ويوجهها •

(ب) على كل لجنة أن تقدم فى آخر كل شهر الى المكتب الدائم تقريرا مفصلا عن حالتها •

(ج) يراعى فى أعضاء كل لجنة المقدرة الكافية على القيام بما وضعت لــه •

اعضاء اللجان :

1 ــ أعضاء لجنة التعليم هم سائر الذين عينهم المجلس الاداري سنــة 1951 ، أما مكتب اللجنة الدائم فيشرف عليه الشيوخ السادة :

ابراهيم مزهودي ، الحفناوي هالي ، محمد الصالح رمضان ، عبد القادر الياجوري ، ورئيس هذه اللجنة هو الشيخ عبد القادر الياجوري •

2 ــ تتركب لجنة ادارة المعهد من الشيوخ : المدير العربي التبسي ــ نائبه : محمد خير الدين ، أحمد حماني ، أحمد حسين ، نعيم النعيمي ــ ويرأسها : المدير ان كان حاضرا بالمعهد • وفي حالة غيابه يرأسها نائبه • وتكون مقررات اللجنة نافذة حالا بمجرد اتخاذها • أيا كان الرئيس •

3 ــ لجنة الطباعة والنشر تتألف من الشيوخ : أحمد توفيق المدني ، باعزيز بن عمر ، أحمد سحنون ، حمزة بوكوشة ، ورئيسها أحمد توفيق المــدني •

4 ــ لجنة الدعاية والتنظيم • مؤلفة من الشيوخ السادة : العباس بن الشيخ الحسين ، محمد الصالح بن عتيق ، السعيد صالحي ، السعيد

الزموشي ، محمد الشبوكي ــ ورئيسها هو الشيخ العباس بن الشيخ الحسين .

5 ــ اللجنة المالية تتألف من الشيوخ السادة : عبد اللطيف سلطاني ، أحمد بوشمال ، علي بن المغربي ــ ويرأسها : الشيخ عبد اللطيف .

مراكز اللجان :

1 ــ تكون مراسلة كل لجنة باسم رئيسها المسؤول . ومراكز اللجان هكـذا :

2 ــ لجنة التعليم : مركزها جمعية العلماء بالعاصمة .

3 ــ اللجنة المالية : مركزها جمعية العلماء بالعاصمة .

4 ــ لجنة الدعاية : مركزها جمعية العلماء بالعاصمة .

5 ــ لجنة المعهد : دار المعهد بنهج ابن الفقون بقسنطينة .

6 ــ لجنة الطبع والنشر : المطبعة الجديدة . شارع توليبي رقم 4 بالجزائر .

7 ــ ينقل الى مقر لجنة الطبع والنشر كل ما يتعلق بتحرير البصائر والشاب المسلم (15) . أما ما يتعلق بالمالية فيبقى فى ادارة المركز حيث اللجنة المالية .

مقررات عامة تتعلق بالنظم واللجان وغير ذلك :

1 ــ المديرون والمعلمون المتازون الذين لم يلتحقوا بالاطار (الكادر) يحال أمرهم للمكتب الدائم ، بتفويض من المجلس الاداري ، ليقرر لهم درجة امتياز حسب استحقاقهم .

2 ــ لا تعطى منحة للسكن الا لمن هو ساكن بالأجرة فقط . ولا يأخذها من سكن بمحلات الجمعية ، أو محلات غير مكتراة .

3 ــ تصرف المرتبات الجديدة للمدرسين والمنظرين بهم ، ابتداء من غرة أكتوبر عام 1954 .

4 ـــ انتخبت لجنة مشتركة للبحث فى مسألة أعضاء البعثات الجديدة ، لتكون مطابقة تمام المطابقة للشروط التي جاءت فى تقرير الشيخ الأستاذ الرئيس عنها • وتشكيل لجنة البعثات لهذه السنة هكذا :

عن المجلس الاداري : أحمد حماني ، نعيم النعيمي ، أحمد حسين ، عبد اللطيف سلطاني ، العباس ، محمد خير الدين •

وعن لجنة التعليم : عبد القادر الياجوري ، ابراهيم مزهودي ، الحفناوي هالي •

5 ـــ تجتمع هذه اللجنة بقسنطينة • وقد أخذ الشيخ خير الدين سائر الأوراق والتقارير وبيانات الرئيس ، معه الى قسنطينة لأجل هذا الغرض •

6 ـــ تقرر أن يغادر الشيخ السعيد الزموشي عمالة وهران • وان ينتصب للتدريس فى المعهد •

7 ـــ صادق المجلس على مشروع بلاغ عرضه الكاتب العام يتعلق بكفالة أيتام الأصنام (16) • واذن بنشره فى البصائر •

8 ـــ عرض الكاتب العام مشروع البيان النهائي الذي يصدره المجلس الاداري والمتعلق بشتى المشاكل التي تحيط بالجمعية أو التي يجب عليها ابداء الرأي فيها • وقد نوقش ذلك البيان فصلا فصلا • وأقره المجلس باجماع ، واذن بنشره فى البصائر (17) •

9 ـــ بعد المداولة فى موضوع تعمير المراكز الكبيرة برجال الجمعية ، وهل الأوفق وضع الرجال فى مراكز قارة مع تحديد دائرة لهم ، أو تعيين متجولين فى مناطق معينة يكونون موظفين فى الجمعية ، مباشرة : قرر المجلس الاداري أنه نظرا للتجربة التي لم تكن ايجابية فى مسألة المتجولين ، فان الجمعية قد عدلت عن ذلك النظام • ويكون العمل فى المستقبل باقرار رجال الجمعية فى مراكز كبرى ، مع تحديد مناطق لهم • والاتفاق مع الجمعيات المحلية على أن عمل المعتمد فى الدائرة المحددة شرط أساسي فى تسميته بها •

10 ـــ الشيخ محمد الصالح بن عتيق ينتقل من الميلية الى مركز البليدة ، حسب الفصل السالف ، ويستقر فى مركزه الجديد ابتداء من غرة جانفي المقبل 1955 •

11 ـــ عندما حلت النكبة بالأصنام ، بادر وفد مؤلف من الشيوخ : أحمد توفيق المدني ، عبد اللطيف ، حمزة ، وممثل لشعبة العاصمة بالذهاب للأصنام لمواساة أهلها ، والسؤال عن رجال الحركة ومعتمديها ومدرسيها • فكان الشيخ الجيلالي الفارسي أول من اقتبله ، وشكره الشكر الحار البليغ ، وطاف معه البلدة ، وزار معه المنكوبين ـــ وفى اليوم الموالي زار الأصنام الشيخ محمد خير الدين وقام بعمل الواجب • وتفاوض مع المسؤولين في كيفية توزيع الاغاثات السريعة •

لكن الشيخ الجيلالي الفارسي بعث للمجلس أثناء انعقاده رسالة مضمنة ، فيها شتم وسب لأعضاء الجمعية ، واهانة لرجالها ، وافتراء عليهم • وقد شاهده جماعة من أعضاء المجلس فى العاصمة أثناء انعقاد الجلسات ولم يلتفت للجمعية • وبعد بيانات طويلة فى مواقفه قرر المجلس :

« نظرا لمواقف الشيخ الجيلالي الفارسي السابقة من الجمعية ورجالها • ونظرا للاهانات التي كثيرا ما لحقت الجمعية ورجالها من الافتراء عليهم ، رغم قيامهم بواجبهم في قضية الزلزال منذ اليوم الأول ، ونظرا لتقصيره الفاضح في تمثيل الجمعية أمام منكوبي الزلزال مع رجال الجمعية المحلية ، فالمجلس الاداري يقرر :

1 ـــ يوقف الشيخ الجيلالي الفارسي عن كل عمل في دائرة الجمعية ابتداء من يوم التاريخ •

2 ـــ يحال على المحاكمة أمام لجنة التأديب في أي فرصة تناسب •

3 ــ نظرا للظروف الحاضرة (18) ، تبقى هذه المقررات سرية في دائرة المجلس • الا اذا حدث منه ما استوجب نشرها • (*)

12 ــ قرر المجلس الاداري تكليف المكتب الدائم بارسال لوم وتوبيخ الى المقصرين من أعضاء الجمعية ، وخصوصا أعضاء المجلس الاداري • كما قرر أن يحيل الى لجنة التأديب كل من اتهم بما يستوجب محاكمته •

13 ــ كل من شملهم اطار «كادر» موظفي جمعية العلماء ، تحت التصرف المطلق لما يقرره المجلس الاداري أو المكتب الدائم • بحيث اذا عين لأحد منهم عمل أو عين له مركز ، وجب أن يقوم به وينتقل اليه • وعلى المجلس أو المكتب ألا يهملا الأعذار الشرعية التي تجب مراعاتها بعد الادلاء بها • واقتناعهما بوجاهتها وأحقيتها •

14 ــ قرر المجلس باجماع أنه يلتزم التزاما شرعيا باحترام سائر مقرراته الحاضرة والدفاع عنها والعمل على تنفيذها والوقوف اجماعيا في وجه كل من يحاول الحد منها أو مقاومتها • أو معارضتها • والمكتب الدائم مكلف بتنفيذها منطوقا ومفهوما • واذا حدث شيء مما لم يمكن للمكتب التغلب عليه فمن واجبه استدعاء المجلس الاداري لجلسة استثنائية (19) •

15 ــ تلى تقرير الأستاذ الرئيس عن البعثات ونظامها • ثم ختمه بتذمر مر عن اشاعات ومفتريات قيلت فيه ونقلها اليه «الشيخان» حسب تعبيره (20) •

فقرر المجلس باجماع :

أ ــ المصادقة على كل ما جاء في التقرير • ووضعه موضع التنفيذ حالا •

(*) ـ وقع هذا الحادث المؤلم مع الشيخ الجليل الأستاذ الجيلالي الفارسي ، أثر زلزال الأصنام الذي أصاب قلوبنا في الصميم ، واستياء الأستاذ الجيلالي مما خاله تقصيرا من الجمعية نحوه .. وبعد كتابة هذا التقرير ، عاد الشيخ الجليل الى مركزه المرموق بالجمعية وعادت القلوب الى الصفاء والوئام القديم ، ولا يزال الشيخ حفظه الله ، عاملا ، مناضلا حتى يومنا هذا في الميدان الاسلامي الصحيح (هذا التعليق اضافة المرحوم الشيخ أحمد توفيق المدني عند نشرنا للتقرير في مجلة التاريخ التي كان يشرف عليها ، وقد أبقينا على تعليقه هنا لفائدته) .

ب ـ تألمه الألم العميق من حديث الافك المنقول للشيخ •

ج ـ مطالبة الرئيس الجليل باعطاء بيانات عن هذه الاشاعات الكاذبة ، وعن المنسوبة اليه ، وعن ناقليها ، بالتدقيق ، مع بيان سائر الأسماء ، ليتخذ المجلس موقفه من محاكمة هؤلاء الكاذبين •

د ـ تبليغ هذا الى حضرة الرئيس الجليل مع سائر مقررات المجلس •

الاجتماع العام :

1 ـ تقرر أن يؤجل عقد الاجتماع العام (21) الذي يحل أجله هذه السنة ، الى ما بعد رجوع الأستاذ الشيخ الرئيس ، الذي يجب أن يتم خلال سنة 54ـ55 قبل موعد الاجتماع العام • والى أن يتم تحرير قانون أساسي جديد يتفق مع اتساع حركة الجمعية وتعدد ميادين نشاطها •

2 ـ تقرر أن يشترك في وضع هذا الدستور الجديد الشيوخ : محمد البشير الابراهيمي ، الفضيل الورتلاني (22) ، أحمد توفيق المدني ، محمد خير الدين (23) • على أن يكون موجودا لعرضه على المجلس الاداري المقبل قبل الاجتماع العام •

3 ـ بما أن الاجتماع العام المقبل يوافق مرور 25 عاما على وجود الجمعية ، فالاجتماع العام يكتسي صبغة مهرجان احتفال عظيم ، ويستحسن وضع كتاب عن الجمعية وجهادها وآثارها خلال ربع قرن ، بتلك المناسبة •

وبخطاب ختامي من نائب الرئيس الشيخ محمد خير الدين ، ختمت اجتماعات الدورة العادية للمجلس الاداري لسنة 1954 • والحمد لله رب العالمين •

الجزائر يوم 2 أكتوبر 1954 .

الكاتب العام لجمعية العلماء

أحمد توفيق المدني (توقيع)

1 – لا ندري أين بقى أرشيف جمعية العلماء بعد 1956 . ولعل الشيخ عبد اللطيف سلطاني ، أمين مال الجمعية عندئذ ، له معرفة به .

2 – هو أحمد توفيق المدني الآتي ذكره ومحرر هذه الوثيقة .

3 – المجلس الاداري هو ما يسمى في بعض التنظيمات الحزبية باللجنة المركزية .

4 – هي الجريدة الرسمية للجمعية ، وكانت تصدر أسبوعيا باللغة العربية ، وقد تأسست حوالي سنة 1935 ثم توقفت خلال الحرب العالمية الثانية ، وعادت الى الظهور سنة 1947 ، وقد توقفت نهائيا سنة 1956 .

5 – نهج بوميي رقم 12 بحي القصيبة .

6 – توفى عدد من الشيوخ المذكورين في هذا المحضر ، وما يزال بعضهم على قيد الحياة . وممن توفوا بالاضافة الى الابراهيمي والتبسي ، نعميم النعيمي ، باعزيز بن عمر ، أحمد بوشمال ، أحمد رضا حوحو ، الحفناوي هالي ، ومنهم من استوطن المغرب مثل عبد الوهاب بن منصور .

7 – جرت العادة حين يذكر الابراهيمي أن يشاد بمواقفه وأعماله لصالح الجمعية . ولأسباب أشرنا اليها في التمهيد ، وتشير اليها الوثيقة أيضا ، اكتفى هنا بتحيته مع نائبه التبسي .

8 – يعتبر انشاء المناظرة لاختيار أساتذة المعهد اصلاح جديد في سير التعليم ، وكان دخول المعهد قبل ذلك بدون مناظرة مما جعل بعضهم عندئذ يشكون من كون العلاقات الشخصية هي التي كانت تلعب دورا في جلب المعلمين الى المعهد ، ولو مع عدم الكفاءة .

9 – المقصود مركز جمعية العلماء بالعاصمة المشار الى عنوانه من قبل .

10 – هي مطبعة جريدة البصائر ، وقد كانت في باب الواد ، نهج تويليي رقم 4 .

11 – هو الهيئة العليا للجمعية ، وهو يوازي في بعض التنظيمات الحزبية المكتب السياسي .

12 – المفهوم من عبارة «المضايقات والمظالم» تلك التي تصدر عن السلطات الفرنسية ضد مدارس ورجال الجمعية .

13 – لعل المقصود بهم هنا رجال فرنسا في الجزائر ورجال الدولة وأمثالهم في غيرها .

14 – بدأت الجمعية ترسل بعثات طلابية من خريجي معهد بن باديس حوالي 1951 . وكان الهدف تكوين معلمين أكفاء في معاهد الشرق العربي ، ولكن بعض التيارات الدينية حاولت بواسطة الفضيل الورتلاني ، احتواء هذه البعثات ، فنفر بعض الطلاب من ذلك وخرجوا تماما عن سلطة الجمعية في المشرق ، وهذه الأمور هي التي يشير اليها فيما بعد تقرير الابراهيمي في هذا المحضر .

15 – جريدة دورية تصدر باللغة الفرنسية يحررها أنصار الجمعية في الدوائر الناطقة بغير العربية ، ومعظم كتابها كانوا من الشبان .

16 – أصاب مدينة الأصنام سنة 1954 زلزال مهول سبب خسائر كبيرة . وهو الذي تشير بعض الفقرات التالية الى آثاره .

17 – لو كنا في الجزائر لحاوّلنا مقارنة ما جاء في هذا المحضر بما جاء في (البيان) النهائي الذي صدر عن الاجتماع . ونحن نترك الآن ذلك للقارىء الذي يهمه الأمر

18 – لا ندري ما المقصود « بالظروف الحاضرة » : هل هي ظروف الجمعية ، أو آثار الزلزال ، أو غيرها .

19 – نلاحظ من الفقرات 11،12،13،14 صرامة مواقف المجلس الاداري .

20 ـ الغالب أن المقصود بالشيخين العربي التبسي وأحمد بوشمال ، وما زلنا لا نعرف محتوى الاشاعات والمفتريات وموضوعها ، ولكن الامر يتعلق بالأوضاع الداخليـــة للجمعية ، لأن الفقرة (ج) تشير الى ذلك .

21 ـ لم يحدد موعد للاجتماع العام الذي هو (الجمعية العمومية) . ويبدو أن ذلك كان مرهونا بعودة الابراهيمي وصياغة القانون الأساسي الجديد . ولكن الابراهيمي لم يعد واندلعت الثورة ، وأصبح من الصعب بل من المستحيل عقد اجتماع الجمعية العمومية سنة 1955 ، وهو الأمر الذي زاد في حرج موقف القائمين على جمعية العلماء خلال تلك السنة وما بعدها ، الى حلها سنة 1956 .

22 ـ لاحظ أن هذه هي أول وآخر مرة يشار فيها الى الورتلاني ، ومعنى ذكرها هنا مطالبته هو ايضا بالعودة بعد أن طالت اقامته في المشرق وورط الجمعية في عدد من القضايا لا شك أنها كانت ترغب في البقاء بعيدة عنها .

23 ـ لا يوجد اسم التبسي ضمن المقترحين لاعداد القانون الأساسي الجديد . وهذا يؤكد ابعاده التدريجي من نشاط الجمعية . وقد قيل أنه غضب من مقررات المجلس وحاول الطعن فيها .

سياسة فرنسا نحو الجزائر في القرن 19 م

بحث مقدم الى الأستاذ الدكتور ، أوتو ، ب ، فلانزي O. Flanze
أستاذ التاريخ الأوربي الحديث ـ خصوصا ألمانيا في عهد بسمارك (*) .
مايو ، 1962 .

المحتــــوى :

- تقــديم .
- مدخــل .
- سنوات التجربة ، 1830–1848 م .
- من الحكم الذاتي الى الاندماج 1848 – 1900 م .
- عبد القادر والمقاومة الجزائرية .
- سياسة الاستيطان : أسبابها ونتائجها .
- المؤسسات الفرنسية والتقاليد الجزائرية .
- بيبليوغرافية مختارة .

(*) – كا ن البروفيسور (فلانزي) Otto Fflanze قد اعترض على بعض ما جاء في هذا البحث على أساس أنه غير موضوعي ، وقد راجعت البحث وقدمته اليه مرة ثانية ، ولا أدري الآن هل النسخة التي ترجمت عنها هي الأولى أو الثانية .
(مع ملاحظة أنه ما دام الموضوع قد كتب قبيل استقلال الجزائر وبعد توقيع اتفاقيات ايفيان ، فان روح تلك الفترة بارزة فيه بوضوح) .

تقـــديم :

بينما تبرز الجزائر الآن كدولة مستقلة من جديد ، رأيت من المفيد أن أقوم ببحث يلقي بعض الضوء على العلاقات الفرنسيـــة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر . وللبحث في هذا الموضوع رجعت الى كل ما يمكنني الرجوع اليه من المصادر ، ومع ذلك يجب القول بأن معظم مصادري كانت فرنسية . لقد رجعت الى بعض المصادر الانجليزية ، ولكنها في الواقع لم تلق أضواء جديدة على الموضوع لأنها في أغلب الحالات تعتمد على الوثائق الفرنسية .

ان موضوع « السياسة الفرنسية نحو الجزائر خلال القرن 19 م » موضوع معقد نسبيا لأنه لم يحدث تغيير جذري في هذه السياسة ، سواء من الداخل أو من الخارج ، خلال هذا المعهد . ولقد قسمت البحث الى فصول ، كل منها يتعرض لجانب من السياسة الفرنسية في العهد المدروس . فهناك مثلا فصل عن الاستيطان (الاستعمار) وآخر عن المقاومة الجزائرية ، الخ . وكل ذلك كان محاولة مني تقديم مختلف جوانب الصورة للسياسة الفرنسية نحو الجزائر خلال القرن التاسع عشر (19) .

مدخـــــل :

كان للسياسة الفرنسية في الجزائر ، منذ الاحتلال سنة 1830 ، ثلاثة أهداف : الأول صنع الجزائر الفرنسية بكل ما يعنيه ذلك من أبعاد . ثانيا طمس التاريخ والشخصية الجزائرية وإزالتهما من الاعتبار . ثالثا قهر أي نوع من أنواع المقاومة التي يمكن أن تزعج أمن فرنسا في الجزائر واستخدام كل الأساليب والوسائل للوصول الى ذلك الهدف .

وهناك مراحل عديدة مرت بها هذه السياسة . ولكن يمكن حصرها في أربع مراحل اذا نظرنا اليها فقط خلال القرن التاسع عشر . أولها المرحلة الممتدة من سنة 1830 الى 1841 والتي في نهايتها قررت فرنسا رسميا أن توطن نفسها في الجزائر بالوسائل العسكرية مستعملة لذلك « كل الوسائل المتاحة » والمرحلة الثانية امتدت من 1841 الى 1852 وأثناءها ألحقت فرنسا الجزائر بها دستوريا وسياسيا ، وبناء على ذلك أصبحت الجزائر ثلاث مقاطعات (ولايات) فرنسية تخضع مباشرة لوزارة الحربية في باريس ، مع استعمال الوسائل الاضطهادية والاستيلاء على أراضي الأهالي بالقوة .

وتمتد المرحلة الثالثة من 1852 الى 1870 أو عهد الامبراطورية الثانية . وخلال هذه المرحلة أوقف نابليون الثالث هجرة الأوربيين الى الجزائر ، وحد من طرق الاستيلاء على أراضي الأهالي بالقوة ، وفكر في انشاء حكم ذاتي في الجزائر تحت اسم « المملكة العربية » المحمية من قبل فرنسا . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فتبدأ من هزيمة فرنسا على يد ألمانيا سنة 1871 وتستمر الى سنة 1900 . وقد تميزت هذه المرحلة باحياء « السياسة القديمة » التي عرفتها المرحلتان الأولى والثانية ، وانتهت بانشاء ما سمي « بالميزانية الجزائرية » سنة 1900 أو الاستقلال

المالي للجزائر الذي طالب به المستوطنون (الكولون) الفرنسيون وأصروا عليه لأنه يعطيهم الحق في مراقبة مالية الجزائر مباشرة بدلا من حكومة باريس •

ان أهمية الجزائر لفرنسا أمر لا يحتاج الى توضيح • ويكفي باختصار أن نقول : ان الجزائر كانت أساسية لفرنسا من عدة وجوه • فمن الجزائر وسعت فرنسا نفوذها الاستعماري في افريقيا ، وقد وجدت في الجزائر سوقا واسعة لبضائعها ، ومتنفسا للضغط السكاني ، ومصدرا للمواد الخام ، ويدا عاملة رخيصة ، وميدانا يتدرب فيه جيشها ، ومواقع استراتيجية مطلة على البحر الأبيض من جهة والصحراء الكبرى من جهة أخرى • الى غير ذلك من الأهميات •

وكان الحكام الفرنسيون والضباط الذين مثلوا بلادهم في الجزائر ، كانوا بصفة عامة رجالا غلاة في المحافظة ، وكانوا متعصبين ومحبين للتسلط والهيمنة الامبريالية • وقد حاول بعضهم أن يمارس نوعا من السياسة الليبرالية نحو الأهالي ولكنهم كانوا واقعين تحت ضغوط المستوطنين الفرنسيين الذين رفضوا كل تغيير قد يؤدي الى التنازل للأهالي أو اشراكهم في شؤون الجزائر • ونتيجة لذلك كان على أولئك الحكام الفرنسيين أن يغيروا رأيهم أو يواجهوا العزل من مراكزهم في الحال •

ان الصراع بين المصلحين الذين كانوا يمثلون السلطة الفرنسية وبين المستوطنين الفرنسيين الذين رفضوا أي شكل من أشكال الاصلاح بالنسبة للأهالي لم يتوقف عند نهاية القرن 19 م ، بل انه استمر أثناء القرن 20 أيضا ، وكان هذا الصراع هو الذي أدى في النهاية بالشعب الجزائري الى اعلان الثورة سنة 1954 باعتبارها آخر حل ممكن •

الفصل الأول :

سنوات التجربة أو سياسة لويس فيليب 1830 — 1848

بين الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830) وبداية القرن العشرين ، هناك مراحل مر بها النظام السياسي في فرنسا نفسها • أولها

عهد لويس فيليب الممتد من 1830 الى 1848 • وثانيهما عهد الجمهورية الثانية ونابليون الثالث ، وثالثهما عهد الجمهورية الثالثة • ولا يمكننا دراسة كل هذه العهود وما جرى فيها من تحولات سياسية على يد مختلف الحكومات نحو الجزائر ، وذلك لضيق المجال ، ولذلك فاني سأكتفي بتناول كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث باختصار كبير ، وسأقتصر في هذا الفصل على التعرض لسياسة لويس فيليب نحو الجزائر والتي أسميتها «سنوات التجربة» •

والواقع أنه لا يوجد ما يدل بوضوح على أن الحكومة الفرنسية بين سنوات 1830 و 1848 كانت لها سياسة جلية نحو الجزائر • ذلك أن عدم استقرار النظام في فرنسا نفسها ، ومقاومة الشعب الجزائري المستمرة والخوف من بريطانيا ومن السلطان العثماني ، ومن مشاكل أوربا (مثل ثورات اليونان ، وبولندا ، وبلجيكا ، وايطاليا) كل هذه الأحداث جعلت الحكومة الفرنسية لا تبت برأي واضح في سياستها نحو الجزائر •

ان الشيء الواضح للسياسة الفرنسية في هذا العهد هو : « دع الجيش حرا » وبناء على هذه السياسة فان القائد العام للجيش الفرنسي في الجزائر كانت له السلطة المطلقة في التصرف ، فالجزائر ، من هذه الوجهة ، لم تكن سوى «منطقة عسكرية» أو ميدان حرب ، حيث لا أحد ينازع الجيش سلطاته •

ولا يوجد في هذا العهد سوى تغييرين رئيسيين : الأول قرار الحكومة الفرنسية سنة 1841 القاضي بقهر المقاومة الجزائرية بالقوة والعنف • والثاني القانون الدستوري لسنة 1848 القاضي بالحاق الجزائر بوطن فرنسا • ولكي نوضح سياسه الحكومة الداعية الى هذا التغيير دعني أضيف بعض التفاصيل •

ان الفرنسيين استولوا على الجزائر في 5 يوليو 1830 بعد معارك عنيفة وخسائر في الأرواح من الجانبين (1) • وكان دي بورومون ، وهـو وزير الحربيـة في وزارة دي بولينيـاك أثنـاء حكم شـارل العاشـر ، قد هـرب من الجيش الفـرنسي أثناء معركة واترلو ، ولكن سرعان ما حصل على عصا المارشالية نتيجة انتصاره في الجزائر • غير أن دي بورومون لم يتمتع بانتصاره طويلا نظرا لتطور الأحداث في كل من الجزائر وفرنسا •

ففي الجزائر طبق دي بورومون طرقا ارهابية ضـد سـكان مدينة الجزائر وأعطى يدا حرة للجنود الفرنسيين ليعيثوا فسادا في المدينة من 5 يوليـو الى 23 منـه • وقد كتب السـيد فرنسيس بـولسكي F. Pulszky مؤلف كتاب (العلم المثلث فوق الأطلس) يقول : « ان الجيش (الفرنسي) بقي في هدوء بجوار مدينة الجزائر الى الثالث والعشرين من يوليو • ان تخريب الحدائق الفاخرة والمغاني (الفيلات) الجميلة من طرف الفرنسيين وقع خلال هذه الفترة ••• لقد تسللت عصابات الفرنسيين الى المغاني التي هجرها سكانها الفزعين وحطموا حتى الجدران آملين أن يجدوا فيها الكنوز المخبأة (2) » •

وبالاضافة الى ذلك ، فان المارشال الفـرنسي (دي بورمون) ترك المدينة في حالة فوضى متناهية • فقد حكم بطرد المسؤولين السابقين (في الحكومة الجزائرية) لأنه اعتقد بأنهم كانوا مصـدر القلاقل ، وأصبحت المدينة تحت طائلة القرارات العسكرية التي كانت تخضـع للتغيير من يوم الى يوم • وقد أضاف بولسكي يقول : « ان البـلاد أصبحت في فوضى • فالرسميون السابقـون قد طـردوا ، وأصبحت قرارات وقواعد الادارة في حالة من الفـوضى بعـد الاستيـلاء على القصبة • (3) »

---

1 ــ لقد كتبت بحثا آخر بعنوان (الجزائر والحملة الفرنسية ، 1830) عالجت فيـه الظروف الدولية والوضع الفرنسي الذي قاد الى هذه الحملة . (نشر هذا البحث في كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، القسم الأول ، ط 2 ، 1982) .

2 ــ بولسكي ، (العلم المثلث فوق الأطلس) ، ص 232 .

3 ــ نفس المصدر ، ص 235 وكلمة (القصبة) تعني الحصن أو القلعة . وقد كانت (القصبة) هي مقر الحكومة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي .

وقد رأى بعض المؤرخين أن الفرنسيين ، في الواقع ، لم يعرفوا ماذا يفعلون بالجزائر بعد استيلائهم عليها • فقد كانوا سيتخلون عنها لولا أن خوفهم من بريطانيا قد جعلهم يحتفظون بها • بل أنهم فكروا حتى في مجلس أوربي ليقرر مستقبل الجزائر ، وذلك بناء على وعد صدر من فرنسا قبل الاستيلاء عليها (4) •

ومهما كان الأمر ، فان الجيش الفرنسي لم يتوقف أبدا عن توسعه في ضواحي مدينة الجزائر • وقد استمر هذا الحال الى أن تغيرت مجريات الحوادث في فرنسا نفسها وصدر « أمر جديد » الى الجيش بالجزائر

ذلك أن (ثورة يوليو) بفرنسا قد أجبرت شارل العاشر ، أكبر ملك رجعي في وقته ، على التنازل ، وجاءت الى العرش «بالمواطن» لويس فيليب • وسرعان ما أصدر الملك الجديد أمر العزل الى المارشال الشهير دي بورومون ، وعين خلفا له ، الجنرال كلوزيل لقيادة الجيش الذي كان يسمى «جيش أفريقيا» وقد طلب المارشال المعزول سفينة حكومية ليغادر بها الجزائر ولكن طلبه رفض ، فلم يجد سوى سفينة نمساوية حملته الى أسبانيا كلاجىء •

وقد أعلن كلوزيل للجيش صعود سيده لويس فيليب الى العرش ، كما أعلن لهم نيته في متابعة المهمة التي كلفه بها • وعندما وصلت أخبار ثورة يوليو الى آذان الجيش في 11 أغسطس أراد « الشرعيون » التوجه الى فرنسا ليحاربوا من أجل الشرعية ، بينما أراد آخرون مواصلة مهمتهم في الجزائر في انتظار تطور الأحداث في فرنسا • وكان الجنود قد تظاهروا وأجبروا المارشال دي بورمون على رفع العلم المثلث ، رمز النظام الجديد ، بدل العلم الأبيض شعار ملوك البربون ، فلم يسعه الا الامتثال •

لقد كانت مدينة الجزائر في حالة سيئة من الفوضى عندما وصلها الجنرال كلوزيل • وكان عليه ، كما تقول المصادر الفرنسية ، أن

4 ــ انظر : كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص 398 . أنظر كذلك : وزارة الخارجية البريطانية (مراسلات واتصالات مع سفير جلالته بباريس) ، ص 18 .

« يهدىء » السكان وأن يواصل مهمته • وما دامت باريس لا تجد وقتا لتضع سياسة واضحة نحو الجزائر ، فانها قد عينت الجنرال كلوزيل ليبذل ما في وسعه بمعرفته ، أو على الأقل ليحافظ على الجزائر في حالة انتظام قبل أن يتدخل البريطانيون • وكان كلوزيل أيضا من رفقاء نابليون الأول • وكان قد تعلم منه كيف يقود جيشا كبيرا ، لا أمام خرائب الامبراطورية الرومانية المقدسة أو أمام طوفان الثلوج بروسيا ، ولكن تحت شمس البحر الأبيض الحارة وسحر افريقية المثير •

فماذا حقق هذا الجنرال في الجزائر ؟ لقد شرع في برنامج تركيز الاستعمار • فقد استولى على حوش (مزرعة) حسين باشا بضواحي المدينة وأضاف اليها أراضي أخرى وأنشأ فيها ما سمي (بالمزرعة النموذجية) • وأنشأ أيضا نوعا من النظام العسكري ، أطلق عليه اسم جيش الزواف (الزواوي) مؤلفا في أغلبه من متطوعي الأهالي وذلك لتوسيع نشاطه العسكري وسلطته في الجزائر • كما أنشأ نوعين آخرين من المجموعات العسكرية ، وهما مجموعة (الصبائحية) أو الفرسان المؤلفة في أغلبها من الأهالي أيضا • والثانية مجموعة (رماة افريقيا) التي كانت خليطا •

وبمساعدة هذه الفرق المختلفة حاول كلوزيل أن يخرج من دائرة مدينة الجزائر الى جبال الأطلس وما وراءها • وبعد محاولات عديدة لعبور الأطلس استطاع هو وجنوده أن يجتازوه وأن يفاخروا بتبجح كبير أنهم أول من اجتاز الأطلس منذ الرومان • وقد حيوا سلسلة هذه الجبال بـ 25 طلقة وأصدروا بيانا بتلك المناسبة يذكرنا ببيانات نابليون الأول • (5)

ولكن هذا الجنرال (كلوزيل) الذي يعود الى العهد النابليوني ، لم يكن في مستوى سيده قوة • لقد أرسل جنوده هنا وهناك محاولا قهر الشعب الجزائري ووضع أسس الحكم الفرسي ، ولكن كان قد منع

---

5 ــ بولسكي ، ص 238 •

من ذلك وأجبر على التقهقر الى مدينة الجزائر • وقد لجأ الى صياغة معاهدة مع باي تونس يسلم بمقتضاها أقليمي وهران وقسنطينة الى أخ هذا الباي • وأرسل كلوزيل هذه المعاهدة الى باريس للموافقة عليها ، ولكن البرلمان الفرنسي (غرفة النواب) رفضت التصديق عليها على أساس أنها ليست في صالح فرنسا (6) •

وسرعان ما استدعى كلوزيل الى باريس للدفاع عن سياسته في الجزائر أمام البرلمان • وحل محله جنرال جديد • لقد كان كلوزيل محبوبا لدى الجيش لأنه أطلق يده ضد الأهالي الجزائريين • كما أن عزله كان محل أسف المستوطنين الفرنسيين لأنه فتح شهيتهم للاستعمار بانشائه (المزرعة النموذجية) وتوزيع الأراضي عليهم مجانا • أما بالنسبة للجزائريين فان عزل كلوزيل كان راحة لهم ، ولو مؤقتا ، لأنه هدم كثيرا من مساجدهم واستولى على أراضيهم وأجبرهم على مغادرة بيوتهم واللجوء الى المناطق الداخلية •

لقد تحدثت هنا مطولا عن كلوزيل لأنه ، وان كان عهده قصيرا (أقل من سنة) ، كان نموذجا للمستعمر الفرنسي في الجزائر • فكان مؤمنا بالاستعمار Colonisation ومعتمدا في ذلك على الجيش لفرض أهدافه • ولم تكن حكومة لويس فيليب مهتمة بما كان يجري في الجزائر • لقد منحت الجيش رخصة كاملة ليفعل ما يشاء فيها • ويرى بعضهم أن الحكومة الفرنسية فعلت ذلك حتى تتخلص من الجيش الذي قد يعكر عليها الامن والاستقرار في فرنسا نفسها • وقد قال السيد بولسكي : « انه من سوء حظ الجزائر أن حكومة لويس فيليب قد أهملت تماما الشؤون الافريقية » (17) •

ومهما كان الأمر فان هذه الحكومة قد عينت ، كما قلنا ، جنرالا آخر ليخلف كلوزيل في الجزائر ، وهو بيرتزين Berthezene وخلال هذا

6 — (ر) دي كار De Card (اتفاقات الجنرال كلوزيل مع باي تونس) ، ص 39 •

7 — بولسكي ، ص 248 •

العهد استمر الحال كما كاز ما عدا أن هذا الجنرال كان من الضعف بحيث سمح للجزائريين أن يهاجموه في عقر داره ــ مقر قيادته ــ ان هذا الجنرال الضعيف لجأ الى اتفاق مع الجزائريين تدفع فرنسا اليهم بمقتضاه سبعين ألف فرنك للمحافظة على الوضع القائم عندئذ •

ولم يطل عهد الجنرال بيرتزين اذ سرعان ما خلفه الدوق دي روفيقو ، الذي كان أيضا جنرالا في جيش نابليون ثم وزير الشرطة في حكومته • ولكنه تحول بولائه الى مملكة يوليو (لويس فيليب) • وقد جاء دي روفيقو معه الى الجزائر بشيئين ، عندما حل بها في 25 ديسمبر 1831 : الأول الوسائل التعسفية (البوليسية) ، والثاني العقلية الاستعمارية • وسوف أختصر هذا العهد وأذكر فقط التغيرات التي حدثت في فترة هذا الجنرال الجديد • فقد حول الدوق دي روفيقو قصر الصيف وحديقته ، وهما من مؤسسات حكام الجزائر السابقين ، الى مستشفى عسكري • كما أنه استخدم جميع الوسائل لفرض سلطان فرنسا على كل الجزائر •

وخلال هذا العهد كان رئيس الوزراء الفرنسي هو كازمير بيرييه C. Perier ويذكر له أنه أول من أدخل وظيفة جديدة في الجزائر ، وهي وظيفة المتصرف المدني الذي كان من مهمته التراسل مباشرة مع حكومة باريس دون المرور بالقائد العام للجيش في الجزائر • وكان أول من تولى هذه الوظيفة هو السيد بيشون Pichon وقد أصبح هو والدوق دي روفيقو يمثلان السلطة الفرنسية سواء العسكرية أو السياسية •

ولكي يدعم الدوق وضعه ويجعل الجزائريين يفهمون بأنه كان حقا ذات يوم وزيرا للشرطة قام بفرض اجراءات تعسفية ضدهم • فقد قام أولا باجبارهم على دفع ضريبة من الصوف تقدر بـ 5400 CWT وثانيا لجأ الى هدم عدد كبير من أضرحتهم وقبابهم التي كانت في نظرهم محل تقديس • كما حكم على الذين اشتكوا الى حكومة باريس من هذه الأعمال وأمثالها بالطرد من الجزائر •

الفصل الثاني :

من الحكم الذاتي الى الاندماج ـ او سياسة نابليون الثالث والجمهورية الثالثة

ان تناولي لهذا العهد سيشمل الأربع سنوات التي بقيتها الجمهورية الثانية ، وفترة الامبراطورية الثانية ، ومدة الجمهورية الثالثة الى سنة 1900 • وخلال هذه الفترة الطويلة (أكثر من خمسين سنة) حدثت تغييرات كثيرة في كل من أوربا والجزائر • فمن جهة هناك تصاعد التيار القومي في ايطاليا وألمانيا وبولندا ، وكذلك الصراع من أجل الهيمنة سواء داخل أوربا أو خارجها ، بين زعماء من أمثال نابليون الثالث وبسمارك وكافور وحزب المحافظين البريطاني • وكل هذه التطورات عكست سياسة فرنسا نحو الجزائر خلال هذا العهد • فتصاعد التيار القومي شجع المقاومة الجزائرية ضد الحكم الأجنبي • كما أن ظهور الطبقة الوسطى في فرنسا شجع أصحاب الصناعة والتجارة في فرنسا على المناداة بسياسة الاندماج assimilation في الجزائر • كما أن عددا كبيرا من المعارضين السياسيين والاشتراكيين وأصحاب الآراء المتطرفة من الفرنسيين قد لجأوا الى الجزائر • أما الصراع من أجل الهيمنة في أوروبا وغيرها ، الذي أشرنا اليه ، فقد جعل الجزائر موقعا حيويا لفرنسا لأنها تقدم اليها المواد الخام ، والموقع الاستراتيجي ، وتسهل لها الاستثمارات الرأسمالية ، كما جعلها ملجأ لسكان اضافيين (مثل سكان الالزاس واللورين الذين نقلوا الى الجزائر بعد الحرب مع ألمانيا سنة 1871) •

ومن الصعب جدا تناول كل ما حدث بالتفصيل خلال هذا العهد الطويل (1848 ـ 1900) ، ولذلك سنكتفي بالاشارة الى التغييرات البارزة في وجهة النظر الفرنسية نحو الجزائر • لقد برزت فكرتان أثناء هذا العهد ، وكلتاهما كانت على درجة من الأهمية بالنظر الى الهدف الذي كانت ترمي اليه • الفكرة الأولى هي فكرة دمج المستعمرات (ومنها الجزائر) في البلاد الأم • وهذا يعني القضاء على الخصائص الطبيعية للمستعمرة واستغلال مصادرها البشرية والمادية لفائدة البلاد

الأم • وكان الجمهوريون ، ولا سيما المتطرفون منهم ، هم الذين تبنوا هذه السياسة بعد سنة 1848 • ولكن ظهور نابليون الثالث أوقف هذا التيار • ثم جاءت الجمهورية الثالثة وأحيت هذه الفكرة (الاندماج) وعملت على تطبيقها بشكل كامل • أما الفكرة الثانية وهي التي نادى بها نابليون الثالث ، فتقوم على اعطاء الجزائر حكما ذاتيا تحت الحماية الفرنسية (أنظر ما سيأتي) •

وهناك تغيير رئيسي حصل خلال هذا العهد أيضا ، وهو فصل السلطة المدنية والسلطة العسكرية في الجزائر • فبعد سنة 1871 تضاعف عدد المستوطنين الفرنسيين وشعروا أن السلطة العسكرية التي كانت الممثلة للادارة الفرنسية حتى الى ذلك الحين ، لا تتلاءم مع آمالهم في الحصول على الحرية والتمتع بالحياة الديمقراطيـــة • وقد أصروا على احــلال السلطة المدنية محل العسكرية • وبعد مناقشات طويلة قررت الحكومة الفرنسية تعيين سلطة مدنية تمثل وزارة الداخلية وليس وزارة الحربية ، كما كان الحال من قبل • ولكن هذه السلطة المدنية الجديدة لم تمتد الى جميع أنحاء الجزائر ، بل أنها لم تشمل سوى المناطق التي كان يعيش فيها المستوطنون بأعداد كبيرة : مثل المدن الرئيسية والسواحل • أما المناطق الأخرى من الجزائر فقد بقيت تحت الحكم العسكري تقريبا الى اندلاع الثورة الوطنية سنة 1954 •

وبالاضافة الى ذلك حدث تغيير آخر سنة 1900 ، وذلك عندما قررت الحكومة الفرنسية ، بعد مطالبات مستمـــرة وتحـديات من جــانب المستوطنين الفرنسيين بالجزائر ، فصل ميزانية الجزائر عن بقية الميزانية الفرنسية • ولم يكن لهذا الاجراء ، في الواقع ، أثر بارز على السياسة الفرنسية نحو الأهالي ، ولكنه اجراء أعطى للفرنسيين بالجزائر ميزانية مستقلة لتطوير صناعتهم وتجارتهم ومراقبة مصاريفهم التي جمعوها من ضرائبهم وضرائب الأهالي •

فاذا عدنا الى تطور الأحداث ، وجدنا أن الحكم الفرنسي منذ سنة 1848 قد امتد تقريبا لجميع أنحاء شمال الجزائر ، بما في ذلك مدن وهران وقسنطينة والجزائر • وقد قامت الحكومة الفرنسيـــة بطريقة

تعسفية ، باصدار قانون يجعل الجزائر جزءا لا يتجزأ من بلاد فرنسا • وازداد عدد الجيش من 60 (ستين) ألفا الى 100 (مائة) ألف جندي • وتضخم عدد فرقة اللفيف الأجنبي أيضا • وقد أشرنا الى انشاء فرق أخرى احتياطية من أهالي المناطق المحتلة • كما أن سياسة تشجيع الاستعمار قد استمرت على قدم وساق •

وقد وزعت الحكومة الفرنسية المناشير والكتيبات في أوربا تستحث الناس ، ولا سيما الشعوب اللاتينية ، على الهجرة الى الجزائر ، وكانت تقدم للمهاجرين منهم القروض والامتيازات ، والأراضي مجانا • وكانت سياسة هذا العهد تقوم على مصادرة الأراضي من الأهالي بالقوة واجبارهم على التراجع نحو المناطق الداخلية •

ولم تكن سياسة « الاندماج » التي استعملها الجمهوريون بعد 1848 قد نجحت في جلب الجزائريين لأنها كانت تعني عندهم التخلي عن أحوالهم الشخصية التي تتحكم فيها الشريعة الاسلامية • اذن فان هذه السياسة «الليبرالية» لم تنجح في الجزائر •

وقد جاء نابليون الثالث ، الذي اشتهر في زمنه بتأييد القوميات في أوربا ، ببرنامج جديد للجزائر رغم أن الليبراليين لم يتحمسوا له • ذلك أنه أيد فكرة الحكم الذاتي فيها • ونظرا الى استمرار المقاومة الجزائرية وانشغال نابليون بمناطق أخرى (المكسيك ، القرم ، رومة ، الهند الصينية والراينلاند) ، وتأييده للقوميات ـ أدخل نابليون الى الجزائر هذه السياسة الجديدة التي أود أن ألخصها في النقاط التالية :

1 ـ نقل شؤون الجزائر من المكاتب العسكرية الى أيدي مدنية (سنة 1858) •

2 ـ انشاء ادارة جديدة باسم (وزارة الجزائر والمستعمرات) على أساس أن يقيم الوزير نفسه في الجزائر بعنوان الأمير جيروم نابليون ، النائب Vice-Roi

3 ـ اعطاء الجزائر الحكم الذاتي وذلك بانشاء مملكة عربية فيها •

4 ــ وقف موجة الهجرة الأوربية الى الجزائر والتوقف عن مصادرة الأراضي الأهلية .

5 ــ توفير التعليم للأهالي (8) .

تلك هي أهم نقاط برنامج نابليون الثالث . ولعل المهم هنا ليس هو البرنامج نفسه ، ولكن تنفيذه . فماذا اذن كانت النتيجة من هذا البرنامج ؟

والواقع أنه لم تنفذ أية نقطة من هذه النقاط . ذلك أن الأمير جيروم نابليون رفض الاقامة في الجزائر كل الوقت ، وأصر على الاقامة في باريس على الأقل أربعة أشهر في السنة . وهكذا فان (وزارة الجزائر والمستعمرات) اشتغلت بعض الوقت ولكن في باريس وليس في الجزائر. وبالاضافة الى ذلك فان هذه الادارة الجديدة سرعان ما أعيدت الى أيدي العسكريين ابتداء من سنة 1860 ، وذلك في شخص الجنرال بيليسييه Pelissier الذي اشتهر عندئذ بانتصاره في حرب القرم ، وبارتكابه جرائم كثيرة في الجزائر . وقد تبخر حلم المملكة العربية أو منح الجزائر الحكم الذاتي على اثر الحرب الفرنسية الألمانية وهزيمة الجيش الفرنسي عندئذ . وعادت الجمهورية الثالثة الى السياسة القديمة القائمة على الاندماج والاستعمار والمصادرة والقهر الشديد . وقد صدق السيد تومسون في وصفه الجزائر خلال الثمانينات بقوله : « انها لم تعد فقط ميدانا للتدريب بالنسبة للجيش بل أصبحت مخبرا لتجارب السياسة الاستعمارية التي أطلق عليها خطأ ، في عهد لاحق ، اسم الامبريالية » .(9)

ان هذه السياسة التي سارت عليها الجمهورية الثالثة قد استمرت الى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بدون تغييرات جذرية . (10) بالعكس

---

8 ــ انظر : ج ، رايت wright فرنسا في العصر الحديث ، ص 257 ــ 258 ، وكذلك ج ، م ، تومسون : لويس نابليون والامبراطورية الثانية ، ص 212 .

9 ــ تومسون ، ص 212 .

10 ــ هناك تغيران هامان حدثا في عهد الجمهورية الثالثة : الاول اصدار قانون تجنيس يهود الجزائر والثاني فصل ميزانية الجزائر عن الميزانية العامة لفرنسا ، ولقد سبقت الاشارة الى الأخير .

أن تلك السياسة قد وقع دعمها وتشجيعها بالتوسع الامبريالي في أواخر القرن التاسع عشر ، ولا سيما بعد ظهور ألمانيا ومنافستها لفرنسا في افريقية • وفي فصل لاحق سأتحدث عن هذه السياسة الجديدة في الاستعمار وأهميتها بالنسبة للسياسة الفرنسية في الجزائر خلال هذا العهد • وقبل ذلك دعني أتحدث عن المقاومة الجزائرية للحكم الفرنسي •

الفصل الثالث :

عبد القادر والمقاومة الجزائرية

ان التغيير الذي حدث في السياسة الفرنسية خلال القرن التاسع عشر قد جاء في أغلب الأحيان نتيجة للمقاومة الوطنية في الجزائر • ولكي نوضح العلاقة بين السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية ، نشير الى أنه من الضروري على القارىء أن يعرف معلومات عن الجانب الآخر من الصورة، ونعني به الشعب الجزائري ، وردود فعلهم خلال الفترة المدروسة ، ولعله من الصعب اعطاء تفاصيل كثيرة عن الشعب الجزائري الآن • فلنكتف اذن بتقديم خطوط عريضة عن المقاومة الجزائرية وعلاقتها بالسياسة الفرنسية خلال العهد المدروس •

ان الحكومة الجزائرية قد استسلمت سنة 1830 بعد خمسة وثلاثين يوما من الحرب ، لكن الشعب استمر في المقاومة الى ما بعد 1880 • لقد كانت المقاومة الجزائرية من أعظم الصراعات الدامية ضد التدخل الأجنبي من أجل الاستقلال الوطني • وكان رمز هذه المقاومة هو الأمير عبد القادر (11) •

---

11 ـ حوله وحول حروبه ضد الفرنسيين ومعاهداته معهم ، أنظر م.ايمريت (الجزائر في عهد عبد القادر) وكذلك م • ل • قاليبير (الجزائر قديما وحديثا) وقد كتب السيد ب • دي سانت فيكتوار ، الذي كان عضوا في الأكاديمية الفرنسية ، عن الأمير عبد القادر قائلا : « ان المرء يشعر بأن هذا الرجل كان مشحونا بالأخيلة العجيبة وبطاقة أعجزته وأعجزت نفسها ، كما يشعر أن روحه كانت تتقد لهيبا يمكنه أن يشعل حربا ويهز أمة كاملة » .

لقد كان هذا الرجل في حوالي أربع وعشرين سنة من عمره عندما هاجم الفرنسيون الجزائر • وسرعان ما برز كزعيم لشعبه وقاد الكفاح ضد الفرنسيين مدة سبعة عشر عاما • ولم يكن من الرجال الرسميين أو كان عضوا في النظام الجزائري السابق • ولكنه ظهر زعيما سياسيا في الأقليم الغربي للجزائر ونعني به أقليم وهران • ولكي يتعادل مع الفرنسيين ، وقع معهم معاهدات وجهز جيشا بالأسلحة الحديثة التي اشتراها من الفرنسيين ، الذين قبلوا أن يشتري المعدات العسكرية من بلادهم •

وخلال سنة 1834 ، اضطرت فرنسا الى التوقيع معه على معاهدة اعترفت له فيها بحقه في انشاء امبراطورية جزائرية تضم أقليم وهران والصحراء والوسط — ما عدا مدينة الجزائر — وهذه المعاهدة تسمى معاهدة ديميشال (12) • وفي سنة 1837 وقع مع الجنرال بيجو نفسه معاهدة أخرى تعرف بمعاهدة التافنة ، وبناء عليها فان الأمير حصل لبلاده على قوة أكثر وسمعة أعلى مما سبق (13) •

كانت الجزائر بعد سقوط الحكومة المركزية مقسمة اداريا الى هذه الأقاليم :

1 — اقليم قسنطينة تحت حكم الحاج أحمد باي •

2 — اقليم وهران تحت زعامة الأمير عبد القادر •

3 — المناطق الصحراوية الواقعة جنوب الأطلس والتي كانت تخضع لقيادات ورؤساء عديدين كانوا بدورهم موالين للسلطة المركزية •

4 — أقليم التيطري الذي أعطى حسب معاهدة ديميشال ، الى الأمير عبد القادر •

---

12 — نفس المصدر •

13 — وحول اللقاء الهام الذي جرى بين الأمير وبيجو ، أنظر : بولسكي (العلم المثلث فوق الأطلس) ص 291—299 •

ولكي يحصل الأمير على ولاء جميع الشعب الجزائري ، قام باتصالات مع جميع الزعماء السياسيين وحصل على ولائهم جميعا ما عدا باي قسنطينة الذي كان يغار من الأمير والذي اعتقد أنه يسكنه محاربة الفرنسيين وحده . وعندما قررت فرنسا سنة 1841 أن تستعمل «جميع الوسائل » لقهر المقاومة الجزائرية ، كان الأمير قد وصل الى قمة قوته وسمعته . ولكنه كان محاطا من جهة الشرق بالجيش الفرنسي ، ومن جهة الغرب بالجيش المراكشي ، كما كان محاصرا من الشمال بالبحر الأبيض (الذي كان تحت نظر الأسطول الفرنسي) ومن جهة الجنوب بالصحراء الكبرى . لقد كان وضعه سيئا للغاية . وكان أغلب رجاله قد وقعوا في الأسر أو قتلوا على أيدي الفرنسيين والمراكشيين . فلم يسعه عندئذ الا الاستسلام للجنرال لامورسيير Lamorcière سنة 1847 . وقد حمل الى فرنسا ، رغم أن الفرنسيين وعدوه بأخذه الى الاسكندرية ، كما كان قد طلب . فلما جاء لويس نابليون ، الذي كان هو نفسه قد ذاق مرارة السجن ، الى السلطة أطلق سراح الأمير عبد القادر سنة 1853 ، فذهب الى بروسة ثم الى دمشق حيث توفي سنة 1883 م .

ولكن استسلام الأمير لم ينه المقاومة الجزائرية . حقا لقد أصبحت أضعف مما كانت عليه وأقل تنظيما ، ولكنها أبقت الفرنسيين في حالة ذعر يضاعفون من قواتهم في الجزائر ويصرفون الأموال . وليس من غرضي هنا ذكر جميع الانتفاضات التي حدثت ولا ذكر جميع اجراءات القهر التي اتخذت ضدها ، غير أني سأذكر انتفاضتين منها حدثتا خلال القرن التاسع عشر وكانت لهما عواقب هامة.الأولى انتفاضة أولاد سيدي الشيخ التي حدثت سنة 1864 . لقد استفز الجيش الفرنسي هؤلاء القوم . ورغم أن عددا من زعمائهم قد قتلوا خلال عدد من المعارك ضد الفرنسيين فان أولاد سيدي الشيخ كانوا هم المنتصرين الى سنة 1884 (14) . وتبدو أهمية هذه الانتفاضة أن نابليون الثالث قد زار

14 ـ انظر : بروكلمان ، ص 401 .

الجزائر على اثرها وعاد من رحلته بفكرته القائلة بانشاء مملكة عربية في الجزائر أو ما يمكن تسميته بالحكم الذاتي •

أما الانتفاضة الثانية التي أرغب في ذكرها هنا فهي انتفاضة سنة 1871 • ففي هذه الأثناء كانت فرنسا قد انهزمت عسكريا على يد ألمانيا (بروسيا) وتحول نظامها الى نظام جمهوري • ان تلك الهزيمة وهذا التحول كانا علامة ضعف في نظر الجزائريين • ولذلك شعروا بوجود فرصة لحمل السلاح من جديد واخراج الفرنسيين من بلادهم واستعادة حريتهم • ان هذه الانتفاضة قد استغرقت قرابة سنتين وأظهرت كيف أن الجزائر التي كان من المفروض فيها أنها واقعة في قبضة الاحتلال الصارم ، كانت ما تزال قادرة على محاربة محتليها • وقد تحدث كارل بروكلمان عن ذلك قائلا : « فخلال فترة قصيرة قامت بلاد القبائل(سكان الأطلس) الممتدة من البحر الى الصحراء بحمل السلاح والظهور في الميدان ، وكان الثوار قد أصبحوا محيطين بمدينة الجزائر نفسها • » (15)

ان أهمية هذه الانتفاضة تبدو أعمق من أخواتها • ذلك أن الفرنسيين قد لجأوا الى مصادرة أراضي أولئك الذين اشتركوا فيها وأجبروهم على دفع ثمن الحرب • لقد أصبح هذا الاجراء تقليدا يسير عليه الفرنسيون ، فكلما حدثت انتفاضة في الجزائر يلجأون الى تلك الطريقة الى أن وقعت ثورة 1954 • وقد كتب السيد بروكلمان عن عواقب ثورة 1871 قائلا : « بعد قهر الانتفاضة نهائيا كان على أهل القبائل أن يدفعوا ثمن الحرب غاليا ، وألغيت سلطاتهم الادارية البلدية(الجماعة) الذاتية ، وكان عليهم أن يتخلوا عما لا يقل عن 453،000 هكتارا من الأرض ليحل فيها المستوطنون الفرنسيون • » (16)

ولكي أنهي هذا الفصل عن المقاومة الجزائرية يجب أن أقول بأنه بنهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حل الصراع السلمي والسياسي ضد حكم الفرنسيين محل الانتفاضات المسلحة التي أعطت للفرنسيين العذر في اتخاذ اجراءات قهر مشددة •

15 — نفس المصدر ، ص 402 •
16 — نفس المصدر •

الفصل الرابع :

سياسة الاستعمار : أسبابها ونتائجها

لقد كان « الاستعمار » من أبرز العوامل التي أدت الى احتلال فرنسا للجزائر • ثم أن المصالح الاستعمارية هي التي كانت وراء تغيير فرنسا لسياستها في الجزائر من مرحلة الى أخرى ، كما أن هذه السياسة هي التي جعلت الجزائريين يثورون من وقت الى آخر تعبيرا عن سخطهم ، بالاضافة الى أن هذه السياسة الاستعمارية هي التي جعلت فرنسا اليوم في مأزق حرج كلما أرادت ايجاد حل للمشكل الجزائري •

ان هناك أسبابا كثيرة للاستعمار ، ولكن من أهمها التوسع الامبريالي ، والسخط السياسي والتخلص من التضخم السكاني ووجود النزاعات الداخلية • ذلك أن فرنسا وجدت في الجزائر ميدانا لجيشها حيث تستطيع منه أن تتحرك في أي اتجاه قد ترغب فيه • كما أنها أرسلت الى الجزائر السياسيين غير المرغوب فيهم والأفراد المحكوم عليهم لكي يستقروا فيها ويجعلوا منها وطنا • وقد وجد أصحاب رؤوس الأموال ، والتجار ، ومحتكرو الصناعات في الجزائر مصدرا للمواد الخام وسوقا لبضائعهم ومصنوعاتهم ، ونظرا للنزاع بين ألمانيا وفرنسا فان الأخيرة حملت لاجئيها من الالزاس واللورين الى الجزائر حيث يعملون ويستقرون •

ونتائج الاستعمار في الجزائر ذات وجهين ، فمن جهة ساعد الاستعمار على تطوير الاقتصاد الجزائري وتحديث البلاد عموما ، فارتفع مستوى معيشة السكان الأهالي ومستواهم الثقافي واتصالاتهم ونحوها • ومن جهة أخرى لجأ الاستعمار في العادة الى اجراءات رهيبة وتعسفية للوصول الى أهدافه • وسأحاول في الفصل التالي اعطاء بعض التفاصيل عن آثار هذا الاستعمار •

لقد سبق أن ذكرت أن فرنسا وزعت في أوربا المناشير ونحوها عارضة على الأوربيين بمختلف الوسائل الهجرة الى الجزائر • وشجعت على الخصوص هجرة الأوربيين ذوي الأصول اللاتينية كالايطاليين والأسبان

بالاضافة الى أبنائها هي • وكان الناس الذين قبلوا هذا العرض على أشكال : فبعضهم كانوا مجرمين أو سياسيين غير مرغوب فيهم ، وبعضهم كانوا عاطلين عن العمل ، وهناك آخرون جيىء بهم الى الجزائر أثناء فترات الحروب والأزمات ، مثل اللاجئين من الالزاس واللورين أثناء الحرب بين ألمانيا وفرنسا سنة 1870 (17) •

لقد كان في الجزائر عدد كبير من الأوربيين حتى قبل الاحتلال الفرنسي • ففي وهران كان الاسبان قد استوطنوا هناك خلال القرن الثامن عشر • وكان في قسنطينة بعض الايطاليين وفي عنابة بعض المالطيين (18) • وكان طقس الجزائر الشبيه بطقس أوربا قد جذب اليه كثيرا من سكان أوربا ولا سيما سكان ضفاف البحر الأبيض • وكانت مصادر الثروة في الجزائر قد وعدت كثيرا من هؤلاء الناس بمستقبل زاهر في التجارة والزراعة وغيرهما ، وذلك تحت حماية الجنسية الفرنسية • ولكي تجذب فرنسا مهاجرين أكثر وتسهل اليهم طرق الهجرة منحتهم امتيازات حرة وهي المسماة « بالتنازلات المجانية » كما منحتهم رأس المال ونحوه •

وقد اعتاد الفرنسيون أن يقسموا تاريخ الاستعمار الى ما يلي : الاستعمار الخاص ، والاستعمار الرسمي • وهم يعنون بالنوع الأول مبادرة الانسان الأوربي الفردية بالهجرة الى الجزائر وتقديم التسهيلات له من قبل السلطات الفرنسية بعد وصوله • وقد استمر هذا النوع من الاستعمار ابتداء من الناس الذين رافقوا جيش الاحتلال الى سنة 1841، وهو التاريخ الذي أعلنت فيه الحكومة الفرنسية رسميا عزمها على القضاء على أعدائها (الجزائريين) ، وذلك باتلاف محاصيلهم ، والاستيلاء على مواشيهم ، وهدم قراهم ومعسكراتهم •

---

17 ــ خلال عهد لويس فليب ، كثير من الجمهوريين نفوا الى الجزائر ، وبعد غلق ما يعرف باسم « المحلات القومية » حل حوالي عشرين ألف مستوطن بالجزائر بمساعدة الحكومة ، وهناك موجة أخرى من الهجرة الفرنسية للجزائر حدثت بعد انقلاب سنة 1852 (استيلاء نابليون الثالث على السلطة) أنظر كتاب رايت ، (فرنسا في العصر الحديث) •

18 ــ أنظر : موريل (الجزائر : فرنسا الافريقية) ، ص 348 ــ 353 •

أما النوع الثاني من الاستعمار ، وهو المسمى بالرسمي ، فقد بدأ بوصول الجنرال بيجو الى الجزائر سنة 1841 واستمر خلال العهد الذي ندرسه (19) • وينقسم هذا العهد الى مراحل طبقا للتغييرات البارزة التي حدثت في السياسة الفرنسية أثناءه سواء في الداخل أو الخارج • ففي المرحلة الممتدة من 1841 الى 1851 أنشأ الفرنسيون مائة وستا وعشرين قرية ، ومنحوا خمسة عشر ألف تنازل مجاني من الأراضي من مجموع مائة وخمسين ألف هكتار • وخلال هذا العهد كان احصاء السكان الأوربيين على هذا النحو :

65ر497 فرنسي •

65ر233 أجانب (غير فرنسيين) •

والمرحلة الثانية من الاستعمار الرسمي استغرقت من 1851 الى 1860 • وخلال هذه المرحلة أنشأ الفرنسيون خمسة وثمانين مركزا استيطانيا ووزعوا مائتين وخمسين (250) ألف هكتار من الأرض • وقد ازداد عدد السكان المهاجرين خلال هذه المرحلة زيادة معتبرة سواء منهم الفرنسيون أو الأجانب ، فأصبحوا على هذا النحو :

103،322 فرنسيون (ويلاحظ زيادة عددهم بعد أن كانوا 65،497 ، فقط) •

76،300 غير فرنسيين (أوربيون) •

وعندما جاء لويس نابليون (نابليون الثالث) افتتح المرحلة الثالثة من الاستعمار الرسمي • فأوقف ، أو بالاحرى خفف الهجرة الى الجزائر ، كما أوقف منح التنازلات المجانية من الأرض • وأدخل سياسة جديدة نحو الأهالي تقوم على الاعتراف لهم بحق الاقامة على أرض أجدادهم التي توارثوها عنهم جماعيا • ويلاحظ ان عدد المهاجرين الفرنسيين خلال هذه المرحلة لم يزدد زيادة ملحوظة ، فكان عددهم قد زاد فقط من 103،322

19 ــ لقد توقف بعض الوقت خلال عهد الجمهورية الثانية ، ثم استؤنف بقوة خلال عهد الجمهورية الثالثة

الى 129،898 نسمة ، أما الأجانب (غير الفرنسيين) فلا يلاحظ عليهم الزيادة على العدد المذكور سابقا (وهو 76،300) •

وبعد الحرب الألمانية — الفرنسية سنة 1870 ، والانتفاضة الجزائرية سنة 1871 صادرت الجمهورية الثالثة ما قدره خمسمائة ألف هكتار من الأرض وأجبرت أولئك الذين حملوا السلاح ضد فرنسا على مغادرة أراضيهم • وخلال هذه السنة (1871) أصدرت الجمهورية الجديدة قانونا تمنح بمقتضاه مائة ألف هكتار من الأرض الى المهاجرين الفرنسيين من الألزاس واللورين الذين رفضوا البقاء تحت الاحتلال الألماني • ان هذا العهد اذن قد شهد العودة الى التنازلات الحرة التي عانى منها السكان الجزائريون معاناة كبيرة وخطيرة • ففي سنة 1874 نزلت في الجزائر 877 عائلة فرنسية من الالزاس واللورين • وما دامت هذه العائلات كانت تجهل الوضع بالجزائر ولا تعرف حالة الطقس العام فيها ، فان السلطات الفرنسية قد أعانتها بمختلف أنواع المعونات الاستعمارية على حساب السكان الأهالي • وقد ازداد عدد المستوطنين الفرنسيين خلال هذه المرحلة من 129،898 الى 195،418 نسمة •

وآخر هذه المراحل التي علينا أن نلم بها مرحلة 1880 — 1900 وقد استمرت الحكومة الفرنسية على سياستها القديمة فى منح التنازلات المجانية للمهاجرين واستقبالهم بكل المعونات الأخرى التي تسمح لهم بالاقامة الضرورية • وهكذا انشأت حوالي مائتين وعشرة مراكز استيطانية ، ووزعت حوالي 296•097 هكتارا على المهاجرين • وازدادعددالمستوطنين حتى بلغ 267،672 نسمة •

ويجب أن أنهى هذا الفصل بالقول بأن السلطات الفرنسية بتلك السياسة قد انتهكت كل الحقوق الانسانية من أجل تثبيت القواعد الاستعمارية • ذلك ان فرنسا لم تتورع عن استعمال جميع الطرق الممكنة لاحلال المستوطنين الفرنسيين محل الأهالي ، ولجعل الجزائر بلادا فرنسية ، ولكي تقضي على العناصر الأهلية (20) •

20 — عن الاستعمار في الجزائر انظر : الولاية العامة للجزائر (الاستعمار في الجزائر من 1830 الى 1921) وكذلك ر . دوفرو : (مظاهر الجزائر) ص 159—182 .

ولكن قصة الاستعمار ، كما وصفناها سابقا ، لم تتوقف بسنة 1900 . لقد استمرت بكل وسائلها القهرية الى ثورة 1954 حيث اكتشف الفرنسيون انهم كانوا مخطئين ، ولكن **بعد فوات الأوان** .

الفصل الخامس :

المؤسسات الفرنسية والتقاليد الجزائرية

لعل أول سؤال يخطر على البال هو : ماذا فعلت فرنسا للجزائر ؟ ان أغلب الكتب التي رجعت اليها فى هذا الموضوع تتحدث عن مد الطرق والسكك الحديدية واصلاح الموانيء وبناء المدارس والمؤسسات الخ . ولكن الانسان الذي لا يعرف شيئا عن الجزائر قد يسأل : وهل كانت الجزائر صحراء قبل مجيء الفرنسيين ؟ وهل كان سكانها من القوم الرحل الذين كانوا يعيشون عيشة أهل ما قبل التاريخ ؟ وهل أقدم الفرنسيون على تلك الاصلاحات من أجل أهالي الجزائر أنفسهم ؟ ان جميع هذه الأسئلة قد تطرح عندما يقرأ المرء الكتب الفرنسية عن الجزائر .

ان الجميع يعرفون ان للجزائر ثقافتها ولغتها ودينها وشخصيتها السياسية . وكان لها مدنها ومدارسها وطرقها قبل دخول الفرنسيين اليها . واذن ماذا فعلت فرنسا من جديد ، ومن أجل من ؟ انه من الحق القول ان فرنسا قد أحدثت أشياء جديدة فى الجزائر . فقد جاءت باللغة الفرنسية والذوق والعادات الفرنسية . وبعبارة أخرى انها حاولت أن تغرب الجزائر واعطاءها نكهة فرنسية وخصائص أوربية .

ولكن الجزائر كانت هامة لفرنسا خلال هذه الفترة . فقد وفرت لها اليد العاملة الرخيصة والمواد الخام ، والانتاج الزراعي وموقعا استراتيجيا بالنسبة للبحر الأبيض ولوسط الصحراء في قلب افريقيا . واذن فان فرنسا كانت تبني ما بنت فى الجزائر لنفسها ، من أجل مصالحها الاستعمارية ومن أجل المجموعة الفرنسية فى الجزائر . أما الأهالي فلم يتمتعوا أبدا بهذه المستحدثات لأنهم كانوا معزولين عنها وكانوا مضطهدين اضطهادا شديدا . وقد منع المستوطنون الفرنسيون أي تنازل للأهالي وأي تسامح

نحوهم • وعارضوا الاصلاحات التي شرعها الفرنسيون مثل بناء المدارس للجزائريين أو التمتع بأوضاع سياسية فى البلديات والبرلمان • وقد كتبت السيدة جوان جيلسباي حول هذه النقطة قائلة : « ان هيمنة الأوربيين جعلت الجزائريين المسلمين نوعا من الأقلية ـــ الأغلبية فى عقر دارهم وهو ان أغلبية عددية لا تتمتع الا بحق الأقلية المضطهدة » (21) •

حقا ان هناك أشياء كثيرة استحدثت فى ميادين الثقافة والاقتصاد • فبمجرد احتلال الجيش لمدينة الجزائر ، أنشأ الفرنسيون الكنيسة الكاثوليكية • وحولوا بعض المساجد الى كنائس كما انشأوا كنائس جديدة • وانتشرت فى الجزائر ، من وهران غربا الى قسنطينة شرقا ، البعثات التبشيرية لكنيسة روما الكاثوليكية بتأييد قوى من الحكومة الفرنسية ومن البابا فى روما •

وكان لليهود خمسة وعشرون بيعة فى مدينة الجزائر ، وهي البيع التي لا شك انها كانت موجودة قبل الاحتلال • كما كان للكنائس البروتستانتية معبدان فى مدينة الجزائر نفسها •

وقد أولى الفرنسيون اهتماما خاصا بتجفيف المستنقعات ومد الطرق والبحث عن مصادر الماء • كما شغلوا أنفسهم بانشاء المجالس القضائية ومحاكم الاستئناف والسجون والمستشفيات العسكرية والمدارس لأطفالهم هم • واهتموا أيضا بفتح المتاحف والمكتبات وتوفير الكتب والمطبوعات • وقد أنشأت السلطات الفرنسية فى الجزائر صحيفتين واحدة بالعربية باسم (المبشر) ، وأخرى بالفرنسية باسم (مونيتور الجزائر) التي تحولت الى جريدة (الأخبار) (22) •

---

21 ـ انظر : ج • جيلسباي (الجزائر : تمرد وثورة) ص 5 •

22 ـ ان المنشآت الفرنسية تظهر بشكل أوسع خلال القرن العشرين ، ولا سيما بعد اكتشاف الثروات الطبيعية في البلاد •

ولكن الصدمة التي تلقاها الفرنسيون عند أول اتصالهم بالمجتمع الجزائري ربما كانت صدمة قوية (23) • ذلك أنهم قد اتصلوا بثقافة مختلفة عن ثقافتهم وبمجتمع يختلف عن مجتمعهم • وكان عيلهم أن يحاولوا فهم هذه الثقافة والمجتمع • فهل فعلوا ذلك ؟ فاذا عدنا الى الحقائق التاريخية التي نعرفها فاننا لا نجد أي اشارة الى أنهم حاولوا ذلك رسميا • غير أن علماءهم وباحثيهم حاولوا أن يفهموا ويترجموا ويصفوا الثقافة الجزائرية (اللغة والمعتقدات والعادات ، الخ •) وقد أحسنوا صنعا فى ذلك ليس فقط من أجل أهل بلادهم بل من أجل الجزائريين أيضا • فهذا الاسكندر دوماس ، الكاتب الفرنسي الشهير فى القرن التاسع عشر سألته حكومته أن يزور الجزائر سنة 1846 • وقد وفرت له حكومة لويس فليب سفينة حربية حاملة للعلم الفرنسي ومنحته حرسا رسميا • ان وزارة التعليم فى ذلك الوقت أرادت من هذه العملية أن تغري دوماس بكتابة رحلة يصف فيها ما أنجزته الحكومة الفرنسية فى الجزائر وأجواء البلاد والفرص التي توفرها للمهاجرين والزائرين الأوروبيين ، كما يبرر الاجراءات العنيفة التي اتخذت ضد الأهالي ، وهي الاجراءات التي كان الجمهوريون والليبراليون عموما فى مختلف أنحاء أوروبا يستنكرونها •

وكان دوماس عند تلقيه الدعوة موجودا فى اسبانيا يكتب رحلته (مغامرات فى اسبانيا) وعند رجوعه من الجزائر الى فرنسا نشر كتابه المشهور (مغامرات فى الجزائر) الذي اعتبر أكثر الكتب رواجا فى تلك السنة • وفي هذا الكتاب وردت العبارات التالية التي تصف بعض الاختلافات بين الفرنسيين والجزائريين • فقد قال عن الجزائريين : « ان دينهم يعد بجنة مثيرة بينما ديننا يعد بجنة روحية • ولا يمكن للانسان الفرنسي الا الزواج من زوجة واحدة فقط ويعاقب القانون على الزنى ، أما المسلم فيمكنه الزواج بأربع زوجات وله أن يأتي بكل الخليلات التي يستطيع جلبهن • ان العربي يمكنه الزواج في أي وقت يشاء ، أما الفرنسي فيؤخر زواجه كلما كان ذلك ممكنا

23 — كان اتصال فرنسا بالمشرق قديما ، ولا سيما الحملة الفرنسية على مصر ، أما في الجزائر فان الفرنسيين جاؤوا ليعيشوا مع شعب يختلف عنهم كل الاختلاف .

اننا دائما تقريبا محتارون أمام هذا ، ذلك أن العربي ، مهما حدث له ، يرجع كل شيء لارادة الله (24) ••

فكيف واجه الفرنسيون هذا الوضع الذي يبدو لهم متناقضا ؟ لقد كانوا يعلمون أن الدين الاسلامي كان يمثل العامل الرئيسي والعنصر الغالب في الثقافة الجزائرية • كما كانوا يعلمون ، مما أخبرهم به علماؤهم المختصون فى الشؤون الاسلامية ، ان الدين الاسلامي كان الدافع وراء كل الانتفاضات التي وقعت فى الجزائر ضد فرنسا ، وانه سيستمر كذلك• ولكي يتفادى الفرنسيون الانتفاضات والثورات والمعارضة السياسية والمعنوية ، عمدوا الى السيطرة على كل المؤسسات الدينية • ولكن هذا الاجراء أثار وغرس سخطا مريرا ضدهم بين رجال الدين الاسلامي في الجزائر •

وقد كتب السيد موريل Morell سنة 1854 قائلا : « منذ الاحتلال الفرنسي لاحظ الفرنسيون ، فى كثير من المدن ، ولاسيما العاصمة ، أن عدد المساجد يفوق الحاجة ، ولذلك حولوا عددا منها الى مستشفيات ، والى مستودعات ، وحتى كنائس كاثوليكية ، وهكذا فانه في مدينة الجزائر وحدها حول الفرنسيون مسجدين ، واحد الى كاتدرائية والآخر الى «نوتردام دي فيكتوار » (25) •

ومن جهة أخرى فان وقع الحضارة الغربية غير كثيرا من مظاهر المجتمع الجزائري • فبالتدرج أخذ الجزائريون يتصلون ويقبلون ، ولاسيما منذ آخر القرن الماضي ، التأثيرات الجديدة الواردة عليهم من هذه الحضارة • وكثير منهم ، مثلا ، اكتشفوا قيمة ماضيهم بحكم اتصالهم بالغرب ، وأظهروا الاستعداد لتقبل الاصلاح ، اذ وجدوا أمامهم نظما مختلفة فى التعليم والادارة والعلاقات (26) •

ولنفرض أن فرنسا كانت قد توصلت الى حل مع الجزائريين قائم على التفاهم ومراعاة المصالح المشتركة • انني على يقين أنها لو فعلت ذلك لتعاون

---

24 ـ الاسكندر دوماس (مغامرات في الجزائر) ، ص 186 •

25 ـ أنظر : موريل (الجزائر أو أفريقية الفرنسية) ، ص 86 •

26 ـ أنظر : ر • لوتورنو (وحدة وتنوع الحضارة الاسلامية) ، ص 238-239 •

الجزائريون معها بعمق وأنشأوا جزائر جديدة تعتمد فى توجهها على الحضارتين الغربية والشرقية معا • ولكن ادعاء التفوق من جانب الفرنسيين وسياسة الاضطهاد الأعمى وفرض الاجراءات الردعية التي لا تعرف الرحمة ـ كلها ساهمت في وجود هذه المأساة (التراجيديا) التي تعاني منها الجزائر اليوم وسوء الحال الذي تعاني منه فرنسا أيضا ، وهو الأمر الذي اعترفت به أخيرا فقط •

تمت الترجمة يوم 24 يوليو ، 1984
بجامعة (ميشيقان) (أمريكا)

SELECTED BIBLIOGRAPHY

1. Gouvernement général de l'Algérie, La colonisation en Algérie 1830-1921, Algérie, 1922.
2. E. R. de Card, Les arrangements par le général Clauzel, Paris, 1927.
3. A. Dumas, Adventures in Algeria, America, 1959.
4. J. Gillespie, Algeria rebellion and revolution, England, 1960.
5. F. Pulsky, The tricolor on the atlas, London, 1854.
6. J. R. Morell, Algeria... of the french Africa, London, 1854.
7. C. Brockelmann, History of the Islamic people, America, 1960.
8. A. Berteuil, L'Algérie française, Paris, 1856.
9. R. Devereux, Aspects of Algeria, London, 1912.
10. A. Berthier, L'Algérie et son passé, Paris, 1951.
11. M. L. Galibert, L'Algérie ancienne et moderne, Paris, 1844
12. M. Emerit, L'Algérie à l'époque d'Abd-El-Kader, Paris, 1951.
13. Mme Prus, A résidence in Algeria, London, 1852.
14. G. Clauzel, Histoire des conquêtes des français en Algérie, Paris, 1846.
15. A. Desjobert, La question d'Alger, Paris, 1837.
16. G. L. Ditson, The crescent and french crusaders, New York, 1858.
17. George W. Cooke, Conquest and colonization in North Africa, London, 1860.
18. G. Wright, France in modern time, London, 1960.
19. A. Guilbert, De la colonisation du Nord de l'Afrique, Paris, 1841.
20. B. Mc Manus, In the Land of mosques and minarets, Boston, 1908.
21. M. Vernon, Sands, palms and minarets, London, 1926.

العثور على النسخة المسروقة من كتاب
(تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر)

1 ـ كيف عثرنا على النسخة ووصفها :

كل من قرأ النسخة المطبوعة من كتاب (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر) (1) يذكر ان المؤلف محمد باشا بن الأمير عبد القادر ، كتب فى مقدمتها ما يلي : « ولما فرغت من ترتيبه ••• وسميته (تحفة الزائر •••) فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا ••• ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد ، لجمع ما تفرق من المواد ، بعد أن فقد منها الأكثر ••• فجاء بحمد الله مطابقا الأصل ••• » (2)

ومنذ قرأت أنا تلك العبارات ، حوالي عشرين سنة خلت ، وسؤال يلح علي وهو : أين النسخة المسروقة من هذا الكتاب ، وهي النسخة التي سماها المؤلف (الأصل) ؟ فالأشياء المسروقة عادة لا تعدم ، بالضرورة ولكنها تنتقل من يد الى يد ومن مكان الى آخر • ولم يكن السؤال : من سرقها ؟ أو لماذا سرقت ؟ قضية هامة عندئذ • كما ان الفرق الذي قد يكون بين النسخة الأصل والنسخة الفرع لم يكن مهما أيضا • أما القضية الملحة فى نظري فكانت البحث عن مكان تلك النسخة التي ادعى المؤلف انها سرقت منه بعد الانتهاء منها •

---

1 ـ طبع مرتان : الأولى سنة 1903 بالمطبعة الأهلية (؟) بالاسكندرية (مصر) ، والثانية بمطبعة دار اليقظة ، بيروت سنة 1964 ، وقد عدنا في هذه المقالة الى الطبعة الأولى .

2 ـ من مقدمة الطبعة الأولى من كتاب (تحفة الزائر) .

وقد استمر بحثي عنها في كل المظان الممكنة : دمشق والاسكندرية واسطانبول وباريس ، وهي البلدان التي تردد عليها المؤلف والتي يوجد فيها من يهمه موضوع الكتاب . وكانت النتائج دائما مخيبة للأمل ، ولكن اليأس لم يتطرق الى البال . وزاد من حماسي للبحث ان الطبعة الثانية للكتاب التي صدرت بعناية الدكتور ممدوح حقي لم تقدم نقدا ما لقضية النسخة المسروقة ، رغم أن المحقق كان قريبا من بيئة المؤلف وقريبا من أسرته الموزعة بين سوريا واسطانبول . (3)

وفي زيارتي الى اسطانبول بتاريخ أغسطس 1970 ، تمكنت من الاطلاع على نسخة مخطوطة من كتاب (تحفة الزائر ...) في احدى مكتبات اسطانبول . وكان عنوانها هناك (تاريخ الأمير عبد القادر) وقد بادرت الى تصفحها وقراءة مقدمتها ، فاذا هناك فرق بين ما سبقت لي معرفته عن النسخة المطبوعة وهذه . وأول ما لاحظته من فروق بين النسختين هو ان المخطوطة ليس فيها عبارة ، فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا ... الخ ... كما ان المخطوطة احتوت على اهداء طويل الذيل الى السلطان عبد الحميد الثاني ، وهو شيء خلت منه النسخة المطبوعة . ثم أخذت ألاحظ بقية الفروق بين النسختين لا على سبيل التحقيق والمقارنة الدقيقة ولكن على سبيل الفضول لان الوقت والظرف لا يسمحان بذلك عندئذ . ولكني سجلت بداية النسخة المخطوطة ونهايتها وبعض الملاحظات على خطها وشكلها ، ودونت كذلك رقمها ، ونويت تصويرها لعقد مقارنة بينها وبين المطبوعة عندما يكون هناك متسع من الوقت . ولكن تمويل التصوير عندئذ كان يعوزني (والمخطوطة في ألف صفحة) .

واليك ما كتبت في كناشي عندما رأيت النسخة المخطوطة من هذا الكتاب لأول مرة باسطانبول : (تاريخ الأمير عبد القادر) ، جزآن منفصلان . مخطوط بخط نسخي جميل ، مذهب ومجلد . أهداه المؤلف الى السلطان

---

3 ـ صدرت الطبعة الثانية بتحقيق الدكتور ممدوح حقي ، سنة 1964 ، وكان يبدو على التحقيق ، رغم حسن النية ، الارتجال الواضح والعمل التجاري وخدمة بعض افراد أسرة الأمير عبد القادر أكثر من الخدمة العلمية ، وقد اكتفى الدكتور حقي بقوله عن النسخة المسروقة : « ولو وقع في أيدينا الكتاب الأول لرأينا فيه خيرا كثيرا » ص 2 .

عبد الحميد الثاني • فرغ منه سنة 1307 هـ ، 1890 م • لا يذكر المؤلف فى المقدمة انه سرق منه • فى الجزء الأول قصيدة منفصلة لمحمد الشاذلي القسنطيني ، أولها :

أيا ذاهبا نحو الخليفة بلغن سلاما •••

وهو يحمل رقم 4788 ، مكتبة الحاج محمود أفندي بالمكتبة السليمانية باسطانبول • ويحتوي الكتاب أيضا على عدة وثائق منفصلة ، منهــا واحدة فى « ذكر هيأة المعسكر وترتيبه فى السفر » وهي بخط رقعي مغاير للأصل • أول الجزء الأول « الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علما ، وأنفذ فى كل مخلوق قضاء أزليا وحكما ••• » ويقع الجزء الأول فى 498 صفحة ، والثاني فى 503 صفحة » ، انتهى من كناشي المؤرخ سنة 1970 ، اسطانبول •

ولما رجعت الى الجزائر ، طلبت من مكتبة الجامعة تصوير المخطوط على حسابي ، وأعطيتها الرقم والمعلومات الاضافية • ووقعت المراسلة بينها وبين المكتبة التركية ، ولكن هذه المكتبة لجأت الى ما يمكن أن نسميه (بالشانتاج) ، فاشترطت لتصوير المخطوطة ، المبادلة بنسخة من كتاب الدكتور محمد بن أبي شنب عن مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بالجزائر ، وقد وفت مكتبة جامعة الجزائر بالشرط ، وجاءت النسخة المخطوطة من كتاب (تحفة الزائر) على الميكروفيلم • ورغم ان النسخة كما رأيتها وكما سأذكر ، جيدة وكاملة ، فان تصويرها جاء ناقصا ومشوها فى بعض الحالات • ثم انشغلت عنها بعض الوقت باعداد كتابي تاريــخ الجزائر الثقافي ، الى أن حانت صدفة رويت فيها ما حدث لي مع هذه النسخة للدكتور عبد الجليل التميمي فأخبرني انه يملك هو أيضا صورة من نفس النسخة على الميكروفيلم وأرسل الي مشكورا نسخته لتدارك النقص وهذا ما تم فعلا • (4)

---

4 ـ تجمدت العناية بتحفة الزائر والتعريف بالنسخة المفقودة منه لانشغالي بمشروع (تاريخ الجزائر الثقافي) ، الذي صدر منه حتى الآن جزآن (الجزائر ، 1981) ولكن تنظيم جامعة الجزائر لسلسلة من المحاضرات بمناسبة الذكرى المائوية لوفاة الأمير عبد القادر جعلتني أساهم فيها بمحاضرة بعنوان (عن النسخة الأصلية من كتاب تحفة الزائر ؟) يوم 4 مايو 1983 ، ومن الخطوط العريضة لهذه المحاضر كتبت هذه المقالة ،

2 ـ حياة المؤلف :

ليس من غرضنا هنا التوسع فى الحديث عن عائلة الأمير عبد القادر بالمشرق واستيطانها بلاد الشام وظروفها وعلاقاتها ، لأن ذلك يخرجنا عن موضوعنا المحدد ، ولأن هنالك مصادر أخرى تحدثت عن ذلك ، ومنها كتاب (تحفة الزائر) نفسه • ويكفي هنا أن نذكر بعض المعلومات عن مؤلف هذا الكتاب لعل ذلك يساعدنا على معرفة ظروف نسخته الضائعة ويلقي الأضواء على « سارقها » والهدف من أخذها منه ، وظروف تأليف النسخة الأولى (الأصلية) والثانية (الفرعية) •

ولد محمد لوالده عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن المختار ، فى القيطنة بالجزائر عام 1840 م (1256 هـ) (5) • والقيطنة هي مسقط رأس والده أيضا ، وهي تقع على وادي الحمام ، غير بعيد من مدينة معسكر اليوم (أو أم العساكر) ، عاصمة دولة الأمير عبد القادر• وكان محمد أكبر أبناء الأمير عبد القادر من زوجه ، ابنة عمه ، خيرة • وقد عاش محمد طفولة مضطربة حقا • فقد ولد أثناء تصاعد الكفاح بين الجزائريين بقيادة والده ، وبين الفرنسيين • ففي آخر سنة 1839 استئنفت الحرب بين الأمير والجيش الفرنسي ، بعد معاهدة التافنة التي كانت عبارة عن هدنة • وفي 1841 ، جاء الجنرال بوجو المشهور الى الجزائر وعنده صلاحيات مطلقة لمحاربة الأمير في كل مكان وبكل الوسائل، وهي الحرب التي استمرت الى سنة 1847 ، تاريخ هزيمة الأمير وأخذه أسيرا الى فرنسا • اذن لقد عاش محمد ثماني سنوات من الحرب الضروس

---

5 ـ يقول صاحب (الاعلام) 82/7 ، « ولعله ولد بدمشق » وهو خطأ واضح ، ولا توجد دراسة وافية عن حياة الأمير محمد ، التي ما تزال يكتنفها الغموض رغم قربها ووجود بعض أحفاده ، وأقاربه بيننا ويمكن حصر مصادره في : الاعلام للزركلي 82/7 ، وبروكلمان (الذيل) ، 887/2 ، ومعجم المطبوعات لسركيس ص 694 ، وتآليفه هو الخاصة ، اذ فيها سياقة لأحداث حياته في الطفولة والشباب وقد ذكر صاحب (الاعلام) أن في مذكرات أحمد عبيد أخبارا عنه ، ولكننا لم نطلع عليها . وهنالك أخبار مطولة عن حياة عائلة الأمير عبد القادر في امبواز ، أثناء الأسر ، وفيها بالطبع أخبار عن الأمير محمد ، وذلك في الأرشيف الفرنسي الوطني بمدينة ايكس (فرنسا) . وكذلك يوجد عن حياته في كتاب الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي التونسي ولا شك أن أرشيف القنصلية الفرنسية بدمشق خلال القرن الماضي يحتوي على أخبار هامة عنه ، لأن هذه القنصلية كانت تتبع أخبار المهاجرين الجزائريين وتسجل نشاطهم وأفكارهم .

بين بلاده وفرنسا ، ثم خمس سنوات من الأسر فى سجون فرنسا ، وآخرها هو سجن امبواز بنواحي بوردو • وبعد حوالي سنتين فى بروسة نزلت عائلة الأمير بدمشق، حيث استقر بها المقام •

اذن لم يعرف الأمير محمد الاستقرار لا فى الجزائر ولا فى فرنسا ولا في بروسة • لقد فتح عينيه على الحرب والخوف بالجزائر وعلى الأسر والغربة بفرنسا وعلى الزلزال فى بروسة • فلم يتلق تعليما منتظما ولم يعرف حياة اجتماعية هادئة ولا أصدقاء ثابتين • ولا شك أن والده قد تكفل بتعليمه في امبواز ووضعه على الخصوص تحت اشراف صهره مصطفى بن التهامي • ولكن ذلك كان غير كاف لاعطاء الطفل محمد تعليما منتظما • ولاشك أيضا أن الطفل ، وقد دخل مرحلة المراهقة ، قد عوض فى دمشق ما فقده فى موطنه ومهاجره الأخرى ، فاختلف الى مدارسها وتمكن من دروس علمائها ونهل من مكتباتها ، ولكن قاعدة تعليمه تظل فى نظرنا ، واهية على أية حال •

ومهما كان الأمر ، فان الشام ، والمشرق عموما ، قد أخذت تدب فى أوصالها بواكير النهضة الأدبية والسياسية عندما نزلتها عائلة الأمير عبد القادر • ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت الصحافة والجمعيات الأدبية وحركة الجامعة الاسلامية والمنتديات العربية • وكانت أسرة الأمير نهب الرياح تتجاذبها خيوط السياسة تارة نحو فرنسا وتارة نحو الدولة العثمانية وتارة نحو العزلة والانكماش ، وتارة أخرى نحو التيار العربي القومي • ولم يكن الأمير محمد بعيدا عن هذه الأجواء • فهو كبير والده ، يرافقه حيث حل وارتحل ، ويطلع على أسراره وأخباره • لقد رافقه يوم ودع نابليون الثالث بباريس ويوم استقبله السلطان عبدالمجيد باسطانبول • وسافر معه الى فرنسا ثانية والى مصر • ولكننا لا ندري ان كان سافر معه فى رحلته الى لندن (6) • وكان يحضر مجالس والده

6 ـ ذكر في (تحفة الزائر) 12/2 انه سافر سنة 1866 (1283 هـ) الى فرنسا وقصد بوردو ، واستعاد ذكريات سجنه هناك وشربَ في الفنجان الذي شرب فيه والده القهوة وأقام في الفندق الذي أقام فيه والده أيضا ، ووجد ذلك مسجلا هناك ، وقد ذكر الأمير محمد أيضا أن والده كتب له من الحجاز بكل ما جرى له وشاهده من خروجه من بيروت الى الاسكندرية فالقاهرة فالسويس فجدة فمكة ، وهذا يدل على أنه لم يرافق والده في حجته الثانية .

مع أعيان الشام وغيرهم من زعماء العـالم الاسلامي . ومن الأوربيين أيضا • وقد أخبر هو عن نفسه أنه كان يلازم والده ومحتذيا حذوه فى جميع أعماله ، وانه قرأ عليه التوحيد والحديث والنحو . وانه استفاد منه ما يهمه فى القديم والحديث •

وهكذا يتضح أن ثقافته ثقافة عصامية ـ اذا صح التعبير ـ تولاها والده ، والمجتمع الشامي ، ثم الحياة العامة وجهوده الشخصية • ويبدو أنه كان مهتما بالأدب والتاريخ • ذلك أن ثقافته التاريخية الاسلامية تبدو غزيرة من كتابه (تحفة الزائر) ومن كتبه الأخرى التي سنذكرها • وأسلوبه الأدبي ، المبني على السجع فى معظمه ، غني ومتنوع مما يبرهن على كثرة مطالعاته ومحفوظاته • كما أن له اهتماما بالقضايا الاجتماعية المعاصرة كما سنرى أيضا • ورغم عيشته فى فرنسا عدة سنوات سجينا وزائرا فانه لم يتعلم الفرنسية ، كما يدل ذلك التجاؤه الى المترجمين فى أسفاره من جهة وفي استحضار مادة كتابه من جهة أخرى •

ويبدو أن الأمير محمد قد اعتنق مبدأ الجامعة الاسلامية ، ولكنه لم يكن نشطا فيها نشاط بعض أنصارها الآخرين • وكأنه فى ذلك كان يتبع سيرة والده الذي لا نجده قد اتخذ مواقف بارزة لصالح هذه الحركة رغم اجتماعه ومجالسته لبعض زعمائها مثل الشيخ محمد عبده ومحمد شمويل (شامل) الداغستاني • وتدل التعزية التي بعث بها محمد عبده الى الأمير محمد وأخيه محي الدين فى والدهما الأمير عبد القادر أنه كان يعرفهما شخصيا أثناء مجالسته لوالدهما • فقد كتب محمد رشيد رضا مقدما هذه التعزية بقوله : « وكتب منها (أي من رسائل التعازي) معزيا عن الأمير عبد القادر الجزائري الشهير ، وكانت صلة المودة بينهما محكمة العرى كما أشير اليه فى بعض المكتوبات الاصلاحية » (7) ومما جاء فى هذه الرسالة قول الشيخ محمد عبده : « وكفى فى مصيبة أهل الايمان أن يقال : أصبحوا بلا أمير ، وحسبهم تعزيه عن مصابهم انكم بنوه وورثة فضله ومعزوزه » وفى رسالة أخرى

7 ـ (تاريخ الأستاذ الامام) 634/2 .

بعث بها محمد عبده الى الشيخ عبد المجيد الخاني طلب منه ابلاغ تحياته الى الأمير محمد وأخيه محي الدين • (8)

وكان ولاء الأمير محمد للدولة العثمانية لا غبار عليه • فهو يكثر من الدعاء الى سلاطينها ، وبعد مبايعة الأسرة جاءه وسام (نيشان) وراتب من السلطان عبد الحميد ، وكان على صلة بوالي دمشق عندئذ ؛ وقد حصل على لقب « الباشا » ، وأصبح فيما يقال ، ضابطا فى الجيش العثماني • ولاشك أن هذا الولاء الواضح للدولة العثمانية قد كلفه غضب ؛ أو على الأقل شك ، الفرنسيين فيه • ومع ذلك لا نجد له عاطفة عداء قوية ضد الفرنسيين فوصفه لهم أثناء كتابه وصف محايد ، أو قل هو وصف تاريخي •

وكما لم نجد له موقفا متحمسا من الجامعة الاسلامية ، لم نجد له أيضا موقفا متحمسا من الوطنية أو من قضية الجزائر ، فرغم أنه عاش الى سنة 1913 (9) ، وهو تاريخ سبقته عدة أحداث تهم القضية الجزائرية فاننا لا نجده قد شارك أو كتب ما يدل على عاطفته الوطنية القومية أو العدائية نحد السلطة الاستعمارية • حقا ان حنينه الى الوطن قوي جدا ، مشيرا اليه فى عدة مناسبات بألفاظ واضحة وأشعار مؤثرة ، ولكن الأمر لم يتجاوز الحنين الى الفعل • ولا نعلم أنه زار الجزائر أو حتى مسقط رأسه الذي طالما حن اليه • فهل حاول ذلك ومنع منه ، أو لم يكن ذلك فى نيته أصلا ؟

ومهما كان الأمر فقد أصبح ، بعد وفاة والده ، هو كبير العائلة على اثر مبايعة اخوته له فى وثيقة وقعوها بذلك • ولم يكن أبناء الأمير العشرة من أم واحدة • وكان الولاء فيما بينهم ضعيفا ، والمصالح الاجتماعية والسياسية تجعلهم فى اتجاهات متعاكسة أحيانا • وكان ولاء أبناء الأمير موزعا بين الدولة العثمانية وفرنسا واذا كان ولاء الاخوة محي الدين ومحمد وعلي واضحا نحو الدولة العثمانية ، فان ولاء عمر والهاشمي

---

8 – نفس المصدر ، 613/2 •

9 – توفى باسطانبول سنة 1331 هـ (1913) . الاعلام ، 82/7 .

وعبد المالك كان ، على الأقل ، قبل الحرب العالمية الأولى ، نحو فرنسا • ولا نعرف الآن ولاء بقية الاخوة (10) • وقد ترك الأمير محمد بعض الأبناء ، منهم علي زين العابدين الذي ترك أحمد مختار الذي ترك السيدة أمل التي التقينا بها فى الجزائر يوم 25 مايو 1983 (11) •

وبالاضافة الى شؤون العائلة ، كان الأمير محمد (باشا) يشتغل بالتأليف • وقبل أن نتحدث عن مخطوطه (تحفة الزائر) ، نذكر أنه ألف عدة كتب هي :

1 — تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، طبع للمرة الأولى فى الاسكندرية (مصر) ، 1903 • وهو فى جزأين بمجلد واحد (12) ، وسنتحدث عنه •

2 — مجموع فيه ثلاث رسائل أو أبحاث ، مطبوعة فى مصر (القاهرة)، بدون تاريخ ، وهي :

أ — ذكرى ذوي الفضل فى مطابقة أركان الاسلام للعقل •

ب — كشف النقاب عن أسرار الاحتجاب •

ج — الفاروق والترياق فى تعدد الزوجات والطلاق •

---

10 — أبناء الامير عبد القادر هم : محمد ، محيي الدين ، على ، أحمد ، عبد الله ، عمر ، عبد الرزاق ، الهاشمي ، عبد المالك ، ومحيي الدين هو الذي حارل المشاركة في ثورة 1871 بالجزائر ، وأصبح علي نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثين باسطانبول ، وقتل عمر في دمشق عشية الحرب العالمية الأولى • ومات الهاشمي الذي كان ضريرا وهو والد الأمير خالد) بالجزائر ، وتولى عبد المالك وظيفة فرنسية في المغرب ثم ثار على فرنسا هناك وقتل سنة 1924 ، وعن المبايعة أنظر : (تحفة الزائر) 249/2 •

11 — جاءت للمشاركة في احتفالات الذكرى المائوية لوفاة جدها الأمير عبد القادر ، وقد نفت لنا أن تكون تملك نسخة خطية من كتاب جدها ، الأمير محمد ، (تحفة الزائر) ، عكس ما أكده لنا الأستاذ محمد الطاهر بن عيشة يوم 7 مايو 1983 ، اذ قال أنه شاهد وصور للتلفزة نسخة من مخطوطة (تحفة الزائر) أثناء حديث أجراه مع السيدة أمل عبد القادر الجزائري •

12 — أما الطبعة الثانية بتحقيق ممدوح حقي فقد صدرت بعنوان (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر) ، دار اليقظة ، بيروت ، 1964 ، ولم ينبه على ذلك العنوان رغم أنه ليس من وضع المؤلف •

3 ــ عقد الأجياد فى الصافنات الجياد (مطول) ، وهو مطبوع حسبما جاء فى الاعلام (13) •

4 ــ نخبة عقد الأجياد فى الصافنات الجياد ، وهو مختصر من الأول، ومطبوع طبعتين فى بيروت ، الأولى سنة 1293 فى 410 ص • والثانية سنة 1326 ، فى 304 ص • وموضع هذا الكتاب كما يدل عنوانه في أوصاف الخيل وتاريخها وآدابها •

5 ــ نزهة الخاطر فى قريض الأمير عبد القادر . صح المعارف بمصر . بدون تاريخ ، فى 58 ص • والكتاب الأخير جمع فيه بعض ما تفرق من شعر والده ، ولكن لم يأت عليه جميعا (14) •

واذا حكمنا على تفكيره واهتمامه من مؤلفاته فاننا نجد الأمير محمد منسجما مع التيار الاصلاحي الذي ظهر فى النصف الثاني من القرن الماضي فى المشرق عموما وفي الدولة العثمانية على وجه الخصوص • فهو يتحدث عن قضية تعدد الزوجات ويقدم لها الحلول الاجتماعية والشرعية أو « الفاروق والترياق » كما يقول • وهو يكتب عن عقلانية الاسلام ــ اذا صح التعبير ــ أو مطابقة التعاليم الاسلامية لأحكام العقل ، وهو رأي يحاذي آراء المدرسة العبدوية ، وهو من جهة ثالثة يتناول موضوع السفور والحجاب الذي طال فيه النقاش ــ ومايزال ــ في عهد الدعوة الاصلاحية المشار اليه ، وألف فيه كل من قاسم أمين بمصر والطاهر الحداد بتونس ومصطفى ابن الخوجة فى الجزائر • واذا كانت رسائله قد ركزت على موضوعات اجتماعية فان كتابيه المطولين (عقد الأجياد) و (تحفة الزائر) لا يخرجان عن التاريخ والأدب • ويهمنا الآن تفصيل الحديث عن الأخير منهما •

---

13 ــ أعادت طبع هذا الكتاب بــ (دمشق ، 1963 ، ط 2) منشورات المكتب الاسلامي على نفقة الشيخ أحمد ابن الشيخ علي آل ثاني . جعل له الناشر مقدمة ، ورسالة في الخيل أيضا ألفها عبد الله بن الحسين مؤسس الدولة الأردنية ، وعدد صفحات (عقد الأجياد) في هذه الطبعة 376 ص ، وكان المؤلف قد فرغ من تأليفه سنة 1290 هجرية .

14 ــ عن مؤلفات الأمير محمد باشا ، أنظر معجم المطبوعات لسركيس ، ص 694 ، والاعلام 82/7 .

3 ـ **تحفة الزائر وظروف تأليفه :**

ان الظروف التي أقنعت الأمير محمد بتأليف (تحفة الزائر) تذكر المرء بالظروف التي أقنعت أحمد المقري بتأليف (نفح الطيب) رغم فارق ثلاثة قرون بين الرجلين • فكلا الرجلين أجبرته الظروف السياسية على الهجرة الى دمشق ، وكلاهما كان يكثر من الحنين الى وطنه الأول ويسترجع ذكرياته ، وكلاهما من غرب الجزائر ، فالمقري من تلمسان والأمير محمد من نواحي معسكر ، وكلاهما له بطل يملأ عليه وجوده الأدبي والتاريخي ، وهذا البطل هو لسان الدين بن الخطيب والأندلس عند المقري ، وهو الأمير عبد القادر والجزائر عند الأمير محمد ، وكلاهما كان يبكي مجدا غاربا وبلدا عربيا اسلاميا ضائعا (الأندلس والجزائر) ، وأخيرا ، وليس آخرا ، فان أهل الشام هم الذين « أقنعوا » الرجلين بالكتابة وأرغموهما بالتدوين بدل البكاء والحنين • ونحن بالطبع لا تهمنا هنا تجربة المقري مع بطله ومع أهل الشام (15) لأن موضوعنا هو ظروف تأليف (تحفة الزائر) •

كان الأمير محمد كثير الشوق الى مراتع صباه ، وكانت مناظر الشام الطبيعية تذكره ربوع وادي الحمام وسهل غريس حيث فتح عينيه على الحياة لأول مرة • وكانت الوفود من أهل الشام ومن الجالية المغربية ترد على منزلهم فى دمر (16) فيتفرع الحديث عن طبيعة الجزائر وأهلها وكفاحها ضد الاستعمار الفرنسي وتطواف الأمير عبد القادر وعائلته من الجزائر الى دمشق عبر فرنسا واسطانبول وبروسة • وكان ذلك الحديث يهيج الذكريات ويسيل العبرات • وفي كتاب (تحفة الزائر) كثير من هذه العاطفة الجياشة التي أخرجت صاحب الكتاب أحيانا عن مهمته كمؤرخ • ومنذ وفاة الأمير عبد القادر (17) أصبح الحديث عن سيرته وجمعها

---

15 ـ تحدثنا عن ذلك في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ، ج2 .

16 ـ كان منزل الأمير محمد بدمشق ، وقد أصبح ، بعد وفاة والده ومبايعة أفراد الأسرة له ، هو مركز النشاط ومقصد الزائرين .

17 ـ توفى بقصره في دمر ، بضواحي دمشق ليلة السبت 19 رجب سنة 1300 هـ (24 ماي 1883) وحمل الى دمشق في منزل ابنه الاكبر ، الأمير محمد ، صاحب (تحفة الزائر) ، وبعد الصلاة عليه في الجامع الأموي حمل الى الصالحية حيث دفن عند قبر الشيخ ابن العربي .

فى كتاب من آكد الأمور . وازداد الالحاح على الأمير محمد فى ذلك : أليس هو كبير العائلة وملازم الوالد وموضع ثقته وأسراره ؟ ألم يعرف أكثر من غيره عن كفاح والده وهو فى سن الصبا وعن سجنه وهو في سن المراهقة وعن تحولاته من كفاح السيف الى كفاح النفس والتصوف والقلم ؟ ألم يرافقه فى كل أو جل أسفاره ويعرف من زاره أو كتب اليه من كبار العصر ؟ ثم أليس هو أكثر اخوته ثقافة وأميلهم الى الأدب والتاريخ وأكثرهم اطلاعا على الكتب ، بما فى ذلك كتب والده ومذكراته التي آلت اليه ؟

اذن لقد كثر الالحاح وتهاطلت الرغبات ولكنها لم تنزل على اذن صماء أو قلب من جماد بل نزلت على اذن مرهفة وقلب مفعم بالاستعداد . ان الأمير محمد كان يحس أن عبئا ثقيلا قد ألقي على كاهله ، وأن عليه أن يتحمله وحده كمسؤولية ثقيلة أمام الوفاء لوالده ولوطنه ولأسرته التي أعطى لها اهتماما خاصا في الكتاب وأبرز دورها التاريخي في الدفاع عن بيضة الاسلام والعربية في الجزائر ، حتى لقد يشعر من لا يعرف الخلفيات أن المؤلف بالغ في ذكر كلمة «نحن» في كتابه التي لا تعني الا أسرته . ومهما كان الأمر ، فانه استجابة لذلك الالحاح وتلك الرغبات قام بتأليف الكتاب :

« فحرضوني على القيام بهذا المندوب ... وقالوا لا يخفى أن تحرير أحوال الأكابر ، وتسطير مزاياهم في صفحات الدفاتر ، لمن سنة الكرام ... لا سيما هذا الأمير الشهير ... حيث أشبه من السلف عمر بن عبد العزيز في زهده ورشاده ، ومن الخلف يوسف صلاح الدين في حركاته وغزواته وجهاده ، وحكى الشيخ الأكبر فيما يؤثر عنه ويذكر ، ... فقلت لعمري قد أصبتم فيما ذكرتم ، وحق أن تجابوا الى ما به أشرتم ... » (18)

ولكن من أين يبدأ ؟ ان هذا النوع من التأليف يحتاج الى مصادر كثيرة ، عربية وأجنبية ، قديمة وحديثة وهو عمل غير سهل أيضا ، لأن

---

18 ـ من مقدمة النسخة المطبوعة من كتاب (تحفة الزائر)

عليه أن يعود بتاريخ الجزائر الى أقدم العصور وأن يلم بأحداث المغرب والمشرق وأن يعرض سياسة الدول الخارجية والداخلية ، وأن تكون له فكرة عن التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي لبلاده أثناء كفاح والده ، ثم عليه أن يكون على اطلاع بالعلاقات القبلية والطرق الصوفية وصراع القيادات الشخصية أثناء ذلك الكفاح ، وهو موضوع معقد ذو نسيج متشابك لا يخوضه الا خبير معتدل في أحكامه • ولكي يوازن الأمير محمد ذلك ويتغلب على الصعوبات وفر له مكتبة غنية بالكتب والمذكرات والصحف والوثائق والمراسلات ، بالاضافة الى عمله على ترجمة بعض الكتب الأجنبية للعربية • ويمكننا أن نصنف مراجعه الى هذه الأصناف :

1 ـ حديثه مع والده ومشاركته هو في الأحداث أو مشاهدته لها ، وهو ما يمكن أن نسميه بالتجربة الشخصية •

2 ـ وثائق العائلة كالرسوم والأنساب ، مثل شجرة العائلة وسندها المفصل •

3 ـ الوثائق الرسمية مثل المعاهدات والاتفاقات والتعهدات (مثل معاهدة ديميشال والتافنة •• الخ)

4 ـ الكتب الأجنبية المترجمة الى العربية سواء كانت عن والده أو عن تاريخ الجزائر عموما •

5 ـ الكتب العربية عن الأمير والجزائر والمغرب العربي والأندلس (مثل كتب ابن خلدون ، وابن حزم ، وابن الخطيب) • (19)

6 ـ المراسلات ، وهي كثيرة سواء منها الرسمية أو الشخصية •

7 ـ الصحف المعاصرة ، عربية وأجنبية •

8 ـ انتاج الأمير نفسه من الشعر والنثر •

---

19 ـ اعتمد على الخصوص على شرح منظومة (رقم الحلل في نظم الدول) للسان الدين ابن الخطيب ، و (ديوان العبر) لابن خلدون فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأوسط وجغرافيته ودوله الاسلامية •

ويقول الأمير محمد عن الطريقة التي اتبعها لاستخراج الحقائق من هذه المصادر ، انه جعل والده هو الحكم ، ذلك أن بعض المصادر قد جانبت ، في نظره ، الصواب لاعتبارات قومية وسياسية وشخصية ، رغم اعترافه بأن بعضها قد مارس ضبط النفس وسار في طريق الحق . ومن الممكن أن يقال هذا عن الأمير محمد نفسه ، فما دام قد جعل والده هو مرجعه في تصويب المصيبين وتخطئه المخطئين ، فمن أدراه أن والده أيضا كان على خطأ فيما رأى وقدر ؟ ونحن وان كنا سنقول كلمة عن القيمة التاريخية للكتاب (تحفة الزائر) فاننا نبادر الى القول هنا بأنه كتاب أدب ومذكرات وليس كتاب تاريخ بالمعنى العلمي للكلمة .

ويهمنا أن نسوق عبارة الأمير محمد نفسه في هذا المجال ، تلك العبارة التي تكشف عن طريقته ومنهجه في كتابه . فهو يقول : « جلبت تواريخه ووقائعه (أي والده) المدونة باللغة الأفرنجية ، وتكلفت ترجمتها الى العربية (20) ، وبعد مطالعتها وامعان النظر فيها وجدت بعض مؤلفيها قد أصاب ، والبعض أخطأ جادة الصواب ، وحافظ فريق على انتصارات قومه ، ونسي الآخر أحوال أمسه وذكر وقائع يومه ... فلذا وضعت الأخبار في ميزان واحد ، وجعلت الحكم العدل شهادة سيدي الوالد ، فانه رب تلك المشاهد ، ولا يستوي الغائب والشاهد . وقد استخرجت من آثار مولاي خبرا يدل عليه دلالة اللفظ على المعنى . » ولعل لفظة «آثار مولاي» ذات معنى هام في هذا المجال . ذلك أنها تبرهن على أن الأمير محمد كانت له عند التأليف ثروة والده من المذكرات والأوراق الشخصية .

ويحتوي (تحفة الزائر) على معلومات غزيرة عن الجزائر في عهد كفاح الأمير عبد القادر وعن الأمير نفسه ، منذ نفيه سنة 1847 الى

20 — في هذا دلالة على أن الامير محمد لم يكن يقرأ الفرنسية أو غيرها من اللغات « الافرنجية » ولعله تعلم اللغة التركية ، ومن الكتب الأجنبية التي استعملها في كتابه بكثرة كتاب شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر) الذي ترجمناه نحن الى العربية ، وطبع طبعتين حتى الآن ، الجزائر ، 1982 ، ط 2 ، وكتاب الاسكندر بيلمار (حياة عبد القادر) . أنظر المدخل الذي كتبناه لترجمتنا المذكورة لكتاب تشرشل .

وفاته 1883 • ونحن نقول « في عهد كفاح الأمير عبد القادر » لأن الجزء الخاص بجغرافية المغرب العربي والجزائر خصوصا ، والدول الاسلامية المتعاقبة على هذا الجزء من العالم العربي ، وان كان مفيدا ، الا أنه غير أساسي ويظل مدخلا فقط للموضوع الرئيسي • كما أننا عنينا بكلمة « كفاح » أن المؤلف لم يؤرخ للجزائر في عهد حياة الأمير الطويلة بل توقف معها بخروج الأمير منها • فتاريخ الجزائر بين 1847 و 1883 غير مدروس في الكتاب • ذلك أن الأمير محمد يبقى متتبعا في كتابه تحركات والده وليس تطورات بلاده • كما أن القسم الأخير من الكتاب ضعيف من الناحية التاريخية لأنه اقتصر فيه على ايراد الأشعار المديحية والرثائية ومقالات الصحف ونحو ذلك ، مما يقرب الى الجمع والحشو أكثر من التاريخ والدرس •

ولكن الكتاب يضم وثائق هامة تجعله مصدرا لا غنى عنه لدراسة تاريخ الجزائر خلال فترة الأمير • ولا شك أن ذلك راجع بالدرجة الأولى الى تمكن المؤلف من الاطلاع على أوراق العائلة واستعمالها والى احساسه الفطري بالتاريخ وأهميته عند الأمم والشعوب والعائلات • ذلك أن حرصه على تدوين مآثر والده قد جعل الكتاب يخدم أيضا وطنه الجزائر وقومه وأسرته ، بالاضافة الى تسجيل صفحة مجيدة في تاريخ الكفاح العربي والاسلامي ضد الغزو الأجنبي ، ومن ذلك يصدق تشبيه الأمير بيوسف صلاح الدين الأيوبي الى حد بعيد • وعلى هذا الأساس فان كتاب (تحفة الزائر) كان ، ولعله ما يزال ، الكتاب الوحيد باللغة العربية الذي فصل الحديث عن المرحلة الأولى من الصراع الجزائري — الفرنسي (1830—1847) •

ولكن الكتاب يبقى كتاب أدب أيضا • فمجاله هو تغطية سيرة الأمير عبد القادر البطل مع اعجاب واضح بمواقف البطولة ، وانتماء شخصي وعرقي الى البطل نفسه • وفي كثير من الحالات حجبت العاطفة والولاء والاعجاب قضايا التاريخ المعقدة • ثم أن اشتمال الكتاب على أشعار مختلفة أبياتا وقطعا وقصائد ، وأسلوب التأليف القائم أساسا على السجع ، والحنين (أو النوستلجيا) التي يتميز بها — كلها جعلت الكتاب

قطعة أدبية أكثر منه دراسة تاريخية • ولعل المرء لا يترك الحديث عن هذه النقطة حتى يشير أيضا الى الجانب الصوفي من الكتاب • ذلك أن الوفاء لسيرة الأمير جعلت المؤلف يسوق نصوصا له في هذا المجال أيضا • وهذا حق له ، ولكن المجال الصوفي ـ الفلسفي في الكتاب أضعف أيضا جانبه التاريخي •• فهل يمكننا القول اذن أن (تحفة الزائر) هو كتاب في سيرة الأمير عبد القادر وليس في تاريخ الجزائر ؟ ان في العنوان الفرعي للكتاب جوابا على هذا السؤال ، اذ هو في « مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر » ولا شك أن كلمة «مآثر» أقوى من كلمة «أخبار» وهذه بدورها أخف من كلمة «تاريخ» •

لقد قسم الأمير محمد كتابه الى قسمين منذ البداية • فجعل القسم الأول في سيرة الأمير عبد القادر السيفية أو الحربية • وهو القسم الذي يغطيه الجزء الأول من الكتاب سواء منه المطبوع والمخطوط • وهذا ما يمكن أن نسميه فترة مقاومة الأمير في الجزائر بين 1830 و 1847 • وفي القسم مدخل طويل عن جغرافية وتاريخ المنطقة من أقدم العصور الى الاحتلال الفرنسي • أما القسم الثاني فقد خصصه لسيرة الأمير العلمية أو القلمية (21) ، ويغطي هذا القسم من الناحية الزمنية سيرة الأمير منذ خروجه من الجزائر في آخر ديسمبر سنة 1847 الى وفاته في شهر مايو 1883 م ، وبمعنى آخر حياة الأمير في فرنسا والمشرق العربي والاسلامي ، ولعله من الخطأ أن نسمي هذا القسم بقسم السيرة القلمية (أو العلمية) لأن الأمير نظم الشعر وكتب الرسائل وألف أيضا قبل مغادرته الجزائر • حقيقة أن بعض انتاجه الصوفي قد كتب في مهجره ولكن الفترة التي يتناولها هذا القسم أطول بكثير من تاريخ تأليف انتاجه الصوفي •

ومهما كان الأمر ، فان الأمير محمد لم يبوب عمله الى فصول وأبواب ولم يخضع كتابه الى منهج علمي دقيق ، وانما استخدم طريقة العناوين الصغيرة والانتقالات المتقاربة حسب موضوعات ذات مدلول ضيق ، مثل : ذكر كذا ، أو انتقال الأمير الى ••• ، ونحو ذلك • وهي طريقة

---

21 ـ جـ في النسخة المخطوطة «سيرته الكفية» وليس العلمية ولا القلمية .

مملة ومشتتة للذهن • وهذا ينطبق على النسخة المطبوعة والمخطوطة معا وهو أحيانا يستعمل عبارة « فصل في كذا » ولكن ذلك لا يدل حتما على التبويب المتبع حتى عند بعض القدماء وانما هو طريقة من طرق التفريع في البحث •

4 ــ المقارنة بين النسخة المخطوطة والمطبوعة :

وقد طبع كتاب تحفة الزائر ، كما أشرنا ، مرتين ، مرة في حياة المؤلف ، سنة 1903 والثانية سنة 1964 ، الطبعة الأولى في الاسكندرية والثانية في بيروت • وقد تميزت الطبعة الأولى بضيق السطور وصغر الحروف وانعدام الفقرات تقريبا وكثرة الأخطاء المطبعية وعدم وجود خرائط أو صور أو ثبت عام ، وليس فيها نبذة عن حياة المؤلف • أما الطبعة الثانية فتميزت بمقدمة للمحقق (22) ، وبعض التعاليق والصور وسعة السطور وكبر الحروف ، كما لم تشتمل هذه الطبعة أيضا على ثبت عام بأسماء البلدان والأشخاص ولا على جدول بالخطأ والصواب• واذا كان يجوز لطبعة 1903 أن تخرج بدون ثبت عام فانه لا يجوز ، في نظرنا ، لطبعة سنة 1964 ، وهي طبعة تحمل سمة التحقيق ، أن تخرج بدون هذا الثبت •

والنسخة المخطوطة تقع أيضا كما قلنا ، في قسمين ،ولكنهما منفصلان: كل في مجلد منفصل • وهي مكتوبة بخط نسخي جيد وحروف بارزة وفنية ، في اطار جميل ومذهب • وتكاد تكون بدايات الجزئين ونهايتهما واحدة ، مع اختلاف سنذكره في القسم الأخير من هذه الدراسة • ولا يوجد في النسخة المطبوعة تاريخ انتهاء المؤلف من تأليف كتابه ولكن هذا التاريخ في النسخة المخطوطة هو سنة 1307 هـ(1890) أي سبع سنوات بعد وفاة الأمير عبد القادر • ولا يمكن في نظرنا أن تكون النسخة المخطوطة التي اطلعنا عليها مكتوبة بخط المؤلف ، لأنه لا يعقل أن يؤلف أحد المؤلفين عمله على ذلك النحو من التخطيط والتجميل والتذهيب والتأطير والصفاء • فلو كانت هذه النسخة « الأصلية » حقا لكانت غير مجملة كل هذا التجميل ولكانت فيها

22 ــ هو الدكتور ممدوح حقي •

تخريجات وحواش وحذف واضافات ونحو ذلك مما يوجد عادة في النسخة الأولى من التأليف (23) •

اذن ، هل نحن نتكلم هنا عن « النسخة الأصلية » أو نسخة مخطوطة مأخوذة عنها ؟ واذا كنا نتعامل مع نسخة مأخوذة عن الأصل ، وهو ما نميل اليه ، فأين هي نسخة المؤلف المسروقة منه ؟ هل أعدمت بعد أن نسخت يد الخطاط الماهر منها هذه النسخة التي بين أيدينا ؟ نحن نستبعد ذلك • ونميل الى أن نسخة المؤلف ما تزال موجودة في احدى المكتبات الخاصة سواء مكتبة الشخص الذي سرقها أو الشخص الذي آلت اليه بسبب من الأسباب (24) • وعلى فرض أن هذا صحيح ، فمن هو خطاط نسختنا يا ترى ؟ انه لا يوجد على النسخة المصورة اسم الخطاط أو الناسخ ، ويبدو من المؤكد أن الذي خططها على الشكل الذي وجدناها عليه أراد بها وجه السلطان عبد الحميد لأن عبارة الاهداء اليه في النص مكتوبة بخط جميل وغليظ ، وكأنها هي المقصودة من التخطيط كله • ولكن من كان وراء فكرة التخطيط أصلا ؟ هل هو المؤلف نفسه الذي ، نفترض ، انه سلم عمله لأحد الخطاطين فدبج له ما أراد ولكن السرقة وقعت لهذه النسخة المدبجة من عند الخطاط أو من عند المؤلف ، قبل أن يقوم هذا بتقديمها الى السلطان ؟ أو أن مسودة المؤلف هي التي سرقت منه وأخذت الى أحد الخطاطين فاستخرج عليها

---

23 ـ اطلعنا زميلنا الدكتور صالح خرفي على نسخة خطية من (نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر) قد جلبها من دمشق من عائلة الأمير محمد نفسه ، وعند مقارنة خط (نزهة الخاطر) وخط (تحفة الزائر) وجدناهما متشابهين ، وقد يدل هذا على أن خطاط النسختين واحد وأن أصول النسختين كانت عند الأمير محمد .

24 ـ يشير صاحب (**الاعلام**) ج 11 (الخطوط والصور) ، القسم الثاني رقم 1119 ، و 1120 ، أن نسخة من (تحفة الزائر) بخط المؤلف توجد في المكتبة العربية في دمشق ، وقد أورد نموذجا من خطه فيها فاذا هو :

1 ـ فيه شطب واضافة ويدل على قلم عادي وليس قلم خطاط (خلافا لنسختنا المخطوطة ونسخة نزهة الخاطر التي عند الدكتور صالح خرفي .)

2 ـ ان فاتحة نسخة المكتبة العربية لا تتطابق (حسب النموذج الذي أورده صاحب الاعلام) مع نسختنا المخطوطة ولا مع النسخة المطبوعة .

فهل بعد هذا يمكن القول بأن نسخة المكتبة العربية هي النسخة الاصل التي سرقت من المؤلف والتي منها خططت نسختنا ؟ الجواب على هذا يتوقف في نظرنا على الاطلاع على نسخة المكتبة العربية ، ونحن لم نفعل ذلك (انظر الصور في آخر الكتاب .

النسخة التي رأيناها وقدمها السارق نفسه الى السلطان لغرض ما ؟ اننا نميل الى الاحتمال الثاني ، لأنه هو الذي يحرم المؤلف من نسخته الأصلية ويجعله يلجأ الى كتابة عمله من جديد . أما الاحتمال الأول فهو بعيد لأن المؤلف عندئذ يكون قد حافظ على نسخته الأصلية وان ضاعت منه المدبجة ، ولم يكن في حاجة الى اعادة التأليف .

ولكن السؤال المحير حقا هو : من كان وراء السرقة وما الهدف منها ؟ ان أخوة المؤلف وعائلة الأمير عبد القادر على العموم لم تكن ، كما ذكرنا ، متفقة على الولاء للدولة العثمانية . وكان هناك انقسام في صفوف العائلة أشار اليه المؤلف نفسه عند حديثه عن المبايعة له بعد وفاة الوالد . كما كان هناك تحاسد وتنافس على الفوز برضى هذا أو ذاك من كبار الدولة العثمانية أو الفرنسية . وقد لمح المؤلف نفسه الى كون المسألة «عائلية» عندما دعا على سارق النسخة بقوله : « فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا من حرز مثله ، جزاه الله على ما أبداه من حسده ، في نفسه وماله وولده ... » ونعتقد أن سارقها الذي قدمها بذلك الاهداء الفخم أراد التقرب بذلك الى السلطان لغرض دنيوي ، سياسي أو مالي مثلا . اقرأ معي ما جاء في النسخة المخطوطة من اهداء (وهو مفقود تماما من النسخة المطبوعة) « وبعد أن انتهيت من ترتيبه ، وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، قدمته لسدة سلطنة ولي النعم ، ومالك ملوك العرب والعجم ، حامي حوزة الملك بالسيف الباتر ، والحزم الوافر والحلم السافر ، الجامع بحسن الابتداء بذكر اسمه الحميد ، وتشنفت المسامع بدر وصفه العزيز المجيد ، أمير المؤمنين ، وظل الله على العالمين ، الخليفة الأعظم ، الخاقان الأفخم ، السلطان الغازي عبد الحميد خان ، أيده الله بسر الكتاب المبين ، وأمد جنوده بالملائكة المقربين :

آمين آمين لا يرضى بواحدة حتى اضيف اليها الف آمينا

راجيا أن يحظى بلثم راحته الكريمة ، ويلحظ بعين عنايته الفخيمة ، فينجلي نجم سعده في سماء الاقبال ، ويتحلى بحلي القبول ويرفل في حلل الكمال ، وسميته ... تحفة الزائر ، الخ . »

وهناك قضية أخرى ما زلنا لا نجد لها حلا ، وهي لماذا طبع الأمير محمد كتابه في الاسكندرية بالذات ؟ وأين كان هو عند طبع الكتاب ، في الاستانة أو في دمشق أو في مصر ؟ ولماذا المطبعة الأهلية بالذات أيضا ؟ وهل لوجود الانجليز في مصر دخل في تغيير وجهة نظر المؤلف من الدولة العثمانية ، ومن السلطان عبد الحميد خصوصا ؟ وهل ذلك يفسر لنا حذف الاهداء السابق من النسخة المطبوعة تماما ؟ أسئلة كثيرة لا يمكننا الجواب عليها الآن • وبالاضافة الى ذلك هناك احتمال دخول المؤلف في حزب اللامركزية الاسلامي الذي كان بعض أتباعه مغضوبا عليهم فهاجروا أو هربوا في أوائل هذا القرن الى مصر ، ومنهم المؤلف ، فهل هذا أيضا وارد ؟ اننا لا نملك الجواب عليه الآن •

وأثناء عقدنا للمقارنة بين النسختين المخطوطة والمطبوعة وجدنا أن الأولى أشمل وأوفى ، وانها قد احتوت على تفاصيل ووثائق مفقودة في الثانية ، ولكن العكس أحيانا صحيح أيضا • كما يلاحظ المرء تقديم أو تأخير الحوادث بين النسختين • ويوجد في المخطوطة تاريخ الانتهاء من التأليف ، وهو 1890 ، كما ذكرنا بينما المطبوعة خالية من هذا التاريخ • وقد قرأت نصيبا كبيرا من النسختين على وجه المقارنة مع كل من الأستاذين : الشيخ محمد الطاهر التليلي بقمار ، والدكتور أبو العيد دودو بمدينة الجزائر ، وقارنا الفهارس في النسختين وبعض الوثائق والأشعار ، فوجدناهما نسختين مختلفتين حقا ، ولا يمكن أن يقال ان المطبوعة نسخة عن المخطوطة وانما المؤلف في الواقع كتب تأليفه مرتين ، ففصل في المرة الأولى وأوجز في الثانية ، كما أنه قد عكس أحيانا ، وأن الذي يجمع بين النسختين هو وحدة الموضوع ووحدة العاطفة ووحدة المؤلف وليس وحدة النص أو المتن •

ولكي نشرك القارىء معنا في ادراك بعض الفروق بين النسختين عمدنا الى استخراج عبارات من مقدمة النسختين ، ونصوص من أوائل وأواخر الجزئين وبعض النصوص الداخلية ، وجعلنا هذه النقول على هذا النحو :

1 ـ نص من مقدمة النسخة المطبوعة فيه ذكر سرقة النسخة وليس معه الاهداء الى السلطان عبد الحميد الثاني ، يقابله نص من مقدمة النسخة المخطوطة فيه الاهداء الى السلطان وليس فيه ذكر السرقة.

2 ـ نص يتضمن نهاية الجزء الأول في النسختين ، وفيه يظهر التوسع في المطبوعة أكثر من المخطوطة .

3 ـ نص يتضمن بداية الجزء الثاني في النسختين ، وفيه يظهر التقديم والتأخير ، والتوازن والتوسع .

4 ـ نص يتضمن نهاية الجزء الثاني في النسختين ، وفيه يظهر الفرق واضحا ، اذ اقتضب المؤلف في المطبوعة وأسهب في المخطوطة ، مع ذكر تاريخ الانتهاء من التأليف .

5 ـ نص عام من النسختين كنموذج للفرق بينهما ، وفيه يظهر كيف قصر في المطبوعة وطول في المخطوطة ويظهر من النص الطويل رأي المؤلف في عدة أمور تاريخية ومعاصرة (ومن هذا النوع كثير في الفرق بين النسختين) .

6 ـ نماذج من اختلاف العبارات في متن النسختين ، وقد استخرجنا النماذج من المقدمتين فقط . ويمكن القياس عليها في بقية المتن .

وقد أردنا من ذلك أن نوضح للقارىء مدى الاختلاف بين النسختين سواء من حيث النصوص الكاملة أو من حيث نسج العبارات والألفاظ .

وفي نهاية هذه المقالة نود أن نطرح سؤالا وهو هل يمكن نشر النسخة المخطوطة على أنها الأصلية من (تحفة الزائر) ؟ يبدو أن ذلك ممكن وواجب لأنها هي النسخة التي وضعها المؤلف أساسا لكتابه وهي التي تعبر عن وجهة نظره في الأحداث وفي والده وفي العلاقات العامة قبل أن تبرد عاطفته وتؤثر عليها بعض مجريات الأمور المستجدة ، وقبل

أن يفقد بعض مواد الكتاب التي نبه عليها • ولذلك فنحن عازمون على اخراجها الى الناس محققة ان شاء الله ، ولكن هذا لا يمنعنا ، ولا يمنع غيرنا ، من البحث عن النسخة التي كتبت بخط المؤلف أصلا •

آن آربر (أمريكا) جامعة مشيقان
يوم 8 أغسطس ، 1983

5 ـ نصوص من النسختين للمقارنة :

من ديبـــاجة النسخـــة المطبـــوعة

ولما فرغت من ترتيبه ، وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، حصرته في قسمين الأول في سيرته السيفية ، والثاني في سيرته القلمية (*) ، وسميته : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر • فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا من حرز مثله • جزاه الله على ما أبداه من حسده ، في نفسه وماله وولده ، ثم شمرت على ساعد الاجتهاد ، لجمع ما تفرق من المواد ، بعد أن فقد منها الأكثر ، وبقي من المسودة ما لا يذكر ، فجاء مطابقا للأصل ، وخاب من الحاسد ، والمنة لله ، الأمل •••

من ديبـــاجة النسخـــة المخطوطـــة

وبعد أن انتهيت من ترتيبه وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، قدمته لسدة سلطنة ولي النعم ، ومالك ملوك العرب والعجم ، حامي حوزة الملك بالسيف الباتر ، والحزم الوافر والحلم السافر ، والجامع بحســن الابتداء بذكر اسمه الحميد ، وتشنفت المسامع بدر وصفه العــزيز المجيد ، أمير المؤمنين ، وظل الله على العالمين ، الخليفة الأعظم ، الخاقان الأفخم ، السلطان الغازي عبد الحميد خان ، أيده الله بسر الكتــاب المبين ، وأمد جنوده بالملائكة المقربين :

آمـــين آمـــين لا يرضى بـــواحـــدة حتى أضيف اليهـــا الف آمينـــا

راجيا أن يحظى بلثم راحته الكريمة ، وينحظ بعين عنايته الفخيمة ، فينجلي نجم سعده في سماء الاقبال ، ويتحلى بحلى القبول ويرفل في حلل الكمال ، وسميته : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، راجيا أن يطابق اسمه مسماه ، وبقتنيه من جعل الأدب غاية

(*) ـ كانت العلمية ومصححة القلمية .

مرماه ، فيتخذه في خلوته سميرا وجليسا ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل •

نهـــاية ج 1 مطبـــوع

وفي غد تلك الليلة (ليلة اجتماع الأمير بابن الملك الفرنسي، الدوق دومال) توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات وعند رجوعه تلقاه الأمير على جواده الأدهم • وبعد أن نزل عنه أهداه اليه مع طبانجته وساعته فقبلهم ، ثم اجتمعا اجتماعا مخصوصا جدد فيه ابن الملك العهد للأمير وزاده وثوقا ، وأهدى للأمير أيضـــا طبانجته وساعته • ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق ــسمي له أهله وأولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور ابن علال وغيرهما من حشمه وأتباعه في مائتي نفس ، قال بعض مؤرخيهم ان مما يجب الحيرة ويستحق التعجب أن عسكر الأمير عبد القادر كاد أن يصل عدده الى ألفين من الخيالة وعشرة آلاف من المشاة وقد قاوم به جيشا عظيما من جيوش أكبر دولة من دول أوربا يبلغ عدده مائة ألف وستة آلاف ما بين فارس وراجل مدة ست عشرة سنة الخ •

(وبعد 22 سطرا قال المؤلف :)

وبتسليم سيفه انتهت سيرته السيفية • وهي الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني في سيرته العلمية (*) ، والله ولي التوفيق •

ص : 325—326

نهـــاية ج 1 مخطـــوط

وفي غد تلك الليلة توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات ، وعند رجوعه تلقاه الأمير على جواده الأدهم • وبعد أن نزل عنه أهداه اليه مع طبانجته وساعته فقبلهم ،

(*) — في صفحة عنوان الجزء الثاني : سيرته القلمية .

ثم اجتمعا اجتماعا مخصوصا جدد فيه ابن الملك العهد للأمير وزاده وثوقا ، وأهدى للأمير أيضا طبانجتيه وساعته • ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق فسمى له أهله وأولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور بن علال وغيرهما من حشمه وأتباعه في مائتين نفسا •

وهنا انتهت سيرته السيفية ونشرع في سيرته الكفية (كذا) ، وهي أول الجزء الثاني •

ص : 497—498 •

بداية الجـــزء الثاني ـ مطبوع

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ركوب الأمير البحر ووصوله الى طولون وما اتفق له مع دولة فرنسا •

انه في ثالث يوم وصوله الى جامع الغزوات سار بأهله ومن بمعيته الى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينتحبون ، ولم يزالوا على ذلك الى أن ركب البارجة الحربية المعدة لركوبه واسمها (حموده) وتوجه نحو فرنسا ، ولسان الحال ينشد قول ابن أبي لبانة شاعر ابن عبـــاد :

تبــكي السماء بمــزن رائح غـــادي على البهاليل من ابناء عبادي (كذا)

(الخ 15 بيتا منها)

ثم أن المسلمين صاروا آسفين تتصعد زفراتهم وتنسكب عـــبراتهم ، ولا سيما شيعته وأهل محبته • كيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يستمطرون خيره ويقيهم اعتداء العدو وشره ، ويحيطهم من كل مكروه، وينيل كل واحد ما يؤمله ويرجوه :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالي والجدود العواثر

وقد تذكرت هنا ما قاله خاتمة أدباء الأندلس صالح بن الشريف :

لكل شيء اذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش انسان

(الخ • 12 بيتا) ص 4 •

بداية الجزء الثاني ـ مخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما اتفق للأمير مع دولة فرنسا بعد ركوبه البحر ووصوله الى طولون •

وفي الثالث من وصولنا الى الغزوات سار الأمير بأهله وبمن تعين بمعيته الى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينحبون ولم يزل الحال على ذلك الى أن ركبنا البارجة الحربية المعدة لركوبنا وسارت بنا نحو فرنسا :

سارت سفائنهم والنوح يصحبها   كأنها ابل يحدو بها الحادي

وبقى المسلمون آسفين تتصعد زفراتهم وتنسكب عبراتهم وتتوقد حسراتهم لا سيما شيعته وأهل محبته فانهم غدا عليهم فراقه بالمكاره وراح ، وضاق عليهم المتسع من أوطانهم والبراح ، وعمهم الجزع والهلوع ، واغب أجفانهم النوم والهجوع ، وكيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يرتصعون دره ، ويستمطرون خيره ، ويقيهم اعتداء العدو وشره ، ويحيطهم من كل مكروه ، وينيل كل واحد منهم ما يأمله ويرجوه، ثم أمسوا فرادى لا أنيس لهم ولا جليس ، ولا مال لهم حتى اليعافر والعيس ، كدرهم يغور وينجد ، ولسان حالهم يقول وينشد :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالي والجدود العواثر

وقد تذكرت هنا ما قاله شاعر بني عباد عند نكبته الشهيرة :

تبكي السمـــــاء بمـــزن رائح غادي على البهاليل من أبنا (كذا) عبادي (كذا)

(الخ • ثمانية أبيات •)

نهـاية الجزء الثاني ـ مطبوع

وها هنا جواد المقال بنا قد وقف ، وأقر لسان اليراع بالعجز عن استقصاء مناقبه واعترف ، وقصر الباع مع قلة المتاع يوجبان لهـذا الفقير العذر ، وألم الفراق الذي لا يطاق برهان التبلد والحصر ، وغاية ما أقول العذر عند خيار الناس مقبول ، والحمد لله في البدء والختام ، وعلى حبيبه الأعظم وآله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام •

نهاية الجزء الثاني ـ مخطوط

وهنا انتهى القلم في تنسيق ما قصدناه ، على الوجه الذي أردناه ، فجاء بحمده تعالى كتابا كلل الصدق تيجانه ، وسلسل التحقيق غدرانه، ولعبت يد التهذيب بأغصان سطوره ، وصقلت وجوه تحبيره فانطبـع في طروسه خيال سيرة الأمير كأنها روض آس ، أو كعذارى مياس ، وأبان عن أخباره وأحواله ، ومثل كيف كان في أحوال كبره وفي أيام اقباله • وبذلك يعرف المطالع أن محل الأمير من الفضل المحل الاسنى ومقامه من الكمال المقام الاسمى ، وقد رمت استقصاء مناقبه فوقفت وقوف من أفحمه الحصر ، وقصدت استيعـــاب فضـــائله فأدرك باعي القصر ، فاقتصرت على ما يوضح الغرض ، ويؤدي في الجملة ما يجب علي من حقه المفترض ، معترفا بقصر الباع ، وقلة الراوية (كذا) وكلال الدراية ، هذا مع ما نحن عليه من شغل البال والتنقل في الحيرة من حال الى حال • وقد وفق الله سبحانه لاتمامه واستنشاق مسك ختامه في منتصف ربيع الأول الأنور سنة 1307 هجرية وسنة 1890 ميلادية •

والحمد لله في الابتدا والانتها ، والصلاة والسلام على ذي السنا والبها ، وعلى آله وأصحابه أولي النهي ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين •

ص : 503 •

نص من ج 1 ــ المطبوع

ولما تولى بابا علي باشا بانتخاب أهل الشوري رفع الى حضرة السلطان أحمد عريضة تنبىء بأن وجود واليين في الجزائر موجب للفساد مستلزم للنزاع فقبل ذلك وامر بأن يكون انتخاب الولاة وعزلهم الي مجلس الشوري وأن يكون التصديق على ذلك من السلطنة • وقد تقدم ما كان للحكومة الجزائرية في سالف أمرها من سمو المنزلة وباهر السطوة ، الخ • ص 72 •

نص من ج 2 ــ المخطوط

الى أن تولى بابا علي رئيسا لمجلس الشوري سنة خمسة عشر ومائة وألف • وكان شديد البأس قوي الجأش وله أعداء في نفس الحضرة فتمكن عامل الجزائر من اغرائهم عليه والسعي في تفريق الكلمة فأحس بابا علي بذلك ، وأشخص عامل الجزائر الى الأستانة وقتل من وافقه ورفع شكاية الى سدة السلطان أحمد خان الثالث معرضا بعدم قبول الجزائر عاملين لما يحدث عن ذلك من النزاع والخلاف فقبل السلطان شكايته وجعل أمر التولية والعزل وتنفيذ الأحكام منوطا بالمجلس مع تصديق السلطان وابقاء الرايات والخطبة وضرب المسكوكات باسمه • واستمر الحال على ذلك الى أن تسلط الفرنسيس عليها • وقد وقع في يدي سكة من تلك المسكوكات مكتوبا على واحد منها سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان ، السلطان عبد الحميد خان عز نصره ، ضرب في جزائر سنة سبع وتسعين ومائة وألف ، وعلى الآخر سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان ، السلطان محمود خان عز نصره ، ضرب في جزائر سنة اثنتين وثلاثين مائتين وألف•

ولذلك فان الدولة العلية الى الآن لا تقر ولا تعترف بتملك الفرنساوية على القطر الجزائري ولا لها وكيلا (كذا) به • وأقول ، كما قيل ، الحق مع القوى ، ولكن الدوائر من شأنها أن تدور (ثم نقد لاذع لولاة الجزائر وسيرتهم في الرعية الى استيلاء الفرنسيين على الجزائر ، وهو كلام غير موجود في النسخة المطبوعة •)

ص 115—116 •

تعـــابير مختلفة للفرق بين النسختين

المطبوعة (من المقدمة) :

1 ــ بينما شمس سيادتنا في أفق المغرب الأوسط طالعة •••

2 ــ وجاءتنا جنود فرنسا من البحر كالذر فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ، ونبذل النفوس في حماية سكانه من كل بلية •

3 ــ فأحاطت بنا جيوش تعدو أو تناوش ، من دولتي فرانسا ومراكش • ولله في خلقه علم الغيب •••

4 ــ ولما أراد الله تعالى أن لا نثبت في وجوههم ، ولا نقوم بدفـــع صدماتهم وهجومهم ، رأينا التسليم للأقدار أولى ••• فألقينـــا السلاح للفرنساويين بشروط مقررة ••• وبالقدر فارقنا البـــلاد •• الخ •

5 ــ ثم خرجنا من فرانسا ممتطين غارب البحر الى أن وصلنا اسلامبول المحمية ، دار السعادة ومقر الخلافة الاسلامية • فمكثنا بها سبعة أيام ••• الخ •

المخطوطة (من المقدمة) :

1 ــ بينما شمس امارتنا في أفق المغرب الأوسط طالعة ••

2 ــ وجاءتنا جنود فرنسا من البر والبحر • فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ، ونبذل النفوس والنفيس في حماية الأهل والرعية •

3 ـ فأحاطت بنا جيوش فرانسا وساموا بضائع راحتنا بخسا • وأبدلوا سعود الأيام نحسا ، ولله في خلقه علم الغيب •••

4 ـ ولما تم للعدو تغلبه على الوطن ، ودخل في حوزته من كان ارتحل من أهله ومن قطن ، ولم يعد في وسعنا أن نثبت في وجهه ••• رأينا التسليم للأقدار أولى ••• فألقينا السلاح اليه بشروط مقررة ••• ثم انتقلنا الى فرنسا وفارقنا البلاد •• الخ •

5 ـ فلبثنا في فرانسا خمسة أعوام ، في اكرام لائق واحترام ، نستنجز من الحكومة سالف عهدها ونترقب وفاء وعدها ••• فأخذنا نجوب أرضا بعد أرض ••• الى أن وصلنا الى الأستانة السنية ، دار السعادة ومحل الخلافة الاسلامية ، فمكثنا بها أسبوعا ••• الخ •

مشروع كتاب (تاريخ زواوة)
لأبي يعلى الزواوي

استحثني بعض الاخوان على نشر وثائق من العهد الفرنسي ، عهد الجزء الثالث والرابع من تاريخ الجزائر الثقافي ، على غرار ما فعلت في الجزئين الأول والثاني ، حين نشرت مجموعة من الوثائق ، تمثل انتاج بعض الجزائريين فى العهد العثماني • ورغم انني أفضل توفير جهدي فى البحث حتى أتقدم فى انجاز الأجزاء الباقية من الكتاب فان الحاح الاخوان له مكانة فى نفسي • وها أنا أقدم هذه المرة على نشر وثيقة هامة تمثل فى الحقيقة مشروع (تاريخ زواوة) للشيخ أبي يعلى الزواوي • هو المشروع الذي كان قد حرره سنة 1331 (1912) •

وحياة الشيخ أبي يعلى الزواوي غير مدروسة رغم قربه منا وشهرته بين معاصريه • ويمكن استخلاص المعلومات التي عرفناها عنه فيما يلي : فهو السعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحيى بن الحاج من آيت سيدي محمد الحاج بزواوة • ومن ثم نسبته (الزواوي) • ولد بقرية تعاروست بزواوة حوالي سنة 1862 • وقد درس فى زواوة على شيوخها وحفظ القرآن الكريم وهو ابن أثنتي عشر سنة ، وقضى عمره فى تعلم العربية وآدابها ودراسة الفقه • كما كان ينتسب الى الاشراف الادارسة • ولا ندري ان كان قد دخل « المدرسة » العربية الفرنسية في مدينة الجزائر ، والغالب أنه فعل لمعرفته اللغة الفرنسية ولتوليه وظائف رسمية • وقد ذكر بنفسه أنه تولى في شرخ شبابه وظيفة باحدى المحاكم بالقطر الجزائري ولكنه لم يحدد مكانها ، وكان عمله فيها مساعدة القاضي •

---

* — نشر فى (المجلة التاريخية المغربية) عدد 27 — 28 ، ديسمبر ، 1982 ، أنظر الصور فى آخر الكتاب .

وتنقطع سلسلة أحداث حياته عنا ، فلا نعلم الا أنـه كان بتونس حوالي سنة 1893 ، وان رجليه حملتاه الى أماكن أخرى شملت مصر وسورية وفرنسا ، ولكننا نجده بمدينة الجزائر سنة 1901 • فقد أخبر أنه نسخ بها كتاب (أعز ما يطلب) لابن نومرت الذي جلبه السيد لوسياني (مدير الشؤون الأهلية) من المكتبة الوطنية بباريس (1)•

ومهما كان الأمر فنحن نجد أبا يعلى سنة 1912 فى دمشق حيث حرر المشروع الذي نحن بصدد الحديث عنه • وقد جاء فى آخره انه « كاتب فى القنصلية الفرنسية بدمشق • » وفى هذه الأثناء كان فكره نشطا وقلمه ماضيا • فكتب فى جريدتي (المقتبس) (2) التي كان يحررها محمد كرد علي ، و (البرهان) (3) التي كان يحررها عبد القادر المغربي • وتعرف على شخصيات علمية وسياسية هاجرت من الجزائر ، خصوصا عائلة الأمير عبد القادر وشيوخ زواوة ، وعلى بعض الرجال من المغرب العربي مثل عبد القادر المغربي ومحمد الخضر حسين ، وعلى شخصيات عربية أخرى أمثال شكيب أرسلان الذي تبادل معه الرسائل ، ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا • وساهم أبو يعلى كذلك فى الحركة العربية ضد الأتراك •

وارتبطت بينه وبين الشيخ طاهر الجزائري صلة خاصة رغم عدم مقابلته له شخصيا فيما يبدو • فقد زار الشيخ طاهر موطن آبائه الجزائر حوالي سنة 1893 ، فوجد الشيخ أبا يعلى فى تونس ، وزار الشيخ طاهر زواوة وتحدث عن عدم مخالطة أهلها لغيرهم • فنقل هذا الخبر الى الشيخ

---

1 — كان لوسياني بالاضافة الى عمله الاداري ، مهتما بنشر آثار الجزائريين ، وهو الذي ترجم ونشر عقيدة السنوسي ومنطق (السلم) الأخضري ، وقد أخبر أبو يعلى أنه نسخ (اعز ما يطلب) بيده لتقديمه الى المطبعة ، وفي ذلك اشارة الى علاقته بالعلماء المستشرقين الفرنسيين . أنظر أبو يعلى الزواوي (الاسلام الصحيح) ، ص 92 .

2 — أسسها محمد كردعلي في دمشق سنة 1908 . أنظر فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) ج 4 ، ص 12 .

3 — أسسها عبد القادر المغربي بطرابلس الشام سنة 1911 ، نفس المصدر ، ص 24 .

أبي يعلى صديقه الشيخ محمد سعيد بن زكري الزواوي مفتي مدينة الجزائر في بداية هذا القرن (4) •

وكانت مقولة الشيخ طاهر عن أهل زواوة وشهرته بين أهل الشام والعالم الاسلامي بأسره والصلة الجهوية والوطنية ، هي التي جعلت أبا يعلى يتتلمذ بالسماع على الشيخ طاهر ، ويصبح من أتباعه دون أن يراه • وهذه الأمور هي التي رشحت الشيخ طاهر لمشروع أبي يعلى حين رآه أحق الناس وأجدرهم بالكتابة عن أهل زواوة •

وتنقطع أحداث حياة أبي يعلى من جديد ، فلا نعرف متى عاد الى الجزائر ولا متى تولى وظيفته الجديدة الرسمية ، وهي الخطابة في جامع سيدي رمضان بالعاصمة ، ولعل ذلك كان سنة 1920 • ورغم وظيفه الرسمي فقد اعتنق مبدأ الاصلاح ، ثم انضم الى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (تأسست سنة 1931) ، وأصبح من رجالها ، وقد ظل ينشر الاصلاح في خطبه بالجامع المذكور وفي كتاباته الجريئة الى أن توفي في أول جوان سنة 1952 بمدينة الجزائر بالغا من العمر حوالي تسعين سنة • وقد دفن في مقبرة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي (5) •

ويظهر أن الشيخ أبا يعلى كان متحررا منذ أوائل حياته • ولعل لثقافته المتنوعة وأسفاره المتكررة وحرمانه الاجتماعي دورا في هذا المشروع • وقد قرأت له بالاضافة الى هذا المشروع كتابين صغيرين هما (جماعة المسلمين) (6) و (الاسلام الصحيح) (7) فوجدت كليهما يفيض

4 — كان الشيخ محمد سعيد بن زكري على صلة بالشيخ أبي يعلى في مدينة الجزائر . وقد زار ابن زكري بلاد الشام أثناء وجود أبي يعلى بها ، وله تأليف مطبوع عنوانه (أوضح الدلائل) دعا فيه الى اصلاح الزوايا ببلاد زواوة .

5 — شارك في الكتابة عنه بعد وفاته الشيوخ حمزة بوكوشة (البصائر ، 9 جوان 1952) ، واسماعيل الزكرى (البصائر 7 يوليو 1952) ، والزغيدي عبد القادر (البصائر 21 جوان 1952) ، وأحمد سحنون (البصائر ، 12 جوان 1953) .

6 — طبع بمطبعة الارادة بتونس حوالي سنة 1948 ، وهو في 75 صفحة من الحجم الصغير . جاء في آخره أنه انتهى منه سنة 1367 هـ . وهو خلاصة لعمل أطول أطلع عليه الشيخ الطيب العقبي وقرظه شعرا .

7 — اطلعت منه على نسخة مبتورة البداية والنهاية ، تصل الى 120 صفحة من الحجم الصغير ، ومكان وتاريخ النشر مقطوع ، ويظهر في الغلاف أن المؤلف هو الامام الخطيب بجامع سيدي رمضان بمدينة الجزائر ، طبع بمطبعة المنار ، مصر ، 1335 هـ .

بالدعوة الى الاصلاح الاجتماعي والديني بشكل قلما نجده لأمثاله ، خصوصا الموظفين عند الادارة الفرنسية • ومن أبرز ذلك مهاجمته للبدع ، ولفكرة المهدوية التي ظهرت بالخصوص فى عهد الفاطميين والموحدين • وقد عاب على الشيخ الحسين الورتلاني مبالغته فى اعتقاد الكشف والولاية والكرامة ، ودعا الى تربية المرأة وتعليمها ، وخطأ من قال بعدم توليها العمل وعدم رؤية الخاطب لها • ولكنه لم يكن ضد المرابطين ، فقد أشاد بأحمد آل يوسف الجنادي صاحب زاوية سيدي منصور ، وبأحمد بن عليوة صاحب زاوية مستغانم •

* * *

والواقع أنني تحرجت أول الأمر فى نشر هذه الوثيقة ، ذلك أنها ، بالرغم من أهميتها ، تحمل أفكارا تجاوزها الوقت • فنحن الآن نعيش حياة الوحدة الوطنية والوئام والترابط • ولاشك أن البحث عن الأصول والأعراف والتنابز ، على حد تعبير الزواوي نفسه ، لا تساعد على جمع كلمة الشعب الجزائري • واذا كانت مقولة ابن خلدون والشيخ طاهر الجزائري وأمثالهما عن طبيعة سكان زواوة ليست محل نقاش لوضوحها وشمولها ، فان مقولة الرجل الفرنسي ، الموظف السياسي ، عن أهل زواوة محل شك كبير • وقد رواها الزواوي ولم يناقشها أو يرفضها • فقد ادعى له ذلك الفرنسي أن أهل زواوة من الجنس الآري الأبيض ، وان فرنسا تحبهم حبا خاصا • والغريب أن أبا يعلى الزواوي نقل كلمات من خطاب الوالي العام الفرنسي على الجزائر سنة 1897 (8) مفتخرا بأن فرنسا استطاعت أن تضع قدمها على جبال زواوة بينما عجزت كل الدول الأخرى عن ذلك • والأغرب منه أن أبا يعلى لام والده على ثورة 1871 (9) التي وصفها بالغرور •

---

8 — هو جول كامبون ، الذي تولى من 1891 الى 1897 .

9 — احدى الثورات الهامة في الجزائر بعد هزيمة فرنسا على يد بروسيا ، وكانت الثورة في أولها بقيادة الشيخ محمد أمزيان الحداد شيخ الطريقة الرحمانية ومحمد المقراني ، وبعد القضاء عليها لجأ الفرنسيون الى سياسة الارهاب والمصادرة وسن قانون الاندجينا المخيف ، وهذا ما يعنيه أبو يعلى .

ولكنني ، مع ذلك أقدمت على نشر الوثيقة لأسباب . منها أن وعي الشعب الجزائري بوحدته اليوم يشكل أكبر ضمان ضد بعض الأفكار الواردة فى الوثيقة ؛ ثانيا أنه يظهر لي أن أبا يعلى كتب الوثيقة مندفعا وراء تيار ظهر فى بداية هذا القرن وهو محاولة فرنسا تفريق المواطنين الجزائريين وتشجيع ما سمي عندئذ « بسياسة فرنسا القبائلية » • ولسنا ندري ان كان أبو يعلى عندئذ مدفوعا من الفرنسيين ، ولو بطريقة غير مباشرة ، باشاعة هذه السياسة واستخدام اسم الشيخ طاهر الجزائري لهذا الغرض • ثالثا ان أبا يعلى كان عند كتابة الوثيقة فى كهولته ، موظفا في القنصلية الفرنسية بدمشق ، متأثرا بالحركات القومية التي ظهرت نتيجة الانقلاب العثماني • ويظهر ذلك من ردوده فى كل من جريدتي (المقتبس) و (البرهان) • فاقتصرت دعوته على الوطنية « الزواوية » بدل الوطنية « الجزائرية » • ولو تضمنت الوثيقة الدعوة الى كتابة « تاريخ » زواوة لاعتبرنا ذلك أمرا منطقيا واهتماما خاصا بالتاريخ المحلي الواجب تسجيله • ولكن الشيخ أبا يعلى تجاوز المحلي الى القومية المحلية • وهذا هو محل استغرابنا • رابعا أن عودة الشيخ أبي يعلى الى الجزائر وانضمامه لجمعية العلماء وكتاباته المتأخرة مثل كتابه (جماعة المسلمين) تجعل أفكار الوثيقة تمثل مرحلة فقط من تطوره الفكري ، اذ نجده قد تخلى تماما فى المراحل التالية عن تلك الأفكار وانضم الى دعاة الوحدة الوطنية في ظل العروبة والاسلام •

* * *

ومهما كان الأمر فقد أرسل أبو يعلى مشروعه (الوثيقة) الى الشيخ طاهر الجزائري فى القاهرة ، بتاريخ 7 جمادي الأول سنة 1331 • وكان الشيخ طاهر قد هاجر سنة 1907 من سورية الى مصر هروبا من اضطهاد الأتراك له (10) • ورغم الحاح أصدقائه بالعودة الى دمشق فانه لم يرجع اليها الا عند قيام أول حكومة عربية فيها ، وذلك فى أواخر سنة 1919 • ولكنه لم يلبث بعد عودته الى دمشق أن توفى فاتح سنة

10 ـ نجد لأبي يعلى آراء واضحة ضد الأتراك في كتابه (جماعة المسلمين) ، وهو فيه ينتصر للعرب واللغة العربية ، ولا شك أن اقامته بدمشق أثناء اضطهاد الأتراك لزعماء العرب هي التي جعلته يتخذ هذا الموقف .

1920 • والدارس لحياة الشيخ طاهر يعرف أنه ولد بدمشق سنة 1852 لأب جزائري مهاجر من زواوة ، اسمه صالح السمعوني الوغليسي • وقد ساهم الشيخ طاهر فى النهضة العربية والاسلامية بجهد كبير جعله فى صف واحد من كبار المصلحين المعاصرين له أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده • وتدين نهضة الشام الى الشيخ طاهر ، ويكفي أنه ألف العديد من الكتب وساهم فى الصحف وأنشأ عددا من الجمعيات والمكتبات ، وتولى الوظائف الرسمية ، وصادق مدحت باشا المصلح العثماني الشهير ، وأخرج تلاميذ أبرزهم محمد كرد علي ، ومحب الدين الخطيب ، وسعيد الباني ، وابن أخيه سليم الجزائري • ورغم عقيدة الشيخ طاهر الراسخة في العروبة والاسلام والاصلاح فانه انضم الى الحركة الماسونية كما انضم اليها عدد من رجالات الفكر العرب والمسلمين خلال القرن الماضي مثل الأمير عبد القادر ، والأفغاني ومحمد عبده •

ولا ندري ما رد فعل الشيخ طاهر الجزائري على طلب الشيخ أبى يعلى بتأليف كتاب عن تاريخ زواوة • ان قائمة كتب الشيخ طاهر المطبوعة والمخطوطة لا تشمل عنوانا حول هذا الموضوع • ولعله كتب شيئا عن ذلك فى مذكراته التي لم تنشر • والظاهر ان الشيخ طاهر لم يستجب لعرض الشيخ أبى يعلى لأسباب ، منها عقيدته القوية فى العروبة والاسلام التي تتنافى مع فكرة المشروع ، فقد كان الشيخ طاهر مندمجا الى الأذقان فى القضية العربية والدعوة الاصلاحية الاسلامية ، مما عرضه لغضب خصومهما وتهديد حياته (11) • ثانيا أن الشيخ طاهر كان يرى انه شخصية عالمية فى المسار العربي الاسلامي فلا يهتم الا بالقضايا الكبرى ذات البعد الجغرافي الكبير • ثالثا ان صحته (كان يعاني من مرض الربو) وتقدم السن به وقلة ذات يده كانت لا تسمح له بالانكباب على انجاز ما طلبه منه أبو يعلى • رابعا ان هناك دلائل تدل على معاداة الشيخ طاهر لسياسة الفرنسيين الجزائرية والدولية • اذ نجد له ميلا نحو السياسة البريطانية فى

11 — ازدادت عقيدته في العروبة بعد شنق الأتراك لابن أخيه سليم الجزائري ، الذي كان من زعماء الحركة العربية والذي نفذ فيه حكم الاعدام سنة 1916 .

الشرق (12) • ولا شك انه أدرك ان وراء هذا المشروع ، الاهـداف الفرنسية التي أشرنا اليها •

* * *

وقد وضع أبو يعلى الخطوط العريضة لكتابة تاريخ زواوة على أساس وطني (قومي) • فهذا التأليف الذي سيشيد بمحامد ومزايا وخصائص أهل زواوة ، يقوم على هذه الأسس :

1 ــ اعتماد أقوال ابن خلدون والشيخ طاهر الجزائري وغيرهما من أن أهل زواوة لا يختلطون بغيرهم •

2 ــ اعتماد آراء بعض الفرنسيين من أن أهل زواوة من الجنس الآري الأبيض وانهم متميزون عن غيرهم •

3 ــ رأي الأمير عبد القادر فيهم •

4 ــ بعض الملاحظات القائمة على الاستقراء مثل عدم التسري وحب المرأة الولود والخصوبة •

والدليل على ذلك أيضا بعض المميزات التي لا توجد عند غيرهم • فهم صناع مهرة وكثيرو الاشتغال • وهم لا يتسرون بالاماء ولا يتسامحون مع مجهول الأب ، ولذلك حافظوا على نقاوة نسلهم • واذن فهم كغيرهم ان لم يكونوا أفضل منهم • ولكن الجهل بالانساب والسند جعل بعض الناس يعتقدون ان أهل زواوة مفضولون وان البربر على العموم أقل درجة من جيرانهم • وقد استعرب البربر بلغة وثقافة القرآن كما استعرب العرب الاسماعيليون فى القديم ، وانهم لذلك عرب كغيرهم وليسوا مفضولين •

وحاول أبو يعلى اقناع الشيخ طاهر بأن لهذا التاريخ منافع واضحة • ذلك ان دراسة شباب زواوة لتاريخهم وأمجادهم سيجعل منهم ، فى عصر

---

12 ــ يمكننا ملاحظة ذلك من المراسلة التي وجهها الشيخ طاهر الى المستشرقة الانكليزية (بيل) ، أنظر نصها في كتاب عدنان الخطيب (الشيخ طاهر الجزائري ، رائد النهضة العلمية في بلاد الشام) ، القاهرة ، 1971 ، ص 167 •

القوميات والعلم ، واعين لأنفسهم ومكانتهم فى العالم وتنزع عنهم صفة المفضولية • ورغم قلة القراء بالعربية فان الكتاب سيترجم الى الفرنسية فتعم فائدته وسيقرأ فى زواوة وغيرها حيث يوجد الزواويون المنتشرون في « القارات الخمس » والذين يبلغ عددهم الملايين • ومن يصلح لهذه المهمة غير الشيخ طاهر واسع الاطلاع ذائع الصيت ؟ ان علماء الانكليز والفرنسيين خدموا بني جنسهم وأمتهم ووطنهم ففازوا وملكوا العالم وان الرجل الحق هو الذي « يخدم جنسه وملته » •

ان الشيخ أبا يعلى من أوائل المنادين بكتابة « التاريخ القومي » ، كما تدل عباراته السابقة ، ولكنه وظف دعوته لكتابة تاريخ قومي لطائفة — كما يسميها — فقط ، ولم تبرز عنده يومئذ فكرة التاريخ الوطني الجزائري أو القومي العربي • ورغم انه لم يناقش أو يرفض انتماء أهل زواوة الى السلالة الآرية التي أشاعها بعض الفرنسيين فى أوائل هذا القرن ، فان أبا يعلى قد طرح قضية عروبة أهل زواوة بكل وضوح • فهم ، فى نظره ، قد أصبحوا عربا بحكم الاستعراب ، وان لغتهم هي اللغة الحميرية •

ويبدو أبو يعلى متمكنا من الثقافة العربية الاسلامية • فأسلوبه في الوثيقة قوي متين واضح مباشر على خلاف أساليب معاصريه من علماء الجزائر أمثال ابن أبي شنب وأبي القاسم الحفناوي • وتظهر فى الوثيقة ثقافته الدينية والأدبية بتضمين الآيات والأحاديث والشعر واستعمال السجع والأنماط البلاغية كالطباق والجناس • والحق أن الوثيقة من هذه الناحية تعتبر قطعة من الأدب الرفيع •

وللشيخ أبي يعلى تآليف بعضها مطبوع وبعضها مايزال مخطوطا • ومن كتبه المطبوعة •

1 — جماعة المسلمين ، انتهى منه سنة 1367 (1948) وهو ، كما قال ، مختصر لكتاب مطول • وقد قرظه الشيخ الطيب العقبي بأبيات منشورة ضمنه •

2 ـ الخـطب ، وأذكر أنني قرأت عنه مراجعة لعبد القادر المغربي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق • مجلد 9 ، ص 767 • وقد قدم الي الشيخ عبد الرحمن الجيلالي نسخة منه • وهو مطبوع بالجزائر ، مطبعة جول كاربونيل ، سنة 1343 هـ • في 78 صفحة • والشيخ الجيلالي هو الذي أشرف على تصحيح الكتاب •

3 ـ الاسلام الصحيح • اطلعت عليه وهو مبتور الأول • مطبوع في مطبعة المنار ، مصر ، 1335هـ • وعليه اسم محمد المانصالي • انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد 9 ، ص 767 •

أما الكتب المخطوطة ، فهي :

4 ـ مرآة المرأة المسلمة ، أشار اليه هو فى كتابه (الاسلام الصحيح) ص 26 • وكذلك كتابه (خطب) ص 79 ، وقال عنه انه فى نحو مائتي فصل و 200 صفحة •

5 ـ تعدد الزوجات فى الاسلام ، ذكره له اسماعيل زكري فى جريدة البصائر ، 7 يوليو 1952 •

6 ـ الأمم الغربية (أو العربية؟) ، أشار اليه نفس المصدر •

7 ـ تاريخ زواوة ، أشار اليه نفس المصدر ، ووصف موضوعه وأسلوبه فيه • كما ذكره الزواوي نفسه فى (خطب)

8 ـ مراسلات الشيخ أبي يعلى ، أشار اليها بنفسه ، خصوصا مع شكيب أرسلان •

9 ـ مقالاته فى الشهاب والبضائر والاصلاح وغيرها •

10 ـ فتاويه ، وقد كان رئيس لجنة الفتوى فى جمعية العلمـاء المسلمين الجزائريين فترة طويلة •

11 ـ الفرق بين المشارقة والمغاربة في اللغه العـ ـية وغيرها من الفروق •

12 ـ الخلافة قرشية •

13 ـ فصول الاصلاح •

14 ــ الكلام فى علم الكلام •

15 ــ الغنى والفقر •

16 ــ ذبائح أهل الكتاب (قال عنه أنه تحت الطبع) •

17 ــ أسلوب الحكيم فى التعليم •

(وهذه الكتب من رقم 11 الى رقم 17 أشار اليها جميعا بنفسه في كتابه ــخطبــ ص 79) •

وبالاضافة الى ذلك كان له خط جميل ، وقد قيل انه نسخ مصحفا عظيما قبل وفاته ، ولا ندري ان كان قد انتهى منه •

* * *

عثرت على هذه الوثيقة فى ربيع سنة 1976 أثناء وجودي بدار الكتب المصرية بالقاهرة بحثا عن مواد لكتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) • وقد طالعتها عندئذ وأخذت رقمها وسجلت خلاصتها ولاحظت عليها انها تتناول موضوع الوطنية بالمفهوم الضيق • وهي تحمل رقم 956 بمكتبة تيمور ، مادة التاريخ • وظل موضوع نشرها يخامرني ، ولكن انشغالي بالكتاب والتحرج من فكرتها جعلاني أؤجل نشرها الى اليوم • ورغم انني زرت القاهرة آخر مرة فى عام 1977 فانني لم أتمكن عندئذ من تصوير الوثيقة • لذلك لجأت الى الأستاذ فرج محمود فرج المصري ، وطلبت منه معاونتي على تصويرها فتفضل مشكورا بتصويرها وارسالها الي خلال أكتوبر سنة 1981 •

ولا ندري كيف آلت الوثيقة الى مكتبة تيمور ، ولكن الظاهر ان بعض آثار الشيخ طاهر الجزائري أثناء وجوده بمصر (حوالي ثلاثة عشر عاما) قد آلت الى هذه المكتبة • وكان الشيخ طاهر صديقا لأحمد تيمور باشا وكثيرا ما كانا يلتقيان • وبينهما مراسلات أيضا • ولذلك فقد وجدنا على الصفحة الأولى خطا لعله خط أحمد تيمور يعرف الوثيقة هكذا « كتاب (رسالة) أرسله الفاضل الشيخ سعيد بن محمد الشريف الزواوي من دمشق للأستاذ الشيخ طاهر الجزائري نزيل مصر ، يطلب منه فيه تأليف

تاريخ لقبـائل الزواوة بالجزائر • وقد ضمن هذا الكتاب نبـذا من خصائص هذه القبائل ، وكان ارساله في 7 جمادي الأولى سنة 1331 » • أما عدد صفحات الوثيقة المكتوبة بخط أبي يعلى فثماني صفحات • والخط واضح وجميل ، أسود اللون ، رقعي في معظمه ولكنه متأثر بخط النسخ الجزائري • وفي أعلى الصفحة الأولى من الرسالة ختم لم أستطع قراءته في الصورة ولم أسجله أثناء اطلاعي على الأصل • وبدايتها : « بسم الله ، سيدي الأستاذ الكامل والوطني النابغة الفاضل» • واكتفى أبو يعلى في توقيع الرسالة بذكر التاريخ وعبارة (الزواوي) فقط ، وختمها بعنوانه في دمشق بالحروف العربية واللاتينية • فكان اسمه باللاتينية « الشيخ سعيد » • Chaikh Saïd

وعسى ان يكون نشرنا لهذه الوثيقة حافزا على نشر التأليف الذي قيل ان أبا يعلى نفسه قد كتبه (13) عن تاريخ زواوة ، ولا نشك في أنه ، اذا كتبه فعلا ، سينهج فيه نهجا آخر غير النهج الذي اقترحه على الشيخ طاهر الجزائري • فتمرسه بالحيـاة الجزائرية ومعاصرته للحركة الوطنية وغيرها ستجعله يغير من نهجه وفكرته الأصلية • كما أننا نرجو أن يكون نشر هذه الوثيقة حافزا على كتابة تاريخ زواوة المحلي، باعتباره جزءا من التاريخ الوطني الجزائري وجزءا من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية التي أسهم فيها أبطال وعلماء زواوة بقسط وفير •

مدينة الجزائر (ابن عكنون)

23 نوفمبر 1982

13 — ذكر اسماعيل زكري (البصائر 7 يوليو 1952) ان أبا يعلى قد انتهى من تأليفه وانه كتبه بأسلوب رشيق ، وانه أعده للطبع .

كتـــــاب

ارسله الفاضل الشيخ سعيد بن محمد الشريف الزواوي من دمشـــق للأستاذ الشيخ طاهر الجزائري نزيل مصر يطلب منه فيه تأليف تاريخ لقبائل الزواوة بالجزائر وقد ضمن هذا الكتاب نبذا من خصائص هذه القبائل وكان ارساله في 7 جمادي الأولى سنـــة 1331 هـ

بسم الله

سيدي الأستاذ الكامل ، والوطني النابغة الفاضل

روابط عديدة ، وأسباب كثيرة ، وظنوز جميلة ، وفنون جليلة ، دعتني الى مكاتبتكم ، والتشرف بمخاطبتكم ، راجيا من الله ثم من سيادتكم ، أن أصادف القبول لديكم ، وأحظى بالاعتبار عندكم ، فأقول معرفا نفسي التي كان الأولى لها أن تبقى نكرة :

اني أحد طلبة العلم الزواوة ، اسمي السعيد بن محمدالشريفبن العربي بن يحيى بن الحاج من آيت سيدي محمد الحاج الشهير (1) . وبما أن العبد أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، وجدت نفسي مسوقا لهذه الديار ، راضيا وشاكرا وكنت ولم أزل شديد الرغبة للاجتماع بكم ، والأخذ عليكم ولكن :

ما كـل ما يتمنى المـــرء يـدركـه   تجري الرياح بما لا تشتهيه(2) السفن

---

1 ـ فصل الزواوي في كتابه (جماعة المسلمين) ص34، فقال أنه من قبيلة اغيل انزكري الشريفة، وأن أمه من قرية تعاروست (المسطبة) وفي هذه القرية كانت ولادته ، وأن جده ووالده من قبيلة تفريت نيث الحاج (عرين ذوي الحاج) . وأضاف أن والده كان اماما في قرية صوامع ، وهي أم قرى قبيلة بوشعايب .

2 ـ كذا ، والصواب (تشتهي) .

أقول وقد عرفكم الي ــ وأنتم أشهر من أن تعرفوا ــ الأستاذ الوطني صديقي الحميم الشيخ محمد سعيد (3) المفتي الحالي بمدينة الجزائر أي حدثني عنكم حينما شرفتم بلاد الجزائر منذ نحو عشرين سنــة (4) ، ومن سوء الحظ اني اذ ذاك بأنحاء تونس ولم أحظ بالاجتماع بكم فحصل لي من الأسف ما حصل ، ومن ذلك الحين وأنا فى الجولان ، من مكان الى مكان ، الى أن صرت بهذا المكان (دمشق) والحمد لله على ما كان •

هذا وان الباعث لي على هذه المكاتبة هو ما أشرنا اليه من روابط الاخا وصلة ــ أل الجنسية وعائد الوطنية ، راجيا أن تكون فائدة الصلة تمام الموصول ، وفائدة العائد الربط بين الصلة والموصول ، وأن تطول المودة بيننــا •

والذي أصرح به لسيادتكم اني أتتلمذ لكم ، وأتمذهب بمذهبكم ، وائتمر بأمركم ، وأنتهى بنهيكم قولا بالحق وتحريا لجانب الصدق ذلك بيني وبينكم أيام العمر الباقية بحول الله وقوته فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل •

أقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل أقترح عليكم وأطلب منكم تأليف مختصر فى تاريخ بلادنا الزواوة يشتمل على ما يتيسر من خصائصهم ومحامدهم ومزاياهم (5) ، وأنتم الذين نبهتمونا الى البعض منها ، وقد حدثني بذلك الأستاذ ابن زكري المفتي (6) ، والفضل لكم فقال انكم قلتم أن الزواوة قوم خالصون غير مختلطين بغيرهم من الأجناس لا من اليهود ولا من النصارى ولا من أية طائفة ، فاستقرينا هذا الخبر المعتبر فوجدناه صحيحا صادقا ، ا هـ • قلت ولئن كان ذلك عجبا فى الأزمنة الماضية فالآن أعجب حيث بقيت القاعدة التي ذكرتم مستمرة مع هذه

3 ــ هو محمد سعيد بن زكري ، مفتي المالكية في مدينة الجزائر أوائل هذا القرن .
4 ــ هذه اشارة واضحة الى زيارة الشيخ طاهر الجزائري الى وطن آبائه واجداده (الجزائر) ، ولا نعرف ما اذا كتب الشيخ رحلته في مقالات أو كتاب ، كما لا نعرف كم دامت رحلته .
5 ــ يبدو من الاقتراح أن الدراسة ستكون وصفية لا تاريخية .
6 ــ هو محمد سعيد ابن زكري سابق الذكر .

المواصلات المحدثة فى هذا العصر فصارت الأمم مرتبطة وكرة الأرض كمدينة واحدة أو سوق واحد ومع ذلك كله فالزواوة منحازون فى السكنى ويمتازون فى أشياء كثيرة •

كنت ذات يوم جالسا فى قهوة نزل كبير فى مدينة باريس وادا برجل فرنساوي واقفا علي يريد أن يكلمني وبيده قبعته فقابلته بالترحيب وابداء البشاشة لتوسمي فيه الوجاهة والأدب ولما استوى جالسا خاطبني قائلا :
حضرتكم من بلاد الجزائر ؟

ــ نعم كما يظهر لكم من لباسي البرنوس الخاص بأهل الجزائر وكذلك الكوسكوس فتبسم ثم قال : من أي ولاية من الولايات الثلاث ؟

ــ من الجزائر ؟

ــ من أي جهة ؟

ــ من قسمة تيزي وزو

ــ من قبائل الزواوة (7) ؟

ــ نعم • ثم أخذ الرجل يثني على الزواوة ثناء عارف معتدل منصف ينم كلامه عن علم غزير ، واطلاع كثير ، فنبهني الى خصائص فى الزواوة فقال : الزواوة عمال أبطال جنديون جبلة زراع صناع شجاع محترفون مستغنون عن غيرهم في الشؤون الاجتماعية ، الى غير ذلك من الاطراء الى أن قال : ان فرانسا متعجبة منهم فى مسألة ذات بال لا يستخف بها وهي ان المستعمرين الفرنساويين الذين ببلاد الزواوة لا يكادون يفلحون وقد باع كثير منهم الأراضي الممنوحة له وكر راجعا الى من حيث أتى أو الى جهة أخرى وقد بلغك على ما أظن ان القائد محمود رابح بوادي بجاية قد اشترى من المستعمرين أراضي كثيرة بما قدره نحو مليون فرنك • ذلك بأن المستعمر اذا بنى قصرا على النمط الغربي لا يرجو ولا يطمع أن يكتريه منه الزواوي ليسكنه ولو مجانا لأن له بيتا بسيطا في قريته بلا

7 ـ هذا استدراج واضح من هذا الفرنسي الخبيث الذي قال عنه الشيخ أبو يعلى انه كان موظفا باحدى الوزارات وانه من السياسيين ، وكم عرفنا نحن الى اليوم هذه الاستدراجات الماكرة التي يراد بها اثارة النعرات بين أبناء الوطن الواحد .

تكلف ، واذا أراد المستعمر أن يبيع زرعا أو ضرعا فالزواوي له ما يكفيه من ذلك ، واذا أراد المستعمر بيع الخمر فالزواوي مسلم ولا يقبل ذلك مجانا • واذا أراد المستعمر بيع التين والزيتون فان الزواوي كالمدني أو البصري فى امتلاك التمر واستغنائهم عنه ومللهم منه واذا واذا •• ا هـ •

وهذا سر من أسرار قولكم (8) عدم اختلاط الزواوة وأيدكم هذا الفرنساوي الخبير وهو رجل سياسي يشغل وظيفة فى احدى الوزارات وقال ان فرنسا تحب الزواوة لاشغالهم وصنائعهم ، ونحو ذلك من صلاحيتهم للاستعمار وانهم من النسل الآري الأبيض (9) الخ الخ ••

ثم اني اهتديت الى خصيصة أخرى استنبطتها من قولكم عدم اختلاط الزواوة بغيرهم وهي انهم لا ينكحون الاماء ولا يخلطون نسلهم بالسود وأثبت ذلك استقراء ولم أعثر على أحد تزوج أمة أو تسرى وسألت كثيرا من الشيوخ المسنين ولم يشهد أحد بذلك وكان العبيد السود فى بعض القبائل كبني بوشعايب ولكنهم مستقلون بأنفسهم وهم أحرار غير مملوكين ولكن لا يناكحون •

وكذلك شرفاؤهم لا يتنكاحون الا فيما بينهم وهم شديدو التحفظ عن ذلك قديما وحديثا الى الآن وحتى الآن واطردت هذه القاعدة فى تونس ووجدتها أيضا مطردة بسورية (10) كما علمتم بلا خلاف ولا اشكال •

ومن خصائصهم بالزيادة عن غيرهم شـــدة الغيرة والأنفة فلا يشهد أحد والله خير الشاهدين أنه رءا أو سمع بالزواوة انسانا مجهول الأب وذلك لأن الأم الزانية،على فرض ذلك مادام من القسم الجائز العقلي،فلازم

---

8 ـ الخطاب موجه الى الشيخ طاهر الجزائري .

9 ـ هذه دعوى هادفة طرحها بعض المستعمرين عندئذ ، كما قالوا ان أصل سكان شمال افريقية من الرومان والوندال ، كما زعموا لبعض اللبنانيين أنهم من نسل شارلمان وقلب الأسد وسان لويس ، ومن حسن الحظ أن الشيخ أبا يعلى تفطن فيما بعد فذكر في كتابه (جماعة المسلمين) ص 34ـ35 أن أهل زواوة عرب وأن لغتهم حميرية ، وهذا ما تؤكده النظريات التاريخية القديمة .

10 ـ يشير باطراد القاعدة في تونس وسورية الى كون الجاليات الزواوية المهاجرة هناك ـ سواء بعد رحيل الأمير عبد القادر ، أو ثورة 1871 ـ لا تتزاوج الا فيما بينها .

أن تهلك قبل شيوع حملها اما أن تقتل أو تنتحر اذ البيوتات والعصبيات لا تحتمل ذلك العار أو ترتكب ذلك الشنار اذ يكبر ذلك عليهم •

أول خروجي من الزواوة كان فى شرخ الشباب وتوظفت فى بعض المحاكم الشرعية (11) وكان القاضي كثيرا ما يملي على الوقائع ويسأل الخصوم أمامي ويجيب بعضهم أنه لا أب له فيقول القاضي أكتب وقل فلان المجهول الأب وكنت أفهم أن مجهول الأب هو الذي لا يعرف أباه بسبب سبي أو غيبة فى الصغر مثلا الى أن سألت ذات يوم بعض الكتاب العدول أهل البلد فأجابوا أن مجهول الأب هو الذي ولد بغير نكاح شرعي أي محض زنى فاندهشت منقبضا ومقشعرا فأكبرت ذلك أي اكبار وارتعد اذا رأيت ذلك الشخص المظلوم اذ لم يتقدم لي ذلك أصلا وقد كثر ذلك النوع فى تلك الأنحاء ولا حول ولا قوة الا بالله •

ومن مفاخر الزواوة ما وقفت عليه لبعض المؤرخين أظن ، والله أعلم ، لابن خلدون قال : ان القوى المتنازعة فى المغرب يكون الظفر بجانب الذي معه الزواوة ا هـ • ومما حققته أيضا لابن خلدون قوله : « ولما صار لهم ـــ يعني الزواوة وكتامة وصنهاجة ـــ الملك بالمغرب زحفوا الى المشرق فملكوا الاسكندرية ومصر والشام واختطوا القاهرة أعظم الأمصار واتحل (12) المعز رابع خلفائهم فنزلها وارتحل معه كتـــامة واستفحلت الدولة هناك الى (13) قال : وكانت لهم ـــ يريد الزواوة ـــ فى دولة صنهاجة مقاومات مذكورة فى السلم والحرب ا هـ بالحرف • ويؤكد هذا الخطاب الذي ألقاه والي الجزائر فى سنة 1897 م فى بني يراتن حيث وقعت الواقعة المشهورة في حرب سنة 1857 م (14) وسنة

11 ـ اشارة واضحة الى أنه تولى الوظيفة مبكرا عند الفرنسيين ، ويمكن معرفة الجهة التي توظف فيها وتحدث عن شيوع الزنا فيها بالاطلاع على تفاصيل حياته .

12 ـ كذا ، وهي ارتحل .

13 ـ كذا ، والصواب (الى أن قال) . وابن خلدون يتحدث عن انتقال الحكم الفاطمي من المغرب الى المشرق ،و الاشارة الى المعز لدين الله وقائده جوهر الصقلي .

14 ـ حرب 1857 هي التي أبلى فيها الثوار الجزائريون البلاء الحسن وظهرت فيها زعامة السيدة للا فاطمة نسومر ، وهي التي تواثق فيها آخر الثوار دفاعا عن ايشر يضن ، كما أشار الشيخ أبو يعلى ، ولا نعرف أنه وقع مثله في ثورة 1871 ، وقد انتهت حرب 1857 باعتقال للا فاطمة واستيلاء الفرنسيين بقيادة الوالي العام نفسه ، الجنرال راندون ، على زواوة (جرجرة) .

1871 م (15) بالموضع المسمى أشر يضن ، اذ تواثق القوم بالحبال ربطوا أنفسهم بها ليثبتوا ولا يفروا مهما هالهم أمر العدو فقال الوالي : ان لفرنسا أن تفتخر فى استيلائها على هذا القوم ووضعها قدمها على هذه الجبال التي لم تستول عليها دونة قبلها (16) الخ ..

ثم لما أخنى عليهم (17) الدهر صاروا أو كادوا يصيرون كالمجهول الذي لا يعرف والنكرة التي لا تتعرف ، وان تعجب فعجب استسلامهم واعتقادهم أنهم مفضولون لكل متفصل (18) ومغلوبون لكل متغلب وانهم على ما يزعم بعض المغرورين ادنا أقل (19) رتبة من العرب والمسلمين الى غير ذلك من الخزعبلات التي راجت في حقهم ذلك بأنهم بربر والبربر على ما يزعمون أيضا أقل رتبة فى الانسانية والاسلامية الى غير ذلك من حجج علماء القهاوي ومدارس السمر وأندية المنكر الذين يريدون احتكار الفضيلة ويحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله فكأنهم هم الذين يقسمون رحمة الله .

والسبب فى ذلك كله الجهل كما لا يخفى عليكم ان الجاهل محجوج أبدا والقوم قد بلغوا من دركات الجهل ما لا يفي به التعبير وذلك أن سند التعليم قد انقطع فى المغربين منذ أواخر القرن السابع الهجري وتلك مدة أجيال فعشش الجهل وباض وفرخ .

وكذلك أن الزواوة لما كان لسانهم غير عربي (20) فيما سوى أمور الدين وتعاليمه وكان جيرانهم ومواطنوهم عربا يحتج هؤلاء أي العامة

---

15 ـ ثورة واسعة النطاق وقعت في هذه السنة (1871) بقيادة الشيخ الحداد روحيا والمقراني عسكريا ، وشملت زواوة وغيرها .

16 ـ أي فخر لفرنسا في هذا ما دامت قد صعدت الى جبال زواوة على جماجم وجثث أهلها ؟ وقد ردد الوالي العام سنة 1897 صدى الجنرال راندون وأسقف كنيسة الرومان والمسيحية الى الجزائر وكان الوالي الذي يشير اليه أبو يعلى هو جول كامبون اما المناسبة فهي اقامة فرنسا لنصب تذكاري لانتصار جيشها في معركة ايشريضن ضد أهالي زواوة .

17 ـ الاشارة الى أهل زواوة .

18 ـ كذا ، وهي متفضل .

19 ـ كذا ، بوجود كلمتي (ادنا ، أقل) . والظاهر أنه يريد احداهما فقط ، أو اضافة الواو بينهما .

20 ـ عاد أبو يعلى فأثبت ان لغة الزواوة عربية حميرية . أنظر التعليق رقم 3 .

منهم وبعض الخاصة أن ما سوى العربي اللسان فهو غير عربي وهو اذن مفضول كما قدمنا الى غير ذلك من المغالطات التي فى غير محلها • وهذه القضية بالمغرب أشبه شيء بمغالطة الخلاف الذي بين العرب والترك فى المشرق أعني من جهة المشاكلة وفساد المقدمات والنتائج اذ آل الأمر فى المغربين (21) أن الآلاف المؤلفة من القبائل غير عربي مفضول سواء هم مسلمون أم غير مسلمين ، وفي المشرق كل من ذكر العرب ازاء الترك يعد مفرقا فحصل من الضرر والفساد فى الهيئة الاجتماعية الاسلامية ما لا يقدر وقد استطردت الى هذا الموضوع في مقالتين احداهما نشرت فى جريدة المقتبس (22) والأخرى فى جريدة البرهان (23) ، فنص المقصود من التي في المقتبس بتاريخ 5 صفر الأخير من هذه السنة (24) هو :

والمعنى اللطيف والحكم المنيف أن المسلمين كلهم عرب وذلك بأنه لا يوجد مسلم الا وهو اما عربي قحطاني أو مستعرب اسماعيلي ، والمسلم مضطر الى الاستعراب والبيان • لأن الصلاة عندنا لا تصح بغير الألفاظ العربية وبالأخص فاتحة الكتاب • ومما وقع لي من ملح الحوار أن بعض طلبة العلم من عرب بلادنا المغرب لما رآني من سكان قبائل الزواوة الذين هم على الخلاف بين المؤرخين النسابة أهم عرب أم بربر (25) فأراد هذا المناظر أن يدعي الأفضلية ويحتكرها لمجرد أنه غير عربي فأجبته بما حاصله : أنه بقطع النظر عن ثبوت نسبي اني من شرفاء الأدارسة فاني أعطي حكم المستعرب اذ أمضيت عمري فى العربية والاستعراب حفظت القرآن وأنا ابن اثنتي عشرة سنة والمناظر الفاضل لا يحفظه ودرست ما تيسر من النحو واللغة والفقه وأتكلم وأكتب وأقرأ ثم اذا أسلم ولا أخاله الا مسلما ان النبي صلى الله عليه وسلم

---

21 ـ (المغربين) يعني به المغرب العربي ، شمال افريقية .

22 ـ أنظر التعليق رقم 1 .

23 ـ أنظر التعليق رقم 2 .

24 ـ أي سنة 1331 هـ .

25 ـ رجح الشيخ أبو يعلى أخيرا أنهم عرب وأن لغتهم حميرية ، كما سبق .

من العرب المستعربة وأنا أسلم له أنه من العرب العاربة القحطانيين فأنا عربي مثله ولا أرى له علي من فضل الا بالتقوى ا هـ •

ثم لخصت أن البربر والتركمان والكرد كلهم عرب الخ ما هنالك من الحجج المقنعة بأن المسلمين كلهم عرب وأن الفضيلة والأفضلية مع الاسلام والا فلا وحتى اذا اعتبرنا ما قبل الاسلام من دعوى الجاهلية نجد أن الفضيلة والرذيلة لا تختصان بقوم دون قوم وقال تعالى : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محضورا »

ولفظ ما في (البرهان) مخاطبا المحب الشيخ عبد القادر المغربي (26) الكاتب الاصلاحي الشهير : أرجوكم أن لا تحسبوا كل من ذكر العرب مع الترك يعد مفرقا بما أن الكلام الذي يدور فى هذه المسألة يحتاج الى التفصيل والجدال بالتي هي أحسن أما الذي يريد التفريق فظاهر وأما الذي ينبه الى الخطأ أو يرشد الى الصواب فلا يليق أن يدعي مفرقا واذا كان كلما ذكر أحد العرب والترك يعد مفرقا فكأنه يقال لا تذكروا العرب وهذا باطل ا هـ • والمقالة طويلة سألني الأستاذ المغربي رأيي فى سورية ومطامع بعض الدول فيها (27) •

والخلاصة أن الطوائف الاسلامية قد أهلكها الشيطان بهذا التنابز والتنابذ والتحاسد والتدابر وهو رجوع الى ما قبل الاسلام من دعوى الجاهلية المقوتة والعياذ بالله •

والمقصود من هذا التأليف وافراده تاريخا خاصا بالزواوة مصالح كثيرة ومنافع للزواوة ومثلكم من لا تخفى عليه فوائد التاريخ ، فان النشء اذا درس تاريخ سلفه القديم المجد يبقى حيا عاملا نشيطا ويتخلق

---

26 – من العلماء المصلحين ، أصله مغربي – لعله من تونس – من أتباع محمد عبده والأفغاني تولى عدة وظائف في بلاد الشام ، وأصبح عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وساهم في مجلته •

27 – لا شك ان فرنسا من بين هذه الدول ، وسيكون من المفيد معرفة رأي أبي يعلى في هذا الموضوع •

بمكارم الأخلاق ويتحلى ننقائس (28) الاعلاق اذ يقتدي بالمحمود من سلفه ويطرح المذموم والعصر كما يقولون عصر العلم والاصلاحات جارية فيما يتعلق بالقوميات والجنسيات والوطنيات وقد جاءت كل أمة تدعو الى ذلك ولا عليها (29) •

وكذلك بدرس التاريخ والجغرافية (تقويم البلدان) يعرف القوم قدره ومقداره (30) في الهيئة الاجتماعية أي يحيط علما بمركزه وقوته المادية والأدبية فلا تضل ولا يضل • وقد قلت لوالدي ، رحمه الله ، وهو حامل كتاب الله فقيه فقط (31) : يا أبي لو درستم التاريخ والجغرافية وأحطتم علما بقدركم ومقداركم وعرفتم نسبتكم الى فرنسا لما أحدثتم ثورة سنة 1871 م التي كانت سببا في ضغط فرنسا عليكم وعلينا بعد فخسرنا (32) كثيرا بسبب ذلك الغرور مهما قيل لكم ان فرانسا أنهكت قواها الحرب الألمانية (33) ولو عدلتم من تلك الثورة المادية الى الثورة المعنوية كما فعل المصريون عند دخول الانكليز عليهم لكان خيرا وأقوم (34) •

وبالجملة ان هذا المقصد (35) جليل الفائدذ كبير العائدة على ما ظهر وان النشء الجديد فيه الاستعداد للرقي وان كان قراء العربية قليلون (36) ولكن مع قراء الفرنسية فيكونون كثيرين والأكثر منهم

---

28 ــ كذا ، وهي (بنفائس) •

29 ــ واضح من هذا تأثر أبي يعلى بالفكرة القومية وعلاقتها بالتاريخ •

30 ــ كذا ، والمفروض أن يقول «قدرهم ومقدارهم» الخ •

31 ــ جاء في كتابه (جماعة المسلمين) ص 34 أن والده كان اماما في قرية صوامع ، وذكره في مناسبة أخرى أنه كان أيضا موثقا ومؤذنا •

32 ــ عبارة «فخسرنا» مكررة في الأصل •

33 ــ يشير الى ما قيل من أن ثوار الجزائر سنة 1871 انما أعلنوا الثورة بعد هزيمة فرنسا على يد بروسيا (ألمانيا) •

34 ــ يبدو أنه يشير الى استعمال المصريين الثورة السياسية ضد الانكليز وليس الثورة المسلحة التي استعملها الجزائريون ضد الفرنسيين ، وهذا الرأي فيه تجاوز لأن الاستعمارين مختلفان كما أن ثورة أحمد عرابي يجب ألا تنسى هنا •

35 ــ يقصد تأليف الكتاب المقترح •

36 ــ كذا ، والصحيح (قليلين) •

موظفون تراجيم واني جازم أن يترجموا هذا التأليف العظيم الشأن ويروج أي رواج في الزواوة خصوصا وفي البرية عموما ذلك بأن الزواوة كما تعلمون موجودون في كل قطر ومصر من القارات الخمس ، وتلك خصلة أيضا في الزواوة كما قدمنا وذلك أنهم عمال كثيرو الاغتراب في طلب النفع والارتزاق وهم اقتصاديون جبلة يتحملون كثيرا المشاق في سبيل ذلك من غير ملل ولا كسل •

يقص علي هنا شيوخهم المعاصرون للمرحوم الأمير عبد القادر ، ولربما سمعتم ذلك قبلي ، انه قد أثقل كاهله تفقات من حوله من أفراد العرب الجزائريين وشدة طمعهم فيه مع كرمه المفرط فيدركه الجزع أحيانا فيأخذ بالثناء على الزواوة لصبرهم ومروءتهم وحيائهم المفرط • كما أثنى أيضا الدراكة ابن خلدون عليهم من هذا القبيل ، الحياء والمروءة ، أجل أن الزواوي يؤثر أن يهلك جوعا ولا يسأل بل يعمل بكل ما في وسعه ، الى غير ذلك من الخصال التي جعلت الأمير عبد القادر يستشهد بهم لمن حوله من العرب ويقول أنظروا الى الزواوة كيف هم عمال محترفون • ومع أن العرب الجزائريون (كذا) الذين بمعية الأمير قليلون جدا بالنسبة الى الزواوة ، وأن شهرة المغاربة هنا بالشجاعة والحياء والعرض المصون والجناب الذي لا يضام كانت بسبب الزواوة ، اذ هم المغاربة هنا عند الاطلاق ، فأهل المغرب الأقصى مقيدون بلفظة الجواني ، والتونسيون كذلك مقيدون بهذه النسبة ، كما يعلم كل واحد ذلك • وان حارة السويقة التي هي قسم كبير من مدينة دمشق كلها زواوة الا قليلا ، وكذلك قرية عالقين ونولة ودشوم بصفد وكفر نسج ، وهم موجودون في أنحاء سورية كلها ، وكذلك في سائر العالم كما قدمنا • وكانوا عضدا قويا للأمير عبد القادر ، وكما كانوا ولا يزالون لأنجاله وهم يعترفون بذلك (37) • ووجدت كثيرا من

37 ــ ذكر أبو يعلى في كتابه (الاسلام الصحيح) ص 12 ؛ أنه كان أثناء وجوده بالشام ، يجالس الأمير عبد الله بن الأمير عبد القادر •

الشيوخ الذين تسلحوا وحوصروا مع الأمير عبد القادر وقناصل الدول في الواقعة المشهورة (38) •

ومن خصائص الزواوة بالزيادة عن غيرهم التناكح والتناسل ، والدليل على ذلك أنهم مع فقرهم وعسرهم المالي تجد الذي لا ولد له عندهم يتوارى من القوم من سوء ما هو فيه وتجده كئيبا حزينا خوفا من أن يموت بدون عقب ولا ولي يرثه ، وتطلق المرأة العاقر عندهم ولو هي ذات مال وجمال ، ولا اعتبار لها في هيأتهم الاجتماعية ، وأن للولود التي أذكرت (39) حليا خاصا تتحلى به ، ممنوع ذلك عن التي لم تذكر وأحرى العاقر ، وهذا دليلنا في هذا الباب على امتيازهم عن غيرهم من سائر الطوائف ، وهو أشبه شيء بالوسام العسكري ، وهو لا محالة تلميح للجندية واشعار بها على طريق الفطرة والجبلة الأولين لقدمها كثيرا ، وقد توارثتها الخلف عن السلف •

وقفت منذ أعوام على خطاب لروزفلت (40) ، رئيس جمهورية أمريكا، الشهير ، يحرض الأمريكيين على التناكح والتناسل ، وانتقد استثقالهم الزواج الى أن قال : « وعندي أن الذي لم يتزوج خوفا من ضيق العيش يعد كالجندي الذي فر من الزحف وهو جبان ا هـ » • فقلت في نفسي لو يفسح حضرة الرئيس للزواوة في أمريكا الخصبة فلا يلبث حينا من الدهر حتى يرى ملايين منهم ، ولكن فرانسا لا تسمح بذلك •

وخلاصة القول آن هذه المسألة وهذا الموضوع ، تاريخ الزواوة ، صالح جدا ومفيد لهذه الطائفة ، ولا يقدر على هذا التاريخ من بني هذه الأمة البالغة ملايين من البشر سوى سيادتكم ولا يوفي هذا الباب حقه غيركم ، ولا محقق ولا واسع الاطلاع غيركم ، كما تحققت ذلك ، وليس معاملة لكم أو تملقا بل هو الحقيقة الواجبة صرحت بها أصالة

38 ـ يشير الى الفتنة الطائفية التي وقعت في الشام سنة 1860 ، والتي تدخل فيها الأمير والمغاربة لاطفاء الفتنة وحماية المسيحيين المهددين •

39 ـ أي أنجبت ذكورا •

40 ـ هو ثيودور روزفلت ، تولى رئاسة الجمهورية الأمريكية من سنة 1901 الى 1909 •

عن نفسي ونيابة عن سائر طلبتنا الذين أعرف جميعهم (41) ، فرجاؤنا فيكم غير معضل ، والكتاب يروج من غير شك ، اذ لم يتقدم له نظير ولا نقب أحد هذا السور ولا طرق بابه غيركم ، وهو موضوع حديث تبلغ به (42) ان شاء الله تعالى ، الرضى والرضوان ، ولشهرتكم وتحقيقكم ينتشر الكتاب ويترجم الى اللغة الافرنسية وغيرها من اللغات، فيعم النفع وتحصل الهداية لبني هذه الأمة ، ويكون الفخر والأجر لكم ، وللحديث لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من حمر النعم ، والرجل هو الذي يخدم جنسه وملته (43) • نناغى (44) في هذا الموضوع — خدمة الجنس والأمة والوطن — رجال أوروبا ، وبالخصوص الانكليز وفرانسيس ، ومن أجل ذلك حصل الفوز لذين الجنسين فملكوا العالم كما ترون ونرى •

وفي الختام اني مرسل اليكم هذه الرسالة مبسوطة بيد الأمل ، مقبوضة بيد الخجل ، وأنا أستغفر الله من سهو حصل ، وخطأ أو خطل، وان قلمي لدا قلمكم مرتجف ، وقلبي خافق واجف ، لولا حسن الظن بكم ، والثقة التي بلغتني عنكم ، وما أحراني أن أنشد :

ووجمت من المهابة حتى لا كلام مني ولا ايماء

دمشق 7 جمادي الأول عام 1331 . **الزواوي**

---

41 — يكشف أبو يعلى أنه كان يتكلم باسم «جميع» مثقفي (طلبة) زواوة ، وهذا مبالغة منه .

42 — بين كلمة (حديث) وعبارة (تبلغ به) كتب أبو يعلى هذه العبارة « لم يسبق اليه » ، ثم شطبها ، ولكنها بقيت واضحة مقروءة .

43 — مثل هذه العبارات هي التي جعلتنا نحكم بأقليمية الشيخ أبي يعلى في بداية أمره ، ومن حسن الحظ أنه تراجع تماما عن هذا الموقف ، وان كانت العبارة في حد ذاتها جميلة وحكيمة اذ أنه لا خير في الانسان الذي لا يخدم قومه ودينه .

44 — كذا بدت لنا ، (نناغي) ولعله يقصد التعاند والتنافس ، وقد تكون (تباغي) ولكن حرف الباء غير منقوط .

رحلة في سورية منسوبة الى الأمير عبد القادر سنـة 1880

نسب بعض الباحثين الى الأمير عبد القادر رحلة ما تزال مخطوطة (*)• ومن هؤلاء كارل بروكلمان الذي نبه في ذيـل كتـابه تاريخ الأدب العربي (1) على أن هذه الرحلة توجد في مكتبة بريـل Brill بليدن تحت رقم H. 271 (2) وقد أثار هذا الخبر فضولي ، فرحت أتقصى مظان هذه الرحلة التي اعتبرتها عندئذ من أهم مواد كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) بل من أهم مكتشفاتي العلمية •

وبعد طويل بحث في مجمـوعات بريـل التي كـانت تحت نفـوذ المستشرقين الأوروبيين عموما واليهود خصوصا ، لم أظفر بطائل • غير أن مطالعتي لفهرس المخطوطات العربية الموجودة بجامعـة برنستـون الأمريكية (التي تتوفر على مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية لأنها من أقدم الجامعات الأمريكية المهتمة بالدراسات الشرقية) أعطتني رأس الخيط الى الرحلة المذكورة • فقد ذكر مصنف الفهرس أن الرحلة توجد ضمن مجموعة قاريت Guarett تحت رقم762،وأخبركذلك أن جامعة برنستون كانت قد اشترتها من مكتبة بريل منذ سنة 1900 • فكدتأطير فرحامن هذا الخبروطلبتفورا من مصلحة الاعارةبجامعةمنيسوتاالتيكنت عندئذ (سنة 1978) منتدبا فيها أن تجلب الي صورة من هذه الرحلة ، مع استعدادي لدفع التكاليف الضرورية •

وقامت المصلحة فعلا بجلب نسخة من الرحلة الي • وقمت من جهتي بدفع ثمنها ، وبذلك أصبحت النسخة من ممتلكاتي الشخصية •

---

* ــ نشرت في (مجلة التاريخ) ، النصف الأول من سنة 1983 ــ عدد خاص •

1 ــ بروكلمان ، الذيل 887/2 •

ويمكن وصف هذه الرحلة بما يلي : ان كاتبها مجهول ، وأنها مكتوبة، كما جاء في خاتمتها ، بتاريخ 29 ربيع الأول سنة 1300 هـ (1882 م) ، أي سنة واحدة قبل وفاة الأمير عبد القادر ، ولكن كتابتها قد تأخرت بحوالي ثلاث سنوات • ذلك أن الرحلة قد وقعت ، كما جاء في فاتحتها ، في الثاني من ذي الحجة سنة 1298 هـ (1880 م) • وهي تقع في ستين صفحة من الحجم المتوسط ، وخطها رقعي جميل جدا وواضح • وليس للرحلة عنوان خاص ولا فصول أو فواصل انتقالية •

والرحلة مكتوبة بأسلوب أدبي رائق ، يكثر فيه السجع ويتخلله الشعر ، وهو شعر لمؤلف الرحلة تارة ولغيره تارة أخرى • وتكاد الرحلة تخلو من الأخطاء اللغوية والنحوية • وتظهر عاطفة كاتبها مع الاتجاه العربي سياسيا ، رغم أن الرحلة في حد ذاتها عمل أدبي أكثر منه تاريخي أو سياسي أو جغرافي • ولا ندري من هو مؤلفها ، ولعله كان أحد أفراد الجالية الجزائرية التي استوطنت الشام ، كما يلاحظ المرء ذلك من سياق الرحلة •

ومحتوى الرحلة بسيط جدا • فقد اتفق جماعة من أعيان دمشق (عددهم حوالي 12 شخصا) على القيام برحلة صيد ونزهة في داخل سورية وزيارة آثار مدينة بعلبك • وهكذا ساروا من دمشق الى بعلبك على صهوات الخيول عبر دمر والهامة والزبداني وزحلة والبقاع وغيرها من القرى والمروج • وأثناء الطريق استضافهم بعض الأعيان • وقد اصطحبوا معهم كلبي صيد • ورغم أن الكاتب لم يصف الفصل السنوي فان المرء يفهم من ظاهر كلامه أن الوقت كان ربيعا أو فصلا معتدلا ، اذ أنه لم يتحدث عن عواصف ولا أمطار ولا برد شديد أو حر عنيف ، بل كان يتحدث عن المروج الخضراء والمياه العذبة والأشجار المثمرة •

ولعل المرء يتساءل عن علاقة الأمير بهذه الرحلة • والواقع أن اسمه ورد فيها مرتين : مرة حين نزلت الجماعة بدمر وتوجهوا الى منزل الأمير هناك ليطلبوا منه رخصة القيام بالرحلة الى بعلبك • والمرة الثانية حين رجعوا من رحلتهم بالسلامة وتوقفوا أيضا في دمر في طريقهم الى دمشق

فسلموا على الأمير وطمأنوه بسلامة العودة • وهناك صلة أخرى للأمير بهذه الرحلة وهي أن قائد الجماعة فيها هو نجله الأمير عبد الله • وما عدا ذلك فالأمير لا دخل له في الرحلة ولا في كتابتها على الاطلاق •

ومن الواضح أن في طلب الاذن من الأمير عند السفر والتوقف عنده للسلام عليه اثناء الرجوع دليلا على علاقة الأمير الوطيدة بهذه الجماعة التي قلنا انها كانت من المغاربة في أغلب الظن • ولعل فيها بعض الشاميين (الدمشقيين) أيضا • ويبدو من السياق أن الأمير عبد الله نهض الى الرحلة من دمشق ولم يكن يقيم مع والده في دمر • كما يبدو أن كاتب الرحلة كان من أهل دمشق لأنه تشوق اليها أثناء السفر كثيرا واستشهد على ذلك بالبيت المعروف :

بلاد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

وها نحن نسوق من الرحلة نماذج وفقرات ليعرف القارىء مسارها ومدارها ، وبدايتها ونهايتها ، ومحتواها وغرضها ، وأسلوبها وعبارتها ، وسنسوق ذلك بعبارة المؤلف نفسه بين علامات التنصيص • أما ما عدا ذلك فهو جمل من عندنا نربط بها كلام المؤلف •

* * *

تبدأ الرحلة ، بعد البسملة ، هكذا : « نحمد من جلالنا أعظم العبر ، في آثار من سلف وغبر ، وأشهدنا من عجائب الأسفار ، وما تتحلى به عرائس الأسفار ••

« وبعد ، فلما قرب العيد الأكبر ، والموسم السعيد الأشهر ، اقتضى الوقت رفع النصب ، والتصدي لاجتلاء وجوه مخدرات العجب ، فأذن لنا بالسياحة حضرة الشهم الأفخم والطود الأعظم (2) •• سيدنا وسندنا وعياذنا وملاذنا الأمير السيد عبد القادر ابن السيد محيي الدين الحسيني الجزائري •

بحر فضل لو قيس بالبحر كان في جنبه كلمع السراب

2 ــ أطال الكاتب في وصف الأمير بألقاب التعظيم ولكننا اكتفينا بهذا القدر ، ونحن نستبعد أن يكون مؤلف الرحلة هو نجله الأمير عبد الله •

« وكان للدور الاذن الاذن من حضرة العلية (كذا) بالتوجه الى الديار البعلية (كذا) ذات الآثار العجيبة •• وأمر ، حفظه الله ، بتهيئة المطلوب حسب المرغوب • ان قال عنبر جاء الشذا ، أو قال يا ياقوت جاء الذهب • واجتمعنا عدة أخوة يوسف الصديق (5) ، ما بين أخ وحبيب وصديق ، وامتزجنا ببعضنا امتزاج الماء بالراح ، وتألفنا تألف الأشباح بالأرواح •• وذلك صباح يوم الثلاثاء (كـذا) ثاني يوم ذي الحجة الحرام ، سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف (4) من هجـرة سيد الأنام ، وقائد لوائنا نجله (5) الهمام ، وسيله (كذا) الضرغام ، حضرة الأمير السيد عبد الله ، بلغه الله ما يتمناه •

« ثم ودعنا من حضر ، ولوينا الأعنة للسفر ، وامتطينا متون الخيل وهي تجري بنا جري السيل ، وبين يديها كلبا الصيد خزة وغضبان ، يتلاعبان تلاعب الغزلان ، قاصدين تلك الناحية ، بنشاط وهمة سامية ، الى أن تجاوزنا سور البلد (6) ، وقد نزعنا أثواب الهموم والنكد •• » •

وذكر الكاتب أنهم مروا بالمرجة ، وأن الكلب غضبان أخذ يطـارد الأغنام حتى فرقها وأذاها فخرج له الجيش يطارده هو ، لأن الأغنام ملك للدولة • ثم أشرفوا على دمر حيث يقيم الأمير عبد القادر فتوجهوا لزيارته « اذ كان عندئذ في تلك الروضة العاطرة » فأخذ يطارحهـم الحديث ويشنفهم « بلذيذ خطابه ، ويفكهنا بأطائب وطابه ، حتى أحيي الأرواح •• » ولما حان وقت السفر ودعهم بنفسه « ولما صـار وقت الزوال قام بنفسه وأذن في الحال •• قبلنا يده الشريفة ، واستمنحناه دعواته المنيفة ، فخطى لوداعنا خطوات ، وأمدنا بجميل الدعوات •• ثم تسنمنا الخيول • »

ومن دمر وصلوا الهامة ، ثم الجديدة • ومنها ساروا حتى أشرفوا على وادي بردي ، ثم الزبداني ، ثم قرية جنتا ، ثم قرية سرعين وضريح سيدنا شيث « أكمل ولد آدم •• وهو أول من تكلم بالعبرانية ••

---

3 ـ أي 12 شخصا •
4 ـ 1880 •
5 ـ أي نجل الامير عبد القادر •
6 ـ يعني سور دمشق •

وأول من بنى الكعبة •• ولد لمضي مائتين وثلاثين سنة من عمر أبي البشر ، وعاش تسعمائة واثنا (كذا) عشر» ولاحظ الكاتب أن قرية سرعين من أعمال بعلبك •

وأخيرا وصلوا بعلبك نفسها • وشاهدوا قلعتها العجيبة ورسومها • وهناك ورد عليهم السيد محمد الرفاعي « فأفرغ علينا حلة الأنس والجمال ، وأولانا غاية القرب والوصال » وذكر الكاتب أيضا أن القائمقام محمد البيك اليوسف قد آنسهم • « ثم توارد علينا جملة أعيانها وعمدة أركانها وأنزلونا لديهم أبهى مقامة مدة الاقامة • » وأخبر أنهم زاروا هناك رأس العين • وكان دخولهم لمدينة بعلبك مساء يوم الجمعة وخروجهم منها صباح الثلاثاء وقفة العيد الأكبر • فولوا وجوههم نحو الشام (دمشق) •

وأثناء العودة مروا بكثيب يقع بين المعلقة وزحلة ، وهو مشرف على واد بهي • ثم نزلوا زحلة ومروا هناك بحانوت فيه رجل ذو مال ولكنهم استثقلوه رغم أنه استقبلهم بالبشاشة وأراجيز الأدب • وقص عليهم قصة وقعت له في بيروت ، وغيرها • وسلكوا أثناء العودة نفس طريق القدوم • ولما بلغوا المحطة « أقبل علينا بطريق عظيم ، كأنه الليل البهيم ، ••• فحدق الينا النظر ، وتعرض للمحادثة والسمر ، فضربنا عنه صفحا ••• وهو يتعاظم بل خجل •• وما زلنا نعوذ منه برب الفلق حتى تزحزح عنا وانطلق • »

وكانوا قد عرجوا على كرك نوح « ويممنا مقامه الشريف ، مستمدين الكرامة والفتوح •• كان أول أولى العزم ، ومن أفضل من بعث بالقوة والحزم ، وكان يشتغل بصنعة التجارة •• عاش ألف سنة وأربعمائة وثمانين بعد الألف •• واختلف في مقامه الأنور ، قيل بالكوفة وقيل بالجبل الأحمر ، والأصح أنه بذيل جبل البناء (لبنان؟) في بلدة الكرك•»

وعبروا البقاع ، وحلوا بمرج قرب الدماس ، واستمعوا الى لغز من أحدهم • وأخيرا أشرفوا على دمر من جديد • وزاروا هناك الأمير عبد القادر • ثم توجهوا الى دمشق « وأحللنا من الاحرام •• وبعد استباحة الطيب والرفث ، حمدنا الله على جزيل الأنعام ، وصلينا على أشرف أنبيائه والختام •• تمت في 29 ربيع أول سنة 1300 • »

ويتضح مما ذكرنا أن المحتوى التاريخي لهذه الرحلة ضئيل • فاذا استثنينا أسماء الأمير وابنه ومحمد الرفاعي ومحمد البيك اليوسف ، وأسماء بعض المدن والقرى التي مر بها الركب ، فان المؤرخ لا يكاد يظفر فيها بشيء بعد ذلك • وليس في الحديث عن المسالك والجبال والمياه وعادات الناس والمشاهدات ما يلقى أي ضوء على تاريخ المنطقة التي عبروها وعلى جغرافيتها •

ذلك أن عناية المؤلف لهذه الرحلة كانت منجهة الى الطبيعة والوصف الأدبي الطائر • وعندما وصلوا الى مدينة بعلبك التي كانت الهدف من سياحتهم لم يتوقف الكاتب ليصفها ويتحدث عما تركته آثارها في نفسه ، وما جال في فكر كل مشارك في الرحلة حولها • كما أن حديثه عن مواقع بعض الأنبياء ، مثل نوح وشيت ، لا يدل على معرفة تاريخية دقيقة • ونفس الشيء يقال عما جاء في الرحلة من تلغيز ومن حديث عارض عن مصر القديمة ، وعن بعض عادات تجار الريف الشامي وأدعياء الأدب ، ومن تعريض بأحد زعماء الدين المسيحي • ان كل هذه الأمور جاءت عرضا في النص وليس لها أهمية خاصة عند الكاتب • وقد أشرنا الى أن عاطفة الكاتب عربية اسلامية ، ويظهر ذلك من تعريضه فقط بالرجل الذي التقوا به في الطريق وهو لا يحسن الأدب العربي •

ونظرا لعدم أهمية الرحلة التاريخية والجغرافية فاننا نكتفي هنا بما أوردناه منها وما ذكرناه عنها • أما نشر نصها كاملا فلا نعتقد أنه سيخدم هدفا معينا ، خصوصا ونحن لا نعرف شيئا عن مؤلفها حتى نستدل بها عليه أو نضيفها الى أعماله الأخرى •

ومهما كان الأمر فان هذه الرحلة تعبير جديد على قوة العلاقات الجزائرية السورية ، وصلابة الوحدة بين الأقطار العربية •

ابن عكنون — الجزائر

13 يناير ، 1983

مؤلفـات المشرفي المعسـكري

أبو حامد العربي المشرفي من أغزر علماء الجزائر انتاجا في القرن الماضي (*) • وقد رأينا أن نسلط الأضواء على ما عثرنا عليه أو علمنا به من انتاجه الغزير الذي ما يزال جميعا غير مطبوع حسب علمنا •

ورغم كثرة انتاجه فان حياته ما تزال مجهولة • ونكتفي هنا بما ألممنا به منها ، فهو العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني الغريسي • جده هو عبد القادر المشرفي شيخ أبي راس الناصر المعسكري ، وصاحب الكتيب المسمى (بهجة الناظر) (1) •

ولا نعرف متى ولد العربي المشرفي ، ولكنه ولد على أية حال في غريس خارج مدينة معسكر ، وشب هناك • ويكفي أن يكون الشيخ أبو راس هو أستاذ العربي المشرفي ، مع جملة من شيـوخ معسكر الآخرين نوه بهم المشرفي نفسه في عدد من كتبه •

وقد عرفت معسكر ونواحيها هزات عنيفة في عهد طفـولة وشباب المشرفي فبالاضافة الى آثار الباي ـ محمد الكبير ، وانتقال الحكم من معسكر الى وهران ، هناك ثورة الطريقة الـدرقاوية على السلطة العثمانية ، وهي الثورة التي خلفت آثارا سيئة على المجتمع والاقتصاد ، وتبعها اضطهاد شديد • وشهدت المنطقة أيضا حملة شيـخ الطريقـة

(*) ـ نشرت في مجلة (الثقافة) عدد خاص بالأمير عبد القادر ، عدد 75 ، ماي ـ جوان 1983 •

1 ـ تحقيق محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، بدون تاريخ (حوالي 1971) •
ـ أنظر عن عبد القادر المشرفي كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ، جزءان ، الجزائر ، 1981 •

التجانية من عين ماضي على السلطة العثمانية في معسكر ، وأخذت العلاقات بين هذه السلطة وبين الطريقة القادرية تتوتر وتسوء وكان من علامات هذا التوتر اعتقال باي وهران للشيخ محيي الدين المختاري وابنه عبد القادر (الأمير) عند توجههما الى الحج • وعرفت المنطقة أخيرا احتلال القوات الفرنسية وبداية الصراع بين الدخلاء والمواطنين بقيادة الشيخ محيي الدين المختاري ، شيخ زاوية القيطنة القادرية ثم بقيادة ابنه الحاج عبد القادر (الأمير) •

وفي هذه الأثناء هاجر العربي المشرفي الى المغرب الأقصى مع المهاجرين الجزائريين الذين اختاروا المنفى على الاقامة تحت حكم الأعداء• ولا نعلم كم عمره عند الهجرة ولا دوره قبلها • وكل ما تخبر به الأخبار هو أن المشرفي قد هاجر بعد نزول القوات الفرنسية في المنطقة • ولكن سرد الحوادث التي يوردها المشرفي في بعض كتبه ، وخصوصا (طرس الأخبار) توحي بأنه شارك في الأحداث ضد الفرنسيين قبل هجرته • وقد كان لأسرة المشرفي عموما دور بارز في المقاومة الوطنية منذ نزول الفرنسيين • ويبدو أن المشرفي لم يتقلد وظائف هامة في المغرب ، رغم أنه تقرب كثيرا من الأسرة العلوية والسلطان الحسن الأول على الخصوص الذي خصه بديوان مدح • وكل ما نعرف عنه أنه تولى تعليم الأطفال (مؤدب صبيان) • وكان المشرفي قد بلغ من الحظوة ان كان من مرافقي السلطان في عدد من جولاته داخل البلاد عندما كان السلطان يطلب من العلماء السير في موكبه • فكان المشرفي اذن من فئة العلماء المقربين • ولعل ما يزكيه بالاضافة الى الولاء السياسي والتأليف ، أنه كان من الأشراف ، ومن مبادىء الأسرة العلوية احاطة الأشراف بعطفها •

ورغم هذه الحظوة التي حظى بها المشرفي فانه كان كثير الشكوى من حاله والتبرم بمآله وكان يحن الى وطنه الأصلي • وتدل الوثائق انه زار الجزائر مرتين بعد هجرته منها •

الأولى سنة 1848/49 والثانية سنة 1877 • والظاهر أن زيارته الأولى كانت اثر نهاية مقاومة الأمير عبد القادر • أما المرة الثانية فكانت

أثناء حجه الى بيت الله الحرام • وقد سجل في رحلته انطباعاته عن الجزائر « الفرنسية » فكانت غير قاسية على الفرنسيين ، حسبما جاء في نقل المستعرب الفرنسي ، هنري بيريز ، الذي استنتج ذلك من كتاب المشرفي (ذخيرة الأواخر) (2) •

غير اني وجدته قاسيا عليهم فيما اطلعت عليه له في هذا الموضوع ، من ذلك أنه كلما ذكر « الفرنصيص » ــ كما يسميهم ــ يقول « دمره الله » أو « أذله الله » ، وهذا مكرر في كتابه (طرس الأخبار) • ومن جهة أخرى وجدته يعتب على الفرنسيين معاملة الجزائريين « كأنهم أتراك » ، وجاء بشطر بيت واضح المعنى وهو : « وما من ظالم الا سيبلى بظالم » • ولا شك أن هذا تعريض بالفرنسيين لا يحتاج الى دليل • وقد بقي المشرفي على معاداته للأجانب حتى في المغرب • فقد وقف ضد الحماية على المغرب ، وألف عملا ذم فيه استعمال جواز السفر كما شرعته الدول الأجنبية ، وهو الذي سماه (الرسالة في أهل البصبور الحثالة) • ويبدو أن عمله في محاربة الربا يدخل في هذا المعنى ، وهو الذي سماه (ورقات في رواج السكة بالزيادة) •

ولا ندري ماذا سيكون موقف المشرفي في المغرب لو عاش حتى أدرك الحماية الفرنسية سنة 1912 • ذلك أنه توفي قبل ذلك بسنوات • وقد وجدنا تاريخين مختلفين لوفاته لا ندري أيهما أصح ، الأول : سنة 1311 هـ (1893 م) ، والثاني : سنة 1313 هـ (1895 م) • ومهما يكن التاريخ فان مكان وفاته هو مدينة فاس •

* * *

ألف المشرفي في أغراض متعددة • فهو شاعر له عدة دواوين معظمها في المدح • وهو كاتب سير كما يظهر من تراجم الناس الذين تناولهم • وهو مهاتر طويل اللسان لا يكاد يسلم منه خصومه ، وقد وجدنا له عددا من هذه التآليف ، حتى أنه خص أهل فاس بتأليف ذمهم فيه •

---

2 ـ انظر « الجزائر كما يراها رحالتان مسلمان في 1877 ـ 1878 » في (**المؤتمر الاول** لاتحادية الجمعيات العلمية لشمال افريقية) ، الجزائر 1935 ، ص 259 ـ 270 •

وهو شريف النسب قادري الطريقة ولذلك جرد قلمه لمهاجمة خصوم الأشراف والرد على التيجانيين والدفاع عن أصحاب الطرق الصوفية • ولعل موقفه من الأمير عبد القادر نفسه يدخل في هذا المعنى • فنحن نجده مرة ينتصر له ويدافع عنه في كتابه (عجيب الذاهب) ، ونجده في كتابه (طرس الأخبار) يتعرض له وينعت أتباعه بالفجور • أما في كنانيشه فتكثر النقول المفيدة والاستطرادات الهامة ، والأشعار المليحة ، والتعابير النفسية التي تكشف عن أسرار حياته ، وبالاضافة الى هذه الأغراض ألف المشرفي في أدب الرحلة وفي التصوف ، وفي النحو ، والتاريخ ، والحديث ، والطب ، وبعض قضايا العصر • ولكن غالبية تأليفه تقع في باب الردود والتراجم

* * *

فاذا أردنا الاشارة الى مظان حياته أو ترجمته فاننا نحصرها فيما يلي :

1 ـ كتبه الخاصة ، ولا سيما كنانيشه ، وكتابه (ذخيرة الأواخر) ورحلاته •

2 ـ النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية لعبد الرحمن بن زيدان •

3 ـ الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ، لعباس بن ابراهيم (الجزء السادس ، مخطوط ؟) •

4 ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، لعبد السلام بن سودة • (يذكر بعض تآليفه وأخباره) •

5 ـ مظاهر يقظة المغرب الحديث ، لمحمد المنوني (جـ 1) •

* * *

وجدير بالمشرفي أن ينشر ويقرأ الناس آراءه في معاصريه وفي أحداث وطنه وأحداث العالم الاسلامي والمغرب الأقصى التي عاشها وشارك فيها باندفاع وحماس • ولا نريد لتراثه أن يضيع وسط تردد الباحثين الذين اعتبروا المشرفي لا وطن له • فالجزائريون يجهلونه وقد يعتبرونه مغربيا بالهجرة ، والمغاربة يجهلونه أيضا وقد يعتبرونه جزائريا

بالأصالة • ويا ضيعة علماء العرب والمسلمين في عصر الوطنيات الضيقة والحدود السياسية الشائكة !

وفي ما يلي مؤلفاته مرتبة ترتيبا أبجديا :

1 ـ الآيات والحوادث :

ذكره المشرفي في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) وعده من بين كتبه ، صغيرة الحجم • ولا نعرف محتواه ، كما أننا لا نعرف من تحدث عنه غير المؤلف •

2 ـ أثمد الجفون فيمن بعهد الله يوفون :

ذكره المشرفي نفسه في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) • وعده من بين أهم كتبه • ولم نجد أحدا قد تعرض له بالوصف أو بالاشارة الى مكانه • ولم نطلع عليه نحن في أي مكان حتى نعرف موضوعه •

3 ـ اقوال المطاعين في الطعن والطواعين :

كتاب في الطب اطلعت عليه وأخذت منه فوائد لكتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) وهو مكتوب بخط مغربي جيد وملون • ويوجد بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 2054 ولم نجد هذا الكتاب مذكورا في مؤلفات المشرفي في (ذخيرة الأواخر) •

4 ـ تاريخ الدولة العلوية :

يقع هذا الكتاب في مجلد • ويوجد في المكتبة الفاسية بخط المؤلف ، ويعتبر من نوادر هذه المكتبة ، حسب تعبير صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ، ص 166 • ويبدو أن هدف هذا الكتاب هو الاشادة بملوك الدولة العلوية المغربية والتقرب من المعاصرين منهم للمؤلف •

ولم يذكره المشرفي من بين مؤلفاته في (ذخيرة الأواخر) •

5 ـ تقاييد على شرح المكودي :

ذكره المشرفي نفسه في (ذخيرة الأواخر) وقال انه كامل • وواضح أن موضوع هذا العمل هو علم النحو ، فهو كالحاشية على شرح المكودي على الألفية •

6 ـ تقاييد على شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم :

ذكره المشرفي نفسه في آخر كتاب (ذخيرة الأواخر) وقال انه لم يكمل بعد • ولا نعرف ما اذا كان قد أكمله • ولم يتعرض أحد غير المؤلف لهذا الكتاب • وموضوعه واضح أنه في السيرة النبوية ، وقد يكون شرحا لعمل سابق لغيره •

7 ـ تقييد في ذم أهل فاس :

ذكره له صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ص 498 ، وعلق على هـذا التأليف بأن « تلك عادته رحمه الله » ، وقال ان التأليف يقع في نحو الكراسة • وهو غير مذكور في (ذخيرة الأواخر) •

8 ـ الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخـرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس :

يبدو أنه في الرد على محمد اكنسوس صاحب كتـاب (الجيش العرمرم) • وقد ذكر المشرفي في نهاية كتابه (ذخيرة الأواخـر) أن كتابه (الحسام المشرفي) يقع في مجلد ضخم • والكتاب عموما في الرد على التيجانيين والانتصار للقادريين والاشراف • وقد نقل عنه عباس ابن ابراهيم صاحب كتاب (الاعلام) ج 5 ، ص 139 • كما نقل منه عباس الجراري في كتابه (الزجل في المغرب) أخبار المنداسي والتريكي وغيرهما • وبلغ الجراري في نقله منه الى صفحة 438 ، مما يدل على أن (الحسام المشرفي) كتاب ضخم •

وقد قسمه المشرفي الى هذه العناوين : في القدح في اكنسوس ، في الأشاعرة ، في أدريس الأكبر ، في أولياء المغرب وزواياهم ، في عبد الهادي السجلماسي وعبد الواحد بن سودة الفاسي ، في انتخاب الوزراء ، في عدة الملوك والدول ، مع مقدمة في فضل علم التاريخ (من صفحة 26 الى 42) • وقد قال المؤلف نفسه انه ذكر في هذه المقدمة « ما يسكن كل هاجع ويرد كل هامع » •

وفي الحسام المشرفي أخبار هامة عن العلاقات بين الجزائريين والعثمانيين (الأتراك) في بداية القرن الثالث عشر الهجري (19 ميلادي) أيام فتنة الدرقاوة أو ثورة الطريقة الدرقاوية ، وذلك من صفحة 119 إلى 208 من الكتاب •

وهناك نسختان على الأقل من الحسام المشرفي الأولى رقم ك 2276 بالخزانة العامة بالرباط • والثانية نسخة مصورة رقم 1207 في نفس المكان • أنظر أيضا (دليل مؤرخ المغرب) لابن سودة ، ط 1 (1950) ، ص 502 •

وقد انتهى المشرفي من الكتاب سنة 1285 بفاس ، على أن النسخة التي أطلعت عليها وهي رقم ك 2276 المذكورة سابقا مكتوبة بخطوط مختلفة • وكان المشرفي قد ذكر في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) أن نسخة من كتابه هذا (أي الحسام المشرفي) توجد بخزانة الملك ، مع مجموعة أخرى من مؤلفاته •

9 ـ الحسام المشرفي للمهاجر المقتفي :

ذكره المشرفي نفسه في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) • وعده من بين كتبه الهامة الموجودة في المكتبة الملكية •

ولا شك أنه غير (الحسام المشرفي لقطع لسان الجعرفي) لأن المؤلف ذكرهما معا في آخر كتابه المذكور • ولا نعرف من المقصود بهذا العمل الذي يظهر أيضا أنه يدخل في باب المهاترات والردود •

ولا نعرف أيضا أن أحدا ذكره أو دل على مكانه غير المؤلف •

10 — الدر المكنون في الرد على العلامة جنون :

قال عنه صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ص 503 ، بأن المشرفي قد « انتصر فيه لأصحاب الطرق ورد فيه على المخالف ردا شنيعا خرج فيه على الحد الشرعي » ، وأخبر أنه يقع في مجلد وسط ، ولكنه لم يذكر شيئا عن مكانه •

ولم يذكره المشرفي في (ذخيرة الأواخر) •

11 — 1 : ديوان المشرفي :

مجموعة من الشعر الذي يتناول أغراضا مختلفة في أحوال الجزائر وفى مدح ملوك المغرب وبعض قواده ونحو ذلك • وقد ضم أيضا أرجوزة طويلة ذكر فيها ما وقع للجزائريين بعد الاحتلال الفرنسي • ونقل عنه هذه الأرجوزة محمد بن الأعرج الجزائري الأصل فى كتابه (زبدة التاريخ) الجزء الثالث ، ص 217 — 221 •

وفي الديوان تقاييد أيضا وتواريخ هامة • ففيه تاريخ وقوع زلزال سنة 1267 ، وتاريخ ميلاد ابنته عائشة فى نفس السنة وتاريخ وفاتها بعد عام ، وتاريخ وفاة السلطان محمود الثاني العثماني (سنة 1255) •

وقد قال هو عن ديوانه انه عبارة عن جمع لقصائد تقادم عهدها ولكن تسجيلها يجددها ويخلد ذكر صاحبها ، ومن أوائل قصائده فيه واحدة فى مدح الأمير محمد بن السلطان عبد الرحمن بن هشام وأخرى فى ابنه الآخر سليمان ، وهكذا •

وهذا الديوان بخط الناظم نفسه ، وهو كبير الحجم • وفى آخره نصوص يعتقد أنها ليست له • وقد اطلعت على نسخة الخزانة العامة بالرباط التي تحمل رقم ك 204 • وهو غير مذكور فى مؤلفاته المذكورة فى (ذخيرة الأواخر) •

11 ــ 2 : ديوان آخر فى مدح السلطان الحسن الأول رقمه بالمكتبة الملكية بالرباط ، رقم 5310 .

11 ــ 3 : نسخة أخرى منه في نفس المكان ، رقم 2420 . ولعل هذا الديوان هو (مشموم عرار النجد والغيطان) الآتي ذكره .

12 ــ ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول :

بمكتبة الخزانة العامة بالرباط . يحتوي على 58 صفحة (ورقة ؟) مكتوب بخط جميل على ورق كراس عادي . اطلعت عليه فى المكتبة المذكورة برقم 2659 . ويوجد عليـه تملك مكتوب بخط أفـرنجي (لاتيني) منقوش على المطاط باسم السيد قاسمي بن عزوز ، أستاذ اللغة العربية بالهامل فى بوسعادة بالجزائر ، هاتف 005 .

بداية هذا المخطوط هكذا : « أخذت فيه يوم القيامة سبعمائة صلاة مقبولة ... » وآخره « وكان الفراغ منه فى خامس ربيع الأنوار . عام 1299 .. انتهى بمحد الله وحسن عونه » .

ولا يوجد منه سوى الجزء الثاني ، أما الجزء الأول منه فمفقود ونعتقد أن هذا الكتاب (الجزء الثاني) قد أخذه عبد الحي الكتاني من الهامل الى المغرب فى احدى زياراته للجزائر .

فى هذا الجزء حديث عن الجزائر والمغرب ، ويبدأ الحديث عن الجزائر من أوله الى صفحة 25 ، ويتخلل الحديث عن المغرب ذلك ثم يختص به ابتداء من صفحة 26 . وفى صفحة 54 عنوان « خاتمة » تتضمـن الحديث عن أهمية علم التاريخ ثم التعريف بالعلماء . أما بقية النص فكلام متصل لا تفصله فقرات ولا عناوين .

وفى الجزء الخاص بالجزائر حديث عن علمائها وأخبارها وأخلاق أهلها زمن الاحتلال كما يوجد فيه وصف لمدنها الأوربية والوطنية وأحوالها . ويغلب على الظن أن (ذخيرة الأواخر) هو رحلته التي بدأها بالجزائر مارا بمصر والحجاز واسطانبول ، الخ . وبالاضافة الى مدائن الجزائر يذكر المشرفي مدائن مصر وغيرها . وهو معجب بوالي مصر محمد علي الذي

قال انه اجتمع به سنة 1265 • وقد ذكر فى خاتمة الكتاب رأيه فى علم التاريـخ •

وقد تحدث فى الجزء الأول المفقود عن الجزائر فى العهد العثماني • ذكر فى نهاية الجزء الموجود (الثاني) أنه لم يكن له سابق يعتمد عليه فى دولة الجزائر التركية (ص 55) •

ويبدو أن خطه ليس هو خط مؤلفه •

13 ـ 1 : نسخة ثانية من ذخيرة الأواخر والاول :

فى المكتبة الوطنية بالجزائر ، وهي مصورة على الميكروفيلم ، ولا أذكر ان كانت مصورة عن نسخة الرباط أو غيرها • وقد اطلعت على نسخة الجزائر أيضا • وفيه تراجم علماء الجزائر أمثال أحمد بن عمار ، وابن علي ، وأبي راس ، وشيوخ المشرفي ، ولاحظت عليه أنه كتاب هـام جـدا •

وفى آخر هذا التأليف يذكر المشرفي نبذة من حياته فى المغرب وحنينه الى وطنه الأول ، ويشكو حالته السيئة بالمغرب ، وفراغ جيبه وضيق حاله • كما يذكر أنه فرغ منه سنة 1299 هـ • وهذه النسخة هي الجزء الثاني فقط • وقد عده المشرفي نفسه من تآليفه صغيرة الحجم •

13 ـ 2 : نسخة ثالثة منه :

نقل منها المستعرب الفرنسي هنري بيريز وسماها (ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول) • وقال ان المشرفي انتهى منه سنة 1882 • وكان بيريز قد نقل منه رأي المشرفي فى الحكـم الفرنسـي بالجزائـر •

وذكر بيريز أيضا ان المشرفي كان قد خرج من الجزائر عند نـزول الفرنسيين بها ثم عاد اليها سنة 1848 ـ 49 ، ثم سنة 1877 • وأخبر انه ذكر فيه تراجم لعلماء الجزائر عندئذ •

ولا ندري ان كانت النسخة التي اطلع عليها بيريز هي الأولى والثانية ، وهل هي احدى النسخ سابقة الذكر أو هي نسخة أخرى لا نعرفها •

14 ـ رحلة الى شمال المغرب :

رافق فيها السلطان الحسن الأول • وقد ألف هذه الرحلة سنة 1306 • ولم يكن المشرفي وحده في هذه المرافقة بل كان معه مجموعة من الطلبة والعلماء •

وتوجد فى الرحلة أشعار للمشرفي ولغيره • وهي بخطه • أما مكانها فهو المكتبة الملكية بالرباط ، تحت رقم 2420 • وقد اطلعت عليها بتاريخ 10 أغسطس سنة 1973 ولاحظت عليها بأنها فى مجلد وسط وخط واضح وليس لها عنوان • وليس فى (ذخيرة الأواخر) ذكر لها •

15 ـ الرحلة الجزائرية :

جاء فى كتاب (دليل مؤرخ المغرب) لعبد السلام بن سودة ، ط 1 1950 ، ص 395،ان للمشرفي رحلة الى بلاد الجزائر تقع في مجلد وأخبر أنها توجد بالجزائر دون تحديد مكانها • فهل تكون هي ذخيرة الاواخر والاول ؟ ومن جهة أخرى آخبر الشيخ عبد الحي الكتاني فى كتاب (دليل الحج والسياحة) لأحمد بن محمد الهواري أن رحلة المشرفي الجزائرية توجد بالجزائر دون تحديد المكان أيضا • أنظر مجلة (العرب) السعودية ، ماي 1972 ، ص 749 •

16 ـ الرحلة العريضة في اداء الفريضة :

ذكر ابن سودة فى (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 ، ص 395 ، انها تقع في مجلد وقال ان طرفا منها يوجد في خزانته•أما الشيخ عبد الحي الكتاني فقد أخبر أن أسمها هو (الرحلة العريضة لأداء حج الفريضة) كما أخبر أنها في مجلد وقال ان من رآها أخبره أنها دون رحلة المشرفي الجزائرية والسوسية • ولم يذكر الكتاني ما اذا كانت دونهما فى الأهمية أو فى الحجم • وكان الكتاني قد كتب هذا في كتاب (دليل الحج والسياحة) لأحمد بن محمد الهواري ، أنظر مجلة (العرب) السعودية ، ماي 1972 ، ص 749 •

17 ــ رحلة القبائل الجبلية :

رحلة منظومة أولها :

الحمـــد لله منيـــل البـــركـــة وجـاعل الـرزق في معنى الحركة

وهي فى حوالي مائة بيت توجد فى مكتبة محمد الفاسي الفهري ، كما أخبر بذلك صاحب كتاب (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 (1950) ص 446 • أما المشرفي فلم يذكر هذه الرحلة ضمن مؤلفاته المذكورة في (ذخيرة الأواخر) •

18 ــ الرسالة في أهل البصبور الحثالة :

عارض فيها الاحتماء بالكفار وقضية الامتيازات الاجنبية قائلا عـن الحماية بأنها هي « دخول المسلمين تحت كلمة الكفرة » •

والرسالة صغيرة تقع فى ثماني صفحات فقط • ألفها فى حدود سنة 1290 ــ 1873 وقد أخبر محمد المنوني أن نسخة منها توجد فى مكتبته •

أنظر مجلة تطوان عدد 6 (سنة 1961) وكذلك كتاب مظاهر يقظة المغرب الحديث لمحمد المنوني ، ص 256 •

لم يذكر المشرفي هذا العمل من بين مؤلفاته فى كتابه (ذخيرة الأواخر) •

19 ــ شرح القصيدة الشمقمقية :

نظم أحمد بن محمد الونان التواتي • تحتوي على حوالي مائتي بيت • وهي التي مدح بها الشاعر السلطان محمد بن عبد الله (القرآن 12 هـ) •

وقد جمع فيها أنواع الغزل والنسيب والمديح والمواعظ والحكم وأيام العرب وحروبهم الخ •

أما شرح المشرفي فعنوانه (فتح المنان فى شرح قصيدة ابن الونان) أو (المواهب السنية فى شرح الشمقمقية) ، وقد اطلعت عليه واستفدت منه ولاحظت أن خطه جميل وسجلت رقمه وهو 1041 بالخزانة الزيدانية بالمغرب •

وهذا التأليف يقع فى مجلد ضخم • وقد استهله بقوله « الحمد لله المحمود بكل لغة وبيان ، الموجود قبل تكوين اللغات وجارحة اللسان » •

وقد ذكره المشرفي نفسه فى مؤلفاته المذكورة فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) ، انظر أيضا (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 (1950) ، ص 479 •

20 ـ 1 : طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار :

تناول المشرفي فى هذا الكتاب أحوال الجزائر فى عهد الأمير عبد القادر ، ويبدو من العنوان أنه ضد الأمير ، ولكنه فى الواقع متعاطف معه ما عدا فى بعض المواقف • ولكن رأى المشرفي فى بعض أصحاب الأمير كان رأيا واضحا وقاسيا • وأنا أملك نسخة مصورة عن نسخة الرباط رقم ك 496 • كما قرأت فى أعمال المرحوم محمد بن أبي شنب أنه قد حقق هذا الكتاب ولكن أحدا لم يخبرني أنه رأى هذا الكتاب مطبوعا •

وعلى كل حال توجد من هذا الكتاب عدة نسخ • فبالاضافة الى نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية التي لا أذكر رقمها هناك :

20 ـ 2 : نسخة أخرى بالمكتبة الملكية بالرباط تقع في (60) ستين ورقة ، وهي رقم 1476 •

20 ـ 3 : نسخة أخرى ناقصة (مبتورة الوسط) وهي رقم 6533 في نفس المكتبة •

وقد ذكر المشرفي نفسه هذا الكتاب فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) وعده من كتبه الهامة الموجودة فى مكتبة السلطان •

21 ـ عجيب الذاهب والجائي في فضيحة الغالي اللجائي :

وهو كتاب رد فيه على الغالي بن محمد العمراني الحسني اللجائي الذي كان يتنطع على الأمير عبد القادر الجزائري بينما كان المشرفي ينتصر له • ولم يذكر صاحب (دليل مؤرخ المغرب) الذي أورد العبارة السابقة متى ألف المشرفي هذا التأليف ، هل فى زمن كفاح الأمير فى الجزائر والمغرب أو بعد انهزامه واستسلامه ؟

وعلى كل حال فان صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ، ص 489 (ط 2) ذكر ان هذا الكتاب موجود فى مكتبة محمد بن ابراهيم الكتاني الحسني كما أخبره بنفسه عن ذلك • أما المشرفي فلم يذكر هذا التأليف في(ذخيرة الأواخـــر) •

22 ـ الفتح والتيسير في شرح قصيدة (؟) من هم على قدم البشـــير النذير :

والمؤلف مذكور هكذا المشرفي العربي بن (كذا) فقط •

ويوجد فى المكتبة الملكية بالرباط ، رقم 5271 • وهو غير مذكور من بين مؤلفاته التي ذكرها فى آخر (ذخيرة الأواخر) •ولا ندري موضوعه بالضبط •

23 ـ 1 : كناش المشرفي :

كناش هام يحتوي على تقاييد من قراءاته فى التاريخ والآداب • كما يضـــم أشعارا له ولغـــيره • وفيه أيضا تواريخ وأخبار • وفي صفحة 433 منه يوجد نسبه ، وقال فى نهاية الكناش « جمع الله شمله بوطنه » يعني الجزائر ومعسكر • وفى آخر الكناش تاريخ هو سنة 1261 هـ •

وقد ذكر فيه ، ص 435 ، الى ص 438 ، قصيدة مصطفى الرماصي فى رثاء شيخه عمرو التراري بن أحمد أبي اجلال المشرفي دفين زاوية الكرط • وبدايتهـــا :

خليلي عوجـــا بي على طـــلل عفـــا معـــالمـــه قـــد غـــيرت ومعاهده
وأسفت عليه السافيـــات بعيدنـــا رقـــاق الحصـــا فانحط منها اجالده

وتبلغ القصيدة 150 بيتا • وقد حذا فيها الرماصي حذو أبي حيان فى رثاء شيخه أيضا حيث قال :

هو العـــلم لا كالعـــلم شيء تراوده لقـــد فـــاز باغيـــه وانجح قاصده

وفى الكناش أيضا قصيدة للسنوسي بن عبد القادر بن دحو (ص 451 ـ 452) •

ومكان هذا الكناش الخزانة العامة بالرباط رقم ك 471 • ولم يذكره صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ولا ذكره صاحبه فى (ذخيرة الأواخر) •

23 ـ 2 : كناش آخر له : في نفس المكان رقم ك 204 ، لم أطلع عليه ، ولا نعرف ان احدا قد ذكره .

24 ـ المشرفي الحمزاوي لقطع فؤاد الخبزاوي :

ذكر صاحب (دليل مؤرخ المغرب) ص 533 ان هذا التأليف عبارة عن رسالة بدأها المشرفي بقوله : « الحمد لله مؤيد المؤمنين من غريس » ؛ وقد رد فيه على أحد معاصريه الذي لا نعرف اسمه والذي قد يكون أحد المغاربة . وعلى كل حال فقد « عاب عليه بعض مقطعات شعرية صدرت منه ، أطال فيه » .

وأخبر نفس المصدر ان هذا التأليف يقع فى نحو كراسة ، وأن الأصل منه يوجد بخط المؤلف بالخزانة الأحمدية ضمن مجموع ، وهي مكتبة صاحب (دليل مؤرخ المغرب) نفسه . وليس فى (ذخيرة الأواخر) ذكر لهذا التأليف .

25 ـ مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق . . المولى السلطان :

ذكر هذا الكتاب المشرفي نفسه فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) ، ولم يفصل ما اذا كان نثرا أو شعرا . ويظهر من العنوان أنه ديوان شعر ، خصوصا اننا عرفنا أن للمشرفي ديوانا فى مدح السلطان الحسن الأول . وقد رأيت هذا الكتاب فى المكتبة الزيدانية التابعة للمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 2848 ، ولكني لم أسجل محتواه .

26 ـ نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده السيد الحسن .

وهي المعروفة أيضا بالرحلة السوسية . رأيت منها نسختين احداهما فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 5616 والثانية فى الخزانة العامة بالرباط أيضا رقم 579 .

كما توجد منها فى المكتبة الأخيرة مصورة على الميكروفيلم تحت رقم 7 وعدد صفحاتها 512 . وذكر عبد السلام بن سودة فى (دليل مؤرخ

المغرب) ط 1 ، 1950 ، ص 266 أن نسخة منها توجد أيضا بخزانة زاوية تمكدشت عند حفدة المؤلفة فيه •

وهذه الرحلة تحكي توجه المشرفي من مراكش الى زاوية تمكدشت من بلاد السوس • فذكر ما رأى أثناء مروره فى الطريق نثرا ونظما • وترجم فيها لشيخ الزاوية أحمد بن محمد بن ابراهيم التمكدشتي وابنه الحسن ، كما ذكر أخبار تلاميذهما • وقد وقعت هذه الرحلة سنة 1290 (1873)• ويذكر ابن سودة أن الغالب أن تكون نسخة الزاوية المذكورة بخط المؤلف نفسه •

وذكر المشرفي في أوله أنه ألفه بأمر القائد عبد الله بن أحمد السوسي قائد مدينة فاس الذي توفي سنة 1304 (1886) • وقد استهله بقوله : « حمدا لله تعالى فى الحركة والسكون الخ • » وهذه الرحلة فى مجلد ضخم كما وصفها بنفسه فى آخر كتابه (ذخيرة الأواخر والأول) • وقد رتبها على مقدمة وسبعة فصول •

27 ـ ورقات في رواج السكة بالزيادة :

لم يذكر معها اسم المشرفي ، ولكن اسم المؤلف ذكر فيها هكذا : العربي المشرفي • والغالب انه أبو حامد المشرفي هذا • توجد فى مكتبة تطوان رقم 1 / 343 •

لم يذكر هذا العمل المؤلف نفسه فى كتابه (ذخيرة الأواخر) •

28 ـ ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مجاجة :

تحدث فيه المشرفي عن نسب الأدارسة بالمغرب ، وترجم فيه للشيخ محمد بن علي المجاجي (نسبة الى مجاجة الواقعة فى ولاية الشلف بالجزائر) • وكان الشيخ المجاجي من علماء وصلحاء الجزائر فى أوائل القرن الحادي عشر الهجري • ويقع الكتاب فى مجلد وسط • وعندي نسخة منه مصورة لا أدري من أين صورتها • والنسخة الأصلية منه

توجد بخط المؤلف فى الخزانة العامة بالرباط . تحت رقم 1534 • أنظر (دليل مؤرخ المغرب) ، ط 1 (1950) ، ص 146 •

وقد افتتحه المشرفي بقوله « الحمد لله باسمه يدون المدونات ••• » ورتبه على مقدمة وأربعة أقسام وخاتمة • وقد انتهى من تأليفه سنة 1300 هـ • وهو فى 88 ورقة •

ولهذا الكتاب عنوان آخر وهو (اليواقيت الثمينة الوهاجة فى التعريف بسيدي محمد بن علي مجاجة) • أنظر أيضا عنه فهرس المخطوطات العربية بالرباط ، القسم الثاني ، رقم 2164 •

والواقع ان محتوى الكتاب لا يقتصر على المجاجي والأدارسة بل فيه أخبار هامة عن الغرب الجزائري وعلمائه •

ومنه نسخة أيضا فى المكتبة الوطنية بالجزائر ، مصورة على الميكروفيلم• لا أذكر رقمها • ولعل نسختي الخاصة منها •

ولم يذكره المشرفي من بين مؤلفاته التي ذكرها في آخر كتابه (ذخيرة الأواخر) •

الجزائر ، 4 أبريل ، 1983

خطبة ابن الموهوب عند توليته الفتوى بقسنطينة سنة 1908

الشيخ المولود بن الموهوب من أعيان مدينة قسنطينة فى فترة النهضة الوطنية • عاش فى الثلث الأخير من القرن الماضي والثلث الأول من هذا القرن مدرسا وفقيها ومفتيا وخطيبا وشاعرا وناثرا • فقد ولد حوالي سنة 1866 ، وتعلم بالطريقة التقليدية • وكان محمد الشاذلي القسنطيني من شيوخه بالمدرسة الكتانية الرسمية (فرنسية ـ اسلامية) • ثــم أصبح هو من شيوخ هذه المدرسة ، وكان من شيوخه وزملائه فيها عبد القادر المجاوي ومحمد بن أبي شنب ومحمود بن محمد الشاذلي القسنطيني • ومن معاصريه البارزين حمدان بن الونيسي وصــالح بن مهنا • ولابن الموهوب تلاميذ أبرزهم عبد الحميد بن باديس الذي حضر بعض دروسه فى الجامع الكبير ولعله تأثر بأفكاره الاصلاحية •

كانت قسنطينة أيام ابن الموهوب تعج بالنشاط والتوقعات • ففي سنة 1891 تحرك أعيانها تحركا جمــاعيا فكتبوا عريضة تاريخية الى السلطات الفرنسية طالبوا فيها بأمور اقتصادية واجتماعية وثقافية ، منها احتــرام اللغة العربية والقضاء الاسلامي والعــادات والتقاليد الوطنية والتعليم الاسلامي • ومن بين الذين وقعوا على هذه العريضة عبد الكريم بن باش تارزي ، مفتي المذهب الحنفي ، والطيب بن أوادفيل ، مفتي المذهب المالكي ، والشريف بن باديس ، قاضي مدينة قسنطينة ، ومحمود بن الشاذلي ، مدير المدرسة الكتانية ، وعبد القادر المجاوي ، المدرس بنفس المدرسة ، وحمدان بن الونيسي ، المدرس ، وأربعة من عائلة بن الفكون (شيخ الاسلام) ، الخ •

وكان المجاوي قد نشر سنة 1877 كتيبا سماه (ارشاد المتعلمين) ، دعا فيه الى الأخذ بالعلوم العصرية واللغات الأجنبية ومن ثمة النهضة الوطنية . وكان لهذا الكتيب ، على صغره ، ضجة فى قسنطينة حيث استقبلته الفئة الوطنية بالترحيب بينما كالت الأوساط الآستعمارية لصاحبه الشتائم والاتهامات ، وعرفت قسنطينة أيضا وتأثرت ، بحكم الجوار ، بأحداث الحركة الوطنية التونسية من انشاء المدرستين الصادقية والخلدونية ، وظهور حزب تونس الفتاة وتيار اصلاح جامع الزيتونة وزيارة الشيخ محمد عبده ونحو ذلك . وكان ابن الموهوب معاصرا ومتأثرا بهذه الأحداث .

وقد وجه الوالي العام شارل جونار (1903 — 1913) عناية خاصة لاحياء سنة التدريس بالمساجد ونشر التعليم الاسلامي التقليدي . وبذلك شملت حركته عددا من الشخصيات العلمية التي كانت من قبل فى الظل ، ومن هؤلاء ابن الموهوب الذي أضاف الى وظيفة مدرس بالمدرسة الكتانية وظيفة مفتي الديار القسنطينية سنة 1908 . ويدخل فى نطاق مهمته كمفتي ، الأشراف على المساجد فى ولاية قسنطينة ، ورئاسة الجمعية الخيرية الاسلامية . ومن مشمولاتها أيضا السهر على الأوقاف والتدريس بالجامع الكبير والقاء خطبة الجمعة والعيدين به . وبذلك كانت لوظيفة الفتوى حقوق كثيرة وواجبات أكثر . وكان متوليها يسير على حد السيف بين مصالح الأهالي وارضاء ضميره الديني والوطني وبين المصالح الاستعمارية التي تتطلع الى أن يحقق لها المفتي الأمن والاستقرار والسيطرة على أيمة المساجد ومعلمي التعليم العربي الاسلامي.

وهذه المسؤولية المزدوجة هي التي كانت فى وقت لاحق السبب في اتخاذ ابن الموهوب مواقف تبدو غير منسجمة أحيانا مع ما عرف عنه من اصلاح وليبرالية . ذلك أن ابن الموهوب قد آمن بالاصلاح الاسلامي ، كما جاء من المشرق على لسان الشيخ عبده ، واستغل تعاطف الوالي العام مع الدراسات الاسلامية فدعا — كما ترى من خطبته — الى اليقظة الوطنية والتقدم المادي والاصلاح الاسلامي والتعليم ونفي التعصب عن الاسلام . ولف كل ذلك فى اطار مايسميه

المعونة الفرنسية • ولكن نداءه الى الاصلاح واليقظة أصبح بالتدرج نداء محافظا بالنسبة الى المرحلة الجديدة التي دخلتها الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى • وازداد بالطبع ضغط الفرنسيين على ابن الموهوب وأمثاله من الموظفين الرسميين ليقفوا ضد تيار الوطنية المتطرفة في نظرهم وتيار الاصلاح الجديد أو الحـر الذي تزعمه عبد الحميد بن باديس ثم جمعية العلماء • وهكذا ، فلم تحن سنة 1920 حتى أصبح ابن الموهوب محافظا ، بل في تناقض مع موجـة الاصلاح الجـديد التي رآها تستولي على المساجد والتعليم وتنادي بفصل الدين الاسلامي عن الدولة الفرنسية وتبعد الجماهير عن الموظفين الرسميين •

بالاضافة الى الفتوى عمل ابن الموهوب مدرسا في المدرسة الكتانية ، كما سبقت الاشارة ، ورئيسا للجمعية الخيرية بقسنطينة ومحاضرا في نادي صالح باي ، ومدرسا بالجامع الكبير ونحو ذلك من الوظـائف الدينية • وكانت محاضراته تترجم وتنشر في الجرائد اليومية المحلية ، وكانت محل تقدير فئة النخبة الجزائرية المعاصرة • فنحن نجد في كتاب الشريف بن حبيلس (الجزائر كما يراها أهلي (1)) اشادة كبيرة بآرائه ونقلا من خطبه وأناشيده • كما ساهم ابن الموهوب في الحركة الادبية اذ كتب الشعر والنثر في جريدة (كوكب افريقية) وجريدة (المغرب) • وقام بشرح عمل من تأليف المجاوي • كما قام أحد علماء وادي سوف ، وهو ابراهيم بن عامر (العوامر) بتشطير نظم لابن الموهوب في ذم البدع (2) •

واذا كان هناك ظلال في حياة الشيخ ابن الموهوب فالظاهر أن مصدرها عاملان :

1 ـ كونه موظفا رسميا فكان مقيد الفكر مقصوص الجناح ، بينما كان مصلحو ما بعد الحرب العالمية الأولى طلقاء •

---

1 ـ الجزائر ، ط2 ، 1914 ، والملاحظ ان عائلة ابن الموهوب وابن حبيلس من جهة واحدة هي جيجل •

2 ـ سماه (مطالع السعود بتشطير أدبية الشيخ المولود) ونشر ذلك في عدد 56 من جريدة (الفاروق) سنة 1914 . أنظر كتاب (الصروف) تأليف ابراهيم بن عامر ، تونس 1977 ، ص 22 •

2 ــ كونه من خارج مدينة قسنطينة أصلا ، بينما كانت عائلات قسنطينة القديمة ، ولاسيما عائلة ابن باديس ، تعتبر نفسها أحق بمنصب الفتوى من أحد العلماء الوافدين • والمعروف أن وظيفة الفتوى كانت فى عائلة ابن الفكون مثلا طيلة العهد العثماني • وقد ضرب الفرنسيون على هذا الوتر عند اسنادهم الوظائف الدينية كالقضاء والافتاء ، فكانوا يوزعون رجال السلك الديني على مناطق بعيدة عن أصولهم الترابية والاجتماعية •

* * *

عثرنا على نص خطبة الشيخ المولود بن الموهوب ضمن أوراقه التي آلت الى احدى الجهات بمدينة قسنطينة (3) • وهي مكتوبة بخط يده على أربع صفحات من النوع النصفي • وخطه فيها يبدو عليه السرعة ، ولكنه خط واضح وبحبر أسود • وعلى ظهر احدى الورقات عبارة بقلم الرصاص هي : « خطابي حين أجلست مفتيا » • والخطبة كلها نص واحد متواصل الا الفقرة الأخيرة فهي مفصولة • وقد استخدم فيها تكرار بعض الجمل والكلمات ، والسجع أحيانا ، وعناصرها لا تخرج عن شكر الحاضرين لحفلة جلوسه على كرسي الفتوى ، وشكر الدولة الفرنسية التي قام رجالها ، وعلى رأسهم الوالي العام جونار ، بتعيينه مفتيا ، ثم دعوة المسلمين الى اليقظة والاقبال على التعلم وتقليد جيرانهم الأروبيين ، ونبذ التعصب والجهل والتباغض ، وأخيرا الدفاع عن صفاء الاسلام وسماحته وتقدمه •

ونحن اذ نقدم هذه الخطبة للنشر فان هدفنا هو فى الواقع خدمة التراث الوطني المتمثل فى احياء آثار الرجال الذين ساهموا فى النهضة الوطنية ، وخدمة الأدب بالخصوص لأن الخطابة فن من فنونه • وقليلة هي النماذج التي يهتدي بها دراسو الأدب الحديث من هذا الفن ، ولاسيما وان هذه الخطبة من نوادر الخطب المسجلة بخط صاحبها •

---

3 ــ من بين ما عثرنا عليه أيضا عقد زواج ابنه محمد السعيد سنة 1926 ، وشكوى من ثلاث صفحات قدمتها جماعة الجامع الكبير بالميلية ضد الطريقة التجانية ، ودعوة لحضور الاحتفال بتكريم الشيخ مبارك الميلي بعد صدور الجزء الثاني من تاريخه الخ .

ونود أن نشير فى النهاية الى أن تقطيع الخطبة الى فقرات هو من عملنا نحن • أما الشيخ ابن الموهوب فكان يكتفي بوضع هذا الخط (ـــ) بين انتقال وآخر • أما الخط المائل (/) فقد أشرنا به الى بداية السطر في الأصل •

مدينة الجزائر 1984/2/24

* * *

نص الخطبة

سادتي :

ان تفضلكم بالتنازل للاحتفال وبما أنعمت به الدولة علي من منصب / الافتناء يزيدني شرفا ، ويصغر لي كل شكر مني لذواتكم السعيدة / ، فأنا مع نهاية الاحترام والتبجيل أقدم لكم خالص تشكراتي الصادقة / من صميم فؤادي أيها المحسنون الحاضرون •

ثم اذا كان هذا اليوم / بجمعكم من أسعد أيامي، كما هو الواقع ، فأنا زيادة على ذالك (كذا) أعتبره مبدأ حياة أخرى ليست لي فقط، حياة نشاط باشتراك / واجتهاد ، حياة اتفاق على تعليم وتعلم مع السير في طريق السداد / حياة تحصد شرورا زرعهـــا ذوو الأغراض فأنبتت الجنايات / ، حياة تؤلف بين القلوب وتغرس مودة صادقة في الشعوب ، حياة يسير بها المسلمون مع كـــل مجاوريهم تحت راية المعارف / المرفوعة بيد فرانصا أم الجميع •

ســادتي / اذا كان المسلمون ضعفاء فالدولة الفرانصوية ليســت ضعيفة/مالا ومعارف ورجال (كذا)،واذا كان وصف التعصب المذموم/ الصق بهم فانما هو الجهل منهم وممن وصفهم به والا فالاسلام / لا يأمر الا بصالح الأقوال والأفعال ، الجهل بالاسلام / هو الذي أبعدنا عن الاسلام ، الجهل بالاسلام هو الذي أفتى / بالتأخــر والرضى بالضرر العام ، الجهل بالاسلام هو الذي / القى في قلوب الناس أن كل ما خالف العادة المذمومة شرعا / فهو حرام ، الجهل بالاسلام هو الذي زرع التحاسد والتباغظ (كذا) والتنافر والكبر بين أبناء الاسلام ، ، عصوا أباهم (كذا) / فخاب مسعاهم .

فهل يليق بي اذا قلت بعد هذا صبرا / ؟ كلا ، بل اقول قربا قربا ، اعانة اعانة ، العلوم / العلوم ، التربية التربية ، الصنائع الصنائع ، الوفاق الوفاق / ، فسيروا للتقدم تحت عدل فرانصا التي برهنت كثيرا على محبتها / واحترامها للاسلام ، واتركوا من يغركم ويغريكم بنسبة ما ليس / من الاسلام للاســـلام ،

فالأحوال تبدلت والعقول تنورت والمعارف كثرت ، والثياب البالية ما نفعت ، وكل نفس / لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، كما يقول قرءان الاسلام / زينوا أفكاركم بالمعارف واتركوا النوم ، يا قوم ، فانه ليس أمس / كاليوم ، ولا تتكلموا على أن الصعود سعود ، فمن ترك التعلم / واتكل على هذا فهو الجلمود ، لأن الزمان زمان سباق / وكل شيء له المعرفة صداق .

سادتي :

اذا كان الجهل طعاما فقد أكلناه ، واذا كان ماء فقد شربناه / ، واذا كان ثوبا فقد لبسناه ، عشقناه وعظمناه ، فحرمنا مما/نتمناه ، واأسفاه ، علماؤنا في نصح العامة مقصرون / والعوام يقلدون ويفعلون ، وهم في الحقيقة معذورون ، لأنهم / لا يعلمون .

يا اخوتي :

لا تقتلوا / أنفسكم بالقنوط والكسل ، فان الحياة الطيبة علم وعمل / ولينظر كل واحد منكم لغيره نظر الأخ المحب لأخيه ، فمن لم يحيره / ما حل من الاضرار بالمسلمين ، فهو بعيد من الانسانية / والدين ، أقول هذا ولا أخاف لومة لائم ، وما أنا الا \ جزء منكم ، يسرني ارى نفسي معدودة من المدافعين / لكل شر عنكم ، فضعوا اليد في اليد متعاهدين متحالفين / على محاربة الجهل والبدع اللذين كانا سببا في التأخر الحال بالمسلمين/ أيها العلما (كذا) ، أيها المدرسون ، أيها الايمة ، أيها الخطبا (كذا)، ازرعوا / نافع نصحكم في عقول عامتكم ، والا فانكم تموتون بموتهم كما يموتون / بموتكم ، فان الدولة بأموالها ومدارسها المتنوعة في اعانتكم / ، ومنها الجمعية الخيرية الاسلامية التي ستكون الجامعة / لشملكم ، الرافعة لمجدكم ، المحيية لخيركم ، القاتلة لشركم .

فشكرا لرجال الدولة / وشكرا لجناب المحترم الشيخ ڤورليو ، رئيس المجلس ، الذي / شرفنا بحضوره نيابة عن عامل العمالة النايب (كذا) عن والي / عموم الجزائر ، ذالك (كذا) الشهم الذي لا زال بحسن تصرفه يؤلف / بين القلوب ، باعانة رجاله الصادقين /

فليعش الخير ومحبوه

وليمت الشر وناشروه /

موقف أمريكا والجامعة العربية
من حوادث 8 ماي 1945

أ ـ تقـــديم :

لم تبق حوادث 8 ماي 1945 أمرا داخليا بين الجزائر وفرنسا ، بل انها أدت الى تدخل أطراف أخرى مثل جامعة الدول العربية والولايات المتحدة الأمريكية • ونقدم فى هذه المقالة بعض الوثائق التي تكشف عن المراسلات التي دارت بين الأطراف المذكورة حول حوادث 8 ماي • ونحن نرجو أن يكون فى اقدامنا على نشر هذه الوثائق اضاءة جديدة للجوانب التي ماتزال مجهولة من تلك الحوادث خصوصا وان فى بعض هذه المراسلات تنبؤات باحتمال وقوع أحداث خطيرة نتيجة القمع الذي رافق تلك الحوادث •

فقد نشرت حكومة الولايات المتحدة أوراقها الدبلوماسية لسنة 1945 عن « الشرق الأدنى وافريقية » ومن ضمن هذه الأوراق خلاصة البرقيات التي دارت بين ممثلي أمريكا فى مصر والأمين العام لجامعة الدول العربية السيد عبد الرحمن عزام من جهة ، وبين ممثلها ومسؤولي الخارجية الفرنسية من جهة أخرى ، بالاضافة الى ردود الخارجية الأمريكية على هذه الاتصالات (1) • ونشير هنا بالخصوص :

1 ــ الى وثيقة بتاريخ القاهرة 21 يونيو 1945 من الوزير الأمريكي المفوض بالقاهرة تاك Tuck الى الخارجية الأمريكية •

1) Foreign Relations of the United States, Diplomatic papers,, 1945, Vol. VIII, The Near East and Africa, Washington, D.C. 1969, pp. 30-33.

* ــ نشر في مجلة التربية (وزارة التعليم الأساسي ــ الجزائر) ، عدد يوليو ــ أغسطس ، 1982 ، عدد 4 ، سنة أولى •

2 ـ ووثيقة بتاريخ واشنطن 5 أكتوبر 1945 من كاتب الدولة للخارجية بالنيابة الى الوزير (تاك) بمصر •

وهناك عدد آخر من الوثائق تشير اليه المراسلات الحاضرة بل وتلخصه ولكن نصوصه ماتزال غير منشورة ، وهي موجـودة فى محفوظات الخارجية الأمريكية ، ومن السهل على الباحثين الراغبين فى الحصول على هذه الوثائق مادامت أرقامها معروفة وكذلك مظانها • وتعني بالخصوص ما يلي :

1 ـ رسالة عبد الرحمن عزام الى الوزير المفوض الأمريكي بالقاهرة عن أحداث 8 مايو بالجزائر •

2 ـ برقية البعثة الأمريكية من القاهرة رقم 330 •

3 ـ نص برقية وزارة الخارجية الأمريكية رقم 3551 (يوليو 1945) الى سفارتها بباريس •

4 ـ نص رد السفارة الأمريكية بفرنسا رقم 4684 (3 أوت 1945)

5 ـ نص برقية القائم بالأعمـال الأمريكي فى مصر الى الخارجية الأمريكية رقم 596 (13 نوفمبر 1945) •

واذا توفرت لدى الباحث كل هذه الوثائق ، بالاضافة الى ما ترجمناه هنا فانه سيتمكن من استخراج موقف واضح من حوادث 8 مايو 1945 من كلا الطرفين جامعة الدول العربية والولايـات المتحدة الأمريكية ، كما سيتضح له أكثر الموقف الفرنسي وعلاقته بكل من أحداث الشرق الأدنى والنفوذ الأمريكي الجديد فى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية •

لم يكن قد مضى على تأسيس جامعة الدول العربية سوى بضعة أسابيع عندما وقعت حوادث 8 مايو • وقد شعر أمينها العام السيد عبد الرحمن عزام ، بالتزامات الجامعة نحو الشعب الجزائري ازاء ما كان الفرنسيون يرتكبونه من عمليات الابادة والارهاب • ولعل عزام لم يكن يتحرك بموجب مواثيق الجامعة فقط ، فقد كانت هناك جالية جزائرية مغربية وراء تحركه تحثه على التدخل • ولا ندري هل اتصل السيد

عزام بالسلطات الفرنسية بالقاهرة أيضا كما اتصل بالسلطات الأمريكية هناك ، أو أنه التجأ من البداية الى هذه السلطات للضغط على الفرنسيين ليكفوا أيديهم عن الجزائريين • ان وثائق الجامعة والوثائق الفرنسية هي التي تجيب على ذلك ، وهي ليست بين أيدينا الآن •

وعلى كل حال فان تدخل الجامعة العربية لدى الخارجية الأمريكية قد أتى ببعض الثمار • فقد قدم عزام رسالة باسم الجامعة الى الوزير المفوض الأمريكي بالقاهرة حول الوضع بالجزائر • فما كان من الوزير الا أن حول الرسالة مع رأيه الخاص الى الخارجية الأمريكية التي اتصلت بسفيرها فى باريس Caffery وطلبت منه التدخل لدى السيد جورج بيدو الذي كان عندئذ وزيرا للخارجية الفرنسية • وفي تدخلهم أوضح الأمريكيون للفرنسيين بأن الاحصاء الذي أعلنه وزير الداخلية الفرنسي تيكسييه Tixier عن حوادث مايو غير موثوق فيه ، وأن القمع قد تجاوز الحدود وان هناك « أخطر الاحتمالات » من جراء هذا القمع ، فكأن الأمريكيين بهذا الانذار كانوا يقرأون سطور الغيب ويلمحون الى ثورة 1954 التي كانت طبعا « أخطر الاحتمالات » •

ويلاحظ القاريء للوثائق التالية تنوع الموقف الأمريكي • فقد أصروا لدى عزام أنهم لم يتحركوا الا استجابة لطلبه الشخصي وليس لطلب الجامعة كمنظمة دولية ونفوا أن تكون لهم ، كما لمحت رسالة عزام ، مسؤولية فيما حدث بالجزائر على أساس أنهم هم الذين حرروا شمال افريقية عسكريا وأعادوه الى الفرنسيين ، ومن جهة أخرى كانوا حذرين جدا فى اقترابهم من الفرنسيين بهذا الشأن ، فهم من جهة أثبتوا لهم مساهمتهم فى تحرير شمال افريقية عسكريا ، ومساعدتهم له اقتصاديا وهذه أمور تهم الحكومة ، كما تهم الرأي العام الأمريكي • ومن جهة أخرى عبروا لهم عن قلقهم من أن يتطور الوضع فى شمال افريقية فيكون له « عواقب وخيمة للغاية ليس على الفرنسيين فحسب ولكن على العلاقات بين العالم العربي وجميع الدول الغربية » • ومع ذلك تفادوا التعبير عن موقفهم للفرنسيين كتابة كما اقنعوا الأمين العام لجامعة الدول العربية بعدم الدعوة الى عقد جلسة عمومية حول الموضوع •

وقبل أن نختم هذا التقديم نود أن نشير الى أن التعاليق فى أسفل الوثائق هي من وضع الناشرين الأصليين ، واننا حافظنا على أرقام البرقيات كما هي ، ومما يلفت النظر أن البرقية الواحدة كانت توجه نسخ منها الى مختلف العواصم التي يهمها الأمر ، كما هو واضح في النص . وعسى أن يكون فى اقدامنا على ترجمة ونشر هذه الوثائق بعض الفائدة للباحثين فى تاريخ الجزائر الحديث .

ب ـ الوثائق :

برقية : 2145

من الوزير تاك Turck فى مصر الى كاتب الدولة للجارجية . القاهرة 21 يونيو 1945 . (استلمت يوم 26 يونيو على الساعة الثالثة مساء) .

A 331 . بالأمس زارني عبد الرحمن عزام بك ، أمين عام جامعة الدول العربية وقد أخبرني أنه جاءني يطلب نصيحتي فى الخطوات التي يمكن القيام بها للحصول على تدخل حكومتنا لدى الفرنسيين بالنسبة للوضع الخطير السائد الآن فى شمال افريقية . انه قرأ فى الصحف وسمع من مصادر أخرى متعددة أن الزعماء العرب فى شمال افريقية يعانون من اضطهاد شديد ، وان المحاكم العسكرية قد نصبت فى الجزائر وان هذه المحاكم تصدر أحكاما بالموت على عدد من الأشخاص المتهمين باثارة الاضطرابات الأخيرة .

وقد أكد لي عزام بك أنه يرغب اذا أمكن فى تفادي استدعاء جلسة لمجلس جامعة الدول العربية للنظر فى الوضع ، ولكنه ذكرني بأن الملحق الثاني لمؤتمر الدول العربية المنعقد فى مارس 1945 ينص على التعاون مع الدول العربية غير الأعضاء فى مجلس الجامعة .ويبدو أن عزام بك يرى أن درجة كبيرة من المسؤولية المعنوية تقع على كاهل الولايات المتحدة بخصوص هذا الموضوع ، بقدر ما كانت القوات العسكرية للولايات المتحدة هي التي أنقذت ممتلكات شمال افريقية لفرنسا ، وهي التي

أعادت النفوذ الفرنسي على تلك المنظمة • ولذلك فانه يأمل أن حكومتنا تتمكن من التدخل لدى الحكومة الفرنسية وتشير عليها بالاعتدال والمعاملة الانسانية بالنسبة للسياسيين المتهمين باثارة الشعب • وهو يرى أن الولايات المتحدة بفعلها ذاك ، مايزال بامكانها أن تنقذ حياة العديد من عرب شمال افريقية •

ومن جانبي ذكرت عزام بك بأنه كان قد أكد لي سابقا بأن مجلس الجامعة العربية رأى أن القضية التي واجهته فى اجتماعه الأخير هي الوضع فى المشرق • وقد أعطيته رأيي الشخصي من أنه اذا دعي مجلس الجامعة الى الانعقاد للنظر فى الوضع بشمال افريقية فان ذلك سيكون خطوة قد تبرز الاعتقاد بأن الجامعة العربية هي الآن على استعداد للنظر فى جميع القضايا المختلفة بالشرق الأوسط • وهذا بالمناسبة هو ما يبدو أن الحكومة الفرنسية ترغب بالحاح فى عمله •

وقد وقع الاتفاق على أن يرسل الي عزام بك رسالة غير رسمية يوضح فيها رأيه ، وأخبرته انني سأكون سعيدا أن أوجه هذه الرسالة الى وزارة الخارجية لمعلوماتها وان برقية البعثة الأمريكية رقم 330 ، 21 يونيو (1) تتضمن نص رسالة عزام بك الي بخصوص هذا الموضوع فلعل وزارة الخارجية ترغب فى النظر فى امكانية التقدم الى الحكومة الفرنسية على أساس ضمان معاملة أكثر رحمة من طرف السلطات الفرنسية فى قمعها للاضطرابات الأخيرة فى شمال افريقية •

نسخ أرسلت الى : بيروت ، بغداد ، دمشق ، جدة ، القدس ، عدن ، تونس ، الجزائر ، الدار البيضاء ، الرباط ، باريس ، ولندن •

تاك Tuck

* * *

برقية : 851 R 00/8/345.

من كاتب الدولة للخارجية بالنيابة الى الوزير (تاك) بمصر • واشنطن 5 أكتوبر 1945

---

1 – وهي غير مطبوعة .

A 490 • فيما يلي (ولاطلاعك الشخصي والسري للغاية) فحوى برقية وزارة الخارجية رقم 3551 بتاريخ 30 يونيو على السادسة مساء الى باريس ، وهي البرقية المتعلقة بالوضع فى الجزائر المشار اليه في (رسالتك) رقم 330 – A و 331 – A بتاريخ 21 يونيو 1945 بالاضافة الى فحوى رد السفارة (برقية رقم 4684 بتاريخ 3 أغسطس على الساعة السادسة مساء) •

بداية فحوى البرقية :

ان بعثة القاهرة قد أرسلت الينا نص رسالة من الأمين العام للجامعة العربية بخصوص الوضع في الجزائر الناتج عن انتفاضة Uprising الأهالي يوم 8 مايو ، والاجراآت القمعية التي اتخذتها السلطات الفرنسية بعد ذلك • وبناء على هذه الرسالة فان الجامعة العربية لا يمكنها طبقا لميثاقها أن تتغاضى الى ما لا نهاية له عن الوضع الفظيع الذي جعل العرب يعانون من حكم ارهابي هو الحكم العسكري والزج بالناس فى السجون والموت بالمآت والآلاف والقتل بالآلاف •

وعليك أن تخبر بيدو (1) شفويا باستلام هذه الرسالة وأن تقول له بأن الوضع الحاضر فى الجزائر المشار اليه ليس مصدرا لقلق حكومة الولايات المتحدة فقط بل أيضا للرأي العام فى هذه البلاد الذي يشعر بعمق بالتضحيات الامريكية فى الأرواح والعتاد التي قدمت من أجل تحرير شمال افريقية ، ثم المساعدات الاقتصادية التي قدمت الى تلك المنطقة بعد ذلك والهادفة الى المستقبل • وفى هذا الاطار يمكنك أن تشير الى أننا أخذنا علما بالكلمة التي أذاعها تيكسييه (2) بعد التحقيق فى الانتفاضة والتي قال فيها ان عداد المسلمين الذين قتلوا لا يتجاوز ألفا وخمسمائة نسمة •

ان معظم المصادر المعتمدة تقدر بأن عدد القتلى أعلى من ذلك بكثير ، ولكن حتى ولو سلمنا باحصاء تيكسييه ، فانه يدل على تجاوز الحد فى الاجراءات القمعية كما يدل على وجود وضع تكمن فيه أخطر الاحتمالات •

---

1 – جورج بيدو هو وزير الخارجية الفرنسي •

2 – في 29 يونيو ، وادريان تيكسييه هو وزير الداخلية الفرنسي •

وفى تقديمك لهذه الرسالة لنظر بيدو يجب أن تؤكد بأن ما جعلنا نتحرك هو دوافع ذات طابع ودي للغاية ، بالاضافة الى القلق الذي يساورنا ، حتى لا يتطور وضع فى شمال افريقية قد يكون له عواقب وخيمة للغاية ليس على الفرنسيين فحسب ولكن على العلاقات بين العالم العربي وجميع الدول الغربية • ونفس البرقية أرسلت أيضا الى الجزائر •

(انتهى)

وقد كان رد السفير كافري Caffery كما يلي :

ان المعلومات التي تضمنتها برقية وزارة الخارجية رقم 3551 قد نقلتها شخصيا الى نظر بيدو . الذي أخذ علما بهذا والذي حاول أن يقلل من أهمية القضية كلها . وقدم التوضيحات المعتادة ، وعبر عن تفهمه لدوافعنا وهكـــذا •

نفس البرقية أرسلت الى الجزائر •

(انتهى)

برقية أخرى :

عندما تحين الفرصة يمكنك أن تخبر عزام بك، ولمعلوماته السرية الخاصة، أننا لم نبق مكتوفي الأيدي بالنسبة لموضوع رسالته اليك . ونحن نثق أن معالجتنا للموضوع قد تكون مفيدة ولكن يجب أن توضح له بأن اظهارنا للاهتمام بوضع شمال افريقية الذي أشار اليه هو يجب أن لا يفسر على أنه قبول من جانبنا لادعائه بأن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية التطورات فى شمال افريقية بسبب مساعدتنا العسكرية في تحرير المنطقة (1) •

أتشيسون

---

1 – في البرقية رقم 596 تاريخ 13 نوفمبر 1945 أخبر ليون Lyon القائم بالأعمال في مصر بأنه في اليوم السابق «اغتنمت الفرصة ونقلت الى عزام خلاصة رد وزارة الخارجية رقم 490 تاريخ 5 أكتوبر عن العمل الذي قامت به حكومة الولايات المتحدة بالنسبة للقمع الفرنسي ضد الانتفاضة العربية في الجزائر ، وقد عبر عن امتنانه العميق لمساعدتنا واهتمامنا ، وأشار الى أنه ينوي اخبار مجلس الجامعة قائلا : انه سيقترح اجراء تصويت بالشكر .

وبالنظر الى العواقب المحتملة ، فانني ألححت عليه بأن يمارس ضبط النفس ، وأكدت له بأن المعلومات التي نقلتها برقية وزارة الخارجية المشار اليها لم تكن سوى لعلمه هو الشخصي والسري ، وأمام رغبته منحته تأكيدا كتابيا دون أن أنسى تحذير وزارة الخارجية من أن مساعدتنا العسكرية في تحرير شمال افريقية يجب ألا تفهم بأية طريقة على أنها قبول مسؤولية ما قد يحدث من تطورات سياسية في تلك المنطقة » .
(890 00/11/1345)

تاريخ الثورة الجزائرية او كتاب :
(حرب وحشية للسلام : الجزائر 1954 ـ 1962)

صدرت كتب كثيرة ، وبلغات مختلفة ، عن الثورة الجزائرية فى الخمس والعشرين سنة الماضية • وما يزال معظمها غير معروف لدينا وقد رأينا فى هذه المناسبة التاريخية ، وهي مرور ربع قرن على بداية الثورة المظفرة ، أن نقدم واحدا من أهم هذه الكتب ، وهو كتاب (حرب وحشية للسلام: الجزائر 1954 — 1962) (1) الذي نشره الأستاذ اليستير هورن A. Horne الانكليزي فى السنة قبل الماضية • (2)

1 ـ المؤلف :

1) المؤلف : والأستاذ هورن يشتغل باحثا فى معهد سانت انطوني بأكسفورد ، وهو عضو فى المتحف الحربي الامبريالي بلندن • وقد اشتهر بتآليفه العديدة عن أهم الأحداث التاريخية فى العصر الحديث ، ولا سيما تلك التي تتعلق بالتاريخ الفرنسي • ذلك ان من بين تآليفه فى هذا الصدد :

1) سقوط باريس : 1870 — 1871 •

2) ثمن النصر : فيردان 1916 •

3) خسارة معركة : فرنسا 1940 •

---

* ـ نشر في (مجلة التاريخ) ، عدد النصف الأول من سنة 1982 .

1 ـ نشر شركة ماكميلان ، بريطانيا 1977 ، 604 صفحات + الخرائط + الصور .

2 ـ كنا كتبنا هذا التعريف بكتاب الأستاذ الـــ هورن في اكتوبر سنة 1979 ولكنه لم ينشر في حينه لوجود بعض الأسماء والافكار فيه ، رفضت حذفها ، وقد علم[illegible] أحيرا أن الكتاب قد ترجم الى الفرنسية .

بالاضافة الى كتب أخرى له عن كندا وعن الشيلي وغيرهما •

وقد كان كتابه (حرب وحشية للسلام) هو آخر انتاج صدر له • وكان الكتاب موضع تعاليق المعلقين خلال السنة الماضية فى كل من أنكلترا وأمريكا • ومعظم المعلقين أبدوا اعجابهم بالكتاب لتوازن معلوماته • فهو فى نظرهم لم يحاب الفرنسيين ولا الجزائريين ، وانما كان صاحبه يبحث عن الحقيقة • وسنذكر نحن رأينا فى الكتاب فى تعليق قصير فى آخر هذا التقديم • وقد رأينا أن نترك المؤلف نفسه يتحدث عن تجربته ويصف قضايا كتابه ، ولذلك ترجمنا مقدمته الا ما يتعلق منها بشكر الذين أمدوه بالمعلومات أو نحو ذلك • كما ترجمنا ملاحظاته عن المصادر التي ذكرها فى آخر الكتاب •

2 ـ محتوى الكتاب :

قسم الأستاذ هورن كتابه الى ثلاثة أقسام فخص كل قسم بمرحلة تاريخية معينة • غير أننا نلاحظ أن القسم الأول منه عبارة عن تمهيد وصل به مقدمات الثورة بالاحتلال الفرنسي • وهكذا كان القسم الثاني والثالث يمثلان لب الكتاب • والظاهر أن العناوين الفرعية (الفصول) لكل قسم لا تعبر بوضوح عن الأفكار المدروسة فيه • ومع ذلك ذكرناها مختصرة غامضة كما جاءت فى الكتاب ، لأنها فى الواقع تعبر عن طريقة من طرق التأليف عند الكتاب الأنكلو سكسون • أما الذي يريد أن يعرف محتوى الكتاب من عناوينه الفرعية فانه سيجد لا محالة صعوبة فى ذلك • وهذه ترجمة للمحتوى •

القسم الأول : تمهيد 1830 ـ 1954 :

ـ مدنية غير ذات أهمية •

ـ هذه هي فرنسا

ـ فى خضم النهر

القسم الثاني : الحرب 1954 ـ 1958 :

ـ فاتح نوفمبر ، 1954

ـ مبخرة السحـــار

ـ جبهة التحرير من باندونغ الى الصومام

ـ جبهات في مولليه الثانية

ـ « لماذا يجب أن ننتصر »

ـ معركة الجزائر

ـ الفرصة الضائعة لجبهة التحرير

ـ العالم يطلع على جلية الأمر

ـ ربع الساعة الأخير

القسم الثالث : أصعب جميع الانتصارات 1958 ـ 1962 :

ـ نوع من البعث

ـ « لقد فهمتكم »

ـ جبهة التحرير فى ذهول

ـ لا الجبل ولا الليل

ـ « الى الحواجز ! »

ـ « أمير الغموض »

ثورة فى الثورة

ـ ديغول [illegible]ب الريح

ـ انقلاب [illegible]الات

ـ عروض السلام

ـ الحقيبة أو الكفـــن

ـ العودة الجماعيــة

ـ الصفحة تقلب

3 ـ **ترجمة مقدمة الكتاب :**

« لقد كنت فى باريس أثناء يناير 1960 أجري أبحاثا فى الحرب العالمية الأولى ، وكان وقتها يجري فى مدينة الجزائر « أسبوع الحواجز » حيث ثار أصحاب الأقدام السوداء ضد ديغول بتأييد من النخبة العسكرية وقد ظهر لي عندئذ ان الجمهورية الخامسة الوليد قد أخذت تهتز هي الأخرى • وكانت الصحافة الأجنبية قد وجدت نفسها متفاعلة بأحداث ذلك الأسبوع الذي لا ينسى • وبعد أن بقيت أكتب عن النزاع الفرنسي الألماني حوالي عشر سنوات شعرت ، بالغريزة ، انه لابد أن يأتي اليوم الذي أعود فيه الى الكتابة عن أحدث المآسي (الدرامات) فى التاريخ الفرنسي (أي حرب الجزائر) بعد هدوء غبار المعركة • وقد كان ذلك عندما اقترح علي ناشري (شركة ماكميلان) فكرة الكتابة عن حرب الجزائر •

« كما أنني كنت فى فرنسا فى مناسبتين أخريين هددت حوادثهما فى الجزائر وجود الجمهورية الفرنسية نفسها • المناسبة الأولى هي ماي 1958 والثانية هي أبريل 1961 • وكانت المناسبة الأخيرة أخطر من أختها لأنها أدت الى ظهور المدافع المضادة للطائرات فى ساحة الكونكورد للحراسة ضد احتمال غارة جوية منطلقة من الجزائر • وكلا المناسبتين تذكر المرء بالمعزوفة الأساسية فى الأزمات التي عرفها تاريخ فرنسا الحديث ، سواء كان ذلك فى 1789 ، أو 1870 ، أو 1916 أو حتى 1940 •

« ان حرب الجزائر التي استغرقت حوالي ثماني سنوات ــ أي حوالي فترة الحرب العظمى (1914 ــ 1918) مضاعفــة ــ قد أسقطت ست حكومات فرنسية ، كما أسقطت الجمهورية الرابعة نفسها ، وقد كادت تؤدي الى سقوط جمهورية ديغول الخامسة ، وهددت فرنسا نفسها بالحرب الأهليــة ».

« والواقع أن ما يسمى فى فرنسا « بحرب الجزائر » وفى الجزائر « بالثورة » كان آخر الحروب الاستعمارية ، وهو أيضا ، من الوجهة التاريخية ، أهم هذه الحروب وأعظمها . فهناك عدد من الزعماء الفرنسيين ، ولا سيما من أصحاب الأقدام السوداء ، كانوا يعتقدون حقا أنهم يحاربون دفاعا عن « رسالة الرجل الأبيض » وقد مات عدد من العسكريين الفرنسيين ببطولة معتقدين أنهم كانوا يدافعون عن حصن من حصون الحضـارة الغربية . كما أن الشعار البعبعي الذي يقول « الأسطول السوفياتي فى المرسى الكبير » قد احتفظ بقوته الى آخر أيام الوجود الفرنسي .

« وكانت أيضا « حرب سلام » لأنه لم يصحبها أي اعلان للحرب رسميا (الا اذا اعتبرنا اعلان جبهة التحرير فى أول نوفمبر 1954 كذلك) . كما أن معظم الفرنسيين قد عاشوا ، طيلة الثماني سنوات تقريبا ، دون أن يتأثروا بها . ولكنها كانت ، بدون شك ، حربا وحشية مرعبة أدت الى مقتل حوالي مليون جزائري مسلم وطرد ما يقرب من مليون مستوطن فرنسي من بيوتهم . واذا كان أحد الطرفين قد مارس التمثيل بالجسد البشري فان الطرف الآخر قد مارس التعذيب . وعندما تمكنت الحرب أصبح العنف الرهيب وكأنه بدون نهاية . وقد كانت الحوادث خلالها تبدو ، مثل حوادث فيردان 1916 ، وكأنها قد ضاعت نهائيا من سيطرة الانسان عليهــا .

« ورغم أهميتها بالنسبة لتاريخ فرنسا فان الثورة بالنسبة للجزائريين ، بكل وضوح ، أهم . فقد قال الجنرال ديغول ان « الحرب تمنح بعض الأمم الميلاد كما تحضر لبعضها الموت » . والحرب بالنسبة للجزائر قد منحتها الميلاد . ولكن هناك أشياء كثيرة كانت متداخلة تداخلا أكثر من مجرد فكرة

استحقاق أو عدم استحقاق تسعة ملايين من المسلمين الاستقلال • فليس هناك ثورة واحدة بل عدة « ثورات » كانت تأخذ مجراها وفى مستويات مختلفة • فقد كانت هناك ثورة اجتماعيةعميقةتحدث في المجتمع الجزائري المسلم • أما من الجانب الفرنسي فهناك « ثورات » أولاً من جانب الجيش وثانيا من جانب منظمة الجيش السري ــ ضد السلطة السياسية لفرنسا • وأخيرا هناك لعبة شد الحبل من أجل الجزائر كما أعلنت فى الخارج سواء على منصة الأمم المتحدة أو منابر العالم الثالث أو محافل كل من معسكر الغرب ومعسكر الشرق •

« فمن الوجهة الغربية كانت الحرب الجزائرية تحتوي على دروس من فشلين تقليديين : الأول منهم االفشل فى فهم مطامح العالم الثالث • وهذا بالنسبة الينا نحن اليوم ــ أو هكذا يبدو لي ــ لأن جزائر بومدين فى الواقع ما هي الا نتاج تجربتها الثورية • واذا كانت عواقب تأثيرها القوي على العالم الثالث ليست دائما تسر الغرب فانه يجب البحث عن أسباب ذلك فى سنوات 1954 ــ 1962 • أما الفشل الثاني فهو فشل المعتدلين الحزين والمتكرر ، أو فشل ما يسمى « بالقوة الثالثة » التي يقصد بها أن تنافس ضد القوتين المتعارضتين والمتطرفتين • وهذا الفشل نجده على المسرح المعاصر اليوم ، سواء فى شمال ايرلاندا أو جنوب افريقية أو أمريكا اللاتينية • وقد تعلمنا من حوادث 1793 و 1917 انه فى الثورات الحديثة ينتصر أهل الجبل على أهل الجيروند (1) •

« ان معالجة الحرب الجزائرية أو الثورة تثير بعض المشاكل الخاصة التي تحتاج الى توقف • فطــول مدتها بالشهور والسنوات ، ومآسي شخصياتها الكبرى التي تظهر ثم تختفي ثم تعود الى الظهور والاختفاء باستمرار ، ومستوياتها العديدة فى الحركة والتي كانت غير متناسبة مع بعضها ــ كل ذلك يقدم لنا عنها صورة هائلة • ولم يكن هناك نقطة ارتكاز واحدة أو لحظة توتر عارم ، بل انه لا يكاد يوجد سوى فاصل واحد فى العرض كله (انتراكت) ، وهو تولي ديغول الحكم سنة 1958 •

1 ــ يشير المؤلف بتاريخ 1793 الى أحداث الثورة الفرنسية ومقتل الملك والارهاب الخ . وبتاريخ 1917 الى أحداث الثورة الروسية ضد النظام القيصري ونجاح البولشفية ، ويشير بأهل الجبل الى حزب المتطرفين وبأهل الجيروند الى حزب المعتدلين أيام الثورة الفرنسية .

« وبالاضافة الى ذلك هناك مشكل هام ، وهو مشكل المنظور التاريخي • فهذا المنظور لم يبلغ ، من ناحية الزمن ، التاريخ ولا الحوادث المعاصرة • وانني واع للتحذير الذي أبداه لي عدد من المشاركين في هذه القصة ، بما في ذلك الرئيس التونسي بورقيبة ، وهو أن « تراجعا أكثر » قد يكون ضروريا قبل نأ يكتب أي عمل نهائي عن الحرب الجزائرية • ومن جهة أخرى فقد شجعني أحد رؤساء الوزراء الستة الفرنسيين السابقين الذين تفضلوا باستقبالي قائلا لي انه لا أحد من مواطنيه يمكنه بعد أن يكتب دراسة حقيقية موضوعية ، بينما قد يكون ذلك « ممكنا لرجل أنكليزي فقط » • كما أنني تشجعت بالمقدمة الحكيمة والكفأة التي كتبها (تيير) Thiers لكتابه (الثورة الفرنسية) والتي أعلن أنا انضمامي الى ماجاء فيها بكل تواضع • ولقد استعنت كثيرا في تصحيح المعلومات ومقابلتها أثناء بحثي بذواكر المشاركين في الحرب الجزائرية والباقين على قيد الحياة (وكثير منهم لا يمكن اعتبارهم عجائز بعد) • وكان يمكنني الاستفادة أكثر لو تمكنت من الاتصال بأولئك الذين لم يعودوا أحياء — ولا سيما من الجانب الجزائري — أو أولئك الذين لا يمكن الوصول اليهم (مثل أحمد بن بللة) • ولكني حاولت أن أساير (تيير) في قوله انه يشفق على المحاربين « بدون أن يشاطرهم كل مشاعرهم » •

« والى جانب هذه المشاكل المتعلقة بالمنظور التاريخي فان أكبر العراقيل ربما تكمن في عدم تكافؤ مصادر مادة الكتاب • ذلك أن عدد الكتب المتعلقة بالحرب الجزائرية والمنشورة في فرنسا وحدها تغطي أربعة أنواع ، وهي تختلف كثيراً من حيث النوعية • أما الدوريات وغيرها من المصادر المطبوعة فيمكن أن تقاس بالمتر المكعب • وقد لاحظت دورية (لانوفيل أوبسيرفاتور) بأن « الحرب الجزائرية ما زالت ، رغم ذلك ، هي الحكة — الاكزيما — التاريخية الصغيرة لكل انسان فرنسي » • وأثناء استجوابي للمشاركين الفرنسيين — ومنهم الغوليون والمعارضون للغوليين ، وأعضاء منظمة الجيش السري ، والباربوز ، والجنرالات الثائرون والجنود ، وأصحاب اليمين المتطرف وأصحاب الشمال المتطرف — كنت أتوقع أن أجد منهم التمنع حول الحديث عن الحرب ، اذا لم يكن الرفض القاطع • ولكني ، بعكس ذلك ، وجدت منهم ثروة ضخمة من الصراحة والمساعدة ، باستثناء

رفض واحد هام جاءني من سيدة كاتبة • فقد أخبرتني بأن آخر كلمة لها عن الجزائر قد كتبتها فى مذكراتها الخاصة وانه لم يبق عندها شيء ذو بال تضيفــه •

« ولكن القضية من الجانب الجزائري تختلف تماما • ففي بداية عهدي بالبحث فى الموضوع حذرني دبلوماسي جزائري قديم كان قد لعب دورا هامافي الثورة بأنني قد أجد فيبلاده التثبيط نتيجة نقص المصادر المكتوبة من جهة ونتيجة استنكاف الجزائريين ، خاصتهم ورسميوهم ، عن الحديث من جهة أخرى • وقد قال لي هذا الدبلوماسي ذلك رغم أنه كان شخصيا متحمسا لمشروعي • والواقع أنني قد استقبلت فى الجزائر بأدب واهتمام وكرم وانني لم أصادف تثبيطا • أما ما عدا ذلك فقد كان الدبلوماســي الجزائري على حق ، ولأسباب جديرة بتفهم متعاطف • فمن الناحيــة العسكرية المحضة كان أسلوب حرب العصابات يقتضي أن تكون جبهة التحرير فى حركة دائبة • وهذه الظاهرة أدت بدورها الى أن لا يجد الوقت والظرف المناسب للاحتفاظ بيوميات (جرائد) مترابطة الا عدد قليل فقط من الرجال فى الميدان • ومن جهة أخرى يجب أن تتذكر بأن كثيرا منهم كانوا أميين • وخلافا لحرب الأنصار فى يوغسلافيا خلال سنوات 1942 — 1945 التي كان لها انتاج مكتوب غني فانه لا وجود لقيادة مركزيــة • ذلك أن كثيرا من السجلات التي كان عليها أن تجد طريقها الى أرشيفات الدولة الجديدة (وهكذا يدعى الجزائريون الرسميون) اما أعدمت واما « نقلت » أثناء الأيام الأخيرة اليائسة لمنظمة الجيش السري • كمــا أن الظروف التي ولدت فيها الدولة الجديدة قــد جعلت جمــع الوثــائق (الأرشيفات) الموجودة عملا غ يرمتقدم كثيرا •

« ان الجدران العالية التي تحيط بالمنازل فى الجزائر والحدائق الجميلة الواقعة حول هذه المنازل تخفي ، فى سرية نامة ، ومن وراء الواجهات الخارجية للقصبة — تشير الى طبيعة الانسان الجزائري التي لا تسهل هي أيضا مهمة المؤرخ • ان هذه الغريزة الطبيعية فى السرية التي تطورت أثناء خمسة أجيال من السيادة الفرنسية — قد ازدادت قوة لدرجة أن قليلا فقط من الاشارات قد تسربت ، خلال السنوات الثماني من الحرب الخفية ، عن الكثير من الانقسامات الداخلية التي كانت تهدد دائما قيادة

جبهة التحرير بالتمزق • وليس من السهل على الباحث أن يكتشف اليوم حقيقة هذه الانقسامات • وبالاضافة الى السرية هناك أيضا درجة من الخوف • فالفتن قد استمرت حتى بعد الاستقلال • ففي سنة 1967 وقعت محاولة انقلاب ضد بومدين • وهناك شخصان من « التسعة التاريخيين » الذين نظموا الثورة ضد فرنسا قد اغتيلوا بغموض فى المهجر بأروبا • وقد ظل ابن بللة فى السجن ، ومن يعرف أين يكون ؟ وهناك عدد من زعماء الثورة السابقين يعيشون ، مثل تروتسكي ، على أعصابهم فى الخارج مغضوبا عليهم • ورغم أن الجزائر اليوم بعيدة من أن تكون دولة بوليسية على الطريقة السوفياتية فانها تعيش نظاما تسلطيا • كما أن الخطر من السقوط فى عين النظام لا يمكن حصره •

« وان أحد استغراباتي الأولى فى مدينة الجزائر هو أنه لا وجود في القصبة ، حيث جرت حوادث المعركة المشهورة (بمعركة الجزائر) ضد جنود ماسو ، لأي لوحة تذكارية ، ولو صغيرة ، لتشير الى المكان الذي ناضل فيه أبطال الثورة ، أمثال علي لابوانت ، واستشهدوا • كما أنه من الصعب أن تجد السكان القادرين على قيادتك أو اعلامك رغم أنه لم يمض على الحوادث الا أكثر قليلا من عشر سنوات • ونفس الشيء يقال عن الأماكن الأخرى فى الجزائر •

« وتفسير ذلك جزئيا يكمن فى أن الثورة الجزائرية كانت ، منذ البداية ، حركة « جماعية » وقيادة جماعية ، ومعاناة جماعية ، واغفالا جماعيا • وهكذا فان هناك جهودا مقصودة للابتعاد عن أي شيء يشبه العقيدة في البطل المفرد أو الشهيد • وبالاضافة الى ذلك هناك عامل آخر ، وهو أن التقاليد العربية تقتضي تصورا للتاريخ يختلف عن التقاليد الأروبية فيه • • فالتقاليد العربية لا تعطي الا أهمية دنيا لجهود الفرد لأن جبرية التعاليم الدينية الأساسية تقتضي أن الانسان محدود القوى فى تقرير مصيره بنفسه • وهكذا يوجد اتجاه مفاده الاضراب صفحا عن كتابة الماضي وترك حوادثه (سواء وقعت أمس أو وقعت سنة 600 بعد الميلاد) فى نفس ذلك الملجأ الواسع •

« ان جروح الحرب لم تندمل بعد • ولم يستطع العلم المثلث أن يرفرف من جديد على مدينة الجزائر الا فى أفريل عام 1975 عند أول زيارة رسمية لرئيس فرنسي • ومع ذلك فان هناك تعبيرا طالما سمعته فى الجزائر وهو أن « الصفحة قد قلبت » وهذه فى الواقع عاطفة عظيمة من النبل جديرة بكل اعجاب • فكم من شعب يمكنه خلال سنتين أو ثلاث سنوات فقط من نهاية حرب دامت ثماني سنوات وكلفت حياة حوالي عشر السكان — أن يخرج فيلما ، وهو فيلم (معركة الجزائر) يظهر فيه عقيد من جنود (البارا) الفرنسيين المرعبين وكأنه هو بطله الحقيقي؟•

« غير أن هذه الأمور لا يمكن أن تساعد المؤرخ على علمه • ذلك أن أبسط الأشياء وضوحا تصبح غامضة أو صعبة التحقيق • مثلا ، أن تواريخ ميلاد الوجوه البارزة للثورة تختلف من مصدر الى آخر درجة كبيرة • كما أن « اجتماع الاثنين والعشرين » الهام فى تاريخ جبهة التحرير فى صيف 1954 له أكثر من ستة تواريخ مختلفة فى رواية أولئك الذين حضروه أنفسهم •

« ولعل أفضل نصيحة تلقيتها أثناء اعدادي لهذا الكتاب هي التي جاءتني من أحد سفراء الجزائر البارزين فى الخارج • فقد قال لي « كن نزيها الى الحد الأقصى ثم اصدع برأيك اذا كنت رأيت جزءا فقط من الصورة » • وأمام الصعوبات التي ذكرتها سابقا فانني لا أستطيع أن أدعي القول بأنني رأيت شيئا مثل « الصورة الكاملة •• » غير أنه من المشكوك فيه أن يستطيع شخص آخر — سواء كان فرنسيا أو جزائريا أو أجنبيا — ادراك ذلك فى الوقت الراهن • ويمكن القول الآن انه لا أحد يستطيع ذلك فى المستقبل أيضا •

« وأثناء البحث قمت برحلتين الى الجزائر وتونس حيث وجدت الحد الأقصى من التعاون من السلطات • فقد استقبلني الرئيس التونسي بورقيبة بحرارة وانفتاح • ولكن استجوابا مشابها تفضل الناشر ، وهو السيد هارولد ماكميلان ، بتنظيمه مع الرئيس بومدين كان للأسف قد ألغي لمصادفته « حرب رمضان 1973 » • وقد قمت بزيارات عديدة

لفرنسا ، كما أشرت سابقا ، حيث غمرتني المعلومات والمساعدة • وقد أخذني البحث أيضا الى قفزات تثير دوران الرأس عبر سطوح القصبة المتصلة وعبر بلدان أخرى ثالثة لانجاز موعد فى الظلام مع قتلة مجهولين «ذئاب» ما زالوا في حالة فرار • ولكنني اذا ذكرت الخطر الشخصي فانه لا شيء يذكر ازاء الخطر الذي يتعرض له من يركب سيارة (ميني) عبر باريس يقودها جاك سوستيل ، الحاكم العـــام السابق للجزائر ، وهو يمسكها بكلتا يديه ويسرع بها 80 ك م فى الساعة بينما هو يتذكر الماضي ! » •

وبعد هذا ذكر المؤلف طريقته فى ايراد الأسماء العربية المحلية فى نص الكتاب • كما ذكر أن عددا من الذين منحوه معلومات طلبوا منه عدم ايراد أسمائهم أو نسبة ما أخذه منهم اليهم • ومن الأسماء التي أوردها فى آخر المقدمة التي اجتمع بأصحابها ، شكرهم على المعلومات التي أخذها منهم نذكر الأسماء العربية الآتية (أما الفرنسيون وغيرهم فلم نذكرهم هنا): الرئيس بورقيبة ، ومحمد بجاوي ، ومحيى الدين عميمور ، وعبد المالك بن حبيلس ، وابن يوسف بن خدة ، وعبد القادر شندرلي ، ومصطفى الأشرف ، ومحمد لبجاوي ، والاخضر ابراهيمي •

4 ــ عن مصادر الكتاب :

« منذ 1954 نشرت جبال من المطبوعات عن الحرب الجزائرية ، أغلبها فى فرنسا ، بينما لم يظهر فى الجزائر نفسها الا جــزء ضئيــل منهــا • والبيبليوغرافية التي احتواها الكتاب تضم مائتي (200) كتاب • ومع ذلك فان الكتب لا تمثل سوى ما اخترته من العدد الكبير المشار اليه • أما عن الدوريات فانه لا تكاد توجد مجلة ذات قيمة فى أوربا وأمريكا وفى العالم الثالث لم تخصص ، خلال السبع سنوات والنصف للحرب الجزائرية ، أعمدة طويلة للحديث عن هذه الحرب • ولذلك لم أحاول أن أسرد قائمة بهذه الدوريات هنا ، باستثناء ما اذا اقتضى الأمر الاحالة على بعضها فى النص • ونفس الشيء يقال عن موقفي من اهرامات المناشير والنشرات المعاصرة للحرب •

« وكما هو متوقع فان معظم الكتب المذكورة هنا تحمل طابع التبرير الذاتي أو الدعاية وتعاني جميعا من النقص الذي تعاني منه كل الوقائع المعاصرة • فاذا أخذنا فى الاعتبار هذه الناحية فان الكتب المذكورة ما زالت تحتفظ بقيمتها مع ذلك • وما زالت فرنسا لم تسرح الوثائق الرسميـة المتعلقة بالحرب • ومن جهة أخرى فان الكثير قد كشف عنه من خلال الكتابات المختلفة والذكريات الشخصية للمشاركين فى الحرب مما يجعل المرء يشك ما اذا كانت الصورة العامة للحرب ستتغير كثيرا عندما ترفع حواجز السرية المضروبة على الوثائق • ويمكن أن يقال نفس الشيء عن المصادر الجزائرية غير المسرحة ، رغم اختلاف الأسباب فى ابقائها سرية •

« ولا يوجد مجلد واحد فى تاريخ الحرب (الجزائرية) يتوفر على الشروط الموضوعية بنفسه • ومن ثمة جاء هذا الكتاب ليملأ ، على الأقل ، زاوية من هذا الفراغ • وان الكتب المنشورة حتى الآن يظهر عليها التحيز اما في عواطفها واما في تناولها جزءا فقط من الصورةالعامة• ومن المؤلفين الذين أكثرت من الاشارة اليهم فى كتابي أذكر على الخصوص كتاب ايف (كوريير) البالغ أربعة أجزاء والذي احتوى على أكثر من ألف صفحة • وهو كتاب يقدم تفاصيل يومية عن الحرب نفسها • وان مصادر كوريير الأولى ، وخصوصا استجواباته مع بعض زعماء جبهة التحرير أمثال كريم بلقاسم ، لا يمكن تعويضها • ومن جهة أخرى فان كورييركان موضوع انتقاد شديد فى الجزائر المعاصرة لاعتماده البالغ على وجهة نظر فى الأحداث أعطيت له من طرف بلقاسم كريم وغيره ممن أصبحوا فى المعارضة لنظام بومدين • كما أن كوريير قد اتهمه أصحاب الأقدام السوداء بالتصلب الذي لا داعي له بالنسبة لقضيتهم • كما أن كتابه ، من حيث الاختصاص ، يعتبر عملا صحفيا (ولكنه صحافة جيدة) محدودا لعدم وصوله أحيانا الى المنظور التاريخي ، وهو أيضا كتاب يتجنب عمدا ربط مجرى الأحداث فى فرنسا نفسها •

« غير أن كتاب أدوارد (بير) Behr يظل أكثر المؤلفات العامة موضوعية وأكثرها حساسية ودقة • والمؤلف صحفي انكليزي أمريكي طالما عاش على المسرح الجزائري • هذا بالرغم من أن كتابه كان قد نشر

قبل نهاية الحرب ، وهو لذلك غير كامل ... وهناك كتاب آخر ألفه صحفي أجنبي أيضا ، وظل كذلك غير كامل ، ونعني به كتاب ميشيل (كلارك) Clarck الذي وصل بكتابه الي بعد تسلم ديغول السلطة . وقد أيد كلارك ، أكثر من غيره ، قضية أصحاب الأقدام السوداء ، ومع ذلك فان كتابه يحتوي على توثيق كثير ومفيد . ومن أحدث المؤلفات التي انتقدت أيضا « سياسة التخلي » والتي كانت أيضا موثقة كثيرا ، كتاب فيليب (تريبيه) . وهناك كتاب قيم وجدير بالثقة لأنه من مشاهد محايد وقريب من قيادة جبهة التحرير ، وهو الذي ألفه الصحفي السويسري ، شارل هنري (فافرو) Favrod ومن المؤلفين الجيدين عن جبهة التحرير نذكر غوردن Gordon و (كانت) Quandt ورغم أنني أخذت معلومات كثيرة من مؤلفات جزائرية تتعلق بمظاهر معينة فانه مما يؤسف له هو عدم وجود أي مصدر عن فترة الحرب كلها من كاتب جزائري » .

أما عن الدوريات فقد ذكر الأستاذ هورن أنه لم يذكرها الا بصفة خاصة . ومن ذلك مجلة (ايستوريا) التي نشرت ، ابتداء من سنة 1971 ، سلسلة بعنوان (حرب الجزائر) تجاوزت فيها ثلاث آلاف (3000) صفحة . وقال انه وجدها دورية مفيدة لصورها خصوصا رغم أنها تعوزها الدقة فى التأريخ (بالهمزة) وفي بعض النقط التفصيلية. كما قال عنها أنها اعتمدت في مقالاتها المضاة على المشاركين في الحرب وأغلبهم من الفرنسيين . وقال أيضا انه رجع الى (المجاهد) ، لسان حال جبهة التحرير ، وأوضح أن محتواها فى نظره دعاية مكشوفة . وقد كررنا هنا أيضا ما قاله في المقدمة من أن معظم معلوماته قد وصلته اما من مشاركين فى الحرب رغبوا منه (ولاسيما من الجانب الجزائري) أن تظل معلوماتهم مغفلة المصدر ، واما جاءته من مصادر أخرى سرية أو حساسة وصلت اليه بطرق خاصة . الخ (ص 576 ـ 577) .

5 ـ تعليق على الكتاب :

يظهر من مؤلفات الأستاذ هورن أنه من هواة التاريخ الحديث والمعاصر وانه لم يكرس فقط جهده لتاريخ فرنسا نفسها في حروبها من 1870

الى 1940 بل انه تتبع آثار فرنسا أيضا في مستعمراتها القديمة مثل كندا والحديثة مثل الجزائر • فهو من الانكليز القلائل الذين حاولوا التعرف على نفسية الانسان الفرنسي فى العصر الحديث •

وكانت الثورة الجزائرية ، أو حرب الجزائر كما يسميها الفرنسيون ومعظم الأروبيين ، قد لفتت أنظار الصحفيين والكتاب الأجانب الذين لهم صلة بتاريخ فرنسا وآدابها أو الذين كانوا يعيشون فى العاصمة الفرنسية أثناء الثورة ، ومنهم الأستاذ هورن • فقد شهد أنه كان من جملة الأجانب الذين سالت دموعهم تأثرا بسماع خطبة ديغول سنة 1960 رغم مهنتهم المحايدة كصحفيين وباحثين • والواقع أن عددا من المؤلفات غير الفرنسية عن الثورة الجزائرية كان مصدرها وجود مؤلفيها فى فرنسا أثناء الثورة ، ومن ذلك مؤلفات ريتشارد (بريس) Brace وميشيل كلارك وادوارد بير وسولزبرقر Sulzberger ولعل ذلك هو السبب فى أن هؤلاء المؤلفين قد تأثروا تأثرا أولا بوجهة النظر الفرنسية من الحرب رغم أن بعضهم كان متعاطفا مع الجزائريين مثل بريس •

وقد حاول هورن أن يكون متوازنا في مصادره وأحكامه • فأما بالنسبة الى المصادر فقد جمع منها الكثير مكتوبة وشفوية وحتى مصورة ، من فرنسا والفرنسيين ، وذلك لوفرة المطبوع وامكانية الاطلاع على المخطوط والحديث الى المشاركين والمسؤولين عن الحرب في الجزائر • ولكنه عندما زار الجزائر واتصل فيها بالمسؤولين وغير المسؤولين ، لم يصادف ما كان متوقعا من مصادر • فقد وجد جدران القصبة عالية فلم يستطع الاطلاع على ما وراءها من أسرار الثورة وواجهته أيضا طبيعة الجزائريين البالغة فى السرية والتحفظ وعدم استعمال الكلمة المكتوبة • كما أن الموعد الذي ضرب له مع الرئيس هواري بومدين قد ألغي • وهكذا لم يستطع أن يجد فى الجزائر ما وجده فى فرنسا من مصادر لكتابه • والواقع أن شكواه من هذه الزاوية فى محلها لأن المؤلفين الجزائريين أنفسهم يعلنون نفس الشكوى تقريبا • ذلك أن الذين كتبوا عن الثورة حتى الآن هم فى الغالب أجانب عنها • أما الجزائريون فما يزالون ينتظرون اللحظة المواتية والتي طال انتظارها والتي قد لا تأتي أبدا •

وأما أحكامه فقد تعهد منذ البداية أن تكون محايدة فلا تميل الى الفرنسيين ولا تميل مع الجزائريين وهذه خطوة كبيرة وصعبة أيضا على كل من مارس كتابة التاريخ • ولكن هل يكفي الاعلان عن ذلك ؟ ان القاريء لكتاب الأستاذ هورن يجده ، رغم محاولته الجادة في الاحتفاظ بالتوازن والحياد ، قد تأثر ، غريزيا فيما يبدو ، باطلاعه الكثير على تاريخ وأحوال فرنسا وباتقانه لغة الفرنسيين وبمجاورته لهم . وبكثرة الحديث الى رجالهم • ولاشك أن نقص المصادر الجزائرية قد جعله يملأ فراغاته أحيانا بوجهة النظر الفرنسية التي توجد فى مصادر الطرف الآخر •

ومع ذلك فان كتاب (حرب وحشية) قد جاء فى الوقت الذي اشتد فيه اهتمام القراء فى العالم بنتائج الثورة الجزائرية وأبعادها واشعاعاتها • وهو فى نظرنا كتاب يقترب أكثر من غيره من الحياد والشمولية • ثم هو لا يغطي فترة فقط من فترات الثورة بل يتناول الثورة فى عهدها كله ومن جميع الوجوه تقريبا ، وخصوصا الوجه السياسي منها • وبالاضافة الى ذلك فان المسافة الزمنية التي تفصل بين الكاتب وبين سنة 1962 أصبحت مسافة طويلة بالنسبة الى من كتبوا قبله • وهذه ميزة لكتابه لم تتوفر لغيره ممن سبقوه رغم شكواه من مشكلة المنظور التاريخي • ونحن نتمنى أن نتمكن من ترجمة هذا الكتاب الى العربية ذات يوم حتى يفيد منه الدارسون وطلاب الحقيقة عن الثورة الجزائرية •

الجزائر 13 أكتوبر ، 1979 •

كلمة الطلبة الجزائريين بالقاهرة في الذكرى الثالثة للثورة ، 1957

مقدمة : اعتاد المسؤولون الجزائريون فى القاهرة أيام الثورة أن يحيوا ذكرى الثورة عند حلول أول نوفمبر من كل سنة • وكان الطلاب الجزائريون والجالية الجزائرية بالقاهرة تساهم أيضا فى هذه الذكرى كل سنة • كما كانت الوفود العربية والاسلامية تحضر وتخطب وتنشد وتعلن مناصرتها للثورة الجزائرية •

وبمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية ، أقام الجزائريون ، باسم جبهة التحرير الوطني ، حفلة فى مقر جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة • افتتح الحفلة الشيخ عبد اللطيف دراز أحد أعيان علماء الأزهر ، ثم ألقي المرحوم أحمد توفيق المدني كلمة باسم الجبهة ، والشيخ أحمد الشرباصي كلمة عن المرحوم محمد البشير الابراهيمي (1) ، وصالح خرفي قصيدة ، وألقي كاتب هذه الكلمة قصيدته (شعارات) • وكان الطلبة الجزائريون قد حرروا كلمة (2) باسمهم أيضا لتلقى في هذه الحفلة ، وهي الكلمة التي أعدها محمد بن عقيلة وفخار وكاتب هذه السطور • وقد وجدت فى يومياتي أن من بين الذين حضروا هذه الحفلة أيضا : يوسف ابن خدة ، وحامد روابحية ، وغيرهما • وكان ذلك يوم أول نوفمبر 1957 •

---

* – نشر مجلة الثقافة ، عدد 88 ، 1984 .

1 – لا أدري ما اذا كان الشيخ الابراهيمي حاضرا عندئذ أو متغيبا ، فأنا لم أسجل ذلك في يومياتي .

2 – لم أسجل ما اذا كانت كلمة الطلبة في الحفلة الاولى قد وزعت توزيعا على الحاضرين أو ألقاها أحد الزملاء .

وفي اليوم التالي (الثاني من نوفمبر 1957) أقام نادي طلاب المغرب العربي حفلة فى مقر النادي (6 شارع بنك مصر) • وقد حضرت هذه الحفلة وفود الطلبة العرب وألقوا كلمات مناسبة باسم منظماتهم ، ومن المتكلمين فيها الشاذلي زوكار (تونس) باسم طلاب المغرب العربي،ثم كلمات وفود سورية وفلسطين والعراق ومصر • والكلمة الآتية هي التي أعددتها وألقيتها أنا باسم طلاب الجزائر فى هذه المناسبة • وقد وجدت فى يومياتي ان من بين الحاضرين لهذه الحفلة : أحمد توفيق المدني ، ويوسف بن خدة ، واسماعيل بورغيدة ، وأبو الفتوح (عن اذاعة صوت العرب) •

* * *

وهذه هي كلمة الجزائر التي ألقيتها فى هذه المناسبة باسم اخواني الطلبـــة : (*) •

أيها الاخوة ••• عندما نحتفل اليوم بذكرى ثورة الجزائر ، لا نحتفل بها كجزائريين، ولا نحتفل بها كمغاربة وانما نحتفل بها كعرب يؤمنون بعدو واحد وهدف واحد ووطن واحد ••• اننا نحتفل بها كعرب لان الثورة فى الجزائر لم تكن فى يوم من الأيام الا عربية صميمة نابعة من قلوب الملايين العربية المتمردة معبرةعن آمالها في الوحدة والتحرر مجسمةللارادة العربية التي لا تقهر مهما طالت بها السنون وتكاثفت من حولها السحب •

أيها الاخوة ••• ثلاث سنوات قطعتها ثورة العرب فى الجزائر وقد تكون هذه السنوات قليلة فى عمر الزمن ولكنها كمأساة بشرية تزهق فيها الأرواح بغير حساب وتسيل فيها الدماء أنهارا وتطبق فيها حرب الابادة من غير هوادة وتسلط فيها ألوان لا تحصى من التعذيب والتنكيل والانتقام ••• هذه السنوات اذن طويلة وقاسية ومريرة ••• انها طويلة لأنها أشرطة درامية تدور صباح مساء على الذين يعيشون فى معمعانها ••• وهي شاقة قاسية لأن الواحد منا لا يبلغ القمة في لحظة أو لحظات، والثورة في الجزائرتدنو الآن من القمة فلا بد أنها قد دفعت الثمن مضاعفا وأنها استهلكت فى طريقها عرقا وأرواحا وضحايا ••• وهي مريرة لأنها

(*) ـ نص الكلمة التي ألقاها أبو القاسم سعد الله باسم الطلبة الجزائريين في نادي طلاب المغرب العربي (القاهرة) بمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية .

سنوات عجاف كالحة .. .سنوات حرب لا تعرف الرحمة ولا المنطق ولا تقيم للانسان وحضارته أي شأن ...

ولكن ماذا تظنون بالشعب الجزائري قد فعل ؟ هل تعتقدون أنه قام بالتجربة ثم تخلى عنها ؟ هل تعتقدون أن ثورته قد أدركها الملل ودب فيها الانحلال والتخاذل ؟ ان الذين يعتقدون هذا الاعتقاد لا نسبهم أو نعنفهم ولكنا فقط سنجابههم بالحقائق الدامغة .

وأول حقيقة يجب أن تعرف عن ثورة الجزائر هي أنها بدأت بالمسدسات وبنادق الصيد والحديد الأبيض ولكنها الآن نملك أحدث الأسلحة وأفتكها . وثاني حقيقة هي أن جيش التحرير الوطني قد بدأ بحرب العصابات والكمين ولكنه الآن قادر على ملاقاة العدو وجها لوجه ... وثالث حقيقة ان ثورة العرب فى الجزائر قد بدأها رواد قلائل ولكنها لم تلبث أن أصبحت قوة شعبية هائلة تضم الفلاح والعامل والمثقف والمرأة والموظف ...

هذه الحقائق ، أيها الاخوة ، هي التي عمقت مفهوم النصر فى نفوس عرب الجزائر وهي التي تجعل من هذه السنوات الثلاث بالرغم من طولها وقسوتها ومرارتها ـ تجعلها فى نظرهم بضعة أسابيع ما دامت طريقا الى القمـــة ...

على أن هناك سؤالا لم يجد بعد الجواب المقنع وهو لماذا فضلت الجزائر حمل السلاح ولم تلجأ الى المقاومة السلبية التي اتبعتها بعض الشعوب ؟ ولماذا استطاعت الجزائر دون غيرها أن تصمد أمام عدوها طيلة ثلاث سنوات دون أن ينالها اضطراب أو فشل ؟

واذا كان الجواب على هذا السؤال هو خلاصة تاريخ الجزائر فاننا سنكتفي بالاشارة الى أقوى التيارات التي دفعت الجزائر الى الثورة المسلحة وأقوى العوامل التي تجعلها اليوم صاحبة الكلمة على مسرح الحرب الدائرة .

وأبرز التيارات وأعمقها في حياة الجزائر هي ــ العنف والاحتقار والخيبة • ان تجربة الجزائر مع فرنسا لم تكن تجربة انسانية يتحكم فيها الضمير وتصونها الحضارة ولكنها كانت تجربة الذئب مع الحمل تتحكم فيها شهوة القتل والدمار والحقد الأسود ••• وقد انخدع الذئب فظن أنه أمن على حياته وأن كل شيء يخضع لمشيئته ولكن ما راعه الا الحمل ينمو ويكبر ثم يتجرد من وداعته ورقته ليصبح عملاقا ضخما جبارا يصارع الذئاب فيصرعها •••

لقد حكمت فرنسا الجزائر بالحديد والنار •• بالارهاب والدماء •• وحكمتها بالتعالي الكاذب والتمدين المزيف فحقرت من شأن كل ما هو عربي وانتهكت كل مقدسات الشعب فلا جنسية ولا دين ولا لغةولا وطن، فالشعب الجزائري العربي شعب فرنسي ، واللغة العربية لغة البلاد غريبة يعاقب دارسها وناشرها ، والدين مصيدة تصطاد بها أتباعها وتختص هي وحدها بشؤونه ، والجزائر العربية الافريقية جزء من فرنسا الأوروبية •

وبهذا الأسلوب أيها الاخوة أدارت فرنسا دفة الجزائر وحكمتها طيلة قرن وربع ••• واذا كان تيارا الاحتقار والعنف قد انصبا من جبال فرنسا وطبقا على يد غزاتها المتوحشين فان التيار الآخر ••• تيار الخيبة قد نبع وتدفق من الجزائر نفسها ••• وتاريخ هذا التيار يبدأ من أول تجربة جزائرية مع فرنسا أي منذ حملت الجزائر السلاح فى شخص الأمير عبد القادر الى أن حملته مرة ثانية أو عاشرة فى شخص أبطالها المعاصرين •

قد تعجبون من أن يصبح تيار الخيبة السلبي تيارا ايجابيا يهيىء للثورة كل عوامل النجاح ولكن هكذا كان الحال فلو لم تقم الجزائر الا بهذه الثورة لكان الأمل ضعيفا فى نجاحها ولو لم تختبر أعداءها أكثر من مرة لخافت منهم اليوم وهم يواجهونها بأساطيل الجو والبحر •• ولكن الذي حدث بالذات هو أن الجزائر ثارت وهزمت ثم ثارت وهزمت وطالبت بالوسائل المشروعة وغير المشروعة ، ومع ذلك كانت الاجابة دائما لغة القوة وبالتالي كانت خيبة الأمل والهزيمة المنكرة ••• فاذا أضفنا الى ذلك فشل الحزبية وصراع السياسة وتقاتل الأفكار أدركنا كيف تهيأ الجو للانفجار الثوري فى النفسية العربية بالجزائر •

ان التجارب الفجة أو الخيبات المتكررة التي سبقت الثورة الحاضرة الى جانب القسوة والاحتقار هي التي جعلت الشعب الجزائري يبحث عن نفسه حينا وعن وسائله حينا آخر ثم يكتل جهوده ويوحد كلمته لتحقيق الهدف الذي سقطت من أجله الأجيال الماضية ، باللغة التي يفهمها العدو وهي لغة العنف والقوة والدمار .

أيها الاخوة ... على اثر اعلان الثورة جاء فى أول منشور للحاكم العام الفرنسي آنذاك مسيو ليونار ، أن جماعات صغيرة من الارهابيين هي التي ارتكبت أعمالا اجرامية ... ولمواجهة هذه الجماعة الصغيرة تقرر ارسال ثلاث كتائب من جنود المظلات الى منطقة الثورة ، وكانت المنطقة التي يشير اليها الحاكم العام هي منطقة جبال أوراس الشامخة ... وقد أرسلت فرنسا قواتها الى هذه المنطقة لتقضي على تلك الجماعات الارهابيــة الصغيرة وكانت الخطة الاستراتيجية لجيش التحرير تقضي بعزل القوات الفرنسية فى هذه المنطقة حتى يتاح للقوات الجزائرية فتح جبهة أخرى . وتحملت أوراس الضربات الأولى ولكن لم تمض أربعة شهور حتى فتحت الجبهة الثانية التي كان مركزها جبال القبائل الحصينة وقد اضطرت فرنسا لكي لا توزع قواتها الى سحب فرقة كاملة من جيشها فى منظمة الأطلنطي ... وظنت انها بهذا التصرف ستقضي على الجماعات الصغيرة قبل أن يستفحل أمرها ... ولكنها استيقظت ذات يوم فوجدت نفسها أمام جبهة ثالثة ولما يمض على الثانية شهران .. وكانت الجبهة الثالثة أوسع نطاقا وأهم نتائج لأنها تمتد على طول الساحل شمال قسنطينة . ومن هذه الجبهة العتيدة قام جيش التحرير بأول هجوم شامل فى 20 أغسطس 1955 بحيث برهنت فيه الثورة على قدرتها العجيبة على التكيف والتكتيك العسكري مما جعل الفرنسيين يعلنون لأول مرة فى تاريخهم التعبئة العامة ... ولم يحن شهر أكتوبر 1955 حتى فتحت جبهة رابعة مجالها منطقة وهران الشاسعة ، ولم يمض وقت طويل حتى فتحت جبهتان أخريان فى كل من الجزائر والصحراء وأصبح القطر الجزائري كله بفضل الجماعات الصغيرة أتونا يشتعل وبركانا يقذف الأعداء بالحمم ...

والى جانب هذه الانتصارات العسكرية استطاعت الثورة أن تخطو خطوات أخرى فى الميدان السياسي . من ذلك أنها خلقت فى فرنسا توترات

نفسية ومالية وسياسية أهمها : الاستياء العام ـ حركات الاضراب العمالية ـ سقوط الوزارات ـ ثورات التجار والفلاحين ـ العجز الفاضح فى الميزانية ـ التضخم المالي ـ ضعف الانتاج وكساد الاقتصاد ـ ضم اقليم الصار الى ألمانيا نتيجة للضغط السياسي ـ تدويل القضية الجزائرية،وكل هذه هزائم وصفعات تلقتها فرنسا على يد الجزائر مما جعلها مضرب المثل فى الفوضى الداخلية وأسقطها من عداد الدو لالكبرى .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ان مؤتمر أغسطس 56 الذي انعقد فى الجزائر قد انبثق عنه دستور للجزائر الثائرة حاضرا ومستقبلا واذا كان هذا الدستور ما يزال سرا من أسرار الثورة فان ما نشر منه يلقي أضواء باهرة على جوانب كثيرة من الثورة الجزائرية ... فقد جاء فيه : ان التنظيم السياسي الجديد للثورة يقتضي :

1 ـ منع النفوذ الشخصي واقرار مبدأ الادارة الجماعية .

2 ـ وضوح المذهب بحيث تكون الغاية المنشودة هي الاستقلال الوطني عن طريق الثورة وتدمير النظا مالاستعماري .

3 ـ الاستنكار النهائي لتقديس الشخصية والكفاح العلني ضد الوشاة وأذناب الادارة الفرنسية .

وقد أجاب الدستور أيضا على سؤال نصه : لماذا نحارب ؟ بأننا نحارب لاضعاف الجيش الفرنسي اضعافا تاما بحيث يستحيل عليه الانتصـار بالسلاح ونحارب لاتلاف الاقتصاد الاستعماري فى نطاق واسع بعمليات التخريب والافساد بحيث تصبح ادارة البلاد العادية متعذرة ... ونحارب لعزل فرنسا السياسي فى الجزائر وفى العالم أجمع ... ونحارب من أجل مؤازرة الشعب مؤازرة تامة أمام الجهود التي يبذلها الفرنسيون لابادته .

ولكن ـ ما هي شروط وقف القتال ؟ ان هذا السؤال قد أجاب عنه أيضا دستور أغسطس 56 والشروط هي :

1 ـ الاعتراف بالجزائر كلا لا يتجزأ .

2 ــ الاعتراف باستقلال الجزائر فى جميع الميادين بما فى ذلك الدفاع الوطني والدبلوماسية •

3 ــ الافراج عن جميع الأسرى من الجزائريين ، والجزائريات والمعتقلين والمنفيين بسبب نشاطهم الوطني قبل ثوره 54 وبعدها •

والثورة الجزائرية اذ تعلن هذه الشعارات تقوم على أسس لن تحيد عنها مهما كان الثمن وهذه الأسس هي :

1 ــ ان الجزائر جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الخالدة •

2 ــ ان الجزائر لن تكون تابعة لأحد وانما تنبع سياستها من صميم الشعب وفقا للارادة العربية المتحررة •

ان دستور الثورة قد حوى أسس الاستقلال فى الداخل والخارج ووضع للثورة ركائز قوية وبرامج شاملة تجعلها مندفعة دائما نحــو الهدف الذي انطلقت من أجله •

واذا كانت معجزة الثورة الجزائرية قد تجلت فى بناء الشعب بناء نفسيا هادفا وفي تكوينها لاتحادات العمال والتجار والطلبة التي طالما تدخل الاستعمار لعرقلتها كأداة خادمة ــ فان هذه المعجزة تتجلى أكثر وأكثر عندما نجد الثورة الجزائرية قد استطاعت أن تجعل من المرأة العربية أداة صالحة لخدمة القضية وسلاحا قويا من أسلحة الثورة •• ففي المعركة اليوم مآت المجندات يعملن ممرضات ومسعفات وحارسات ويحملن السلاح ويقمن بالأعمال الفدائية الخارقة مما جعل الاستعمار الفرنسي يضيق ذرعا بهن فيحكم بالاعدام على البعض وبالسجن على الأخريات •• ولعل قصة جميلة بوعزة وزميلاتها البطولية لم تغب بعد عن أذهاننا •

والى جانب ذلك تقوم المرأة العربية بالجزائر بدور خطير وهو رفع الروح المعنوية لجيش التحرير ويكفي أن تعلموا بهذا الصدد أن المرأة قد أصبحت ترفض الزواج ممن لم يجاهد أو يحمل السلاح وتحتقر الذين لم يعملوا فى صفوف الثورة •

ومن معجزات الثورة أنها استطاعت أن تقلب خطط فرنسا العسكرية وتقديراتها السياسية لقد كانت تظن أن الشعب الجزائري سيضرب بعضه بعضا بالتآمر والدس وأن الجنود العرب فى الجيش الفرنسي سيقاتلون اخوانهم المجاهدين ويتعقبونهم •• ولكن الذي حدث قد طعن فرنسا فى الصميم •• ذلك أن الشعب الجزائري الذي خبر فرنسا أكثر من مرة لم يكن غبيا الى درجة أن ينتحر •• هذا من ناحية •• ومن ناحية أخرى فان الثورة التي تتركز على قاعدة شعبية سليمة قد فوتت على فرنسا هذا الهدف بحيث جعلتها تفتقد كلية الاعتماد على الجزائريين العرب فى جيشها •• لقد فر معظم هؤلاء الجنود الأبطال الى جيش التحرير بعتادهم وأسلحتهم وأسرارهم بعد أن قتلوا ضباطهم ومن كان معهم من الجيش المحتل •• وها هم يؤدون دورهم فى الكفاح الوطني ويقدمون دماءهم وأرواحهم وخبراتهم فداء للقضية العربية فى الجزائر • أما الذين لم يتح لهم الفرار فقد نقلتهم فرنسا الى ألمانيا بعيدا عن الوطن وهم يعتبرون أنفسهم أسرى لا جنودا فى جيشها الاستعماري •

أيها الاخوة •• ان مأساة الثقافة فى الجزائر تثير الشك فى القيم الحضارية للانسان وتعيد الى الأذهان مباديء الكهوف والأدغال •• ونحن اذ نعرض عليكم جانبا لهذه المأساة لا نلجأ الى العاطفة نستثيرها ولا المشاعر نستفزها ولكننا سنلجأ فقط الى الأرقام •• وحتى لا نطيل عليكم نذكر لكم احصائية رسمية صدرت سنة 1953 عن التعليم الفرنسي فى الجزائر تقول هذه الاحصائية عن التعليم الابتدائي ان السكان الأوروبيين وعددهم مليون نسمة يزاول التعليم جميع أبنائهم البالغين 135000 وأن السكان العرب وعددهم عشرة ملايين يبلغ عدد أطفالهم الذين هم فى سن التعليم مليون وتسعمائة وتسع وستين ألف طفل لا يتعلم منهم سوي 266000 والنتيجة أن نسبة الذين حكم عليهم بالاعدام الثقافي 86ر5٪ •

وتقول الاحصائية عن التعليم الثانوي أن عدد الأطفال الأوروبيين فيه يبلغ 24 ألف طالب وعدد الأطفال العرب 4159 طالبا • أما عن التعليم الجامعي فتقول الاحصائية الرسمية أن الطلبة الأوروبيين يبلغون 5132 أما الطلبة العرب فلا يتجاوزون 507 طلبة •

ويبدو أن الوقت لا يتسع لعرض الجانب الآخر من المأساة •• مأساة التعليم العربي في بلد عربي كالجزائر ولكننا سنحاول اعطاءكم صورة عنه ولتكن موجزة جدا •

لقد ظهرت حوالي سنة 1920 حركة ثقافية عربية هدفها المحافظة على الكيان العربي الاسلامي للجزائر الذي كان مهددا بالذوبان والفناء وقد تدفق الشعب على هذه الحركة يعلن تبنيها بالنفس والمال •• ولم تلبث أن أصبحت ضرورة من ضرورات الفكر العربي هناك وأصبح لها شعب ومدارس وطلبة فى كل مكان ولكن الاستعمار الذي لا يستطيع أن يعيش في النهار حنق على هذه الحركة بالرغم من طابعها الثقافي المحض وأخذ يكيد لها ويتعقب رجالها بالسجن والتعذيب والغرامة والنفي حتى لقد أصبحت هذه الأنواع من العقوبات تسلط على كل من يتعلم العربية أو يدرس حضارة العرب وتاريخهم •• على أن ارادة الشعب التي اعتمدت عليها الحركة الثقافية قد صمدت أمام صانعي المأساة فلم يستطيعوا أن ينالوا منها أو يردوا سيلها المتدفق نحو الهدف •

أيها الاخوة •• ان مأساة الثقافة والفكر فى الجزائر هي التي جعلت الطالب ــ الجزائري يندفع نحو الثورة بكل ايمانه •• لقد كان رد الفعل الذي قام به المثقفون عامة والطلبة خاصة رائعا فبينما كانت فرنسا تقدر أن الطبقة التي خرجت من مدارسها ورضعت لغة هوجو وأناتول فرانس سوف تكون الى جانبها يوم يجد الجد اذا بها تفقدها نهائيا •• انها تكاد تنتحر وهي ترى القافلة تسير ومن ورائها أولئك المثقفون أنفسهم ولم يستطع أحد رجال فرنسا أن يتمالك أعصابه ازاء ما حدث فيقول •• لقد أخطأنا بتعليم الجزائريين لغتنا وثقافتنا •• اننا لم نزد على أن أطلعناهم على مباديء الثورة الفرنسية بينما نحن في القرن العشرين نسوسهم كالأغنام •

ومهما كان كلام هذا الرجل العصبي فان الطالب الجزائري في فرنسا وفي الوطن العربي وفي الجزائر نفسها قد ساهم مساهمة ايجابية في سبيل دفع الثورة الى القمة وفي سبيل بناء الجزائر بناء ثوريا منتجا •

والطالب الجزائري اليوم أحد رجلين فهو اما يخوض المعركة الوطنية السياسية والعسكرية واما جندي احتياطي ينتظر الاشارة بين الحين والآخر • ولذلك فنحن الطلبة نعلن بكل تواضع وتقدير لمسؤوليتنا اننا نعتبر أنفسنا تحت السلاح واننا لن تتخلى عن أداء رسالتنا المقدسة التي يطلبها منا وطننا المناضل •

أيها الاخوة •• هناك نقطة جديرة بالاهتمام والعمل الحاسم والا فان الزمن سوف لا يترك لنا مجالا لاستدراكها • أن الاستعمار بعد أن أعيته الحيل والدسائس والسلاح في الجزائر أخذ يحاول أن يثبت اقدامه بوسيلة أخرى لعلها آخر ورقة يلعبها في المعركة التي تهدده بالانهيار ،هذه الوسيلة هي أنه بدأ يتآمر على اقتصادنا المغربي بسيطرته على مناطق الصحراء الغنية بالبترول والمواد الخام وانكم لا شك سمعتم منذ بضعة شهور عن تكوين شركة استعمارية لاستغلال الصحراء الكبرى بينما الثورة مشتعلة والدماء تسيل • ونحن اذ نبشركم بأن جيش التحرير قد استعد استعدادا كاملا لاحباط هذا المشروع الاستعماري نعلن باسمكم اننا لن نسمح بأن تمر قطرة واحدة من بترول الصحراء الا بعد استقلال الجزائر والاتفاق مع أهل البلاد الشرعيين ••• ولتكونوا واثقين بأن الثورة الجزائرية التي انتفعت بتجارب الآخرين لن تبيع شبرا واحدا ولن تتنازل عن ذرة واحدة من أرضنا العربية لأي كان ومهما كان الثمن ••

أيها الاخوة ••• اننا نتجه دائما الى المستقبل ••• المستقبل الأفضل الذي ننشده جميعا •• المستقبل الذي نبنيه بدمائنا وعرقنا ودموعنا ومكسبنا ••• المستقبل الذي يصهر فى مصر وسوريا والمغرب العربي وغيرها من وطننا المنتفض ••• اننا نتجه اليه دائما لأننا نصنعه بأنفسنا وندفعه باصرار الى القمة فى زحمة هذا الوجود المتصارع •• وليست الثورة الجزائرية سوى التعبير الفعال عما يختلج فى نفوس العرب الأحرار نحو هذا المستقبل •• لقد أعلنت هذه الثورة العربية الصميمة أنها ليست ثورة الجزائر وحدها وليست ثورة المغرب العربي فقط وانما هي ثورة العرب جميعا •• هي الوجه الحقيقي للطاقة العربية المشعة رغم

الطني والظلام والكثافة التي وضعها الاستعمار على ذلك الوجه •• ومن هنا كان انتصار الجزائر في المعركة انتصارا لفلسطين الجريحة والجنوب العربي المكافح •• انتصارا لمصر وسوريا في صراعهما التحرري •• انتصارا للقومية العربية في كل مكان •

والسلام

(أبو القاسم سعد الله)

1957 10/31

حول كتابة تاريخ الثورة الجزائرية

مساهمة من مجلة الجيش في تسليط الأضواء على كتابة تاريخ الثورة(*)، ارتأت أنه من المفيد أن تلتقي بأحد المؤرخين الجزائريين الذين عاصروا الثورة وعايشوها ، وكتبوا فى العديد من مراحل تاريخ الشعب الجزائري (الدكتور أبو القاسم سعد الله) الذي جعلته الثورة الجزائرية ينتقل من كتاباته فى المجال الأدبي ، الى الاهتمام بالجانب التاريخي ، وذلك فى الفترة العصيبة التي كانت كل جهود المستعمر موجهة لمحو الشخصية والتاريخ اللذين هما هوية وذاكرة الشعب الجزائري •

وبدون اطالة نفسح المجال للدكتور سعد الله ، ليجيبنا عن بعض الأسئلة والاستفسارات :

**** تعتبر من المؤرخين المهتمين باعادة كتابة تاريخ الثورة ، فكيف ترى الطرق الكفيلة بهذه العملية ، انطلاقا من نتائج الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة ؟**

كان الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة بداية طيبة لفتح الحوار بين المساهمين فى الثورة حول أفضل الطرق لكتابة تاريخها • ان المناقشات العميقة والصريحة التي دارت فيه ، والعروض التي قدمت أثناءه كانت الأولى من نوعها فى علاج هذا الموضوع • وأعتقد أن الجيل الحاضر ، وجيل الغد سيجد فى تلك المناقشات سواء نشرت كما هي ، أو ظلت فى سجلات محفوظة ثروة هائلة من الأفكار والتفاسير لأحداث الثورة ، ولاسيما المرحلة الأولى منها ، وهي المرحلة التي خصص لها الملتقى •

(*) ـ مجلة (الجيش) ، عدد يونيو (جوان) ، 1982 ، أعد المقابلة الأستاذ : شريف عمراني •

غير أن التاريخ لا يكتب فى الملتقيات على هذا النحو • ان مهمة هذه الملتقيات هي :

1 ـ جمع المادة من أفواه المشاركين ، ومن وثائقهم الخاصة والعامة ، ومن آرائهم المختلفة ، ثم من العروض التي تلقى •

2 ـ حفز الهمم على العناية بالتاريخ عموما وتاريخ الثورة خصوصا •

3 ـ اعطاء تفاسير عديدة للحادثة الواحدة ، وتعدد وجهات النظر فى المواقف والتطورات التي مرت بها الثورة •

4 ـ تسليط الأضواء على ما غمض من جزئيات قد يكون لها تأثير على مسار الثورة •

وأعتقد أن الملتقى الأول ، قد فتح المجال أمام هذه الأمور كلها ، ولكننا ننتظر أن تواصل الملتقيات القادمة ان شاء الله نفس المهمة •

ولكن المؤرخ لا يكتب تحت الأضواء الكاشفة ولا وسط ضجيج الملتقيات ، وصخب الجماهير • ان عليه أن يتابع كل ذلك ، نعم وأن يرصد الأحداث ويتمثلها ، وأن يسجل فى وعبه ، وعلى بطاقاته خطوات التيار العام ، ثم ينتحي ناحية بعيدة عن الأضواء والصخب والضجيج ، دارسا متأملا مقدما بعض الأحداث على أخرى محكما عقله وضميره ، وبعيدا عن المؤثرات الخارجية مهما كان نوعها ، ثم يصدر حكمه الذي يعتقد أنه الحق ، مهما خالف ذلك الرأي العام أو ما اتفق عليه الناس • أو ما كان يتوقعه هذا المسؤول أو ذاك ، فكما أن القاضي يستمع الى جميع أطراف القضية ثم يختلي للتشاور مع مساعديه قبل اصدار حكمه ، فكذلك المؤرخ ، فهو يقرأ ويسمع ويعيش مع جميع الأطراف المشاركة فى الحادثة ، ثم يختلي مع نفسه ليحكم عقله وضميره قبل اصدار حكمه •

**** تختلف مناهج كتابة التاريخ من مدرسة لأخرى ، ما هو المنهج الذي يمكن اتباعه لاعادة كتابة تاريخ ثورتنا بموضوعية أكثر من غيره ؟**

في اعتقادي أن هناك منهجا واحدا لكتابة التاريخ ، وهو المنهج العلمي ، ولكن هناك بعض الاعتبارات التي قد تؤثر على استعمال

هذا المنهج • فالتاريخ باعتباره من أهم العلوم الاجتماعية والانسانية خضع لتفاسير عديدة بحسب الأدوات التي توفرت للمؤرخ في الحقبة التي عاشها أو يعيشها • وقد تأثر التاريخ بالعلوم الاجتماعية الأخرى ، وكذلك التيارات الأدبية ، في بعض الحقب ، فكان هناك المؤرخ الديني ، والمؤرخ الأدبي ، والمؤرخ السياسي ، والمؤرخ الاقتصادي ، والمؤرخ الاجتماعي ، وهلم جرا ، بل اننا وجدنا في بعض الحقب المؤرخ الاستعماري والمؤرخ الوطني أو القومي ولكن (التاريخ) في حقيقة الأمر واحد • أما الذي اختلف فهو المؤرخ أو الانسان الذي يتأثر بعوامل العصر الذي يعيشه من دين وقومية ، وحضارة ، ونظم حكم الخ ••• وما دام هذا المؤرخ لا يستطيع أن يكون عمليا « عالما » بجميع العلوم الاجتماعية والانسانية على حد سواء ، فانه لا محالة سيتأثر بالعلم الذي تغلب عليه • و لايخفى ان عصرنا يعتبر عصر الجماهير ، ولذلك شاعت بين الناس ، ومنهم المؤرخون ، الثقافة السياسية والاقتصادية ، بألوانها القومية ، يضاف الى ذلك الثقافة الاجتماعية (أو السوسيولوجية) والانثروبولوجية • وهكذا أصبح لا محيد للمؤرخ أن يتسلح بكل هذه الثقافات اذا أراد أن يفهم سير حركة الجماهير أو العصر الذي يعيشه • أما التقسيم التقليدي لمدارس التاريخ من ماركسية وليبرالية أو رأسمالية ، ونحو ذلك ، فقد بدأ يترك مكانه للتقسيم الذي ذكرناه ، ولا شك ان الثورة الجزائرية ، باعتبارها حركة جماهيرية ، في حاجة الى هذا المؤرخ المتشبع بنظريات وأحداث العصر ومسيطرا على مادته وأدواته •

**** ككل الثورات نسج الخيال الشعبي حول الثورة الجزائرية أساطير وأضفى عليها كثيرا من خياله ، فكيف يمكن للمؤرخ المتفحص التوفيق في الفصل بين الجانب الذاتي أو الأسطوري الذي يمكن اعتباره من اختصاص الأدباء والفنانين وبين الجانب العلمي الذي يهم المؤرخ في تسليط الأضواء على وقائع الأحداث ؟**

هذا صحيح ولكن اذا كانت أساطير الثورات الأخرى ونسيج الخيال الشعبي حولها (مدونة) في أكثرها ، فان أساطيرنا وخيالاتنا ما زالت تعيش في الذواكر بدون تدوين • والأسطورة هي جزء من الحقيقة • ولذلك فانه يمكن للمؤرخ أن يستفيد أيضا من الأساطير والخيالات

باعتبارها أجزاء من الحقيقة • ومن جهة أخرى فان التاريخ ليس « علما » كله ، أي أنه ليس علما مجردا كعلم الرياضيات والفيزياء ، بل هو علم « اجتماعي » و « انساني » وهذا يعطيه الحق فى الاعتماد أيضا على الأساطير الشعبية • ان الفصل بين الجزء الذي هو الأسطورة وبين الكل الذي هو العلم ليس بالضرورة فصلا جداريا أو حديديا ، لأنه يمكن أن يكون فصلا شفافيا أو ضبابيا فقط • ولكل من الأديب والمؤرخ الحق فى الكتابة عن الثورة ، غير أن الفرق بينهما أن الأديب تغلب عليه العاطفة بينما المؤرخ يغلب عليه العقل وأحكام الأديب في الغالب كلية ويقينية ، بينما أحكام المؤرخ تفصيلية ومتشككة •

**** لا جدال في أن تاريخ الجزائر لا يمكن أن يكتبه الا جزائريون ، وعليه كيف يمكن لهذا المؤرخ أن يكتب عن ثورته وقد تجرد من كل ذاتيته وعاطفيته تجاه حدث عايشه ، ولا زال متأثرا به ؟**

ولماذا يتجرد من ذلك ؟ ان الثورة الجزائرية ككل أحداث الوطن هي ملك للجميع ، بما فى ذلك المؤرخ ومن الطبيعي أن لا يكتب هذا المؤرخ عن وطنه كما يكتب عن أوطان أخرى ، ببرودة وجفاف ، أو حتى بدون مبالاة كما فعل من كتب عن تاريخها من الأجانب • ولعل القول بأن « التاريخ غير محايد » هو قول صحيح الى حد كبير خصوصا اذا كان المؤرخ أجنبيا عن الموضوع الذي يكتب عنه • ولكن يكفي هذا المؤرخ أن يقدم للقاريء نتائج بحثه ورؤيته الشخصية • اننا الآن تفتقر الى المؤرخ أصلا ، أعني المؤرخ الكفء ، الذي توفرت فيه شروط الاستعداد الفطري ، والتكوين العلمي والنزاهة فى الحكم • وليس كل من كتب فى التاريخ مؤرخا كما أنه ليس كل من نظم الشعر شاعرا • انني أعرف بعض « المؤرخين » الجزائريين الذين اذا كتبوا عن الحركة الوطنية كتبوا عنها من وجهة نظر أحزابهم أو الهيئات التي كانوا منتمين اليها قبل الثورة • وأعتقد أن « مؤرخي » الثورة سيتأثرون أيضا بدورهم فيها وحدود مشاركتهم ومسؤوليتهم ، وقد تغلب على بعضهم الروح الحزبية ، والجهوية ، وما اذا كانوا من أصحاب الداخل أو الخارج ، وما اذا كانوا عسكريين أو مدنيين بل ما اذا كانوا من أصحاب المدن أو من أهل الريف •

وهل نتوقع أن يكون المؤرخ غير ما هو عليه فى الواقع ؟ ان علينا أن نقنع « بالمؤرخ الانسان » الذي يتأثر بما عايش من أشخاص ومذاهب وأحداث ، لأن « المؤرخ النبي » مايزال لم يولد بعد • ولماذا نطلب المستحيل قبل أن نحاول الممكن ؟ •

**** هل يعتبر كل تسجيل أو مخطوط أو مذكرات ، وثائق تاريخية يرجع اليها في اعادة كتابة تاريخ الثورة ؟ وما هي الوسائل اللازمة ، والشروط الأساسية الواجب توفرها في الكاتب حتى يكون مؤرخا للثورة الجزائرية ؟**

كل ما يمكن أن يساعد المؤرخ على الوصول الى الحقيقة فهو مفيد . ويدخل فى ذلك التسجيل والمخطوط والمذكرات ، وقد سبق لي أن تحدثت عن شروط الكاتب المؤرخ — أما عن الوسائل فالأمر أصعب فى نظري وأهم وسيلة هي توفير المؤرخ الكفء ، ويأتي بعد ذلك فتح مجال الاستفادة من الوثائق وأدوات النشر والتوزيع • ولعلني لا أكرر نفسي عندما أقول ان الحرية (أعني حرية التعبير والنشر) هي أعظم « وسيلة » • وكيف نطمح الى الوصول الى الحقيقة اذا كان على المؤرخ أن يداري أفكاره وآراءه وأن يشوه الأحداث لكي يكون مقبولا ؟ ان التخلص من العقد والحساسيات هو الكفيل بتحبيب التاريخ والكتابة فيه وبسد الذرائع أمام الأجانب وأمام المتطفلين • وقد قلت فى احدى المناسبات ان الجزائريين قد تخلفوا كثيرا عن كتابة تاريخهم وأن الشعب الجزائري من الشعوب القليلة التي لا تكاد تقرأ عن نفسها الا فيما كتبه الأجانب عنها • وهذا خطأ وعيب فى آن واحد •

**** ان الكثير من الوثائق النادرة ، والمتعلقة بجوانب من تاريخنا لا زالت موزعة بين متاحف ومكتبات العديد من البلدان ، وخاصة فرنسا التي تتمسك بوثائق هامة ، متذرعة بأنها تثير بعض الحساسيات ، فما مدى صدق هذه الذريعة في رايك ، وكيف يمكننا استرداد وثائقنا ، وكل ممتلكاتنا الثقافية التي بحوزتها ؟**

لهذا السؤال وجهان ، وجه قانوني ووجه تاريخي أما الوجه القانوني فسأتركه لأهل القانون ، وأما الجانب التاريخي فهو الذي يهمني هنا • حقا ان وثائقنا موزعة هنا وهناك (أما المفقود منها عن طريق الحرق

والتلف والضياع والنهب الخ ، فأكثر من أن يحصى) ، والفرنسيون لم يأخذوا ما يثير الحساسيات فقط ، ولكنهم « أخذوا » أيضا كأفراد مخطوطات ووثائق الجزائر ووزعوها على مكتبات بلدياتهم وكذلك مكتباتهم الخاصة ، عندما كانوا مسؤولين عن المكاتب العربية أو مترجمين أو مفتشين للبلديات المختلطة أو معلمين فى « المدارس » العربية ـ الفرنسية أو مستشرقين يشتغلون بالشؤون الاسلامية •

وأعتقد انه من حق الجزائر أن تسترد من فرنسا ما أخذته عن طريق القوة والعنف والتهريب ، ومن ذلك الوثائق • ولكن الوثائق ، سواء ما يثير الحساسية أو ما لا يثيرها ليست كل شيء • ان الفرنسيين قد أخذوا (1) أيضا تحفا وأسلحة وآثارا تاريخية هامة ووضعوها فى متاحفهم وحدائقهم وموانيهم ومكتباتهم ، يضاف الى ذلك ، عدد من « الجماجم » أو الرؤوس المقطوعة من أجسام بعض المقاومين الأشراف بعد مقتلهم خلال القرن الماضي (2) ومن منا ينسى ان الفرنسيين أخذوا « خزينة » الدولة الجزائرية ، التي قدرت بأكثر من خمسين مليون دولار عندئذ • أليس من حق الجزائر المنتصرة بعد هزيمة أن تستعيد تراثها وحقوقها الثقافية كما استعادت سيادتها وحقوقها السياسية ؟ أما مسألة الحساسية فان هناك قوانين دولية يجب مراعاتها فى الاطلاع أو حجب الاطلاع على الوثائق المعنية والجزائريون من أعرف الناس بهذه القوانين •

**** بعد مضي عشرين سنة على الاستقلال يعتبر زاد شبابنا من تاريخ ثورته ضئيلا وقد يرجع ذلك في اعتقادي الى المناهج التعليمية التي لم تعط هذه المرحلة حقها من الاهتمام والى ندرة من ارخ للثورة •**

فكيف يمكننا تعميق جذور الانتماء الوطني وتوحيد المشرب لشبابنا ؟

الشيء الذي ألاحظه هو انه بعد عشرين سنة مازلنا لم نكتشف أنفسنا تاريخيا وحضاريا • ان التغني بأبطال المقاومة الوطنية خلال القرن الماضي

1 ـ أخذ الفرنسيون سنة 1833 المدفع الضخم المسمى بابا مرزوق) من مدينة الجزائر ونصبوه في ساحة بمدينة (بريست) وكان هذا المدفع قد صنع سنة 1542 •
أنظر المجلة الافريقية ، 1873 ، ص 1 ،

2 ـ أرسل الفرنسيون رؤوس الشريف بوزيان زعيم ثورة الزعاطشة ، والشريف بوبغلة ، وشريف ثورة تبسة وتسعة رؤوس أخرى الى قسم الانثروبولوجيا بمتحف باريس •
أنظر المجلة الافريقية سنة 1886 من ص 79 الى 80 •

وبشهداء ثورة نوفمبر لا يكفي ، ذلك أن تاريخنا (والتاريخ عموما) عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات فأين نحن من أبطال العروبة والاسلام فى هذه الديار الذين ظهروا منذ الفتح الاسلامي ؟ وأين مساهمتنا المشرقة فى الحضارة العربية الاسلامية ـ في الأندلس ، في افريقية ، في صقيلية ، في المشرق الاسلامي ، بل فى جنوب أوروبا الغربية ؟ ماذا نعرف عن ذلك كله ـ عن عبد المؤمن بن علي موحد المغرب العربي ، عن عبد الكريم المغيلي ناشر الاسلام في افريقية ، عن مراد رايس قاهر ايسلاندا وجزر الكناري ،عن دوركتامة في القاهرة والمشرق،عن معركة الجزائر 1541 التي انسحق فيها أسطول شارلكان ؟ ان تاريخنا لا يبدأ من سنة 1954 أو من سنة 1830 ، ولكننا بصراحة نجهل تاريخنا . وهذا الجهل قد انسحب أيضا على أبنائنا . فبرامج التعليم المتوسط والثانوي ضعيفة فى هذا المجال . ولا يكاد التاريخ الوطني يدرس الا فى أقسام التاريخ بالجامعات . ولا تدرس اللغة العربية ـ وهي وسيلة سيرورتنا الحضارية ـ بعد الباكالوريا ، الا فى معاهد الأدب بالجامعة . بينما شاهدت بنفسي انه فى دولة من أعظم دول العالم يتابع الطلبة دراسة اللغة والتاريخ الوطني فى جميع قطاعات التعليم الجامعي كمادتين اجبارتين مهما كان تخصص الطالب . ان رفع الشعارات والتغني بالأمجاد لا يكفيان . والحديث عن أهمية التاريخ فى المناسبات (3) ليس حلا للقضية ، وأعتقد أن اصلاح المناهج التربوية ، وتوجيه الاعلام ، ونشر التراث المكتوب كلها تخدم الهدف الذي طرح فى السؤال .

واذا كان لي من كلمة أختم بها هذه الاجابة فهي دعوة جميع الجزائريين القادرين على الكتابة الى تسجيل أفكارهم وآرائهم ونتائج دراساتهم ، كل فى ميدانه ، ذلك ان المكتبة الجزائرية فقيرة جدا الى المؤلفات التي خطها الجزائريون أنفسهم . انه لعار عظيم أن يصدر عن بلد تعداده عشرون مليونا ما لا يتجاوز مائتي عنوان فى السنة . مائتا عنوان (وعلى علاتها !) لو كانت كلها فى التاريخ لحكمنا بأنها لا تشفي غليلا ولا تبريء عليلا . فما بالك وهي كل ما تنتج فى جميع الفنون .

---

3 ـ انظر افتتاحية مجلة الثقافة عدد 66 ، نوفمبر ـ ديسمبر 1981 ، وهي نفسها الكلمة الموجودة في أول هذا الكتاب بعنوان (عن الكتابة التاريخية) .

رحـــلة الأغـــواطي

فى شمالي افريقية والسودان والدرعية

بقـــــلم
الحاج ابن الدين الأغواطي

ترجمها عن العربية (الى الانكليزية)
ويليام ب . هودسون

قنصل امريكا بالجزائر ، والمراسل الأجنبي للجمعية الملكية الآسيوية
(لنـــــدن)

طبع مؤسسة الترجمة الشرقية سنة 1830 ، لندن

ـ ترجمنا هذه الرحلة عن الانكليزية ونشرناها في مجلة التاريخ (الجزائر) عدد النصف الثاني من سنة 1982 . أنظر الصور فى آخر الكتاب .

تقـــديم الرحـــلة

مر عثورنا على هذه الرحلة بمراحل لابد من ذكرها ، فأثناء مطالعتي لحياة وأعمال القنصل الأمريكي فى الجزائر ، ويليام شيلر ، وجـدت اشارات قادتني الى حياة خلفه في المهنة ، وهو ويليام هودسون ، ومن خلال تتبعي لحياة ونشاط هودسون وجدت ما ترجمه من رحلة ابن الدين الأغواطي ، وهكذا اتصلت بأحد المؤلفين الجزائريين فى الجغرافية والتاريخ عن طريق أحد قناصل الولايات المتحدة فى الجزائر •

المـــؤلف :

أما مؤلف هذه الرحلة فهو ، حسب مترجمه ، الحاج ابـن الديـن الأغواطي ، ويبدو أنه لم يكن معروفا على مستوى الجزائر فى وقته ، رغم ان هذا الاسم ــ ابن الدين ــ كان موجودا في المناطق التلية بالجزائر ، وقد سألنا عنه بعض المثقفين من أهل الأغواط فأفادونا أن عائلة ابن الدين ما زالت موجودة وأنه كان معروفا فى وقته وأنه كتب عملا استحوذ عليه الفرنسيون ، وعلى الخصوص شيخ بلدية مدينة الجزائر (1) •

واذا أخذنا معلوماتنا عنه من النص الذي بين أيدينا ، فان الحاج ابن الدين كان قليل التعلم كثير الاطلاع ، فهو قليل التعلم لأن معلوماته عن بعض أحوال العصر التي سنشير اليها ، فى التعاليق ، وبتاريخ الحضارة الاسلامية لا تدل على معارف دقيقة ، فهو من الظاهر كان من « المستمعين » الذين يعرفون ولا يدققون ، يلمون ولا يتخصصون ، اما كثرة اطلاعه فتدل عليها خبرته بالمناطق التي وصفها والتي يؤكد فى مناسبات عديدة

1 ــ من رسالة بعث بها الى الدكتور محمد السويدي الأغواطي من الجزائر الى الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ 11 مايو 1978 •

أنه رأى ما كان يتحدث عنه ، ولعل اسمه « الحاج » يدل على أنه أدى مناسك الحج وتوقف فى بعض العواصم الاسلامية مثل حجاج وقته ، كما أن وصفه للدرعية ، عاصمة أول دولة سعودية ــ وهابية يدل على أنه لم يتوقف عند زيارة الحجاز ، وقد ذهب الى وصف أماكن من افريقية ــ مثل شنقيط وتمبكتو وغدامس الخ ــ لا نعرف بالضبط أنه زارها بنفسه ، رغم ان كلامه يوحي بذلك

وعلى كل حال فان هودسون لم يفصل الحديث عن علاقته الشخصية بالحاج ابن الدين : لماذا سأله هو بالذات كتابة رحلته ؟ هل لأنه يعرفه مطلعا دون غيره ، على أحوال الصحراء وأهلها ولغتها ؟ هل ذهب هودسون الى الأغواط فالتقى به ؟ أو هل جاء الحاج ابن الدين الى مدينة الجزائر فألتقيا ؟ وهل كتب الحاج ابن الدين عملا كبيرا فاختصر منه النص الذي قدمه الى هودسون وكيف دفع هودسون ثمن المكتوب ؟ كل هذه أسئلة تدور بالخاطر عندما يقرأ المرء النص الذي نحن بصدده ويعرف الظروف التي كتب فيها • ولكن معظمها يظل بدون اجابة •

المتـــرجـم :

جاء هودسون الى الجزائر سنة 1825 لكي يساعد شيلر فى مهمته كقنصل عام لبلاده فى الجزائر ، وكانت خبرة هودسون باللغات الشرقية هي التي أهلته لهذه المهمة • وكان الهدف من وجوده رفقة شيلر أيضا تدريبه على الخدمات الدبلوماسية • وقد بقى هودسون فى الجزائر الى سنة 1829 • وأثناء هذه الفترة كرس جهوده ، مثل شيلر أيضا ، لاتقان العربية والتركية والتعرف على البزبرية وجمع المعلومات حولها ومقارنتها بما كتب عنها الأولون وباللغات الأخرى من فينيقية وعربية وغيرهما • ويهمنا من هذا التاريخ أن (2) هودسون قد تعرف على الحاج ابن الدين بين سنوات 1825 — 1829 •

2 ــ نشر شيلر كتابه الهام عن الجزائر في مدينة بوسطن سنة 1825 ، وعنوانه (مختصر تاريخ الجزائر) عن هذا الموضوع أنظر أيضا دراستنا (أثر الجزائر في الأدب الأمريكي)، مجلة الثقافة ، عدد مارس -- أبريل ، 1985 •

وبعد عودته الى واشنطون سنة 1829 اشتغل هودسون كاتبا فى وزارة الخارجية فترة ، ثم بعثته حكومته ــ رفقة زميل آخر له وهو السيد بورتر الى القسطنطينية سنة 1831 لكي يترجم موافقة حكومته على المعاهدة التركية الى العثمانيين ورغم انه رجع الى واشنطن لبضعة شهور فانه عين مستشارا للمندوبية الأمريكية فى اسطانبول • وأثناء وجوده فى واشنطن من 1829 الى 1831 اشترك فى عدة أنشطة علمية كالقائه أبحاثا عن شمال افريقية ولغته وأهله وجغرافيته ، وذلك أمام الجمعية الفلسفية الأمريكية التي كان مقرها بمدينة فيلاديلفيا ، وقد نشرت هذه الجمعية أبحاثه في مجلتها • كما نشرت بعضها ملخصة مجلة (نورث أمركيان ريفيو) (3) • كما أنه ترجم ونشر في هذه الأثناء رحلة ابن الدين الأغواطي التي نحن بصددها •

ان هودسون يعترف فى غير ما مناسبة أنه كان مهتما بجمع المعلومات عن البربرية ، ولذلك قال أنه كان على صلة بأحد طلاب زواوة الذي استفاد منه ترجمة لبعض أشعار هذه اللهجة ، كما استعان به فى تحليل بعض النصوص القديمة التي فيها أسماء مستمدة من البرُبرية • ولعل هودسون يعتبر من أوائل المستشرقين المهتمين بهذه اللهجة ، وفي هذا النطاق تأتي رحلة الحاج ابن الدين ، فهودسون يذكر أن « هدفي الأساسي من الحصول على هذا المخطوط هو التأكيد على امتداد رقعة اللغة البربرية » •

أهمية الرحلة :

رغم ما قلناه عن صاحب هذه الرحلة فانها ، كنص تاريخي ، هامة جدا ، فهي تحتوي على معلومات طبية اجتماعية واقتصادية وجغرافية وسلالية ولغوية ••• عن المناطق التي تحدثت عنها • وقد ذكر هودسون أن هذه الرحلة تحتوي على معلومات لم يسبق للأوروبيين أن عرفوها ، حتى أولئك الذين رحلوا وكتبوا عن افريقية •

3 ــ مثلا عدد يوليو ، 1832 ، مجلد 32 • North American Review

والأهمية هذا النص ، على الأقل من وجهة النظر الأوروبية ، سارع الفرنسيون بترجمته وتداوله ، وقد كان الفرنسيون أكثر اهتماما عندئذ بافريقية من الأمريكيين • فقد ترجم السيد دافيزاك d'Avezac هذه الرحلة الى الفرنسية (من الانكليزية) وقرأ الترجمة فى جوان 1833 على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية فى باريس • ثم نشرها (4) بتعاليق هامة وتذييلات (لكنه لم يعلق على الجزء الخاص بالدرعية واكتفى بالترجمة فقط) • كذلك نشرتها بالفرنسية ، قبل دافيزاك ، مجلة (أخبار الرحلات الجديدة) (5) •

أما نصها الانكليزي فقد نشره هودسون في وقائع لجنة الترجمة من اللغات الشرقية ، فى 29 صفحة ، ثم لخصته سنة 1832 مجلة (نورث أمريكان رفيو) • وكان موضع اهتمام وتعاليق الباحثين فى هذا الميدان •

وقد ذكر هودسون أن النص الأصلي كان مكتوبا بخط مغربي غير جيد وغير دقيق ، وأن حجم المخطوط بلغ أربع عشرة صفحة • وقد أرفق الترجمة بقائمة الاعلام الواردة فى النص مضيفا الى جانبها نطقها بالحروف اللاتينية ، ملاحظا أن هناك خللا فى كتابة بعض الاعلام مثل (متليلي) التي قال انها وردت فى الأصل (متليل) •

وأخيرا فان ادعاء الحاج ابن الدين بأن بعض القبائل في شمال افريقية تتحدث القبطية هو ادعاء يحتاج الى أدلة ، ومثله ادعاء هودسون بأن تلك القبائل لم تكن تتحدث سوى لهجة بربرية متأثرة بالفينيقية •

ان تاريخ النص غير مؤكد ، فرغم أنه يحمل فى نهايته تاريخ ربيع الثاني سنة (1242 — 1826) ، فانه يحتوي داخله على تاريخ آخر وهو 1243 • ومهما كان الأمر فان أحدهما على الأقل خطأ • والغالب أن يكون النص مكتوبا فى نهاية عهد هودسون بالجزائر ، أي حوالي 1829 ، ولا نظن أن يكون هودسون قد تعرف على الجزائر وجغرافييها بعد سنة واحدة من وصوله (وصل 1825) •

---

4 — في كتابه (دراسات في الجغرافية النقدية) باريس 1836 •
Etudes de géographie critique

5 — Nouvelles Annales de voyages (نوفمبر 1832) •

وقد حرصت قبل ترجمة هذا العمل على الوصول الى النسخة الأصلية ــ نسخة المؤلف ــ فلم أفلح • فقد صورت ترجمة هودسون فلم أجد معها النص العربي ، وبحثت عن أوراق هودسون الشخصية لعلها تكون بينها فلم أحصل على طائل رغم أنني عرفت أن هذه الأوراق قد تكون فى وثائق الجمعية الفلسفية الأمريكية بفيلاديلفيا أو لدى احدى العائلات بنيو انقلاند بأمريكا ، وتوقعت أيضا أن تكون ضمن المخطوطات العربية والفارسية والتركية المنسوبة الى هودسون والموجودة فى مكتبة الكونغرس الأمريكي • ولكني للأسف لم أستطع رؤية هذا العمل • فهل يكون النص العربي لهذه الرحلة ضمن تلك المخطوطات ؟ وقد سبق أن قلت انني سألت بعض مثقفي الأغواط عنها أيضا فلم أجد لها أثرا عندهم ولو عثرنا على النص فى لغته الأصلية لاهتدينا الى الاعلام الصحيحة ولتمكنا من تصحيح أو تغلبط المؤلف والمترجم •

هذا ولابد لي فى النهاية من شكر زميلي الدكتور عبد الله ركيبي الذي صور لي من المتحف البريطاني النص الكامل لترجمة هودسون للرحلة ، وكنت قبل ذلك قد اطلعت فقط على خلاصتها منشورة فى مجلة (نورث أميريكان ريفيو) وعلى نصها بالفرنسية كاملا فى كتاب دافيزاك (دراسات فى الجغرافية النقدية) • كما أود أن أخص بالشكر الشيخ محمد الطاهر التليلي القماري الذي قرأت عليه الترجمة العربية فصحح لي نطق بعض الاعلام ، كما صحح لي بعضها ابن عمي الحاج صالح سعد الله ، الخبير فى مسالك الصحراء الجزائرية الشرقية (*) •

الجزائر في 25–12–1981

(*) ــ نود أن ننبه القارىء الى أن جميع الاحالات (الهوامش) في هذه المقدمة وكذلك في نص الترجمة انما هي من وضعنا •

مدخل

لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة فى شمال افريقية قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي ، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب مني ، وقد دفعت له الثمن .

انني أعتقد أن الرحلة تحتوي على معلومات تهم جغرافية اقليمية ، بحيث قد تكون مفيدة للرحالة فى المستقبل . ان معظم المدن والشعوب التي تحدث عنها ابن الدين غير معروفة معرفة جيدة ، بل ان بعضها لم يشر اليها أي رحالة أو جغرافي أوربي من قبل ، حتى ليون الافريقي نفسه لم يذكرها .

ان هدفي الأساسي من الحصول على هذا المخطوط هو التأكيد على امتداد رقعة اللغة البربرية . وقد أظهر المخطوط ، لحسن الحظ ، أن هذه اللغة هي لسان السكان فى كل مكان بشمال افريقية ، وأن الافتراض بأن بعض القبائل بجوار طرابلس تتكلم اللغة القبطية ، يكفي لتبرير بحث فى لهجة تلك القبائل . وانني أتوقع أن تكون تلك اللهجة هي البربرية بعد أن أفسدتها الفينيقية مؤكدين ما كان أكده سترابو .

وليام ب . هودسون
وزارة الخارجية الأمريكية
واشنطون ، 3 سبتمبر 1830

ملاحظة من الناشر (الانكليزي) :

ان المخطوط العربي الأصلي مكتوب بالخط المغربي ، وهو فى حوالي أربع عشرة صفحة ، ولكنه خط غير جميل ودقيق • وسيلاحظ المتخصص فى الدراسة العربية من نظرة فى ثبت المفردات ان (متليلي) تظهر فى الأصل (متليل) وأن (اخواليد) فى الأصل (اخويلد) •

(الناشر)

نص الـرحـلة

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه •

ان هذا الكتاب يحتوي على وصف مختلف البلدان والأماكن من قبل الحاج ابن الدين الأغواطي (1) •

الأغـــواط :

ان الأغواط بلدة كبيرة ، وهي محاطة بسور وحولها تحصينـات • ولها أربعة أبواب وأربعة مساجد ولغة سكانها هي العربية • وهم يرتدون الملابس الصوفية ولا تخرج فيها النساء المحترمات من بيوتهن أبدا • ولكن غيرهن يظهرن فى الشوارع • وليس فى هذه البلدة حمامات • وهي تنتج الفواكه بكثرة ، ومن بينها التمر ، والتين والعنب ، والسفرجل ، والرمان ، والأجاص •

ويقسم وادي امزي الأغواط الى شطرين ، وهو يجري وسطها • وهذا الوادي مشهور فى الناحية • أما السكان فهم فريقان : فريق يسمـي الأحلاف ، وفريق يسمى أولاد سرقين • وهم غالبا فى حالة حرب بينهم • وسبب الخصومة بينهم على العموم هو رفض فريق منهم طاعة شيخ البلدة • وتوجد شرقي الأغواط آثار بلدة قـديمة كـان أمراؤها مسيحيين (2) • والى هذه الأيام يرى المشاهد كثيرا من النقوش فى هذه الآثار •

1 ـ يلاحظ القارىء أن عبارة ابن الدين في هذه الديباجة مقتضبة وجافة ولا تتلاءم مع ما اعتاده مؤلفو عصره •

2 ـ لم يذكر المؤلف هذه البلدة ، ولعله يعني بالمسيحيين «الروم» أو الرومان •

وقد بنيت بلدة الأغواط من الطين بالدرجة الأولى • غير أن بعض المنازل مبنية بالحجر والملاط وليس للمساجد فيها منارات ، كما أنه ليس لهذه البلدة مكان مخصص للسوق ، ولا حمام • أما العملة المتداولة فيها فهي عملة الجزائر وفاس ، والتجارة فيها رائجة • ولا تقترب العقارب ولا الطاعون منها لأنها مبنية في موقع مفضل • وهذه الناحية كثيرة الجبال ، وفى الجهة الشمالية منها جبل صخري ضخم •

تجمعـــوت :

وعلى مسافة مسيرة يوم شمال الأغواط تقع قرية تجمعوت • وينقسم سكان هذه القرية الى فريقين ، وليس لهم رئيس أو حاكـم ، وهـم يتحاربون فيما بينهم كما يفعل أهل الأغواط • وبيوتهم مبنية بالحجر والطين • وعلى الجهة الشمالية من تجمعوت جبل عال جدا يسمى جبل عمور ، وهناك أيضا جبل من الملح بالقرب من جبل عمور •

عين ماضي :

ان هذه البلدة تقع غربي تجمعوت ، وهي محاطة بأسوار تشبه أسوار طرابلس ، ولها بابان عظيمان ، ولحاكمها الذي يسمى ولد التجيني (3) ، حوالي مائة عبد وخزنة مليئة بالنقود ومنذ سنتين فقط (أي سنة 1243 هـ) جمع أخوه جيشا بهدف الزحف على وهران والاستيلاء على خزنتها ، وقد انضم جميع عرب الناحية المحيطة الى لوائه ، وزحفوا بالطبول والمزامير ، وأعطيت لهم الخيول والخيام • وقد سقطت مدينة معسكر فى أيديهـم

3 — وقعت حملة محمد التجيني (التجاني) بن الشيخ أحمد التجاني ، مؤسس الطريقة التجانية ، على وهران سنة 1242 ، وتفاصيلها في عدة كتب منها محمد بن يوسف الزياني (دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران) تقديم وتعليق الشيخ المهدي البوعبدلي ، الجزائر 1978 ، ص 241 ، وكذلك (مذكرات الحاج الشريف الزهار) تحقيق الشيخ أحمد توفيق المدني ، الجزائر 1974 ، ص 159 ، ويبدو أن هناك غموضا في التاريخ الذي ذكره الأغواطي ، فعبارة « منذ سنتين » بالنسبة لعام 1243 هـ تدل على أن الحادثة وقعت سنة 1241 ، بينما الحادثة في الواقع جرت سنة 1242 ، والغريب أنه هو نفس التاريخ الذي ذكرناه في آخر الرحلة ، ولعل هذا الغموض هو الذي جعل السيد دافيزاك يقترح أن يكون تاريخ الرحلة هو 1249 وليس 1242 ، انظر المقدمة .

وتقدموا نحو وهران ، غير أن باي وهران وزع الدراهم على عرب الحملة بهدف هزيمة هذا الجيش • وقد نجح الباي فجعلهم بذلك يسحبون تأييدهم لولد التجيني الذي قتل فيما بعد اثر هجوم قام به الباي ضد جيشه •

وها هو أخوه الآن حاكم لعين ماضي • ونه عمام فى وسط البلدة • ومن بين أملاكه الفخيمة سروج وتحف مطرزة بالذهب • كما أنه يملك مكتبة كبيرة •

وتظهر نساء عين ماضي فى الشوارع • والمسافة بين هذه البلدة والأغواط مسيرة يوم •

جبل عمـــور :

ان جبل عمور جبل عال جدا وفيه مائة عين جارية • وينبع منه نهر كبير يسمى نهر الخير وهو مشهور عند الجميع • وأرض هذا الجبل صالحة للزراعة • وفيه كل أنواع الخشب • ويقدر طوله وعرضه بحوالي مسافة يومين لكل منهما • والسكان هناك يربون الابل ، وبعضهم يربي المعز والغنم • وهم من أجود الفرسان • ولغتهم هي العربية • ولا يحكمهم أي سلطان • ويقدر عدد المسلحين فى جبل عمور بحوالي ستة آلاف شخص ، بينما عدد مسلحي عين ماضي حوالي ثلاثمائة رجل ، أما مسلحو الأغواط فحوالي ألف •

رحلة من الأغواط الى متليلي بوادي ميزاب

ان المسافة بين الأغواط ورأس الشعب يوم واحد • وليس فى رأس الشعب ماء ، ولا تنمو فيها سوى شجرة البطم • ومن رأس الشعب الى سافل الفياض مسافة يوم • وليس فى هذا المكان ماء أيضا • ومن هناك الى الخدم مسافة يوم أيضا • وفى الخدم تنمو شجرة البطم • ومن هناك الى اللفحات • ويوجد هنا جبلان كبيران من الصخور • ومن اللفحات يصل المرء الى متليلي •

متليـــلي :

ليس لمتليلي أسوار وليس فيها ما ءباستثناء ما يستخرج بالطواحين ، ووجه الأرض هنا ليس رمليا منبسطا بل هو عبارة عن هضاب مغطاة بصخور حادة ، تقطع كالسكاكين . وينمو هنا النخيل وقلما تنزل المطر . ولغة السكان هي العربية والبربرية . وهم يركبون الجمال ، ومسلحون بالبنادق والسيوف وتقع هضاب وادي ميزاب شرقي متليلي .

وادي ميزاب :

وفى هذا الوادي ستة بلدان وقرى أكبرها غرداية (4) . وتضم هذه البلدة ألفين وأربعمائة مسكن ، بما فى ذلك المساجد . ولا يستخرج الماء الا من الآبار . وغرداية لها سور ولها سوق كبير ، ومنارتان وبوابتان فى السور . وهي ليست تحت نفوذ أي سلطان . ويتكلم السكان فيهـا البربريـة .

ويختلف الميزابيون فى مسائل الدين عن العرب . فهم يرفضون تقديس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم يعارضون أهل السنـة ولكنهم يتفقون فى المذهب مع الوهابيين (5) والفرس وسكان عمـان ومسقط . وكل هؤلاء الناس معتزلة (6) . وأهل الميزاب مقتصدون جدا وهم لا يدخنون الدخان ولا يشربون الخمر ، وفى وادي ميزاب أشجار النخيـل

طريقة صنع البارود :

وجميع سكان هذه الصحاري يعرفون فن صناعة البارود . وطريقتهم فيه هي هذه : يجمع التراب من الأرض أو من الملاط فى القرى المهدمة .

---

4 ـ أما المدن الخمس الباقية فهي بني يزقن ، وبو نورة ، والعطف ، ومليكة ، وسيدي سعيد .

5 ـ الظاهر أنه يقصد الموحدين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين سيتحدث عنهم ، أنظر حديثه عن الدرعية .

6 ـ هذا الحكم يوضح ضعف ثقافة الأغواطي الدينية ، اذ يبدو أنه لا يفرق بين الشيعة والخوارج والمعتزلة ، وعلى كل حال فان الميزابيين في نظر أهل السنة خوارج وليسوا معتزلة .

وهذا التراب الذي كان فى الأصل من مادة مالحة يوضع فى ماعون ويصب عليه الماء ، بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون • ثم يغلي الماء الى أن يصبح خاثرا • ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى•

وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعا في غضون أربع ساعات ، فتصير بارودا • وفى الصحراء منجم عظيم من الرصاص • والعرب يأتون منه بكميات لبيعها ، ولا يقع هذا المنجم تحت سلطة أية قبيلة • وهو يقع شرقي أولاد نائل ، وهو يسمى جبل الرصاص •

رحلة من متليلي الى المنيعة

ومسيرة يوم من متليلي تصل الثماد (7) ، حيث كثير من آبار الماء ، كما أن الحلفا تنمو هنا • ثم تصل من هناك الى الشارف ، حيث بئر للماء ، عمقه عشرون ذراعا • أما المحطتان الأخريان بين الشارف والمنيعة (8) فهما السعداني ووادي الشهب ، وفى السعداني بئر للماء ونبات الحلفا أما فى وادي الشهب فلا وجود للماء •

المنيعة :

تقع هذه القرية وسط الرمال وليس لها ماء باستثناء ما يجلب من الآبار • وسكانها يسمون بالشعابنة وهم يتكلمون العربية ، ويركبون الجمال ، وليس لهم خيول • وسلاحهم من السيوف والبنادق والرماح ، ولباسهم من الصوف • وليس لهذه القرية سور • والنساء هنا كالبدويات يذهبن الى الآبار ويسقين الماء ثم يحملنه على ظهورهن فى القرب • وتنتج المنيعة التمر والحلفا •

7 — جمع ثمد ، حفنة الماء .

8 — في الأصل القليعة .

ورقـــلة :

والمسافة بين المنيعة وورقلة مسيرة خمسة أيام ، وورقلة بلدة كبيرة جدا ، ولها سور يحيط بها فيه عدة أبواب • ويحكمها سلطان • وهي مقسمة بين ثلاثة عروش هم : بنو واقين (9) ، وبنو ابراهيـــم ، وبنـــو سيسين ، ولغة السكان فيها هي البربرية • وتعج ورقلة بأشجار النخيل •

ولورقلة منابع مائية كثيرة • والماء فيها يجذب بالطريقة التالية : يحفر البئر على عمق مائة وسبعين ذراعا حيث يصل الى البحر الحلو فيمتليء البئر فى الحال بالماء ، ويصبح جدولا جاريا •

وسكان ورقلة يسمون الرواغة (10) ، ولونهم أسود ، ولباسهم من الصوف والقطن ، ولكن البلدة كلها عبارة عن سبخة من الملح • ويدخل فى نطاق ورقلة أيضا مكان يسمى الشط ، كما أنه يمكن للعين أن ترى القرى الآتية من أعلى منارة فى ورقلة ، وهي : الرويسات ، وعجاجب ، ومقوسة ، أما جنوب ورقلة فكله رمال لا نهاية لها ، وهي تمتد كذلك الى بر العبيد •

رحلة من المنيعــة الى توات

والمسافة بين المنيعة وأوالن مسيرة ، وفى أوالن آبار ، وكذلك التمر ، وتقع هذه القرية فى الصحراء ، وهي مبنية بالطين ، والسكان هنـــاك يتكلمون العربية •

ومن أوالن الى الأحمر مسافة يوم ، وفي هذا المكان بئر عمقه حوالي ثلاثين ذراعا • ومن الأحمر الى بئر النهل مسافة يوم •

— ومن بئر النهل الى بئر اللفعاية مسافة يوم •

— ومن بئر اللفعاية الى بئر الزرق مسافة يوم •

---

9 ــ تنطق أيضا (واجين) •

10 ــ هذه التسمية سيطلقها الأغواطي على سكان تقرت أيضا ، وهو يكتبها (اروواغة) •

— ومن بئر التارقي الى بئر الزرق مسافة يوم •

— ومن بئر الزرق الى بئر بدمام مسافة يوم •

— ومن بئر بدمام الى تيميمون مسافة يوم •

تيميمـــون :

ان تيميمون بلدة كبيرة ، ولكن ليس لها أسوار تحميها لأن منازلها جميعا متراصة • ولها سوق عظيم • وفيها التمر ، بالاضافة الى غيره من الثمار ، وفيها مياه غزيرة • ويوجد فيها أيضا الشب الأحمر وأهلها يتكلمون البربرية • وأغنامهم ، مثل غنم السودان ، مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز ، ولها أذناب طويلة • وتوجد فيها الخيول بكثرة • ويصل الماء الى وسط البلدة حيث يحضرونه فى الأنابيب • ولها سوق يباع فيه العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة • ويباع تراب الذهب بوزن المثقال بالأوقية • ويختلف لون بشرة السكان ، فهناك البشرة البيضاء والحمراء والسوداء • وهم يلبسون الثياب الصوفية والقطنية ، مع ساي أسود اللون • ومنازل تيميمون مبنية بالطين أو الطوب ، ولها أربعة مساجد وأهلـها يملكون قطعانا كبيرة من الماشية ، وللطوارق تجارة معهم • وهم مسلمون صادقون يؤدون الصلاة ، ويدفعون الزكاة ، ويقرؤون القرآن •

وجنوب تيميمون تقع قرية أوقروت وقرية أولف •

أولـــف :

تعتبر أولف البلدة الرئيسية فى واحة توات ولها نفوذ عـلى جميع المنطقة • والسلطان فيها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول • وله سلطة توقيع العقوبة والسجن • وهو يمتلك الخيول والرجال ، ولكن ليس له خزانة دراهم •

وبلدة أولف محاطة بأسوار مبنية بالطين وفيها الماء الوافر والتمر ، وللسكان عدد كبير من العبيد • وتقع جنوب أولف قرية طيت ، وفي غربها تقع قرية أخرى تسمى توات الحناء وتنتج هذه البلاد الحناء ، والتمر بكميات وفيرة ، وجدران المنازل مبنية بالطين ، وفي توات عدد من المساجد والسكان فيها يصومون ويصلون ويقرؤون ويزكون • وهم تحت نفوذ سلطان أولف ، ولغتهم البربرية •

عين صـــالح :

وبعد توات تأتي عين صالح في الجنوب ، ثم تأتي بلاد السودان في أقصى الجنوب حيث يتردد التجار لشراء العبيد وتراب الذهب •

القــــورارة :

تقع هذه الواحة مسافة يوم من تيميمون • وتضم حوالي عشرين قرية ، جميعها تسقى بالماء ، عن طريق القنوات • ويلبس السكان ثيابا من الساي الأسود ومن الصوف • ولغتهم هي البربرية ولونهم يميل الى السواد ، والعملة المتداولة هي عملة فاس • وفي الغرب من القورارة وعلى مسافة عشرين يوما تقع بلاد شنقيط •

شنقيـــط :

يربي أهل شنقيط الابل ، وطعامهم الأساسي هو ألبان ولحوم تلك الابل ، أما القمح والشعير فغير معروفين لديهم •

ويقرأ سكان شنقيط القرآن بكثرة ، حتى النساء يقرأنه • وقد يرى الرجل وهو يقرأ القرآن لأمه وزوجه ، ويفتخر السكان بالتواصل الاجتماعي • وليس لشنقيط سلطان • أما الثمار المنتجة فهي التمر وزهور اللوتس وقليل من البطيخ •

تنبكتـــو :

وتقع تنبكتو بالقرب (11) من شنقيط ـ وهي فى الجنوب الشرقي منها ، أما فى الغرب فيوجد البحر المالح (12) • وعندما يتوجه سكان شنقيط الى مكة حاجين يسيرون عبر السودان ، وهو الطريق الأقرب لهم ، أو يعبرون وادي درعة في المغرب الأقصى •

رحلة من السودان الى واحة توات

تبدأ القوافل من السودان رحلتها فى بداية السنة فقط • ففي هذا الفصل يتجمع التجار في عدد كبـير بهـدف السفر مع بعض والحراسة ضد هجوم الطوارق الذين لا يخضعون لأية حكومة ، وتصنف الجمال صفوفا وراء بعضها البعض ، وكل صف فيه مائتا بعير • وبهذه الطريقة تعبر القوافل الصحراء •

ان البضائع المستوردة من السودان هي العبيد وتراب الذهب • وفي مقابل ذلك تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج وأمثالها من السلع •

رحـلة من ورقلة الى غدامس

ومن ورقلة الى سيدي خويلد مسيرة يوم • وسيدي خويلد قرية وسط الرمال ، وفيها الماء والتمر ، وجدرانها من الطين ، والسكان يتكلمون العربية ، وهم يستعملون الجمال للركوب ويلبسون الثياب الصوفية •

ومن سيدي خويلد تسير نحو حاسي الناقة حيث بئر للماء وسط سبخة معروفة فى تلك الناحية •

---

11 ـ هذا التعبير (بالقرب) غير دقيق ، ذلك أن بين شنقيط وتنبكتو مسافة شاسعة ، ولعل عدم الدقة هنا تبرهن على أن الأغواطي لم يزر هذه الأماكن كما زار غيرها .

12 ـ يعني المحيط الأطلسي •

ومن حاسي الناقة الى العين ، حيث نبع ماء على وجه الأرض ، وجميع هذه النواحي عبارة عن مساحات شاسعة من الرمال ولا وجود فيها لحجر أو هضبة ماعدا كثبان الرمال .

ومن هناك الى العاقر ، وهو كثيب من الرمل . أما المحطة الموالية للعاقر فهي الطيبات ، والطيبات قرية وسط الرمال وليس لها أسوار . ولكن فيها كثير من آبار الماء ، كما أن التمر وغيره من الثمار تنتج فيها بكثرة .

ومن الطيبات تسير نحو الأبتر ، وهو عبارة عن واد جاف ، ومن هناك الى واد كبير يعرف بوادي سوف .

وادي سوف :

وفي وادي سوف عدد وافر من الدشور يمكن أن توفر عشرين ألف رجل وحصان ومهاري . وهؤلاء السكان يعيشون على التمر وحليب الابل ، ونساؤهم يذهبن الى السوق غير محجبات ، كما يظهرن فى البساتين ، ويشيع بينهن الخنا كثيرا (13) . ولا يخضع سكان وادي سوف الى حاكم ، وهم دائما ينظمون الفرق ويسلبون العرب من أملاكهم ، ويصلون بغزواتهم الى أراضي الطوارق . وهم يتكلمون العربية . وأهل سوف يتمتعون باستقلال كامل ، ولم يطيعوا أبدا أي سلطان ومعظم تجارتهم مع غدامس . ففيها يبيعون العبيد . وبعض السكان جعلوا من هذه التجارة حرفة بحيث يذهبون الى السودان مع التجار من غدامس ، وذلك بهدف جلب العبيد .

ومن وادي سوف الى عميش مسافة يوم . وقرية عميش تقع على الحدود الجنوبية من وادي سوف ، ومنازل عميش مبنية بالطين والآجر، ولا وجود للصخور فيها .

---

13 ـ لعل الأغواطي يشير (بالخنا) الى العادة التي كانت منتشرة في سوف وهي لقاء الشبان والشابات للتعارف والتفاهم على الزواج ، وكان هذا اللقاء يتم على مرأى الجميع ، في المناسبات الاجتماعية والمواسم وفي الطرقات العامة ، ورغم شهرة التعفف في هذه العادة فان فتيات العائلات التقليدية المحترمة لا يشتركن فيها .

ومن عميش الى غدامس مسافة ثمانية أيام • والأرض الواقعة بينهما عبارة عن خلاء كامل ، ولا يطرقها العرب • وليس فيها قرية ولا ماء ، ولا تختلف عن بعضها لا بهضاب ولا بصخور • ولا يرى المشاهد فيها سوى كثبان الرمال بلا نهاية • ولا يعيش فى هذه الأرض لا الذئب ولا النمر ولا الأسد ، وذلك راجع الى شدة الحرارة والعطش • وليس فيها من الحيوانات سوى النعام وبقر الوحش •

طريقة صيد النعام :

وفيما يلي طريقة صيد النعام • ذلك أن الصياد يركب فرسه ويأخذ معه الطعام الضروري ، كما يأخذ بعض الماء • وهو يسير ببطء الى منتصف النهار ، وفي هذا الوقت يتجمع النعام فى قطعان تبلغ المائة أو تزيد • وبمجرد ما يلمح النعام الانسان يطير هربا منه • ويطارده الصياد أربع ساعات أو أقل • وفي هذا انوقت يكون ركض النعام قد خف من شدة العطش والخوف ، أما الصياد فيشرب الماء اذا عطش ، وأخيرا ينجح الصياد فى القبض على النعامة التي يكون العياء قد أدركها والتي جفت أحشاؤها من الحرارة • ويضربها الصياد ضربة على رأسها فتسقط على الأرض ، ثم ينزل الصياد من على فرسه ويقطع أوداج النعـــامة •

ويرافق الصياد رجل مهمته حمل مؤونته من الطعام والماء • وهذا الرجل يتبع آثار الصياد المتروكة على الرمال الى أن يلتحق به • ثم يتعاون الصياد مع رفيقه على وضع النعامه على ظهر جمل ويعودان بها الى بلادهما • وذلك هو وصف صيد النعام •

غـــــدامس :

وغدامس بلدة كبيرة مبنية بالطين أو الطوب • وفيها تمور كثيرة ، وسكانها يتكلمون البربرية ، ولباسهم من الصوف والقطن •• وبشرتهم سوداء • ونساؤهم متحجبات • وفي غدامس عدد كبير من العلماء والطلبة • وفيها سوق عظيم ، ولكن ليس فيها حمامات ولا طواحين

الخيل • والنساء يطحن الحبوب فى بيوتهن • وليس فى البلدة بزارات ، كما لا توجد زراعة خارجها •

وفي غدامس عدد كبير من العبيد ، وثمن العبد الواحد فيها حوالي ثلاثين دورو ، وثمن الأمة (14) هو نفس الثمن المذكور • وتقع بلدة غدامس وسط الرمال • والمسافة بينها وبين توات تقدر بأربعة وعشرين يوما • والأرض الواقعة بينهما واقعة تحت سيطرة الطوارق ، وليس فيها عرب (14) •

الطـــوارق :

والطوارق أناس أشداء ، ولهم بشرة شديدة البياض وهم يستعملون الابل للركوب ، وطعامهم من اللحم والحليب فقط ، وليس لهم حبوب اطلاقا • وهم يرتدون الساي القطني الأسود وسراويلهم تشبه سراويل المسيحيين • والطوارق يصلون واقفين ، وهم يتلثمون بلثام من القطن • ولا يأكلون أو يشربون بحضور الناس • ويقومون بغزوات أو جولات فى السودان ويعودون بعدها بالعبيد وغيرهم من البضائع • وهذا بيان كامل ومفصل عن الطوارق •

مطماطـــة ونواحيها

ومطماطة قرية تقع على قمة جبل لا ينزل المرء منه الا بمنفذ خاص • وهذا النقب جاء نتيجة الحفر • والمنازل من الداخل عبارة عن غرف ، وهذه الغرف مبنية بالطين • ولغة السكان هي القبطية • فهي ليست البربرية ولا التركية ولا العربية ، بل هي النبطية (15) •

---

14 ــ ترجمها السيد هودسون بالأم Mather ولا شك أن الأغواطي قصد بها (الأمة) ــ أو الوصيفة ــ

14(مكرر) ــ لا شك أن الاغواطي يقصد بهم الأعراب أو العرب الرحل ، كما هو واضح في أماكن أخرى من النص •

15 ــ استنتج هودسون أن هذه اللهجة ليست القبطية ولكنها لهجـــة بربرية متأثرة بالبونيقية وسيكرر الأغواطي هذا المعنى في أماكن أخرى •

قـــابس :

وقابس قرية على ساحل البحر ، مسافة حوالي يومين من مطماطة • وعندما يرغب أحد من سكان قابس فى الزواج يفــر مع خطيبته الى مطماطة • ويتزوجها هــناك ، ويبقيان فى هذا المكان ستة أشـــهر ثم يعودان •

قبـــائل اخرى :

وتقع جربة مسافة يومين من مطماطة ــ نحو الغرب منها ــ وكذلك قبيلة النوائل تقع على مسافة يومين من مطماطة • وتأتي قبيلة محمد بعد قبيلة النوائل • وقبيلة محمد قبيلة كبيرة تسكن سلسلة جبال طويلة وليس لباشا طرابلس أية سلطة عليهم • ولهم حكومة خاصة منهم ، كما لهم عدد وافر من الجنود والخيل • وبينهم وبين باشا طـــرابلس حروب متواصلة ، وهو لا ينال منهم أية ضريبة •

ولغة قبيلة النوائل هي القبطية • وتتكلم القبائل الساكنة فى الجبال المجاورة كغريان وابن وليد ومسلاتة وغياثة جميعا نفس اللهجة • ونساء هذه القبائل تخرج بحرية الى الأسواق وهن غير متحجبات • والطعام الرئيسي لهؤلاء السكان هو الصقور والتمر • ويتــألف لباسهم من الحائك والسورية (القميص) ، وقليل منهم يلبسون البرنس • ويلبسون الشرشيحة فضفاضة جدا لدرجة أنها تغطي العيون •

ومن قبيلة محمد الى فزان مسافة شهر كامل •

وها نحن الآن نقص أشياء أخرى عما رأينا ووجدنا (16) •

تقـــرت :

تعتبر تقرت بلدة الثروة والرخاء • فهي تنتج التمر والتين والعنب والرمان والتفاح والمشماش ، والاجاص ، وغيرها من الفواكه ، وسوقها

---

16 ــ هذا التعبير يوضح أن الأغواطي كان يصف أمورا شاهدها بنفسه وليس عن طريق السماع .

كبير جدا • وهذه البلدة هي عاصمة المنطقة ولها نفوذ على أربع وعشرين قرية • وهي تحتوي على حوالي أربعمائة منزل ومحاطة بأسوار ولها أبواب وهذه الأسوار محاطة بدورها بخندق يمكن مقارنته ببحر من الماء • وهذا يتصل بعيون ماء تصب جميعها فيه • وعلى هذا الخندق ثلاثة جسور ، ولمساجد تقرت منارات عالية جدا •

وفي تقرت جماعة من الناس يسمون المجاهرية • وهم يقطنون حيا خاصا فى البلدة • وقد كانوا فى القديم يهودا • ولكنهم اعتنقوا الاسلام فرارا من الموت الذي هددهم به السكان • وهم الآن مواظبون على قراءة القرآن ويحفظونه عن ظهر قلب • ومازالوا يتميزون بالملامح الخاصة باليهود ، ومنازلهم ، مثل منازل اليهود ، تنبعث منها رائحة كريهة • وهم لا يتزاوجون مع العرب • ومن النادر أن يتزوج عربي بامرأة من المجاهرية •

ويختار حاكم (17) تقرت كتابه وخواصه من المجاهرية • ولكنهم لم يتولوا أبدا وظيفة القاضي أو الامام • ولهم مساجد فى حيهم من البلدة ، وهم يصلون فى المواقيت المحددة ماعدا يوم الجمعة فانهم لا يعتبرونه يوم عطلة • ولهم ثروة هائلة ، ونساؤهم تظهر في الأسواق محجبات ، ويتحدثن بالعبرية بينهن عندما يرغبن فى اخفاء موضوع الحديث (17) •

وحاكم تقرت يملك اسطبلا كبيرا من الخيول والسروج زخارفها مطرزة بالذهب • وتضرب الطبول أمامه • ويملك سلطة اصدار حكم الاعدام • وفي استطاعته احراق المنازل ، والاستيلاء على أملاك الأفراد•

ومن أعالي منائر البلدة يمكن مشاهدة عدد من القرى وغابات(النخيل) في المناطق المجاورة •فالنزلة وتيبسبست وتماسين والمقارين والمغير وغيرها

17 — كان حكام تقرت يسمون بسلاطين بني جلاب (أو الجلالبة) وتقول المصادر التاريخية أنهم من بقايا بني مرين ، وكان حكمهم يشمل في معظم الأوقات منطقة وادي ريغ ، ووادي سوف وورقلة ووادي ميزاب ، وكانوا خلال العهد العثماني مستقلين تارة وتابعين لبايات قسنطينة تارة أخرى وأحيانا كانوا يقعون تحت ضغط بايات تونس •

17(مكرر) — لا ندري ما مصادر الاغواطي عن تاريخ المجاهرية ، والحقيقة أن هؤلاء من أقوى المسلمين ايمانا ومن أكثرهم اعتزازا بالعروبة •

من الأربع والعشرين قرية المشار اليها ــ كلها ترى من منائر تقرت • وليس فى تقرت صخور ولكن منابع المياه فيها بكثرة • ويمكن تجنيد خمسة آلاف جندي • أما لون بشرة السكان فأسود وهم يسمون بالرواغة •

وهناك مشروب يسمى (اللاقمي) وهو شائع بين سكان تقرت وهم يستخرجونه من فروع النخيل وذلك بقطعها والضغط عليها (18) • فيحصل من ذلك شراب يميل الى اللون الأحمر وهو حلو كالشربات (المبردات) • وهذا الشراب يباع بمكاييل فى الأسواق •

وزمن الحراثة فى ناحية تقرت هو شهر أكتوبر وشهر مايو • ولا يأتي لهذا المكان عربي ماعدا المصاب بالحمى (19) • وهناك سبخة بتقرت ، بل الواقع أن كل الناحية عبارة عن سبخة • وما قدمناه هو وصف لتقرت •

جزيرة جربة

ان جربة جزيرة وسط البحر تحيط بها حوالي ثمانية عشر ميلا • وهذه الجزيرة الواسعة تنتج مختلف الفواكه : الزيتون والعنب والاجاص والرمان والتين واللوز ، ولكن النخيل لا ينمو عليها • والمطر ينزل بكثرة عليها • والجزيرة مقسمة الى أجزاء منفصلة ولكل منزل فيها حديقة متصلة به • والسوق واسع جدا ومنظم كثيرا • ويملك عدد من التجار فنادق أو مخازن • وجربة تابعة لباشا تونس الذي يعين عليها الحاكم •

ونساء جربة يخرجن ولكن محجبات • والمنازل مبنية بالطين وبعضها بالآجر • وسكان جربة من شعوب مختلفة • فالناحية الغربية التي يوجد

18 ــ هكذا ترجمنا العبارة ، ولا ندري التعبير الصحيح الذي استعمله الأغواطي في وصف استخراج شراب اللاقمي ، والواقع أن هذا العصير يستخرج من الجمار وهو قلب النخلة وليس من الفروع كما ورد في العبارة السابقة •

19 ــ هذا تعبير غامض ، ويفهم منه أن الانسان الصحيح لا يدخل مدينة تقرت ، وهو بعيد • وعلى كل حال فان تقرت مشهورة عند سكان الناحية بمرض يسمى (التهم) ــ بتشديد التاء وفتحها وفتح الهاء وسكون الميم ــ وهو نوع من الحمى وذلك في بعض فصول السنة •

مرساها قبالة قابس ، يسكنها أناس يسمون أجيم لغتهم البربرية وهم يقرأون القرآن • ومذهبهـم يشبه مذهب الوهـابيين ومذهب بـني ميزاب (20) وبعضهم يرفض علي بن أبي طالب رضي الله عنه • هذه هي عقائد هؤلاء الناس ولكنهم لا يعلنونها أمام الملأ بل يخفونها • وهم لا يصلون برفقة المالكية ، ولهم مساجد خاصة بهم •

ولجربة أربعة أبواب : أجيم فى الغرب ، جرجيس فى الشرق ، مرسى السوق فى الشرق (21) ومرسى القنطرة فى الجنوب • ويصنع السكان الخزف ، كما يصنعون الجير ، بالاضافة الى كميات كبيرة من الزيتون الذي يبيعونه للعرب •

قبيـــلة ورغمـة العـربية

ان هذه القبيلة منهمكة فى القيام بأعمال قطع الطريق • وهم من رعية باشا تونس •

قـــابس :

من قابس الى طرابلس عن طريق البر مسافة ستة أيام •

الدرعية (الجزيرة العربية)

وسنصف هذه البلاد وكذلك نجد والعرب الوهابيين • ان الدرعية بلدة كبيرة ولها أسوار وعدد كبير من الجنود للدفاع عنها من العرب الوهابيين (22) • ولهذه البلدة مساجد ، ولكن سكانها يختلفون فى OX

20 ـ مرة أخرى يقع الأغواطي في الخلط بين المذاهب ، والمعروف أن السكان الذين يتحدث عنهم يعتبرون عند أهل السنة من الخوارج ، بينما الوهابيون حنابلة سنيون .

21 ـ كذا في الترجمة ، تكررت عبارة (الشرق) ، ولعل الصواب : مرسى السوق في الشمال ، كما نص على ذلك السيد دافيزاك .

22 ـ يبدو أن الأغواطي كان يصف الدرعية ـ التي كانت عاصمة الدولة السعـودية (الوهابية) الاولى ـ قبل تخريبها من طرف جيش محمد علي والي مصر ، سنة 1818 .

عقائدهم الدينية عن سكان مكة • فهم لا يكنـــون احتراما للنبي ولا للصحابة (23) وهم يؤمنون بمعرفة الله وحده ولا يدعون للرسول كما أنهم لا يقرأون دليل الخيرات • فاذا وجدوه عند أي شخص فانهـــم يضربونه ويحرقون الكتاب • وهم لا يتسامحون مع التسبيح • فاذا وجدوا السبحة عند أحد يعاقبونه • وهم يعتبرونه مشركا ولذلك يدعونه الى التوبة الى الله • أن هؤلاء العرب يشكلون قبيلة كبيرة وليس فيهم من يتحدث البربرية • ويتألف لباسهم من قفطان من الصوف وحولهم حزام من سيور الجلد • ويعتصبون بمناديل الحرير المصبوغة بالزعفران • وهذه الصبغة لها مكانة خاصة بينهم ؛ وهي بثمن أربعة وعشرين دولارا بدراهمهم للرطل الواحد منها • وعملتهم تتكون من الدولار ومن عملة أخرى يسمونها ميشاش (24) والأسلحة المستعملة عندهم هي الرمـــح والجنبية التي توضع في الرمح •

والجنبية عبارة عن سيف مقـــوس طوله حـــوالي ذراع ونصـــف ؛ وهو حاد في قطع الرأس • والعرب تسمي هذا السلاح « عسيرا » •

وثمن الحصان في السوق ثلاثون جملا • والعرب تسمي أفرسهـــا « كحالية » وهم يعتبرونها شيئا ثمينا • ان هذه الخيول حيوانـــات جيدة • وهي في السرعة كالريح • وهي الآن نادرة الوجود • وهي لا توجد الا في اسطبلات أمراء مصر وسورية وفاس •

والسلطان الحالي للدرعية هو التركي ولد سعود (25) • وكان سلفه هو سعود • والبلدة مبنية بالطوب والجير والحجر • وعندما تقترح حملة

---

23 ـ هذا الوصف للوهابيين وما بعده يدل على وقوع الأغواطي تحت طائلة الدعاية التي نشرها خصوم الوهابيين ضدهم ، كما يدل على تأثره بالتصوف والتخلف الديني الذي أصاب العالم الاسلامي عندئذ .

24 ـ كذا هي مكتوبة بالحروف اللاتينية Meskchas ولا نعرف لها الآن نطقـــا بالعربية .

25 ـ بعد وفاة الأمير سعود الكبير • تولى ابنه عبد الله بن سعود ، وهو الذي استولت في عهده الحملة المصرية على الدرعية وأرسلت به الى اسطانبول حيث حكم عليـــه بالاعدام ؛ وبعد الحملة المذكورة (سنة 1818 ـ 1233 هـ) عاد الأمير فيصل بن تركي محاولا بناء الدولة السعودية من جديد (وقد توفي سنة 1865 م ـ 1282 هـ) ، فوصف الأغواطي لسلطان الدرعية عندئذ غير دقيق .

عسكرية يجتمع خمسون ألف عربي أو يزيد • ويوجد فى هذا الأقاليم شعوب كثيرة ومختلفة ، بعضهم من عبدة النار وبعضهم يعبدون الشمس، وبعضهم يعبدون فروج نسائهم وحيواناتهم ، عفانا الله من هذا (26) •

ان هؤلاء العرب لا يركبون خيولهم دائما مسروجة • فاذا كانت معركة ستدور فى الجبال فانهم يركبون بدون سروج ، ولكن السروج تستعمل فى السهول حيث يركب العرب بسيوفهم • وبعض النسوة يحاربن الى جنب أزواجهن • ولهم تموين وافر من السلاح • ولون البشرة لهؤلاء الناس يميل الى الحمرة •

ان ما سبق هو وصف لما رأيناه •

كتب فى شهر ربيع الثاني سنة 1242 (27) •

26 – يحتمل أن يكون هذا الحكم من آثار الدعايه المضادة للوهابيين على الأغواطي ، كما قد يفهم منه المبررات الاصلاحية التي نادى بها الوهابيون ما دام حال المسلمين في تلك النواحي قد وصل الى الحد الذي يصفه الأغواطي .

27 – هذا التاريخ محل نظر لأنه سبق للاغواطي أن ذكر تاريخا آخر ، وهو 1243 عند الحديث عن حملة التجاني على وهران ، وقد رجح السيد دافيزاك أن يكون هناك خطأ في أحد التاريخين أو فيهما معا ، واستنتج أن تكون الرحلة قد كتبت في آخر سنة 1829 الميلادية ، ولكن عبارة «منذ سنتين» عند الحديث على حملة التجاني توضح أن الرحلة كتبت سنة 1244 أو 1245 (أي آخر 1828 أو أول سنة 1829) ، ومما يزيد الأمر وضوحا أن هودسون قد غادر الجزائر سنة 1829 – أنظر المقدمة – لهذه الدراسة .

دراسة اجتماعية في دفتر محكمة المدية
أواخر العهد العثماني (1821 ــ 1839)

اطلعنا على دفتر هام يبدو أنه كان فى محكمة المدية قبيل الاحتلال الفرنسي وأثناء عهد الأمير عبد القادر • وهذا الدفتر ينقسم الى قسمين كبيرين : قسم الأحوال الشخصية وأخبار القضاة وقضايا البيع والشراء ، وأمور العتق والدية ، والعقود والمنازعات ، ونحو ذلك • والقسم الثاني عسكري يتعلق بعهد الأمير ومدى مساهمة المدية وأهلها فى المجهود الحربي ضد الفرنسيين : جمع الأموال والأسلحة والأغذية والملابس وتسجيلها وتصنيفها وارسالها الى خلفاء الأمير وممثليه •

ويهمنا الآن القسم الأول من هذا الدفتر ، وهو قسم الاحوال الشخصية وما اشتمل عليه من قضايا اجتماعية واقتصادية قد تساعدنا على فهم التطور التاريخي لمدينة المدية خصوصا والجزائر عموما • أما القسم الثاني من هذا الدفتر فسنعرض له فى مناسبة أخرى •

ولكن قبل الدخول فى تفصيل الدفتر نود أن نصفه للقراء • فهو يحتوي على حوالي 43 ورقة ، بعضها ليس فيها سوى كتابات قليلة وبعضها مكدس بالكتابة • وترقيم الصفحات بالأرقام العربية ، ولكنه ترقيم مضاف وغير منتظم • وما دمنا قد جلبناه من مكانه مصورا على الميكروفيلم فان بعض الصفحات جاءنا مكررا • ان أول تاريخ وجدناه فى هذا الدفتر هو 1237 (1821) ، أما آخر تاريخ فيه فهو 1255 (فيما يتعلق بالقسم الأول منه) وهو يوافق 1839 •

(*) ــ مجلة الثقافة ، عدد 81 (مايو ــ يونيو 1984) .

ويحتوي الدفتر على خطوط مختلفة باختام القضاة وبعضها بدون أختامهم • وهذه أسماء من وجدنا فيه من الكتاب الذين كانوا يوقعون أو ينقلون الأحكام الصادرة عن القضاة : محمد الخديم (المعروف أيضا باسم محمد بن المختار) ، ومحمد بن الفخار ، ومحمد بن رامول ، وعبد القادر بن محمد مزيغي ، والمولود بن محمد ، وعلي بن محمد المازري • ويرد اسم الأول بكثرة ، ويبدو أنه كان كاتب أو خوجة القاضي ، لأن محمد الخديم كان يكتب أحيانا عبارة « باذن الشيخ القاضي » بعد الوثيقة التي يحررها • وكثير من وثائق الدفتر تحمل طابع القاضي «أحمد بن محمد » الذي يظهر أنه اسم القاضي الحاج أحمد بن محمد بن الحاج سلامة ، الذي سيأتي تاريخ تعيينه •

ونظرا للصلة بين آخر عهد العثمانيين وعهد الأمير فى المدية فقد جئنا بالأخبار الواردة فى الدفتر عن التحولات التي طرأت على المدينة فى الفترة الانتقالية أيضا ، مثل تعيين قضاة الأمير ، وتبديل الموازين ، وانتشار العملة الجديدة الخ • غير أننا لم نذكر هنا الأخبار العسكرية أثناء عهد الأمير لأن الدفتر خلالها أخذ شكلا جديدا تماما ، كما أشرنا •

والمعروف أن مدينة المدية كانت عاصمة لاقليم التيطري ، أحد الأقاليم الثلاثة (والاثنان الآخران هما : وهران فى الغرب وقسنطينة فى الشرق) التي تتكون منها الجزائر خلال العهد العثماني • وآخر بايات المدية هو مصطفى بومزراق الذي لعب دورا غامضا أوائل الاحتلال وانتهى منفيا ، حيث توفي فى الاسكندرية بمصر • وكانت المدية مركزا حضريا هاما تضم عائلات عريقة بالاضافة الى عائلات أندلسية وأخرى تركية • ويظهر من أسماء المطلقين والمتزوجين أن بعض الجنود الأتراك كانوا يسكنونها أيضا • كما نجد أسماء لأناس واردين على المدية من نواحي أخرى بعيدة• كما تظهر الوثائق المسجلة في الدفتر أن المدية كانت مركزا لعدد من أصحاب الحرف • وقد تبدلت الأيدي على المدية فى أوائل الاحتلال ، فبعد نهاية مقاومة الباي بومزراق حاول الفرنسيون بقيادة كلوزيل شن حملة على المدية في 17 نوفمبر 1830 ، وهي المعروفة بالحملة الأولى ، أما الحملة الثانية فقد وقعت فى 25 يونيو (جوان) 1831 • أما جيش الأمير فقد دخل المدية سنة 1253 (1837) ، وقد جعل الأمير المدية

خلافة من خلائفه وعين على رأسها فى البداية أخاه مصطفى بن محي الدين ، ثم عزله وعين بدله الشيخ محمد البركاني •

ومهما يكن من أمر فان دفتر محكمة المدية قد عكس هذه التحولات • فوجدنا فيه أسماء قضاة العهد العثماني وأسماء قضاة العهد الأميري ، وحوادث عن حياة الناس فى العهد الأول وعن حياتهم فى العهد الثاني • وهكذا يصور لنا هذا الدفتر فترة حرجة من فترات تاريخ المدية ومن ثمة تاريخ الجزائر •

* * *

وقد صنفنا المعلومات التي وجدناها فى الدفتر كما يلي :

أ ــ تعيين القضاة والمفتيين وبعض أخبارهم

ب ــ أخبار عن الأمير فى المدية

ج ــ حالات الزواج

د ــ حالات الطلاق

هـ ــ حالات العتق وأفعال البر

ز ــ حالات التجارة والعقود والمنازعات

ح ــ حالات تقسيم التركات والديات ونحوها

ط ــ أخبار متفرقة

ي ــ استنتاجات

أ ــ تعيين القضاة والمفتيين وأخبارهم :

أول تاريخ يفتتح به الدفتر هو تاريخ تولية الشيخ الحاج أحمد بن محمد سلامة القضاء سنة 1238 (1822) • ولكن قبل تعرضنا لحياة القضاة نود أن نذكر أسماء المفتيين المذكورين فى هذا الدفتر • وأول المفتيين هو أبو القاسم الغربي الذي كان قد تولى الفتيا سنة 1172

والذي وردت اليه الاشارة فى الدفتر على أنه كان قد نصح بقراءة آية الكرسي 360 مرة يوم عاشوراء • والتاريخ المذكور تاريخ متقدم طبعا عن بداية الدفتر • ولم يذكر اسم هذا المفتي الا من أجل خبر دعائه لا من أجل تعيينه •

ولكن الدفتر يشير الى اسم مفتي آخر اسمه أبو القاسم أيضا ، وذلك سنة 1241 (1825) • والغريب أننا لا نجد مع هذا الاسم لقبا أو نسبة • وكل ما وجدناه هو العبارة التالية : تولى الفتيا فى المدية العالم •• المدرس أبو القاسم • والظاهر أنه ليس هـو أبا القاسـم الغربي السابق لوجود فارق الزمن الطويل بينهما •

وفي وثيقة بتاريخ 1245 (1829) أن المفتي فى المدية هو الشيخ محمد البصري • فقد نص فيها على ما يلي « الحمد لله ، ما وقع بحضرتنا هو كذلك ، وأنا عبده محمد ابن أحمد البصري ، المفتي يومئذ » • والوثيقة المذكورة هي شهادة على طلاق شاب يدعى الاخضر بن العربي الخليـفي •

أما المفتي الآخر الذي ورد اسمه فى الدفتر فهو الهواري بن أحمد البزاغتي • فقد ورد اسمه ضمن شهود على وثيقة تتعلق باعادة تنظيم مدخولات القضاة والعدول فى المدية ، وهي اجراءات اتخذها القاضي عبد الله بن صالح الذي سيرد اسمه بعد قليل ، وذلك أواسط ذي الحجة سنة 1252 (1836) •

ومن ثمة يتضح أن أسماء المفتيين بالمدية غير واردة فى الدفتر بصفة منتظمة مثل أسماء القضاة • اذ من الواضح أن هناك ثغرات زمنية لم يسدها الدفتر •

ولكن الأمر يختلف بالنسبة الى القضاة • وأول من افتتح به الدفتر منهم هو الحاج أحمد بن محمد ابن الحاج سلامة ، وذلك فى 20 شعبان، سنة 1238 • وقد جعل الحاج أحمد سلامة ختمه على هذه الشاكلة : (الواثق بالصمد ، أحمد بن محمد ، 1238) • ويوجد على جانبي

هذه الوثيقة أسماء الموثقين محمد بن الحاج حميدة بن الفخار (1) ومحمد بن راموL ، وتاريخ الكتابة هو 21 شعبان من نفس السنة .

وقد تكررت تولية الحاج أحمد سلامة للقضاء في تواريخ أخرى . ففي سنة 1241 وجدناه تولى من جديد . ثم تولاه مرة أخرى سنة 1248 . وقد وجدنا مع هذا التاريخ عبارة « بعد ما كان وعزل ثم رجع » والى جانب ذلك ختم هذا القاضي . ولكن الوثائق تتحدث عن تاريخ التولية ولا تذكر تاريخ العزل بالنسبة لجميع القضاة . ذلك أن القاضي سنة 1242 ، مثلا ، كان هو الحاج أحمد بن المفتي (2) .

يبدو أنه وقع تغيير سريع للقضاة خلال سنتي 1241 ، 1242 . فقد وجدنا في هذه الفترة القصيرة أسماء القضاة الآتين :

— الحاج أحمد سلامة (الذي سبق ذكره) سنة 1241 (الظاهر أنه استمر من 1238 الى 1241) .

— محمد بن محمد المحجوب ، حسب وثيقة أخرى محررة سنة 1241 أيضا .

— محمد بن الخلفة ، في وثيقة بتاريخ جمادي الثانية 1241 ، شهر شعبان سنة 1242 .

— علي بن سيدي المزاري (أثناء فترة لم نجد لها تاريخا) .

غير أن اسم القاضي سنة 1249 (21 شوال) هو الحاج أحمد بن الصحراوي . وقد جعل القاضي الصحراوي ختمه على هذا النحو : (الواثق بالعلي ، أحمد بن محمد الصحراوي ، 1249) . وهذا تاريخ توليته كما جرت العادة ، وقد سجل هذه الوثيقة الموثق المولود بن محمد .

---

1 — **توفي أحمد** (حميدة) بن الفخار يوم الجمعة 24 ذي الحجة سنة 1244 . وسجل ذلك صديقه محمد بن راموL بكثير من التأثر والأسف .

2 — سنة 1242 غير موجودة مع ذكر تولية هذا القاضي . ولكننا رجحناها لوجود النص نفسه في صفحة أخرى بالدفتر محررا بهذا التاريخ .

ويبدو أن الشيخ الصحراوي قد تولى فى فترة حرجة • ذلك أن احتلال الجزائر قد وقع عام 1246 ، وبدأت ضغوط الفـرنسيين على المدية تتوالى • فهل كانت تولية الشيخ الصحراوي من قبل الفرنسيين أو من قبل الأهالي ؟ •

ومهما كان الأمر فان أول القضاة ورد اسمهم وتعيينهم من قبل الأمير هو محمد بن أحمد البصري « على يد مولانا أمير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين ، 20 ربيع الثاني ، عام 1252 » • وقد سبقت الاشارة الى أن الشيخ البصري هذا كان قد تولى الفتوى بالمدية سنة 1245 •

ولكن لم تكد تمضي عدة أسابيع على هذا التعيين حتى وجدنا اسما لقاض جديد هو عبد الله بن عبد القادر بن صالح « العالم العلامة ، الحبر الفهامة ، المدرس المحقق » وذلك يوم الجمعة 12 جمادي الثانية ، سنة 1252 • ويبدو أن الشيخ عبد الله بن صالح قد عزل ثم عاد أيضا لأننا وان لم نعثر على تاريخ العزل فاننا وجدنا تاريخ التولية الجديدة وهو 3 صفر سنة 1253 •

ولا ندري ان كان لضياع ختم القاضي عبد الله بن صالح دخل فى عزله • فقد أعلن أن ختمه قد ضاع منه يوما واحدا فى هذه السنـة (1253) ، ثم عثر عليه ، وأشاع الخبر أن كل رسم وجد بغير العدالة لم يعمل به ولو كان بخط القاضي نفسه أو خط أخيه ، محمد • وقد سجل هذا الخبر والاعلان الموثق محمد الخديم « عن اذن القاضي » •

ومن أخبار الشيخ عبد الله بن صالح ذلك التنظيم الذي أجراه سنـة 1252 بالنسبة لمدخول محكمة المدية وأجور القضاة والعدول فيها • فقد اتخذ اجراء بصدد ذلك وأشهد عليه المفتي وبعض العلماء وذلك فى زمن الأمير عبد القادر • وخلاصة هذا الاجراء أن مدخول المحكمة يقسم الى ثلاثة : الثلث للقاضي والثلثان الباقيان يأخذهما العدول مهما كان عددهم • ويكون هذا الاجراء ساري المفعول مهما كان عدد العدول ومهما تغير القضاة • وتتحدث الوثيقة التي وجدنا فيها هذا الاجـراء عن أن

عدد العدول فى هذه السنة (1252) أربعة • ومدخول المحكمة يتكون من أجرة كتابة عقود الزواج وغيره ومن كتابة الوثائق مهما كانت • وتذكر الوثيقة أن الشهود كانوا أربعة وأنهم جميعا وضعوا خطوطهم على الوثيقة ، وقد شاهدنا نحن ذلك فى الدفتر • وهم : العالم أحمد بن محمد ، حفيد عبد الله الصحراوي ، « الحاكم عندئذ » (3) ، والعالم علي بن بهل الأغواطي نسبا سليل الشيخ سيدي معمر ، والعالم عبد القادر بن دحمان صهر الحاج عبد القادر السلطان يومئذ ، ومفتي المدية الهواري بن أحمد البزاغتي • وتاريخ الوثيقة هو أواسط ذي القعدة سنة 1252 •

غير أن الشيخ عبد الله بن صالح لم يبق في وظيفته سوى بضعة شهور هذه المرة • فقد وجدنا اسما لقاض جديد ولاه الأمير عبد القادر أيضا فى 19 من ذي القعدة سنة 1253 ، وهو الشيخ محمد السعيدي بن أبي زيان « سليل القطب الرباني ، السيد أحمد بن يوسف الملياني ••• على يد أمير المؤمنين مولانا السلطان السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين وقد جعل الشيخ محمد السعيدي ختمه على هذا الشكل (الواثق بالديان ، محمد بن زيان) •

وقد حدث نفس الضياع لختم القاضي محمد السعيدي أيضا ، ولكن لم يعثر عليه ، ولذلك أعلن فى المدية بأن قاضي الأمير محمد السعيدي بن أبي زيان ، قد ضاع منه ختمه ، المثمن الشكل ، أواسط ربيع الأنور ، سنة 1254 ، وأن القاضي قد غير شكل ختمه فجعله مستطيلا عموديا •

وكانت وظيفة القاضي هامة • فهو محل ثقة الناس وممثل للسلطة السياسية والادارية ، والساهر على تنفيذ أحكام الشريعة فى الأحوال الشخصية ، والعامل على الفصل فى المنازعات ، كما سنرى • وقد وجدنا فى الدفتر أن القاضي قد تولى أيضا تفريق راتب أحد شهداء مقاومة الأمير على ورثة الشهيد • فقد توفي مصطفى بن محمد بن مامي الذي كان عسكريا (جنديا) فى محلة محمد بن علال ، خليفة الأمير على مليانة •

3 — يفهم من هذا التعبير أن الشيخ أحمد الصحراوي كان شيخ مدينة المدية عندئذ (رئيس البلدية) • ويفهم من عبارة «عندئذ» و «يومئذ» التي بعدها أن تسجيل الوثيقة كان متأخرا • أما المصاهرة بين الأمير وابن دحمان فلا نعرف عنها شيئا

« وبعث سيدنا ، أيده الله ، راتبه الى الشيخ القاضي ويأمره بتفريقه على ورثته وقدره ستة دنانير فضية » • وبناء على الوثيقة فان القاضي قام بتوزيع الراتب على ورثة الشهيد المذكور . وذلك سنة 1255 (4) •

وقد ذكرنا من قبل اسم الشيخ الذي كان « حاكم المدينة » ، وهو أحمد الصحراوي ، وقلنا ان المقصود بهذه الوظيفة هو رئيس البلدية • ووجدنا ، بالاضافة الى ذلك شيخين آخرين شغلا نفس الوظيفة فى تواريخ مختلفة • أولهما أحمد الشقماقجي سنة 1240 ، وثانيهما الحاج الصوفي سنة 1244 ، الذي أضيف أمام اسمه عبارة « شيخ البلد » (5) • ويبدو ان الشقماقجي كان من الكراغلة ، بينما كان الصحراوي والصوفي من أعيان المدية • ومن الملاحظ أيضا أن حكام المدينة أو شيوخ البلدة (أي بلدة المدية) كانوا من علماء الوقت •

ب ـ اخبار عن الأمير في المدية :

يحتوي الدفتر على بعض الاخبار المتعلقة بالأمير عبد القادر أثناء تبعية المدية لحكمه • ومن ذلك خبر وصول الأمير نفسه الى المدية ، وتبديل العملة بعملة الأمير ، وتغيير الموازين على عهده ، ووقوع معركة متيجة بين جيش الأمير وجيش الفرنسيين ثم خبر يعتبر ، فى الحقيقة ، ضد الأمير نفسه •

فقد قدم الأمير الى مدينة المدية يوم السبت 17 من شهر المحرم سنة 1253 • وعبارة الوثيقة هكذا « كان قدوم سلطان الغرب السيد الحاج عبد القادر بن المرحوم السيد الحاج محيي الدين » •

---

4 ـ اسم القاضي غير مذكور في الوثيقة ، والظاهر أنه هو الشيخ محمد السعيدي الذي سبق ذكره .

5 ـ وجدنا في وثيقة أخرى بالدفتر أن الحاج الصوفي كان ما يزال حيا سنة 1255 وأنه أصبح طاعنا في السن .

وبعد ثلاثة أيام من وصوله أمر المنادي أن ينادي بتوضيح العملة على النحو التالي : صرف دور (بانيه) (6) أربع بوجه ، الأربعة بوجه والريال بوجه بأربعة دراهم ، والربع ابجه بريال دراهم .

وفي خبر آخر تاريخ شهر محرم أيضا عام 1254 جاء في الوثيقة أن صرف الأمير المضروب فى تاقدمت المحمدية قد دخل المدية فى هذه السنة ، وذلك على النحو التالي : أربعة فى ثمن الريال الجزائري ، وثمانية في ربع الريال . وجعلت فلوس المدية النحاس ، وفلوس السلطان اثنان فى الموزونة ، وكان العكس فى الصرف . والكاتبان للوثيقة هما المولود بن محمد ، وعبد القادر (7) . واسم الأمير يذكر دائما بهذه الصيغة « مولانا أمير المؤمنين .. نصره الله » .

وفي نفس السنة (ولكن بدون ذكر للشهر) تغيرت أيضا الموازين فى المدية بأمر الأمير ، وذلك على النحو التالي : فى رطـــل الخضرة والصابون وغيره ثمانية وأربعون وقية ، وكذلك التين والزيت والسمن والعسل ميزانها بالرطل المذكور .

ومن أخبار الأمير وقوع معركة فى متيجة بين جيشه وجيش الفرنسيين. ويبدو أن الهدف من تسجيل هذا الخبر هو اظهار مدى خسائر أهل المدية فى المعركة . وبناء على الوثيقة فان المعركة جرت « بين عدو الله الكافر الفرنصيص » والمسلمين ، وذلك فى مكان يسمى بحوش المبدوع ، يوم الثلاثاء 24 شوال سنة 1255 . وكانت خسائر أهل المدية فى المعركة 200 (مائتين) ونيفا ، لما حواه سور البلدة المذكور .

ولكن أيام الأمير في المدية لم تكن كلها بركة وخيرا على أهلها . فقد اضطربت فيها الأحوال وتفرق أهلها هاربين الى البـــادية ، لأن التنازع على المدينة بين الأمير والفرنسيين كان دواليك . وقد سجل أحدهم (وهو مجهول) انطباعا سيئا لما حدث أثناء عهد الأمير ، ولكنه

6 ـ كلمة (بانية) غير واضحة في النص .

7 ـ كذا ، ولعله عبد القادر بن محمد مزيغي ، الذي سبق ذكره ضمن الكتاب .

انطباع رجل مستسلم للقضاء والقدر ينتظر رحمة الله بالمدية وأهلها • وهو ، على كل حال ، لم يمدح عهد الفرنسيين أيضا • وكان هذا الرجل من ضحايا ما حدث فى المدية من تطورات •

وفيما يلي خلاصة لانطباع هذا الرجل المجهول : لما أراد الله القضاء على مخلوقاته المؤمنين أمر عليهم السلطان الحاج عبد القادر ، وكان على أهل المدية أن يفرغوا مدينتهم وأن يتفرق المؤمنون فى البادية والأعراش • لقد كانت أياما صعبة عانى فيها أولئك النازحون الى البادية من البرد والمطر والثلج • وقد ضج الناس ، وفيهم الصبيان ، بالبكاء من قلة الزاد • يا لها من أيام يشيب لها الولدان ! ان هذه الأيام كانت خلال شهر محرم سنة 1256 • وقد أضاف الكاتب ، الذي يبدو أنه من أصول عثمانية أو من أهل الدين الاستسلاميين ، انه انتقل شخصيا الى مكان يسمى (ماشطة) فى السابع عشر من الشهر المذكور • وكان فى ماشطة عند كتابة هذه الوثيقة التي ختمها بالدعاء بحسن العاقبة والخاتمة •

ج ــ حالات الزواج :

لا يضم الدفتر من حالات الزواج سوى حوالي اثنتي عشرة حالة • بينما حالات الطلاق تبلغ أضعاف العدد • وقبل أن نحلل ما في حالات الزواج من ظواهر اجتماعية واقتصادية نود أن نأتي على ذكر هذه المعلومات التي وجدناها فى احدى الوثائق بالدفتر ، وهي تتعلق بأنواع الصداق بالجزائر عموما وعنوان هذه الوثيقة بالضبط هو (بيان أصدقة الجزائر) ، وتوضيح ذلك أنها تعالج « ما هو مصطلح عليه فى الجزائر من أنواع الصداق ، وما يقابلها بالعملة ، وذلك فى حالات الموت والطلاق الخ • » ثم نجد هذا التوضيح الاضافي وهو « صداق الأربعمائة ذهبا » :

مائة زيانية وقية الجوهر بثمانين ذهبا ، وذلك عشرون زيانيا •

الفرد بـ 38 ذهبا وذلك تسع زياني •

ونصف قنطار الصوف بثمانية وعشرين ذهبا ، وذلك سبعة زيانية •

الأمة بمائتين ذهبا ، وذلك 50 زيانيا •

الحائك بـ 28 ذهبا ، وذلك سبعة زيانية •

قمطان الفضة بمائة ذهبا ، وذلك بـ 25 زيانيا • انتهى » •

ومما يلفت النظر أن ست حالات من الاثني عشرة كانت الزوجة فيها يتيمة ، ولكن تارة مع وجوب النفقة (حالتان) وتارة مع عدم وجوبها • ونلاحظ أن أنواع الصداق تتوزع كالتالي :

25 دينار فضية	6 حالات
12 ونصف دينار فضي	حالة واحدة
400 ريال دراهم صغار	» »
70 ريال بوجه	» »
60 بوجـــه	» »

أما الحالتان الأخريان فقيمة الصداق غير مذكورة فيهما •

ومن الملاحظ فى حالات الزواج أن كلها ، ماعدا اثنتين ، تخص زواج شبان ، يبدو أنهم كانوا مايزالون عند البلوغ • ولذلك نجد العبـــارات التالية مرافقة لأسمائهم « تزوج الولد الصغير » فـــلان ، أو « تزوج الشاب » فلان ، وأحيانا « تزوج الولد » فلان ، الخ • وفى حالة أخرى لم يذكر أي وصف يدل على سن المتزوج • وفى أغلب الحالات كان الزواج بين أهل مدينة المدية ، لاسيما بين الحضر ، ومن بينهم الكراغلة • ولكن فى حالة واحدة فقط وجدنا المتزوج من البادية « من دوار الغزارة » • ومن بين المتزوجين بعض العساكر الذين تذكر وظيفتهم « اليولداش » الى جانب أسمائهم • وقد وجدنا حالتين لهؤلاء العساكر • وفى حالة منهما كان وكيل الزوجة من اليولداش أيضا • وفى كلتا الحالتين كانت الزوجة من الكراغلة ، مرة بنت انقليز ، ومرة بنت حاج (بتشديد الجيم وكسرها) بشهادة زوج أمها ، طبال • ومـــن العائلات المتصاهرة : شلابي (شلبي) ، وقارة دنقز ، الكجيل • وهناك

عائلات أخرى أمثال : الغربي ، والحناشي ، آقليل ، الماحي ، الريغي • ولصغر سن المتزوجين كان الآباء أو الوكلاء هم الذين يتحملون ببقية الصداق أمام القاضي •

ولكن الفتيات كن أصغر سنا بكثير فيما يبدو : فهناك حالة زواج نص فيها على أن الزوج يتعهد بعدم أزالة بكارة الفتاة الا بعد أربع سنوات • وفى معظم الحالات كان التنصيص على أن الزوجة بكر • وفى حالة تزوجت الفتاة اليتيمة بدون ولي لأنها كانت فى حاجة الى النفقة • وقد لاحظنا أن معظم الحالات كانت لزواج فتيات يتيمات كن غالبا فى حاجة الى من يعولهن • وفى احدى الحالات وجدنا الزوج يلتزم لزوجته بأمور منها : النفقة على أولادها بعد العقد عليها ، وعدم اخراجها من المدية • وكثيرا ما يتأخر كتب عقد الزواج سنوات بعد وقوع الزواج فعلا • وهناك حالة واحدة كانت الفتاة فيها من عائلة معروفة فى المدية • وهي عائلة الغربي التي تولى أحدها الفتوى سنة 1172 ، وهو الشيخ أبو القاسم الغربي • وهي التي كان صداقها 400 ريال دراهم صغار ، وكانت صنعة بعلها « السيافة » ، وقد وقع تسجيل العقد سنة 1255 ولكن الزواج قد تم قبل ذلك بمدة •

وفى بعض الحالات كانت تقع « عادات فاسدة » كما جاء فى احدى الوثائق بين المتصاهرين • فقد ادعى أحدهم أمام القاضي أن ابنة عمه قد تزوجت فلانا بدون ولي شرعي • وبعد التأكد ، علم القاضي أن ذلك صحيح ولكن حاجة الفتاة الى النفقة جعلت الزواج شرعيا ، وأمر المدعي باسقاط دعواه • ومع ذلك فان الزوج «صالح» المدعي كما صالح أم الزوجة بأن أعطى للأول ثمانية بوجو وللأم ثلاثة بوجو • وعلق صاحب الوثيقة على ذلك بأنه كان «صلحا كما هي عادتهم الفاسدة» •

وتوجد حالات عديدة من ادعاء الاعتراض من الزوجة على الزوج ، وفي حالات أخرى كانت تدعي عليه أنه لم يزل بكارتها • وفي معظم الحالات كان القاضي يحكم بالتأجيل سنة فى هذه القضية • ونلاحظ هنا أن احدى حالات التأجيل وقعت بين عائلتين من الغرب الجزائري (أسرة ابن هني

وأسرة دحو) ، وذكر صاحب الوثيقة أن ضرب الأجل قد وقع فى محكمة وهران وأن قاضي الأربعاء بالعطاف قد وافق عليه • وسجل ذلك فى الدفتر الذي بين أيدينا سنة 1249 •

د ـ حالات الطلاق :

وجدنا حالات الطلاق ، بالقياس الى حالات الزواج ، كثيرة ، اذ هي 38 حالة ، وموزعة على النحو التالي :

طلاق بائن 26 •

« رجعي 7

« خلع 1

« مسكوت عنه 4

الجملـة 38 •

بالاضافة الى ثلاث حالات اعتراض وهي التي يحكم فيها القاضي عادة بالتأجيل سنة ، ومن ذلك حالة محكمة وهران التي سبق ذكرها • أما الحالة الثانية فقد وقعت سنة 1240 لشاب من قبيلة حسن بن علي ، والثالثة وقعت لشاب ينسب الى باجة (الباجي) •

وفى احصاء آخر وجدنا الطلاق قد وقع فى هذه الحالات :

طلاق رجال العسكر (يولداش ــ انكشاري الخ) • 6 حالات •

« أناس وافدين على المدية (برانية) 8 حالات (حسب نسبهم)

« شبان (ينص على ذلك فى وثائقهم) 9 حالات

وهناك حالات طلاق شملت عائلات معروفة عندئذ ، حضرية وكرغلية من أمثال : عائلة الشيخ الصحراوي (الذي تولى القضاء) ، وعائلة ابن تركية ، وعائلة ابن الفخار •

وقد عرفنا أن معظم حالات الطلاق كانت بلفظ البينونة أو البتة أو الثلاث أو نحوها • وكان المطلقون يستعملون عبارات تحرم عليهم زوجاتهم فلا تحل لهم الا بعد زواجها من آخر حسب القواعد الشرعية • وهذه بعض العبارات المستعملة فى الوثائق : « هي طالق وحارمة عليه كما حرمت مكة على اليهود » أو « هي حرام عليه فى المذاهب الأربعة » أو « اذا نزع الحائك الذي على ظهر زوجه فهي طالق البتة » • وقد حلف أحدهم « بالحرام الا يبيت فى دار صهره » ثم بات فحكم القاضي بالطلاق البائن •

ويبدو أن الأزواج لم يكونوا مطالبين بتبرير طلب الطلاق • ذلك أن كل الحالات تقريبا مسكوت فيها عن سبب الطلاق • وهناك حالة واحدة ذكر فيها جنون المرأة كسبب للطلاق • وهناك ، كما لاحظنا حالة واحدة للخلع ، دفعت الزوجة بموجبه 22 دينارا • وكانت المرأة فى كثير من الحالات هي المتنازلة عن حقوقها لزوجها • ذلك أن الوثائق تستعمل العبارة التالية بكثرة عقب التطليق ، وهي : « وتحملت (أي الزوجة المطلقة) بالنفقة على الأولاد وسلمت له (أي للزوج) في باقي الصداق » • وكذلك هذه العبارة « وبعد أن سلمت له فى حضانة أولادها وما بقي بذمته من الصداق ، حاله وكاله » • وأحيانا تضاف العبارة التالية عقب ما سبق : « وأبرأته من جميع ما عليه من دين وغيره » •

وهناك حالة واحدة نص فيها على أن الزوجة المطلقة كانت كبيرة السن ، وأم أولاد • كما توجد حالة واحدة نص فيها على هروب الزوج عن زوجته بعد تركها عند أمه بدون نفقة • ثم جاء الى القاضي مع وكيله فأمره القاضي بالعودة والنفقة على مدة الهروب فقال الزوج : اذا لم أعد اليها فهي طالق طلقة واحدة •

وقد لاحظنا أن الزوجة هي التي تتحمل بالنفقة على نفسها والأولاد وبالحضانة فى بعض الحالات • ومعنى ذلك أن مصير الأولاد ، ولاسيما الصغار ، كان سيئا اجتماعيا واقتصاديا •

وهناك حالة نود أن نفردها بالحديث وهي طلاق شخص من عائلة (سيدي ناجي) لزوجه التي هي من نفس النسب • وقد جاء فى الوثيقة، التي يعود تاريخها الى سنة 1240 ، أن « الشاب •• بقية الشيخ سيدي

ناجي .. تعني الله به ، طلق زوجه •• من النسب المذكور » • ومثل معظم الحالات نصت الوثيقة على أن الزوجة هنا أيضا قد « سلمت له في باقي الصداق ، واحتملت له بأربعين ريالا كبيرة الضرب تؤديهم له يوم التزويج • وتحمل أبوها •• بكل درك وافترقا ، الخ » • ولا ندري الآن من هو (سيدي ناجي) الذي تتحدث عنه الوثيقة ، فهل هو جد عائلة سيدي ناجي الذي تنسب اليه الخنقة (خنقة سيدي ناجي) ؟ أو هو رجل صالح آخر من رجال المدية أو قريبا منها ؟ فان كان الأمر الأول فان الشاب الذي طلق زوجته في محكمة المدية يكون قد جاء من مسافة بعيدة •

هـ ـ حالات العتق وأفعال البر :

توجد في الدفتر حالات العتق أيضا وكذلك بعض أفعال البر الأخرى كالصدقات والهبات والوقف الخ • ولم نجد سوى حالتين من حالات العتق ، مع اشارة فقط الى وقوع حالتين أخريين • والمهم في حالات العتق ، جميعها هي الجهات الصادر عنها ، التي كانت غالبا من رجال الدولة وأغنياء البلاد •

ففي سنة 1239 أعتق الحاج محمد ولد الرويك (أو الدويك) مملوكه الذي كان تملكه من أحمد ، « صهر بن عثمان ، خليفة كان ، قاصدا بذلك وجه الله » • وأشهد على نفسه بذلك أمام القاضي • وفي 1240 أعتق أيضا حسين بن داحلي مملوكه أمام القاضي وبحضور شاهدين « قاصدا بذلك وجه الله » • ولكن السيد داحلي نص على أن العتق لا يتم فعلا الا بعد أربعة أعوام من تاريخه •

أما الحالتان اللتان وقعت فيهما الاشارة فقط الى العتق فأولاهما حالة وفاة امرأة سبق عتقها وتوزيع تركتها على أولادها ، وذلك عام 1255 • فالوثيقة هنا تتحدث عن أن عائشة ، معتوقة السيدة زوجة محمد بن رقية ، قد توفيت عن زوج وأبناء ، وأن التركة قد وزعت بينهم ، وأن مناب احدى بناتها قد قبضه ، بناء على وصية منها ، السيد عيسى

الأغواطي الحمامجي حرفة • وتذكر الوثيقة أن زوج المعتوقة عائشة كان أيضا من الأغواط •

أما الحالة الثانية من حالتي العتق المذكور فتخص معتوقة الباي محمد الذباح ، المعروف بمحمد الفريرا والذي حكم ولاية التيطري مدة من الزمن • ان الوثيقة تذكر أن فاطمة ، معتوقة الباي محمد الذباح ، قد باعت غرفتين موجودتين بحومة الجامع الأعظم المعروفة بابن شهبون ، وأن ثمن البيع 50 ريالا كبيرة الضرب قبضت منها 25 وتأجل قبض الباقي الى « دخول الباي من المحلة » • وتاريخ هذه الوثيقة يعود الى سنة 1238 •

وفي نفس التاريخ (1238) تصدقت احدى السيدات على ابنة زوجها « بالسهمة المعروفة بابن حدة » الكائنة بـ •• ملوش • ويبدو أن هذه الصدقة تتمثل فى غرفة أو دار ، لأن كلمة « السهمة » غير واضحة المعنى هنا •

ومن أفعال البر ما قبضه أحد الأشراف ، وهو ادريس بن عبد القادر الشريف ، من يد قاضي الوقت ، وهو الشيخ محمد السعيدي بن أبي زيان الذي سبق ذكره والذي قلنا انه تولى القضاء فى زمن تبعية المدية للأمير عبد القادر ، أي سنة 1254 • ولا ندري من هو الأب : عبد القادر الشريف هذا • هل هو ذلك الدرقاوي الثائر على باي الغرب الجزائري سنة 1219 والذي استنجد بالسلطان سليمان المغربي وشيخه محمد العربي الدرقاوي ولكنهما خذلاه بعد تأييده فترة ؟ ان الوثيقة لا تتحدث عن ذلك ، وتكتفي بالحديث عن الهبة أو العطفة التي تعطف بها عليه أحد السراة الذين لم يذكر أسماءهم فى الوثيقة أيضا •

ومهما كان الأمر فها نحن نذكر ما قبضه ادريس بن عبد القادر الشريف من يد القاضي محمد السعيدي فى شهور مختلفة من سنة1254 :

1 — أربع فردات (أزواج) مسايس ذهبا •

2 ـ ستة دورو صرف الجزائر ، وزوج انصاف ذهبا ، وزوج أرباع ذهبا ، سكة مصطفى باي (8) ، وقرطين دهبا ، مع حضور العاطف (أي الواهب) هذه المرة •

3 ـ قرطين من الذهب ، مع حضور العاطف أيضا •

ومما تجدر ملاحظته بشأن وثائق الدفتر الذي نحن بصدده انها لا تتحدث عن الأوقاف (الأحباس) الا نادرا • وهذا فى الواقع يثير الاستغراب لأن العهد العثماني فى الجزائر كثرت فيه أعمال الخير من هذا الوجه ، فالأوقاف كانت توقف على جهات عديدة ، ومن بينها جهة الفقراء والمساكين والمساجد والزوايا ومكة والمدينة • ولكننا لا نكاد نجد شيئا من ذلك • بالعكس فقد وجدنا شخصا تراجع فيما أوقف واستعاد الوقف • فالوثيقة التي وجدناها بهذا المعنى تتحدث عن أن رجلا كبير السن ، يسمى أحمد بن حسن ، حضر أمام المحكمة الشرعية بالمدية وأشهد على نفسه أمام القاضي أنه رجع فيما كان قد أوقف ، وذلك داره وجنانه (بستانه) ، وصير ذلك ملكا له • وقد وقع هذا بتاريخ 1241 •

ويبدو أيضا أن حالة الأوقاف لم تكن جيدة • فالقائمون عليها لم يكونوا مهتمين بها الاهتمام اللازم • وقد وجدنا وثيقة تتحدث عن أن وكيل الوقف (دون تحديد) ، السيد الحاج اسماعيل لزغلو ، حضر عند القاضي وأشهد أن أحد القائمين معه على الوقف ، وهو محمد بن علشي ، لم يخدم سنة 1247 مدة ثلاثة أشهر ، وأنه خلال السنة الموالية لم يعمل سوى شهرين ونصف •

ويدخل في أفعال البر طبعا النفقة على الربيب • فقد وجدنا في وثيقة أن أحدهم حضر لدى القاضي ، أحمد بن الحاج سلامة ، وأشهد أن ما أنفقه على ربيبه فى الماضي وفى المستقبل هو لوجه الله وصلة الرحم .

---

8 ـ الظاهر أن المقصود هو الباي بومزراق ، آخر بايات التيطري • ولعل (الداي) هو الصحيح ، فتكون العبارة سكة مصطفى داي وهو باشا الجزائر الذي توفي سنة 1805 ، لأن البايات لم يسكوا العملة حسب علمنا .

وأن عليه ثمانية ريالات بجه بكراء الجنان فى المستقبل الخ • وكان ذلك سنة 1240 • غير أن رجلا آخر تراجع عن فعل الخير لظروف أخرى • ففي نفس السنة حضر أحدهم لدى القاضي وأخبره أنه تراجع عن نفقة البنت فلانة •• وأن الرجوع واقع على أبيها لأنه هرب عنها وتركها عنده دون أن يترك لها شيئا •

ويمكننا أن ندخل فى أفعال البر ما يدفعه الناس باسم الجهاد أو باسم دفع الغريب عن البلاد • ولم نجد من ذلك الا الشيء القليل • فهناك وثيقة تتحدث عن أن أولاد ابن خلفة قد دفعوا أربعة وتسعين دورو « فى دفع اصبنيول » ، وهي العبارة التي فهمنا منها نحن ، (لأنها غير واضحة) انهم تبرعوا بها لرد الاسبان عن الجزائر • غير أن تاريخ الدفع لم يذكر معه سوى الشهر ، وهو أواسط رجب ، فمتى كان ذلك ؟

و ــ حالات التجارة والعقود والمنازعات :

وفى الدفتر عدة حالات لانتقال الأملاك بطرق مختلفة : الشراء والكراء والشفعة والشركة الخ • كما أن هناك بعض حالات القراض والعقود والمنازعات حول الأرض والدور والحيوانات ونحوها • وكان الكتاب يسجلون الوثائق بصيغ جافة تقليدية لا تساعدنا كثيرا على فهم ظروف انتقال الأملاك ونهاية المنازعات . وبالاضافة الى وجود ذلك بين المسلمين وجدنا فى هذا القسم أسماء بعض الذميين من اليهود •

وبالنسبة للبيع وجدنا منه حالات عديدة • وقد وقعت فى تواريخ مختلفة من 1238 الى 1253 • ونلاحظ كذلك أن الأثمان اختلفت بشكل واضح بين ما يباع داخل المدينة وما يباع خارجها • فقد اشترى أحد الموظفين البارزين حوشا (ضيعة) فى المكان المسمى تبحرين بثمن عال . وهو ألف ريال واحدة ومائة ريال وجميعها من النوع المسمى كبير الضرب • والباعة هم ورثة الحاج بن علي ، والمشتري هو السيد دل علي (دالي ؟) « وكيل خرجة القصبة كان » • ولكن البائع لم يقبض الثمن كله دفعة واحدة اذ كان بعضه معجلا وبعضه مؤجلا • وفى احدى الوثائق أن الشاب محمد بن الحاج الزروق بن أحمد باي قد بـاع

النصف في جميع عقاره لأولاد الزواوي ، دون ذكر السنة ولا مبلغ البيع •

وحالات بيع أخرى ليست في مستوى ما سبق • ولكن نلاحظ أن بعض أطراف قضية البيع من الكراغلة أيضا • فقد باع أحدهم دارا موجودة بتلال بني عائشة بثمن قدره 625 ريال كبيرة الضرب • وكان قبض الثمن أيضا بالتقسيط • وهناك من باع غرفة فقط في مكان يعرف بأقلال بثمن قدره 300 (ثلاثمائة) ريال الكل دراهم صغار • ومما يلاحظ هنا أن البائع أضيف الى اسمه نسبة التلمساني •

ويبدو أن الحاج الصوفي بن جانين (أو جانيف) الذي سبقت اليه آلاشارة على أنه كان حاكم المدية (سنة 1244) والذي أصبح طاعنا في السن سنة 1253 ، كان قد باع داره الى الحاج الجيلالي الدباغ حرفة كما تقول الوثيقة ، ثم باعها هذا ، ولكنه لم يأخذ ثمنها دفعة واحدة • فالوثيقة تحدثنا أن الشيخ الجيلالي قد جاء الى القاضي ليقبض بقية ثمن الدار ، الفاضلة على أرباب الديون ، وذلك 9 ريالات بوجه ونصف ريال • ولكننا لا نعرف كم ثمن بيع الدار كله • وقد سبقت الاشارة الى أن معتوقة الباي محمد الذباح قد باعت غرفتين في وسط المدينة بخمسين ريالا كبيرة الضرب •

أما حالة البيع الوحيدة التي وقعت بين مسلم وذمي فهي أن أحمد ابن جعفر باع الى شوعة ولد سالوم «لعنه الله» ، كما تقول الوثيقة ، جميع الدار الكائنة بقاع الصور (السور ؟) والتي ثمنها 600 (ستمائة) بوجه • على أن يكون المقبوض المعجل 300 والباقي 300 •

وهناك حالة للشفعة دون أن نعرف ثمن الشراء فيها بالضبط • فالوثيقة هنا تقول أن أحدهم ، وهو عبد القادر بن بركات حضر لدى القاضي مع شاهديه وأخبره أنه أخذ بالشفعة البحيرة الموجودة بالدخلة ، وقال انه اشتراها من صاحبها : الصغير اللقموشي • والمهم هنا أنه أخبر القاضي بأنه أخذ البحيرة المذكورة على مذهبه النعماني (أي مذهب

الامام أبي حنيفة النعمان) وانما جاء الى القاضي (الذي يظهر أنه كان مالكيا) (9) ليخبره بما حدث فقط •

وتوجد حالة بيع لا تستحق اهتماما خاصا وهي بيع أحد العساكر (اليولداش) سنة 1240 ، لفرسه ، دون أن نعرف ثمن الفرس • بينما نعرف من ناحية أخرى أن ثمن الحمار في المدية سنة 1252 كان ثمانية دنانير •

ويشتمل الدفتر أيضا على شهادة شهد بها مجموعة من الشبان أمام القاضي اذ قالوا انهم حضروا محاسبة شاب مثلهم ، وهو أحمد ولد يتو الانكشاري ، مع زوجة خاله ، فاطمة بنت ابن غرنوط ، على ما كان تحت يدها يعمل فيه الشاب المذكور على أساس القراض • والمبلغ هو مائة ريال كبيرة ، وذلك سنة 1239 •

وهناك وثيقة منقولة عن الأصل « المحاجة اليها » تتعلق بقبض أحد الميزابيين لمال من احدى السيدات للعمل به على وجه القراض • وذلك بتاريخ 1237 . ولكن نقل الوثيقة حصل بتاريخ 1241 • وأمضاها : علي بن سيدي بن عمر الميزابي ثم البزكني من فرقة باب محمد : قد أشهد على نفسه أن بماله وذمته ما قدره ألف ريال واحدة و 300 ريال • الكل كبيرة الضرب ، والعدد كله جزيري (جزائري) ذهبا ، وأنه قبض ذلك من السيدة فاطمة ، زوجة السيد أحمد ، خوجة مخزن الزرع . وهو يعمل بهذه النقود على وجه القراض • على أن ما يحصل من الربح يكون بينهما مناصفة سوية •

وفي هذا الصدد ، اشترك أحد العلماء ، وهو محمد المغربي (الغربي؟) في الحرث مع شريكه محمد بن عبد الله الهواري ، واتفق معه على أن ينوب العالم المذكور ثلاثة أخماس : خمسان لثوره وخمس لفرسه ، والباقي لشريكه • وقد وقع ذلك سنة 1243 •

9 — سبق لنا أن ذكرنا أن سنة 1241 التي وقعت فيها الشفعة المذكورة ، قد شهدت تولي ثلاثة قضاة (وهم أحمد بن الحاج سلامة ، ومحمد المحجوب ، ومحمد بن الخلفة ولا ندري من هو منهم الذي توجه اليه صاحب الشفعة المذكور .

ويضاف الى ذلك انتقال عدد من الوثائق (العقود) المتعلقة بالأملاك ونحوها • فهذا أبركان بن رامول قبض سبعة وعشرين وثيقة من يد السيد المولود (الذي يبدو أنه أحد كتاب الوثائق ، حسبما جاء في الدفتر) ، وهي الوثائق التي كانت موضوعة عند أحمد بن رحال على وجه الحفظ لأولاد أبو كريشة • كما أخذ أحد الشبان من عند أحمد ابن الحاج الكجيل وثائق « البلاد التي اشتراها » ، وعددها 12 وثيقة ، وبقي عند الحاج الكجيل 11 وثيقة • وكان ذلك سنة 1240 • كذلك تسلم أحدهم مجموعة من الوثائق من عند محمد ومحمود ولدي ابن شرقية ، وعددها خمس عشر وثيقة ، وهي تتعلق بالحوش . بالاضافة الى وثائق تخص البحاير (جمع بحيرة) ، ووثيقة تتعلق بسدس في دار بالجزائر ، وسبع عشرة وثيقة تخص بساتين وغيرها • وجملة ما أخذه من وثائق اذن أربعون وثيقة ، وذلك سنة 1241 •

أما الكراء فلم نجد منه سوى ثلاث حالات • الأولى كراء دار بثمن 10 ريالات بوجه ، سنة 1242 • والثانية كراء دار أيضا بثمن 11 ريالا بوجه ، سنة 1253 • والثالثة كراء بحيرة بثمن 13 دينارا سنويا ؛ وذلك سنة 1242 • وفي جميع الحالات توجد أسماء المكترين والمكتري منهم •

والمنازعات كثيرة نسبيا وأسبابها مختلفة • وقد سجل كاتب المحكمة حالة ذكر فيها أنه وقعت مشاجرة بين اثنين على أرض تقع في مكان يسمى بلاد أبو زيد ، اذ منع أحدهما الثاني من غراستها مدعيا أنه يغرسها له • وشهد على ذلك الشهود • كما تخاصم اثنان على دار فقال المدعي عليه ان الدار مبيعة بيع ثنيا وطلب المشتري دراهمه وكان حكم القاضي وضع الدار عند السمسار ومهلة شهر فان اتاه بدراهمه قبل ذلك فداره بيده والا بيعت الدار • ولا تذكر الوثيقة ثمن البيع وانما ذكرت التاريخ وهو 1246 ، ولاحظت أن أحد المتخاصمين كان دباغا بالحرفة •

ومن المنازعات كذلك أن أحد العلماء ، وهو علي بن سيدي المزاري ، الذي قلنا انه تولى القضاء أيضا ، قد اشترى فرسا حمراء اللون من

شخصين مذكورين في الوثيقة • فوجد فيها ما يستحق الرجوع عليهما • ولكنه حين جاء بدعوته وجد البائعين قد سافروا الى الغرب (الجزائري) معا • وتوجد حالتان ذات طابع خاص • فقد قالت احدى الوثائق ان فلانا الذي يشغل « خادم باب المحكمة » وقف ونادى انه استشفع ، وذلك بحضور بعض الشهود • ولم تفصل الوثيقة ما اذاكان«الاستشفاع» لطلب الشفعة أو لطلب الشفاعة • أما الحالة الثانية فهي تضارب اثنين تم تصالحهما أمام المحكمة اذ دفع الضارب شاة ونصف دينار فضة الى المضروب •

واذا كان التشاجر بين الناس شائعا فانه بين الأم والابن أمر غير شائع ، ولا سيما اذا كان الابن من الحجاج ومن المسؤولين • فهذا الحاج اسماعيل لزغلو ، الذي سبق ذكره على أنه كان وكيلا للأوقاف ، قد تشاجر مع أمه وخرج من دارها ، ودفع لها من داره أمورا مثل القمح والزيت وغيرهما • وشهد على ذلك كبار القوم ، ومنهم محمد الخديم الذي طالما سجل الوثائق بيده في الدفتر الذي ندرسه ، وأحمد الشقماقجي « حاكم المدينة » ، وعلي مانشلي ، وباش بولكباش الذي يبدو أنه كان من العسكر المتقاعدين ، الخ • وقد وقعت هذه الحادثة سنة 1240 •

أما آخر المنازعات فهو ذلك الذي وقع بين أحد المسلمين وذمي يبدو أنه كان من اليهود • والقضية تافهة في حد ذاتها ولكن لا بد من الاشارة اليها ، لأنها على الأقل تدل على احتراف اليهود احدى الحرف في المدية ، وهي الصباغة ، وذلك سنة 1253 • فالوثيقة تقول ان أحد المسلمين (محمد بن مجبر) قدم الى المحكمة بشيء من الغزل المصبوغ وطلبه الذمي (دون ذكر اسمه) في أجرة الصباغة ، ولكن المسلم لم يجد الدراهم التي يدفعها له مقابل ذلك مدعيا أن الغزل ليس له وانما هو لرجل آخر • وتقول الوثيقة ان المحكمة وزنت الغزل فوجدته رطلين ونصفا • ولكن الوثيقة سكتت عن الحكم الذي أصدرته المحكمة بهذا الشأن •

ز ـ حالات تقسيم الديات والتركات ونحوها :

في الدفتر ثلاث حالات لتقسيم الدية • أولاها دية السيد عمار الذي كان دلالا بالحرفة • فكان مجموع ديته مائة ريال واحدة و 93 ريالا دراهم صغار • وكان عليه دين طاريء ، ولذلك قسمت الدية على طريق المحاصة • كان ذلك سنة 1254 ، ولم تتحدث الوثيقة عن مصدر الدية وحيثياتها • وبعد سنة من التاريخ المذكور سجلت حادثة دية أخرى بدون تفاصيل كثيرة أيضا • والملاحظ في هذه الدية أن توزيعها وقع بين اليتامى ، ولكن « بيت المال » اشترك أيضا في نصيب منها •

وهناك تقسيم لدية أخرى يهمنا من عدة وجوه • الوجه الأول تدخل بعض السلطات العليا مثل باي الغرب الجزائري الذي يبدو أن حادث القتل وقع في منطقته • والوجه الثاني الطريقة التي قسمت بها الدية ، ولا سيما أخذ كاتب الوثيقة وقاسم الدية لنصيبهما منها •

وهذه هي خلاصة الوثيقة المتعلقة بالدية المذكورة : مات قويدر ابن الحصيني (دون ذكر المكان) عن أبيه وأمه وزوجه وأولاده • وبعث حسين (10) ، باي الغرب ، بدية على القاتل بلغت مائة ريال واحدة بوجه • والقاتل هو الحبيب الغربي • وقد وزعت الدية على النحو التالي :

$\frac{2}{6}$ لأبيه = 45 ريالا دراهم صغار

$\frac{2}{6}$ لأمه = 45 ريالا دراهم صغار

$\frac{6}{8}$ ـ و 33 ، أي الثمن لزوجه ، وهي بنت انقلزباي (11)

---

10 ـ المعروف أن باي الغرب عندئذ (سنة 1244) هو حسن باي وليس حسينا .

11 ـ كلمة (باي) غير واضحة في الوثيقة ، وتكاد تقرأ (حاج) ، ولكننا اخترنا (باي) لوجود هذا الاسم في نفس الفترة .

16 ريالا للبنت

1

96 ريالا للبنين الثلاثة = 32 — لكل منهم

4

21 ريالا لكاتب الوثيقة وقاسم الدية

32 ريالا لكسوة الربيب (مثل أحد البنين)

9 ريالات لفدية الحاج عبد القادر بن سيدي سليمان

المجموع : 300 درهم (هي مائة ريال بوجه)

وتاريخ هذا التقسيم هو 1244 .

وقد اشتمل الدفتر على عدد من حالات تسجيل التركات وتوزيعها . وفي أحيان كان يكتفي بتسجيلها فقط . وكانت بعض التركات ذات قيمة وبعضها تافهة . فهذه تركة المرحوم ساعد الجزيري (الجزائري ؟) الذي كان يمارس حرفة النجارة قد بلغت ألف ريال واحدة ومائة ريال وأربعة أريلة ونصف . ولكن كان عليه دين بلغ 336 ريالا . وذلك سنة 1250 .

بينما لا ندري بالضبط تركة المرحوم محمد بن عبد القادر الذي كانت حرفته السراجة . وكل ما تذكر الوثيقة أن الغرماء قسموا متروكه فيما بينهم على طريق المحاصة . ولكننا نعرف أن كراء داره بلغ 48 بوجه ، كما أخذت أوقاف الحرمين نصف بوجو من تركته . وكان ذلك سنة 1252 .

وتوجد حالات لا تسجل فيها التركة كاملة . ولكن يسجل فقط نصيب أحد الورثة ، فتذكر الوثيقة أن الوارث قد قبض نصيبه وهو كذا وكذا . فهذا (ابن أقليل) قبض نصيبه من احدى التركات ، وهو خمسة ريال بوجه سنة 1242 .

وهناك تركات ليس فيها دراهم أصلا ، وانما هي مجموعة من الأثاث البالي والماعون والملابس ونحو ذلك . فهذا متروك أحدهم (عمرو ابن عمرو) عبارة عن حياك وزرابي ومعز . وهذا متروك عبد الرحمن القزادر عبارة عن سروال وغليلة وصدرية وعباءة « الكل من الصوف الخالق » ، بالاضافة الى سراج فخار ، وحنبل صغير وزربية وبابوج وقفة دوم الخ . وكان ذلك سنة 1242 .

بالاضافة الى ذلك نسجل هنا متروك بعض الأشخاص الذين لم يكونوا فى الظاهر من أهل المدية الحضر : تركه عمر المسيلي (سنة 1246) وطريقة توزيعها على أقاربه . وتركة عباد المعداوي (؟) نسبا ، وذلك في زمن القاضي الحاج محمد بن الخلفة (سنة 1242) . وتركة سي علي القسنطيني ، تصفه الوثيقة بـ « الخيال » ومبلغ تركته 81 ريالا دراهم سنة 1254 .

وفي الدفتر عدد من حالات المقبوضات التي تسلمها أصحابها بالمحكمة نفسها . ومن ذلك ما قبضه أحدهم (سي مسكين) من ثمن « البلاد التي أخذت منه بالشفعة » ، وهو 38 ونصف بوجه ، وذلك سنة 1242. وما قبضه محمد بن تركية ، وهو 25 ريالا دراهم صغار سنة 1245 دون ذكر لطريق انجرار ذلك اليه . وما قبضه علي بن القرشي « على سبيل البشارة » من القائد أحمد بن سلام ، وهو أربعة دنانير . وأخيرا ما قبضه عبد الله الزنيخري نسبا ، نيابة عن ابن عمه ، وهو أربعة ريالات ونصف بوجو وموزونتان ، وذلك على يد القاضي أحمد بن الحاج سلامة سنة 1239 . ولكن الوثيقة لا تذكر أيضا طريق انجرار ذلك الى ابن عمه .

ط ــ أخبار متفرقة :

ونختم الحديث حول ما جاء فى الدفتر من معلومات بالاشارة الى وقائع لم نجد لها مكانا فيما صنفناه من موضوعات . من ذلك تسجيل وقائع الزلزال الذي حدث سنة 1240 بالبليدة . فقد سجل ذلك فى الدفتر على النحو التالي : ضربت الزلزلة فى يوم 12 رجب ، وانهدمت البليدة ،

وكان يوم المدرجة على الرابعة ساعة (كذا) من سنة 1240 • واسترسلت على الضرب •

وفي خبر آخر سنة 1254 جاء فيه : وقعت زلزلة يوم الثلاثاء عند الزوال يوم 14 صفر • كما سجلت « تقييدات » عن السنة الكبسية هكذا ، وابتداء من سنة : 1243 ، 1244 ، 1246 ، 1247 ، 1248 ، 1249 ، 1250 ، 1253 ، 1254 •

ي ــ استنتاجات :

مما سبق يفهم أننا اكتفينا بعرض وصفي لدفتر محكمة المدية فى الفترة التي أشرنا اليها ، وهي أواخر العهد العثماني الى فترة الأمير عبد القادر ، أي من حوالي سنة 1238 الى سنة 1255 • وقد اكتفينا بعرض القسم الأول من الدفتر الذي قلنا انه يحتوي على قضايا الأحوال الشخصية والمعاملات ونحوها ، أما القسم الثاني منه الذي يحتوي على تسجيل النشاط العسكري فى عهد الأمير بالخصوص فقد أجلناه الى مناسبة أخرى • ولم نلجأ الى دراسة تحليلية لاقليم التيطري ومدينة المدية فى العهد المذكور ، لأن ذلك يخرجنا عن موضوعنا وهو تقديم محتوى الدفتر الى الباحثين ، ولأنه يجعل معلومات الدفتر حينئذ جزءا فقط من المعلومات التي تقدمها المصادر الأخرى • وهذا ليس من هدفنا الآن •

ويلاحظ من المعلومات التي وردت فى الدفتر أن المدية كانت مدينة نشطة تجاريا وكانت تشكل مجتمعا حضريا فى أساسه ولكنه كان مجتمعا خليطا من المواطنين ، فمنهم رجال السلطة والتجار والعلماء وأصحاب الحرف والجنود • وكان للمرأة دور فى الاقتصاد أيضا كما تدل الوثائق المتعلقة بالقراض • كما كان لليهود دور ضئيل في التجارة • ونلاحظ تعدد حالات العتق ، وقلة المنازعات ، والتزويج فى سن مبكرة . وتعدد حالات الطلاق ولاسيما بين الشبان والجنود ، والتضحية بحقوق المرأة فى هذا الميدان ، لأنها فى أغلب الحالات تتنازل عن حقوقها مثل بقية

الصداق والنفقة والحضانة ونحوها من أجل الحصول على الطلاق الذي كان فى أغلبه بائنا : 26 حالة من مجموع 38 •

وفي عدد من الاحصاءات المستخرجة من الوثائق وجدنا أن الوظائف الرسمية بالمدية عندئذ لا تكاد تخرج عن هذه ، وهي تسعة (9) :

الباي / المفتي / القاضي (الحنفي والمالكي) / الخوجة / وكيل خرجة القصبة / خوجة مخزن الزرع / وكيل الحبس (الوقف) / القائد / خادم باب المحكمة / •

أما أصحاب الحرف فكان احصاؤهم كالتالي (وهم 13 ثلاثة عشر) :

الخيال / السياف / البناي (البناء) / الحداد / الخياط النجار / الحمامجي / السمسار / الدباغ / الصباغ / الدلال / السراج / المداح •

ونعرف من الوثائق ان الحمامجي كان من الأغواط ، ولكن ليس هناك ما يدل على أن جميع الحمامات كانت بأيدي أهل الأغواط • بينما ذكرت حرفة الصباغة مرتبطة بأحد اليهود ، غير أن هذا لا يعني أن جميع الصباغين كانوا من اليهود •

كذلك أثبتت الوثائق وجود عدد من (البرانية) الذين ينسبون الى بلدانهم الأصلية بعد ذكر أسمائهم • وقد وجدنا من ذلك أكثر من 13 (ثلاثة عشر) حالة أو نسبة ، وهي كالتالي :

السنجاسي / الأغواطي (وكذلك الأغواطية) / المسيلي / الميزابي اليزكني / الجزيري (الجزائري) / التلمساني / الباجي / المازوني / الزنيخري / المعداوي (؟) / الريغي / الزواوي / القسنطيني •

وبين هؤلاء من كان عالما ومن كان تاجرا ومن كان صاحب حرفة الخ • كما تدل عليه الوثائق •

وهناك ألفاظ أخرى توحي بالنسبة الى أماكن أخرى خارج المدية ولكننا غير متأكدين منها • مثل الاشارة الى عائلة سيدي ابن ناجي

التي قلنا انها لا [illegible] عائلة الخنقة المعروفة .
ومثل « الانجشري » التي يبدو انها نطق لـ الانكشاري . وفي هذه الحالة تصبح نسبة الى الفئة العسكرية المعروفة .

أما العبارات العسكرية التركية وألقاب الكراغلة فتوجد بكثرة فى الوثائق التي تعرضنا اليها . ومن ذلك : الباي ، بولكباش ، الانكشاري ، اليولداش ، قوجه باش ، قاردنج ، ازغلو ، قار حسن ، قارة دنقز ، ابن غرنوط ، ابن دالي ، الخوجة ، الشقساقجي . الخ . وأحيانا يذكر اليولداش برقمه العسكري .

ويبدو من أسماء القضاة والمفتيين ان فئة العلماء كانت من الحضر الأصليين ومن الأندلس . ومن ذلك : البصري ، الصحراوي ، سلامة ، خلفة ، السعيدي ، المازري ، الفخار ، الصوفي ، المحجوب ، الـخ .

وتجدر الملاحظة أن الدفتر لا يكاد يضم وثائق عن الوقف لأغراض خيرية كانت شائعة فى العهد العثماني بالجزائر . سواء الوقف على المؤسسات مثل سبل الخيرات ومكة والمدينة والأشراف والأندلس والمساجد والزوايا ، أو الأفراد مثل العجزة والفقراء ونحوهم . بالعكس لقد وجدنا تراجعا من أحدهم عن وقف كان قام به . كما وجدنا شكوى من أحدهم بأن مساعده لا يؤدي واجبه نحو الوقف الموكل اليه .

كما أن الملاحظ عن التجارة ان الوثائق لم تسجل حالات الأسواق والتعامل مع المدن والأرياف المجاورة ولا ما صادرات وواردات المدينة . حقا ان الاشارات الى العملة المتداولة كثيرة ، ويبدو أنها متنوعة وتثير الاضطراب عندنا اليوم . ولكننا لا نعرف منها حالات ارتفاعها وانخفاضها أو قيمتها بصفة عامة . ان أسماء العملة تشوش الذهن لغير المعاصرين والعارفين بها . وهذه أسماؤها حسبما هو فى الوثائق :

الزياني ، الموزونة ، الريال (وفيه الكبير الضرب والريال الواحد والريال الصغير الضرب) ، الفلوس ، الدورو ، الدينار ، البوجه

/ الدراهم / الخ • بالاضافة الى العملة الذهبية والعملة الفضية ، والعملة النحاسية ، كما أن هناك عملة الباي مصطفى (بومزراق ، أو الـداي مصطفى وهو الأولى) وعملة الجزائر ، وعملة فاس ، ثم عملة الأمير عبد القادر ، الخ •

ان قناعتنا بأن دفتر محكمة المدية يحتوي على معلومات هامة تخص مدينة المدية والجزائر عموما فى أواخر العهد العثماني هي التي دفعتنـا الى تقديمه الى القراء على هذا النحو • ولعلنا قد وفقنا فى ذلك •

(بن عكنون) مدينة الجزائر

11 يناير 1984

الحمـلة الفرنسية على مصر والشام
في رأي المؤرخ أبي راس الجزائري

ما تزال كتابات عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك من المصـادر الأساسية عن الحملة الفرنسية على مصر والشام ، ولكن كثيرا من كتابات العلماء المسلمين الآخرين عنها ما تزال غير معروفة ، ومن ذلك كتابة محمد بن أحمد بن ناصر المعروف بأبي راس المعسكري الجزائري ، وقد كان أبو راس ، كالجبرتي ، معاصرا أيضا للحملة ، ولذلك فان رأيه فيها جدير بالنشر .

ولم يكن أبو راس أول جزائري عالج موضوع الثورة الفرنسيـة وآثارها ، ذلك ان معاصره وبلديه ، أحمد بن سحنون (كلاهما عاش فى مدينة معسكر بالغرب الجزائري وكلاهما توظف عند باي معسكر ، محمد الكبير) قد خص الثورة الفرنسية ببعض الفقرات فى كتابه الثغر الجماني (1) ولكن ابن سحنون ألف هذا الكتاب سنة 1205 (1791) ولم تكن الحملة الفرنسية قد وقعت ، وهناك أيضا محمد ابن العنابي الجزائري الذي تحدث عن آثار الثورة والحملة الفرنسية بطريقة غير مباشرة فى كتابه السعى المحمود (2) الذي دعا فيه الى ضرورة تقليد المسلمين للأروبيين فى نظمهم وعلومهم ، وقد ألف هذا الكتاب سنـة 1242 هـ / 1826 م .

(*) ـ نشرت في (المجلة التاريخية المغربية) عدد 21–22 ، أبريل 1981 .

1 ـ حققه الشيخ المهدي البوعبدلي ، ونشرته وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية : الجزائر 1972 .

2 ـ أنظر كتابنا : ابن العنابي ، **رائد الاصلاح الاسلامي** ، الجزائر ، 1977 .

أما أبو راس فقد تناول الحملة الفرنسية على مصر والشام وآثارها على المجتمع الاسلامي . وخصوصا المجتمع المصري . وكان أبو راس قد حج مرتين ، مرة قبل الحملة ، سنة 1204 / 1789 — 1790 ومرة بعدها ، سنة 1226 / 1811 • وكانت له فرصة . فى الحجة الثانية . أن يشاهد بنفسه آثار الحملة فى مصر والحجاز والشام ، ويسمع عنها من أفواه العلماء وغيرهم ، لذلك فان حكمه صادر بعد مقارنته لأحوال المسلمين قبل وبعد الحملة •

وما دمنا قد درسنا حياة أبي راس فى مكان آخر (3) فلا حاجة بنا الى سردها من جديد . ويكفي أن نذكر هنا أنه ولد بالغرب الجزائري حوالي سنة 1165 / 1751 وتوفي بمدينة معسكر سنة 1239 / 1823 — 1824 وأنه عاش طفولة بائسة لوفاة أبويه وهو صغير . وقد تعلم فى الجزائر والمغرب الأقصى وتونس ومصر . وتجول فى الحجاز والشام والتقى بعلماء الحركة الوهابية . ومن أساتذته فى مصر محمد مرتضى الزبيدي (4) وعبد الله الشرقاوي (5) ومحمد الأمير (6) . وتوظف أبو راس فى معسكر قاضيا ومدرسا . وعاش أحداثا هامة أثرت على مجرى حياته منها فتح وهران على يد الباي محمد الكبير ، وثورة الطريقة الدرقاوية على السلطة العثمانية بالجزائر •

وقد ترك أبو راس تآليف عديدة تجاوزت . حسب ادعاء البعض (7) . عدد سنوات حياته ، وأخبر هو عن نفسه أنه لم يفقه فى التأليف سوى عبد الرحمن السيوطي ، وتآليفه تناولت كل فروع المعرفة الشائعة عندئذ — العلوم الشرعية ، العلوم اللغوية ، العلوم العقلية — غير أنه اشتهر

---

3 — أنظر كتابنا : **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** . الجزائر . 1978 . ص 83–103 .

4 — توفي الزبيدي سنة 1205/1790/1791 وألف فيه أبو راس كتابا سماه **السيف المنتضي فيما رويته عن الشيخ مرتضى** . وكان الزبيدي من أساتذة الجبرتي أيضا .

5 — تولى وظيفة رئيس ديوان القاهرة في عهد الفرنسيين ومشيخة الجامع الازهر . توفي سنة 1227/1812 . أنظر الجبرتي **عجائب الآثار** ، 189/7 .

6 — أصله من مازونة بالجزائر . لعب دورا سياسيا وعلميا أثناء الحملة . توفي سنة 1232/1816 — 1817 . الجبرتي 420/7 .

7 — بو حامد المشرفي : **ذخيرة الاواخر والاول** . مخطوط .

أكثر كمؤرخ ونسابه ، ومن كتبه فى التاريخ الكتاب الذي أخذنا منه النص التالي عن الحملة الفرنسية على مصر والشام •

ولهذا الكتاب عناوين متعددة ، من ذلك الحلل السندسية فى شأن وهران والجزيرة الأندلسية •والواقع أن هذا عنوان جديد (8) للقصيدة السينية التي أنشأها أبوراس اثر فتح وهران سنة 1205 / 1790 — 1791 وقدمها للباي محمد الكبير ، صاحب الفتح ؛ ولكن الباي طلب منه شرحها لغموض عباراتها وصعوبة الفاظها ، فكتب أبوراس شرحا سماه عجائب الأسفار ولطائف الأخبار (9) وتوسع فيه حتى جاء فى جزئين ولكن المعارف لا حدود لها ، فكان أبوراس « يجدد طبعته » كلما وجد معلومات جديدة • وكان يسمى « الطبعة الجديدة » الشرح الثاني أو الشرح الثالث ، كما كان يطلق على كل شرح عنوانا جديدا •

وحانت فرصة الشرح الثاني سنة 1211 / 1796 — 1797 (10) ففي هذه السنة توجه أبوراس الى المغرب الأقصى لأسباب يبدو أنها تعود الى عزله من وظيفته ، وبعد استقبال السلطان له وحظوته عنده مكث أبوراس مدة فى مدينة تطوان ، وأخذ يشرح قصيدته السابقة متوسعا في الشرح ليشمل تاريخ وهران وحياة الباي محمد الكبير وسواحل المغرب الاسلامي والأندلس ، وسمي هذا الشرح : روضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان • وقد أهدى أبوراس هذا الشرح الى السلطان سليمان داعيا فيه له بالتوفيق في فتح مليلية كما فتح الباي محمد الكبير وهران •

أما الشرح الثالث فقد سماه : الغرض المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب (11) ، ويبدو من عنوانه أن أباراس قد

8 — عنوانها الأول : **نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان .**

9 — يمكن أن يقارن المرء بين هذا العنوان وعنوان كتاب الجبرتي : **عجائب الآثار في التراجم والأخبار .**

10 — يذكر ابن سودة : **دليل مؤرخ المغرب** ، ص 390 ، أن أبا راس توجه الى المغرب سنة 1803/1218 — 1804 .

11 — يختلف العنوان قليلا من نسخة الى أخرى ، مثلا : **القصد المعرب** ... بدل **الغرض** ... أو **الحال** ... بدل عبارة **عما وقع** ...

اهتم أكثر بتاريخ الأندلس وثغور المغرب الاسلامي • ونحن لم نعقد مقارنة بين هذه الشروح الثلاثة لمعرفة أيها أفضل شمولا وأسلوبا • غير أن قاعدتها جميعا هي القصيدة المذكورة : الحلل السندسية ، وأن الدافع الأصلي لكتابتها هو فتح وهران واستعادتها من اسبانيا الى الجزائر ، كما أن تقدم السن بالمؤلف (كتب الشرح الأول وعمره حوالي أربعين سنة) واطلاعه على مصادر جديدة ووقوع حوادث (مثل الحملة الفرنسية على مصر والشام) كان له دخل فى وجهة كل شرح ، ويغلب على الظن أن أبا راس كتب النص الذي نحن بصدده فى الشرح الثالث ، أي بعد ادائه فريضة الحج للمرة الثانية سنة 1226 / 1811 •

واهم النقاط التي عالجها أبوراس فى النص الذي نقدمه اليوم هي : التخريب الذي أصاب مصر ويافا وصيدا وعكا تتيجة للحملة ، وسلب الفرنسيين أموال الناس « حمل قناطير مقنطرة من المال حتى كاد أن يفرغ منه مصر ••• واثقلوا أهل مصر بالضرائب المتكررة الكثيرة • » واهانة الفرنسيين للمساجد والمقدسات « ودخلوا جامعها الأعظم فأهين أشد الاهانة وشتتوا خزائن الكتب ••• وداسوها بالأرجل وحوافر الخيل ••• ونهبوا بعض علمائها ••• » وتفكك الأخلاق العامة (خصوصا فيما يتعلق بالمرأة) « وتركوا حريمهم بأيدي الكفرة •• واستباحوا ديارهم » • وسياسة الفرنسيين نحو الأهالي التي يسميها سياسة التمويه « وموهوا بالعدل مكيدة كي يحبهم الناس » • كما اهتم أبو راس بالمغاربة فى مصر والحجاز أثناء الحملة ، وخصوصا دور الشيخ الجيلالي المغربي الذي زحف « بجيش من الطلبة والعلماء من أرض الحجاز » •

وهذه النقاط تؤكدها كتابات الجبرتي فى نفس الموضوع ، غير أن الجبرتي كان يؤرخ فاهتم بكل شيء تقريبا • أما أبو راس فقد كان يلخص ما جرى ويصدر حكما ضد الحملة ، وهو كرجل متدين عاش فى بيئة صارعت أكثر من ثلاثة قرون الاسبان فى الأندلس والمغرب الاسلامي لا يمكنه أن ينظر بعين الرضى الى أعمال الفرنسيين فى مصر والشام ، وفي نظري أن أبا راس كان ينظر الى الفرنسيين فى مصر

والشام نظرته الى الاسبان فى وهران وسبتة ومليلية .. فكلهم في نظره معتدون يجب على أمراء المسلمين جهادهم .

لذلك وجدنا أبا راس « ثائرا » ضد هؤلاء الأمراء الذين تهاونوا ، فى نظره ، عن نصرة الدين وتخليص الأمة الاسلامية من الغزاة الأجانب ، فهو يتهمهم باتباع الشهوات والخلود الى الراحة واستغلال شعوبهم والتخلي عن الجهاد ، وهذا فى نظره هو الذي أدى الى وقوع مصر فى يد الفرنسيين ، أليس هذا هو القائل بصراحة :

مالت ملوكنا لحضيض راحتهم وأكلونا كأكل الداجن العلس
وأعرضوا عن جهاد الكفر قاطبة حتى ارتمت (مصر)ناالعظمى بمرمرس

واذا قارنا بين لغة وموقف الجبرتي وأبي راس وجدنا الأخير ثائرا على الحكام المتهاونين بأمر الدين والأمة ، ورغم أن الجبرتي لم يمل الى محمد علي فانه لم يصدر حكما قاسيا على أمراء المسلمين كالحكم الذي أصدره أبوراس ، وقد وجدنا هذا الموقف عند أبي راس واضحا منذ البداية ، فقد أشاد بالباي محمد الكبير لأنه أخذ وهران من الاسبان، ورفض الوظيفة التي عرضها عليه السلطان سليمان بالمغرب الأقصى واكتفى بالدعاء له باسترداد سبتة ومليلية من الاسبان ، ولم يجد في أمراء المسلمين بالمشرق من وقف جديا فى وجه الحملة الفرنسية ، فأمراء مصر كانوا في نظره متهاونين ففروا الى الصعيد « وتركوا حريمهم في أيدي الكفرة » وكادت عكا تضيع من يد أحمد باشا الجزار ، ولم يكن السلطان سليم فى مستوى الأحداث مما جعل أبا راس ينسب هزيمة الحملة الى الانجليز وليس الى العثمانيين .

والنص الذي نقدمه كنا قد نسخناه بيدنا يوم 20 يوليو 1978 عن نسخة باريس من كتاب : « الحلل السندسية » لأبي راس ، رقم 4619. (12) ويقع من ورقة 56 ظهرا الى ورقة 57 ظهرا أيضا ، ويبدأ من

---

12 — المكتبة الوطنية بباريس ، قسم المخطوطات الشرقية ، والمخطوط مفهرس تحت عنوان : الحلل السندسية ...

البيتين اللذين يذكر أبو راس فيهما تهاون أمراء المسلمين ووقوع مصر في يد الفرنسيين الى أن « طهر الله مصر منهم » • وبعد هذا النص يأتي حديث المؤلف عن حملة لويس 13 على مصر ووقوعه سجينا بها ، ونحن لم ننسخ ذلك ولم نورده هنا لبعده عن الموضوع الذي نحن بصدده •

* * *

وهذا هو النص :

مالت ملوكنا لحضيض راحتهـــم وأكاونا كأكـل الـداجـن العلـس
وأعرضوا عن جهـاد الكفر قاطبـة حتى ارتمت (مصر)ناالعظمىبمرمرس

الداجن : ماشية تربى في البيت ، والعلس : حب معروف •• ، والمرمرس : من أسماء الداهية • وأردنا بذلك ما عرض لمصر بعصرنا هذا في المحرم فاتح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف مع الفرانسة ، (13) فانهم دخلوا اسكندرية عنوة ما بعد ما أخذوا مالطة من يد النزايلية (14)، وتخطوا الى مصر (15) فلقيهم باشتهـا مراد (16) بالريف مع النيل بعساكر الغز (17) ، في نحو تسعين ألفا ، فانهزموا بعد ساعة ، وقد حل بهم القتل الذريع والغزو في النيل •

ودخلوا مصر مع طاغيتهم بنبارت (18) • أول ربيع النبوي من السنة المذكورة ، فقتلوا من وجدوا بها من الغز ، واستباحوا ديارهم ، وأمنوا

---

13 – أي الفرنسيين • وأبو راس يشير اليهم في النص تارة بالمفرد أو الجنس اذا قصد بونابرت أو خليفته كليبير ، وتارة بضمير الجمع مثل تخطوا ، موهوا ، الخ •

14 – في الجبرتي 289/4 «الكواللرية» ، وهم المعروفون بفرسان مالطة •

15 – يعني القاهرة ، وهي في أغلب النص كذلك ، الا اذا جاء بتعبير مقارن يفهم منه القطر المصري •

16 – كان مراد بك وليس باشا ، وهو من مماليك مصر ، وكان قائد الجيش ، مات بسوهاج سنة 1800/1215 – 1801 (أي قبل خروج الفرنسيين من مصر) • أنظر الجبرتي **247/5** •

17 – يعني المماليك ، وقد جاء في تعاليق ناشر **(عجائب الآثار)** للجبرتي أن «الغز» هم صغار المماليك ، 36/5 ، وجاء مرة أنهم جنس من الترك 314/4 ، وأخرى أنهم طائفة من عرب البحيرة 43/5 ، الخ •

18 – نابليون بونابرت •

من المدينة كل بنا (كذا) يتوقع منه سوء ، وقتلوا كل من توجهت عليه الضنة فى شأن الغز . مثل كريم الاسكندري (19) وغيره • وفر الباشة مراد وأهل دولته الى أقاصي الصعيد ، وتركوا حريمهم فى أيدي الكفرة ، وقتلوا (20) كل من أثار فتنة أو توهموا فيه استنكافا ، ولقد ثار شيء بينهم وبين المغاربة الذين بها (21) فقتلوا كل من وجدوه•

ودخلوا جامعها الأعظم (22) فأهين أشد الاهانة ، وشتتوا خزائن الكتب التي به وداسوهـا بالأرجل وحوافر الخيل ، انا لله وانا اليه راجعون ، ونهبوا بعض علمائها لاتهامهم بودائع الغـز ومظاهرتهم ، وأخذوا أموالا كثيرة من نساء الغز ، فضلا عن النهب ، وأثقلوا أهل مصر بالضرائب الكثيرة وشن الغارات خلف فـل الغز • وبعث (23) عسكرا صعد مع الصعيد فملكه الى اقنا ، فضلا عن جرجى وسيوط (24) وغيرهما •

ثم تخطوا الى القصير من مراسي بحر سويس ، وبنـوا فيه قلعة وحصنوها بالمدافع ، وقد زحف اليهم جي ن من الطلبة والعلماء من أرض الحجاز ، أميرهم العالم الفقيه الشيخ الجيلالي السباعي المغربي ، وصحبوا معهم مدافعه (25) • ولما نزلوا بالقصير أعان أهل تلك الأرض الكفرة فقتلوهم كلهم الا من اتخفى (26) (كذا) •

19 ــ هو محمد كريم قتله الفرنسيون ظلما وقهرا ، ترجمته في الجبرتي 52/5 .

20 ــ أي الفرنسيين .

21 ــ يعني القاهرة .

22 ــ الجامع الأزهر .

23 ــ يعني بونابرت .

24 ــ هي قنا ، وجرجا ، واسيوط .

25 ــ أي بونابرت ، والحديث عن جنس الفرنسيين ، أي أن جيش الجيلالي استولى على مدافع الفرنسيين .

26 ــ «الجيلالي» ذكره الجبرتي تارة «الكيلاني» وتارة «الجيلاني» ولم يذكر لفـظ «السباعي» معه . 18/5، 41، 44، 63 . وأكد الجبرتي الحوادث التي نسبها اليه أبو راس وموقف أهل الصعيد من المغاربة . توفي الجيلالي في ذي القعدة سنة 1213 .

وتمكن عدو الله من مصر ، وبنى حوله قلاعا كثيرة لتحصينه ، وبعث جيشا الى جهة الصالحية ، ففتحوا تلك القرى ، على كثرتها ، وتخطوا الى العريش ، الى خان يونس ، حتى شرد منهم أهل غزة من الشام وفلسطين والرملة الى القدس • وفتح ذمياط (كذا) وعسقلان ومـا حولهما من القرى • فملك من الأسكندرية ورشيد الى اقنـا ، الى القصير ، الى خلف العريش ، الى ذمياط ، الا أن الانجليز سدوا عليه فرصة المجاز ، فأرسلوا سفنهم حول بقير (27) حيث مصب النيل في البحر الرومي ، فأخذوا بمخنقه ، وحالوا بينه وبين بلاده • ولولاهم لامتلأ اقليم الفرانسة بالسبي من مصر ، فكان ذلك من لطف الله بهم •

وموهوا (28) بالعدل ، مكيدة ، كي يحبهم الناس ، حتى ان رجلا بيده اناء مملوء حليبا فأخذه جندي منهم ، فلما سمع صاري عسكر ، وزير (29) بنبارت ، أعطا (كذا) للرجل فى ذلك محبوبا ذهبا • وهدوا كثيرا من قلعة (30) مصر ، كرسي مملكتها ، وأول من اختطها صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي فى القرن السادس •

ثم ان عدو الله لما خلا له الجو من المنازع ، وأيقن أن ليس له عن اقليم مصر دافع ، وذهب الصادح والحادي ، بحيث لا حياة لمن تنادي (31) سولت له نفسه غزو عكا التي هي أحد (كذا) قواعد الشام • فاستخلف على مصر ، وسار اليها بجنود عظام ، وخدمتهم من فلاحـة

27 — ابي قير .

28 — يعني الفرنسيين .

29 — أي نائب بونابرت ، ويعني بصاري عسكر قائد الجيش .

30 — تعرف اليوم بالقلعة فقط ، والى عهد قريب كانت تسمى قلعة محمد علي ، وكانت مقر الحكم في عهد المماليك .

31 — واضح ان ابا راس يلمح بذلك الى رأيه في سياسة أمراء المسلمين الذين ذكرهم في البداية .

مصر أكثر (32) • ففر منه أهل يافا وصيدا وغيرهما ، ودخلهما الجند ونهب ما وجد وعاث وأفسد • وارتجت الشام منه ، وخافه أهل دمشق وغيرهم ، على بعدهم وغزارة جندهم ، حتى أن أهل القدس وعمواس(؟) ونابلس وغيرهم هموا بالانجلاء عن ديارهم وأوطانهم • ثم انه أناخ على عكا بكلكله ، وخيم بذوبه وأهله ، وبها أحمد الجزار باشا ، فدارت بينهما حروب متكررة ، وهجم عليها ذات يوم حتى دخل جنده المدينة • وأخرجوا منها قسرا ، وولوا الأدبار قهرا ، ثم أقلع عنها ، ورجع خائبا الى مصر ، وفي خلال ذلك أخذ الانجليز من يده مالطة عنوة ، وها هي بيده الى الآن • وقد نجا من الشام منجى (33) الذباب ، راضيا من الغنيمة بالاياب •

وقد اقتصر بعد ذلك على مصر وعملتها (34) ، واقصر عن الطموح الى غيرها ، ثم زحفت عليه عساكر السلطان سليم (35) بن مصطفى العثماني ، فلقيها بالعريش ، وهو آخر عملة مصر مما يلي الشام ، فكانت بينهما حروب سجال ، وربما كان ظهوره أكثر • ثم انه حمل قناطير مقنطرة من المال حتى كاد أن يفرغ منه مصر (36) ، وركب البحر سرا من الانجليز ، وتخلص الى بلاده البريز (37) ، بعد ما استعمل على مصر وزيره (38) صاري عسكر ، فسلك نهجه فى ذل المسلمين ، وجيوش العثماني آخذة بمخنقه ، وقد سدوا عليه ، مع الانجليز ، كل طريق ، وغص من ذلك بالريق ، وصار يموه على المسلمين بأن السلطان سليم أمره بغزو مصر •

---

32 — فرض بونابرت على الكثير من الفلاحين المصريين وأصحاب الحرف — وحتى بعض

ثم وقعت المراوضة (39) على اسلام البلد وعملتها ، وينصرف لبلاده . ففعل على أن يأخذ ما بيده ، فانحدر فى النيل الى الاسكندرية ، وقد أفرجوا (كذا) له الانجليز . ومنها ركب لبلاده سنة ستة عشر ومائتين وألف . وما من امرأة لا زوج لها من المومسات رضيتهم ذهبت معهم ، فطهر الله مصر منهم .

آن آربر (أمريكا) 1980/6/30 .

ملاحظة :
أشار أبو راس الى الحملة الفرنسية على مصر أيضا في كتابه (فتح الاله) في حوالي سبعة سطور ، وذلك أثناء حديثه عن شيخه عبد الله الشرقاوي فقال عنه أنه كان يدافع عن المسلمين ويتدخل في شأنهم مع النصارى ، « الى أن فرج الله بعد ثلاثة من الأعوام ، والناس فيها في وصب وأوام » . وقال أن النصارى في مصر « ألزموا المسلمين المحبوب وبطاقة » .

39 ــ المفاوضات .

في النشاط العسكري والتجاري للجزائر
خلال القرن الثامن عشر (12 هـ)

تحتوي مكتبة ويليام كليمنتز التابعة لجامعة ميشيقان (آن آربر) الأمريكية (*) على وثائق مخطوطة تتعلق بالحياة البحرية والعسكرية والاقتصادية والدبلوماسية لدول المغرب العربي (الجزائر — تونس — ليبيا — المغرب الأقصى) وذلك خلال الفترة المعروفة عندنا بالعهد العثماني •

وأثناء زيارة قصيرة (*) لهذه المكتبة تمكنت من الاطلاع فى مجموعتي شيلبورن (Shelburne)) ولير ((Lear)) على بعض هذه الوثائق ، وأخذت منها معلومات تتعلق بالجزائر فى القرن الثامن عشر (12 هـ) وبداية القرن التاسع عشر •

واني أغتنم هذه الفرصة لشكر مسؤولي هذه المكتبة على تسهيل مهمتي ، كما أني أسارع بوضع هذه المعلومات أمام الباحثين فى صورتها الخام لعلهم يجدون فيها فائدة لما يستقبل من أبحاثهم ، غير أني أسارع أيضا الى القول بأن هذه المعلومات لا تغنى عن الرجوع الى الأصل •

وتتحدث التقارير المحفوظة فى هذه المكتبة عن النشاط البحري (العسكري) والتجاري للجزائر • فبالنسبة للجانب الأول تتحدث عن

— نشر فى (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 33 — 34 (جوان — 1984) •

— W.L. Clements Library, University of Michigan, Ann. Arbor.

(*) — كانت الزيارة خلال شهر أغسطس ، سنة 1983 •

عدد السفن ونوعها وقوتها وعدد مدافعها وحالتها فى البحر سواء فى الحرب أو فى السلم • كما تذكر مصادر التموين بالذخيرة والعتاد والرجال الخ •

أما عن النشاط التجاري فتضم التقارير المذكورة معلومات هامة عن صادرات وواردات الجزائر وعن قيمة كل ذلك بالعملة الأجنبية ، ومدى تنافس الدول الكبرى عندئذ ، سيما بريطانيا وفرنسا ، على التجارة مع الجزائر وفى البحر الأبيض عموما ، وتنافس بعض الفئات الغربية مثل التجار اليهود فى ليفورنيا الذين كانوا يتنافسون بدورهم مع التجار الفرنسيين على احتكار السوق الجزائرية تصديرا وتوريدا •

وبالاضافة الى ذكرى لمصدر الوثيقة فاني سأذكر رقمها وأحوالها حتى يفيد منها الباحثون ويحاولوا الاتيان بها اذا شاؤوا • كما أني سأذكر نبذة عن محتوى كل وثيقة للكشف عن قيمتها التاريخية • وقد قسمت هذا العمل الى الأقسام التالية :

1 ـ معلومات عن النشاط البحري (العسكري)

2 ـ معلومات عن النشاط التجاري (صادرات وواردات)

3 ـ معلومات عامة (سياسية ودبلوماسية) •

1 ـ معلومات عن النشاط البحري (العسكري) :

في وثيقة بتاريخ 25 يوليو سنة 1767 توجد المعلومات التالية عن السفن التي تتكون منها القوة البحرية الجزائرية • وتوجد هذه المعلومات كلها على صفحة واحدة ، هي صفحة 94 من المخطوط الذي يحتوي على مجموعة كبيرة من التقارير التي كتبت فى وصف القوات العسكرية والبحرية لدول البحر الأبيض المتوسط عموما فى ذلك الوقت ، ومنها دول المغرب العربي المذكورة التي يعبر عنها التقرير باسم (الدول البربرية) وأحيانا باسم (دول القرصنة) • وهذه هي المعلومات (1) :

1 ـ رقم المجموع 137 ورقة 49 من أوراق شيلبورن Shelburne papers بمكتبة كيلمنتس المذكورة ، والملاحظ أنه لا يوجد اسم شخصي لبعض كتاب الوثائق ، التي سنذكرها ، وهي جميعا باللغة الانكليزية .

نـوع السفينـــة	عـــدد مدافعهـــا
سفينة كبيرة	52 مدفعا
فـرقـاطة	32 »
فرقاطة أخرى	24 »
زيبـك	30 »
زيبـك أخـرى	26 »
زيبـك أخـرى	24 »
زيبكان (ذات 24 مدفعالكل منها)	44 »
زيبكان (ذات 20 مدفعا لكل منها)	40 »
سيتي	20 »
سيتي أخرى	8 »
زيبـك	14 »
سيمي	10 »
زيبـك	8 »
زيبـك أخرى	6 »
سيتي	6 »
زيبكان (أربع مدافع لكل منها)	8 »
اربع زوارق تجديف	8 »
زورقان للحراسة	4 »

ويلاحظ التقرير أن جميع هذه السفن كانت عاملة ، غير أن نصـف الغليوطات كان غير عامل • ويقول ان هناك سفينة من نوع الفرقاطة ما زالت بصدد البناء وأن فوتها 30 مدفعا •

وهناك مخطوط آخر هام يجمع أيضا وثائق عديدة عن القوات البحرية والتجارية للجزائر ودول المغرب العربي عموما وذلك بعد سنة 1765 (2) • وعدد الصفحات فيه خمسون (50) • أما بقية صفحات المجموع فلا تهم دول المغرب العربي • وعنوانه الكامل هو (وجهة نظر مقارنة عن القوات

---

2 — رقم 19 من مجموعة شيلبورن أيضا ، بنفس المكتبة .

العسكرية والبحرية لدول القرصنة الأربع لبربارية « شمال افريقية » مع نبذة عن انتاجهم ووصف لحكومتهم الحالية عند الضرورة) •ويحتوي هذا الجزء المتعلق بدول المغرب العربي على هذه العناوين :

— عن مملكة برقة وطرابلس

— عن تونس

— عن الجُزائر

— عن المغرب الأقصى

— عن تجارة الدول الأربع المذكورة

— رسالة من الأسقف كليفلاند ، جبل طارق ، أغسطس 25 ، سنة 1765 •

وقد اطلعت على هذا المخطوط فاذا فيه تفاصيل عن قوات كل بلد في شكل تقارير واحصاءات • وفيما يتعلق بالجزائر توجد الصفحات من 22 الى 31 ثم من الصفحة 46 الى 50 • غير أن نهاية صفحة 50 مبتورة ، وبذلك يظهر أن بقية الحديث عنها غير واضح ، وذلك يعود الى ضغط التجليد ، ولا يمكن أن يظهر التصوير جيدا الا اذا ألغي التجليد ، وهو غير ممكن • لذلك فقد يكون من الأفضل نسخ الصفحات اليسرى من المخطوط باليد •

وبعد أن يصف المخطوط حالة الحكومة بالجزائر وطريقة الحكم يقول عن الجيش ان الواجب أن يكون عدده حوالي 12 (اثنا عشر) ألف رجل ولكنه الآن (أي بعد سنة 1765) يتألف من 8٫500 رجل فقط • أما عن القوات البحرية فى الجزائر فيذكرها على النحو التالي وذلك سنة 1762 :

نـوع السفينـة	عـدد مدافعهـا
سفينة كبيرة	50 مدفعا
سفينة من نوع (د)	46 »
زيبكان	26 » لكل منها
أربع سفن من نوع (د)	8 » لكل منها
سفينتان نوع سيتي	16 لكل منها (✻) 3
سيتي أخرى	14 »
سفينة من نوع (ديتو)	12 »
اربع سفن من نوع (د)	10 لكل منها (✻)
سفينة من نوع تارتان	6 »
سفينة من نوع (د)	4 »

ولاحظ التقرير أن أكثر هذه السفن قد أصبحت قديمة وغير مفيدة ، ومع ذلك فان الجزائريين يبقونها في حالة عوم في المرسى دون مدافع أو حبال ليظهروا قوتهم البحرية • ولاحظ أيضا أنهم يبقون عدد الرياس (ضباط البحر) في عدد 31 سواء كانت لهم سفن أولا وسواء توجهوا الى البحر فعلا أو بقوا فى بيوتهم • ولاحظ كذلك أن الجزائريين بنوا سنة 1765 فرقاطتين جيدتين وسفينـة من نوع زيبك وكلهـا تحمل 28 و 30 و 12 مهراسا من الهدايا السنوية التي تقدمها الدنمارك والسويد وهولاندا • غير أن هذه السفن الثلاث تحطمت فى ليلة واحدة لعدم وجود السعة البحرية الكـافية على الشـاطيء الجزائري ومات أكثـر رجالها الذين كانوا عليها • وأضاف أن الجزائريين قد وضعوا من جديد سفينتين أخريين فى المستودعات ، وقال بأنه لا توجد فى الوقت الحاضر سفينة جزائرية واحدة كبيرة فى البحر ذات 50 مدفعا • وختم كلامه عن البحرية الجزائرية قائلا : ان الجزائريين قد تحسنوا فى طريقة الاحتفاظ بسفنهم ورعايتها بفضل السلام الذي بينهـم وبين السويد والدنمارك الذي حققه المسمى الأسكندرلوجي A. Logie

✻ ✻ ✻

3 ـ لم يلاحظ التقرير ما اذا كان عدد المدافع لكل سفينة أو للمجموع . لذلك أضفنا نحن « لكل منها » مع هذه العلامة (✻) .

وحول نفس الموضوع وجدنا فى المجموعة المسماة بـ (أوراق لير) ، وهو اسم القنصل الأمريكي في الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر ، وجدنا قائمة بالقوات البحرية العسكرية للجزائر وذلك فى شهر يناير سنة 1804 ، وهو عهد الداي مصطفى باشا ، وهذه القائمة توجد على الصفحة الأخيرة من الوثيقة الى عنوانها (ملاحظات لقائد السفن الأمريكية الحربية القادمة الى ميناء الجزائر سنة 1804) • (4) وفى هذه (الملاحظات) تعليمات دقيقة عما جرت به العادة فى ميناء الجزائر عند دخول السفن الحربية والاجراءات المتبعة فى التعامل مع السلطات الجزائرية فى الميناء والحراس ومراسيم الاستقبال والاتصال بالقنصل الأمريكي هناك ، الخ •

وهذه الوثيقة لا تتجاوز خمس صفحات ، ونظرا لرداءة خطها فان نسخة منها قد كتبت على الآلة الراقنة ووضعت الى جانب الأصل • ولذلك يمكن الاكتفاء بتصوير النسخة الآلية عند الحاجة لأنها طبق الأصل •

وحول نفس الموضوع أيضا ، وهو القوة البحرية العسكرية للجزائر ، نشير الى أننا وجدنا رسالة وجهها الرئيس الأمريكي ، توماس جيفرسون الى داي الجزائر ، مصطفى باشا ، بتاريخ 9 يونيو (جوان) سنة 1804 وهذه الرسالة كانت ردا على رسالة وصلته من الباشا فى أكتوبر سنة 1803 • وهي تتعلق بالمعاهدة المشتركة بين البلدين • وبالسفينة الأمريكية ــ صالي Sally التي فقدت عند قادس وهي محملة ببضائع أمريكية للجزائر ، وبالمدافع التي طلبها الباشا من الرئيس الأمريكي ، ثم بامكان تدخل الجزائر كوسيط بين أمريكا وباشا طرابلس (5) •

2 ــ معلومات عن النشاط التجاري :

وفي تقرير كتبه القنصل البريطاني في الجزائر ، السيد فريزر Fraser ، بتاريخ 19 فبراير ، 1768 توجد معلومات هامة

4 ــ أنظر Lear papers بناير ، 1804 ، وقد عاش لير من سنة 1762 الى 1816 ، نفس المصدر .

5 ــ أنظر (أوراق لير) بتاريخ 9 يونيو (جوان) 1804 ، بنفس المصدر .

عن حالة التجارة الجزائرية ، خصوصا تلك التي تحتكرها شركات أجنبية أو فئات غريبة عن البلاد مثل عائلة بكري اليهودية •

ويمتد التقرير الذي يعنينا من صفحة 216 الى صفحة 228 ضمن مجموع (6) • غير أن صفحة 227 بيضاء • ويشتمل التقرير على صادرات وواردات الجزائر من البلدان التالية : مرسيليا ، ليفورنيا ، الاسكندرية، أزمير • ويتحدث التقرير أيضا عن عدد السفن التجارية وأنواع البضائع الموردة والمصدرة ، وعن قيمة كل ذلك بالعملة الجزائرية المعروفة بالسكينية •

وهذا بيان بصادرات سنة 1768 كما جاء في الاحصاء بالتقرير المذكور :

أ ـ صادرات الجزائر الى فرنسا (مرسيليا) :

الصوف	اللوبيا والعدس
الشمع	ريش النعام
الزيت	نبات الكتان (القنب)
جلود بشعرها	بذور الطير
القمح والشعير	بضائع من غنائم البحر

ويذكر التقرير أن التجار الذين يصدرون الى فرنسا على الخصوص كانوا من الفرنسيين فقط • ويشير الى أنه كان للفرنسيين عندئذ مستوطنات في القالة والقل والحصن ••• حبث تتمتع الشركة الافريقية (الفرنسية) بامتيازات صيد المرجان وغيره • ويدفع الفرنسيون في مقابل ذلك ضريبة (جزية) الى داي الجزائر •

ويلاحظ التقرير أن الشركة الافريقية المذكورة تربح من ذلك أرباحا طائلة ، وقدر قيمتها بالدولار المكسيكي ••• وكان للفرنسيين سنة 1738 في مدينة القالة وحدها 300 (ثلاثمائة) صياد للمرجان ومجموعة

6 ـ أنظر : المجموع رقم 111 من أوراق شيلبورن ، نفس المصدر

من الجنود وبعض القوانين الخاصة بهم وساحة سلاح Place d'arme كما كان لهم في بونة (عنابة) وتكوش Tukush وجيجل ، الخ احتكار تصدير الصوف والجلود التي يدفعون في مقابلها حوالي خمسة آلاف استرليني سنويا •

ب ـ صادرات الجزائر الى ليفورنيا :

وهي نفس الصادرات المذكورة أعلاه الموجهة الى مرسيليا • والفرق هنا هو ان هذه البضائع يصدرها اليهود في أغلب الأحيان ، ويلاحظ التقرير أن الجلود المدبوغة Baggs كانت معفاة من الضرائب •

أما الواردات الى الجزائر فالتقرير يذكرها أيضا منفصلة في قوائم طويلة تشمل اسم كل بضاعة • وقد حاولت حصرها وبعض الملاحظات عليها على النحو التالي :

1 ـ البضائع الواردة من مرسيليا :

ان التجار الموردين لهذه البضائع فرنسيون فقط ، وهم يدفعون على ذلك ضريبة 5 ٪ مع اعفاء المواد المهربة من الضريبة ، وتشمل قائمة مرسيليا 43 (ثلاثة وأربعون) اسما لمواد مختلفة •

2 ـ البضائع الواردة من ليفورنيا :

والتجار الموردون لها من اليهود في أغلب الأحيان ، وهم يدفعون عن ذلك 10 ٪ ضريبة ، وتشمل قائمة ليفورنيا 45 (خمسة وأربعون) اسما لمواد مختلفة •

3 ـ البضائع الموردة من السويد :

ان المورد لهذه البضائع هو قنصل السويد بالجزائر نفسه • وهو لا يدفع ضريبة عن ذلك • أما قائمة المواد التي يوردها فتشتمل على 21 (واحد وعشرين) اسما •

4 ـ البضائع الموردة من المشرق :

لم يذكر التقرير شيئا عن جنسية التجار في هذه الحالة ، ولا عما كانوا يدفعون من ضرائب ، ان كانت • أما قائمة البضائع الموردة الى الجزائر من المشرق (وهو اسم يعني في الغالب مينائي الاسكندرية وأزمير) فتضم 18 (ثمانية عشر) اسما •

* * *

ويتصل بهذا الموضوع وهو التجارة ، ماوجدناه من «تعليمات» وجهها القنصل الأمريكي ، لير ، Tobias Lear الى السفن الأمريكية التجارية الحاملة للبضائع الى مرسى الجزائر • فقد شرح لها كيف ترسو وكيف تتصل بالقنصل الأمريكي هناك ، وكيف تتعامل مع رجال المرسى والسلطات والسكان ثم كيف تغادر المرسى بعد انتهاء مهمتها • ومن بين النصائح التي وجهها لير الى ربابنة السفن التجارية الأمريكية أن يخبروا السلطات الجزائرية بأن لهم عقودا مع شركات في أوروبا حتى لا تطلب منهم السلطات الجزائرية حمل بضائع لها الى جهات تعينها هي (7) •

وتوجد في المجموع الذي سبقت الاشارة اليه (8) عن دول المغرب العربي معلومات هامة عن حالة التجارة وخصوصا الصادرات من الجزائر • وبناء عليه فان صادرات الجزائر حوالي سنة 1765 هي :

الصوف	الشمع
القمح (اذا رخص به)	العسل
البغال	الجلود

وجاء في هذا التقرير أن معظم صادرات القمح كانت من بونة (عنابة) وبجاية وستورة • غير أن الترخيص بذلك يأتي من الجزائر وليس من عاصمة الأقليم (قسنطينة) • ومن الملاحظ أن التقرير هنا يتحدث عن النشاط التجاري الفرنسي ولذلك أضاف قائلا أن المراكز التجارية

7 ـ أنظر (أوراق لير) بتاريخ أول مايو ، 1804 ، والوثيقة مكتوبة بخطه ، وترافقها نسخة مضروبة على الآلة الراقنة طبعة الأصل . نفس المصدر .

8 ـ أنظر (أوراق شيلبورن) رقم 19 ، نفس المصدر .

الفرنسية لا تعتبر من موانىء الجزائر رغم أن الفرنسيين صدروا منها بضائع كثيرة . ولاحظ أيضا أن الفرنسيين قد عقدوا مع الجزائر «خلال السنوات الأخيرة» عقودا بشأن تصدير الصوف والشمع وغيرهما من المواد الأساسية . أما أهم موانيء الجزائر التجارية فهي ، بناء على هذا التقرير ، بجاية ، وبونة ، وستورة . وقد أشار التقرير الى أن خزانة الجزائر غنية جدا اذ تحتوي ، كما قال ، على سبعة ملايين جنيه استرليني من الذهب بالاضافة الى الجواهر والأحجار الكريمة . أما الدول التي لها قناصل في الجزائر عندئذ (حوالي سنة 1765) فهي : بريطانيا ، فرنسا ، السويد ، الدنمارك ، هولاندا ، البندقية .

3 ـ معلومات عامة (سياسة ودبلوماسية) :

جاء في المجموعة التي عنوانها (وجهة نظر مقارنة بين دول المغرب العربي ...) بعض الأضواء على شخصية غريبة لها علاقة في تطور العلاقات بين دول المغرب العربي والدول الاسكندنافية عموما . وهذه الشخصية هي الاسكندر لوجي A. Logie فقد جاء فيها أن لوجي قد عقد السلام بين دول القرصنة (دول المغرب العربي) والسويد والدنمارك . وأخبر صاحب التقرير أن لوجي ولد في اسكتلاندا ، وكان ضابط سفينة صغيرة يتاجر فيها تجارة غير شرعية أو غير مرخص بها ، مع السواحل الافريقية ، وكان يقدم لدول المغرب العربي الذخيرة والعتاد الحربي . وقد استمر على ذلك عدة سنوات الى أن تم اختطافه في هولاندا ووضع في السجن لممارسته التجارة غير المرخص بها . ومن هناك عرض السيد لوجي ، حسبما جاء في التقرير ، خدماته على وزير سويدي فحذره هذا من السجن وأرسله الى استوكهولم باعتباره شخصا مناسبا ، حسب اقتراحه ، لعقد معاهدات مع دول المغرب العربي . وقد أخذ السيد لوجي الجنسية السويدية وذهب في رحلة الى سواحل شمال افريقية وعقد المعاهدات التجارية عن طريق الهدايا ، كما جاء في التقرير ، مع الجزائر وتونس وطرابلس والمغرب الأقصى (9) .

9 ـ عن حياة ودور الاسكندر لوجي ، أنظر أيضا كتابنا (الجزائر وأوروبا 1500–1830) الذي ألفه جون وولف وترجمناه الى العربية ، وهو حاليا تحت الطبع .

ولاحظ التقرير أن هذا السلام الذي تحقق بين دول المغرب العربي والدول الاسكندنافية (السويد والدنمارك) بدون أن يكون دفع الدراهم شرطا من شروطه قد جرد بريطانيا وهولاندا من حصة تجارية هامة في البحر الأبيض المتوسط • بل أن لوجي قد وافق على دفع السويد لهدايا سنوية من المواد العسكرية والبحرية القيمة التي تقدر بخمسة آلاف جنيه استرليني • كما أنه حقق للدنمارك نفس الهدف •

ان هذا الوضع ، كما جاء في التقرير المذكور ، قد أعطى لدول المغرب العربي شهية قوية للمطالبة بنفس النوع من الهدايا • ولاحظ أن لوجي قد قدم في هذه السنة (1765) الى الجزائر وحدها مواد بحرية وعسكرية تبلغ قيمتها ثلاثة آلاف جنيه سنويا حرة من الدفع • وهذا الأمر هو الذي جعل هذه الدول ، في نظر صاحب التقرير ، عنيدة في معاملاتها مع الدول الأخرى ومؤذية ، وهي تطالب بنفس المعاملة مع حكومة لندن • ولاحظ أنه جاء في سنة 1756 سفير من الجزائر الى لندن لهذا الغرض ، وهو المطالبة بنفس المعاملة ، وقد حصل من ذلك على أشياء قديمة • ولكن بداية حرب لبريطانيا مع دولة أخرى أعطتها عذرا لوقف تقديم البارود والمواد الحربية الى الجزائر ، بدعوى عدم وجود فائض من ذلك •

ويضيف التقرير بأن داي الجزائر الحالي (سنة 1765) ما يزال في مقتبل العمر ، وأنه كان في أول أمره خزناجيا • وأخبر أن لهذا الداي عزيمة ودهاء وقدرة ولكنه يخفيها جميعا وراء ستار الدراسة والتدين مدعيا أنه لا يقوم بشيء غير الصلوات •

وفي هذا التقرير أخبار أخرى عن الوضع السياسي والاداري للجزائر • فالحكومة فيها جمهورية عسكرية • وهي تتألف من الأتراك الشرقيين فقط ، وأنه لا يسمح حتى للأطفال الأتراك بالجزائر أن يتولوا أمورا عسكرية في البلاد • وقال ان أولئك الأتراك يأتون من اسطانبول وغيرها في أعداد صغيرة أو كبيرة حسب الحاجة • ولهم فرص مفتوحة أمامهم وهي أن أقل جندي فيهم له نفس الحظ الذي لأعلى

فرد في الجيش ليصبح داي الجزائر • ولاحظ أن منصب الداي انتخابي ولكنه لا يخضع لكبر السن ولا للرتبة ولكن لانتخاب الجيش له وذلك عن طريق ممثلي هذا الجيش في الديوان ، بواسطة الاقتراع ، وأحيانا عن طريق المناداة برفع الأيدي •

ونود أن نضيف الى ذلك الاشارة الى وثيقتين تتعلقان بالعلاقات بين الجزائر وأمريكا أوائل القرن التاسع عشر ، وأولى الوثيقتين رسالة بعث بها الرئيس الأمريكي ، توماس جيفرسون ، الى الداي مصطفى باشا بتاريخ 16 يوليو 1803 • وتحتوي الرسالة على خبر تعيين القنصل لير في الجزائر وكذلك تعيين جيمس كاثكارت J. Cathcart وعن تدخل الباشا لدى والي طرابلس لصالح أمريكا ، وعن الصداقة المتبادلة بين البلدين (الجزائر وأمريكا) التي أبداها الباشا في الرسالة التي بعث بها مع القنصل أوبراين O'Brian الى الرئيس الأمريكي والمؤرخة في 17 أكتوبر سنة 1802 •

أما الوثيقة الثانية فهي عبارة عن رسالة من القنصل لير الى كاتب الدولة الأمريكي للخارجية عندئذ (1804) ، السيد جيمس ماديسون • وتاريخ هذه الرسالة هو أول يناير الى 17 فبراير سنة 1804 • وقد بعث بها من الجزائر • وتحتوي أيضا على يوميات لير نفسه Diary في الجزائر والحوادث التي سجلها هناك خلال الفترة المذكورة خصوصا العلاقات الجزائرية ــ الأمريكية والعلاقات المتوترة بين الجزائر وبريطانيا ، والتجارة الجزائرية مع الدول الأوروبية ، ونشاط المرسى ، الخ • وتبلغ أوراق هذه الوثيقة 36 (ست وثلاثون) صفحة (11) •

10 ــ أنظر (أوراق لير) بتاريخ 16 يوليو ، 1803 ، في نفس المصدر •

11 ــ أنظر (أوراق لير) بتاريخ أول يناير الى 17 أكتوبر 1804 ، في نفس المصدر •

من أخبار شعبان باشا
داى الجزائر ، 1695
في كتاب (الشهب المحرقة) لبرناز

قليلة هي الأخبار التي تتحدث عن سير حكام الجزائر خلال العهد العثماني ، وقليل هم أولئك الحكام الذين ظفروا بعناية الكتاب المعاصرين لهم فخلدوهم في كتاب أو في قصيدة • ولولا الأخبار التي وردت عن خير الدين وأخيه عروج في كتاب (الغزوات) لما عرفنا عنهما الا أسماءهما، ولولا عمل محمد بن ميمون المسمى (التحفة المرضية) لما عرفنا عن محمد بكتاش الا اسمه ، وهكذا يقال عن البقية • وقد كتبت السطور وحتى الصفحات عن بعض أولئك الحكام في كتب المعاصرين ولكنها لم تصل الينا • ومما وصل الينا من ذلك ما سجله أحمد بن مصطفى برناز (1) عن شعبان باشا ، داي الجزائر (2) •

كان شعبان باشا من أبرز الدايات الذين بدأ عهدهم سنة 1082(1671) بعد اضطرابات تميز بها عهد الأغوات • تولى هو الحكم سنة 1100 ، وبقي فيه ست سنوات • وكان شعبان من رياس البحر ومن كبار

1 ـ عن أحمد برناز أنظر أحمد بن عبد السلام (المؤرخون التونسيون من القرن 17 الى 19) ، وهو كتاب بالفرنسية صدر في تونس سنة 1973 ، وقد حلل فيه المؤلف كتاب (الشهب المحرقة) ، الذي أخذنا منه النص الذي نحن بصدده ، أنظر بالخصوص **صفحات 183 ـ 192 . أنظر عن برناز ايضا محمد محفوظ** (تراجم المؤلفين **التونسيين) ج 1 ، بيروت ، 1982 ، ص 122** ، وكذلك حسين خوجة (ذيل بشائر أهل الايمان) تحقيق الطاهر العموري ، الدار العربية للكتاب ، 1975 ، ص 230 ـ 234 .

2 ـ عن شعبان باشا أنظر عبد الرحمن الجيلالي (تأريخ الجزائر العام) ج 3 / 200 ـ 202 ، وكذلك مبارك الميلي (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) ج 3 / 194 ـ 198 . وانتهى عهده بالقتل خنقا سنة 1106 بعد ثورة الجند عليه . أنظر أيضا كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 ، ص 425 ، هامش 47 . وفي كتاب (الجزائر وأروبا) الذي ترجمناه وقدمناه للطبع أخبار هامة عنه .

المحاربين • ولكن حظه جاء به في عهد كانت فيه الأحوال بتونس غير مستقرة كما كان سلطان فاس طامعا في بعض أجزاء الجزائر ، فكانت حكومة شعبان باشا تتدخل في شؤون تونس لتأييد باي ضد آخر كما كانت ترد غارات سلطان فاس • من ذلك أن حكومة الجزائر هي التي ساعدت على تنصيب محمد باي (3) ، ثم ساندت منافسه أحمد بن يونس ولكن الأمور لم تستقر لهذا أيضا • وكان السلطان اسماعيل بفاس يتآمر مع محمد باي من جهة ومع خصوم شعبان في الجزائر من جهة أخرى ، غير أن الداي تمكن من القضاء على خصومه في الداخل ومن ايقاع الهزيمة النكراء بالسلطان اسماعيل اذ رده على أعقابه حتى أدخله عاصمته (فاس) ، ثم التفت من جديد الى تونس ولكن الجنود ملوا الحرب بعد خوضها ثلاث سنوات فتمردوا عليه وسجنوه ، ولكن خليفته ، أحمد باشا ، حكم بقتله في سجنه خنقا •

وما نذكره فيما يلي عن شعبان باشا ليس كتابة رسمية من أحد المعجبين به كما كان يفعل كتاب البلاطات ، ولكنه «اخبار» متفرقة سجلها أحد الساخطين على الداي من معاصريه ، ونعني به أحمد برناز • ان هذه الأخبار المتفرقة التي عاش بعضها الشيخ برناز بنفسه وجمع بعضها الآخر من أفواه المعاصرين والمخالطين للباشا هي في الواقع أخبار هامة وان بدت جزئية ومرتبطة الى حد ما بقصة صوفية • فهي أخبار تقدم لنا الباشا على حقيقته في علاقته بالجند وعلاقته بالناس ، في شكله الخير وفي شكله الشرير ، في جانبه المحارب وفي جانبه المسالم ، ومن ثمة تقدم لنا مسألة الحكم في الجزائر العثمانية والأخطار التي يواجهها الحاكم سواء داخل حدوده أو خارجها • ويبدو أن شعبان باشا كانت له طموحات عريضة في توسيع نفوذه وتثبيت نظامه ، نظام الدايات ، الذي تعلو فيه كلمة الداي على كلمة الباشا ، أي كلمة الحاكم الفعلي محليا ، بدل كلمة الحاكم الرمزي الذي يمثل السلطان العثماني • وقد استطاع شعبان باشا أن يقهر سلطان فاس وأن يدخل عاصمة باي

3 – عن محمد باي انظر احمد بن ابي الضياف (اتحاف أهل الزمان) ج 2 ، وبعد خلافات مع منافسيه من عائلته استقر له الحكم الذي بقي فيه من 1096 الى 1108 •

تونس ، ولكن جنوده هم الذين خذلوه ، ربما بتحريض من أعدائه بالخارج وأيضا من ممثل السلطان العثماني الذي كان يحس بدوره في تضاؤل •

ان عاطفة أحمد برناز كانت ، بكل وضوح ، ضد شعبان باشا • فهو بالنسبة اليه يستحق ما حدث له من متاعب ومن نهاية مأساوية لأنه غزا تونس وروع أهلها ونحى بايها ووضع مكانه منافسه ، ورجع من تونس محملا بأموال طائلة وغنائم كثيرة • ثم أن الشيخ برناز من كراغلة تونس الذين أصبحوا ينظرون الى تدخل باشا الجزائر على أنه عرقلة لمسيرتهم في الاندماج بالمجتمع التونسي الحضري ، وهي الخطوة التي عجز كراغلة الجزائر على تحقيقها • ومن جهة أخرى كان برناز قد زار مدينة الجزائر والتقى بشعبان باشا وحادثه في داره ، ويبدو أنه لم يكن من المعجبين به لأسباب لا نعلمها وان كان كلامه يوحى بأن الباشا كان بخيلا منقبضا لا يقبل على العلماء أمثال هذا الشيخ المغترب •

وهناك ناحية أخرى نرى الشيخ برناز يؤاخذ عليها شعبان باشا ، وهي موقفه من الشيخ علي عزوز (4) • وقصة الشيخ علي عزوز هذا يختلط فيها الحق والباطل ، العلم والدروشة ، الدبلوماسية والكرامة الصوفية • فالرجل (علي عزوز) شخصية من أغرب شخصيات العصر • ولد في فاس ونشأ بها وأخذ عن علمائها ، ثم توجه الى المشرق فحج وطاف ، وأخيرا استقر به المطاف في تونس • فهل جاءها مبعوثا خاصا (جاسوسا بلغة اليوم) لسلطان فاس ، مكلفا بزعزعة العلاقات الجزائرية التونسية لصالح سيده بفاس ؟ ان الدور الذي كان يقوم به لا ينفي ذلك ، سيما في أيام شعبان باشا • ومهما كان الأمر فان بايات تونس كانوا يستعملونه لأغراضهم السياسية رغم ادعائه هو بأنه رجل دين وزهد وتصوف • وقد كانت معاملة شعبان باشا لعلي عزوز عندما جاءه

---

4 – عن علي عزوز أنظر (الشهب المحرقة) الذي نحن بصدده ، وكذلك تأليف قاسم بن محمد ساسي البوني الجزائري عنه ، وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية ، رقم 3090 . وكذلك كناش الطواحني بنفس المكتبة ، رقم 18293 ورقم 18500 ، وقد توفي على عزوز بزغوان سنة 1122 هـ ، وعنه أيضا أنظر حسين خوجة (ذيل بشائر أهل الايمان) تحقيق الطاهر العموري ، الدار العربية للكتاب ، 1975 ، ص 287 – 302 .

مبعوثا من تونس هي السبب الظاهر في نقمة أحمد برناز على الباشا • ذلك أن برناز كان يرى في الشيخ علي عزوز رجل بركة وأسرار صوفية بينما كان الباشا يرى فيه ، على ما يظهر ، رجل دهاء وسياسة ؛ ولذلك عامله بما لم يرض به الشيخ برناز •

ومهما كان الأمر ، فان الشيخ علي عزوز اختار اقامته في زغوان (تونس) ، وأخذ أمره يشتهر بين الناس على أنه من أصحاب الكرامات وخوارق العادات • وبالطبع لفتت شهرته هذه اليه أنظار بايات تونس الذين كانوا يخشون أمثاله فأخذوا يعملون على استمالته اليهم والاستفادة منه • وكان ذلك هو شأن أمراء الوقت مع رجال التصوف البارزين أو الخطرين • وقد أنشأ علي عزوز له زاوية معتبرة أصبحت مزار العشرات من الناس مريدين وأتباعا ، فقراء وغرباء ، وكان بعض الأمراء هم الذين ساهموا في بناء هذه الزاوية ورصدوا لها أوقافا وهدايا • وواضح من القصة التي ساقها أحمد برناز عن علاقة شعبان باشا بعلي عزوز أن هذا جاء مبعوثا من باي تونس للتوصل الى الصلح ولكن الباشا الذي عرف عدم وفاء محمد باي رفض الصلح واختار الحرب فسلط عليه علي عزوز « كرامته » حتى تمرد الجند واعتقلوا الباشا ورموا به في السجن ، وبذلك بطل مشروع الحرب وتحققت كرامة الشيخ بمصالحة خليفة شعبان باشا مع باي تونس • ولا شك أن برناز ، الذي كان هو أيضا متورطا في السياسة بتونس حتى قضت عليه (5) ، لا تخفى عليه هذه الأمور ، ولكنه كان عاطفيا ومصلحيا فصدق الرواية التي رويت له عن نجاح كرامة الشيخ مع شعبان باشا •

* * *

وجدنا النص التالي في كتاب الشيخ أحمد برناز الذي سماه (الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة) والذي ألفه سنة 1124 ، أي انه روى فيه أخبار شعبان باشا بعد ثماني عشرة سنة من

---

5 ـ ولد أحمد برناز في تونس حوالي سنة 1074 (1664) من أسرة تركية الأصل ، وتوفي مقتولا سنة 1138 (1726) متورطا في الشؤون السياسية ، أو هكذا اتهمه الباي الذي حكم بقتله خنقا (بالصدفة هي نفس الطريقة التي مات بها شعبان باشا) ، وقد طاف برناز . بلدان المشرق والجزائر فزار منها بالخصوص مدن عنابة وقسنطينة والعاصمة وزواوة .

وفاته ، وقبل وفاته هو (برناز) بحوالي أربع عشرة سنة • ورغم أن الشيخ برناز ألف عدة كتب الا أن (الشهب) من أهمها لأنه كتاب ضم معلومات جيدة عن أهل العصر الذي عاشه ، ومنها المعلومات التي ساقها عن شعبان باشا وعلي عزوز • وقد رأينا نقل هذا النص للضوء الذي يلقيه على حياة هذا الباشا المغمور وعلى العلاقات بين الجزائر وتونس في آخر القرن السابع عشر الميلادي وعلى عقائد الناس عندئذ في الخلط بين السياسة والتصوف • فالشيخ برناز كان من المدافعين عن « ولاية » الشيخ عزوز ، وهو يقول عنه « ان جل أهل افريقية (يقصد تونس) وأقليم المغرب على جلالة الشيخ المذكور والشهادة له بالولاية والورع ، بل وأهل مصر • وحج وبلغ خبره أهل الحرمين وممالك العرب كلها » ، الى أن يقول : « ويكفي في ولايته ما وقع له مع شعبان ، حاكم الجزائر الخ • »

عثرنا على النص في مخطوطة (الشهب المحرقة) الموجودة بالمكتبة الوطنية التونسية أثناء زيارة لهذه المكتبة في أكتوبر 1983 • وقد صورته عندئذ عن الأصل ثم راجعته فوجدته مفيدا في نظري لقراء التاريخ الجزائري في العهد العثماني ، فنظمته على فقرات وعلقت عليه بما رأيته مناسبا وقدمت اليه بهذه المقدمة • وحياة المؤلف (أحمد برناز) مبسوطة في كتب التراجم التونسية ، ولا سيما الكتابان المتأخران اللذان أشرنا اليهما في هامش هذا التقديم ، ولذلك لا نشعر بالحاجة الى سرد ترجمته هنا • أما النص فهو مكتوب بخط جيد في النسخة التي صورناه منها (6) • ولغة الشيخ برناز مقبولة وان كانت لغة من هو دخيل على الأسلوب العربي أو على الأقل كانت تغلب عليه اللغة الأعجمية فيما يظهر من تعابيره ، وكذلك كانت تغلب عليه الدارجة •

وخلاصة الخبر الذي ساقه برناز في النص هي :

1 ـ اثبات ولاية (أو كرامة) الشيخ علي عزوز وذلك بانتصاره على شعبان باشا داى الجزائر ، واجراء الصلح مع خلفه ، باسم باي تونس •

---

6 ـ صورناه من النسخة رقم 18584 ، وتوجد منه نسخة أخرى برقم 5849 اطلعنا عليها بالمكتبة ولكننا فضلنا خط الأولى .

2 ــ وصف الباشا بأنه كان ظلوما للناس ومع ذلك كان يكثر من قراءة القرآن ، حتى أن المصحف لا يكاد يفارق يده ، وأنه كان متواضعا في معيشته ، وكان آمنا في داره فلا يوجد عند بابه سوى شيخ نصراني يقضي حوائجه ويخبره بالقادم اليه ، وكان الباشا قد حفر قبره أثناء حكمه ، وكان كثير البكاء وكثير الصدقات على الفقراء • ولكنه ، مع ذلك ، كان جماعا للمال ينشده حيث وجده حتى لقد قال للمؤلف : لو كان البحر مالا لأدخله في بطنه وما شبع • ومن كثرة حبه للمال كان يفتش ملابس الفقراء بعد أن يكسوهم ثيابا جديدة ، كما فتش عنه آناسا صادرهم وقيدهم ، وقد أهان بعض علماء قسنطينة وأخذ المال منهم • وعندما « دارت عليه الدوائر » وحمله الجنود الى السجن كان يسلم على الناس الواقفين على جانبي الطريق ويقول : السلام عليكم ، ويده على صدره •

3 ــ ذكر الحروب التي شنها الباشا ضد محمد باي بتونس وعيثه فيها فسادا وأخذه أموالها وقتله أهلها ، ورفضه الصلح مع محمد باي رغم أن هذا أرسل اليه وفدا من العلماء على رأسه الشيخ علي عزوز •

4 ــ وصف سجن مدينة الجزائر (سركاجي) والقنديل الخافت الذي جعله الحكام السابقون ليضيء ، ولو قليلا ، على المساجين والذي حكم الباشا باطفائه ، وعندما أصبح الباشا نفسه سجينا وأحس بالظلام الدامس طلب القنديل فأخبره الحارس (الذي لا يعرف أنه هو الباشا) بأن الحاكم هو الذي أمر باطفائه ولا يمكن عصيان أوامره ؛ فما كان من الباشا الا أن اشترى خمس شمعات يقرأ عليها القرآن في سجنه •

5 ــ وقوع التمرد ضده من العسكر بزعامة محمود خوجة ، محاولة قتل الباشا وهو في صلاة الجمعة بالرصاص ثم بالشاقور ، هروب الباشا من المسجد دون اتمام الصلاة • مناقشته مع زعيم المتمردين عن سبب محاولة قتله فأخبره هذا بأن ظلمه للناس هو الدافع • وسأله عمن كان متمردا معه فلم يجبه فحكم بقتله • وكتابة الباشا رسالة الى المتمردين ضده كما أرسل اليهم وفدا فيه بعض رجال الدين وممثل السلطان • حلفه بالايمان المغلظة ، وهو كاذب ، بأنه لم يأمر بالتوجه الى تونس من جديد • فشل الوفادة مع المتمردين • وتحالف العسكر ضده سواء

من كان داخل العاصمة أو خارجها • اتفاقهم على خلعه وسجنه وذلك يوم الجمعة ، ولكن صلاة الجمعة لم تؤد ذلك اليوم •

6 ــ أما مصير الباشا فانه بعد مكثه في السجن خمسة عشر يوما وضربه بالسياط حتى تمزقت ثيابه ، ومطالبته باعادة الأموال ، تحايل عليهم بأن يطلقوا سراحه ويذهبوا به مع عائلته الى مكان يختاره وعندما يصل اليه يخبرهم عن مخبأ المال ، فأذعنوا اليه ، ولكن الباشا الذي تولى بعده عرف الأمر فأسرع بخنقه في السجن ، وبذلك ضاع المال ولم يعرف أحد موقعه • اهانة جثة الباشا بالبصق عليها ونتف لحيته وطعنها بالسكين • ثم حملت جثته ودفنت في القبر الذي أعده لنفسه وذلك في ضريح الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري •

* * *

هذه اذن هي خلاصة الأفكار التي جاءت في كتاب (الشهب المحرقة) عن شعبان باشا ، داي الجزائر ، وهي أيضا الصورة السوداء التي أراد أحمد برناز توصيلها الى القراء عن هذا الباشا سيء الحظ • ولكننا في الواقع لم نصدم بهذه الصورة لأننا تعودنا على معرفتها عند قراءتنا عن العهد العثماني في الجزائر ، ذلك أن معظم الباشوات (الحكام) قد ساروا في نفس الطريق : الاستيلاء على السلطة بالعنف وظلم الناس وجمع المال والقيام بمغامرات والتظاهر بالتدين ، ثم السقوط بنفس الطريقة وهي العنف والنهاية الدموية التي لا يراعي فيها أخلاق الأحياء ولا حرمة الأموات • وما القصص الصغيرة التي ساقها أحمد برناز ــ رغم أن أهدافه هو منها غير واضحة ــ الا تأكيدا لما عرفناه عن حكام هذا العهد •

الجزائر ، 13 مايو ، 1984 •

النص من كتــاب الشهب المحرقة

مع أن جل أهــل افريقية (7) وأقليم المغــرب على جــلالة الشيخ المذكور (8) والشهادة له بالولاية والورع ، بل وأهل مصر • وحج وبلغ خبره أهل الحرمين ومماليك العرب كلها •

ويكفي في ولايته ما وقع له مع شعبان (9) حاكم الجزاير ، حين وجهه الأمير المرحوم محمد باي (10) من تونس ليصالح بينه وبينه ، ووجه معه الشيخ الامام أبا الغيث البكري (11) امام جامع الزيتونة المتقدم ذكره (المتوفي ليلة الخميس نصف الليل الثانية عشر من ربيع الأول ، ودفن من الغد بين الظهرين بتربة آبايه بزاويتهم المشهورة بهم ، سنة عشر وماية وألف) (12) ووجه معه أيضا شيخنا المتقدم الذكر أبا عبد الله محمد فتاتة (13) ، وغيرهم • ووجههم في البحر في سفينة • فأهانهم شعبان المذكور وأخذ سفينتهم ووكل بهم من يمنع دخول الناس وخروجهم عليهم ودخولهم هم أيضا وخروجهم •

---

7 ــ يقصد أهل تونس •

8 ــ يشير الى الشيخ علي عزوز الفاسي ، انظر هامش رقم 4 •

9 ــ من أبرز دايات الجزائر • أنظر هامش رقم 2 ، وكذلك المدخل كله •

10 ــ تولى السلطة في تونس بمساعدة حكومة الجزائر ولكنه انتقض عليها فحاربته وولت منافسه • وعاطفة المؤلف مع محمد باي • أنظر الهامش رقم 3 •

11 ــ توفي سنة 1110 هـ • ويبدو أنه من عائلة محمد تاج العارفين البكري العثماني التي توارثت امامة جامع الزيتونة مدة طويلة • ولم نقف على ترجمة له ، وليس لدينا كتاب (الشهب المحرقة) لاستقصاء أخباره فيه •

12 ــ القوسان من اضافتنا ، وكذلك الحال في كل النص •

13 ــ ترجمته في كتاب (عنوان الأريب) لمحمد النيفر ، تونس ، 1351 ، ج 2 ، ص 4 ، وقد تولى عدة وظائف سامية منها الفتوى المالكية • بتونس سنة 1115 هـ أنظر : كذلك (ذيل بشائر أهل الايمان) لحسين خوجة ، تحقيق الطاهر العمودي ، ص 198 •

وقال للشيخ (14) علي عزوز : اذهب أنت في البر ان شئت وأما هؤلاء فممنوعون من الذهاب . فقال له : لا أذهب الا بأصحابي وفي سفينتي ، وستر (كذا) العجب ، لأنه لم يلتفت الى الصلح ولم يرض به وعزم على التوجه الى تونس ثانيا مجردا للفتنة ، وقال (15) له : لم أعتبر قولك هذا لأن الشيخ المصطاري (16) قال لي تمكث عشرة أعوام في الامارة .

فلم يعبأ بقوله وأمر العسكر بالتوجه الى المملكة الافريقية (18) وهو يخرج بعدهم . فكان من قدر الله أن امتنعوا عليه وقتلوه وهي واقعة مشهورة (19) . وصالح الشيخ المذكور من تولى (20) الامارة بعد شعبان المذكور ، ورجع بأصحابه وسفينته ، كما قال ، وذلك مشهور .

وكانت هذه الحكاية في آخر شهر ذي الحجة الحرام سنة (كذا) وماية وألف (21) .

* * *

14 — في الأصل (وقال الشيخ) فأضفنا حرف الجر ليستقيم المعنى .

15 — أي قال شعبان للشيخ علي عزوز .

16 — أورد حسين خوجة للشيخ محمد المصطاري ترجمة في كتابه (ذيل بشائر أهل الايمان) تحقيق الطاهر العموري ، ص 217 ، وكان الشيخ المصطاري ، كالشيخ عزوز ، من المغرب الأقصى كما كان مثله من أهل الولاية والصلاح أيضا ، وتوفي سنة 1103 بمكة المكرمة .

17 — فعلا قضى شعبان باشا في الحكم ستة أعوام (1100—1106) ، وهذا هو محل السر والكرامة في نظر المؤلف .

18 — يعني بلاد تونس .

19 — يعود أصل الواقعة الى نقص المال المدفوع للجند والى طول أمد الحرب وليس الى كرامة الشيخ علي عزوز كما تخيل المؤلف .

20 — تولى بعده الاسكافي الهرم أحمد باشا ، وبقي في السلطة أربع سنوات ، وأيضا فان قبول الباشا الجديد للصلح يعود الى مقتضيات « سياسية » وعسكرية وليس الى كرامة الشيخ عزوز .

21 — يشير بكلمة «حكاية» الى نهاية شعبان باشا وقبول خلفه الصلح مع تونس ، وهو الصلح الذي عرضه وفد تونس .

وسأذكر لك غريبة وقعت من شعبان المذكور ، وشعبان المذكور هذا هو المراد فيما تقدم من قصيدة أهل تلمسان ، يقول ناظمها (22) ، رحمه الله تعالى :

ومن معه في ربقة الأسر لم يروا حميدا سوا (كذا) رمضان ثم وشعبانا
فما قام من شعبان شعبان ليلة ولا صام في الاسلام رمضان رمضانا

ثم ان شعبان هذا كان أهل الجزاير يزعمون أنه رجل مليح ولذلك أولوه حاكما عليهم (23) ، وكان في أيام دولته مهما قعد في دار السلطان للحكم لم يدع المصحف من يده وغالب تفرغه يقرأ القرآن ويصوم الاثنين والخميس ويصوم الثلاثة أشهر والأيام البيض ، ورأيته أنا مرة في داره وفي رجله نعل عتيق ، وهو حاكم ، وليس بباب داره حاجب ولا بواب ما عدا نصرانيا (24) أشيب واقفا في الباب لقضاء حاجة داره واعلامه بمن يجيء الى بابه • وكلما وردت عليه حكومة (25) وكان المصحف في يده لم يضعه من يده ، ويفصل تلك الدعاوي والمصحف في يده ، ثم يرجع لقراءة القرآن • ولعمر الله يصدق عليه قول الشاعر :

ما راينا كأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح

فانه رجل ظلوم في أخذ أموال الناس بالباطل غاية وقتل الرقاب •

---

22 ــ لم نعرف شيئا عن ناظم هذه القصيدة الذي يبدو أنه قالها أثناء محنة الكراغلة بتلمسان ، ويؤسفنا أننا لا نملك نسخة كاملة من (الشهب المحرقة) لمراجعة مايشير اليه المؤلف من عبارة « فيما تقدم » ومعرفة المناسبة التي قيلت فيها .

23 ــ عبارة «أهل الجزائر» و «أولوه عليهم» توحي بأن أهل البلاد هم الذين كانوا يولون ويعزلون الحكام ، وهو أمر غير وارد ، لأن الأهالي لا دخل لهم في الموضوع وانما الذي يولى ويعزل الحكام هم العسكر سواء كانوا من طائفة الرياس أو من الانكشارية .

24 ــ كان أرباب السلطة والأعيان يستعملون الارقاء المسيحيين في خدمتهم ريثما يتم افتداؤهم ، ولعل هذا هو المقصود من عبارة «نصراني» التي أوردها المؤلف . وهل كان الباشا ــ وأمثاله ــ لا يثقون في غير النصارى حراسا عليهم ؟ ان تفضيل « الأجانب » ما زال شائعة عندنا الى اليوم !

25 ــ يقصد قضية أو نازلة .

وقبل توجهه الى تونس أول مرة كان قد حفر قبره في تربة الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله الجزايري (26) صاحب القصيدة الجزائرية التي شرحها الشيخ سيدي محمد السنوسي (27) ، نفعنا الله به ، وكان ذلك اليوم يبكي وتصدق بصدقات • ثم بعدها توجه لقتال محمد باي بتونس وعاث فيها بأخذ الأموال وقتل الرقاب حتى كان شؤمه سببا في قتل شيخنا العلامة مصطفى بن عبد الكريم التونسي الحنفي (28) ، رحمه الله ، وكان سابقا مفتيا بتونس •

والغريبة المذكورة التي وقعت من شعبان المذكور وقعت عليه أيضا • ومكتوب في الزبور : يا ابن آدم كما تدين تدان وكما تزرع تحصد وكما تعمل تجز (كذا)، وهي أن سجن أهل الجزاير محل مظلم في غاية الظلمة ومحل حصين ، ولم تكفهم حصانته حتى أنهم من سجنوه فيه زادوه مع السجن القيد الحديد في رجله ، لكنهم لظلمة المحل جعل أوايلهم (29) مصباحا يقد في ذلك السجن ليلا ونهارا • فلما تولى شعبان هذا امارتهم قال : المقصود من سجن الانسان تهويله والتضييق عليه وهذا السراج يضيء عليهم (30) ليلا ونهارا فلم يقع لهم معه ضيق فأبطله ليلا ونهارا ، وبقي مع ذلك مدة مدته •

فلما كان من قدر الله ما كان وقام عليه عسكره أدخلوه أولا ذلك السجن فرءاه محلا مظلما هايلا فقام ونادا (كذا) بنفسه الموكل بذلك

---

26 ـ من علماء مدينة الجزائر في القرن التاسع الهجري (15 م) ، وكان من أهل التصوف أيضا . أنظر عنه كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 ، الجزائر ، الفصل الأول ، وكان لضريحه قبة يختارها بعض مشاهير الجزائر مدفنا لهم ، وللشيخ الجزائري « منظومة » مشهورة بين علماء العصر العثماني تسمى أحيانا بـ « الجزائرية » فقط وهي في علم الكلام (التوحيد) وقد قام بشرحها عدد من العلماء وتدارسها الطلاب في المؤسسات العلمية الى وقث قريب .

27 ـ هو محمد بن يوسف السنوسي ، دفين تلمسان ، من علماء الجزائر خلال القرن التاسع الهجري (15م) أنظر عنه كتابنا السابق ـ هامش 26 ـ وله مؤلفات عديدة أشهرها ما كان في التوحيد ـ العقائد ـ .

28 ـ مات مقتولا سنة 1106 هـ (1694) ، وتولى الفتوى الحنفية بعض الوقت . وكان غير فصيح بالعربية وكانت التركية تتغلب عليه أحيانا . أنظر عنه أحمد بن عبد السلام (المؤرخون التونسيون) ، ص 38 .

29 ـ يقصد الأوائل من أهل الجزائر .

30 ـ يشير الى المساجين .

السجن وقال له : المحل مظلم ، ايتنا بمصباح يضيء علينا • فقال الوكيل : اعلم أنه كان في هذا السجن من أول الزمان الى آخره مصباح يقد ليلا ونهارا ليتأنس به المحبوسون ، الى أن تولى أميرا على الجزاير رجل يقال له شعبان افاندى فقونن فيها قوانين غير الأولى وخرق فيها عوايد وبدل وغير واستقر الأمر عليها ، ولم يخالفه فيها أحد ، ومن جملتها أن قال في أهل هذا السجن ما قال ، وأمر بازالة هذا المصباح • ونحن الآن لا نخالف في شيء مما قوننه ولا نرد شيئا أمر بازالته شعبان أفاندي المذكور • وانصرف عنه وتركه • فاذا أدخل يده في جيبه وأخرج منه (••••) (31) دراهم وبعث به الى السوق واشترا (كذا) به شمعا وكان يقعد (كذا) بين يديه منه خمس شمعات بين الليل والنهار وهو يقرأ القرآن •

وبقي في سجنه هذا ما يقرب من خمسة عشر يوما ، وضربوه السياط مرتين يطلبون منه المال ، فقال لهم في المرة الثانية ، بعد أن تقطعت ثيابه من الضرب : لست أهلا الأن أضرب ، ولكن ايتوني بوتد انجره بيدي وأقعد عليه ، ولو فعلتم ذلك لما أريتكم من مالي شيئا لأنني كلما دفعت لكم من المال لم تكتفوا به وآخر الأمر تقتلوني (كذا) واذا مت أنا فبماذا يتخلص عيالي من أيديكم ؟ ولكن ان أردتم المال فأعطوني الأمان وأركبوني سفينة أنا وعيالي فاذا وصلت الى محل كذا أخبرتكم أن في المحل الفلاني من المال كذا وفي المحل الفلاني من المال كذا فخذوه •

وقد حكى أول هذه الحكاية ، وهي السراج ، من كان معه من خواص دولته فى السجن (32) وهو رجل مشهور بين أتراك الجزائر يقال له صاغر أحمد ، وهي لفظة تركية (33) معناها الاطروش ، وبعضها (34) من الفقيه

---

31 — ما بين القوسين كلمة مطموسة لم نستطع قراءتها في الصورة التي أخذناها من المخطوط • وبقية الجملة سقيمة التركيب ولكننا حافظنا عليها كما هي •

32 — هذا دليل على أن التمرد لم يكن ضد الباشا فقط وانما شمل أيضا رجال حكومته والمقربين اليه •

33 — يشير الى كلمة (صاغر) التي ترجمها بالاطروش (كذا) • ولا نعرف شيئا عن دور احمد صاغر هذا عندئذ •

34 — يشير الى أن حكاية السراج التي وقعت لشعبان باشا في السجن روى جزءا منها أحمد صاغر الذي كان معه وروى الجزء الآخر منها أبو عبد الله محمد الساكوتي •

أخينا العلامة أبي عبد (35) محمد الساكوتي الجزايري وقال لي : لما أرادوا قتله ، وكان قد تكلم مع بعض العسكر بالمال ، وأرادوا القيام له ثانيا (36) ، فبلغ ذلك الحاكم المتولي بعده ليلا ، فبعث خنقه فى تلك الساعة ، ولم يقرب شيء من ماله وذهب الى الآن (37) • قال لي (38): لما أرادوا قتله أختلط ، وكان لا يدري ما يقول ، ولم تظهر عند موته شجاعته التي كان عليها فى حال حياته ، وأصبحوه ميتا فى ضريح ولي عندهم هناك (39) • فلما طلع النهار تسامع الناس وتوجهوا نحوه ينظروه (كذا) فبعض الأتراك بصق عليه ، وبعضهم تنتف شيئا من لحيته ، وبعضهم ضربه بسكينة أدخلها في لحمه ، فبلغ ذلك حاكمهم فبعث وأمر باقامته (40) من هناك ودفنه ، فدفن فى قبره الذي كان اتخذه لنفسه •

وله مثالب فى جمع الدنيا لم يرض بها غيره منها أنني سمعت منه مشافهة أنه قال : لو وضعوا ذلك البحر فى بطني (يعني وكان مالا) لم أشبع • ومنها انه بعث يوما واشترا (كذا) ثيابا كثيرة قريبة الثمن وأظهر أنه يريد أن يكسوها الفقراء الشحاذين ، وبعث في طلبهم يجمع منهم جماعة فخلع ما عليهم من ثيابهم وكساهم الجديدة • فلما أرادوا حمل العتيقة منعهم منها وفتشها بيده فوجد في بعضها دراهم وفي بعضها لم يجد شيئا ، على ما سمعت ، ولم أحضر لهذه •

---

35 – كذا (عبد محمد) ، ويبدو أن الناسخ نسي كلمة (الله) ، والصواب في نظرنا قراءة النص هكذا : «العلامة أبي عبد الله محمد الخ • » ولا نعرف عن حياة الساكوتي الآن شيئا ، ولم يذكر المؤلف هل حادثه الساكوتي عن ذلك في الجزائر أو في تونس •

36 – يبدو من التعبير أن الباشا قد أثر على الجنود بحديثه لهم عن المال حتى أنهم عزموا على طاعته من جديد واعادته الى الحكم •

37 – يعني أن المال ضاع ولم يعثر عليه بسبب اسراع الباشا الجديد بقتل شعبان •

38 – أي أخبره الشيخ الساكوتي •

39 – أي وجده الناس صباحا مقتولا في ضريح أحد الأولياء •

40 – أي أمر الباشا الجديد برفع جثمان شعبان من ذلك المكان ودفنه في القبر الذي أعده لنفسه في ضريح أحمد بن عبد الله الذي سبق ذكره •

ومنها أنه حبس بعض الناس بقسمطينة وسافر سفره لتونس (41) فتوجه خلفه بعض فقهائها من أبناء الصلاح يساعده على ذلك المحبوس (42) وقال له : يعطيك خمسماية ريال وخل سبيله ، فامتنع . فلما رجع حبس ذلك الفقيه وأخذ منه الخمسماية ريال الذي سماها له على سراح ذلك الشخص ولم يسرحه وقال له : أدفعها لك بعد أن توجه (43) الى الجزائر وتوجه خلفه الشيخ البركة سيدي محمد بن سيدي عبد الكريم الفكون ، بن عم ذلك الفقيه ، امامها وخطيبها وأمير حجها (44) ، متشفعا في ابن عمه المذكور فلم يقبل شفاعته ، فدفعها على ابن عمه من مال نفسه . وكانت آخر مال أخذه من بلد قسنطينة ، وعزل عقيبه ، فكان فى قضية هذا المال كالحجاج في قتله سعيد بن جبير .

ومنها ما حكى لي من أثق به ، وكان حاضرا الأناس أتوه بهم ، فقيدهم فى الحديد وصادرهم بعد أن فتش فى أوساطهم هل عندهم دراهم فوجد فى جيب بعضهم كيسا فيه ما يقرب من خمسة عشر ريالا فأخذها ، ووجد فى وسط بعضهم هميانا فيه دنانير ذهبا فأخذه ، ثم فتش جيبه فوجد فيه ما يقرب من سبعة أرباع الريال بين نواصر وأثمان (45) ، فأخذها ووضعها فى جيبه ، وهو يجابرهم (46) ، ويقول : رحمة ربي ما كان شر ، هذا حال الدنيـــا !

وكان بعد رجوعه من تونس ، من ظلمه ، تحزب عليه بعض خواصه من الأتراك ، ورئيسهم رجل يقال له محمود خوجة كان قد أحسن اليه شعبان غاية ، وأرادوا قتله فى صلاة الجمعة وهو فى المسجد يصلي فى سنة الجمعة

---

41 ـ أي توجه الحملة العسكرية ضد تونس .

42 ـ «المحبوس» الذي يشير اليه سيرد في نفس الفقرة ، واذا كان يشير بـ « بذلك » الى اسم تقدم فليس في هذا النص ، ويقصد بـ « فقهائها » مدينة قسنطينة ، وعبارة « يساعده على ذلك المحبوس » غير واضحة المعنى .

43 ـ كذا ، ولعل المقصود بعد ان اتوجه او تتوجه .

44 ـ تعرضنا في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 الى نفوذ عائلة الفكون في قسنطينة والى حياة عبد الكريم الفكون ، وحديث المؤلف هنا عن ابنه وابن عمه .

45 ـ النواصر والاثمان أسماء عملة كانت شائعة ولكنها قليلة القيمة .

46 ـ اي يجبر بخاطرهم او يسليهم .

الأولى ، فرموا عليه بندقة ، فلم تخرج وكذبت ، ثم أخرجوا عليه شاقورا فأخذ أيديهم بعض من حضر ، وخرج شعبان من الجامع هاربا بلا نعل ، ولم يصل الجمعة .

ثم انه أحضر محمود المذكور وقال له : ما حملك على هذا وقد احسنت اليك بما بلغك؟ فقال له : فعلته أتقرب به الى الله تعالى . فقال له : لماذا ؟ فقال له : لظلمك لعباد الله . فقال له : أخبرني بمن معك وعليك الأمان . فقال له : الكل معي . فقال له : عين لي من هم . فقال له : لا . ولم يخبره فقتله وواحدا معه أو اثنين . وكانت هذه مبدأ تضعضع الأمر عليه .

فبلغني بعد هذه الحكاية أنه كان يضع تلك البندقية والشاقور بازايه ، فكل من جاءه أراه اياهما ثم يقول : اليهود والنصارا (كذا) هل يقتلون أحدا فى كنائسهم ؟

ورأيت له ورقة بالتركية كتبها للعسكر الذين كانوا خارج الجزاير(47) الذين كانوا مبدأ القيام منهم عليه واتفقوا على عزنه . وسببه أنه كان قبل كتب لهم أن يتوجهوا الى تونس لمقاتلة محمد باي ثانيا وهو يدركهم بعد ، فامتنعوا من التوجه وقاموا عليه وتحزبوا متوجهين له . كتب لهم هذه الورقة يقول فيها ، بعد انكاره البعوث الأول : وحق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وروحه الشريفة ، والقرآن العظيم ، وحجه وصلاته ، وحياة السلطان العثماني ، اني ما كتبت لكم بالتوجه الى تونس ولا عندي خبر ، وارجعوا وعليكم الأمان التام ، فلم يلتفتوا اليه .

فبعث لهم القاضي أو المفتي المالكي والحنفي وباشت الوقت(48) فلم يعتبروهم وتحزب معهم عدة أتراك كان تفاهم شعبان المذكور من الجزاير ،

---

47 ـ يعني خارج مدينة الجزائر ، وواضح من الفقرة انها أن المؤلف يربط بين التمرد على شعبان باشا وغزوه لتونس .

48 ـ العهد الذي يتحدث عنه المؤلف يعرف في تاريخ الجزائر بعهد الحكم الثنائي : فشعبان كان الحاكم الفعلي ولقبه الداي ، والى جانبه كان هناك باشا يمثل السلطان العثماني ، وهذا الباشا هو الذي يشير اليه المؤلف هنا .

فوجدوا خارجا ، فالتفوا اليهم • وكان الكل عصبة واحدة ، وساعدهم من كان داخل الجزائر من العسكر وخلعوه وفعلوا به ما ذكرنا ، وكان ذلك يوم الجمعة فى وقت الصلاة، ولم تصل الجمعة ذلك اليوم فى الجزاير •

واجتمع العسكر داخلها فى ذلك اليوم ثلاث مرات ثم تفرقوا ، حتى قام تركي منهم ، جندي هو أدناهم ، يقال أن شعبان المذكور كان ضربه خمسماية سوط ، قال لهم : الى متا (كذا) تتجمعون وتتفرقون ؟ أخفتم من هذا ؟ ثم انه توجه نحو كاهية العسكر • وكانوا كلهم وقوفا بباب دار السلطان (49) ، وقال للكاهية قم ونادى (كذا) لنا هذا الرجل يخرج الينا ، فقام الكاهية ودخل عليه فى محل حكمه وقبل يده وقال له : يا أفاندي ! العسكر يدعوك ! فقام وخرج اليهم بلابرنس • فلما وقف بعتبة باب دار السلطان قال ذلك الرجل المذكور للشواش ارفعوا هذا ! فمد يديهم (50) فيه أربعة منهم ، وشالوه بين أيديهم كالعصفور وتوجهوا به الى السجن •

فكان ، على ما بلغني ، ماشيا فى أيديهم فى أثناء الطريق الى السجن بدراعة الانكشارية عندهم المشهورة عندهم بدار سركاجي ، وهي لفظة تركية معناها الخلال ، وهو يسلم على الواقفين يمينا وشمالا ويقول : سلام عليكم ! سلام عليكم ! ويده على صدره • وهذه هي الدايرة عليه ، والعياذ بالله !

من كتاب « الشهب المحرقة » لأحمد برناز
رقم 18584 ـ المكتبة الوطنية ـ تونس

---

49 ـ اي مقر الحكم أو قصر الداي .

50 ـ كلمة شواس مكتوبة في الأصل (شواس) ، وعبارة (فمد يديهم فيه) تركيب سقيم لكنها مفهومة ، وشالوه يعني رفعوه ، والصورة التي رسمها المؤلف لطريقة عزل الداي صورة تكررت كثيرا في العهد العثماني ، وهي تدل على أن الجنود هم الذين كانوا يتصرفون في ادارة الحكم حسب أهوائهم لا حسب قوانين ونظم .

كتاب (فتح الاله) لأبي رأس الناصر

عاش أبو رأس (محمد بن أحمد الناصر) حياة متقلبة ، ولكنها حياة غنية بالتجارب (1) فقد تنقل فى أنحاء القطر الجزائري من غربه الى شرقه وتجول فى المغرب الأقصى وتونس ومصر والحجاز وبلاد الشام كما كرر الحج بفارق زمني بلغ عشرين سنة . وتحدث الى بعض الحكام (الجزائر وتونس والمغرب على الخصوص) ولكنه لم يخالطهم، ومدح بعضهم مديح الطالب للنوال والمعترف بالجميل ، وأرخ لهم متصورا أن النظام بدونهم ينفرط ، شأنه فى ذلك شأن مؤرخي العصر وشعرائه .

على أن ما يميز حياة أبي راس هو الفقر الدنيوي والغناء . لقد ذاق مرارة الجوع وألم اليتم ، ومارس الشحاذة ومشى بين الناس أكثر من عشر سنوات حافي القدمين عاري البدن وغسل ثياب غيره وفلا القمل وسكن فى خيمة شعر، فذاق شظف العيش والجفاف العقلي، ثم سكن بعض الحواضر ، مثل معسكر فشق طريقه وسط مؤامرات علماء ضعاف النفوس يتقاتلون على الفتات وصادف عهد الباي محمد الكبير الذي انتعشت فيه الحياة العلمية فحماه وقربه كما حماه وقربه الشيخ عبد القادر المشرفي الذي اكتشف فيه تلميذا ذكيا له حافظة نادرة وتعطش للعلم .

وقد أكثر أبوراس من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد حسب علمنا باستثناء أحمد البوني الذي تجاوزت تآليفه المئة . وغلب على أبي راس فى تآليفه جميعا طابع العصر (أواخر العهد العثماني) فشرح المتون وحشى الشروح ، بل جعل للمتن الواحد عدة شروح واعتمد على

1 ـ تناولنا حياة وأعمال أبي راس في كتابنا «تاريخ الجزائر الثقافي» وكتابنا « أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر » فليعد اليهما من يريد التوسع .

حفظه فأكثر فى تآليفه من التكرار والاستطراد وذكر الغرائب والعجائب واللطائف تمشيا مع بضاعة العصر من جهة وترويحا على النفس من جهة أخرى • ولم يركز أبو راس جهده الفكري على تخصص معين بل تناول كل التخصصات تقريبا ، فألف كما يشهد كتابه الذي نقدمه للقراء فى التفسير والحديث والفقه والقراءات والأدب واللغة والعقائد والتاريخ ونحوها • فلا غرابة أن يكون أبو راس مؤلفا موسوعيا •

ومن العجب أن مؤلفات أبي راس على كثرتها ما تزال غير مطبوعة بالعربية ، رغم أن الأجانب قد ترجموا بعضها ونشروه • فقد ترجم السيد أرنو كتاب أبي راس « عجائب الأسفار » الى الفرنسية ونشره فصولا في (المجلة الافريقية) ثم نشره على حدة سنة 1885 بالجزائر وترجم له الجنرال فور بيقى كتابه « الحلل السندسية » ونشره بالجزائر سنة 1903 وقام نفس المترجم بعرض مطول للكتاب الذي بين أيدينا ، وهو « فتح الاله » ونشر ذلك فى « المجلة الآسيوية » سنة 1899 • ان عناية الأجانب بآثار أبي راس وعزوف الجزائريين عنها ما هو في الواقع الا جزءا من المرض الذي نعاني منه ، فى ثقافتنا ، وهو بصراحة ضعف حركة التأليف وتسجيل الآثار • وقد حاولنا من جانبنا أن نسد هذا النقص فدرسنا آثار أبي راس الموجودة فى كتابنا « تاريخ الجزائر الثقافي » غير أن عدم نشر هذه الآثار كاملة يظل هو موقع التعجب •

ومن حسن الحظ أن الدكتور محمد بن عبد الكريم قد أقدم على تحقيق أحد مؤلفات أبي راس ، وهو (فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربى ونعمته) والدكتور ابن عبد الكريم ليس غريبا عن التحقيق ولا عن الثقافة الوطنية ، فهو بثقافته الواسعة وتجاربه فى ميدان تحقيق المخطوطات خير مؤهل للقيام بنشر هذا الأثر العلمي • فقد سبق لابن عبد الكريم أن نشر حوالي عشرة كتب قديمة خلال العشر سنوات الماضية • وتوسع فى معرفة الثقافة فى العهد العثماني بالخصوص أثناء نشره لآثار محمد بن ميمون وأحمد المقري وعبد القادر المشرفي « شيخ أبي راس » ونحوهم • وها هو يضيف الى ذلك (فتح الاله)

لأبي راس • ولعل ابن عبد الكريم قد تأخر فى نشر هذا الأثر الأن أبا راس فى الواقع من أهم مؤلفي العهد العثماني واذا عرفت جميع آثار أبي راس ودرست دراسة علمية فقد تضاهى أو تفوق آثار أحمد المقري أهميـــة •

لقد قلد أبو راس فى (فتح الاله) قدوته عبد الرحمن السيوطي الذي كتب هو أيضا تأليفا يحمل عنوانا شبيها بالعنوان السابق وهو « نزول الرحمة في التحدث بالنعمة » ولكن أبا راس لم يقتد بالسيوطي في كثرة التآليف والحديث عنها فقط ، بل انه اقتدى به في كونه عاش فقيرا مثله ، وفي ابتعاده عن الأمراء أو عن أصحاب السلطة كما نقول اليوم • ولعل عدم التقيد بموضوع واحد والموقف من أهل التصوف يجعل أيضا من المهم المقارنة بين الرجلين فأبو راس موسوعي كما أن السيوطي كذلك ، وكان أبو راس يخلط بين حرفة الفقيه وحرفة المتصوف كما كان السيوطي فقد ألف أبو راس فى أرهاط الجن وقبائلهم وأنسابهم ، وتحدث عن كرامات الأولياء ومن كان منهم يقريء الجن ويرى المنامات العجاب ، رغم أنه كان من أهل الفقه (أهل الدنيا) منتصبا للتدريس ومفتيا فى المذاهب الأربعة ومتصلا بأهل الجاه • ولعل ما يلفت النظر هو انتصار أبي راس لأهل السلطة ضد أهل التصوف عندما قامت الطريقة الدرقاوية بثورتها المعلومة ضد بايات الغرب الجزائري (2) •

ومهما كان الأمر فان (فتح الاله) كتاب يقدم لنا حياة أبي راس نفسه • فهو نوع من السيرة الذاتية ، تحدث فيه المؤلف عن أهله وبيئته وشيوخه وعلومه وأسفاره ومن لقيهم من علماء المغرب والمشرق ، وما سئل عنه من المسائل العلمية واجاباته على ذلك، وأخيرا يذكر مؤلفاته فى كل فرع من فروع المعرفة الشائعة فى وقته • وما دام أبو راس قد ألفه بعد سنة 1233 (وقد توفي هو نفسه 1238 أو 1239) فاننا نحكم أنه قد كتبه فى أخريات أيامه ــ أي بعد أن عاش حوالي ثمانين سنة ــ

2 ــ ذكر أبو راس أنه قاطع الشيخ محمد بن أبي طالب في مازونة لما يدعيه من اشارات غيب • وعاب على سيدي الشيخ ، وهو عبد القادر السماحي صاحب الطريقة الشيخية، مكاشفاته له رغم أن السماحي لم يكن معاصرا لأبي راس •

(ولد حوالي 1165) وهذه السن المتقدمة قد تعطينا المفتاح للسبب الذي جعل المؤلف يثرثر بعض الشيء كما أنها تدلنا على أن الكتاب من أواخر ما ألف أبو راس . ولكن الكتاب يكشف عن أمور أخرى أيضا . فهو يحتوي على معلومات هامة عن علماء العصر والعلاقات السياسية بين الدول العربية والمستوى العلمي السائد آنذاك ، وبعض أخبار المذاهب الدينية .

ان دور المحقق لكبير فى هذا الكتاب . فقد اعتمد على ثلاث نسخ من « فتح الاله » وقارن بينها وأكمل بعضها ببعض وحشى على كثير من الاعلام الواردة فى المتن ، وهي كثيرة وشرح العديد من الألفاظ والمعاني ، وأتوقع أن يضع للكتاب فهارس ــ كما عودنا في الكتب الأخرى التي حققها . وبذلك يكون الدكتور ابن عبد الكريم قد أسدى خدمة جليلة للثقافة العربية الاسلامية بنشره لهذا المخطوط، كما يكون أنصف أبا راس بتقديم حياته بقلمه الى قراء العربية عموما والجزائريين على الخصوص . ولعل أحدهم يقتدي بابن عبد الكريم فينشر « عجائب الأسفار » و « الحلل السندسية » وغيرهما من آثار أبي راس التي ما تزال ، والحمد لله موجودة وكذلك « الحلل الحريرية » الذي هو شرحه على مقامات الحريري ، وشرحه على قصيدة الصيد للفججي ، وشرحه على عقيقة المنداسي الخ ..

ان (فتح الاله) كتاب موجه الى الباحثين والمختصين فى دراسة التراث العربي الاسلامي . فالقاريء العادي سيجد صعوبة لا محالة فى متابعة أخباره وحوادثه . ولكن هذا لا يعفينا من تبعة نشر ذلك التراث (3) .

فالبحث وراء خدمة الثقافة لا يكون دائما من أجل الجيوب والبطون ، ولكن يجب أن يكون ، أحيانا على الأقل ، من أجل انصاف المثقفين الأموات وبعث النخوة والاعتزاز فى المثقفين الأحياء .

الجزائر : 1982/05/29

---

3 ــ نشرنا لابي راس أيضا رأيه في الحملة الفرنسية على مصر والشام وهو نص استخرجناه من كتابه « الحلل السندسية» في المجلة التاريخية المغربية (تونس) عدد 1 2ــ 22 ابريل 1981 . انظر ذلك في كتابنا هذا .

كتاب (نصوص ووثائق جزائرية) لعبد الحميد زوزو

ليس كالوثيقة المكتوبة حجة في الدراسة التاريخية ، ان أية قضية تظل فى ميدان الدراسة معلقة فى الهواء الى أن يعثر الباحث على ضالته وهي الوثيقة التي تؤكد أو تنفيفتقع القضية فى مكانها من البحث وينتهي التردد . والوثيقة سلاح خطير فهي التي تؤكد براءة البريء أو اتهام المتهم ، وقد تتهم البريء ، وتبريء المتهم ولو بعد قرون . وعلى هذا فان الأفراد والشعوب التي لها احساس بالتاريخ وبأحكامه القاسية لا ترتكب ما يدينها ذات يوم ، أما الأفراد والشعوب التي ليس لها احساس بالتاريخ فترتكب أخطاء تستوجب حكم التاريخ القاسي عليها .

وقد كثر الحديث فى بلادنا منذ سنوات عن كتابة تاريخ الجزائر وضرورة تدوينه . لقد اعتنت الشعوب المتقدمة والمتخلفة علىالسواء بتاريخها تجمعه وتصنفه وتدونه وتقدمه للناس افتخارا به وحفظا له وسدا للثغرات التي يمكن أن يتسرب منها الأعداء والخصوم للنيل من قداسة هذا التاريخ ، أما نحن فقد بقينا طيلة السنوات التالية للاستقلال نبكي ونتباكى عن تاريخنا الضائع فى مكتبات العالم ، وفي دور الوثائق الاستعمارية وفي ذواكر رجالنا ونسائنا ، وفي بطون ديارنا ومتاحفنا . ولكن الميدان لم يبق فارغا من فرسان . فقد تصدى لكتابة تاريخنا أناس لا تربطنا واياهم غالبا سوى رابطة الاستغلال والاستعمار ، فقدموا الأسواقنا ما جادتبهقرائحهم وأصبحنا نعود الى هذه الأعمال ونستشيرها بلونعتمدها وقليل هم الجزائريون الذين نبذوا البكاء والتباكي ، وأقدموا رغم الصعوبات على الكتابة فى تاريخ بلادهم . ومن هؤلاء الأستاذ عبد الحميد زوزو . فقد درس التاريخ طالبا وأستاذا وعرف قيمته الوطنية والانسانية وتخصص فى تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، ونشر كتابا عن دور

المهاجرين الجزائريين بفرنسا فى الحركة الوطنية ونشر بعض الأبحاث عن ثورة بوعمامة ، وهو يهتم بالخصوص بالتطور التاريخي للشرق الجزائري خلال العهد الاستعماري . وقد قاده البحث والاهتمام الى ضرورة العناية بالوثائق باعتبارها المصدر الأول واكتشف بالتجربة والممارسة أن فهم تاريخنا الحديث والمعاصر يفتقر الى المادة الخام ، وأن تذوق التاريخ واستيعابه والاحساس به يتوقف على قراءة النصوص المعاصرة . ذلك أنه لا يكفي أن يقرأ المرء سردا للأحداث التاريخية أو تحليلا جافا متناقضا لها ، بل لابد من قراءة النص الأصلي فى لغته وعبارته وأسلوبه وحرارته الأولى ، وذلك ما يعطي للحادثة معناها ولونها وقوتها .

وقد اجتهد الأستاذ زوزو فى جمع وتصنيف مجموعة من النصوص والوثائق التي تغطي تاريخ الجزائر خلال القرن الماضي . فقد قسمها الى مجموعات بعضها عن الأحوال السياسية والعسكرية وأخرى عن الأوضاع الاقتصادية والدينية وهكذا . ولم يكتف بالجمع والتصنيف بل انه قدم نموذجا لكيفية دراسة النص فى تصوره وطريقته ، وأثرى عمله ببعض الاحصاءات والخرائط والصور ، وأرهق نفسه بالحاق كل نص بالمراجع المتصلة به والمساعدة عليه ، كما ذكر مصدر كل نص اختاره . وبعض هذه النصوص كان أصلا بالعربية ، وبعضها كان معربا ولكنه تجشم أيضا تعريب بعضها بنفسه .

وهكذا قدم الأستاذ زوزو للقاريء عموما والطالب الجامعي والأساتذة خصوصا ثروة من النصوص الحيوية فى تاريخ الجزائر يرجعون اليها للتوثيق أو يستهدون بها عند الحاجة . ولاشك أنهم واجدون فيها أيضا المتعة الأدبية وطرافة الكشف عن « غرائب » علاقات الجزائريين بالفرنسيين . على أنه تجدر الاشارة الى أن اختيار النصوص التاريخية ، كاختيار النصوص الشعرية ، يخضع لذوق صاحبه واهتمامه وشخصيته . وقد اجتهد الأستاذ زوزو فى أن تعطي نصوصه مختلف أنماط الحياة فى الجزائر خلال القرن الماضي ، كما اجتهد أن تعكس ذوقه وحكمه الخاص.

اني لا أملك الا أن أهنيء الأستاذ زوزو على جهده الذي سيقدره حق قدره جميع الذين يعرفون الفراغ الذي تعاني منه مكتباتنا فى هذا الميدان .

الجزائر : 2 _ نوفمبر _ 1981

وثيقة عن التجانية وبوعمامة والفرنسيين

فى احدى زياراتي لوادي سوف (*) زرت متحف الوادي ، فلاحظت وجود رسالة معروضة فى أصلها العربي ومعها ترجمة فرنسية ، كان ذلك فى 28 يناير 1970 • وقد طلبت من بعض الاخوان نسخها لي باللغتين ففعل • وظلت الرسالة عندي منذ ذلك الوقت ولم يتح لي تقديمها للنشر الا الآن ، وفي الشتاء الماضي رخص لي مشكورا الأخ رئيس بلدية الوادي ، السيد عبد الحميد بسرة بتصوير النصين المذكورين (أنظر الصورة) •

والرسالة موجهة من الضابط الفرنسي فيرنان فورو الى محمد العروسي شيخ الزاوية التجانية ببلدة قمار بتاريخ 12 جوان 1895 ومكان تحريرها مدينة بسكرة • وقد كتبها فى الظاهر بخط يده لأن خطها وأسلوبها يدل على خط وأسلوب أجنبي ، وكذلك تعابيرها كما يلاحظ من يطالعها •

وموضوعها هو أن فورو يخبر الشيخ العروسي عن رحلته الى بلاد التوارق وما تعرضت له المنطقة من فتن بسبب هجوم أنصار بوعمامة عليها • وكان فورو يرغب في توصيل رسالتين الى الحاج أخنوخن وكبار الأزجر • فكتب فورو الرسالة وبعث بها الى الشيخ العروسي طالبا منه التوسط فى توجيهها الى وجهتها عن طريق غدامس • ذلك أن للشيخ العروسي سمعة كبيرة لدى أهل الأزجر واحتراما للزاوية التجانية • كما طلب منه أنه اذا تعذر ارسال الرسالة فعلي الشيخ ردها الى فورو عن طريق وكيل فورو فى بسكرة وهو السيد كلومبو •

(*) نشرت فى مجلة (أول نوفمبر) عدد 50 ، سنة 1981 • أنظر الصور فى آخر الكتاب •

ويبدو أن الشيخ العروسي كان على علم برحلة فورو • ذلك أن فورو يشكره على دعائه له ومراسلته فى ذلك بواسطة السيد بيجا • ويخبره فورو أنه معروف (أي فورو) عند الشعانبة والطوارق بأنه من أتباع التجانيـــة •

ونحن لا نعرف من وثائق أخرى ما اذا كان الشيخ العروسي قد وجه فعلا الرسالة الى أهل الأزجر أو اعادها الى صاحبها • كما أن مضمون الرسالة لم يكشف عنه فورو • وكذلك لم يكشف عن الخبر الذي أرسله اليه الشيخ العروسي مع القبطان بيجا • وتكشف الرسالة من جهة أخرى امتداد ثورة بوعمامة الى الهقار وثورة سكان الصحراء عموما ضد الفرنسيين عندما حاولوا فى نهاية القرن الماضي مد احتلالهم الى تلك الجهات ، ونلاحظ كذلك تلك العلاقة الوثيقة بين مناطق وادي سوف وغدامس والهقار فى القرن الماضي ــ فقد كانت هذه العلاقة تقوم على التجارة ، ثم اتسعت فشملت السياسة والأفكار مثل انتشار الطريقة التجانية فيها ــ وهي الطريقة التي انتشرت أيضا الى « بر العبيد » كما جاء فى الرسالة ، أي الى السودان القديم ، بالاضافة الى انتشارها بين الشعانبة •

ويبدو من الرسالة أيضا أن الضابط فورو كان متنكرا فى رحلته على أنه تجاني الطريقة ، فقد قدم نفسه الى الناس الذين اختلط بهم على أنه خوني من اخوان التجانية ، ولولا ذلك لتعرض له الشعانبة والطوارق بالأذى وكثيرا ماانخدع الجزائريون بمثل هذه الأدوار التي يلعبها بعض الفرنسيين ذوي النشاط التجسسي والسياسي لصالح حكومتهم • وما تزال قصة انخداع الأمير عبد القادر بالمغامر ليون روش ماثلة للعيان • غير اننا لا نعتقد أن الشيخ محمد العروسي كان مخدوعا فى الضابط فورو ، فهو يعرف اسمه ومهمته بالضبط •

بقى أن نقول كلمة عن الشخصيات الوارد ذكرها فى هذه الرسالة • فالشيخ محمد العروسي هو محمد العروسي بن محمد الصغير التجاني • كان رئيس الزاوية التجانية بقمار وكان صاحب كلمة مسموعة فى سوف كلها وقد توفى بقمار سنة 1920 (1358 هـ) ودفن بالزاوية المذكورة •

ويذكر كبار قمار وسوف عموما أن خلافا شب بين الشيخ وبين القائد عندئذ وهو الحاج محمد بن خليفة المعروف بالقائد الأحمر • ووصلت الخلافات بين القائد والشيخ الى الولاية العامة بالجزائر فنقلت القائد الى تقرت حوالي سنة 1917 وعينت بدله أحمد بن الهلالي الذي ظل قائدا الى حوالي سنة 1938 • حين تنازل لابنه الاخضر •

أما بوعمامة فهو الثائر المعروف سنة 1881 • وقد توفى فى أكتوبر 1908 م — 1326 هـ وكانت ثورة بوعمامة قد استمرت الى حوالي 1904 • وكان بوعمامة من شيوخ طريقة سيدي الشيخ • وليس معروفا أن ثورته وصلت الى شرقي الصحراء ، كالهقار ، ولكن هذه الرسالة واضحة في ذلك • وبالنسبة الى الحاج اخنوخن فان كلمة (أخنوخن) تعتبر من ألقاب التعظيم عند أهل الهقار وليس اسما • وعلى كل حال فان الحاج اخنوخن كان عندئذ زعيما عند أهل ازجر الذين كانوا على صلة فوية بأهل غدامس وأهل سوف اقتصاديا وفكريا •

أما الأسماء الفرنسية الواردة فى الرسالة فنقصر الحديث عنها فى هذه الكلمات • كان فورو (Foureau) صاحب هذه الرسالة ، من الفرنسيين المكتشفين لمسالك الصحراء ، وكان يحسن العربية ويتظاهر بأنه من اخوان التجانية• وله مؤلفات عديدة حول مهمته فى الصحراء، ومن بين مؤلفاته (بعثة الى تادمايت 1895) • و (بعثة لدى الطوارق ••• من أكتوبر 1894 الى ماي 1895) • والظاهر أن هذا التأليف هو الذي خصص فيه رحلته التي يشير اليها فى رسالته • وله أيضا (تقرير عن بعثتي فى الصحراء وعند طوارق أزجر) وله تآليف أخرى حول نفس الموضوع أما بخصوص كلومبو فلا نعرف عنه أكثر مما جاء فى الرسالة من أنه كان مقيما ببسكرة ويعمل وكيلا أو ممثلا للضابط فورو • وأما بيجا (Pugeat) فقد كان قائدا أعلى لدائرة تقرت فى آخر القرن الماضي • وهذا كل ما عرفنا عنه فى الوقت الراهن •

وفى الرسالة أخطاء املائية وتعبيرية كثيرة كما أن بعض الكلمات فيها تحتاج الى توضيح • والرسالة مختومة بختم كاتبها (فورو) ولكنه ختم غير واضح فى الصورة • وقد بدأت ترجمتها الى الفرنسية هكذا : « رسالة من المكتشف فورو وعليها ختمه » •

الجزائر فى 15 ماي 1981

نص الرسالة

كتب ببسكرة يوم 12 جوان سنة 1895

الحمد لله وحده

الى المكرم الفاضل الزاكي السيد محمد العروسي ، السلام التام عليك وعلى من تعلق بك ورحمة الله وبركاته •

وبعد ، أيها السيد ، وصلك الخبر على ما صار بي فى رحلتي هذه (1) • وما صار بتوارق أزجر المساكين ، فطاح عليهم جيش كبير من بوعمامة (2) وناس العرب مخالطين معهم وغزوا ابلهم وقتلوا بعض من ناسهم •

وأنا يلزمني نرسل خبري الى السيد الحاج اخنوخن واكبار الازجر • فعلى ذلك رسلت لك هذا الجواب ومعه نسختين من بريتي (3) اليهم •

فالمطلوب من كريم فضلك لو كان تحت يدك رجل مليح ومومن ماشي الى غدامس ليقضي حوائجه تعطى الجوابات لعله يجود ثم يبلغهم الى السيد الحاج اخنوخن أو واحد من أعيان الازجر • فاني مثبت (4) ، ان وصلت بريتي بواسطتك ، يقدروها أهل ازجر ، كما يقدروا زاويتكم النافعة والمشهور حتى بر العبيد (5) •

---

1 ـ يشير الى رحلته الى بلاد الطوارق في شهر ماي 1895 .

2 ـ هو الثائر بوعمامة ، دامت ثورته من 1881 الى 1904 وتوفي سنة 1908 ، وكان زعيما للطريقة الشيخية . ويبدو أن فورو يحاول أن يستغل نفوذ الطريقة التجانية ضد الطريقة الشيخية .

3 ـ البرية هي الرسالة .

4 ـ مثبت يعني متأكد أو متيقنا .

5 ـ يعني الى السودان القديم .

هذا هو المرغوب من كريم فضلك ولكن اذا ما صعدك شي (6) الحال من سبة الحمان (7) وغيره فرجعني (8) الجوابات عند سي (كلونب) ، (9) وكيلي فى بسكرة •

وأما أنت أيها السيد كثر الله خيرك على الخبر الى خبرتني بواسطة سيد القبطان (بيجا) ، (10) ودعوتك لي فى شأن رحلتي ، على خاطر قالوا لي ايه (11) ودائما تنشد علي (12) • وأما أنا أطلب من الله تعالى يحفظك من كل بلاء ويقبل دعوتك لمنفع اخوانك المسلمين •

والسلام من حبيبك فورو الفرانسوي المحسوب عند الشعنبة (13) والتوارق خونى (14) من أخوان التيجانية •

« الختم غير مقروء »

---

6 – (ماصعدك شي) أي لم يساعدك .

7 – سبة الحمان ، أي بسبب الحر .

8 – أي ارجع الى .

9 – هو – كولومبو .

10 – القبطان بيجا هو الضابط Pugeat وهو قائد منطقة تقرت .

11 – هذه كلمة غير واضحة في النص ، يمكن أن تقرأ أنك ، أنه ، الخ .

12 – (تنشد على) أي تسأل عني .

13 – هم الشعانبة سكان متليلي ونحوها ، لعبوا دورا بارزا في الثورات ضد الفرنسيين ، خصوصا ثورات أولاد سيدي الشيخ وثورة محمد بن عبد الله (شريف ورقلة) وثورة بوشوشة ، وثورة بوعمامة .

14 – خوني أي تابعا من اتباع الطريقة .

وثيقة تونسية لابن مرزوق التلمساني

كان ابن مرزوق التلمساني كثير التردد على تونس (1) • وفى احدى المرات كتب وقفية حبس لبستان كان يملكه أحد أهالي مدينة توزر • وقد نمقها بطريقته وأسلوبه • وكان ذلك بتونس سنة 828 هـ • وقد رأينا تقديم هذه الوثيقة للنشر لأننا لا نعرف ان أحدا قد نشرها من قبل •

وكنا قد وجدنا نص هذه الوثيقة فى مكتبة السيد الصادق قطايم الملاك بمدينة قمار من أعمال الوادي بالجزائر • وهي مذكورة فى آخر نسخة خطية من شرح جوهرة التوحيد لابراهيم اللقاني المالكي المصري • (2) وقد طلبت من السيد قطايم الاذن لي فى نسخها وتصويرها فوافق مشكورا ، وتفضل الشيخ محمد الطاهر التليلي القماري باملائها على من أصلها فنسختها ، ثم قابلنا النسختين ، ونسخة الأصل • وكان ذلك يوم السبت أول يوم من شهر سبتمبر 1979 بمدينة قمار • كما أنني تمكنت من تصوير الوثيقة نفسها •

والوثيقة مكتوبة بخط مغربي واضح ولكنه مخالف للخط الذي كتب به شرح جوهرة التوحيد المذكور • وكاتبها هو عبد الله بن بلقاسم بن الأكحل • ويعود الخط فى الظاهر الى القرن الحادي عشر الهجري (17 م) ونحن نقول « فى الظاهر » لأن الناسخ لم يذكر تاريخ النسخ ، ولكن

(*) ـ نشرت فى (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 17 ـ 18 ، يناير 1980 . أنظر الصور فى آخر الكتـاب .

1 ـ هو محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق (الحفيد) العجيسي التلمساني ، 766–842 هـ 1364–1438 . ترجمته في **(البستان)** لابن مريم ، 201–214 ، و (الاعلام) للزركلي ، 228/6 .

2 ـ ابراهيم بن ابراهيم بن حسن اللقاني ، توفي سنة 1041 هـ ، أنظر **(الاعلام)** 21/1 .

الوثيقة مسبوقة بنص اجازة يعود الى أوائل القرن الحادي عشر • وقد يعود تاريخ نسخ الوثيقة الى ما قبل ذلك لأن الناسخ يذكر أنه عرف خط ابن مرزوق فى الوثيقة عن طريق مالكها بتوزر عن أبيه عن جده ، مما يفهم منه أن جد صاحب الوثيقة كان معاصرا أو قريب العهد من ابن مرزوق • والمعروف أن هذا قد توفي سنة 842 هـ / 1438 م •

وعائلة ابن الاكحل عائلة قديمة فى مدينة الجزائر، وهي تدعي الشرف أيضا • وقد وجدنا فى الأرشيف الجزائري العثماني اشارات الى بعض أفرادها • ومنها فى العهد الفرنسي السيد أحمد الأكحل بن يحي الأمين الذي نشر رسالة هامة سماها روح السعادة وسر الشهادة فى الحسنى وزيادة (3) غير أن ناسخ وثيقة ابن مرزوق مايزال مجهولا عندنا الى الآن • ومن الأكيد انه قد عاش فى العهد العثماني • ومن جهة أخرى فقد ذكر هذا الناسخ نفسه انه أخذ العلم بمدينة الجزائر على « شيخنا الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد الطيب » الذي قرأ عليه القصيدة الخزرجية فى علم العروض بشرح ابن مرزوق عليها • ورغم اهتمامنا بالحياة الثقافية فى الجزائر العثمانية ، فاننا لم نستطع الى الآن أن نحدد عصر ولا قيمة الشيخ محمد الطيب المشار اليه والذي يبدو انه كان من كبار المدرسين فى وقته • (4) ويظهر مما يأتي ان ابن الاكحل الناسخ كان أيضا قد زار تونس •

ومهما كان الأمر فقد ذكر الناسخ الدافع الذي جعله ينسخ ويحافظ على هذه الوثيقة • فهو يذكر انه قد تعرف على خط ابن مرزوق فى الوثيقة من كثرة ورود هذا الخط عليه ، ولا سيما مطالعته المتكررة لشرح ابن مرزوق على قصيدة ضياء الدين الخزرجي فى العروض ، والذي كان بخط ابن مرزوق نفسه • فلما أطلع ابن الأكحل على وثيقة الحبس ، التي ننشرها اليوم ، تعرف على خطها لتكراره أمامه • ثم ان علماء

---

3 ـ الجزائر ، 1925 ، وقد قرظ هذه الرسالة عدد من علماء الوقت ، منهم عبد الحليم بن سماية ، ومحمود كحول ...

4 ـ لعله هو محمد الطيب بن أحمد الفاسي الذي زار الجزائر سنة 1103 هـ ـ 1691م . أنظر مقدمة المهدي البوعبدلي لكتاب **(الثغر الجماني)** ص 75 . فاذا صح أنه هو ، فان خط الوثيقة وعصر الناسخ هو القرن الثاني عشر الهجري .

الوقت فى تونس قد شاع عندهم أيضا أن الوثيقة بخط ابن مرزوق نفسه • وأخيرا ذكر الناسخ أن صاحب الوثيقة ، وهو كما سبق من أهل توزر ، قد أخبره أنها فعلا بخط ابن مرزوق • كما ذكر أن هدفه من نقلها هو رغبته فى اشاعتها بين الناس حتى يستفيد منها الموثقون لدقة تعبيرها وحتى ينسخها من يريد الاحتفاظ بنسخة منها ، أي أن هدفه كان ترويجها ونشرها كما تفعل نحن اليوم بمثلها من الوثائق •

غير ان الناسخ قد تصرف قليلا فى نص الوثيقة • وقد ذكر ذلك ، أمانة منه ، فى موضعين : الأول حين أشار الى انه حذف منها أمورا لا تخل ، فى نظره ، بمعناها « لم أسقط من الوثيقة الا ما لا يتعلق به الغرض ، ولا توصف بعد اسقاطه بمرض • » والثاني اشارته الى انه اكتفى بشهادة عمر القلشاني (5) على الوثيقة • ويفهم من هذا ان هناك شهودا آخرين عليها ولكنه استغنى عن ذكرهم « ومن محاسن الوثيقة ان سيدي عمر القلشاني من شهدائها ، ولم أقيد سوى شهادته بعد شهادة ابن مرزوق اذ فى شهادتهما كفاية فى تحصيل غرضنا من الوثيقة • » ويبدو ان الناسخ قد استغنى عن ذكر الأسماء سواء من صلب الوثيقة أو من آخرها ، كالشهود عليها •

فقد كان شائعا فى العهد العثماني نقل وثائق الأقدمين المتعلقة بالأوقاف ونحوها نقلا حرفيا مع الاستغناء عن الأسماء الأصلية وتعويضها بعبارات عامة مثل فلان وكذا ، الخ • وممن فعل ذلك عبد الرزاق بن حمادوش فى رحلته (لسان المقال) (6) • فقد نقل أيضا مجموعة من عقود التحبيس عن أهل الأندلس وغيرهم بطريقة شبيهة بطريقة ابن الاكحل مع الوثيقة التي نحن بصددها ، والسبب فى ذلك هو ظاهرة التقليد التي طغت على علماء العهد العثماني وعدم ثقتهم بأنفسهم • فهم يفضلون صياغة العقود التي نسخ عليها مثلا ابن مرزوق وأمثاله على طريقتهم الخاصة ، وقد ذكر ابن

ـ عمر القلشاني ، 773–847 هـ ، 1379–1433 م • ولد ببجاية وتولى الافتاء والقضاء والخطابة بجامع الزيتونة ، وقد توفي بتونس ، أنظر **(الحلل السندسية)** للسراج ، 623/3 •

6 ـ قمنا بتحقيقها ونشرها ، الجزائر ، 1983 •

حمادوش عقد زواج كتبه محمد بن عبد المؤمن صار محل تقليد اللاحقين من الموثقين الجزائريين •

ولاشك أن المهتمين بحياة ابن مرزوق سيجدون فى هذه الوثيقة أثرا من آثاره وطريقة من طرقه فى صياغة وثائق التحبيس ، كما أن المهتمين بالعلاقات العلمية بين مثقفي الجزائر وتونس سيجدون فيها دليلا آخر على رسوخ هذه العلاقات وقدمها • (7) وهذا هو ما حدا بنا الى تقديم هذه الوثيقة للنشر •

مقدمة الناسخ :

الحمد لله ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

يقول كاتبه العبد الفقير الى مولاه ، الراجي عفوه وتجاوزه عما أثقل به ظهره من خطاياه ، غريق بحر المآثم عبد الله بن بلقاسم بن الاكحل ، عامله الله بلطفه وأنجاه من عذاب القبر ووحشته ، بعد ما تكرر على خط الامام أبى عبد الله سيدي محمد بن مروزق فى مجلس تدريس شيخنا الفقيه الصالح أبى عبد الله سيدي محمد الطيب بمدينة الجزائر ، حرسها الله تعالى ، وذلك زمان قراءتنا عليه قصيدة ضياء الدين الخزرجي فى علم العروض ، فكان يخرج شرح الامام المذكور بخط يده المباركة — اطلعت على وثيقة له فى مسائل الحبس بخط يده ، أعني خط الامام ابن مرزوق ، فعرفت خطه فى الوثيقة المعرفة التامة ، وعرفت أيضا أن فقهاء العصر بتونس شاع عندهم أن الوثيقة بخط الامام المذكور ، وأخبرني أيضا من هي بيده من أهل بلد توزر أن الامام المذكور كتب الوثيقة في بلد تونس ، وهو مقيم بها فى أثناء سفر له ، ذكر ذلك صاحب الوثيقة عن أبيه عن جده •

7 — كان ابن مرزوق ، كما سبق ، يتردد على تونس ، فقد حج منها سنة 790 هـ — 1388 م مع أستاذه ابن عرفة ، كما حج منها مرة أخرى سنة 819 هـ — 1416 م . وها هي الوثيقة تتحدث عن زيارة أخرى له لتونس سنة 828 هـ — 1425 م ؛ وقد كان بين ابن مرزوق وعلماء جنوب تونس صلات ومراسلات ، فقد وردت عليه أسئلة من أبي يحيى ابن عقيبة ، عالم قفصة في وقته ، فأجابه ابن مرزوق عليها بتأليف سماه **اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة** .

فلهذا كتبتها هنا اتحافا لمن يريد العمل بها وأخذ نسخة منها ، ولم أسقط من الوثيقة الا ما يتعلق به الغرض ، ولا توصف بعد اسقاطه بمرض ، ومن محاسن الوثيقة أن سيدي عمر القلشاني من شهدائها ، ولم أقيد سوى شهادته ، بعد شهادة ابن مرزوق ، اذ فى شهادتهما كفاية فى تحصيل غرضنا من الوثيقة ، وهذا نصها :

نص الوثيقة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أشهد على نفسه فلان بن فلان شهدا هذا العقد فى صحته وجواز أمره ، لما رغب فيه من الأجر والثواب ، انه حبس جميع جنانه الكائن له بخارج بلدة توزر المسمى بكذا يحده قبلة جنان كذا وبينهما مجرى ماء ، وشرقا كذا ، وغربا كذا ، وجوفا كذا — بجميع منافع الجنان المذكور ومرافقه وحقوقه الداخلة فيه والخارجة عنه وما عد منه ونسب اليه قديما وحديثا ، وشربه المعلوم له، لم يستثن المحبس المذكور فى الجنان المذكور لنفسه منه شيئا الا أدخله فى التحبيس المذكور على ولده فلان الصغير الكائن في حجره وتحت ولاية نظره ، وعلى كل ولد ذكر يولد له بعد هذا التاريخ ان قدر الله سبحانه وتعالى به ، وعلى بناته شقيقات فلان المذكور ، وعلى كل من سيولد له من البنات أيضا .

يقتسم المحبس عليهم المذكورون غلة الحبس المذكور على فرائض الله تعالى ، الا أن البنات من وجد منهن ومن لم يوجد لاحق لهن الا اذا كن أيامي محتاجات ومن تزوجت منهن أو استغنت فلا حق لها مع الذكور المذكورين. ومن مات من الذكور المحبس عليهم فنصيبه للذكور والاناث من :ولاده الذكور على شرط الاناث المذكور . فان لم يكن له وارث رجع نصيبه لباقي اخوته على الشرط المذكور . فاذا انقرض أولاد صلب المحبس المذكور رجع ذلك الى ولده على الوصف المذكور . وهكذا يكون الحبس على بنيه الذكور والاناث على الشرط المذكور بطنا بعد بطن ما تناسلوا وامتدت فروعهم .

فان انقطع عقبه رجع الحبس المذكور الى أقرب الناس به من العصبة . ثم الى الأقرب فالأقرب منهم ، فاذا انقرضوا رجع الجنان حسبا على مدرس العلم الشريف بالمسجد الجامع من بلد توزر تحبيسا تاما مؤبدا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، ومن سعي فى تبديله أو تغييره فالله تعالى حسيبه ومتولي الانتقام منه ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

عرف المحبس المذكور قدر الحبس المذكور ومنتهي خطره . قصد بذلك وجه الله العظيم ، ورجاء ثوابه الجسيم ، والله لا يضيع أجر المحسنين . شهد على المحبس المذكور بما فيه عنه ، وهو بحال صحة وطوع وجواز أمر . وعرفه فى تاسع جمادي الآخرة عام ثمانية وعشرين وثمانمائة ، محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي وعمر بن محمد بن عبد الله القلشاني .

انتهى ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

ري الغليـــــــل
مخطوط لرحالة ليبي في القرن الماضي

منذ سنـوات اطلعت فى المكتبة الوطنية الفرنسية عـلى عدد من المخطوطات المتعلقة بتاريخ ليبيا الحديث • من ذلك كتاب (التذكار) (1) لمحمد بن خليل بن غلبون ، ونسخـة من تاريخ طرابلس (2) لمصطفى خوجة ، كاتب علي باشا القرمانلي ، ونسخة منقولة عن زمام بلد غدامس القديمة (3) على يد مصطفى خوجة بن قاسم المصري ، وخلاصة تاريخ طرابلس الى الفتح العثماني (4) تأليف قنصل فرنسا بطرابلس فى وقته • ولعل أهم هذه المخطوطات بالنسبة لغرضنا هو (ري الغليل) لمحمد بن عبد الجليل الفزاني • ولا شك أن بعض هذه المخطوطات معروف عند الباحثين ، ولعل بعضها قد أصبح مطبوعا متداولا • ويهمني اليوم أن أقدم المخطوط الأخير باختصار شديد • وعنوان هذا المخطوط الكامل هو (ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل) ، مضافا اليه عبارة « من سلاطين بلاد الفزان » وهو يقع في مائة وثلاث ورقات (103) ومكتوب

(*) ـ نشر في (مجلة البحوث التاريخية) ليبيا ـ عدد 2 ، يوليو ، 1979 .

1 ـ « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار » ، فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية الفرنسية ، اعداد البارون دي سلان de Slane ، رقم 1889 ، أعد بخط جيد في 119 ورقة ولكنه غير كامل .

2 ـ عنوانه (مستخرج من تواريخ طرابلس) ، معه ترجمة بالفرنسية ، وفيه أخبار عن فزان وهو مكتوب بأسلوب رديء ويوجد تحت نفس المصدر رقم 1890 وهو يقع في 7 ورقات .

3 ـ منه نسختان الأولى رقم 1891 وفيها ست ورقات ، والثانية رقم 1892 مجموع وفيها سبع ورقات . والى جانب اسم مصطفى خوجة بن قاسم المصري تاريخه «1181» ويظهر انه تاريخ النسخ ، ولمصطفى خوجة ترجمة في «نفحات النسرين والريحان» لأحمد النائب الأنصاري ، ص 56 ، وفيه أن وفاته سنة 1213 هـ .

4 ـ نفس المصدر ؛ رقم 1892 مجموع ، وهو بعربية ضعيفة ، تاريخ تأليفه 1224 هـ .

بخط مقروء وبعامية فصيحة ، اذا صح التعبير • وقد انتهى منه مؤلفه سنة 1268 هـ (1852) (5) • والظاهر أن المؤلف قد كتبه أثناء اقامته بباريس كما سنلاحظ •

أما المؤلف نفسه فهو محمد بن (السلطان) عبد الجليل بن غيث (؟) ابن أحمد بن سيف النصر • وهو ، كما جاء في وصف الفرنسيين له ، ابن آخر أمراء فزان • ويبدو من اطلاعنا السريع على الكتاب أن المؤلف قد جذبته السلطات الفرنسية التي كانت قد تركزت في الجزائر وبدأت تبحث لها عن عملاء ومناصرين في شمال وغرب افريقية • ولذلك نجد مؤلف (ري الغليل) لا يخفي اعجابه بأعمال الفرنسيين في مصر ، وهو يشيد بنابليون ، ويعتذر عن بعض أعمالهم في الجزائر ، وينظم شعرا فى مدح باريس • ولا ندري ان كان قد ألف كتابه بطلب من الفرنسيين، وهو ما نرجحه ، لأن تلك كانت هي الطريقة التي سلكوها مع متنوري الجزائر أيضا ليستفيدوا من خبراتهم في السيطرة على البلاد • ومهما كان الأمر فان المؤلف قد تجول في المغرب العربي والسودان القديم ومصر قبل أن يتوجه الى فرنسا حيث أقام مدة لا نعرفها • وقبل مغادرته باريس كتب كتابه الذي نحن بصدده ، ثم سلمه الى الحاج عبد الحميد باي بطلب من هذا ، ليسلمه بدوره الى «ولاة الأمور» الفرنسيين ، ولا نعرف الآن عن ثقافة المؤلف أكثر من هذا • وعلى كل حال فانه لا المعلومات الواردة في الكتاب ولا أسلوبه فيه يدلان على ثقافة واسعة بأحوال العصر ، رغم أن معلوماته عن المناطق التي تحدث عنها مهمة كما سنذكر • ومن جهة أخرى فاننا لا ندري ان كان المؤلف قد كتب أعمالا أخرى لم تصل الينا أم لا •

وشخصية الحاج عبد الحميد باي ، الواردة في الكتاب ، ما تزال مجهولة لنا ، وهو حسب سياق النص فى الكتاب ، كان صديقا للمؤلف ان لم نقل انه هو الذي كان وراء أفكاره أيضا • ذلك أن المؤلف يذكره أثناء تنقلاته ، ولا سيما في مدينة تقرت وباريس ، وهو يلجأ اليه في الملمات • ثم ان عبد الحميد باي هو الذي طلب من المؤلف مخطوطة

5 – نفس المصدر ، رقم 1893 •

كتابه وهو أيضا الذي جعل على هذه المخطوطة نسخة وحملها سنة 1853 الى الأب بارجيس (6) Barges ، الأستاذ في السوربون عندئذ ، ليقوم بترجمة (ري الغليل) الى اللغة الفرنسية • وقد عرف عن بارجيس الاهتمام بتاريخ المغرب العربي ، وكان من المستشرقين البارزين في وقته • وما دمنا نتحدث عن الظروف التي كتب فيها (ري الغليل) فلنشر أيضا الى أن النسخة التي اطلعنا عليها كانت في حوزة وزير العدل الفرنسي قبل انتقالها الى المكتبة المشار اليها •

ومن الظروف العامة للكتاب نفهم أيضا أن المؤلف قد وضعه في جزئين كما يصرح بذلك في آخره • ولكن الفرق بين جزء وآخر غير واضح من الخطة العامة للكتاب • ومن جهة أخرى يبدو أن النسخة التي اطلعنا عليها هي النسخة الأصلية • ذلك أن عبارة عبد الحميد باي تشير الى أنه هو الذي جعل عليها نسخة أخرى بعد أن تسلم الأصل من مؤلفه • واذا كنا قد وجدنا على النسخة التي اطلعنا عليها ما يدل على أنها كانت في حوزة وزير العدل فاننا لم نجد ما يدل على أنها هي النسخة التي قدمها عبد الحميد باي الى الأب بارجيس • ونحن نلح على تعدد النسخ من هذا الكتاب لأنه قد يكون في تعددها اختلاف بالحذف والزيادة والتصرف • وهذه قضية مهمة بالنسبة للباحث الذي يرغب في التعرف على جميع أفكار المؤلف الأصلية •

ومهما كان الأمر فان الكتاب يحتوي على معلومات مهمة حول المغرب العربي والسودان ومصر في القرن الماضي • وتظهر أهمية هذه المعلومات فى المساحة الجغرافية التي تغطيها والفترة التي عولجت فيها • ذلك أن المؤلف قد زار وتجول فى بورنو ومصر والحجاز

---

6 ـ هو الذي نشر تاريخ بني زيان «سلاطين تلمسان» ، وهو ترجمة جزئية لكتاب التنسي المسمى « نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان » ، باريس ، 1852 ، ثم أكمله (بارجيس) بعمل آخر أوفى عن بني زيان أيضا ونشره في باريس سنة 1887 . كما نشر بارجيس عملا للتواتي عن الصحراء والسودان ، باريس ، 1853 ، وهناك عمل آخر منسوب للادريسي عن بني جلاب ، سلاطين تقرت ، قام بنشره الاب بارجيس أيضا ، باريس 1858 ، كما نشر حياة أبي مدين دفين تلمسان ، باريس 1884 ونحن لا ندري الى الآن ما اذا كان بارجيس قد ترجم فعلا كتاب (ري الغليل) الى الفرنسية أم لا . ولعله فعل .

واسطانبول وتونس والجزائر وفرنسا ، بالاضافة الى ليبيا طبعا ، ونظرا لاهتمامي الشخصي بتاريخ الجزائر من خلال تجربة المؤلف فقد وجدت في عماه أخبارا طيبة عن العلاقات بين الجزائريين والفرنسيين في وقته ، ففيه حديث طويل عن الحروب التي دارت بينهم ، ولا سيما في منطقة الصحراء الشرقية (7) مثل وادي ريغ وتقرت ، ومثل ثورة الشريف محمد بن عبد الله • كما أن فيه وصفا (ولكنه سطحي ومقتضب أحيانا) لمدن بسكرة وقسنطينة وباتنة وسطيف ومليانة والمدية والجزائر والبليدة • وجميع هذه المدن قد مر بها المؤلف وأقام في بعضها فترة ، ولا نذكر الآن (وقد مضى وقت على اطلاعي على الكتاب) أحكام المؤلف على بقية الأماكن التي زارها أو عاش فيها (8) •

ونود أن نشير أيضا الى أن عنوان الكتاب لا يتلاءم بالضبط مع موضوعه • فهو ليس عن تاريخ (أو أخبار) بني عبد الجليل ، كما جاء في العنوان ، ولكنه كتاب يتناول موضوعات شتى ومساحة جغرافية واسعة ، كما ذكرنا ، بما في ذلك الحجاز واسطانبول وبورنو ومصر والجزائر • ولا يشكل حديث المؤلف عن أسرة بني عبد الجليل الا جزءا من قصة الكتاب • ثم اننا نلاحظ أن أكثر من نصفه تقريبا مخصص لأخبار القطر الجزائري •

بقي علينا أن نذكر أن دي سلان قال ان المؤلف كتب (ري الغليل) سنة 1862 • والظاهر أن هناك خطأ في هذا التاريخ • ذلك أن المؤلف نفسه يذكر في آخر كتابه أنه أكمله في باريس سنة 1268 هـ الموافق لسنة 1852 م كما أشرنا • وهناك نقطة أخرى جديرة بالذكر وهي أننا لا نعرف مصير المؤلف بعد ذلك التاريخ • فالتعاليق في الكتاب تشير الى أنه قد غادر باريس ولكنها لا تذكر أين ذهب • ولعل الباحثين المهتمين بحياة المؤلف قد حققوا هذه القضية • كما أن الكشف عن حياة

---

7 ـ صادف تاريخ تأليف (ري الغليل) اهتمام الفرنسيين الخاص «باكتشاف» الصحراء وسكانها وانطلاق البعثات العلمية والحملات العسكرية نحوها •

8 ـ أنظر التعليق الوارد في آخر هذا المقال •

عبد الحميد باي يعتبر خطوة مهمة في هذا السبيل • وقد سألت زميلنا الدكتور عبد القادر زبادية ، الأستاذ بجامعة الجزائر عما اذا كان يعرف من نشر أو بحث في (ري الغليل) فذكر لي أن أحد الطلاب قد سجل فيه بحثا بجامعة الجزائر وأنه (أي الطالب) قد جاء من الكتاب بمصورة عن نسخة باريس • ولا نعرف الآن أين وصل هذا الطالب في عمله • ولعل أساتذة وطلاب ليبيا قد اهتموا أيضا بهذا الكتاب دون أن نطلع نحن على جهودهم •

وحسبنا في هذه الآونة تقديم هذه اللمحة عن (ري الغليل) ولفت الانتباه اليه (9) وحسبنا أيضا أن نقول عنه انه ، رغم أهميته ، ربما لا يكون صالحا للنشر على ما هو عليه •

---

9 — تعليق — كنت أخبرت بعض الليبيين عن وجود (ري الغليل) واطلاعي السريع عليه ، فطلبوا مني تقديمه للقراء . وقد اعتذرت بأن معلوماتي عنه غير كاملة وأن ما أخذته منه كان مجرد معلومات لم يكن القصد منها دراسة الكتاب والحكم عليه وانما تذكرة لنفسي أعود اليها اذا دعت الحاجة عند كتابتي عن تاريخ الجزائر فى القرن الماضي . ولكن هؤلاء الأخوان ألحوا علي فى تقديم « ما عندي » من معلومات عن الكتاب ، ومن هؤلاء الأخ عبد المولي الحرير ، الذي شافهني بذلك في لقاء لنا بمدينة آن آربر (امريكا) سنة 1978 ، ثم أكد لي ذلك برسالة وردتني منه فى الجزائر تاريخها 7 أكتوبر 1979 ، فلم يسعني الا الاجابة وكتابة هذه العجالة عن الكتاب المذكور .

ملاحظة : بعد أن نشرت هذا اطلعت على كتاب الأستاذ على مصطفى المصراتي (مؤرخون من ليبيا) ، طرابلس ، 1977 ، وفيه دراسة هامة عن كتاب (رأي الغليل) ، ص 203 — 218 .

فهـــرس الاعـلام

— ت — ث —

— ج —

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

— م —

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهــــرس الشعوب والقبائل

فهرس الأماكن والبلدان

ـ ب ـ

– د –

فهـرس المصطلحات المختلفـــة

فهرس الجرائد والمجلات والكتب

(1) تفضل الاستاذ ذمحمد الطيب عقاب بوضع فهارس هذا الكتاب . فله الشكر .

très peuplés, pauvres et abrupts sont sans voie de communication. Des agglomérations importantes sont dépourvues de tout. Comme au temps d'Abraham on y puise l'eau avec des peaux de boucs, dans des citernes ou des puits à ciel ouverts. C'est ainsi qu'en tout et pour tout la part des plus nombreux est la plus faible, et la charge des plus pauvres est la plus forte.

Sous un régime dit Républicain, la majeure partie de la population est régie par des lois spéciales qui feraient honte aux barbares eux-mêmes. Et ce qui est typique, c'est que certaines de ces lois qui instituent des tribunaux d'exception (Tribunaux répressifs et cours criminelles) datent des 29 mars 1902 et 30 Décembre 1902. On peut voir là un exemple de la marche régressive vers les LIBERTÉS.

Pour que nous ne soyons pas taxés d'exagération, nous joignons à cette requête deux brochures écrites par deux Français d'Algérie; M. M. François Marneur, avocat à la cour d'appel d'Alger, et Charles Michel conseiller général et maire de Tébessa. Elles sont édifiantes sur l'odieuse injustice de ces lois.

Un autre exemple démontrera la violation de la parole donnée, le voici :

Avant 1912, les troupes indigénes étaient recrutées par voie d'engagement volontaire, moyennant quelques avantages offerts aux engagés. Ces avantages furent supprimés progressivement et on arriva, en 1912, à la conscription obligatoire, d'abord partielle (10 % du contingent), ensuite totale et cela malgré les énergiques protestations des indigénes. L'impôt du sang nous a été appliqué en violation des principes les plus élémentaires de la justice.

Appauvris, asservis et avilis par le droit du plus fort, nous n'avions jamais pu croire cependant, qu'une pareille charge, réservée aux seuls citoyens français, jouissant de tous les droits, viendrait un jour peser sur nos épaules.

Des centaines de mille des nôtres sont tombés sur les différents champs de bataille, luttant malgré eux contre des peuples qui n'en voulaient ni à leur vie, ni à leurs biens.

Les veuves, les orphelins et les mutilés de cette guerre ont

صفحة من عريضة الامير خالد الى الرئيس ويلسون

(أنظر صفحة 49)

que d'aussi belles promesses ne devaient subsister qu'en paroles. En effet comme au temps des Romains, les Français refoulèrent progressivement les vaincus en s'appropriant les plaines fertiles et les plus riches contrées. Jusqu'à nos jours, on continue de créer de nouveaux centres de colonisation en enlevant aux Indigènes les bonnes terres qui leur restent, sous le prétexte intitulé:" Expropriation pour cause d'utilité publique".

Les biens Habous, qui se chiffraient par des centaines de millions de francs, et qui servaient à l'entretien des monuments religieux et à venir en aide aux pauvres, ont été pris et répartis entre les Européens, chose extrêmement grave étant donnée la destination précise et religieuse qu'avaient assignée à ces biens leurs donateurs.

De nos jours, malgré la loi de sépatation des Eglises et de l'Etat, le peu de biens Habous qui reste est géré par l'administration française sous le couvert d'une cultuelle dont les membres serviles ont été choisis par elle. Inutile d'ajouter qu'ils ne possèdent aucune autorité.

Contrairement à notre religion, l'Administration profite de toutes les occasions, surtout pendant cette guerre , pour organiser dans nos mosquées et nos lieux saints des manifestations politiques. En présence d'une foule composée surtout de fonctionnaires , on fait lire des discours préparés pour la circonstance, par les chefs du culte, et on pousse même le sacrilège jusqu'à faire participer la musique militaire à ces manifestation humiliantes pour l'esprit religieux du musulman.

Voilà ce qu'on a fait des déclarations du Général de Bourmont du 5 Juillet 1830 et de la loi de 1851.

Pendant 89 ans, l'indigène a été accablésous le poids, des impôts : impôts français et impôts arabes antérieurs à la conquête. (maintenus par l'administration française)

En consultant la balance des recettes et des dépenses de l'Algérie, on voit aisément que des indigènes surtaxés, la répartition du budgetm ne tient presque aucun compte de leurs besoins spéciaux. Plusieurs tribus sont sans route et la grande majorité de nos enfants sans écoles.

Grâce à nos sacrifices, on a pu créer une Algérie française très prospère, où la culture de la vigne s'étend à perte de vue; le pays est sillonné de chemins de fer et de routes entre les villages européens. Pas bien loin d'Alger, on trouve des tribus entières, dont les territoires,

23593

صفحة أخرى من عريضة الامير خالد الى الرئيس ويلسون

(انظر صفحة 49)

Paris, 24 May, 1919.

My dear Sir:

I am writing to acknowledge receipt of the address on behalf of the five representatives of the Arabs of Algeria which has been forwarded to me on your behalf by Lieutenant Noble and I shall be glad to call it to the President's attention.

Sincerely yours,

Confidential Secretary to the President

Mr. L'Emir Khaled El-Hasani,
c/o Lieut. George B. Noble,
Hotel Crillon, Paris.

رسالة كلوز الى الامير خالد حول عريضته الى الرئيس ويلسون .

(انظر صفحة 49)

Paris, 23 May, 1919.

My dear Lieutenant Noble,

I am enclosing herewith a note from the Emir Khaled El-[illegible], as requested in your letter of May 2[illegible]rd.

Sincerely yours,

Confidential Secretary to the President.

Lieut. George D. Noble,
Hotel Crillon, Paris.

رسالة كلوز الى الضابط نوبل حول عريضة الامير خالد
(انظر صفحة 49)

أحمد توفيق المدني

AHMED TEWFIK EL MADANI
Ambassador of Algeria

الحمد لله

أخي الكريم وولدي النجيب السيد
الأستاذ أ. سعد الله، حفظه الله،

تحية وسلاما وشوقا، وبعد
تلقيت اليوم رسالتكم الكريمة المتعلقة
بنشر الوثيقة التي تحمل إمضائي، وفيها بيان
الإصلاح الذي أدخلناه على منهاج سير جمعية
العلماء المسلمين.
ولقد أذنت لكم شفويا، والآن آذن
لكم كتابيا في نشره كما تشاءون. أبقاكم الله للعلم
والأدب وللتاريخ الصادق الحقيقي
ولكم مني التحية العاطرة والسلام الزكي.

اذن كتابي من طرف المرحوم احمد توفيق المدني بنشر التقرير الذي كتبه بيده اثر اجتماع المجلس الاداري لجمعية العلماء.

(انظر صفحة 63)

ASSOCIATION DES OULAMAS
MUSULMANS D'ALGÉRIE

SIÈGE SOCIAL
12. RUE POMPÉE - ALGER

TÉLÉPHONE 278.17
C.C.P. 450.06

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

مركزها: ١٢ نهج بومبي
الجزائر
الهاتف ١٧ - ٢٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص المحضر — ومقررات المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بالجزائر أيام ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ ، ٢٩ سبتمبر ١٩٥١

باستدعاء شخصي من الكاتب العام لسائر الشيوخ أعضاء المجلس الإداري، وباستدعاء عمومي نشر على صحيفة البصائر، انعقد المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين جلسته السنوية العادية بمركز الجمعية، أيام ٢٥، ٢٦، ٢٧، و٢٨، ٢٩ سبتمبر ١٩٥١، تحت رئاسة الشيخ محمد خير الدين النائب الثاني للرئاسة.

الحضور: الشيوخ السادة: محمد خير الدين - احمد توفيق المدني، عبد اللطيف سلطاني - حمزة بوكوشة - احمد حماني - احمد سحنون - العباس بن الشيخ الحسين - احمد حسين - نعيم النعيمي - باعزيز بن عمر - علي بن [illegible] - محمد الشبوكي - المولود النجار - [illegible] - السعيد صالحي. عبد القادر الياجوري - [illegible]

الغائبون لسبب: الشيوخ السادة: محمد البشير الإبراهيمي - العربي التبسي - احمد بوشمال

المعتذرون: الشيوخ السادة: عبد اللطيف بن منصور (مسافر) السعيد الزموشي (مريض)

المتخلفون دون عذر: الشيوخ السادة: ابو بكر الاغواطي - [illegible] - عبد القادر حداد - محمد الطاهر الجيجلي

مستقل: عبد الرحمن الجيلالي.

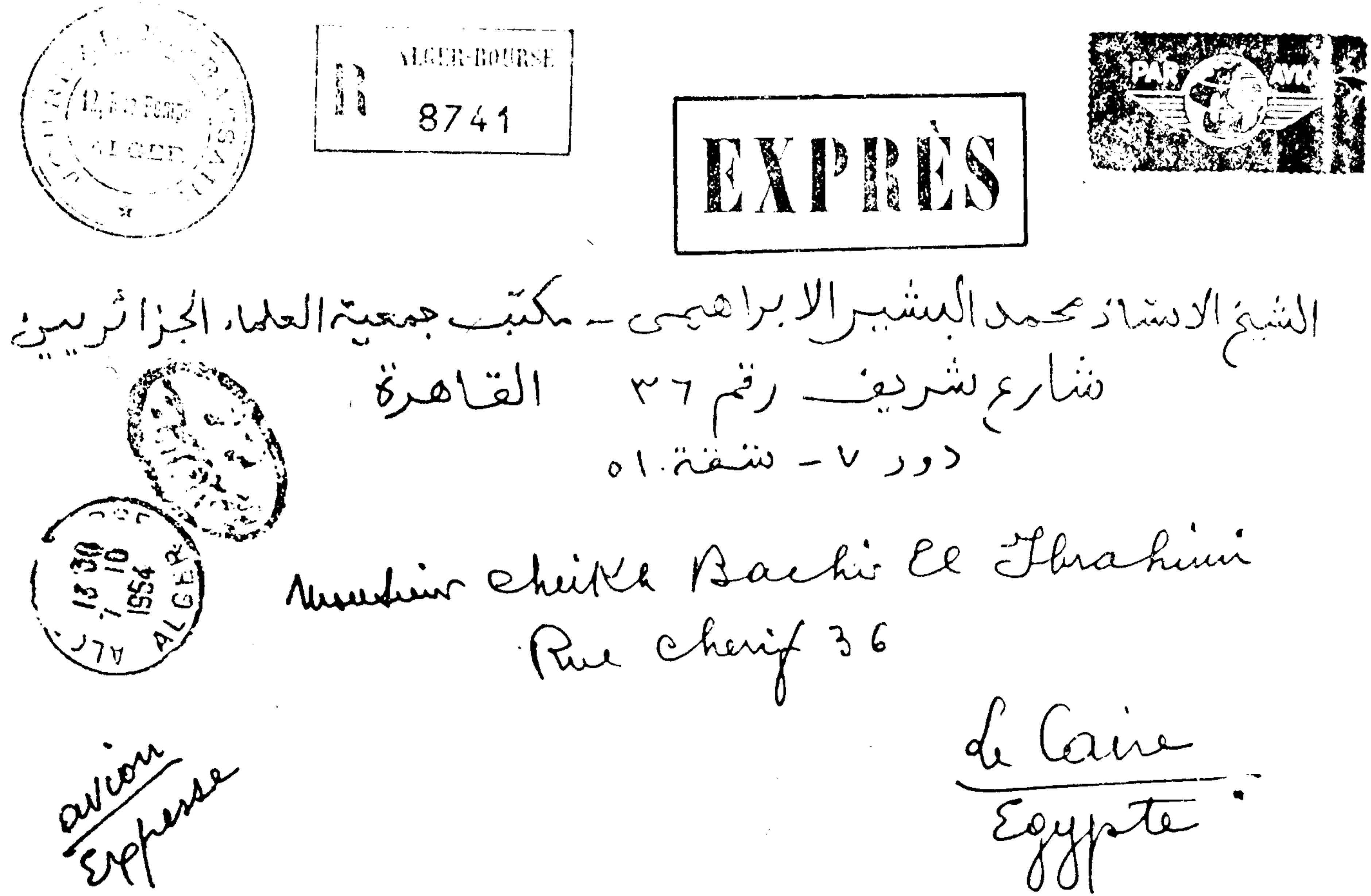
على الساعة [illegible] افتتح الشيخ محمد خير الدين الجلسة بخطاب [illegible] أعمال الجمعية [illegible] المتغيبين عن الجلسة [illegible] ثم أعطى الكلمة للكاتب العام، فتلا تقريره المفصل عن حالة الجمعية [illegible] وما قامت به من أعمال [illegible] خلال السنة، وما تريد أن تقوم به خلال السنة المقبلة.

وبعد الانتهاء [illegible] اقترح الكاتب العام أن يتشكل المجلس لجانا، تبحث كل لجنة مسألة من المسائل [illegible] والمصادقة [illegible] وبعد مذاكرة في الموضوع قبلت الفكرة. وانتخب المجلس من بين أعضائه هذه اللجان:

اللجنة الأولى: لجنة المعلمين والوظائف في الجمعية: رئيسها الشيخ السعيد صالحي.

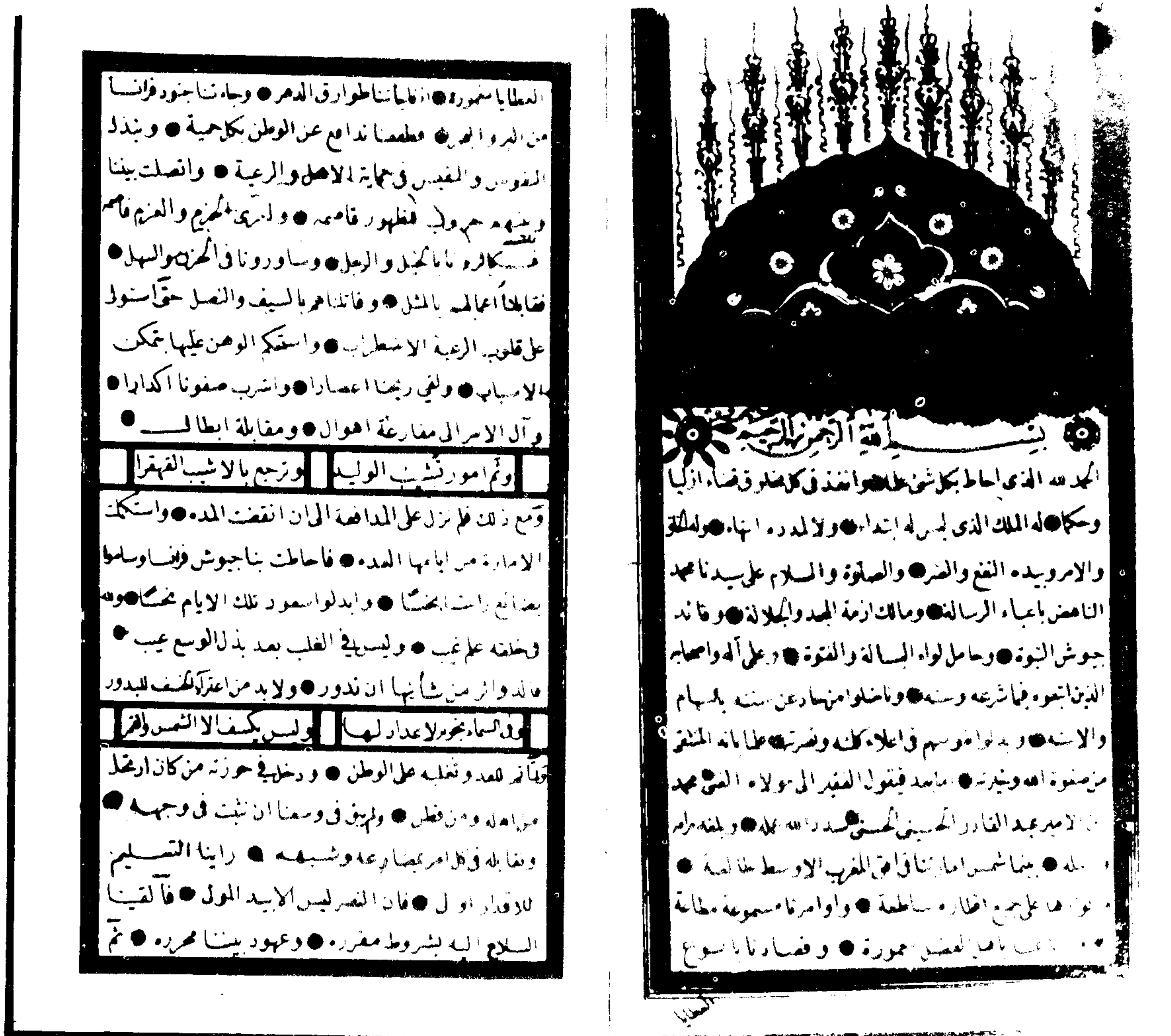
صورة الصفحة الاولى من محضر الجلسة التي عقدها المجلس الاداري لجمعية العلماء — بخط المرحوم أحمد توفيق المدني.

(انظر صفحة 63)



صورة غلاف الرسالة التي احتوت على التقرير الذي كتبه المرحوم احمد توفيق المدني والذي أرسله الى الشيخ محمد البشير الابراهيمي بالقاهرة .

(انظر صفحة 63)


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي احاط بكل شيء علما وانفذ في كل مقدور قضاء ازليا
وحكما ● له الملك الذي ليس له ابتداء ● ولا لمدده انتهاء ● وله الخلق
والامر وبيده النفع والضر ● والصلوة والسلام على سيدنا محمد
الناهض باعباء الرسالة ● ومالك ازمة المجد والجلالة ● وقائد
جيوش النبوة ● وحامل لواء البسالة والفتوة ● وعلى آله واصحابه
الذين اتبعوه فيما شرعه وسنه ● وناضلوا منهجا دعن سنته بالسهام
والاسنة ● وبذلوا نفوسهم في اعلاء كلمته ونصرته علما بانه المنتقى
من صفوة الله وخيرته ● اما بعد فيقول العبد الى مولاه الغني محمد
بن الامير عبد القادر الحسيني الحسني اسعده الله بعمله ● وبلغه مرام
امله ● بينما شمس امارتنا في المغرب الاوسط طالعة ●
ونورها على جميع اقطاره ساطعة ● واوامرنا مسموعة مطاعة
... المعتصي معمورة ● وفضاء دنا باسوع

العطايا معمورة ● اذ فاجأتنا طوارق الدهر ● وجاءتنا جنود فرانسا
من البر والبحر ● فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ● ونبذل
النفوس والنفيس في حماية الاهل والرعية ● واتصلت بيننا
وبينهم حروب ظهور قاصمة ● ولابسي الحزم والعزم فاصم
بعض ... كاثرونا بالخيل والرجل ● وساورونا في الحزن والسهل ●
فقابلنا اعمالهم بالمثل ● وقاتلناهم بالسيف والنصل حتى استولى
على قلوب الرعية الاضطراب ● واستحكم الوهن عليها بتمكن
الاسباب ● ولقي رجالنا اعصارا ● واشرب صفوتنا اكدارا ●
وآل الامر الى مقارعة اهوال ● ومقابلة ابطال ●

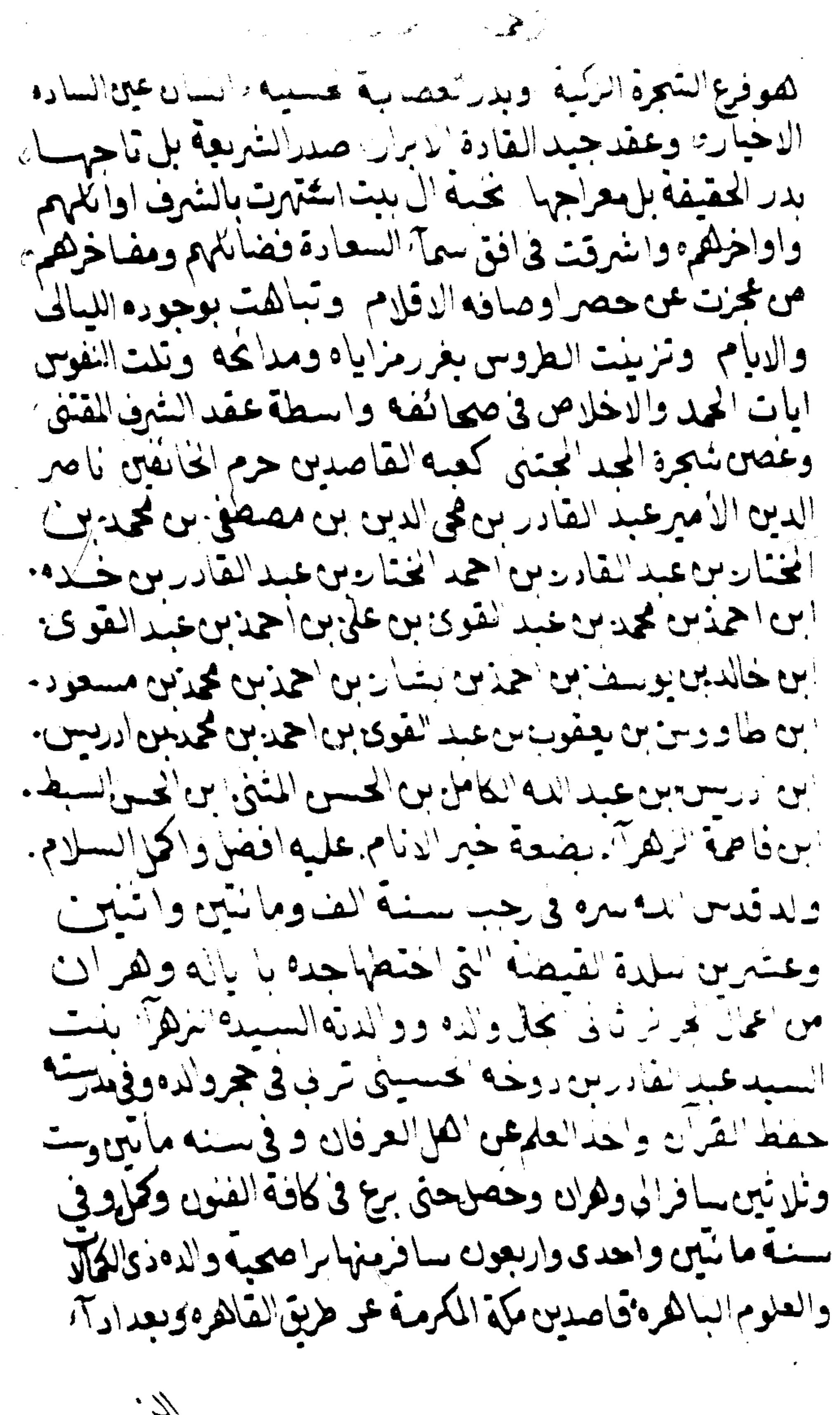
وتم امور تشيب الوليد	وترجع بالاشيب القهقرا

ومع ذلك لم نزل على المدافعة الى ان انقضت المده ● واستكملت
الامارة من ايامها العده ● فاحاطت بنا جيوش فرنسا وسلموا
بضائع راس اسحنا ● وابدلوا اسمود تلك الايام نحسا ● ولله
وحكمه على غيب ● وليس في الغلب بعد بذل الوسع عيب ●
فالدوائر من شانها ان تدور ● ولا بد من اعتراء الكسف للبدور

وفي السماء نجوم لا اعداد لها	وليس يكسف الا الشمس والقمر

وتكاثر العدو وتغلبه على الوطن ● ودخل في حوزته من كان ارتحل
من اهله ومن قطن ● ولم يبق في وسعنا ان نثبت في وجهه ●
ونقابله في كل امر بمصارعه وشبهه ● راينا التسليم
للاقدار اولى ● فان النصر ليس الا بيد المولى ● فالقينا
السلاح اليه بشروط مقرره ● وعهود بيننا محرره ● ثم

صورة الصفحة الأولى من مخطوطة (تحفة الزائر) ، نسخة اسطانبول
نسخة 5 (1)


هو فرع الشجرة الزكية وبدر عصابة حسيبة نسبا عن السادة
الاخيار وعقد جيد القادة الابرار صدر الشريعة بل تاجها
بدر الحقيقة بل معراجها نخبة آل بيت اشتهرت بالشرف اوائلهم
واواخرهم واشرقت في افق سماء السعادة فضائلهم ومفاخرهم
من عجزت عن حصر اوصافه الاقلام وتباهت بوجوده الليالى
والايام وتزينت الطروس بغر مزاياه ومدائحه وتلت النفوس
ايات الحمد والاخلاص في صحائفه واسطة عقد الشرف المقتنى
وغصن شجرة المجد المجتنى كعبة القاصدين حرم الخائفين ناصر
الدين الامير عبد القادر بن محى الدين بن مصطفى بن محمد بن
المختار بن عبد القادر بن احمد المختار بن عبد القادر بن خده
بن احمد بن محمد بن عبد القوى بن على بن احمد بن عبد القوى
بن خالد بن يوسف بن احمد بن بشار بن احمد بن محمد بن مسعود
بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوى بن احمد بن محمد بن ادريس
بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط
بن فاطمة الزهراء بضعة خير الانام عليه افضل واكمل السلام.
ولد قدس الله سره في رجب سنة الف ومائتين واثنين
وعشرين بالقيطنة التي اختطها جده بايالة وهران
من عمالة الجزائر في كفالة والده ووالدته السيدة الزهراء بنت
السيد عبد القادر بن دوخة الحسيني ترب في حجر والده وفي مدرسته
حفظ القرآن واخذ العلم عن اهل العرفان وفي سنة مائتين وست
وثلاثين سافر الى وهران وحصل حتى برع في كافة الفنون وكمل وفي
سنة مائتين واحدى واربعين سافر منها مصاحبة والده ذى الكمال
والعلوم الباهرة قاصدين مكة المكرمة عن طريق القاهرة وبغداد

صورة لصفحة مخطوطة من ديوان (نزهة الخاطر فى قريض الامير عبد القادر) .

(انظر صفحة 115)



صورة الشيخ أي يعلى الزواوي مع بنتيه .
(انظر صفحة 145)


بسم الله

١

سيدي الاستاذ الكامل، والوطني النابغة الفاضل

روابط عديدة، واسباب كثيرة، وخطوب جميلة، وفنون جليلة، دعتني الى مكاتبتكم، والتشرف بمخاطبتكم، راجيا من الله ثم من سيادتكم، ان اصادف القبول لديكم، واحظى بالاعتبار عندكم، فاقول معرفا نفسي التي كان الاولى لها ان تبقى نكرة:

اني احد طلبة العلم الزواوة اسمي السعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحيى بن الحاج من ايت سيدي محمد الحاج الشهير. وبما ان العبد اسير الاقدار، مسلوب الاختيار، ترجدت نفسي منسوقا لهذه الديار، راضيا وشاكرا، وكنت ولم ازل شديد الرغبة للاجتماع بكم، والاخذ عليكم ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن

أقول وعذر مكم الي - وانتم اشهر من ان تعرف بوا - الاستاذ الوطني صديقي الحميم الشيخ محمد سعيد المفتي الحالي بمدينة الجزائر، ان حدثني عنكم حينما تشرفتم بلاد الجزائر منذ نحو عشرين سنة ومن سوء الحظ اني اذ ذاك بعاصمة تونس ولم احظ بالاجتماع بكم فحصل لي من الاسف ما حصل، ومن ذلك الحين وانا في الجولان من مكان الى مكان، الى ان حرت بهذا المكان (دمشق) والحمد لله على ما فات،

هذا وان الباعث لي على هذه المكاتبة هو ما اشرنا اليه من روابط الإخا وصلة آل الجنسية وعائد الوطنية، راجيا ان تكون فائدة الصلة تمام الموصول، وفائدة العائد الربط بين الصلة والموصول، وان يطول حبل المودة بيننا

والذي اصرح به لسيادتكم اني اتتلمذ لكم واتمذهب بمذهبكم، واتمر بامركم وانتهي بنهيكم، قولا بالحق وتحريا لجانب الصدق في ذلك بيني وبينكم ايام العمر الباقية بحول الله وقوته فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل

أقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل اقترح عليكم واطلب منكم تأليف مختصر في تاريخ بلادنا الزواوة يشتمل على ما تيسر من خصائصهم ومحامدهم .

* الصفحة الاولى من مشروع الزواوي من دار الكتب المصرية، تيمور، 956 تاريخ

صورة الصفحة الاولى من مشروع تاريخ زواوة ، وهي بخط الشيخ أبي يعلى الزواوي

(انظر صفحة 145)

NOTES

OF A

JOURNEY

INTO THE

INTERIOR OF NORTHERN AFRICA

BY

HADJI EBN-ED-DIN EL-EGHWAATI.

TRANSLATED FROM THE ARABIC.

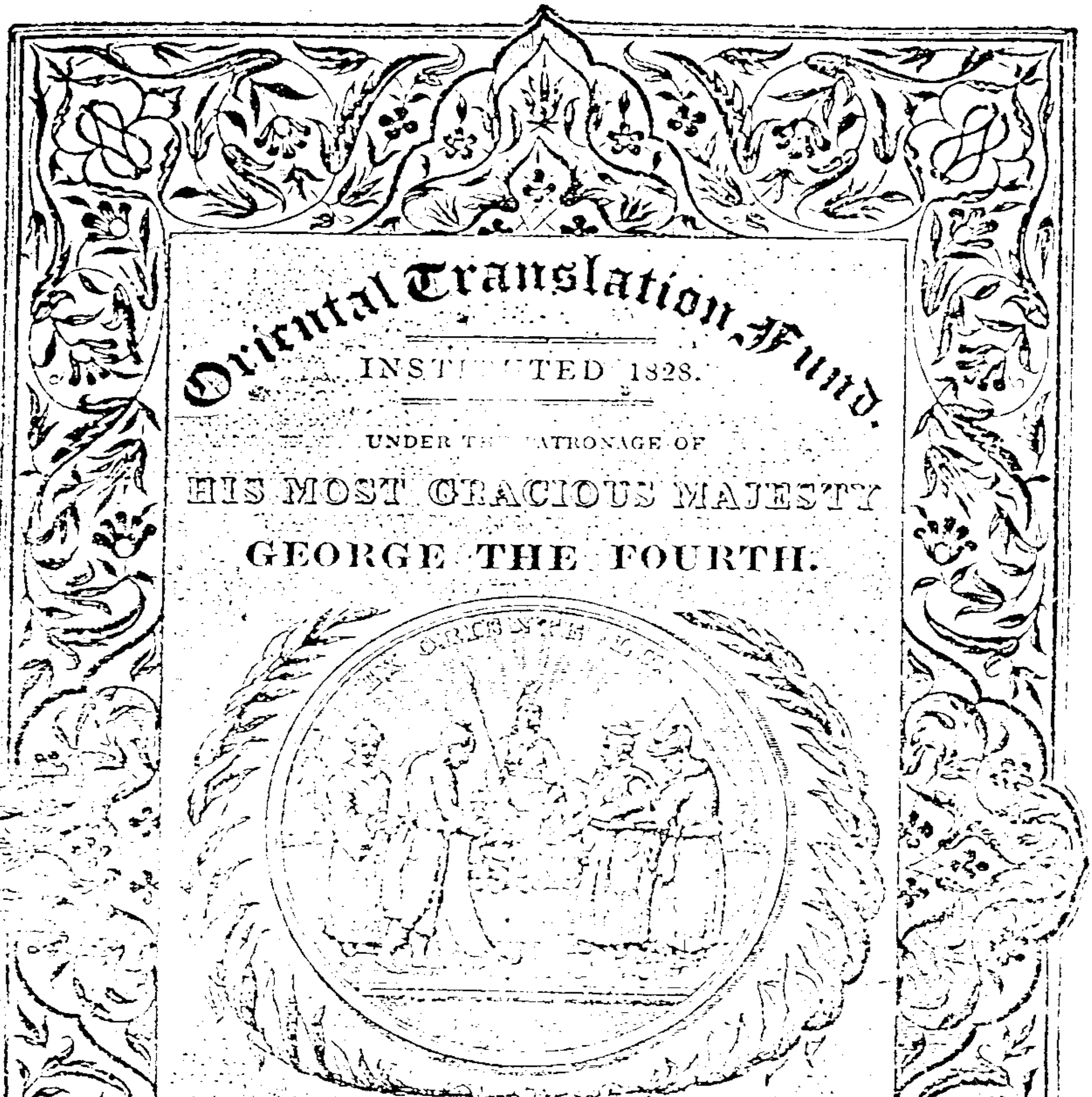
BY

W. B. HODGSON, Esq.

LATE AMERICAN CONSUL AT ALGIERS, AND A FOREIGN MEMBER OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY.

صورة لعنوان رحلة الاغواطي كما ترجمه هودسون .

(انظر صفحة 243)


Oriental Translation Fund.

INSTITUTED 1828.

UNDER THE PATRONAGE OF

HIS MOST GRACIOUS MAJESTY

GEORGE THE FOURTH.

THIS COPY WAS PRINTED FOR

W. MARSDEN, Esq. LL.D. F.R.S.

A Member of the Royal Asiatic Society,

A Member of the Oriental Translation Committee,

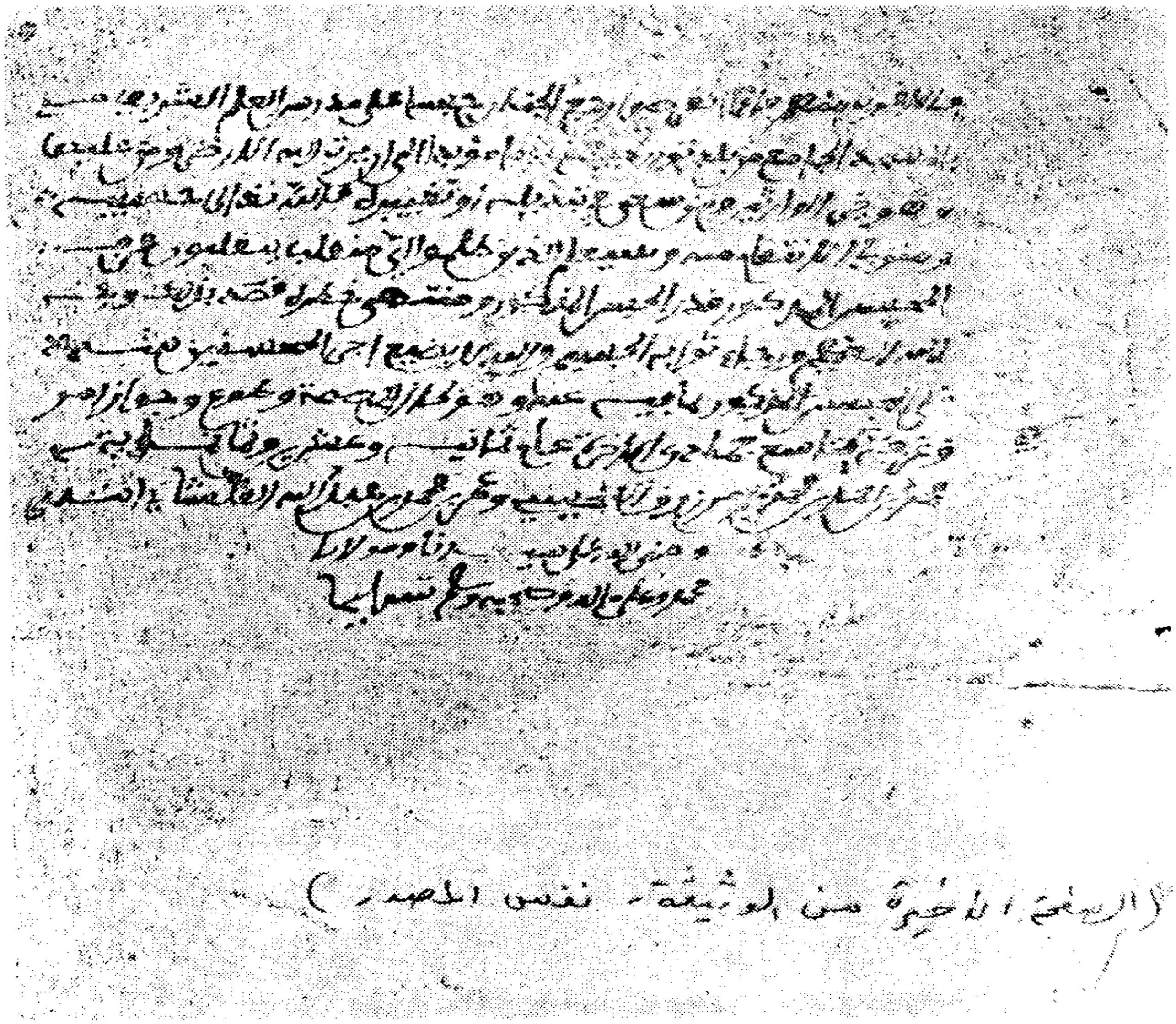
AND A SUBSCRIBER TO

The Oriental Translation Fund.

صورة لعنوان المجموعة التي ظهرت فيها ترجمة رحلة الاغـواطي بلندن .

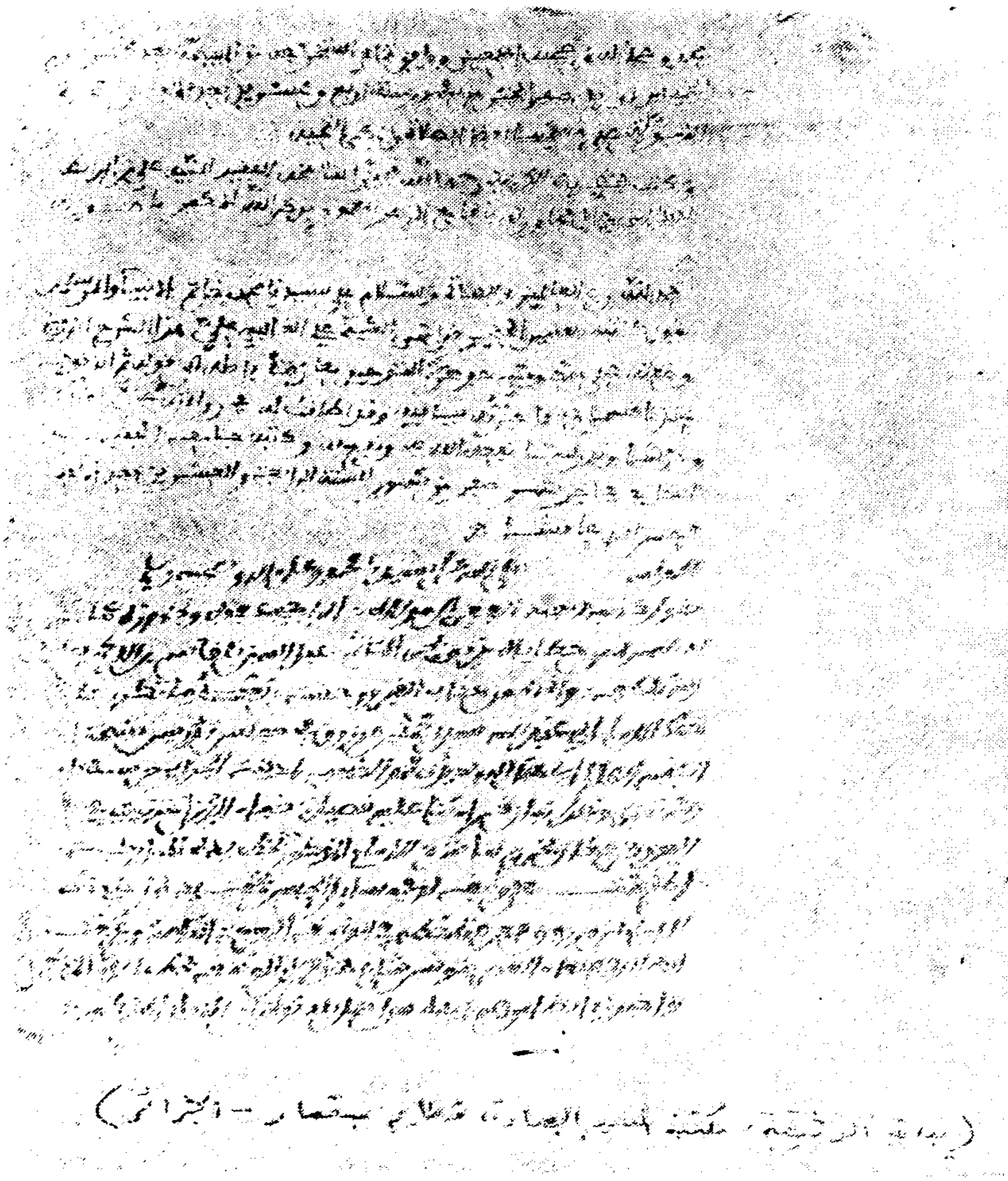
13

(أنظر صفحة 243)



(الصفحة الأخيرة من الوثيقة - نفس المصدر)

صورة الصفحة الثانية من وثيقة ابن مرزوق التونسية .
(انظر صفحة 351)



الشكل رقم 1 : بداية الوثيقة .

مكتبة السيد الصادق قطايم بقمار — الجزائر

صورة الصفحة الاولى من وثيقة ابن مرزوق التونسية .

(أنظر صفحة 351)

الحمد لله وحده — ببسكرة في [illegible] يوم [illegible] جوان سنة 1895

الى المكرم الفاضل الزكي السيد محمد العروسي السلام التام عليك وعلى
من تعلق بك ورحمة الله وبركاته وبعد ايها السيد وصلك
الخبر على ما صار بين رحلتي هذه وما صار بتوارق ازجر الهاكين
وطاح عليهم جيش كبير من بو عمه وناس العرب فخالطين
معهم وغزوا إبلهم وقتلوا بعض من ناسهم .. وانا
ملزمني نرسل خبري الى السيد الحاج اخنوخن واكبار
الازجر وعلى ذالك رسلت لك هذا الجواب ومعه نسختين
من براوات اليهم .. والمطلوب من كريم فضلك اوكان
تحت يدك رجل مليح ومومن ماشي الى غدامس
ليقضي حوايجه تعطي الجوابات لعله يعود ثم
يردهم الى السيد الحاج اخنوخن او واحد من اعيان
الازجر [illegible] متى ان وصلت براوتي بواسطتك
يدروها اهل ازجر كما يدروا زاويتكم [illegible] و
المشهور [illegible] من كريم
فضلك ولكن اذا [illegible] الحال [illegible]
او غيره يرجعني الجوابات عند [illegible]
[illegible] وانت ايها السيد [illegible]
[illegible] الخبر الى [illegible] بواسطة [illegible]
و[illegible] على [illegible] الى
[illegible] واما انا [illegible] من الله تعالى
يحفظك من كل بلا ويقبل دعوتك [illegible] اخوانك
المسلمين و[illegible] من حبيبك فور[illegible]
المحبوب عند الشعنبه والتوارق [illegible] من
اخواني [illegible]

صورة لرسالة فورو الى الشيخ محمد العروسي التجاني .

(انظر صفحة 345)

محتوى الكتاب

صفحة

كتب أخرى للمؤلّف

في الأدب :

* النصر للجزائر (شعر)، ط 3، 1986 .
* ثائر وحب (شعر) ، ط 2 ، 1977 .
* الزمن الأخضر (ديوان سعد اللّه) ، 1985 .
* سعفة خضراء (قصص) 1986 .
* دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ط 3 ، 1985 .
* شاعر الجزائر : محمد العيد ، ط 3 ، 1984 .
* حكاية العشاق (تحقيق)، ط 2 ، 1983 .
* القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني ، ط 2 ، 1985 .
* تجارب في الأدب والرحلة ، 1984 .
* أشعار جزائرية (تحقيق) 1988 .

في التاريخ :

* الحركة الوطنية الجزائرية ،.ج 2 ط 3 ، 1983 .
* الحركة الوطنية الجزائرية ، ج ، ط 3 ، 1986 .
* الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1 ، ط 1 (جاهز للطبع) .
* محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) ط 3 ، 1982 .
* حياة الأمير عبد القادر (ترجمة كتاب تشرشل عنه) ط 2 ، 1982 .
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (الجزء الأول) ، ط 2 ، 1982 .
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (الجزء الثاني)، ط 1 ، 1986 .
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ج 3 ، (تحت الطبع) .

* الجزائر وأوروبا (ترجمة كتاب جون وولف) 1986 .
* تاريخ العدواني (تحقيق) في التحضير .
* تاريخ الجزائر الثقافي ، جزآن ، ط 2 ، 1985 .
* شعوب وقوميات ، 1985 .

دراسات وأبحاث عامة :

* **منطلقات فكرية** ، ط 2 ، 1982 .
* رائد التجديد الاسلامي : ابن العنابي ، ط 2 ، (تحت الطبع) .
* رحلة ابن حمادوش الجزائري : لسان المقال ، (تحقيق) 1983 .
* الطبيب الرحالة : ابن حمادوش الجزائري (دراسة) ، 1982 .
* شيخ الاسلام : عبد الكريم الفكون ، 1986 .
* منشور الهداية في كشف حال من ادعى المعلم والولاية ، لعبد الكريم الفكون . (تحقيق) 1987 .
* أفكار جامحة ، 1988 .
* قضايا شائكة (تحت الطبع) .

La montée du Nationalisme algérien, 2e éd. 1985 .

* * *

الدكتور أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الرابع

دار الغرب الإسلامي

أبحاث وآراء
في
تاريخ الجزائر

الدكتور أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الرابع

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص . ب . 5787-113 بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذا الجزء، وهو الرابع من سلسلة أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، يضم كزملائه، مجموعة من الأبحاث والمقالات حول تاريخ الجزائر. وقد كتبتها في الغالب خلال السنوات القليلة الماضية، نتيجة مساهمات في مجال البحث العلمي بصوره العديدة. وهناك أيضاً مقالات تعبر عن توضيح موقف أو تقييم وضع، ولكنها جميعاً تصب في مجال الرأي حول تاريخ الجزائر.

ويمكنني أن أعتبر هذا الجزء من أغنى الأجزاء مادة. فقد تضمن مواضيع بحثية وشخصية وأخرى مترجمة. ومن النمط الأول بحثنا عن الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية، والمستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة العربية للفرنسيين، ومن النمط الثاني ترجمتنا لبحث الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر، وانتفاضة 8 مايو 1945 . ومن الجائز إلحاق مقالات صدى دعوة خير الدين التونسي في الجزائر، وجمعية العلماء والسياسة، واهتمامات جمعية العلماء بقضايا المغرب العربي بالنمط الأول.

وسيجد القارىء أيضاً في هذا الجزء تعريفاً ببعض أعمال التراث، ومن أبرز ذلك رحلة أبي عصيدة البجائي إلى الحجاز وكتابه المفقود المسمى (رسالة الغريب إلى الحبيب)، وكتاب (رسالة) الكرة الفلكية لابن حمادوش، وكتاب (الحوض). وقد نضيف إلى ذلك موضوع مرض ابن خلدون وأثره على إنتاجه باعتبار أن حادث الاعتداء عليه قد وقع له في الجزائر كما أنه ألف جزءاً هاماً من تاريخه فيها. يضاف إلى ذلك الربط بين الحميرية والبربرية الذي يهم الجزائر كما يهم غيرها، كما هو الحال أيضاً بالنسبة لكتاب (الحوض) الذي هو في الحقيقة كتاب مغربي جغرافيا.

أما المقالات الفكرية في هذا الجزء فنشير إلى (إشكالية الكتابة التاريخية)، الـذي نعتبره مساهمة مخلصة في قضية يطول حولها الجدل، ولكن المقالة التي تضمنت خلاصة مركزة لرأينا في مسيرة الثورة خلال أكثر من ربع قرن هي (تأملات في مسار الثورة). وقد ختمناها بثلاثة آفاق يمكن للثورة أن تخرج من أحدها كريمة عزيزة من النفق الذي وجدت نفسها فيه.

وأخيراً نذكر أن هذا الجزء قد تضمن تقديمين لكتابين من إنتاج الجيل الصاعد أحدهما كتاب عن البايلا رباي علج علي والدولة العثمانية، وقد حكم الضابط علج علي منطقة المغرب العربي باسم السلطان العثماني خلال مرحلة حرجة من القرن السادس عشر، أما الكتاب الثاني الذي قدمناه فهو كتاب المهجّرون الجزائريون في بلاد الشام ودورهم القومي والإسلامي، وهو أيضاً صفحة هامة من صفحات التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب من جهة وبين الجزائر وبلاد الشام بالذات من جهة أخرى.

لقد كنا نأمل أن تكون جهودنا في خدمة تاريخ الجزائر، والتاريخ العربي والإسلامي عموماً، أوسع وأعمق وأغزر. ولكن ضياع حقيبتي المحتوية على وثائقي وبطاقات عملي، ثم مرور الجزائر بأزمات سياسية واقتصادية لها أثرها على الحياة العلمية والفكرية، كل ذلك جعل جهودنا، مهما صمدت وتضاعفت،تقف دون طموحها المنشود.

ومع ذلك نأمل أن نكون في الطريق الصحيح الذي رسمناه لأنفسنا أو رسمه الله لنا منذ وعينا دورنا في الحياة، وهو خدمة الجزائر والإسلام والعربية والمعرفة الإنسانية في أوسع معانيها.

ابن عكنون
الجزائر في 22 يوليو 1992

أبو القاسم سعد الله
عضو مجمع اللغة العربية
في مصر وفي سورية

إشكالية الكتابة التاريخية (*)

دون الدخول في الحديث عن علمية التاريخ وقضية المنهج، فإن الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية التي وصلها والوثائق المتوفرة لديه والمستجدات الحضارية التي تحيط به.

وتخضع عملية الكتابة عندئذ لما عليه الجيل من ثقافة ووثائق وإبداعات حضارية. فإذا كان الجيل المدون للتاريخ مثقفاً جداً فإنتاجه سيكون مرآةً لثقافته وقدرته العقلية، وإذا كان متوسط الثقافة أو حتى قريباً من الأمية فإن إنتاجه الكتابي سيكون مرآةً له أيضاً. وكل جيل يحاول أن يعثر على وثائق جديدة أو يحاول أن يفسر الوثائق المتوفرة تفسيراً جديداً، حسب المعطيات والرؤى التي عليها الجيل الكاتب. وهذا معنى التجدد في الكتابة التاريخية. وعندما توقف المسلمون، والجزائريون بالخصوص، عن استنطاق الشواهد والوثائق، والاستفادة من المعطيات الحضارية الإنسانية، توقفت أو كادت عملية الكتابة التاريخية. وأصبح التاريخ عندهم نوعاً من الأدبيات الخرافية والأساطير.

ويسود الاعتقاد بيننا الآن أن تاريخ الثورة غير مكتوب، ونتساءل لماذا وكيف يكتب. وهو الاعتقاد السائد منذ زمن بعيد. وكان الواجب أن يوسع التساؤل ويذهب إلى أننا لم نكتب تاريخنا كله، بمراحله المختلفة وعلاقاته المتشابكة. ويرجع بعضهم هذا التوقف عن الكتابة التاريخية عندنا إلى عامل السلطة، وآخرون إلى عامل الحساسية المفرطة. وقد كتبنا عن ذلك وَعَزَوْنَاهُ إلى عامل الخوف من التاريخ نفسه. وبذلك يصبح إهمال التاريخ نوعاً من محاولة دفن آثار الجريمة الجماعية.

(*) فيما يلي نص الكلمة التي ألقيت على مسامع الجمهور الكثيف في قاعة المحاضرات الجامعية بالنفق يوم 2-4-1990، بدعوة من معهد الفلسفة. وقد تلتها مناقشات طويلة ومثمرة شملت مختلف أوجه التاريخ والثقافة والفكر في الجزائر. ونحن ننشر الكلمة هنا بحذافيرها حتى يتأمل فيها من لم يفهم مغازيها عند إلقائها. وهي كما سيرى القارىء مبتورة الآخر، إذ أننا تركناها مفتوحة النتائج والاستنتاجات قصداً. أما المناقشات فلا سبيل إلى إيرادها هنا.

وإذا استقرأنا بعض الشواهد نجد أن هناك ظروفاً تساعد على خلق المؤرخ. فالثقافة العالية والمناخ الحر والمحفزات وبطولات الشعب ـ كلها تساعد على خلق المؤرخ الذي يكون صوت الجيل الذي يعيش فيه في تدوين أو تجديد عملية الكتابة التاريخية. ويثبت الاستقراء أن التاريخ الجزائري لم يعرف هذه الظروف التي ذكرنا. فالثقافة تكاد تكون دون المتوسط، والمناخ الحر كان مفقوداً، والمحفزات المادية والمعنوية لم تعرفها أجيال الجزائريين إلا في فترات قصيرة ومبعثرة. أما البطولات الشعبية فقد وجدنا ظاهرة غريبة عندنا وهي محاولة القضاء على البطل أو الرمز. فنحن بإجماعنا لا نكاد نعترف لأي بطل في تاريخنا سواء كان ملكاً جباراً، أو محارباً مغواراً، أو شهيداً أو عالماً. إن تحطيم الأبطال والرموز ظاهرة غريبة تميز بها الإنسان الجزائري عبر تاريخه، ويكاد يكون فريداً بين الشعوب في ذلك.

ونحن نشير إلى الظروف التي تساعد على خلق المؤرخ، ولكننا لا نملك الجواب على هذه الظواهر الغريبة عندنا. فقط نبدي بعض التساؤلات حولها. فهل ترجع إلى فقدان المركزية الوطنية في الحكم عندنا ـ مَلَكِية كانت أو غيرها؟ إننا نعرف أن وجود المركزية الوطنية المستقرة قد ساعد في بعض البلدان على التفاف المثقفين ـ ومنهم المؤرخون ـ حولها، لكونها هي مركز الإشعاع السياسي والحضاري. فكانت العطايا وكان الاعتقاد بوجود الرمز الذي هو نوع من الالتحام الأسطوري بين الشعب والحاكم المركزي ـ ونحن نقول «الأسطوري» أحياناً لأن الالتحام قد يكون لمجرد الإعجاب أو التملق لشخص الملك، مثلاً.

ثم نزيد في التساؤل ونذهب إلى المركزية الثقافية، فنجدها تكاد تكون غائبة في بلادنا. فالتشرذم الثقافي كان ظاهرة أخرى غريبة عندنا عبر العصور. ولا نريد أن نذهب إلى القديم حيث الفوضى اللغوية ـ أمام انعدام المركزية السياسية ـ بين فينيقية ولاتينية ويونانية وعاميات بربرية، ولا إلى العصر الإسلامي حيث ظل غياب المركزية السياسية مساعداً على التشرذم الثقافي، فكانت العاميات البربرية والعربية، وحيث لم ترس العربية كلغة للدواوين والتدوين التاريخي إلا في محطات متفرقة (وتسمى دويلات).

فإذا وصلنا إلى العهد العثماني، وهو العهد الذي تميز بجغرافية سياسية محددة ومركزية سياسية واضحة، نلاحظ أن التشرذم الثقافي قد تواصل بحيث لا نجد النظام قد

فرض لغة أو لهجة واحدة ـ كما فعل فرنسوا الأول بفرنسا أو كما فعلت عائلة الرومانوف بروسيا. بل أن المركزية السياسية العثمانية قد أبقت على الفوضى اللغوية أيضاً بعامياتها البربرية والعربية (والعاميات كما هو معروف ليست أدوات لتدوين التاريخ، اللّهم إلا كوثائق وشهادات)، وبتقسيم مناطق النفوذ بين العربية والتركية، بحيث كانت الأولى لغة الدين والتعليم (وقد تحول التعليم نفسه إلى تعليم ديني بفعل التخلف)، وكانت التركية هي لغة الإدارة في معظم الأحيان ـ على الأقل في الجهاز المركزي (العاصمة).

ولا أُريد أن أطيل في وصف العهد الفرنسي وما أصابنا خلاله وبعده من التشرذم الثقافي. ويكفي أن نعرف أن هذا التشرذم أو التمزق ما يزال بيننا ضارباً بقوته وحدتنا الفكرية رغم وجود المركزية السياسية الوطنية، التي لا تختلف كثيراً في نظري عن المركزية السياسية العثمانية بالنسبة لقضية اللغة. فإذا كانت المركزية العثمانية قد فرضت التركية فإن المركزية الوطنية الحالية قد فرضت الفرنسية، وتركت العربية للتعليم الذي قد يتحول إلى تعليم ديني هو أيضاً كما في العهد العثماني. وبذلك تحتكر الفرنسية التعليم الدنيوي والإدارة، سيما في ظل هذه الإصلاحات الغامضة.

وأمام ظواهر الخوف من التاريخ والتشرذم الثقافي وتحطيم الأبطال والرموز، وأمام غياب المركزية الواعية الموجهة وفقدان الحرية الفكرية، وغياب الحوافز، كيف نتصور أن يولد المؤرخ ويمارس نشاطه وتجديده لتاريخ شعبه؟ لقد كتبت مرة ولا أدري أين، أن الأمة العظيمة هي التي تلد المؤرخ العظيم وأن الأمة القزمة هي التي تلد المؤرخ القزم. فلنسأل أنفسنا إذن: هل نحن شعب قزم ومن ثمة فإن ما عندنا من (مؤرخين)، قدماء ومحدثين ما هم إلا مجرد أقزام. وماذا ننتظر من شعب يحطم أبطاله بفأسه، ويمزق كيانه بيده ولسانه (ثقافياً)، ويخشى أن يتحرك في رابعة النهار ويفضل العيش في ظلام الكهوف؟

خذوا مثلاً ثورة التحرير الأخيرة، وانظروا كم كانت عظيمة، وكم كانت تحمل من آمال عريضة، وكم عرفت من شهداء وأبطال، وكم افتكت من احترام وإعجاب العدو والصديق في العالم، وكم كانت قدوة لعدد من حركات التحرير. ومع ذلك فماذا بقي منها الآن؟ لقد قُزِّمَتْ حتى كدنا نبحث عنها بالمجهر. لقد لطخناها بمساحيق غريبة عنها حتى أصبح اسمها الآن عند الجيل الجديد مرتبطاً بالعجز السياسي والاسْتِثْراء الفاحش

لفئة معينة والقفز في الهواء في مشاريع التنمية. كما أننا حَجَّمناها خارجياً بحيث أحطناها بسياج يسمى حسن الجوار، وما هو إلا حسن المحافظة على المكاسب الشخصية والعائلية والفئوية. وقد كَبَّلْنا جِيَادَ الثورة فلم ندعها تنطلق في العالم الرحب من حولها.

هذا حادث عظيم في تاريخنا أصبح مقزماً، فهل المؤرخ الذي سيتناوله سيكون في نظركم مؤرخاً عظيماً؟ لا نظن ذلك. لأننا قلنا أن المؤرخ هو ابن بيئته وظروفه وأسير ثقافته ووثائقه. ومن ثمة فهو مرآة شعبه، انْ تعلّق هذا بالعظائم عظم، وإن تسفّل للصغائر صغر!

وإذا استطعنا أن نحل هذه العقدة فإن مشاكل تاريخنا الأخرى ستجد لها حلًا بدون شك. ونعني بذلك عقدة من نحن: عظماء أو أقزام؟ ورموزنا، أهم أبطال أم مجرد حيوانات بشرية؟ وأحداثنا، هل هي عملاقة أو مجرد صدى لأقدام الآخرين؟ وضميرنا، هَلْ هو تاريخي بحيث يدرك أن ما نفعله ونقوله محفوظ ويجب أن يدون ثم يبعث أو هو ضمير آني لا يحس إلا بما يحس به ضمير المرتزق حين يتقاضى أجراً على فعل أدَّاه ولو كان جريمة ارتكبها.

وأحب أن أقول أنه لا يجب أن تكون عندنا عقدة من كون تاريخنا غير مجدد، ولا أقول غير مكتوب. فمعظم الشعوب تحاول استعادة كتابة تاريخها بناءً على المعطيات الحضارية والظرفية والاستراتيجية. وإعادة كتابة التاريخ تعطي الفرصة لتوظيف عناصر كانت غائبة في مرحلة سابقة عن المؤرخ، أو كانت محرمة أو ضد مصلحة الوطن. خذ مثلًا نظرية (ماهان) البحرية عند الأمريكان، فقد كانت مجرد نظرية طرحها أحدهم في آخر القرن الماضي عن دور الأساطيل والبحار في عظمة الأمم. وحين أصبحت أمريكا دولة عظمى جيء بذلك الكتاب وأخذت النظرية تتطور ويضاف إليها ما يتناسب مع عظمة الأمة. وها هم الفرنسيون يعيدون النظر فيما كتبه مؤرخوهم عن المستعمرات. وفي العراق وسورية هيئات لإعادة كتابة التاريخ العربي، وفي مصر هيئة تقوم بنفس الدور بالنسبة لتاريخ مصر. ولو رجعتم الآن إلى الكتب المؤلفة عن إفريقية خلال القرن الماضي فإنكم ستجدونها قد دخلت المتاحف لأنها كتب لم تعد تتلاءم مع تطور القارة الأفريقية ولا ما اكتشف من حضارتها وما نشأ فيها من دول ونظم. . .

الجزائر في 1990/4/2

تأملات في مسار الثورة (*)

لا أكتمكم أنني أحجمت عن الكتابة في مواضيع الساعة منذ شهور لفقدان الشهية من جهة ولأن بلادنا تمر بمخاض من الصعب التكهن بنتائجه من جهة أخرى. إن للكتابة شهية تفتحها الآمال العريضة، والمواقف الواضحة، والتفاؤل اللا محدود. ولكن عندما تنحصر الآمال في لقمة العيش، وتتعتم المواقف فلا نرى منها إلا قدر خطوة، ويحل التشاؤم محل التفاؤل، فإن شهية الكتابة تنسد، والمزاج يعتكر، والقلم يحتبس.

وعن أي شيء نكتب؟ عن الماضي البعيد الذي توقف عند سنة 1954 وما فيه من مقاومة شعبية، وطموح شرعي، وحتى مآس وجرائم في حق الإنسانية؟ عن ماضي الأفكار والقيادات والأشخاص؟ عن التاريخ الذي قيل أنه مزور لنكتشف الفاعل ونعلن عن شهادة الحق؟ عن الماضي القريب الذي يبدأ من 1954، وما عرفه من انطلاقة وكبت، ومن بطولات وتراجيديات، لكي نصل إلى سنة 1988 التي يقال أنها بداية لعهد جديد يمثل صراع الجزائريين فيما بينهم بدل عهد 1954 الذي يمثل صراعهم مع أعدائهم المستعمرين؟

إن ملتقاكم يوحي بأنه محصور بالمرحلة الأولى من الثورة، أو ما قبلها بقليل. ولكن الثورة في عرف المؤرخين لا تعرف الحدود، مثلما السيل لا يعترف بالسدود. وقد فكرت في تحجيم الثورة والحديث عن كل حجم منها على حدة، فوجدت أن ذلك ممكن إذا كنا سنتناول الجانب العسكري منها مثلاً، أما إذا كنا سنتناولها فكرياً، فالاستحالة كانت هي النتيجة. أن فكر مفجري الثورة سنة 1954 ممتد في التاريخ عبر

(*) ألقيت في الملتقى الثاني للثورة الجزائرية، باتنة، من 11 ـ 14 نوفمبر 1990، أما خاتمتها فقد لخصتها شفوياً، ثم صغتها في الجزائر بعد رجوعي، أي يوم 27 نوفمبر.

أجيال عديدة، كما أن فكر قادة البلاد اليوم ضارب في أعماق مواثيق الصومام وطرابلس والجزائر، إيجاباً وسلباً.

وقد حاولت أن أتتبع المراحل المنطقية الثلاث للثورة، فنظرت في إرهاصاتها وانطلاقتها، ونظرت في تفاعلاتها وممارستها، ثم امتدادها المستقبلي إلى أيامنا هذه. وبتعبير أكثر وضوحاً، ربما، تأملت في الثورة عشية نوفمبر، ومنذ نوفمبر إلى 1962، ثم منذ هذا التاريخ إلى اليوم. ثلاث مراحل منطقية في نظري، ولكنها متميزة ومتشابكة، فالرجال الذين نسميهم «تاريخيين» ما يزالون بيننا، ولكن فكرهم لم يبق «تاريخياً» لأنهم لم يضعوه في المتاحف أو يحنّطوه، بل هو فكر ممتد معهم عبر الحاضر أيضاً. ولا يمكن للثورة أن تعيش بلا تناقض فكري، داخلي وخارجي. وبمعنى أدق فإن فكر القادة التاريخيين يناقضه، منذ اندلاع الثورة، فكر المناقضين لهم أو المتناقضين معهم، وهذا التناقض الملازم لمسيرة الثورة هو الذي نراه يحدث الشرارات بين الفينة والأخرى، ومنها شرارة أكتوبر 1988. ولو كان الفكر الثوري قوياً ومحصناً لاستطاع، ربما، أن يقهر كل الشرارات المتناقضة التي كانت تنازعه منذ 1954.

سألت نفسي سؤالاً محرجاً وقاسياً إلى درجة الجرح، وهو: هل فشلت الثورة في تحقيق مهمتها؟ ثم قلت لنفسي، ولكن ما مهمة الثورة؟ إخراج العدو؟ لقد تحقق ذلك، أو استعادة الاستقلال ورموز السيادة المغتصبة؟ أن كل ذلك قد أصبح متوفراً. ثم قلت لنفسي: وهل تلك هي مهمة الثورة؟ لو رجعنا إلى بيان أول نوفمبر، ولو سألنا روح ابن بولعيد وابن المهيدي وزبانة وعميروش وأضرابهم لأجابوا بأنهم كانوا يحلمون بأكثر من إخراج العدو واستعادة الاستقلال. لعلّهم كانوا يحلمون بجزائر غير التي قرأوا عنها في العهد العثماني أو التي عاشوها في العهد الاستعماري، جزائر العلم والقوة والإشعاع، جزائر لا تعرف الليل أبداً، تلك هي، ربما، مهمة الثورة. عند أولئك الرموز، فإذا كانت كذلك فإن حلمهم لم يتحقق حتى الآن.

* * *

خلال الستينات صدر كتاب ألفه أحد الأجانب عنوانه (الثورة التي فشلت). وهو يقصد الثورة الجزائرية. وأشهد أنني عندما قرأته اتهمت الكاتب بالعداء لنا، وبالقصور في التحليل لواقع متغير دائماً، ثم مرت الأيام والسنون، فإذا بالجزائريين أنفسهم شاهدون،

بعد قرابة الثلاثة عقود، على فشل ثورتهم في مهمتها. و «الفشل» كلمة قوية بل جارحة، ولكن لا بدّ من مواجهة الصدمة. وأشهد أنني كتبت منذ أكثر من عقد ملاحظاً أن ثورتنا قد جردت من قيمها، وأصبحت شعارات جوفاء تعلن في المناسبات. ولكن ذلك لم يمنعني من التفكير في أسباب الفشل.

دعني أُفاجئكم بالقول بأننا لم نجرب الحكم قبل 1962. لم تكن لنا تقاليد في السلطة وتسيير شؤون الدولة، كما هو الحال مثلاً عند بعض جيراننا. ولم تكن لنا عائلة حاكمة توارثت الحكم على أساس التمذهب الديني أو التغلب السياسي. حتى الاستقلال الذي كان قبل 1830، كان في الحقيقة لدولة عثمانية تحت قيادة الباشوات. ونحن لا نريد أن نعود مثلاً إلى حكم الداي حسين ولا إلى نوعية استقلاله. فقد كان حكماً عسكرياً مستبدًا وغريباً. وكنا تحته نسمى رعايا، وكنا مضطهدين ومهمشين اقتصادياً وسياسياً على الأقل، بينما ثروات بلادنا كانت في أيدي عائلة بكري وبوشناق اليهودية، وهي العائلة التي كانت تمثل صلة الوصل بين الجزائر وأروبا، كما يقال اليوم على بعض اليهود الذين تتعامل معهم دولتنا. ومن منكم يريد أن يصبح رعية للداي حسين من جديد وتحت رحمة عائلة بكري وبوشناق ثانية؟ وهل أنا في حاجة إلى التذكير بأن السبب الأساسي للاحتلال الفرنسي يرجع إلى ديون عائلة بكري وبوشناق؟

وإذا كان للاحتلال الفرنسي من فضل علينا فهو إيقاظه لنا كي نخرج من عهد القبيلة إلى عهد الوطنية، ومن عهد الإقطاع إلى عهد الشعب. ولم تكن عملية التحول هذه سهلة أو قصيرة المدى. أنها كانت صعبة جداً وطويلة المدى. أنها عملية بدأها الأمير عبد القادر وختمها مفجرو ثورة نوفمبر. لقد انتقلنا خلالها من حالة الرعية والاستبداد والغربة تحت حكم إسلامي في ظاهره، إلى حالة الرعية والاستعباد تحت حكم صليبي في جوهره. وما أقساه من تحول! لقد مست خلال عملية التحول هذه ثوابتنا، وتحطم الكثير من رموزنا، وطمست معالم حضارتنا وقيمنا. وانطفأت عشرات الأرواح من قادتنا، وتشرذمت عشائر وقبائل، وتمزقت عائلات وجماعات، بل كاد الزمن يعفّي على اسم الجزائر كما عفى على اسم الأندلس.

ونحن نقول هذا لنعترف ونعرف. لنعترف بفضل الذين حضّروا نوفمبر بالمعنى الواسع للتحضير، لأن نموفمبر ليس هو البندقية فقط، ولكنه قبل كل شيء البعث

الحضاري والوعي الفكري. ذلك أن انتفاضات الجزائريين خلال القرن الماضي كانت تقوم على البندقية وحدها، فلم تفلح. أما نوفمبر فقد سبقه بعث حضاري ووعي فكري، ومن ثمة نجحت البندقية. وثورة نوفمبر تتماشى في هذا المقام مع تقاليد الجزائر في الثورات. فنحن نفتخر في المحافل بأننا شعب ثائر وقوي، قضينا حياتنا منذ أقدم العصور في المقاومة والحروب، ولا نفتخر في المحافل بأننا شعب قد اخترع وأبدع، وأخرج الرياضيين والشعراء والموسيقيين والمفكرين أيضاً. إننا إذن نعترف بفضل الذين حضروا نوفمبر رغم التشرذم السياسي الذي كانت عليه البلاد، ورغم هيمنة الاستعمار التي أوحت إلى كل الناس تقريباً بأن الجزائر «فرنسية» إلى الأبد.

* * *

غير أن الثورة وقد انفجرت أصبحت أكبر من قدرة القادرين على التحكم فيها، وهنا يجب أن نعرف أن العديد ممن انضموا إليها إنما جرفهم سيلها، ولم يكن ذلك منهم عن عقيدة واقتناع. وقد ظلوا طيلة السبع سنوات والنصف راكبين موجة أعتى من قدرتهم على التحمل. كانت الثورة شعبية، مدفوعة بعبارة «الله أكبر» وكلمة «الجهاد»، وحتى الذين فجروها كانوا مجهولين عند عامة الناس. ومنذ البداية حيّدت الثورة الزعامات المعروفة مثل مصالي والإبراهيمي وغيرهما من الأسماء المعروفة. لقد ولدت الثورة عندنا دون أن يكون لها روبيسبيير أو لينين أو ماوتسي تونغ، ولا حتى بورقيبة. بل لم يكن للثورة عندنا فلسفة فيلسوف ولا صحيفة ميثاق، عدا القرآن الكريم وما اشتق منه من عناصر الحضارة. ولم تكن وثيقة الصومام نفسها سوى عمل تنظيمي أكثر منها عملاً فكرياً لميلاد إنسان جديد.

في أيام مشابهة التفّ الفيتناميون حول هوشي منه ، والتونسيون حول بورقيبة، والمراكشيون حول محمد الخامس، والمصريون حول ناصر، وهلم جرا. بينما أسقط الجزائريون مصالي الحاج من حسابهم، وعاقبوا عبان رمضان على محاولته، فيما يرى البعض، تزعم الثورة، وقبلوا فرحات عباس في صفوفهم لأنه ضعيف بماضيه. وقد رفعوا شعار «الجماعية» تمرداً على كل الزعامات الفردية، وخوفاً في زعمهم، على انحراف الثورة عن مسارها إذا ألقت بزمامها إلى شخص بعينه. فهل ذلك راجع إلى انعدام تقاليد الحكم عندنا، والحكم ظاهرة حضارية؟ أو هو راجع إلى كون الجزائريين لا يطيعون «مرؤوسيهم» وهي ظاهرة قديمة عندنا لاحظها الكتّاب والرحالة فيما مضى؟ أو هو عائد

إلى الديموقراطية المفرطة عند الجزائريين التي تعني التمرد على السلطة ورفض أشكال الزعامة سواء كانت أبوية أو سياسية أو دينية؟

إن مسيرة الثورة بدون زعامة قد يفسر لنا الشعار الذي رفع سنة 1962 وهو: «الشعب هو البطل الوحيد» و«يسقط الاعتقاد في الزعامة الفردية». وأن الذين عاشوا في الجزائر غداة الاستقلال يدركون أن ذلك الشعار قد رفع في وجه زعامة فردية جديدة كانت تحاول أن تفتك زمام السلطة وتملأ الفراغ السياسي الذي أحدثه تنازع الحكومة المؤقتة مع قيادة الأركان، وتنازع الولايات. ونعني بالزعامة الجديدة ظهور ابن بلة على رأس المكتب السياسي. فقد لملم الأطراف التي كانت تبدو متناقضة، وجعل منها منظومة متقاربة تحت مظلته واستطاع أن يؤلف من هذا اللفيف حكومة ودستوراً ومجلساً وجيشاً، أي استطاع أن يقيم هيكل دولة جديدة لم يكن نموذجها بالطبع لا دولة الداي حسين ولا دولة الأمير عبد القادر. فهل اختلس ابن بلة عندئذ الثورة، كما اختلس نابليون الثورة الفرنسية وستالين الثورة الروسية؟

إن البعض قد فهم ذلك، فقاوموا ابن بلة بالشعارات التي ذكرناها، وحتى بالتمردات العسكرية (آيت أحمد، شعباني) وبالتدخل الخارجي (المغرب). كما قاومه افتقار الجزائر إلى تقاليد الدولة ورفض الناس فكرة المخزن (أو البايلك). وإذا كان هذا كله من السلبيات في ذلك الوقت، فإن الإيجابي في الموضوع هو الحماس الشعبي المنقطع النظير بعد الانتصار على العدو واستعداد الناس للمزيد من التضحية والبذل، وسمعة الثورة على المستوى العالمي. وفي نظرنا فإن انقلاب 1965 كان رجوعاً إلى ما قبل 1962، أي كان في ظاهره على الأقل رفضاً للزعامة الفردية ورجوعاً إلى «الجماعية» التي تبنتها الثورة.

ويمكن القول أيضاً أن المرحلة من 62 إلى 65 كانت تمثل المرحلة الرومانتيكية للثورة. إنها تميزت بالعاطفية والخطابية والحماس الشديد، والتطلعات، أي امتداد الحلم القديم إلى المستقبل. أما مرحلة 65 - 78 فيمكن وصفها بالواقعية، ولا يعود ذلك إلى الاختلاف فقط في مزاج الأشخاص (ابن بلة ـ بومدين) بقدر ما يعود إلى أسلوب العمل والحكم الذي تبناه كل منهما. وقد اتسم عهد بومدين أيضاً بالغموض، الغموض الذاتي وفي طريقة صدور القرار. والغموض ظاهرة أساسية في القيادة الشخصية، حسب تعبير ديغول. وهو ميزة كما أنه عيب، ميزة لأن النظام لا يكشف عن كل أوراقه، محافظة

على ما يمكن تسميته «بهيبة السلطة»، وهو عيب لأنه منافٍ لمبدأ الديموقراطية إذ لا بدّ من معرفة مصدر القرار وطريقة اتخاذه. ورغم أن بومدين رفع شعار «الجماعية»، فإنه تخلى عنها إلى الفردية أيضاً. وشيئاً فشيئاً تحول نظامه إلى نظام «الرجل القوي» الشائع في العالم الثالث، وهو تعبير لطيف لكلمة الدكتاتور.

ورغم أن الواقعية قد ميزت أيضاً سمعة الثورة على المستوى الداخلي والخارجي، فإن الرصيد الثوري بالإضافة إلى الموارد النفطية قد أتاحت للجزائر في عهد بومدين أن تلعب ورقة الدولة الأكثر نمواً في العالم الثالث، أو الدولة المستعجلة في الخروج من التخلف. ولتأمين الاستقرار الداخلي رفعت الجزائر عندئذ شعار حسن الجوار وعدم التدخل في شؤون الغير. وهو شعار لم يكن ناجحاً في كل الحالات، لأن قضية الصحراء قد أحدثت شرخاً واسعاً في النظام الذي أحاط به بومدين نفسه. كما أن قضية الأرض (أو الثورة الزراعية)، وتكريس الدكتاتورية قد أحدثتا شرخاً آخر في النظام.

وقد ورث العهد الثالث للاستقلال بعض خصائص العهد الذي سبقه، ولكنه أخذ يتخلص منها تدريجياً بعنوان المراجعة، التي عنت عند البعض التراجع: عن الميثاق، عن الثورة الزراعية، عن الأملاك العقارية، عن دور الحزب والمؤسسات. ومع هذا التراجع جاء انحسار دور الجزائر الخارجي. وقد زاد نضوب المداخيل النفطية من حدة هذا الانحسار، وكانت زيارة الرئيس الشاذلي لفرنسا وأمريكا فاتحة عهد للانفتاح والتوجه الليبرالي، فكان ميلاد رياض الفتح رمزاً لهذا التوجه الجديد. وقد فهم أصحاب الأقدام السوداء أنهم أول المعنيين بسياسة الانفتاح فأخذوا يتسللون إلى الجزائر بحثاً عن ديارهم التي أخرجوا منها، كما فتح الاشتراكيون الفرنسيون جسور الصداقة مع النظام في الجزائر. ونشط «حزب فرنسا» على أكثر من صعيد، وظهر التوتر المكبوت بين أصحاب الشرعية الثورية وبين الواصلين الجدد الذين اعتقدوا أن صفحة الماضي قد طويت، ومن يدري فلعل ذلك التوتر المكبوت هو الذي فجرته أحداث أكتوبر، أو كان هو المفجر لها!

إن العهد الثالث من عهود الاستقلال لم يكن كله على وتيرة واحدة، بل خضع على الأقل إلى ثلاث مراحل، الأولى إلى 1985، والثانية إلى 1988، والثالثة هي التي نحياها، ولا ندري مداها. وهي التي فتحت عند البعض عهد الديموقراطية السياسية والاقتصادية من تعددية في الأحزاب، ومن حريات مدنية، ومن ليبرالية اقتصادية، وكل

ذلك تحت شعار الإصلاحات. ولكنها عند البعض هي مرحلة الفوضى اللامتناهية لأنها أدت إلى قلب موازين الأمور، فشككت في ثوابت الأمة، وجرّأت أعداء الثورة على نبش قبور الشهداء، والترحيب بالأقدام السوداء، ومن يدري ماذا بعد؟!

أما على المستوى الخارجي فالمرحلة الأخيرة ورثت أيضاً شعار حسن الجوار وهو شعار رأينا الجزائر معه وقد تخلت عن ميزات شخصيتها لكي تكون مقبولة في الدوائر المغاربية، والسوق الأروبية المشتركة، وبالأخص لدى البنوك الدولية. ولعلّ موقفنا من أزمة الخليج اليوم تتحكم فيه الضغوط المالية أكثر مما تتحكم فيه مبادىء ثورتنا ومصير أمتنا. إن الجزائر أصبحت عضوة في النادي المالي الأروبي بحكم عضويتها في النادي المالي المغاربي. وبعد بضعة أشهر ستدخل اقتصاد السوق، وتتزاحم المؤسسات الأجنبية على أبواب بلادنا، وسيؤدي ذلك إلى تغيير جذري في البنية الاقتصادية للوطن والحياة اليومية للمواطن، كما سيؤدي ذلك إلى المساس بالمنظومة التربوية، وبالثوابت، لكي تتلاءم مع الوضع الجديد.

* * *

وبعد، فهل نحن على أعتاب عصر جديد فيه نتقدم نحو الرخاء ونزداد توحداً وارتباطاً بهويتنا؟ أو نحن على شفا الهاوية؟ لقد سألت نفسي ذلك ولم أنته إلى جواب. ولكني رجعت إلى ماضينا فوجدت أنه كلما تحاملت علينا عوامل اليأس والقنوط جاءتنا تباشير الأمل والرجاء. وفي تاريخنا شواهد عديدة على ذلك.

فعندما تحالفت عوامل الشر على المقاومة بقيادة الأمير عبد القادر، وانهزم أمامها دخلت الجزائر في عهد من الظلم والظلام. ولكن صوت المداح كان يملأ الأسواق والمداشر والأحياء، واعداً بالفارس القادم وفي يده سيف ملتهب يقطع به أوداج الظلم وأوصال الظلام.

وعندما أشاعوا أن الجزائريين أخذ منهم العياء والتعب من حروب العدو، وأنهم ركنوا إلى الراحة والهدوء، ظهرت أصوات تدعو إلى اليقظة والتعلم والوحدة وتغيير أسلوب النضال ضد العدو. وتطالب حتى بتقرير المصير والاستقلال، فكان الأمير خالد وابن باديس ومصالي. وعادت الجزائر تصارع من جديد لتثبت أنها لم تخلد إلى الراحة ولم تستسلم.

وعندما اتخذ المستعمرون من 8 مايو 45 وسيلة لردع الجزائريين حتى لا يفكروا في

الحرية والانعتاق، ظهرت المنظمة الخاصة ثم اللجنة الثورية للوحدة والعمل ثم جبهة وجيش التحرير الوطني، وخرج العملاق من القمقم ليشهد العالم أنه قادر على افتكاك حقه ولو من بين أقوى قوة مفترسة عندئذ وهي فرنسا المحمية بالحلف الأطلسي.

وعندما شاع التعفن والفساد والظلم قبل أكتوبر 88 وخرجت الأمور عن المعقول وعن القانون، حدثت الأحداث التي تجاوزت توقعات المتوقعين، وحتى وصلت حدود اللامعقول، وكانت إنذاراً للمدمنين على غيهم وطغيانهم، وإرهاصاً بعهد جديد ما زلنا لم نستشف آفاقه.

فمن فرسان العهد الجديد الذين سيحملون راية الجزائر خفاقة إلى القرن الواحد والعشرين؟ هل هم أبناء الشهداء وأبناء المجاهدين، خميرة جبهة التحرير الأصيلة قبل أن تعفنها شهوات السلطة ويتسلط عليها المندسون الحاقدون و «الثوريون» المزيفون؟ أو هل هم هذا الشباب الإسلامي الذي يملأ المساجد والجمعيات والمدارس والجامعات، هذا السيل الجارف الذي ذَرَّ قرنُه مضيئاً كالشمس متشبعاً بأصالة الجزائر وانتمائها، مؤمناً بأن مستقبلها في الإسلام وبالإسلام؟ أو هل هم هؤلاء الأطفال الذين تفيض أعينهم نوراً وتشتعل جباههم طموحاً، وهم يغدون ويروحون على المدرسة الأساسية أو يملأون ساحاتنا العمومية بأصواتهم العذبة وحركاتهم البريئة؟

لا أُريد أن أكون متنبياً، ولا حتى بشيراً أو نذيراً. كل ما أنا مقتنع به هو أن على الجيل الذي احتكر السلطة منذ الاستقلال أن يرحل. فإذا كان فارساً فقد آن له أن يترجل، وإذا كان مندساً فقد حان له أن يقدم الحساب. وكل ما أنا مقتنع به أيضاً هو أن هناك جيلاً آخر من الشباب المتعلم والواعي لا تربطه أية روابط بصراعات حزبية قديمة ولا منازعات شخصية من رواسب عهد الثورة، شباب يريد أن يزف للجزائر في عرس وطني عظيم، فيداويها من الغضون والتجاعيد التي لحقت بها قبل الأوَان من إهانات وإذلال جيل احتكار السلطة، وليعيد لها بكارتها ونضارتها وحيويتها.

فعلى الجزائر أن تغتسل من همومها، وأن تنزع مساحيق الذل والإهانة عن وجهها. فالفارس الشاب آت، حاملاً مهر المستقبل على هامة جواده.

الجزائر 10 نوفمبر 1990

(*) نشرت في جريدة الشعب على حلقتين: 31 مارس، وأول إبريل 1991.

من أجل أحفادنا

لقد اطلعت باهتمام على جهودكم من أجل إعادة الاعتبار للإنسان الجزائري، الذي عانى من إرهاق وعنصرية الاستعمار الفرنسي عبر قرن وربع. وأني كمواطن وكأستاذ في التاريخ أبارك جهودكم وأتمنى لها النجاح.

وبهذه المناسبة أود أن أشير إلى أن تاريخ الجزائر خلال العهد الاستعماري مليء بالشواهد على معاناة شعبنا من الجرائم التي ارتكبت في حقه. ومن الممكن ذكر بعضها فيما يلي:

1 ـ الإبادة الجماعية. وقد وقعت في العديد من المناسبات نذكر منها (أ) مجزرة غار الظهرة 1845، حيث اختنق أثناءها بالدخان أكثر من ألف شخص في ذلك الغار على يدي الجنرال بيليسيى، عن عمد وسبق إصرار. (ب) مجزرة الزعاطشة 1849، التي احترقت بمن فيها من السكان عن طريق نسف المنازل، على يدى الجنرال (هيربيون). (ج) إحراق القرى والمداشر بمن فيها في بلاد القبائل سنة 1857، سيما في ناحية الأربعاء ناث إيراثن، وكذلك تخريب البيض سيدي الشيخ على سكانه خلال ثورة 1864. (د) إبادة جماعات كاملة من سكان سطيف وخراطة وقالمة سنة 1945.

2 ـ النفي الجماعي. تشهد السجلات على إجبار الجزائريين (رجالاً ونساءً) على مغادرة وطنهم والعيش في جزر نائية مثل سان مارغريت، وكالدونيا الجديدة، وكيان وغيرها. وقد نفي آخرون، فطلبوا العيش في بلاد عربية وإسلامية مثل الإسكندرية والحجاز وبلاد الشام. وهناك من غيبته المنافي، فلم يسمح له بالرجوع إلى وطنه أبداً. وهناك أطفال أخذوا كرهائن لإجبار آبائهم على الاستسلام مثل أولاد ابن رويلة، وابن علال إلخ.. بعد حادثة الزمالة الشهيرة (1843).

3 ـ مصادرة الأراضي والمنازل والممتلكات. وذلك بالنسبة لمن دافع عن وطنه أو عائلته

أو دينه. وهذه نقطة يمكن التوسع فيها، وعليها شواهد كثيرة، إذ أعطيت الأراضي والممتلكات المصادرة إلى الأوروبيين المجلوبين بطريق الإغراء للعيش في الجزائر.

4 - الحكم بالإعدام أو بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة والغرامة الثقيلة. على من دافع عن وطنه أو دينه أو عرضه. ولا سبيل إلى حصر حالات كهذه الآن، لكن يمكن ذكر مصير الشيخ بو زيان وابنه وأبي موسى الدرقاوي في الزعاطشة، ولاله فاطمة في بلاد القبائل، والشريف بوشوشه، وشريف ورقلة، والحاج الصادق في الأوراس.

5 - الاعتداء على حرمات الموتى. فقد ثبت أن مقابر المسلمين قد جرفتها الآلات وسويت بالأرض وأقيمت عليها طرق ومبانٍ، مثل ما حدث في السنوات الأولى للاحتلال للمقبرة التي كانت في باب الواد. كما وقع نبش القبور والتجارة بعظام الموتى مع عملاء بمرسيليا لصناعة بعض المساحيق وأنواع من السكر.

6 - إن ذاكرة الشعب ما تزال واعية لما حدث أثناء الثورة التحريرية من تعذيب وتقتيل وخطف وحشد وتخريب للمنازل واعتداء على الحرمات. ويكفي الرجوع إلى الوثائق والشهادات الوطنية وإلى ما كتبه بعض الفرنسيين والأجانب لكي يعرف شعبنا حقوقه التي لا يمكن التفريط فيها.

7 - إن عسكريين من أمثال كلوزيل وبوجو وبيليسيى ويوسف وسان طارنو وكاروبيير (الذي أحرق نارة)، وهيربيون، ثم دي غيدون وبيجار وماسو وسلان إلخ. ، وكذلك فرقة اللفيف الأجنبي، ومنظمة الجيش السري وغيرهما - جدير بالجزائريين أن لا يتسامحوا معهم وأن لا ينسوا أفعالهم أبداً، وأن يلتمسوا كل الطرق للحصول منهم على حقوقهم المعنوية والمادية.

* * *

هذا عن الجرائم في حق الأفراد والجماعات، أما الجرائم في حق الدولة فتتمثل في الاعتداء على السيادة والاستيلاء على خزائنها وانتهاب ما فيها من أموال ومجوهرات، وعلى أملاك الجيش، من ثكنات وقلاع وأسلحة وسفن حربية وتجارية وذخائر وثروات.

وهناك جرائم ضد مقدساتنا ومقوماتنا وأخلاقنا مثل:

أ - هدم المساجد والمؤسسات الدينية وتحويلها إلى أغراض دينية غير إسلامية أو إلى مصالح عسكرية وتجارية.

ب ـ الاستيلاء على الأوقاف (الأحباس) الإسلامية الكثيرة، التي كانت مصدراً لنشر العلم وإعالة الفقراء وتوفير التكافل الاجتماعي.

ج ـ فرض سياسة التجهيل المقصود التي دامت عشرات السنين.

د ـ المعاملة غير الإنسانية بتسليط (قانون الأهالي) الاستثنائي.

هـ ـ إجبار الشباب على التجنيد في حروب دولية لا تخدم وطنهم في شيء.

و ـ نشر إرهاب «ثقافي»، يعتمد على نظرية التفوق العنصري والإساءة إلى كل ما هو عربي من لغة وتراث وتاريخ وجنس، وإشاعة كلمات وتعابير بذيئة لوصف شعبنا مثل (البيكو) و (الراطون) و (الموكيرة).

ز ـ الاعتماد على سياسة «فرق تسد» في الهيمنة والتسلط على السكان.

ح ـ نهب الوثائق (الأرشيف) والمخطوطات الوطنية.

إن الشعب الذي يتسامح في حقه شعب بليد، فاقد للحس التاريخي، وحاشا شعبنا أن يكون كذلك. وإني على يقين أنه حتى ولو تسامح جيلنا نحن الآن، فسيأتي جيل آخر، يطالب بهذا الحق كما يحاسبنا نحن الذين تسامحنا في حقه، في وقت يعد فيه التسامح بلادة وإهداراً للوعي التاريخي، بل قد يكون خيانة.

فمن أجل الأبرياء الذين اختنقت أصواتهم في السجون والمنافي البعيدة، وهم في أحر الشوق إلى ذويهم ووطنهم، ومن أجل المواطنين الذين استشهدوا دفاعاً عن الشرف والأرض والدين، ومن أجل الجزائريين الذين افتقروا بعد غنى وذلوا بعد عز نتيجة مشاركتهم في تحرير بلادهم خلال العهد الاستعماري، أضم صوتي إلى صوتكم وأضع يدي في يدكم وفي يد كل من يعمل على نشر الوعي بالحقوق المنسية بين المواطنين، حتى لا تحاسبنا الأجيال القادمة على أننا كنا جيلاً بليداً أو غبياً، أو فاقداً للذاكرة التاريخية. «وما ضاع حق وراءه طالب».

الجزائر في 13 - 6 - 1990

(*) جريدة «المساء» تاريخ 18 يونيو، 1990. وقد أهدينا هذا الموضوع إلى الأستاذ بشير بومعزة بمناسبة تأسيسه لجمعية 8 مايو 1945 لتحاسب العدو عن جرائمه وتطالبه بحقوق الجزائريين.

المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللّغة العَربية للأورُوبيين (*)

عندما يذكر الاستعمار الفرنسي للجزائر يتبادر إلى الأذهان موقفه من اللغة العربية. والمشهور عنه أنه حارب هذه اللغة بمختلف الوسائل حتى عجم لسان أهل الجزائر أو كاد وفرض عليهم لغته الفرنسية. وبحثنا هذا ليس تأكيداً أو نفياً لهذا الموقف، وإنما هو يتناول جانباً آخر، وهو توظيف الفرنسيين للغة العربية لمصالحهم الاستعمارية في الجزائر ومدى نجاحهم أو فشلهم في ذلك، والطرق التي استعملوها للوصول إلى ذلك الهدف، والأشخاص الذين جندوهم لتحقيقه، والمراحل التي مرت بها التجربة التي قد تكون فريدة من نوعها.

وهناك تطورات ارتبطت بهذه التجربة نذكرها اختصاراً قبل الدخول في الموضوع، وهي:

أولاً : أن الحملة الفرنسية على الجزائر قد وقعت بعد ثلاثين سنة من الحملة الفرنسية على مصر، وهي الحملة التي تركت بصماتها على الشرق وجعلت الاستشراق الفرنسي ينشط في تحقيق ما عجز عليه الجيش. وسنرى أن الفرنسيين استفادوا في الجزائر من تجربتهم في مصر من عدة نواح، وخصوصاً فيما يتعلق باللغة العربية.

ثانياً : أن بقايا المترجمين في حملة نابليون الفاشلة على مصر هم الذين تولوا

(*) البحث الذي قدمناه لدورة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: سنة 1989. وقد نشر في جريدة (الشعب) على حلقات، أولها 23 مايو، 1991، ولكن خلاصته نشرت في نفس الجريدة 20 مارس 1989. كما نشر في (مجلة مجمع اللغة العربية) بالقاهرة، الجزء 64، مايو 1989، ص 164 - 186.

الترجمة لجيش بورمون [1] في الجزائر. وكان من هؤلاء التراجمة رجال «مشارقة» من مصر وسورية [2]، ورجال «أروبيون» من فرنسيين وغيرهم.

ثالثاً : أن نجاح الحملة الفرنسية وعمليات التوسع في الاحتلال وما رافق ذلك من نشأة الإدارة الفرنسية ومن استيطان آلاف الأروبيين في الجزائر، كل ذلك جعل معرفة الفرنسيين للغة العربية أمراً ضرورياً لكي يسهل عليهم الاتصال بالجزائريين (أو الأهالي كما كانوا يسمونهم). فواضح إذن أننا نتكلم هنا عن معرفة الفرنسيين وليس الجزائريين للغة العربية.

فكيف بدأت وتطورت هذه المعرفة الفرنسية للغة العربية في الجزائر؟ لقد بدأت بتجنيد فرقة من المترجمين لمرافقة الحملة، أطلق عليها «فرقة المترجمين العسكريين» رغم أن منهم القسيس والمدرس والتاجر وهلم جرا. وقد كان بعض هؤلاء من مواليد مصر وسورية وبعضهم من تلاميذ سيلفستر دي ساسي [3] عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس حينئذ. ومن المترجمين الشرقيين نذكر زكار الذي تعاون مع دي ساسي على ترجمة البيان الفرنسي للجزائريين قبيل نزول الحملة، وهو من مواليد دمشق [4]. وأثناء

---

(1) الكونت دي بورمون كان وزيراً للحربية في عهد شارل العاشر، وتولى قيادة الحملة الفرنسية، وقد عزل بعد أقل من شهر من احتلال مدينة الجزائر. لأن انقلاباً حدث في فرنسا أطاح بعرش شارل العاشر وجاء بالملك لويس فيليب يوليو 1830.

(2) يقول شارل فيرو (مترجمو جيش إفريقية)، الجزائر، 1876، أن معظم المترجمين الأوائل في الجيش الفرنسي كانوا من مواليد بلدان عديدة: سورية، مصر، تونس، الجزائر، طنجة، مالطة، إلخ. انظر المقدمة.

(3) دي ساسي de sacy (1758 ـ 1838). لم يزر الجزائر، ولكنه شجع على إنشاء كرسي العربية فيها وهو الكرسي الذي تولاه عدد من تلاميذه، وعلى رأسهم برينييه Bresnier. ويعتبرونه «منشىء علم الاستشراق بأروبا». ومن مؤلفاته قاموس عربي ـ فرنسي. انظر عنه (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، الجزائر، م 3، 1937، ص 1 ـ 5. وكذلك عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين)، بيروت، 1984، ص 226 ـ 232.

(4) جان شارل زكار، ولد بدمشق سنة 1789 ثم أصبح قسيساً في إحدى كنائس مرسيليا، وعند الإعداد لحملة الجزائر سمي مترجماً فيها مع بقائه على وظيفه الديني حتى أنه هو الذي ألقى أول قداس في مدينة الجزائر على أثر الاحتلال وبحضور زعماء الحملة، ثم أصبح ملحقاً بمكاتب الولاة الفرنسيين الذين تداولوا على الجزائر إلى عهد بوجو (1845). وفي هذه السنة وضع (زكّار) تحت تصرف أسقفية الجزائر الناشئة.

وجوده بالجزائر قام زكار بتدريس اللغة العربية للأروبيين مدة ثلاث سنوات. ومنهم جورج غروي السوري الأصل أيضاً والذي وزع البيان المذكور على الجزائريين ثم غامر بحياته وذهب إلى الداي (الباشا) طالباً منه التفاوض والخضوع لمطالب الفرنسيين فقتله. ومنهم أيضاً إبراهام دنينوس الذي كان من مواليد الجزائر [1]. وقد كتب عدة أعمال عن اللغة العربية منها معجم عربي ـ فرنسي، وزع على ضباط الحملة. إضافة إلى جوني فرعون الذي كان من مواليد القاهرة، والذي سيرد ذكره.

وبعد الحملة بدأت عمليات الاحتلال وإقامة المنشآت الإدارية والاستيطان، واحتاج النظام الاستعماري إلى معرفة البلاد وأهلها، وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الضرورية لهذه المعرفة. وكانت العربية في الجزائر تعتمد، مثلها في ذلك مثل العربية في مختلف أقطارها، على الفصحى كلغة ثقافية مكتوبة، وعلى العامية كأداة اتصال بين السكان متعلمين وأميين، بل أن المدن الساحلية، وخصوصاً مدينة الجزائر، كانت تتوفر على لهجة تكاد تكون دولية، وتسمى باللغة الإفرنجية (Langua Franqa = لانقا ـ فرانكا)، وهي عبارة عن مفردات خليط يتداولها التجار والبحارة لقضاء مآربهم في موانيء البحر الأبيض. وتتألف من كلمات عربية وتركية وإيطالية وإسبانية وبروفانسالية إلخ. وليست هذه اللغة الخليط هي الوسيلة التي سيفهم بها الفرنسيون الجزائريين ولا هي اللغة الإدارية أو العلمية التي سيعتمدونها في مصالحهم، فلا بدّ إذن من البحث عن وسيلة أخرى.

يقول أحد المستشرقين الفرنسيين: لقد كان على «السادة الجدد» (يعني الفرنسيين) أن يستعملوا اللغة العربية في الإدارة وفهم السكان. ولا يمكن مطالبة المنهزمين (يعني الجزائريين) بتعلم لغة الغزاة فوراً. بالإضافة إلى أن نشر اللغة العربية بين الضباط والموظفين كان يعتبر وسيلة قوية للتقارب بين الأعراق (Races) التي يبعدها عن بعضها الأصل والدين والعادات. لقد كان كل واحد مقتنعاً بذلك، وكان الرأي العام

---

(1) دنينوس Daninos ولد بالجزائر سنة 1797، وقد تعلم العربية وأصبح مترجماً بها في إحدى المحاكم بفرنسا. وعند توجه الحملة إلى الجزائر (1830) عين المترجم ـ الدليل لها. انظر شارل فيرو (مترجمو جيش إفريقية)، الجزائر 1876، ص 19. انظر عنه أيضاً هنري ماسيه (الدراسات العربية في الجزائر 1830 ـ 1930) منشورات (المجلة الافريقية)، رقم 356 ـ 357، 1933، ص 2.

كله مع هذه الفكرة [1]. فاللغة العربية في الجزائر كانت لغة الحديث منذ قرون، ودراستها بطريقة جادة يمكن أن تقدم للفرنسيين فوائد جمة، وذلك بإقامة علاقات عديدة مع الأهالي والتعرف أكثر على الشعب «الذي دعينا ليس فقط لحكمه ولكن لإدخاله بالتدرج إلى عالم أفكارنا وحضارتنا». وبذلك يتعرف الفرنسيون على حاجة الجزائريين ورغباتهم وآلامهم لكي «نجعلهم يتذوقون تحسيناتنا ويتعودون على اعتبارنا كحماة لمصالحهم وممدنين لبلادهم، وليس كغزاة تساندهم الأسلحة». ويضيف هذا المستشرق الخبير في شؤون الاستعمار: «أن دراسة أدب الجزائريين سيؤدي إلى معرفة عبقريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر، ومعرفة كتبهم في العلوم والتاريخ والفقه والدين، ومن ثمة معرفة أصول أفكارهم وأحكامهم وتقاليدهم»[2]. وقد عبّر أكثر من واحد على حاجة الفرنسيين إلى تعلم العربية للأغراض المذكورة [3]. ولكن ذلك لم يكن محل اتفاق مطلق، كما ادعى البعض، بل أن هناك من الفرنسيين من ذهب إلى أن على الأهالي أن يدرسوا اللغة الفرنسية بصفتهم مغلوبين، وليس على الفرنسيين أن يدرسوا اللغة العربية لأنهم هم الغالبون[4].

وأول من عهد إليه الفرنسيون بتدريس اللغة العربية للأوروبيين في الجزائر هو جوني فرعون الذي كان من مواليد القاهرة [5]، وكان أول أستاذ للغة العربية في الجزائر في

---

(1) نقل ذلك كور A. Cour (ملاحظات على كراسي اللغة العربية في الجزائر)، في المجلة الإفريقية رقم 318، 1924، ص 20، نقلاً عن فورميسترو Fourmestraux في كتابه (التعليم العمومي في الجزائر من 1830 ـ 1880)، باريس، 1880.

(2) كور، ص 31 ـ 32.

(3) انظر مثلاً فيرو، ص 19.

(4) كتب ذلك ماشويل L. Machuel، أستاذ اللغة العربية في ليسيه الجزائر، سنة 1875. انظر كتابه (طريقة لدراسة العربية العامية Méthode pour L'Etude de L'Arabe Parlé)، مقدمة ط. 2. وقد أُعيد طبع الكتاب عدة مرات.

(5) ولد جوني فرعون في القاهرة سنة 1803. وأبوه هو إلياس فرعون السوري الأصل، وقد عمل إلياس مترجماً في الجيش الفرنسي أثناء الحملة على مصر. وبعد خروج الحملة من مصر رافق جوني والده إلى فرنسا، والتحق بمدرسة اللغات الشرقية بباريس وأصبح سنة 1821 أستاذاً للاتينية في كوليج سان بار ثم في سنة 1825 أستاذاً للفرنسية في الكوليج المصري بباريس، ثم بعد سنتين أصبح مشرفاً على التلاميذ المصريين الضباط بمدينة طولون. وعند انطلاق الحملة على الجزائر من طولون انضم جوني إليها. وفي سنة 1831 أصبح مترجماً وكاتباً خاصاً في الإدارة الفرنسية الجديدة =

العهد الفرنسي. وقد ألف عدة كتب لتلاميذه، وكوّن منهم معربين بارزين في صف الجيش الفرنسي مثل: لاموريسير[1]، وبيليسيي دي رينو[2]، ودوماس[3]، إلخ.

أما قصة إسناد دروس اللغة العربية إلى جوني فرعون فنسوقها باختصار. فقد جاء إلى الجزائر متصرف مدني، اسمه جنتي دي بوسي DE Bussy، كان يحمل أفكاراً حضارية يريد غرسها في الجزائر تتلاءم مع سياسة سيده الدوق دو روفيقو (قائد جيش الاحتلال) الذي قال عنها «أن الجزائر لن تكون فرنسية فعلاً إلا إذا أصبحت فيها لغتنا (الفرنسية) هي السيدة وانتشرت فيها الفنون والعلوم التي شرفت بلادنا»، وبناء على هذه التوصية قام دي بوسي بإنشاء مكتبة عامة جعل نواتها من المخطوطات العربية التي جمعت من المساجد وغيرها، ومطبعة عربية ـ فرنسية لطبع المنشورات الرسمية، وجريدة باسم Le Moniteur Algérien بالفرنسية لنشر أخبار الحكومة. ومن ذلك إنشاؤه لدروس فرنسية موجهة لحضر مدينة الجزائر ويهودها، ودروس بالعربية موجهة للأروبيين.

والملاحظ هو أن دي بوسي جعل دروس الحضر واليهود إبتدائية ولم يولها الاهتمام الذي أولاه لدروس العربية الموجهة إلى الأروبيين فلم يشترط هناك في الأستاذ ولا في

= بالجزائر. وفي سنة 1833 عمل كاتباً (سكرتيراً) ومترجماً للجنة الإفريقية التي أرسلتها حكومة باريس إلى الجزائر لتحقق في الأوضاع وتوصي إما بالاحتفاظ بالجزائر وإما بالجلاء عنها. ولازم جوني اللجنة ثلاثة أشهر مما جعله يتوقف عن دروسه. ويقول عنه فيرو أنه قد أدى خدمات عديدة ومتنوعة لفرنسا. وقد ظل يؤدي هذه الخدمات إلى وفاته بفرنسا في (Saumur) سنة 1846. انظر عنه فيرو، ص 229 - 232، وكور، ص 21، وماسيه، ص 3 - 4.

(1) لامور سيير، كان من أتباع حركة سان سيمون، وتزوج من جزائرية، وتولى الشؤون العربية فترة في الإدارة الاستعمارية، وإليه سلم الأمير عبد القادر سيفه وجواده عند هزيمته سنة 1847. وقد ترقى في الجيش حتى وصل إلى رتبة جنرال.

(2) اشتهر بكتابه (الحوليات الجزائرية) في جزئين. وبعد أن تولى عدة وظائف في الجزائر، عين قنصلاً لبلاده في طرابلس وفي هايتي وغيرهما وتوفي سنة 1858. انظر عنه المجلة الإفريقية رقم 11 (1858)، ص 419 ـ 426.

(3) يوجين دوماس، تولى قنصلية فرنسا في معسكر، عاصمة الأمير عبد القادر، 1837 ـ 1839. كتب عدة كتب عن (المرأة العربية) و (الخيول العربية)، والكتاب الأخير مترجم إلى الإنكليزية. وترقى إلى رتبة جنرال.

المستوى ما اشترطه هنا، ولكنه جعل كل الدروس عامة ومجانية. واشترط في أستاذ العربية مؤهلات عالية. فأرسلت إليه الوزارة من باريس أنها وضعت تحت تصرفه أستاذ اللغة العربية في كوليج لويس لوقران Louis Le Grand واسمه أعقوب (يعقوب) المصري ولكن هذا توفي قبل التحاقه[1]. عندئذ أسند دي بوسي تلك الوظيفة إلى جوني فرعون ووضع تحت تصرفه بناية تابعة للإدارة، وهكذا أخذ جوني يعطي دروساً مجانية ورسمية للأروبيين أيام الثلاثاء والخميس والسبت من الثالثة إلى الرابعة، ابتداءً من 1832/12/6.

وتذكر المصادر الفرنسية أن دروس جوني فرعون العربية كانت ناجحة للغاية، فكان جمهورها الأروبي قد ضاقت به البناية مما اضطر جوني إلى تبديل المكان عدة مرات. وفي هذه السنة أيضاً أصدر جوني فرعون أول كتاب في النحو العربي، وهو كتاب مدرسي موجه لتلاميذه[2]. وخلال السنة الموالية أصبح لجوني فرعون درسان في العربية - وكلاهما بالعامية - درس عام يبدأ من منتصف أكتوبر على الساعة الحادية عشر والنصف، ودرس خاص بالأشخاص الذين لا يستطيعون حضور الأول، ولم تكن الدروس مجانية بل إنه جعل رسماً بـ 45 فرنكاً على الدرس الخاص للفرد، ومدته ثلاثة أشهر، ثلاث مرات أُسبوعياً بمعدل ساعة لكل مرة. وبالإضافة إلى تدريس العربية (العامية) للأروبيين، وتأليف الكتب المدرسية لتلاميذه، كلفته الحكومة الفرنسية بوضع تقرير عن المصطلحات العربية في القضاء الإسلامي وفي التوثيق بالمحاكم، كما أنه ساهم في إنشاء فرقة خاصة بالمترجمين المحلفين القضائيين (سنة 1835)، إلى جانب

---

(1) كذا مكتوباً في المصادر الفرنسية (Agoub)، وكان يعقوب في خدمة الحملة الفرنسية على مصر، ثم خرج معها إلى فرنسا حيث بقي مترجماً ومدرساً للغة العربية إلى أن وقع تعيينه في الجزائر الذي لم ينفذ إذ توفي قبل التحاقه. وكان يعقوب من أقباط مصر، وقد ألّف مجموعة من القصص الخيالية العربية باللهجة العامية تحت عنوان (المزهر Lyre). انظر كور، ص 24.

(2) يذكر كور، ص 24، أنه أول كتاب صدر عن المطبعة الحكومية بالجزائر. وهو في اللهجة العامية التي لا ندري من أين تعلمها جوني فرعون، ويذكر ماسيه أن عنوان الكتاب هو (النحو الابتدائي للعربية الدارجة أو الجزائرية لاستعمال الفرنسيين) وأنه صدر سنة 1832. كما يذكر نفس المصدر أن جوني فرعون قد حاول تبسيط الكتاب بإصداره في السنة الموالية بعنوان (موجز النحو العربي المبسط والمنقح). انظر أيضاً ماسيه، ص 4.

فرقة المترجمين العسكريين[1].

* * *

ورغم الدور الذي لعبه جوني فرعون في تدريس العربية للأوروبيين ونجاحه المنوه به في المجالات الأخرى، فإنه كان ينظر إليه على أنه ليس من أصل فرنسي، وأنه لم يكن مستشرقاً بالمعنى الدقيق للكلمة. وعندما استحدث الفرنسيون كرسي اللغة العربية Chaire de Langue Arabe في الجزائر سنة 1832، استشاروا عميد المستشرقين في باريس في الشخص الذي يقترحه له، فأشار عليهم بتلميذه لويس برينييه Bresnier[2]، ومنذ ذلك الحين تحول درس Cours العربية إلى كرسي Chaire العربية وتولى برينييه مكان فرعون.

وتذكر المصادر الفرنسية أن برينييه خير مؤهل لهذه المهمة. فهو مستشرق بالاختصاص وفرنسي بالأصالة، ومن تلاميذ مدرسة اللغات الشرقية وعلى رأسها دي ساسي، ومن شيوخه فيها أقطاب الاستشراق الفرنسي عندئذ: كاترمير، وجوبير، وغارسان دي طاسي، ودي بيرسوفال، وجان مارسيل. وكان برينييه من مواليد مونتقري Montegris سنة 1814، اشتغل في الطباعة أول الأمر ثم شغف باللغات الشرقية وجاء إلى باريس لدراستها على أهل الاختصاص في مدرسة اللغات الشرقية. وقد استمر برينييه في تولي كرسي العربية في مدينة الجزائر من 1836 إلى وفاته سنة 1869. وأثناء ذلك ألف

---

(1) كان المترجمون العسكريون هم صلة الوصل بين الجزائريين وسلطات الاحتلال. ويذكر شارل فيرو، ص 86، أن سمعة هؤلاء المترجمين كانت سيئة وغير مشرفة إلّا ما ندر. فقد كانوا خليطاً من مختلف الأجناس، وأضيف إليهم بعض الأهالي الذين يعرفون شيئاً من الفرنسية، كما انضم إليهم عدد من اليهود الجزائريين لأنهم كانوا أكثر صلة بأروبا من المسلمين بحكم المعاملات التجارية مع أهلها.

(2) انظر عنه ماسيه، 5 - 9. وقد خصص له عبد الرحمٰن بدوي في (موسوعة المستشرقين) بضعة أسطر فقط، ص 56 - 57، ولم يذكر بدوي أن العربية التي كان يعلمها برينييه إنما هي العامية، كما أنه لم يذكر أهداف التعليم الذي كان يقدمه، وقد اعتمد بدوي في ذلك على مرجعين. انظر عنه كور، ص 27 - 39 وما بعدها.

عدة كتب لتلاميذه سنذكر بعضها، وشارك في عدة مشاريع علمية مثل مشروع (اكتشاف الجزائر العلمي) الذي أشرفت عليه الحكومة الفرنسية (1849)، وتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية (1856) والمجلة الافريقية المجسدة لنشاط هذه الجمعية. كما أنه أخرج أفواجاً من المترجمين (العسكريين والقضائيين) والمدرسين للغة العربية في الجزائر.

افتتح برينييه أول درس له في العربية العامية خلال يناير 1837. وتنويهاً بالدرس وصاحبه، نشرته الجريدة الرسمية عندئذ (لومونيتور) بحذافيره. وجاء فيه أن الهدف من هذا الدرس العام هو تعريف الأروبيين بمبادىء اللهجة العامية في «ممتلكاتنا الإفريقية» (الجزائر) وبمبادىء اللغة المكتوبة. وأشار إلى أن معرفة العربية قد أحس بها جميع الفرنسيين في الجزائر فهي التي يتكلم بها الأهالي وهي المستعملة في جميع العلاقات العائلية والتجارية، وقال إن كل فرد من الفرنسيين يشعر بضرورة توصيل حاجته إلى الأهالي دون واسطة. ونوه كذلك باللغة العربية فقال إنها غنية جداً في تعابيرها ، وغنية جداً في أشكالها، ورشيقة جداً في أساليبها. والفرق بين المكتوبة والمنطوقة يشكل ما سماه الآخرون قبله: العربية الأدبية والعربيه الدارجة. وعدد برينييه الفروق بين الفصحى والعامية قائلاً إن أصفى اللهجات هي لهجة اليمن حيث تأصلت العربية وحيث ولد (كذا) محمد بن عبد الله ﷺ الذي يعتبر كتابه نموذجاً رائعاً إذا لم يكن في وضوح الأفكار فعلى الأقل في رشاقة الأسلوب، واعتبر برينييه أن اللهجات العربية أخذت تفترق عن بعضها وتبتعد عن الأصل، وادعى بأن لهجات شمال إفريقية أكثرها ابتعاداً[1].

وقال برينييه عن طريقته في التدريس أنه سيجعل دروسه على قسمين: الأول خاص باللهجة الجزائرية وذلك بتوضيح تعابيرها الشائعة واستعمالاتها وتدريب السامعين عليها. واشترط ضرورة تعلم الحروف العربية سواء تلك التي قال عنها أنها معروفة في الشرق، أو الخاصة بالمغرب العربي والتي قال إنها تختلف في الخط الكوفي، أو العربية القديمة. ولاحظ أن الكتب التي تعين على هذا المستوى مں الدرس غير متوفرة في وقته إلا قليلاً وغير مختصة.

---

(1) الدرس (أو المحاضرة) منشور في (المونيتور)، يناير، 1837 . وأورد خلاصته هنري ماسيه، ص 5. وكانت عبارة (ممتلكاتنا) هي التي يطلقها الفرنسيون على الجزائر عندئذ، كما أن تعبير إفريقيا، والإفريقية كان يطلق على الجزائر وما يتصل بها في بادىء الاحتلال.

أما القسم الثاني من دروسه فقد وجهه إلى الأشخاص الذين لهم معرفة بالعربية والراغبين في معرفة الكتابة. ولهؤلاء قدّم برينييه النظرية النحوية وتطبيقاتها على ترجمة النصوص المختلفة. وقد اختار لهم من هذه النصوص مجموعة من ألف ليلة وليلة لأنها في نظره تعطي لتلاميذه نموذجاً بسيطاً وسهلاً وتعابير سعيدة ومتنوعة. كما عين لهم كتاب النحو للمستشرق دي ساسي وكتاب نحو العربية العامية لبير سوفال. وبعد سنة من تجربته في التدريس بالجزائر كتب برينييه مقالة في (المجلة الآسيوية) أوضح فيها أفضل الطرق لتدريسها. وقد رأى ضرورة أن يقضي الدارس سنة كاملة في تعلم العربية المكتوبة (الفصحى؟) قبل دراسة العامية.

وكانت حصصه الأسبوعية مقسمة كالتالي: ثلاث حصص للتدرب على العربية الدارجة، وحصة للنحو والإملاء والأسلوب، وحصة لشرح نصوص عربية أدبية وعلمية، وحصة لترجمة الرسائل والنصوص الرسمية والكتابات المتداولة. وكان برينييه يلح على أن يخدم تعليم اللغة البحثَ اللغوي والمواد التاريخية والأدبية، وتوفير الوسائل للفهم والاتصال التلقائي عن طريق التعبير الشفوي والكتابي. كما كان يلح على ضرورة الجمع بين المعرفة النظرية والعملية لكي يخدم أحدهما الآخر. وفي هذا النطاق ألف برينييه مجموعة من الكتب معظمها موجه لطلابه، ولكن بعضها بقي مرجعاً لمدرسي العربية من المستشرقين حتى بعد وفاته[1].

وفي مؤلفاته أعطى برينييه لطلابه نماذج من روح الشرق في العناوين التي اختارها بالعربية وفي الألوان والتزاويق للغلاف. مثلاً في كتابه (المختارات) المطبوع سنة 1845 زخرفت صفحة الغلاف الداخلي بزخارف عربية ـ إسلامية، ولونت بألوان متناسقة، وفي وسطها عنوان الكتاب بالعربية هكذا (جامع المكاتيب في العربية والمعاني الغرايب

---

(1) من مؤلفاته: 1 ـ ترجمة الأجرومية للصنهاجي والتعليق عليها. 2 ـ المجموعة العربية الابتدائية المختارة (Anthologie)، 3 ـ مختارات عربية Christomathie وهي التي ضمت عدداً كبيراً من الرسائل والنصوص الرسمية وغيرها من الوثائق المعاصرة. 4 ـ الدروس العملية والنظرية في اللغة العربية الذي طبع عدة طبعات. 5 ـ عناصر الخط العربي، سنة 1855. 6 ـ مبادىء اللغة العربية، سنة 1867. وكان برينييه يحسن التركية (العثمانية) والفارسية أيضاً. ومما يذكر أنه قبل تأليفه الكتب لتلاميذه، وزع عليهم (1837) معجم المستشرق جان جوزيف مارسيل في اللهجات العامية في الجزائر وتونس ومصر. وهو معجم (Vocabulaire) فرنسي ـ عربي مطبوع في باريس.

للشيخ النحوي المدرس إبريني، لطفه الله به)[1]. كما أن كتابه (الدروس العملية والنظرية للغة العربية) قد وضعت له لوحة فنية أمامية ملونة على الطراز العربي - الإسلامي وكتب فيها العنوان بالعربية هكذا (مفتاح كنوز النحو والأدب لفتح علوم العرب)[2].

وقبل أن نطوي صفحة الحديث عن برينييه، نذكر ملاحظتين قالهما عن اللغة العربية بعد تجربته معها. الملاحظة الأولى ما جاء في مقدمة كتابه (المجموعة العربية) من أن العربية غنية فقط بأشكال الكلمات وتنوعها والمترادفات، وأنها بعيدة عن أن تقدم، في حالتها الحاضرة وربما في المستقبل، الطاقات والسهولة التي تقدمها اللغات الأروبية الرئيسية ولا سيما الفرنسية [3]. وفي نفس الكتاب انتقد برينييه طريقة الكتابة العربية في الجزائر قائلاً إنها غير فنية وغير متناسبة الأجزاء بخلاف ذلك في الشرق حيث الخط وفن الكتابة يمتازان بالذوق والتناسب. ولكنه لاحظ أن في فن الكتابة الجزائرية خصائص أساسية لا يدركها المرء إلى بعد الممارسة.

أما الملاحظة الثانية فهي حثه الفرنسيين على تعلم اللغة العربية لكي تكون وسيلتهم إلى معرفة الشعوب الأخرى. فقد قال في مقدمة كتابه (الدروس العملية) إن اللغة العربية ليست وسيلة فرنسا للاتصال بعالم الأهالي (الجزائريين) فقط بل بالعالم العربي - الإسلامي أجمع. وقال إن معرفة اللغة العربية ستجعل العالم الأروبي يربط علاقات بالشعوب الإسلامية وهي علاقات لا تكفي فيها الكتب بل لا بدّ فيها من التعبير الشفوي أيضاً[4].

إن دور برينييه في ترويج العربية بين الأروبيين لم يختره لنفسه فقط بل اختير إليه. وكان عليه أن ينفذه بدقة ونشاط لأنه بذلك يحقق أهداف الإدارة الاستعمارية. وهذه رسالة المتصرف المدني بريسون Bresson، تشهد بذلك. وكان بريسون قد خلف جنتي دي بوسي في الإدارة المدنية بالجزائر 1836، وقد

(1) اطلعنا على ط. 2 من الكتاب، باريس - الجزائر 1857 .

(2) طبع عدة طبعات، 1846، 1855، 1915.

(3) المقدمة، ص5ط. باريس 1852.

(4) مقدمة ط. 3 ، 1915.

سارع بكتابة رسالة إلى المفتش العام للتعليم جاء فيها أن مهمة فرنسا في الجزائر تتوقف على دراسة العربية والتوسع فيها، وذلك لمعرفة الأهالي والاتصال بهم، وأنه لا يكفي في ذلك الاعتماد على بعض المترجمين. وقال إن إنجاز الاستعمار Colonisation يتوقف على نجاح برينييه في مهمته، وإن الحكومة لم تختره لذلك إلا لثقتها فيه وتقديرها له. وعليه أن يثبت ذلك، كما عليه أن لا ينسى أن الدرس الذي يلقيه في اللغة العربية ليس درساً عادياً، لأنه درس جاء بعد احتلال الجزائر فاكتسب بذلك أهمية سياسية ومنفعة عظيمة. وعلى برينييه أيضاً أن يعمل على توسيع المعرفة في العربية الدارجة وأن لا يقتصر في ذلك على لهجة مدينة الجزائر بل عليه أن يفعل نفس الشيء مع لهجات التل وقبائل زواوة وقبائل السهول والجبال عندما تستطيع فرنسا الوصول إلى هذه المناطق [1].

وكان لبريسون مخطط آخر أيضاً كشف عنه في هذه الرسالة التي تعكس اهتمام الفرنسيين المبكر بدراسة العربية كوسيلة للاحتلال والتوسع. فقد جاء في نفس الرسالة أنه (بريسون) يتطلع بكل رضى ممزوج بالأمل أن يرى الشباب الأروبي في الجزائر، وقد درس العربية واستفاد منها في الفلاحة والتجارة وفي الوظائف العمومية، لأن الإدارة، كما قال، تخطط أن لا تقبل في المستقبل في هذه الوظائف إلا الأروبيين الذين يعرفون العربية والفرنسية معاً، بل إن المترجمين أنفسهم سيقع تفضيل الذين درسوا منهم في الجزائر على الذين درسوا خارجها. ومن أجل ذلك طلب بريسون من مفتش التعليم أن يكشف للآباء عن هذه النية، وأن يطبع الكتب الابتدائية، وأن يشتري الكتب الضرورية، وأن يفتح أقساماً جديدة للعربية في المدارس الفرنسية، وأن يحدث مسابقات وجوائز لهذا الغرض)[2]

* * *

(1) كان الاحتلال الفرنسي عندئذ (1837) ما يزال مقصوراً على بعض المدن الساحلية.

(2) رسالة بريسون إلى المفتش العام للتعليم نشرتها (لومونيتور) في 10 فبراير 1837. انظر كور، ص 33 ـ 35.

والغريب أنه في الوقت الذي يعلن فيه بريسون عن مخططاته لنشر العربية بين الأروبيين في الجزائر كان يحرم الجزائريين من تعلم لغتهم. وقد استولى الفرنسيون على المؤسسات الدينية والتعليمية، وحولوا أعداداً منها إلى كنائس وملاجيء ومخازن ودكاكين. كما استولوا على الأوقاف الإسلامية التي كانت تغذي التعليم ورجال الدين والعلم وترعى المكتبات.

ولكن تطلعات بريسون لم تتحقق كلها وبسهولة، بل أن الطريق كان مليئاً بالعثرات والنتائج المخيبة، كما سنرى. فلم تحن عشرية الأربعين حتى كان نظام معرفة العربية للأوروبيين في حاجة إلى إصلاح ومراجعة. وقد بدىء في إصلاح فرقة المترجمين العسكريين سنة 1842. وذلك بإجراء امتحان لهم يتسابقون فيه على تصنيفات ورتب محددة. وكان مقرر اللجنة هو برينييه نفسه. وقد ترشح للامتحان عدد من تلاميذه وتقدم خريجو كرسي (حلقة) العربية في الجزائر على من عداهم من المترجمين. وأصبح المترجمون العسكريون هم اليد اليمنى للإدارة الاستعمارية في الجزائر إذ كانت البلاد كلها محكومة بنظام عسكري دقيق (تابع لوزارة الحربية)، وكانت «المكاتب العربية» التي تتولى شؤون الجزائريين منتشرة عبر الأجزاء المحتلة من الجزائر وكان على رأس كل مكتب عربي[1] ضابط فرنسي يعرف العربية بالطريقة التي كان يعلم بها برينييه. وبذلك النوع من الامتحان أُخرِج من المترجمين العسكريين من لا هدف له إلا المصلحة الشخصية، أو المرتزق. ويستعمل فيرو كلمة «التطهير» في هذا المجال.

وأمام حاجة الإدارة الاستعمارية إلى موظفين فرنسيين يعرفون العربية وأمام انخفاض عدد الحضور[2] لدروس برينييه، فإن الحاكم العام، المارشال بوجو، استصدر مرسوماً ملكياً سنة 1845 ينص على أنه ابتداءً من 1847 سيكون من المحتم على كل طالب وظيف من المدنيين أن يكون عارفاً بالعربية. ولكن هذا المشروع الطموح لم ينفذ في النهاية، لأن بوجو صاحب الفكرة غادر الجزائر في منتصف 1847، ولكن ثورة 1848 بفرنسا قد غيرت نظام الحكم كما غيرت من سياسة فرنسا نحو التعليم في الجزائر على العموم[3].

(1) «المكتب العربي» مصطلح يعني مركز السلطة الفرنسية لإدارة شؤون الأهالي في الأمن والقضاء ونحو ذلك، وقد بقي إلى سنة 1870، ثم انحصر في المناطق الجنوبية فقط.

(2) يذكر كور، ص 39، أن عدد الحضور لدروس العربية قد انخفض تدريجياً حتى وصل إلى 12 شخصاً فقط في درس العربية العامية وعشرة فقط في العربية الفصحى. ويعلل كور لذلك بقوله أن هجرة الأوروبيين إلى الجزائر كانت إلى ذلك الحين (1844) محصورة في المدنيين الأميين بصفة عامة، وابتداءً من 1845 حلّ بالجزائر شباب متعلم للاستيطان والعيش فيها، حالماً بمستقبل مليء بالوعود.

(3) من ذلك أن قرار 16 أوت 1848 نص على إلحاق المدارس الفرنسية والإسرائيلية في الجزائر بوزارة التعليم مباشرة. أما المدارس الإسلامية فقد تركت تحت وزارة الحربية. والغريب في الأمر أن =

ولكن سنة 1846 شهدت عمليتين تتعلقان باللغة العربية. الأولى إحداث كرسي جديد (أو حلقة) للغة العامية في كوليج الجزائر. ولملء هذا الكرسي أُجريت مسابقة فاز فيها المستشرق قرقوس Gorguos. ومن الطريف أن نعرف أن مواد المسابقة التي جرت تحت إشراف برينييه كانت تتألف من: 1 ـ معرفة نحو العربية العامية. 2 ـ عناصر العربية الأدبية (الفصحى). 3 ـ إنشاء بالعربية العامية حول موضوع معين. 4 ـ قراءة وترجمة نص من كتاب مفتوح من مخطوط سهل. 5 ـ درس حول نقطة في النحو العربي تتعلق بمسألة من كتاب عربي.

أما العملية الثانية فهي إحداث كرسيين للعربية الدارجة في كل من وهران وقسنطينة. وقد جرت مسابقة أيضاً على نفس النسق لاختيار من يقوم بالوظيفتين. وكانت النتيجة فوز فينيار Vignard الذي تعين لقسنطينة، أما كرسي وهران فقد كان من نصيب هادمار Hadamard، المترجم السابق في مصلحة أملاك الدولة. ومن جهة أخرى لم يطل أمد فينيار في قسنطينة إلا بضعة أشهر ثم حل محله المستشرق شيربونو خريج مدرسة اللغات الشرقية بباريس[1]. وتجدر الملاحظة أن كلا من أستاذ كرسي العربية في وهران وقسنطينة

= مسؤول مصلحة التعليم في الجزائر كان يتراسل بطريقتين مختلفتين: فهو يتراسل مباشرة مع الوزير في باريس بالنسبة للمدارس الأولى، أما بشأن مدارس المسلمين فعليه أن يتراسل فقط مع الوالي العام بالجزائر. ومن التغيرات أيضاً إنشاء أكاديمية التعليم بالجزائر، سبتمبر 1848، وتعيين ديلاكروا على رأسها وتسميته عضواً في مجلس الوالي العام. ومن الملفت للنظر أيضاً أن القرار المذكور لم يشر إلى كراسي العربية الأربعة، وقد فهم من ذلك أنها تابعة للتعليم الإسلامي، ولكنها من الناحية المالية كانت تابعة للتعليم العالي بفرنسا نفسها. انظر كور، ص 41 ـ 42.

(1) جاك شيربونو Cherbonneau ولد سنة 1813 وتابع دراسته في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وقد نشر عدة مقالات في المجلة الآسيوية، وكانت تسميته لكرسي العربية في قسنطينة قد جعلته يكرس جهده لحياة الجزائر العربية. وفي سنة 1861 أصبح مدرساً في المدرسة العربية ـ الفرنسية بنفس المدينة، وبعد سنتين أصبح مديراً للكوليج العربي ـ الفرنسي في الجزائر، وفي سنة 1871 أصبح مديراً لجريدة (المبشر) ـ وهي جريدة رسمية كانت تصدرها إدارة الجزائر باللغتين العربية والفرنسية. ومن وظائفه في الجزائر أنه أصبح مفتش المدارس العربية ـ الفرنسية الثلاث. وبعد أن فرغ كرسي العربية المغربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس بوفاة البارون دي سلان، رجع شيربونو إلى هذه المدرسة كأستاذ للعربية المغربية (العامية). وقد نشر عدة أعمال تدخل في مهنته مثل الكتب المدرسية ومعجم عربي ـ فرنسي، وتصريف الأفعال في العامية وغيرها مما يدخل في =

كان يلقي ثلاثة دروس في الأسبوع بمعدل ساعة للدرس. وقد أعطيت الحرية لكل منهما في التصرف بما يراه مناسباً بعين المكان.

ورغم هذا التوزيع الجغرافي لحلقات تدريس العربية للأوروبيين وإجراء المسابقات لاختيار أحسن الأساتذة، فإن النتائج لم تكن في مستوى الاهتمام. وقد انتقد بيليسيه دي رينو حالة التعليم في الكراسي الثلاثة فقال عن الحضور أنهم لا يتجاوزون الستين شخصاً وأن حالة الإقبال لا تختلف عن حالة الإقبال على دروس الكوليج دي فرانس. ولاحظ تقرير في نفس الفترة (1848) أنه رغم حماس الأساتذة فإن نتائج الدروس كانت مخيبة للآمال. وقال أن عدد الحاضرين لحلقة وهران كان قليلاً. وعلل ذلك بصعوبة العربية في بدايتها، وقيل أن الحاضرين يكثرون في أول السنة ثم يتناقص عددهم بعد برودة الحماس الأول ولا يبقى منهم إلا عدد ضئيل[1].

ولم يسع وزارة التعليم إلا تكوين لجنة سنة 1849 مهمتها اقتراح الوسائل لنشر العربية بين الأوروبيين والفرنسية بين المسلمين في الجزائر فوراً . والواقع أنه لا معنى لكلمة «فوراً» هنا لأن توصيات اللجنة لم يؤخذ بها في حينها، كما سنرى. وكانت اللجنة برئاسة الجنرال بيدو الذي طالما قاد المعارك ضد الأمير عبد القادر، وعضوية المستشرق الشهير بيرسوفال من الكوليج دو فرانس، والدكتور بيرون Perron مدير مدرسة الطب بالقاهرة، وفرديناند بارو Barrot مقرر اللجنة. وفي تقريرها لاحظت اللجنة أن نشر الفرنسية بين الجزائريين سيسهل مهمة الاستعمار، وأما الوسائل لذلك فهي تهدئة الأوضاع (أي القضاء على المقاومة) والاندماج.

وأكدت اللجنة اضطراب عدد الحضور في دروس العربية التي يتولاها المستشرقون الأربعة، إذ يبلغ عدد المسجلين في بداية السنة حوالي مائة ثم ينخفضون

= دراسة اللهجات، كما نشر بعض الأعمال التاريخية مثل وثائق حول عبيد الله المهدي، وتحقيق تاريخي حول الدولة الأغلبية، وآخر حول عائلة بني جلاب، ومقالة عن الأدب العربي بالسودان. وقد علق أحدهم على دور شيربونو فقال أنه كرّس جهده في الجزائر لصهر العنصر الفرنسي والعنصر العربي عن طريق التعليم. انظر ماسيه، ص 11 ـ 13. ولا نجد لشيربونو ذكراً في (موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمٰن بدوي.

(1) كور، ص 42.

إلى حوالي 15 في نهاية الفصل، وأن هذا الحضور يختلف من مدينة إلى أخرى. فعدد تلاميذ شيربونو بلغ 15 بينما بلغ تلاميذ هادمار بوهران ستة فقط، منهم بعض الموظفين الجزائريين. وكانت اللجنة على العموم راضية بدروس برينييه، وقالت إن دروسه مقسمة على النحو التالي:

1 - ثلاث حصص أسبوعياً للتدريب الشفوي وتعلم طريقة النطق والقراءة.
2 - حصة لقواعد النحو والإملاء والأسلوب.
3 - حصة للأدب مع شرح قطع من المؤلفات الأدبية أو العلمية.
4 - حصة لترجمة الرسائل والعقود والكتابات العادية.

وحكمت اللجنة أن نتيجة الدروس العربية تكاد تكون صفراً رغم حماس الأساتذة وأهليتهم، وقد طالبت بضرورة منح تشجيعات للأساتذة وفتح المجال أمام التلاميذ الدارسين كجعل الوظائف المدنية مشروطة بإتقان اللغة العربية. ولاحظت أن المعلمين الفرنسيين في المدارس الابتدائية لا يعرفون العربية، وتساءلت ما إذا كان من الحكمة الاستعانة بالمتعلمين الجزائريين الذين يعرفون شيئاً من الفرنسية في تعليم العربية لأبناء الفرنسيين، ورأت أنه من الخطأ ترك المتعلمين الجزائريين غير موظفين لأن الفراغ يجعلهم يفكرون في العمل ضد النفوذ الفرنسي. وبالنسبة للتعليم الثانوي لاحظت اللجنة أن تعليم العربية في الليسيه الوحيد عندئذ هو ساعتان في الأسبوع فقط، وأوصت تدريس العربية يومياً في الليسيه، وتقسيم دروسها على مدار السنة، وشمول دراستها النحو وترجمة كتابات عربية إلى الفرنسية، وكتابات فرنسية إلى العربية. أما بالنسبة للتعليم العالي (أي مستوى التعليم في كراسي اللغة العربية) فقد رأت اللجنة أنه يحتاج فقط إلى التنظيم والتوسيع والتدعيم لما هو موجود. وأوصت بأن تفتح حلقات أخرى للعربية في عدة مدن أخرى بالجزائر[1].

ولكن تقرير اللجنة المذكورة لم تكن له نتيجة عاجلة. فقد بقيت كراسي اللغة

---

(1) نقل ذلك كور، ص 45 - 46. أما ما يتعلق بتعليم الفرنسية للأهالي، فاللجنة رأت ضرورته لأن الفرنسية «لغة سيادة» إذ أن الأهالي يستمعون إلى قرارات المحاكم بها وكل الاتصالات الرسمية ستكون بها عاجلاً أو آجلاً، كما ستحرر بها كل الوثائق العامة، كما أن الفرنسيين قادرون على دمج الجزائريين وعلى «فرنستهم» في حدود عاداتهم ودينهم. انظر أيضاً كور ص 51.

العربية على ما هي عليه. غير أن خطوات ثلاثة أخرى تحققت وهي تهدف كلها إلى تشجيع دراسة اللغة العربية: الأولى إنشاء المدارس الثلاث[1] (1850). والثانية إنشاء جوائز سنوية لعارفي اللغة العربية من الفرنسيين طبعاً (1851). والثالثة إعلان وزارة الحربية عن تفضيلها عارفي العربية على غيرهم في الوظائف المدنية (1853).

وبعد أربع سنوات أنشىء في الجزائر كوليج عربي - فرنسي موجهاً لنشر التأثير الفرنسي بين الجزائريين. وكان يضم تلاميذ فرنسيين أيضاً. ومن ثمة فإن هدفه ليس كهدف الحلقات الدراسية المذكورة أو كراسي اللغة العربية. وكان مديره هو الدكتور بيرون[2] Perron الذي استدعي من مصر لهذه المهمة. وإذا كان البرنامج العام للكوليج في حد ذاته لا يهمنا هنا، فإنه يهمنا منه كرسي اللغة العربية الذي ألحق به سنة 1863 والذي أسند إلى مستشرق مختص هو هوداس. وبعد سنة أنشأت وزارة التعليم كرسياً للهجة الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس وأسندته إلى مستشرق مختص آخر هو البارون دي سلان[3].

---

(1) هي ثلاث مؤسسات عربية - فرنسية بالعاصمة وقسنطينة ووهران. وكان الغرض منها تخريج كوادر جزائرية تحتاجها الإدارة الفرنسية في ميدان القضاء والترجمة والتدريس. لذلك كان برنامجها يشمل المواد الفقهية والعربية بالإضافة إلى اللغة الفرنسية، وكانت إدارتها تحت عناصر جزائرية إلى حوالي 1895 ثم تولى إدارتها مستشرقون فرنسيون. وكان تعليمها يعتبر عالياً، وليس هنا محل الحديث عن هذه المدارس. للتوسع انظر بحثنا (مدارس الثقافة العربية في الجزائر 1830 - 1954)، في كتابنا (أفكار جامحة)، الجزائر 1988.

(2) نيقولا بيرون ولد سنة 1798، تابع الدراسة في العلوم الإنسانية ثم تخصص في الطب ومال إلى اتباع سان سيمون. وأثناء ممارسته الطب تعلم العربية في مدرسة اللغات الشرقية، كما درس الفارسية والتركية ولغة جاوة. وكان كلوت باي قد أسس مدرسة الطب في مصر وجاء إلى باريس يبحث لها عن الأساتذة وكان منهم بيرون الذي سافر إلى مصر وهناك واصل دراسة العربية، وألقى دروساً في الكيمياء وفي الفيزيا وغيرهما، ونشر أبحاثاً في هذه العلوم وترجم رحلة ابن عمر التونسي، كما ترجم كتاب مختصر الشيخ خليل بن إسحاق في الفقه المالكي. وفي سنة 1857 ولته حكومته إدارة الكوليج الامبريالي (العربي - الفرنسي) في الجزائر، وبعد سبع سنوات سمته مفتشا عاما للمدارس العربية - الفرنسية في الجزائر، وقد توفي الدكتور بيرون سنة 1876 قريباً من باريس. ومن أعماله أيضاً كتاب المرأة العربية قبل الإسلام وبعده، والمجلة الطبية الجزائرية. انظر ماسيه، ص 20 - 22.

(3) ولد البارون دي سلان De Slane في بيلفاست (إيرلندا) سنة 1801. وجاء باريس سنة 1830 (سنة احتلال الجزائر)، وانضم إلى تلاميذ المستشرق دي ساسي وقد أخذ الجنسية الفرنسية، ونشر ديوان =

كـان تدريس اللهجة العامية باللغة الفرنسية هو الطريقة التي اتبعها أساتذة الكراسي المذكورة أو الحلقات. وكان الهدف كما أشرنا هو جعل الأوروبيين في الجزائر يختلطون بالأهالي ويعرفون أفكارهم وحاجتهم. وقد أجاب أحد هؤلاء الأساتذة، وهو ماشويل الذي تولى تدريس العامية الجزائرية في ليسيه العاصمة ثم في حلقة وهران قبل أن يتولى شؤون التعليم في تونس بعد احتلالها، قائلاً: لو لم نكن في الجزائر ولو لم تكن لدينا حاجة ملحة للاتصال بالأهالي عن طريق اللسان لكنا من الذين يؤيدون البدء بدراسة الفصحى التي هي واحدة، وهي هي نفسها بالضبط في كل البلدان التي فيها القرآن هو القانون الديني. وقال ماشويل بأن هدفه هو جعل الأوروبي يعرف الدارجة العربية كما يعرفها الإنسان الأهلي الذي لم يدخل المدرسة أبداً، مضيفاً بأن الأوروبي سيتفوق بعد ذلك على الأهلي في معرفة الكتابة بالدارجة (والكتابة عموماً) كما يتفوق عليه بالذكاء. واستخلص التجربة من تونس حيث الجالية الإيطالية هناك تتحدث مع التونسيين بالعامية ولا تعرف من الفصحى إلا قليلاً، مما جعل لها في نظره تأثيراً قوياً على السكان. وقد استفاد ماشويل في طريقة تدريس العامية بآخر التطورات الحديثة في أوروبا لتدريس اللغات للشباب، خصوصاً بالنسبة لنظريات تدريس الإنكليزية والألمانية وأعمال روبرتسون، واتّو، وولندورف، مصرحاً بأنه استفاد من هؤلاء أكثر مما استفاد من طرق تدريس زملائه الفرنسين أمثال برينييه وشيربونو[1].

= امرىء القيس ومنتخبات من كتاب الأغاني ونشر قسماً من ابن خلكان، وأعمالاً تتعلق بالمغرب العربي مثل النويري وابن حوقل وابن بطوطة، وترجمة مقدمة ابن خلدون وتاريخه. وبين 1843 ـ 1845 كلفته الحكومة الفرنسية بمهمة في الجزائر فأرسل إليها تقريره عن أهم المكتبات وعدد المخطوطات في قسنطينة ـ وقد طبع التقرير ـ ثم سُمي مترجماً في الجيش الفرنسي بالجزائر، وكان هو الذي يشرف على لغة البلاغات الرسمية والمراسلات العربية للحكومة مع الجزائريين وهو الذي يعطيها الأسلوب الملائم حتى أصبحت طريقته تقليداً لمن جاء بعده. وفي 1863 رخص له بتولي كرسي العربية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية، وهو الكرسي الذي تحول منذ 1871 إلى العربية العامية بعد أن كان يشغله بيرسوفال. ولدى سلان أعمال أخرى حول الحروب الصليبية وغيرها، وقد أخرج كاتلوغ المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس. وتوفي سنة 1878. انظر عنه ماسيه، ص 13 ـ 19. وليس له ترجمة في (موسوعة) الدكتور بدوي.

(1) ذكر ماشويل ذلك في مقدمة كتابه (طريقة لدراسة العربية العامية)، الطبعة الثانية سنة 1875. ونحن نجد صدى ذلك أيضاً في مقدمة كتاب: ايدنشانك وكوهين سولال (الكلمات المستعملة في العربية =

والواقع أن تعليم العربية للأوروبيين كان عملية شخصية يقوم بها الأستاذ المستشرق في كل مركز من المراكز المذكورة، فكانت شخصيته وعلمه وغيرته هي التي تجلب إليه الجمهور. ولم يكن لوزارة التعليم ولا للسلطات المحلية مخطط محدد تتابعه في هذا المجال، كما كان الحال في بداية الأمر، خصوصاً في عهد بريسون وبوجو مثلاً. ورغم أن هذا التعليم كان مصنفاً في المستوى العالي، فإن الأساتذة وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إحداث ثلاثة مستويات: إبتدائي في العامية لمن ليس لهم إلمام بها، ومتوسط لمن يرغب في معرفة شيء من النحو وحتى قراءة نصوص من القرآن الكريم، وعال وفيه تعلم تراجم المؤلفين ومختلف أنواع الكتابة. ويقول نقاد هذا التعليم أنه انخفض لأن العربية لا تعلم في المدارس الابتدائية والمتوسطة حيث يتم إعداد الراغبين في المزيد على يد الأساتذة المستشرقين[1].

وخلال السبعينات ظهرت انتقادات أخرى لمشروع تدريس العربية الذي نحن بصدده، من وجهتين: الأولى أن الحكومة لم تدعم جهود المستشرقين كالترجمات من العربية ولا الأعمال العلمية المتصلة بالتراث العربي - الإسلامي سواء في الجزائر أو خارجها، باستثناء تمويلها لمشروع اكتشاف الجزائر العلمي وترجمة دي سلان لتاريخ ابن خلدون. والثانية أن النظرة السائدة سواء عند السلطة أو عند مؤلفي الكتب المدرسية الموجهة للأوروبيين الراغبين في العربية نظرة تقوم على مبدأ واحد وهو أن العربية مجرد وسيلة للاتصال مع الأهالي وأداة للتوغل السياسي. أما العربية كعامل ثقافي ووسيلة للاطلاع على كنوز «حضارتها اللامعة النائمة في الكتب المؤلفة بها» كما يقول ماسيه، فهذا ما لم يحدث قبل إنشاء المدارس العليا والكليات الجامعية.

= (الدارجة)، الجزائر 1897. فقد قالا بأنهما اتبعا في تدريس العربية نفس الطريقة المتبعة بنجاح منذ عشرين سنة بالنسبة للغات الإغريقية والإنكليزية واللاتينية والألمانية.

(1) انظر النقد الذي ورد في تقرير مفتش التعليم في الجزائر في (الإحصاءات العامة) لسنة 1873 - 1875. كما نقله كور، ص 59 - 62. وقد لاحظ صاحب التقرير أنه كان الأولى لأبناء الفرنسيين في المدارس الابتدائية بالجزائر أن يدرسوا العربية بدل الإيطالية أو الإسبانية. ولاحظ أن عدد الحضور للدروس كان يتراوح بين 20 - 30 في الشتاء، و15 - 20 في الصيف، معتبراً ذلك تعليماً محدوداً جداً ولا يحقق النتائج المرجوة. ولكنه لاحظ أن وزارة التعليم رفعت أجرة أستاذ الكرسي إلى ألف فرنك.

ويؤرخ الذين تتبعوا الدراسات الاستشراقية في الجزائر نشأة هذه المدارس العليا بسنة 1879 . ففي هذا التاريخ أنشئت ثلاث مدارس هي الآداب والعلوم والحقوق (وسبق لمدرسة الطب أن تأسست منذ 1857). وكانت هذه المدارس الأربع هي نواة جامعة الجزائر التي أعلن عنها رسمياً سنة 1909 بعد تحويل المدارس العليا المذكورة إلى كليات. ويهمنا من هذه المدارس الأربع مدرسة الآداب. فهي التي ضمت قسماً صغيراً للدراسات الاستشراقية، كما ضمت كرسياً للغة العربية وآخر للأدب العربي. وقد تولى هوداس[1] كرسي اللغة العربية بمساعدة بلقاسم بن سديرة أحد الجزائريين الذين تكونوا في مدرسة الاستشراق الفرنسي وساهم فيها بفعالية بتدريسه وتآليفه. وبالإضافة إلى ذلك تولى ريني باسيه[2] تدريس مادة الأدب العربي. ولم يلبث هوداس أن غادر الجزائر (1884) إلى باريس ليتولى هناك تدريس العامية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية خلفاً لشيربونو. وقد حلّ باسيه محل هوداس في كرسي العربية بالجزائر، كما حلّ إدمون فانيان[3] محل باسيه في مادة الأدب العربي.

---

(1) ولد أوكتاف هوداس Houdas في لوتارفيل سنة 1840 وتوفي بالجزائر سنة 1916. وقد حَـلَّ بها سنة 1863 عند استلامه كرسي العربية في الكوليج العربي ـ الفرنسي وبقي في الجزائر إلى سنة 1884 حيث عمل أيضاً أستاذاً في ليسيه العاصمة، وتولى كرسي العربية بوهران، وكرسي العربية بمدينة الجزائر، ثم افتتح تعليم العربية في مدرسة الآداب العليا عند إنشائها سنة 1880. نشر هوداس مؤلفات موجهة لتلاميذه. وكذلك ترجم تحفة ابن عاصم في الفقه المالكي وهو العمل الذي شغله قرابة عشر سنوات. كما ترجم أعمالاً تتعلق بتاريخ المغرب العربي عموماً والسودان القديم وبعض صحيح البخاري. انظر عنه ماسيه ص 25 ـ 27، وكذلك كور، ص 64.

(2) ولد ريني باسيه R. Basset سنة 1855. وقد انجذب منذ عهده الأول نحو اللغة العربية، ودرّس في مدرسة اللغات الشرقية بين 1873 — 1880. وفي هذه السنة وصل إلى الجزائر حيث أصبح مديراً لمدرسة الآداب العليا ثم عميداً لكلية الآداب إلى وفاته سنة 1924 بالجزائر. وقد أتقن أيضاً اللغة الحبشية والبربرية ونشر عن الأخيرة أكثر من 25 عملاً. ومن تلاميذه في ذلك ديستان Destaing الذي أصبح أستاذ البربرية في مدرسة اللغات الشرقية. وقد شمل اهتمام باسيه جوانب عديدة من الدراسات الاستشراقية: اللغة، الفولكلور، التاريخ، الدين، ونشر أعمالاً عن الأدب الجاهلي والإسلامي (البردة، بانت سعاد، وألف ليلة وليلة إلخ). انظر عنه الفريد بيل في (إفريقية الفرنسية)، 1924، ص 13 ـ 14 . و (المجلة الإفريقية) 1924، ص 12 وما بعدها. وهناك Melanges باسمه ضم حوالي 40 صفحة عن أعماله مقسمة إلى أبواب. وماسيه، ص 27 ـ 29.

(3) إدمون فانيان E. Fagnan من مواليد لياج سنة 1846. وقد توفي بالجزائر 1931. اهتم بالترجمة عن =

ويعتبر هذا العهد (1880 ـ 1905) هو العهد الذهبي للمستشرقين الفرنسيين في الجزائر وهو العهد الذي كلل بانعقاد المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين العالميين في ربيع سنة 1905 بمدينة الجزائر والذي حضره حوالي خمسمائة شخص[1]. ولم يحضره من المشرق العربي، حسب علمنا، غير ثلاثة من مصر هم: محمد فريد وعبد العزيز جاويش ومحمد سلطان. ولكن حضره عدد من تلاميذ وأعوان المستشرقين الفرنسيين أمثال محمد بن أبي شنب وعبد الحليم بن سماية والقاضي شعيب بن علي. وليس الحديث عن هذا المؤتمر وما جرى فيه من مهمة بحثنا هذا. وحسبنا أن نقول ونحن بصدد الحديث عن لغة الضاد، أن الوفد المصري قد انتقد غياب التعليم العربي للجزائريين وقد دخل في نقاش حاد مع الوفد الفرنسي في المؤتمر حول هذه النقطة.

لقد اندمجت كراسي العربية العامية القديمة التي ابتدأت منذ 1832 والموجهة إلى الأروبيين فأصبح مقرها في المدارس الإقليمية، فتحول كرسي وهران إلى مدرسة تلمسان العربية ـ الفرنسية التي كانت تحت إدارة المستشرق الفريد بيل، وتحول كرسي قسنطينة إلى المدرسة العربية ـ الفرنسية أيضاً والتي كانت بإشراف موتيلانسكي إلى 1906[2]، أما كرسي العاصمة فقد تولته مدرسة (كلية) الآداب العليا، وكذلك المدرسة الثعالبية (العربية ـ الفرنسية) التي كانت بإشراف إدمون ديستان إلى ذهابه إلى باريس لتولي كرسي البربرية في مدرسة اللغات الشرقية.

= العربية، وواصل العمل الذي بدأه دي سلان لا سيما الجانب التاريخي، من ذلك تاريخ الزركشي عن الموحدين والحفصيين، وتاريخ ابن الأثير عن المغرب والأندلس، وتاريخ ابن عذاري، وكتاب الماوردي، ورسالة القيرواني في الفقه. كما أنه هو واضع كاتلوغ المخطوطات العربية والتركية والفارسية في المكتبة الوطنية بالجزائر. وفانيان هو الذي تولى تدريس مادة الأدب العربي بعد وفاة باسيه. انظر عنه ماسيه، ص 29 ـ 30، وكذلك (المجلة الإفريقية) 1931، ص 139 وما بعدها.

(1) كان رئيسه هو ريني باسيه. وقد صدر عن هذا المؤتمر عدة مجلدات في شكل وقائع ومذكرات. كما أن المجلة الإفريقية قد خصصت له عدداً خاصاً.

(2) بدأ موتيلانسكي A. Motylinski حياته مترجماً في غرداية بالجنوب. ومن ثمة اهتمامه بالمذهب الأباضي والمؤلفات التي ألفت حوله. ومنذ 1887 أصبح مديراً لمدرسة قسنطينة العربية ـ الفرنسية، ثم أصبح هو أستاذ كرسي العربية فيها (1889). وقد قام بتدريس اللهجات البربرية، ونشر أبحاثاً حول جربة وسكان جبل نفوسة، ووادي ميزاب. ومن ذلك بيبلوغرافية عن ميزاب، وأخبار الأيمة لابن الصغير. وتوفي سنة 1907 بعد أن قام بمهمات «علمية» في الصحراء. انظر ماسيه، ص 32.

ومنذ ما يسمى بعهد إصلاح المدارس العربية ـ الفرنسية (1895) ثم إصلاحات الوالي العام جونار (1903 ـ 1912) في التعليم عموماً، أصبح على الجزائريين أن يدرسوا هم اللغة الفرنسية «لغة السادة» ولم يعد الأوروبيون مطالبين بدراسة العربية لا باسم تسهيل الاختلاط بالأهالي ولا باسم المعرفة الثقافية للتراث العربي لأنهم (الأوروبيين) كانوا في الجملة يحتقرون هذا التراث ولا يعترفون به، ولا باسم الحاجة إلى الترجمة لأن قسم الاستشراق في كلية الآداب وخريجي المدارس الحكومية الثلاث المشار إليها أصبحوا يمدون الإدارة بما تحتاجه من ذلك. وهكذا وجه الاستشراق نفسه لخدمة الاستعمار في الجزائر منذ إنشاء نواة الجامعة وإصلاح التعليم وأصبح مقصوراً على أهل الاختصاص الذين كان عليهم أن يدرسوا العربية العامية والفصيحة والبربرية بمختلف لهجاتها. أما الأوروبيون في الجزائر فقد كان لسان حالهم ما قاله ماشويل منذ 1875 وهو «ليس علينا نحن المنتصرين أن نتعلم اللغة العربية، بل الواجب على الأهالي أن يدرسوا لغتنا». وقد رفضوا حتى «التنازل» عن هذا الحق ـ كما نصحهم ماشويل ـ حق الانتصار والسيادة!

* * *

ومن الصعب أن نعدد أعمال المستشرقين بعد أن آلت إليهم دفة الدراسات العربية في الجزائر[1] بعد أن انتزعوها من أيدي المترجمين ومؤلفي الكتب المدرسية بالعامية وما شاكلها. ولكن أهم النواحي التي اهتموا بها هي: المعاجم، واللسانيات والخطوط والنقوش والتاريخ الديني، وتحقيق النصوص والترجمة في ميادين الأدب والتاريخ والعلوم والجغرافية والفقه، بالإضافة إلى أعمال أنثروبولوجية وفولكلورية إلخ. وما دام هذا البحث خاصاً بتدريس العربية فلن نتوسع في ذكر أعمال المستشرقين الأخرى.

وقد تبين من هذا البحث أن العلاقة بين الاستعمار والاستشراق في الجزائر كانت وطيدة وأن الحديث في ذلك إنما هو محض تكرارٍ لا طائلة منه، ولكن هناك نقاط أخرى يمكن أن نستخلصها وهي:

1 ـ أن عزم الفرنسيين على البقاء في الجزائر وهجرتهم إليها واستيطانهم لها ترتب

---

(1) اشتملت دراسة هنري ماسيه (الدراسات العربية في الجزائر) على بيبلوغرافية مبوبة بأعمال المستشرقين والمترجمين معاً.

عليه الاهتمام بلغة السكان فحاولوا تعلمها ليفهموا أهلها ويَسهُل عليهم التعامل معهم قبل أن يتوطد حكمهم وتنتشر لغتهم وتأثيرهم. وقد أدى ذلك إلى اهتمام خاص بدراسة اللهجات الجزائرية العربية وغير العربية فألفوا فيها الكتب المدرسية، ودونوا أمثالها وكتاباتها وتعابيرها ودرسوا الفروق بينها من منطقة إلى أخرى، وكذلك الفروق بينها وبين اللهجات العربية الأخرى التي امتدت إليها معرفتهم. ولكن ذلك لم يخل من مغامرة كالقول بأن اللهجات العربية في شمال إفريقية ابتعدت أكثر من غيرها عن العربية الأم. وقد رأينا أنهم أنشأوا عدة كراسي للعامية في الجزائر ثم أضافوا إليها كرسي العامية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس وآخر عن البربرية في نفس المدرسة.

2 ـ أن الجزائر أصبحت منطلق نشاط الاستشراق الفرنسي مبكراً. فقد وقعت مخطوطاتها ووثائقها وآثارها بين أيدي المستشرقين فتصرفوا فيها تصرف المالك في ملكه، وضاعت معهم اليوم ثروة هائلة من ذلك بعد أن استولوا عليها بطرق مختلفة تحدث عن بعضها كبارهم من أمثال بربروجر ودي سلان وفانيان. ومن الجزائر انطلقوا أيضاً فيما يسمى «بالمهمات العلمية» إلى كل من تونس والمغرب والسينغال وتمبكتو وغدامس إلخ. فتحدثوا عن المخطوطات والمكتبات هناك ووصفوها وفهرسوا بعضها ونقلوا منها ثم نشروا من ذلك ما يُفيدهم ويُفيد دولتهم.

3 ـ أنه في الوقت الذي أُنشئت فيه الكراسي المذكورة ونشطت بالجوائز ونحوها، كانت الإدارة الفرنسية، بمباركة هؤلاء المستشرقين، تستولي على مؤسسات التعليم العربي في الجزائر وتحولها عن أغراضها وتصادر جميع أوقافها وترمي بالأطفال الجزائريين في حُضن الجهل حتى لقد قال اليكسيس دي طوكفيل سنة 1848: لقد أطفأنا الشموع (وهو يعني المدارس) التي جئنا لنضيئها. وآخر ما صدر عن الإدارة المذكورة في محاربة المدارس العربية والتعليم العربي للجزائريين هو مطالبة كل من يرغب في فتح مدرسة أو إعطاء درس أن يحصل على رخصة مسبقاً حسب قانون أُكتوبر 1892. وهذا القانون هو الذي سلطته الإدارة ضد جمعية العلماء الجزائريين، وحركة ابن باديس عامة، عندما عملوا على إحياء التعليم العربي ـ الإسلامي.

4 ـ وسواء تعلق الأمر بالمرحلة الأولى أو الثانية في تدريس العربية للأوروبيين، فقد كان واضحاً ومعلناً بأن الهدف من ذلك هو التوغل السياسي، وتسهيلُ مهمة الاتصال

بالأهالي، ومساعدة الأروبيين على ممارسة تجارتهم وفلاحتهم، وليس دراسة العربية الفصيحة والاطلاع على ثقافتها وإحيائها، كما وقع مثلاً في الشام على أيدي بعض الجمعيات التبشيرية والأنشطة الاستشراقية. فالنشاط اللغوي الفرنسي في الجزائر كان سلبياً بالنسبة للغة العربية وحضارتها.

5 ـ وقد صنف هؤلاء المستشرقون اللغة العربية ثلاثة أصناف: العربية الدارجة وهي التي أخذوا في دراستها منذ بداية الاحتلال، وظلوا لا يعترفون إلا بها في الجزائر، كنوع من «الفولكلور» المحصور في بيئات صغيرة، ولذلك فإن تعليم العامية الجزائرية كان يتم بالفرنسية، وكانت كتبهم تقرأ من اليسار إلى اليمين، وحتى الجزائريين الذين تخصصوا في اللغة العربية أيام الاستعمار كانوا يتخصصون في اللغة العامية ـ باستثناء من دخل منهم المدارس الحكومية الثلاث التي أشرنا إليها ليتخرج قاضياً أو مترجماً. الصنف الثاني هو العربية الكلاسيكية (هكذا يسمونها) وهي لغة الأدب القديم بما فيه القرآن الكريم والحديث الشريف وأمهات كتب التراث. وقد اعتبر المستشرقون هذا الصنف لغة ميتة مثل اللاتينية والإغريقية لا يدرسها إلاّ أمثالهم للاطلاع على حضارة العرب والإسلام والاستفادة من ذلك لدولتهم في معاملاتها مع الأقطار العربية والإسلامية. أما الصنف الثالث فهو ما أطلقوا عليه العربية العصرية أو الحديثة، وهي عندئذ لغة الجرائد والكتب المطبوعة حديثاً والتي كانت متداولة في المشرق العربي. وهذه اللغة كانت في نظرهم «أجنبية» فكانت صحفها ومجلاتها وكتبها تدخل الجزائر أحياناً ولكنها كانت تعامل معاملة المطبوعات الأجنبية. وبناء على ذلك فإن الصحيفة العربية التي تصدر بالجزائر مثلاً كانت تخضع لقانون الصحافة الأجنبية الذي لا تخضع له الصحف الصادرة في فرنسا نفسها.

6 ـ ومع ذلك فإن جهود هؤلاء المستشرقين في دراسة وتعليم اللهجة الجزائرية وفي نشر وتحقيق وترجمة مجموعة من كتب التراث هي جهود جديرة بالتنويه. يضاف إلى ذلك أن عدداً من الجزائريين قد تتلمذوا عليهم وأصبح بعضهم في طليعة الباحثين والمؤلفين في نفس الميدان. ونكتفي هنا بذكر بلقاسم بن سديرة[1] الذي ألف مجموعة

(1) من كتب ابن سديرة: موجز النحو العربي، ودروس تطبيقية في اللغة العربية، ودروس في الأدب العربي، ومعجم عربي ـ فرنسي وآخر فرنسي ـ عربي، والدروس التدريجية من الرسائل العربية =

من الكتب المدرسية التعليمية منذ أواخر القرن الماضي. ويختلف محمد بن أبي شنب[1] عن زميله في عنايته بالتراث العربي وتحقيق العديد من المخطوطات. والغريب أنه لم يظهر بعد الفترة التي تناولناها علماء جزائريون في مدرسة الاستشراق الفرنسي في مستوى ابن سديرة وابن أبي شنب (ما عدا ربما محمد وسعد الدين بن أبي شنب والحاج الصادق صوالح) رغم أن مدرسة الاستشراق في الجزائر قد شقت طريقها وأسست لها حوالي سنة 1933 معهداً خاصاً سمته معهد الدراسات الشرقية، ونشرت (حوليات) باسمه ظلت تصدر إلى 1962 تاريخ استقلال الجزائر.

وما دام البحث عن المستشرقين واللغة العربية في الجزائر فلنختمه بتعليق الشيخ عبد الحميد بن باديس على تصريح المستشرق الشهير لويس ماسينيون حول اللغة العربية. كان ماسينيون في طريقه إلى مصر لحضور دورة مجمع اللغة العربية الذي كان عضواً فيه، وعند مغادرته فرنسا صرح بأن على فرنسا الاهتمام باللغة العربية لأنها «ليست غريبة عنا، بل هي جزء من تراثنا القومي».

وعندما قرأ ابن باديس هذا التصريح كتب قائلاً: إن ماسينيون يعرف موقف حكومته في الجزائر من اللغة العربية ومن التعليم العربي الحر، ومع ذلك لم يرفع إصبعاً، وأنه لو أراد حقاً خدمة اللغة العربية «لقدم تقريراً رسمياً دعا فيه حكومته إلى اعتبار العربية لغة رسمية وإلى حرية تعليمها» في الجزائر، ثم ناقشه ابن باديس في دعواه أن العربية جزء من التراث القومي الفرنسي، قائلاً: ولكن «اللغة هي الطابع الصحيح للقومية التي

= المخطوطة وقد سماه بالعربية هكذا: (كتاب الرسائل في جميع المسائل)، 1893 بالجزائر. ولابن سديرة تآليف في البربرية أيضاً (القبائلية). وقد أصبح أستاذاً بمدرسة الآداب العليا وبالمدرسة النورمالية وعضواً في الجمعية الآسيوية بباريس.

(1) حصل ابن أبي شنب على الدكتوراه من السوربون، واشتغل أستاذاً للأدب العربي في كلية الآداب بالجزائر، وهو من تلاميذ ريني باسيه. وقد حضر عدة مؤتمرات دولية للمستشرقين (استوكهولم، لندن إلخ). وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. ومن تلاميذه المستشرق البارز ألفريد بيل أستاذ كرسي العربية ومدير مدرسة تلمسان العربية ـ الفرنسية. وحياة ابن أبي شنب وأعماله منشورة في كتاب (محمد بن أبي شنب) تأليف عبد الرحمٰن الجيلالي، ط. 2، 1983. وكتاب (أعلام الجزائر) لعادل نويهض. ولنا بحث حوله سميناه (بين علماء الجزائر وعلماء الشام) في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة)، 1983.

تعرب عن وحدة الشعور والتفكير، وعما يعمها من إحساسات الألم وبوارق الأمل، مما اتحد من ماضيها وحاضرها ومستقبلها. فاللغة العربية إنما هي من تراث القومية العربية فقط، كما أن اللغة الفرنسية إنما هي من تراث القومية الفرنسية فقط». وقد ختم ابن باديس رده بقوله: لعلّ ماسينيون إنّما أراد بذلك التصريح المجاملة فقط، ولكن لا مجاملة في المسائل العلمية «خصوصاً في مقومات الأمَم وأعزّ شيء لديها»[1].

مدينة تيزي وزو (الجزائر) 15 يناير، 1989

(1) جريدة البصائر عدد 20 يناير 1939. وكان ابن باديس رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وقد قال ذلك حوالي سنة قبل وفاته (توفي 16 إبريل 1940). ويعني ابن باديس «بالمجاملة» أن ماسينيون كان يخدم سمعة فرنسا في المشرق وخصوصاً بين العرب الذين تربطهم بعض الروابط بفرنسا.

الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر "مترجم" (*)

مقدمة المترجم

الواجب على كل جزائري أن يطالع، في نظرنا، هذا البحث، سيما جيل ما بعد الاستقلال، لكي يعرف كيف كانت «الثقافة الشعبية الاستعمارية» تعامل آباءه وأجداده، ويعرف معاناة الشعب الجزائري جميعاً من سياسة «المهمة الحضارية» التي زعم الاستعماريون الفرنسيون أنهم حملوها إليه. إن الثقافة الشعبية الاستعمارية هي التعبير عن ممارسات الحياة اليومية للإنسان الأروبي مع الفرد الجزائري، وليست هي معارك المقاومة، ولا القوانين الاستثنائية ولا المحاكم الرادعة وغيرها من الإجراءات «الرسمية»، إنها سلوك الإنسان مع الإنسان، سلوك أصبح في الواقع يعبّر عن علاقة حيوان مع حيوان.

قد يتقزز القارىء مما سيقرأ في ثنايا هذا البحث، وقد يثور بينه وبين نفسه، وقد لا يصدق ما نشرته الصحف الكولنيالية في الجزائر عن الجزائريين وما بثته المسرحيات والنشريات والروايات التي كان يشرف عليها أصحاب الأقدام السوداء، . . . ولكن على هذا القارىء أن يتأكد أن ذلك قد حدث فِعْلاً في بلاده التي يحاول اليوم بعض أهلها أن ينسوا أو يتناسوا ذلك الماضي البغيض، وأن يدفنوا ذاكرتنا في التراب، وأن يفتحوا أبواب الجزائر من جديد لنفس الذين كانوا يعاملون أهلنا معاملة المنبوذين، بل معاملة أقل من الحيوانات الدنيا.

إن المفردات والتعابير التي استعملها أصحاب الأقدام السوداء في صحفهم

(*) نشر على حلقات في جريدة (السلام)، ابتداءً من 7 أبريل، 1991. وقد ترجمناه عن الأستاذ إيمانويل سيفان، (مجلة التاريخ الحديث والمعاصر R.H.M.C) يناير 1979. ص 21 ـ 53.

ورواياتهم. . . لوصف الإنسان الجزائري هي مفردات وتعابير قد يتحرج بعض الجزائريين اليوم من نطقها أو حتى الهمس بها، ولكن آذان أهلهم وأمهاتهم وأخواتهم طالما سمعتها وتأذت منها، وكان عليها أن تصطك وتصطك وأن تتقزز وتتقزز إلى أن جاءت اللحظة التاريخية الحتمية التي غيرت ذلك الوضع الشاذ. إن تعابير مثل: البيكو، والموتشو، والراتون، والموكيرا، والصال أراب، واترافاي أراب، وغيرها. . . تمتلىء بها أدبيات العهد الذي درسه السيد إيمانويل سيفان، وهو الفترة التي تمثل أوج الاستعمار الفرنسي لبلادنا. وقد جاء سيفان ببلوغرافيا غنية جداً، عزّ علينا أن لا يطلع القارىء على جهد وتدقيقات صاحبها، رغم أن القارىء غير المتخصص قد يستثقل كثرة هذه التعاليق والتوثيقات.

ولا شك أيضاً أن دارسي تاريخ الاستعمار، وعلوم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا لدى الشعوب المضطهدة سيجدون في هذا البحث مادة خصبة للمقارنة. ويهمنا أن يعرف باحثو الجزائر، من أدباء وعلماء العلوم الإنسانية عموماً، ثروة هامة في إحالات وتعاليق إيمانويل سيفان وفي متن البحث نفسه. وكم نتمنى أن يثير هذا البحث فضول طلابنا وأصدقائنا. ونحن نعترف أمامهم بأن البحث قد أتعبنا جداً في ترجمته نظراً للغة المؤلف العالية فيه، ولوفرة المصطلحات والتعابير المحلية والخاصة التي حفلت بها اللهجة المسماة بلهجة سابير، والبَاتْوَا، والبِيدْجِينْ.

أما الكاتب فهو، كما جاء في آخر البحث المترجم، أستاذ مشارك في التاريخ بالجامعة العبرية بالقدس الشريف، وهو مؤلف (الإسلام والحروب الصليبية، باريس، 1969)، وكتاب (الوطنية والشيوعية في الجزائر، باريس، 1976)، كما له غير هذين الكتابين.

وقد ظهر بحث «الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر» في (مجلة التاريخ المعاصر)، المجلد 14، رقم 1يناير، 1979، ص ص 21-53. وهي مجلة تظهر في لندن وبيفرلي هيلز.

وقد سبق لنا أن ترجمنا له بحثاً عن نجم الشمال الإفريقي والحزب الشيوعي في الجزائر، ونشرناه في جريدة (الشعب) على حلقات[1]. وإذا حكمنا من اقترابات السياسية والفكرية التي تنم عنها أبحاثه، فإنه قد يكون من يهود الجزائر أو فرنسا السابقين

(1) وهو الآن منشور في الجزء الثالث من هذا الكتاب (أبحاث وآراء. . .). دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 25-47.

والمتخصصين في تاريخ الجزائر الوطني والفكري، رغم أنه لا يشير إلى ذلك إلا عرضاً عندما يذكر في عدة مناسبات بعض الأدبيات المتعلقة بمعاداة السامية التي صدرت عن أصحاب الأقدام السوداء. أما الكنيسة المسيحية فلم يذكرها من قريب أو من بعيد. ويهمنا بهذا الصدد أن نشير إلى أن الكاتب يستعمل مصطلحات: المسلمين والأهالي والعرب لنفس المعنى، ولكنه أحياناً يفرد بالحديث القبائليين والميزابيين حسب السياق.

ويمتلىء بحثه هذا بالمصطلحات المحلية التي تحتاج في الواقع إلى «معجم» خاص. وقد نفعل ذلك عند نشر البحث في أحد كتبنا. أما الآن فحسبنا الإشارة إلى هذه النقطة. وهناك نقطة أخرى تتعلق بقواعد الإحالات، مثل: نفس المصدر، والمرجع السابق، والمرجع المشار إليه، وهنا وهناك إلخ. أما الترقيم المرفق للجرائد والدوريات فالرقم الأول عادة يشير إلى العدد أو السلسلة، والثاني إلى التاريخ، والثالث إلى الصفحة أو الصفحات (دون ذكر حرف الصاد).

1990/6/12

(1)

إحدى الملامح التي ميزت حالة الجزائر في حوليات التخلص من الاستعمار هي الدور البارز الذي لعبته جماهير الأقدام السوداء. إن هذه المجموعة الاستيطانية الكبيرة (حوالي 980000 أو عشر مجموع السكان) كانت قوة كبيرة تهز الاستقرار وذلك بتوفيرها لعنصر الجماهير، بالإضافة إلى الدعاة الأكثر نشاطاً وتصلباً في كل المحاولات التي قد تؤدي إلى «التخلي عن الجزائر الفرنسية» من مظاهرات 6 فبراير 1956 في مدينة الجزائر ضد زيارة رئيس الوزراء الفرنسي، جي موليبه، مروراً بأحداث ماي 1958 وتمرد أسبوع الحواجز في يناير 1960، وانقلاب الجنرالات الأربعة في أبريل 1961، إلى الحملة النهائية لمنظمة الجيش السري التي أطلقت فيها العنان للإرهاب اللا محدود (1960 ـ 1962).

وبينما الأوصاف الصحفية والخيالية لمأساة النفس (بسيكودراما) عند أصحاب الأقدام السوداء في الاقتتال بينهم (وهو الاقتتال الذي تحول فيما بعد إلى أعمال انتحارية) ـ قد أصبحت معروفة للجميع، فإنه لا توجد محاولة منظمة لدراسة عميقة لعقليتهم الجماعية، عدا بحث بيير نورا (P. Nora) الذي عنوانه (فرنسيو الجزائر) الصادر سنة 1961، وهو البحث الذي أقامه بالدرجة الأولى على ملاحظاته أثناء 1958 ـ 1960 عندما كان معلماً في إحدى المدارس الثانوية بوهران.

ولكن مصادر البحث متوفرة لمن يرغب في دراسة الثقافة الشعبية لهذه المجموعة البشرية التي هي في أغلبها مجموعة حضرية متكونة من العمال اليدويين، ومن الموظفين أصحاب الياقات البيضاء، والفئة القليلة من الحرفيين والتجار. وأهم هذه المصادر هي القصص الرخيصة ذات التوزيع الجماهيري الواسع (وهي المسماة روايات زوج سوردي)، ونعني بها سلسلة كاقايوس (Cagayous. فقد ظلت تصدر خلال ثلاثة عقود تقريباً (من 1891 ـ 1920) في إصدارات أسبوعية، وهي عادة تصدر في ست عشرة

صفحة. وكانت تستعمل اللهجة الشعبية (Plebeian Dialect) لأصحاب الأقدام السوداء الحضريين، وهي اللهجة التي أطلق عليها للتفكه باتاويت Pataouéte، وهي عامية فرنسية Patois طعمت بأشكال لفظية وصرفية من اللغات الاسبانية والايطالية والمالطية والعربية(1).

وكان أوغيست روبينيه (عاش بين 1862 ـ 1930) هو المؤلف متعدد الاختصاصات والذي كان يكتب باسم مستعار هو موزيت Musette، وكان يشتغل بالمحاماة في مدينة الجزائر، وصحفياً، ومتولياً لوظيفة رسمية، وكان في كتابته معتمداً على معلوماته الوثيقة عن الطبقات الدنيا الأروبية في الجزائر، خصوصاً وقد كان يعمل في مقر ولاية الجزائر كمفتش للمساعدات الاجتماعية الموجهة للأطفال. فكان كل ذلك قد ساعده على إبداع البطل الأدبي لسلسلة (كاقايوس)، وهو البطل الذي كان «مزيجاً من بنورج Panurge وقينيول Guignol وقفروش Gavroche . . . وماريوس Marius»(2).

إن هذا البطل الروائي المولود في حي باب الواد بمدينة الجزائر، من أب فرنسي وأم اسبانية، وذا المزاج الشعبوي Populist والكثير التنقل في حياته العملية من شغل إلى آخر، قد أصبح شخصية على درجة كبيرة من الشعبية في أوساط الفئات العامة للمدن الفرنسية الجزائرية. وكانت الإصدارات الأسبوعية التي تصف مغامرات كاقايوس سرعان ما يختطفها الناس من أكشاك الصحف، حسبما رواه شهود عيان معاصرون، ثم يبيعها أيضاً الطابعون ـ الناشرون ـ بعد ذلك عن طريق البريد. ويبدو أن إصدارات كاقايوس قد

---

(1) أول المسلسلات ظهرت في الأسبوعية (لوتوركو Le Turco) بين 1891ـ1892 وذلك بناءً على رسالة المؤلف إلى (بابا لويت) 4 إبريل 1909. وقد جمعت تلك المسلسلات بعد ذلك في لمحات أدبية (Pochades جزائرية) الجزائر 1895. وكانت آخر الإصدارات هي (كاقايوس المشعر Poilu) الجزائر 1920.

(2) انظر غ. أوديزيو، مدخل إلى كاقايوس وقصصه المفضلة، باريس 1931، 8. ويتضمن هذا قسماً مفيداً جداً عن لغة كاقايوس. وعن موزيت وأعماله انظر نفس المصدر، 8، وكذلك ب. ميل P. Mille «عندما يبعث بانورج» Panurge في (كراسات الكانزين) عدد 9/ 16 الموافق 30 جوان 1908، ص 146 ـ 156. وكذلك نفس المصدر: «كاقايوس الشهير» في مجلة (نوفيل ليتيرير) 19 إبريل 1930، ص 68 ـ 72 . و.أ. ديبوا A.Dupuy: «طفولات كاقايوس» في (جورنال معلمي شمال إفريقيا)، 1947، رقم 5، ص 66 ـ 67، 79.

حافظت على شعبيتها بين الطبقة الدنيا (أما الطبقة العليا فقد تقززوا من لغتها السوقية) طيلة العشرية الأخيرة من القرن الماضي والعقدين الأولين من هذا القرن.

كان الطلب ملحاً على إصدارات كاقايوس لدرجة أن كثيراً من أرقام السلسلة قد أعيد نشره في شكل كتاب (وهي في الواقع مجموعات من الكتيبات Brochures[1]) وبعض هذه الكتب قد أعيد نشره خلال العشرينات وأواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات. أما الأنطلوجيا المسماة (كاقايوس وقصصه المفضلة) فقد أشرف على إخراجها غبريال أوديزيو Audisio (وهو الصديق الأمين لألبير كامو A. Camus) ونشرت سنة 1931 من قبل دار قاليمار الباريسية ذات الشهرة الواسعة.

وقد طبعت هذه القصص خمس مرات[2]. وإذا كان اسم كاقايوس قد أصبح في الواقع معروفاً على كل لسان للدلالة على صاحب القدم السوداء الساكن في المدينة والمنتمي للطبقة الدنيا، فإنّ شعبيته قد برهنت على اتساعها أكثر بالعديد من صور التقليد لأسلوب (موزيت) وأبطاله في الصحافة الجزائرية الشعبية، وذلك باستعمال «العلامة

---

(3) بالإضافة إلى المجموعات المذكورة في هامش 1 و 2، فإن أهم كتب كاقايوس ـ وكلها منشورة في مدينة الجزائر ـ هي: غراميات كاقايوس، 1896، وكاقايوس المعادي لليهود، 1898، وخروج بربروس 1898، وكاقايوس في الثكنة، 1899، وكاقايوس في المعرض، وقنديل كاقايوس (وهو اسم صحيفة ظهرت بين جوان وسبتمبر 1901)، وكاقايوس في كل مكان، 1905، وكاقايوس في المعجزة Au Miracle، 1905، وكاقايوس في الحفلة، 1905 ، وكاقايوس في السباق، 1905، وكاقايوس الفيلسوف، 1906، وزواج كاقايوس 1906، وطلاق كاقايوس 1906، وضربة رأس 1907، وكاقايوس الطيار 1909، وكاقايوس سائق السيارة 1909، يضاف إلى ذلك مسلسلات تظهر من وقت إلى آخر في جريدة (لاديباش ألجيريان) و(لينوفيل) و(ليليستراسيون ألجيريان).

وبالنسبة للمعلومات الخاصة بالتوزيع والأسعار أنظر مقالات ب. ميلر، وكذلك الإشارات المتضمنة في العديد من مجموعة الكتيبات، (ولا سيما في مجموعة غراميات كاقايوس وبابا ـ لويت 3 يوليو 1909)، وبناءً على ما ذكره أوديزيو في (المدخل) ص 15، فإن أحد هذه الكتيبات قد بيع منه إثنى عشر ألف نسخة في يوم واحد.

(2) زواج كاقايوس، ط. 2 سنة 1924، و ط. 3 سنة 1949. وغراميات كاقايوس، ط. 2 سنة 1949. وكاقايوس في الثكنة، ط. 2، 1950، وكاقايوس في البحر ـ وهو أنطولوجيا من مسرحيات قديمة ـ سنة 1952. أما طبعات 1949 ـ 1952 فقد كانت جزءاً من (مؤلفات كاقايوس) المنشورة من قبل مؤسسة باكونيه بمدينة الجزائر، ضمن سلسلة (البحر الأبيض المتوسط الحي)، وفيما يتعلق بأنطولوجية أوديزيو، انظر هامش 2.

المسجلة» لكاقايوس في أنواع السجائر المصنوعة في مدينة الجزائر، وفي الأثاث، والمعاطف الضيقة الوسط (وهو نوع من المعاطف مصنوع على الشكل الذي ظهر به هذا البطل وهو مرسوم على الغلاف)، وكذلك في أسلوب كاقايوس في الإشهارات التجارية، وفي أرقام كاقايوس بالمسرح الشعبي [1]. كما أن الأغاني الشعبية في مدينة الجزائر تحتفل بكاقايوس على مثل هذه النبـرات المسجعة: (Nous Sommes tous, des Cagayous) التي تعني (كلنا كاقايوس). وخلال الحرب العالمية الأولى نظم مساجين الأقدام السوداء في ألمانيا سهرات جزائرية ذات طابع حنيني (نوستا لجيكي)، حيث رويت قصص كاقايوس وفخمت تفخيماً[2]. وحتى قبل أن تمجده دار قاليمار، كانت كلية الآداب في جامعة الجزائر قد بدأت في تحضير طبعة علمية لأعمال كاقايوس. وهو المشروع الذي لم ينشر. كما أن فصلاً طويلاً وجَزْلاً خصص له في الدراسة المعدة رسمياً للاستعمار الفرنسي في الجزائر، والمنشور في السلسلة المخلدة للذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي سنة 1930[3].

وفي أوائل سنة 1954 ظهر في مدينة الجزائر مقال متعمق وناقش السؤال التالي: «هل ما يزال كاقايوس حياً؟» وكان الجواب إيجابياً «بالنظر إلى السيكولوجية القاعدية، وبالنظر كذلك إلى شكل تعبيره[4]». كما أن الأعمال (المؤلفات) التي نشرت في مدينة الجزائر عشية اندلاع أحداث 1954 (انظر هامش 4) تدل على استمرار شعبية كاقايوس. ذلك أن ذكراه قد بقيت إلى هذه الأيام بين المليون من أصحاب الأقدام السوداء الذين رجعوا إلى فرنسا بعد سنة 1962. ففي 1972/1971 أصدرت دار نشر تجارية بنجاح سلسلة من الكتب تتقدمها انطولوجية كاقايوس وهي مهداة إلى أعمال كاقايوس ذات الأسلوب المتميز، وبحنين وتذكّرات للجزائر الفرنسية. كما أن المسرحيات التي تقلد (موزيت)

---

(1) المدخل (عليه توقيع فلاي Fly) إلى غراميات كاقايوس، ص 16 ـ 17. وزواج كاقايوس 1906 الملزمة 1، 4.

(2) ب. أشار P. Achard (صالويتش) ط. 2 باريس 1972، ص 239، وأوديزيو، المدخل إلى المرجع السابق، 8 انظر (تعليق 1).

(3) إ. ف. غوتييه (قرن من الاستعمار)، باريس 1930، ص 113 ـ 122، وأوديزيو، المرجع السابق 14.

(4) ج. بوميية J. Pomier «حقيقة كاقايوس: شخصية شعبية من مدينة الجزائر» في مجلة (إفريقيا)، يناير 1954، ص 7 ـ 15. ولمعرفة نفس النتيجة من الناحية اللسانية المحضة، انظر مقالة ديبوي 1948، كما سيشار إليها في هامش 18.

في استعمال لغة الباتاويت قد استمر تمثيلها على المسرح[1] .

وباختصار، فإن كاقايوس إذاً «لم يكن انبعاثاً تلقائياً لخيال الجماهير. . . بل مجرد مخلوق أدبي، «فإنه قد أصبح نمطاً أدبياً، ونوعاً من الأسطورة التي يعاد تذكرها والتي خلدت بعد مؤلفها، كما يقول أوديزيو، أو هي، كما يقول إيميل فيليكس غوتييه مغروسة جداً في ذاكرة وأحاديث الأروبيين الجزائريين. . . وهي حية ماثلة على طريقة بوليشنيل Polichinelle وقافروش»[2] . وسواء أكانت هذه الذاتية الشعبية الملازمة له قد جاءت من كون طريقة هذا النموذج (الأسطورة) تعكس حياة جمهورها أو أن كاقايوس هو الذي يشكلها، فإن ذلك يبقى سؤالاً دقيقاً في حاجة إلى بحث مستفيض.

غير أن قصص كاقايوس الرخيصة الثمن ليست وحدها هي المصدر لعقلية أصحاب الأقدام السوداء، ولكنها تفيدنا في التساؤل عما إذا كان يمكن البحث عن مادة إضافية. فمن جهة هناك إصدارات أسبوعية شعبية أخرى، أغلبها فكاهية ساخرة ـ وكثير منها صيغت في قالب كاقايوس ـ ومن أكثرها نجاحاً بابا ـ لويتPapa - Louette [3] .. ومن جهة أخرى فإن دراسة لهجة أصحاب الأقدام السوداء المبنية على ملاحظة العاميّة المعبرة عن الحياة الحقيقية (وليس عن إنتاجها الأدبي الراقي نوعاً ما)، تعطينا المفاتيح لنظرة داخلية مدهشة في الذهنية الجماعية للإنسان الأروبي الجزائري، بما يشبه ما انتهى إليه يوجين ويبر E. Weber من إعادة بناء ذهنية الفلاح عند مدار القرن بمساعدة اللهجات الإقليمية[4] .

(1) سلسلة: وإذن؟ ها هوا Et Alors Et Oila التي نشرها إدوارد بالان Ed. Balland يشرف عليها الصحفي المعروف جداً، وهو ر. بكري R. Bacri في شهرة جريدة (الكنار أنشينيه)، وهو نفسه مؤلف كتاب مذكرات طفولة يحمل نفس عنوان السلسلة وقاموساً عن لغة الباتاويت بعنوان (لورورو باب الواد)، باريس 1969. ومن الكتب الأخرى المنشورة نذكر أنطولوجية أوديزيو، والأعمال التي أصدرها أ. بروا E.Brua و ب. أشار. أما عن المسرحيات فقارن مثلاً ما كتبه أ ـ ب. لانتان A.P. Lentin (السيد: باتاويت والراجع إلى وطنه) في مجلة (جون أفريك) 23 مارس 1964.

(2) أوديزيو، مدخل، مرجع سابق، 8، وكذلك غوتييه، مرجع سابق، 121.

(3) ظهرت هذه الأسبوعية مدة ثماني سنوات متوالية (من 1906 - 1914) ولها توزيع بلغ حوالي إثنى عشر ألفاً. وهناك أسبوعيات أخرى تواصلت على نفس النسق وهي: (لوكـوشون)، (لاكرافاش)، (لوديابل أكاتر)، (لوكوكو ألجيريان). وكلها ظهرت بين 1898 و 1912.

(4) أهم دراسة استيعابية هي كتاب أ. لانلي A.Lanly (فرنسيو شمال إفريقيا)، باريس 1962. انظر أيضاً نفس المصدر «ملاحظات على فرنسي شمال إفريقيا» في مجلة (الفرنسي / الحديث) عدد =

ويجب أن يضاف أيضاً إلى هذه المصادر الكتب التي ألفها الكتّاب الساخرون الأروبيون الجزائريون الذين كتبوا بلغة الباتاويت[1] ، والقصاصون الأكثر واقعية، وكذلك كتاب المذكرات الذين يصفون عادات حي باب الوادي والأحياء المشابهة له[2] . وأيضاً كتابات السواح، ولا سيما الأنكلو- ساكسون الذين هم أقل تأثراً من الفـرنسيّين بإيديولوجية «المهمة الحضارية» التي كانت فرنسا تزعم القيام بها[3] . وأخيراً وليس آخراً

= يوليو 1955، ص 197 ـ 211. وكذلك ب. بريقو P.Pérégo «بعض ملاحظات حول الفرنسية الدارجة في الجزائر» في مجلة (لوبانسي)، 1955، ص 90 ـ 95. وكذلك غ. أوديزيو «بحث في لغة كاقايوس» في المرجع السابق، ص 17 ـ 40. وكذلك أوديزيو (معجم) في نفس المصدر، ص 251 ـ 265. وا. ديبوي «فرنسية شمال إفريقية» في مجلة (حياة ولغة) عدد 94 (1960)، ص 2 ـ 11. وكذلك (الثورة الافريقية) عدد 110، 6 مارس 1965، وهو مقال موقع عليه بحرفي أ.م. A.M. وانظر أيضاً نفس المصدر، رقم 111، 13 مارس 1965، موقع من قبل م. بوربون. وبالنسبة للمقارنات انظر بخصوص المسلمين الجزائريين ما كتبه ل. برونو L. Brunot «سابير Sabirs» في (جورنال معلمي شمال إفريقية) إبريل 1948. وكذلك م. الحاج صادق «اللهجات العربية والفَرْنَسة اللسانية في الجزائر» في (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، مدينة الجزائر 1955، ص 61 ـ 97. وقارن ذلك مع أ. ويبر (من فلاحين إلى فرنسيين) ستانفورد، 1976، الفصل 6.

(1) أ. بروا E. Brua (حكايات عنابية (بونية))، الجزائر 1938، وكذلك نفسه (تقليد السيد LE Cid)، الجزائر 1941. ونفسه أيضاً (حكايات قدور)، باريس 1972، وأيضاً أ. ديبوي (حكايات بلهجهة سابير) الجزائر 1947. وأيضاً ر. بكري (لورورو، ولهجات سابير قدور بن نيرام)، تونس 1952.

(2) ل. برتراند L.Bertrand (بيبيت المحبوبة) باريس 1904، طـ. 2، ثم أطلق عليها ا سم (بيبيت وبَالْيِزّار)، باريس 1920، وج. بيليقري J. Pelegri (زيتونات العدل) باريس 1958. وهـ. كريا H. Krea (جمال)، باريس 1961. ول. لوكوك L. Lecoq (باسكالويت الجزائري)، باريس 1934. وف. دوشين F. Duchêne (مونة كاشير وكسكس)، باريس 1930. و ل. فافر L. Favre (باب الواد)، باريس 1946. ونفسه (في القصبة)، باريس 1937. و أ. ميمي ـ محرر ـ (أنطولوجيا الكتّاب الفرنسيين بالمغرب ـ العربي ـ)، باريس 1964. أما أعمال ر. راندو R. Randau وج. بومبيه فإننا لم نشر إليها هنا لأنها كثيرة الانهماك في الدعاية الجزائرية ـ اللاتينية. وبالنسبة للمذكرات، انظر هـ. كلاين H. Klein (أوراق الجزائر)، الجزائر 1921. وأيضاً أشار، المرجع السابق، ور. بكري (وإذن؟ ها هوا)، 1968، وقارن ذلك مع م. بارولي M. Baroli (الحياة اليومية لفرنسيي الجزائر، 1830 ـ 1914)، باريس 1967.

(3) أ. اير E. Ayer (عبر الجزائر بدراجة نارية)، نيويورك 1913. وكذلك م. د. ستوت M.D. Stott (الجزائر الحقيقية)، لندن 1914.

فإن نظرات متعمقة جديدة إلى الظاهرة الجزائرية من زاويـة المقارنة، يمكن اكتسابها من دراسة العلاقات بين السلالات في الولايات المتحدة الأمريكية قبل الحرب الأهلية (وفي الوقت الحاضر) وفي جزر الهند الغربية وإفريقية الغربية، ومدغشقر، وجنوب إفريقية، وفرنسا في الوقت الراهن[1] .

إن معظم مصادرنا الجزائرية تتعلق بالفترة الواقعة بين سنوات التسعينات وفترة الحرب العالمية الثانية، وخصوصاً الفترة ما بين 1890 ـ 1920، وهي التي تعتبر البداية الفعلية لدراسة مثل هذه. ذلك أن الفترة المذكورة (1890 ـ 1920) تعتبر أعلى مرحلة من مراحل الاحتلال الفرنسي في الجزائر. فقد كانت (أي الفترة) أثر القضاء على آخر الثورات التقليدية، وهي ثورة المقراني سنة 1871، حين تدعمت الهيمنة الاقتصادية والسياسية للكولون (بين 1870 ـ 1890)، وكانت معاصرة لحصول الكولون أيضاً على إجراءات كبرى لصالح الاستقلال المالي (بين 1898 ـ 1902)، كما كانت قبل ظهور التحدي السياسي للحركة الوطنية الجزائرية، (أي حركة الشباب الجزائريين التي ظهرت على يد الأمير خالد سنة 1919، وجمعية العلماء سنة 1925، ـ كَذَا ـ ونجم الشمال الافريقي سنة 1926). وهي أيضاً الفترة التي سبقت ثورة ماي 1945 التي تعتبر إلى ذلك العهد ثورة قصيرة ولكنها مع ذلك ذات أسلوب عصري، وهي الثورة التي أعطت لأصحاب الأقدام السوداء مؤشرات موتهم الوشيك.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من آفاق أوسع، فإن تلك السنوات (1890 ـ 1920) كانت تمثل الامبريالية الفرنسية التي يفترض أنها كانت محصنة، وهي تمثل الاعتداد بالنفس وغير الخجول من هيمنته، والذي بلغ أوجه في سنة 1930 بالاحتفال المئوي وبالمعرض

---

(16) والمفيد خصوصاً هو كتاب و. د. جوردان W.D. Jordan (أبيض على أسود: وجهة النظر الأمريكية نحو الزنوج، 1550 ـ 1812)، تشابل هيل (أمريكا) 1968. وكذلك ج. س. أولبورت G.S. Allport (طبيعة الحكم المسبق)، بوسطن 1952. وكذلـك أ. مانـوني O.Mannoni (سيكولوجية الاستعمار)، باريس 1950. وأيضاً ب. موكور P. H. Maucorps وآخرون (الفرنسيون والعنصرية)، باريس 1965. وأيضاً ب. فان دين ـ بيرغ P. Van Den Berghe (العنصـرية والإثنية)، نيويورك، 1970. وأيضاً م. بانتون M. Banton (العلاقات العرقية)، نيويورك، 1967. وكثير من النظريات الداخلية يمكن الاستفادة منها من كتاب ت. زيلدن T. Zeldin (فرنسا: 1848 ـ 1945)، جزآن، اكسفورد، 1973، 1977.

الكولونيالي في باريس سنة 1931. ولكي نعود إلى الجزائر مرة أخرى، نذكر أخيراً أن مدار القرن قد رأى فيها اختلاط العديد من السلالات الأوروبية المهاجرة مع مجموعة أصحاب الأقدام السوداء. وهكذا فإنها كانت لحظة متميزة علينا أن نقتنصها بالمعنى الحرفي للكلمة لمعرفة الثقافة الشعبية لأصحاب الأقدام السوداء.

* * *

(2)

وبينما كان كاقايوس يقص كيف كان يحاول أن يجد طريقه إلى خارج قصر العدالة بمدينة الجزائر، وجد نفسه في غرفة حيث رأى «دكة مزدحمة بالرجال والنساء والعرب» [1]. إن كل شيء يكمن في هذه الجملة البريئة، جملة سقطت (كما يشير إلى ذلك السياق) باعتبارها واقعاً مسلماً به، دون أي نية لمحاولة إثارة الضحك. إن العربي شخص غريب وينتمي إلى صنف مختلف من البشر ويجب أن يكون واضحاً أن عبارة «العرب» تشير إلى كل الأهالي المسلمين الجزائريين، رغم أن ثلثهم على الأقل كانوا يتكلمون البربرية. وهذه النسبة تكون أعلى في مدينة الجزائر حيث كان يعيش كاقايوس، نظراً لنمو النزوح من بلاد القبائل[2] القريبة من هناك.

إن حشد القبائل والعرب معاً يؤشر إلى التأثير الذي مورس على الذهنيات الشعبية من قبل المذهب الاستعماري الجديد الذي انتشر في الجزائر بين محترفي السياسة والصحافة والرواية، من الكولون خلال ربع القرن الموالي لثورة المقراني، وهو المذهب الذي رفض بصراحة «أسطورة البربر - القبائل -» التي صنعها الإداريون الاستعماريون والأكاديميون الفرنسيون. وتدعي هذه الأسطورة أن العرب والبربر عنصران مختلفان تماماً، فالعرب محتلون جاؤوا خلال فترة لاحقة وهم أدنى ثقافياً. وأن البربر هم الأهالي الحقيقيون وهم إلى ذلك الوقت أكثر تفوقاً، نظراً لافتراض أصولهم السَّلْتِيَّة. وقد بنيت على هذه الأسطورة سياسة كاملة قائمة على قاعدة «فرق تسد». وتعني الأسطورة بالطبع فَرْنَسَةَ البربر. ولكن هذه الأسطورة قد رفضتها الآن النخبة الجزائرية الأروبية، ذلك أن

(1) طلاق كاقايوس، ص 34. قارن ج. روي في (ليكسبريس) 29 سبتمبر 1960 (مذكرات طفولة).
(2) القبائل يشار إليهم أحياناً كصنف أقل من «العرب» أو «الأهالي»، انظر بابا - لويت 21 ماي 1911، أول أوت 1914. وكذلك أشار Achard، المرجع السابق، 75؛ وكذلك لانتيرن كاقايوس رقم 1، ص 16؛ وكذلك نفس المصدر، رقم 11، ص 9، ورقم 13، ص 7. وكذلك زواج كاقايوس ص 147، وكاقايوس وقصصه المفضلة، ص 95.

هذه النخبة اعتبرت كل (الإسماعيليين) غير قابلين للاندماج بأية حال. وقد اعتبرت الجزائر إذن عبارة عن أرض «لِمُجْتمعين (مجتمع أروبي وآخر أهلي) متعارضين تماماً في العادات والأفكار والأديان تعارضاً لا يمكن معه التلاقي أبداً»[1] .

ومع ذلك فإن حشد كل الأهالي تحت صفة جنسية (Generic) لا يمحي كل الفوارق الإثنية ـ الثقافية فقط ولكن الفوارق الفردية أيضاً. ففي روايات «الزوج سوردي» الصادرة عن أصحاب الأقدام السوداء وفي الصحافة العامية لا يوجد في العادة للإنسان الأهلي اسم، أو سحنة أو ملامح خاصة، فهو فقط العربي أو الأهلي (الأندجين) [2] . يوجه إليه الخطاب بدون تمييز (كما تشهد على ذلك شهادات كثيرة) على أنه «أحمد قليل الأدب!»[3] . (Ho, Ahmed!).

وها هو منظر من محاكمة الطلاق لكاقايوس في قصر العدالة: «أن الشاوش العربي قد أصبح ساخطاً جداً على حَمَاةٍ كاقايوس المعاندة. ومن حسن الحظ أن القاضي قد حضر. . . وأن الشاوش قد أعلن أن علينا، أنا وزوجتي، دخول قاعة المحكمة. فنهضتْ حماتي للدخول أيضاً، ولكن (العربي) قد اعترض طريقها. فصرختْ فيه قائلةً: لماذا لا أُرافق ابنتي؟ وبأي حق تصك الباب في وجهي يا موتشو (ميسيو) أحمد! فأجابها الشاوش: لا تدخلي معها، مع أنه لم يكن يُدْعى أحمد. (ولكن كاقايوس لم يزعج نفسه بذكر اسم الشاوش) [4] ». وكانت النساء العربيات أيضاً تُنَادَى باسم فاطمة بدون تمييز

(1) نقلها شارل روبير آجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، باريس 1968، ص 52. قارن 47 وما بعدها، و576 ـ 577، 874 وما بعدها، و990 ـ 997.

(2) مثلاً زواج كاقايوس، ص 15، لالانتيرن كاقايوس، رقم 3، ص 12، 15. ورقم 6، ص 12. ورقم 11 ص 9. والطلاق، ص 8، 174. وأشار، المرجع السابق ص 82، 91. انظر كاقايوس المضاد لليهود، ص 134. وكاقايوس في الثكنة (ط. 2)، ص 20، 89، 106. وأشار Achard المرجع السابق (ط. 2)، 244. وبابا لويت ص 4، و11 أوت 1907. و15 نوفمبر 1908. و13 ديسمبر 1908، 30 أكتوبر 1910.

(3) لا لنتيرن كاقايوس رقم 2 ص 9، وأشار، المرجع السابق، (ط. 2) ص 9، 39، 78، 87، 246، 280. ولانلي: المرجع السابق ص 15. ب. نورا Nora، المرجع السابق، ص 128. وبروا Brua: حكايات، ص 45.

(4) كاقايوس: الطلاق، ص 31، وكلمة «موتشو» هي (بيدجين) عربي مستعملة في المعنى الاحتقاري (انظر أوديزيو: معجم، ص 260).

أيضاً. على أنها قليلة الأدب، فاطمة»! أو موريسك، وأقل من ذلك استعمالاً عبارة «موكيرا»[1] .

ويذهب علماء الأنثروبولوجيا إلى أن اللازمات Labels ذات القوة الفاعلة تفقد بعض قوتها عندما تتغير من استعمالها في الأسماء إلى النعوت، وأن الأفكار المسبقة والشعارات تفقد قوتها عندما «نتحدث عن عضوية إثنية أو دينية . . . مستعملين النعوت بدل الأسماء». ومن ثمة تضاف خصائص تحدد الموضوع بطريقة أكثر دقة وصدقاً باعتباره فردياً[2] . وهذا هو بكل صراحة الاستعمال غير الشائع لكلمة «العربي» كصفة تعني (الشعب)، تلك الكلمة التي تصدم قراء مصادر الأقدام السوداء[3] . ولكنها كلمة تستعمل لتعيين الأشياء، وبالتالي فهي تستعمل عادة بطريقة حقيقية (موضوعية)، خصوصاً فيما يتعلق بالأسماء المتصلة بالثقافة المادية (الملابس، والطبخ، والأثاث، والأواني، والأسواق، وأهل المنازل، إلخ).

غير أنه في حالات كثيرة يكون لوصف «العربي» تضمين احتقاري لا شك فيه، مثل تلفون «عربي» (معناه الاتصال من الفم إلى الأذن)، وحكاية «عربية» (أي قصة معقدة)، وشغل «عربي» (أي عمل غير متقن)، وصندوق «عربي» (أي ضخم، بمعنى الممازحة)[4] . وكل شيء صنع على الطريقة العربية أو الطريقة الموريسكية (مثل الغطس في البحر، أو الحلاقة، أو طريقة مسح المرء أَنْفَهُ، أو غسل المرء ثيابه) يكتسب

(1) كاقايوس وقصصه المفضلة، ص 520. وكاقايوس المضاد لليهود، ص 157، 159؛ وبابا ـ لويت، ص 4، و 18 أغسطس 1907 ، و 24 نوفمبر 1907، و 14 مارس 1909، و 1 و 24 أكتوبر 1909، و 19 مارس 1911، وأشار، المرجع السابق، ص 86، ويكري: وماذا بعد؟ هو هذا! ص 45، ويكري: رورو، ص 13، 78، 84. ولانلي: المرجع السابق، ص 42 (تعليق 5).

(2) ألبور: المرجع السابق، 1955، ص 181.

(3) ولكن ليست كلمة الشاوش العربي التي أُشير إليها سابقاً و «الطب العربي»، انظر لانتير في كاقايوس، رقم 10، ص 8 ورقم 13 ص 15

(4) لانلي: المرجع السابق، ص 52 ـ 53. ويكري: المرجع السابق، ص 127. ولانتين Lentin: المرجع السابق، ص 39، انظر من صحافة الكولون: لا دياش ألجيريان، 9 مايو 1924 (رسالة من المنتخبين في مدينة الجزائر). وانظر ما يتعلق باستعمال مشابه للوصف «إفريقي» في إفريقية جنوب الصحراء: بانتون Banton: المرجع السابق، ص 253، وطلاق كاقايوس، ص 197. وكاقايوس وقصصه المفضلة، ص 68، (تعليق 5). وكاقايوس في الثكنة (طـ. 2) ص 20، 89، 125. وغراميات كاقايوس، ص 29، 71.

بذلك معنى «منحطاً ووحشياً، وغير جمالي». ذلك أن الإنسان الأهلي ليس هو فقط «الآخر»، أي الإنسان المنتمي لمجتمع مختلف وغريب، ولكنه أيضاً ينتمي إلى مجتمع مختلف ومحتل. أن عبارة فلان «بقي عربياً» كانت حقاً إحدى الملاحظات الأكثر تدميراً والتي أدخلت في التقرير الخاص ببطاقات التلاميذ المسلمين في المدرسة النورمالية ببوزريعة[1] .

بل أن هذا المعنى التحقيري يظهر بجلاء أكثر في المترادفات الدارجة لكلمة (الْعَرَبْ) التي كانت كثيرة الاستعمال (حتى بحضور الأهالي أنفسهم) لدرجة أنها كانت تبدو أمراً عادياً في الصحافة وفي الأدب الشعبي، بالإضافة إلى شيوعها في المعاجم وفي الأبحاث اللغوية [2] . وأشهر تلك الألفاظ استعمالاً في بداية القرن العشرين هي لفظة بيك أو بيكو[3] ، بمعية لفظة أرابيكو، وترونك أو ترونك دي فيقييه (الكرمة) [4] . وخلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، حلت ألفاظ أخرى محل السابقة، وهي: راتون، مِيلُون، بَطّار، نِيقر، بونيول (كلها بصيغة الجموع)[5] .

(1) انظر الدراسة التي عالجت هذه البطاقات المكتوبة في شكل تقارير (وتاريخها يعود إلى مدار القرن، وهي محفوظة في وثائق المدرسة) في كتاب ف. كولونا: المعلمون الجزائريون، 1883 ـ 1939، ص 163، 165، 172.

(2) انظر المعجم الملحق بكاقايوس وقصصه المفضلة. وبروا Brua : حكايات، قارن لانلي: المرجع السابق، ص 51، 52.

(3) لمعرفة أصل هذا التعبير ـ أي Diminutive الْعَرَبيكو ـ انظر لانلي: ص 51 (تعليق 5). وقارن كاقايوس المضاد لليهود، ص 143، وطلاق كاقايوس، ص 175، وكاقايوس في الثكنة (طـ. 2) ص 150. ولا لنتيرن كاقايوس رقم 3، ص 12، رقم 6، ص 5، 8. وبابا ـ لويت، ص 25 ، أكتوبر 1908، 15 نوفمبر 1908. وبروا: حكايات، ص 39 ـ 40. بيرتران: ببيت وبالثزار، ص 155، 282، وأشار Achard : المرجع السابق، ص 38. ولاستعمالات صحافة الكولون انظر (لاديباش ألجيريان)، 5 نوفمبر 1907، ولاستعمالها بالنسبة لأعيان المسلمين (الذين يحتجون ضد حالتهم الدنيا، انظر أيضاً آجرون المرجع السابق، 1089.

(4) بابا ـ لويت، 24 نوفمبر 1907. 5 أغسطس 1910. 2 أكتوبر 1910. 1 نوفمبر 1910. 21 ديسمبر 1912. 9 أغسطس 1913 . بروا، المرجع السابق، 40، 57. ج. روي في ليكسبريس 29 سبتمبر 1960 (حول الاستعمال من قبل الكولون في الأرياف). أشار، المرجع السابق، 63، 83.

(5) بروا، المرجع السابق، 40، 44. كولونا، المرجع السابق، 177، ج. روي، حرب الجزائر =

إن النظرة المقصودة من «الآخر» قد جيء بها إلى مركز أكثر تحديداً في ظواهر أخرى، وصفها (لانلي A. Lanly) إلى حد ما باحتشام في تعليق لأطروحة الدولة التي تقدم بها عن (فرنسية شمال إفريقيا) سنة 1962. وهو التعليق الذي جعله ملحقاً للفصل المتعلق بـ(اللقاء بين العربية والفرنسية الدارجة)، حيث يقول لانلي:

«وهناك ميزة أخرى تتميز بها فرنسية شمال إفريقية يجب على كل حال إبرازها وهي استعمال الضمير (أنت) Tutoiement. فهي قد تنسب جزئياً للمتحدثين بالعربية أنفسهم، ما دام المرء لا يستعمل (أنتم) بالعربية. أن أولئك المتكلمين بالعربية الذين بدأوا استعمال الفرنسية، بدأوا بضمير (أنت) عندما يخاطبون الأروبيين وكان رد هؤلاء عليهم بالمثل أيضاً. ويمكن القول أنه قبل الحرب العالمية الثانية كان استعمال الأهالي لضمير (أنت) هو الاستعمال الشائع بالنظر إلى الشخصيات المهمة، باستثناء الأوساط المثقفة، وربما أيضاً أوساط الحكومة.

وأن الأهالي الذين يعلمون أن اللغة الفرنسية تستعمل (أنتم) في علاقات المجاملة، أصبحوا يرفضون استعمال (أنت)، لأنه يرمز إلى تفوق المستعمرين... وطلبوا حذفها في الإدارة وكذلك في الحياة الاجتماعية عموماً. والحقيقة أن مناشير صدرت إلى كل العاملين الرسميين في الحكومة والمصالح الأخرى تشترط استعمال (أنتم) مع المسلمين. وقد كان على النائب العام لحكومة الجزائر أن يثير هذه التعليمات حتى إلى جوان 1960. وهكذا فإن الضمير الكولونيالي (أنت) الذي كان قد استعمل في المستعمرات الفرنسية أو المستعمرات السابقة، لم يختف من الجزائر»[1].

إن التعليق السابق الذي كتبه (لانلي) أثناء دقات أجراس الموت للحكم الفرنسي في الجزائر، وبعد الحملات المضادة التي شنها سوستيل (1955) وماسو (1957)[2] ضد استعمال ضمير (أنت) - توضح تفاؤل جاك شوفالييه، ذلك الرئيس الليبرالي السابق

= (باريس، 1960). هنا وهناك، لانلي، المرجع السابق، 177. وعبارة (Bougnoul) أي المحشو، الذي هو من أصل عسكري، كان مستعملاً في معنى احتقاري ليعني الأهالي في الهند الصينية وفي غرب إفريقية.

(1) نفس المصدر، 217، (تعليق 1).

(2) ج. سوستيل، الجزائر الحبيبة والمعذبة (باريس، 1956). ج. ماسو، المعركة الحقيقية لمدينة الجزائر (باريس 1917، كذا) وهو 1971.

لبلدية مدينة الجزائر، الذي ادعى سنة 1958 أن «الاستعمال المنظم لضمير (أنت) في خطاب الأهالي قد أخذ يختفي وأن الأحكام المسبقة الصادرة من الجانبين آخذة في التبخر». ومع ذلك فقد كان عليه هو نفسه أن يعترف بأن «جهوداً عظيمة ما تزال في حاجة إلى بذل لإدخال عامل المجاملة في المظاهر العمومية. أننا ما نزال نسمع من جانب أناس ثقافتهم في حاجة إلى المزيد، كلمات أو إشارات غير مناسبة بل حتى خشنة، نحو المسلمين» [1].

* * *

(1) نحن الجزائريين (باريس 1958)، 54 . عن حملته الخاصة ضد «المصطلحات المُسِيئة» انظر البيان بين التجمعات الليبرالية الذي أنشأه (مايو، 1951)، ما نقله نفس المصدر، 109).

(3)

إن استعمال الضمير (أنت) في الخطاب، بالإضافة إلى النعوت والألقاب التحقيرية ليست إلا الجزء البارز من الجبل الثلجي. إنها تساعدنا على الحصول على لمحة بديعة لبنية اجتماعية تصاعدية تقوم على العنصرية حيث يكون مجتمع ما (وهو غالباً مجتمع أقلية) قد فرض على مجتمع آخر. «فالأعراض المرضية في استعمال اسم «أحمد ـ بيكو ـ وأنت، تشير في الحقيقة إلى واحدة من علاقتين (ميكانزمتين)، وهي التي تظل فيها المسافة الاجتماعية، بناءً على النظرية السوسيولوجية، باقية على نحو هو بالضبط ما نسميه التفرقة الاجتماعية، أما العلاقة الأخرى (أو المكانيزم) فهو التفرقة المكانية»[1] .

وأشكال التعبير التأدبي أو الاحتفائي في العلاقات الاجتماعية هي وسيلة قوية تستخدم لإنجاز هذا الهدف، مؤكدة شعورنا (وفي هذه الحالة شعور أصحاب الأقدام السوداء) بالتفوق وزرع فكرة الشعور بالنقص في الطرف الآخر (أي المسلم) فلا عجب إذن أنه خلال ازدهار الحكم الفرنسي كان المسلمون يخاطبون الأوروبي بعبارة السيد المحترم (الشيف) سواء انطلاقاً من الطاعة أو الإطراء[2] .

والاستهزاء لا يقل فعالية كطريقة في احتفاظ المرء بالمسافة بينه وبين الطبقات الدنيا في السلم الاجتماعي. والواقع أنه بالنسبة للثقافة الشعبية المعبِّرة عن العلاقة بين الجزائري والأوروبي، فإن العربي هو دائماً موضوع للضحك. فقد كتب القصاص مولود فرعون في يومياته قائلاً: «من هو الأهلي في عين الأوروبي؟ إنه عامل مشترك، خادمة

---

(1) قارن بما في فان دان بيرغ Van Den Berghe، 42 ـ 46.

(2) لانلي، المرجع السابق، 192. قارن جنوب إفريقية باس «BAAS».

منزل، مخلوق غير متجانس بطرق مثيرة للضحك، وعادات غريبة، ولغة مستحيلة» (1) .

ومثل فرنسا خلال القرن التاسع عشر، فإن لهجة الباتوا (Batois) عند الفلاحين «كانت جزءاً من النفور منهم والسخرية بهم. «(كما يقول ويبر Weber)». ومن ثمة فإن الْبِيدجِينْ (السابير) الفرنسية المتكلم بها من قبل الأغلبية الأمية من الأهالي في علاقاتهم مع الأوروبيين (الذين رأوا تعلم العربية دون كرامتهم) كانت هي الوسيلة المفضلة للساخرين والمغنيّن من أصحاب الأقدام السوداء. فهؤلاء قد استعملوا تقاليد (سابير) كمقياس لحذلقتهم الكوميدية خصوصاً في القصص اللاذعة التي تستهزىء بالأهالي الذين يقعون في المشاكل من خلال سوء فهمهم اللغوي (2) .

وبعد ظهور (روايات زوج سوردي) اعتاد التلاميذ الأروبيون في الثانويات أن يستعملوا (سابير) ليسخروا من بعضهم البعض وكذلك بالمارّين من الأهالي (3) . ونتيجة لذلك ازدهرت صناعة أدبية صغيرة لكنها شعبية، وذلك في مدينة الجزائر وعنابة، وهي الصناعة المتخصصة في ترجمة كتب الأمهات الفرنسية (الكلاسيكية) ـ مثل السيد، وحكايات لافونتين، إلخ. ـ إلى لهجة سابير، وهي الأعمال التي أصبحت تثير الضحك وتدخل في الوقت المناسب إلى ثقافة المشاهير (الْبلياد Pleiade) ثقافة أصحاب الأقدام السوداء الشعبية (4) . وهناك أصناف خاصة من الأهالي وهم عادة أدنى الفئات، كانوا يلقبون في السابير بلقب ساخر هو (موتشو)، أي موسيو، الذي يطلق على أصحاب

(1) جورنال (1955 ـ 1962) ـ باريس، 1962، 45 .

(2) ويبر Weber، المرجع السابق، 87. الشيطان المربع، هنا وهناك، بابا ـ لويت، 27، يناير 1907 . 18 سبتمبر 1907. 1 سبتمبر 1907. 22 مارس 1908. 13 ديسمبر 1908. 11 يوليو، 1909. 16 و 23 أكتوبر 1910. 13 مايو 1913. 11 أكتوبر 1913 1 و 8 نوفمبر 1913. 1 أغسطس 1914. كاقايوس المعادي لليهودية، 71. أشار، المرجع السابق، 228. وفيما يتعلق بلهجة سابير انظر مقالة برونو Brunot (تعليق 12).

(3) أشار، المرجع السابق، 16، 27، 33، 71، 90، 163، 240، 248. وبخصوص تعبير بِيْدجِنْ Pidgin في أوضاع كولونيالية أخرى، انظر برجس A. Burgess في الملحق الأدبي لجريدة التايمس، 25 نوفمبر 1977.

(4) انظر بروا الذي أعاد بالاد Ballad نَشْرَ عَمَلِيّةْ: سخريات السيد، وحكايات قدور (انظر سابقاً، تعليق 9) معتبراً إياهما من كلاسيكيات أصحاب الأقدام السوداء. قارن أيضاً حكايات بالسّابير. (الجزائر، بدون تاريخ، ولكن قبل سنة 1954). وكذلك سابيرات قدور بن نيترام (تونس، 1952).

المحلات التجارية من المزابيين، وبلقب (بورتي مدام) للخدم من الأولاد، وبلقب (سيري) لماسحي الأحذية [1].

وكان الأهالي، وخصوصاً المحرومين منهم هدفاً متكرراً للنكت العملية الدائمة التي يتندّر بها الصبيان وطلاب الثانويات الأروبيون. فقد كانوا يرمون بالكلمات المازحة لعاهرات القصبة، وكان الأطفال المسلمون في الشوارع محل تنكيت أو كان يرسل بهم في مهمات خيالية، وكان بائعو الزيت من القبائل يتعرضون لثقب جلود قِرَبِهم، وكان جالبو المياه يتعرضون لقلب جرارهم. وكانت الحجارة أو الطماطم ترمى على «الموتشو»، والباعة في الشوارع، وكان العجزة من المتسولين هدفاً للإساءة [2]. ومن الظواهر المعتبرة كظواهر كوميدية، أداء دور كرنفالي معكوس، مثل لباس الأروبيين لباساً إسلامياً (ارتداء البرنس أو القشبية، قائلين: إننا نبدو كالعرب الحقيقيين. وكذلك لبسهم الثياب الحمراء على طريقة عمال الحمامات) [3].

وعندما كانت فكرة التمثيل البرلماني للمسلمين محل نقاش، جعل الكاتب (روبيني Robinet) شخصية كاقايوس يعبر عن عدم تصديقه لمثل هذا الاقتراح المضحك بتساؤله: «هل صحيح إذن أن رجلاً مرتدياً ثياباً بطريقة (البيكو) سيرسل به إلى غرفة النواب بباريس؟» ثم أجاب بما رآه دقاً للمسمار الأخير: إذا كان كل ما يلزم أن تصبح (موتشو) عظيماً هو ارتداء الثياب بالطريقة العربية، فأنا سألبس لباساً قبائلياً أو ميزابياً وأذهب إلى باريس وأصبح بائعاً في الشارع أو (موتشو) [4].

---

(1) أوديزيو، معجم، 260، أشار: المرجع السابق، 284. بابا ـ لويت، 11 يوليو، 1909. أن «الموتشو» شخصية ساخرة تتكرر في قصص أصحاب الأقدام السوداء. انظر مثلاً زواج كاقايوس، 180، أشار، 131، بابا ـ لويت 1 سبتمبر 1970 (؟)، طلاق كاقايوس، 18، 134.

(2) كاقايوس المضاد لليهود 157 ـ 160. قنديل كاقايوس رقم 6، 4 ـ 5. ورقم 14، 11. كاقايوس وقصصه المفضلة، 79، 81، 85. أشار: المرجع السابق 9. نفسه، رجل البحر (باريس 1931)، 107. كاقايوس والمعجزة، 3. وكاقايوس في الثكنة، 92.

(3) طلاق كاقايوس، 59، 66، 72. وزواج كاقايوس، 171. وغراميات كاقايوس (طـ 2)، 129. ديبوي Dupuy، طفولات كاقايوس، 67. قارن ب. ن. زيمون ـ دافيس N. Zemon - Davies، المجتمع والثقافة في أوائل فرنسا الحديثة (ستانفورد، 1975)، فيما يتعلق بالدور الجنسي ـ المعكوس.

(4) كاقايوس المعادي لليهود، 143، 144. أن الاستعمال الباتووتي لعبارة ميسيو Mecieu تشير في =

و (الميكانيزما) الثانية لِلإبْقاء على المسافة بين حالة الجماعة الممتازة وحالة الجماعة الناقصة ـ أي التمييز الفضائي (الإقامة) ـ تعتبر أكثر وضوحاً من غيرها في مصادرنا. ومن المفيد أن نلاحظ أن النكت العملية قد جرت في أغلب الأحيان في الأسواق الأروبية حيث كان المسلمون (الذين كانوا قبل الحرب العالمية الثانية يشكلون أقلية في كل المدن الساحلية)[1] منهمكين في تفاعلات مع الأروبيين.

فالمسلمون عادة كانوا يتلاقون في هذه الأسواق ويؤدون عادة دوراً ثانوياً. وأن القائمة طويلة في ذلك: أولاد لابلاصا (أي أطفال ساحة الحكومة، وهم خليط من ماسحي الأحذية ومن الخدم)، وباعة السفنج (العرب)، وباعة الزيت (القبائل)، والمتسولون (المساكين)، والموتشو[2]. وكلهم يلقبون بالباتويت، بألقاب مستعارة من العربية، وبالإضافة إلى هؤلاء هناك رجال الفحم، والحمالون (كريطة عربية)، والدلالون (الباعة المتجولون)، والإسكافيون، والسقاؤون، وباعة الفواكه والخضر، إلخ[3]. أما المعاملات في ميدان العمل، فإن روايات الزوج سوردي والصحافة الشعبية قد سجلت اتصالات أقل، وهي مرة أخرى كانت مقصورة على الأحياء الأروبية في المدن وفي المساحة السفلى من سلم الشغل. فوظيفة الشاوش أو الشاوشة (وهو الذي يدخل الزائر)، كانت مهمة، كما يدل على ذلك الاسم، وكانت في الحقيقة مخصصة في الإدارة العامة للأهالي، وراعيات الأطفال (بالنسبة للطبقات الأروبية الدنيا)، والخادمات (أي فاطمة)[4].

= العادة إلى الفرنسيين الباريسيين.

(1) أندري نوشي، معنى بعض الأرقام: النمو الحَضْري والحياة السياسية في الجزائر، 1926 ـ 1936، دراسات مغاربية ضمن ميلانج شارل أندري جوليان (باريس 1964)، 199 وما بعدها.

(2) دوشين Duchène: مونا، كاشير وكسكس، 202، 1209. أشار: سالويتس (ط 2) 26، 248. الحاج الصادق، المقال المشار إليه، 91 (عن عبارة «أولاد لبلاصة» كما استعارتها اللغة الفرنسية لشمال إفريقية من الباتويت. كذلك بابا ـ لويت، 11 يوليو 1909. زواج كاقايوس، 118. كاقايوس المعادي لليهود، 145. كاقايوس في الحفل، 15. لانلي: المرجع السابق، 72 ـ 73.

(3) قنديل كاقايوس رقم 2، 15. ورقم 3، 15. ورقم 6، 12. ورقم 11، 8 ـ 9. ورقم 13، 5. وزواج كاقايوس، 118. وطلاق كاقايوس، 134، 171. لوكاس وفاتان Lucas, Vatin المرجع السابق. أوديزيو، المعجم، 260. بابا ـ لويت، 25 أكتوبر 1908. بابا ـ لويت، 21 مايو، 1911.

(4) طلاق كاقايوس، 169، 177. لانلي: المرجع السابق، 72 ـ 73، 192 (في الأرياف تعني كلمة شاوش الرجل الطليعة). بارولي Baroli: المرجع السابق، 182. الطبقات العليا وجزء من =

والواقع أن المسلمين لم يتسربوا، على الأقل في مدينة الجزائر، إلا عشية الحرب العالمية الأولى فقط (أي نحو نهاية العهد الذي تغطيه هذه المصادر) إلى صفوف عمال الترمواي والسكة الحديدية، بالإضافة إلى من يسمون بأطفال المقاهي[1] . وهكذا كان على الباعة والعمال المسلمين أن يذهبوا إلى الأحياء الأروبية في المدن الساحلية من أجل تجارتهم المتواضعة وأعمالهم ذات المستوى الوضيع. أما الحركة في الاتجاه المعاكس فقد كانت نادرة. فقد كان الأروبيون، خصوصاً من الفئات الدنيا، يذهبون إلى الأحياء الإسلامية للبحث فقط عن اللذات والتسليات: إلى العاهرات، و«الأطباء» العرب (أي العشابةَ والْمُدَاوِينَ والسحرةَ)، وقراء الكف من القبائل، أو كانوا يذهبون إلى المقاهي العربية أو المطاعم العربية، وكل هذه الأنواع من اللذات والتسليات كانت ـ باستثناء العاهرات ـ موجودة حتى في الأحياء الأروبية، مثل وسط مدينة الجزائر. ومن ثمة جاء هذا العدد القليل نسبياً من أولئك الأروبيين الذين غامروا بدخول القصبة (وكان ذلك عادة بالليل) والتمتع برائحة البُخُور والإثارة التي تحيط بحي محرم (أي القصبة) في تصورات الأروبيين[2] . واسم (القصبة) نفسه (الذي امتص من قبل الباتويت ثم في وقت لاحق من قبل اللغة الأدبية الفرنسية أيضاً) ما هو إلا واحداً من سلسلة الكلمات الباتويتية ذات الأصل العربي التي تحدد الأحياء الأهلية في المدن أو جزءً منها، مثلاً كلمة (مدينة) وكلمة (سوق) في الأحياء القديمة، وكلمة درب وكلمة دوار (بالإضافة إلى الاسم التحقيري فيلاج نيقر ـ أو قرية زنجية) قد أطلقت على المدن القصديرية الجديدة التي أنشئت منذ فترة ما بين الحربين العالميتين[3] .

= البرجوازية الصاعدة إلى طبقات عليا، استمرت في توظيف الفتيات الأروبيات (من أصل إسباني). قارن: غراميات كاقايوس 108 ـ 109. كاقايوس في الشكنة، 44، 110، 143. قنديل كاقايوس، رقم 13، 11.

(1) آجرون: المرجع السابق 849 (وتعاليق 4، 5). والحاج الصادق: المقال المذكور، 76 (وكلمة قارسون (فتى) في عربية أهل شمال إفريقية تعني خادم الإنسان الأروبي).

(2) أنظر بابا ـ لويت، 20 نوفمبر 1911. قنديل كاقايوس، رقم 10، 8، ورقم 11، 14. ورقم 13، 15. ورقم 14، 9. وغراميات كاقايوس (طـ. 2) 11. وزواج كاقايوس، 69. وكاقايوس في المعجزة، 7، 14. وكاقايوس في الشكنة 43، 125. وباكري: المرجع السابق، 23 ـ 24. وعن القصبة، انظر ما سيأتي.

(3) لانلي: المرجع السابق، 66 ـ 68.

وكانت نتيجة كل ذلك بالطبع، هي أن الاتصالات الاجتماعية ظلت محدودة جداً بالنظر إلى أن تمييز المسافة السكنية يزيد في قوة التمييز الاجتماعي. إن هناك لقطات يُرَى فيها (كاقايوس)، و (بيبيت)، و (بابا ـ لويت) وغيرهم من أبطال القصص الشعبي، «وهم يلعبون الورق على الطريقة الإسبانية مع العرب» ويشربون القهوة في المقاهي العربية، ويأكلون الكسكسي والمشوي واللوبيا إلى جانب (البيكوات) والأربي (العربي)، ويغطسون في ماء البحر في مكان مختلط وعلى الطريقة الموريسكية. ويصطادون السمك على صخور البحر بالقرب من إنسان «عربي أعرفه قليلاً» [1]. ومع ذلك فإن الجملة الأخيرة ذات دلالة خاصة وهي أن الاتصالات كانت قليلة وغير منتظمة. فلم تنشأ صداقة حقيقية بين الطرفين. وهناك حكاية نموذجية في هذا الشأن أوردتها جريدة (لانتيرن ـ القنديل) في 29 جوان 1901، مفادها أن عشرة أشخاص تجمعوا لمشاهدة مبارزة بين رجلين أروبيين، على أثر تبادل العبارات المهينة، وكان تسعة من أولئك الشهود من أصحاب الأقدام السوداء، ولم يكن هناك إلا عربي واحد، وكان اسمه (أحمد) مما يزيد في وضوح الدلالة [2]. إن الاتصالات الحميمة جداً بين الطرفين كان ينظر إليها على أنها خطيرة. فعندما أصبح (بيبت)، بطل قصة لويس بيرتراند عن باب الواد، مدمناً للعب الورق في القصبة مع الحمالة القبائليين، حذره أصدقاؤه بنصف دعابة فقط، قائلين: «كريستوا (أي بجاه المسيح) يا بيبيت، إنك ستصبح قريباً (بيكو) حقيقياً» [3]. فلا عجب إذن أن يسود الجهل بينهم للقضايا العربية والإسلامية. وكان من أسهل الأمور طبعاً أن تَشْعُرَ بأنك متفوق على شيء لا تعرف عنه إلا القليل.

إن حصر الملاقاة في أماكن العمل والأسواق بين الجماعتين المتميزتين سكنياً [4]

---

(1) كاقايوس وقصصه المفضلة، 60، 68، 83. وقنديل كاقايوس، رقم 10د 5. وكاقايوس المعادي لليهود، 10. وزواج كاقايوس، 213. وبابا ـ لويت، 30 إبريل 1911. وكاقايوس في الثكنة، 132. وبيبيت وبالتزار، 128، 208، 267، 353.

(2) قنديل كاقايوس، رقم 2، 9.

(3) بيبيت وبالتزار، 155.

(4) إن أفضل من وصف التمييز في السكن هم الجغرافيون الحضريون مثل ر. ليسبيس Lespes في كتابه: مدينة الجزائر، دراسة في الجغرافية والتاريخ الحضري (باريس 1930)، وإ. ف. غوتييه، المرجع السابق، وج. بيليتييه J. Pelletier، مدينة الجزائر سنة 1955: بحث في الجغرافية الاجتماعية (باريس، 1959).

قد ترتبت عليه أيضاً نتيجة أخرى، وهي أن وجود المسلم في أدوار ثانوية قد أكد إذا شئت، فكرة نقصه، جاعلاً من ذلك جزءاً من «طبيعة» نظام الأشياء. وحتى بعد الحرب العالمية الأولى عندما ترقى كثير من المسلمين في سلم الشغل (ومن ثمة الترقي في السلم الاجتماعي والاقتصادي)، فإنهم لم يتجاوزوا في أقصى الأحوال، مستوى رئيس أو ملاحظ للعمال، وقلما وصلوا إلى صنف المديرين [1] . والاستعمال اللغوي أقوى دليل على ذلك. فالمسلم الموظف كان يدعى كابورال (أو كابو) في الدارجة الفرنسية، أي الباتويت، بالمقارنة إلى سيرجان ـ شيف بالنسبة للمدير الأوروبي أو المعلم (البوس) [2] . أما بخصوص اللهجات العربية المغاربية، فبينما نجدها قد استوعبت كثيراً من الكلمات (140 من 1665 كلمة) المتعلقة بأماكن العمل الأوروبية، فإنها جميعاً تقريباً كلمات متصلة بالزراعة والمناجم والخدمات المنزلية. لأن معظم البروليتاريا الإسلامية كانت حقيقة موظفة هناك [3] . ولأن فرص التوظيف في الأعمال التي تتطلب المهارة كانت نادرة. وأكثر من ذلك دلالة هو استعمال أصحاب الأقدام السوداء للهجة المحلية في الأوامر، مستعيرين الكلمات من العربية لمخاطبة الأهالي على النحو التالي: سِيْر (أي ابتعد، عند مخاطبة المتسولين، وباعة الطريق، وماسحي الأحذية، وغيرهم)، وشوما ـ أي حشومة ـ (بمعنى: يا للخجل! عند مخاطبة الخدم). وفيسا ـ أي فيسع ـ (بمعنى: أسرع) وجيب (أي أعطني، لمخاطبة الباعة) [4] .

إن الدور الثانوي «الطبيعي» للمسلمين في أعين الأوروبيين ربما يظهر بشكل أحسن في الملاحظات التالية. وهكذا فإنه عندما أُرْسِل كاقايوس وزملاؤه المجندون لتنظيف المراحيض، تعجب أحدهم قائلاً: «لماذا لم يرسلوا العرب لغسيل هذه الأماكن؟»

(1) بخصوص البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية للمجموعات الإسلامية والأوروبية، انظر أ. نوشيه، ميلاد الوطنية الجزائرية (باريس 1962)، 34 ـ 35. و س. آمين: اقتصاد المغرب (العربي) ـ باريس، 1966، 145 ـ 153. و ر. باربيه: «الطبقات الاجتماعية في الجزائر» في (الاقتصاد والسياسة)، 62 ـ 63، سبتمبر ـ أكتوبر 1959. قارن ذلك بفرعون كما أشير إليه سابقاً.

(2) لانلي، المرجع السابق، 192. وبارولي، المرجع السابق، 123.

(3) الحاج الصادق، المقال السابق، 74، لا يَذْكر سوى ست كلمات مستمدة من العمل الصناعي. قارن بنفس المصدر، 65.

(4) لانلي، المرجع السابق، 90 ـ 92. وهي عبارات يمكن أن تستعمل أيضاً بين الأوروبيين، ولكن بطريقة الممازحة.

وعندما كان كاقايوس ورفاقه ذاهبين لمهاجمة الدكاكين اليهودية خلال مظاهرات سنة 1898م، انضم إليهم صديق آخر كان يحمل هراوة ضخمة، فسأله كاقايوس: «أين وجدتها؟ إنني لو كنت مثلك لأجرت عربيين لحملها»[1]. وفي حكاية أخرى، ذهب كاقايوس، بعد طلاق زوجته، لزيارة ابنه الذي كان عند مربية عربية، وقد وجدها تنادي الطفل باسم يوسف (وليس جوزيف). فقال له صديق كان يرافقه: «إحذر، فإنك لا تضمن أن يعمدوه على الطريقة العربية، فإنه إذا تعرب فربما يفضل أن يصبح ماسح أحذية»[2].

وإذا أخذنا الجزائر في مجموعها فإننا لا نجد فقط المدن الساحلية التي تحدثنا عن وضعها حتى الآن، بل أن هناك مدى أوسع في التمييز (فضائياً ونتيجة له اجتماعياً أيضاً): فقد كان أكثر من تسعة أعشار المسلمين يعيشون في الأرياف التي تمتد إلى أبعد من الشريط الساحلي الضيق حيث كان يتمركز الأروبيون. ومن ثمة ذلك الإدراك المسيطر والشائع بين الأروبيين وهو أن الأرياف هي «بلاد العرب» (وهو تعبير يرجع إلى الأيام الأولى للاستعمار الفرنسي)[3]. ومرة أخرى نجد اللغة هنا تصور الواقع، وفي نفس الوقت فإنه باصطناعها في تشكيلة لسانية معينة، تعطينا النموذج أو الدعامة (حسب الحالة) للبنية العقلية أو الرؤية لذلك الواقع.

والحقيقة أن هناك فَيْضاً من التعابير الباتويتية - ذات الأصل العربي، تشهد على اعتبار الريف بلاداً أهلية، ابتداءً من كلمة «بلاد» الدالة على كل المناطق الريفية (والرجل الكولوني - المعمر - يلقبه الأروبيون من سكان المدن بلقب «بلادار»)، وإطلاق كلمة «تير» Tirs وكلمة «حمري» على التربة نفسها. وعناصر الأرض كانت تعين بعبارات عربية، مثل الجبل والرأس والواد (للسهل). وكذلك المباني التي هي من صنع الإنسان هناك، مثل برج، خيمة، قُرْبي، مشتى، دوار، فندق، وغيرها. وكما كان متوقعاً، فإن هناك معنى تحقيرياً لا بدّ تقريباً من تولده قد أصبح أحياناً مرتبطاً بعبارات استعيرت أساساً من اللغة العربية لكي تبين حقائق موضوعية: مثل عقلية السوق (وتعني المساومة في

---

(1) كاقايوس في الشكنة، 67. وكاقايوس المعادي لليهود، 20.

(2) طلاق كاقايوس، 168 ـ 179.

(3) قارن مثلاً أجرون، المرجع السابق، 132.

الأسعار على الطريقة الإسلامية)، وتعبير قُرْبِي للإشارة إلى أي مسكن بائس (قارن ذلك بالمعنى العنصري الذي يشير إليه تعبير: فيلاج نيقر، حيث الأسود هنا يعني العربي). فعندما اندهش كاقايوس مثلًا من كثرة عدد العرب في قصر العدالة، صرخ: «ولكن هذا ليس فندوك»[1] . وأن الربط بين الريف والأهالي يثير بالضرورة جميع أوضاع الصور السلبية المرتبطة أساساً بفكرة شعور الفلاحين بفرنسا خلال القرن التاسع عشر، وهي الفكرة التي كانت تصدر عن سكان المدن (مثل: الوحشية، والتخلف، إلخ). وهي أيضاً الصور التي إذا نظر إليها في مستوى أدنى قد تناسب ما سماه ميشلي «ديكوتومي» أو الانقسام بين التاريخ والجغرافية. وفي دراسة حديثة مستوحاة من النظرية البنيوية لروايات فرنكفونية بالجزائر، لوحظ أيضاً وجود هذا «الديكوتومي» نفسه «بين الفضائيْن... المتنازِعَيْن: وهما الريف والمدينة، باعتبارهما الملمح المميز لهذا الأدب الفرنسي اللغة[2] . إن المدينة التي هي من صنع الإنسان (وبالدرجة الأولى الإنسان الأروبي)، ينظر إليها على أنها مخلوقة التاريخ، بينما ينظر إلى الريف الإسلامي على أنه ما يزال جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة. ومهما كانت الارتباطات المتورطة في الموضوع فإن مثل هذا الانتظار (الديكوتومي) لا يمكن إلا أن يقوي الهوة بين «الرجال والنساء» من جهة، و «العرب» من جهة أخرى، حسب تعبير كاقايوس نفسه.

* * *

(1) نفس المصدر، 814. لانلي، المرجع السابق، 49، 59، 64 ـ 70، 71. وطلاق كاقايوس، 34. ودوشين، المرجع السابق، 127. ويطلق الدوار أيضاً في فترة لاحقة على المدينة القصديرية (Shantytown).

(2) ويبر، المرجع السابق، وش. بون Ch. Bonn: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي (أتاوا، 1974. القسم الأول. وبيليقري Pelegri: المرجع السابق، هنا وهناك.

(4)

إن كلمة «العرب» أو «البيكو»، كما لاحظنا، قد استعملت بصيغة جمع واحدة، أي أنها قد أصبحت لازمة من لوازم الحديث. وأن اللازمة، باعتبارها عقيدة مبالغاً فيها (وهي سلبية في العادة) مرتبطة بصنف من الناس أو بجماعة بشرية. ومن ثمة تفعل فعل أداة رئيسية لتبرير الحكم المسبق. مثلاً «اعتقاد رأي معارض أو معاد نحو شخص ينتمي إلى ذلك الصنف أو تلك الجماعة لا لشيء إلا لأنه ينتمي إلى واحد منهما، وهو حينئذ معتبر أن له نفس الأوصاف المعترض عليها أو المنسوبة لنفس الجماعة»[1].

والأجزاء المؤلفة لصورة البيكو في ذهنية أصحاب الأقدام السوداء مكونة من خمسة لوازم رئيسية وهي أنه: وحشي، وفقير، وقذر، وغشاش، وشهواني. ولازمة التوحش بمعنى التخلف، قد تعرضنا إليها فيما مضى عندما تحدثنا عن «الطريقة العربية» في فعل الأشياء، وليس هناك غرابة أو إثارة حول هذا الأمر في أعين أصحاب الأقدام السوداء. أنه فقط أمر جاء من كونه مستمداً من حضارة أدنى. وإليك بعض العبارات الشائعة في الصحافة الشعبية عن هذا الموضوع. فالعرب «حمقى»، وشرسون ومتقهقرون نحو الصحراء و «بعض البدو» و «متعصبو الغابة» و «بدائيون»[2]. والواقع أن للبدائية ملامحها الإيجابية، خصوصاً السذاجة. إن الإنسان الأهلي البريء المثير للشفقة (ولكنه أيضاً مثير

---

(1) أولبورت، المرجع السابق، 191، 7.

(2) مثلاً، بابا ـ لويت: 4 أغسطس 1907، 18 أغسطس 1907، 8 نوفمبر 1908. كاقايوس في الثكنة 27، 89. طلاق كاقايوس، 31. بروا: حكايات 57. (غدا ـ دومان ـ اتجاه اشتراكي): 18 سبتمبر 1920. والملاحظ أن أصحاب الأقدام السوداء لجأوا إلى الإرهاب المضاد مستعملين نفس الشعارات وذلك بإرسال بطاقة بريدية إلى ممثل جبهة التحرير الوطني واصفة له بأنه «متوحش قديم من الريف العربي». انظرج. كويرستن J. Coersten (اليد الحمراء) في لندن 1962، قارن: ر ـ ج. كلو R.J. Clot: (بصمات في الملح)، باريس 1950، 21 ـ 25.

للضحك) هو الشخصية البارزة في صحف أصحاب الأقدام السوداء[1]. ولكنه إنسان محجوب بالتخلف والخشونة، والعناد (ظاهرة كيف كيف بوريكو ـ حمار ـ)[2]، وراتون Ratons غريب و (Rats = الفئران، أي مخلوقاً دون الصفة البشرية تقريباً).

وأبرز عامل مميز لهذه الأزمة من التخلف هي اللغة، مما يشبه الوضع الذي كان سائداً في فرنسا خلال القرن التاسع عشر عن صورة الفلاح. حقاً، أن عبارة «شرابيا» Charabia، وهي في الأصل تعني لهجة الـ Patois المستعملة في إقليم أوفيرنيو (Auvergne) كانت مستعملة كمرادف للتعبير بيدجين الفرنسي وهو «ليزاراب» (العرب) مع مراعاة نَبْرة شرابيا/ أراب (العرب) لتأكيد التشابه اللفظي[3].

وفي قصة تعتبر نموذجية في هذا المجال، التقى كاقايوس وأصدقاؤه مع مجموعة من البحارة السود كانوا يزورون الجزائر، فلاحظوا وهم مندهشون، أن البحارة كانوا يتكلمون الانكليزية فيما بينهم. فصاح أحد أصدقاء كاقايوس بغضب قائلاً: «أوقفوا كل هذه المسرحية! انظروا إلى هؤلاء الزنوج الذين جاؤوا لتمثيل دور الانكليز لنا. إنه من الأفضل لكم أن تتحدثوا بالعربية (مع التركيز على العبارتين الأخيرتين). فلا يوجد أحد يصدق أن هؤلاء البحارة الذين هم أكثر سواداً من الموتشو، باعة الغنم، هم حقاً سواح انكليز»[4].

وإذا كانت لهجة سابير تعامل على الأقل بمزيج من الامتعاض والسخرية، فإن اللغة العربية كانت تعامل بكراهية بالغة، كقولهم عنها أنها: «لغة لا نفع فيها، وصعبة، وعنيفة، ووحشية»[5]. ومن النادر أن تصور الشخصيات في الأدب الشعبي لأصحاب الأقدام السوداء، على أنها قادرة على التحدث بهذه اللغة العربية، باستثناء المالطيين الذين تحتوي لهجتهم على نسبة هامة من اللغة العربية. ولا يوجد أحد قد خالف ولو أدنى مخالفة هذا الوضع، فهؤلاء كاقايوس وبيبيت وامبريون وأصدقاؤهم (وكثير منهم كانوا

(1) بابا ـ لويت، 13 ديسمبر، 1908، 21 ديسمبر 1912، 13 أكتوبر 1913، 1 نوفمبر 1913، 8 نوفمبر 1913.

(2) مثلاً نفس المصدر، 27 يناير 1907. قارن ويبر، المرجع السابق، الفصل 6.

(3) لانلي، المرجع السابق، 56. كاقايوس المعادي لليهود، 144.

(4) ميزيت «كاقايوس غاضباً» في (لينوفيل) كما نقلت في بابا ـ لويت، 29 سبتمبر 1907.

(5) الحاج الصادق، المقال المذكور سابقاً، 65، 67.

حديثي العهد بالأصل الإسباني أو الإيطالي) كانوا يتفاخرون جداً بكونهم قادرين على التحدث بالفرنسية التي هي لغة أسيادهم[1] .

أما لَازِمَةُ: فقير أو مسكين (بائس، متسول) فليست هي الشهادة اللغوية الوحيدة لربط هوية الإنسان الأهلي بذلك المخلوق الذي هو «تقريباً قذر، تقريباً مهلهل، تقريباً ثقيل الدم» كما وصفه فرعون باعتبار ذلك لازمة له[2] . وهناك عبارات أخرى وظفتها اللهجة الباتويتة يمكن إضافتها هنا، مثل مزلوط (فقير، متسول) والأعور (صاحب العين الواحدة، المتسول الأعمى)، وكذلك عبارة «يعمل بطال» (أي ليس له عمل، وهي عبارة مترجمة من الدارجة العربية)[3] والتعبير الذي يقول: يأكل خبز/ التمر الجاف (Dry Pain de Dattes) مِثْلَ العرب[4] ، هو نوع من الخطاب الذي يمثل أسوأ مراحل الفاقة. وأن أوصاف (موزيت) للحياة الجزائرية، مليئة بنماذج الأهالي المعوقين والمتسولين، فبعضهم كان مشوهاً تماماً (مثل ذلك «الإنسان الذي كان يزحف على أربع بينما مَقْعَدُهُ إلى أعلى»)، ومثل أطفال كانوا يطلبون البقشيش، وكبار غير موظفين، وأطفال آخرين كانوا يقاسمون المجاعة والْمَسْغَبَة[5] .

وأما لَازِمَةُ: قذر أو (صال أراب) - أي العربي القذر - ثم أصبح بعد ذلك صاليقود). فقد كانت من بين أشهر عبارات التحقير الموظفة لخطاب المسلمين، لأن القذارة والفقر بحق (كما لاحظ فرعون) تمشيان معاً كاللازمتين، ومن ثمة نلاحظ أيضاً الاستعمال المتكرر في الباتويت لكلمات عربية مثل قَرْقَارِية (الخرء) وبقالي (القذارة، الزبالة)[6].

---

(1) بابا لويت، 9 مايو 1914. كاقايوس المعادي لليهود، 159. وكاقايوس في السباق، 12، 16. وكاقايوس وقصصه المفضلة، 118، 125. قنديل كاقايوس، رقم 13، 4. طلاق كاقايوس 34، 87.

(2) المكان المشار إليه.

(3) لانلي: المرجع السابق، 76، 103، 115، 259. بابا - لويت، 20 جوان، 1909. قنديل كاقايوس رقم 3، 12، 13.

(4) نفس المصدر، رقم 1، 2 .

(5) نفس المصدر، رقم 1، 15. رقم 4، 12، رقم 14، 11. وكاقايوس في المعجزة، 3. وكاقايوس في الثكنة، 106.

(6) أشار، المرجع السابق، 82. بابا - لويت 27 يناير 1907، 24 يناير 1909، 22 مايو 1910. وكاقايوس وقصصه المفضلة، 52 - 53 ، 95. وأوديزيو، معجم، 257، 262. لانلي، المرجع السابق، =

وفيما يلي نرى كيف صور الشاعر الشعبي الساخر: «مدينة الجزائر ـ منتجع صيفي»[1] إذ قال:

«عرب خسيسون وكريهو الرائحة في قذارتهم الأهلية. . . تُصِيب مدينة الجزائر بالعدوى ـ وها هو القمل يتحرك بحرية حيثما شاء ـ في عربات (الترام) وعلى الكراسي الخشبية العامة وغيرها. والبعض يرى في هذا منظراً مدهشاً. . . بينما هو عند آخرين شيء خشن على الأقل ـ أما أنا فأجد ذلك مثيراً للتقزز. والحق أن المدينة قذرة ـ مليئة بالزبالة والقذارة ـ والروائح الكريهة».

ولا شيءَ يمكن إضافته لهذه القطعة «الشعرية» إلا أنه بينما يُلَام الْعَـرَبيُّ على القذارة في كل مكان، فإن القصبة بالذات تعتبر مرتبطة به أشد الارتباط، بل حتى المساجد قد التصق اسمها بالرائحة الكريهة[2]. فلا عجب أن يكون من «العادة العربية (أو البدوية)» الإشارة في بعض الأحيان إلى الميل نحو القذارة[3]. وعندما يكون المجال هو تصوير أفراد العرب فإن «برانيسهم القذرة» هي التي يقع عليها التركيز، وأن أشهر نكت بابا ـ لويت الساخرة والمقززة هي التي تمثل دور الأهلي (سيما الموتشو) كبطل لها[4]. فكلمة صال (قذر) من الواضح أنها ترمز إلى عدم الطهارة البدنية، ولكن لها أيضاً المعنى العادي الذي يشير إلى الفجور في الملامح الشخصية والذي سنعالجه تحت العنْوَانَيْن الأخيرين وهما: الغش والشهوانية.

فأما لأزِمةُ الغش أو الغدر، ففي عدد 19يناير 1908 من مجلة (بابا ـ لويت) جاءت الحكاية التالية حول محادثة جرت في قصر الحكومة بمدينة الجزائر بين «رجل مهذب حسن الهندام وحمَّال أهلي»:

الرجل المهذب: انظر إلى هنا، إبحث عن عَرَبِيَّيْن غير لِصَّيْن يمكنني أن أثق

= 107. وكاقايوس المعادي لليهود، 158، ب. ش. موكور P.H. MAUCORPS، المرجع السابق، 156 (وتعليق رقم 1).

(1) بابا ـ لويت، 29 أغسطس 1909.

(2) نفس المصدر، 3 جوان 1909. و30 أكتوبر 1910. وكاقايوس وقصصه المفضلة، 52. وكاقايوس المعادي لليهود، 158 ـ 160. قارن بيرتراند (بيبيت) 259.

(3) كاقايوس في الثكنة، 27، 67، 89. وغراميات كاقايوس، 71. وكاقايوس المعادي لليهود، 37. عن الربط بين القذارة والوحشية قارن ويبر، المرجع السابق، الفصل 1.

(4) بابا ـ لويت، 3 نوفمبر 1907، 24 يناير، 1909. 28 مارس 1909. 10 مايو 1913 .

فيهما، لحمل صندوقين من الملابس للغسيل إلى منزلي.

الرجل الأهلي: يا سيدي، مثلُ هذَيْن العربِيَّيْن لا وجود لهما!

إن هذه الحكاية تظهر كأنها نكتة خشنة، ومع ذلك فهي معبرة جداً عن سخرية أصحاب الأقدام السوداء، أنها مسكونة بالخطافين من العرب والقبائل، واللصوص المحترفين والهواة، والسراق (وأولاد البلاصة) المتواجدون في كل مكان، أولئك الذين يشتبه في أنهم يعيشون جزءاً من حياتهم على المال الحرام والسرقة [1]. إن عبارة «اللص الكبيرا» تعتبر هي اللعنة التي قيل أنها الصوت المتداول لربات البيوت الأروبيات الموجه إلى كل أصناف الباعة المسلمين، وخصوصاً الموتشو الشهير لبخله [2]. وحتى أثناء مظاهرات 1898، عندما كان الأروبيون هم الذين ينهبون الدكاكين اليهودية، فإن أصدقاء كاقايوس كانوا يردون على من لامهم على ذلك قائلين: «إننا لا نسرق، ولكن عربياً حاول أن يهرب بلفة من القماش وبعض البلوزات فأوقفناه» [3]. وهكذا، فإن تبعة الدليل تقع على الأهلي، ذلك الإنسان «الصرّاك» (أي السارق، وهي كلمة باتويتية من أصل الكلمة العربية سرق. ومن ثمة جاءت منها أيضاً صراكاج Sarraquage أي السرقة) [4]. وكما قال أحد الملاحظين بحق عن كاقايوس: «أن الحياة سهلة جداً بالنسبة إليه لدرجة أنه لا يزعج نفسه بالسرقة، ومع ذلك كان أكثر الناس امتعاضاً من فعل ذلك، لأنه إذا فعل قد يعني «أنه يشبه العرب.. تلك السلالة المكروهة». [5].

إن صورة الغش العربي أو الغدر لا تتوقف عند هذا الحد، فأكثر خصائصها بروزاً هي أن الأهلي قد «ولد كذّاباً»، وغشاشاً، وخبيثاً، ومنافقاً. والقصد الرئيسي لهذه الاتهامات هو ما يعتبره أصحاب الأقدام السوداء والعرب على حد سواء «أسفل السافلين» ـ وهم التجار الميزابيون وأولاد بلاصة الحكومة المتسكعين [6].

(1) قارن نفس المصدر، 4 أغسطس 1907، 11 يوليو 1909. بروا، حكايات، 44. كاقايوس في الثكنة، 150. قنديل كاقايوس، رقم 11، 9.

(2) أشار: المرجع السابق، 79، 83، 131، 246. بروا، المرجع السابق، 43.

(3) كاقايوس المعادي لليهود، 40.

(4) أشار، المرجع السابق 78. بابا ـ لويت، 4 أغسطس 1907. 23 مايو 1909. لانلي، المرجع السابق، 105، 119.

(5) أوديزيو، «المدخل» 10.

(6) بابا ـ لويت، 2 فبراير 1908. كولونا، المرجع السابق 846. أشار: المرجع السابق، 27. زواج =

وأما لأزِمَةُ الشهوانية: «فمن الصعب أن تجد موريسكيا (أهلياً) طاهراً وعفيفاً على الأقل في القصبة». إن هذا القول المأثور الشعبي ـ الذي يمكن أن يضاف إلى حجة الكولون القائلة بأن «المسلم، هذا الشهواني... عبد غريزته الأولى.. الذي شُغْلُه الوحيد هو الجنس»[1] ـ يلخص لنا الفكرة الأخيرة وربما أكثرها شحنة بالتوتر. وفي البداية نقول أن قصبة مدينة الجزائر (والأحياء الإسلامية في المدن الساحلية الأخرى) كانت حقاً هي الحي المحرم الذي لا تُقَدَّر فائدة وظيفته الفعلية إلا في الفترة التي يخرج فيها عن الحدود (لا سيما بالنسبة للجنود) وذلك بسبب عدوى التيفوس وتشكي الصحافة الأروبية من أن «بنات الهوى» قد ذهبن إلى الأحياء الأروبية المجاورة وأَزْعَجْـنَ المواطنين المحترمين وربما نَشَرْنَ «أمراضاً معدية أخرى»[2].

ونظراً إلى أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء الفتيات كن مسلمات [3]، فإن أسماء الفواطم والموريسكيات والموكيرات أصبحت مرادفة تقريباً لكلمة «المومسات» (وهكذا أصبحت تعني رغبة كل النساء المسلمات نحو هذه المهنة المذنبة)[4] ومن ثمة أيضاً شيوع التعبير التالي: «يتزوج مع موريسكية، ويشرب القهوة مع موريسكية»[5].

= كاقايوس 118. قارن ب. ش. موكور: المرجع السابق 156. أجرون: المرجع السابق، 560 (تعليق 4). أن «الموتشو» قد وقع تعريفهم على أنهم هم «يهود العرب» (انظر أشار، في كتابه رجل البحر)، 107). قارن ف. أ. ستيلمان N.A. Stillman «المسلمون واليهود في المغرب الأقصى» في مجلة (جرو سلم كورترلي) 5 ـ 1977، 78.

(1) بابا ـ لويت، 14 مارس 1909. الراديكالي، 16 فبراير 1896؟ فيفاري M. Vivarey: الطفرات الجزائرية Trans Mutations Algeriennes (الجزائر 1891)، 20.

(2) بابا ـ لويت 23 يوليو، 1909. 10 أكتوبر 1909. سعدية والأخضر: استغراب ومقاومة العائلة الجزائرية (لوزان 1961) 121، 125. أشار: المرجع السابق، 48، 60. «إلى القصبة» في كاقايوس المعادي لليهود، 157 وما بعدها. أشار: المرجع السابق 241. باكري: المرجع السابق، 53 ـ 54.

(3) بارولي: المرجع السابق، 182. سعدية والأخضر: المرجع السابق 124 ـ 125. أشار: المرجع السابق 59. بابا ـ لويت، 10 أكتوبر، 1909.

(4) بابا ـ لويت، 4 أغسطس 1907. 7 مارس 1909. 10 يناير 1909. 29 أغسطس 1909. 24 أكتوبر 1909. 19 مارس 1911. 1 أغسطس 1914. كاقايوس المعادي لليهود، 159. كاقايوس في الثكنة 136. أشار: المرجع السابق، 232.

(5) قنديل كاقايوس رقم 2، 9. كاقايوس في الثكنة 41، 136. كاقايوس في الحفلة 6. كاقايوس المعادي لليهود 51.

والمُومِسّات قد حددتهن الكلمات العربية أكثر دقة، وهي الحوريات والشّوارِي. أما الأولى فهي استعمال استهزائي، للتعبير القرآني عن الأناث المخلوقات في الجنة. وأما الثانية فهي أقرب إلى التعبير الأدبي، وقد أصبحت شخصية مشتركة للتعبير البذيء بين الأروبيين [1]. كما أصبحت الدار الموريسكية كذلك مرادفة لدار التسامح (Maison de tolérange) وإن الكلمة العربية (كِيفْ) تعني اللذة عموماً، ولكنها أصبحت تدل على هذه الشهوة المحرمة شرعاً بالخصوص، كقولهم: «يعمل الكيف»[2].

وبذلك أصبحت المرأة العربية والأحياء الإسلامية القديمة، مثل القصبة، محاطة برعشة من الجاذبية الساقطة نوعاً ما. إنها الجاذبية الأكبر، نظراً إلى الرموز المحددة للتواضع الذي يحكم سلوك المهاجرين الاسبان والايطاليين ذوي العقلية التقليدية (على الأقل داخل مجموعتهم)[3]. وهناك مجلة أُسبوعية شعبية نشرت رواية مسلسلة ـ بالأسلوب الحقيقي ليوجين سو E. Sue ـ بعنوان (أسرار القصبة)[4]. كما أن بطاقات بريدية تمثل كل أصناف العاهرات الأهليات، كانت تباع على المكشوف، بالإضافة إلى أغاني شعبية ونكت فاسقة احتفـلت «بالشواري» و«الفواطم»[5].

---

(1) قنديل كاقايوس رقم 2، 8، ورقم 11، 4. وكاقايوس المعادي لليهود، 53. وطلاق كاقايوس 17. وكاقايوس في الثكنة 14، 144. وزواج كاقايوس 42، 48، 150، 170. بابا ـ لويت 18 أغسطس، 1907. 10 أكتوبر، 1909. لانلي، المرجع السابق، 102، 103. أشار، المرجع السابق، 241.

(2) أوديزيو، معجم، 258، 264. قنديل كاقايوس، رقم 6، 16. ورقم 7، 13. وغراميات كاقايوس 143. 146. وكاقايوس في الثكنة 21. وتجدر الملاحظة إلى أن اللهجات المغاربية قد استوعبت كلمات فرنسية مثل بوطانة من (بوتان) (Putain) وبرديل من بورديل (Bordel) وفيزيت من (Visite) وتعني التفتيش الطبي للعاهرات. قارن الحاج الصادق، المقال السابق، 89، 92. وبابا ـ لويت، 11 يوليو، 1909.

(3) قارن مثلاً غراميات كاقايوس 29، 100، 110، 125. زواج كاقايوس، 112. قنديل كاقايوس رقم 2، 9.

(4) بابا ـ لويت، 19 سبتمبر 1909 إلى 14 نوفمبر 1909. قارن سلسلة القصص التي كتبت على طريقة موپاسان Maupassant حول المرأة العربية. نفس المصدر، 26 يناير 1908 . 2 و 9 فبراير 1909. وقارن نفس المصدر، 18 سبتمبر 1907.

(5) سعدية والأخصر، المرجع السابق، 125. وطلاق كاقايوس 125. وكاقايوس المعادي لليهود، 77. وأشار، المرجع السابق، 230 ـ 231، 241. بابا ـ لويت، 18 أغسطس 1907، 10 يناير 1909، 9 فبراير 1908، 12 أغسطس 1912.

ولم تكن هذه هي كل المغريات. إن ما يسمى «بالأمسية الممتعة» للرجال الأوروبيين، كانت تقدم على أنها تبدأ بوصية (ميساج) من قبل رجل أهلي أسمر البشرة في حمام عربي، وتستمر بتقديم زيارة «لمتحف النساء الصغيرات في القصبة» وتنتهي بحفلة رقص هز البطن[1]. وعادة ما كانت ذكريات المراهقة عند الأوروبيين التي قضوها في الجزائر ترجع إلى النزوات التي كانت حول «نساء القصبة». وقد كتب بول أشار Achard قائلاً: «ما يدهشنا عندما نرجع للتبختر هناك (القصبة) هو ذلك الجو حيث البراءة والفسق يختلطان معاً... لقد تمتعنا بكوننا غلفنا تغليفاً بفتنة الخشونة للشوارع المخجلة... وبنغمات القياثر الجذابة... وبالأثواب الفاتنة بمساحيق الغواني». فكل امرأة عربية تمر بنفس وسط مدينة الجزائر تثير في عقولهم أوهاماً من المغريات حول «الحب الشرقي»، مما يذكّر المرء بأولئك الذين يلهو بهم الأمريكان البيض بالنسبة للفتيات الرقيقات[2] السوداوات.

وقد شاع أن الرجل العربي يتمتع بسيطرة تامة على الأنثى (وهو ما يسميه فرانز فانون أسطورة كون المرأة الأهلية وصيفة). بالإضافة إلى أن المعلومات المتوفرة عن القوانين والعادات الإسلامية (مثل سهولة الطلاق، والسن المبكر للزواج ودور الدراهم ـ المسمى بزواج البيع ـ وتعدد الزوجات) كلها تعمل على تأييد هذا التصور وتقدم قاعدة للعديد من القصص الداعرة (ومثار إعجاب؟)[3]. كما أن الرجل العربي، تماشياً مع صورته كمتوحش، كان يُقدَّم على أنه شَبَقِيٌّ (بدنياً وعقلياً) بحيث «لا يفكر إلا في الجنس». فهو باستمرار يجامع سواء كان متزوجاً أو غير متزوج (وكما سنشاهد في مكان آخر، فهو يمارس ذلك خارج جماعته أيضاً). وهو يملك قوة جنسية جذابة، (ليس فقط في عيون النساء المسلمات).

---

(1) نفس المصدر، 25 أكتوبر 1913. عن رقص هز البطن قارن أيضاً بنفس المصدر، 23 إبريل 1911. وكاقايوس في الشكنة 92. أشار، المرجع السابق 229.

(2) نفس المصدر، 48، 60 (مدينة بالجزائر حوالي 1900). وجوردان W.D. Jordan المرجع السابق، 138، 144 وما بعدها. وباكري V. Bacri، المرجع السابق 23 ـ 24 (الجزائر حوالي 1942). قارن بيرتراند (بيبيت) 157 ـ 159 (يصف الجزائر حوالي 1900).

(3) فان دين بيرغ، المرجع السابق 30,24،وما بعدها. ومنوني، المرجع السابق 109 ,115. جوردان، المرجع السابق، خصوصاً القسم الأول. بانتون، المرجع السابق 155، 185.

وأن الرجل العربي كامل الرجولة والمتهالك بخشونة على الجنس، والباحث عن الجماع، هو كذلك موضوع لعدد من (الأغنيات العربية) في اللهجة الباتوية. وكما هو الحال عند «الرجل الأمريكي الأبيض بالنسبة للسود»، فإنه كلما كانت ملامحه داكنة كلما كان من المفروض أن يكون أقوى جنسياً[1]. وأخيراً، وهذا بالأحرى أمر متوقع، فإن العبارات العربية للأعضاء التناسلية يشيع استعمالها كثيراً في اللعنات وفي الأيْمَان[2].

ومن جهة أخرى فإن اختلاف الجنس لا يقف دون تحقيق الرجل العربي شهوته الجنسية. فمن الشائع عليه أن عنده ميولاً قوية للشذوذ الجنسي، وهو بهذه الصفة خطير على الصبيان (وخصوصاً الأروبيين). ومرة أخرى فإن الميزابي الأسمر البشرة هو الذي كان الهدف المفضل لأكثر من نكتة غامزة، ولا سيما عن (البطا Batta)، وهم الصبيان الميزابيون الذين يعملون في دكاكين الموتشو[3]. ولكي تكتمل الحلقة في هذه الصورة للفساد، حيث تتداخل الشهوة والكراهية، فإن اسم العربي مرتبط أيضاً بتجارة «الرقيق الأبيض» وكذلك بتدخين الحشيش[4].

وإذا وسعنا الموضوع، فإن هذه اللوحة المركبة الأجزاء تتفق مع صورة الرجل الأهلي الموجودة في افريقيا الصحراوية، وفي جنوب افريقية وجزر الهند الغربية

---

(1) بابا ـ لويت، 4 أغسطس 1907. 23 مايو، 1909، 24 اكتوبر 1909. 5 ديسمبر 1909. أشار، المرجع السابق، 45 ـ 48. قارن بأجرون المرجع السابق 45 (تعليق 5)، بيرتراند L. Bertrand (كذا، لعلّهBernard) الجزائر (باريس 1929)، 88. فانون F. Fanon السنة الخامسة للثورة الجزائرية، باريس 1959. 53. ونص سنة 1871 لبوميل Bomel كما نقله لوكاس وفاتان (جزائر علماء الأنثروبولوجيا)، باريس، 1975، 130.

(2) بابا ـ لويت، أغسطس 1914. «مغامرة عربية» في 4 أغسطس 1907 و7 مارس 1909. و«زفاف عربي»، 23 يوليو 1909. و«أغنية عربية» في نفس المصدر 19 مارس 1911. ونفس المصدر 15 أغسطس 1910. وعن علاقة «الظلام = الشر من الناحية الجنسية» انظر جورردان، المرجع السابق 32 وما بعدها، 143. وقارن الاندهاش بأولاد نائـل (النائليـات) وهن النساء السمـراوات المسلمات الصحراويات. (انظر كاقايوس في الشكنة 92، وكاقايوس المعادي لليهود 160. وسعدية والأخضر، المرجع السابق 121. وبابا ـ لويت، 9 فبراير 1908. 12 ديسمبر 1909.

(3) أوديزيو «بحث» 27، ولنفسه «معجم» 258، 263. لانلي، المرجع السابق 95، 101. باكري: رورو، 42. بابا ـ لويت 25 اكتوبر، 1908. 1 أغسطس 1914.

(4) أشار: المرجع السابق 52، 57. أوديزيو، المرجع السابق، 258.

(بالإضافة إلى صورة الإنسان الأسود في الولايات المتحدة الأمريكية). فهنا أيضاً نجد نفس اللازمات أو النماذج مثل: غير ناضج، وقوي، ومتوتر، واندفاعي، ولا يرعوي، وكسول، ومحب للهو، أو عدواني، وشهواني، وقذر[1] . والفرق بين معظم الأوضاع الاستعمارية الأخرى يكمن فقط في حجم الجماعة المحتلة التي تغذيها.

* * *

(1) قنديل كاقايوس رقم 3، 6 ـ 7. أشار، المرجع السابق 26. سعدية والأخضر، المرجع السابق 121. قارن موران E. Morin إشاعة في «أورليان» (نيويورك، 1971).

(5)

إن اللازمات قائمة بوضوح وإلى حد ما، على الوقائع الكولونيالية (لا سيما تحت عناوين الفقر والقذارة وحتى التخلف، إذا ما بنيت على عبارات المستوى المنخفض للتعلم، مثلاً). ومع ذلك فإن بذرات الحقيقة لم يبالغ فقط في تضخيمها ولكن تحريفاً أساسياً وقع لها على مستوى التفسير والتأويل. ومن ثمة فإن الحالة المزرية للإنسان الأهلي التي كانت قبل كل شيء من نتائج الاستعمار وسياسة المعسكرات (الكونتونت)، كانت تذكر للدلالة على أنها الملمح الفطري للمسلم المتخلف: فهو كسول، وجبري، ومجازف، وغير طاهر، ونحو ذلك. وهناك نمط مشابه يمكن ملاحظته بالنسبة للسلوكات الجنسية. وبعض الشواهد تبدو دقيقة (مثل الطلاق، والمهر، والسن المبكر للزواج)، وبعضها كان قد بولغ فيه قليلاً (فتعدد الزوجات كان شرعياً ولكنه كان غير ممارس بكثرة)، وبعضها كان قد بولغ فيه كثيراً (مثل الرغبة الجنسية عند الرجل، وفكرة الرقيق الأبيض). أما البغاء، الذي هو من أبرز الملامح، فإنه بينما هو موجود بالفعل، فإنه قد شوه بغرابة. فالقصبة التي كانت قد جعلت حياً محتجزاً من أجل الراحة التجارية والصحية للأوروبيين، كانت في الواقع قد أُديرت (جزئياً) من قبل مقاولين أروبيين وأدت خدمات أروبية كزبون منافق. وأخيراً وليس آخراً، فليس هناك إشارة إلى أن الدين الإسلامي «اللا أخلاقي» يحرِّم البغاء، وأن البنات اللائي اضطررن إلى هذه المهنة فعلن ذلك ليس من باب الفطرة ولكن نتيجة الفقر المدقع المتولد عن «العمل الحضاري».

وبناءً على هذه النظرة فإن أساس الملامح لجماعة دنيا هو أساس فطري، ومن ثمة فهو ثابت غير قابل للتغيير، ولذلك فإن الحالة الحاضرة لتلك الجماعة ليست نتيجة للاستعمار، ولا يمكن بَلْ لا يجب تصورها تتغير في المستقبل. وهكذا فإن الفقر والحرمان العربي يعزوان إلى التخلف والمجازفة، وأن التمييز الاجتماعي من المفترض أنه جاء من التغاير بين السلوك «المتحضر والمتوحش». وأن التمييز الفضائي ضرورة لأن المسلم قذر وكريه الرائحة ومُعْدٍ (Infectious) وهو أخلاقياً فاجر، وأن التسلط (السياسي وغيره) ضروري نظراً لميل الأهلي نحو الثورة أو لأنه يلجأ إلى وسائل الغش

(بالإضافة إلى صورة الإنسان الأسود في الولايات المتحدة الأمريكية). فهنا أيضاً نجد نفس اللازمات أو النماذج مثل: غير ناضج، وقوي، ومتوتر، واندفاعي، ولا يرعوي، وكسول، ومحب للهو، أو عدواني، وشهواني، وقذر[1] . والفرق بين معظم الأوضاع الاستعمارية الأخرى يكمن فقط في حجم الجماعة المحتلة التي تغذيها.

* * *

(1) قنديل كاقايوس رقم 3، 6 ـ 7. أشار، المرجع السابق 26. سعدية والأخضر، المرجع السابق 121 . قارن موران E. Morin إشاعة في «أورليان» (نيويورك، 1971).

بؤسهم. فقد كانوا يتزاحمون نحو المدينة قادمين من الريف المصاب بالجفاف الفظيع، وإنهم هناك يتسكعون وينبشون صناديق الزبالة. وقد دعت نفس المجلة إلى هدم مسجدين، وقالت عنهما أنهما كريها الرائحة مبنيان لصلاة البيكو. وذلك لإفساح المجال لمد شارع جديد (1) . وقد وصف بول أشار، بِتَفَكُّهٍ، الألعاب التي كان الأطفال والصبيان الأوربيون يقومون بها على حساب العميان المتسولين والحمالين التعساء ونحوهم، بينما جاءت أسبوعية موزيت (لانتيرن) بنكت عن معطوبي الشوارع معتبرة إياهم مجموعة من البهائم، وذلك في حكاياتها المسلية(2) Tchalifettes. وأن هذه النظرة القاسية والمغرورة قد تخللت في جمل أصبحت متداولة أيضاً لدى سكان المدن حيث عبر بها الكولون عند موسم جني الكروم، مثل «خل البرنوس يعرق». (أو في أكثر صيغها صراحة، مثل «أَهِنْ البرنوس» التي تعني استغلال الأهالي أو تجريدهم تماماً (3) .

إن التسلط الكولونيالي وأداته الرئيسية ـ التمييز (الفضائي والاجتماعي) ـ قد تقوتا بفكرة أخرى وهي أن هناك فراغاً موروثاً لا يمكن مد الجسور عليه بين الجماعة العليا الكاملة البشرية، وبين الجماعة الدنيا الأقل من البشرية الكاملة. لقد كان الجهل، وغيره من الحواجز التي تحول دون الاتصال بين الجماعتين، قد تعاونت على إبراز مركب الكمال (4) هذا. إن دور الجهل يظهر واضحاً بالخصوص بالنسبة للثقافة الإسلامية. ذلك أن أفكار أصحاب الأقدام السوداء عن الإسلام لا تتجاوز الأمور الخارجية (أي الزردات والأعياد الرئيسية، وتحريم الخمر ولحم الخنزير، وفوق كل ذلك العادات والتقاليد المتصلة بالجنس) (5) . وهذا الجهل نفسه لم يكن مصادفة بل هو منطلق، كما هو الحال، من النظرة القائلة بأنه ليس هناك من الناحية الفكرية، شيء يمكن تعلمه من

---

(1) جوان 1909، 30 اكتوبر 1910.

(2) أشار، المرجع السابق 11 - 12 كاقايوس في المعجزة، 3. قنديل كاقايوس رقم 3، 12. رقم 13، 5. رقم 14، 11 .

(3) لانلي، المرجع السابق 102. أجرون، المرجع السابق 639. باكري: رورو33، (نيكير) يضيف بالطبع نَبْرة جنسية لفكرة الهيمنة ضده.

(4) قارن أولبورت، المرجع السابق 226. مانوني، المرجع السابق 311.

(5) مثلاً أشار، المرجع السابق 84 . قنديل كاقايوس رقم 5، 7. زواج كاقايوس 19 كاقايوس في الشكنة 67. بابا ـ لويت، 13 أكتوبر 1907.

تلك الجماعة الدنيا اجتماعياً، أي الأهالي. وهذا النقص الأساسي في الفضول يمكن رؤيته في الملاحظات التي أبداها كاقايوس وهو ينكّت عن السياح: «هؤلاء الميسيو Mecieux الذين هم حريصون على زيارة وتصوير كل أنواع المعالم الأهلية، إنهم يصرون على رؤية القصبة، كل باب قديم، وكل منزل قديم، وحتى كل حمار». [1] إن نقص الفضول عند أصحاب الأقدام السوداء والرضى بالجهل المبارك عندهم، عن الثقافة الروحية الأهلية، قد أفرز معرفتهم التفصيلية الكاملة ـ رغم أنها من حيث الأداة موجهة ـ عن الثقافة المادية الأهلية لدرجة أنهم قد تفاعلوا معها، مثل الأطعمة، والملابس، والأسواق، وأدوات أماكن العمل.

والترفع الاختيالي عن القواعد الأخلاقية للمجتمع الأهلي هو المسؤول عن عدم بذل أصحاب الأقدام السوداء الجهد لتعلم اللغة الأهلية. فهم قد رفضوا، بدافع الامتعاض المحض والبلادة، حتى تعلم القليل من العربية التي قد تكون مفيدة لهم. وهناك بالطبع علاقة استرجاعية (Feedback) في هذا المجال. فالترفع يؤدي إلى الجهل، الذي يخلق بدوره حواجز جديدة لمنع الاتصال في مجتمع هو مفصول من قبل، ومن ثمة يغذى ترفعاً إضافياً وكراهية. فلا عجب إذن أن تصبح عبارات: العلماء، والمؤذنون، والمرابطون عبارات تحقيرية في اللهجة الباتوية، مصورة، من بين أمور أخرى، حكم الكولون المسبق ضد النخبة التقليدية (وهو الحكم الذي يعود إلى أيام ثورة عبد القادر). وكانت المساجد توصف بأنها مليئة بالقمل. وكان يطلق على عيد الأضحى عبارة «ذلك العيد، إذا كنت تسميه عيداً». وهناك ملاحظات استخفافية تطلق على الحجاج إلى مكة [2]. وصدق المثل العربي إذ يقول: «إن الذي لا يعرفك يمتعض منك.» [3] [من جهل شيئاً عاداه؟].

* * *

(1) كاقايوس في الحفلة، 6 - 15.

(2) مثلاً بابا ـ لويت 13 أكتوبر 1907 - 15 أغسطس 1909 - 30 أكتوبر 1910 قنديل كاقايوس رقم 3، 12. كاقايوس المعادي لليهود، 144. لاحظ الاستعمال الاحتقاري لكلمة حوريات Houris. عن وجهة نظر الكولون انظر قداش (الحياة اليومية في مدينة الجزائر، (1919 - 1939). الجزائر 1970 ,92 . أجرون، المرجع السابق، الفصل 11.

(3) ستيلمان، المقال السابق، 83.

(6)

إن التحليل الوظيفي يواجه الخطر من جراء تقديم صورة تبدو ثابتة جداً ومستقرة جداً، أو بعبارة أخرى تبدو راضية مرضية جداً. والنظام الذي نحن بصدده له تناقضات وتوترات تعمل ـ إذا ما وجدت أصلاً ـ في بنية عضوية مندمجة في النظام نفسه، بينما حافة هذه التناقضات والتوترات مثلومة من جراء المساومات والميكانيزمات المضادة.

وهذا الخطر يظهر بشكل أعظم بالنظر إلى فترة 1890 - 1920، وهو العهد الذي تركز عليه دراستنا هذه، ما دام ذلك هو الأوج الزائف (حسب تعبير جاك بيرك) للحكم الفرنسي بالجزائر. فلم يحدث أبداً من قبل أن كان الريف الجزائري أكثر هدوءاً وأكثر أمناً من هذا العهد. وهذه النخبة الإسلامية التقليدية (قياد، ومرابطون وغيرهم) قد توقفوا عن حمل راية الجهاد وأصبحوا متعاونين مطيعين للحكومة العامة. ولم تكن الوطنية الجزائرية الحديثة قد دخلت حتى مرحلة التكوين الجنيني. ومع ذلك فإن تيارات متقاطعة من الخوف والقلق كانت تجري، وكان يمكن الكشف عنها في الثقافة الشعبية لأصحاب الأقدام السوداء. وقد لاحظنا أثناء حديثنا بعض هذه الأمثلة، مثل الخوف من المزاحمة في العمل، ومهاجمة الشاذين جنسياً، وانتقال الأمراض المعدية، ولكن قد يكون مفيداً أن نبحث هذه الظاهرة أكثر.

إن المجال الجنسي ـ وهو مجال القُرْبىَ الحميمة ـ هو الذي يمكن لمثل هذا القلق أن يكتشف بشكل أكثر وضوحاً (كما يشير إلى ذلك الْمَثَلان الأخيران). وتنطلق الفكرة العامة من الخطر الأهلي من الاحتفاظ بالتصنيف في السلم الكولونيالي.

وباعتبار ما عثر عليه الباحثون في العلاقات ما بين الأجناس في حالات أخرى، فإن مثل هذه البنية الاجتماعية الطبقية لا يمكن أن تتأثر بالاتصال بالمومسات بسبب الملمح الارتزاقي للعلاقة الجنسية، وبسبب أن الأهالي المقصودين هنا هنَّ نساء (ومن طبيعة

وحالة دنيا في هذا المجال). وأن مثل هذا الاتصال يمكن، من جهة أخرى، أن ينظر إليه باعتباره حالة يعاد فيها تأكيد الذكورة والسيطرة الأوروبية.

ومن جهة أخرى فإن الزواج ـ حتى بين رجل أوروبي وامرأة مسلمة - (Hyper - Gamy) ـ ينشأ عنه خطر ضياع صفة الذات. ويرجع ذلك بالخصوص إلى ضيق المسافة الاجتماعية ـ الاقتصادية بين الفقراء البيض (الأوروبيين) والمسلمين. ويتضاعف الخطر بشدة عندما يتعلق الأمر بعلاقة بين رجل أهلي وامرأة أوروبية، غير أن مجرد وجود فاصل سلالي (إثْني) أو لوني لا يولد فقط الكراهية والنفور بل أيضاً الجاذبية والإغراء، فيصبحان أكثر مثاراً للقلق نتيجة صعوبة الاتصال بالمرأة العربية الملازمة للبيت والمحتجبة من جهة و«الوَفْرَةِ» النسبية للمرأة الأوروبية الأكثر تحرراً، ولكنها في الظاهر فاقدة لوسيلة الدفاع[1] من جهة أخرى. إن هذا يشرح القلق المتزايد والبارز من خلال الكثير من Tchalefes أصحاب الأقدام السوداء (أي الحكايات المسلية أو الشهوانية). وفي إحدى هذه القصص نجد خادمة إسبانية تحاول مازحة أن تخادع كاقايوس بقولها: إن خطيبتك قد هربت مع سقاء عربي. وهناك قصة أخرى ظهرت في (لانتيرن) في شكل تحذير وهي: نرجو الانتباه! إن رامونيت المعروفة باسم طونطو تغطس في مرسى الجزائر... (إن زوجها) يرغب في أن يعلن إلى الجميع بدون استثناء وإلى البنوك على الخصوص، أنه لم يعد مسؤولاً على الديون التي قد تكون زوجته مسؤولة عنها، ما دامت قد هربت من منزل الزوجية مع فحام أهلي»[2].

إن الجمع بين الحالة الدنيا للذكر الأهلي والمهنة الحقيرة هو بالطبع أمر مفجر للوضع بالخصوص، ومهدم لنظام اجتماعي قائم على الطبقية والتسلط (مثل ما كان عليه الحال في الجنوب قبل الحرب الأهلية الأمريكية بالنظر إلى الرقيق)[3]. وإن العدوان الجنسي من جانب الرجل المسلم موضوع للعديد من القصص (مثلاً لقاء كاقايوس لأول مرة بمن

(1) قارن مانوني، المرجع السابق 109 (تعليق 1) 13. بانتون، المرجع السابق 107 ,150. قارن نورا NORA، المرجع السابق 174 وما بعدها. ولانتين A. P. LENTIN ربع الساعة الأخير، باريس 1963 ,38 - 39. وعن ردود الفعل الإسلامية قارن كرية H. Krea (جمال)، 68 ,80 - 81 ,88 ,111 ,115 - 116.

(2) غراميات كاقايوس 108. قنديل كاقايوس رقم 2 ,15.

(3) جوردان، المرجع السابق، 139 ,158.

ستكون زوجته عندما أنقذها من هجوم بيكو مسلّح بهراوة)[1] . وهناك أغاني ساخرة بلهجة سابير (وتدور إحدى الأغنيات حول عربي يحاول أن يبرهن على رجولته، كما يدل على ذلك انتصاره على فتاة اسمها أنّيت) [2] ، أو حكايات العربي الذي يحاول أن يلمس النساء الأوروبيات دون علمهن أثناء التدافع، بمناسبة مظاهرات أول مايو) [3] . «وثمرات الشهوة» (حسب تعبير جوردان) بين رجل عربي وامرأة سوداء القدم غالبا ما كانت موضوعاً للنكات أو الإهانات. وقد جاء «في السجل الاجتماعي» (للأنتيرن) إعلان تكذب فيه سيدة تدعى مدام لويس، وهي أرملة، الإشاعات التي تقول بأنها قد ولدت توأماً أحدهما أسود والآخر أبيض. كما أن (أونت طونيا) التي كانت تقطن باب الواد كان جيرانها ينظرون إليها نظرة احتقار لأنها أنجبت طفلاً «أبوه كان عربياً» [4] .

إن هذه الدعابات غير الساخرة تكشف عن كثير من القلق والتوتر. ودون أن نغامر في الأرض الزلقة للتحليل النفسي التاريخي، فإنه من الواضح أن الهيمنة الأوروبية والحالة الأمتيازية هي محور القضية هنا. ولكن ما دام الرعية (المسلم) الكولونيالي «يعرف مكانه»، فإن هذه المخاوف ـ التي تكشف عن فكرة غامضة لهشاشة وضع المستعمر (بالكسر) ـ يمكن أن تبقى بطيئة ويمكن التغلب عليها من خلال صمامات أمنية مثل الـ Tchalefes. ولكن ماذا لو بدأت تتبلور تحديات أكثر مجاهرة ومباشرة للهيمنة؟ وقد صدق أ. منوني O. Mannoni حين أوضح القضية في دراسته لمدغشقر، فقال:

«إن ما هو سيء حول الرعية الكولونيالية ليس هو ملامحه البدنية، أو حماقته، ولا حتى غرائزه الفاسدة. إن المرء لفخور بامتلاك أحمرة ضخمة، أو حيوانات مفترسة. أما ما هو غير محتمل فهو أن يقدم الإنسان الأهلي نفسه على أنه كائن بشري كامل الأوصاف ويبرهن على أن له إرادة خاصة به.» [5] .

في ربع القرن السابق للحرب العالمية الأولى برزت عدة مؤشرات في ذلك

(1) زواج كاقايوس 10 ,15.

(2) بابا ـ لويت، 4 أغسطس، 1907.

(3) طلاق كاقايوس، 174 - 175.

(4) قنديل كاقايوس رقم 9,4. زواج كاقايوس 50. قارن بخصوص مولاتوس Molattoes, جوردان، المرجع السابق 154 وما بعدها، 167 وما بعدها.

(5) مانوني، المرجع السابق 115. قارن فان دين بيرغ، المرجع السابق 24.

الاتجاه، متحدية على كل حال، وبطريقة غير مباشرة، غرور أصحاب الأقدام السوداء. ومن أبرز الظواهر التي لم تجد لها حلاً، الهجرة الجماعية للمسلمين غير المالكين للأراضي من الريف إلى المدن الساحلية ذات الكثافة السكانية الأوروبية (مثل مدينة الجزائر، ووهران وعنابة، وسكيكدة، إلخ). وما تزال مدينة الجزائر تلقب بأنها «مدينة أوروبية كبيرة» و«المدينة الرابعة في فرنسا». ولكن نسبة السكان الأهالي، وهم بالدرجة الأولى من بلاد القبائل، كانت آخذة في الارتفاع ومقاربة ربع السكان في مدينة الجزائر، ومتمركزة في القصبة التي كانت مزدحمة من قبل بالسكان. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى أصبحت الأرقام لكلا الطرفين هي : 600,000 إلى 500,000. أما التساوي بين أعداد الطرفين فقد تحقق سنة 1936 حين أصبح العدد لكل طرف هو 708,000 نسمة [1].

كما أن فكرة «هنا فرنسا» قد جرى تحدّيها أكثر بالإحصاءات المنذرة بالخطر التي كانت تنشرها وسائل الإعلام فيما يخص «المشكل الديموغرافي» الجزائري عموماً. ذلك أن الهجرة الأوروبية قد وصلت إلى نقطة التوقف عند مدار القرن، وكانت نسبة المواليد بين المهاجرين الإسبانيين والإيطاليين المتفرنسين، آخذة في الهبوط باستمرار، بينما نسبة النمو السكاني بين الأهالي (باجتماع نسبة ارتفاع المواليد التقليدية وتقدم الخدمات الصحية)، كانت آخذة في الارتفاع. ففي البلاد كلها كانت النسبة هي 600,000 أوروبي مقارنة بـ 4,000,000 مسلم (أي نسبة 1:6)، وذلك عند مدار القرن. وعند نهاية الحرب العالمية الأولى أصبحت النسبة هي 700,000 أوروبي مقارنة بـ 5,000,000 مسلم (أي نسبة 1:7) [2]. وأن النسبة العددية، كما هو معروف، لها في الواقع رنة السحر في

(1) غوتييه، قرن من الاستعمار، 243 - 254. ونوشيه، معنى . . . أرقام، 200 وما بعدها. نفسه، ميلاد، 34. وقداش، المرجع السابق، 127. إن كثرة القبائل في مدينة الجزائر يوضح لماذا لم يقع تمييز لصالحهم من قبل الساكنين الحضريين من أصحاب الأقدام السوداء.

(2) نوشيه، ميلاد، الفصل 2. ديمونتيه V. Demontes، الشعب الجزائري، بحث في الديموغرافية الجزائرية، (الجزائر 1906). وغوتييه، المرجع السابق، 91 - 92. ليسبيس، من أجل فهم الجزائر، الجزائر 1937 ,31.

المجتمعات متعددة السلالات (الإثنيّات)، والمتشبثة بقوة بشعور أمْنِ السلالة المهيمنة أو التحدي لها[1] .

والمؤشرات النوعية قد ولدت مشاعر مشابهة من القلق. أن أوائل القرن العشرين قد شهد ظهور الجيل الأول من «المتطورين» المسلمين، وهم نخبة جديدة وعصرية، من نتاج المدارس الثانوية الفرنسية والمدارس النورمالية (ترشيح المعلمين) والجامعات (ولكن بدرجة أقل). وكانت هذه النخبة قد اندمجت تماماً وأصبحت تنافس الأوروبيين من أجل الوصول إلى وظائف في السلم الوسطي (وبعدها فوراً في السلم الأعلى). ومن ثمة ضربت النخبة الخط «السلالي أو العرقي» ضربة خطيرة[2].

لقد أصبحت الحالة الاجتماعية ـ الاقتصادية والأصل السلالي (الإثني) أقل إنسجاماً مما كانت عليه في الماضي. وأكثر منَ ذلك، فإن «المتطورين» المندمجين قد رفعوا قائمة جديدة تماماً من المطالب ملحين فيها على تحقيق مزج الأعراقFusion des Races) والحقوق المدنية، تلك التي وعدت بها أيديولوجية المستعمر (بالكسر) خلال القرن التاسع عشر، وهي الأيديولوجية التي اختفت الآن من الأستعمال في الجزائر، وحتى في العاصمة الفرنسية نفسها إلى حد ما. ومن أبرز هذه المطالب توسيع مجال التعليم الفرنسي للمسلمين، وتوسيع سلطات الانتخاب على المستوى البلدي والولائي (وفي مرحلة أخيرة البرلماني أيضاً) ثم المساواة في الخدمة العسكرية. ومن ثمة بدأت تظهر ظلال مزعجة ومُخِلّة بالتوازن في الأفق الهـادىء لأصحاب الأقدام السوداء.

إن ردود فعل هؤلاء المعبر عنها في الخوف والحقد واضحة للعيان، وخصوصاً لجؤهم إلى الرمزية الجنسية التي تقمصتها (حتى عندما يكون من الصعب أن يكون للموضوع علاقة بهذا الميدان الذي يعتبر من أكثر المحرماتTabous حساسية). وهكذا فإن أفواج الأهالي «المرعوبين والجائعين»، والمتسولين القبائليين، والأوباش، والأولاد (أطفال الشوارع) المندفعين نحو المدن، إنما تعبر بصورة واضحة عن نمو الانشغالات بالفقر

(1) جوردان، المرجع السابق، 141 - 143. اولبور، المرجع السابق، 227 - 228.

(2) ب. سعد الله ظهور النخبة الجزائرية 1900 - 1914 في مجلة الدراسات الإفريقية الحديثة، 1, - 11 1 (1967) ج. س. فاتان، الجزائر السياسية: تـاريخ ومجتمـع، باريس - 136 ,144 - 154 .126, 1974

الذي عليه الأهالي [1]. ومع ذلك فإن قفزة خيال أصحاب الأقدام السوداء هي فقط التي تذهب الى أن الجوالة القبائليين يمكن اعتبارهم بالقوة عدوانيين جنسيا، وهناك نكت تروى حول الزوجات الأوروبيات اللاتي من المفترض أنهن استسلمن «لجاذبيتهم» [2].

وعملية «مزج الأعراق» هذه قد أصبحت، مع نمو السكان المسلمين قضية Propsect بدون حل. ومن ثمة فإن هذا المزج قد قدم في محاضرة ساخرة «ألقاها» أحد المتطورين المتعاظمين أَمَامَ جمع من «يا أولاد» السذج، باعتبارها (أي عملية المزج) هي مزج الرجال المسلمين الشهوانيين والنساء الأوروبيات المشتهيات. أما مطلب تحرر المسلمين عموماً دون التخلي عن أحوالهم الشخصية «القرآنية» المستمدة من الشريعة الإسلامية، فقد نُظِر إليه على أنه إعطاء الشرعية لتعدد الزوجات. وأما مطلب منح التعليم للفتيات المسلمات فقد قيل عنه أنه «سيقودهنّ إلى البغاء» [3]. وإذا كان الإنسان الأهلي في حالة حرمان كبير، فإنه يستتبع أن المساواة التي ستحل محل الهيمنة (الاستعمارية) ستؤدي حتماً إلى إفساد مجتمع أصحاب الأقدام السوداء أخلاقياً وفوق كل شيء، جنسياً. وهناك أغنية حول «مزج الأعراق» تصف بتفاصيل غنية ومثيرة للتقزز. . . وتمثل: أسبانيين فخورين، وإيطاليين (نيبوليتانيين) مازحين، وعرباً حُولَ العيون، وميزابيين كريهي الرائحة، وهم يَحْسُون المرطبات معاً (الأيس كريم) من نفس الكوب، ويندمجون في كل أنواع العبث. والنتيجة هي أنه إذا خالط العرب الأوروبيين فإن جميع سكان الجزائر سيصابون بمرض الزهري (السفليس) [4].

وحالة عدم الانسجام الصريح ـ أو الخطر المحتمل الناتج عنها ـ محكوم عليها أن تولد حالة حادة من القلق. إن هذا القلق قد وقع التعبير عنه بعنف شديد كما في غضب حَمَاة كاقايوس من الشاوش الذي خاطبها بالأوامر (كما سبق في أول هذا البحث)، أو في

---

(1) القنديل الجزائري، 21 يوليو 1898. بابا ـ لويت، 3 جوان 1909 ,20 جوان 1909. أجرون، المرجع السابق، 576 ,808 ,849 ,885 قداش، المرجع السابق، 127.

(2) بابا ـ وليت، 1 باريس 1913. قارن 21 مايو 1911.

(3) نفس المصدر، 13 ديسمبر 1908. بيرنار، الجزائر، باريس 1929 ,88 أجرون، المرجع السابق، 535. كونفير V. CONFER، فرنسا والجزائر (سيركيوس، 1966) ,14.

(4) بابا ـ لويت، 18 أغسطس 1901.

حنق البطل عندما قال: إن هذا ليس بفندق! وذلك عندما وجد قصر العدالة، الذي هو رمز الحكم الفرنسي، يعج بالمتخاصمين والكَتَبَة، وتنفسه الصعداء بكل وضوح عندما مر «القاضي الفرنسي» إزاءه و«أنقذه». ولعل كاقايوس ليس هو ذلك الشخص الواثق تماماً من تفوقه الموروث، وفوق كل ذلك فهو طالما لاحظ بحزن أن «البيكو هم أكثر ذكاء منا نحن، فلا غرابة إذن أن يستعمل هذه الحجة من بين أخريات، لكي يوضح لماذا على المرء أن لا يتقدم في عملية الإدماج للأهالي [1].

وأكثر الموضوعات حساسية (نعني بها امتيازات أصحاب الأقدام السوداء) والمتعلقة بالاندماج هو بالطبع موضوع التحرر. ففي قصة (النائب المسلم) التي أشرنا إليها من قبل، يعبر كاقايوس عن عدم تصديقه لمجرد احتمال حدوث مثل هذه الحالة غير المنسجمة، وهي أن رجلاً لابساً على طريقة (البيكو) جاء ليجلس في قدس الأقداس وهو البرلمان الفرنسي، مستودع السيادة والهيمنة. أن «عبثية» ذلك الشبح المرعب قد دفعته إلى أن يعبر عن أوهامه بصوت هامس ولكنه حتمي ومثير: فقد أعلن بطلنا أنه هو أيضاً سيلبس مثل (البيكو) ويذهب إلى باريس، ويصبح بائعاً جوالاً قبائلياً، وبذلك يجمع كمية ضخمة من النقود ويقوم بحيل قذرة يضحك بها على أولئك المعتوهين، أي أولئك «الباريسيين» الذين من السهل على المرء أن يضحك عليهم. حتى أن سقّاءً قذراً لا نَمَسُّه هنا أبداً حتى بعصا طولها ثلاثون قدماً، هو المُشْتَهَى المفضل عند النساء (الباريسيات) الغنيات، أولئك النسوة الساذجات اللائي يتنافسن مع بعضهن لإحضاره إلى بيوتهن...»[2].

وكانت المعاني التربوية والمهنية الضرورية للاندماج أيضاً قد أخذت تعالج في أشخاص «المتطورين»، أولئك الأهالي المهذاريين مع «لهجتهم الدكتورية» التي كثيراً ما كانت محل سخرية. ذلك أن طريقة «المتطورين» في الكلام كانت هي الأكثر إغاظة لأصحاب الأقدام السوداء. كما أن لهجتهم الفرنسية الفصيحة ليس لها أية صلة بلهجة سابير، وهو ما يعتبر إهانة للباتوا، ذلك الرمز المزعوم لثقافة أصحاب الأقدام السوداء المتفوقة [3].

(1) قنديل كاقايوس رقم 3 ,7 قارن برقم 7 ,3.

(2) «النائب المسلم» في كاقايوس المعادي لليهود، 145.

(3) أجرون، المرجع السابق، 1,049. بابا ـ لويت، 13 ديسمبر 1908.

وإذا كانت المنافسة على مستوى الطبقة العاملة من أجل أعمال تقع في السلم الوسطى، ما تزال آخذة في الظهور المحتشم (بين عمال الموانىء، والسكة الحديدية، والسائقين، والتراموواي، الخ.) فإن المهن التي كان المسلمون قد دخلوها من قبل وفي نفس ذلك المستوى، قد شهدت تبدلات حادّة. وقد لاحظنا من قبل وجهة نظر الأسلاك الطبية من الأوروبيين وكذلك وجهة نظر القضاة. ونريد أن نضيف إليها هنا النزاع الصريح بين معلمي المدارس الأوروبيين في المستقبل وبين زملائهم المسلمين في المدرسة النُرْمَالِية في بوزريعة القائمة على التفرقة والتمييز: مثل الإهانات العرقية والتنكيت، ورفض الاختلاط أثناء الرياضة وأثناء الحفلات، الخ. [1] . فكل هذه الأمور كانت تشكل ميكانيزمات لِنَارٍ مؤكدة من شأنها أن تقدح حالات القلق والتوتر. ذلك أن أولئك المسلمين المعيّنين لنظام تعليمي منفصل، لم يكن يعنيهم افتكاك الأعمال (الوظائف) من أصحاب الأقدام السوداء، ولكنهم كانوا مستعدين أن يأخذوا منهم تفوقهم الثقافي ووضعهم المعنوي باعتبارهم دعاة «المهمة الحضارية». والأمور تصبح أكثر سوءاً عندما يتعلق الأمر بأصحاب الملابس الزرقاء (العمال)، إذ تكون الوظائف داخل العلاقات الإثنية (السلالية) أكثر تشابكاً. ورغم أن عمال السكك الحديدية كانوا من أصحاب الاتجاهات اليسارية، فقد كتبوا في صحيفتهم:

«أن الإنسان الأهلي ينتمي إلى سلالة دنيا... ولا يمكن أن يصعد بنفسه من خلال جهوده الخاصة ليكون في مستوى الأوروبي... ذلك أن الأهلي هو إنسان غشاش، وقذر، ولص، ومكار، وجحود، وفعل الخير معه كمثل إعطاء المُرَبّي إلى الخنازير. إذن فإن إهانته هي التي تعلمه أن يصبح طائعاً ومتحضراً» [2] .

وقد شكل الجيش أيضاً تهديداً آخر لهذا النظام: فهذا المسلم المحتقر قد أُعْطِيَ له السلاح وكذلك أعطي درجة من الاعتراف الاجتماعي والسلطة على المدنيين الأوروبيين (في بعض الحالات)، أو على الجنود الأوروبيين، كما في حالة الـ (N.C.O.) (الضباط غير المكلفين). فمنذ 1898 عبر المتظاهرون ضد اليهود عن

---

(38) انظر الاستجوابات التي أجرتها كولونا مع الطلبة القدماء، المرجع السابق، 136 - 139, 144, 177, 190.

(2) عامل السكة الحديدية الجزائري (لوشيمينو) 1 ابريل 1928.

اندهاشهم من كون مظاهراتهم قد فُرِّقت ـ بما رأوه إهانة ما بعدها إهانة ـ من طرف فرقة (التركو)، وهي فرقة الرماة المسلمين. وعندما أجبروا على طاعة هذه الفرقة انتقموا لأنفسهم وذلك بالسخرية من لهجة سابير عندهم [1] . ويذهب أصحاب الأقدام السوداء إلى أنه إذا ما أعطي المسلم الأسلحة فإن هناك الخوف في نظرهم من الثورة ضد السلطة الاستعمارية، أو قد يصبح المسلمون كبديل، وليس كنطقٍ حتمي، مواطنين منتخبين فرنسيين [2] . ومرة أخرى تسربت الغيرة الجنسية التي هي ضرورة لا مناص منها: ففي أثناء الحرب العالمية الأولى احتج جنود أصحاب الأقدام السوداء في المستشفيات العسكرية على المبالغة في الاسترضاء الذي تظهره الممرضات الفرنسيات الساذجات نحو الجرحى من زملائهم الجنود المسلمين[3].

ولا تكاد الثورة الأهلية وهي الكابوس النهائي، تذكر في الثقافة الشعبية التي نحن بصددها والتي غذتها وضعية حضرية آمنة في الجزائر قبيل الحرب العالمية الثانية. ذلك أن كاقايوس قام حتى بالسخرية من الكولون الواقعين في الأماكن المعزولة من الريف، وهم حاملون للبنادق الملازمة لهم. ويحسون بشعور عميق من عدم الأمن البدني [4] . وكان من النادر أن تجد شخصا مثل (ألبير كريميو) الذي هو من سكان المدينة وعضو سابق نشيط في الاتحاد النقابي، يستحضر هذا الشبح. فقد عبر كريميو في روايته (السهرة الكبرى) عن صور انتفاضة إسلامية في مدينة الجزائر ينفجر خلالها «كل الحقد الذي تجمع طيلة قرن من الزمان في شكل متوحش رهيب وفي شكل فندليزم ـ وندالية». وقد انطلقت الجماهير العربية المتعصبة مندفعة بجنون وهي تشعل النار في المدينة، وتقيم مجزرة ضد الأوروبيين وتنهب منازلهم، وذلك قبل قمعها وارتكاب مجزرة ضدها في المقابل من طرف الجنود الفرنسيين [5] .

---

(1) كاقايوس المعادي لليهود 69 - 71, 233 - 234..

(2) بابا ـ لويت، 1 نوفمبر، 1908.

(3) رسائل الجنود كما نص عليها أجرون، المرجع السابق، 187 - 1,188. ونفس التخوفات تولدت بتجنيد العمال المسلمين للصناعة العسكرية في فرنسا خلال هذه السنوات نفس المصدر، 1,158 (تعليق 1).

(4) قنديل كاقايوس رقم 1 ,6.

(5) كريميو A. Cremieux، السهرة الكبرى Le Grand Soir باريس 192 ,212 وما بعدها.

كان ذلك سنة1929 أي سنة واحدة قبل الاحتفال المئوي، قمة المجد للاستعمار الفرنسي. إن الكبرياء الاستعمارية والاستسلام للرضى والراحة كانا ما يزالان موجودين، وعلى العموم حوفظ عليهما. ولم ينفجر ذلك القلق الذي يغلي والكوابيس وبعنف شديد إلا في ثورة شهر مايو 1945 التي هي ثورة (جاكري) إسلامي Jaguerie (إشارة لثورة الفلاحين الفرنسيين سنة 1358).

الجزائر مساء يوم أول جوان 1990.

انتفاضة 8 مايو 1945 "مترجم" (*)

مقدمة المترجم:

مضى على كتابة هذا البحث أكثر من أربعين عاما، إذ يكاد عمره يكون هو عمر انتفاضة مايو 1945 . كاتبه كان شاباً عندئذ ولكنه كان يعد بمستقبل كبير لعالم باحث، ثم أصبح من ذوي الاختصاص الأمريكيين في شؤون الإسلام والشرق الأوسط وشمال أفريقية والحضارة الشرقية إلخ. ولد مانفريد هالبيرن Manfred Halpern في ألمانيا سنة 1924، وحصل على شهائده الجامعية من أمريكا. فالليسانس من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلس) سنة 1947، والدكتوراه من جامعة جون هوبكنز سنة 1960. وقد تعاطى التدريس في جامعة جورج تاون، وجامعة برنستون وعدة معاهد أخرى متخصصة مثل المعهد الحربي الأمريكي والمعهد الاستراتيجي للاتصالات. وكان تخصصه هو العلوم السياسية، والأديان في الشرق الأوسط لا سيما الإسلام واليهودية، وتطور الوطنية في شمال أفريقية. وألّف كتاباً يعبر فيه عن كل هذه الاهتمامات بعنوان (سياسة التحول الاجتماعي في الشرق الأوسط وشمال أفريقية 1963). أما بحثه الذي نقدمه مترجماً فقد كتبه بعد القيام بدراسة خاصة للقضية الجزائرية سنة 1947 أي سنة تخرجه بالليسانس، وقد نشرته مجلة الشرق الأوسط The Middle East Journal مجلد 1948، ص 191 - 202.

والبحث على قسمين: قسم عن الانتفاضة وقسم عن عواقبها. أما الانتفاضة فقد وصفها من المصادر المتوفرة عندئذ، أمريكية وفرنسية. وبين أسبابها الحقيقية والمعلنة من قبل الفرنسيين، ومراحلها ومدى انتشارها ونتائجها. وما دام قريباً من الأحداث زمنياً فإنه

(*) نشرنا هذا البحث في جريدة (المجاهد) الأسبوعية وقد ترجمناه عن مانغريد هالبيرن. (مجلة الشرق الأوسط) 1948، المجلد 2، ص 191 - 202.

لم يستغل مصادر أخرى كانت ما تزال في ملفات الدبلوماسيين وغيرهم. ولا ندري إن كان الأستاذ هالبيرن قد جمع وثائق أخرى عن الانتفاضة واستغلها في أعمال أخرى في العهود المتأخرة. وأما القسم الثاني فهو قسم سياسي - إذا صح التعبير - عالج فيه العلاقة المستقبلية بين الجزائريين والفرنسيين في ضوء نتائج الانتفاضة مثل صدور الدستور الجزائري، وإنشاء المجلس الجزائري، وظهور التيارات السياسية وحق التمثيل البرلماني للجزائريين، وتوسيع منح المواطنة الفرنسية لهم، وعلاقة كل ذلك بمستقبل فرنسا في الجزائر. ومن رأيه أن هذا المستقبل سيتوقف على تفهم المطامح المشروعة للجزائريين في ظل الإسلام والوطنية اللذين نظر إليهما هالبيرن كسبب في الانتفاضة وكظل ممتد عبر المساحة من المغرب إلى الباكستان. وإذا كان حكمه على الانتفاضة ما يزال صالحاً للنظر والتأمل فإن حكمه السياسي قد فاته الوقت - ولكنه جدير بالملاحظة أيضاً، إذ أن الفرنسيين قد جمدوا ولم يتفهموا طموح الإسلام والوطنية فكانت الثورة الجزائرية التي وضعت حداً للعلاقة بين الجزائريين والفرنسيين وأكملت ما عجزت عنه الانتفاضة.

هناك مصطلحات كثيراً ما توقع في الخطأ أو الوهم، مثل الانتفاضة والثورة والتمرد الخ. وكلها وردت في البحث. وقد فضلنا ترجمةUprizing بالانتفاضة، وRevolt بالتمرد، وRebellion و Insurrection بالثورة. ونلاحظ أن الباحث كان يستعمل عبارات: المسلمين والأهالي والعرب والبربر دون تمييز بينها.

هذا وقد اطلعت على هذا البحث منذ فترة طويلة، واستفدت منه في كتاباتي، ولم أوفق إلى ترجمته إلا هذه الأيام. وأرجو أن يكون مفيداً للقراء والباحثين باعتباره يقدم وجهة نظر أخرى لانتفاضه 8 مايو 1945 التي ما تزال موضع اهتمام الباحثين باعتبارها آخر التعابير للسخط على الاستعمار وباعتبارها مؤشراً بارزاً لثورة نوفمبر 1954.

الجزائر في 2 شوال1410الموافق 27 أبريل 1990.

انتفاضة 8 مايو 1945

«من الواضح أن المركز الرئيسي للاضطرابات يقع بين سطيف والبحر، عند جبال البابور، تلك الأرض الوحشية، التي تبرز النتوءات العظيمة لأطلال كويكول (جميلة حالياً) القديمة، التي تتجاوز قممها ألفي متر، قاطعة إلى شطرين المضايق الهاوية «لمعبر الموت». إن هذه المنطقة الصعبة المداخل تقطنها القبائل البربرية الجافية والبائسة، والتي تظهر عداوتها المضمرة دورياً، في شكل هجومات معزولة. وكل ما يمثل التأثير الأوروبي في هذا الجانب من الطرق العظيمة، لا يعدو بعض المحطات الغابية ومراكز صغيرة للاستعمار متباعدة وغير كثيفة».

«وفي صباح الثامن من مايو، وصلت سيارة أجرة إلى سطيف قادمة من مدينة الجزائر. ورغم أن إحدى عجلاتها قد انفتقت، فإن السائق لم يُضِعْ الوقت لإصلاحها بل استمر يسوقها على الجزء الحديدي من العجلة خلال السبعة عشر كلم الأخيرة. إن الذي جاء به السائق هو كلمة الثورة «فمدينة الجزائر ووهران وقسنطينة كلها قد اشتعلت وإنها مليئة بالدم.» وقد ترك الأهالي الذين هم سذج جداً والذين هيجتهم كمشة من المشاغبين المجرمين، تركوا أنفسهم تنجذب إلى التمرد، وفي نفس الوقت وبطريقة منسقة اندلع العنف في عدة نقاط من المدينة». [1].

وهكذا بدأ أول خبر مضخم أبرقت به وكالة الأنباء الفرنسية الى الصحف المحلية، عن الانتفاضة (Uprising) في مقاطعة قسنطينة (ولاية قسنطينة القديمة). ولكن أخبار هذه الثورة التي قام بها المسلمون الجزائريون في ربيع 1945 والتي حدثت عندما كانت

---

(1) جريدة (لادبياش دي كنستانتين)، 14 مايو، 1945.

قوات الحلفاء قد أحرزت على النصر في أوروبا، كانت أخباراً نادراً ما سُمِحَ لها بالتسرب خارج الحدود الجزائرية، كما أن القصة الكاملة لها لم تعرف بعد ذلك.

لقد كان ذلك وصفاً لأحداث أدت إلى مقتل مائة أوروبي وألف وخمسمائة مسلم (أو أربعين ألف مسلم حسب بعض المصادر الأخرى). وإذا وضعنا ذلك الحدث مقابل إنجازات وفشل الفرنسيين فيما مضى بالجزائر، فإنه يمكننا أن نتوصل الى رؤية داخلية للتوترات بين الوطنيتين الإسلامية والفرنسية، وهي التوترات التي لم يستطع قرن من الزمن من التسلط الامبريالي أن يجد لها حلاً، وهي أيضاً التوترات التي أظهرت نفسها، بهذه المناسبة، في أجدّ وأعنف ما تكون. وخلافاً لما اقترحته برقيات وكالة الأنباء شبه الرسمية، فإن الثورة لا تكاد تجد لها علاقة بخيال الطبيعة أو رومانتيكية القفار (*) بالعكس لقد بدأت بتقديم طلب إلى الشرطة. وتشريفاً ليوم النصر عند الحلفاء، رُخِصَ للمسلمين بالقيام بمظاهرة في مدينة سطيف، وهي مدينة تضم حوالي أربعة وثلاثين ألف نسمة. وكانت المظاهرة ستتحرك على الساعة التاسعة والربع من المسجد القريب من محطة القطار متجهة نحو النصب الحربي، بشرط أن لا تأخذ المظاهرة أي مَلْمَح سياسي وأن لا ترفع أية لافتات ولا ترتفع خلالها الأعلام. ولكن الثمانية أو العشرة آلاف من الرجال الذين ساروا في شارع كليمنصو لم يفعلوا شيئاً لكبت عواطفهم. فقد رفعوا الأعلام الفرنسية والبريطانية والروسية والأمريكية، مع لافتات تمجد الانتصار، وشعارات تنادي بتحرير مصالي، زعيمهم الوطني المتطرف، وتعلن «إننا نريد أن نكون متساوين معكم!» وعندما اقتربوا من فندق فرنسا، حاولت الشرطة أن تفتك الأعلام من أيدي المتظاهرين. وهنا أُطْلِقَ الرصاص. فمن الذي أطلق الرصاص أولاً؟ ليس هناك أبداً دليل واضح على ذلك.

ورغم أن المسلمين قد تفرقوا عند هذه النقطة فإن بين ثلاثة وأربعة آلاف منهم قد أعادوا تجمعهم عند النصب الحربي، وهناك أطلقت عليهم الشرطة النيران مرة أخرى بعد أن رمت الجماهير عليها الحجارة، وحوالي الساعة الحادية عشرة استتب النظام إلى حد ما. ولم يأت العاشر من مايو حتى «استتب النظام استتباباً كاملاً». ولكن بحلول ذلك

(*)يشير الكاتب إلى ما ذكرته (لادبياش) من أن سكان المنطقة كانوا يعيشون في قفار موحشة وطبيعة وحشية . (المترجم).

التاريخ كان كل من رئيس المجلس البلدي والرئيس السابق للمحكمة العسكرية قد قُتِلا معاً، كما أن ذراعي زعيم الحزب الشيوعي المحلي قد قطعتا كلتيهما بضربات شاقور. وكان هناك تسعة وعشرون قتيلا على الأقل وخمسة وأربعون جريحاً.

لم تكن هذه الانتفاضة هي أول علامة للعداء في الجزائر في ذلك الشهر. ففي أول مايو سارت الاستعراضات الوطنية، بشكل يميزها عن مظاهرات الاتحادات العمالية، في كل الولايات الثلاث، وقد نتج عن ذلك موت أحد المتظاهرين على الأقل في مدينة الجزائر. أما في مدينة سطيف فقد تظاهر في ذلك اليوم (أول مايو) خمسة آلاف مسلم، ولكن الشرطة لم تر ضرورة للتدخل فانتهت المظاهرات بدون عنف. وأثناء الاحتفالات الأولية بيوم النصر في سطيف، يوم السابع من مايو، لم يظهر أكثر من خمسة أو ستة من قدماء المحاربين المسلمين في الشوارع، وكان أحدهم قد عكر صفو الفرح بذلك اليوم حين صاح قائلا: «يحيا ديغول! يحيا مصالي!» وهي الصيحة التي رددتها على أثره الجماهير قائلة: «يحيا مصالي!.»

أما يوم الثامن من مايو، وهو يوم الانتفاضة في سطيف، فإن رخص الاستعراضات كانت قد منحت للمسلمين في كثير من المناطق الجزائرية الأخرى. فقد ظهرت اللافتات في سيدى بلعباس تحمل نفس الرموز التي ظهرت في سطيف. ولكن الشرطة في سيدى بلعباس ظلت هادئة فلم يحدث شيء. ونحن لا نعرف ما إذا كان المتظاهرون في سطيف الواقعة في ولاية قسنطينة، كانوا أفضل تسلحا من متظاهري سيدى بلعباس الواقعة في ولاية وهران، أو أنهم لم يكونوا يريدون فقط تحدي السلطة، بل كانوا يريدون أيضاً الإطاحة بها.

إن لجنة التحقيق التي عينها الوالي العام قد تساءلت هي نفسها لماذا كان المتظاهرون في بعض المناطق قد تفرقوا بهدوء، فهل ذلك يعود إلى مهارة وطاقة بعض الإداريين الفرنسيين الذين حقق كثير منهم علاقات جيدة مع رعاياهم المسلمين؟ أو هل كان بعض الزعماء السياسيين المسلمين أكثر اعتدالاً من البعض الآخر؟ أو لعلهم رأوا أن الوقت لم يكن قد نضج بعد؟ أو هل كانت بعض القرى والقبائل تميل عادة إلى السلم أكثر من غيرها؟ أو أنها كانت خائفة من رؤية الجنود بعتادهم العصرى؟ أن اللجنة اكتفت بذكر الاحتمالات فقط، كما أنها لم تستطع أن تكتشف من الذي أعطى الأوامر في

سطيف بعدم التسامح مع اللافتات الاستفزازية. وقد اندهشت اللجنة أيضاً من أن الدم قد أخذ يجري في الأرياف فقط بعد انتشار الأخبار عن القمع الذي حدث في سطيف، فإذا كان المسلمون في هذا اليوم هم المعتدين حقاً، كما كانوا في معظم الأحيان، فإن السؤال يجب أن يبقى مطروحاً، وهو هل أن الموانع الإضافية المفروضة عليهم من قبل الشرطة في بعض المناطق لم تزد الطين إلاّ بلة، وذلك بتحويل ما كان سيقع في شكل مسيرة تعبر عن السخط إلى مظاهرة من العنف الجماهيري غير المنضبط. ولكن القنوات البديلة والفعالة للتعبير السياسي السلمي عن آمال المسلمين لا تكان تكون موجودة في الجزائر خلال ذلك الوقت.

لقد فاضت الاضطرابات من سطيف، «وأخذت في بعض المناطق شكل انتفاضة حقيقية.» [1] ورغم أن المظاهرات قد حدثت أيضاً في ولايات أخرى، فإنها كانت في الغالب متمركزة في منطقة سطيف وخراطة وقالمة، حيث كان يعيش مائتا ألف أوروبي في حالة عزلة وسط ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف من البربر. ففي هذه المناطق كانت الشركات الفلاحية الكبرى نشيطة بصفة خاصة، وقد أحدثت حالة قريبة من العبودية (الخماسة) بين الفلاحين المسلمين، وحيث لم تهدأ القبائل الجبلية إلا في وقت قريب، وأن ثورة 1870 ومظاهرات 1934(*) قد وقعت هناك أيضاً. ففي الوريكة (الوريسية) في ظهيرة نفس اليوم، وفي عين عباسة (Abessa) في مساء ذلك اليوم، وفي قالمة في اليوم العاشر، وفي بجاية في اليوم الحادي عشر، وفي مدن كثيرة أخرى، وليس في كلها، بدأ الهجوم على الفرنسيين.

وهكذا، فقد قتل كل من المتصرف الإداري ومسؤول البريد وولده البالغ من العمر أحد عشر سنة في (بيريقوفيل / العين الكبيرة حالياً) من قبل الرئيس المحلي لجماعة أحباب البيان، ذلك الحزب الوطني المعتدل. كما أن (شوفروي - بني عزيز حاليا) حيث يعيش

---

(1) تقرير إلى السيد الوزير المفوض، حاكم عام الجزائر، من اللجنة المكلفة بالتحقيق الإداري حول الحوادث التي جرت في ولاية (إقليم) قسنطينة يوم الثامن من مايو والأيام التالية، مدينة الجزائر، المطبعة الرسمية، 1946، ص 5.

(*) يشير الكاتب إلى ثورة المقراني والحداد سنة 1871 (وليس 1870)، وإلى مظاهرات قسنطينة سنة 1934 التي تسبب فيها بعض اليهود ثم تحرك المسلمون ضدهم، وكادت الأمور تفلت من أيدي السلطات الفرنسية (المترجم).

عدد قليل من المزارعين الصغار في بعض المنازل وحيث لم يقع أي حادث منذ ست وأربعين سنة، قد نهبت وأحرقت تحت صرخة «الجهاد». لقد كانت قد حوصرت مدة ثمان وأربعين ساعة قبل أن تصلها النجدة. وقد علمت لجنة التحقيق ان المهاجمين لم ينذروا مزارعي (شوفروي) قبل الهجوم رغم أن كثيراً منهم قد أحضرهم السكان الأوروبيون إلى هناك منذ طفولتهم وعاشوا معهم في المزارع.

ولكن في أماكن أخرى، أخبرت الصحف الجزائرية أن العائلات المسلمة قد آوت الفرنسيين، وإن «المخلصين المسلمين الذين كانوا مسلحين فقط ببنادق رش قديمة وهراوات» كانوا يصدّون العصابات المسلحة إلى أن وصلت فرق المشاة السنيغاليين. كما وجه أعضاء النخبة المسلمة المندمجة في الحياة الفرنسية نداءات إلى العرب والبربر للمحافظة على النظام، والى الأوروبيين بأن لا يخلطوا بين قلة من المشاغبين وبقية المسلمين.

وقد أخبرت وكالة فرانس - بريس بأن «التهدئة قد تحققت بدون مبالغة.» [1]. ولكن برقية من الدار البيضاء (المغرب) نشرتها طبعة رومة من جريدة (ستار أند سترايبس)[*] في 13 مايو قد أخبرت بقصة مختلفة، إذ قالت أن القوات الفرنسية البرية والجوية قد قتلت وجرحت أكثر من عشرة آلاف ثائر عربي في أوائل هذا الشهر خلال حملة دامت تسعة أيام لقمع «ثورة جزائرية من أجل الطعام» إن الطائرات المقنبلة الفرنسية قد سحقت قرى أهلية بأكملها في المناطق الثائرة الواقعة حول المدينة الجزائرية الجبلية، قسنطينة. فقد نفذت ثلاثمائة غارة في يوم واحد بطائرات مقنبلة بين متوسطة وثقيلة حصل عليها الفرنسيون من الولايات المتحدة. «وهناك تجمعات كاملة (دواوير) من المنازل القشية والطوبية كانت قد دمرت عن آخرها. كما أن المحاربين الفرنسيين الممتطين لطائرات من صنع بريطاني كانوا يتبعون الطائرات المقنبلة ويطلقون النار على السكان الهاربين أو يرمون القنابل على المراكز العربية في الجبال.» وقد قتل سبع وتسعون أوروبياً، معظمهم من الإداريين الاستعماريين ومن المقيمين الأغنياء. وبعد سنة كررت جريدة (النيويورك تايمس) الخبر بأن «الفرنسيين لم يستعملوا الجنود فقط بل

(1) جريدة (لا ديباش دي كونستنتين)، 18 مايو، 1945.

(*) هي لسان حال الجيش الأمريكي.

المقنبلات والزوارق الحربية أيضاً لقمع الانتفاضة، بأعنف ما تكون القسوة.» وأ
قرية شوفروي وحدها قد قتل مائتان وتسعة عشر 219 عربياً بعد رفع الحصار عنها (

والصحف المحلية نفسها قد أعلنت بأن الطرادات (دوقي - تروان) و (الت
و (التامبيت) كانت تراقب بعض المناطق المحددة، كما أعلنت أن الجنود السنيغا
وفرق الصبائحية، واللفيف الأجنبي، قد انضمت كلها إلى العمليات، وأعلنت كذلك
أثني عشر طائرة من نوع (بB 26) وستة من نوع (بP 39)(*) قد شاركت في ال
العسكرية بقسنطينة يوم13 مايو. ومن ثمة فإن المرء يقرأ في الجريدة شبه الرسمية
الخبر: «أما عن الطيران فقد لعب دوراً بصفة خاصة في الاستطلاع وجعل تحديد
التجمع ممكنة، وهي النقاط التي وقع تفريق معظمها بطريقة نشطة.»

وبناء على أخبار وكالة فرانس - بريس فإن ستة آلاف من الأهالي قد اجتمعوا
مايو بالقرب من خراطة «وعرضوا جميعاً وبصوت واحد طاعتهم. وقد عبروا عن ند
واعترفوا بذنبهم، وسلموا أسلحتهم.» (2) وأن البربر في صافية (السفيهة)، و
أهراس، وفيلار، (   )، وتقيطونت قد فعلوا نفس الشيء في اليوم الذي
ذلك. أن المعركة قد انتهت في معظم المناطق قبل أن تكون الأخبار قد بدأت
التدفق.

إن والي ولاية قسنطينة قد حذر يوم العاشر من جوان «السكان ضد الاقترا
التي تؤدي إلى الاعتقاد بأن القمع قد طبق بدون حدود، وأن عدد الموتى يمكن أن
إلى الآلاف. وقال إن مثل هذا الرقم لا يمكن إلا أن يكون حجة ضد فرنسا ال
والرحيمة، وأنه إذا ثبت ذلك فإنه سيسيء إلى شرف السلطات المسؤلة.» ولم
الوالي أي أرقام. ولكن وزير الداخلية الفرنسي السيد تيكسييه قد أعطى يوم29
بعض التفاصيل في إذاعة الجزائر، وهو يعترض مرة أخرى على التزييفات التي انت
في الخارج، فقال: لم يشترك أكثر من خمسين ألف شخص في الانتفاضة التي

(1)(النيويورك تايمس)، 29 ابريل 1946، ص 7.

(*)يجب أن نفرق بين حرف الباء العربية الخفيفة (B) في المثال الأول وبين حرف الباء الأجنبية
(P) في المثال الثاني.

(2)لا ديباش ديكونستانتين، يوم 17 مايو، 1945.

ثمانية وثمانين قتيلاً ومائة وخمسين جريحاً في صفوف الفرنسيين. وأثناء القيام بالإجراءات المضادة قتل بين ألف ومائتين وألف وخمسمائة من المسلمين، كما ألقى القبض على ألفين وأربعمائة منهم (ويشمل الرقم الأخير ليس فقط كل الأعضاء البارزين من حزب الشعب الجزائري لمصالي بل أيضا أولئك الأعضاء المعتدلين من تنظيم أحباب البيان الذي كان زعيمهم فرحات عباس مستشاراً بلدياً في مدينة سطيف. كما أن أعضاء من جمعية العلماء، وهي تلك الجماعة الدينية السلفية، قد اعتقلوا أيضاً). (*) ومن بين أولئك الذين سجنوا هناك خمسمائة وسبعة عشر قد أطلق سراحهم قبل 26 جوان (وقد اتهم مزغنة، وهو من أتباع مصالي، في المجلس الفرنسي (البرلمان) أنه هو وآخرين قد تعرضوا للتعذيب وهم في السجن. كما أكد زميله السيد دردور، بأنه قد بقي مدة ثلاثة أشهر وهو سجين في عزلة تامة ثم أطلق سراحه لعدم وجود أدلة الإثبات.) وقد أضاف وزير الداخلية بأن المحاكم العسكرية قد أصدرت أحكاماً على مائة وسبعين مسلماً، من بينها ثمان وعشرون حكماً بالموت، غير أن هذه الأحكام الأخيرة لم تنفذ في نهاية الأمر كلها.

فكم شخص قد واجه الموت فعلاً؟ لقد قدر السيد سايرس ل. سولزبيرقر (C.L. Sulzberger) عدد الذين قتلوا من الفرنسيين بمائتين، وأما المسلمون فعدد قتلاهم في تقديره قد تراوح بين سبعة آلاف وثمانية عشر ألف شخص، مضيفاً قوله بأن «الرقم لا يمكن ضبطه بعد.» (1) وادعى مصالي بأن الضحايا كانوا مائة أوروبي وأربعين ألف مسلم. أما تقرير لجنة التحقيق التي عينها الحاكم العام فلم يكن لديها إلا عدد قليل من الأدلة تساهم بها. فقد جاء عنها قولها «أن اللجنة لم تستطع أن تبدأ التحقيق في هذه النقطة من مهمتها.» فقد حصرت نفسها في التقرير الذي تقدم به الجنرال دوفال(Duval)، والذي يقول بأن الجيش الفرنسي قد قتل بين خمسمائة وستمائة مسلم، بينما قتل له (الجيش) إثنا عشر شخصاً وجرح له عشرون. وفي اللحظة التي كانت فيها اللجنة

(*)ما بين القوسين ( ) في النص تدخل من المؤلف أثناء ذكره لتصريح وزير الداخلية الفرنسي. (المترجم).

(1)النيويورك تايمس، عدد 29 ديسمبر، 1946، ص 12. ـ كان السيد سولز بيرقر يعمل عندئذ مراسلاً لجريدة النيويورك تايمس في فرنسا. (المترجم).

تفكر في الذهاب إلى قالمة حيث قيل بأن عدداً يتراوح بين خمسمائة وسبعمائة شاب مسلم قد قتل بعد أن توقفت المعركة، اتصل المحققون في اللجنة باستدعاء للالتحاق بمدينة الجزائر. أما الملاحظون الأجانب الذين كانوا حاضرين أثناء الأحداث فقد قدروا عدد القتلى من المسلمين بين سبعة عشر ألفاً وأربعين ألفاً، وربما يكون التقدير الأكثر صحة مما قدمه الفرنسيون هو الرقم الذي يتراوح بين هذا وذاك(*).

ولا يسع المرء إلا أن يفهم جيداً السياسة الرسمية التي قللت من شأن أخبار الانتفاضة التي عملت على تأخير نشر أي تفاصيل عنها إلى أن عاد النظام العام، وذلك لكي تبقى الانتفاضة أطول مدة ممكنة لا أكثر مما جاء في البيان العاشر من شهر مايو والمتكون من اثنين وعشرين سطراً والذي يفسرها أول مرة على النحو التالي: «إن عناصر مثيرة للشغب تستمد وحيها من هتلر ومستعملة في ذلك طريقته، قد حاولت أن تعرقل احتفالات النصر، ولكن الشرطة والجيش قد ألقوا القبض على أولئك المسؤولين. «كما أنه من المفهوم أيضاً لماذا وجدت السلطات انه من المرغوب فيه أن تقترح أن هذه الأحداث ما هي إلاّ أحداث جاءت بعد ماض قد مات وليست تنبؤات فأل حسن من أجل المستقبل، وذلك بإعلان هذه السلطات أن مساجين الحرب التابعين لقوات المحور لم يتعرضوا أبداً للهجوم، وإنما هوجم فقط الذين يوظفونهم، والإعلان أيضاً بأن الشعار النازي قد عثر عليه في هذه الأثناء. إن التقليل من الأهمية سيؤدي إلى تحالف مشاعر الإرهاب والخطر بين الأوروبيين، كما أنه سيمنع المسلمين في الجهات الأخرى من أن يتشجعوا على الانضمام إلى المعركة، وكذلك يمكنه أن يحفظ الأخبار الحقيقية من أن تصبح سلاحا للدعاية إما في أيدي الانفصاليين (الوطنيين) وإما في أيدي الكولون الرجعيين ضد مشاريع الإصلاحات التي قررت الحكومة القيام بها. ومن جهة أخرى فإنها لن تعطي مؤشر استراحة أيضا للسوريين واللبنانيين الذين كانوا عندئذ يخوضون معركة تحرير أنفسهم من السيطرة الفرنسية. إن الرقابة على الأخبار في هذا الوقت ستحافظ على سمعة الامبراطورية الفرنسية تماماً مثل ما أن اعطاء وجهة نظر صريحة عن الأحداث وإجراءات إصلاحية يتقدم بها فرنسيون متنورون قد ساعدت منذ ذلك الحين على المحافظة على وضع الامبراطورية كما هو.

(*)أي بين 17.000 و40.000 ألفاً. (المترجم).

ترى لماذا وقعت ثورة؟ بالنسبة لاتيان فاجون(E. Fajon)، وهو شيوعي، فإنه أكد للبرلمان في باريس بأنها كانت «مؤامرة فاشيستية» مدفوعة (   ) بانتقامات شريرة على يد الفيشيين (أنصار نظام فيشي) الذين لم يشملهم التطهير. أما مارك روكار.M) Rucart)، وهو اشتراكي راديكالي، فقد لاحظ أن «حلفاءنا الذين نظروا إلى الجزائر بأعين جشعة» ربما كانوا هم المحرضين عليها. ومن جهة أخرى فقد اكتشف الكولون الفرنسيون بقالمة إن من بين المتظاهرين مصوتين مسلمين وقدماء محاربين، وأعضاء في الاتحادات النقابية، وإداريين صغاراً. فهؤلاء الكولون كانوا متأكدين فكرياً إن الإصلاحات قد ذهبت إلى أبعد الحدود، وأن هذه الإصلاحات قد قدمت للأهالي مفاهيم جديدة، وإن الانتفاضة لم تكن سوى البداية لحركة معادية للأوروبيين قامت بها النخبة المثقفة وكذلك الجماهير، ومن الأفضل للحكومة أن تضع كلا من هذه النخبة المثقفة والجماهير في مكانهم قبل فوات الأوان. وقد استنكر الكولون الرقابة على الصحافة لأنها لم تسمح إلا بمعلومات محدودة عن وحشية الانتفاضة التي لم يتسبب فيها، كما يؤكد الكولون الجوع، لأنهم وجدوا مخازن حبوب خاصة وكافية عند الأهالي الساخطين.

حقاً، لقد أعلن رسمياً بأنه لم تقع هجومات على مخازن المواد الغذائية والحبوب، ولكن الانتفاضة بالأحرى كانت قد نبعت من الحماس الوطني. وفي الجنوب حدث الجفاف سنة1945، وهو الجفاف الذي أدى إلى تدمير ثلاثة أرباع المحصول في الجزائر. فالسكان كانوا أكثر بؤساً في الجنوب منهم في الشمال، ومع ذلك لم تحدث انتفاضة في الجنوب. غير أن الفرنسيين فكروا أنه من باب الأخذ بالأحوط أن يحولوا ناقلات القمح إلى الجزائر، بما في ذلك البعض الذي كان موجهاً إلى فرنسا من أمريكا.

ومن بين «الأسباب المباشرة والفورية» للانتفاضة، كما رأتها لجنة التحقيق التي عينها الحاكم العام، هو الحماس المتولد عن مؤتمر سان فرنسيسكو حيث اعتقد المسلمون أن استقلال الجزائر سيعلن فيه، إذ قالت اللجنة: «أن بعض النفوس الطيبة اعتَقَدَتْ بأن على المرء أن يبحث عن توضيح لهذا الاعتقاد في التفسير الخاطىء الذي أعطي للميثاق الأطلسي... وأخيراً في الفكرة المغربة وهي ان الأمريكيين سيجعلون حداً للاستعمار بعد تحقيق الانتصار.» ومن جهة أخرى فإن اللجنة قد انزعجت أيضا من تأثير

الجامعة العربية. فقد شعرت اللجنة أن بعض البريطانيين في وظائف عالية كانوا ينظرون إليها نظرة استحسان.

وقد حمّلت اللجنة كذلك لوماً كبيراً للضعف الفرنسي والهزيمة التي منيت بها بلادهم، وللتأثير الذي عرفه المسلمون عندما رأوا قوات الحلفاء الكبيرة تنزل بالجزائر، إذا ما قورنت بالقوات الأصغر منها جداً التي احتفظت بها فرنسا في بلادهم. كما أن اللجنة اعترفت بأن الجنود المسلمين قد رأوا الثورة في أوروبا بالمقارنة إلى ما عندهم، وكم سيكونون غير راضين عن أوضاعهم بعد ذلك، خصوصاً عندما يقارنون أنفسهم بأغنياء الكولون والأجانب في الجزائر - من إيطاليين وإسبانيين ومالطيين - الذين كانوا أفضل منهم كثيراً، اجتماعياً واقتصادياً. فالخصاصة في الغذاء حتى ولو لم تكن السبب في الانتفاضة فإنها من الأكيد قد ساهمت فيها. وأيضا يجب ذكر ذلك التشجيع نحو حركة من أجل الحكم الذاتي التي أعطاها الجنرال بيروطون، وحضور أحزاب يسارية فرنسية صديقة كانت مع الحكومة الوطنية المؤقتة بل هناك ما هو أكثر من ذلك. وهو أن على فرنسا التي أفقرتها واستنزفتها الحرب ومزقتها النزاعات الحزبية بعد ذلك، أن تتعامل الآن مع عالم إسلامي أصبح شيئاً فشيئاً واعياً بنفسه وكان يتلقى التشجيعات من نضال ناجح يقوم به مسلمون آخرون وشعوب أخرى واقعة تحت الاستعمار.

فقد لاحظت لجنة التحقيق آثار البعث الإسلامي في الجزائر بهذه العبارات: أنه لا يمر يوم دون أن يحدث في مكان ما على الأرض الجزائرية حوادث وأضرار وحتى الضرب مما يجعل المسلمين والأوروبيين في مواجهة بعضهم البعض. وكانت الاستفزازات والتهديدات لا تُعْفِي حتى النساء والأطفال: فهناك كمشة من الأحجار يرمي بها شبان من الأهالي على الفرنسيين عند الخروج من المدارس، والشتائم في الأسواق. . . وهناك أيضاً تردد المسلمين المخلصين في المشي مع الأوروبيين خوفاً من أن ينعتوا بأنهم «مع الفرنسيين». ومن بين أحسنهم نجد منهم الابتعاد عن الإدارة التي تمثل فرنسا. كما تلاحظ كلمات دون تغليف من الكراهية والتمرد. وهناك عصابات في المدن تمنع المسلمين من الذهاب إلى المقاهي التي يتردد عليها الفرنسيون، ومنع النساء المسلمات من العمل في منازل الفرنسيين.

ومن ناحية أخرى أكدت اللجنة أيضاً أن الأوروبيين من جهتهم كانوا يردون

بعبارات الامتعاض وأن عبارة «العنصر القذر» كانت تتردد بكثرة على ألسنتهم في حديثهم مع الأهالي، وأن هؤلاء لم يكونوا دائما يعاملون حتى بالحد الأدنى من الاحترام، مهما كانت طبقتهم الاجتماعية، بل أنهم كانوا موضع سخرية وإغاظة. . . وإذا كانت عناصر المعلومات المقتضبة التي جمعتها اللجنة لا تسمح لها بالحكم الدقيق على عمق العداوة التي وصفناها وكيف كانت جماهير المسلمين تحس بها، فإن كثرة المعلومات التي وصلتنا تسمح لنا بأن نؤكد بأن المظاهرات النّابعة من هذه الحالة العقلية العامة قد غطت كل البلاد الجزائرية.

إن الوضع الذي أدى إلى الانفجار في ربيع سنة1945له جذور أعمق مما قد يوحي به كلام الحاكم العام، ايف شاطينو(Y. Chataigneau)، وهو الرجل الاشتراكي القدير، وذلك في وصفه الأحداث بأنها «مؤقتة ومصطنعة»[1].

* * *

فمنذ احتلال الجزائر سنة1830 قامت فرنسا بوضع حد للفساد الذي ميز الحكم السابق، وأوقفت الحروب القبلية، وحسنت الأوضاع المادية للسكان، واستولت على أراضي كثيرة جديدة، واستغلت مصادر البلاد استغلالاً مفيداً. وفي نفس الوقت قامت فرنسا بمصادرة الكثير من أحسن الأراضي وأخضعت النظم القبلية والقروية الأهلية التقليدية لتنظيمات إدارية جديدة، والتجأت إلى تحييد أو استعمال القيادات الأهلية. وقد أضعفت الرأسمالية والتعليم الفرنسي قبضة الثقافة الإسلامية. ومع ذلك، فإنه بينما المدارس الأوروبية قد منحت المسلمين معرفة غربية وآمالاً وميولاً غربية فإن الرأسمالي الفرنسي لم يكن مستعداً لمنح أي مبادلة للفرص من ناحية السلطة السياسية، والاستقلال الشخصي والربح المادي. ذلك أن الاندماج لم يعـن سوى أقلية من الثمانية ملايين من المسلمين الجزائريين، خوفاً من أن يصبح التسعمائة ألف فرنسي في حالة خطر، إذا ما منحت المواطنة الفرنسية لعدد جديد أكبر من المسلمين.

فما حدث إذن هو أن المسلم قد فقد، تحت تأثير الأفكار الغربية، عقيدته في مصير صلب لا يرحم. ولكن ما دام الاقتصاد الجزائري قد تطور على نحو يجعل الهدف الأول منه هو تقديم أكبر ربح ممكن لفرنسا نفسها (الوطن الأم)، فإن المسلم ذاته لم يحصل على ما يعلم الآن انه يمكن الحصول عليه، وهو الوسيلة التي يبعد بها بؤسه

(1)خطبة إذاعية نقلتها جريدة (لا ديباش ديكونستنتين)، 14 جوان، 1945.

والإمكانات التي عن طريقها يجد الآفاق الكاملة لمواهبه. فمن الإسلام الذي لا يعرف التمييز باللون، ومن الوحدة التعاونية للقبيلة أو القرية أو الأسرة، جاء هذا المسلم إلى المجتمع الغربي الذي يميز الناس على أساس العرق. أن تعليمه الجديد لم يكن مناسباً بما فيه الكفاية ليجعل منه إنساناً يشعر ذاتياً أنه أقرب في العمومة إلى إخوانه عرب المشرق، ومع ذلك فإنه تعليم قوي قادر على إحداث صدع بين نفسه وبين بقية المجتمع الإسلامي. ولما كان المسلم محروماً من نفس الحقوق التي منحت للكولون الفرنسي، فإنه قد أصبح متروكاً من الناحية العاطفية إلى حالة انفصام مدمرة. إن هذا التوتر السيكولوجي قد شعر به على الخصوص العشرة في المائة من المسلمين الجزائريين المتعلمين والذين يتولون الآن قيادة ردود الفعل ضد فرنسا.

ولكن كل الشعب الجزائري، الذي يضيف إلى عدده مائة وثلاثين ألف نسمة سنويا، هذا الشعب كان واعياً أن الإنتاج لم يحافظ على حث الخطى مع النمو السكاني، وهو النمو الذي يرجع إلى حد كبير إلى التقدم في النظافة الصحية التي أدخلها الفرنسيون. والفلاح المسلم المرتبط بنظام قديم في ملكية الأرض وهو النظام الذي ظل إلى سنة1936مهملاً إلى حد كبير من قبل الإدارة الفرنسية، هذا الفلاح يعرف أنه إلى حد الآن ظل محروماً من الوسائل ومن المعرفة لكي ينتج على أرضه أكثر من نصف ما يستطيع الكولون الفرنسي إنتاجه على أرضه. أن الستمائة ألف عائلة المحرومة من الأرض تقاوم بالخصوص القيود على التصنيع التي وضعتها فرنسا الخائفة من المنافسة ومن بروليتاريا مناضلة وصناعية، وهي القيود التي فرضت أخيراً على الجزائر. ومع ذلك فإنه باستثناء رأس المال فإن الكهرباء والعمال المهرة فقط هم الذين يحتاج إليهم في تدبير المنتوج الزراعي بالإضافة إلى الإنتاج المطلوب بإلحاح وهو الآلات الزراعية وصناعة النسيج والورق والإسمنت.

وخلال سنة من الجفاف والأسعار المرتفعة والنقص في كل البضائع ولا سيما الملابس والآلات، فإن هذا الشعب المتخلف الذي يأخذ مأخذ الجد المواثيق والعهود، والذي وجد الحل لعقدة أشواقه وخيبة آماله في أيديولوجية مبسطة تناسب يومه، وهي تتمثل في الإسلام والوطنية، قد قرر أن يعلن مظالمه بصراحة، ومهما كان الثمن، وعندما استعادت الشرطة الفرنسية أنفاسها في مايو1945، وعد وزير الداخلية الفرنسي بتجديد الحكم الفرنسي، وبديموقراطية الإدارة المحلية، وإعادة تنظيم المجلس الجزائري، أن

هذه الوعود بالرغم من أنها قد عدلت في الدرجة نتيجة الضرورات السياسية لحكومة ائتلافية في باريس، إلا أنها مع ذلك وعود قد حوفظ عليها وطبقت.

ومنذ 1945 فإنه رغم أن النقص المستمر والخطير في رأس المال وفي اليد العاملة الخبيرة، وفي التجهيز، فإن تطوراً قوياً وسريعاً قد حدث في الجزائر. فقد افتتحت ثلاثة سدود وبُنِي ثمانية وأربعون مصنعاً، بينما أعيد توزيع مساحات واسعة من الأرض، كما أن الحد الأدنى للأجور وقوانين التأمين الاجتماعي قد وضعت موضع التنظيف، وكذلك تضاعف عدد التسهيلات في المستشفيات. وقد أعطى الدستور الفرنسي الجديد سنة1946للمسلمين الجزائريين الحقوق المدنية للمواطنة الفرنسية، ولكن ذلك لا يتضمن حق التصويت. وابتداء من سنة 1946فإن المسلمين أيضاً قد سمح لهم بمشاركة أكبر مما كان عليه الحال في حكومة الجماعات المحلية التي كان استقلالها الذاتي ينمو باستمرار. وهناك أيضاً القروض التي قدمت إلى المدن لبناء المراكز التعليمية للشعب، اعتقاداً بأن الديموقراطية يجب أن تبنى من القاعدة بدلاً من حصرها في تعبيرها الخاص بالنخبة البرجوازية. ولكن التعليم الموجه لتطوير درجة النضج بين كل المسلمين في الجزائر والضروري للمشاركة القديرة في حياة بلادهم سوف لا ينمو إلا ببطء. فاليوم يوجد مليون ومائتا ألف طفل مسلم في سن المدرسة ومع ذلك لا يذهب منهم إلى المدارس سنة 1945سوى مائتي ألف. وقد تضاعف عددهم اليوم (1948) غير أنه حتى ولو تحققت كل المشاريع الفرنسية الرسمية فإن عدد الأطفال الذين ستتاح لهم فرصة دخول المدارس سيكون أقل من مليون في سنة 1965.

وأكبر خطوة للأمام قد تحققت في 20 سبتمبر1947عندما أصبح دستور الجزائر الجديد قانوناً. فبالرغم من أنه يعتبر «مساومة سياسية بين الأحزاب أكثر مما هو إصلاح حقيقي»[1] وأنه مايزال بعيداً من التوازن المثالي الذي لا تستطيع فيه جماعة إثنية (سلالية) في الجزائر «أن تفرض على الطرف الآخر لا قانون العدد ولا قانون القوة.» [2]، فإنه (أي الدستور) يحمل بذوراً من التقدم. فقد ازداد التمثيل البرلماني للمسلمين من الثلث إلى نوع من الأغلبية في الواقع في المجلس الجزائري المعدل، وهو مؤسسة رغم

(1)جريدة (لوموند) 129 و ت، 1947.

(2)بوليتو (Polito) في (فراتيرنيتي)، كما ذكرته (لوموند) 12 يوليو، 1947.

أنها قد لا تتدخل في القضايا السياسية ومع ذلك لها سلطات كبيرة فيما يخص ميزانية البلاد. ولأول مرة جعل الدستور اللغة العربية لغة رسمية في الجزائر، وفصل الدين الإسلامي عن سيطرة الدولة الفرنسية، ومنح المزيد من المنح من أجل استقلالية ذاتية للجماعات المحلية. ولكن هذه الإصلاحات ما تزال في الأساس لم تقلق الوضع الفرنسي في الجزائر. ففي القضايا الهامة يمكن طلب تصويت الثلثين في المجلس الجزائري، وبذلك يتمكن الكولون، كما كانوا، من فرض حق النقض (الفيتو). وامام المؤهلات المطلوب الآن توافرها في المنتخبين (بالكسر) المسلمين، فإنه لا بد من مرور عقود قبل أن يصبح عدد المسلمين كبيراً بما فيه الكفاية ليكون بامكانهم أن يقترحوا حتى إجراءات غير سياسية مع غياب أي نوع من التأكد بأنها ستفوز عند التصويت.

إن العناصر المعتدلة من الجانبين (الإسلامي والفرنسي) تأمل بإخلاص أنه سيأتي الوقت الذي يشعر فيه المسلم الجزائري بأنه عضو مندمج في الجماعة الفرنسية ـ الإسلامية، وأن البلاد بينما تحافظ على خصائصها الخاصة بها، تبقى مع ذلك داخل نظام الدفاع الفرنسي، وأنها لن تنقسم على أساس من الدين أو الأثنية (السلالية)، بل على العكس من ذلك فإنه من المنتظر أن تتطور إلى دولة مزدوجة الجنسية حقيقية. ولكن الحركة الوطنية، بالرغم من أنها ما تزال لم تتبلور إلى الآن تحت أي زعيم وحيد، فإنها فيما يبدو تشعر أن الدستور يعني أن التركيب الغربي للحياة الجزائرية سيستمر في إظهار نفسه كهيمنة. وهكذا يصيّر قِيَمه الثقافية مشبوهة، جاعلاً من غير الممكن إنشاء تركيبة فكرية (سنتيز) مع الحضارة الإسلامية.

ففي الانتخابات البلدية في اكتوبر1947، التي تلت الموافقة على الدستور، تخلى المسلمون عن حزب فرحات عباس الذي يدعو إلى ذاتية جزائرية والذي يرفض الجنسية الإسلامية باعتبارها خلطاً في تسلسل الأحداث التاريخية (اناكرونيزم). وبدلاً عن ذلك صوت الناس بأغلبية ساحقة لصالح مرشحي مصالي الداعي إلى الانفصال عن فرنسا. وفي نفس الوقت ما دام الفرنسيون قد أرسلوا إلى المجالس البلدية الجزائرية أغلبية من الديغوليين كممثلين هناك، وهم الذين صوتوا في البرلمان الفرنسي ضد الموافقة على الدستور (دستور الجزائر) باعتباره وثيقة متطرفة (راديكالية)، فإن أفضل شيء يتوقع الآن ليس هو التعاون الخلاق ولكن فقط عملية تحييد دائم للطرفين، يقوم بها كل طرف ضد الطرف الآخر. أما الانتخابات التي كانت مقررة للمجلس الجزائري والتي كان مقرراً لها

أن تجري في 15 يناير1948 فقد أعلن عن تأجيلها بطريقة فجائية لمدة ثلاثة أشهر.

إن هناك هوة في التفاهم المشترك بين الفرنسيين والمسلمين. وأن مسافة مدّ الجسور بينهما ما تزال واسعة، حتى عن طريق اللغة. فقد كتب روبير مانتانيو(R. Montagne) قائلاً: «في أوقات ما، عندما يكون الشاب الشمال الأفريقي حريصاً على تكريس نفسه لدراسة اللغة العربية الحديثة. . . فإنه من الفضول أن تلاحظ أن عدد الفرنسيين القادرين على مطالعة الصحف والمجلات العربية، والحديث بها في الجامعة، بل حتى مراقبة التعليم العصري بالعربية، لا يمكن أن يتجاوز في الجزائر عدد أصابع اليد الواحدة»[1].

فإذا استطاعت فرنسا أن تعطي الجزائر اقتصاداً يمكنه أن يطعم سكانها، ويلبسهم ويحافظ على صحتهم، فإن الجماعتين (الإسلامية والفرنسية) ربما تكونان قادرتين على إيجاد السلام والفرص والوقت لإيجاد حل ينتج عنه نسيج إبداعي لقيم الجماعتين الفرنسية والإسلامية، حل يمكن أن يرضي المحكوم وأن يجد فيه تعبيراً صحياً ومنسجماً.

الجزائر في29رمضان1410
24ابريل1990

(1) روبير مونتانيو، «الاتحاد العربي» في (السياسة الخارجية)، مايو 1946، ص 213.

الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية (*)

كثيراً ما تردد أمامي اسم الأمير شكيب أرسلان أثناء أبحاثي في الحركات الوطنية المغاربية. وكنت أسأل نفسي أسئلة غير محددة منها: ما علاقة هذا الرجل المشرقي بحركات التحرير بالمغرب العربي؟ وما قيمة هذه العلاقات إن كانت؟ ثم عزمت أخيراً على تتبع نشاط الأمير شكيب أرسلان، لعلني أجيب على بعض تلك الأسئلة على الأقل بالنسبة للحركة الوطنية الجزائرية.

لقد اقترن اسم الأمير شكيب أرسلان بأعمال نجم شمال أفريقية في فرنسا وأوروبا على العموم، وقيل الكثير عن علاقة هذا الأمير بمصالي الحاج زعيم النجم ثم حزب الشعب، وعن علاقته بالشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء، وعن مراسلاته مع الشيخ الطيب العقبي باعث الفكر الإصلاحي الجديد، والأستاذ احمد توفيق المدني الكاتب المعروف، والشيخ إبراهيم بن عيسى أبي اليقظان الصحفي الشهير، والشيخ محمد سعيد الزواوي الداعية الصريح. وأن اسم شكيب أرسلان لم يعد مرتبطاً بالبيان العربي الذي اشتهر به ولقب من أجله «أمير البيان»، ولم يعد مقصوراً على قضية سورية وفلسطين التي كرس لها جزءاً كبيراً من حياته، ولكنه أصبح اسماً مرتبطاً ايضاً بقضية ليبيا والمغرب الأقصى والجزائر وتونس، بل بقضايا العروبة والإسلام في كل مكان. وإذا كان إخواننا في ليبيا قد اهتموا بدور الزعماء العرب (ومنهم شكيب أرسلان) الذين اشتركوا في (حرب طرابلس) 1911 - 1912، وإذا كان اخواننا المغاربة ـ سيما أهل

(*) بحث ساهمنا به في الكتاب التذكاري المخصص للدكتور نقولا زيادة. بطلب من اللجنة المشرفة على إعداد الكتاب المذكور، في عمان، الأردن.

الشمال منهم ـ قد اهتموا بدور شكيب أرسلان في قضيتهم، فقد رأيت أن أتتبع دور الأمير أرسلان بالنسبة لقضية الجزائر بالذات.

وحياة شكيب أرسلان ليست مجهولة، فقد تناولها بالبحث والدراسة والتاريخ عدد من الكتاب، العرب والأجانب. ومن هذه الدراسات نعرف أنه قد ولد في الشوف بلبنان في 25 ديسمبر 1869، وبعد عمر طويل في النشاط السياسي والقومي والأدبي توفي في بيروت في 9 ديسمبر 1946. وكان قد تعلم في بيروت، ومن شيوخه فيها الشيخ محمد عبده أثناء نفيه سنة 1886. وأخذ الأمير أرسلان ينظم الشعر مبكراً وكان يكتب في الصحف المعاصرة مثل الأهرام والمؤيد. وتولى وظائف إدارية في الشام أثناء العهد العثماني. وشارك في حرب طرابلس ضد إيطاليا إلى جانب بعض زعماء لجنة الاتحاد والترقي من أمثال أنور باشا، وكان من أنصار الاتحاد بين العرب والأتراك. وانتخب للبرلمان العثماني، ودعم موقف تركيا خلال الحرب العالمية، ولكنه اختلف مع سياسة جمال باشا (السفاح) الذي حكم بالإعدام على عدد من الزعماء العرب، فغادر شكيب أرسلان سورية إلى إسطانبول سنة1916، وهي سنة الثورة العربية وسنة استشهاد القادة العرب من أجل قضيتهم على يد جمال باشا. وبعد الحرب استقر في لوزان ثم في جنيف حيث عصبة الأمم. ولم يرجع إلى سورية زائراً إلا سنة1937[1].

لا نعرف أن شكيب أرسلان قد دخل الجزائر قط. وأقرب نقطة اقترب فيها منها هي طرابلس وتونس. وتثبت بعض المصادر أن المخابرات الفرنسية علمت أن أرسلان قد دخل تونس سنة 1912 أثناء الحرب ضد إيطاليا. وكان قد جاء هناك لجمع المواد الغذائية من تونس للجيش التركي، وقد ساعده على ذلك علي جبارة التونسي[3]. ولكن صلة الأمير أرسلان بأبناء الجزائر ترجع إلى عهد متقدم. فإقامة عائلة الأمير عبد القادر بالشام ونشاط ابنائه وأحفاده في القضايا السياسية المعاصرة جعلت شكيب أرسلان يلتقي مع بعضهم بل ربما يصطدم معهم في المواقف من الدولة العثمانية وفرنسا، وألمانيا الخ.

---

(1)انظر ليفي بروفنصال (الأمير شكيب أرسلان 1869 - 1946) في كراسات الشرق المعاصر C. O. C، 9 - 10 (1948).

(2)جوليات بسيس (المجلة التاريخية R. H.)، 1978، ص 526.

(3)حاضر العالم الإسلامي، 312/1. ط. 4 ,1972 (الكتاب من تأليف لوثرو ب ستودار، وتعليق شكيب أرسلان).

يبدو أن العلاقة مع الأمير علي بن الأمير عبد القادر كانت أقدم من حرب طرابلس. ومع ذلك نجدها تظهر بعد ذلك. فقد تحدث أرسلان عن الأمير عبد القادر واحتلال الجزائر في فصل طويل من كتاب حاضر العالم الإسلامي (ص 166 - 187 من الجزء الثاني). وإذا كان هذا الفصل لا يهمنا في تفاصيله فإنه يهمنا منه العلاقة بين أرسلان والأمير علي بن الأمير عبد القادر بالخصوص، باعتبارهما كانا مقربين معاً من الدولة العثمانية في ظروف حرجة. يذكر أرسلان أن الأمير علي كان نائباً عن دمشق منذ 1914 بينما كان أرسلان نائباً عن حوران في المجلس العثماني (البرلمان) باسطانبول. وقد أنتخب الأمير علي نائباً للرئيس (وهو طلعت باشا) باقتراح من أرسلان نفسه. وأثناء الحرب العالمية توجه الأمير علي إلى ألمانيا بأمر من الدولة العثمانية. وقابل هناك الامبراطور الألماني، وحرر مناشير موجهة إلى الجنود المغاربة (الجزائريين بالخصوص) في الجيش الفرنسي، وألقت الطائرات الألمانية هذه المناشير على جبهات القتال الفرنسية، فكان لها صدى بعيد حتى أن الفرنسيين أخروا الجنود المغاربة من الصفوف الأمامية التي كانوا فيها «وقوداً للنار» ـ كما يقول أرسلان ـ وكانت المناشير تحث الجنود على ترك الجيش الفرنسي والالتحاق بألمانيا حليفة الدولة العثمانية.

ولما رجع الأمير علي من ألمانيا إلى اسطانبول ومنها إلى سورية، وجد الأحداث فيها تبعث على القلق. فقد وجد أخاه الأمير عمر مسجوناً من قبل جمال باشا الذي اتهمه بأنه كان على صلة بالقنصل الفرنسي في دمشق. وكانت الشرطة العثمانية قد وضعت يدها على أوراق القنصلية الفرنسية هناك. وتقدم الأمير علي من جمال باشا يتشفع في أخيه فلم يقبل شفاعته. وكان مصير الأمير عمر الشنق مع مجموعة من الشهداء العرب، كما أشرنا. وقد علق الأمير شكيب أرسلان على ذلك بقوله أن جمال باشا قد نفى الأمير علي وأولاده، وسائر أسرة الأمير عبد القادر، من دمشق إلى برصا، ولم يرع حرمة جهاد والده ولا خدمة الأمير علي في ألمانيا من أجل الدولة العثمانية، ولا قبل ذلك في حرب طرابلس الغرب. ومن نتيجة هذه المعاملة اشتد الغم بالأمير علي فمرض ونقل إلى اسطانبول حيث توفي (1918). ويذهب الأمير أرسلان إلى أنه تشفع هو أيضاً في الأمير عمر من جمال باشا فلم يصغ إليه وحكم يشنقه [1]. وهذا الموقف لا تتفق فيه كل

---

(1) حاضر العالم الإسلامي، 2/ 172 - 173.

الروايات[1]. والغريب أن شكيب أرسلان لم يكتب عن إعدام شهيد آخر من شهداء العرب سنة 1916 وهو الضابط سليم الجزائري السمعوني (من سمعون، نواحي بجاية). بينما نجده يذكر بالخير شخصية أخرى من أقارب الأمير عبد القادر وهو أبو طالب ابن أخي الأمير عبد القادر، ويصفه بالعلم والورع. وذكر أنه سهر عنده في بيروت وقص عليه شكيب أرسلان رؤيا رآها، وكان الشيخ طاهر الجزائري السمعوني حاضراً ذلك المجلس[2].

وقد أشاد أرسلان بأدوار أبناء الأمير عبد القادر، سيما الأمير محيي الدين الذي خالف والده وجاء لإثارة الجزائريين ضد فرنسا سنة 1870، ومدحه بأنه كان أديباً شاعراً عالي الهمة[3]. وقال عن عبد الرزاق بأنه كان نادراً في الذكاء وجمال الصورة والسيرة[4]. أما الأمير عبد المالك فقد أخبر عنه أرسلان أنه قضى بِضْع عشرة سنة مجاهداً في المغرب الأقصى بين القبائل الثائرة على فرنسا وعلى أسبانيا وأنه لم يزل في تلك الديار يتحرك تارة ويسكن أخرى إلى كتابة هذه السطور[5].

ويبدو أن ذلك كان خلال سنة 1923 ، لأن الأمير عبد المالك قد قتل سنة 1924. ومن جهة أخرى يذكر شكيب أرسلان عبارة عن الأمير خالد توحي بأنه كان ما يزال في الجزائر، أي قبل نفيه منها. والمعروف أن الفرنسيين قد نفوا الأمير خالد سنة 1923.

---

(1) سهيل الخالدي، دور المهجرين الجزائريين إلى بلاد الشام، مخطوط. يتهم أرسلان بالتورط في القاء القبض على عمر باشا بن الأمير عبد القادر.

(2) الطيب بنونة (نضالنا القومي)، ص 198.

(3) حاضر العالم الإسلامي، 172/2.

(4) نفسه. ويقول الطيب بنونة (نضالنا القومي)، ص 168 هامش 8، أن الأمير عبد المالك حارب فرنسا أولاً، ثم انتقل إلى الريف وحارب في صفوف الأسبان ضد الثورة الريفية، ومات مقتولاً في الريف، ودفن بتطوان. ولا شك أن الجزء الأخير من الخبر في حاجة إلى تدقيق وإثبات، لأن الأمير عبد المالك أختلف مع الأمير عبد الكريم الخطابي في الصديق والعدو: فرنسا أو إسبانيا، فحلت النكبة بهما معاً.

(5) نفسه، ص 173. انظر دراستنا عن الأمير عبد المالك في الحركة الوطنية، 2/ ط 4، الفصل 4. وكذلك أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، جـ1، ط. 3.

وهذه هي عبارة أرسلان عن الأمير خالد «هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة في الجزائر»[1] .

* * *

وهكذا نجد أن شكيب أرسلان كان على صلة بالحركة الوطنية الجزائرية منذ الحرب العالمية الأولى . وأثناء كتابة تعاليقه على كتاب (حاضر العالم الإسلامي) وجدناه يستعيد الأحداث الماضية عن تاريخ الجزائر مع الاستعمار ويذكر الشخصيات التي ساهمت في ذلك من أمثال عائلة الأمير عبد القادر، كما وجدناه ينقل عن مؤلفات كتبها جزائريون مثل ما فعل مع إسماعيل حامد الذي نقل عنه فكرة التسامح الإسلامي[2]. وقد نقل عنه في عدة مناسبات. ويبدو أن الصلة بين شكيب أرسلان وأعيان الكتاب الجزائريين أخذت تتوطد منذ هذا التاريخ (عقد العشرينات). ولعل هذا يؤكده قول الشيخ أحمد توفيق المدني بأنه كان على صلة بشكيب أرسلان منذ 1923، أي قبل نفيه (المدني) من تونس إلى الجزائر سنة 1925 [3].

يذهب الأستاذ المدني إلى أنه كان يراسل شكيب أرسلان أدبياً وسياسياً واجتماعياً منذ كان في إدارة الحزب الدستوري بتونس، وأنه قد أمده طوال سنوات بمعلومات عن المغرب العربي ومشاكله السياسية ومقاومته للاستعمار. ويضيف المدني أن «الأخوة الصادقة قد ربطت بين قلبينا، وألفت بين روحينا منذ 1925، بعد أن أبعدتني السلطة الاستعمارية الفرنسية عن تونس»[4] ويؤكد هذا وصف شكيب أرسلان للمدني بأنه «المؤرخ الثقة». وقد نقل عن (كتاب الجزائر) للمدني في عدة مناسبات، ومن ذلك نقله لفكرة خطر التحول عن الإسلام بين سكان زواوة[5] . وفي مكان آخر ذكر أرسلان أنه نقل عن المدني عدد سكان الجزائر والمسغبة التي واجهوها، وأشاد بـ (كتاب الجزائر)

(1) حاضر العالم الإسلامي، 172/2.

(2) حاضر. . . 211/3.

(3) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، 232/2.

(4) المدني (شكيب أرسلان بطل الجهاد في كل مكان)، مجلة الثقافة، عدد 76، يوليو ـ غشت، 1983، ص 74.

(5) حاضر. . . 361/3.

بقوله: أنه «جمع كل ما تلزم معرفته من شؤون الجزائر بحيث لا يصح أن يخلو منه أحد ممن يريدون حق الاطلاع على أحوال المغرب الأوسط. وكرر التنويه بالمؤلف وسماه «الوطني الفاضل المحقق» أحمد توفيق المدني المقيم اليوم بالجزائر بعد أن أبعدته فرنسا عن تونس[1]. ويذكر المدني أن أرسلان كتب عن (كتاب الجزائر) في مجلة الفتح[2] التي كان يصدرها محب الدين الخطيب في مصر. وكتب أرسلان إلى المدني رسالة تثبيت على الصبر بعد نفيه من تونس، حثه فيها على الجهاد وافتتحها بقوله تعالى: ﴿فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم﴾ الآية - ويذهب المدني إلى أن مراسلاته مع أرسلان لم تنقطع إلى أن رجع هذا إلى سورية بعد استقلالها: «استمرت المراسلة بيننا دون انقطاع، بواسطة سيدة في لوزان، وصديق في الجزائر». وكانت المراسلات كلها، كما يقول المدني، تدور حول المشاكل السياسية عامة والمغربية خاصة [3].

كانت صلة أرسلان بالجزائر وشمال أفريقية إذن قد مرت بعدة قنوات قبل أن تتبلور وتصبح التزاماً بقضية واندماجاً في مصير المنطقة. بدأت بحرب طرابلس والاختلاط بالجزائريين والتونسيين فيها، ومرت بالعلاقات مع أولاد الأمير عبد القادر وبعض أفراد الجالية الجزائرية مثل الشيخ طاهر الجزائري، وبالقراءات فيما كتب الجزائريون لمعرفة آرائهم في الاستعمار الفرنسي لبلادهم وردود الفعل مثل الرجوع إلى ما كتبه إسماعيل حامد (بالفرنسية)[4]، وإلى ما كتبه أحمد توفيق المدني بعد حلوله بالجزائر[5]. ولا ندري إن كان أرسلان قد التقى بالأمير خالد بعد نفيه من الجزائر لأنه حل، كما هو معروف، في فرنسا ولعله قد ذهب أيضاً إلى سويسرا حيث كان أرسلان. ولعله التقى به في القاهرة أو في القدس. أما سورية فلم يلتقيا فيها لأن الأمير خالد توفي في فاتح 1936

---

(1) حاضر. . . 105/4.

(2) المدني، حياة كفاح، 207/2.

(3) المدني (شكيب أرسلان. . .)، الثقافة، 1983، ص 74. لكن المدني يعترف بأنه قد اختلف مع شكيب أرسلان إزاء موقفه من إيطاليا وألمانيا.

(4) يبدو أن الإشارة ترجع إلى كتاب حامد الذي أصدره سنة 1906 بعنوان (فرنسا ومسلمو شمال أفريقية). وهو كتاب يمثل أحد وجوه «النخبة» الجزائرية في حل قضية الأهالي بمفهوم ذلك الوقت.

(5) أصدر المدني (كتاب الجزائر) في طبعته الأولى سنة 1931 بالجزائر.

ولم يزرها أرسلان إلا بعد أكثر من سنة من ذلك التاريخ. وقد تراسل أرسلان أيضاً مع شخصيات أخرى، غير المدني، قبل 1930، مثل الطيب العقبي، والزواوي، وابن باديس، وأبي اليقظان... أما المراسلات مع مصالي فقد بدأت بعد تأسيس شكيب أرسلان لجريدته المعروفة (الأمة العربية ـ لانسيون أراب) كما سنرى.

* * *

تبدأ المرحلة الثانية من علاقة شكيب أرسلان بالجزائر وشمال أفريقية عموماً بعد إنشاء جريدة (الأمة العربية) باللغة الفرنسية في مارس 1930. كان رفيقه في تأسيسها هو إحسان الجابري. وقد ظهرت في جنيف (سويسرا). وكانت جريدة أسبوعية مؤقتاً لأنها في الحقيقة كانت غير منتظمة الظهور لأسباب مادية، حتى قال أحد الباحثين أنها لم تكن تظهر سوى مرتين أو ثلاث مرات في العام. وقد أعلنت تحت عنوانها أنها جريدة سياسية، أدبية، اقتصادية واجتماعية. وجاء فيها أنها لسان حال الوفد الفلسطيني ـ السوري لدى جمعية عصبة الأمم لخدمة مصالح البلاد العربية والشرق[1]. ورغم أن ظاهر الحال يوحي بأن الجريدة لا علاقة لها بشؤون المغرب العربي إلا أن تطور الأحداث جعل منها منبراً رفيعاً لقضية الجزائر وقضايا المغرب العربي عموماً.

ذلك أن سنة ظهور الجريدة تتوافق مع ثلاثة أحداث كبرى في المنطقة، ففي الجزائر وقع الاحتفال المئوي بالاحتلال، وهو مناسبة مشؤومة حفزت همم الوطنيين على المطالبة بالحقوق المشروعة وعلى البحث عن الأنصار في العالم. فكانت جريدة (الأمة العربية) خير منبر لهذا الصوت سيما وأن الفرنسيين قد أصدروا قراراً بحل النجم الذي كان مقره باريس، واعتقلوا زعماءه، ومن الصدف أن النجم قد أصدر هو أيضاً في أكتوبر (أي بعد سبعة أشهر فقط من صدور جريدة (الأمة العربية) جريدة في فرنسا باسم (الأمة) ـ لاحظ التسمية ـ بالفرنسية أيضاً للدفاع عن مصالح أبناء المغرب العربي في فرنسا. أما الحدثان الآخران اللذان وقعا في المغرب وتونس فهما: الظهير البربري (المغرب) الذي أسال حبراً كثيراً وحرك الرأي العام الوطني والعربي والإسلامي، ثم المؤتمر الافخارستي (تونس) الذي نظمته الكنائس المسيحية تحدياً للمسلمين في عقر

(1) المدني، (شكيب أرسلان...)، في مجلة الثقافة 1983، ص 74. أنظر أيضاً: (حياة كفاح)، 232/2 - 236.

دارهم، وكان لجريدة الأمة العربية فيما يبدو جولات في كل هذه الموضوعات. والمعروف أن شكيب أرسلان زار شمال المغرب في أوت 1930 بالتنسيق مع طلبة المغرب الذين كانوا يدرسون في فرنسا والذين كانوا يعجبون به ويزورونه في سويسرا.

وقد تجند لمساعدة أرسلان في نشر جريدة (الأمة العربية) نخبة من المثقفين الجزائريين. منهم أحمد توفيق المدني ومحمد السعيد الزاهري، والطيب العقبي. فكانوا يجمعون لها الاشتراكات والتبرعات والإعلانات. ويقول المدني عن نفسه في هذا المجال «كنت من بين العاملين على نشر تلك المجلة الراقية (لانسيون أراب) ودعمها مادياً» [1] وتُثْبِتُ ذلك الرسالة التي بعث بها أرسلان إلى الحاج عبد السلام بنونة من برلين (15 يناير 1931) من أن أحمد توفيق المدني مجتهد في جمع الإشتراكات للجريدة. وفي رسالة أخرى منه إلى نفس الشخص بتاريخ 30 إبريل 1931 أن توفيق المدني قد جمع اشتراكات للمجلة (الأمة العربية) قدرها ثلاثة آلاف فرنك سويسري [2].

وقد وجدنا في إحدى المراسلات أن المدني كان يمثل صلة الوصل أيضاً بين أرسلان وبعض الزعماء المغاربة مثل محمد داود التطواني. فقد كتب أحمد توفيق المدني إلى محمد داود يخبره أن أرسلان عازم على زيارة تطوان. وكان ذلك بتاريخ 22 يوليو 1930. وقد أبدى عبد السلام بنونة ارتياحه لهذا الخبر قائلاً في مراسلة لابنه «حبذا لو يصح هذا الخبر». فالمدني إذن كان واسطة بين أرسلان وبعض زعماء المغرب [3].

وكانت بين العقبى وأرسلان أيضاً مراسلات عديدة وتبادل لعبارات الود والشعر. ولا ندري إن كان العقبى قد عرف أرسلان قبل انتقاله إلى الجزائر سنة 1920. والمعروف أن العقبى قد نفته السلطات العثمانية من المدينة المنورة سنة 1917، وأنه أقام في الروم إيلي وازمير ولعله التقى عندئذ بأرسلان في إسطانبول أو غيرها. وما نملكه من إشارات

---

(1) المدني (شكيب أرسلان. . .) في مجلة الثقافة 1983، ص 74، أنظر أيضاً: (حياة كفاح) - 236 232/2.

(2) الطيب بنونة (نضالنا القومي)، ص 223 .

(3) انظر محمد بن عزوز حكيم كتاب (وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب) ط. تطوان، 1980، ص 22. انظر أيضاً الطيب بنونة (نضالنا القومي)، ص 18.

عن العلاقة بين الرجلين ترجع أيضاً إلى العشرينات. فقد جاء في كتاب (شعراء الجزائر) الذي صدر سنة 1927 أن بين العقبي وأرسلان «علاقة صداقة خاصة من نوعها». وأن أرسلان أرسل إلى العقبي صورة له فكتب العقبي تحتها بيتين[1]. وقد وجدنا في بعض المراسلات أن الشيخ الطيب العقبي كان أيضاً يجمع الاشتراكات لجريدة (الأمة العربية). ففي المراسلة المذكورة من أرسلان إلى الحاج بنونة أن الطيب العقبي وسعيد الزاهري والمدني يعملون على جمع الاشتراكات للجريدة. ومما جاء فيها عن العقبي أنه قد جمع مائتي فرنك سويسري في بسكرة لمشتركين جدد. ويفهم من السياق أن الجريدة «رائجة في المغرب الأوسط» وأن لها هناك نحو 150 مشتركاً قد دفع أكثرهم ما عليه[2]. أن الحديث عن هذه الشخصيات البارزة في الحركة الوطنية - والإصلاحية - بالذات - سيكون له انعكاسه على سير الأحداث بالجزائر. والمعروف أن العقبي لم ينتقل إلى العاصمة إلا حوالي 1929، فكونه كان يجمع الاشتراكات من بسكرة سنة 1931 فيه نظر عميق.

وأثناء اطلاعنا على مجلة (الشهاب) لسان حال حركة الإصلاح التي يقودها عبد الحميد بن باديس، وجدنا إعلاناً من صفحتين عن جريدة (الأمة العربية). فبعد أن يذكر الإعلان المعلومات المعروفة عنها، وعن محرريها وأهدافها واهتماماتها، ولغتها، نجده يتوسع ليخبر القراء أن الأمة العربية تضم سبعين مليوناً، وإنها أنجبت الكلدانيين والفينيقيين والتبابعة إلخ، وإنها الأمة التي نشرت الإسلام والمدنية. وإن محرر الجريدة هو «أكبر كاتب سياسي في الشرق»، وأن أبناء الأمة العربية أصبحوا يجهلون ماضيهم ودينهم وحضارتهم، وأن هناك ضرورة لكي يعرف الغربيون والمغتربون (أي النخبة المفرنسة) أيضاً ماضي الأمة العربية وحاضرها. وبعد ان ذكر الإعلان بمواضيع العدد

(1) محمد الهادي السنوسي (شعراء الجزائر) 148/1، انظر أيضاً أطروحة أحمد مريوش (مخطوطة) بصدد التحضير. والبيتان هما:

رسم صغير الحجم لكنه — شكل (أبي غالب) الأكبر
ذكرني لما بدا قولهم — ليس على الله بمستكثر

و(أبو غالب) كنية شكيب أرسلان، إذ أن له ابنا سماه غالب.

(2) الطيب بنونة (نضالنا القومي)، ص 145.

الأول من الجريدة، دعا «كل من يمت للعروبة بعرق» أن يشترك في الجريدة بنفسه وأن يهديها إلى غيره من المتغربين من أبناء جنسه، ولم يكتف صاحب (الشهاب) بالإعلان العريض بل أنه أهدى اشتراكًا سنوياً في الجريدة لشخصيتين من المتغربين، وهما الزبير بن باديس المحامي بقسنطينة، والهادي مصطفاي المحامي بسطيف. وقد انتهى الإعلان بذكر عنوان الجريدة بالفرنسية في جنيف [1] ، وكأنه يدعو إلى مراسلاتها والاتصال بها.

وقد حفل عدد سبتمبر من (الشهاب) بأثرين لشكيب أرسلان. أولهما: رسالة منه إلى المجلة حول الجزء الأول من كتاب (تاريخ الجزائر)، تأليف الشيخ مبارك الميلي وحول اتصاله بأعداد من (الشهاب) نفسها. وقد اثنى أرسلان على الكتاب والمجلة وتحدث عن نهضة الجزائر الأدبية وربط بين هذه النهضة والإسلام والأخلاق قائلاً: «لا رقي بدون أخلاق، ولا اخلاق بدون مدنية روحية تكون فيها الروح محركاً والمادة آلة.» ويبدو أن الرسالة كانت موجهة إلى ابن باديس (وهو غير مذكور فيها) إذ جاء في آخرها: «الله يأخذ بيدكم، ويفتح عليكم، ويجعلكم علماً منيراً، ويهدي بكم كثيراً.» وكان عنوان هذه المراسلة في الشهاب «درة غالية.»[2]، وفي نفس العدد مراسلة أخرى من شكيب أرسلان إلى الشهاب بعثها من الأندلس، وقد أخبر أنه وجد آثار العرب «فوق ما كنت أتصور» وحث على عدم اليأس «لأن اليأس هو السقوط الحقيقي، وما دام الأمل موجوداً فالحياة موجودة.»[3]، وهناك دلائل كثيرة على أن المراسلات بين ابن باديس وشكيب أرسلان كانت متواصلة، ومن هذه الدلائل نشر مقالات وأخبار أرسلان في (الشهاب) وكتابات ابن باديس عنه بحماس.

وبالإضافة إلى ذلك جرت مراسلات بين شكيب أرسلان والشيخ أبي اليقظان (إبراهيم بن عيسى) وغيره من أعيان الجزائر. وقد أشار من ترجموا لأبي اليقظان إلى هذه المراسلات وأخبروا أن مجموعة منها توجد ضمن أوراق الشيخ أبي اليقظان، وهي مراسلات تدور في أغلبها حول مستقبل البلاد الإسلامية وحاضرها مع الاستعمار، وتدعـو

(1) مجلة (الشهاب)، مايو 1930. وهذا يدل على أن الاهتمام بجريدة (الأمة العربية) بدأ مبكراً من قيادة الإصلاح، إذ ظهر عددها الأول كما ذكرنا، في مارس 1930، كما يدل على قدم العلاقة بين ابن باديس وشكيب أرسلان التي قد تكون بدأت في العشرينات أيضاً.

(2) (الشهاب، عدد سبتمبر 1930، ص 468.

(3) نفس المصدر، ص 438. وعنوان المراسلة هنا هو (درة أخرى من درر أمير البيان).

إلى وجوب تجنيد الرأي العام الأوروبي لصالح الإسلام، «ووجوب تصفيته من السموم التي يمزجها به السواحون ضد الإسلام.» (1)، وقد نشرت صحف أبي اليقظان مقالات لشكيب أرسلان كما نشرت أخرى حوله. من ذلك مقالة «خذوا حذركم من السواحين» التي كتبها أرسلان ونشرتها جريدة (وادي ميزاب) (2)، سنة 1928.

وكانت جريدة (البلاغ الجزائري) لسان حال الطريقة العليوية في الجزائر تنشر لشكيب أرسلان أيضاً. ولعل الشيخ أحمد المصطفى بن عليوة صاحب الطريقة المعروفة، كانت له مراسلات شخصية معه أيضاً(3). ونكاد نجزم بأن شخصيات من أمثال عمر ابن قدور وعمر راسم لا يخلو بريدهم من مراسلات مع شكيب أرسلان خلال العشرينات والثلاثينات. وقد عرفنا ان محمد سعيد الزاهري كان على صلة به، وكان الزاهري من كتاب مجلة (الفتح) ومن أنصار حركة الإصلاح في أول أمره.

وكانت بين شكيب أرسلان وعلي الحمَّامِي صلات ومراسلات. وقد تردد اسم هذا الرجل (الحمَّامِي) في رسائل أرسلان إلى المغاربة أيضاً. وكان أرسلان يتدخل لصالحه في أوروبا والمشرق، لأنه كما قال عنه، رجل بائس فقير رغم إمكاناته الفكرية وتقلباته السياسية. وقد لعب علي الحمامي أدوارا نشيطة لصالح الحركة الوطنية في المغرب العربي وتعرض من أجلها إلى البؤس والتشريد في أوروبا والمشرق (4)، وتعاون مع شكيب أرسلان في جنيف، وهو الذي سعى ليجد له عملاً في البلاد العربية.

ولشكيب أرسلان رأي في الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة رددته صحف ذلك

---

(1) محمد ناصر: أبو اليقظان ونضال الكلمة، ص 119.

(2) نفس المصدر، عن وادي ميزاب عدد 86، تاريخ 8 يونيو 1928.

(3) انظر سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، جـ 2، ط. 4، ص 395. ويبدو أن العلاقة بين أرسلان وجريدة (البلاغ) لم تكن دائماً جيدة، سيما بعد وفاة الشيخ ابن عليوة. فقد قال بعض الباحثين أن (البلاغ) قد أتهمت أرسلان في عددها 29 نوفمبر 1935 بالعمالة لموسوليني. انظر بسيس، مرجع سابق، ص 482. انظر الملحق.

(4) عن قصة على الحمامي باختصار كما لخصها علال الفاسي، انظر الطيب بنونة (نضالنا القومي)، 299 - 300. وقد قتل على الحمامي في حادث طائرة رفقة الدكتور الحبيب ثامر (تونس) ومحمد بن عبود (المغرب) أثناء رجوعهم من حضور المؤتمر الاقتصادي الإسلامي الذي عقد في الباكستان، وذلك في شهر ديسمبر 1949.

الوقت، إذ عبر أرسلان عن إعجابه بشعر محمد العيد قائلاً: إن كان في هذا العصر شاعر يصح أن يمثل البهاء زهيراً في سلاسة نظمه وخفة روحه ورقة شعوره فهو محمد العيد[1]. والغريب اننا لا نكاد نسمع عن مراسلات بين الشيخ الإبراهيمي وشكيب أرسلان، رغم ما يبدو من الاتفاق بينهما في الأهداف [2]. بينما نجد شكيب أرسلان يكتب عن شخصيات فرنسية لها علاقة بالقضية الجزائرية من أمثال فيكتور سبيلمان الذي سماه «ملاك الجزائر الحارس»، وأمثال ناصر الدين دينه الذي نوه به وعاونه على أداء الحج[3]. رغم أنه كان شخصية مشبوهة.

* * *

ولكن الشخصية السياسية التي كان لشكيب أرسلان مراسلات معها وعلاقة وطيدة بها، هي شخصية مصالي الحاج، زعيم نجم الشمال الأفريقي وحزب الشعب الجزائري. بزغ نجم مصالي وسط العشرينات ولا سيما بعد التصريح باستقلال الجزائر في مؤتمر بروكسل 1927. وقد بادرت فرنسا إلى حل النجم سنة1929عشية الاحتفال المئوي بالاحتلال، رغم أن مقر النجم كان في فرنسا وليس في الجزائر. واضطهدت السلطات الفرنسية زعماء النجم فدخلوا في العمل السري، وأنشأوا جريدة (الأمة) الفرنسية، كما لاحظنا، وأخذوا يبحثون عن الأنصار داخل فرنسا وخارجها. وكانت جنيف مقراً لجمعية عصبة الأمم، وملتقى الوطنيين السياسيين النشطين، ومنهم الأمير شكيب أرسلان وزميله احسان الجابري. ولا نستطيع الآن تحديد الزمن الذي التقى فيه شكيب أرسلان ومصالي، ولا متى بدأت المراسلات بينهما. غير ان بانون اكلي أحد قادة النجم عندئذ، يذهب إلى أن هذه العلاقة بدأت حوالي سنة 1932. وكان الواسطة في هذا الاتصال هو محمد سالم باي، وهو قاض مصري دولي كان يقيم في باريس. وهو يبدو صاحب فكرة عقد المؤتمر الإسلامي الأوروبي أيضا [4].

ومهما كان الأمر فقد تدعمت هذه العلاقة بين الرجلين: مصالي وأرسلان، وبين

---

(1) انظر العبارة كاملة في جريدة البصائر 63 (30 ابريل 1937). وقد نشرتها أيضاً (الشهاب) وجريدة النهضة التونسية. انظر أيضاً صالح خرفي (صفحات من الجزائر)، ص 190. وسعد . (شاعر الجزائر: محمد العيد)، ط. 3 ص 36.

(2) سنذكر شيئاً عن ردود فعل الإبراهيمي بعد وفاة شكيب أرسلان في موضع آخر من البحث.

(3) المدني، حياة كفاح، 69/2.

(4) سعد الله، الحركة الوطنية جـ 125/3، ط. 4.

الحركتين: النجم ولجنة سورية ـ فلسطين، وبين الاتجاهين: المشـرق والمغرب العربيين، منذ1935. ففي هذا التاريخ وجدنا المؤتمر الإسلامي ينعقد في جنيف ويحضره مصالي الحاج إلى جانب شكيب أرسلان. فتبدأ مرحلة جديدة في العلاقة بين هذا المفكر الإسلامي والحركة الوطنية الجزائرية. يقول مصالي نفسه في مذكراته أنه لقي أرسلان في جنيف فوجده خبيراً بشؤون المسلمين وخلافاتهم، ومع ذلك لم يدعم الخلاف الذي كان واقعاً بين الإصلاحيين والطرق الصوفية. وبناء على مصالي فإن أرسلان قد اعترف بفضل الطرق الصوفية في نشر الإسلام بين الطبقات الفقيرة وفي الجبال والصحاري. وقال أنهم كانوا يعانون في سبيل ذلك معاناة شديدة، بينما العلماء المصلحون يعيشون في الأوساط البرجوازية. ومن ثمة كان شكيب أرسلان يضع كل إمكاناته لوضع حد لسوء التفاهم بين العلماء والطرق الصوفية [1] . والمعروف أن مصالي نفسه كان ينتمي إلى إحدى هذه الطرق، وهي الدرقاوية، ولكن ما يلفت النظر حقاً في مذكرات مصالي هو عدم الحديث بصراحة عن الوجه السياسي ـ الوطني للقائه مع شكيب أرسلان.

ويذهب دارسو حياة مصالي ومحققو مذكراته إلى أن مصالي قد تعاون ابتداء من زيارته لشكيب أرسلان، مع جريدة الأمة العربية ومع لجنة سورية ـ فلسطين. وهم ينسبون إلى مصالي قوله أن أرسلان كان يعطي الطابع «الديني» للعمل السياسي. إذ يقول مصالي عن لقائه بأرسلان بأنه أعطى دفعاً جديداً وحاسماً للنجم، فأصبح من المستطاع الاعتماد على تضامن العالم العربي ـ الإسلامي بعد تضامن الحركة العمالية الفرنسية [2] . وبمعني آخر أن دعم شكيب أرسلان لحركة النجم الوطنية قد أخرجها من الفلك الشيوعي ـ العمالي الوحيد، وجعلها تعتمد على تأييد مزدوج: عربي ـ إسلامي من جهة وعالمي ـ يساري من جهة أخرى. إن بعض المصادر الفرنسية تعطي أهمية قد يكون مبالغاً فيها للقاء مصالي مع شكيب أرسلان حتى أنها تتحدث عن «اعتناق» مصالي لفكر أرسلان القومي والديني. ويذهب جان ڤانياج إلى أن مصالي كان سيظل مناضلاً ماركسياً مغموراً لو لم يلجأ إلى جنيف في بداية1936 هاربا من المتابعات القضائية الفرنسية.

---

(1) مصالي، المذكرات، 229.

(2) بنجامين ستورا (حياة مصالي)، ص 137 - 138.

فكان ذلك سبباً في لقائه بشكيب أرسلان الذي أدخله في فكرة القومية العربية [1]. وربما يأخذ جوليان أيضاً بهذا الرأي.

أما رأي شكيب أرسلان في مصالي الحاج فقد كان صريحاً في صالحه. ويبدو أن أرسلان قد أعجب بوطنية وحماس مصالي وإيمانه بقضية بلاده وبقدرته على التحكم في أتباعه ومناوراته مع الشيوعيين ومع الإدارة الفرنسية. ونلمس ذلك في الآراء التالية: يروي أحمد توفيق المدني أن شكيب أرسلان كتب لمراسليه من الجزائريين والمغاربة مشيداً بمصالي الحاج مبدياً تأييده له في مسعاه، مبيناً رأيه لهم في هذا «الشاب الوطني المقدام المتحمس الذي «لو كان للاسلام مثله في مختلف الأوطان لتغير الحال غير الحال» [2] وفي مكان آخر نجد أن أرسلان يصف مصالي بأنه «من خير الفتيان ونخبه الشبان، ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على نمطه لتحرر الإسلام من زمن طويل وليس في ذلك مبالغة. والله على ما أقول وكيل. ولقد خبرت بنفسي مدة ستة أشهر بالاجتماع الدائم حقيقة مصالي الحاج في أخلاقه وأدبه وعلو نفسه وفصاحة رأيه، فلم أجد شيئاً ينقصه. وغاية متمناي أن يحفظه الله ويكثر من أمثاله والناسجين على منواله.» [3].

ومنذ 1936 أخذ شكيب أرسلان ينتصر لمصالي وحزبه ويدعمه على المستوى المغاربي والدولي. فعند ظهور الجبهة الشعبية في فرنسا دعا شكيب أرسلان إلى «تآخي» مصالي الحاج والشيوعيين قائلاً إن الشيوعيين وقفوا مدافعين عن مسلمي شمال أفريقية، ومعتبراً مصالي مسلماً صالحاً وأن هذا «التآخي» يعني أن مصالي لم يكن شيوعياً. والمعروف أن مصالي كان شديداً متحمساً للجبهة الشعبية أثناء إنشائها. وقد زار أرسلان باريس في 21 فيفري سنة 1937 واجتمع بالطلبة المغاربة فيها ووجد ترحيباً بينهم. وقد حاول أثناء هذه الزيارة التوفيق أيضاً بين العلماء والمصاليين [4].

(1) نقل عنه ذلك ستورا في نفس المصدر.

(2) المدني، حياة كفاح، 137/2.

(3) جريدة (تونس الفتاة) عدد ممتاز بالصور، أول إبريل، السنة الثانية، عدد 12، 1939. مقالة بعنوان (الحركة الوطنية بالجزائر) بإمضاء «الفتى الوطني» من الجزائر. في العدد نفسه رسالة أرسلان عن مصالي وصورة لمصالي الحاج وأخرى لعلم النجم. انظر: أيضاً سعد الله، الحركة الوطنية جـ 3، ط 4، ص 69.

(4) جوليان بسيس (المجلة التاريخية)، 1978، ص 526. وحاول أيضاً التوفيق بين الدستوريين =

وفي هذا الصدد استنكرت جريدة (الأمة العربية) حل النجم من قبل حكومة الجبهة الشعبية. فقد كتبت مقالة يبدو أنها لشكيب أرسلان، خلال ابريل1937 احتجت فيها على الحل وقالت أننا لا ننازع في أن من بين الأعضاء شباناً متحمسين غير ناضجين من ناحية السن، وهذا موجود في كل المنظمات السياسية، ولكننا لا نتفق مع من يقول أن كل أعمال النجم تخريبية وأن سياسته تعني رمي الفرنسيين في البحر. ذلك أن سياسة النجم التي نعرفها تقوم على أن الشعب الجزائري يبقى على نفسه وأن لا يذوب في الجنسية الفرنسية إلى درجة ضياع ذاتيته، ولكن هذا لا يعني وجوب فصله عن فرنسا[1].
ولعل هذه الصلة التي أصبحت «حميمة» بين شكيب أرسلان والاتجاه الوطني بقيادة مصالي هي التي جعلت المخابرات الفرنسية تتهم النجم بأنه كان أيضاً على صلة بإيطاليا (الفاشيستية) عن طريق شكيب أرسلان [2] . وقد ذكر لي أحد الباحثين أنه عثر على مراسلة من مصالي إلى شكيب أرسلان في الوثائق الفرنسية [3] .

إن سنة1937 تعتبر مرحلة هامة في حياة أرسلان والحركة الطلابية المغاربية. حقاً أنه سبق لهؤلاء أن اتصلوا به أفراداً ومكاتبة، ولكن حضوره بينهم في باريس واحتفالهم به جماعة، والخطب المتبادلة و «النصائح» التي أسداها لهم كتنظيمات، كل ذلك كان أمراً جديداً، ويثبت بعض الباحثين أن مصالي الحاج (وهو ليس طالباً) قد أقام لشكيب أرسلان حفلة استقبال على شرفه بمناسبة الزيارة المذكورة. وقد زعم هذا المصدر أنه بينما كان شكيب أرسلان يتراسل مع ابن باديس والعقبي والمدني وغيرهم، كان لا ينفك يسدى نصائحه لمصالي الحاج «منشط الحركة البروليتارية الكبيرة المسماة نجم شمال أفريقية.» وذهب في زعمه إلى القول بأن مقالات جريدة (الأمة) المصالية مستوحاة مباشرة في أغلب الأحيان من شكيب أرسلان [4] .

= التونسيين القدماء والجدد، وبين الوزاني وعلال الفاسي من المغاربة.

(1) مصالي، المذكرات، ص 242.

(2) سعد الله، الحركة الوطنية، جـ 3، ط 4، ص 142 هامش 54. وقد كانت مجلة (أوريانت موديرنو) الإيطالية تهتم كثيراً بالحركة الوطنية في المغرب العربي، ولا سيما الجزائر وتنقل وترصد نشاطها واتجاهات رجالها.

(3) مراسلة بتاريخ 1991/7/4، من مصطفى حداد الذي يقول أنه عثر على ذلك في أرشيف أيكس (فرنسا).

(4) بروفنصال، المرجع السابق، ص 10-12 انظر الملحق، ويذهب مصدر آخر إلى القول بأن شكيب =

وكانت النصائح التي يوجهها شكيب أرسلان إلى الطلبة لا تكاد تخرج عن توجيههم إلى التضامن فيما بينهم واستغلال الظروف الداخلية والخارجية لإضعاف حلقة الاستعمار بإثارة الاضطرابات ضده، وعدم التنازل عن حقوقهم في وجه ما يسمى بالإصلاحات الفرنسية، والتضامن مع الحركات الإسلامية الأخرى وتنسيق الجهود مع مناضلي سورية ومصر وتونس والمغرب والجزائر[1]. ويمكن أن نقول أن اهتمام شكيب أرسلان نفسه بقضايا المغرب العربي كان اهتماماً جغرافياً على النحو التالي: ليبيا فالمغرب فتونس فالجزائر، رغم أن الصلة بالأفراد كانت تقريباً متوازية في الأقطار المذكورة كلها. وهناك من يرى بأن اهتمام جريدة (الأمة العربية) بالجزائر بدأ على أثر حادثة قسنطينة بين المسلمين واليهود (أوت 1934)[2]. ولكن هذا الرأي غير مسلم به، فقد رأينا أن اهتمام شكيب أرسلان بقضية الجزائر بدأ منذ العشرينات عندما كان يكتب في تعاليقه على حاضر العالم الإسلامي، وحتى جريدة (الأمة العربية) وجدناها تكتب عن الاحتفال المئوي للاحتلال سنة 1930، وهي السنة التي ظهرت فيها هي إلى الوجود.

* * *

أما بالنسبة لعلاقة شكيب أرسلان بجمعية العلماء ورجال الإصلاح فقد كانت أوضح مما يحتاج إلى برهان. فبالإضافة إلى المراسلات الشخصية مع العقبي (وتذهب بعض المصادر إلى أنها كانت مبكرة وأنه يفضلها وقع الاتصال مع الإصلاحيين عموماً في الجزائر) والميلي، وأبي اليقظان، وابن باديس، والزاهري، والزواوي، وأضرابهم. نجد الشهاب (والبصائر أحياناً) قد نقلت مقالات شكيب أرسلان وتبنت أفكاره وأشادت بمواقفه وتصريحاته. ففي شهاب جوان 1930 مقالة عن (مركز المرأة في نظر أمير البيان).

= أرسلان قد دعي لحضور مؤتمر طلبة شمال أفريقية سنة 1933 الذي عقد في باريس، ولكن السلطات الفرنسية منعته من الحضور، كما منعت الشيخ عبد العزيز الثعالبي التونسي. وكان مصالي الحاج من بين خطباء هذه المناسبة. انظر بسيس، المرجع السابق، ص 482. ويقول هذا المصدر أيضاً بأن وثائق وزارة الخارجية الفرنسية تثبت أن كل المناشير التي كان الطلبة الشمال إفريقيون يوزعونها منذ 1935 كانت مطبوعة أو مكتوبة في جنيف.

(1) بسيس، مرجع سابق، ص 483.

(2) نفس المصدر.

وقد انتهى فيها إلى أن المرأة متخلفة لأن الرجل أيضاً متخلف. ودعا إلى وجوب تعليم الجنسين ومنع الاختلاط المطلق[1]. وحوالي عام بعد ذلك نجد في (الشهاب) أيضاً تعليقاً هاماً عن كتاب أرسلان (لماذا تأخر المسلمون؟). وقد أشاد الكاتب غير المصرح باسمه بالكتاب وبصاحبه معتبراً الكتاب أفضل رسالة ألفها مسلم على الإطلاق[2].

وقد رأينا أن أرسلان كان يحاول التقريب بين المصلحين وأهل الطرق الصوفية من جهة وبين جمعية العلماء والنجم ثم حزب الشعب من جهة أخرى. ومن ذلك ما أعلنته جريدة (الأمة) من أنه أثناء حفل جرى في باريس خطب فيه الحبيب بورقيبة وأعلن فيه أن شكيب أرسلان قد وفق بين العلماء والنجم المنحل، لأن رفعة الجزائر - في نظر بورقيبة - تتوقف على الطرفين، أحدهما لحماية الماضي والدين واللغة العربية والتاريخ، والآخر لتنظيم الكفاح[3]. وفي نفس السنة تحدث ممثلا جمعية العلماء في فرنسا: سعيد صالحي والفضيل الورتلاني عن نشاط جمعية التربية في باريس، ومما جاء في حديثهما أن شكيب أرسلان قد زار مقر الجمعية وأنه اندهش عندما وجد العرب والبربر يتكلمون جميعاً بالعربية الفصحى. كما لاحظ بكل سرور ارتفاع المعنويات لدى المسلمين الجزائريين[4].

وكانت جريدة (الجزيرة) الدمشقية قد نشرت حديثاً بتاريخ 6 أكتوبر 1937 لشكيب

---

(1) الشهاب، جوان (يونيو) 1930، ص 276.

(2) الشهاب، مارس 1931، ص 211.

(3) من أوراق أحمد مريوش عن أرشيف ايكس 9 H. 47. وجريدة (الأمة) المذكورة هنا هي التي أصدرها أبو اليقظان بالعربية في الجزائر. وتاريخها 20 مارس 1937. في نطاق الحديث عن إصلاح ذات البين والتقارب والتقريب بين عناصر الشعب الجزائري وجدنا شكيب أرسلان يوجه (نداء إلى طائفتي الإباضية والمالكية من مسلمي الجزائر). وقد أشير إلى ذلك في الدراسة التي قامت بها سهيلة الريماوي في (أوراق محب الدين الخطيب): حيث وجدت ذلك النداء ضمن الأوراق المذكورة. أنظر كتاب (تقدير وعرفان) المقدم إلى المرحوم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم من تلاميذه، القاهرة 1976، ص 123. ويبدو أن النداء قد صدر أثر الخلاف الذي نشب حول الأذان. حول قضية الآذان وموقف شكيب أرسلان منها أنظر أيضاً محمد ناصر (أبو اليقظان ونضال الكلمة)، ص 212.

(4) وثائق مريوش، رقم 1.612 من تقرير لشرطة قسنطينة بتاريخ 26 ابريل 1937.

أرسلان حول الوحدة العربية، كان له ضجة سواء في المشرق أو في المغرب. ويظهر أن شكيب أرسلان قسم فيه العالم العربي إلى ثلاث مناطق هي: مصر وسورية والعراق وفلسطين، والحجاز واليمن والخليج، والمغرب العربي. وخلاصة الحديث أن العرب أمة واحدة وعظيمة بماضيها وبعددها، وأنها قد استيقظت من سباتها، واعتمدت على نفسها ورفعت السلاح للدفاع عن وجودها، ضد الذين يريدون استعبادها. وذهب أرسلان إلى أنه لا يمكن لعرب المشرق أن يهملوا عرب المغرب العربي، حتى ولو انجزوا مشروع الوحدة السياسية.

وقد جرى النقاش حول هذا الحديث عدة أشهر. وشارك ابن باديس في هذا النقاش أيضاً فقال أنه إذا حقق عرب المشرق الوحدة السياسية فلا يمكن لأهل المغرب العربي إلا التوحد معهم دينياً ولغوياً وثقافياً، أما سياسياً فلا تكون وحدة للمغرب العربي مع المشرق العربي إلا بعد الاستقلال[1]. وبينما أيد ابن باديس الفكرة في جوهرها، كما دعا إليها شكيب أرسلان، اعترض عليها سليمان الباروني باشا وهاجم شكيب أرسلان ورآه قد غض من قدر أهل المغرب العربي. وقد اشترك إبراهيم بيوض في مناقشة الموضوع أيضاً، فكتب سلسلة من المقالات بعنوان (الفرقان بين أميري السيف والبيان، الباروني وشكيب أرسلان) ونشرها في جريدة (الأمة) التي كان يصدرها أبو اليقظان[2]. كما اشترك هذا في مناقشة رأي شكيب أرسلان في مجد العرب الغابر[3]. ولعل هذه المناقشة جرت بشأن مقالة شكيب أرسلان التي نشرها في جريدة (الجزيرة) والتي أثارت ضجة، كما أسلفنا.

---

(1) الحديث نشر أيضاً في جريدة (الأمة العربية) ماي - أوت 1938. وقد نشر ابن باديس نقاشه في الشهاب 12 ديسمبر 1937. انظر محمد الميلي (ابن باديس وعروبة الجزائر) ص 227 - 238. ومما يذكر أن السلطات الفرنسية أخذت في اضطهاد الحركات الاستقلالية المغاربية منذ 1938، فلجأ الوطنيون بالمغرب إلى تطوان والمناطق الشمالية (الأسبانية) وسلط القمع على مصالي ورفاقه من أعضاء حزب الشعب الجزائري، كما تعرض حزب الدستور التونسي إلى الحل. انظر بسيس، مصدر سابق، ص 488. انظر أيضاً جوزيف ديبارمي (شمال أفريقية والقومية العربية) في «أفريقية الفرنسية» فبراير 2، 1938.

(2) محمد ناصر (أبو اليقظان...)، ص 70. ويقول المؤلف أن الشيخ بيوض نشر مقالاته على أعداد من 156 إلى 161 من جريدة (الأمة) وأنه قد وقعها باسم (أفلح).

(3) نفس المصدر، ص 134.

ومن ثمة يظهر تأثير شكيب أرسلان في أوساط الحركة الوطنية الجزائرية بجميع فعالياتها - حتى عندما كتب أرسلان رأيه في مصطفى أتاتورك بشكل ذكريات رواها عنه، وجدنا (الشهاب) تنقل هذا الرأي إلى قرائها، وبناء عليه فإن أتاتورك مهما كان منه في ظاهر الأمر، فإنه في الحقيقة كان متمسكاً بالإسلام وعاملاً على نصرة المسلمين [1]. والغريب أننا وجدنا رأياً شبيهاً بذلك عند ابن باديس أيضاً. فقد كتب يشيد بأعمال مصطفى أتاتورك ويعتب على المسلمين الجامدين الذين وقفوا في طريقه [2].

لقد كان الفرنسيون يتهمون شكيب أرسلان بأنه يتعامل مع ألمانيا وإيطاليا، ويصنفون من يتعاطف معه أو يتبعه بأنه عميل مثله للدولتين المذكورتين. وكانت الصحف الفرنسية تكيل التهم لأرسلان لأنه ضد الاستعمار في المغرب العربي بالتعاون مع حركات التحرير فيه. ويدخل في ذلك الأفراد والجماعات. فقد اتهمت جمعية العلماء وحزب الشعب مثلاً بأنهما على اتصال بالفاشيستية والنازية. ولا شك أن ذلك الاتهام صادر عن دوائر الحركة الصهيونية، وهي التي كانت وراء اتهام الشيخ الطيب العقبي (1936) بالتحريض على اغتيال الشيخ محمود كحول، مما أدى إلى سجن العقبي وتوقفه عن مهاجمة السياسة الصهيونية في فلسطين. وقد عرفنا أن العقبي من أقوى أنصار شكيب أرسلان. وكان أرسلان يشكو من إرجاع بريده المرسل إلى الجزائر من قبل مصالح البريد الفرنسية. واتهم صحيفة (لاديباش الجيريان) بالكذب عليه أثناء خطبته في تطوان[3].

ومن الغريب أن بعض الكتاب الفرنسيين لا يتوقفون عن اتهام شكيب أرسلان بالتآمر ضدهم خلال الثلاثينات فقط، بل إنهم يذهبون إلى أن أحداث مايو 1945 الدامية في الجزائر، كان وراءها شكيب أرسلان أيضاً، فهم يقولون أن صلته بألمانيا كانت تستثمر لصالح الجزائريين والتأثير عليهم. ومن ثمة كان له ضلع فيما حدث بالجزائر بعد الحرب[4].

---

(1) نشر ذلك في جريدة (الأمة العربية) ثم نقلته (الشهاب) مارس 1939، ص 83.

(2) الشهاب، نوفمبر 1938.

(3) انظر الطيب بنونة، نضالنا القومي، ص 260 - 261. وكذلك وثائق مريوش، من أرشيف ايكس، 10 H 87, 10 H 88.

(4) انظر روبير أرون (أصول حرب الجزائر)، 154 - 155، وسعد الله، الحركة الوطنية، جـ 3، ط. 4، ص 245.

وما دام الحديث عن أثر شكيب أرسلان في القضية الجزائرية فلنشر إلى أن هناك شخصيات أخرى تعرض لها أرسلان من قريب أو بعيد، وكانت ذات صلة، هي أيضاً، بما حدث في المغرب العربي على العموم، من هذه الشخصيات ناصر الدين ديني (ويسميه أرسلان: دينه). فبعد أن سمع أرسلان بوفاة ديني كتب كلمة عنه في جريدة (كوكب الشرق) سرعان ما تناقلتها عنها جريدة العقبي (الإصلاح). والمعروف أن العقبي والمدني وغيرهما كانوا من بين من حضروا دفن ديني في بوسعادة. قالت الإصلاح، وهي تقدم مقالة أرسلان عن ديني، أنها «بقلم كاتب الشرق الأكبر في رجل عظيم، علم الكاتب من أمره ما لم يعلمه الكثير من الكاتبين». وفي المقالة روى أرسلان ما قرأ لديني وزميله أو تلميذه سليمان بن إبراهيم من كتب ورسائل وردود. وذكر أن بعض ذلك نشر مترجماً في مصر من قبل صديق لديني اسمه عبد الباقي بك العمري الفاروقي. كما أشار أرسلان إلى أنه عرف ديني أثناء الحج إلى مكة (وقد مرّ بنا أن المدني هو الذي توسط لديني لدى أرسلان ليسهل هذا مهمته في الشرق والحجاز ويوصي به) وأن أرسلان قام فعلاً بالكتابة إلى أهل الأمر في الحجاز ليسهلوا مهمته ففعلوا. ولعل ديني كان يخشى أن يفتضح أمره باعتباره رجلاً فرنسياً فيعتبره المسؤولون في الحجاز من الجواسيس لا من الحجاج. ويبدو أن كلاً من المدني وأرسلان كان منخدعاً فيه. ومهما كان الأمر فإن أرسلان يذكر أن ديني قد أرسل إليه التمر من بوسعادة قبل وفاته بقليل رداً لجميله [1].

وقد مرّ بنا ما فعله أرسلان أيضاً بالنسبة لعلي الحمامي وتدخلاته من أجله لرفع بؤسه، حتى أوصله في إحدى المرات إلى العراق بعد أن كان مضطهداً في إيطاليا سنة 1932، وكان في ضائقة مالية شديدة [2]. وهناك رأي أدلى به أرسلان حول شخصية المعمري والمقري اللذين كانا من المقربين لدى بلاط السلطان المغربي عندئذ (1931) فقال إن أحد الثقات أخبره «أنه ما أحد أضرّ الإسلام في المدة الأخيرة مثل المعمري والمقري، وهما اللذان شددا الفرنسيين في قضية الظهير (البربري)، وأن المعمري أشد

(1) حاضر العالم اسلامي، انظر (الإصلاح) عدد 25 سبتمبر 1930.

(2) يروى الطيب بنونة (نضالنا القومي)، ص 168 هامش 7، إن لدى والده عبد السلام بنونة رسائل من علي الحمامي. وذكر أن أكرم زعيتر قال أنهم اضطروا في العراق إلى خصم جزء من مرتباتهم شهرياً لعلي الحمامي، ومع ذلك لم يسلموا من انتقاداته.

ضرراً من ابن غبريط، فيا ويح من ابن غبريط أحسن منه!»[1].

والظهير المذكور هنا هو الذي أحدث سنة 1930 اضطراباً في الرأي العام بالمغرب. وكان له أصداء قوية مضادة في الجزائر أيضاً. وبناء على هذا المصدر فإن الحاج بنونة كان يرى في المعمري رجلاً «لا بأس به».

* * *

عند وفاة الأمير شكيب أرسلان كان معظم قادة الحركة الوطنية الجزائرية في السجون والمنافي على أثر حوادث 8 مايو 1945. وكانت الصحف معطلة والأحزاب منحلة. وكان المد الإستعماري قوياً بعد انتصار الحلفاء على ألمانيا وإيطاليا، ولم تكن الحرب الباردة قد وصلت درجة الغليان. لذلك لم تنل وفاة أرسلان حظها من الإعلام في الأوساط الوطنية بالجزائر، ولم ينوه بدوره فيما يظهر إلا في وقت لاحق.

وفي العدد الأول من البصائر لسان حال جمعية العلماء نجد قصيدة لأحمد سحنون بعنوان (حارس الشرق)، قالها بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاة شكيب أرسلان. ومما جاء فيها قوله:

حارس الشرق غاب ... في خضم العدم
وقضى ليث غاب ... وهوى بدر تم

ولعل الشيخ سحنون هو أول من أبّن شكيب أرسلان وذكر نضاله من أجل العروبة والإسلام وخصاله ومساهمته في القضية الوطنية[2].

وقد احتوى العدد الثالث عشر من البصائر على كلمة فيها تنويه بما قام به محمد

---

(1) نفس المصدر، ص 379، والرسالة من شكيب أرسلان إلى الحاج عبد السلام بنونة، بتاريخ لوزان 28 غشت 1931، دافع أرسلان عن نفسه عندما قيل له في الحديث إلى شخصية مشبوهة مثل عبد الحي الكتاني بسويسرا، فقال أنه إنما فعل ذلك مع الكتاني ليتخذ منه واسطة من جملة الوسائط لتبليغ نصائح لرجالات الشرق تتعلق كلها بأحوال المغرب وشمال أفريقية. انظر بنونة، ص 326. ومما يلاحظ أن كتابات أرسلان عن عمر المختار، البطل الليبي المعروف، كانت قد نقلتها الشهاب، بإعجاب، نوفمبر 1931، ص 691 - 701.

(2) البصائر، العدد الأول 23 يوليو 1947.

علي الطاهر صاحب جريدة (الشورى) إذ جمع في كتاب ما قيل في الأمير شكيب أرسلان من كلمات ومراث بعد وفاته، وسمى عمله (ذكرى الأمير شكيب أرسلان). وقد أهدى منه نسختين، إحداهما للإبراهيمي والأخرى أمانة يوصلها إلى صاحبها دون الكشف عن اسمه. والجدير بالملاحظة أن كلمة البصائر بدون توقيع، ولكن يغلب على الظن أنها من تحرير الشيخ البشير الإبراهيمي لأنه كان رئيس تحرير البصائر، ولأن الأسلوب والإشارات تدل على ذلك. ومما يلفت النظر أن الإبراهيمي لم يكتب أبداً، حسب علمنا، عن الأمير شكيب أرسلان سواء أثناء حياته أو بعد وفاته. وفي تعليقه على كتاب محمد علي الطاهر لم يتحدث الإبراهيمي عن دور شكيب أرسلان، وإنما نوه بما قام به صاحب (الشورى) من جهد في جمع «دموع الباكين على صديقه وأستاذه في الجهاد الأمير شكيب أرسلان، وحسرات المتفجعين على مصاب العروبة والإسلام لفقده. وما أكثر الباكين على الأمير شكيب وما أكثر المتحسرين!».

فإذا ثبت أن الكلمة أعلاه من تحرير الإبراهيمي فهي تكون أول وآخر ما كتبه عن شكيب أرسلان. ونلاحظ من جهة أخرى على أنها كلمة كتبت في شيء من اللامبالاة إذ اقتصر فيها كاتبها على القول بأن ما جمعه محمد علي الطاهر ما هو إلا جزء قليل مما قيل في شكيب أرسلان، وتمنى بأن يكتب محمد علي الطاهر تاريخ شكيب أرسلان «بقلمه هو لقضاء دين لأبناء العروبة في أعناقهم لأميرهم»[(1)].

وتوالت الذكريات وتوالى الحديث معها عن الأمير شكيب أرسلان في الصحف الجزائرية وعلى لسان الشعراء. وقد أقيمت في العاصمة الذكرى الثانية لشكيب أرسلان. وخطب فيها الخطباء وألقى الشعراء، ومن بينهم عبد الكريم العقون، ومطلع قصيده:

هوى كوكب الشرق أرسلانِ   فكل فؤاد فيه همّ وأحزان[(2)]

ومن جهتها نشرت جريدة الإصلاح التي كان يرأسها الشيخ الطيب العقبي صورة الأمير أرسلان وقصيدة للشاعر المهجري جورج صيدح نقلاً عن جريدة (العالم العربي) التي تصدر في بيونس أيرس، ونلاحظ أن العقبي رغم صداقته ومراسلاته مع شكيب

---

(1) نفس المصدر، عدد 13 ,10 نوفمبر 1947. انظر أيضاً آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، 35/3.

(2) نفس المصدر، العد 71 ,14 مارس 1949.

أرسلان لم يكتب أيضاً تأبيناً ولا سيرة لحياة صديقه بعد وفاته، رغم أن جريدة الإصلاح كانت تصدر عند وفاة الأمير، خلافاً للصحف الأخرى[1]. ولعل غضب السلطات الفرنسية على شكيب أرسلان هو الذي جعل العقبي وغيره يحجمون عن ذلك. ويذكر أحد المعاصرين أنهم أقاموا حفلة تأبين في نادي الترقي بمناسبة الذكرى الأولى لوفاة الأمير أرسلان (1947)، وكان خطيبا الحفل هما الطيب العقبي وأحمد توفيق المدني. وكانت خطبة العقبي طويلة ومؤثرة، أما المدني فقد أطلع الحاضرين أيضاً على مجموعة من مؤلفات الأمير أرسلان، وعلق عليها، وذكرهم بجهاده من أجل قضايا العروبة والإسلام.

* * *

نستطيع أن نحكم على تجربة شكيب أرسلان مع القضية الجزائرية من وجهين: الوجه الأول حكمه هو على الجزائريين، والوجه الثاني حكم الجزائريين عليه هو. إن قناعة أرسلان بأيديولوجية الجامعة الإسلامية والقومية العربية جعلته ينظر إلى القضايا العربية والإسلامية نظرة شاملة وعميقة وموحدة. وكانت بداية أرسلان الفكرية مع فكرة حزب اللامركزية في الدولة العثمانية الذي يعني عدم الفصل بين العرب والترك. ولكن ممارسات لجنة الإتحاد والترقي وظهور التيار الطوراني وتصرفات القادة الأتراك نحو العرب كتصرف جمال باشا في سورية، ثم سقوط الخلافة نفسها، كل ذلك جعل أرسلان يعدل من نظرته ويصبح هو المدافع القوي على الاستقلال العربي والرابطة الإسلامية. وقد تمثل ذلك في معاداته للاستعمار الفرنسي في سورية والإنكليزي في فلسطين والعراق. وفي وقوفه ضد الحركة الصهيونية التي كانت تبني الجسور إلى فلسطين على حساب العرب. وكان من الطبيعي أن تشمل نظرته المعادية للاستعمار منطقة المغرب العربي أيضاً حيث تحتل فرنسا أجزاء كبيرة منها.

(1) الإصلاح، عدد 73, 3 مارس 1948. وهذه المعلومات وما قبلها المنقولة عن البصائر مكنني منها الأستاذ الفاضل محمد الحسن فضلاء، فله جزيل الشكر. ويقول الأستاذ فضلاء أنه حضر بنفسه حفل تأبين الأمير أرسلان بالعاصمة (نادي الترقي) سنة 1947، وأنه كلف بكتابة كلمة عن الحفل فكتبها ونشرها في جريدة (النهضة) التونسية باسمه الصريح، ولكن محمد علي الطاهر نشر الكلمة مغفلة من اسمه في الكتاب الذي جمع فيه ما قيل في أرسلان. وقد رأى فضلاء الكتاب عند الشيخ الطيب العقبي، الذي أرسله إليه صديقه محمد علي الطاهر هدية وليس فيه اسمه.

وكانت الحركات الوطنية في المغرب العربي أثناء فترة ما بين الحربين تبحث أيضاً عن نصير لها في المحافل المشرقية والدولية، سيما بعد تعديات الاستعمار الفرنسي على كرامة الجزائر بالاحتلال بمرور قرن على الاحتلال (سنة 1930)، وعلى وحدة المغرب بإصدار ما سمي بالظهير البربري، وعلى روح تونس بانعقاد المؤتمر الأفخارستي فيها. وكانت هذه الحركات الوطنية تعاني من التمزق بوجود النجم في فرنسا وحله سنة 1929 ومتابعة رجاله قضائياً، وكذلك كانت حركة الإصلاح تعاني من المضايقات في الجزائر، ونفس الشيء كان يواجه الحزب الدستوري التونسي الذي انقسم على نفسه سنة 1934، ولم يكن حظ حركة المغرب بأسعد حالاً. وكانت المنظمات الطلابية في بلدان المغرب العربي واقعة تحت ضغط شديد، ولكنها في فرنسا نفسها كانت تتمتع بحرية أكثر رغم أنها لم تكن متسيسة بصراحة. ومن خلال الحركات الوطنية والمنظمات الطلابية في فرنسا استطاع شكيب أرسلان أن يسرب أفكاره التوحيدية التي كانت تقدم في شكل «نصائح» ومساعي للتوفيق بين المتخالفين، وفي شكل أفكار قومية وإسلامية شاملة. وقد جعل من جريدة (الأمة العربية) لساناً مدافعاً ليس فقط عن قضية سورية وفلسطين ولكن عن قضية المغرب العربي أيضاً. وكانت صلة شكيب أرسلان بإيطاليا وألمانيا عدوتي فرنسا وبريطانيا، تشجعه على المضي في مدّ يد العون للحركات الوطنية في المغرب العربي، بما فيها الحركة الليبية طبعاً.

وقد رأينا من خلال الوثائق أن صلة شكيب أرسلان بالجزائر قديمة تعود أصلاً إلى معايشته لجالياتها في الشام، ثم لقاء بعض الجزائريين في حرب طرابلس، ثم التعمق في التعرف على أفكار الكتاب الجزائريين ومشاكلهم عند تعليق أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي، كما تعود صلته بالجزائر إلى المراسلات العديدة التي تبادلها مع رجالها ولقاءاته الشخصية مع بعض زعمائها. وكان هناك اهتمام مشترك وثقة متبادلة بينه وبين هؤلاء الجزائريين، مما جعله يقدم خدمة جليلة لقضية الجزائر في اطارها العربي الإسلامي. فبقدر ما ساهم في إنقاذ الجزائريين من الإندماج في الكيان الفرنسي أو العالمية الشيوعية بقدر ما ساهم في توجيههم نحو العروبة والإسلام والوطنية الصادقة.

ومن جهتهم اعتبر الجزائريون شكيب أرسلان شخصية مخلصة لقضيتهم، بل وللقضية العربية الإسلامية عموماً. فقد كانوا يبحثون فعلاً عن أمثاله من الرجال الذين

يعينونهم على شق الطريق الصعب، وهو التخلص من الاستعمار وتثبيت هويتهم الوطنية والقومية والإسلامية. فكان شكيب أرسلان هو ذلك الرجل المنتظر، ولذلك احتفظوا له بمكانة سامية في قلوبهم، فأشادوا به أثناء الحياة، وبكوه بعد الوفاة وخلدوا ذكراه في شتى المناسبات، وسجلوا اسمه في الكتب المدرسية والمؤسسات. وقد برهن هذا المثال على أن الجزائر تبقى دائماً وفية لمن خدمها في قضيتها، وواساها في محنتها، والاعتراف بالجميل من شيم كرام الأفراد والأمم.

الجزائر في 1991/7/31

ملحق

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث تفضل الأستاذان ناصر الدين سعيدوني ومصطفى حداد بإمدادي بوثيقتين تخصان علاقة الأمير شكيب أرسلان ومصالي الحاج، فأردت أن أضيف ملخص الوثيقتين هنا استكمالاً لبعض عناصر البحث.

1 ـ الوثيقة الأولى:

أمدني بها الدكتور سعيدوني وهي من قيادة الأركان الفرنسية إلى الحاكم العام للجزائر، وعنوانها (مساهمة في دراسة النشاط السياسي للأمير شكيب أرسلان) وفي أعلاها عبارة (سري)، وتحمل رقم A. O. M. 29 H 35، وهي ضمن أرشيف ايكس (فرنسا) وخلاصتها:

أنه خلال سنة 1935 أصبح التأثير المباشر لشكيب أرسلان في الأوساط الإسلامية بالجزائر محسوساً وبكل وضوح، فهو يتراسل باستمرار مع ابن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومع الطيب العقبي، الذي كان أحد الأعضاء الأكثر نشاطاً في هذه الجمعية، ومع توفيق المدني، عضو الحزب الدستوري (التونسي) سابقاً والمطرود من تونس حيث استقر بمدينة الجزائر، ومع السعيد الزاهري الصحفي وصاحب الاتجاه الوطني المعادي للاستعمار، ولكن الشخص الذي يتصل باستمرار بنصائح الأمير شكيب أرسلان هو الحاج أحمد مصالي منشط الحركة الكبيرة ذات الاتجاه الوطني البروليتاري والتي تدعى (نجم شمال أفريقيا) المؤسسة في باريس سنة 1926 والتي واصلت أعمالها المشؤومة إلى أن وقع حلها سنة 1937، وهو التاريخ الذي أنشأ فيه مصالي «حزب الشعب الجزائري»، وأن لسان حال (نجم شمال أفريقيا) هو جريدة (الأمة) التي ظهرت في باريس باللغة الفرنسية والتي تعتبر مقالاتها في أغلب الأحيان مستوحاة مباشرة من شكيب أرسلان.

وبعد هذه الفقرة عن علاقة شكيب أرسلان بالجزائريين، ولا سيما مصالي وحركته، نجد فقرة أخرى في الوثيقة عنوانها (شكيب أرسلان عميل لإيطاليا، 1935)، وقد تحدثت عن مقالاته التي ظهرت في جريدة (الرابطة العربية) التي كانت تظهر بالقدس الشريف، ونقل دورية (الشرق الحديث) الإيطالية لخلاصة هذه المقالات، عن تدخل أرسلان بين الليبيين والإيطاليين، وعن زيارته لرومة ومقابلته لموسوليني الخ. . .

2 ـ الوثيقة الثانية:

أما الوثيقة الثانية فقد قدّمها إلي الأستاذ مصطفى حداد بخط يده بالفرنسية، وهي تعود إلى 26 أكتوبر 1936، وموجهة من الأمير أرسلان بجنيف إلى مصالي الحاج بتلمسان، ورمزها بأرشيف ايكس: H.G.G 9 H 47. وقد احتجزت الشرطة الفرنسية هذه الرسالة التي كانت مكتوبة بالفرنسية. وخلاصتها أن الأمير أرسلان يخبر مصالي: أنه اتصل برسالته وسُرَّ بها كثيراً، وأنه كان أجاب بالعربية عن رسالة أخرى جاءته من شعبة (النجم) بتلمسان، ثم كتب لهم أخرى، وأنه في حاجة إلى مصالي وأنه يقدره كل التقدير أبوياً، ويهنئه على النجاح الذي حققه بين الجميع، وأخبره أن (بني وي وي) لا يكرهونه ولكنهم جبناء. أما أعداؤه (أي مصالي) الحقيقيون فهم الفئة الإسلامية التي تدعى الإسلام. وقال له: أنه لا ضرورة للبرهنة على الولاء لفرنسا لأن فرنسا لن تجني شيئاً من تجنيد مثل هذه الفئة التي لا يوثق فيها. وأخبره كذلك أنه سعيد بأن أصبح النجم يضم الآن ثلاثين (30) فرعاً في الجزائر، وأن هذه الفروع ستزداد لتشوش على المنافقين (أشباه الأنبياء). وطلب منه أن يزوره في جنيف بمجرد عودته إلى باريس، للاستراحة عنده. كما أخبره أنه تلقى آخر أعداد جريدة (الأمة) التي يصدرها النجم. عنوان أرسلان في الرسالة هو: 11 شارع مارينياك

(انتهى)

جمعية العلماء والسياسة (*)

عندما فتحت قاموساً أجنبياً لأعرف منه معنى كلمة (سياسة) وجدته يذكر لها سبعة تعاريف: (1) علم وفن الحكومة السياسية أو علم السياسة. (2)الشؤون السياسية. (3) التصرف والمشاركة في الشؤون السياسية، وغالباً ما يكون ذلك كمهنة. (4) المناهج والتكتيك السياسي. (5) الآراء والمبادىء السياسية أو العلاقات الحزبية. (6) تصنيف وظيفي ضمن جماعة مثل المصلحة السياسية. (7) عنوان الكتاب الذي ألفه أرسطو عن علم السياسة[1].

ولكن (السياسة) في المصطلح الجزائري على عهد الاستعمار لا تكاد توجد إلا منذ الحرب العالمية الأولى. فممارسة العمل السياسي كان محرماً على الجزائريين. ويمكن أن نقول أن هذه الممارسة كانت محرمة عليهم حتى أيام العهد العثماني. فقد كانت (السياسة) كمصطلح يعني المساهمة في إدارة شؤون الحكم أو التحزب أو التعبير عن الرأي السياسي، كانت غائبة تماماً في نظرنا. وحين وقع الاحتلال ظهرت لجنة المغاربة المؤلفة من عناصر مثقفة وغنية وبدأت تلعب دوراً سياسياً كوسيط متكلم بإسم الجزائريين (حمدان خوجة، أحمد بوضربة، مثلاً)، ولكن مصير هذه اللجنة كان الإبعاد من الساحة السياسية عن طريق النفي والسجن والإرهاب. فانتهى نشاطها حوالي 1836.

وتولى الاستعماريون شؤون البلاد السياسية والإدارية وأشركوا معهم العديد من الجزائريين في الوظائف الإدارية كموظفين في مناصب قيادية في الظاهر، مثل الخليفة

(*) نص المحاضرة التي ألقيت في المركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة بدعوة من وزارة الشؤون الدينية بتاريخ 24 يناير، 1990. وقد نشرتها جريدة (المنقذ) بعد ذلك، دون ذكر المناسبة.

(1)انظر قاموس ويبستر الجديد للغة الأمريكية، ط. 1962.

والباشاغا إلخ. أو وظائف ثانوية كقضاة ومترجمين. ولكن المبادرة في الميدان السياسي كانت منزوعة تماماً منهم. فلم تظهر من بينهم حكومة جزائرية، ولا وزارة ولا حزب ولا صحافة تعبر عن رأي خاص. وقد ظل الأمر كذلك إلى عقد الثمانينات. وفي هذه الأثناء بدأت تظهر جماعات ضاغطة، في وهران وقسنطينة، من الأعيان وكبار الملاك والموظفين، وتَمَثَّل ضغطها في تقديم العرائض الممضاة جماعياً للسلطات الاستعمارية، تتضمن مطالب غير سياسية في ظاهرها، ولكنها تهدف إلى أغراض سياسية، مثل المطالبة باحترام القضاء الإسلامي، وتعليم اللغة العربية، واحترام الحالة المدنية، ورفع الضيم في الضرائب وإلغاء القوانين الاستثنائية.

ولم تأت فاتحة القرن الحالي حتى أخذت الضغوط السياسية تتبلور وتأخذ شكلاً منظماً أكثر فأكثر، ولعل من أبرزها تيار معارضة التجنيد الإجباري، الذي كان تياراً إسلامي المنطلق سياسي الهدف. ثم تيار النخبة الذي مثله وفد منهم سافر إلى باريس ليبلغ السلطات الفرنسية هناك وجهة نظر النخبة في الوضع السياسي عامة وقبول مبدأ التجنيد الإجباري إذا تحقق مبدأ المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات.

ولكن هذا التحرك السياسي بوجهيه الإسلامي والمساواتي (أو الاندماجي) قد توقف بسبب الحرب العالمية الأولى. ثم استؤنف سنة 1919 على يد الأمير خالد ورفاقه: أولاً في شكل العريضة التي طالب فيها بتطبيق مبدأ تقرير المصير على الشعب الجزائري، وثانياً في تأسيسه جماعة باسم (المؤاخاة الإسلامية) وخوضه معركة الانتخابات البلدية وخطبه ومطالبه الواضحة «المتسيسة» والتي ركز فيها على مبدأ المساواة مع المحافظة على الشخصية العربية ـ الإسلامية للجزائر. ولم يكن الأمير خالد وحده في الميدان، فقد كان له معارضون اندماجيون من الجزائريين. وهؤلاء هم الذين اتكأت عليهم الإدارة الاستعمارية لنفي الأمير خالد وإخلاء الساحة منه لصالحهم. وبذلك توقف العمل السياسي النشيط في الجزائر أكثر من عشر سنوات، أي إلى 1936.

طبعاً نحن نعرف أن الساحة السياسية قد ملئت بتحرك النواب في المجلس المالي، والمجالس الإقليمية، وبرزت من خلال ذلك كتلة النواب التي تزعمها الدكتور محمد الصالح بن جلول. كما أن الشيوعيين الفرنسيين قد نشطوا رغم العراقيل الكثيرة،

وأسسوا قسم الجزائر، ثم اتحادية الجزائر، ولم يظهر لهم حزب أو فرع إلا سنة 1935 - 1936. بالإضافة إلى فروع وأقسام للأحزاب الفرنسية الأخرى. ولكن هذا لا يهمنا هنا.

ولا شك أن ظهور نجم شمال أفريقية في فرنسا في وسط العشرينات كان له أكثر من معنى. ولا تجب المبالغة في هذا المجال لأن تأثير النجم على الوضع السياسي في الجزائر كان ضئيلاً جداً بعد التصريح باستقلال الجزائر سنة 1927. وذلك لعدة عوامل منها بعده الجغرافي عن الساحة الوطنية، وميلاده كتنظيم عمالي (نقابي)، وصفته الشمال أفريقية، وصلته بالشيوعية العالمية والفرنسية، ومحاربة السلطات الفرنسية له سنة 1929، وغير ذلك من الأسباب. وعندي أن أول تأثير مباشر وقوي للنجم في السياسة الجزائرية حدث سنة 1936 بخطبة الحاج أحمد مصالي أمام جمهور العاصمة.

في هذا الجو ظهرت جمعية العلماء سنة 1931. وفي نظري أن عوامل ظهور هذه الجمعية ما تزال غير مدروسة. أن معظم الباحثين يستندون إلى المقولة التي تذهب إلى أن الجمعية ظهرت كرد فعل على الاحتفالات المئوية بالاحتلال. ولكن هل ذلك يكفي؟ إننا إذا عرفنا الظروف التي ظهرت فيها الأحزاب في عهدنا و«اللعبة» المطلوب أو المأمول منهم تنفيذها، قد نهتدي إلى تفسير الظروف التي ظهرت فيها الأحزاب والتجمعات في العهد الاستعماري. ولكن المطلوب أو المأمول لا يتحقق دائماً بالطريقة التي خططت. فالرياح أحياناً تجري معاكسة للمطلوب والمأمول.

حدث ذلك عندما سمح لجمعية النجم بالظهور كنقابة فإذا بها تتحول إلى حزب سياسي يطالب بالاستقلال التام للجزائر، وحدث هذا أيضاً عندما سمح لجمعية من العلماء فيهم المصلح الوهابي، والطرقي الغيابي، والمعتدل في دعوته للإصلاح، والمحافظ والمتطرف، وفيهم الشيخ الكبير السن والشاب الطموح، وفيهم الدارس في المشرق والدارس في الجزائر. قلت سمح لهؤلاء بتكوين «جمعية دينية ـ تهذيبية لا دخل لها في السياسة»، أو نقابة دينية، إذا صح التعبير، فإذا بها تتحول إلى مؤسسة تهدد النظام القائم وتعمل على بعث شخصية الجزائر الضائعة وتضع لذلك ثوابت ما تزال على كل لسان وهي الجزائر ـ الإسلام ـ العربية. وهي ثوابت إذا ترجمت بلغة القومية تصبح الدعوة إلى إنشاء دولة مستقلة [1].

---

(1) لعل (الحركة الثقافية البربرية) غير غافلة عن طريقة جمعية العلماء في العمل، إذ كثيراً ما تتقمص =

ويبدو أنه كان في إمكان جماعة الإصلاح أن يطلبوا تأسيس جمعية لهم قبل 1931، بدليل أن التفكير في ذلك بدأ في الحجاز سنة 1913، ثم أوائل العشرينات في الجزائر. ولكن ظروفاً موضوعية حالت دون ذلك. فحركة ابن باديس (التعليم ـ الصحافة ـ النوادي ـ التوعية بالزيارات والدروس إلخ.) كانت في حاجة إلى عقد العشرينات لتنتشر وتتجذر ويعرفها الناس، والشيخ الإبراهيمي لم يدخل بعد ميدان الإصلاح العملي، ونشاط الشيخ العقبي كان إلى سنة 1929 ما يزال محصوراً في نواحي بسكرة. ولم يكن نادي الترقي بالعاصمة قد تكون إلا سنة 1927، ولم تظهر كتلة النواب الموالية للإدارة إلا سنة 1927، وعندما ظهر النجم في فرنسا سنة 1926سرعان ما صدر القرار بحله سنة 1929 كما لاحظنا. وصورة نفي الأمير خالد (1923) كانت ما تزال ماثلة أمام أعين الجماعة الإصلاحية. لقد كانت هذه الجماعة تحس بالفراغ السياسي المخيف في الجزائر وببطش الإدارة الاستعمارية المتسلحة (بقانون الأهالي) البغيض، ولكن تكوين تنظيم يملأ ذلك الفراغ يحتاج ـ في ضوء الظروف أعلاه ـ إلى تبصر وحنكة وقراءة متأنية للعواقب.

ولنتصور أن جمعية العلماء وضعت في قانونها الأساسي الذي قدمته للإدارة مادة تنص على أنها تشتغل بالسياسة أو تدعو للاستقلال، أو نحو ذلك فهل كانت إدارة (ميرانت) مسؤول الشؤون الأهلية عندئذ، ستوافق على طلبها؟ أننا في ضوء ما جرى لحركة الأمير خالد وما صدر ضد النجم وما حدث للشيوعيين، نعتقد أن طلب الجمعية كان سيرفض لا محالة. ولنفرض أن الجمعية لم تنص على العمل السياسي ولكنها سلكت طريق الدعوة الصريحة للاستقلال الوطني ووضعت لذلك برنامجاً سياسياً فهل كانت الإدارة ستقف منها موقف المتفرج؟ لا نظن ذلك. أن أبسط ما كانت الإدارة ستفعله عندئذ هو حل الجمعية والزج بعناصرها البارزة في السجن والقضاء على مدارسها وصحفها، على الأقل. هكذا كان موقف الإدارة من التجمعات الأخرى خلال العشرينات. وبذلك تتحول جمعية العلماء إلى حزب سياسي يعمل في الخفاء

= الحركات الثقافية شخصية سياسية تبرزها وقت الحاجة، وقد أعلنت هي نفسها أخيراً بأنها «ليست حزباً، ولكنها قوة سياسية ديموقراطية»، أنظر (الشعب) 29 يناير 1990. ومن ثمة إتهام البعض لها بأنها حركة سياسية إنفصالية في النهاية وإن لبست لباس الثقافة.

والمنافي. ونحن لا نظن أن التكوين الاجتماعي والثقافي للعلماء يؤهلهم لهذا الدور. ومع ذلك لو فرضنا أن العلماء فعلوا ذلك، ماذا كان سيبقى حينئذ للنجم وحزب الشعب؟

هذا عن ظروف التكوين والنشأة والبرمجة. أما عندما دخلت جمعية العلماء إلى ميدان العمل فقد كان العمل السياسي أحد أركان نشاطها. تمثل ذلك في صراعها الخفي والعلني ضد الإدارة الاستعمارية فيما يتعلق بحق الجزائريين في التعليم عموماً وبلغتهم العربية خصوصاً، وفي المطالبة بتخلي الإدارة الاستعمارية عن الشؤون الإسلامية وترك الإسلام لأهله، طبقاً لاتفاق 1830 ولمبدأ فصل الدين عن الدولة الذي طبقته فرنسا على الأديان الأخرى غير الإسلام. كما تمثل في رفض السياسة الاستعمارية الداعية إلى التجنس، ونقد الجزائريين الذين وقعوا أو كادوا يقعون في التجنس، وفي الدعوة إلى استقلال القضاء الإسلامي الذي دجّنه القانون العام الفرنسي، ونحو ذلك من القضايا.

وقد يبدو للبعض أن هذه مواقف (غير سياسية) وإنما هي إصلاحية معتدلة. ونحن نقول أن ذلك صحيح إلى حد كبير ما دامت تلك المواقف تصدر عن جمعية وليس عن حزب، وعن هيئة تقول في قانونها أنها لا تتدخل في السياسة. ونضيف إلى أن الدارس للغة وأسلوب رجال الإصلاح خلال العشرينات والثلاثينات يلاحظ أنها كانت في أغلبها لغة وأسلوب الواعظ لا المهاجم، والداعي إلى الإصلاح لا إلى الثورة، والمستعمل للتقية لا المناهض للنظام القائم.

ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن هناك مراحل مرت بها هذه اللغة وهذا الأسلوب في الخطاب الإصلاحي. فقد سمحت الجبهة الشعبية بخلق جو جديد إلى حد كبير في الجزائر، ولكنها لم تلغ قانون الأهالي، مع ذلك، ومن ثمة عاد النجم إلى الظهور شرعياً، وظهر الحزب (أو الفرع) الشيوعي، وتغيرت لهجة جمعية العلماء، بل ظهرت تصريحات حتى من النواب تتجاوب مع المطامح الوطنية. وأكبر مظاهرة سياسية شاركت فيها الجمعية كانت المؤتمر الإسلامي الذي دعا إليه رئيسها نفسه، وهي المشاركة التي ما تزال حتى الآن بين أخذ ورد في أقلام الكتاب والباحثين، إذ يرى بعضهم أن الجمعية بذلك أخطأت رسالتها ومنهجها في الإصلاح، ويرى آخرون أنها دخلت السياسة من بابها الواسع وليس من قانونها فاستحقت الاتهام بتدبير اغتيال الشيخ كحول والهجوم الكاسح ضدها من الطرقية والنواب وغلاة الاستعمار. والمعروف أن الجمعية دافعت عندئذ عن

موقفها وبررته بشتى المبررات، منها أن السياسة تعني الأمة كلها وأن الجمعية جزء من الأمة، فالبقاء بعيداً عن سير أحداث تصنع مصير الأمة، في نظر الجمعية، يعد هروباً من الواجب الوطني، وليس ذلك من شيمتها.

هذا عن البدايات، أما المسيرة فمعروفة. فقد تلقت الجمعية درساً قاسياً من حادثة اغتيال الشيخ كحول، وتَذَبْذُبِ زعيم حركة النواب (ابن جلول) الذي لم ينف التهمة الموجهة للجمعية المتحالفة معه، وفَشَلِ المؤتمر الإسلامي برفض فرنسا لمطالبه رغم اعتدالها، وسرعة انهيار الجبهة الشعبية، وعدم إيمان الشيوعيين بأمة جزائرية، وتبعية هؤلاء الشيوعيين لكبرائهم الفرنسيين. وعندما بدأ نشاط حزب الشعب منذ 1937 في الجزائر يلاحظ المرء اقتراب وجهة نظر جمعية العلماء من وجهة نظر هذا الحزب، حتى أن القارىء (للشهاب) يلاحظ استعمالها لكلمة «الوطنيين» في حديثها عن أنصار حزب الشعب. ولكن هذا الحزب سرعان ما واجه قراراً بحله، فلم يبق له إلا العمل في الخفاء، وكان ما يزال في أولياته لم يؤسس بعد قواعد شعبية صلبة. والهيئة الوحيدة التي كان لها أنصار كثيرون في الأوساط الشعبية هي جمعية العلماء، ومدارسها ومساجدها وقادتها وصحفها. أما أنصار النواب والشيوعيين فقد كانوا قليلين رغم أننا لا نملك الآن إحصاء رسمياً لاتباع كل طرف.

وعندما ادلهمَّ الجو العالمي وبانت نذر الحرب، وطلبت فرنسا من الهيئات والقيادات الإعلان عن موقفها لتأييد فرنسا في الحرب ضد ألمانيا وإيطاليا اتخذ العلماء قراراً بالتزام الصمت، وهو قرار سياسي واضح. وأكدوا ذلك بوقف صحفهم بأنفسهم سنة 1939، حتى لا يفرض عليهم قانون الطوارىء نشر ما لا يتفق مع مبادئهم. وأثناء الحرب توفي ابن باديس (الذي كان في أغلب الظن تحت إقامة جبرية بقسنطينة) وسيق الإبراهيمي (1940) من تلمسان إلى آفلو في إقامة جبرية، لم يتحرر منها إلا سنة 1943. وقد ساهم العلماء في التحضير للبيان الجزائري المشهور، الذي أعده فرحات عباس، وشاركوا في التحضير لجمعية أصدقاء البيان والحرية. وسيق الإبراهيمي - مع عباس وغيره - إلى سجن الكدية بعد مجزرة 8 مايو 1945. وكان للعلماء رأي في دستور الجزائر 1947، وفي جبهة الدفاع عن الحرية وفي دور الأحزاب السياسية عند فشلها في الانتخابات، وفي التمثيل البرلماني، وأخيراً في فشلها في تحقيق ما يصبو إليه الشعب الجزائر من حرية واستقلال. وهو الوضع الذي جعل الشاعر مفدي زكريا يخرج من صمته

الطويل ويقول في قصيدته التي ألقاها بمناسبة افتتاح دار الطلبة بقسنطينة (أكتوبر 1953):

جمعية العلماء المسلمين ، ومَنْ للمسلمين سواك اليوم منشود ؟
خاب الرجا في سواك اليوم فاضطلعي بالعبء، مذ فرّ دجال ورعديد
سيروا ولا تهنوا فالشعب يرقبكم وجاهدوا، فلواء النصر معقود[1]

وبلا مبالغة يمكننا القول بأن الأحزاب السياسية قد وقعت في فخ نصبته لها الإدارة، (وهو فخ نتمنى أن تأخذ منه أحزابنا الحاضرة الدرس والعبرة). فقد غرقت الأحزاب في مسألة الانتخابات، وكانت الإدارة تنجح من تشاء وتفشل من تشاء، وضاعت بين ذلك الأهداف الوطنية. وأصبح الصراع على الكراسي التي تسمح بها إدارة الاستعمار. وبالطبع فإن جمعية العلماء لم تكن من هذه الأحزاب، فلم تخض في الانتخابات ولم تبحث عن النيابة البرلمانية، ولكنها كانت متهمة بأنها تشجع حزب البيان على حساب حزب الشعب. وهذه قضية أخرى تحتاج إلى دليل من الوثائق والشهادات. ولكن الذي يغفل عنه البعض حتى الآن هو أن عدداً من معلمي جمعية العلماء كانوا أيضاً وبطريقة سرية أعضاء في حزب الشعب في نفس الوقت، لأنهم آمنوا بأهدافه في الحرية والاستقلال. وهذه أيضاً نقطة تحتاج إلى دراسة على حدة وإلى أدلة.

وإذا كان الذين درسوا أوائل الخمسينات قد لاحظوا العناء والتمزق الذي أصبح عليه حزب الشعب نتيجة اكتشاف المنظمة السرية، وإبعاد زعيمه، ومهزلة الانتخابات الإدارية، والمسألة البربرية، والصراع بين جيلين من أعضائه، فإن عليهم أيضاً أن يذكروا، إنصافاً للتاريخ، أن جمعية العلماء كانت تقريباً هي الهيئة الوحيدة الفاعلة في المجتمع الجزائري عندئذ، ولعلهم سيجدون أن أنصارها قد تكاثروا نتيجة الأزمة التي مرّ بها حزب الشعب منذ 1949، وخصوصاً منذ 1953، لأن الشعب قد تزعزعت ثقته في الأحزاب السياسية عموماً.

وإنصافاً للتاريخ أيضاً نقول أنه لولا أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم ووطنهم، وكونوا أنفسهم في الخفاء، واجتمعوا وتجاوبوا وقرروا الثورة، لكانت الجزائر، بدون جمعية العلماء، كريشة في مهب الريح سنة 1954. وهي الريح التي أخذت تهب أيضاً حتى

(1) ديوان اللهب المقدس، ط. 1961، بيروت، ص 268.

على جمعية العلماء، كما لاحظنا في إحدى دراساتنا عنها[1]. ويبقى أن نعرف مستقبلاً كم من الذين فجروا ثورة 1954 كانوا من خريجي خلايا حزب الشعب وكم منهم كانوا من خريجي مدارس جمعية العلماء وكم من هؤلاء وأولئك (صدقوا ما عاهدوا الله عليه).

الجزائر في 1990/01/24

(1) انظر دراستنا (أزمة جمعية العلماء سنة 1954) في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، جـ. 2 ,1986، ص 63 - 86.

اهتمامات جمعية العلماء بقضايا المغرب العربي (*)

عند نشأة الجمعية (1931) كان الوضع العام في المغرب العربي (شمال أفريقية) كما يلي: صراع بين الحركة الوطنية والسلطات الاستعمارية في جبهات عديدة، (1) الجبهة المسلحة، وهذه كانت قد انتهت في الريف المغربي بقيادة عبد الكريم الخطابي ثم استمرت في ليبيا بقيادة عمر المختار، (2) والجبهة السياسية وهذه كانت شاملة في الأقطار المغاربية كلها: ففي كل قطر هناك السلطة الاستعمارية بإدارتها وشرطتها وقوانينها الجائرة، وهناك القوى السياسية الفاعلة تحت قيادات حديثة العهد بممارسة الاستعمار. (3) كما كانت هناك جبهة ثقافية تمثلت في التصادم بين حضارة الدولة المستعمرة والحضارة العربية الإسلامية.

في هذا الجو نفهم ظهور الأحزاب الجديدة في كل من تونس والمغرب: الحزب الدستوري الجديد في تونس، والكتلة الوطنية في المغرب، ونشاط الحركات والمؤسسات مثل السنوسية في ليبيا، والإصلاحية في كل من تونس والمغرب، منبثقة من الزيتونة والقرويين ومن المدارس والجامعات الفرنسية.

ومن الأحداث الكبيرة التي مرت بالمغرب العربي خلال 1931 - 1956: استشهاد الشيخ عمر المختار، وصدور الظهير البربري، والجدل حول التجنس، وانعقاد المؤتمر الأفخارستي، ونفي السلطان محمد الخامس، وتحقيق استقلال ليبيا، واندلاع أحداث تونس.

(*) كلمة ساهمت بها في ندوة (أسبوع المغربي العربي) التي نظمتها في باريس رابطة الطلاب الإسلاميين بفرنسا 28 اكتوبر الى 3 نوفمبر 1991، وقد نشرت في مجلة (الإنسان) - باريس، عدد 7، مارس - افريل 1992، ص 71 - 73.

ولا يمكننا تتبع هذه الأحداث وغيرها في تصريحات وكتابات جمعية العلماء بالتفصيل وتكفي الإشارة إلى أن من مبادىء الجمعية عدم التدخل في الشؤون السياسية، ويبدو أن هذا المبدأ لم يحترم على الإطلاق. فقد وجدناها تخوض في مختلف القضايا التي تهم مستقبل المغرب العربي: السياسية منها والثقافية.

وسنوجز هنا العناصر البارزة التي لاحظنا الاهتمام بها في صحف الجمعية بالخصوص:

1 ـ الشخـصيـات:

كانت قيادة الجمعية على معرفة ببعض الشخصيات البارزة في الساحة من قبل. مثل محمد الخضر حسين، وعبد العزيز الثعالبي، ومحمد إبراهيم الكتاني، وعلال الفاسي، وسليمان الباروني. وهناك عدد من هذه الشخصيات كانت قد زارت الجزائر أو درست فيها (الحقوق، الطب إلخ.) في نطاق الحركة الطلابية: ومن هؤلاء المنجي سليم والحبيب ثامر، وأحمد بلا فريج، ومحمد الفاسي، ونحوهم.

وهناك أيضاً الشخصيات الدينية أمثال عبد الحي الكتاني، ومحمد الطاهر بن عاشور وابنه الفاضل، وأبو شعيب الدكالي، وعبد الرحمن بن زيدان، ومحمد العربي العلوي، وحسن حسني عبد الوهاب. وهذه الشخصيات تذكر أحياناً في مقام الإشادة بدورها وأحياناً في مقام النقد.

مثلاً: في الشهاب عدد مارس 1932 إشادة بأبي شعيب الدكالي وابن زيدان على موقفهما من قضية دينية (حديث الأنين) على أنه لا وجود له في صحيح البخاري ومسلم والترمذي. ووصفٌ للدكالي بأنه (محدث المغرب وحافظه)، وذكرت المجلة أن كلا من ابن زيدان والدكالي قد وفدا على قسنطينة. وهناك نقد لاذع لحسن حسني عبد الوهاب على تصريح إذاعي له اعتبر أنه في صالح فرنسا.

وفي باب الشخصيات أيضاً إشادة كبيرة بدور واستشهاد عمر المختار، ودور الثعالبي في تونس والمشرق حتى أن الشهاب انتصرت له ضد من هاجمه من علماء الأزهر عندما دعا (الثعالبي) إلى إصلاح الأزهر[1]. وقد هاجم الإبراهيمي عبد الحي

(1) الشهاب، ابريل 1931.

الكتاني في مقالة شهيرة بعنوان (أفي كل حيّ عِيْرٌ الحي)[1]. كما هاجمت صحف الجمعية مشاركة الكتاني في مؤتمر الزوايا منذ 1939.

أما شخصية التهامي الجلاوي فقد أخذت نصيباً وافراً من الفضح والهجوم لموقفه من العرش العلوي، ومن مساندته للإدارة الاستعمارية على حساب الحركة الوطنية في المغرب. فقد وصفه الإبراهيمي في البصائر على أنه (إبليس ينهى عن المنكر) وفي أخرى على أنه (إبليس يأمر بالمعروف)[2]. وبالطبع هناك إشادة كبيرة بموقف السلطان محمد بن يوسف وبمواقفه لنصرة المغرب وتحالفه مع الحركة الوطنية. وحين رجع السلطان مس منفاه مكللاً بالنجاح، أبرق إليه العلماء مهنئين ثم توجه إليه وفد عالي المستوى للتهنئة باسم الشعب الجزائري. وقيلت في ذلك القصائد ودبجت المقالات[3].

ومن جهة أخرى انتصر ابن باديس لشكيب أرسلان ضد سليمان الباروني. عندما هاجم هذا أرسلان على موقفه من قضية الوحدة العربية وعلاقة المغرب العربي بها، ذلك أن أرسلان قال بأنه إذا تمت الوحدة السياسية في المشرق فيجب أن تبقى مع المغرب العربي الوحدة الثقافية. فرأى الباروني ذلك حطا من شأن المغرب العربي وهاجم أرسلان على ذلك. ولكن ابن باديس أيد أرسلان وقال أنه لا يمكن أن تتحقق الوحدة إلا بين أقطار مستقلة، والمغرب العربي عندئذ غير مستقل، فتكفي الوحدة الثقافية مؤقتاً.

2 ـ الحركات:

ساندت الجمعية الحركات الاستقلالية والإصلاحية والطلابية في الأقطار المغاربية. فقد هاجمت صحفها الاستعمار الإيطالي في ليبيا، وساندت الاستقلاليين هناك منذ الثلاثينات. وكتب الإبراهيمي عدة مقالات بعنوان (ليبيا وموقعها منّا)[4]،

(1) البصائر، عدد 33, 1948.

(2) البصائر، عدد 143, 144 (1951)

(3) انظر بهذا الصدد بحثنا (صورة محمد الخامس في بعض الصحف الوطنية الجزائرية) منشور في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) جـ3، بيروت 1991، وهو أيضاً منشور في وقائع ندوة الرباط الدولية حول شخصية محمد الخامس، الرباط، 1988.

(4) عيون البصائر، دار المعارف، مصر، 1963, 194

تحدث فيها عن تاريخ ليبيا وعلاقتها بجيرانها، وحقوقها عليهم، والمرارة التي تعرضت لها من إهمال الترك واستعباد إيطاليا، وخلف وعود الحلفاء لها، (تأخر استقلالها إلى يناير 1952). وقال: «إن دواء الليبيين هو دواؤنا» واعتبر أن الجزائر مشاركة لليبيا في كل شيء. وقد حذرهم الإبراهيمي بعبارة شهيرة عنه وهي أن لا يكون منهم (سيوف اليمن أو جنرالات تونس، فتلك لا تصلح للضرب، وهذه لا تغني في الحرب). وقد حفلت صحف العلماء بالمقالات والأشعار المهنئة باستقلال ليبيا.

ومنذ 1936 وجدنا في الشهاب تنويهاً بعمل الكتلة الوطنية المغربية والمطالب التي تقدمت بها إلى السلطات الفرنسية (الجبهة الشعبية). والإخبار عن إنشاء الكتلة لمجلة (المغرب) و (الأطلس)، وقد ركزت الشهاب على وحدة المغرب[1].

وطالب ابن باديس بإصلاح جامع الزيتونة الذي كان قد تخرج منه. ورأى أن يقسم التعليم فيه إلى مشترك ومتخصص. ولكل قسم علومه. وطالب بإنشاء فرع للقضاء وآخر للخطابة وثالث للتعليم[2] الخ. وكذلك ساندت الجمعية الاتجاه الإصلاحي في المغرب الذي كان الدكالي أحد ممثليه. وكثيراً ما راسل صحفها شخصيات مغربية مثل المرحوم عبد الله كنون، وتونسية وليبية وحتى بعض الشناقطة (من موريطانيا).

ومعروف أن ابن باديس كان يساند الشيخ الثعالبي بقوة. وقد كان الحزب الدستوري قد انشق منذ 1934. وعند عودة الثعالبي إلى تونس ذهب ابن باديس لتحيته باسم الجمعية. وبهذه المناسبة جرت في تونس احتفالات لابن باديس أيضاً. وتحدثت الصحافة الفرنسية على أن الزعيمين (يتآمران) على الوجود الفرنسي، وأنهما يعملان على وحدة المغرب العربي، وأن المسألة ليست التهنئة بالرجوع، ولا حضور تأبين الشيخ صفر، كما زعمت صحافة جمعية العلماء.

أما بالنسبة للحركة الطلابية فقد وجدنا الجمعية تتبنى مطالب جمعية طلبة شمال أفريقية التي كان مقرها باريس. فقد عقدت جمعية الطلبة خلال الثلاثينات مؤتمرين في الجزائر، أحدهما في العاصمة سنة 1932 والثاني سنة 1936 في تلمسان. ونستطيع أن نقول أن جمعية العلماء قد «وظفت» المؤتمرين لصالحها وذلك بحضور العديد من

(1) الشهاب، يوليو 1936.

(2) الشهاب، اوت 1930، اكتوبر 1931 .

شخصياتها، والخطابة فيهم واسداء النصائح لهم الخ. وقد كان على رأس الحاضرين والمؤتمرين الإبراهيمي وابن باديس والعقبي. وفي مؤتمر آخر عقد في تونس حضر الزاهري ممثلاً لجمعية العلماء، وقدم تقريراً هاماً حول التعليم.

وبعد الحرب الثانية كتب الإبراهيمي مسانداً إضراب الطلبة الزيتونيين من أجل إصلاح التعليم[1]، وهو الإضراب الذي دام فترة طويلة، وظهرت على أثره (حركة صوت الطالب الزيتوني). وقد جاء في مقالة الإبراهيمي الطويلة «أإضراب ما صنعتم أم إطراب؟».

3 ـ القضايا:

أبرز القضايا التي شهدها المغرب العربي منذ تأسيس جمعية العلماء هي: الظهير البربري والتجنس والمؤتمر الأفخارستي، والعروبة.

اعتبرت صحف الجمعية الظهير البربري محاولة استعمارية للإساءة إلى وحدة شعوب المنطقة والطعن في الإسلام والثقافة العربية، لأن الفكرة انطلقت في عهد كان فيه الاستعمار يقوده المستشرقون الحاقدون على انتشار الإسلام وحضارته. ومثلهم المبشرون الذين يحتمون بالكنيسة والبابوية والقساوسة، وتدعمهم السلطات المحلية الفرنسة. وقد كان المؤتمر الأفخارستي الذي انعقد بتونس قمة في الإساءة إلى أهل المغرب العربي وفي تحدي المشاعر الإسلامية. وقد انعقد نفس المؤتمر في دورة أخرى بالجزائر.

أما التجنس فنذكر أن الشهاب[2] قد أخبرت أن جمعية طلبة شمال أفريقيا بباريس رفضوا عضوية المتجنسين، وجاءت على مسامرة لأحمد بلا فريج حول الموضوع. وأيدت أن المسلم الذي يترك الشريعة لا يعتبر مسلماً، وأن المتجنس وإن كان مسلماً بالعقيدة فإنه قد رفض النظام الاجتماعي الإسلامي. ولابن باديس في التجنس فتوى صدرت سنة 1938، كان لها صدى بعيد، وقد هزت السلطات الاستعمارية من الأعماق[3].

(1) البصائر 118 (1950).

(2) ابريل 1930.

(3) البصائر 95، يناير 1938.

وكتب ابن باديس والإبراهيمي وغيرهما مقالات حول عروبة أهل شمال أفريقية، ومنها فكرة الوحدة التي عالجها ابن باديس عند انتصاره لشكيب أرسلان، وكان يدخل في ذلك مقالاته العرب في القرآن ومحمد رسول القومية العربية، وقد رحبت الجمعية بقيام الجامعة العربية، وتنبأت بأن يكون لها أثر على المغرب العربي. ومما كتبه الإبراهيمي في ذلك مقالة بعنوان (عروبة الشمال الإفريقي) وهي مستوحاة من أحداث المغرب[1].

ومن يطالع صحف وخطب وأناشيد جمعية العلماء يجد التيار العروبي قوياً لدرجة أنه تَدَرَّج عند البعض على الأقل، مثل ابن باديس، من العروبة الثقافية إلى العروبة السياسية.

4 ـ اهتمامــات أخــرى:

بالإضافة إلى ما ذكرنا، اهتمت جمعية العلماء بمجريات الحركة الثقافية في المغرب العربي وبتياراته الاجتماعية الدينية. فكانت تتابع بالخصوص حركة الطباعة والنشر في مجال الكتب والصحف. وهكذا نجد الإعلانات عن كتب صادرة ومراجعات لبعضها وأحياناً نجد نقداً لاتجاه ما في هذه المؤلفات. من ذلك الحديث عن كتاب عبد الرحمن بن زيدان (إتحاف أعلام الناس) وهو كتاب يؤرخ للعائلة العلوية بالمغرب الأقصى، معتمداً على وثائق هامة[2]. كما نجد حديثاً عن (الحداد على امرأة الحداد) لمحمد الصالح بن مراد، وهو كتاب معارض للتيار الذي مَشَى فيه الطاهر الحداد في كتابه (امرأتنا والمجتمع) في تونس. بالإضافة إلى الحديث عن (القرآن والقصص) لمحمد البشير النيفر. ونحن نعلم أن بعض رجال جمعية العلماء كانوا يطبعون كتبهم في المغرب أو تونس، ولا سيما الأخيرة، عندما تضيق بهم الجزائر مالاً أو فكراً.

أما الصحف فقد اهتمت جمعية العلماء بما ينشر فيها وباتجاهاتها. وهي تعلم أن بعض هذه الصحف كان محايداً. ولكن بعضها الآخر كان مسنوداً من السلطات الفرنسية نفسها. وكانت بعض الصحف تخضع لرقابة شديدة. وعلى هذا الأساس نوهت البصائر بجريدة (العلم الخفاق) المغربية وبمديرها السيد القباج، وذلك لمقاومتها الرقابة

---

(1) البصائر 150 (1951)

(2) الشهاب، ابريل 1930.

الفرنسية [1] . ويكاد لا يخلو عدد من الشهاب أو البصائر القديمة من نقول أو إشارات إلى جرائد تونس الآتية : النديم ، العصر الجديد، النهضة ، الزهرة [2] إلخ .

5 ـ الخاتمة :

وهكذا يتضح أنه بالرغم من التصريح بعدم التدخل في الشؤون السياسية ، إلا أن جمعية العلماء كانت تناور وتعمل على أن يكون لها موقف «سياسي» في كل قضايا المغرب العربي . فاهتماماتها بالقادة السياسيين والمفكرين ، ومتابعتها لتيارات الحركات الوطنية في كل بلد، وتحمسها لما ينفع وحدة المغرب العربي على أساس العروبة والإسلام والشخصية الحضارية المتميزة عن الحضارة الأوروبية المعجونة بالاستعمار والمسيحية ، كل ذلك يجعل جمعية العلماء في مقدمة الجمعيات والهيئات التي لم تحصر نفسها في قطر واحد، وإنما كانت تعايش الأحداث في كل قطر من أقطار المغرب العربي بنفس الحماس والولاء والاهتمام الذي تنظر به إلى الجزائر. ذلك أنها كانت تعلم أن نجاحها إنما يكون بنجاح مثيلاتها في الأقطار المغاربية وأن فشلها سيكون محققاً إذا فشلت مثيلاتها أيضاً .

الجزائر

(1) البصائر عدد 8 ,1947 .

(2) من ذلك أيضاً نقلها عن مجلة (نور الإسلام) التي كان يصدرها محمد الخضر حسين في القاهرة . انظر الشهاب ، أوت 1930 . ومنه حديث الشهاب نفسها (عدد يوليو 1939) عن جريدة الوحدة المغربية التي أعلنت أنه «لا صداقة للإسلام مع الاستعمار» في إشارة إلى ما يقال عن تنافس الدول الاستعمارية على ودّ المسلمين .

حياة وتراث ابن أبي شنب (*)

عندما يقف المرء على آخر صورة تذكارية لمحمد بن أبي شنب فإنه يرى فيها شيخاً ملتحياً ومعمماً، لابساً السروال «العربي» والبرنس الأبيض، والصدرية الحضرية، والحزام الشُّمْلاَ والحذاء الخالي من الخيوط. وهو يبدو في الصورة بديناً قصير القامة ولكنه عريض الجبهة ذكي العينين. غير أن الصورة لا تقدم سوى الملامح العامة لشخصية ابن أبي شنب. وعلى الدارس أن يعود إلى تراث الرجل الفكري ليعرف من هو؟

فإذا استعرض الدارس قائمة مؤلفات ومساهمات ابن أبي شنب بدا له شخصية كبيرة عاشت في عصر جدير بها وجديرة به. فهو من الجزائريين القلائل الذين حصلوا على الدكتوراه في الأدب العربي في عهد الاحتلال الفرنسي، وأول من تأستذ في كلية الآداب بجامعة الجزائر التي كانت حكراً على الفرنسيين، وأول من دخل منهم المجامع اللغوية وحضر مؤتمرات المستشرقين، وتخرج على يديه عدد من هؤلاء المستشرقين.

ولد ابن أبي شنب سنة 1869 في المديَّة الرابضة على قمة الأطلس، وتعلم فيها أوليات العلوم، بما فيها القرآن الكريم. وكان من تلك الفئة التي مسها الاستعمار بظلمه. إذ حكمت الإدارة الاستعمارية المنتصرة على آلاف الأفراد ومئات العائلات العثمانية، بما فيها المرتبطة بالزواج بعائلات جزائرية، حكمت عليها بالطرد مع تعسف وقمع، وأجبرت الجميع على ركوب سفن حملتها إلى أزمير. فكانت عائلة ابن أبي شنب من البقية الباقية من تلك الزيجات الجزائرية التي يطلق عليها تاريخياً زيجة الكراغلة. وكأني

(*) تصدير كتبناه للطبعة الجديدة من كتابه (تحفة الأدب)، دار الغرب الإسلامي. بيروت 1990 وفي آخر هذا التصدير، كلمة تعقيبية كتبناها سنة 1982، ولم نقدمها للنشر عندئذ.

بمحمد بن أبي شنب الذي كان يعي التاريخ جيداً، قد أصرها في نفسه وأراد أن يتحدى الاستعمار بالعلم، ويكون نداً بل أستاذاً لأساتذة هذا الاستعمار وشيخاً لمستشرقيه. فهو يعرف أن الجهل بمفهومه العام هو السبب الرئيسي في ضياع الجزائر سنة 1830 وطرد وهجرة الآلاف من أهلها.

تدرّج ابن أبي شنب في التعليم، فانتقل إلى العاصمة، والتحق بالمدرسة النورمالية، فكان من بين الجزائريين القلائل الذين دخلوها. وصادف ذلك بداية التحول في الفلسفة الاستعمارية نحو تعليم «الأهالي». فبعد أن كانت هذه الفلسفة تقوم على حرمانهم من التعليم حتى لا يستيقظوا، أخذت في التغيّر لتفسح المجال أمام فكرة تكوين «نخبة» من هؤلاء الأهالي، تكون هي صلة الوصل بين الفرنسيين والجزائريين، وتصبح هي الرائدة لإدماج الشعب الجزائري في فرنسا. وهكذا كان ابن أبي شنب من نتاج الفلسفة الاستعمارية الجديدة. فهل حقق للفرنسيين ما كانوا ينتظرون من أمثاله؟

هنا تحضر صورة الرجل التي بدأنا الحديث بها. فقد كان مظهره ضد سياسة الاندماج المخططة، وكأن صورته تقول لفلاسفة الاستعمار: إن الشعب الجزائري متميز عن الشعب الفرنسي بأشياء كثيرة، ومنها اللباس. فبعض الناس ينظرون إلى تلك الصورة على أنها نوع من التحدي الصامت. ولكن العبرة ليست باللباس طبعاً بل بالأفكار والمواقف. فما هي أفكار ومواقف ابن أبي شنب؟

يمتد إنتاج ابن أبي شنب عبر أكثر من ثلاثين سنة. فآثاره بدأت تظهر في المجلة الأفريقية منذ أواخر القرن الماضي، واستمرت في الغزارة والعطاء إلى سنة وفاته، 1929. وقد تمثل إنتاجه في المجالات الآتية:

1 ـ التـدريـس:

فقد كان من أساتذة المدرسة العربية ـ الفرنسية بمدينة قسنطينة ثم الجزائر، ثم انتقل منها إلى كلية الآداب. ومن أساتذته الذين أثروا في حياته رينيه باسي، عميد مدرسة الآداب العليا منذ تأسيسها (1880) حتى وفاته، 1924. وقد أبّنه ورثاه ابن أبي شنب بأحر العبارات، وكان وفياً له أشد الوفاء. ويعتبر (باسي) أيضاً عميد الاستشراق الفرنسي في عهد ازدهاره (نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن)، إذ كان يكتب بغزارة

عن التراث العربي الإسلامي للجزائر، وكان موفد السلطات الفرنسية إلى تونس والمغرب والسينيغال وغيرها لخدمة أغراض علمية في الظاهر استعمارية في الخفاء.

2 ـ نشر التراث:

قام ابن أبي شنب بعمل جبار في نشر التراث العربي ـ الإسلامي. ولا سيما ذلك الذي أنتجه الجزائريون أنفسهم، ويبدو أن ميوله الشخصية قد ساعدته على ذلك، لأننا نجده قد تخصص في التراث حتى في تحضير رسائله الجامعية، إذ كانت اطروحة الدكتوراه عن أبي دلامة وشعره.

وبالإضافة إلى الميول الشخصية هناك الحوافز. ذلك أن العهد الذي نشر فيه ابن أبي شنب جهوده في تحقيق التراث هو عهد الوالي العام شارك جونار. وهذا الوالي رغم أنه كسياسي كان يخدم الفلسفة الاستعمارية التي أشرنا إليها، إلا أنه شجع أحيا الآثار العربية والإسلامية للجزائريين ورصد المال لنشرها ووفر الشروط للبحث عنها. وقد ساهم في هذه العملية التي بدأت منذ حوالي 1903، عدد من الجزائريين والمستشرقين ولكن أبرزهم هو ابن أبي شنب. ولا يتسع المجال هنا لذكر كل الأعمال التي حققها ونشرت أثناء حياته، ولكن يمكن الإشارة إلى أنه هو الذي نشر رحلة الورتلاني مقابلا على عدة نسخ، والبستان لابن مريم، وعنوان الدراية للغبريني، ونبذة من رحلة ابن عمار، وغيرها. وقد اتبع في التحقيق مناهج المستشرقين الجديدة، فكان يقابل النصوص ويعلق عليها ويفهرس الكتب وينبه على الأخطاء بطرق علمية.

3 ـ المساهمات العلمية:

كان ابن أبي شنب موهوباً في اللغات أيضاً. والذي درس اللغات الأجنبية يتأكد أن إتقان لغة أو لغات إنما يقوم على الموهبة أولاً والكدّ ثانياً. ويظهر أن الاثنين قد اجتمعا في ابن أبي شنب، ذلك أن مترجميه يذكرون أنه كان يحسن عدة لغات أوروبية وشرقية حية وميتة. وقد ساعده ذلك على تحقيق المسائل، ولا سيما عند مشاركته في الموسوعات ودوائر المعارف، كما ساعده على الأبحاث اللغوية، ومن ذلك دراسته التي سجل فيها بقايا الألفاظ التركية والفارسية في الجزائر، ومشاركته في مؤتمرات

المستشرقين بالجزائر ولندن واستوكهولم، وعضويته في المجمع العلمي العربي بدمشق ومراسلاته مع علماء العصر.

لقد ترك ابن أبي شنب مؤلفات كثيرة يجدها المرء مفصلة في ترجمة حياته في كتب التراجم. وما يزال بعضها مرجعاً للباحثين إلى اليوم. ومنها (تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب) الذي أعيد طبعه عدة مرات. ولقد أحسن صاحب دار الغرب الإسلامي صنعاً في إصدار طبعة حديثة منه لأن الحروف الطباعية قد تغيرت إلى أفضل كما تغيرت حياة الإنسان. ويبدو أن أقبال الناس على هذا الكتاب، قد جعله من حسنات أبن أبي شنب. ونحن لا نشك في أن هذا العمل جاء نتيجة لممارسته الطويلة للتعليم. ورغم ظهور مؤلفات أخرى في نفس الموضوع فإن تجربة ابن أبي شنب وحسن اختياراته وتصنيفاته قد جعلته في المقام الأول من بينها.

وأن تفرغ ابن أبي شنب للتدريس والتأليف وتحقيق التراث والإسهام العلمي جعله لا يشارك أو لا يهتم بما يجري حوله من تطورات سياسية سواء في بلاده أو في الوطن العربي والإسلامي. فرغم أن فترة نضجه العقلي كانت هي فترة مخاض الحركة الإصلاحية في المشرق والتوسع الاستعماري في المغرب العربي، ثم يقظة الشعوب وظهور القيادات الوطنية بعد مؤتمر الصلح، وثورة روسيا ومبادىء ويلسن، وبروز شخصية الأمير خالد في الجزائر، فإن ابن أبي شنب لم يحرك ساكناً، فيما يبدو.

ولقد كتبت مرة مقالة عن مراسلات ابن أبي شنب مع الشيخ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق[1]، وقلت فيها أنه (ابن أبي شنب) كان في ضوء ما ذكرت من المعطيات، صنيعة الاستشراق الفرنسي، اسلوباً عندما يكتب، وتحركاً في دائرة التراث بما يخدم أهدافهم (وهو ليس الوحيد في ذلك، وما يزال غيره بيننا إلى اليوم ولكن في أثواب جديدة). ولكن كلامي لم يعجب البعض فرد علي رداً أترك للقراء الحكم عليه[2]. وكان الأولى بالرد والإيضاح هو الكلام الخطير الذي كتبه عنه المستشرق الفريد بيل الذي كان تلميذاً ذكياً لابن أبي شنب، فقد جاء في كلمة التأبين أن ابن أبي شنب كان وطني المظهر فرنسي المخبر، وأن فرنسا كانت تثق فيه وترسله في مهمات

(1) انظر كتابنا تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر 1983، ص 75 - 88.

(2) انظره في مجلة الثقافة عدد 65 (سبتمبر - اكتوبر 1981).

دقيقة، ولذلك كافأته بالأوسمة ورموز الاعتراف بالجميل ولعل (بيل) كان يحسب أنه بذلك يحسن صنعاً مع شيخه[1].

إن التاريخ لا يرحم المنحرفين، والذي يمشي دون أن تتحسس خطاه نبض الأرض التي يسير عليها قد يقع في الفخ حتى بعد أن تغيبه القبور وتختفي صورته عن الأنظار.

وليس ضرورياً أن يمارس المرء السياسة ولكن من الضروري أن يكون له موقف منها، وقد عرفنا أن ابن أبي شنب قد اتخذ من الوجهة الوطنية، موقفاً تمثل في محافظته على هندامه العربي الإسلامي وسط دعاة الاندماج الظاهري والباطني، كما تمثل في حرصه على نفض الغبار عن أكبر نصيب من المؤلفات العربية الإسلامية التي أنتجها الجزائريون أيام الحكم الإسلامي الزاهر. كما كان في المحافل العلمية الدولية، رغم التأويلات، رمزاً لذلك العالم العربي المسلم الذي أنجبه الأطلس الأشم، ومدينة المدية المتحضرة والمحافظة أشد المحافظة، والجزائر الكريمة رغم فقرها والحرة رغم قيودها.

الجزائر في 1990/7/24.

(1) الفريد بيل (المجلة الآسيوية)، عدد 214, 1929، ص 359 - 365.

حول ابن أبي شنب

نشرت مجلة الثقافة في عددها 65 (سبتمبر ـ أكتوبر 1981) تعقيباً لأحد قرائها على مقالتنا (من رسائل ابن أبي شنب إلى محمد كرد علي) المنشورة في هذه المجلة عدد 53 (سبتمبر ـ أكتوبر 1979).

ونود أن نلاحظ أن صاحب التعقيب لم يأت بما ينقض حكمنا على المرحوم محمد بن أبي شنب من أنه كان تحت طائلة الاستشراق الأوروبي عموماً والفرنسي خصوصاً. والوثيقة التي نشرها المعقب تؤكد أيضاً ما ذهبنا إليه. ذلك أن المجمع العلمي العربي بدمشق كان منعقداً (سنة 1924) في ظل البنادق الفرنسية، ولذلك أوقف جلسته خمس دقائق حداداً على المستشرق الاستعماري الكبير، رينيه باسي، أستاذ ابن أبي شنب، كما انتخب (أي المجمع) المستشرق الاستعماري الآخر، هنري ماسي، مرشح ابن أبي شنب «بإجماع الآراء اعتماداً على شهادتكم الصادقة وثقتكم التامة». وما تولّي محمد كرد علي، رئيس المجمع، الوزارة في عهد الانتداب الفرنسي إلّا جُزْءاً من هذه الرواية!

ومن جهة أخرى أخبر صاحب التعقيب أن عائلة ابن أبي شنب ما تزال تملك رسائله وأن له آثاراً تعد بـ 65 عنواناً. وقد كان الأحرى بالمعقب، ما دام يعرف كل هذا، أن يكتب مقالة يذهب فيها عكس ما ذهبنا إليه، مستنداً في ذلك على وثائق العائلة والآثار التي يعرفها له، ومبرزاً من خلالها مواقف ابن أبي شنب الوطنية. إن كثرة المنشورات عن التراث العربي الإسلامي، لا تعبر في حد ذاتها ـ على موقف وطني. ذلك أن بعض المستشرقين (ومنهم رينيه باسي نفسه) قد تفوقوا على ابن أبي شنب في عدد منشوراتهم في هذا الميدان.

ونود أيضاً أن نذكر بأن صاحب التعقيب قد فهم من كلمة «مدرسة» في مقالتنا،

المبنى الذي ينشر فيه التعليم، بينما المقصود منها «المدرسة الثقافية والسياسية» التي ينتمي إليها ابن أبي شنب. وبذلك ينتفي استنتاجه الذي أقامه على فهم المدرسة - المبنى.

وقد كنا عالجنا موضوع هذه المدرسة الثقافية - السياسية في بحث مطول عنوانه (مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1830 - 1954) وهو منشور في (مجلة معهد البحوث والدراسات العربية) التي تصدر بالقاهرة عدد 9، ص 43 - 79.

هذا وسنظل على استعداد لمراجعة حكمنا على الشيخ ابن أبي شنب متى كشفت الوثائق عن دوره المجهول في خدمة القضية الوطنية.

الجزائر أول مارس 1982

صدى دعوة خير الدين باشا التونسي في الجزائر (*)

الظاهر إنني كنت متفائلاً عندما اخترت هذا الموضوع، فقد حسبت أن المعاصرين قد تناولوا بإسهاب دعوة خير الدين التونسي الإصلاحية بالمدح والقدح، وأن الصحف المحلية قد تكون ترجمت لحياته وتعرضت لآرائه بإطناب.

ولكن البحث الأولي الذي قمت به دلني على ندرة المتناولين لحياة خير الدين. وأقول «الأولي» لأنني لم استقص كل المراجع والمظان. ولم يقدني هذا البحث الأولي إلا إلى الأصداء التالية:

1 ـ نشرت جريدة (المبشر) الرسمية كتاب (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) على حلقات، ابتداء من أول أكتوبر سنة 1868. وهذه الجريدة كانت تصدر بالعربية والفرنسية، وكانت مقروءة، خصوصاً لدى الموظفين في الإدارة الاستعمارية، مثل القياد والقضاة والعلماء والمترجمين. وهكذا اطلع هؤلاء على (أقوم المسالك) وأفكار خير الدين فيه من خلال (المبشر) لأن الكتاب نفسه كان عزيزاً على الكثير من القراء.

2 ـ تحدث الشيخ عبد القادر المجاوي حديثاً مقتضباً عن خير الدين وكتابه في رسالته المسماة (إرشاد المتعلمين) المطبوعة بمصر سنة 1877. وكان الشيخ المجاوي قد اشتغل بالتدريس سنوات طويلة حتى أصبح يدعى (شيخ الجماعة) لأنه أخرج أجيالاً من

(*) هذا البحث القصير ساهمنا به في ندوة عن خير الدين باشا التونسي، عقدت في تونس خريف 1990 أما الفقرة الخاصة بمراسلة الأمير عبد القادر وخير الدين فقد أضفناها بعد عامين بالضبط من كتابة البحث.

المتعلمين في القضاء والترجمة والتدريس والصحافة. وكان من أعمدة مدرستي قسنطينة والجزائر المزدوجتي التعليم.

وحديثه عن خير الدين جاء عرضاً أيضاً، ولم يكن لذاته. ومع ذلك فقد شكك المجاوي في نسبة (أقوم المسالك) إلى خير الدين وفي قدرته على تحقيق الإصلاح المنسوب إليه. فقال عن شخص خير الدين أنه «أحد المماليك الناشئين بتونس.» وقال عن الإصلاح وتولية خير الدين الوزارة: لقد «ظن الناس أن بتوليته تنتفع البلاد والعباد.» وهذا تلخيص واضح للرأي العام من جهة، ومن جهة أخرى لكون المجاوي كان يرى ما يرى هؤلاء الناس في محاولة خير الدين تطبيق مبادىء الإصلاح.

أما عن التشكيك في نسبة (أقوم المسالك) إلى خير الدين فقد جاء في العبارة التالية وهي أن الرأي العام (ويطلق عليه كلمة «النّاس») كان يرى أن خير الدين كان سيصلح الأحوال لأنه هو صاحب الأفكار التي بثها كتابه أقوم المسالك. «ولكن المجاوي استعمل عبارة التشكيك الآتية وهي أن الناس استدلوا على عقيدة الإصلاح عند خير الدين «بنسبة المجموع المسمى أقوم المسالك في أحوال الممالك إليه.» ولم يقل المجاوي رأيه صراحة في أن (أقوم المسالك) من تأليف خير الدين أو من تأليف غيره، وإنما ترك موضوع الشك مفتوحاً. والغريب أن المجاوي نفسه كان من رواد الإصلاح في ميدان التربية والتعليم وفي ميادين أخرى اجتماعية ذكرها في رسالته (إرشاد المتعلمين).

3 ـ ورغم ذلك فإن هذه الرسالة الصغيرة (32 صفحة) قد احتوت على قصيدة طويلة وقوية في مدح خير الدين باشا التونسي. والقصيدة ليست للشيخ المجاوي ولكنها للشيخ إبراهيم سراج المدني الذي كان يعيش في الحجاز، ولكنه شأن بعض علماء المسلمين عندئذ كان يتتبع أحوال العالم الإسلامي ويعجب ببعض قادته ويعبر عن غيرته على الإسلام أمام الغزو الأوروبي الذي انطلق بالخصوص بعد مؤتمر برلين الشهير(1878).

والقصيدة، رغم طولها، مختصرة، إذ تتخللها عبارة المجاوي «ومنها» التي تدل على أنه قد حذف منها نصيباً لا نعرفه. ومهما كان الأمر فالمذكور منها بلغ 51 بيتاً. ومطلعها:

أهاجكَ رسمٌ من تهامة داثرُ   عفتْها الليالي ساعفتها المواطر

وبعد الحديث عن النفس وغزل طويل على عادة القدماء، تخلص الشاعر إلى مدح خير الدين قائلاً:

فيا ليلة قد أوْهَنَ السيرُ عزمَها ظلامك قد أغْفى ونجمك ساهر
كـأن لـه مثلي اشتيـاقَ مبّـرح تتـوق لخير الـدين منه المنـاظر

وتستمر القصيدة في مدح خير الدين وتذكر أخباره. من ذلك أنه آوى إلى الخلافة (الآستانة) وأنه آزر الدين، وأنه أنجد «من دارت عليه الدوائر» وقد جعله أشهر مَنْ بأفريقية، وقال إن أوروبا قد اعترفت به بأنه أوحد تونس وحليف المعالي، وأنه سيحيي عهد (ديدون) وعهد من جاء بعدها (العهد الإسلامي)، كما أن أوروبا قالت، حسب الشاعر، أن خير الدين سيحذو حذو مدحت باشا في تطبيق القوانين الشرعية.

وقد اعتزّ الشاعر بهذه الأخبار عن خير الدين. وقال أنه كعَربي اعتبر ما قيل عن خير الدين من «البشائر». وكان الشاعر صريحاً في قوله أنه في مدحه لخير الدين قد خالف جل الذين عارضوه واعتبرهم من الجاهلين. ومن الأسباب التي جعلته يعجب بخير الدين أن هذا وقف مع مدّ خط حديد باجة، إذ في ذلك تحصين لتونس. ثم اتجه إلى خير الدين فناشده أن يأخذ بيد الصنّاع في تونس، وأن يطبق في ذلك ما جاء في كتابه (أقوم المسالك). واعتبر نجاح خير الدين في مهمته مجداً للعرب جميعاً وشرفاً لهم.

ولقائل أن يقول: ما لهذه القصيدة والحديث عن صدى خير الدين في الجزائر. والحقيقة أن الذي دعانا إلى الإشارة إلى القصيدة هو جلب الشيخ المجاوي لها وجعلها في رسالته التي مجد فيها العلوم الحديثة ونادى فيها بالإصلاح الاجتماعي. وقد أعتبر المجاوي قصيدة إبراهيم سراج المدني في خير الدين من الشعر الذي «يستحق أن يُكْتَب بالخناجر على الحناجر». ولا شك أن تلاميذه قد تأثروا بها.

بقي أن نقول إننا لا ندري ما إذا كانت هذه القصيدة منشورة في غير المصدر المذكور، فإذا انفردت بها رسالة (إرشاد المتعلمين)[1] فالأولى بها أن تذاع وتنشر على الناس. وقد فكرنا في جعلها ذيلاً لهذه الكلمة، ثم عدلنا عن ذلك خوفاً من أن تكون مطبوعة في آثار الشاعر نفسه.

---

(1)انظر (ارشاد المتعلمين)، ط. المطبعة الوهبية، مصر، 1294 هـ، ص 18 - 19.

4 ـ يعتبر حسن بن بريهمات من أعيان علماء الجزائر خلال منتصف القرن الماضي فهو بالإضافة إلى أنه من العائلات الحضرية التي توارثت العلم والجاه، قد خالطت أيضاً الفرنسيين في تعليمهم وحضارتهم. وقد تولى من الوظائف الرسمية إدارة المدرسة العربية ـ الفرنسية لمدينة الجزائر. فلا عجب إذن أن يكون من أنصار فكر خير الدين التونسي وأن يشيد بكتابه (أقوم المسالك).

ورغم أن ابن بريهمات ليس من الشعراء المشاهير فإنه عبر عن إعجابه (بأقوم المسالك) شعراً. وذلك في أبيات بعثها إلى خير الدين سنة 1284 (1867). وليس قوة التعبير ولا قوة الشاعرية هي التي تهمنا هنا، ولكن روح القائل ومحتوى قوله. فقد نوه ابن بريهمات بشخصية خير الدين وباختياره منهج الإصلاح في السياسة والانتصار للدين والوطن. وقد امتدحه على أن ما جاء به من أفكار في الإصلاح إنما هو طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية مع مراعاة حال الناس والعصر. ولذلك استوجب الشكر من الجميع.

يقول ابن بريهمات في ذلك:[1]:

لله درك خيــر الــدين من عَلَم   أبدى منارَ الهدى للناس في القُنَنِ
نهجت نهجاً قويمـاً قلّ سـالكه   إلى السياسة كي ينجو من الفتن

وقد اعتبر ما جاء في (أقوم المسالك) عبارة عن «نصيحة» توجه بها خير الدين للمسلمين كافة، ولذلك خاطبه الشاعر بقوله:

نعمْ على الشرع قد بيّنْتَ ضابطها   مراعيا فيـه حال النـاس والزمن
حقٌ على أمة الإسلام شكـرُكُمُ   ورْعي تـأليفكمْ بـالقلبِ والأُذن

ونظراً إلى أن حسن بن بريهمات كان من أبرز المدرسين وممن لهم تلاميذ وأتباع، فإننا نتوقع أن تكون الإشادة بتأليف خير الدين قد توسعت لتشمل أيضاً هؤلاء التلاميذ والأتباع.

5 ـ وفي سنة 1901 زار الجزائر وفد مغربي حكومي ونزل ضيفاً على الوالي العام، ريفوال، ممثل السيادة الفرنسية. كان الوفد المغربي برئاسة محمد القباص (الجباص):

---

(1)القطعة مذكورة في (تعريف الخلف برجال السلف)، جـ119/2، وهي في 14بيتا.

وتنفيذاً لمشاريع الإصلاح التي كانت فرنسا تريد من سلطان المغرب تطبيقها، أمر الوالي العام أن يُحَضَّر للوفد الزائر «مجموع مشتمل على قوانين مفيدة وتنظيمات سديدة» وكُلِّف الشيخ مصطفى خوجة المعروف (الكمال)، أحد أعيان العلماء في الجزائر عندئذ بتهذيب هذا المجموع[1].

ومما يلفت النظر هو أن الشيخ الكمال كتب في المجموع المذكور عبارة قصيرة ولكنها واضحة الدلالة على إعجابه بأفكار خير الدين وبكتابه (أقوم المسالك). فقد قال عن التراتيب الإدارية الجديدة التي كانت فرنسا تريد من السلطان أن يعمل بها في المغرب «ومَنْ أَحَبَّ أن يستوفي هذا الموضوع بزيادة التفصيل والإيضاح، فعليه بمراجعة أقوم المسالك للوزير خير الدين. . .» ثم ذكر بعده أعمال الطهطاوي وعلي مبارك «وما أشبهها من الكتب النفيسة». وفي هذا إشادة واضحة بأقوم المسالك واعتباره من الآثار «النفيسة».

ولا غرو في ذلك، لأن الشيخ مصطفى الكمال كان من تلاميذ الشيخ محمد عبده المتحمسين، وكان من قراء (المنار) ومن أبرز المترجمين وكتاب الصحافة المعاصرة. وقد ترك كتباً تسير في هذا الاتجاه الإصلاحي، مثل كتابه (الاكتراث بحقوق الإناث) الذي أبرز فيه حقوق المرأة في الإسلام، وله عمل آخر نفي فيه التعصب عن الإسلام.

وحين أراد الشيخ الكمال أن يصف رئيس الوفد المغربي محمد القباص، قال عنه أنه «مشغوف بحب المعارف والتفنن، والتقدم العصري والتمدن». وأنه طلب من الوالي العام الفرنسي أن يطلعه على قوانين التصرفات في الأوطان الجزائرية. . . فأسعفه بها مترجمه إلى اللغة العربية. كما استحضر له في هذا الصدد بعض التنظيمات التونسية»[2].

ولا شك أن بعض الصحف والوثائق والمذكرات وحتى الكتب قد اشتملت على آراء وتعاليق المعاصرين عن أطروحة خير الدين أو دعوته إلى الإصلاح، ولكن وقتنا لم يسمح لنا بمواصلة البحث والاطلاع. ونحن نقول «لا شك» لأن الأطروحة المذكورة

---

(1) ط. فونتانة، الجزائر، 1902. و (التهذيب) قد يعني الترجمة أو الصياغة العربية.

(2) مصطفى الكمال، مجموع مشتمل على قوانين مفيدة. . . .، ص 3, 14.

كانت توافق الاتجاه الفرنسي الذي كان يحث النخبة الجزائرية على الأخذ به، كما كانت توافق الاتجاه الإصلاحي الذي بثته حركة الجامعة الإسلامية، وعلى الخصوص اتجاه محمد عبده الذي تبناه عدد من علماء الوقت في الجزائر أمثال المجاوي والكمال وابن الموهوب.

* * *

بين الأمير عبد القادر وخير الدين باشا التونسي:

بعد كتابتنا لهذا البحث القصير انتبهنا إلى وجود مراسلات بين الأمير عبد القادر وخير الدين باشا التونسي. فقد احتوى كتاب (تحفة الزائر) الذي هو من تأليف الأمير محمد بن الأمير عبد القادر، على وثائق هامة حول الموضوع الذي نحن بصدده. ونلاحظ عابراً أن الأمير كان يكاتب أعيان تونس ـ ولاسيما الوزراء: مصطفى خزندار، ومحمد البكوش، ومصطفى بن إسماعيل، ورستم باشا، . . . وأهم موضوعات المراسلة معهم كانت بشأن أهالي الجزائر بتونس، وخصوصاً عائلة المقراني ومن تبعهم من الأنصار إلى تونس بعد ثورة 1871.

ونظراً لقيمة الأمير الجهادية والعلمية في المشرق، فقد أهدى إليه خير الدين نسخة من كتابه (أقوم المسالك)، ومعها خطاب خاص. وقد عرفنا أن طبع هذا الكتاب قد حصل سنة 1867. ولم يسع الأمير إلا الإشادة (بأقوم المسالك) وبصاحبه، وذلك في رسالة شكر وتنويه إلى خير الدين، معتبراً إياه، من المدافعين عن الشريعة الإسلامية في كتابه: «ثم إنك حميت ضمار الشرع المحمدي وعضدته، وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته، وذلك بما قررتموه من أن الشريعة المطهرة لائقة بكل زمان، صالحة للحكم بها في كل أوان».

كما نظر الأمير إلى (أقوم المسالك) على أنه كتاب يبهر العقول، لتناوله «فنون المعارف»، «وقضايا المعقول والمنقول. فاتفقت القلوب على تفضيله» وأخبر مؤلفه أنه قد اتخذه «مرتع ناظري، ومنتعش خاطري». ورغم عموميات هذه الألفاظ فإن القارىء يلاحظ أن الأمير لم يعجب فقط بما جاء في الكتاب من دفاع عن الشريعة الإسلامية ولكن أيضاً بما حواه من دعوة للأخذ بأسباب الحضارة الغربية فيما لا يخالف قوانين الشريعة.

وفي مراسلة أخرى من الأمير إلى خير الدين أثناء وزارته بتونس، دعوة لزيارته في الشام عندما يأتي (خير الدين) لزيارة «المقدسات». وكان خير الدين إذاك في زيارة لاسطانبول. وهناك رسالة من خير الدين إلى الأمير أشاد فيها بالدولة العلية ومقامها بدل جواب الأمير عما طلب إليه. ومن جهة أخرى فقد أهدى الأمير إلى خير الدين تحفاً دمشقية ثمينة عندما كان وزيراً أعظم باسطانبول وأرفق الهدية بخطاب. وقد رد خير الدين بالشكر ومدح خصال الأمير. ولعل آخر هذه المراسلة تلك الرسالة التي عزي فيها خير الدين الأمير محمد، الابن الأكبر للأمير عبد القادر، على وفاة والده.

ويتضح من كل ذلك أن بين الأمير وخير الدين علاقات علمية وسياسية، وهي ليست من العلاقات الروتينية، بل كانت تمس حال المسلمين وأحوال الدولة العثمانية والمهاجرين الجزائريين إلى تونس فارين من ظلم الاستعمار الفرنسي. وإذا عرفنا أن هذه المراسلات قد بدأت، حسبما جاء في (تحفة الزائر) منذ صدور (أقوم المسالك) فإننا إذن مضطرون إلى اعتبار هذا الكتاب هو الداعي الأساسي لتبادل الرسائل والهدايا وعبارات الإعجاب بين الرجلين[1].

الجزائر في 1990/7/22

(1) انظر الأمير محمد باشا (تحفة الزائر. . .) ط. الإسكندرية، 1903، جـ 196/2 - 199 ,252.

رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش

(القرن 18 م)

إذا كانت مهمة الأوراق المقدمة في مثل هذه المناسبة العلمية هي الكشف عن الجديد(*) فإن مهمة ورقتي ليست كذلك، فيما أزعم، وإنما هي الكشف عن هوية رسالة في الفلك منسوبة إلى عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري. ونحن نقول «منسوبة» لأن البحث قد يكشف أن دوره فيها لا يعدو نقلها من أصلها وتعريف معاصريه بها في بيئة غابت فيها المطابع ووسائل التعريف بإنتاج القدماء على أوسع نطاق.

عندما قرأنا في فهارس المخطوطات أن لابن حمادوش رسالة في الكرة الفلكية وأن نسخة منها توجد في المكتبة الملكية بالمغرب الأقصى، حرصنا كل الحرص على الحصول على نسخة منها لنضيفها إلى رصيدنا عنه[1]. ومما زاد من حرصنا على امتلاك نسخة منها أو الاطلاع عليها، أنه هو نفسه كرر في رحلته، الحديث عن اهتمامه بعلم الفلك وصورة الأرض والأرباع وغير ذلك. وهكذا سعينا إلى أن حصلنا على نسخة من الرسالة المذكورة. فلما أخذنا في قراءتها اعتقدنا لأول وهلة أنها من صنع ابن حمادوش نفسه، وأننا أمام عمل جديد بالنسبة لعصره، وأن له هو الفضل الأول في الرجوع إلى كتب الأقدمين وتبويب الرسالة إلى فصول، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة، خصوصاً

(*) بحث ساهمنا به في المؤتمر الثالث حول تاريخ الرياضيات العربية، الجزائر، ديسمبر 1990.

(1) المكتبة الملكية بالرباط ـ المغرب، رقم 1573 ضمن مجموع من ورقة 136 - 166. وبهذه المناسبة أود أن أشكر الأستاذ عبد العزيز فيلالي، الأستاذ بجامعة قسنطينة، على تفضله بتصوير المخطوطة وجلبها لي معه من المغرب. وكان الأستاذ إبراهيم بن مراد (من تونس) هو الذي نبهنا على وجود المخطوطة بالمغرب. والأستاذ ابن مراد مهتم أيضاً بابن حمادوش وهو يحقق معجمه في الأعشاب والعقاقير ويدرس الألفاظ الأعجمية فيه.

وأن العبارات نفسها توحي بذلك، إذ جاء في الفاتحة: «يقول عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادرش... الحمد لله الذي جعل كورة (كذا) العالم دليلاً على وحدانيته...».

ولكن زميلنا الأستاذ أحمد جبار شك، بعد اطلاعه على الملخص الذي قدمناه للمشرفين على الملتقى، في أن تكون العبارات التي سقناها من الرسالة لابن حمادوش، وأبدى الأستاذ جبار تطلعه في أن يكون هناك من علماء المسلمين من بقي على صلة مباشرة بكتب اليونان في عصر ابن حمادوش[1] (القرن 18 م). ولكن شكه جعلنا أيضاً نتوقف عن نسبة الرسالة إلى ابن حمادوش في انتظار الاطلاع على مصادر جديدة، وقراءة جديدة للرسالة نفسها. وبالإضافة إلى ذلك أرسل إلينا الأستاذ جبار شريطاً لنسخة أخرى من الرسالة المنسوبة لابن حمادوش[2]، كما ألحقها بصورة من الباب السابع من كتاب (جامع المبادىء والغايات في علم الميقات) للحسن المراكشي[3]. فكانت النتيجة إعادة

---

(1) رسالته إلى أخينا خالد سعد الله، أول أوت 1990 من باريس. والأستاذ جبار هو الذي نبه إلى أن المراكشي الذي يشير إليه ابن حمادوش قد يكون هو الحسن بن علي بن عمر، صاحب كتاب (جامع المبادىء والغايات في علم الميقات)، ثم تأكد من ذلك في رسالة أخرى منه إلى أخي بتاريخ 13 أوت 1990 من باريس أيضاً. إذ لاحظ أن ما جاء في خلاصتي يتطابق مع ما وجده في مخطوطة كتاب المراكشي المحفوظة في مكتبة أحمد الثالث رقم 3343 باسطانبول. ثم تفضل وأرسل نموذجاً للمقارنة من عناوين فصول الباب السابع من كتاب المراكشي.

(2) شريط رقم 9598 مكتبة المتحف البريطاني.

وقد صورناه على الورق الصقيل. فإذا فيه 23 ورقة. وحرفه أجمل من حرف النسخة الأولى (الملكية) وناسخه أصح أسلوباً. وهو يبتدىء نفس البداية: «يقول عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادوش... الخ. وفيه ورقتان مكررتان. والناسخ غير مذكور، ولكن تاريخ النسخ هو سنة 1199 (1784) فلا ندري هل هو أيضاً منسوخ عن النسخة التي بخط ابن حمادوش أو عن نسخة أخرى.

(3) وذلك بتاريخ 13 نوفمبر 1990. وبفضل هذه الصورة تمكنا من عقد المقارنة بين نص المراكشي ونص ابن حمادوش. وقد قال أن الصورة مأخوذة من facsimile من تحقيق فؤاد سيزكين سنة 1984 في مجلدين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت سلسلة ج ـ عيون التراث، مجلد 1/1 و 2/1. والصورة التي أرسلها الأستاذ جبار من الباب السابع تبدأ من صفحة 202 وتنتهي إلى صفحة 245.

النظر في فكرة الخلاصة التي قدمناها أول مرة للمشرفين على الملتقى، وكتابة هذه الورقة في ضوء ما درسناه عن حياة وأعمال ابن حمادوش وما قدمته لنا المراسلات المذكورة حول الرسالة المنسوبة إليه.

* * *

أما حياة وأعمال ابن حمادوش فقد سبق أن درسناها في عدة مناسبات[1]، ولا نريد الآن الرجوع إلى ذلك في تفاصيله. فقد ولد سنة 1107 (1695) في مدينة الجزائر على أغلب الظن. وكان من أسرة متوسطة تتعاطى حرفة الدباغة على ما يظهر من اسم والده (محمد الدباغ). وقد حاول عبد الرزاق أن يجمع بين التجارة والعلم ففشل في التجارة على الأقل. وهو الأمر الذي جعله يفشل في زواجه أيضاً. وتعلق بالعلم بمعناه الواسع فكان موسوعياً. اهتم بعلوم الدين واللغة مثل مثقفي عصره، ولكنه شذ عليهم باهتمامه بعلوم العقل أو «علوم النصارى»، كما أصبحت تدعى، مثل الطب والفلك والهندسة والصيدلة. وقد درس كل من ليكليرك Leclerc وكولان G. Colin جهود ابن حمادوش في هذه العلوم[2]. تنقل ابن حمادوش في العالم المعروف له عندئذ، فحجَّ عدة مرات، ورحل إلى المغرب الأقصى ومصر، وركب في سفن «النصارى»، واطلع على كتبهم، كما قال، وكان شديد الملاحظة. فكان لا يترك فرصة تفيده علماً جديداً إلا اغتنمها، فقد تعلم صنع البارود وضرب المدفع في مدينة الجزائر من أهل الاختصاص، وحين جمع قاموسه في الأعشاب كان يذكر بيئة كل نبات وأسماء الأعشاب، عربية كانت أو غير عربية.

---

(1) انظر كتبنا (الطبيب الرحالة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982. و (رحلة ابن حمادوش الجزائري: لسان المقال. . .) من تحقيقنا، من اصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رحلات ومذكرات، 1983. وكذلك كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) الجزء الأول، ط. 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990. وتاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، ط. 2، الجزائر 1985.

(2) لوسيان ليكليرك (تاريخ الطب العربي)، جـ2، باريس 1876. وكذلك الترجمة الفرنسية لكتاب (كشف الرموز)، باريس 1874. أما غبريال كولان فانظر له (الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري)، الجزائر 1905.

في عدة أماكن من رحلته ذكر ابن حمادوش أن له تأليفاً في الفلك أو في الإسطرلاب أو في صورة الكرة الأرضية الخ. فقد ذكر مرة أن له تأليفاً في علم الفلك ثم قال «وسميته»، ولكنه ترك بياضاً بعد العبارة السابقة، فلم نعرف اسم التأليف. ونفس الشيء لاحظناه بالنسبة لتأليف له في الاسطرلاب والربع المقنطر، وكذلك في القوس الذي قال أن النصارى كانوا يتعاملون به، والرخامة الظلية التي قال أنه استخرجها بالحساب من كتب النصارى. وكذلك غيرها من الأعمال التي يسميها مؤلفات، مثل كتاب صورة الكرة الأرضية المستوحى من كتاب يقول أنه لرضوان أفندي (؟)، ومثل معرفة الطرق البحرية أو ما يسميه بعلم البلوط، فكل هذه وغيرها، لم يذكر لها عناوين. بينما ذكر عناوين لبعض مؤلفاته الأخرى مثل (فتح المجيب في علم التكعيب) و (الجوهر المكنون من بحر القانون) في الطب، إلخ.

ولكن ما يهمنا من أعمال ابن حمادوش في هذه المناسبة هو الرسالة الفلكية التي بدأنا بالحديث عنها. فهل هي له حقاً؟ وهل هي أحد التآليف التي ذكرها بدون أن يعطيها عنواناً، وهل كانت «مؤلفات» ابن حمادوش التي لم نطلع عليها والتي هي مذكورة بمواضيعها فقط، لا بعناوينها، في رحلته، كلها على شاكلة رسالته في الكرة التي بين أيدينا؟ وفي هذه الحالة، هل تصح كلمة «تأليف» أصلاً؟ ذلك ما نريد الإجابة عنه بقدر ما تسمح به المعلومات المتوفرة لدينا حتى الآن.

وها نحن نسرع إلى القول بأن النسخة التي بين أيدينا من الرسالة تكاد تكون منسوخة طبق الأصل كما أشرنا، من الباب السابع في كتاب الحسن المراكشي، ونحن نقول «طبق الأصل» لأن التقليد في النقل لم يشمل الألفاظ والعبارات فقط ولكنه شمل أيضاً التبويب، ففصول ابن حمادوش التسعون هي هي فصول المراكشي التسعون. إذن ما الفرق إن كان؟ بمقارنتنا للعملين لاحظنا أن ابن حمادوش كان أميناً كل الأمانة في نسبة العمل الأصلي للمراكشي، وأما مبرره في النقل فقد ذكر أنه هو فراغ المكتبات من تأليف مستقل في علم الكرة، فلا يعرف هو ولا المعاصرون تأليفاً خاصاً فيها. ولذلك عمد إلى ما أطلع عليه في الكرة عند المراكشي. ولم يذكر ابن حمادوش عنوان كتاب المراكشي الذي نقل منه مكتفياً بعبارة «في كتابه»[1]، فهل كان كتاب المراكشي مشهوراً

(1) هو كتاب (جامع المبادىء والغايات في علم الميقات)، وهو كتاب ضخم يضم أربعة أصناف من =

لدرجة الإحالة على شهرته فقط، أو كان ابن حمادوش يريد التعمية على معاصريه؟ إننا نغلب الرأي الثاني، إذ لو كان الرأي الأول هو المقصود لكانت شهرة الكتاب تغني عن النقل، ونفس الملاحظة تنطبق ربما على عدم ذكر الاسم الكامل للمراكشي[1]، ذلك أن ابن حمادوش اكتفى بذكر النسبة فقط (المراكشي)، وكم من العلماء وغيرهم ينتسبون إلى مراكش!

والحق أن ابن حمادوش قد اعترف منذ البداية بأن ما جاء به ليس له وإنما هو ما كان يبحث عنه ولم يجده. فهو قد اعترف بأنه قد تعلم الكرة وكيفية إستعمالاتها، وبحث عن كتاب مستقل يعالجها فلم يجده، ولكنه وجد أن الحسن المراكشي قد خصص للكرة باباً من أبواب كتابه (جامع المبادىء والغايات) وهو الباب السابع، وأنه قسم هذا الباب إلى تسعين فصلاً، فوجد فيه ابن حمادوش ضالته المنشودة، فكتب مقدمة قصيرة شرح فيها هذا الظرف، ثم أخذ ينسخ الباب المذكور من المراكشي في الكرة نسخاً يكاد يكون طبق الأصل. فما دعواه في ذلك؟

يورد ابن حمادوش عبارة ملفتة للنظر في المقدمة القصيرة التي مهد بها لنسخه الباب السابع من المراكشي، وهي قوله: «فأردت أن أفرده هنا بتأليف، لأزيد عليه ما أحصل من غيره، ولينتفع به من أراده، فيكون لي أجر لإظهاره للوجود» هذا النص على قصره مهم في نظرنا، لأنه يذكر كلمة «تأليف» وعبارة «لأزيد عليه ما أحصل من غيره» وعبارة «لينتفع به من أراده» وفي آخر النص دعوى كبيرة وملفتة للنظر وهي أن ابن حمادوش يشير إلى أنه ينتظر الأجر على «إظهار» ما كتبه المراكشي عن الكرة للوجود. ولنحاول فهم الألفاظ والعبارات المذكورة بشيء من التفصيل.

= العلوم هي الحساب ووضع الآلات، والعمل بالآلات، والمطارحات (أو التمارين)، وفي الكتاب جدول يضم 240 نجماً رصدها الحسن المراكشي حوالي سنة 622 (1225 م). انظر عمر فروخ (تاريخ الفكر العربي)، دار العلم للملايين، بيروت 1972، ص 687.

(1) هو أبو علي الحسن بن علي بن عمر المراكشي، عاش فترة من القرن السادس الهجري (12 م) ثم عاش إلى منتصف القرن السابع الهجري (13 م). وكان جغرافيا فلكياً ورياضياً ورحالة. وله كتب عديدة أشهرها كتاب (جامع المبادىء والغايات) المذكور آنفاً، وهو الكتاب الذي يغلب على الظن أنه ألفه في القاهرة. انظر عمر فروخ، المرجع السابق ص 686 - 687.

أ ـ كلمة (تأليف): يدعي ابن حمادوش أنه بنسخه عمل المراكشي قد قام بتأليف رسالة مستقلة في الكرة لم يسبقه إليها أحد، ولنلاحظ عبارة «فأردت أن أفرده» ـ أي الباب السابع ـ هنا بتأليف». ولو أن ابن حمادوش وفر شروط التأليف المتعارف عليها حتى عند القدماء، وقدم لنا عملاً أضاف إليه ما تعلمه أيضاً، وما اطلع عليه في غير المراكشي حول الموضوع، لكان من حقه أن يدعي هذه الدعوى، ولكن النقل الحرفي وانعدام الإضافات تقريباً هو الذي جعلنا نتوقف عند كلمة (تأليف) الواردة في النص والتي نسبها ابن حمادوش لنفسه، وهي الطريقة التي تجعلنا نتساءل ونتوقف عند «تآليف» ابن حمادوش الأخرى التي لم نطلع عليها أو لم نقارنها بغيرها، ومعنى ذلك أنها قد تكون جميعها منسوخة أيضاً من أعمال أخرى لغيره، ولا يكون المضاف إليها أو الجديد فيها سوى النزر اليسير.

ب ـ عبارة (الزيادة من غيره): أغرتنا هذه العبارة لمعرفة الزيادة التي أدخلها ابن حمادوش على نص المراكشي. فقد يكون من الجديد في التأليف أن يعلق المؤلف المتأخر على المتقدم أو يضيف لعمله إضافات لم يطلع عليها المتقدم أو يصحح بعض ما وقع فيه سابقه من أخطاء. فهل كانت زيادة ابن حمادوش من هذا النوع أو ذاك؟ الواقع أننا لا نريد أن نغامر فنحكم على الرجل حكماً قياسياً وهو أنه لم يحصل على شيء وبالتالي لم يضف شيئاً. فنحن لم نكمل المقارنة بين النصين إلى نهايتها، وإنما قارنا المقدمات وبعض الفصول، فوجدناه يورد نص المراكشي بحذافيره تقريباً، مع إضافة كلمة أحياناً، أو حذف عبارة منه أحياناً أخرى. وقد وجدنا في بعض الفصول زيادات تتمثل في سطر أو حتى بضع كلمات. ويلاحظ المرء أن طريقة ابن حمادوش في إثبات حضوره في النص تأتي باستعماله أحياناً رمز «ا هـ» عقب كلام المراكشي وهي تعني (انتهى) كلامه. ولكن هذه الطريقة ليست دائمة، ولعل حذف الرمز المذكور يرجع إلى الناسخ وليس إلى ابن حمادوش نفسه. وهناك عبارة يوردها ابن حمادوش في نهاية بعض الفصول وهي قوله «فافهم». أي أنه كان ينبه القارىء إلى أن توضيحات المراكشي قد انتهت وعليه(أي القارىء)أن يكون يقظاً ومتتبعاً لمعاني التوضيحات، وحتى زياداته هو.

جـ ـ عبارة «لينتفع به من أراده»: يتضح منها أن ابن حمادوش كان له هدف من استخراج نص المراكشي حول الكرة الفلكية. فقد أحس أن هذا النص كان ضائعاً وسط الكتاب وأن الراغبين في معرفة العمل بالكرة قد لا يهتدون إليه وسط كتاب ضخم يتناول

مجموعة من العلوم. ومن ثمة قام ابن حمادوش بنسخ النص المذكور (الباب السابع) وفصله عن بقية كتاب المراكشي، وجعله في متناول الراغبين معلناً أن قصده من كل ذلك هو نفع الباحثين في الكرة الفلكية، ورغبة في الأجر أيضاً. ولا نظن أنه يقصد «الأجر» الإلّهي في الآخرة، بل الغالب أنه يقصد الأجر الدنيوي، أي المدح والثناء من الراغبين في المعرفة من المعاصرين، على «اكتشافه» نصاً قديماً ومجهولاً حول الكرة وبعث الحياة فيه.

* * *

ونريد الآن أن نذكر نص المقدمة التي افتتح بها ابن حمادوش هذه الرسالة المنسوبة إليه، والتي بقيت، كما لاحظنا بدون عنوان. ونحن نذكر نص المقدمة، على قصره، بحذافيره، لنذوق معاً طعم كلام ابن حمادوش عن الكرة الفلكية، لأن قولنا أنه قام بنسخ الباب السابع من كتاب المراكشي قد يوحي بأن ابن حمادوش لم يبذل أي جهد أو أنه كان متطفلاً على الموضوع. فلنتابع إذن عباراته الافتتاحية، بما في ذلك الدينية منها:

«الحمد لله الذي جعل كورة (كذا) العالم دليلاً على وحدانيته، وأيقض (كذا) للنظر والاستدلال قلوب أهل معرفته، وجعل السماء ذا أبراج، والأرض ذا فجاج، وجعل الفلك دواراً فبتعاقبه جعل ليلاً ونهاراً، والصلاة والسلام على النبي المختار، وعلى آله وأصحابه الأخيار».

«وبعد، فلما ملكت الكرة اشتقت إلى تأليف في العمل بها فلم أجد في هذه الساعة تأليفاً مستقلاً فيها، إلا ما أدرجها (كذا) المراكشي في كتابه حيث عقد لها الباب السابع، فأردت أن أفرده هنا بتأليف، لأزيد عليه ما أحصل من غيره، ولينتفع به من أراده، فيكون لي أجراً (كذا) لإظهاره للوجود، وبالله أستعين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم». وهو (أي الباب السابع) مشتمل على مقدمة وتسعين فصلاً، المقدمة، قال المراكشي في كيفية العمل بالكرة: «وهذه الآلة وقع للأقدمين بها فضل اعتناء لما في تأملها من المنافع. . . » إلخ، ثم يورد نص مقدمة المراكشي (ونحن لا نملك أصلها) في حوالي خمسة عشر سطراً، وبعد ذلك يبدأ الفصول بقوله: الفصل الأول: في تسمية الرسوم الموضوعة في هذه الآلة دون أن يرجع إلى ذِكْرِ الباب السابع.

وآخر عبارة أوردها ابن حمادوش هي قول المراكشي في نهاية الباب السابع «وإنما راعيت حال التعليم». وبعدها يبدأ الباب الثامن في كيفية العمل بالاسطرلاب. وعوضاً عن ذلك كتب ابن حمادوش خاتمة لرسالته ليس فيها جديد، وإنما هي عبارات دينية دعائية، كقوله «والله أعلم، وبالله تعالى التوفيق لا رب غيره، ولا معبد (كذا) سواه، نسأله أن يعلمنا ما جهلنا. . .» في حدود سبعة سطور. ثم نجد أربعة أسطر أخرى تفيدنا أن ناسخ رسالة ابن حمادوش هو عبد القادر بن محمد بن المختار بن الأحسن سنة 1162 (1749). ولعل من الفائدة قول هذا الناسخ أنه نقل مباشرة من خط المؤلف وذلك في قوله: «نجز (أي النسخ) على يد كاتبه من خط مؤلفه. . .» ونحن نستنتج أن «مؤلفه» هنا هو ابن حمادوش لا بالصراحة ولكن بالمفهوم، لأن هذا الاسم هو الموجود في أول الرسالة ـ كما لاحظنا ـ «يقول عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادوش، كان الله له»[1].

* * *

وما دمنا بصدد الحديث عن النقل والمقارنة فلنذكر نموذجاً أو أثنين من نص المراكشي وآخر لابن حمادوش لنرى كيف كان ابن حمادوش يتصرف أحياناً في النص، وهو التصرف الذي أراده هو زيادة مما حصل عليه من معرفة حول الموضوع. في نهاية الفصل الثالث، يقول المراكشي (ص 205):

«وإذا أدرت الكرة حتى يغيب ذلك الجزء من الأفق الغربي ويطلع أول الجزء الذي يقابله من الأفق الشرقي، فإن ذلك مثل دور السماء في اليوم والليلة، وهو دورة واحدة، وجزء من 360 بالتقريب، وهو الذي سارته الشمس في فلك البروج في اليوم بليلته، وهذه الدوران (كذا) على قطبي معدل النهار».

ويقول ابن حمادوش في نهاية نفس الفصل (ص 138):

«وإذا أدرت الكرة حتى تغيب (كذا) ذلك الجزء من الأفق الغربي، ويطلع أول الجزء الذي يقابله من الأفق الشرقي، فإن ذلك مثل دور السماء في الليلة التي تكون فيها الشمس في ذلك الجزء، فهذا مقدار ما تدور السماء في اليوم والليلة، وهو دورة واحدة

(1) تلاحظ أننا رجعنا إلى نسخة المكتبة الملكية المغربية. أما النسخة الثانية التي أرسلها إلينا الأستاذ أحمد جبار على الشريط فليس فيها اسم الناسخ، وتاريخها متأخر (1199 - 1784)

وجزء من ثلاثمائة وستين جزءاً بالتقريب، وهو الذي سارته الشمس في فلك البروج في اليوم بليلته، وهذا الدوار على قطبي معدل النهار».

النص الثاني: يقول المراكشي في الفصل الثاني عشر (ص 211):

«وإن كان الوقت المفروض ماضياً أو مستقبلاً فلا يمكن ذلك بمعرفة الوقت الحاضر الذي أنت فيه وجزء الشمس وعرض البلد وثبت الكرة والكرسي على ذلك الوضع، ثم تعين وضع السماء بما مضى في هذا الفصل في ذلك الوقت الماضي أو المستقبل. . . ومعلوم أن هذا الفصل أعم فائدة من الفصل 7 من جهة أن الفصل يفيد هذه الأمور في الوقت الحاضر والماضي والمستقبل».

ويقول ابن حمادوش في نفس الفصل ص 142:

«وإن كان الوقت المفروض ماضياً أو مستقبلاً، فلا يمكن ذلك إلا بمعرفة الوقت الحاضر الذي أنت فيه، وذلك بأن تعين جهات الأفق وارتفاع الشمس وعرض البلد، وثبت الكرسي على ذلك الوضع، ثم تعن (كذا) وضع السماء بما مضى في هذا الفصل في ذلك الوقت الماضي أو المستقبل. . . . ومعلوم أن هذا الفصل أعم فائدة من الفصل السابع من جهة أن الفصل السابع يفيد هذه الأمور في الوقت الحاضر خاصة، وهذا يفيد ما في الوقت الحاضر والماضي والمستقبل».

استنتاجات:

1 - بين المراكشي وابن حمادوش حوالي خمسة قرون. فقد عاش الحسن المراكشي في القرن السابع (13 م) وعاش ابن حمادوش في القرن الثاني عشر (18 م). ومع ذلك فمهنتهما متشابهة. كلاهما أحب واشتغل بالرياضيات والفلك وما يتصل بهما، كما أحب كلاهما الترحال وما فيه من الفضول العلمي والاطلاع على المجهول. وقد كتب المراكشي كتابه (جامع المبادىء والغايات) في القاهرة، ومن الصدف أن ابن حمادوش نفسه كان أيضاً في القاهرة، على أغلب الظن، عندما «ألف» رسالته عن الكرة الفلكية. فقد لاحظنا أن الناسخ قد نسخها سنة 1162 (1749) بينما يذكر ليكليرك أن ابن حمادوش كان سنة 1161 في القاهرة كما جاء في آخر رسالته المسماة (تعديل المزاج). والظاهر أنه بقي طويلاً في مدينة رشيد (مصر) حيث تزوج وأقام.

2 ـ نستنتج مما سبق أن أحد الحجاج المغاربة قد نسخ رسالة ابن حمادوش وعاد بها إلى الجزائر أو المغرب الأقصى حيث توجد إلى اليوم. ولعل هناك من أخذ عليها نسخاً أخرى، واستطاع المتعلمون أن يطلعوا على عمل المراكشي من خلال ابن حمادوش [1]. فإذا صح هذا الاحتمال فإن دور ابن حمادوش هو «بعث» جزء من كتاب المراكشي وإشاعته بين الناس، وبذلك يمكننا القول أن ابن حمادوش قام بدور «التواصل» بين القدماء والمعاصرين من جهة وبين المغاربة والمشارقة من جهة أخرى، في وقت كاد الناس فيه ينسون أن لهم تراثاً علمياً دفنته الأيام وراءها.

3 ـ قياساً على رسالة الكرة، يمكننا أن نقول أن كل أو معظم أعمال ابن حمادوش الأخرى هي على غرار هذه الطريقة من التأليف. فعندما يذكر أن له «تأليفاً» في كذا، من الأعمال التي لم نطلع عليها، فقد يكون عمله مجرد نسخ لموضوع التأليف من بعض القدماء الذين بعدت المسافة الزمنية بينه وبينهم. وما دامت أعمال التراث قد جمدت في دهاليز النسيان. وما دام التعليم عندئذ لا يشتمل إلا على الفقهيات والأدبيات بأسلوب جامد أيضاً، فإن ابن حمادوش الذي كان يتمتع بحس علمي خاص، كان يكتشف في كتب التراث «غرائب وطرائف» ترضي إحساسه وتطلعاته وتشبع فضوله العلمي. وهكذا اقتصرت جهوده، فيما يظهر، على نقل نماذج من التراث العلمي كانت مغمورة، ووضْعِها بين أيدي طلبة وعلماء عصره، لينتفعوا بها. ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن له ملاحظاته الخاصة، وإختياراته، وحتى إضافاته.

الجزائر في 26 نوفمبر 1990.

---

(1) يجب ألا يحمل هذا على إطلاقه، فقد كانت بعض كتب التراث العلمي تتسرب.

السيرة الذاتية للأمير عبد القادر

لو استشارني ناشر هذا الكتاب لاقترحت عليه أن يجعله هو الحلقة الأولى في سلسلة يطلق عليها اسم (مكتبة الأمير عبد القادر). ذلك أن الأمير سطّر بسيفه الحوادث الوطنية والمعارك العسكرية وسطّر بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية. وقد عرف بعض ما سطر حتى الآن من هذه وتلك، ولكن الأغلب منها جميعاً ما يزال في طي الكتمان محفوظاً في وثائق الدول والأفراد.

فإذا أخذنا الجانب الفكري فقط فإننا سنجد أن ما نشر له حتى الآن هو قليل من كثير، وأن ما نشر له كله قد نشر بعد وفاته ما عدا رسالة (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) التي ترجمت ونشر أثناء حياته، وهناك ملاحظة أخرى هي أن كل ما ألف الأمير قد كتب أثناء سجنه بفرنسا (خلال أربع سنوات 1848 - 1852) ما عدا المواقف وديوان شعره. ومن هذه الأعمال المؤلفة خلال سجنه الكتاب المسمى (بالسيرة الذاتية).

ويبدو أنه ليس صحيحاً ما يقال أن الكتاب الذي بين أيدينا هو أول سيرة ذاتية أو (أوتوبيغرافية)، كما تسمى في اللغات الأجنبية. ذلك أن الأمير قد كتب وأملى حياته على عدد من المؤلفين الأروبيين والمسلمين. ويخيل إلينا أن الأمير قد كتب قبل خروجه من الجزائر «نموذجاً» من حياته الشخصية أو (الكريكلم فيته) واحتفظ به عنده. ذلك أن الأسئلة قد تواردت عليه وهو في السجن ثم وهو في المشرق، يريد أصحابها معرفة دراسته وتكوينه، أسرته وبيئته، المؤثرات فيه وعقائده، حروبه وخصومه وأصدقاؤه، وآراؤه في الناس والحياة، في العرب والأوروبيين، في الإسلام والمسيحية، ونحو ذلك من الأسئلة التي كان يمطره بها كل سائل. فكتب هو نموذج حياته باختصار، وكان يسلم منه نسخة لكل سائل أو يتحدث إليه به في إيجاز، وقد يكون هذا النموذج بقلمه، وقد

يكون من املائه على كتبته وإصهاره، ومنهم مصطفى بن التهامي. فالمهم ليس هذا وإنما المهم هو أن النموذج كان بموافقة الأمير نفسه وتحت نظره.

ويبدو لنا أيضاً أن النموذج المشار إليه قد كتب أول مرة عندما تردد على الأمير عدد من المثقفين والمستشرقين ودعاة الماسونية طمعاً في معرفة نوازعه ومواقفه إزاء الحرية والأديان والإنسان والفلسفة والمرأة ونظم الحكم ونحو ذلك من اهتمامات هذه الجمعية. ونحن نعلم أن تأليف (ذكرى العاقل) كان استجابة لطلب أمثال هؤلاء، ولا شك أنه بعد تأليفه هذا الكتاب (ذكرى العاقل) قدم إلى سائله نموذج الحياة الذي أشرنا إليه. وقد يكون أضاف إليه سطوراً من المعلومات، وقد يكون استغنى فيه عن بعض التفاصيل، ولكن الأساس ظل واحداً، وهو أن النموذج كان عبارة عن أوراق جاهزة (وقد لا تكون مطبوعة حقيقة) تسلم للسائلين عند الطلب. ويمكن للمعلومات التي احتوى عليها نموذج الحياة الشخصية أن تُمَطَّط وأن تُثْرى. وهذا ما حدث بالفعل في ظننا عندما تحول النموذج إلى فصل في كتاب هو الفصل الأول والرابع، بل أن الفصل الرابع وحده هو في حد ذاته كتاب عن حياة الأمير ووقائعه.

ومهما كان الأمر فإن النموذج المذكور هو الذي بني عليه عدد من الكتاب مخططاتهم في ترجمتهم للأمير. ومن هؤلاء الإسكندر بيلمار (الحياة السياسية... للأمير عبد القادر)، وشارل هنري تشرشل (حياة عبد القادر السلطان السابق لعرب الجزائر)، وترجمة يوجين دوماس له في عدد من كتبه لأنه كان يستقي معلوماته عن كثب، وغير هؤلاء كثير. ولكن أكثرهم التصاقاً بهذه المعلومات هو محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الذي حضر مادة الكتاب أثناء حياة والده وصاغها بعد وفاته، وعندما أتم الكتاب سرقت منه المخطوطة[1]، كما ذكر وربما سرقت منه أيضاً أبرز الوثائق العائلية التي كانت هي المقصودة وكانت محل تنازع بين أفراد الأسرة، وقد لا تكون القنصلية الفرنسية بدمشق غريبة عن هذه العملية. ولكن الأمير محمد باشا الذي كانت ميوله عثمانية ومعادياً لفرنسا، أعاد كتابة ترجمة لوالده من الذاكرة ومن بعض الوثائق التي بقيت في حوزته وهي النسخة التي ظهرت في طبعة الإسكندرية سنة 1903.

---

(1) انظر بحثنا (العثور على النسخة المسروقة من كتاب تحفة الزائر)، في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، جـ2، ط 2، بيروت 1991، ص 115 - 143.

وسواء أكانت (السيرة) من إنشاء الأمير أو من أملائه أو من إنشاء غيره جزئياً أو كلياً، فالمهم في نظرنا ليس ذلك، ولكنه الجديد الذي تقدمه السيرة أو تنفرد به دون غيرها من الكتب المؤلفة عن الأمير بما فيها (تحفة الزائر)، أي هل ستقدم لنا هذه السيرة معلومات لا نجدها في غيرها أو هي تكرار لما في غيرها، وإنما التنازع يتمثل في من كتب السيرة وليس في قيمة معلوماتها؟

إن هذا الكتاب (السيرة) على ما هو عليه يمثل في الحقيقة عملين منفصلين وإن بدا للبعض أنه عمل واحد متصل. العمل الأول هو هذه المعلومات الذاتية والعائلية والتاريخية لحياة الأمير، والعمل الثاني هو هذه المعلومات العامة في تاريخ الإسلام والأنبياء والعرب والمسلمين والبيزنطيين وأخلاق هؤلاء وأولئك. وإذا كان العمل الأول يظهر إنشائياً وتاريخياً فإن العمل الثاني يظهر بعيداً عن حياة الأمير ومرتبطاً بتاريخ الإسلام العام والمعارف الحضارية التي قد تكون مقحمة إقحاماً في الموضوع، ولا علاقة لها حتى بموضوع السؤال الذي طرحه عليه (القبطان عبد الله). وربما كان من المفيد فصل العملين عن بعضهما عند التحقيق والنشر. فيصدر الفصلان الأول والرابع مع بعضهما لعلاقتهما بحياة الأمير ونضال الجزائر، وتصدر الفصول: الثاني والثالث والخامس والسادس والسابع مع بعضها لعمومياتها.

لقد ذكر المحققون أن النسخة الأصلية للكتاب ما تزال ضائعة، ولذلك كان اعتمادهم في التحقيق على النسخة المطبوعة تصويراً سنة 1983. وقد كنت اطلعت شخصياً على النسخة المخطوطة المهداة إلى المكتبة الوطنية في 1970 عندما كنت أحضّر كتابي (بداية الاحتلال) [1]. وقد ذكرت عندئذ أنني أطلعت على المخطوط، وأنه بدون عنوان، وأنه منسوب إلى مصطفى بن التهامي. ومما يذكر بهذا الصدد أن الأستاذ هنري تيسييه كان قد أطلعني على نسخة مصورة على ورق صقيل من المخطوطة وكان هو ينوي تحقيقها تحت إشرافي لنيل دكتوراه الحلقة الثالثة. وأذكر أيضاً أنه أخبرني أن بينه وبين عائلة شوفالييه قرابة، وعن طريقه علمت أن السيد شوفالييه قد أهدى المخطوطة إلى المكتبة الوطنية الجزائرية. وقد ذكرت في كتابي عن الشاذلي القسنطيني أيضاً أن الأستاذ

---

(1)انظر أبو القاسم سعد الله (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال) ط. 3 الجزائر، 1982، ص 171.

تيسييه، قريب من عائلة شوفالييه[1]. إننا نشير إلى هذه المعلومات لنلمّح إلى أن النسخة التي لم يستطع المحققون الاطلاع عليها مما يسمى (بسيرة) الأمير قد تكون محفوظة عند هذه العائلات التي كانت مسؤولة سياسياً عن حياة الأمير وأمنه، أمثال بواسونيه ودوماس، وضباط آخرين كانوا لا يفارقونه، وليس بالضرورة أن تبقى المخطوطة عند هؤلاء شخصياً ولكنها قد تكون انتقلت إلى أحفادهم وأقاربهم بالمصاهرة ونحوها، كما هي الحال بالنسبة لعائلة بواسونيه وشوفالييه.

أحد أطراف هذا الكتاب هو مصطفى بن التهامي. وليس بوسعنا الآن وضع ترجمة له، لأننا نحضر لذلك في مكان آخر. ولكن يكفي أن نقول أن هناك أكثر من علاقة بين ابن التهامي والأمير، عائلياً وسياسياً وأدبياً. كان ابن التهامي صهراً للأمير وموضع ثقته. وقد ولاه الخلافة على معسكر إلى 1836. ثم عهد إليه بمهمات صعبة مثل مفاوضة الشيخ التجاني سنة 1838 بعد فشل الحصار، كما عهد إليه بحماية الأسرى الفرنسيين بعد معركة سيدي إبراهيم، رغم أن مقتل بعضهم قد حمّله الأمير إلى ابن التهامي. وكان هذا هو أيضاً رفيق دربه في سجون فرنسا: في بو، وفي امبواز، ثم رافقه إلى المشرق، من بروسة إلى دمشق. وكان ابن التهامي (هو ابن مفتي وهران سابقاً) شيخ علم ودين، وأديباً وشاعراً، بالإضافة إلى السياسة والعسكرية، ولذلك فهو يشترك مع الأمير في كثير من الخصال [2]. ونحن نعرف أن ابن التهامي كان هو المدرس لأبناء الأمير وأبناء «الجالية» الجزائرية السجينة عندئذ، كما أنه انتصب للتدريس في الجامع الأموي منذ حل بدمشق. وكان فصيح اللسان والقلم، وله معلومات واسعة في التاريخ والتفسير والأدب. فلا غرابة أن تظهر بصماته إذن في الكتاب الذي بين أيدينا.

لقد وقع بين أيدينا مخطوط هام كان من أملاك الشيخ محمد الشاذلي وابنه

---

(1) انظر أبو القاسم سعد الله (القاضي الأديب محمد الشاذلي القسنطيني)، ط. 2 الجزائر، 1985.

(2) هناك عدة مصادر تناولت حياة ابن التهامي، نذكر منها: (تحفة الزائر) للأمير محمد باشا، و(جوانب من الحياة العقلية لطه الحاجري، و(أعلام الفكر الإسلامي) لأحمد تيمور، و(مذكرات العقيد سكوت)، وحياة عبد القادر) لتشرشل، و(ذخيرة الأواخر) للمشرفي، و(الياقوتة) للمشرفي أيضاً، و(مراسلات) المهدي البوعبدلي معي، بالإضافة إلى الأرشيف الفرنسي الذي يضم رسائل وتقارير ونحوها عن حياة الزعماء الجزائريين، ومنهم ابن التهامي.

محمود[1]، ثم تحول منه إلى مكتبة الشيخ المولود بن الموهوب مفتي قسنطينة في أوائل هذا القرن[2]. والمعروف أن الشاذلي كان قد ذهب إلى إمبواز سنة 1849 عدة مرات، لمؤانسة الأمير وابن التهامي وأضرابهما. وكان الشاذلي أديباً وشاعراً أيضاً، وكان فقيها وقاضياً، وكانت لقاءاته، فيما يبدو، بالأمير عبد القادر أقل من لقاءاته مع مصطفى بن التهامي. والمساجلات التي دارت بين الشاذلي والأمير أقل بكثير مما دار من مساجلات ومراسلات بين الشاذلي وابن التهامي.

ولذلك وجدت في المخطوطة ـ الكناش التي كانت بحوزة الشاذلي ثم ابنه محمود ثم ابن الموهوب، عدة خطوط، منها خط كتب به (المقراض الحاد) للأمير، ومنها خط لأبيات محمد الشاذلي، ومنها خطوط عديدة لابنه محمود الشاذلي. ثم خطوط أخرى لموشحات وقصائد غوثية وغيرها يبدو أنها لمصطفى بن التهامي، ونحن نقول «يبدو» لأننا غير متأكدين من ذلك، تماماً كما لم يتأكد الأساتذة الذين حققوا سيرة الأمير من خطوط أصحابها. وإذا كنا قد عرفنا خط الأمير ونستطيع أن نقارن بينه وبين خطوط أخرى، فإننا لا نعرف خط ابن التهامي حقيقة حتى نستطيع أن نزعم بأن بعض خطوط (الكناش) هي لابن التهامي نفسه [3].

حسبنا إذن أن نهنىء المحققين بإنجازهم هذا العمل الذي سيفتح المجال للنقاش حول أصالة المخطوط، وأن نشكرهم على ما بذلوه من جهد في التعاليق والتقديم، ونرجو أن يكملوا عملهم بتزويد الكتاب بالفهارس الضرورية. وحسب الناشر أن يفتتح مكتبة الأمير عبد القادر بهذا الكتاب ـ الكشكول، في انتظار أن تتولى الجهات العلمية تحقيق كتب الأمير الأخرى، والبحث في رسائله ومذكراته وأشعاره وأوراقه. كما تبحث

---

(1)كان محمد الشاذلي مديراً للمدرسة الكتانية بقسنطينة منذ إنشائها سنة 1850، وتولى بعده ابنه محمود أيضاً إدارتها بعض الوقت ثم تخصص في تدريس مادة النحو والأدب بها. وكان محمود هذا معاصراً للشيخ عبد القادر المجاوي الذي تولى التدريس بالكتانية أيضاً سنوات عديدة.

(2)تولى الفتوى سنة 1908، وظل فيها إلى وفاته سنة 1934. انظر كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، جـ2، ط. 2، بيروت، 1991.

(3)جمعنا أشعاراً وموشحات وأخباراً عن حياة مصطفى بن التهامي، وهي معدة للنشر، وما زلنا لم نكتب ترجمة حياة ابن التهامي لنشرها مع هذه الأشعار والموشحات.

الجهات الأخرى في معاهداته وحروبه وعلاقاته الدبلوماسية. فالرجل قد أحدث رجّة حضارية في الجزائر وفي المغرب العربي ما تزال تداعياتها واهتزازاتها تُحَسُّ في أرجاء كثيرة من العالم. وبينما نحن نتجه إلى الأمام لبناء المستقبل علينا أن نلتفت أيضاً إلى الوراء لنعرف نوعية البناء الذي أشاده السلف، ولا يستطيع شعب من الشعوب أن يفاخر بحضارة لم تتضمّخ بفكر وعطر الأجداد.

الجزائر في 1991/12/24

علج علي والدّولة العثمانية (*)

شهد القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) تحولات جذرية في الخريطة الدوليـة إذ انقسم العالم نتيجتها إلى معسكرين غربي مسيحي بقيادة إسبانيا وشرقي إسلامي بقيادة الدولة العثمانية. وكانت إسبانيا منطلقة من أنقاض الحضارة العربية الإسلامية الأندلسية، ململمة معها شعث الدويلات الأوروبية الخارجة من ظلام العصور الوسطي إلى عصر الترابط السياسي والتضامن الاجتماعي والتحرر الاقتصادي والتقدم العلمي. وكان الغطاء السياسي الضخم لهذا المعسكر الغربي المسيحي يتمثل في الدولة الرومانية المقدسة، وقد كان من أبرز زعمائها شارلكان وفيليب الثاني وأندريا دوريا إلخ، وقد كانت الدولة الرومانية المقدسة نفسها تحمل في تسميتها معنى المنطلق الروحي لها، أي المسيحية، وهو المنطلق الذي ترعرع في شكل حركة دينية قومية مضادة للوجود العربي الإسلامي في الأندلس، فلولا هذا الوجود لما تزعمت إسبانيا (الأندلس) العالم المسيحي فترة من الوقت.

ومن جهة أخرى كانت الدولة العثمانية نتاج الحضارة العربية الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة ونتاج المدن العلمية في بلاد فارس، ولولا جواهر الحضارة التي نظمتها الـدولة العثمانية في سلكها لما استطاعت أن تلملم أيضاً أطرافاً عديدة وتجعل منها قوة ضاربة في البر والبحر واقفة في وجه المد الغربي المسيحي بقيادة إسبانيا، ومن ثمة يبرز دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي والدفاع عنه، بل أن هذه الدولة لم تكتف بالحماية والدفاع بل أدى بها ذلك إلى الهجوم أيضاً، إذ توغلت في عمق أوروبا الشرقية

(*) تصدير كتبناه لكتاب علج علي والدولة العثمانية تأليف محمد سي يوسف. ما يزال تحت الطبع.

حتى دقت طلائعها (1529) أسوار فيينا التي لو سقطت بيدها ـ كما يرى البعض ـ لما بقي بين الدولة العثمانية وإسبانيا نفسها عائق ولالتقت أطراف الدائرة الإسلامية في شرق البحر الأبيض بغربه، واختنقت إسبانيا (الدولة الرومانية المقدسة) كما اختنقت الدول الصليبية قبل ذلك في الشرق.

وكما برزت في الغرب المسيحي أسماء شارلكان وفرنسوا الأول وفيليب الثاني ودوريا، وكذلك برزت في العالم الإسلامي أسماء سليم الأول وسليمان القانوني وعروج وخير الدين ودرغوث رايس وعلج علي. وقد لعب هؤلاء أدواراً بارزة بوأتهم المكانة المرموقة التي يحتفظ بها كل منهم في مسيرة التاريخ.

وقبل أن نتحدث عن أحد هؤلاء في الجانب الإسلامي، نود أن نقول إن الصراع السياسي والعسكري بين قادة المعسكرين كان في صميمه صراعاً حضارياً، فالمسيحية ليست عندئذ ديناً فقط، ولكنها هي اللغة اللاتينية، وهي التراث الإغريقي الروماني، وهي من الناحية الجغرافية والبشرية تمثل أوروبا البيضاء والشقراء، وإذا أردنا أن نستعمل مصطلح اليوم فالمسيحية عندئذ كانت تمثل الوجه الشمالي للصراع. وعندما نتحدث عن إسبانيا عندئذ إنما نتحدث عنها كدولة تزعمت التيار المسيحي وتصدت باسمه للتيار الإسلامي. وكان الإسلام عندئذ لا يفهم على أنه دين مصحح للمسيحية وشريعة سماوية ولكنه هو اللغة العربية، وهو عجين كامل لحضارة العرب والفرس والفراعنة والبيزنطيين والأشوريين والهنود، ثم أنه من الوجه الجغرافي البشري يمثل خريطة آسيا وأفريقيا ذات السمرة والصفرة، أو ما نصطلح عليه اليوم الوجه الجنوبي للصراع، فكلمة (الشرق) Orient توارثتها الحضارة المسيحية على أنها تعني المناطق التي بسط عليها الإسلام ظله، ولذلك بقيت عند محافظي هذه الحضارة تعني إلى اليوم المنطقة التي سكنها المسلمون أو حكموا فيها أو تأثرت بحضارة الإسلام من قريب أو من بعيد، وهم في اللاشعور ما زالوا ينسبون إليها كل سيء من السلوك الإنساني وكل مشين من الأخلاق وكل انحراف سياسي أو عنجهية أو وحشية إلخ.

كما نود أن نشير إلى الأطروحة التي تتردد عندنا وهي: هل الدولة العثمانية كانت غازية أو منقذة لنا نحن الجزائريين ومن في حكمنا من سكان المغرب العربي؟ أن أسقاط فكرة ما في عصر معين على عصر آخر قبلها أو بعدها فيه أحياناً مغامرة كبيرة قلما ينجو

مرتكبها من الوقوع في الزلل. فالجزائر لم تكن دولة قائمة بذاتها (ذات سيادة) في القرن السادس عشر حتى نقول أن العثمانيين اسقطوا تلك الدولة وحلواهم محلها، ونصبوا أنفسهم مستعمرين أو محتلين. لقد كانت تتعايش في الجزائر عدة دويلات وإمارات، ومن شأن تلك الدويلات والإمارات عدم القدرة على دفع الضيم ورد المعتدين الطامعين الأقوياء في بسط نفوذهم. وقد كانت القوة التي تهدد الجزائر عندئذ هي إسبانيا المسيحية التي لم تكتف بإخراج العرب والمسلمين من الأندلس، بل طاردتهم في غرب البحر الأبيض واحتلت أجزاء من المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا، تمهيداً لإلحاق المنطقة كلها بالمعسكر الغربي المسيحي الذي تتزعمه (إسبانيا). فكان دور الدولة العثمانية في ذلك الظرف الحرج من الصراع الحضاري المشار إليه، هو «إنقاذ» المغرب العربي من الوقوع في دائرة الدولة الإسبانية المسيحية والاحتفاظ بالجزائر خاصة في دائرة الحضارة الإسلامية التي تمثلها الدولة العثمانية.

هكذا كان الوضع في القرن السادس عشر يوم كان طرفا النزاع حضارتين تتمثلان في الإسلام والمسيحية وتمثلهما دولتان كبيرتان هما العثمانية والإسبانية. ولكن التاريخ لم يتوقف عند ذلك الحد، بل تقدم أشواطاً إلى الأمام، فإذا بالدولة الإسبانية يدبّ فيها الضعف والاضمحلال، وإذا بدول أخرى تبرز على الساحة هي هولاندا وإنكلترا وفرنسا، وإذا الصراع يتوسع ويتعقد إذ يخرج عن كونه صراعاً بين الحضارتين المذكورتين فقط بل انضافت إليه عناصر جديدة هي القوميات والمصالح الاقتصادية. فالدول «العلمانية» الجديدة لم تعد تحارب أو تنازع من أجل الدين (المسيحي) أو تحت راية الدين كما كان الحال في الماضي، ولكن من أجل النفوذ الاقتصادي والقومي والاستراتيجي، مستندة في ذلك على عوامل جديدة هي العلم وظهور الطبقة الوسطى التي أخذت تصارع هي بدورها لتحل محل الطبقة الإقطاعية في النفوذ. وقد أدى هذا التطور إلى أن تلعب الطبقة الوسطى دوراً بارزاً في الحياة المالية والاقتصادية والسياسية، مما ترتب عليه ظهور الاستعمار بنوعيه الماركنتيلي والحديث.

وإذا كانت الدول الأوروبية قد تطورت على النحو الذي ذكرنا، من دول صليبية إلى دول علمانية، ومن دول إقطاعية إلى دول قومية، ومن دول متخلفة إلى دول مصنعة وعلمية، فإن الدول الإسلامية (الصفوية والمغولية والمملوكية والمرينية والحفصية إلخ) وعلى رأسها الدولة العثمانية، كانت تتدهور وتتحلل. فرغم أنها دخلت في نزاعها باسم

الجهاد مع الدول الأوروبية المذكورة (إسبانيا، إنكلترا، هولاندا، فرنسا) فإنها في الحقيقة لم تنافسهم في التقدم الحضاري، فكانت تتخلف وهم يتقدمون، وكانت تفقد أراضيها (في البلقان وآسيا الوسطى) وهم يتوسعون، فلم تتحول مثلهم إلى دولة علمانية قومية، ولم تطور نموذجاً حضارياً جديداً مستمداً من الإسلام والعلم، فكانت النتيجة هي استمرار التدهور والتراجع والتنازل عن الحقوق (الامتيازات) تحت ضغط الدول الكبرى حتى انتهى بها الأمر إلى أن أصبحت تسمى «الرجل المريض».

ولو أن الدولة العثمانية حافظت على عنفوانها وطورت نفسها بموازاة تطور الدولة الأوروبية المجاورة لها، كما كانت في عصر عظمائها من أمثال خير الدين وسليمان القانوني ودرغوث رايس وعلج علي، لما وقعت فريسة للهرم الذي أصابها قبل الأوان، فهي دولة قد شابت في شبيبتها، وكان ذلك يعود إلى عدة عوامل منها الذاتية والخارجية، ومن الذاتية اعتمادها على الروح العسكرية وعدم انسجام جيشها، إذ كان من الإنكشارية وكان ولاء هذا الجيش للخليفة (السلطان) بدل الولاء للإسلام أو القومية، وغياب الطبقة الوسطى المتنورة وكذلك غياب المثقفين الفاعلين، وتقوقعها ضد كل ما هو أوروبي (مسيحي). ومن العوامل الخارجية وقف التوسع والغنائم بينما الدول الأوروبية أخذت في التوسع حتى سيطرت على الطرق والممرات المائية المؤدية إلى آسيا وأمريكا، وسيطرت هذه الدول كذلك على التجارة العالمية، ثم أخذت في استعمار العالم.

وقد كان علج علي رجلاً واعياً لدور الدولة العثمانية والأخطار المحدقة بها، لأنه جاء في عهد بدأت تظهر فيه ملامح الضعف على وجهها. وقد حاول أن يطعمها بطاقة جديدة عندما أتيحت له الفرصة في إدارة إيالات (ولايات) المغرب العربي، الجزائر، تونس، ليبيا. أو في إدارة الأسطول العثماني بعد ذلك، وكان في كل حياته العسكرية شاهداً على توسع، توسع من جهة ونمو الدولة الأوروبية من جهة أخرى، ولعله كان من الملاحظين الأذكياء لنتائج معركة (ليبانتو) التي كانت عبارة عن خط بياني (سنة 1571) لبداية التراجع العثماني.

وقد أحسن الأستاذ محمد سي يوسف تقديم هذه الشخصية الفذة في تاريخ الإسلام عامة وتاريخ الدولة العثمانية على الخصوص. ولا شك أن علج علي يهمنا أيضاً كجزائريين إذ أنه كان قد تولى على بلادنا بلقب (البايلرباي) الذي جعله حاكماً على

تونس وليبيا أيضاً، ومن ثمة فعاصمة المغرب العربي (عدا المغرب الأقصى) في عهده كانت هي مدينة الجزائر، وكان عهده يعتبر عهد استكمال لبناء الجزائر الإدارية والسياسية المعروفة اليوم، وهو البناء الذي أرسى قواعده عروج وأخوه خير الدين بربروس، فإذا كنا من أنصار فكرة الجزائر القطرية فالفضل في إنشائها يرجع بالدرجة الأولى إلى هؤلاء الرجال الذين جعلوا من المملكة الزيانية وجزء من المملكة الحفصية وإمارات سويد والثعالبة والذواودة وغيرها ـ جعلوا منها دولة الجزائر التي استمرت عدة قرون والتي أصبحت تدعي جلّادة المسيحية، والتي لم يعتد عليها إلا الاستعمار الفرنسي سنة 1830.

وفي ضوء التطور الذي يشهده العالم الإسلامي اليوم سيلاحظ القارىء أن الأستاذ سي يوسف قدم له شخصية إسلامية بارزة دافعت عن حدود الدولة الإسلامية، وقدمت خبرتها لدعمها، فعلج علي من هذه الناحية بطل إسلامي لا يقل بطولة عن بعض الفاتحين الأوائل، ولكن الأستاذ سي يوسف لم يكن فيما يبدو قد فكر في أنه كان يقدم هذه الخدمة للقارىء المعاصر عندما إختار علج علي موضوعا لهذا الكتاب، فقد كان هدفه كباحث هو خدمة التاريخ عامة ونشر صفحة من صفحات رجالات الدولة العثمانية وإبراز دورها في أحداث المغرب العربي وحوض البحر الأبيض المتوسط. أن هدفه من بحثه كان علمياً بالدرجة الأولى إذ كان البحث جزءاً من أعماله الجامعية التي بدأها منذ سنوات، ولكن الظروف الحالية جعلت بحثه عن علج علي يخدم في نفس الوقت العقيدة الإسلامية التي ساهم علج علي في الدفاع عنها، خصوصاً إذا عرفنا أنه كان مسيحياً واعتنق الإسلام، ومن ثمة لقبه (علج) حسب بعض الروايات.

لقد كان بحث الأستاذ سي يوسف قائماً على عدة عناصر تجعل منه بحثاً قيّماً حقاً. فقد جعل له خطة واضحة متدرجة وشاملة تدرس العصر وظروف الدولة العثمانية والصراع الإسلامي ـ المسيحي، وحياة علج علي ودوره في هذا الصراع ووظائفه في الجزائر وولايته أميراً للبحر أو وزيراً للأسطول الإسلامي، ثم دراسة شخصيته وما قام به من مآثر تعكس مواهبه واهتماماته. كما أن بحث سي يوسف قد اعتمد على مصادر غنية وجديدة إلى حد كبير. فبفضل معرفته للغة العثمانية استطاع أن يفيد البحث بوثائق هامة وأن يعود إلى أرشيفات العثمانيين أنفسهم وفي لغتهم الأصلية، كما أن معرفته للفرنسية قد سهلت عليه الاطلاع على ما كتب بها عن تاريخ الجزائر وتاريخ علج علي أو ما ترجم

إليها من لغات أوروبية كالإسبانية التي كتب كتابها، مثل هايدو وسرفنتيس، عن تاريخنا أيام كانت بلادهم دولة كبرى مهددة لبلادنا.

وأشهد أنني عايشت هذا البحث فترة طويلة وأن صاحبه الأستاذ سي يوسف كان باحثاً ملتزماً بالدقة والتمحيص والتحليل. فقد يكون أسلوبه جافاً نوعاً ما، ولكنه أسلوب المؤرخ الباحث عن الحقيقة وسط ركام الوثائق والمعلومات المضللة أحياناً. وأشهد من جهة أخرى أنه كان مخلصاً في بحثه ولم يكن يريد من ورائه شهادة علمية فقط كما يفعل بعض طلاب الجامعات هذه الأيام، ولكنه كان يهدف من ورائه إلى خدمة العلم والحقيقة، وبالطبع فإنه كان، كما يحس القارىء، يحاول أن يضع علج علي في مكانه بين آراء المؤرخين المتضاربة حوله، ومن ثمة فإن بحثه سيؤدي في رأيي خدمة جليلة لتاريخ الجزائر وتاريخ الإسلام، ونحن متيقنون من أن المعتبرين بالتاريخ سيلاحظون أن في كل فصل من فصول هذا الكتاب عبرة صارخة، «فاعتبروا يا أولي الأبصار».

الجزائر 24يناير 1991

دور المهجّرين الجزائريّين في بلاد الشام

لو سألت أحد المهاجرين الجزائريين خلال النصف الأول من القرن الماضي(*)؛ لم تتوجه إلى المشرق بينما غيرك يتوجه إلى أمريكا بحثاً عن الرزق والأمن والفرص، لربما قال لك بأنه يكفيه أن يعيش في أرض الإسلام ويساكن أهل العروبة، إذ معهم هم الرزق والأمن والفرص.

تبادر إلى ذهني هذا التساؤل وأنا أتصفح تاريخ الهجرة الجزائرية منذ الاحتلال الفرنسي 1830 إلى الحرب العالمية الأولى. ذلك أن معظم هذه الهجرة كانت نحو الشرق العربي والإسلامي، أما منذ الحرب العالمية الأولى فقد أصبحت نحو فرنسا بالخصوص، وهي الهجرة التي ما تزال الجزائر تعاني نتائجها غربة وأخلاقاً وديناً وتبعية أيضاً.

نعم، كان الأوروبيون يتوجهون إلى الولايات المتحدة (العالم الجديد) هروباً من الاضطهاد الديني والضغط السياسي وضيق العيش. وقد لحق بهم أيضاً عدد من المهاجرين العرب المسيحيين من بلاد الشام وما حولها، ونشأ بينهم التجار والساسة وأصحاب المال، كما نشأ بينهم الأدباء والشعراء والفنانون، وأصبح لدينا في المهاجر الأمريكية أدب عربي له طعمه وأسلوبه الخاص، ولكن المسلمين ظلوا متحفظين فلم يهاجروا من أوطانهم رغم تخلفها سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

وقد عمل الفرنسيون بعد احتلالهم للجزائر على جلب الهجرة الأوروبية إليها، فنادوا في العواصم الأوروبية إلى الهجرة إلى الجزائر، بلاد الفرص والمغامرات والعيش

(*)مقدمة كتاب (دور المهجرين الجزائريين إلى بلاد الشام) تأليف سهيل الخالدي.

الرغد، وأرض الشرق الذي أنجب شهرزاد وأبدع ألف ليلة وليلة، وعرف بلاط هارون الرشيد وملوك الطوائف. فتدفقت الهجرة الأوروبية نحو الجزائر من مدن البحر الأبيض ومن ألمانيا وسويسرا وبلجيكا وحتى من هولندة والبلاد الإسكندنافية، واقتسم المغامرون الأوروبيون أراضي الجزائر الخصبة وطوروا زراعتها وعمروها واستصلحوها ومدوا فيها الطرق البرية والحديدية وأنشأوا القرى على الطراز الأوروبي المتميز بالكنيسة والساحة والمدرسة والثكنة والمقبرة. وهكذا أصبحت الجزائر مستعمرة «استيطانية»، قطعة من أوروبا في رقعة من الشرق، كما كانوا يقولون.

أما أهل الجزائر فقد هاجروا وهجّروا معا. هاجر منهم عدد كبير من المدن والأرياف يوم استولى العدو على البلاد، وأيقنوا أن البقاء تحت «حكم الكافر» لا يجيزه الشرع. وتذكر المصادر أن مدينة الجزائر وحدها قد نقص عدد سكانها بأكثر من النصف سنة 1836. وخلت مدن عناية ووهران وبجاية والمدية وتلمسان ومستغانم من سكانها كذلك قبل أو أثناء احتلال العدو لها. وبالطبع فإنه ليس كل من خرج من مدينة قد هاجر منها إلى المشرق. فقد تفرق السكان في البداية خارج المدن انتظاراً لما ستسفر عنه الحرب، ولجأ آخرون إلى المدن والمراكز التي سيطر عليها الأمير عبد القادر، ولم يهاجر فعلاً إلى خارج الحدود إلاّ عدد محدود، وهم أولئك الذين لهم المال أو لهم العلم أو لهم إمكانات الاستقبال، وبذلك هاجر عدد من المثقفين والبرجوازيين الجزائريين إلى المشرق وهاجر بعضهم أيضاً إلى المغرب وتونس. ومن الأكيد أنه لم يهاجر منهم أحد إلى أمريكا أو حتى إلى فرنسا عندئذ.

أما التهجير أي حمل الأعيان والقادة والسياسيين على مغادرة بلادهم فذلك هو المقصود هنا. وهذه العملية قد بدأ تنفيذها منذ الوهلة الأولى للاحتلال. لقد بدأت باتهام العناصر الفاعلة في الساحة الدينية والسياسية بالتآمر ضد الفرنسيين أو بالارتباط بالأتراك أو بالانضمام إلى مقاومة الأمير عبد القادر، ونحو ذلك من الاتهامات. ومن هؤلاء رجال عثمانيون كانوا متقلدين لسلطات قضائية أو سياسية أو إدارية مثل البايات وأعوانهم، ومثل القضاة والمفتيين، وهكذا فإن الإسكندرية وأزمير والحجاز قد استقبلت الباي مصطفى بومزراق، والباي حسن بن موسى، والمفتي محمد بن العنابي، والمفتي مصطفى الكبابطي، كما استقبلت باريس حمدان خوجة، ومصطفى بن عمر وحمدان بن أمين

السكة، وغيرهم. وهم أولئك الذين شكلوا (لجنة الحضر) لمعارضة الاحتلال ثم طردهم الحاكم الفرنسي الجديد كلوزيل ثم خلفه رفيقو.

وقد امتاز عهد بوجو (1841 - 1847) بتهجير من نوع آخر لأعيان الجزائر، وهو النفي والطرد خارج الوطن. فقد حكم على كل مشبوه وكل زعيم سياسي أو إداري من الجزائريين لم يتعاون صراحة مع العدو، وأجبره على مغادرة وطنه وعائلته، ثم نقله قسراً إلى سجون نائية في جزر بعيدة مثل كاليدونيا الجديدة وكايان والمارتنيك وسانت مرغريت وغيرها، بالإضافة إلى سجون فرنسا نفسها، مثل سجن (الهام). إن هؤلاء الجزائريين لم يخيروا في منفاهم ولكنهم أجبروا إجباراً على الهجرة من جهة وعلى الإقامة بعيداً عن أرض الشرق والإسلام والعروبة من جهة أخرى.

وأثناء عهد بوجو بالذات فكر الجزائريون وعلى رأسهم الأمير عبد القادر في الهجرة الجماعية نحو الشرق. لعل ذلك كان مجرد خاطر، ثم أصبح همّاً سياسياً ودينياً. أنهم استحضروا تاريخ المسلمين الأوائل وهجرتهم بدينهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنورة. وقاسوا على ذلك ضرورة الهجرة بالدين من الأرض التي تغلب علٰيها الكفار. وجاء بعضهم بفتاوى العلماء بالهجرة أو عدمها من الأندلس عند تقدم الأسبان ضد المسلمين. وتدخل علماء الجزائر الذين دخلوا في خدمة الإدارة الفرنسية يقولون أن ذلك قياساً مع الفارق وأفتوا بضرورة البقاء في الوطن ولو تغلب عليه الكفار ما دام هؤلاء قد سمحوا للمسلمين بأداء شعائرهم.

واحتدم النزاع الديني والسياسي في الموضوع، وخافت السلطات الفرنسية من الفضيحة الدولية ومن اضطراب الجزائر وخلوها من السكان، فسارعت إلى تدبير مؤامرة تجعل المسلمين يعدلون عن التفكير في موضوع الهجرة أصلاً، فأرسلت الجاسوس الشهير (ليون روش) متنكراً في الزي العربي الإسلامي إلى أهل القيروان والأزهر ومكة، وجاء من علماء هذه الأماكن المقدسة عند المسلمين «بفتوى» أعدتها مسبقاً مصالح الاستخبارات الفرنسية وختمت عليها أيدي علماء الإسلام «الأعلام» في الأماكن المذكورة، ورجع بها ليون روش إلى الجزائر، فعلقت على جدران المساجد وقرئت في الخطب ونشرت في جريدة (المبشر) وسارت بها الركبان إلى الأرياف والآفاق، ونادى بها البراحون في الأسواق، وكلهم يقولون: لا للهجرة الجماعية للمسلمين ولا لحمل السلاح

في وجه الكفار ما داموا لم يتعرضوا للدين بالأذى وما دام المسلمون عاجزين عن إخراجهم من الجزائر بالقوة.

ولكن الهجرة والتهجير لم يتوقفا. ففي نهاية عهد بوجو (1847) وقعت الهزيمة بالأمير عبد القادر. والواقع أنه منذ حادثة الزمالة (1843) وسقوط المدن في أيدي العدو، وضياع عاصمة الأمير بالذات، والهجرة مستمرة، ولا سيما من الأعيان والقواد والعلماء. فبين التاريخين المذكورين هاجر قدور بن رويلة وأحمد بو ضربة، والكبابطي، وأحمد الطيب بن سالم، والمهدي السكلاوي، ومحمد الخروبي، وصالح السمعوني، كما أرغم على الهجرة بومعزة وحسين بن عزوز وإبراهيم بن أبي فارس (شريف ورقلة مستقبلًا)، وأخيراً خرج الأمير نفسه من الجزائر ورفقته عشرات من أتباعه وأقاربه وقواده. وتوجه بعضهم مباشرة إلى المشرق، وأجبر الباقي على البقاء معه في سجون فرنسا إلى أن أطلق سراحهم سنة 1852 فواصلوا رحلتهم إلى المشرق ولاسيما بلاد الشام.

وكلما نشبت معركة أو انتفاضة أو تغيرت السياسة الدولية أو الداخلية حَدَثَ تنشيط الهجرة إلى المشرق، (ولا نتحدث الآن عن تونس والمغرب). وهكذا كان مصير الحاج عمر زعيم الطريقة الرحمانية الثائرة في بلاد القبائل إذ هاجر بأهله وبولد الشريف بوبغلة وببنت الشريف مولاي إبراهيم إلى المشرق، بعد ثورة 1857 وهاجر أيضاً من جرجرة سي الجودي الزعيم الشهير الذي عاصر عهد بوجو وعهد راندون في الجزائر. أما ثورة 1871 فقد أدت إلى تهجير زعمائها وخصوصاً الشيخ سي عزيز الحداد الذي حمل إلى كاليدونيا وبعد سنوات طويلة هناك هرب إلى الحجاز، والشيخ الونوغي.

وكانت سياسة الدولة العثمانية الإسلامية وخوف فرنسا على الوضع الداخلي بالجزائر قد أجبرت الحاكم العام جول كامبون على تزوير فتوى جديدة تثبط المسلمين الجزائريين ضد الهجرة وتقاوم تأثير السياسة الإسلامية أو الدعاية العثمانية في الجزائر، وجول كامبون هذا (1891 - 1897) هو الذي أمر بدراسة نفوذ الطرق الصوفية ومعرفة ما كان منها «وطنياً» أي نابعاً من الجزائر وليس له فروع أو أصول في المشرق، وما كان منها «عالمياً» أو مشرقياً له فروع وأصول أخرى.

ولكن هذه المحاولات كلها لم تمنع من الهجرة الجماعية القوية التي حدثت سنة 1911. حقاً أنه قد سبق لعائلات وأفراد أن هاجروا إلى الحجاز أو الشام منذ أواخر القرن

الماضي، مثل عائلة الشيخ الطيب العقبي، أو منذ أوائل هذا القرن مثل عائلة الشيخ البشير الإبراهيمي وعائلة الشيخ حمدان الونيسي (شيخ ابن باديس)، ولكن الهجرة التي هزت وجدان الجزائر وأثارت مخاوف الفرنسيين هي هجرة تلمسان 1911 وما صاحبها من تداعيات أخرى في شرق البلاد ووسطها أيضاً. ومن أشهر المهاجرين عندئذ الشيخ محمد بن يلس زعيم الطريقة الدرقاوية.

إن السبب الظاهري لهذه الهجرة هو قانون التجنيد الإجباري الذي فرضته الإدارة الفرنسية على الشباب الجزائري استعداداً للحرب العالمية التي كانت على الأبواب، كما حدث فعلاً. لقد جاء ذلك القانون أثناء الحرب العثمانية ـ الإيطالية على ليبيا - 1912) (1911 وقيام فرنسا باحتلال المغرب الأقصى (1912) بل أنه جاء على أثر سقوط نظام السلطان عبد الحميد الثاني وانتصاب (لجنة الاتحاد والترقي) التي كانت مدعومة وموجهة من الحركة الصهيونية.

وهكذا لم تحن الحرب العالمية الأولى حتى كانت حركة الهجرة من الجزائر نحو المشرق قد بلغت أوجها وبدأت تأتي أكلها في شكل حركات سياسية ونواد ثقافية وأدوار قيادية وصلات وتواصل مع الوطن. ونحن نعرف أن طريق الحج كان أيضاً طريقاً للتواصل والتوصيل، كما نعرف من الوثائق أن علماء جزائريين آخرين قد زاروا الشام ثم رجعوا منه بأفكار ظلت محفوظة إلى حينها، ومن هؤلاء الشيخ سعيد بن زكري وعبد الحليم بن سماية ومحمد سعيد الزواوي، والأمير خالد، وعبد الحميد بن باديس وأحمد بن عليوة. ولكل من هؤلاء دوره في الحياة الفكرية والسياسية في الجزائر بعد ذلك.

ماذا فعل الجزائريون في الشام عبر رحلتهم الطويلة؟ وأين سكنوا وتوظفوا؟ وما علاقاتهم السياسية والاجتماعية؟ وما الدور الذي قاموا به من أجل وطنهم الأصلي ووطنهم القومي؟ أن هناك عدة دراسات حاولت أن تجيب على هذه الأسئلة وغيرها، ومنها في العهود الأخيرة دراسة الأستاذ عمار هلال[1]، والأستاذة نادية طرشون[2]. ولا شك أن هناك دراسات أخرى. وقد تعرضنا نحن إلى نفس الموضوع في كتابنا الحركة الوطنية الجزء الثاني.

---

(1) (الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام، 1847 - 1918)، الجزائر 1986.

(2) رسالة ماجستير بعنوان (الهجرة الجزائرية إلى المشرق العربي) كلية الآداب، دمشق، 1985.

ولكن الأستاذ سهيل الخالدي فاجأنا بعمل شامل حول الموضوع سماه: (دور المهجّرين الجزائريين إلى بلاد الشام في حركة التحرير القومي العربي، (1847 - 1987). ومما يلفت النظر فيه هو أنه لا يتناول المهاجرين من تلقاء أنفسهم وأنه لا يتحدث عنهم في جميع المشرق العربي وإنما في بلاد الشام فقط، وبالإضافة إلى ذلك هناك قيد آخر للموضوع وهو دورهم في حركة التحرير القومي العربي. أما التاريخ فهو ممتد ليشمل دورهم حتى اللحظة التي انتهى فيها من التأليف تقريباً.

إن تغطية موضوع بهذا الحجم الزمني من جميع جوانبه أمر يكاد يكون مستحيلاً. فالهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام سارت سيراً متعرجاً وخضعت لظروف داخلية وعربية وإسلامية ودولية. وقد تعددت أطرافها ومصادرها وأدوارها. ولذلك احتاج الأمر إلى استعداد قوي وإلى اطلاع واسع، وإلى وثائق عديدة، وأخيراً إلى قدرة كبيرة على التحليل والاستيعاب والاستنتاج والتفسير. والأستاذ الخالدي، الذي هو نفسه سليل أسرة جزائرية مهاجرة استوطنت عمق بلاد الشام، يعتبر أفضل من يتناول الموضوع من جوانبه المذكورة، خلافاً للذين تناولوه حتى الآن، فبينما عالج الآخرون الموضوع بشكل ربما محايد أو بطريقة خارجية هادئة، وجدنا الأستاذ الخالدي قد عالجه كطرف فيه، فهو يختار المادة التي تؤيد وجهة نظره، وهو يتبنى الموضوع ويتمثله داخلياً ثم يقوم بعرضه على القارىء في صورة مشوقة ومباشرة.

لقد سلك الأستاذ الخالدي في كتابه الضخم طريقة التبويب المعروفة اليوم في الأبحاث الجادة. فقسمه إلى أبواب وفصول وفقرات. ورجع إلى مصادر عربية عديدة، منها المخطوط والشفوي، بالإضافة إلى الصحف والتقارير. وجاء بالنصوص التي تؤيد وجهة نظره في شيء من الطول أحياناً، محيلاً على العديد من التعاليق. ومن أهم ما أنجزه أيضاً هو وضع بطاقات شخصية لعديد من الشخصيات، كما وضع قوائم للمؤلفات التي ألفها المهاجرون (المهجرون) وأحفادهم. وقد تتبع المهجرين في استقرارهم بالأرض وحصولهم على الوظيف واختلاطهم بالناس وصراعهم مع الحياة والمجتمع الجديد، وتفاعلاتهم السياسية والفنية والثقافية، وتلاطم زعمائهم في خضم السياسة الدولية والأحداث الكبرى التي عرفتها المنطقة.

وكان من الطبيعي أن يبرز هنا دور الأمير عبد القادر وأبنائه وأحفاده. فقد جعلت

منهم الأقدار ممثلين بارزين على مسرح الجزائر وسورية وفلسطين ومصر واليمن وطرابلس والمغرب الأقصى وإسطانبول. وسواء أكانوا مع الدولة العثمانية أو مع القومية العربية فإنهم كانوا هم المحركين للأحداث ابتداء من حادثة سنة 1860 في سورية. وهكذا وجدناهم وراء مشروع المملكة العربية في سورية والجزائر، وقناة السويس، وبحر قابس، وحرب طرابلس، والثورة العربية والجمعيات السرية القومية، والحكم العربي في سورية، وثورة المغرب الأقصى، وثورة فلسطين منذ الثلاثينات. أن الناس اليوم يعرفون الكثير عن الأمير عبد القادر في الشام، ولكنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن دور أبنائه: علي ومحيي الدين وعمر وعبد المالك، ودور حفدائه: سعيد وخالد وعبد القادر. ولكن الأستاذ الخالدي قد أبرز دور هؤلاء جميعاً بما يستحقون من العناية، رغم أن الضوء الذي سلطه عليهم لم يكن في نظرنا، متوازناً إذ نجد معلومات غزيرة عن الأمير سعيد مثلاً وحضوراً يكاد يكون دائماً له في الكتاب وهو أمر لم يحظ به غيره.

ولم تكن أسرة الأمير وحدها في الميدان. فقد ظهرت إلى جانبها أسماء لامعة من المهاجرين ساهم أصحابها في عدة ميادين تهم القضية العربية. ومن أبرزهم، بدون منازع، الشيخ طاهر بن صالح الجزائري المعروف بالطاهر السمعوني. فقد كان لهذا الشيخ فضل عظيم في بَعْث الثقافة العربية وتكوين جيل من الأدباء والمفكرين والسياسيين، بالإضافة إلى دوره في حزب اللامركزية وإنشائه وإدارته لعدة مؤسسات مثل المكتبة الظاهرية. وكان والده صالح السمعوني قد هاجر من قرى سمعون من نواحي بجاية، فولد له الشيخ طاهر في دمشق التي فيها نشأ وعاش وأعطى لها من جهده وعلمه الشيء الكثير.

ومن أسرة السمعوني أيضاً يبرز الضابط الشجاع سليم السمعوني (ابن أخ الشيخ طاهر). وكان سليم من أنبل وأهم قادة الحركة العربية التي كانت تعارض الحكم العثماني، فكان جزاؤه الشنق على يد جمال باشا المشهور بالسفاح سنة 1916 ضمن قائمة طويلة من شهداء القومية العربية.

أما عائلة المبارك التي هاجرت من دلس فقد اقتصر نشاطها على علوم الدين واللغة. فكان منها ثلاثة أو أربعة على الأقل من نوابغ الأدباء واللغويين في هذا العصر، اشتهروا ببحوثهم ومؤلفاتهم وعضويتهم في المجامع اللغوية.

وبقدر ما أفاض الأستاذ الخالدي في الحديث عن هذه الشخصيات بقدر ما كان شحيحاً حول بعضها الآخر. ذلك أننا لا نكاد نجد ذكراً لمصطفى بن التهامي صهر الأمير وخليفته على معسكر ورفيقه في امبواز ومؤدب أولاده في المهجر. وكان ابن التهامي من الأدباء أيضاً، وله شعر مخطوط، وكان من مدرسي الجامع الأموي. كما أننا لا نكاد نجد ذكراً لدور أحمد الطيب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر على حمزة (البويرة) وكان ابن سالم قد هاجر إلى المشرق قبل هزيمة الأمير بعدة شهور. وقد ظل دور البشير الإبراهيمي في سورية غير واضح، رغم قصر المدة التي قضاها هناك قبل رجوعه إلى الجزائر (1920)، وتذهب بعض الروايات الشفوية إلى أنه كان قد دخل في أحد المحافل الماسونية عندما كان في الشام، وهو ما فعله أيضاً الشيخ طاهر الجزائري في فترة سابقة.

وهناك نقاط مرّ عليها الأستاذ الخالدي مرور الكرام تاركاً الذهن ينتظر المزيد، ومن ذلك الإشارة إلى أن الأمير شكيب أرسلان قد ضمن للأمير سعيد بن الأمير علي بن الأمير عبد القادر بأن عمه الأمير عمر لن يعدمه جمال باشا، وأن الأمير أرسلان كان يضمر الحقد للأمير عمر وأنه كان على اتفاق مع جمال باشا في التخلص منه (الأمير عمر) وأن الأمير أرسلان قد رافق الشرطة التي جاءت للقبض عليه وقيادته إلى حبل المشنقة. أن هذه دعوى كبيرة تحتاج إلى دليل أكبر. فالمعروف بعد ذلك أن الأمير أرسلان كان من أبرز دعاة الفكرة القومية العربية وحركة الجامعة الإسلامية، وأنه لم يكن على وفاق مع قادة الدولة العثمانية لاسيما بعد أن أضاعوا ليبيا وقمعوا الحركة العربية وألغوا الخلافة ووقعوا تحت تأثير الصهيونية. وكان للأمير شكيب أرسلان علاقات هامة بقادة الحركة الوطنية الجزائرية، خاصة زعماء المغرب العربي عموماً خلال الثلاثينات والأربعينات.

وبهذا الصدد نذكر أننا تطلعنا في شغف إلى معرفة نقطتين ولو معرفة قليلة، الأولى: علاقة الأمير عبد القادر بالحركة الإسلامية، والثانية: علاقته بالحركة العربية. ونقصد بالحركة الإسلامية تلك الهزة التي أحدثها جمال الدين الأفغاني في السبعينات والثمانينات تحت اسم الجامعة الإسلامية. وإذا كان الأمير عبد القادر قد توفي سنة 1883 فإن نشاط الأفغاني خلال عقد السبعينات لم يكن ليخفي عليه. فقد تنقل الأفغاني بين مصر والهند وفارس وأوروبا، وكانت بلاد الشام أقرب فكرياً إلى مصر منها إلى فارس. وكان الأمير قد حضر شخصياً افتتاح قناة السويس (1869)، وكان الأفغاني عندئذ لاجئاً لا يستقر به مكان. أما تلميذه محمد عبده فقد كان يتنقل بين مصر والشام (بيروت؟)

وأوروبا، وقد التقى بالأمير عبد القادر عدة مرات، كما التقى بولديه محمد ومحيي الدين ويبدو أن الشيخ طاهر الجزائري وابن أخيه سليم السمعوني كانا من تلاميذ الشيخ عبده، إن البحث عن هذه العلاقات الحميمة والشخصية بين قادة الرأي عندئذ هو الذي كان سيعطي لبحث الأستاذ الخالدي قيمة خاصة وسبقاً علمياً لو أنه استطاع أن يرضي تطلعنا وشغفنا.

أما عن الحركة العربية فقد أشار الأستاذ الخالدي إلى الضجة التي انطلقت تدعو إلى إقامة كيان عربي في بلاد الشام تحت زعامة الأمير عبد القادر. وكان منطلق الضجة في نظره هو دور الأمير في إنقاذ آلاف الضحايا أثناء فتنة الشام سنة 1860. فقد استقطب الأمير بفعله الإنساني المنسجم مع روح الحضارة الأوروبية أيضاً، أنظار ملوك ورؤساء أوروبا بالإضافة إلى زعماء الكنائس والمفكرين والدبلوماسيين. وكان التجاذب حول شخصية الأمير قوياً جداً على المستوى الدولي. فكل دولة كانت تريد أن تظفر منه «بلفتة» لتتخذ منه وسيلة لترسيخ نفوذها في المنطقة. وكان الثالوث الظاهر لهذا التجاذب يتمثل في الدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا. وقد تعرض الأستاذ الخالدي إلى ظهور فكرة الكيان العربي عندئذ (الستينات من القرن الماضي) ومعاداة التسلط العثماني، ولكنه لم يشر إلى المشروع الفرنسي أيضاً، وهو المشروع الذي يرى في الأمير عبد القادر وسيلة ناجحة لإقناع القوميين العرب بحماية فرنسا لهم ضد الدولة العثمانية. وكان لذلك ثمن آخر أيضاً وهو شراء الهدوء في الجزائر وذلك بجعل الأمير منشغلاً عنها بقضايا الشرق. ولعل ذلك هو بالضبط الذي جعل الأمير يتريث في الاستجابة ثم يرفض الدخول أصلاً في تلك المغامرة الخطرة.

إن عمل الأستاذ الخالدي من التأليف الجمعي لا التحليلي. فقد جمع فيه الكثير من المعلومات من المصادر العربية المتوفرة حول أوضاع المهجرين. وفي سبيل ذلك كان يلجأ أحياناً إلى النقل الطويل من بعض المصادر، دون ضرورة، وتارة كان يقحم فصلاً أو أكثر كالذي عالج فيه الثقافة في العهد المملوكي أو الحديث عن الثقافة في الجزائر قبل العهد الفرنسي. ولعله من الأفضل لبطاقات التراجم وقوائم المخطوطات أن تأتي في شكل ملاحق للكتاب. ومن علامات الجمع في الكتاب أيضاً اتساع جوانبه ومحاولة الإحاطة بكل نشاط المهجّرين. وإذا كان هذا يصح في نوع التذكرات والكشاكيل، فإنه لا يصح في الأعمال العلمية التي تتطلب الضبط وحسن الاختيار وطرح

الغث وتناسق المادة وتغليب روح النقد. كما نلاحظ أن «الدور القومي» كان، رغم إبرازه في العنوان، مضبباً في الواقع. فلا يكفي في إبرازه ذكر شهداء الثورة العربية من الجزائريين وأعضاء الجمعيات السرية العربية منهم، والصراع بين الأمير فيصل من جهة والأميرين عبد القادر وأخيه سعيد، حفيدي الأمير عبد القادر من جهة أخرى، ولا المقاومة الفلسطينية الباسلة منذ الثلاثينات. إن الدور القومي للمهجّرين يتمثل أيضاً في الأفكار والتوجيهات والكتابات والتنظيم.

ولعله من فضائل هذا الكتاب أنك تقرأه وكأنك تقرأ قصة أو مقالاً أدبياً عذباً. ولا غرو في ذلك فمؤلفه أديب ماهر وصحفي لامع في ميدان الصحافة الأدبية، التي نفتقر إليها نحن في بلادنا. إننا نقرأ في هذا الكتاب رحلة المهاجر الجزائري عبر الزمن والأرض وداخل الأيديولوجيات والعقائد، إنها ملحمة إنسانية شاملة. أين منها رحلة التيه التي عاشها العبرانيون؟ وأين منها رحلة الأوديسة وأسفار كولومبس؟ لقد جاب الإنسان الجزائري الأقطار قسراً بينما الآخرون قد جابوها بمحض إرادتهم. وحيثما حل كان يعمر الأرض ويألف الناس ويبني الحضارة.

وما علينا إلا أن نجزل الشكر للأستاذ سهيل الخالدي على هذا الجهد الذي سيكون بدون شك، مرجعاً لكل من يتحدث عن هجرة الجزائريين أو تهجيرهم نحو المشرق في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يتوجهون إلى أمريكا، أو إلى الجزائر بحثاً عن الرزق والحرية، ليغتصبوا أرضاً ليست أرضهم ووطناً محتلاً بالحديد والنار. إنها لمفارقات الحياة أن يظل الإنسان الجزائري ينسج خطواته من المشرق إلى المغرب ثم من المغرب إلى المشرق، متتبعاً آثار أجداده الكنعانيين والفنيقيين والعرب. وقد آن لهذا الجزائري أن يعرف ما بنى الأجداد وأن يربط حاضره بماضيه ليدخل معركة المستقبل وهو شامخ الرأس ثابت الخطى.

الجزائر في 1991/7/9

"الأفعول" في الحميرية والبربرية

هناك عدة مصادر تشير إلى الصلة الوثيقة بين البربرية والحميرية، ولكن البرهنة على ذلك بطريق الأبحاث اللغوية الحديثة تكاد تكون منعدمة، فكانت تلك المصادر تكتفي عادة بالإشارة إلى الروايات التاريخية الشوفية أو الغامضة، معتبرة ما تأتي به مقبولاً مصدقاً دون نقاش. وها هي الأبحاث الأثرية تتقدم اليوم خصوصاً في اليمن والمغرب الأقصى وتكشف النقائش وغيرها عن أمور تؤكد أحياناً ما ذهب إليه القدماء. ومن ذلك البحث الذي نقدم خلاصته للقراء اليوم، وهو بحث الأستاذ «القاضي إسماعيل بن علي الأكوع» اليمني، والإشارة إلى بحث الأستاذ المغربي «عبد العزيز بن عبد الله».

فقد أهداني، مشكوراً، الشيخ الفاضل إسماعيل الأكوع، العالم اليمني الكبير في اللغة والأنساب وعضو عدد من المجامع اللغوية العربية، أهداني فصلة من بحثه بعنوان «الأفعول» وما جاء على وزنه من أسماء الأعلام والقبائل والبلدان في اليمن، الذي كان نشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 61، الجزء الثاني سنة 1986، صفحة (305/ 347).

وبناء على هذا البحث فإن قدماء اليمن قد استعملوا وزن الأفعول (بفتح الهمزة) صيغة جمع للأعلام والقبائل والبلدان كما صاغوا منه صفات. وأول من نبه إلى ذلك الحسن بن أحمد الهمداني، المتوفى في منتصف القرن الرابع الهجري، فقد ذكر الهمداني في كتابه «الاكليل» إن كثيراً من «قبائل حمير تأتي على الأفعول» على أنه جُمّاع (بضم الجيم وتشديد الميم) قبيلة. وأورد الهمداني أمثلة كثيرة لهذا الوزن في أسماء القبائل والبلدان والأعلام.

يذكر القاضي إسماعيل الأكوع في بحثه المشار إليه أن لاستعمال صيغة

«الأفعول» جذوراً قديمة في اللغة الحميرية، مثل «أبكلن» أي الأبكول على وزن الأفعول، و«أخمسن» أي الأخموس، و«أذمرن» أي الأذمور، إلخ. . . كما ذكر أن حرف النون في أواخر الكلمات إنما هي أداة للتعريف كما هو معروف في اللغة الخميرية، وأضاف الأستاذ الأكوع أن صيغة الأفعول «شائعة الاستعمال عند القبائل الحميرية» ثم عدد الأماكن المنتشرة فيما يعرف «بالبلاد الحميرية في اليمن». ثم قال إن القبائل الحميرية قد استمرت في استعمال تلك الصيغة حتى بعد هجرتها من اليمن إلى أقطار أخرى في عصور مختلفة.

واستشهد القاضي الأكوع على ذلك ببحث العالم المغربي، عبد العزيز بن عبد الله (مسؤول مركز تنسيق التعريب في الرباط ـ هيئة تابعة لجامعة الدول العربية)، المنشور في مجلة اللسان العربي، المجلد 15، سنة 1977، فقد ذكر ابن عبد الله في هذا البحث أنه ظل منذ ربع قرن وهو يجمع الأدلة على كون سكان المغرب حميريين «ولا سيما صنهاجة، ومصامدة الأطلس، وكتامة السهول». وأضاف ابن عبد الله قوله «وقد انضاف إلى الحجج الدامغة النابعة من الحفريات والآثار ووحدة الألوان الموسيقية والمعمارية واللهجوية بين البلدين (وهو يعني بذلك المغرب الأقصى واليمن)، هذه الحجة الجديدة التي تفسر لنا وجود هذه الصيغ ـ الأفعول ـ في أسماء أعلام بلدانية وقبيلية بالمغرب الأقصى مثل (أسنوس) و (أكنول) و (أرفود) وعشرات من مثيلاتها. وقد رتب ابن عبد الله هذه الصيغ على الحروف الهجائية في كتابه «معلمة المدن والصحراء» الذي هو الملحق الثاني في الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية.

وقد جمع القاضي الأكوع مائتين وثلاثاً وخمسين (253) صيغة لوزن الأفعول ورتبها هجائياً مع الإشارة إلى المصادر التاريخية التي وردت فيها كلما أمكنه ذلك، أو الاكتفاء بالشائع على ألسنة الناس في اليمن اليوم، ومن ذلك:

ـ الأبروح: اسم قبيلة.
ـ الأبروع: اسم قرية.
ـ الأجرون: اسم جبل.
ـ الأحبوش: سكان جبل حبشي (جبل ذخر).
ـ الأحبوس: اسم علم (الأحبوس بن زيد بن عوث).

ـ الأعدون: نسبة إلى عدن.
ـ الأجزوم: اسم رباط.
ـ الأفيوح: اسم واد.

وقد وثق القاضي الأكوع بحثه بالرجوع إلى العديد من المصادر التي ذكرها في التعليق وكذلك في نهاية بحثه.

ونحن نتمنى أن يتواصل مثل هذا البحث في الجزائر أيضاً على غرار ما فعل بعض إخواننا في المغرب الأقصى واليمن، ذلك إن الجذور اللغوية تعتبر من أقوى البراهين العلمية الحديثة على الصلات بين الشعوب، وهو بحث تقدم فيه غيرنا وما نزال في بداية الطريق، بل لعلنا لم نبدأ بعد(*)!

* * *

من الذين نبهوا إلى العلاقة بين الحميرية والبربرية الشيخ أبو يعلى الزواوي الذي قضى ردحاً من الزمن إماماً وخطيباً في جامع سيدي رمضان بالعاصمة. وقد توفي في حدود سنة 1952، فقد ذكر في كتابه (تاريخ الزواوة) ثم في أعماله الأخرى مثل جماعة المسلمين والإسلام الصحيح، كون البربرية حميرية الأصل. وله في ذلك استشهادات لغوية وتاريخية. والمعروف أنه من مواليد تيفريت الحاج ببلاد الزواوة.

كما أن الأستاذ علي أمقران السحنوني، بعث لي بقائمة مفصلة من الصيغ التي جاءت على وزن (الأفعول) في اللغة البربرية ـ القبائلية. وقد بادرت بإرسال نسخة منها إلى العلامة اليمني إسماعيل الأكوع، ليقارن بينها وبين ما يعرف هو عن الحميرية، وما جاء في (معلمة المدن والصحراء) للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله المغربي.

(*)نشرنا هذه الكلمة في جريدة (الشعب) عدد 15 يونيو (جوان) 1989. أما الفقرتان الأخيرتان فقد أضفناهما لاحقاً.

الحوض كتاب بالبربرية والحروف العربية

كثيراً ما يسألني الطلبة وبعض المواطنين عن الحروف التي كان البربر قديماً يكتبون بها، ويسألني آخرون عما إذا كان للبربر لغة مكتوبة أصلاً. وقد كثر هذا السؤال والتساؤل في هذه الأيام عندما كثر التقول على التاريخ من أناس لا علاقة لهم به. والشيء الثابت لدى المؤرخين القدماء أن البربر كغيرهم من الشعوب، كانوا قبائل عديدة، وكان لكل قبيلة لهجتها، وكانت حياتهم السياسية تابعة لإحدى الدول الكبرى التي فرضت سلطانها على مواطنهم. ولم يعرف التاريخ أن البربر قد توحدوا في أمة أو دولة، رغم ثوراتهم العديدة ومقاومتهم الشديدة لكل سلطان، حتى قيام نوميديا الذي جاء متأخراً نسبياً، كان معتمداً على التوازن بين القوتين الأعظم في ذلك الوقت، قرطاجة وروما.

وكما لم يؤسس البربر دولة واحدة كذلك لم يستعملوا لغة واحدة بحروف معروفة، رغم أن الدولة الأولى التي تعايشوا معها هي قرطاجة، مخترعة الأبجدية الأولى، وهي الدولة التي تربطهم بها صلة الرحم والموطن على فرض اعتماد الرأي القائل أن البربر كنعانيون كالفنيقيين. و«التفنيغ» التي هي على الأغلب فنيقية الأصل، لم تكن رموزاً للغة مشتركة بين كل البربر، وما يزال الباحثون لم يقرروا بشأنها حكماً نهائياً، وهي الرموز التي وجدت في أقصى الجنوب دون الشمال، والتي تعبر عن الصلة بالهيروغليفية المصرية أيضاً.

وهكذا كان البربر إلى الفتح الإسلامي بدون لغة مشتركة وبدن حروف يكتبون بها أصواتهم، فبقوا يعيشون على لهجات عديدة على حسب قبائلهم ومواطنهم، وليس لهم لغة مكتوبة مشتركة ولا أبجدية منسوبة إليهم عدا النسبة غير القطعية لرموز النقوش الليبية، أي أنهم ظلوا إلى القرن الثامن الميلادي بدون تراث مكتوب بلغتهم أو لغاتهم. وكان أدباؤهم ومعلموهم يكتبون بلغة الدولة المتسلطة، ومن المعروف أن القديس

أوغسطين ويوبا الثاني وغيرهما من المثقفين كانوا يكتبون بالإغريقية أو اللاتينية. ومن ثمة عدّ أدبهم ونثرهم أدباً ونثراً أوروبياً.

وبعد الفتح الإسلامي وانتشار لغة القرآن الكريم اندفع البربر، بشهادة جميع المؤرخين، لاعتناق الدين الجديد وتبني لغته، حتى لقد أصبحت العربية هي وسيلة التعبير الكتابي عندهم. ولم يجد المؤرخون المسيحيون من تفسير لسرعة اعتناق البربر للإسلام إلا أنه الدين البسيط الذي يناسب عقلية البربر، ولكن بعضهم، لأغراض معروفة، لم يفسروا طول المدة التي استغرقها انتشار الإسلام عندنا ببعد المسافة عن مركز الخلافة وبالاضطرابات التي شهدتها الخلافة نفسها عقب وفاة الخليفة عثمان وحروب الأمويين والعلويين، بل أرجعوا ذلك ـ أي طول المدة ـ إلى مقاومة البربر للإسلام.

أما لغة الكتابة عند البربر فقد أصبحت هي العربية، ولكنهم ظلوا يتكلمون لهجاتهم البربرية كما كانوا في الماضي خصوصاً بين غير المتعلمين وفي المناطق المنعزلة عن المدن والمراكز التجارية. وكانت هذه اللهجات تختفي تدريجياً في المناطق التي أقيمت فيها الدول والجيوش والبلاطات ومراكز العلم، إلى أن انحصرت في بيئات جبلية معروفة عند علماء اللهجات اليوم. وهكذا أصبحت العربية هي لغة الإدارة والتعليم والمعاملات، بينما بقيت البربرية الشفوية مستعملة في بعض العائلات والأسواق وغيرها من البيئات المشار إليها.

وما يبرهن على قوة اعتناق البربر للإسلام واستعمالهم للغته أن المؤرخين متفقون على أن البربر الذين تعربوا يعدون أضعافاً مضاعفة من الذين تلتّنوا (من اللاتينية)، وأن علماء البربر الذين ألفوا بالعربية في مختلف العلوم لا يمكن أن نقارنهم كثرة بأجدادهم الذين ألفوا باللغة الإغريقية أو اللاتينية. وبعبارة أخرى فإن البربر لم يسجلوا تاريخهم وتراثهم ومساهمتهم الحضارية إلا منذ فجر الإسلام.

ورغم انتشار اللغة العربية بين البربر وتقديسهم لها باعتبارها لغة دينهم، فإن بعضهم قد عبر عن خواطره أحياناً بالبربرية ولكن بحروف عربية، وكان هذا شائعاً بين المتعلمين منهم، أي أولئك الذين يريدون أن يوصلوا معلوماتهم إلى قرائهم بالبربرية. فالمؤرخون إلى الآن لم يحلوا لغز الخطبة الشهيرة لطارق بن زياد، هل كانت بالعربية أو بالبربرية، وفي كلتا الحالتين هل كانت شفوية أو مكتوبة؟ وقد شاع بينهم أن ابن تومرت

قد كتب تأليفه (أعز ما يطلب) بالبربرية، التي لعله أحسن بقوته فيها أكثر من العربية التي كان يعرفها جيداً أيضاً، أو لعله أراد أن يوصل تعليماته إلى قرائه من البربر أيضاً:

والواقع أن البربرية لم تكن شاذة في استعارة الحروف العربية واستعمالها في التعبير بها عن أصواتها. فالفارسية والتركية والأوردية والسواحيلية والهوسة إلخ. كلها كانت تستعمل الحروف العربية. غير أن سيطرة اللغات الأوروبية المحتمية بالاستعمار استطاعت أن تفرض على أهل اللغة السواحلية استعمال الحروف اللاتينية. ويعرف الجميع كيف استطاعت المؤثرات الصهيونية والاستشراقية أن تدفع بأتـاتورك إلى استبدال الحروف العربية باللاتينية في اللغة التركية، مستغلة مشاعر التوتر التي كانت بين العرب والترك. وآخر ما قامت به نفس الجهات هو وضع أبجدية لاتينية في فرنسا للبربرية لإبعادها أيضاً عن أختها العربية التي تعايشت معها واستعملت حروفها منذ أربعة عشر قرناً.

ومهما يكن الأمر فإن بعض الفقهاء من البربر كانت تحملهم الغيرة على الدين إلى محاولة توصيل معلوماتهم إلى قرائهم ليتعلموا أمر دينهم. ومن الكتب المؤلفة على هذا النحو كتاب (الحوض) لصاحبه محمد بن علي بن إبراهيم السوسي، والعنوان (الحوض) عنوان ذو دلالة جمالية ودينية، فهو عنوان فيه بلاغة وبيان يدل على ذوق سليم، إذ الحوض هو المورد الذي يلجأ إليه العطشان ليطفىء ظمأه، وهو أيضاً كناية على الماء العذب والطاهر الذي يزيل الأدران. ومن ناحية أخرى، وهو مقصود المؤلف، فإن كلمة (الحوض) ترمز للجنة التي بشر الله بها عباده المتقين الطاهرين، ولعل فيها أيضاً رمزاً صوفياً عند المؤلف الذي قال أنه كان من تلاميذ أحمد بن محمد بن ناصر مؤسس الطريقة الناصرية الشهيرة بالمغرب الأقصى.

إن (الحوض) كتاب في الفقه على غرار رسالة ابن أبي زيد القيرواني. ألفه السوسي بالبربرية وبحروف عربية، وجعله نظماً حيث بلغ جزأه الأول 960 بيتاً. وقام بنشر نصه مع ترجمة فرنسية المستشرق الفرنسي دونيس لوسياني الذي تولى إدارة الشؤون الأهلية في حكومة الجزائر أثناء العهد الاستعماري. وكان لوسياني من خبراء الاستعمار البارزين ومن المستشرقين المهرة الذين أتقنوا العربية والبربرية وترجموا منهما معاً إلى الفرنسية بالاستعانة، ربما، بعلماء الجزائر في اللغتين. فقد ترجم لوسياني إلى الفرنسية عقائد السنوسي في علم الكلام، والسلم المرونق للأخضري في المنطق،

وغيرهما. وقد نشر ترجمة للحوض في أعداد من (المجلة الإفريقية) ابتداء من عدد 221 وإنتهاء بعدد 224 (1896 - 1897).

وبناء على المعلومات التي ساقها لوسياني في التعريف بالمخطوط الذي ترجمه فإن نسخاً عديدة توجد من (الحوض)، منها واحدة في المكتبة(الوطنية) الجزائرية وهي التي اعتمدها في الترجمة، ومنها ثلاث نسخ في المكتبة الوطنية الفرنسية، وأخرى في مكتبة برلين. والمؤلف (الناظم) من أهل أوائل القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر هجري). وهو من علماء السوس وقد استدل لوسياني على ذلك من ذكر ثلاث تواريخ في نظمه أولها يرجع إلى سنة 1118 (1707)، وآخرهما إلى سنة 1126 (1714)، وهناك دليل آخر على عصر المؤلف وهو تصريحه بأنه من تلاميذ الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر، والمعروف أن شيخه المذكور قد توفي سنة 1717 ميلادية.

ويذكر لوسياني أن هدف السوسي هو نشر قواعد الفقه الإسلامي بالتمازيغت، أي البربرية بلهجة (وادي السوس) وهي المنطقة التي يرجع إليها المؤلف وهو من قبيلة (انداوزال). ولم يذكر لوسياني اين درس المؤلف وهل تنقل إلى عواصم العلم المغربية مثل فاس، وما إذا كان له مشائخ آخرون. وتدل عبارات المؤلف على أنه كان من رجال الدين العاملين وإن قصده هو هداية قومه ليعرفوا قواعد الإسلام ويتفقهوا في الدين على خير وجه. وقد افتتح الكتاب بالبسملة والتصلية، وطلب المغفرة من الله واعتذر عن الخطا بأن الله وحده هو الذي يحيط بكل شيء علماً، وحمده على إكمال عمله، وقال أنه كتبه بالتمازيغت ورجا أن يفهمه القارىء بهذه اللغة ويستفيد منه. وآخر عبارة في الجزء الأول منه هي «انتهى القواعد الأول (كذا) بحمد الله تعالى وحسن عونه»، وهي عبارات كلها بالعربية.

وبناء على لوسياني فإن السوسي قد لجأ إلى الإيجاز على حساب الوضوح في غالب الأحيان. وقال أنه اتبع في ذلك طريقة الشيخ خليل ابن إسحاق صاحب (المختصر) الشهير في المذهب المالكي. ولكن الشيخ خليل كان يتمتع، حسب لوسياني، بثقافة أدبية مكنته من الأسلوب الجزل غير المخل، على عكس السوسي الذي يبدو أن ثقافته كانت بسيطة. ويذكر لوسياني أنه بالمقارنة وجد أن السوسي قد اقترض كثيراً من الألفاظ العربية، مما ترتب عليه في نظره عدم البساطة التي تميز الأعمال الشعبية (العامية) مثل كتاب الحوض الموجه فيما يبدو، لقراء بسطاء عاديين.

وقد لاحظ لوسياني أن استعمال الألفاظ العربية في النص البربري قد اختلفت من أبيات إلى أخرى في النظم. مثلاً وجد أنه من البيت 301 إلى 311 توجد 33 كلمة عربية في مقابل 95 كلمة ذات أصل بربري. ومن البيت 661 إلى 670 هناك 53 كلمة عربية مقابل 68 بربرية. وبالجملة فإن الكلمات العربية في النظم قد بلغت حوالي الثلث. ولاحظ أن الكلمات العربية نفسها لم تبق على أصلها بل تبربرت متأثرة بالنطق البربري، ولم يحافظ منها على أصل نطقه العربي إلا القليل. وكانت أكثر الكلمات العربية تأثراً هي صيغ (الأفعال) التي تغيرت عن أصلها لدرجة أنه يصعب معها معرفة أصلها. وضرب لوسياني لذلك أمثلة من فعل (صلى) و(صام) اللذين تحولا في نظره إلى (يصول) و(يصوم).

واتبع السوسي في نظمه أبواب الفقه المعروفة. فبعد البسملة والتصلية وطلب الإعانة من الله على توضيح قواعد الإسلام الخمس، شرع في نظمها مبيناً أنه سيتناولها باباً باباً. وهكذا اتبع طريقة الأبواب معنوناً كل باب بموضوع مثل الوحدانية والصلاة والزكاة والصوم والحج على من استطاع، ثم عقد أبواباً للطهارة والوضوء والنواقض والغسل، والتيمم والحيض والنفاس، ونحوها من مسائل الفقه المعروفة.

هذا عن الجزء الأول من (الحوض)، أما الجزء الثاني منه فلم يتحدث عنه لوسياني، ولم نعرف موضوعه. ولعل السوسي قد تناول فيه نظم مسائل تتعلق بأصول الفقه، أو قد يكون شرحاً على النظم المذكور، لأن التلاميذ والقراء من العامة لا يفهمون النظم إلا بشرح مكتوب بعبارات نثرية واضحة ومبسطة.

وإليك بيتين من نظم السوسي بالبربرية والحروف العربية، كما أوردهما لوسياني:

مـضـروس نـكـرورلـيـن ادامّـن دغـمـكـانّ
دمـضـروس نـكـرد كّـان نـلـحـيـون لـبـحـرى
ديـنـيـتّـغـرسـن زغـلـحـيـون نـلـبـرّ اخـحـلّان
تـدوض دشّـعـر مـقـارد ويـنـيـلـف اخـتـلـسـي

الجزائر 1989/12/23

مرض ابن خلدون وأثره على تآليفه (*)

كاتب هذا المقال الهام، هو الدكتور محمود الجليلي الطبيب العراقي، والباحث اللغوي المعروف، ود/ الجليلي عضو في عدة مجامع لغوية، منها المجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو الآن رئيس لجامعة الموصل، وهو من بين الذين تشرفت بالتعرف عليهم في دورة المجمع الأخيرة بالقاهرة. كان كثير المشاركة بعلمه في الجلسات خصوصاً فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية. وقد جرنا الحديث الحر إلى ابن خلدون فعرفت أن للدكتور الجليلي بحثاً حول المرض الذي أصاب ابن خلدون بعد البرد الشديد الذي تعرض له عندما سلبه بنو يغمور (نواحي تلمسان) كل ما يملك حتى ثيابه ذات يوم وهو مسافر سنة 774 هـ من بسكرة إلى فاس لمقابلة السلطان عبد العزيز. وكان ذلك قبل سفر ابن خلدون إلى المشرق بحوالي عشر سنوات. وقد درس د / الجليلي أثر ذلك على صحة ابن خلدون وعلى آرائه في تآليفه، خصوصاً فيما يتعلق بأحكامه على عرب البادية أو الأعراب وموقفهم من العمران.

لم يدرس د/ الجليلي الظاهرة المذكورة استناداً إلى المعرفة العقلية فقط ولكنه اكتشف نسخة نادرة من تآليف المقريزي تلميذ ابن خلدون في القاهرة. والمقريزي معروف بتآليفه وتوثيقه. وقد عاصر ابن خلدون وعرفه عن كثب أثناء نضجه الفكري بل أثناء شيخوخته وعجزه. وعندما ترجم المقريزي لشيخه قال عنه بأنه مات وهو «أحوج ما كان إلى الموت» أشارة إلى المرض الذي كان يعاني منه والذي أرجعه الدكتور الجليلي إلى المرض المعروف بالتهاب المفاصل شبه الرثوي. وهو المرض الذي أصاب ابن خلدون عندما كان عمره 42 سنة وقبل أن يكتب مقدمته الشهيرة في قلعة ابن سلامة (776 هـ/ـ 780هـ).

(*)نشرت في (المجاهد) الأسبوعي 20 ابريل 1990.

ورغم أن المجمع العلمي العراقي يوافيني مشكوراً بمجلته الثمينة، فإن الأعداد القديمة منها تنقصني، ومقالة الدكتور الجليلي عن مرض ابن خلدون ترجع إلى سنة 1966(ص 243 - 246) [1]، وعندما أطلعت على مقالته صورتها من مكتبة المجمع بالقاهرة، وطلبت منه الأذن في نشرها بالجزائر فرحب. فهو يعرف الجزائر التي زارها مشاركاً في الأعمال العلمية، كما يعرف الدكتور سعيد شيبان الذي اشترك معه في لجنة (المعجم الطبي الموحد) إنكليزي ـ عربي ـ فرنسي. (ط. 3، سويسرا 1983).

وللمقريزي تآليف عديدة، بعضها مطبوع ومتداول. ولكن د/ الجليلي وجد معلوماته عن ابن خلدون في نسخة خطية من (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) للمقريزي. وقد نشر د/ الجليلي من هذه المخطوطة ترجمة ابن خلدون كما جاءت بقلم المقريزي في مجلة المجمع العراقي أيضاً (1963، ص 215 - 241). ثم كتب مقالة خاصة عن (مرض ابن خلدون) كما استخرجه من الترجمة المذكورة وعلق عليه بما ستراه.

ونحن لا يسعنا إلا شكر الدكتور محمود الجليلي على إذنه بإعادة نشر مقالته، واثقين أن القراء اليوم سيجدون في خبر المقريزي عن ابن خلدون وفي تحليل واستنتاج د/ الجليلي فائدة تضاف إلى معلوماتهم عن شخصية وفكر ابن خلدون الذي ما يزال يثير الحديث والنقاش رغم مرور ستة قرون على وفاته، رحمه الله.

الجزائر، 6ابريل 1990.

(1) مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 13، سنة 1966. اكتفينا هنا بنشر هذا التقديم والتعريف مع الإحالة على مقالة د. الجليلي لمن شاء الاطلاع.

رحلة البجائي إلى الحجاز (*)

القرن 9 هـ/ 15 م

أبو عصيدة أحمد البجائي من أدباء الجزائر في القرن التاسع الهجري. تعلم وعاش في الجزائر وتونس أثناء العهد الحفصي، ثم هاجر إلى المشرق العربي مبكراً، فمر بتونس ومصر والقدس وطرابلس الشام ثم استقر بالحجاز وجاور بالمدينة المنورة. وهناك ظل يراسل بعض الأعلام من وطنه الأصلي، مثل أبي الفضل المشدالي، الذي كان مستقراً عندئذ بالقاهرة.

و (رسالة الغريب إلى الحبيب) إحدى ثمرات هذه المراسلات. فقد بعث بها أبو عصيدة إلى المشدالي وضمنها طرائف أدبية وشذرات علمية وأخباراً عن الرحلة، كما أنه عرض فيها لكتاب آخر له سماه (أنس الغريب وروض الأديب) وهو الآن مفقود.

وقد حصلنا على نسخة شريطية (ميكروفيلم) من مخطوطة (رسالة الغريب) من مكتبة جامعة برنستون (امريكا)، وهي في قسم يهودا، رقم 1195، واستفدنا منها في أعمالنا عن تاريخ الجزائر الثقافي، وقدمناها في بعض المحاضرات، ولكن نص المخطوطة ظل يشغل بالنا إلى هذه اللحظة [1].

لقد أشار أبو عصيدة إلى الرحلة في قوله لصديقه المشدالى أنه كتب إليه بتاريخ ذي الحجة (حوالي 856 هـ) «رسالة عرفت فيها جميع ما تضمنته الرحلة المباركة من حين

(*) نشرت في مجلة (العرب) السعودية عدد اكتوبر نوفمبر 1990.

(1) ترجمنا لأبي عصيدة وأبي الفضل المشدالي، ودرسنا محتويات (رسالة الغريب) وأقسامها في بحث سينشر على حدة.

انفصالي من مقركـم إلى حين كتبي لمقامكم، وعرفت ببعض ما اعتراني من الشوق الملازم والذكر المتصل الدائم. » ثم ذكر أنه وجه الرسالة رفقة بعض الحجاج. وهذا يدل على أن هذه الرحلة المباركة «كانت من القاهرة إلى الحجاز».

وفي (رسالة الغريب) يخبر أبو عصيدة صديقه المشدالى بأنه قد حقق ما كان يصبـو إليه بنزوله بالحجاز وبالمجاورة في الحرم المدني، وأنه حقق الراحة النفسية واطمئنان البال، وأخبر فيها أنه كان يقضي أوقاته في التدريس، وخصوصاً كتب الصحاح، وشفاء القاضي عياض، ووصف حفلاً جرى في السنة المذكورة عند ختم الشفاء حضره العلماء وأنشد فيه أحد «المداح» ـ كما قال ـ «قصيدة جليلة أطربت جميع الحاضرين»، كما نظم أبو عصيدة نفسه قصيدة بهذه المناسبة، أولها:

سلوا من سلا ذكر الحبيب وما دنا ولم يدر أن القلب أولى لمن دنا

وهي قصيدة تعرض فيها إلى أحواله في الحجاز ولم ينس فيها ذكر سلطان الحفصيين عندئذ وهو أبو عمرو عثمان، وقد نعته «بسلطاننا ومالك أرضنا» مشيراً إلى أنه ما يزال متصلاً عاطفياً بأرض المغرب العربي وخصوصاً أقليم بجاية الذي كـان يتبع الدولة الحفصية التي كانت عاصمتها (تونس). وهكذا اغتنم أبو عصيدة هذه المناسبة الدينية فدعا بالخير وطول البقاء والتمكين للسلطان المذكور.

ثم أخبر أنه عندما تدخل الأشهر الحرم كان يرافق الوافدين على حضرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ووصف عدداً من هؤلاء الوافدين، ومناسك الحج، وأورد بعض الشعر له في ذلك منه قصيدة أولها:

بـفيض فـضلك حـقق سيـدي أملي ولا تـكلنـي إلى عـلمـي ولا عـمـلي

وأخبر كذلك أنه قد ورد عليه في الحجاز بعض المغاربة صحبة الشيخ أحمد القروي، أحد متصوفة تونس والمشتهر بأنه كان يجيء بركب الحج كل عام (ت 869)[1]. وأخبر أبو عصيدة أن الشيخ القروي قد لامه على البقاء في الحجاز، «وأطال العتب في ذلك والملام»، وكرر له النصح بالعودة إلى وطنه، وذكره بأحاديث وشواهد في هذا المعنى. ولكن أبا عصيدة رد عليه حججه وأصر على أن البقاء في مجاورة الرسول صلى

---

(1)انظر الضوء اللامع للسخاوي، 257/2.

الله عليه وسلم أفضل من كل شيء آخر، ولو أدى ذلك إلى الفقر والاغتراب.

هذا عن الرحلة الثانية للحجاز، أما الرحلة الأولى فلم نعرف وقتها ولكنه نـ
بقوله أنه كان قد جاء إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج، وأنه لم يبق عندئذ «إلا
أعوام» ثم رجع. وأخبر أنه لما وصل إلى تونس، بلد الشيخ القروي المذكور، سأ
علمائها وأعيانها الذين كان يعرفهم وكان يصاحب بعضهم، فما راعه إلا خبر و
ورحيلهم إلى العالم الآخر، «التقطهم الموت كما يلتقط الحب الحمام.» وقد
أيضاً، وهو بتونس، عن «عمن تركناه بالأوطان من الأهل والسكان والأتراب والأخو
ويعني بالأوطان هنا بجاية وما حولها حيث ولد وعاش، ولكنه علم أيضاً أن هؤلا
شتت شملهم هاذم اللذات. . . وصاروا في الأجداث والأكفان».

وكان أبو عصيدة يخاطب بهذا الشيخ أحمد القروي التونسي الذي نصحه بالـ
إلى وطنه، وقد أضاف أنه أثناء رجوعه إلى تونس كان قد مثل بين يدي الشيخ القـ
نفسه. ونستنتج من السياق أن أبا عصيدة قد أطال الإقامة في الحجاز أول مرة وأن
«بعض الأعوام» التي أشار إليها تعني سنوات طويلة، ما دام قد حدث بعده كل
التغيير في تونس وبجاية. وعلى كل حال فإن أبا عصيدة أخبر أنه لم يواصل السير
بجاية وأنه قد رجع من تونس إلى الحجاز عبر مصر، «فثنيت عند ذلك عناني،
خامر الوله قلبي ولساني».

والإشارة الأخرى إلى الرحلة (الثانية) هي قوله في (رسالة الغريب) مخـ
المشدالي أنه ينتظر منه إرسال بعض شعره ليضمه إلى ما جمعه له في كتابه (أنس الغر
وروض الأديب) وهو الكتاب الذي ما يزال مفقوداً ولا نعرف عنه إلا ما ذكره مؤلفه
عصيدة في (رسالة الغريب). ونلاحظ أنه قال عن (أنس الغريب) أنه جمعه أثناء ر
الثانية التي عبر عنها بقوله «مدة هذه الإقامة» وقال أنه كتاب «يسبي برونق آدابه الخو
والعقول، ويسلي على المعاهد والطلول» وقال أنه يحتوي على مقدمة وأبواب وفصو
وتهمنا هنا المقدمة التي ضمنها أخبار رحلته (الثانية) من تونس إلى الحجاز عبر مصـ
وقال أنه ذكر فيها بعضاً ممن لقيه خلالها، مفيداً أنه ابتدأ بورود «حفيدنا» مـ
المشدالي على تونس وكذلك ورود كتاب والد أبي الفضل المشدالي، وأنه تحدث
(أنس الغريب) عن أخلاق والد المشدالي.

واغتنم فرصة الحديث عن الشيخ المذكور فألمّ بوصف «حال الأوطان والأهل والجيران ونبذا من مآثر الأصحاب والإخوان، ثم من لقيته بطريقي في سائر البلدان إلى هذا الأوان» ونحن نفهم من هذا النص أن أبا عصيدة قد تعرض لأخبار من ذكر من بجاية وتونس ومصر والحجاز وغيرها من الأماكن التي مرّ بها أو كون بها صحبة.

وبعد هذا التعميم، خص لقاءه بأبي الفضل المشدالى بالقاهرة، وتوسع في ذلك ما دام هو المقصود بالخطاب في (رسالة الغريب)، لذلك قال أبو عصيدة: «ترجمت كتابي بترجمته الفاخرة العلية.» وأشار إلى أنه فصل القول عن رحلة المشدالى نفسه، المغربية والمشرقية، أي تنقلات المشدالى وأخباره في المغرب والمشرق، سيما في مكة والمدينة ومصر والقدس وبيروت وقبرص وطرابلس والشام. ثم تونس وتلمسان وقسنطينة.

وبعد ترجمة المشدالى، ذكر أبو عصيدة أنه ترجم أيضاً لعدد من العلماء الذين لقيهم بالحرمين الشريفين ومن ورد عليه فيهما من الزوار، «وبعض ما اتفق من الأحوال والأخبار.»

هذا عن مقدمة (أنس الغريب) أما بقية الكتاب فهي في العبادات والتبتل وأنواع الطاعات وما يحتاجه المريد من جميع الإرادات، كما ضمنه نكتا وآداباً ونوادر الخ. وبذلك جعله «خير جليس، ونعم الأنيس» ثم عدد مصادره التي استقى منها معلوماته وأخباره المذكورة.

ويهمنا أنه أخبر أن «بعض أصحابنا المجاورين» قد اطلعوا على هذا الكتاب ولا سيما ترجمة المشدالى فيه، منهم: فخر الدين عثمان الطرابلسي الشامي، وهو أحد مدرسي الحرم النبوي، وهو على مذهب الإمام أبي حنيفة، وله مشاركة في الشعر والأدب ومن تلاميذ شيخ الإسلام كمال الدين بن الهمام، المجاز من قبله. وكان الشيخ فخر الدين المذكور قد تعرف على المشدالى حين نزوله بطرابلس الشام أثناء رحلته المشرقية. ومنه استفاد أبو عصيدة أخبار المشدالى الموسعة في طرابلس.

ومن الشيوخ المجاورين الذين اطلعوا وأشادوا بكتاب أبي عصيدة وترجمة المشدالى فيه، أبو الفتح بن علي بن إسماعيل الأزهري المصري، وهو عالم لغوي وفقيه شافعي كان مدرساً بالحرم النبوي الشريف، وهو أيضاً من تلاميذ الشيخ كما الدين بن الهمام، وله اجازة منه. وأخبر أبو عصيدة أن العلماء اختلفوا في تقييم ترجمة المشدالى

وأرجع آراء بعضهم إلى «حمية نفسانية» وهو يعني بذلك الحسد، إذ لم يسلّم بعضهم أن يكون المشدالى هو أعلم علماء وقته في المشارق والمغارب. ومن العلماء الذين ذكرهم أبو عصيدة في الحرم النبوي أيضاً الشيخ أحمد الليدي (أو الأيدي).

وأفادنا أبو عصيدة أن الخلاف حول مكانة أبي الفضل المشدالي لم يحسم إذ قال: «وانقضى المجلس على هذا الشأن - من الخلاف - وما زالت الوحشة في الخواطر الآن».

ويتضح من هذا أن أبا عصيدة قد رحل مرتين إلى الحجاز وجاور طويلاً في كلتيهما. الرحلة الأولى غير محددة التاريخ، وقد قال عنها أنها دامت «أعواماً». فلما أخذ في الرجوع عبر تونس إذا به يفاجأ، وهو ما يزال في تونس، بخبر موت كل من كان عرفهم من الأعيان والعلماء والأهل والأخوان والأتراب سواء في تونس أو بجاية. فصمم على الرجوع إلى الحجاز من تونس وعدل عن مواصلة السير إلى بجاية. ومن ثمة تبدأ الرحلة الثانية.

أما الرحلة الأولى فلا نعرف عنها شيئاً تقريباً. وأما الثانية فهي التي ساق بعض أخبارها في كتابه (أنس الغريب) الذي ساقه بدوره في رسالته إلى المشَدّالـي والمعروفة بـ (رسالة الغريب إلى الحبيب)، وهذه الرسالة هي التي صورناها على الشريط، وأخذنا في تحقيقها.

ونرجـو أن نتمكن من نسخة أخرى منها، كما نرجو أن نتمكن من العثور على نسخة من (أنس الغريب وروض الأديب) الضائع.

الجزائر في 1990/5/16

الفـهارس العامة

فهرس الأحزاب والمنظمات السياسية

فهـرس الأعـلام

ـ ب ـ

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس البلدان والأماكن

ـ ت ـ

ـ ج ـ(*)

ـ ح، خ ـ

ـ د ـ

(*) لقد تم حذف اسم الجزائر ومدينتها لكثرة ورودهما في هذا الكتاب.

المحتوى

(*) تنبيه: رغم حرصنا على وضع الهمزة في موضعها من المتن، فإننا لاحظنا أنها لم تكن كذلك في كل الحالات، فنرجو المعذرة.

كـتب للمحقق

أ ـ في الأدب:

* النصر للجزائر (شعر)، ط. 3، 1986.
* ثائر وحب (شعر) ط. 2، 1977.
* الزمن الأخضر (ديوان سعد الله)، 1985.
* سعفة خضراء (قصص)، 1986.
* دراسات في الأدب الجزائري، ط. 3، 1985.
* شاعر الجزائر: محمد العيد، ط. 3، 1984.
* حكاية العشاق (تحقيق)، ط. 2، 1983.
* القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني، ط. 2، 1985.
* تجارب في الأدب والرحلة، 1984.
* مختارات مجهولة من الشعر العربي ط 2، (تحقيق)، 1991.

ب ـ في التاريخ:

* الحركة الوطنية الجزائرية جزآن (ثان وثالث)، 1983، 1986، ط. 3.
* أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر أربعة أجزاء، 1982، 1985، 1990، 1992.
* تاريخ الجزائر الثقافي، جزآن، ط. 2، 1985.
* الجزائر وأوروبا (ترجمة كتاب ولف)، 1986.
* شعوب وقوميات، 1985.
* حياة الأمير عبد القادر (ترجمة كتاب تشرشل)، ط. 2، 1982.
* محاضرات في تاريخ الجزائر (بداية الاحتلال)، ط. 3، 1982.

* تاريخ العدواني (تحقيق) - (عند الناشر).
* تراجم مشرقية ومغربية (تحقيق تاريخ عبد الحميد بيك) - في التحضير -.
* الحركة الوطنية الجزائرية - الجزء الأول - ط. 1، 1992.

ج - دراسات وأبحاث عامة:

* منطلقات فكرية، ط. 2، 1982.
* رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي، ط. 2، 1990.
* أفكار جامحة، 1988.
* قضايا شائكة، 1989.
* شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون، 1986.
* الطبيب الرحالة: عبد الرزاق بن حمادوش (دراسة)، 1982.
* رحلة ابن حمادوش (تحقيق)، 1983.
* منشور الهداية للفكون (تحقيق)، 1987.
* في الجدل الثقافي (عند الناشر).
* رسالة الغريب إلى الحبيب لأبي عصيدة البجائي (تحقيق)، 1992.
* La Montée du Nationalisme Algérien, 2e éd, 1985.

دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون البناية : 340131 تلفون مباشر : 350331 ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.: 113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم : 180 / 1500 / 4 / 1996

التنضيد : كومبيوتايب / بيروت

الطباعة : دار صادر ، ص . ب . 10 - بيروت

RECHERCHES ET OPINIONS SUR L'HISTOIRE DE L'ALGERIE

TOME 4

Par
Aboul - Kacem Saadallah
Professeur Université d'Alger

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

Aboul - Kacem SAADALLAH
Professeur
Université d'Alger

RECHERCHES ET OPINIONS SUR L'HISTOIRE DE L'ALGERIE

TOME 4

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI